مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الرابع والثلاثون

سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحجّ الآية 50

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الرّابِعُ والثّلاثون

سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 1-76-732-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 1-76-732-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّابِعَ عشَرَ

سُورَةُ الأَنبِيَاءِ

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 89 - 90]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

عطْفُ الإخراجِ من الرَّحم العقيمِ على الإخراجِ من الحوتِ الجسيم

لَمّا كانَ منْ شأنِ يونسَ عليه السلام أنْ أخرجَهُ اللّهُ تعالى مِنْ بطنِ الحوتِ إخراجًا غيرَ معهودٍ؛ عَطَفَ عليهِ ما كانَ من قصَّةِ زكريا عليه السلام في أنَ وهبَهُ الحقُّ سبحانَهُ ولدًا منْ بطنٍ لمْ يعهدِ الحملَ لما كانَ منْ مثلِهِ في اليأسِ والعقمِ[1]، فالمناسبةُ عطفُ معجزةِ الإخراجِ من بطن الأمِّ - الَّتي لا تلدُ - على معجزة الإخراجِ من بطن الحوتِ؛ لتكونَ الولادتان مختلفتين في الشَّكل والهيئة والأسباب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرۡدٗا﴾: والفردُ ما كانَ وحدَهُ منفردًا، ويوصفُ بِهِ الحقُّ سبحانَهُ؛ لتفرُّدِهِ بالأمرِ والرُّبوبيةِ من دونِ خلقهِ، وهو دالٌّ على الوحدةِ، ومنهُ الوترُ، وفردَ الرَّجلُ؛ إذا تفقَّهَ، واعتزلَ عن الخلق، وخلا بالأمرِ والنَّهي، والفردُ ما كانَ غيرَ مختلطٍ بغيرِه، وهوَ ما كانَ مستغنيًا عن كلِّ مركَّبٍ ونحوِهِ، وما كانَ لا نظيرَ لهُ؛ يُسمّى فردًا، وهو مِن صفاتِهِ تعالى، والفرديَّةُ: توحُّدُ الشَّيءِ وانعزالُهُ عمّا يشاكلُهُ، فلا يتَّصلُ به[2]، ومعنى الفردِ في الآيةِ، أي: وحيدًا بدون ولدٍ.

2) ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾: الوارثُ صفةٌ من صفاتِ الباري عز وجل، ومعناهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 468.
(2) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث، والراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرد).

الدّائمُ الباقي بعدَ فناءِ خلقِهِ، وهوَ الَّذي يرثُ الأرضَ ومَنْ عليها، والميراثُ الشَّيءُ الَّذي يكونُ لقوم، ثمَّ ينتقلُ إلى آخرينَ بنسبٍ أوْ سببٍ، ويكون الميراث حسّيًّا ومعنويًّا، ومعنى الوارثِين: الَّذين يرثون سابقيهم، فاللّه سبحانه وتعالى هو الوارث على الحقيقة[1].

3) ﴿وَأَصْلَحْنَا﴾: جذرُهُ اللُّغوي (صلح)، والاسمُ منهُ الصَّلاحُ، وهوَ نقيضُ الطّلاحِ، والإصلاحُ نقيضُ الإفسادِ، ويكونُ في الأعمالِ والأمورِ، والصَّلاحُ مختصٌّ بالأفعالِ كثيرًا، ويقابلُ بالفسادِ تارةً، وبالسَّيّئةِ تارةً أخرى، وإصلاحُ الإنسانِ يكونُ بخلقِهِ صالحًا، أو بإزالةِ الفسادِ عنهُ بعدَ وجودِهِ، وربَّما يعبَّرُ عن الشَّيءِ المائلِ للكثرةِ بكونِهِ صالحًا، وإصلاحُ الشَّيءِ بعدَ فسادِهِ يكمنُ في إقامته، وهوَ سلامةُ الشَّيءِ بعدَ التئامِهِ على حالِهِ الأصليَّةِ؛ ليكونَ تامَّ النَّفعِ والخيرِ لما أريدَ لهُ، أوْ وُجدَ مِنْ أجلِهِ كإصلاحِ الفاسدِ من الأشياءِ[2]، ومعنى ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾: أنَّها كانت عاقرًا، فجعلَها اللّهُ تعالى ولودًا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـــاءُ زكـريّا ﷺ جـامـعٌ بين الـحـرص على الـدَّعـوةِ وطلب الولد

تُخاطب الآيةُ النَّبيَّ ﷺ بأن يذكرَ زكريّا ﷺ حالةَ ندائِهِ ربَّهُ بأنْ يهبَ لهُ الولدَ، وألّا يتركَهُ وحيدًا، لا ولدَ لهُ ولا وارثَ، يقومُ بعدَهُ بأعباءِ الدَّعوةِ إلى اللّهِ تعالى، وإنْ لمْ تفعلْ - يا ربُّ - فالأمرُ لكَ، فأنتَ خيرُ وارثٍ، ولَمّا كانَ هذا دعاءَهُ؛ استجابَ لهُ الحقُّ سبحانَهُ، ولبّى نداءَهُ، فوهبَ لهُ ولدَه يحيى ﷺ، وأصلحَ لهُ امرأتَهُ بأنْ أزالَ عنها موانعَ الولادةِ، فأنجبتْ لهُ بعدَ الكِبَرِ والعقمِ؛ وإنَّ المذكورينَ من الأنبياءِ - ومنهمْ زكريا ومَنْ معهُ - كانَ مِنْ صفاتِهِمُ المبادرةُ إلى

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 4/ 329.

(2) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صلح).

(3) الثعلبي، الكشف والبيان: 18/ 248.

طاعتِنا، والتَّقرُّبُ إلينا، فإنَّهمْ ما استحقّوا ذلكَ إلّا لمسارعتِهم إلى الطّاعةِ وتحصيلِها، كما هو شأنُ المؤمنِ، وإنَّهمْ كانوا معَ مسارعتِهمْ تلكَ يفزعونَ إلى اللهِ رغبةً في ثوابِهِ، ورهبةً مِنْ عقابِهِ، وهم على مخافةٍ ثابتةٍ في القلبِ غيرِ مفارقةٍ له.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى العطفِ ودلالتُه:

استكمالٌ لصورِ الصَّبرِ الّتي لم تكن إلّا للخُلَّصِ من المؤمنين

قولُه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ معطوفٌ على ما سبقَ من ذكرِ الأنبياء السّابقين من لدنِ أيّوبَ وإسماعيلَ وإدريسَ وذي الكفلِ، ويونسَ ﷺ، أي: (واذكرْ عبدَنا زكريا ﷺ، كما ذكرت السّابقين، وانظر إلى هذا الصَّبرِ على عدمِ وجودِ الولد، مع شديد الاحتياجِ والشَّوق له)، فهي صورةٌ من صوَرِ الصَّبر على بلاء المنعِ.

اتِّساقُ السِّمةِ التَّعبيريَّةِ:

النِّــداءُ هو الجامعُ بين صوَرِ الصَّبرِ النَّبويِّ

انتقى النَّظمُ المعجزُ لفظَ النِّداء في هذه الآية، لتكونَ متَّسقةً في معانيها ومبانيها مع السّياق الواردة فيه، وهو المناسب لما حصلَ لزكريا ﷺ من انتفاءِ الولدِ الَّذي يرثُهُ، ويقومُ بأعباءِ الدَّعوةِ إلى اللّه من بعدِهِ، فحينها انقطعَ إلى ربِّه مناديًا؛ ليتماثل مشهدُهُ، ويتقارب مع مشهد بقيَّة الأنبياء الصّالحين، فإنَّ لكلِّ نبيٍّ نداءَهُ المتعلّق بصبرهِ، فمنهم من صبر على المرض، ومنهم من صبر على التقام الحوت له، وزكريّا ﷺ صبر على عدم وجود الولد، فكان لفظُ النِّداء هو الجامع بين هذه الصّورِ من الصَّبر النَّبويّ.

فائدةُ ذكرِ الرُّبوبيَّةِ:

عنوانُ الرُّبوبيَّةِ ألصقُ بالهبةِ ويفيضُ بالعطفِ والعنايةِ واللُّطفِ

في اصطفاءِ صفةِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ إشارةٌ إلى صفةِ الإحسانِ والإنعامِ على العبدِ من الحقِّ

سبحانَه؛ لما في هذهِ الصِّفةِ من صفاتِ العطفِ والحدبِ والعنايةِ واللُّطفِ والإحسانِ، وطلبُ هبة الولد ألصقُ بعنوان الرُّبوبيَّة؛ إذِ الرَّبُّ هو الواهب الخالق المرّبي اللطيف سبحانه.

غرضُ إضافةِ لفظِ الرُّبوبيَّةِ إلى الضَّميرِ:

أُضيف لفظُ الرُّبوبيَّة في قولِه تعالى: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ إلى الضَّميرِ العائدِ على زكريا ﵇ تحبُّبًا وتقرُّبًا[1] من المولى سبحانَه، فذلك أحرى بإجابةِ طلبِه وتلبيةِ ندائِه.

علَّةُ فصلِ الجملةِ:

جملة الدُّعاء بيانٌ لجملة النِّداء

فُصِلَت جملة ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾؛ لأنَّها مبيِّنةٌ لما قبلَها[2] من قولِه: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾؛ فإنَّ نداءَ زكريا ﵇ ربَّهُ، حقيقتُهُ دعوتُه إيّاه بأن يهبَهُ الولدَ، ولا يتركَهُ فردًا، لا وارثَ له، أو أن تكونَ من باب الاستئناف البيانيِّ، كأنَّ سائلًا قد سأل: فبماذا نادى ربَّهُ؟ فجاء الجواب ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾، والسَّببان متقاربان.

نكتةُ حذفِ أداةِ النِّداءِ:

قربُ القلوبِ من باريها يطوي الألفاظَ

القياسُ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ أن يكونَ بأداةِ النِّداءِ على تقديرِ (يا ربُّ)، غيرَ أنّه آثرَ حذفَها؛ لإظهارِ التَّقرُّبِ[3] من الحقِّ سبحانَه؛ لدلالتِها على البُعدِ، وأنَّ من شأنه أن يكونَ قريبًا، حاضرًا لا يحتاجُ في ندائِه إلى وسائطَ.

نكتةُ حذفِ ياءِ الإضافةِ:

موقفُ زكريا موقفُ التَّعجُّلِ لا التَّفصيلِ والإبطاءِ

كلُّ موضعٍ في القرآنِ الكريم فيهِ مقامُ تفصيلٍ؛ يأتي فيه بالياءِ الدّالَّةِ على الإضافةِ، ولّما كانَ مِنْ شأنِ زكريا ﵇ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ الإيجازُ، وطلبُ الولدِ في موقفِ التَّعجُّلِ والسُّرعةِ، فقدْ بلغَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 468.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 135.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 468.

من الكبرِ عتيًّا، ولمْ يتبقَّ من عمرِه ما يكونُ فيهِ متأنّيًا؛ حذفَ ياءَ الإضافةِ، فليسَ الموضعُ ههنا موضعَ تفصيلٍ وإبطاءٍ.

غرضُ الدُّعاءِ:

قولُه عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾، وإن كانَ لفظُه لفظَ النَّهي، إلّا أنَّ مثلَ هذهِ الصيغة إذا صَدَرَتْ مِنَ العبدِ لسيِّدِه، فإنَّها تُخَرَّجُ مخرجَ التَّضرُّعِ[1].

بلاغةُ استعمالِ لفظِ الفردِ على مَن لا ولَدَ له:

تشبيهُ مَن لا ولَدَ له بالمنفردِ الَّذي لا قرينَ له

أطلق النَّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿فَرۡدٗا﴾ على مَن لا ولدَ له لإرادةِ تشبيهِهِ بالمنفردِ الَّذي لا قرينَ له، ولأنَّ الولدَ يكونُ مع أبيه كالشَّفعِ؛ لأنَّه كالجزءِ منه[2]، وهذه الفرديَّةُ باعتبارِ الفرعِ لا الأصلِ، فإنَّ زكريّا مع والدِه ليس بفردٍ، لكن لمّا كان شيخًا كبيرًا، وهو بحاجةٍ إلى الولد؛ شبَّهَ نفسه بالمنفرد الفاقد للرَّفيق.

نكتةُ المجازِ بالحذفِ:

أدبُ الدُّعاءِ حاضرٌ في النَّظمِ واللَّفظِ والمعنى

عدلَ النَّظمُ عن صيغةِ الدُّعاءِ إلى الإخبارِ، فقولُه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾ دعاءٌ، وجملة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ إخبارٌ، فلم يقل: (وارزقني وارثًا)، وذلك أنَّ جملة الإخبارِ قد تضمَّنَتْ ذلك، فكأنَّه قال: ربِّ لا تذرني فردًا، وارزقني وارثًا، وأنت خيرُ الوارثين، ونكتةُ حذفِ هذه الجملة بيانُ أدب الدُّعاء، فإنَّه لمّا دعا بألّا يبقى وحيدًا؛ اكتفى به عن التَّصريح بطلب الولدِ، ثم ذكر جملةَ الخبرِ زيادةً في بيانِ الأدب الجمِّ.

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

مِن حسنِ الأدبِ الاستسلامُ والتَّفويضُ بعدَ السُّؤالِ والطلبِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ دالَّةٌ على الاستسلامِ والخضوعِ والتَّفويضِ له سبحانَه بعدَ السُّؤالِ، وكأنَّه

(1) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 68.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 135.

قالَ: (الأمرُ إليك بعدَ سؤالي، فإن لم يحصلِ المرادُ، ولم ترزقْني؛ فإنَّك خيرُ الوارثين)[1]، كما أنَّ في التَّعبيرِ بهذه الجملةِ - بعدَ ندائِه أن يهبَه اللّهُ تعالى الولدَ الوارثَ - قد بلغَ أقصى درجاتِ الأدبِ مع الحقِّ سبحانَه، فإنَّه جعلَ وراثةَ المولى ﷻ أولى من وراثةِ ذي القرابةِ القريبةِ[2].

دلالةُ استعمالِ صيغةِ التَّفضيلِ ﴿خَيۡرُ﴾:

الخيريَّةُ دالَّةٌ على شمولِ الإرثِ وبقائِه

لَمّا كانَ الحقُّ سبحانَهُ هو الغنيَّ عن الإرثِ، وكثيرًا ما يمنحُ إرثَ بعضِ عبيدِه عبيدًا غيرَهمْ؛ فهو تعالى الحقيقُ بأنْ يفعلَ في إرثِ زكريا عليه السلام من العلمِ والحكمةِ ما يحبُّه، ويرضاهُ بأن يهبَهُ ولدًا منَّةً منه وفضلًا[3].

فأوردَ الخبرَ بصيغة تفضيلٍ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، فـ﴿خَيۡرُ﴾ خبرٌ عن المبتدأِ ﴿وَأَنتَ﴾[4]، والمعنى: (أنَّ إرثَكَ "خيرُ إرثٍ؛ لأنَّه أشملُ وأبقَى، وأنتَ خيرُ الوارثينَ في تحقُّقِ هذا الوصفِ")[5]، فالخيريَّةُ ليستْ دالَّةً على تفضيلِ شيءٍ على شيءٍ، وإنَّما على شمولِ الإرثِ ودوامِه وبقائِه؛ فهي تحمل معنى المبالغة، أي: لا وارثَ خيرٌ منك.

فائدةُ ذكرِ صفةِ الوارثِ:

الوارثُ الحقُّ هو القاضي بالهبةِ والمنع

لَمّا أرادَ زكريا عليه السلام الثَّناءَ على ربِّه تمهيدًا لإجابتِه في جملةِ ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾؛ اختارَ من صفاتِه العليا ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾، أي: إنَّك أنت الوارثُ الحقيقُ بذلك، فأفِض عليَّ من صفتِك العليَّةِ هذه شيئًا من مطلوبي ومرادي، وذلك شائعٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ أن يذكرَ الدّاعي

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 69.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 91.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.

صفةً من صفاتِ الحقِّ سبحانَه، تتناسبُ مع مطلوبِ العبدِ ومرغوبِه ومن جنسِها[1].

بلاغةُ الاحتراسِ:

طلبُ الوارثِ لأجلِ النُّبوَّةِ والعلمِ والحكمةِ لا المالِ والمعونةِ

بعدَ أن نادى زكريّا عليه السلام ربَّهُ ألّا يتركَه فردًا، ويهبَه ولدًا يرثُه من بعدِه؛ عقَّبَ بكلامِه هذا بجملةِ ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ من بابِ الاحتراسِ[2] لا للمدعوِّ سبحانَه، بل هو احتراسٌ يقولُه المتكلِّمُ لنفسِه، ولمن يسمعُه من النّاسِ، فهو إرثُ النُّبوَّةِ والعلمِ والحكمةِ، لا إرثُ المالِ أو المعونةِ أو النُّصرةِ والأيدِ، ولو أريدَ ذلك؛ لكانَ التَّعقيبُ (وأنتَ خيرُ النّاصرين) ونحوه؛ ليكونَ الختامُ مناسبًا للابتداءِ؛ فإنَّه من سُبُلِ تحسينِ الكلامِ، وملتزمٌ في كلامِ الملكِ العلّامِ[3].

نكتةُ العطفِ بالفاءِ:

مناسبةُ سرعةِ الإجابةِ للمسارعةِ في الخيراتِ

والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ عاطفةٌ دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ من دونِ مهلةٍ؛ إذ جاء الجوابُ عقبَ سؤالِه[4]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الحقَّ سبحانَه عجَّل له الخيرَ؛ امتنانًا عليه، وفيه تناسبٌ لطيفٌ بين مسارعتِهم في الخيراتِ، وسرعةِ استجابتِه تعالى لدعائِهم.

معنى اللامِ ودلالتها ﴿لَهُۥ﴾:

عُدّي فعلُ الاستجابةِ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ باللامِ لدلالةِ ذلك على كمالِ الاختصاصِ بالداعي - وهو زكريا عليه السلام - وشدَّةِ العنايةِ به[5].

غرضُ العطفِ بالواوِ لا بالفاءِ:

إظهارُ الامتنانِ بالهبةِ لا تفسيرِ الاستجابةِ

آثر النَّظم استعمالَ الواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ لعطفِ جملةِ الهبةِ بالواوِ لا بالفاءِ؛ لأنَّه أرادَ بيانَ الامتنانِ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 135.

(2) الاحتراس أن يأتي المتكّلم بمعنى فيه دَخَلٌ وطعن، فيفطن له فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلّصه منه، يُنظر: القزويني، الإيضاح، ص: 192.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 576.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4910.

زكريا ﷺ، ولم يردِ التَّفسيرَ لعدم الاحتياجِ إليه، وعدمِ لزومِ التَّفسيرِ بالفاءِ[1].

فائدةُ استعمالِ لفظِ الهبةِ في رزقِ الأبناءِ:

الاستجابةُ محضُ هبةٍ ربّانيّة

حَسُن استعمالُ لفظ الهبةِ في رزقِ يحيى لزكريا ﷺ بقولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾؛ لما في معنى الهبةِ من الإعطاءِ من دونِ قانونِ التَّكوينِ الإنساني[2] للميلاد، ومن دونِ أسبابِه الطَّبيعيةِ الجاريةِ في البشرِ، فهو محض هبة ربّانيَّة استجابةً لدعوةٍ إيمانيَّة.

نكتةُ إسنادِ فعل الهبة لضميرِ العظمة:

هبةٌ تجاوزتِ المستحيلاتِ رحمةً بالعبادِ

وإذا نظرتَ إلى حالِ زكريا ﷺ، وهوَ في حدٍّ من السِّنِّ لا حراكَ به، وإذا نظرتَ إلى زوجِه؛ ألفيتَها في حالٍ من العقم ممّا لا يُرجى معهُ الحبلُ، ينضمُّ إلى ذلكَ تجاوزُها سنَّ اليأسِ[3]، فلمّا تضافرت هذهِ المستحيلاتُ عادةً، ووهبَ لهُ سبحانه وتعالى الولدَ؛ أسندَ فعلَ الهبةِ إلى ضميرِ العظمةِ بقولِه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ عظمتَهُ تعالى تخرقُ كلَّ المحالاتِ، ولبيانِ اختصاصِه بتلك الرَّحمة.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

من بليغِ الهباتِ اختصاصُها ببعضِ الأُعطيات

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾؛ لإفادةِ القصرِ فإنَّ هذه الهبةَ الرَّبّانيةَ، وولادةَ يحيى من دونِ أسبابِها التَّكوينيَّةِ إنَّما هي مقصورةٌ على زكريا ﷺ قصرًا إضافيًا في أنَّه لم يعهَدْ في زمانه أن وُلِدَ مثلُهُ من أبٍ طاعنٍ في السِّنِّ وأمٍّ عاقرٍ، فهو امتنانٌ خاصٌّ به، ورحمةٌ تنزل عليه دونَ سواه.

دلالةُ اسمِ ﴿يَحۡيَىٰ﴾:

الهبةُ كانت للولدِ والاسمِ والشَّهادة

لَمّا استجابَ الحقُّ سبحانَه لزكريّا ﷺ، ووهبَهُ الولدَ؛ وهب له

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 83.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 15/ 9632.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.

اسمَ ﴿يَحۡيَىٰ﴾ كذلك، فإنَّه يحيا على الطّاعةِ والعبادةِ في الدُّنيا، ويحيا في الكرامةِ والثَّوابِ المعطاءِ الجزيلِ في الآخرةِ[1]، ولمّا علم سبحانه وتعالى أنَّه سيموتُ شهيدًا - والشُّهداء أحياء عند ربِّهم يُرزقون - سمّاه يحيى، ففي الاسم إشارةٌ إلى خبرٍ غيبيٍّ سيكون له ﷺ، فتكونُ حالُهُ طباقَ تسميتِهِ في الدّارين.

سرُّ تقديمِ هبةِ الولدِ على إصلاحِ الزَّوجِ:

تقديمُ الغاياتِ على الوسائلِ للتَّنبيهِ على عظيمِ الفضلِ وكبيرِ الامتنانِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ هبةَ الولدِ على إصلاحِ الزَّوجِ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾، والتّرتيبُ الوجوديُّ أنَّ إصلاحَ الزَّوجِ مقدَّمٌ على هبةِ الولدِ، فيُسأل عن سرِّ تأخير ذكر إصلاح الزوج، والذي يظهر أنَّ اللّه تعالى أخبر عن الهبةِ أوَّلًا، باعتبارِها موضع المنَّة، وهي غاية الدُّعاء، ثمَّ ذكر إصلاحَ الزوج باعتبارِه الوسيلةَ، فالتَّقديمُ من باب تقديم الغايات على الوسائل، فتقديمُ الولدِ هنا أليقُ؛ لأنَّهُ مطلوبُ زكريا ومرغوبُه، وتقديمُهُ منْ بابِ الاهتمام، فإنَّه المطلوبُ الأعظمُ لزكريا ﷺ[2]، ثمَّ ثنّى بإصلاحِ الزَّوجِ تثنيةً لا يرادُ منها التَّرتيبُ الوجوديُّ، بل ذكر الغايةَ ثم الوسيلةَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الإصلاحِ:

الإصلاحُ شاملٌ للإنجابِ والتَّربيةِ وهو في البدنِ أظهر

جاء التَّعبيرُ بفعلِ الإصلاحِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾؛ لبيانِ أنَّ الإصلاحَ طرأ بعد فسادٍ، فجعلها صالحةً لأبوابِ الخيرِ كلِّها، خالصةً لهُ بعدَ أن أصابتْهُ منَّةُ اللّه عليهِ بأنْ وهبهُ الولدَ، فبعدَ أنْ كانتْ عقيمةً كبيرةً غيرَ صالحةٍ بوجهٍ يستطيعُهُ غيرُ اللّه تعالى[3]، ويجوزُ أن يكونَ إصلاحُه تعالى زوجةَ زكريا ﷺ بأن جعلَها مصلحةً في الدّينِ؛ فإنَّ هذا النَّوعَ من الإصلاحِ من أكبرِ أعوانِه

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 372.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 83.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.

في دعوتِه إلى اللّهِ تعالى، وكأنَّه ﵇ قد سأل ربَّهُ المعونةَ على الدُّنيا والدّينِ[1]، ولا مانع من ذلك فإنَّ إنجابَ الولد يحتاج إلى تربيةٍ وتأديبٍ وتعليم، ولا أنسب لذلك من مقام الأمِّ، وإن كان الأظهر أن يكون الإصلاحُ في شأنِ الإنجاب والولادة.

معنى اللّام ودلالتها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ دالَّةٌ على التَّعليلِ، ومعناها لأجلِه، فالإصلاح كان لزكريّا ﵇ وتكريمًا له، وأنَّه من عنايةِ الحقِّ سبحانَه به، وكان استجابةً لدعائِه.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعول:

تخصيصُ العبادِ بنوعِ رعايةٍ امتنانٌ ورفعةٌ

قُدِّمَ الجارّ والمجرور على المفعولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ والتَّخصيصِ، فقد كانَ ذلكَ الإصلاحُ خاصًّا بها من بينِ أهلِ زمانِها[2]، وفيه من الامتنان والحفاوةِ ما لا مطمعٌ في الاستزادة عليه.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

المسارعةُ في الخيراتِ كاشفةٌ عن بلوغِ المسرّات

جملةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مفترضٍ، فإنَّهُ لَمّا ذكرَ استجابتَهُ وهبتَهُ؛ قيلَ: فما حالهُم، أو شأنُهم وقد أكرمَهم اللّهُ تعالى بهذه الكرامةِ؟ فكانَ الجوابُ أنَّهم يسارعون في الخيراتِ، ويجدّون، ويرغبون في أنواعِ أعمالِ الخيرِ، وسائرِ الأعمالِ الحسنةِ[3].

بلاغةُ جملةِ التَّعليل:

من سارع في الخيراتِ؛ جوزي بالثناءِ والرَّحمات

جملةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ - وما تلاها - تعليليَّةٌ لما تقدَّمها من الجملِ في الثَّناءِ على زكريّا ﵇، أو ما ذكرَ من الأنبياءِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 182.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 83.

وما أوتوا من النَّصرِ والتَّمكينِ، وما استجيبوا فيه من الدَّعواتِ، وكيفَ أنجاهُم الحقُّ سبحانَه من كيدِ الأعداءِ والمتربِّصين ابتداءً من قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء: 48]، فالضَّمائرُ المجموعةُ عائدةٌ عليهم جميعًا[1]، أو على زكريّا وأهله كما سيأتي.

غرضُ توكيدِ الخبرِ:

التَّرغيبُ في الامتثالِ بحالِ السّابقين

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ بأداة (إنَّ) لأجلِ التَّرغيبِ في المسارعة في الخيرات، فليس المقصودُ بالتَّأكيدِ الرَّدَّ على شاكٍّ في الخبر، بل ليكونَ المخاطَب مشابهًا لأحوالِهم، وأنَّها ممّا يلتذُّ بذكرِه، ويعجبُ من أمرِه[2]، ولإفادةِ معنى التَّعليلِ والسَّببيةِ؛ فما كانَ استحقاقُهم ما أوتوهُ من الفضلِ والإنعامِ؛ إلّا لأنَّهم مبادرون إلى مسالكِ الخيرِ والجدِّ والمواظبةِ في تحصيلِها[3].

فائدةُ ذكرِ فعلِ الكونِ الماضي:

دَيْدَنُ النَّبيّين المسارعةُ في الخيرات

ذكرتِ الآيةُ فعلَ الكونِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ وفي إسقاطه فإنَّ المعنى يبقى قائمًا، وذلك للدَّلالةِ على أنَّهم ثابتون مستقرّون في أصلِ الخيرِ[4]، وأنَّهم ليسوا طارئين عليه، وللإيذانِ بأنَّ صفتَهم هذه قد جُبلوا عليها، وهُيّئوا لها أوَّلَ خلقِهم جبلَّةَ خيرٍ[5]، وللإعلام بأنَّ المسارعةَ هي ديدنُهم في حياتِهم كلِّها.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾:

استحضارُ فعلِ المسارعة وتصويرُه كأنَّه مشاهد

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والحدوثِ في مسارعتِهم لأفعالِ الخيرِ، وكأنَّ مسارعتَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 469 - 470.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 83.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 470.

تحصلُ الآنَ في مشهدٍ حاضرٍ تراه العيونُ، فهو أبلغُ وقعًا من التَّعبيرِ بالوصفِ الاسميِّ (مسارعين) الدّالِّ على الثُّبوتِ الخالي من الحركةِ، وهو أدعى في امتثال المخاطَبين.

تعيينُ مرجع الضَّميرِ:

الضَّميرُ راجعٌ لجملةِ الأنبياءِ أو لزكريا وأهلِه

أُسنِدَ فعلُ المسارعةِ في قولِه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ؛ لعودِه على المذكورين من الأنبياءِ عليهم السلام، فإنَّهم استحقّوا الإجابةَ منه تعالى لمبادرتِهم أبوابَ الخيرِ، ومسارعتِهم فيها[1]، ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى زكريّا وأهلِه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمسارعةِ:

المسارعةُ في الخيراتِ طريقُ الموفَّقين ومسلك المرضيّين

عبَّرَ النَّظمُ بالمسارعةِ في قولِه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾؛ لما يدلُّ عليه فعلُ المسارعةِ من المبالغةِ في الإسراعِ بالخيراتِ لمن يسابقُ الآخرَ في دلالةٍ على عظيمِ أفعالِهم[3]، والسّياق دالٌّ على المسارعة لا المسابقة؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم يُسارعون في الخيرات إن رأوا بوادرَها، لا أنَّهم يُسابقون غيرهم.

نكتةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

للتَّشبيهِ شأنٌ في تحفيزِ النُّفوسِ وتحريكِ الهمم

المسارعةُ في قولِه تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ من بابِ الاستعارةِ؛ للحرصِ والاهتمامِ وصرفِ الهمَّةِ والجدِّ لفعلِ الخيراتِ والفضائلِ؛ تشبيهًا للسّائرِ في مسارعتِه مداومةً واهتمامًا كي يصلَ إلى المكانِ المقصودِ الجادِّ في مسالكِه ومراميه[4]، فهو تشبيهُ القائم على الخيرات مداوِمًا عليها بمن يُسرع لبلوغِ مراده، فهي استعارةٌ تصريحيَّة، ونكتتها تصويرُ حال المداوم على الخيرات بالمسارع؛ لما في ذلك من تحفيز المخاطَبين على الامتثال.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 133.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 336.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 470.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 136.

المسارعةُ كائنةٌ في ميدان الخيراتِ لا خارجها

الدِّقَّةُ في استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

فِعلُ المسارعةِ يتعدَّى بحرفِ الغايةِ (إلى)، فيُقال: سارع إلى الشَّيءِ بأن يبادرَ إليه[1]، لكنّه جعلَها متعدّيةً بحرفِ الظَّرفيةِ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ اغترارِهمْ بتحصيلِ بعضِ الخيراتِ، بل الواجبُ عليهمْ إظهارُ الجدِّ والرَّغبةِ إلى تحصيلِ بعضٍ آخرَ منها، فجُعِلَتِ الخيرات ظرفًا للمسارعةِ لا إليها[2]، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم في دائرةِ الخيراتِ غيرُ خارجين عنها، كأنَّها تحيطُ بهم إحاطةَ الدّائرةِ بما فيها[3]، فهم يُسارعون في ميدان الخيرات لا يخرجون منه، وهذا من بديعِ استعمال حرف الظَّرفيَّة في القرآن.

نكتةُ إيثارِ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ على (الصالحات):

الخيراتُ غاياتٌ ووسائلها الأعمال الصّالحة

آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ دون (الصّالحات)، وذلك أنَّ الصّالحات كثُر استعمالُها في القرآن الكريم وصفًا للأعمالِ، فالعملُ يوصف بأنَّه صالح أو فاسد، أي: مشروع مرضيٌّ أو غير ذلك، أمّا الخيرات؛ فهي غاياتُ الأعمال الصّالحات، فالمسارعة هي أعمالٌ صالحة، وعليه فلا يُقال: إنَّهم كانوا يعملون الأعمالَ الصالحات في الصالحات، وإنَّما يُقال في الخيرات، فالخيراتُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه اللّه، ويرضاهُ، فيدخل فيه جميعَ وجوهِ الخير والبر، فالخيراتُ غاياتٌ، ووسائلُها الأعمالُ الصّالحةُ.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾:

جاء لفظُ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ معرَّفًا بالألفِ واللّامِ الدّالَّةِ على الجنسِ؛ لإفادةِ الاستغراقِ، ويُقصدُ منه جميعُ الخيراتِ والفضائلِ، وأعمالُ البرِّ والإحسانِ، وعمومُ أعمالِ الخيرِ.

---

(1) الجوهري، الصحاح: (سرع).
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 69.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4911.

نكتةُ تقديمِ المسارعةِ على الدُّعاء:

عَطْفُ فعلِ الدُّعاء ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ على فعل المسارعةِ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ هو من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إشارةً إلى أنَّ جملةَ الدُّعاءِ من توابعِ تلكَ المسارعةِ[1].

جملةُ الدُّعاءِ من توابعِ جملةِ المسارعةِ

فائدةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ ﴿وَيَدۡعُونَنَا﴾:

في استعمالِ صيغة المضارعِ ﴿وَيَدۡعُونَنَا﴾ فائدةُ التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ إيذانًا بأنَّ دعوةَ عبادِنا الصّالحين المؤمنين دائمةٌ مستمرَّةٌ، وأنَّها متجدِّدةٌ ساعةً فساعةً وحالًا فحالًا، وأنَّ هذا الحكمَ جارٍ في كلِّ زمانٍ، وهو دأبُهم على دعوتِنا إلى قيامِ السّاعةِ، وفيه تنبيهٌ لغيرِهم لأهميَّةِ الدُّعاءِ وأثرِه.

دعاءُ الأبرار ثابتٌ ما تعاقب اللَّيل والنَّهارُ

دلالةُ إيقاعِ فعلِ الدُّعاءِ على ضميرِ العظمةِ ﴿وَيَدۡعُونَنَا﴾:

جاء مفعولُ فعلِ الدُّعاءِ ضميرَ العظمةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا﴾، فلم يقل: (ويدعون اللّه)، وسرُّ ذلك أنَّ اللّه سبحانه وتعالى قد أخبرَ عن دعائهم، فرَضيَه، فأشعر برضاه عنه وقبولِه بأن ذكر الضَّميرَ الدّالَّ على العظمة، مع ما فيه من التَّحبُّبِ والرِّفق بهم، ففرقٌ بين مقامِ الغيبة، ومقامِ التَّكلُّم.

الإيماءُ إلى قبولِ الدُّعاء والتَّحبُّب من الدّاعين

نكتةُ تقديمِ ﴿رَغَبٗا﴾ على ﴿وَرَهَبٗاۖ﴾:

قُدّمَتِ الرَّغبةُ على الرَّهبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾، أي: رغبةً بثوابِه وجنَّتِه، ورهبةً وفزعًا من عذابِه ونقمتِه[2]، فالإنسانُ بطبعِه مجبولٌ على الخيرِ والطَّمعِ قبلَ الرَّهبةِ والفزعِ؛ لذلك قَدَّمَ مثلَه في سورةِ قريش في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: 4]، والمناسبُ للسّياقِ تقديمُ الرغبةِ، فإنَّ فيه طلبَ الولدِ، وهو

الأنسبُ بالسّياق العامِّ والخاصِّ تقديمُ الرَّغبةِ على الرَّهبة

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 84.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 440.

رغبةٌ ابتداءً في تحصيل الأنس والخير، وهو رهبةٌ انتهاءً لألم الوحدة وانتفاء الوارث.

ولّما كانَ قولُه تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ في سياقِ مدحِ أوليائِه والثَّناءِ عليهم؛ قدَّمَ الرَّغبةَ، ومعناه السَّعةُ، فهم لإيمانِهم يدعون ربَّهم حالَ رخائِهم، ثمَّ ذكرَ الرَّهبَ، وهو الخوفُ مع الاضطرابِ، فدعوتُهم حالَ رخائِهم، وحالَ شدَّتِهم وانزعاجِهم[1]، فإنَّهم ما ارتقت منزلتُهم عند بارئِهم إلّا بعرفانِهم ربَّهم في الرَّخاءِ قبلَ الشِّدَّة، ودعائِهم إيّاه في الأحوالِ كلِّها.

بلاغةُ إيثارِ الرَّغبةِ والرَّهبةِ على الرَّجاءِ والخوفِ:

الرَّغبةُ فوقَ الرَّجاءِ والرَّهبةُ خوفٌ مع التَّحرُّزِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ الرَّغبةِ والرَّهبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ على الرَّجاءِ والخوفِ، فلم يقل: (ويدعوننا رجاءً وخوفًا)؛ لأنَّ "الرَّغبةَ ألحقُ بالحقيقةِ من الرَّجاءِ، وهي فوقَ الرَّجاءِ؛ لأنَّ الرَّجاءَ طمعٌ يحتاجُ إلى تحقيقٍ"[2]، أمّا الرَّهبُ؛ فهو الخوفُ مع الحيطةِ والتَّحرُّزِ، وهو أوقعُ هنا وأبلغُ من الخوفِ[3].

دلالةُ ذكرِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

ديدنُ الموفَّقين ديمومةُ الأعمالِ الظّاهرةِ والباطنةِ

في سياقِ مدحِ عبادِ اللّه تعالى بالخشوعِ ذكرَ فعلَ الكينونةِ: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾؛ لدلالةِ ذلكَ على ثباتِ خشوعِهم واستمرارِهم فيه، وأنَّ الحقَّ سبحانَه ما استجابَ لهم، وما أنالَهم من فضلِه إلّا بهذهِ الخصالِ[4]، فلم يكن ديدنُهم الأعمالَ الظاهرة في المسارعة في الخيرات، بل كذلك في الأعمال الباطنةِ، وهي الخشوعُ والالتجاء إلى اللّه تعالى.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4911.
(2) الهروي، منازل السائرين، ص: 35.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 577.
(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 70.

كمالُ اختصاصِ الخشوعِ له سبحانَه

الخشوع الخاصُّ بالله تعالى دليل القبولِ وأمارة الوصول

خشوعُ الصّالحين عظيمٌ دائمٌ لا تقطعه المدلهمّاتُ ولا تفصله المهمّاتُ

الخشوعُ خوفُ القلبِ بالتّفكُّرِ مع سكون الأعضاءِ الظّاهرة

نوعُ اللام ودلالتها:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ دالَّةٌ على كمالِ الاختصاصِ في خشوعِهم وإخباتِهم لمن يدعونَه، ويرجون ثوابَهُ، ويخافون عذابَهُ، وهو الحقُّ سبحانَه؛ فلا خشوعَ لغيرِه تعالى، ولا خضوعَ لسواهُ.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ للحصرِ والتّخصيص، فإنَّهم نالوا من اللّه تعالى ما نالوا؛ لاتِّصافِهم بهذهِ الخصلةِ الحميدةِ، وهي أنَّهم كانوا خاشعين للّهِ وحدَه دونَ سواهُ، فهم لا يخشون إلّا اللّهَ ربَّهم وخالقَهم، ومع إضمار المجرورِ دونَ إظهارِه - فلم يقل: (وكانوا للّه أو لربِّهم خاشعين) - مزيدُ تحبُّب لهم.

فائدةُ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعلِ بالجمع ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ اسمِ الفاعلِ مجموعًا في قولِه تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ لأنَّهم كانوا على حالةٍ من الوجلِ والتَّضرُّعِ دائمة[1]، وبثباتِهم على خشوعِهم هذا نالوا ما نالوا من اللّهِ تعالى، ومجيءُ اسم الفاعل جمعًا ﴿خَٰشِعِينَ﴾ فيه دلالةٌ على عِظم خشوعِهم؛ فإنَّهم لمّا كانوا خائفين خوفًا عظيمًا؛ كانَ ذلكَ حاملًا لهم على الخضوعِ للّهِ تعالى، والانكسارِ له[2].

دقَّةُ استعمالِ مفردةِ الخشوعِ:

لمّا كانَ معنى الخشوعِ هو "خوف القلبِ بالتَّفكُّرِ دونَ اضطرابِ الأعضاءِ الظّاهرةِ"؛[3] عبَّرَ عنه بقولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾، فهو مرتبةٌ أعلى من مرتبةِ الخوفِ، وفي استعمالِ مفردةِ الخشوعِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 83.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 470.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 137.

بَداعةٌ وحُسنُ بيان، فقدَ آثرَها على مفردةِ الخضوعِ؛ لأنَّ الخشوعَ إخباتٌ، والخضوعَ لينٌ وانقيادٌ، فالأوَّلُ بالجوارحِ، والثّاني بالقلبِ، فاستعملَ الخشوعَ؛ لأنَّ المرادَ هنا دلالتُهُ على الاثنينِ معًا؛ لأنَّ الظّاهرَ علامةٌ على الباطنِ[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّركُ والوذرُ:

التَّركُ عامٌّ والوذرُ التَّركُ لقلَّةِ الاعتدادِ بالشَّيءِ

دعا زكريا عليه السلام ربَّهُ ألّا يتركَه وحيدًا من غيرِ ولدٍ يرثُهُ علمًا وحكمًا ونبوةً، فقالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾، فعبَّرَ بالفعلِ (تذرني)، وجذرُه من (الوَذْرِ)، ولم يعبِّرْ بفعلِ التَّركِ، ومعنى الوذرةِ قطعةٌ من اللَّحمِ صغيرةٌ[2]، فالفعلُ (يذر) دالٌّ على التَّخلّي عن الشَّيءِ إهمالًا له، وقذفَهُ لعدمِ الاعتدادِ به[3]، أمّا التَّركُ؛ فهو فعلٌ عامٌّ يطلقُ على التَّخلّي عن الشَّيءِ و"تخليفِ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي هو فيه، والانصرافِ عنه"[4]، ولَمّا كانَ زكريا عليه السلام حريصًا على التَّقرُّبِ من ربِّهِ ومولاه، فإنَّه دعا رَبَّهُ ألّا يذرهُ لما في هذا الفعلِ من التَّركِ مع عدمِ الاعتدادِ، ففي الدُّعاءِ خضوعٌ وتواضعٌ وإلحاح.

الفردُ والوحيدُ:

الفردُ الَّذي لا يختلطُ به غيرُه والوحيدُ من لا نظيرَ له

حكى الحقُّ سبحانَه عن زكريا عليه السلام قولَه: ﴿لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا﴾، فعبَّرَ بالفرديَّةِ عن خلوِّهِ من الولدِ الَّذي يرثُه، والفردُ: ما أفادَ الانفرادَ من المقارنِ، كقولِنا: فلانٌ فردٌ في دارِه[5]، أي: إنَّه غيرُ مقترنٍ مع أحدٍ، فهو قائمٌ وحدَه في دارِه، أمّا الوحيدُ؛ فيُستعملُ في الشَّيءِ الَّذي لا نظيرَ له، ولا شريكَ معه، ولا يشابهه أحدٌ، وهو ممّا يوصفُ به اللّهُ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 12/ 578.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وذر).
(3) الراغب، المفردات: (وذر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 400.

تعالى، وهذا لا يجوزُ في حقِّ زكريا عليه السلام، فإنَّه لم يكنْ ذاك مطلبَهُ، بل كانَ يريدُ أن يكونَ معهَ ولدٌ يختلطُ به، ويؤنسُه، ويدعو إلى اللهِ معه، ويرثُه من بعدِه.

المسارعةُ والمسابقة:

المسارعةُ ابتداءٌ نحوَ الخيراتِ والمسارعةُ الزّيادةُ فيها

في سياقِ مدحِه تعالى لعبادِه المتَّقين مثل زكريا عليه السلام وأهلِه وولدِه والأنبياءِ السّابقين، ذكرَ أنَّهم ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، فجاءَ بفعلِ المسارعةِ، والمعنى: أنَّهم كانوا منغمسين سابقًا في فعلِ الخيراتِ، وما زالوا يسارعون فيها[1]، ولم يقل: يسابقونَ؛ لما يعطيه فعلُ المسابقةِ مِنْ أنَّهمْ قدْ بدؤوا السِّباقَ الآنَ، حيثُ ينطلقُ المتسابقونَ، وإنَّما أرادَ من وصفِ الممدوحينَ في هذهِ الآيةِ أنَّهمْ يضاعفونَ من سرعتِهمْ، فيتحوَّلون منْ مجرَّدِ المسابقةِ إلى المسارعة، فإنَّهمْ قدْ تجاوزوا مرحلةَ المسابقةِ، وآيةُ ذلكَ التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيةِ ﴿فِى﴾ معَ فعلِ المسارعةِ، فهم ثابتونَ مستمرّونَ في أصلِ الخيراتِ، بخلافِ التَّعبيرِ بحرفِ الغايةِ (إلى) الدّالِّ على أنَّهمْ خارجونَ عنْ أصلِ الخيراتِ، لكنَّهمْ متوجِّهونَ، ويسابقونَ للوصولِ إليها[2]، فحاصلُ المسابقةِ: الابتداءُ نحوَ الخيراتِ، وحاصلُ المسارعةِ: الاستزادةُ منها، والاستمرارُ فيها.

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 17/ 90.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 181.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذِكْر العجيبِ إلى ذِكْر الأعجبِ في العائلةِ الواحدةِ والزّمن الواحد

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة فضائلَ المولى سبحانه وتعالى على عباده المُخلَصين، وكان آخر ما ذُكر ما كان لزكريّا عليه السلام من أمر الولد، وما تحقّق له من معجزة الإنجاب، حَسُن ذِكْر مريمَ وابنِها عيسى عليهما السلام؛ وذلك لما بينَهما من القرابة والصِّلة؛ و"لأنّ تلك موطِّئة لهذه؛ فإنَّها إيجادُ ولدٍ من شيخٍ كبيرٍ قد طعن في السِّنّ، ومن امرأة عجوز عاقرٍ لَمۡ تكُن تَلِد في حال شبابها، ثمّ يذكر قِصّة مريمَ وهي أعجبُ؛ فإنّها إيجادُ ولدٍ من أُنثى بلا ذَكرٍ"[1]، كما أنَّه حسُن التّنويه بشأن امرأةٍ عابدةٍ، بعد ذِكْر جملةٍ من الأنبياءِ الرّجال.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: (حصن) أصلٌ يدلُّ على المَنعِ والحِفْظِ والحياطَةِ[2]، والإحْصانُ: على وزنِ (إفْعالٍ)، وهو مصدرٌ مُشتَقٌّ من: أحْصنَ، يُحْصِنُ، إحْصانًا، يُقالُ: حَصُنَ المكانُ فهو حَصينٌ: إذا صار منيعًا، وكلُّ موضعٍ حَصينٍ لا يوصَلُ إلى ما فيه فهو حِصْنٌ[3]، وهو أيضًا: الدُّخولُ بِزَوْجٍ بِعقدِ نِكاحٍ، وامرأةٌ حَصانٌ: عَفيفَةٌ، وكلُّ امْرأةٍ عَفيفةٍ مُحْصَنَةٌ ومُحْصِنةٌ، وكلُّ امْرأةٍ مُتَزَوِّجةٍ مُحْصَنَةٌ لا غَيْرُ[4]، يُقالُ: أحْصَنَت المرأةُ، وتَحَصَّنَت إذا تَكَلَّفَت ذَلِك، وكذلك

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 371.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حصن).
(3) الثّعالبيّ، فقه اللُّغة، ص: 26.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (حصن).

الرَّجُلُ[1]، والإحصانُ في الآية مُراد به: جَعْلُ الشَّيءِ حَصينًا؛ أيْ: لا يُسْلَكُ إليه، ومعناهُ: مَنَعَتْ فَرْجَها عن الرِّجالِ وحفظته[2].

2) ﴿فَنَفَخْنَا﴾: (نفخ) أصلٌ يدلُّ على انْتِفاخ وعُلو، والنَّفْخُ: إخراجُ الرّيحِ من الفَمِ، يُقالُ: نَفَخَ بِفَمِهِ، يَنْفُخُ، نَفْخًا: إذا أخرَجَ منه الرّيحَ[3]، ويكون ذلك في الاستراحَةِ والمُعالجةِ ونحوهما، ونَفَخَ النّارَ بالمِنفاخ: هيَّجها وأذْكاها بريحه، والمِنْفَخُ والمِنفاخُ: آلَتُهُ، وهو ما يُنفخُ به[4]، ومن معاني النَّفْخِ أيضًا: ارتِفاعُ الضُّحَى، والفَخْرُ والكِبْرُ[5]، وقد أُطْلِقَ النَّفخُ في الآية تمثيلًا لإلقاءِ روحِ التَّكوينِ للنَّسلِ في رَحِمِ المرأةِ دَفْعَةً واحدةً[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأخلاقُ العاليةُ تُكرِّم صاحبَها فتجعله في المنازلِ العالية

عطفتِ الآيةُ الكريمةُ قِصَّة مريمَ وابنِها عليهما السلام على القَصَص السّابق مبيِّنةً صفةَ الإحصان الَّتي امتازت بها؛ والمعنى: "واذكر - يا محمّد صلى الله عليه وسلم - مريمَ البتولَ عليها السلام الَّتي أحصنت فرجَها وأعفَّت نفسَها وحفظتْها من كلّ عيبٍ وذَمٍّ"[7]؛ "فنفخنا فيها من جهة روحنا - وهو جبريل عليه السلام - حيثُ أمرناه بذلك؛ فامتثلَ أمرَنا فنفخ في جيب دِرْعِها؛ فكان بذلك عيسى ابنَها"[8]، وجعلناها وابنها آيةً على قدرة اللّه سبحانه وتعالى، فقد خُلق عليه السلام من غير أب، كما خُلق آدمُ عليه السلام من غير أبٍ وأُمٍّ، فجُعل عيسى عليه السلام آيةً للنّاس جميعًا، وذَكَر مريم هنا - وإنْ لم تكن من الأنبياء - لأجل ابنها عيسى عليهما السلام[9].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حصن).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 378.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفخ).
(4) ابن سِيدَه، المُحكَم، والزّبيديّ، تاج العروس: (نفخ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفخ).
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 138.
(7) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 554.
(8) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 247.
(9) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 554.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى العطفِ ودلالته:

عِـفَّـةُ مـريـمَ وإحـصـانُـهـا جعلها مذكورةً في درجِ النّبيّين

اسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ يجوز أن يكون معطوفًا على الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: 73]؛ أيْ: (ومريمَ جعلناها وابنَها - أيضًا - ممّن يُؤْتَمُّ بهم كسابقيها من الأنبياء والمُرسلين، كلُّ هؤلاء جعلهمُ اللّهُ تعالى أئمّةً يُهتدى بأمرهم ويُقتدى بهديهم)، وهي بما نالته من الإحصان والعِفَّة، رمزُ هُدًى تأتمُّ بها البناتُ والنّساء في كلِّ جيل وقبيلٍ؛ ولعلّ هذا وجْهُ ذِكْرِها معطوفةً على من جعلهمُ اللّهُ تعالى أئمّةً يهدون بأمر اللّه تعالى.

علّةُ التَّعريف بالموصول دونَ الاسمِ العَلَم:

اشتُهرت مريمُ بـمـا جــاء في جملة الصِّلة؛ فاستحقَّت أن تُكرّم به

المُراد بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّتِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ مريمُ، وقد آثَر النَّظمُ تركَ اسمِها الصَّريح، وهي "لم تكن من الأنبياء، والمَذكورون هنا جميعًا أنبياء"[1]، و"إنَّما ذكرَها وليست من الأنبياء، ليتمَّ ذِكْرُ عيسى ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾"[2].

وذِكْرها بالموصول من باب اشتهارِها "بمضمون الصّلة كما هو شأن طريق الموصوليّة غالبًا، وأيضًا لِما في الصِّلة من معنى تَسْفيه اليهود الَّذين تقوَّلوا عنها إفكًا وزورًا، وليبنيَ على تلك الصِّلة ما تفرَّع عليها من قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾؛ الَّذي هو في حُكم الصّلة أيضًا؛ فكأنّه قيل: والتي نفخنا فيها من روحنا؛ لأنّ كلا الأمريْن موجِبٌ للثّناء، وقد أراد اللّهُ إكرامَها بأنْ تكون مَظهرًا لعظيم قُدرته في خَرْق العادة البشريّة في سُنَن الحَمْلِ؛ ليرى النّاسُ مثالًا من

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 949.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 338.

التّكوين الأوّل، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]"(1).

والاسم الموصول - بما فيه من إبهام - يَفتقر إلى جملةٍ تَصِلُه وتَسُدُّ فَقْر دلالته، وجملة الصِّلة تُتيح دلالاتٍ لا تُتاح لو جاء التّعريف بالاسم الصَّحيح مباشرةً (مريم)؛ فالاسم الموصول ﴿وَٱلَّتِيٓ﴾ هَيَّأ لجملة ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾؛ فنبَّه إلى شَرَفها عليها السلام، وسبب وصْلها بالأئمّة الَّذين يُهتَدى بهم، ونوَّه بذلك إلى السّبب الَّذي بوَّأها تلك المنزلةَ السّامقة بينَ الرّجال الكُمَّل ممّن سبق ذِكرُهم من الأنبياء والسّابقين قبلَها، وفي صحيح البخاريّ عن الرّسول ﷺ: "كَمُلَ مِنَ الرِّجالِ كَثيرٌ، ولَمْ يَكْمُلْ من النِّساءِ إلّا آسيَةُ امْرَأةُ فِرْعَوْنَ، ومَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرانَ"(2).

بلاغة التّعريض بمُفردة الإحصان:

ذِكْرُ صفةِ العِفَّة تـعريـضٌ بمَـن وصفها بخلافِه

لَمّا اتّهم اليهودُ مريمَ عليها السلام بأنّها جاءت بأمرٍ فَري؛ ناسب ذلك ذِكرُ الإحصانِ للرّدّ عليهم والتّعريض بما قالوا، وزكّاها بأنّها محصنَةٌ عفيفة عن كلّ فِرية(3)، وقرّر أنّها "أَحْصَنَتْ فَرْجَها إحصانًا كليًّا مِنَ الحلال والحرام جميعًا كما قالت: ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝٢٠﴾ [مريم: 20]"(4)، و"حفظتْهُ حفظًا يَحِقُّ له أن يُذكر ويُتَحَدَّث به؛ لأَنَّه غايةٌ في العِفّة والصّيانة، والتّخلّي عن المَلاذ إلى الانقطاع إلى الله تعالى بالعبادة مع ما جمعت إلى ذلك من الأمانة والاجتهاد في متانة الدّيانة"(5)، وقد "كان التّبتُّل إذ ذاكَ مشروعًا للنّساء والرّجال"(6)،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 137.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، الحديث رقم: (3411).
(3) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 373.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 133.
(5) البقاعيّ، نَظْمُ الدّرر: 12/ 471.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 84.

فالإحصانُ إذًا دليلُ العِفَّة والطُّهر، فقد كانت عليها السلام من العِفّة والطُّهر كمَن تحصّنتْ بِحِصنٍ حصين، بحيثُ لا يُخلَص إليها، وعليه؛ فلفظُ الإحصانِ يتضمّن معنًى كِنائيًّا؛ إذ سيق معنى العِفّة مدعومًا ومُقرَّرًا بدليله، وهو الإحصانُ المُشتقُّ من الحِصن المانعِ من كلِّ ريبةٍ وتُهَمَة.

بلاغةُ ذِكر لفظة ﴿فَرۡجَهَا﴾ دون الاكتفاء بوصف الإحصان:

الإفصاحُ يحسم القضيّة ويُنهي شوائبَ الشُّبَه

آثَر النَّظمُ الكريم التّصريحَ بذِكرِ لفظة ﴿فَرۡجَهَا﴾؛ ليكون دَحْضًا مباشِرًا لِتُهمة اليهود، فقد اتّهموها تُهمة مُبَطَّنةً بالفُجور والزِّنى، حين واجهوها بقولهم: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27]؛ فباشر الذِّكرُ الحكيم ما لم يجرُؤوا على التّصريح به، هادفًا بصراحةٍ من شأنها أن تُخجِلهم وتُخزيهم.

بلاغة المَجاز المُرسَل:

إشارةُ الذّكْر الحكيم بتحصين المرأة فرجَها مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الجزئيّة؛ إذ مَدَحَها في حفظ جزءٍ واحد منها، لكنَّ المقصودَ حفظُها نفسَها كلَّها.

يُحتمل أن يكون المقصودُ بالفَرْجِ الدِّرعُ

ويُحتمَل أن يكون المقصود بـ ﴿فَرۡجَهَا﴾ "دِرْعُها؛ وهذا مُحتَمَل؛ لأنّ الفَرْج في اللُّغة: كلّ فُرْجة بين شيئَيْن، وموضعُ جيبِ دِرْع المرأة مشقوقٌ؛ وهو فَرْج، وهذا أبلغ في الثّناء عليها؛ لأنّها إذا مَنَعت جيبَ دِرعها فهي لِنَفْسها أمنع"[1].

وقد نقل القرطبيّ عن السّهيليّ قولَه: "فلا يذهبنَّ وهمُك إلى غير هذا، فإنَّه من لطيف الكناية؛ لأنّ القرآن أنزهُ معنًى، وأوزنُ لفظًا، وألطفُ إشارةً، وأحسنُ عبارةً .... لا سيَّما والنّفخُ من روح القُدُس بأمر القُدّوس، فأضِف القُدُسَ إلى القُدّوسِ، ونزِّه المُقدَّسةَ المُطهَّرةَ عن الظّنِّ الكاذب والحَدس"[2].

---

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 250.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 338.

سِرُّ العطف بالفاء في ﴿فَنَفَخۡنَا﴾:

عِفّةُ المرأةِ مفتاحُ سعادتِها

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخۡنَا﴾ سببيّةٌ عاطفة؛ لأنّ ما بعدَها مُسبَّب عمّا قبلَها؛ أيَ: تسبّب عن الإحصان النّفخُ، كأنّه قيل: لمّا كانت مريم عليها السلام بهذا الطُّهر والعِفّة والحَصانة؛ اخترناها مَحَلًّا لحمل عيسى عليه السلام ومَنبَتًا لكلمة الله تعالى؛ فما كان اللّهُ تعالى ليختارَ لحمل نبيٍّ رسولٍ بغيًّا، كما يتهمونها بذلك.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ النّفخِ:

التّعبيرُ بالنّفخِ تغليفٌ راقٍ لكيفيّةِ حصولِ الحَدَثِ الجليلِ

حقيقةُ النّفخ: "إخراجُ هواءِ الفم بتضييق الشّفتيْن، وأُطلِق هنا تمثيلًا لإلقاء روح التّكوين للنّسل في رحم المرأة دَفعةً واحدةً بدون الوسائل المعتادة؛ تشبيهًا لهيئة التّكوين السّريع بهيئة النّفخ، وقد قيل: إنّ المَلَك نفخ ممّا هو له كالفَم، والظّرفيّة المُفادة بـ (في) صريحةٌ في كون مريم ظرفًا لِحُلول الرّوح المنفوخ فيها؛ إذ كانت وعاءَه؛ ولذلك قيل: ﴿فِيهَا﴾؛ للإشارة إلى أنّ الحَمْل الَّذي كون في رَحِمِها حَمْلٌ مِن غير الطّريق المُعتاد، كأنّه قيل: (فنفخنا في بطنها)؛ وذلك أعرقُ في مخالفة العادة؛ لأنّ خرق العادة تَقْوى دلالتُه بمقدار ما يضمحِلّ فيه من الوسائل المعتادة"[1]، وعلى كلّ الأحوال ففي استعمال كلمة ﴿فَنَفَخۡنَا﴾ تغليفٌ وطَيٌّ مُهذَّب راقٍ لكيفيّة حصولِ هذا الحدث الجليل الَّذي حدث بلا أسبابه المعهودة.

نُكْتَةُ إسنادِ فعل النّفخِ إلى الضّمير:

الأمـرُ الجليلُ لا يكون إلّا منَ الجليل

إيثارُ الذِّكْرِ الحكيم إسنادَ النّفخِ إلى ضمير العَظَمة في ﴿فَنَفَخۡنَا﴾ دون أن يُسنده إلى الاسم الظّاهر يوحي بما له جل جلاله منَ "العَظَمة الَّتي لا يُداني أَوْجَها نقصٌ، ولا يَقربُ من ساحتها حاجةٌ ولا وهَنٌ"[2]، وقد دلّتِ الآياتُ الكريمات في مواضع أخرى على أنّ النَّفخ كان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 138.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 471.

من جبريل عليه السلام "ولكن لمّا كان بأمره سبحانه؛ صحّتِ الإضافةُ إليه تعالى"[1]؛ والمعنى: "أمرْنا جبريلَ حتّى نفخ في دِرعها؛ فأجرينا فيها روحَ المسيحِ كما تجري الرّيحُ بالنّفخ؛ وذلك أنّ الله تعالى أجرى فيها روحَ المسيحِ بنفخ جبريلَ، وأحدث بذلك النّفخِ عيسى في رحمها"[2].

بلاغة التّقييد بحرف (في) الظّرفيّة:

النّفخُ فيها كنايةٌ بديعةٌ واستعارةٌ لطيفةٌ عن الإحياء

في تعليق (النّفخ) بالجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ إشارةٌ إلى ما حلَّ فيها عليها السلام من البركَة، وأنّ البركَة عمَّتها كلَّها، وحلَّت في جميع كيانها، ويُحتمَل أن يكون معنى ﴿فِيهَا﴾؛ أيْ: في النّفس[3]؛ وفي ذلك إيحاءٌ بأنّ بَركَة الله تعالى عمَّت السّيّدةَ العذراءَ كلّها؛ لأنّ المَقامَ مَقامُ هدًى عامٍّ؛ ولذلك ذُكِر معها ابنُها عليه السلام: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ دون ذِكْر التّفاصيل، "والظّاهر أنّ قوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ كنايةٌ عن إيجاد عيسى عليه السلام حيًّا في بطنها، ولا نَفْخَ هناك حقيقةً"[4]؛ أيْ: "أحيينا عيسى كائنًا في جوفها؛ فقوله: ﴿فِيهَا﴾ حالٌ منَ المفعول المحذوف ... ففيه تشبيهٌ لإيراد الرّوح في البدن بنفخة النّافخ في الشّيء؛ فيكون ﴿فَنَفَخۡنَا﴾ استعارةً تبعيّةً"[5].

توجيهُ المتشابِه اللّفظيّ في مرجع الضّمير:

قد تنال الأُمّ المنزلةَ العاليةَ بسبب ابنها الشّريف

لسائلٍ أن يسأل عن سببِ تأنيث الضّمير في سورة الأنبياء، وتذكيره في سورة التّحريم: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التّحريم: 12]، والجواب: أنّه لمّا كان القصدُ في سورة الأنبياء الإخبارَ عن حال مريمَ وابنِها، وأنّهما جُعِلا آيةً للنّاس، وكان القصد التّعجّب من حالَيْهما، وأنّها بالنّفخ صارت حاملًا؛ ردَّ الضّمير إلى جملتها؛ إذ كان النّفخ

(1) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 521.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 250.
(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1528.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 463.
(5) حقّي، روح البيان: 5/ 520.

في فَرْجها نفخًا فيها، فأوجبَ القصدَ إلى وصفها بعد النَّفخ بصفةٍ ترجع إلى جُملتها دونَ بعضها، فكان قوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهَا﴾ أوْلى من قوله: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ﴾ [التحريم: 12]، وأمّا في سورة التَّحريم: فلمّا لم يكن القَصْد فيها إلى التّعجّب من حالها بالحَمْل عن النَّفخ، ولم يُسَق الكلامُ إلى ما سيق إليه في سورة الأنبياء من وصف حالِها بعدَ النّفخ؛ فاختلفا لذلك[1].

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتها:

تحتملُ (مِن) التَّبعيضَ والابتداءَ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ "حرف تبعيضيّ؛ ... أي: بعض جنسِ الرّوحِ الَّذي به يَجعل اللّهُ تعالى الأجسامَ ذاتَ حياة"[2]؛ فتفيد بأنّ حلول البَركةِ في السيّدة العذراء حصلت ببعض النّفخ، وبأيسر الأسباب، وأثمرَ أكبرَ البركات، ويمكن أن تكون ابتدائيّةً[3]؛ أي إنّ منشأ تلك الرّوحِ المنفوخةِ في أُمّ عيسى عليه السلام من عند اللّه تعالى بواسطة روح القُدُس عليه السلام، وفي ذلك التّشريفُ والتّكريمُ، والبَركةُ كلُّ البركة.

نُكْتةُ إضافةِ الرّوح إلى ضميرِ العَظَمة:

روحٌ من الله تعالى تنزلُ معه البركاتُ والتَّشريفاتُ والرِّفعةُ والطُّهر

أُضيف الرّوحُ إلى ضمير التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿رُّوحِنَا﴾ لتشريف مريمَ وعيسى عليهما السلام[4]، ودلَّتِ الإضافةُ كذلك "على عِظَم خُلوصِه وصفائه؛ أيْ: من روحٍ يَحِقُّ له أن يُضاف إلينا لِجلالته وطهارته؛ فكان من ذلك النّفخِ حَبَلٌ وولدٌ"[5].

وتُرهِصُ الإضافةُ بكراماتِ الوليد الَّذي يأتي من هذا النَّفخ الكريم، وذلك ما تجلَّى فورَ ولادته؛ إذ نطق بأبلغ الكرامات نُطقًا

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل، ص: 911 - 912.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 138.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 84.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 469.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 471.

فصيحًا: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 30 - 31]، وذلك كلّه من بركات نون العَظَمة في ﴿رُّوحِنَا﴾؛ "لأنّه روحٌ مبعوثٌ من لدن اللّه تعالى بدون وساطة التّطوّرات الحيوانيّة للتّكوين النّسليّ"[1]، ويُحتمل أن يكون معنى ﴿رُّوحِنَا﴾: "أمرنا؛ أيّ: نفخ فيها جبريلُ بأمرنا"[2].

فائدة العطف بالواو ومعنى الجَعْل في: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾:

التَّصييرُ من حالةٍ لأُخرى تشريفٌ وتكريمٌ لمَن أراد اللهُ له ذلك

العطف بالواو في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ دون (فجعلناها) يُفيد عمومَ جَعْلِها وابنَها آيةً قبلَ وبعدَ النّفخ، والجَعْل في حقِّ اللّه تعالى يأتي "بمعنى الخَلْق؛ ومنه قولُه تعالى في الأنعام: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، وهذه الأصل في الجَعْل، وبمعنى التّصيير؛ ومنه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 124]"[3].

وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ يحتمل المَعنيَيْن؛ لكنَّه في التَّصيير أجلى وأوضح، والمقصود: "قِصتَهما أو حالَهما"[4]، والتّعبير بالجَعْل يُظهِر العنايةَ الرّبانيّة بمريمَ البتول، وبابنِها عيسى عليهما السلام، وأنّه جل جلاله تولّى تكريمَهما ورفْعَهما، حتّى إنّهما ما كانا آيةً لبني إسرائيلَ فحسب؛ بل جعلَهما آيةً للعالَمين جميعًا؛ وذلك أنَّ مريم عليها السلام كانت موهوبةً مُحرَّرةً للّه ربِّ العالَمين سبحانه وتعالى، وابنَها عيسى عليه السلام جاء إلى الدّنيا من أُمٍّ دونَ أبٍ؛ بالعناية الإلَهيّة الخاصَّة دونَ بقيَّة البشر.

نُكْتَةُ إسنادِ فعلِ الجَعْل إلى ضمير العَظَمة:

تعظيمُ شأن مَن أراده الله تعالى آيةً للعالَمين

في إسناد جَعْل مريمَ وابنِها عليهما السلام آيةً للعالَمين إلى ضمير العَظَمة (نا) تنويهٌ بخصوصيّة ذلك الجَعْلِ، والإيحاءُ بأنّه لا يكون إلّا بعَظَمة لا يمتلكها إلّا العظيمُ سبحانَه وتعالى؛ وذلك أنّ عيسى عليه السلام جاء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 139.
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1528.
(3) ابن الجوزيّ، نُزهة الأعين النّواظر، ص: 229.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.

بكلمة ﴿كُن﴾ [آل عمران: 59]، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران: 59]، وسبحان مَن إذا أراد شيئًا أن يقول له: كُنْ؛ فيكون!.

نُكْتَة إطلاق ﴿ءَايَةٗ﴾ على مريمَ وابنِها:

من تكريمِ الله تعالى لعيسى وأُمّه عليهما أن صيَّرهما آيةً

لم تكن مريمُ وابنُها عليهما السلام في حَدّ ذاتِهما بوصفهما بشرَيْن من لَحْم ودمٍ آيةً، وإنّما جُعِلتِ الآيةُ فيما ظهر فيهما من "الأُعجوبة الّتي دلّت على قدرة اللّه"(1).

سِرّ اختيار لفظ ﴿ءَايَةٗ﴾ دون مُرادِفاتها:

الآيةُ موصِلةٌ لليقينِ ودافعةٌ للارتياب

أوثِرَ لفظُ ﴿ءَايَةٗ﴾؛ لأنَّها "الوسيلة لليقين بِقُدرته ومعجزاتِ أنبيائه، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، وبهذا الاعتبار حصل تشريفُ بعضِ المخلوقات؛ فأقسم اللّهُ بها؛ نحو: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [اللّيل: 1]، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشّمس: 1 - 2]"(2).

ففي جَعْل اللّهِ تعالى مريمَ البتولَ وابنَها عيسى عليهما السلام ﴿ءَايَةٗ﴾ إشارةٌ إلى ما فيهما من عَجَبٍ منذ دعتِ امرأةُ عمرانَ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ [آل عمران: 35]، وحتّى حصول حَمْل مريمَ بعيسى عليهما السلام بهذه الطّريقة العجيبة، وكذا وضعها ثمّ حديثُ ابنِها في مهده إلى بني إسرائيل مُرورًا برفْعه إلى نزوله للحُكم بشريعة نبيِّنا محمّد ﷺ آخر الزّمان(3)، كلّ ذلك فيه من العَجَب والغرابة على دنيا النّاس ما يجعلُهما ﴿ءَايَةٗ﴾ من آيات اللّه تعالى.

سِرُّ التّعبير بالإفرادِ ﴿ءَايَةٗ﴾ دونَ التّثنية:

مريمُ وابنُها عليهما السلام آيـةٌ مُتكاملةُ الأركـان من جميعِ النَّواحي

منَ العَجب أنْ جعَل اللّهُ تعالى مريمَ - الموهوبة لامرأةِ عمرانَ - خيرًا من الذَّكَر المطلوب، ثمّ في قِصَّة حَمْلها بعيسى عليهما السلام، ثمّ في

(1) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 3/ 251.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 139.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 472.

ولادته بلا أبٍ، وفي كلامه عليه السلام في المهد؛ كلّ ذلك جَعَله اللّهُ تعالى آيةً واحدةً؛ لأنّه لمّا كان شأنُهما واحدًا، وكانتِ الآية فيهما جميعًا جاز أن يقول ﴿ءَايَةً﴾[1]، فبين مريمَ وابنِها حالةٌ مُشتركَة هي آيةٌ واحدة، ثمّ في كلٍّ منهما آيةٌ أُخرى مُستقلّة باختلاف حال النّاظر المُتأمِّل[2]، والمراد الجنسُ الشّامل لِما لِكلّ واحدٍ منهما من الآيات المُستقلّة[3].

نوعُ اللّامِ ومعناها:

قِصّةُ مريم وعيسى عليهما السلام عبرةٌ عامّةٌ واعتبارٌ شاملٌ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للاختصاص والتّعليل؛ فقد جعلتْ مريم وعيسى عليهما السلام ﴿ءَايَةً﴾ تخصُّ كلَّ النّاس، وينتفع منها كلُّ الأُمم في ترسيخ الإيمان بعظمة اللّهِ تعالى وقدرته المُطلقة، سواء مَن كان من أُمَّة عيسى عليه السلام، ومَن لم يكن منها.

معنى التّعريف الجمعيّ:

كلُّ عاقلٍ سمع بهذه الآية استدلَّ بها على عجيب القُدرة وعظيمِ الرّحمة

التّعريف في لفظ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للاستغراق والعموم؛ فكلُّ مَن يقف على قِصّة مريم وابنها عليهما السلام لا يتمالك إلّا أن يقول بلسان الحال أو بلسان المقال: سبحانَ اللّهِ وبحمده سبحانَ اللّهِ العظيم؛ تعظيمًا لقُدرته، وخضوعًا لعَظَمته جل جلاله؛ فقولُه تعالى: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ "وإن لم يهتدِ بهما جميعُ النّاس، لكنّهما كانا ﴿ءَايَةً﴾، ومَن نظر في أمرهما، ووضع النّظر موضعَه لاهتدى، وإذا أعرض ولم ينظر؛ فالآيةُ لا تَخرج عن كونها حُجّةً ودلالةً بتقصير المُقَصِّر في بابها"[4]، وقد رويّ "عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: الجنّ والإنس"[5]، وقال غيرُه: "يُريد لِمَن عاصره فيما بعد ذلك"[6].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 404.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 139.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 522.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 371.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 98.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحصانُ والمحافظةُ:

الإحـــصـــانُ: الــعِــفّــة، والمـحـافـظـة: التّعهُّد والرّعاية

"أصل الإحْصانِ المنعُ، والمرأة تَكونُ مُحْصَنةً بالإسلام والعَفافِ والحُرّيَّةِ والتَّزْويج، يُقالُ: أَحْصَنَتِ المرأةُ فَهيَ مُحْصَنة ومُحْصِنَة، وكَذلِكَ الرَّجُلُ، والمُحْصَنُ بِالفَتْح: يَكونُ بِمَعْنَى الفاعِلِ والمَفْعولِ"[1].

و"الحفظُ يُستعمل في كلّ تفقُّد وتعهّد ورعاية، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12]، ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة: 238]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥﴾ [المؤمنون: 5]، ﴿حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النّساء: 34]؛ أيّ: (يحفظن عهدَ الأزواج عند غيبتهنّ بسبب أنّ اللّه تعالى يحفظهنّ)؛ أيّ: يطَّلع عليهنّ"[2].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (حصن).
(2) الرّاغب، المُفردات، ص: 245.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ عرضِ التَّفاصيلِ حَسُنَ الإجمالُ

بعد أن ذَكَرتِ الآياتُ السّابقةُ طائفةً من أخبار الأنبياء الصّابرين؛ ناسب أن يُعقّب على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ لبيانِ أنَّ هؤلاء همُ الأمَّة المَرضيَّة الواجب الالتفاف حولَها في الاعتقاد والأخلاق، والقول والعمل، فإنَّ الإيمانَ بهم يوجِب العملَ الصّحيح في الاقتداءِ بهم واتِّباع نهجهم؛ فوحدة الأُمَّة قائمةٌ على وحدة المنهج في الصَّبر والثَّبات بسبب الإيمان والاهتداء؛ فهي أُمَّةٌ واحدةٌ، وربٌّ واحدٌ، ونهجٌ ثابتٌ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾: أصلُ الأُمَّةِ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، سواء كان ذلكَ الأمرُ الجامع تسخيرًا أوِ اختيارًا[1]، وقيل: هي جَماعَةٌ من النّاسِ أُرْسِلَ إلَيْهِم رَسولٌ، سواءٌ آمَنوا أو كَفَروا، وتُطلَقُ الأُمَّةُ على عالم دَهْرِه المُنفَرِدِ بِعِلمِهِ[2]، ومِن مَعانيها: الشِّرْعَةُ والدّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له؛ أيْ: لا دينَ لَهُ[3]، وكذلك كُلُّ مَن كان على دينِ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أُمَّة، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ من النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ[4]، والجَمعُ: أُمَمٌ، والمقصود بالأُمَّة في الآية: المِلَّةُ الَّتي يكون حالُها واحدًا.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأُمَّةُ واحدةٌ في إيمانِها واقتدائِها واهتدائِها وعبوديّتِها لربٍّ واحدٍ

في هذه الآية الكريمة يخاطب اللّهُ تعالى أُمّة نبيّه محمّد ﷺ،

(1) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمّ).

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/ 319.

(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمّ)، و(أمم).

(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمّ).

أو يخاطب الأُمم جميعًا: "إنّ ملّة التّوحيد الَّتي جاء بها الأنبياءُ جميعًا، هي مِلَّتكم ودينُكم أيّها النّاس؛ فيجب عليكم أن تتَّبِعوا هؤلاء الأنبياءَ، وأن تُخلِصوا للّه تعالى العبادة والطّاعة؛ فهو سبحانه ربُّكم وربُّ كلِّ شيءٍ؛ فاعبدوه حَقّ العبادةِ لِتَنالوا رضاه ومَحبَّتَه"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصل الآية عن سابقتها:

مِـلَّـةُ الإسـلام هي مِلَّةُ جميع الرّسل عليهم السلام

فُصِلتْ جملة ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ عمّا قبلَها لِلقَطع والاستئناف؛ فالكلام يَحتمل "أن يكون مُنقطعًا خطابًا لمعاصري محمّد ﷺ، ثمّ أخبَر عنِ النّاس أنّهم تقطّعوا، ثمّ وعد وأوعد، ويَحتمل أن يكون مُتّصلًا؛ أيْ: (جعلنا مريمَ وابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ بأن بُعث لهم بِملّةٍ وكتابٍ، وقيل لهم: إنَّ هذهِ أُمَّتُكُمْ)؛ أيْ: دُعيَ الجميعُ إلى الإيمانِ باللّه تعالى وعبادتِه، ثمّ أخبر تعالى أنّهم بعد ذلك اختلفوا وتقطّعوا أمرَهم"(2).

قال ابن عاشور: "والأظهر أنّ الجملةَ محكيَّةٌ بقولٍ محذوفٍ يدلُّ عليه السّياقُ، وحَذْفُ القولِ في مثله شائعٌ في القرآن"(3).

غرضُ التّوكيد ودلالتُه:

الأخبارُ العظيمةُ الشَّأنِ لا تُسرَدُ كبقيَّةِ الأخبارِ

توكيدُ الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ لا لوجود مُنكِرٍ؛ بل لما اقتضاهُ عِظَمُ الخبرِ وأهميّتُه في ذاته، فالخبرُ قد يُؤكَّد لِخطورته في ذاته، بِقطعِ النَّظر عن وجود مُنكِرٍ، كما يقول المؤمن مُنفردًا: (لا إله إلا اللّه)؛ فيُؤَكّد الخبرُ بأقوى طُرُق القَصْر وهو النّفي والاستثناء؛ لأنّه ليس بالخبر الَّذي يجوز النُّطقُ به هكذا بلا احتفالٍ وتوكيدٍ، فالتَّوكيدُ يكون من "جهة أنَّ القضيَّة في نفسِها ممّا

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 248.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 98.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 139.

يُهْتَمّ به وإن لم يكن هناك منكرٌ"(1)، فالتّوكيد هنا "لِمجرّد الاهتمام بالخبر؛ ليتلقّاه الأنبياء بِقوَّة عزْم، أو أنّه روعيَ فيه حالُ الأُمم الَّذين يَبْلُغهم ذلك؛ لأنَّ الإخبار باتِّحاد الحال المختلفة غريبٌ قد يُثير تردّدًا في المُراد منه؛ فقد يُحمَل على المجاز، فأُكِّد برفع ذلك، وهو وإن كان خطابًا للرُّسُل، فإنَّ ممّا يُقصَدُ منه تبليغُ ذلك لأتْباعهم؛ ليعلموا أنَّ دينَ اللّه واحدٌ، وذلك عونٌ على قبول كلِّ أُمَّة لِما جاء به رسولُها؛ لأنَّه معضودٌ بشهادة مَن قبلَه من الرُّسُل"(2).

بلاغةُ التّعريفِ باسمِ الإشارة:

تَجْمَعُ الأنبياءَ وحْدةُ الوِجهةِ والعقيدةِ وإنِ اختلفت شرائعُهم

الإشارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ تَجْمَع كلَّ ما سبقها من الأنبياء والمُرسلين وما يتعلّق بكلٍّ منهم من تفاصيل امتدَّت في الصَّفحات السّابقة لِتُدخلَهم تحت مظلّة التّوحيد، وتُحضِرَهم في ذِهن المُخاطَب مضمومًا أولُّهم إلى آخِرهم؛ لتحكم عليهم جميعًا بوَحدة العقيدة، ووَحْدة الوِجهة، ووَحدة المصير.

وفي الإشارة إلى تلك المِلَّة الحنيفيّة "تنبيهٌ على كمال ظهور أمرِها في الصّحّة والسَّداد"(3)، وفي الحديث: "الأَنْبياءُ إِخْوَةٌ لِعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهُمْ شَتَّى، ودينُهُمْ واحِدٌ"(4)، ويُحتمل أن تكون هذه إشارةً إلى الطّريقة الَّتي كان عليها الأنبياء المذكورون من توحيد اللّه تعالى؛ أيْ: إنّ طريقتّكم وملتّكم طريقةٌ واحدةٌ لا اختلافَ فيها في أصول العقائد؛ بل ما جاء به الأنبياءُ من ذلك هو ما جاء به محمَّدٌ ﷺ(5).

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

إجمالُ المَذكورين وتشويقُ المخاطَبين

قُدِّمَ المُسْنَدُ إليه مُعرَّفًا بالإشارة (ذه)؛ ليجمعَ الرُّسلَ جميعًا

(1) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 1/ 74.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 1340.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3259)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2365)، والعِلّات: الضّرائر، أيْ: شرائعهم مختلفة، ودينُهم واحد.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 464.

بأيسرِ لفظٍ بحيثُ لا يُنسي بعضُه بعضًا؛ فالإشارة توجز الحديث عنهم بخبرٍ عامٍّ: ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾؛ أيْ: (إنّكم يا أتْباع محمّدٍ ﷺ مُطالبون بالإيمان بِجميع الأنبياء والمُرسلين؛ فكلّهم إخوةٌ في الدّين وإنِ اختلفتْ شرائِعُهم)، كما أنَّ التّقديم يوحي بالتَّشويق لما بعدَه.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ:

الــرُّسُــلُ وأقوامُهم أُمَّـةٌ واحــدةٌ ذاتُ عقيدةٍ واحدةٍ

تباينت أقوالُ العلماء في تعيينِ المُخاطَبين بقوله تعالى: ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾؛ فقيل: "الأنبياء المَذكورون في الآيات السّابقة؛ والوجهُ حينَئِذٍ أن يكون القولُ المحذوفُ مصوغًا في صيغة اسم الفاعل منصوبًا على الحال، والتّقدير: قائلين لهم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ إلى آخِره، والمَقولُ مَحْكي بالمعنى؛ أي: (قائلين لكلّ واحدٍ من رُسُلنا وأنبيائنا المَذكورين ما تضمّنته جملةُ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾)"[1]، وقيل: الخطابُ "للنّاس قاطبةً"[2]، "وجَوَّز بعضُهم كونَ الخطابِ للمؤمنين كافَّة، وجعله الطّيبيُّ للمُعانِدين خاصّة؛ حيثُ قال في وجْهِ ترتيب النَّظْم الكريم: إنَّ هذه السّورةَ نازلةٌ في بيان النُّبوَّة وما يتعلَّق بها، والمخاطَبون المعانِدون من أُمّة محمّد ﷺ، فلمّا فرغ من بيان النّبوّة وتكريره تقريرًا ومِن ذِكْر الأنبياء عليهم السلام مُسَلّيًا؛ عاد إلى خطابهم بقوله تعالى شأنُه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾، وقيل: الخطاب "لمعاصري الرّسول ﷺ"[3].

دلالةُ الإضافة إلى ضمير المُخاطَبين:

توريثُ الانتماءِ لأُمَّـةِ الإسـلامِ كافَّةً

أُضيف لفظُ الأمّة إلى ضميرِ المخاطَبين؛ إشعارًا بالانتماءِ الَّذي يجب أن يكون عليه أتباعُ الأمَّة الواحدة؛ وإيحاءً بأن أُمّة النّبيّ محمّد ﷺ أوْلى بهؤلاء مَن أتباعهم الَّذين حرَّفوا شرائِعَهم، كما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 139.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 464.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ [آل عمران: 68].

بلاغةُ التّقييدِ بالحالِ:

مَن انضوى تحت التّوحيد الخالص نالَ شرَفَ الانتماءِ

قولُه تعالى: ﴿أُمَّةً﴾؛ "أي: دينًا واحدًا وهو الإسلام؛ فأبطَل ما سوى الإسلام من الأديان، والأُمَّةُ: الجماعة الَّتي هي على مَقْصِدٍ واحد؛ وجُعلتِ الشّريعةُ ﴿أُمَّةً﴾ لاجتماع أهلها على مَقْصِدٍ واحدٍ"(1)، و﴿أُمَّةً﴾ "حالٌ لازمةٌ، وقيل: بَدَلٌ من الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾"(2)، فعلى القول بالحال ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ تأكيدٌ على أنّ هذه الأُممَ العديدة ستكون أُمَّتَكم في حالةِ الاجتماع على ما جاؤوا به جميعًا؛ وهو التّوحيد الخالصُ للّه ﷻ، وأنّ مَن اختلّ من أتباعهم وانحرف إلى الشّرك لا يستحقّ شرَف الانتماء إلى هذه العَظَمة، والانضواءِ تحتَ تلك الجماعة المؤمنة؛ وأنّ "هذه ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ في حال اجتماعها على الحقِّ، فإذا افترقت فليس مَن خالف الحقّ داخلًا فيها"(3).

نُكْتَةُ تكرارِ ﴿أُمَّةً﴾ وعدمُ الاكتفاء بالوصف ﴿وَٰحِدَةً﴾:

الأُمّــةُ الـواحـدةُ حـالٌ لازِمـةٌ لا خبرٌ محضٌ

في تكرار لفظ ﴿أُمَّةً﴾ بعد ذِكرها مُضافةً إلى جماعة المخاطَبين ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾؛ فلم يَقُلْ: (إن هذه أمتكم واحدة)؛ تأكيدٌ على وحْدة الأُمّة في الأذهانِ قبلَ وصفها بـ ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ ليتقرّر أنّ ﴿ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19] منذ أُهبِط آدمُ عليه السلام على الأرض، وحتّى آخر الأنبياء بَعثةً؛ سيّدِنا محمّد ﷺ؛ ولبيانِ أنّها حالٌ مُقيِّدة للأُمَّة في كونها واحدةً، لا مُجرّد الإخبار بذلك؛ أي: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ "ما لزموا الحَقَّ واتّبعوه؛ أمّا إذا تركوا لُزومَه وتركوا اتّباعَه؛ فهي ليست بأُمَّةٍ واحدةٍ"(4).

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 242.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 359.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 404.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 374.

فائدة الوصف بـ ﴿وَٰحِدَةً﴾:

الوَحدة تتجلّى في أتباع الرُّسل وتتحلَّى بأُمّة مُحمّدٍ ﷺ

جاء الوصفُ الصّريحُ ﴿وَٰحِدَةً﴾ للتّوكيد بِعُنصر الوحدة المفهوم من الموصوف ﴿أُمَّةً﴾؛ فلا يبقى أثرٌ لِشكّ، ولا مجالٌ لريب في أُمّة الدّين الواحد ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وأنَّ أُمّة مُحمّدٍ ﷺ هي الأُمّة الخاتمة المُهيمِنة الَّتي تستحقّ أن تكون أوّلى النّاس بهم، ومن معاني وحدة الأُمَّة هنا "أنّها توحِّد اللّهَ تعالى؛ فليس دونَه إله، وهذا حال شرائع التّوحيد، وبخلافها أديانُ الشّرك؛ فإنّها لِتَعَدُّد آلهتِها تَتشعَّب إلى عِدّة أديانٍ"(1).

غرضُ تنكيرِ الموصوفِ وصفته:

تعظيمُ الأُمَّـةِ بكونها أُمَّةَ التَّوحيد

نُكِّر لفظُ ﴿أُمَّةً﴾ للتَّعظيم؛ فمِثلُ هذه الأُمّة بهذه العَظَمة، وتلك السَّعةِ في الزّمان والمكان والعَدد، جديرةٌ بالتَّعظيم والتَّفخيم؛ ولو عُرِّفَ اللّفظُ فقيل: (الأُمّة الواحدة) فيذهبُ الذّهنُ إلى أُمّة مُعيَّنة محدَّدة تكون معهودةً لدى المُخاطَب، فيتناقضُ التّعريفُ مع المقصود الَّذي لا يُفْهَم إلّا من تنكير ﴿أُمَّةً﴾.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ "عاطفة"(2)، أو حاليّةٌ؛ أيّ: إنَّ هذه أمتُكم أُمّة واحدة، والحال أنّني أنا ربّكم الَّذي جاء الأنبياءُ جميعًا لإقرار وحدانيّتي في خَلْقي، وجاء نبيُّكم الخاتمُ ليُتمِّم ذلك.

غرضُ تقديم المُسنَد إليه على المُسْنَد:

الحَصْرُ المُفيد لعليَّة العبادةِ

أفاد تقديمُ المُسنَد إليه ﴿وَأَنَا۠﴾ على المُسنَد في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ "الحصرَ؛ أيّ: أنا لا غيري؛ بِقرينة السّياق والعطفِ على ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ إذِ المعنى: (وأنا ربُّكم ربًّا واحدًا)؛ ولذلك فرَّع عليه

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 141 ، ويُنظر: الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 85.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 359.

الأمر بعبادته؛ أيّ: فاعبدوني دون غيري"[1]؛ لأنّه لا إلهَ لكم غيري[2]؛ ففيه إشعارٌ بالعِلّيَّة، وقد أفاد التَّشويق لمعرفة الخبر، وحَفز النّفوسَ إلى معرفة ما الصّفةُ أو الخبرُ المُتمم بعد تعديد الأنبياء والمرسلين السّابقين جميعًا في حُكْمٍ واحد.

نُكْتَةُ إفرادِ الضّمير والعُدول عن صيغة العَظَمة:

مقامُ التّوحيدِ يقتضي التّعبيرَ بضمير المُفرد دَفعًا لاحتمال التّشريك

ممّا يتناغم مع تقديم ضمير الجلالة ﴿وَأَنَا۠﴾ في إفادة قَصْر الوحدانيّةِ عليه سبحانه وتعالى إفرادُه؛ أيّ: إفراد الضّمير ﴿وَأَنَا۠﴾؛ لأنّ التّعبير بضمير العَظَمة (نا) في هذا السّياق مُلبِس، و"لمّا كان المقصودُ تعيينَ المُراد من غير لبسٍ؛ عَدَلَ عن صيغة العَظَمة فقال: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾؛ أيّ: لا غيري في كلِّ زمانٍ وكلّ مكانٍ لكلّ أُمّة؛ لأنّي لا أتغيّر على طول الدّهر، ولا يشغلني شأنٌ عن شأنٍ"[3]، على أنّ ضمير المُفرد هنا يتضمَّن أيضًا معنى التّعظيم من حيثُ وحدانيةُ الواحدِ ﷻ وتفرُّدُه، وعدمُ مشاركتِه أحدًا إيّاه في ذاته وصفاته وأفعاله.

فائدةُ استعمالِ عنوانِ الرّبوبيّة:

مَنْ عَبَدَ ربَّه اختيارًا نال به عِزًّا وافتخارًا

آثَر النَّظمُ الكريمُ اختيارَ عنوانِ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ أيّ: "ربَّيتُكم اختيارًا؛ فاعبدوني شُكرًا وافتخارًا"[4]؛ فالرُّبوبيّة مُستفادة من ﴿رَبُّكُمۡ﴾، فكان ذِكْرُها هو الحقيق بالمقام.

والآيةُ تُلمِح إلى واجبات الأُمّة نحو الإلهِ الواحد منَ العبوديّة الخالصة من كلّ شِرْكٍ، وإلى مصدر الرّزق والتّربية والتّعهُّد، وتُلوِّح بواجبات الأُلوهيّة وتَدعَم بفضائل الرّبوبيّة؛ فإنَّ حَقّ اللّه تعالى على العباد أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا؛ لمُجرّد التّفضّل عليهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 141.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 477.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 419.

بالإيجاد، فإذا أُضيف إلى ذلك الرّزق والعطايا؛ تأكّد وجه أحقيّتِه بذِكر الرُّبوبيّة بحقوق الأُلوهيّة.

ويُفسَّر الرّبّ بالإله؛ "لأنّه رُتِّب عليه الأمرُ بالعبادة والدّلالة على الوَحدة من حِدَة المِلَّة، وفي لفظ الرّبّ إشعارٌ بذلك من حيثُ إنّ الرّبّ إنْ توهِّم جوازُ تعدُّده في نفسه لا يمكن أن يكون لكلّ مربوبٍ إلّا ربٌّ واحدٌ؛ لأنّه مُفيضُ الوجودِ وكمالاته معًا، وفي العدول إلى لفظ الرّبّ ترجيحُ جانبِ الرّحمة، وأنّه تعالى يدعوهم إلى عبادته بِلسان التّرغيب والبَسط"[1].

نُكْتَةُ إضافةِ لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير المُخاطَبين:

تشريفُ العبادِ بجليل اسمِ المُنعِم وصريحِ النِّعم

في إضافة اسم الرَّبِّ سبحانه وتعالى إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ تنويهٌ بإنعامه عليهم، وتربيتِه إيّاهم، ورزقِه لهم، فَضَمِنَ لهم الرّزقَ، وطمأنَهم من هذه الجهة جهةِ الرّزق من طعام وشراب وأمنٍ وأمانٍ، وفي تلك الإضافة يَكتسب المضافُ إليه شرفَ المُضافِ ﷻ؛ إذ لا أحدَ أشرفُ من عبدٍ يعيش في كنف الرّبّ العزيزِ الرّحيم سبحانه وتعالى، فهو "ربُّ جميعِ النّاس وراعيهم وكالِؤهم؛ فكلُّهم خَلْقُه، وصُنعةُ يدِه، وكلُّهم غَذي نعمتِه وإحسانِه؛ تُقِلُّهم أرضُه، وتُظِلُّهم سماؤه، وتُغاديهم وتُراوِحُهم نِعَمُه؛ وإذا كان هذا صنيعه بهم، وشأنه فيهم؛ فهو المُستحقُّ للعبادة والطّاعة والولاء"[2].

نوع (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾:

الفاء تحتمل التَّفريعيَّة والفصيحة والسَّببيَّة

تحتمل الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ أن تكون تفريعيَّةً؛ حيثُ فرَّعتْ ورتَّبتِ الأمرَ بعبادتهم إيّاه على كونه الرّازق المُنعِم عليهم: ﴿رَبُّكُمۡ﴾؛ فأحاطت مطالبُ الأُلوهيَّةِ عطاءَ الرّبوبيّة؛ ومَن كان رازقًا مُنعِمًا يُفيض بعطايا الرّبوبيّة على عباده؛ جديرٌ بِأن يُعبَد،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 85.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 951.

وأنْ يُخْلَص له في العبادة دونَ سواه، إذ "أنتم مربوبون وأنا الرّبُّ، أنتم العبادُ وأنا رَبُّ العِباد، أنتم العابدون وأنا المعبود"[1].

وتحتمل أن تكون فصيحةً[2] تُفْصِح عن محذوف يُفْهَم من السّياق؛ والتّقدير: (وأنا ربُّكم - وما دمتُ ربّكم - فاعبدون).

وتحتمل أن تكون سببيةً[3]؛ أيْ: بسبب هذه الرُّبوبيّة الخالصة المُبدعة (اعبدون)، فرتّبَ العبادةَ على ما سبق بالفاء ترتيبَ المُسَبّب على سَبَبِه.

والمعاني الثّلاثة متقاربة وإنِ اختلفت اصطلاحات العلماء في التَّعبير عن هذه الفاء؛ فالتَّفريعيَّة لَمَلْحظ تفريعِ الفَرْعِ على الأصل، والفصيحة لملحظ التَّنبيه على المحذوف المُقَدَّر، والسّببيّة لترتيب المُسَبّب على سببه.

غرضُ الأمرِ ودلالاتُه السّياقيّة:

المخاطَبون مُلزَمون بالعبادةِ وصيَّةً ثابتةً

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ محمولٌ على حقيقتِه؛ وهو الإلزام القاطع؛ أي: (يجب عليكم الأخذ به وتنفيذه، وأن تعبدوني وحدي لا تُشركون بي شيئًا عبادةً تليق بي من حيثُ الإخلاصُ والتّوجُّه)، وكذلك في هذا الأمر معنى الوصيَّة؛ أيْ: "أوصي ألّا يُعبَد سواه"[4]؛ فيَشعُر المتلقّي أنّ هذا الأمرَ يحمل بين طيّاته معانيَ النُّصح والإرشاد والتّوجيه؛ رحمةً به وحرصًا على نجاته من غوايات الشّياطين، فأوامرُ اللّه تعالى لعبادِه رحمةٌ كلّها، وإن بدا لهم غيرُ ذلك، و"هذا الأمر ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ مُراعًى فيه ابتداءُ حالِ السّامعين من أُمَمِ الرُّسُل؛ فالمُراد من العبادة التّوحيدُ بالعبادة، والمحافظةُ عليها"[5].

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 952.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 359.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 530، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير، ص: 4913.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 470.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 141.

فائدةُ استعمالِ لفظِ العبادة:

العبادةُ لفظٌ شاملٌ للعقائد والشّرائع والأخلاق

آثَر النَّظمُ اختيارَ لفظِ العبادة في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ ليشملَ عمومَ العقائدِ والأحكام والأخلاق الإسلاميَّة الَّتي أسَّس لها الدِّينُ الحنيف، فيَعُمّ واجباتِ العبدِ لربّه ﷻ من اعتقاد وحدانيّته في ذاته وصفاته، والتزام بشريعته ﷻ، فهو تعبير كنائيٌّ عن الإخلاص في الاعتقاد؛ لأنَّ العبادة فيضُ الاعتقاد الرّاسخ، ولا اعتبارَ في الإسلام لاعتقادٍ غيرِ مدعوم بعبادةٍ وعملٍ للصّالحات؛ لذلك دَرَج الذِّكرُ الحكيم على ربط الإيمان بالعمل الصّالح ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، و"جائزٌ أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ أيْ: (توحّدون) على ما قال أهلُ التّأويل؛ لأنّه إنّما خاطب به أهلَ مكّة"[(1)].

توجيه المتُشابِه اللّفظيّ في انتقاءِ الألفاظ:

التّقوى في اجتناب المنهيّات والعبادةُ في إتيان الواجبات؛ فهما متكاملان

قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾، وفي سورة المؤمنون: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ [المؤمنون: 52]؛ وذلك "ليُعلَم أنَّ العبادة والتّقوى واحدٌ في الحقيقة؛ لأنّ الاتّقاء هو ما يُجْتَنَب منَ الأفعال، والعبادةَ ما يُؤتَى منَ الأفعال والعبادة، فإذا اجتَنب ما يَجب اجتنابُه؛ فقد أتى بما يجب إتيانُه، وإذا أتى بما يَجب إتيانه؛ فقد اجتنب ما يجب اجتنابُه، وهو كقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]؛ لأنّه بفِعلِه إيّاها مُجتَنِبٌ عن الفحشاء والمُنكَر"[(2)].

الفُروقُ المُعجَميَّة:

الأُمَّة والمِلَّة:

الأُمّة أعمُّ من المِلَّة؛ والمِلَّةُ تُطلَق على الدّين والشّريعة والطّريقة المسلوكة

"الأُمّة: الصِّنف من النّاس، والجَماعَة، والمِلَّة، والحين، والإمام، والصِّنْف"[(3)]، و"المِلَّة بالكسر: الدّين والشّريعة"[(4)]، وهي اسمٌ لما

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 374.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 374.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 142.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (ملل).

شرع اللّهُ تعالى لعباده على لسان الأنبياء؛ ليتوصَّلوا به إلى جوار اللّه، وهي النِّحْلة الَّتي ينتحلها الإنسان من الدّين؛ كمِلّة الإسلام والنّصرانيّة واليهوديّة، وقيل: هي معظم الدّين، وجملةُ ما يجيء به الرُّسل[1]، وتُطلَق المِلّة مجازًا على الطّريقة المسلوكة[2]، ولا تُستعمل إلّا في جملة الشّرائع، ولا تُضاف إلّا إلى النّبيّ، فتُسند إليه نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ [يوسف: 38]، ولا تكاد توجد مُضافةً إلى اللّه تعالى، ولا إلى آحاد أُمّة النّبيّ ﷺ، ولا تُستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها؛ فلا يُقال: مِلّة اللّه تعالى، ولا مِلَّتي، ولا مِلَّةُ زيد كما يُقال: دين اللّه، ودين زيد، ولا يُقالُ: الصّلاة ملّةُ اللّه[3].

(1) الرّاغب، المُفردات: (ملل).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ملل).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 511، والرّاغب، المُفردات: (ملل).

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ [الأنبياء: 93 - 95]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

النّاس صِنفان؛ موفَّقٌ مأجورٌ ومخذولٌ موزورٌ

لمّا ذكر تعالى في الآية السّابقة وحدةَ المِلَّةِ الّتي جاء بها المرسلون جميعًا ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ ناسب أن يُبيِّن موقفَ المُرسَل إليهم منها، وأنّهم انقسموا إلى فريقَين: فريق احتضنها وآمن بها، وآخَرُ رفضها واختلف فيها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾: (قطع) أصلٌ يَدُلُّ على الفَصْلِ وإبانةِ الشَّيءِ عن شيءٍ آخَرَ[1]، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا وقَطيعَةً؛ أيْ: فَصَلْتُهُ، وضِدُّهُ الوَصْلُ[2]، والقِطْعَةُ: الحِصَّةُ المَفْصولَةُ من شيءٍ[3]، والتَّقَطُّعُ: الانقطاعُ الشَّديدُ، يُقالُ: قَطَّعتُ الشَّيءَ فتَقَطَّعَ؛ لأنَّ أصلَهُ مُطاوِع قَطَّعَهُ بالتَّشديدِ[4]، ويأتي القَطْعُ بمعنى الهَجْرِ والتَّفريقِ، والمُقصودُ بالتَّقطُّعِ في الآيةِ: التَّفرُّقُ، أيْ: تَفَرَّقوا وتوزَّعوا في أمرهم[5].

2) ﴿أَمۡرَهُم﴾: الأَمْرُ من الأُمور، والأَمْرُ ضِدُّ النَّهي، والواحد من الأمور قولُهم: هذا أَمْرٌ رضيتُه، وأَمْرٌ لا أرضاه[6]، والأَمْرُ: الشَّأنُ، وجمعه: أُمور، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلّها، وعلى ذلك قوله

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع).
(3) الخليل، العين: (قطع).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قطع).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).

تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾ [آل عمران: 154]، ويقال للإبداع: أمرٌ، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: 54]، ويختصّ ذلك باللّه تعالى دون الخلائق[1]، والأمر في الآية هو اسمٌ مُبهَمٌ بمعنَى الشَّأْنِ والحالِ، والمُرادُ به الدّينُ.

3) ﴿لِسَعۡيِهِۦ﴾: أَصْلُ السَّعْيِ: المَشي السَّريع، وهو دون العَدْوِ[2]، قال ابن الأعرابي: يُقال: يسعى إذا مَشى، وسعى إذا عدا، وسعى إذا عَمل، وسعى إذا قصَد[3]، وقالَ الزَّجّاجُ: أَصلُ السَّعْيِ في كَلامِ العَرَبِ: التَّصرُّف في كُلِّ عَمَلٍ؛ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النّجم: 39]؛ مَعْناهُ: إلّا ما عَمِلَ، وكلُّ عملٍ من خَيْرٍ أو شَرٍّ سَعْيٌ، والفِعلُ كالفِعْلِ[4]، وأكثرُ ما يُستعمل في الأفعال المحمودة[5]، والمُراد بالسَّعي في الآية: العَمَل المحمود.

4) ﴿وَحَرَٰمٌ﴾: (حرم) أصلٌ يدل على المَنْعِ والتَّشديدِ[6]، يُقالُ: حَرَّمَ الشَّيءَ يُحَرِّمُهُ تَحريمًا؛ أيْ: مَنَعَ مِنه ولم يُجِزْهُ، والحَرامُ: المَنوعُ، والتَّحريمُ: الحَظرُ، وشيءٌ مُحَرَّمٌ؛ أيْ: محظورٌ، وضِدُّه الإباحةُ والإذْنُ والجَوازُ[7]، والمُرادُ بالحرامِ في الآيةِ: الشَّيءُ الممنوعُ؛ أيْ: ممنوعٌ على قريةٍ قدَّرنا إهلاكَها أنْ لا يَرجعوا[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تحذيرُ العبادِ مِـن الـفـواتِ؛ فإمّا جنَّةٌ وإمّا عذابٌ

تُبيِّن الآياتُ الكريمات حالَ النّاسِ بعد سماعِ الوصيَّة الجامعة

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (أمر).
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سعي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سعي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سعي).
(5) الرّاغب، المُفردات: (سعي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حرم).
(7) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح، وابن سِيدَه، المُحكَم: (حرم).
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 144 - 145.

بأنَّهم افترقوا "في شأن الدّين الحَقّ فِرَقًا مُتعدِّدة، وسنحاسبهم جميعًا على أعمالهم حسابًا دقيقًا يُجازَى فيه المُحسنُ خيرًا، ويُعاقَب فيه المُسيء على إساءته"(1)، و"حرامٌ على قرية أردنا إهلاكَها وقدَّرناهُ لها أنّهم يرجعون عن الكفر إلى الإسلام، ويثوبون إلى رُشدهم؛ فأولئك ختم اللّهُ ﷻ على قلوبهم وعلى أبصارهم؛ فهم لا يؤمنون أبدًا"(2)، وكذلك "ممتنعٌ - امتناعًا تامًّا - على قريةٍ أهلكنا أهلَها بسبب فُسوقهم عن أمرنا، وتكذيبهم لِرُسُلنا، أنّهم لا يرجعون إلينا في الآخرة للحساب"(3).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو إمّا للعطفِ على محذوفٍ أو مذكورٍ أو قِصَّة على قِصَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ للعطفِ، وهي إمّا أن تكون قد عَطَفت فعلَ (تقطعوا) على فعل محذوفٍ، جاء هذا المحذوف استئنافًا بيانيًّا، "وهو من تفريعات الأمر الَّذي أُمِر به النّاسُ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾، وهو جوابٌ عن سؤالٍ مُقدّر يقتضيه الحالُ، وهو: ماذا كان منَ النّاس إزاءَ هذا الأمرِ الَّذي أُمروا به؟ فكان الجواب: لم يكونوا على طريقٍ واحدٍ؛ بل اختلفوا وتقطَّعوا شيَعًا وأحزابًا؛ فكان منهم المطيعُ، وكان منهم العاصي، منهم المؤمنُ، ومنهم الكافر"(4)، وإمّا أن تكون للعطفِ على جملة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

و"يجوز أن تكون (الواو) عاطفةً قِصَّة على قِصّة لمناسبةٍ واضحة، ويجوز كونُها للحال؛ أيْ: أمرنا الرّسلَ بمِلّة الإسلام، وهي المِلّة الواحدة؛ فكان من ضلال المشركين أنْ تقطّعوا أمرَهم، وخالفوا

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 249.
(2) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/ 555.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 249.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 953.

الرُّسلَ، وعَدَلوا عن دين التّوحيد، وهو شريعة إبراهيمَ أصلِهم، ويُؤيّد هذا الوجهَ أنّ نظير هذه الآية في سورة المؤمنين جاء فيه العطفُ بفاء التّفريع"(1).

سِرُّ استعمالِ الواو لا الفاء:

لاحتمال الاختلاف بينَ المتعاطِفين

عُطِفتْ جملة ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ بالواو دون الفاء؛ "لأنّ ترْك العبادة ليس سببًا للتّقطُّع؛ بل ربما كان عنه الاجتماع على الضّلال، كما يكون في آخر الزّمان، وكما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213]"(2).

نُكْتَةُ اختيارِ مُفردة: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾:

المختلفون في الدّين قِطَعٌ مفترقةٌ لا تَوافُق بينَهم

اختار النَّظمُ مفردةَ ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ دونَ مرادفاتِها، و"القَطْع فَصْل الشّيء مدرَكًا بالبَصر كالأجسام، أو بالبصيرة كالأشياء المعقولة، والتّفعُّل هنا للتّعدية، نحو: عَلّمْتُه الفقهَ فتعلَّمَ الفقه، والمعنى: جعل النّاسُ أمرَ الدّين قِطَعًا"(3)؛ "فصاروا فيه فرقًا وأحزابًا؛ يعني: طوائفَ اليهودِ والنّصارى، فرَّقوا دينَهم فيما بينَهم، يَلعنُ بعضُهم بعضًا، ويتبرَّأُ بعضُهم من بعض، والتّقطُّع في هذه الآية بمنزلة التّقطيع"(4)، ونُكْتَةُ اختيارِ المُفرَدة تَكْمُن في بيان أنَّهم كانوا قِطعًا، كلُّ واحدةٍ منها مستقلَّة عن الأُخريات في عقائدها وسلوكها وأخلاقِها وانتمائها؛ فهم كالقِطَع المُنفصلة.

بلاغةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

لفتُ الأنظارِ إلى إهمال مَن الْتَفَتَ عن الحَقّ

ما اقتضاه ظاهرُ النَّظم أن يقول: (وتقطعتم)؛ لكنَّه آثَر الالتفات من الخطابِ إلى الغيبةِ؛ "وكأنّه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويُقبِّح عندهم فِعلَهم، ويقول لهم: ألا ترونَ إلى عظيم ما ارتكبَ هؤلاء في دين الله ﷻ؟!"(5).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 141.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 479.
(3) حقيّ، روح البيان: 5/ 521.
(4) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 3/ 251.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 134.

فائدةُ استعمالِ صيغة التَّفَعُّل:

افترقَ المُتقدِّمون بِعُسْرٍ وكُلْفَة ومَشَقَّة

استعمل النَّظمُ صيغةَ التَّفعّل في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾؛ وذلك "لمّا كان الدّين الحَقُّ مِنَ الجلاء والعَظَمة والمُلاءَمة للنّفوس بحيثُ لا يَجهلُه ولا يأباه أحدٌ نَصَحَ لِنفسه، وإن جهِلَه كفى أدنى تنبيهٍ في المبادرة إليه، وترْكِ ما سواه كائنًا ما كان؛ فكان خروجُ الإنسان عنه بعدَ أن كان عليه في غاية البُعد، فضلًا عن أن يتكلَّف ذلك بمنازعة غيرِه، المُؤدّيةِ إلى الافتراق والتّباغض، ولا سيما إن كان ذلك الغيرُ قريبَه أو صديقَه، وكانتْ صيغةُ التّفعُّل من القَطْع صريحةً في التّفرُّق، وتُفيد العِلاجَ والتّكلُّفَ، وكانت تأتي بمعنى التّفعيل والاستفعال - عُبِّرَ بها"[1].

بلاغة التّضمين:

في تقطُّعِ الدّين تشتيتٌ لِماهيّته في نفوس النّاس

الأصلُ في الفعل (تقطّع) أنّه لازمٌ لا يتعدّى، ويكون نَصْبَ ﴿أَمۡرَهُم﴾ بِنَزْعِ (في) مِنْهُ[2]، ويجوز أن يكون ﴿أَمۡرَهُم﴾ منصوبًا على المفعوليّة من باب تضمين الفعل ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ معاني الجَعْل، "فَلذا تَعَدَّى إلى ﴿أَمۡرَهُم﴾ بنفسه، وقيل: عُدّيَ بنفسه؛ لأنَّه بمعنى قَطّعوا؛ أيْ: فَرَّقوا"[3]؛ فهو أيضًا مُضمَّنٌ معنى التّوزُّع والتّفرُّق، "والأصل: تقطّعوا في دينهم وتوزَّعوه"[4]، أو "تفرّقوا في الدّين فصاروا فِرَقًا"[5]، وذلك التَّضمين يُحقّق للتّركيب الثّراء المعنويّ اللّائق بعَظَمة الذّكر الحكيم.

تعيينُ مرجع الضمائر ودلالة إسناد فعلِ التّقطُّع إلى الضّمير:

مَنْ يختلفون في الدّين تضطرب أمـــورهـــم وتستأصلهم البلايا

ترجِع الضّمائرُ في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾ إمّا إلى المشركين وإن لم يُذكَروا صراحةً في السِّباق القريب، ويجوز أن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 478.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 142.
(5) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1529.

تكون الضّمائرُ عائدةً إلى أُمم الرُّسل، أو الَّذين جاؤوا بعدَهم؛ مثل: اليهود والنّصارى؛ إذ نقضوا وصايا أنبيائهم[1]، أو أن يكون المُراد: جميع الخَلْق؛ أيْ: جعلوا أمرَهم في أديانهم قِطَعًا، وتقسَّموه بينَهم؛ فمِن موحِّد، ومِن يهوديّ، ومِن نصرانيّ، ومِن عابدِ مَلَكٍ أو صَنم[2].

وقد "أُسنِد التّقطُّع إليهم؛ لأنّهم جعلوا أنفسَهم فِرقًا؛ فعبدوا آلهةً مُتعدِّدةً، واتّخذت كلُّ قبيلةٍ لنفسها إلهًا من الأصنام مع اللّه تعالى، فشَبَّه فِعلَهم ذلك بالتّقطُّع"[3].

نُكْتَةُ إيثارِ الضَّمير على التَّصريح بالفاعلِ:

لا يستحِقُّ شرفَ الـذِّكْـرِ الإلـهـيّ مَن يفرّقون أمرَ الدّين

تُلتمَس من طيّ الاسم الظّاهر للفِعل (تقطَّع) وإيثارِه ضميرًا - وهو واو الجماعة - إشارةٌ بيِّنيَّةٌ، ودليلٌ واضح على القصد إلى تحاشي التّصريح باسمهم؛ لمّا ضلوا ولم يعودوا أهلًا لِشَرف ذِكْرهمُ الصّريح؛ فقال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾، ولم يَقُل ﷻ: (تقطّع اليهودُ)، ولا (تقطّع النّصارى)، أو (تقطّع غيرُهم)؛ وفي ذلك تعريضٌ بالغضب الإلهيِّ عليهم، وتحذيرٌ لِأُمَّة التّوحيد من سُلوك طريقِهم الضّالِّ المُضِلِّ.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

الـدّيـنُ جـامـعٌ للنّاسِ وتفريقُه بسبب أهوائهم وشهواتهم

في إيقاع التّقطيع على (الأمر) استعارةٌ مَكنيّة، بِتشبيه أمرِ الدّين بشيءٍ محسوس غالٍ ثمين، كان الأجدرُ أن يُبقيَ عليه أصحابُه مُتماسكًا قويًّا عزيزًا، لكنّهم فرَّقوه وتقطّعوه بينهم؛ فالأمر هو المشبَّه، والشّيء الحسّيّ الثّمين هو المُشبّه به المحذوف، المدلولُ عليه بِلازِمه وهو التّقطُّع في ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾، والقيمة البلاغيّة هنا تكمُن في المبالغة في الذَّمِّ لتفريطهم في أغلى ما يملكون، وهو أمرُ الدّين، وأنّه لم يُقَطَّع من غيرهم، وأنّهم لفرط جَهْلهم وشِدّة شُؤْمهم هم الَّذين

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 141.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 339.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 142.

تَوَلَّوا تقطيعَه؛ فهؤلاء البُعداء جعلوا أمرَ الدّين الواحدِ فيما بينَهم قِطَعًا، كما يَتوزَّعُ الجماعةُ الشّيءَ الواحد"[1].

لطيفة إضافةِ الأمر إلى الضّمير:

خاسرٌ مَن ضيّع ما به صلاحُه وفلاحُه

أُضيف الأمر إلى الضّميرِ في قوله: ﴿أَمۡرَهُم﴾؛ للإزراء عليهم، وإظهار خسارتهم بتقطيعهم إيّاه بينهم، وللإشارة إلى أنّه الأمرُ الّذي هو مِلاك صلاحِهم وفلاحِهم، وهو الإيمان باللّه ﷻ[2].

بلاغة التّقييد بالظّرف ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾:

بئسَ القومُ قومٌ أضاعوا دينَهم (بينهم)

ذِكْرُ القيدِ ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ "لإفادة أنّهم تعاونوا وتظاهروا على تقطُّع أمرِهم، فرُبَّ قبيلةٍ اتَّخذت صنمًا لم تكُن تعبده قبيلةٌ أُخرى، ثمّ سوَّلوا لِجيرتهم وأحلافهم أن يعبدوه فألحقوه بآلهتهم، وهكذا حتّى كان في الكعبة عِدَّة أصنام وتماثيل؛ لأنّ الكعبة مقصودةٌ لِجَميع قبائل العرب"[3]، وكَوْنُ تقطيعهم أمرَهم ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ ممّا يُزري بهم، بل هو أبرزُ دواعي تشديد النّكير عليهم؛ حيثُ إنَّ تلك البينيّة هي ما يُفترَض أنْ تكون الكِنَّ المكين، والحصن الحصين؛ لصيانة أمر الدّين، وتقويةِ رُكْن التّوحيد، لكنّهم صيَّروه محلَّ تمزيقِهما وتقطيعهما؛ فأقْبِح بها من جريمة أبعدتهم إلى حيثُ يُذكرون بضمير الغائب ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ﴾.

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

ما خُلِق العبادُ هملًا ولا أُرسِل إليهم الرّسل سُدًى

فُصِلتْ جملةُ تقطيعِ القوم أمرَهم بينهم بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾؛ تنبيهًا على أنّهم مقطوعون عن الحَقّ غيرُ موصولين بثوابت الدّين، محرومون من بركاته، وإجابةً عن سؤالٍ يَطرأ في نفس المستمع: وما "عاقبة هذا التّقطع؟"[4]؛ فكان الجواب: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾؛ أيَ:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 85.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 953.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 143.

هؤلاء وهؤلاء جميعًا راجعون يوم الدّين للمُداينة والمحاسبة، وما يتبع رجوعَهم إلى الله تعالى مُتوقَّع معلومٌ؛ فهو إمّا رضوانٌ وجِنانٌ للمؤمنين الموفَّقين، أو خُسرانٌ وغضبٌ ونيرانٌ للمُباعِدين.

بلاغة التّذييل:

عاقبةُ التَّقطّع والفُرقةِ الرّجوعُ إلى الله للحساب والجزاءِ

جملة التّذييل ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ ليس في ظاهر لفظها سوى إفادةِ رجوع كلِّ الأُمم وكلِّ النّاس إلى الله تعالى بعدَ الموت؛ لكنّ السّياق يوجِّه مقصودَها نحو التّعريضِ بِمعاقبة هؤلاء الّذين ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ إذِ السَّياق يربط بين قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾، وبين قولِه تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾؛ فدلّ على أنّه وعيدٌ شديد لهم، وأنّه تهديدٌ أكيدٌ بمعاقبتهم على هذا الجُرم الَّذي أتَوه ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

بلاغة استعمال أداة العموم ﴿كُلٌّ﴾ بعد ذِكْر التّفرُّق:

الرّجوع إلى الله تعالى عامٌّ وجزاءُ كلٍّ هنالك خاصٌّ

بناء الجملة ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ على تقديم كلمة العموم ﴿كُلٌّ﴾ بعد ذِكْر تقطيعِهم أمرَهم بينهم يَجمعهم في حُكم واحد هو الرّجوع إلى الله تعالى؛ ليحصلَ لهم بِعدل الله سبحانه التّفريقُ إلى فريقَين: فريق في الجنّة؛ وهم الأنبياء السّابقُ ذِكْرهم، ومَن آمن معهم وظلّ على العهد، وفريقٌ في السّعير؛ وهم الّذين ارتدّوا وتقطّعوا أمرَهم بينهم؛ ففي ﴿كُلٌّ﴾ جمعٌ، ثمّ في الجزاء المُتوقّع تفريقٌ.

فائدة تنوين العوض في ﴿كُلٌّ﴾:

النّظم القرآنيُّ الكريم يَطوي ما يُبَطِّئ عن ذِكْر الأهمّ

تنوينُ ﴿كُلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ عِوضٌ عن محذوفٍ، والتّقدير: "كلُّ واحدةٍ من الفِرَق المُتقطِّعة، أو كلُّ واحدٍ من آحاد كلِّ واحدةٍ من تلك الفرق"[1]؛ لأنّ في طَيِّ النّظم الكريم ذِكْرَ كِلا الفريقَين تخويفًا يُحقِّقُه ذلك الإيجاز؛ لِما فيه من طَيٍّ ما يُرَهِّل العبارةَ؛ فيسارع إلى ذِكْر مَكمَن التّهديد والوعيد: ﴿إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.

بلاغة تقديم الجارِّ والمجرور:

مرجعُ العباد إلى الله تعالى وعدٌ ووعيدٌ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡنَا﴾ في جملة التّذييل ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ لإفادةِ التَّهديد؛ أيْ: إنّكم أيّها الضّالّون لَن تُفلِتوا من عقابنا، كما أنّكم أيّها المُحسنون لن تُحرموا من تكريمنا؛ فأنتُم جميعًا ﴿إِلَيۡنَا﴾ "لا إلى غيرنا"[1] راجعون، وليس لكم مرجِعٌ ولا مأوًى إلّا ﴿إِلَيۡنَا﴾؛ فاحذروا مَغبَّة ما أنتم فيه من تقطيع أمر دينِكم ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾، ففي تقديم الجارّ والمجرور في جملة ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ قَصْرٌ بَليغ، يتَّسق مع دلالة الإيجاز في ﴿كُلٌّ﴾، ويتآزرُ مع عناصر الجملة على تحقيق الغرض منها، وهو التّهديد.

دلالة التّقييد بحرف انتهاء الغاية:

غايةُ مَسيرِ العباد إلى دار الثّواب أو دار العقاب

في التّقييد بحرف انتهاء الغاية (إلى) في الجارّ والمجرور ﴿إِلَيۡنَا﴾، مزيدُ ترهيبٍ من لِقاء اللّه تعالى، فهو نِهاية طريقهم الآثم، فهم إلى ربّهم لا إلى غيره راجعون، فتلك غاية مسيرهم في هذه الحياة الدّنيا، ولا نهاية لهم وراءَها، إلّا الاستقرار في دار الثّواب أو دار العقاب، و﴿كُلٌّ﴾ حسب عمله.

نُكْتَةُ إيثارِ ذِكْرِ الضَّمير دون لفظ الجلالة:

عقوبةُ المُتكلّم أشدُّ وقعًا وأعظم أثرًا

معنى قوله تعالى: ﴿إِلَيۡنَا﴾؛ أيْ: إلى حُكمنا[2]، وفي إيثارِ ذِكْرِ ضمير العَظَمة ﴿إِلَيۡنَا﴾ دونَ ذِكْرِ لفظِ الجلالة (اللّه) تحقيقٌ للتّخويف؛ لأنَّ تخويفَ المُذنِب بحضور من سَيعاقبه أشدُّ تَرهيبًا له من تخويفه بِغائبٍ - غير حاضر - ولو في اللّفظ فقط، وفي ضمير العَظَمة (نا) دلالاتٌ مكثّفة؛ من مثل التّنبيه على أن عقوبة العظيم سبحانه وتعالى عظيمةٌ، وغيرها ممّا شأنُه تعظيمُ وتَهويلُ التّهديد والتّخويف؛ ليتّسقَ مع المذكور في السّياق من مثل: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 339.

براعة استعمالِ لفظ الرّجوع:

الخَلْق من الله تـعـالى بـدؤوا وإليه يرجعون

التّعبير بـ (الرّجوع) في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾، يلفتُ إلى أنَّ النّاس يرجعون إلى مُبدِئهم؛ حيثُ إنّ الخَلْقَ مِنَ اللّه تعالى بدؤوا وإليه يعودون، وأنّهم مملوكون له، ولا مصيرَ لهم إلى غيره سبحانه وتعالى، وما كان كذلك كان محصورًا في إطارٍ، مقدورًا عليه، لا مفلَت له، ولا مهربَ يَروغ فيه؛ وهذا أشدُّ تضييقًا عليهم، وأخوف لهم، وأجدى في دفعهم نحو التّراجع عن طريق الضّلال، وفيه إشعارٌ بأصل الخَلْق، وأنَّ اللّه خلقهم ثمّ جعلهم في دار التَّكليف ليرجعوا إليه.

نُكْتَةُ استعمالِ اسم الفاعل:

رجـوعُ العـبادِ إلى الله تعالى أمرٌ حتميٌّ طَوْعًا كان أو كرهًا

استعمال اسم الفاعل ﴿رَاجِعُونَ﴾ يَقطع بثُبوت ذلك الرّجوع، وأنّه مُحقَّقٌ لا شكّ فيه، قرُبَ أمدُه أم بعُد، كما تُفيد صيغةُ اسمِ الفاعل ﴿رَاجِعُونَ﴾ أنَّهم هم - من تلقاء أنفسهم - مُضطرّون إلى الرّجوع إلى اللّه تعالى طوعًا أو كرهًا، فمَنْ كان مُؤمنًا صالحًا عاد طَوعًا، مُحبًّا لِلِقاء اللّه تعالى، ومَنْ كان كافرًا ضالًّا عاد كَرْهًا، كارهًا لِلِقاء اللّه تعالى، وذلك ما يُعبَّر عنه في مواضع أخرى بالمضارع المَبنيّ لغير فاعله: ﴿تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: 28]؛ أيْ: بِقوّةٍ قاهرةٍ، ورَغمًا عنهم، يرجعون إليه ﷻ للحساب ونَيلِ العقاب الّذي يستحقّون.

نوع الفاء ودلالتها ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾:

التّراكيبُ القرآنيّة وحدةٌ متماسكة لا انفراطَ فيها ولا ضَعف

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ تفريعيَّة، وفيها "تفصيلٌ للجزاء"[1]، فقد تفرّع على رجوعهم نوعا الجزاء الأُخرويّ اللّذَيْن لا ثالثَ لهما؛ فهي أداةُ توثيقٍ وتقويةٍ لِربط الكلام بعضِه ببَعض، وكأنّه يتناسل بعضُه من بعض؛ فيتحقَّق التّرابط المنطقيّ؛ ممّا يجعل من التّراكيب المتتابعة وحدةً متماسكة لا انفراطَ فيها، ولا ضعفَ في روابط عُراها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.

براعةُ تقديم الوعد على الوعيد:

قُدِّم وعدُ المؤمنين ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ على وعيدِ الكافرين ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾؛ "اهتمامًا به، ولوقوعه عقبَ الوعيد؛ تعجيلًا لَمَسَرّة المؤمنين قبل أن يسمعوا قوارعَ تفصيل الوعيد، وهو ليس مقصودًا من التّفريع، ولكنّه يُشبِه الاستطرادَ؛ تنويهًا بالمؤمنين، كما سيُعتنى بهم عقبَ تفصيلِ وعيد الكافرين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ إلى آخر السورة"[1].

تعجيلُ المَسَرَّة للمؤمنين قبل أن يسمعوا قوارعَ تفصيلِ الوعيد

راعى النّظمُ القرآنيّ ترتيبَ ذِكْر الجزاءِ الأُخرويّ لِكِلا الفريقَيْن؛ فقد عدَّدَتْ السّورةُ الكريمة الأنبياءَ والمرسلين وأتباعَهم - ببعض التفاصيل -، ثمّ ذكرتِ الَّذين ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾، وجاء بعدَ ذلك ذِكْر الجزاءِ لكلٍّ؛ فذُكِر وعْدُ المؤمنين أوّلًا، ثمّ ذُكِر وعيدُ المشركين ثانيًا على سبيل اللّف والنّشر المُرتَّب.

مراعاةُ ترتيب ذِكْر الجزاءِ الأُخرويّ لِكِلا الفريقَيْن

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تفريعيَّةٌ على المتقدِّم؛ فقد فُرِّعَ على الوعيدِ المُعَرَّض بِهِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ﴾ تَفْرِيعٌ بَدِيعٌ من بَيانِ صِفَةِ ما توعّدوا بِهِ، وذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء: 97][2]، ويَصِحّ أن تكون استئنافيَّةً[3].

الفاءُ تحتملُ التّفريع والاستئناف

دلالةُ استعمالِ (مَنْ):

التَّعبير باسم الشَّرط (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، يَعُمُّ جميع المُتّصفين بِعمل الصّالحات من الذّكور

(مَن) شرطيّة من صيغ العموم تعمُّ ما يندرج تحتها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 143.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 143.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 361.

والإناث اتساقًا مع قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النّساء: 124]، وكذلك تتَّسِع (مَنْ) لجميع الصّالحين من جميع الأُمم السّابقة، إضافةً إلى الصّالحين من هذه الأُمّة؛ فهو إذًا عُنصرُ إيجازٍ بليغٍ يُلَمْلِم ذلك الصّنف كلَّه؛ ليبشرَه دفعةً بصيانة صالح أعمالِهم: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾.

بلاغة التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡمَلۡ﴾:

المُضارعةُ تمنح المعنى حيويّةَ الحضور

المؤمن مُطالبٌ بِتعمير لحظات حياتِه بعمل الصّالحات؛ لأنّ عُمُرَه بعامّة وشبابَه بخاصّة ممّا يوقَف للسّؤال عنه يومَ القيامة، كما قال النّبيّ ﷺ: "لا تزولُ قدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يُسألَ عن عمرِهِ فيما أفناهُ، وعن عِلمِهِ فيمَ فعلَ، وعن مالِهِ من أينَ اكتسبَهُ وفيمَ أنفقَهُ، وعن جسمِهِ فيمَ أبلاهُ"[1]، وقد آثَر النَّظمُ التّعبيرَ بصيغة المضارع: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ﴾ دون الماضي: (فمن عمِل)؛ لأنّ المؤمن يُجَدِّد عملًا صالحًا كلّما تَمَّمَ عملًا، ولا يَفتُر أبدًا حتّى وإن قامت القيامة، كما قال ﷺ: "إنْ قامَتْ عَلَى أحَدِكُمُ القيامَةُ وفي يَدِهِ فَسيلَةٌ؛ فَلْيَغْرِسْها"[2].

نُكْتَةُ اختيارِ مُفردة (عَمِل):

العملُ قائمٌ على القَصْد والتّفكير المُسبَق

آثر النَّظمُ استعمالَ مُفردة (عمل) دونَ مرادفاتها؛ لأنَّها مبنيَّة على القصد، فإنَّ العمل ينشأ عن قصد العامل وسبقِ تفكيره، وأمّا الفعل فهو ما يتّصف به الفاعلُ من أفعالٍ تصبح كالسّجايا الأخلاقيَّة الَّتي يأتي بها دونَ تكلّف، ولمّا كان عمل الصّالحات يحتاج إلى نيَّة وتفكير مُسبَّق؛ حسُن مجيئُه في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

(1) أخرجه التّرمذيّ في سُننه، برقم: (2417)، وقال: حسن صحيح.
(2) أخرجه أحمد في المُسند، برقم: (12902)، وإسناده صحيح على شرط مسلم، والفسيلة: النّخلة الصّغيرة.

نوع حرف ﴿مِنَ﴾ ومعناه:

المؤمن مُطالَبٌ بعمل ما يستطيع مِنَ الصّالحات

دلَّ حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على التّبعيض؛ إذ ليس المؤمنُ مُطالَبًا بعمل جميع الصّالحات، و"لا قدرةَ للمُكلَّف أن يأتيَ بجميع الطّاعات"(1)؛ فكان من الدّقّة تقييدُ الصّالحات به.

براعة التّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون الإفراد:

تنويع العبد في الأعمال الصّالحات مَظِنّةٌ لقبوله

في إيثار التّعبير بقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ رحمةٌ بالعباد؛ لأنّ ﴿مِنَ﴾ التّبعيضيّة تُطَمْئِنُ العبدَ إلى قبول القليل من العمل الصّالح ما دام مؤمنًا عاقدًا النّيّة الطّيّبة، كما أنّ في التّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دلالةً على تَعدُّد صورِها وأصنافِها وأنواعِها، وذلك يتّسع لجميع العباداتِ والمعاملاتِ والعاداتِ، من مثل: "أداء الفرائض، وصِلَة الرّحِم، ونُصْرة المظلوم، وغيرِها من أعمال البرّ"(2)، ومعَ ذلك فقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يتضمّن دلالةً أكثرَ من التّعبير بـ (عمِل صالحًا)؛ لأنّ الوصف (صالحًا) وصف لـ (عملٍ) واحد، أمّا وصف ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فوصفٌ لـ (أعمالٍ) وهي جمع، فبينما تحتاط ﴿مِنَ﴾ من إلزامه بكلّ الصّالحات، يوجّه الجمعُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ العبدَ إلى تعديدها وتنويعها، وتوطينِ النّيّةِ وتوجيهها نحو احتسابِ كلِّ أعماله قُربَةً لله تعالى.

بلاغة حذفِ المفعول الموصوف:

العبرةُ في إبراز صفة الصّلاح لا ذِكْر العملِ

درج الذِّكرُ الحكيمُ على حذف المفعول في جملة (عَمِلَ صالِحًا)، و(عَمِلوا الصّالِحاتِ) في أغلب مواضعه، وإقامةِ وصفِه (صالحًا)، و(الصّالحات) مقامَه؛ إذِ التّقدير: (عملَ عملًا صالحًا، وعملوا الأعمال الصّالحات)، وفي حذف المفعولِ وإقامةِ وصْفِه مقامَه إشارةٌ إلى أنّ غاية الدّين إلى الصّالح أيًّا كان، وأنَّ المُهمّ هو إنتاج

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 339.
(2) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 3/ 251.

الصّالح، لا مُجرّدَ مباشرةِ الأعمال، وفي ذلك تركيزٌ على ذِكْر الصّلاح والإصلاح، وتنحيةِ ما يَشغَل عنه - وإن كان موصوفهما - ممّا يوحي بعناية الدّين الحنيف بالوصف هنا لا الموصوفِ، ويوفّر عنايةَ المُتلقّي على التقاط تلك العناية المقصودة، ويَحضُّه على ما يُحَقِّقُ الصّلاح والإصلاح في كلّ ما يأتي وما يَذر.

سِرُّ التّعبير بالصّالحات دونَ مُرادِفاتِها:

الصّالحاتُ ذاتُ أثرٍ شاملٍ وخيرٍ عامّ

آثَر النَّظمُ الكريم وصفَ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دون (الحسنات) أو (الخيرات)؛ لِما في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من أثر الصّلاح على المؤمن وعلى غيره؛ لأنَّ الصَّلاح والإصلاح سببُ تحصيلِ الحسنات والخيرات، ففيه ذِكْرٌ للسّبب لأهمّيّته وقوة أثره في المجتمع كلِّه؛ فإنَّ عنصر الصَّلاح يُنافي الفسادَ ويدفعُه ويَطردُه من الفرد والمجتمع، وهو أشمل ممّا سواه، فجيء به لدلالته على العمومِ، ولإظهار أثره في المجتمع كلِّه.

سِرُّ تقديم ذِكْرِ العمل على الإيمان:

ذِكْـرُ العمـلِ ابتداءً للتَّرغيب والإيمان انتهاءً للتَّتويج

أخَّر النّظمُ الكريم الإيمانَ عن عمل الصّالحات في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾، ولم يَقُلْ: (فمَن يؤمن ويعمل من الصّالحات)، والإيمان شرطُ الأعمال الصّالحات؛ لأنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾: "أيْ: في المآل بأن يُختم له به، وكأنّه يُشير إلى الخاتمة؛ لأنَّ مَن لم يُختَم له بالإيمان لا ثوابَ لأعماله - والعياذ باللّه"[1]، "فإذا كانت عاقبتُه على الإسلام والتّوحيد؛ فحينَئذٍ لا يَضيع سَعْيُه"[2].

في هـذا النَّظم ترغيبٌ بالصّالحات

وفيه ترغيبٌ بالصّالحات، فإذا ما قام المسلمُ بعمل الصّالحات ذُكِر بإزاء ذلك شرطُ القَبول؛ ليكون كالتّتويج لأعمالِه، فكثيرٌ من

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 496.

(2) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 522.

الكفّار يعملون كثيرًا ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ومع ذلك تُبطَل صالحاتُهم، وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: 23]؛ فالإيمان شرطُ قبولِ الأعمال، وبدونه لا قيمة لها؛ بل يوفّاها صاحبُها في الدّنيا، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: "إنّ الكافر إذا عمل حسنةً، أُطْعِم بها طُعْمَة من الدّنيا"، وفي رواية: "إنّ الله لا يظلم مؤمنًا حسنة يُعْطَى بها في الدّنيا، ويُجْزَى بها في الآخرة، وأمّا الكافر فيُطْعَمُ بحسناتِ ما عمل لله تعالى في الدّنيا، حتّى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنةٌ يُجْزَى بها"(1).

عمل الصّالحات يغلب في المؤمنين

كما أنّ في تقييد العمل بجملة: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيحاءً بأنّ غير المؤمن لا يكون عمله صالحًا غالبًا، وأنّ عمل الصّالحات يغلب في المؤمنين؛ وفي ذلك تنويهٌ بفضل الإيمان على المؤمنين فُرادى وجماعاتٍ، وهذا مشهودٌ في دنيا النّاس.

مراعاةُ اللّفظ في الضّمير:

جاء الضّمير (هو) مُفردًا في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ مُطابَقةً لظاهر الاسم (مَن) في جملة الشّرط ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ من جهة اللّفظ، ومُرادًا به الجمعُ والعمومُ من جهة المعنى؛ فاحتمل قصدَ الإفرادِ والجمعِ على السّواء.

نوع الفاء في ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ فاء جوابِ الشّرط الّتي تُرَتِّب الجزاء - وهو عدم كفران السَّعْيِ - على الشّرط - وهو عمل الصّالحات المصحوب بالإيمان - بضوابطه وتفاصيله.

البشارة تُبهج النّفوسَ وتُضاعفُ قواها على الصّالحات

نوع (لا) ودلالتُها النَّفسيّة:

(لا) في قوله تعالى: ﴿فَلَا كُفْرَانَ﴾ نافيةٌ للجنس؛ "ليَكون في

(1) أخرجهما مسلمٌ في صحيحه عن أنس بن مالك، الحديث رقم: (2808).

نهاية المبالغة؛ لأنّ نَفْيَ الماهيّة يَستلزم نفْيَ جميعِ أفرادها"[1]، و(لا) تحمِلُ من بشريات القَبول ما يُفعِم نفسَ المؤمن سكينةً وسعادةً، وما يَنشُر أمامَها الآمالَ العِراضَ؛ فتبتهجُ وتتضاعفُ قواها، وتنشط إلى عمل الصّالحات، وكأنّ (لا) مِعْوَلُ هدمٍ لِكُفران السّعي، وأداةُ بناءِ الثّقة في قَبوله ومباركةِ أجره لأصحابه المؤمنين، وتلك من دلالة مفهوم المخالفة.

نُكْتَةُ نفيِ اسمِ الكُفران دونَ فعلِه:

الاعتراف بالخير يستلزمُ الجزاءَ عليه

نفَى النّظمُ الكريم ﴿كُفۡرَانَ﴾ سعيِ العبد دونَ نفيِ الفعلِ فقال: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾؛ ولم يَقُلْ (فلا يُكَفَّر سعيُه)؛ وذلك للمبالغة في قَبول سَعيِ العبدِ المؤمن ومباركته، لأنّ في التّعبير بالاسميَّة نفيًا للثّبوت والدّوام، وفي نفي الفعلِ نفيٌ لدلالة التّجدُّد، ودلالةُ التَّجدُّد قد توهِمُ بقاءَ بَقيّةٍ من أصل المعنى، و"الكفران مصدرٌ أصلُه عدمُ الاعترافِ بالإحسان، وهو ضِدّ الشُّكران، واستُعمِل هنا في حرمان الجزاء على العمل الصّالح على طريقة المجاز؛ لأنَّ الاعتراف بالخير يستلزم الجزاءَ عليه عُرْفًا كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ﴾ [آل عمران: 115]؛ فالمعنى: أنهم يُعطَوْن جزاءَ أعمالِهم الصّالحة"[2].

نـفـيُ صـيـغـةِ (فُـعـلان) أوقـعُ وآكَدُ

كما أنَّ نفي صيغة (فُعلان) في ﴿كُفۡرَانَ﴾ أوقعُ وآكَدُ من نفي الفعل المُتعلّق بزمانٍ مُحدَّدٍ - وهو المضارع (يُكفر) - وكأنّ النّفي يتوجّه إليه بخاصّة، و"الكفران مَثَلٌ في حِرمان الثّواب، كما أنَّ الشُّكر مَثَلٌ في إعطائه"[3]، "وقوله: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ﴾ المُرادُ نفيُ الجنس؛ ليكون في نهاية المبالغة؛ لأنّ نفيَ الماهية يستلزم نفيَ جميع أفرادها"[4]، وفي ذلك "إبرازُ الإثابة في معرض الأمور الواجبة عليه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 184.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 144.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 134.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 184.

تعالى، ونفى نفيَ الجنسِ المُفيد للعموم؛ للمبالغة في التّنزيه"[1]، كما أنّ في نفي ﴿كُفۡرَانَ﴾ السَّعْي بيانًا لكمالِ نزاهتِه تعالى عنه بتصويرِه بصورةِ ما يستحيلُ صدورُه عنه تعالى"[2].

الكفران أعمُّ من الجُحود

بلاغةُ استعمال مُفردة الكفران دون الجحود:

إذا كان (الكفران) بمعنى الجُحود في قوله تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾، وكان الجُحود يعني "نفيَ ما في القلب ثَباتُه، وإثْباتَ ما في القلب نَفْيُه"[3]؛ فإنّ في نفي الكُفران من المبالغة ما ليس في نفي الجُحود، ممّا يضمن للعبد عدمَ "بُطلانِ ثوابِ عمله، وهو كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء: 19]، فالكُفران مَثَلٌ في حِرمان الثّواب، والشّكرُ مَثَلٌ في إعطائه"[4].

معنى (اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِسَعۡيِهِۦ﴾:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِسَعۡيِهِۦ﴾ بمعنى (مِن) التّبعيضيَّة، أي: فلا كفرانَ لِشيءٍ من سعيه البتة، وقد تكون (اللّام) بمعنى التّعليل؛ أي: فلا كفرانَ لأجل سعيه الطّيّب، وأنّ سعيَه المقبولَ المشكورَ سببُ نجاتِه وفوزه.

السَّعيُ أشملُ مِنَ العملِ؛ فيدخلُ فيه كلُّ ما بدأه المسلمُ من عملٍ

اختيار مُفردة (السّعي) بعد مُفردةِ (العمل):

عَدَلَ النّظمُ الكريم عن ذِكْر العمل إلى ذِكر (السَّعْي) في قوله تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾، بعد تقدُّم ذِكْر (العمل) في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ "لإظهار الاعتداد به"[5]، و"التّنويه بالجِدّ فيه، والقصد إليه"[6]، و"أنّ صاحب هذا العملِ الصّالح قد بذل فيه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 86.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(3) أبو البقاء، الكلّيّات: (جحد).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 184.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 84.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 497.

جهدًا مشكورًا، وسعى من أجل الحصول عليه سعيًا بذلَ فيه طاقتَه"[1]، كما أنّ مفردة (السعي) توحي بقبول سعيِه كلّه؛ ليقظةِ صاحبِه، وتحاشيه السّيئاتِ، وأنَّ السَّعيَ يشملُ الأعمالَ الصّالحة سواءٌ بالنِّيَّة أو الهَمِّ بها، أو تحقيقِها الفِعليّ، وتوحي بأنّ سيئاتِه ستتبدّلُ حسناتٍ، كما قال تعالى في جزاء عباد الرّحمن: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان: 70].

غرض التّوكيد ودلالتُه:

في التّوكيد تطهيرٌ للنّفوس من كلّ شكٍّ وإزالةٌ لكلِّ ريبٍ

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ تأكيدٌ لثُبوت جزاءِ مَن يعمل الصّالحات، وقد أُكِّدَ بحرف التّأكيد (إنّ) للاهتمام به، والكتابة كناية عن تحقّقه وعدمِ إضاعتِه؛ لأنّ الاعتناء بإيقاع الشّيء يستلزم الحفظَ عن إهماله وعن إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابتُه؛ ليُذكر ولو طالت المُدّة، وهذا لزومٌ عُرفيٌّ[2]، وقُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ لكمال العناية بمَن يعمل عملًا صالحًا؛ أيْ: كلّ عامل يُقيّد له عملُه بخاصّة، ويُحصَى كلّ ما يَخصّه[3]؛ وعليه فإنَّ جملة التّذييل أُكّدت بأكثر من مؤكِّد؛ بـ (إنّ) المتّصلة بضمير العَظَمة (نا)، وباسميّة الجملة، وبتقديم ﴿وَإِنَّا﴾.

نُكْتَةُ مجيء المُسنَد إليه ضميرًا:

إسنادُ الكتابةِ للعظيم يُجلِّل الكتابةَ بالهيبةِ والعَظَمةِ

من عطاء مَجيء المُسنَد إليه هنا ضميرَ تكلُّم (إنا) إتاحةُ ذِكرِ ضميرِ العَظَمة؛ وفي ذلك تطمينٌ للنّفس المؤمنة بأنّ جزاء العظيم سبحانه وتعالى سيكون عظيمًا، كما أنّ أسلوبَ التّكلُّم - بما فيه من حضور - يُعَدُّ عنصرَ تطمينٍ للنّفس، وتبشيرٍ لها؛ لأنّ قول القائل: (أنا أضمَن لك كذا) أكثرُ ضمانًا من قوله عن نفسه أيضًا بضمير الغائب: فلانٌ يضمَن لك كذا، ولله سبحانه وتعالى المثل الأعلى.

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 249.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 144.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير، ص: 4915.

وممّا يدعم القصدَ إلى تلك الدّلالة أنّ الكاتب الحقيقيَّ لسَعي العبادِ همُ الملائكة الكرامُ الكاتبون، وذلك ما فسّره به العلماءُ هنا فقالوا في بيان قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾: "أيّ: الحَفَظَة بأمرنا ﴿كَٰتِبُونَ﴾ في صحيفة عمله، فنُثْبِته به"(1)، وليس التّطمينُ بكتابة الملائكة في قوة التّطمين بكتابة العظيم نفسِه سبحانه وتعالى.

تعيين مرجع الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾ ودلالة تقديم الجارّ والمجرور:

وإنّ عليكم لحافظين كرامًا كاتبين

يرجع الضّمير في ﴿لَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ إلى السّعي؛ أيّ: "لسَعيه كاتِبونَ مُثْبِتون في صحيفة عمله، لا يضيع بوجهٍ ما"(2)، وقُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على المُسنَد ﴿كَٰتِبُونَ﴾ للدّلالة على القَصْر، وأنّه تعالى لا يتولّى بنفسه كتابةَ شيءٍ من أعمال الصّالحين.

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾:

سعيُ المؤمن يَختصُّ بالبِشارة ويُسَنِّمه الشّرفَ ويُمَلِّكه الأجر

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ للاختصاص، فـ (إنّا) تَخصُّه بِتلك البشارة الكبيرة، وتُسنِّمه ذلك الشّرفَ المُعَلّى، وتُمَلِّكه ذلك الأجرَ الكبير، فلا يشاركُه فيه غيرُه، وفي ذلك فريدُ التّكريم، حيثُ يُحَدَّدُ لأجله ويُعَيَّنُ ما لا يُحَدّد لأجل غيره.

بلاغة الكناية في اختيار مُفردة ﴿كَٰتِبُونَ﴾:

كتابة السّعي كنايةٌ عن الثّواب؛ إذ ليست كتابته الغاية

إيثارُ التّعبير بالكتابة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ يَطوي كنايةً بارعةً عن تأكُّد المُجازاة؛ لأنَّ مطلوب العبد ليس كتابةُ سعيه، وإنّما ما وراءَها من الثّواب المُحقَّق؛ فالمُراد بـ ﴿كَٰتِبُونَ﴾: "حافظون لِنُجازيَ عليه"(3)؛ "وما نحن مُثبتوه فهو غيرُ ضائعٍ، ومُثابٌ عليه صاحبُه"(4)؛ و"لأنّ الاعتناء بإيقاع الشّيء يستلزم الحفظَ عن إهماله

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 420.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 60.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 184.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 134.

وعن إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابتُه ليُذْكَر ولو طالت المُدَّة، وهذا لُزومٌ عُرفيّ... وذلك مع كون الكتابة مُستعملةً في معناها الأصليّ كما جاءت بذلك الظّواهرُ مِنَ الكتاب والسُّنَّة"(1)؛ لأنّ القرينة في الكناية غيرُ مانعةٍ من إرادة المعنى الأصليّ للفظ الكناية(2).

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلّق اسمِ الفاعل ﴿كَٰتِبُونَ﴾:

تتعلّق كلُّ نفسٍ بكتابة ما ترجوه عند ربّها تعالى

آثَر النّظمُ الكريم حذفَ مُتعلِّق اسمِ الفاعل ﴿كَٰتِبُونَ﴾، والتّقدير: "كاتبون إمّا في أُمِّ الكتاب، أو في الصُّحف الَّتي تُعرَض يومَ القيامة، والمُراد بذلك: ترغيبُ العبادِ في التَّمسُّك بِطاعة الله تعالى"(3)، وكذلك سكتَ النّظمُ الكريم عن المكتوب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ ما هو؟ لأنَّه كان مفهومًا من الجملة السّابقة ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾، فإن حذْفَه يَذهبُ بالذّهن مذاهبَ شتّى، ويفسحُ له احتمالَ كتابةِ السَّعْي، واحتمالَ كتابةِ أجْره، واحتمالَ كتابةِ القَبول، وهكذا تتكاثفُ الدّلالات المُحتمَلة بِحَذْف متعلّق الكتابة، وتتعلّق كلّ نفسٍ بكتابة ما ترجوه، وما تتطلَّع إليه عند ربِّها تعالى، وعنده سبحانه: ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ [الزّخرف: 71].

تقدير حذفِ المُتقابلات:

السّياقُ يَذْكُرُ المطلوبَ ويطوي ذِكْرَ غيره

تقتضي القِسْمةُ العقليّة في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ ثلاثَ مقابلات لها لم يذكرها النّصُّ الكريمُ؛ الأولى: ومَنْ يعمل منَ السّيّئات وهو كافرٌ فلا نُقيم له وزنًا، والثّانية: ومَنْ يعمل منَ السّيّئات وهو مؤمن فهو في مشيئتنا(4)، "ولعلَّه حَذَف هذَيْن القِسمَيْن ترغيبًا في الإيمان"(5)، والثّالثة: ومَنْ يعمل منَ الصّالحات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 144.
(2) عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 1/ 46.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 184.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 480.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 480.

وهو كافر، وقد جاء جزاءُ ذلك في قول الله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23]، ومِنَ اللّافت بقوّةٍ أنّ الذِّكْر الحكيمَ نَصَّ على القِسم الأوَّل فقط، وهو قولُه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾، لكنّه ذَكَر هنا من القرائن ما يُعوِّض عن ذِكْر مصيرِ الَّذين ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؛ وهو قولُه تعالى بعدَه: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾؛ لأنّها مُتعلِّقةٌ بِهلاكهم.

معنى (الواو) ودلالتُها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ للعطفِ، وجاءت متوسِّطةً بين الكمالَيْن؛ فكلاهما خبران منَ الله تعالى، وكلاهما تقرِّران المصيرَ الأخرويَّ لِفريقٍ من العِباد، وتُفيد (الواو) أنّ في جملتها "تقريرَ مضمونِ ما قبلَها من قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾"[1].

دلالة اختيار مُفردة ﴿وَحَرَٰمٌ﴾:

حرَّم المشركون على أنفسِهم الإيمانَ بالبعثِ؛ فحرَّم اللهُ عليهمُ الرُّجوعَ إلى الدُّنيا

لفظ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ هو اللّفظ الأفصح في بابه من المنع القاطع الَّذي لا يَترك أيَّ احتمالٍ لحصول غيره؛ فالتّعبير به في قوله: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ مُؤْيِسٌ لكلّ ضالٍّ تمامَ الإياس من إتاحة أيّة فرصةٍ للنّجاة من تبعات ما قدَّمت يداه، وفيه "بيانٌ للوجه المقابل للمؤمنين، وهو وجه الكافرين، وقد جاء النّظم القرآنيُّ على هذا الأسلوب؛ ليكشفَ عن حالِ هؤلاء المجرمين في الدّنيا والآخرة معًا؛ فهم في الدّنيا مُعرَّضون للهلاك الَّذي يُعجَّل للظّالمين، وفي الآخرة واقعون تحت عذاب الله ﷻ، مَسوقون إليه، يتمَنَّون أن يعودوا إلى الدّنيا لِيُصلحوا ما أفسدوا، ولكن هيْهات هيْهات"[2]، وفيه إلى ذلك "تأكيدٌ لِهذا الحُكم، وجَعْلُ عودتِهم إلى الدّنيا منَ المُحرَّمات الَّتي إنِ ارتكبها المجرمون فإنّها

(1) حقّي، روح البيان: 5/ 522.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 953.

لا تجيءُ من عند اللّه تعالى، فكما كتب سبحانه على نفسه الرّحمة حرّم سبحانه على نفسه أنْ يُرْجِع الموتى إلى الدّنيا مرَّة أُخرى، وإنّما يَبعثُهم للحساب والجزاء"[1]، وفيه "تخويفٌ لِكفار مكّة أنهم إنْ عُذِّبوا وأُهلِكوا، لَم يرجعوا إلى الدّنيا، كغيرهم منَ الأمم المهلَكَة"[2].

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿وَحَرَٰمٌ﴾:

تنوُّعُ القراءات ثراءٌ لدلالات السّياق

قرأ شعبةُ وحمزة والكِسائيّ ﴿وَحِرْمٌ﴾ بكسر الحاء وسكون الرّاء، وقرأ الباقون: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾؛ وهما مصدران بمعنًى؛ نحو: الحِل والحَلال[3]، و"﴿وَحِرْمٌ﴾ بمعنى حَتْمٌ، وجاء عن ابن عبّاس أنّه قال: حَتْمٌ عليهم ألّا يرجعوا إلى دنياهم، وجاء عنه وعن قتادة: أنّهم لا يرجعون إلى توبةٍ، وعند أهل اللُّغة حِرْم وحَرام في معنًى واحدٍ، مثل: حِلّ وحَلال"[4]، والمعنى: (حَرام على قَرْيةٍ أهلكناها أن نَتقبل منهم عملًا؛ لأنَّهم لا يرجعون)؛ أيْ: لا يتوبون.

فائدةُ استعمال حرف الاستعلاء:

قضاءُ اللهِ تعالى مُستحكِمٌ لا فكاكَ منه

التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾، مُصَوِّرٌ لإفراغ شيء من أعلى على شيءٍ أسفلَ منه، وكأنّ حُرمةَ رجوعِ القريةِ المُهْلَكَة قد صُبَّتْ عليها من فوقها واستحكمت منها؛ فلا فكاكَ لها من ذلك الحُكم بحُرمة الرّجوع، وذلك في الإيحاء باستحكام الحُكم أمكنُ، ومِن احتمال ضَعفِه أبعدُ، أو يكون المعنى على تقدير محذوف: (وحُكم الرّجوع إلى الدُّنيا نازلٌ بأنَّه حرامٌ)، أو "ومحكومٌ على أيّة قريةٍ هَلَكَت ألّا يرجع أهلُها مرّةً أُخرى إلى الدّنيا، أو أن يَفرّوا من هذا العذاب المُعدّ لهم"[5].

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 953.
(2) الواحديّ، التَّفسير الوسيط: 3/ 251.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 324، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 99.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 404.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 953.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالقرية دونَ المدينة:

الاجتماع على الكفر والمعاصي مفتاحُ البَوار

التّعبير بالقريةِ دونَ (المدينة) في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ مُتَّسِقٌ جدًّا مع التّيئيس؛ لأنّه يعكس اجتماعَ أهلِ تلك القرية على المعصية المُهْلِكَة المُبيرَة، وأنّ القرية قد خلتْ ممّن قد يستبقيها اللّهُ تعالى قائمةً لأجله من أهل الصّلاح، أمّا التّعبير بـ (المدينة) - لو جاء في الآية الكريمة - فكان سيوحي بأنّهم أخلاطٌ من عُصاةٍ وطائعين، وأنّه تعالى قد يَرحم العصاةَ بالطّائعين؛ فيَضعُف الحُكمُ القاطعُ الَّذي أوحى به لفظُ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾، أمّا التّعبير بالقرية فقد اتَّسَقَ أتمَّ الاتّساقِ مع القطع بالحُرمة.

غرض تنكير ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

هالكُ القُرى قليلٌ بالنّسبة لناجيها وقريةٌ تهلِكُ جديرةٌ بالتّحقير

تنكيرُ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ وإفرادُها في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ يتّسق مع التّعبير بالحُرمة المُطلَقة؛ لأنّه يُفيد التّقليل ويوحي بسَعة حِلم اللّه تعالى على خَلْقه، وأنّ ذلك يكون قليلًا نادرًا بالنّسبة للكثير النّاجي من القرى، كما وقع لقرية قوم لوطٍ عليه السلام، حين أجمعوا على استحلال الفاحشة؛ فقلبَتْها المَلائكةُ بأهلها رأسًا على عقِبٍ، وجَعلوا عاليَها سافلَها، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74]، ثمّ إنّ قريةً جديرةً بالإهلاك حَريةٌ بأن تكون نَكرةً منكورةً، تائهةً ضائعةً، لا قيمةَ لها، ولا اكتراثَ لهلاكها، وفي تنكيرها إذًا تحقيرٌ لها، وإزراءٌ عليها، وحُقّ لها ذلك.

بلاغة المجاز بحذف المضافِ:

قد ينال غيرَ المكلَّفِ فجورُ العقلاء المُكَلَّفين

المقصود بقوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾: على أهل قرية؛ "فالكلام على تقدير مُضافٍ، أو القرية مجازٌ عن أهلها"(1)، فذُكِر المكانُ، وأُريدَ المَكينُ، وفي ذلك المجاز - بإفراغ الإهلاك على القرية والمقصود أهلُها - كنايةٌ عن تمام الغضب الإلهيّ على كامِلِ أهلها،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 86.

حتّى لقد فاضَ الغضب على القرية نفسها - وهي الجماد الَّذي لا يُكلَّف - وكأنّ سيئاتِهم ومعاصيَهم لوَّثت القريةَ نفسَها؛ فاستوجبت الهلاكَ، وقد يتأثّر غيرُ المُكلَّفِ بسيّئات المُكلّف ويتضرّر بها، كما يُفهَم ذلك من قوله ﷺ: "والعَبْدُ الفاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبادُ والبِلادُ، والشَّجَرُ والدَّوابُّ"(1).

فائدة التنكير في لفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

أثار تنكيرُ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ الفَرَق والفَزَع في نفس المُتلقّي حين سبقَ الحُكم عليها بالحُرمة وتأخّر وصفُها، فتَشَوّق إلى معرفة وصفها، وهُيِّئَ لاستقبال ذلك الوصف بجملة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾.

اتّساقُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾:

إشعارُ المُكذِّبين بقطعيَّة الإهلاك ونـفـادِ أسـبـاب النَّجاة

"معنى ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾: عزمنا على إهلاكها، أو: قدَّرْنا إهلاكها"(2)، لكنّ إيثارَ صيغةِ الماضي في جملة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ يتناغم مع القَطع بالحُكم في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ﴾؛ وذلك بما في صيغة الماضي من حتميّة تحقُّق الوقوع - وقوع الإهلاك - الَّذي اكتساها، فما قضى اللّهُ تعالى بأنّه سيكون قطعًا سيكون، سبق وقوعُه أو تأخّر عن وقت الحُكم، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وكما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزّمر: 71]، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزّمر: 73]، إلى غير ذلك من شواهده المتكاثرة في القرآن الكريم.

بلاغة المجاز وتنوعه:

فـعـل الإهــلاك بين المجاز المرسل والحذف

فعل ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ يحتمل أن يكون مجازًا مرسلًا، باعتبار ما سيكون، ويحتمل المجاز بالحذف، ومعنى ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾: عزمنا على إهلاكها، أو قدّرنا إهلاكها، ومعنى الرجوع: الرجوع من الكفر إلى

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6512).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 134.

الإسلام والإنابة، أي: أن قومًا عزم الله على إهلاكهم، غير متصوّر أن يرجعوا وينيبوا إلى أن تقوم القيامة؛ فحينئذ يرجعون ويقولون: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء:97] يعني: أنهم مطبوع على قلوبهم، فلا يزالون على كفرهم ويموتون عليه حتى يروا العذاب[1]، فعلى القول بالمجاز بالحذف، هو إخبار عن الواقع الحاضر، وهو تقدير الإهلاك والعزم عليه، وعلى القول بالمجاز المرسل فهو إخبار عن المستقبل.

بديعُ فنِّ الإدماج:

تهديدُ المعرضين تحذيرٌ للكافرين وتخويفٌ للمترددين

في قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ فنُّ الإدماج، إذ أدمج جملة: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ وهي للوعيد بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة[2]، وهذا المعنى الَّذي يؤخذ على أنه إشارة نصية من فعل الإهلاك هو الإدماج، فالآية تلوِّح بعصا التّهديد لأولئك المُعرضين المناوئين، فأدمج تهديدًا ووعيدًا بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة، وذلك على القولِ بأنَّ الإهلاك هو إهلاك العذاب الدنيوي، ويصح القولُ بالإدماج كذلك على القولِ بأنَّ الإهلاكَ هو إهلاك الطبع على القلوب، بحيث لا يرجعون إلى الإيمان والإسلام، فيموتون على الكفر ويبعثون على ذلك[3].

دلالةُ استعمال مُفردة الإهلاك:

إهلاكُ القرى واستئصالُها دليلٌ على الغضب الإلهيّ

الإهلاك في قوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ يحتمل معنييّن؛ وهما: "وجدناها هالِكة بالذّنوب، أو أهلكناها"[4] نحن بالعذاب، أو حكمنا عليها بالإهلاك في علم الغيب، وذلك من براعة النّظم الكريم؛ لأنّ فيها الأسبابَ كما أنّ فيها النّتائجَ، والتّعبير بلفظ (الإهلاك) يُشعِر

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 135.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 43.
(3) المثنى عبد الفتاح، الإدماج في القرآن الكريم، بحث منشور في مجلة كلية الشريعة الكويت، ص: 36.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 470.

بتمام الغضب الإلهيّ، ووعيدِه الَّذي صُبَّ على تلك القرية وأهلها؛ حتّى لقد أتلفهم وأهدرهم، وقضى عليهم تمام القضاء.

نوع ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ومعناها:

نفي الرُّجوعِ على ظاهِرِه في الرَّدِّ على ما يعتقده بعضُ المُبْطلين

الصَّحيح أنَّ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ على بابِها في النَّفي، فعَبّر بالنَّفي في جملة ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ "لأنّ قومًا يقولون: إنّ الخَلق كالنّبات، يَنبُت ثمّ يَيْبَس ثمّ يَنبُت، فعلى ذلك الخَلْقُ، يموتون ثمّ يعودون ويرجِعون"[1]، وهذا ما تقضي الآية الكريمة بتحريمه ومنعِه منعًا مطلقًا؛ بموجِب الحُكم بـ ﴿وَحَرَامٌ﴾، وبذلك يكون مع نَفْي الرّجوع موصِدًا لباب الرّجوع إيصادًا لا مواربةَ معه البتّة، وما قيل من كونها زائدة، فمدفوعٌ لمنافاته بلاغةَ القرآن الكريم.

نُكْتَةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَرْجِعُونَ﴾:

دلَّت المضارعة في قوله تعالى: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ على تصوير الرّجوع المنفيِّ زيادةً في استحالةِ الرُّجوع والتّيئيس منه، فكأنَّه قيل: تصوّر الرّجوعَ، واعلم أنَّه مستحيلٌ.

بلاغة التّعبير بلفظ الرّجوع:

أطلقَ الرُّجوعَ وأراد التَّوبةَ من بابِ المجازِ المرسلِ

اختار النَّظمُ الكريمَ لفظ الرّجوع في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾؛ للدّلالة على معنى التَّوبة، والمعنى كما رويَ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قوله: (أنّهم لا يرجعون إلى توبة)[2]؛ أيّ: لا يتوبون، وعليه ففي الكلام إضمارٌ والتَّقدير: (حرامٌ على قرية حكمنا باستئصالِها، أو بالخَتم على قلوبِ أهلها أن يُتَقَبَّل منهم عملٌ؛ لأنّهم لا يرجعون)؛ أيّ: (لا يتوبون)[3]، فذَكَر الرُّجوعَ وأراد التَّوبةَ؛ لأنَّ الرُّجوع طريقُها وسببُها، فإن رجعوا أمكن لهم التَّوبةُ، وإذا لم يرجعوا امتنعتِ التَّوبةُ من بابِ أولى، فعليه يكون الرُّجوعُ مجازًا مُرسلًا علاقتُه السَّببيَّةُ.

---

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 375.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 404.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 503.

حُذِفَ المُتعلّقُ لانتفاءِ وجودِه في الواقع

غرضُ حذفِ مُتعلّق ﴿يَرۡجِعُونَ﴾:

حَذْفُ متعلّق ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ يتّسق أتمّ الاتّساق مع دلالة الحُرمة والإهلاك؛ ذلك أن القرية لم يَبْقَ لها مع الإهلاك أثَرٌ، فكان الأَوْلى حَذفَ المتعلّق لانتفاءِ وجودِه في الواقع، فلمّا نفى الرّجوعَ نفى معه كلَّ ما يُتصوّر أن يكون، فلم يَقُلْ: إنَّهم لا يرجعون إليها؛ لأنَّه ما بقي لها وجودٌ ولا أثر، وعليه فقدِ اختُلف في تقدير المحذوفِ؛ فقيل: "أنَّهُمْ لا يَرْجِعونَ إلى الدّنيا"[1]، أو "لا يرجعون إلى التّوبة"[2]، أو "الرّجوعُ من الكفر إلى الإسلام والإنابة"[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الكُفران تركُ الشكر والنُّكران الجحودُ

الكُفران والنُّكران:

"كُفْرُ النّعمةِ وكُفْرانُها: سترُها بِتركِ أداءِ شُكرها، قال تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾، وأعظم الكُفْرِ: جحود الوحدانيّة أو الشّريعة أو النّبوّة، والكُفْرانُ في جحود النّعمة أكثرُ استعمالًا، والكُفْرُ في الدّين أكثر، والكُفورُ فيهما جميعًا، قال تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ [الإسراء: 99]".

و"الإنكار: الجُحود، كالنّكران، بالضّمّ، والمُناكَرة: المُخادَعة والمُراوغَة، وأنكرُ الأصواتِ: أقبحُها، وبه فُسِّرتِ الآيةُ، والنَّكارة بالفتح: الجهالة، وما أنكره: ما أدهاهُ، وأمرٌ نكيرٌ: شديدٌ صعبٌ، والمَنْكور: المجهول"[4].

القرية ما جمع أهلَها جامِعٌ والمدينةُ ما كان سُكّانها أشتاتًا

القرية والمدينة:

يُطلِقُ القرآنُ الكريم اسمَ (القرية) على كلّ مجتمعٍ يتّفق في

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 441.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 470.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 134.
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: 14/ 291.

عاداته، أو أخلاقِه، أو عقيدته، أو حِرْفته كما أُطلق في سورة الكهف على مجتمع البُخلاء اسم (القرية): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77].

أمّا إذا اختلفت طبائعُ أهلِ المجتمعِ في شيءٍ من ذلك؛ أطلقَ عليها القرآنُ الكريمُ وصفَ (المدينة)، كما أطلَق على يثربَ اسمَ (المدينة)؛ وذلك لاختلاف طبائعِ أهلِها بعد الهجرة، وافتراقِهم إلى منافقين وصحابةٍ مخلِصين؛ فقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التّوبة: 101]، وقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾ [النَّمل: 48].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 96 - 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقالُ مِنَ التَّنبيه على فواتِ التَّوبة إلى ذِكْرِ علامةِ القيامة

لمّا حرّم اللّهُ تعالى في الآية السّابقة ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ رجوعَ المُهلَكين إلى فرصةِ التّوبة؛ حدّد سبحانَه هنا أمَدَ ذلك التّحريم، وبيّن أنَّه إلى وقت مُداهمة السّاعة، وذكرَ دليلًا من أدِلّتِها، وشَرَطًا من أشراطها، فقال ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾، أي: أمَدُ ذلك أن تُفتَح يأجوجُ ومأجوجُ، ويقتربَ الوعدُ الحَقّ، ويَفْجَأَهُم فتشخصَ أبصارُهم، ولا تَطْرُف من هول المفاجأة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فُتِحَتۡ﴾: (فتح) أَصْلٌ يَدُلُّ على خلافِ الإغلاقِ، والفَتْحُ: إزالةُ الإغلاق والإشكال، يُقالُ: فَتَحْتُ البابَ وغيرَهُ فَتْحًا، ثُمَّ يُحمَلُ على هذا سائرُ ما في هذا البِناءِ[1]، وفاتِحَةُ كلِّ شيءٍ: مَبْدَؤه الَّذي يُفتَح به ما بعدَه[2]، والمقصود بالفتح في الآية: التَّخليةُ؛ أيْ: فَتْحُ السَّدِّ الَّذي هو حائلٌ بينهم وبينَ الانتشارِ في أنحاءِ الأرض بالفسادِ[3].

2) ﴿يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾: بالهمز: من أجَّتِ النّار تَئِجُّ: إذا سمعتَ صوتَ لَهَبِها، أو من الماء الأُجاج، وهو الشَّديدُ المُلوحةِ المُحْرِقُ من مُلوحتِه، وقيل: إنَّ اشتقاقَهما من الأجِّ وهو سُرعةُ العَدْوِ، وقيل:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فتح).
(2) الرّاغب، المُفردات: (فتح).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 147.

من الأَجَّةِ؛ وهي الاختلاط والاضطراب، وهما غيرُ مصروفيْن[1]، وقيل: يأجوج ومأجوج اسمان أعجميّان، وهما قبيلتان من بني آدمَ، كثيرتا العدَدِ، من ولد يافِث بن نوح ﷺ، يخرجان في زمن عيسى ﷺ آخر الزَّمان، ويُفسدان في الأرض حتَّى يهلكَهُما اللّهُ تعالى[2]، قال الأخفش: من همز يأجوج ومأجوج يجعل الألف منَ الأصل؛ يقول: يأجوج (يفعول)، ومأجوج (مفعول)، كأنّه من أجيج النّار، ومَن لا يهمز يجعل الألفيْن زائدتيْن؛ يقول: ياجوج من يَجَجتُ، وماجوج من مَجَجت، وهما غير مصروفيْن[3].

3) ﴿حَدَبٍ﴾: هو ارْتِفاعُ الشَّيْءِ، والحَدَبُ: حَدورٌ في صَبَبٍ، ومِن ذَلك: حَدَبُ الرّيحِ وحَدَبُ الرَّمْلِ، والجمعُ: الحِداب[4]، والحَدَبة: موضع الحَدَب من ظهْر الأحْدَب[5]، وناقة حدباء تشبيهًا به، ثمّ شُبّه به ما ارتفع من ظهر الأرضِ؛ فسُمّي حَدَبًا[6]؛ وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

4) ﴿يَنسِلُونَ﴾: النَّسْل: الانْفِصالُ عنِ الشَّيْءِ والانْسِلالُ عَنهُ، ونَسَلَ الشَّيْءُ نُسولًا: خَرَجَ، وسَقَطَ[7]، والنَّسَلان مِشْيةُ الذّئب إذا أسرع، ونَسْلُ الرَّجل: ولدُه وولدُ وِلدِه، والنّاسُ نَسْلُ آدم، وسُمّي نسلًا لأنَّهُ يَنْسَلُّ؛ أيْ: ينفصلُ من أصله، وقد نَسَلَ في العَدْوِ يَنْسِلُ ويَنْسُلُ نَسْلًا ونَسَلانًا؛ أيْ: أسرع[8]، والمُرادُ بالنَّسلِ في الآيةِ: المَشْيُ السَّريعُ؛ لأنَّ ياجوجَ وماجوجَ لمّا انتشروا في الأرضِ؛ انتشروا مُسْرعين كالذِّئاب، جياعًا مُفسِدينَ[9].

5) ﴿شَٰخِصَةٌ﴾: (شخص) أصْلٌ يدلُّ على ارْتِفاعٍ في شيءٍ[10]، ومن ذلكَ الشَّخْص: كلُّ جِسْم لَهُ ارْتِفاعٌ وظُهورٌ، والمُرادُ بِهِ إثباتُ الذّاتِ، فاسْتُعير لها لفظُ الشَّخْصِ[11]، ومن ثَمَّ يُحمَلُ على ذلكَ، فيُقال: شخَصَ الرَّجلُ ببصره إذا أحَدَّ النَّظرَ رافعًا طَرْفَه إلى السَّماء،

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (أجج).

(2) البركتيّ، التّعريفات الفقهيّة، ص: 244.

(3) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أجج).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حدب).

(5) الخليل، العين: (حدب).

(6) الرّاغب، المُفردات: (حدب).

(7) ابن عباد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نسل).

(8) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (نسل).

(9) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 150.

(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شخص).

(11) ابن منظور، لسان العرب: (شخص).

ولا يكون الشّاخص إلّا كذلك[1]، وشخَص من مكانٍ إلى مكانٍ إذا سار في ارْتِفاع، فإن سار في انحدارٍ فهو هابط[2]، وشَخَصَ بَصَرُ فُلانٍ إذا فتحَ عينيَه لا يَطرِفُ[3]، والشُّخوصُ في الآية مُرادٌ به: إحدادُ البَصَرِ دونَ تحرُّكٍ كما يقعُ للمَبهوتِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أوّلُ مَن يُعاقب الكفارَ يومَ القيامة أنفسُهم؛ وذلك بالتَّحسُّر والتَّندُّم لِفوات التَّوبة

تُبيِّن الآيتانِ أنَّ قُرى الكفرِ تبقى في كفرِها وغيِّها وعنادِها إلى وقت فتْحِ أبوابِ الشَّرّ من يأْجوج ومأْجوج، وخروجِهم من كلّ مكانٍ مرتفع من الجبال والهضاب، يُسرعون إلى البغْي والعدوان على خَلْقِ اللّه تعالى، واقترب بخروجهم تحقيقُ الوعدِ الحَقّ بالبَعْث، إذ يُهلِك اللّهُ تعالى الخلائقَ، ثمّ يبعثُهم ويحشرُهم إلى ساحة الحساب؛ حيثُ الأهوالُ الجِسامُ؛ فإذا أبصارُ الكافرين الَّذين أنكروا البعثَ شاخصةٌ لا تطرُف هَلَعًا، يقولون من شِدّة الكرب: يا عذابنا الشّديد الَّذي ينتظرنا، قد كنّا في دُنْيانا في غفلة عن هذا اليوم؛ بل كنّا ظالمين لأنفسنا بالإصرار على الكفر[5]، حيثُ نَبَّهَتْنا الآياتُ والنُّذُرُ فلم نتنبّه للخَطَر المُنتَظَر، وبَقينا كافرين بالبعث والحساب؛ فحَقَّ علينا قولُ ربِّنا بالخُلود في العذاب المُهين[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها الارتباطيّة:

يُرخي اللهُ تعالى للكفّار العنان حتّى تحين آجالُهم فلا يَبقى لهم عذرٌ

وجْهُ تَعَلُّقِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بما قبلَها وما بعدها هنا دقيقٌ؛ وذلك لوقوع ﴿إِذَا﴾ الشّرطيّة بعدها، مِمّا يُرجَّح أنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ "ابتدائيةٌ - وهي الّتي

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شخص).
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شخص).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شخص).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 151.
(5) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1155.
(6) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1155.

يُحكَى بعدها الكلامُ، والكلام المَحكيّ هنا جُملة الشّرط والجزاء - "[1]، فهي حرفٌ لابتداء الغاية، أمّا انتهاء الحدثِ المبدوء بها فيُتَرَقَّبُ في جواب ﴿إِذَا﴾ بعدَها، والمعنى على هذا: أنّ فتح سدِّ يأجوجَ ومأجوجَ وبدايةَ نَسْلِهم من كلِّ حَدَب في كلِّ طريقٍ هو لحظةُ شخوصِ أبصارِ المُهلَكين؛ وهو بداية الأحداث الجِسام.

أمّا موقعُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا بالنّسبة للحُكْم السّابق بعدم رجوع المُهلَكين ﴿لَا يَرۡجِعُونَ﴾ فتُعَدُّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ "حرفَ انتهاءِ غايةٍ لامتناع الرّجوع؛ فهي مُتعلِّقة بـ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾"[2]؛ أيّ: "يستمر الامتناع - امتناع رجوعِهم - إلى هذا الوقت، ولا عملَ لها في ﴿إِذَا﴾"[3] حينَئِذٍ، وقد جُمِعَ بينَ الوُجهتيْن؛ أيّ: أن تكون غايةً لامتناع الرّجوع؛ فهي متعلّقة بـ ﴿وَحَرَٰمٌ﴾ على أنّها حرف غاية وجَرّ، وأن تكون ابتدائيّةً[4].

نوعُ ﴿إِذَا﴾ ودلالتُها:

فتحُ سدِّ يأجوجَ ومأجوجَ حتميٌّ بصرف النَّظر عن حقيقةِ معناه

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾ ظرفٌ لِما يُستقبل من الزّمان، متعلّقٌ بمحذوف تقديره: (قالوا)[5]: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾، وهي توحي هنا بالقطع بِتحقُّق مدخولها، وأنّ سَدّ يأجوجَ ومأجوجَ يومًا ما مفتوحٌ قطعًا لا شَكّ في ذلك، وأنّه حين يُفتَح سيكونون كالأمواج الهادرة تَفيض بهمُ المرتفعاتُ والمُنخفضات، لا يقوم لهم أحدٌ إلّا بإذن الله تعالى، وفي ذلك تحذيرٌ من شَرّهم، ومن وُجوب ترقُّبِ فتحِه للحَذَرِ منهم.

ثراءُ الشّرط بتقدير الجواب:

تقديرُ فعلِ القول جوابًا للشَّرط أَوْلى الأقوالِ بالسّياق

الشّرط بـ ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 362.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 362.
(3) العُكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 927.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 362.
(5) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/ 297.

يتجلّى في تحديد جوابها؛ لأنَّ تحديده يذهب بذِهْن القارئ إلى أكثر من جواب؛ من ذلك: أن يكون الجواب: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ وتكون (الواو) زائدة؛ وهو قول ضعيف، أو أن يكون الجواب: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ والمعنى: (إذا فُتِحَت يأجوجُ ومأجوجُ باغتَهم هولُ ما يرون، فَشَخَصَت أبصارُهم)، أو أن يكون الجوابُ: قالوا ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ ثّم حُذِفَ (قالوا)؛ وهو قولٌ حَسَنٌ[1]، ومثالُه قولُه جلّ وعزّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزّمر: 3]؛ قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 3]، وحَذْفُ القول كثيرٌ[2]، وهذا التّقدير أقواها.

بلاغةُ الكناية في مُفردةِ ﴿فُتِحَتۡ﴾:

الفتح في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ﴾ بمعنى: "الإرسال"[3]؛ أي: "إخراجُهما عنِ السّدّ الَّذي جُعِلا وراءَه، وكأنّهما قُيّدا بذلك السَّدّ، فإذا ارتفع السّدُّ انفتحا"[4]، وفتح السَّدِّ من أشراط السّاعة[5]، وآثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بمُفردة ﴿فُتِحَتۡ﴾ كنايةً عنِ الإذن بخروجهم؛ لأنّ خطر خروجهم مُترتِّب على فتح السَّدِّ، والدّليل قولُه تعالى في سورة الكهف: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 97]؛ بما فيه منَ الدّلالة على مُحاولتهم ذلك، وبقرينة قوله ﷺ: "ويْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ مِثْلُ هَذِهِ وحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإبْهامِ والَّتي تَليها"[6].

أهلُ الشّرّ مكبوتون؛ فإن أُتيحَتِ الفُرصة عَمَّ شرُّهم وصَعُب كَبْحُهُم

نُكْتَةُ التّعبيرِ بِصيغةِ المبنيّ للمفعول:

آثَرَ النّظمُ الكريم صيغةَ البناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿فُتِحَتۡ﴾

توجيهُ الأنظار لمقاصد الكلام منهجُ القرآن في بناءِ الأفهام

(1) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(2) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 462.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 252.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 470.
(6) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3346).

اقتصادًا في اللّفظ؛ وذلك لِلعِلْم بمعالِج فتْحه، وهم يأجوجُ ومأجوجُ أنفسُهم الَّذين لا يزالون يحاولون ظهورَه فينزلقون، ويحاولون نقبَه فيَعجِزون، كما قال اللّه تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 97]، ولِلعِلْم بالآذِن ﷻ، وأنّه اللّه سبحانه لا شريك له، ولتوجيه الأنظار إلى خطورةِ ما بعدَ الفتح، لا إلى مَن هو الفاتح.

براعة تأنيث فعل ﴿فُتِحَتۡ﴾:

التَّأنيث لأُمَّة يأجوج ومأجوجَ وفتحُ السَّدِّ وسيلة انتشارهم

الذي سيُفتح هو سدُّ يأجوجَ ومأجوجَ، وقد جاء الفعل ﴿فُتِحَتۡ﴾ مؤنَّثًا، فيُسأل عن ذلك؟ وقد تأوَّل العلماءُ ذلك التّأنيث بأنَّ الَّتي فُتحَتْ "جهةُ يأجوجَ ومأجوجَ"[1]، أو أن يكون لتأويل يأجوجَ ومأجوجَ بالأُمَّة، ثمَّ يُقدَّر المُضاف وهو (سَدّ) فيُكتَسَب التّأنيثُ من المُضاف إليه، وفِعل الفتح قرينةٌ على المفعول[2]، والمعنى: "حتّى إذا فُتح سَدُّ يأجوج ومأجوج، مِثْل: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]"[3]، وهذا من براعة الذِّكْر الحكيم.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تنوُّع القراءات يُثري السّياقات بالدّلالات

قَرَأ ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب ﴿فُتِّحَتۡ﴾ بالتّشديد، وقَرَأ الباقون ﴿فُتِحَتۡ﴾ بتخفيف التّاء، وقراءةُ "التّشديد تدُلُّ على كثرة التّفتيح، أو على كثرة الخارجين منَ الفتح، وإن كان فتحة واحدة كما أشار إطلاق قراءة الجماعة بالتّخفيف"[4]، كما أنّ التّشديد يوحي بالمبالغة[5] الَّتي تتناغم مع تلك الأمواج الهادرة من شَعْب يأجوجَ ومأجوجَ، بدليل اندفاعهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ﴾ كما صرّح القرآن الكريم.

معنى الواو ودلالتها:

تَدَفُّقُ يأجوج ومأجوج لحظةَ خروجهم دليلُ فظاعة شَرِّهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ واوُ الحال

(1) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 565.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 149.
(3) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 258، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 480.
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 441.

الَّتي تستحضِر صورتَهم وهم يتدفَّقون من كلّ حَدَب وصَوب، وقد آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن هذه الحالِ بجملة ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ دونَ الحال المُفرد، كأن يُقال: (ناسلين من كلّ حَدَب)؛ لإفادة ما تَفيضُ به الجملةُ من دلالات التّقديم لـ (هم)، و﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ على ﴿يَنسِلُونَ﴾، والمضارَعة في ﴿يَنسِلُونَ﴾، إلى آخر تلك الدّلالات الَّتي تُتيحها الجملةُ، ولا يُطيقها المُفرد، وتلك الواو توحي بأن نَسْل يأجوجَ ومأجوجَ من كلِّ حَدَبٍ يكاد يكون في اللّحظة الَّتي يُفتَح فيها سَدُّهم مباشرةً كنايةً عن شِدّة شَرِّهمُ المحبوسِ عن الخَلْق.

غرضُ الجملة الاسميّة:

أشراطُ السّاعة أمرٌ مُحقَّقٌ لا مناصَ منه

في التّعبير بالجُملة الاسميّة ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ ثراءٌ وغَناءٌ للتّركيب؛ لأنَّها أتاحت تقديمَ الضّمير (هم) على الخبر الفعليّ ﴿يَنسِلُونَ﴾؛ فأفاد القَصْرَ، إضافةً إلى ما تصرَّف فيه النّظمُ الكريم من تقديم القَيْد بالجارِّ والمجرور ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ على المُسنَد ﴿يَنسِلُونَ﴾، ووراءَ كلّ خصيصة من تلك الخصائص إشاراتٌ بليغةٌ، وفي هذه الجملة الاسميَّة ثباتٌ مؤكَّدٌ في بيان ما الَّذي سيكون يومئذٍ.

معنى حرف ﴿مِّن﴾ ودلالتُه:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ حرف ابتداءٍ؛ يُفصح عن بداية انبعاثِ الأفواج المُتدفّقة من يأجوجَ ومأجوجَ، فإنّهم يطلعون ﴿مِّن﴾ كلّ شِعْبٍ، ومن كلِّ فَجٍّ مِن فِجاج الأرض؛ فهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾؛ وهذا يدلُّ على انتشارهم وكثرتهم.

فائدة التّعبير بلفظ العمومِ ﴿كُلِّ﴾:

يأجوجُ ومأجوجُ سينتشرون في الأرض ويتكاثرون في العَدَد

التّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ يُقرِّر أنّ تلك الأمواجَ الهادرة من جماعات يأجوجَ ومأجوجَ ستتدفّق مِن فِجاج الأرض جميعًا لكثرتها، لا يبقى فيها فَجٌّ إلّا ويخرج منه فوجٌ؛ وذلك

كنايةٌ عن كثرتهم كثرةً تكاد تفوق الخيال؛ لذلك كانوا مبعثَ قلقٍ للعباد، فهم لا يقوم لهم شيءٌ، ولا يعترضهم أحدٌ إلّا داسوه، والدّليل على ذلك قولُ اللّه تعالى لعيسى ﷺ: "إنّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبادًا لي، لا يَدانِ لأَحَدٍ بِقِتالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبادي إلَى الطّورِ، ويَبْعَثُ اللّهُ يَأْجوجَ ومَأْجوجَ، وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلونَ"[1]، وسببُ ذلك التّدفّق - من كلّ حَدَب - "أنّهم مُذْ سُدَّ عليهم السَّدُّ في جَهْد من فتح ذلك السّدّ، فلمّا فُتِح خرجوا مُسرعين، وهو ما ذُكِر: ﴿۞وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ [الكهف: 99]"[2].

براعة التّعبير بمُفردةِ ﴿حَدَبٖ﴾:

الحَدَب هو المكان العالي المُشرِف من الأرض[3]، وقيل: الحَدَبُ: الأَكَمَةُ، ومن كلّ جهة؛ ومن كل مكان[4]، وفي إيثار التّعبير بالحَدَب إيحاءٌ بأنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يَعلَوْن ما يلقاهم؛ فيطؤونَه ويَمُرّون، لا يدانِ لأحدٍ بإيقافهم؛ وذلك مناسبٌ لتهديد الكافرين بعدم الرّجوع إلّا بخروجهم؛ لأنَّ خروجهم في حَدّ ذاته دمارٌ؛ وعليه فلا رجوعَ لهم أصلًا.

يأجوجُ ومأجوجُ يأتون مُستعلين مكانًا وخلُقًا

دلالةُ التّعبير بـ ﴿يَنسِلُونَ﴾:

معنى ﴿يَنسِلُونَ﴾: يَطلُعون، والنّسل "منَ النَّسَلان، وهو كَمِشْيَةِ الذّئب إذا أسرع، والمعنى: (وهم من كلّ شيءٍ منَ الأرض يُسرعون)؛ يعني أنّهم يتفرَّقون في الأرض، فلا ترى أكَمَةً إلّا وقومٌ منهم يَهبطون منها مُسرعين"[5]؛ فـ "إيثار التّعبير به هنا من نُكت القرآنِ الغيبيّة؛ لأنّ يأجوجَ ومأجوج لمّا انتشروا في الأرض انتشروا كالذّئاب جياعًا مُفسدين"[6]، فالتّعبير بمُفردة ﴿يَنسِلُونَ﴾ يوحي بأنّهم يتدفّقون تدفّقًا

يأجوجُ ومأجوجُ مُسرعون كالذّئاب مُتكاثِرون كالجراد

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2937).
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 376.
(3) النّحّاس، إعراب القرآن: 3/ 57.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 376.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 252.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 150.

لا ينتهي، أو يكون من التّناسل الّذي لا يتوقّف جيلًا من جيلٍ، وقبيلًا بعد قبيل؛ وذلك أبلغُ في تصوير كثرتهم من أيّ مُفردةٍ أخرى يمكن أن تعبّر عن تلك الكثرة؛ مثل: يَخرجون، أو يَتدفّقون، أو تتوالى جماعاتُهم.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَنسِلُونَ﴾:

تتـابعَ أفـواجِ يأجوجَ ومأجوج وتجدُّدَ تدفُّقِها

تفي صيغةُ المُضارعة في الفعل ﴿يَنسِلُونَ﴾ بحقّ المقام؛ إذ تُفيد تتابعَ أفواجِ يأجوجَ ومأجوج، وتجدُّدَ تدفُّقِها تجدُّدًا وتدفُّقًا مُرعبًا لهؤلاء الكافرين المُتوَعَّدَيْن بموعد خروجهم، واستمرارِ ذلك زمانًا مُتطاوِلًا، ممّا يُقرّر أنّهم من الكثرة والخطورة بمكانٍ.

تعيينُ مَرجعِ الضّمير:

فتنة يَأجوج ومَأجوج عظيمةٌ؛ إذ يطلعون من كلّ ثنيَّةٍ ومُرتفعٍ

في تعيين المقصود بالذين ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾ قولان؛ الأوّل: أنّهم يأجوج ومأجوج، والثّاني: أنّهمُ النّاسُ جميعًا، يُحشرون إلى الموقف[1]، وقد رجّح ابنُ عطيّة أنّهم يأجوجُ ومأجوجُ؛ مُستندًا إلى حديث شريف فقال: "هُمْ يَأجوجُ ومَأْجوجُ؛ لأنّهم يطلُعون من كلّ ثنيَّة ومُرتفَع، ويَعُمّون الأرضَ، وذلك أنّهم من الكثرة بحيثُ قال رسول الله ﷺ: "يقول الله تعالى يوم القيامة لآدم: أَخْرِج بَعْثَ النّار من ذُرّيتك، فيُخرج من كلّ ألفٍ تِسْعَمائة وتسعةً وتسعين"؛ قال: ففزع النّاسُ؛ فقال رسولُ الله ﷺ: "إنّ منكم رجلًا، ومن يأجوجَ ومأجوجَ ألفُ رجلٍ""[2]، وهو الأوْجه، وإلّا لَتفَكَّك النّظم، "وأنّ يأجوج ومأجوج إذا كَثُروا - على ما رويَ في الخبر - فلا بُدّ من أن ينشروا فيظهر إقبالُهم على النّاس من كلّ موضعٍ مرتفعٍ"[3].

معنى الواو ودلالتُها:

أحداثُ النّهاية كثيرةٌ وخطيرةٌ

الواو في جملة: ﴿وَٱقۡتَرَبَ﴾ إمّا أن تكون قد عَطَفت فعلَ الاقتراب

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 3/ 472.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 100، والحديث أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3170)، ومُسلم في صحيحه، برقم: (222).

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 186.

"على محذوف، هو غاية ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ﴾"[1]، والتّقدير: (حتّى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كلّ حدب ينسلون، وقع الفسادُ والاضطرابُ، واقترب الوعدُ الحقّ) ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، "فكأنّه قيل: (فإذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ، واقترب بذلك الوعدُ الحقّ، فاجأتْهمُ القيامةُ بأهوالها)"[2]؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى كثرة أحداث النّهاية وخطورتها، وإمّا أن تكون استئنافيّةً؛ حيثُ تنقُل الكلامَ إلى مقطعٍ جديدٍ من مقاطع المعنى؛ بناءً على أنَّ خروج يأجوجَ ومأجوجَ يكون في الدُّنيا، وأنَّه يقع منهمُ الفسادُ والإفساد، أمّا المعنى الجديد فما يكون يومَ القيامة من أهوال ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

بلاغةُ لفظِ الاقتراب:

الاقترابُ محمولٌ على المَجاز الزّمانيّ أو حقيقةِ الوقوعِ

يستعمل الاقترابُ في المحسوسات؛ لكنّه في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ مُستعملٌ في الزّمان؛ أي: اقترب يومُ القيامة والحساب، وبذلك تنتقل دلالةُ الاقتراب إلى المعنى المَجازيّ، الَّذي يوحي بتقارُب الزّمن، كأنّه يَضْمُر وينكمشُ ويتداخل، ويتسارع إلى بلوغ غايةٍ معيّنة، وهي قيامُ النّاس لِربّ العالَمين للحساب، وجائزٌ أن يكون للقُرْب الحقيقيّ، ويكون وجوبُها ووقوعُها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42][3]، "والاقترابُ على هذا اقترابٌ نسبيٌّ، على نسبة ما بقي من أجَل الدّنيا بما مضى منه؛ كقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [القمر: 1]"[4].

(1) الخطيبُ، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 955.
(2) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1156.
(3) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 376.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 148.

والاقتراب "أبلغُ في القُرب من قَرُب"[1]؛ لأنّه "القربُ الشّديدُ والمُشارَفة؛ أي: اقترب الوعدُ الّذي وُعِدَهُ المشركون - وهو العذاب - بأنْ رأوا النّارَ والحساب"[2].

معنى التّعريف في ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾:

تسميةُ القيامة وعْدًا لما فيها من إحقاق الحقِّ بينَ العباد

المقصود بـ ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ قيامُ السّاعة، وتعريفُه يُفيد شُهرتَه، وأنّه هو الوقتُ المعهود واليوم المشهود، يومُ البعثِ والحشرِ والنّشرِ للحساب، وقد ذُكِر باسم الوعد في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]، وفي تسمية القيامة (وعدًا) إشارةٌ إلى ما فيها من إحقاق الحقّ بينَ العباد؛ فيُقْتَصُّ للمظلوم، ويُكَرَّم المؤمنُ، وبناء على ذلك يكون الاكتراثُ لأهل الحَقّ والإيمان، والإهمالُ والتّحقير لأهل الظّلم والكُفر والطّغيان.

سِرّ إيثارِ وصفِ القيامة بالوعد دون الوعيد:

إظهارُ الوعد كرامةٌ وإضمارُ الوعيد عذابٌ وإهانةٌ

﴿ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ هو يوم القيامة، وقيل: هو أجَل الموتِ[3]، وفي اختيار وصفِ القيامةِ بالوعد دون الوعيد إيحاءٌ بأنَّ الأصل فيه أن يكون للتّكريم، وأن يكون لإثابة المؤمنين، كما أنَّ فيه إشارةً إلى تقديم التَّكريم على التَّعذيب، وأنَّ القيامة ستكون وعدًا للصّادقين، وقد يسأل سائلٌ: كيف كان ذلك والسّياق يغلب في الوعيد؟! والجواب: أنَّ إظهار الوعدِ كرامةٌ، وإضمارَ الوعيدِ زيادةٌ في العذاب والتَّنكيل.

فائدةُ وصف الوعدِ بالحَقّ:

كلُّ وعدٍ في الدُّنيا يتلاشى عند مجيء الوعدِ الحقِّ

وَصْفُ الوعدِ بالحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ يوحي بأنّ كلَّ وعْدٍ يوعَدُه النّاسُ في أمر الدّنيا وهْمٌ لا قيمةَ له بالقياس إلى وعد الآخرة، وأنَّ يوم الحساب الأُخرويّ - الّذي ينتظر النّاس - هو الحقُّ الثّابت الَّذي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 468.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 149.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 499.

لا مَفرّ منه، ولا شَكّ فيه؛ فيجب على النّاس العملُ على هذا، والتّأهُّبُ له، والانشغالُ به وبما يتعلّق به من أسباب النّجاة والسّعادة الأبديّة دونَ سواه؛ فكأنَّه قيل: الوعدُ الوحيد الموصوف بالحقِّ هو يوم القيامة.

وفي التّعبير عن القيامة بـ ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ لَفْتٌ إلى ما وراءَه، وأنَّ هذا اليومَ ليس لمجرّد قيامة النّاس من القبور، وإنّما لما فيه من مظاهر التّكريم ومشاهد التّنكيل.

معنى الفاء ودلالتُها:

إذا كان الحَدَث الأوّل بهذه الفظاعة؛ فما الظّنّ بما وراءَه؟

حرف الفاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾ لعطف هذه الجملة على جملة ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وتقويةِ الرّبط الزّمنيّ بينهما؛ وللدّلالة على فوريّة شُخوص الأبصار لحظةَ رؤيتِهم بداياتِ أشراطِ السّاعة الكبرى؛ وفي ذلك كنايةٌ عن هَوْل الحَدَثِ الأوّل، وشِدّة فظاعتِه، فما الظّنّ بما وراءَه؟ فقد تأكّد لديهم ما كانوا يُكذّبونَه، وليس الخبرُ كالمعاينة.

بلاغةُ (إذا) الفجائيَّة:

هولُ المفاجآت يومَ القيامة يسلِبُ الإنسانَ الحركة

(إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ﴾ هي الفُجائيّة، الَّتي تُفيد شِدّة المُفاجأة، وقد باغتَهم ﴿ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ عَيانًا، بكلِّ ما فيه هنالك ممّا كانوا يُكذّبونه، ولا مهربَ لهم يوم يناديهم مُتحدّيًا: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرّحمن: 33]، كما قال ابن كثير: "وهذا في مقام الحشْر، الملائكةُ مُحْدِقَةٌ بالخلائق سَبْعَ صفوف من كلّ جانب، فلا يَقْدِر أحدٌ على الذّهاب"[1]؛ والمعنى: "تأخذهمُ القيامة بَغتةً، وتظهرُ أشراطُ السّاعة فجأةً، ويُقِرُّ الكاذبون بأنّ الذّنبَ عليهم؛ ولكن في وقتٍ لا تُقبَل فيه معذرتُهم، وأوانٍ لا ينفعُهم فيه إيمانُهم"[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 316.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 523.

بلاغةُ اقتران الفاء بـ (إذا) الفجائيَّة:

من بليغ توكيد عنصرِ الفُجاءَة اقترانُ الفاء بـ (إذا)

(إذا) الفُجائيّة تقع في المُجازاة، سادَّةً مَسَدَّ الفاءِ، كقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ [الرّوم: 36]، فإذا جاءت الفاءُ معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشّرط فيتأكّد، ولو قيل: (إذا هي شاخصة)، أو: (فهي شاخصة)، كان سديدًا أيضًا[1]؛ لكنّه مع (إذا) الفُجائيّة أبلغ؛ لكن يُفتَقد ذلك التّأكيد؛ أيْ: "فإذا حالُ الَّذين كفروا وشأنُهم شخوصُ أبصارهم، وفتحُها على أهوال القيامة؛ بحيث لا تَطرِفُ ولا تُغْمِضُ"[2].

بلاغةُ الكنايةِ في ضمير القِصَّة:

تنبيهُ المُخاطَبين علـى مُـهـمّـات الأُمور

﴿هِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ﴾ ضميرُ القِصّة؛ جاء كنايةً عن القِصّةِ؛ وهي تجري مَجرى الأمرِ والشّأن مع المُذَكَّر، وقيل: كنايةً عن لفظ ﴿أَبۡصَٰرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ﴾، ومثلها: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الحجّ: 46]، وقيل: كنايةٌ عن العيون، وشخوصُها امتدادُها، فلا تَطْرُف، فتقديم ضميرِ الشّأن أو القِصّة، وبناءُ الكلام على إبهامه تنبيهٌ يستثير الذّهنَ لاستقبالِ أمرٍ خطير يأتي بيانُه بعدَه، واحتمالُ مجيء ضميرِ القِصّة ﴿هِيَ﴾ كنايةً عن هذه الأمور يُبيّن تواثقَ التّراكيب القرآنيّة الكريمة، ويُجلّي شيئًا من الثّراء الدّلاليّ لِلكَلِم العظيم، كما يوحي بِخطر هذه الأمورِ، وأنّها ممّا حقُّه العملُ له قبلَ مباغتةِ السّاعة وشخوصِ الأبصار، وتصلُّبِ العيون.

سِرّ التّعبير بـ ﴿شَٰخِصَةٌ﴾:

كنايةٌ عن تَسَمُّرِ الأبصار لفظاعة ما ترى

الشُّخوص: إحدادُ البصر دونَ تحرُّكٍ كما يقع للمَبْهوت[3]، وذلك يَعْتَري من الخوف المُفْرِط، أو عِلَّة، أو نحوه[4]، وشخوصُ البصر كنايةٌ عن شِدّة الأخذ، وهول اللّحظة، فصاحبُه يُشَدُّهُ فلا حِراكَ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 135.

(2) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1158.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 151.

(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 100.

به، ولا قوّةَ له على شيء، وقد آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ مُفردة ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ لِدِقّة تصويرها اللّغويِّ لمُجرّد تَصلُّبِ أبصار الكافرين عند مُباغتتهم بأهوال القيامة.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الفاعل ﴿شَٰخِصَةٌ﴾:

صيغة (فاعل) تُقيم في النّفس صورةً ثابتةً لمادّته اللّغويّة

صياغةُ ﴿شَٰخِصَةٌ﴾ باسم الفاعل للمُؤنَّث: ﴿أَبۡصَٰرُ﴾، مُتناغِمٌ مع الدّلالة اللّغويّة لِلشُّخوص الَّذي هو إحدادُ النّظر دونَ أن يَطْرِف من الخوف المُفْرِط[1]؛ لما في دلالة الاسم عمومًا على الثّبوت على وضعٍ واحدٍ لا يَتغيّر، وفي صيغة (فاعل) خصوصيّةُ تصويرِ الحَدَث ثابتًا، وإقامتِه في النّفس ماثلًا بلا حِراك؛ فالدّلالة اللّغويّة والصّرفيّة كلتاهما تتآزران على تصوير الرّعب في عيون القوم بما يبعث على الخَشْيَة من تلك الحال، وهذا المعنى إنّما يُناسبُه التّعبير بالاسم الدّالِّ على الثُّبوت على حالة البَهْتِ، لا الفعلُ الدّالّ على الحركة والتّجدُّد.

غرضُ جمعِ ﴿أَبۡصَٰرُ﴾:

لا يُفلتُ بَصَرُ كافرٍ من أخْذةِ الرُّعب يومَ القيامة

جُمِع البصرُ على ﴿أَبۡصَٰرُ﴾ لمراعاة جموع الَّذين كفروا الغفيرة؛ لأنَّهم على كلِّ حال أكثر من أهل الجنّة؛ إذ إنَّ أكثر النّاس كُفّارٌ، وقليلٌ من عباد اللّه تعالى الشّكور، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، وفي جمع ﴿أَبۡصَٰرُ﴾ كذلك دليلٌ على عُموم هذا الوضعِ جميعَ أبصارهم، حتّى إنّه لا يُفْلِتُ منهم بَصَرٌ من هذا الأَسْر الرّوحيّ، والأَسْر البدنيّ التّابع لأَسْر الأبصارِ الأخّاذِ، وتقييدها بما أبصرت.

نُكْتَةُ التّعبير بالأبصار دون الأعين أو الأنظار:

البصرُ غايةُ النّظر وثمرةُ عملِ العين

عبَّر الذِّكرُ الحكيم بلفظ (الأبصار) في قوله تعالى: ﴿أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دونَ لفظ العيون والأنظار؛ لأنَّ الإبصارَ هو غايةُ النَّظر، وهو ثمرةُ عملِ العين؛ فنَبّه بذِكْر الأبصار إلى أنَّ غاية هذه

(1) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 100.

الحاسّةِ ووظيفتَها صارت حينَئِذٍ أسيرةَ مُبْصَرٍ مَهولٍ أبصَرتْهُ لا يمكنها الفكاكَ عنه.

فائدة التّعبير بالاسم الموصول:

الموصول عنصرُ تشويقٍ بإبهامِه وثــراءٍ دلاليّ بِصِلَتِه

التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عنصرُ تشويقٍ؛ وعنصرُ ثراءٍ دلاليٍّ؛ بما يُتيح من صياغة المعنى في فِعلٍ هو هنا ماضٍ، وهو رأسُ جملة الصّلةِ؛ فيدلُّ على التّحقُّق، وكلا الموصولِ وصلته يتآزرانِ على بيان سببيّة شخوصِ ﴿أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وأنّ شخوصَها وتَصلُّبَها على هذا الوضع المُرعِب؛ إنّما هو كفرانُ ذلك اليومِ والتّكذيبُ بأحداثه، فإذا عاينوه شُدَّتَ أبصارُهم إليه، وفَقدوا الحِراكَ، وسُلِبوا الإرادةَ تمامًا، وذلك كلُّه مأخوذٌ من دلالة الموصول وصلته.

نُكْتَةُ ذِكْرِ (الكفر) دونَ (الشّرك):

كـلُّ شِـركٍ كفرٌ وليس كـلُّ كفرٍ شِركًا

آثَر النَّظْم الكريم ذِكْرَ (الكفر) دون (الشِّرك) في جملة الصِّلة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنّ مادة (الكفر) صريحةٌ في التّكذيب التّامّ بوجود اللّه تعالى وباليوم الآخِر وما فيه من أحداث البعث والنّشور والحساب، كما أنَّ مادّة (الكفر) أعمُّ دلالةً من لفظ (الشّرك)؛ فهي تحوي أنواعًا من الكفر وأصنافًا من التَّكذيب، والشّركُ واحدٌ منها، فكلُّ شركٍ كفرٌ، وليس كلُّ كفرٍ شركًا.

غرضُ حذف جملة القول وبلاغة حرف النّداء (يا):

تـصـويـرُ هـولِ المَشْهَدِ بالنِّداءِ

يطوي النّظمُ الكريمُ (القولَ)؛ ليُسْرِعَ إلى حكاية مقولتِهم ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾ مباشَرةً، إذ عنصرُ تعجيلِ النِّداء يدلُّ على هولِ المشهد، ولما فيه من تركيز المشهد حول ندائهم، وفي إيثارهم أداةَ نداءِ البعيد (يا) يُحاولون أن يُنفِّسوا بعضَ ما تَعتلج به نفوسُهم من ضيقٍ وهَمٍّ، وما يُكابدونه من معاناة وعذاب، فهم يُنادون بأداة البعيد المُشعِرة ببُعْدِهم عن النَّجاة.

بلاغة الكناية في الدّعاء وأسلوب النّداء:

الدّعاءُ على النّفس نهايةُ اليأسِ وغايةُ الإفلاسِ

نداءُ الَّذين كفروا يومَ القيامة على الويل ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾؛ دعاءٌ على النّفس بالويل، وفيه من جهةٍ أُخرى كنايةٌ عن ذُهولهم عنْ وجْه الصّواب، وذهابِ عقولهم عن فِعل ما يُنجي إن كان ثمّةَ ما يُنجي، كما أنّ في الدّعاء على النّفس بالويل والثّبور كنايةً عن اليأس التّامّ من وجود مُغيث؛ ممّا يَعكس بعضَ ما هنالك من أهوالٍ وأخطار لا يمكن تصوُّرُها هنا في الدّنيا.

دلالةُ إضافةِ الويلِ إلى الضَّمير:

الاعترافُ بالذَّنب الآثمِ عنوانُ الكافرين

إضافةُ لفظِ (الويل) إلى ضميرِ (نا) في نداء الكفّار البائس: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ اعترافٌ منهم باستحقاقهم الانفرادَ بالويل والثّبور لعدم توفيقهم إلى الإيمان، وقد كان يُعْرَض عليهم بلا كُلفة، فقد صاروا اليوم وهم أحقّ النّاسِ بالويل والعذاب، وها هم يعترفون به مربوطًا بهم وبضميرهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾.

غرضُ التَّقييد بحرف ﴿قَدۡ﴾:

توكيدُ الاعترافِ وتأنيبُ النَّفس مسلكُ الكافرين

استعمل النَّظمُ حرفَ ﴿قَدۡ﴾ في جملة ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾ لبيانِ إفصاح الكافرين عن حالِهم في الدّنيا، وأنّهم كانوا في ضلالٍ مبين، وهو ما يُحقِّق اعترافَهم بالجريمة بمقولهم: ﴿قَدۡ كُنَّا﴾؛ وفيه تأنيبٌ لأنفسهم وتَعْنيفُها لإنكارها ذلك في الدّنيا، ولرفضِها قبولَ الحقّ الَّذي جاء به الأنبياءُ السّابقُ ذِكْرُهم في السّورة الكريمة، وخاتمهم محمّد ﷺ، كما في ﴿قَدۡ﴾ إقرارٌ بصدق ما كانوا يُكذِّبونه في الدّنيا.

دلالة ذِكْر لفظ ﴿كُنَّا﴾ النَّفسيَّة:

تصويرُ ندمِ الكافرين على فواتِ النَّجاةِ وذهابِ التَّوبة

آثَر النّظم الكريم - لِتدقيق المعنى الَّذي يُسيطر على الكفار حين تَشْخَص أبصارُهم - التّعبيرَ بالماضي ﴿كُنَّا﴾؛ أي: إنّ الأمر قد نَفَدَ، وصار تداركُ الفُرصة مُحالًا؛ فزمانُه قد انطوى وصار إلى الوراء، وهيْهات أن يعود! وفي ذلك إظهارٌ لشِدَّة الحَسْرة والجَزَع وتمكُّن النّدم - الَّذي لا يُعيد فرصةً ولا ينفع بشيءٍ - على نفوسهم.

براعةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّة ﴿فِي﴾:

تصويرُ الكافرين شِدَّةَ غفلتِهم دليلٌ على عنادِهم في الدُّنيا

دلَّ حرفُ الظّرفيّة في قول الكفّار: ﴿كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾ على "تمكُّن الغفلة منهم؛ حتّى كأنّها محيطةٌ بهم إحاطةَ الظّرف بالمَظْروف؛ أيْ: كانت لنا غفلةٌ عظيمةٌ؛ وهي غفلةُ الإعراض عن أدلَّة الجزاء والبعث"(1)، وفيها إشارةٌ إلى ما لَفَّهُمْ من ضلالٍ وما أعماهم من استكبارٍ، وأنّهم كمَن غَطَّ في وحْلٍ، وغاب في غيهَبٍ، وكأنّهم قد غاصوا في الظّلمات ولم يتبيَّنوا هدًى، فَحَرفُ الظّرفيّة ﴿فِي﴾ مُصوِّرٌ ومُعبِّرٌ عن حالِهم، ولن يُعبِّرَ عن هذا المعنى الاسمُ لو قيل: (قد كنّا غافلين)؛ لأنّ دلالةَ الظّرفيّة المُعبِّرة والمُصوِّرة حينَئِذٍ ستختفي تمامًا؛ لذا عبَّروا بها إمعانًا في التّحسُّر والتّندُّم، وحُقَّ لهم ذلك.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿غَفۡلَةٖ﴾:

الغفلةُ بِئرٌ عميقٌ تُغيِّبُ أصحابَها في الضّلال

في تقييد الكفّار بالغفلة ظَرْفًا لهم في الدّنيا استعارةٌ؛ وذلك بتشبيه الغَفْلة بِبِئْرٍ عميقٍ مُظْلم سَقطوا فيه، وحُذِف البِئْر وأُقيمتْ الغَفْلةُ مقامَه، والقرينة على ذلك حرفُ الظّرفيّة ﴿فِي﴾، وفي ذلك مبالغةٌ عن شِدّة غفلتِهم، وأنّها لم تكن مبرَّرَةً؛ بل كانت عِنادًا، وذلك لا يتأتّى لو جاء التّعبير على سبيل الحقيقة، كما لو قالوا: (قد كنّا غافلين).

نوعُ ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتُها:

البعثُ هو القضيّة الّتي بدأ التّكذيبُ بها وما بعدَه مُتفرِّعٌ عنه

ظاهرُ حرف ﴿مِّنۡ﴾ في قولهم: ﴿كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ يدلُّ على الابتداء؛ أيْ: "مبتدِئَةٍ من اعتقاد هذا البعث؛ فكنّا نُكذِّب به؛ فعمَّتْنا الغَفْلةُ"(2)؛ وهذا الظّاهر هو الأوْلى بالسّياق العامّ في القرآن؛ إذ إنَّ البعث هو بداية الإنكار وسببُ الغفلة، وما بعدَه كان بسببه، إذ إنَّ أكثر القضايا الّتي دار حولَها الجدلُ والتّكذيب هي قضيّة البعث،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 151.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 12/ 482.

وقيل: إنَّ حرف ﴿مِّنْ﴾ دالٌّ على معنى التّجاوز؛ أيْ إنّها نابت عن حرف (عن)؛ أيْ: قد كنا في غفلةٍ أعمتْنا عن هذا، وكنّا محجوبين عن رؤيته، وكنّا مخذولين عن الإيمان به، وهذا المعنى مفهومٌ من الجملة، لا من حرف ﴿مِّنْ﴾؛ فلا داعي للقول به، مع منافاته للأليق بظاهر الاستعمال القرآنيّ.

براعة استعمالِ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

تصويرُ النَّدمِ بالألفاظ ولغة الجسمِ

في استعمال اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ إيحاءٌ بشعورهم قُربَ معالجتِهم آلامَ ما عاينوه حينَئِذٍ، وأنّهم بصدد مباشرته حالًا؛ لأنَّ اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ للقريب الَّذي باشروا رؤيتَه عَيانًا، وكادوا يُقحَمَون فيه فِعلًا. "فالمشارُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾ هو مجموعُ تلك الأحوالِ من الحشر والحساب والجزاء"[1]، وهو يوحي باستحضار النَّدم الشّديد، كأنَّهم يُردِّدون الإشارةَ إلى الموقف باللَّفظ والجسد والعيون.

دلالةُ استعمال حرف ﴿بَلْ﴾:

أصلُ الغفلةِ الوقوعُ في الظُّلمِ والتَّكذيب في المعادِ

أداة ﴿بَلْ﴾ في الآية مُستعملةٌ للإضراب الانتقاليّ لا الإبطاليّ؛ لأنّهم تَدَرَّجوا بها من الإقرار بذنبٍ فاحشٍ إلى الإقرار بذنبٍ أفحشَ وأفظع دونَ أن يُلغوا الذّنب الأوّل؛ لأنَّهم حقًّا كانوا في غفلة؛ بل هي الَّتي أودت بهم وأدَّت بهم إلى ظُلم أنفسهم؛ فهم لم يتراجعوا عن اعترافهم أنَّهم كانوا في غفلة من البعث وتوابعه؛ بل انتقلوا إلى ذِكْرِ جُرم أفظع؛ وهو الَّذي تسبَّب في سقوطهم في الغفلة، وهو الظّلم الَّذي لا يغيبُ عن معناه الشِّرك.

سِرّ تَكرار لفظ ﴿كُنَّا﴾:

مارسَ الكفّارُ جُرْمًا بعد جُرْم؛ فتجرَّعوا ندامةً بعدَ أخرى

في تكرار الفعل ﴿كُنَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بعد تقدُّم ذِكْره في قوله تعالى: ﴿كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ تَعديدٌ لأنواع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 152.

الضّلال الَّذي مارسوه في الدّنيا نوعًا بعد نوعٍ، وفي التّعديد دَعْمٌ لمعاقبة النّفس المُجرمة، وقصدُ إيلامِها لِسوء ما قدَّمت في الدّنيا، حين كانتِ الفُرصة مواتيةً، وفي تكراره تَكْثيفُ النّدامة الَّتي يتجرّعونها حين لا تنفعهم ندامةٌ.

نُكْتَةُ اختيارِ وصفِ الظُّلم دون غيره:

الظُّلمُ سببُ كلِّ خطيئةٍ ويدخل فيه الشِّركُ

في اختيار لفظ (الظّلم) في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دون (الكفر) أو (الشّرك) وهما أشنع استدعاءٌ لِلسَّبَب الَّذي يُضاعف عليهمَ الحسْرةَ، ويزيدُهم ندمًا على ندمهم؛ فقد ظلموا أنفسَهم، وظلموا الأنبياءَ والمُرسلين بتكذيبهم ومحاربتهم؛ بل قتلِهم أحيانًا، وظلموا عبادَ اللّهِ تعالى الصّالحين والمُصلحين؛ فحُقَّ لهم التّندُّم والتّحسُّر، كما أنَّ الظّلم هنا يدخل فيه معنى الشّرك؛ إذ ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَدَب والتّل:

الحَدَبُ ما ارتفع من ظهر الأرض مُطلقًا وهو أعمُّ من التّلِّ

الحَدَبُ ما ارتفع من ظهر الأرض فسُمّي حَدَبًا[1]، ويدخل فيه غَليظُ الأرض ومُرْتَفِعُها، قالَ الفرّاءُ: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾: مِنْ كُلِّ أكَمَةٍ، ومِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ مُرْتَفِعٍ، والجَمْعُ: أَحْدابٌ وحِدابٌ[2].

والتَّلُّ من التُّرابِ مَعْروفٌ، واحِدُ التِّلال، والتَّل من الرَّمل: كَوْمَةٌ منه، وكِلاهُما من التَّلِّ الَّذي هو إلقاء كُلِّ جُثَّة، والجَمْعُ: أَتْلال؛ والتَّلُّ: الرّابيَةُ، والتِّلال عند العَرَبِ: الرَّوابي المَخْلوقَةُ[3]؛ وعليه فدلالة الحَدَب أعمُّ من التَّلِّ.

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (حدب).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (حدب).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (تلل).

الـنّـسْـلُ الـعَـدْوُ السّـريـعُ والمَـشيُ الانتقال البطيء

النَّسْل والمَشيُ:

النَّسْلُ مأخوذٌ من نَسَلَ: إذا عَدا، وأسْرَعَ[1]؛ وهو من مشية الذّئب، والمشيُ الانتقال من مكانٍ إلى مكانٍ بإرادةٍ[2]؛ وهو للانتقال من مكانٍ إلى آخر دون سُرعة؛ فالمشيُ للانتقال المتوسط، والنّسلُ لما فيه سُرعةٌ وخِفَّة.

(1) الرّاغب، المُفردات: (نسل).
(2) الرّاغب، المُفردات: (مسى).

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأنبياء: 98 - 100]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بعد الاعتراف بالحسرة والنّدامة يَحسُنُ التّوبيخُ والتّقريعُ

ورد في الآيات السّابقة أنّ الكفّار أمامَ أحداثِ اليوم الآخِر يَذهلون، وتَشخص أبصارُهم، ويتسمَّرون[1] في مواضعهم من هول الموقف، ولمّا كان هذا مَحَلًّا يَخطر بالبال فيه آلهتُهم؛ بما يترجَّونَهُ منها من النفْع؛ قال مُعنّفًا لهم ومُحَقّرًا: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[2]؛ فهو انتقالٌ من بيانِ حال الكفّار وما صدر عنهم من شديد النَّدم وعظيمِ الحَسْرة إلى بيان ما يأتيهم فوقَ ذلك من تقريعٍ وتوبيخٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَصَبُ﴾: (حصب) أصلٌ يَدُلُّ على جِنْسٍ من أجزاءِ الأرضِ، ثُمَّ يُشتَقُّ منه؛ فالحَصباءُ جنسٌ من الحَصى[3]، والحَصَبُ: كُلُّ ما ألقَيْتَه في النّار من حَطَبٍ وغَيْرِه[4]، وقالَ الفرّاءُ: الحَصَبُ في لُغَةِ أهل نَجْدٍ: ما رَمَيْتَ به في النّارِ[5]؛ وعليه فالمُرادُ بالحَصَبِ في الآية: اسمٌ بمعنى المَحصوبِ به، أي: المَرميِّ به في جهنَّم[6].

2) ﴿وَٰرِدُونَ﴾: (ورد) أَصلٌ يَدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيْءِ[7]، يُقالُ:

(1) تسمَّرَ، يتسمَّر، تسمُّرًا، فهو مُتسمِّر، والمفعول مُتَسَمَّرٌ فيه، وتسمَّر الشَّخصُ في مكانِه: مُطاوع سمَّرَ: ثبت فيه ولم يتحرّك، أحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربيّة المعاصرة: (سمر).

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 12/ 482.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حصب).

(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حصب).

(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 212.

(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 153.

(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ورد).

أورَدَه الماءَ؛ أيْ: جَعَلَه يَرِدُهُ، ووَرَدَ البَعيرُ وغَيْرُهُ الماءَ، يَرِدُهُ، وُرودًا: إذا بَلَغَهُ ووافاهُ من غير دُخولٍ، وقد يَحْصُلُ دُخولٌ فيه، وخِلافُه: الصَّدَرُ، وهو التَّراجُعُ عن الماءِ بعد الشُّرْبِ(1)، والوِرْدُ أيضًا: الجُزْءُ أو النَّصيبُ من قِراءة القرآنِ؛ لأنّه يُجَزِّئُه أجزاءً، فيقرؤه وِرْدًا وِرْدًا(2)، والجَمْعُ: أَوْرادٌ، والوُرودُ في الآيةِ معناهُ: البلوغُ والدُّخولُ، أي: إتيانُ النّارِ والعذابُ فيها.

3) ﴿زَفِيرٌ﴾: (زفر) أصلٌ يدلُّ على صَوْتٍ من الأصواتِ، والزَّفْرُ والزَّفيرُ أن يملأ الرَّجُلُ صَدْرَهُ غَمًّا، ثُمَّ هو يَزْفِرُ بِهِ، وقال الزَّجّاجُ: الزَّفْرُ من شِدّةِ الأنينِ وقَبيحِه، والزَّفيرُ: أوّل نَهيق الحمار وشِبْهِهِ، والزَّفيرُ في الآية مُرادٌ به: النَّفَسُ يخرجُ من أقصى الرِّئتَيْنِ لضغطِ الهواءِ من التَّأثُّرِ بالغَمِّ، وهو هنا من أحوالِ المُشركينَ دونَ الأصنامِ(3)، أو هو لهيب جهنّم(4).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مصيرُ الزَّعمِ الكاذِبِ العذابُ الرّادعُ والعقابُ الزّاجر

تُبيِّن الآيات ما سيُقال للمُكذّبين من أهل مكّةَ ومَن على شاكلتكم ممّن يعبدون غيرَ اللّهِ تعالى، حيثُ يُرْمَى بهم وبمعبوداتهم في نار جهنّم، فهم عليها واردون، وفيها داخلون، فلا تعصِمُهم منها آلهتُهم كما لا تعصِمُ نفسَها منها، فكيف يعبدونها؟(5)، ولو كانت هذه الأصنامُ والأندادُ الّتي اتّخذوها من دون اللّه آلهةً صحيحةً لما وردوا النّار ولما دخلوها، والعابدونَ ومعبوداتُهم كلُّهم فيها خالدون(6)، ولأهل مكّة وسِواهُم من المُشركين في جهنّم أنفاسٌ متتابعةٌ تخرج

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ورد).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ورد).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 153.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 55.
(5) مجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1159.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 377.

من صدورهم، يُحاولون بها تنفيسَ ما بهم من وقود النّارِ وسوءِ الحال، وهم في النّار لا يسمع بعضُهم زفيرَ بعضٍ ولا صُراخَهم؛ لشِدّة ما يُعانونَهُ جسديًّا ونفسيًّا(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

انتظارُ الجوابِ الأكيـدِ يسلخُ الفضولَ الشّديدَ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ عمّا قبلَه للاستئناف البيانيّ؛ إذ يترقّبُ السّامعُ الرّدَّ عليهم، وقد اعترفوا بأنّهم كانوا في غفلةٍ من القيامة، وأنّهم كانوا ظالمين؛ فجاء الرّدُّ مُخيِّبًا لآمالهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ دالًّا على أنَّ اعترافَهم يومَ القيامة بما كان منهم في الدّنيا من غفلةٍ وظُلم لا ينفعُهم هنالك، وكذلك فُصِلت جملة ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ عن سابقتها؛ لأنّ السّابقة من كلام الكفّار، وهذه من كلام اللّه تعالى؛ فالجهةُ مُنفَكّةٌ.

غرضُ حذفِ جملة القول:

المفاجأة تقوى على النَّفسِ بما لا يقوى عليه العقلُ

كما حُذِف القولُ المُقدَّر قبل قولهم: ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ﴾، كذلك حُذِفَ القولُ المُقَدّر قبلَ الرّدِّ عليهم وجيءَ بمقوله مباشرةً: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ أيْ: قيل لهم: إنّكم وما تعبدون، أو يُقال لهم، ونحو ذلك، والحذفُ للإيجازِ، ولخُلوِّ ذِكْره من نُكتة، مع تحقيق عنصر المُباغَتَة فيما سيُقال لهم.

غرضُ التّوكيد ودلالتُه:

اعـترافـاتُ الـكُـفّـار يـومَ القيامة لاغيَةٌ؛ وعذاباتُهم باقية

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ مُؤكَّدًا كَرَدِّ فعلٍ لإنكارهم مضمونَ الخبرِ من جهة(2)، ولإلغاء كلّ قيمة لاعترافاتهم منَ الجهة الأخرى: ﴿قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ لأنّ المُعتَرِفَ بالذّنب يرجو قبولَ اعترافِه به واعتذارِه عنه؛ لكن هيّهات وقدِ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1160.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 482.

انطوت الفرصةُ بانطواء الدّنيا، ومصيرُهم إلى يوم الحساب، والتّأكيد هنا لحُكمَيْن: أنّهم حَصَبُ جهنّم، وأنّ ما يعبدون من دونِ اللّه تعالى معهم كذلك حصبُ جهنّم؛ ويُقرِّر أنّ ما كانوا يُؤمِّلون شفاعتَه هلَكَ معهم؛ بل كان عذابًا عليهم.

معنى (ما) ودلالةُ استعمالها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ موصولة تختصر عديدَ الأسماء والأصنام والآلهة المزعومة الّتي كانوا يعبدونها من دون اللّه تعالى، فأغنتْ (ما) عن ذِكْر جميعِ معبوداتِهم على امتداد الحياة الدّنيا؛ لتصبّ عليهمُ الغضبَ والعقاب. "وهذا الحُكم عامٌّ فيهم وفي كلِّ مَن عَبد غيرَ اللّهِ على شاكلتهم، كالذين يعبدون الكواكبَ أو الأشجارَ أو نحوَها، أمّا المعبوداتُ العاقلةُ المؤمنةُ فلا تدخل في هذا العموم"(1)؛ لأنّ "(ما) لِما لا يَعقِل، فلا يتناول العقلاءَ كالملائكة والمسيح"(2).

مَن أحبَّ شيئًا فرضيَ به محبوبُه حُشِر معه

سِرّ التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

رغم أنّ عبادة الكفّار معبودين مكذوبين كانت ماضيًا في الحياة الدّنيا؛ إلّا أنّ التّعبير بالمضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ يستحضر معصيتَهم كأنّها ماثلةٌ أمامَ أعينهم.

نوع حرف ﴿مِن﴾ ودلالتُه:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تُفيد ابتداءَ الغاية؛ أيْ: جعلتُموهم غايتَكم، واعتبرتُموهم أمانَكم وحِصْنَكم الّذي إليه تُؤْوون؛ فاليومَ يكونون عليكم لهيبًا وعذابًا أليمًا.

براعةُ استعمال ﴿دُونِ﴾:

في التّعبير بكلمة ﴿دُونِ﴾، وعدمِ التّعبير بكلمة (غير) لفتةٌ

كلُّ معبودٍ باطلٍ هو دونَ اللّه تعالى في الاستحقاق والدّليل

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1159.
(2) الطّوفي، الإشارات الإلَهيّة، ص: 443.

بارعة، وهي التّنبيه على أنّ كلّ معبودٍ يُعبَد غيرَ اللّه تعالى هو ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﷻ؛ وأنّ "رُتبةَ ما عبدوه مِن أدنى المراتب الكائنة تحتَ رُتبته سبحانه، فهو المَلِك الأعلى الَّذي لا كُفْؤَ له"(1)؛ وفي ذلك دليلٌ على أنّه لا يصلح أنّ يكون إلهًا معبودًا حقيقيًّا إلّا اللّهُ سبحانه وتعالى.

فائدة ذِكْر لفظِ الجلالة:

مقامُ العبوديّة يقتضي ذِكْرَ الإلهِ الواحدِ الأحدِ صراحةً

آثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المنوطَ بالعبادة، والمنوطةَ به العبادةُ الخالصةُ إنّما هو المعبودُ بحَقّ؛ وهو ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى، وليس المقام لذِكْر عنوانِ الرّبوبيَّة؛ لأنّه مقامُ عقوبةٍ على التّقصير في حَقّ المعبود الأحَق بالعبادة ﷻ، أمّا لفظُ الرّبّ فمقاماتُه الملائمةُ هي مقاماتُ التّربيةِ والعطاءِ والإغداقِ والخيرِ الرّبانيّ الَّذي تُفيضه الرّبوبيّةُ على مَربوبيها.

بلاغةُ الإخبارِ عن المعطوفِ والمعطوفِ عليه بخبرٍ واحد:

الموصول عنصرُ تشويقٍ بإبهامِه وعنصرُ ثراءٍ دلاليّ بِصِلَتِه

عُطِفَ الموصولُ مع صلته ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿إِنَّكُمۡ﴾؛ لجمْعها في خبرٍ واحدٍ ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ والأصل: (إنّكم حصبُ جهنّم وما تعبدونَ من دون اللّه حصبُ جهنّم كذلك)، لكنْ جُمِعا في خبرٍ واحدٍ؛ إشارةً إلى جمعهما في دار الجحيم مع بعضهم البعض؛ وكنايةً عن عجْز معبوداتهم من دون اللّه تعالى على إنجاء أنفسهم، فضلًا عن إنجائهم من الاحتراق في جهنَم كالحَصَب والحَطب، ففي جمع المعبودينَ مع العابدين قبلَ الوصول إلى الخبر، وصبِّ الخبرِ عليهم جميعًا، دَعْمٌ لِلحسرة واليأس والنَّدم في نفوس الكفّار العابدين؛ إذ أُلقيت معهم آلهتُهم في نار جهنّم؛ بل أُلْقوا جميعًا فيها إلقاءً لا رحمةَ فيه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 482.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿حَصَبُ﴾ دونَ مرادفاتها:

الإيحاءُ برهبة الموقف وذُلِّ المُعَذَّبين

لِلَفظِ ﴿حَصَبُ﴾ إيحاءٌ ترهيبيٌّ؛ لما يحتمل من الدّلالات ما يجعله مَخوفًا مَحذورًا، والمعنى "يُرْمَى بهم في جهنّم رَمْيَ الحجارة الصّغارِ الَّتي تُسَمّى الحصباء إلى المحصوب إسراعًا وإكراهًا، فيكونون وقودَها من غير إخراج"[1]؛ بل إنّهم هم أنفسهم "الحصى الَّذي تُحصَب به جهنّم، بلا وزنٍ ولا حسابٍ"[2].

نُكْتَةُ ذِكْرِ اسمِ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

لِجهنَّمَ عذابٌ معنويٌّ بِجَهامَتِها إلى عذابها الحِسّيِّ بِإِخراقِها

﴿جَهَنَّمَ﴾ عَلَمٌ على دار العقاب الموقَدة نارًا، "وأكثر النّحويّين على أنّها اسم للنّار الَّتي يُعذّب اللّهُ بها في الآخرة؛ وهي أعجميّة لا تجري للتّعريف والعُجْمة، وقال آخرون: جهنَّم اسم عربيٌّ، سُمّيت نارُ الآخِرة به لبُعد قَعْرِها"[3]، والجِهنّامُ القَعْرُ البعيد[4]، وقد سمّاها اللّهُ تعالى (نارًا) في كتابه في مواضعَ كثيرةٍ، وجعل وقودَها النّاسَ والحِجارة[5]، و﴿جَهَنَّمَ﴾ أوديةٌ كثيرةٌ؛ مثل: الويل، وسَقر، وغيرهما، وفيها أصنافُ العذاب عديدة، مثل: التّعذيبِ بالزّمهرير، وبالحيّات، والعقارب، والصّديد، وغيرِ ذلك منَ العذاب الحِسّيِّ والمَعنويّ، وما ذَكَر اللّهُ تعالى هنا من باب التّهديد المُرعب؛ لعلّهم يفيقون من ضلالهم.

موقع جملةِ ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ البيانيّ:

الدّلالاتُ القرآنيّةُ متواثقةٌ يقتضي بعضُها بعضًا

جاءتْ جملة ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ "بيانًا لجملة ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ والمقصود منه تقريب الحَصَبِ بهم في جهنّم، لِما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَٰرِدُونَ﴾ من الاتّصاف بوُرود النّار في الحال، كما هو شأن الخبر باسم الفاعل؛ فإنّه حقيقةٌ في الحال،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 482.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 956.
(3) ابن الأنباريّ، الزّاهر: 2/ 146.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جهنم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.

مجازٌ في الاستقبال"(1)، كما يحتمل أن تكون جملةُ ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ فَصِلتْ عن جملة ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ لما بينهما من كمال الاتّصال؛ إذِ الثّانية حاصلةٌ ومفهومةٌ من الأولى، فما داموا هم ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، فإنّهم قَطْعًا ﴿لَهَا وَٰرِدُونَ﴾، فبينَهما ما بينَ المُؤكِّد والمُؤكَّد من اتّصالٍ ذاتيٍّ، لا يحتاج إلى واصلٍ لفظيّ.

بلاغةُ الجملة الاسميّة:

قطعيَّةُ ورودِ الكافرين النّارَ كقطعيَّة وجودِها

في التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ تتأكّد دلالةُ القَطعِ والثّبوت، وأنّهم - لا شَكّ - لها واردون، وفي تقديم ﴿أَنتُمۡ﴾ تتجلّى دلالةُ القَصْر الإضافيّ؛ أيْ: أنتم دونَ المؤمنين المتّبِعين الأنبياءَ المَذكورين واردوها قطعًا، وإذا اعتبرنا جهنّمَ هنا هي دار الجحيم المُقيم الخاصّة بالكافرين، لا الأوديةُ المُعَدّةُ لتطهيرِ عُصاةِ المؤمنين؛ فالقَصْر في ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ؛ أمّا إذا أُريدَ بها جميع النّيرانِ؛ فالتّقديم يُفيد التّوكيدَ والقطعَ لهم بورْدِها لا محالةَ، بِقطع النّظر عن التّعرُّض لغيرهم بورودِها أو عدمِ ورودِها.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الخبر:

ورودُ النّار اختصَّ بأهلِها أصالةً

تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على الخبر ﴿وَٰرِدُونَ﴾ أفاد الاختصاصَ والدّلالةَ على أنَّ ورودَهم لأجلها(2)، وأنّها تسعد بإلقائهم فيها، وفي الحديث الشّريف أنَّ اللّه تعالى يقول للجنّة والنّار: "لِكُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُما مِلْؤُها"(3)، فهم واردون لأجلها، وهذا يدلُّ على أنَّ أعمال الكافرين تدور حولَ ورودِ النّار في ذلك المشهد العظيم.

نُكْتَةُ استعمالِ حرف (اللّام):

جهنمُ تختصّ بالكفّار وهم بها يختصّون

في إيثار التّقييد بحرفِ (اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهَا وَٰرِدُونَ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 153.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 61.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4569)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2846).

دون (إلى) إشارةٌ إلى معنى الاختصاص والمِلْكِ؛ أيْ: أنتُم تختصّون بها وهي تمتلككُم، تصنعُ بكُم وفيكُم منَ الأهوال ما تشاء، والنّار يومَ القيامة لها اعتبار: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12]، وهو ما يُؤكِّد دلالةَ تقديمِ الجارِّ والمَجرور على الخبر، والأصل أن يُعَدَّى الورودُ بحرف: (إلى) أو (على)، فيُقال في غير القرآن الكريم: إليها واردون، أو عليها واردون، لكنّ النّظمَ الكريمَ أخبرَ أنّهم ﴿لَهَا﴾ واردون، وكأنّ وُرودَهم كان لأجلها، ولتوْفيتها حقَّها، كما أنَّ اللّام في ﴿لَهَا﴾ "للتّقويَة؛ لضعف عمل اسمِ الفاعل"[1].

براعةُ الاستعارةِ التَّهكميَّة:

ورودُ الكفّارِ النّارَ كورودِ الدّوابّ الماءَ

المقصود بـ ﴿وَٰرِدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾: "أيْ: واقعون فيها"[2]، وفي التّعبير بالورود هنا تهكُّمٌ بهم، وإزراءٌ عليهم؛ لأنّ الورودَ يكون للشُّرب والرّي والإبراد؛ لكنّه استُعمل هنا للعذاب وصِلاءِ الحرارة؛ ففيه استعارَةٌ تهكُّميَّة تلميحيّة بتشبيه إلقائهم في جهنّم بوارد الخيلِ والإبلِ العِطاشِ الماءَ لِترتوي.

بلاغة استعمال ﴿لَوۡ﴾:

المذهبُ الكلاميُّ فنٌّ بديعيٌّ يُستدلُّ به على بُطلان حُجَّة الخصْمِ

تقييدُ كونِ معبوداتهم المزعومة آلهةً بـ ﴿لَوۡ﴾ يُؤكّد كذِبَ دعواهم أُلوهيّتَها، ويُقيمُ الدّليلَ العقليَّ المنطقيَّ على كَذِبهم في ذلك، وفي هذا الأسلوب فنٌّ بديعيٌّ هو المذهب الكلاميُّ: وهو احتجاج المُتكلِّم على ما يُريد إثباتَه بِحُجّة تقطع المعاندَ له، على طريقة أرباب الكلام، أوِ استنتاجُ النّتائجِ الصّحيحة من المُقدّمات الصّادقة[3]، فـ ﴿لَوۡ﴾ تدلُّ على استحالة كونهم آلهةً أصلًا، وأنّهم على افتراض ذلك كان يُفترَض أن يمتنعوا عن وُرودهم جهنّم، وكان بإمكانهم أن يَعترضوا

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 506.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 377.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 364.

على إقحامهم فيها وحَصْبِها وإثارتِها بهم؛ إذِ الإلهُ الحقّ هو القادر على فعل ما يريد، وهؤلاء لا إرادةَ لهم، فيستدلُّ النّظمُ الكريم بكونهم مسلوبي الإرادةِ، وبأنّهم حَصَبُ جهنّم على كَذِب دعوى الكفّار ألوهيّتَها، "فمَنْ يُرمَى إلى النّار لا يمكن أن يكون إلهًا"[1].

فائدةُ استعمال ﴿كَانَ﴾ دون (أنَّ):

الإلهُ الحقُّ أزليٌّ والآلهةُ المزعومة زائلةٌ

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾: ولم يَقُلْ: (لو أنَّ هؤلاء)؛ وذلك لأنَّ كون تلك المعبودات الموهومة آلهةً لا يُؤكّد أصلًا؛ ليُقال: لو أنَّ هؤلاء آلهة ما وردوها؛ لذلك تحاشى النّظمُ الكريم التّعبيرَ بـ (أنّ) وعدل إلى ﴿كَانَ﴾؛ ليدُلَّ بـ ﴿كَانَ﴾ على أنّ الإله الحقَّ أزليُّ الألوهيّةِ، وأنّ هؤلاء لو (كانوا) آلهةً لحَمَوا أنفسَهم من الإلقاء في جهنّم، وذلك مما يَدْعَم الدّليل العقابيّ المنطقيّ المُكَذِّبَ دعوى الكفّارِ ألوهيّتَها.

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾:

في التّعبير باسم الإشارة ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ دون (أولئك) إشارةٌ إلى ضحالتِهم ونزولِهم عن رُتبة الأُلوهيَّة الحقيقيَّة الصّادقة، وأنَّهم ليسوا هنالك من بُعْد المنزلةِ وسُموِّ المكانة.

نُكْتَةُ وصفِ المعبودات بالأُلوهيَّة دونَ الرُّبوبيَّة:

النِّزاع مع المشركين في اتِّخاذهم آلهةً يعبدونها لا في زعمهم ربوبيّتَها

نَفَى النّظمُ الكريم عن تلك الآلهة المزعومة الأُلوهيّةَ في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَـٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إزراءٍ بهم، وحطٍّ من شأنهم عن مكانة الأُلوهيَّة المعبودة، ولا مجالَ لنفي الرّبوبيَّة الّتي تقتضي الرّزقَ والتّدبيرَ والرّعايةَ والعناية؛ فتلك كذبُها أوضح، ونفيُها عنها أولى؛ إذ في نفي الأُلوهيَّة عنها نفيٌ للرّبوبيّة بطريق اللّزوم، والكفّارُ ادَّعَوا لها الأُلوهيّةَ لا الرّبوبيّة؛ تهرُّبًا إلى ما قد يَقبل المُماراةَ في تفنيده، أمّا تفنيدُ دعوى ربوبيّتِها فأيسرُ؛ لإمكان طلبِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 188.

الدّليل المُعجِز، فأُقيمَ الدّليل المَنطقيُّ هنا على كَذِب تلك الدّعوى وإثباتِ كونها آلهةً.

دلالة النّفي بأداة ﴿مَّا﴾:

نفيُ الماضي في مقام الاحتجاج العقليّ آكَدُ من نفي المضارع

جاء نفيُ وُرودِ الآلهة المزعومة النّارَ بأداةِ ﴿مَّا﴾ النّافيةِ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ دون (لم)؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ تنفي الماضي، و(لم) تنفي المضارعَ، ونفي الماضي في مقام الاحتجاج العقليّ آكَدُ في أنّهم دخلوا جهنّم فعلًا؛ بدليل الآية السّابقة ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ وليس فقط أنّهم ورَدوها، فأكّدَت ﴿مَّا﴾ مع الماضي ﴿وَرَدُوهَاۖ﴾ القطعَ بوُرودِهم عليها؛ بل إقحامهم فيها؛ وذلك دليلُ كَذِبِ دعوى الكفّار بأنّها آلهةٌ تستحِقّ أن تُعبَد أصلًا.

فائدة نفي (الورود) دونَ (الدّخول):

التّنبيهُ على الأعلى بالأدنى أثبتُ للحُجّة وأدحضُ لدعوى الخَصم

علَّق النّظمُ الكريم نفيَ ورودِ الآلهة المزعومة النّارَ على كونها آلهةً حقيقيّةً دون دخولِها في قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾؛ من باب التّنبيه على الأعلى بالأدنى؛ فالآلهةُ لا تَرِد النّارَ أصلًا، فضلًا أن تدخلها، فما بالكم وهُم مع عابديهم في جهنّم خالدون وليسوا فقط معهم واردين؟!

ثمّ إنّ ورود الآلهةِ النّارَ يستلزم إلقاءَها فيها؛ لأنّها وردتها على سبيل الامتهان؛ ولِمُعاقبة عابديها بها؛ فلا بُدّ أنْ يَتبعَ دخولَها النّارَ وُرودُها إليها، والتَّعبيرُ بالوُرود على حقيقته من الوصول إلى الشّيء، ولا يُعبِّر عن الإقحام فيه أو التّأثّر به، فعلَّق نفيَ الورودِ هنا على افتراض أنّها آلهةٌ حقيقيةٌ؛ إذِ الإلهُ لا يَرِد النّارَ على سبيل المعاقبة أصلًا، فضلًا عن أن يُلقَى فيها، وهذه العناصر التّركيبيّةُ كلُّها تتآزَرُ على تكذيب كونها آلهةً جديرةً بالعبادة من دون اللّه تعالى.

فنُّ الجناسِ في لَفْظَي ﴿وَٰرِدُونَ﴾ و﴿وَرَدُوهَاۖ﴾:

جناسٌ لفظيٌّ واختلافٌ دلاليٌّ وتضادٌّ في النَّفي والإثبات

بين لفظِ: ﴿وَٰرِدُونَ﴾ في قوله تعالى سابقًا: ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ وبين ﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ طباقُ سلب من جهة اللّفظ؛ إذ جمع النّظمُ الكريمُ بين مصدري الفعل (ورد)؛ أحدُهما مُثبتٌ والآخَر منفيٌّ؛ فحقَّق في النّفس عنصر المخادَعة البديعيَّة الَّتي أقرَّها البلاغيون وجْه تأثيرٍ نفسيٍّ للطِّباق البديعيِّ، وكذلك بينهما جناسٌ خاصٌّ باختلاف معنيَيْهما، واتّفاق لفظيْهما في أكثر من جهة؛ فالأوّل من وُرود الماء للرّيّ على سبيل التّهكّم، والآخَرُ من المَجيء إلى المكان، وبينهما بَوْنٌ كبير؛ فتحقّق الجناسُ اللّافت كذلك.

بلاغةُ الإخبارِ بصيغةِ الماضي:

القطعُ بخبرِ المستقبلِ من صفاتِ الواحدِ الأحدِ

جاء الإخبار عن وُرود الآلهةِ المكذوبةِ النّارَ بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ من باب القَطْع بتحقُّق الوقوع؛ لأنّ اللّه تعالى يمتلك الزّمانَ والمكانَ، كلَّ الزّمانِ وكلَّ المكان؛ فالمستقبلُ بالنّسبة لنا هو ماضٍ بالنّسبة له ﷻ؛ فالإخبارُ عن ورود الآلهةِ النّارَ هو في حقيقته إخبارٌ عن قطعيٍّ لا يستطيع الوعدَ به إلّا الإلهُ الحقُّ سبحانه، وقد شاع في القرآن الكريم ذلك الضَّرْبُ من التّعبير؛ أي الإخبارُ عن الأمور المستقبليّة بصيغة الماضي، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]؛ فأخبر عن يوم القيامة بالماضي ﴿أَتَىٰٓ﴾ [النحل: 1]، بينما هو لم يأتِ بعدُ، بدليل قوله في الآية نفسِها: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]؛ أيْ: لم يأتِ بعد.

تعيينُ مرجعِ ضميرِ الجماعة:

وُرود الآلهة المزعومةِ جهنَّمَ تبكيتٌ لِعُبّادِها وتعريضٌ بخُدّامِها

المُخْبَر عنهم بضمير الجماعة في الفعل ﴿وَرَدُوهَاۖ﴾ هم "العابدون والمعبودون، وقيل: ما ورد المعبودون فقط، لكنّهم وردوها فلم يكونوا آلهةً، وفي هذا تبكيتٌ لِعُبّاد الأصنام، وتوبيخٌ شديد"[1]، وقد يُقصَد

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 506.

بهم بعضُ الآلهةِ الضّالّة من البشر؛ وهم "أولئكَ الضّالّون المَغْرورون، الَّذين دَعَوا النّاسَ إلى عبادتِهم، وأقاموا أنفسَهم آلهةً عليهم"[1] مثلُ فرعونَ وغيرِه، وفي هذا تلويحٌ وتعريضٌ لكلِّ مَنْ زَعَم نفسَه إلهًا من دون اللّه تعالى بالأمر والنَّهي، والتّشريع والتّنظيم، فيما لم يأذَنْ بهِ اللّهُ تعالى.

معنى الواو ودلالتُها:

كلّ ما خلا الله باطل

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَلِدُونَ﴾ واو الحال؛ أيْ: كيف تكون هذه آلهةً وهي مع الكفّار حصَبُ جهنّم؟ وهذا داعمٌ آخَر من دعائم الدّليل العقليّ المنطقيّ، على أنّ تلك الآلهةَ المعبودةَ من دون اللّه تعالى مزعومةٌ مُفْتَراةٌ.

فائدةُ تنوينِ العوض:

الإيجازُ للوصول إلــى محـطِّ الفائدةِ

أصل التّعبير قبلَ دخول تنوين العِوَض على لفظِ ﴿وَكُلٌّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَلِدُونَ﴾: كلُّ أولئك، أو: كلُّ العابدين لغير اللّه تعالى، ومعبوديهم من دون اللّه ﷻ، فأوجزَ هذا كلّه تنوينُ العِوَض في لفظ العموم ﴿وَكُلٌّ﴾، وطواه بمُجرَّد ضمَّةٍ أخرى غيرِ ضمّةِ الإعراب؛ لتتمحّضَ عنايةُ المُتلقّي وتتوفّرَ على تدبُّر الحُكْم الآتي، الَّذي يُمثّل دليلًا على كَذِب القضية كلِّها، والحُكم بأنّهم ﴿فِيهَا خَلِدُونَ﴾؛ أيْ: خالدون في نار جهنّم.

غرضُ تقديم الجارّ والمجرور على الخبر:

المُستقرُّ الأبديّ للكفّار ومعبوداتهم جهنّم لا سواها

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على المسنَد في قوله تعالى: ﴿فِيهَا خَلِدُونَ﴾ يفيدُ القَصْرَ الحقيقيَّ؛ لنفي خلودِهم في غير جهنّمَ البتَّة؛ أيْ: إنّ هؤلاء المشركين وآلهتَهم المكذوبةَ في جهنّمَ لا في غيرها يكون خلودُهُم الأبديّ، ولا تزال كلُّ تلك العناصرِ اللّفظيَّةِ والأسلوبيَّة تتآزر على تأكيد كَذِب دعوى الكفّارِ أُلوهيّةَ اللّاتِ والعُزّى ومَناة وغيرِها

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 956.

من الآلهة المكذوبة، ولا تزال تتضافَر على دعم الدّليل المنطقيّ العقليّ على نفي الأُلوهيّة الحَقّة عنها، وتوجب لهم كما توجب على عابديهم الخلودَ في جهنّم.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

جـوفُ جهنَّـم مُستقرُّ الكفّارِ وآلـهـتِـهـم المزعومة

دلَّ حرفُ الظّرفيَّة في جملة ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على أنَّ جوفَ جهنَّمَ مستقرُّهم، وأنَّها تشتمل عليهم اشتمالَ الظّرف على المظروف، وأنَّهم ﴿فِيهَا﴾ وفي أعماقها على سبيل الحقيقة، وفي أحشائها يكون خلودُهم.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الفاعل ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

رَفْـضُ الكافرِ التَّوحيدَ يقودُه إلى الخلود في النّار

في التّعبير باسم الفاعل ﴿خَٰلِدُونَ﴾ مع أنّهم فيها (مخلَّدون)؛ أيْ: مُرغَمون على الخلود فيها لا ﴿خَٰلِدُونَ﴾ برغباتهم، وهو كأنَّهم أصحابُ قرار الخلود فيها؛ وذلك برفضهم الإقرارَ بوحدانيَّة الإله الحقّ سبحانه وتعالى، وبرضاهم بعبوديّة سواه من آلهة سمَّوها من تلقائهم؛ فهم بذلك حكموا على أنفسهم بالخلود في النّار، وما ظُلموا في هذا التّخليد؛ فمَنِ اختار سببَ الشّيءِ كمَنِ اختار الشّيءَ نفسَه، ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49].

بلاغةُ التّذْييل:

توكيدُ الكلامِ السّابق ترسيخٌ لكذِبِ الكافرين في دعواهم

التَّذييلُ بجملة الحال ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بما تشتمل عليه من خصوصيّات التّركيب تلك، يُقرِّر كَذبَ قضيّةِ الكفر، وينسفُ دعوى استحقاقِ بعضِ المخلوقين صفةَ الأُلوهيّة أو جدارتهم بالعبوديّة، وهذه الجملة هي الدّليل الثّاني بعد جملة ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ الدّالّة على كَذِب تلك القضيّة؛ فهي بمثابة التَّوكيد لما تقدَّم، من استحقاق أهل الباطل العذابَ على اختيارِهم المُنبِئَ عن التَّكذيب بالحقِّ، والعناد على الباطل.

عِلَّةُ فصلِ جملة ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾:

بيانُ المُتقدِّم وتوكيد معناه من موجبات الفصل

فُصِلت جملةُ ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ عمّا قبلَها للاستئناف البيانيّ، كأنَّ سائلًا سأل: وما عذابُهم فيها؟ فجاء الجواب: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾، أو لكمال الاتّصال، باعتبارِها بيانًا وتوكيدًا للخلود في النّار، فإنَّ الخالد يتنفّس، وتنفُّسُه هذا بيانٌ لوجه الخلود، وتوكيدٌ لمعناه.

غرضُ تقديمِ المُسنَد ﴿لَهُمْ﴾:

مُتنفَّسُ الكفارِ في جهنّم الأنفاسُ الحَرَّى المُلتهبة

قُدّم المُسنَد ﴿لَهُمْ﴾ على المُسنَد إليه ﴿زَفِيرٌ﴾ في جملة ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾؛ لتأكيد الخبر المُقدَّم، وهو القطع لهم بدليل المعاناة - وهو الزّفير - والزّفيرُ عمليّةُ إخراج النّفَس المُلتَهب النّاتجِ عن معاناة داخليّة كبيرة؛ فلا مُتنفَّسَ لهم إلّا تلك الأنفاسُ الحَرَّى، الَّتي يُفرغون فيها من معاناتهم النّفسيّة، وآلامِهم الرّوحيّة المكبوتة.

معنى اللّام في ﴿لَهُمْ﴾ ومرجع الضّمير فيها:

أهلُ الكفر جديرون بالعذاب الَّذي أُعدّ لهم

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ لامُ الاختصاص؛ فهم يختصّون به، وهو يختصّ بهم، وهم لا ينفكّون عنه، وهو لا ينفكّ عنهم، كما تُفيده لامُ ﴿لَهُمْ﴾ من استحقاق، فهم يستحقّون ذلك العذابَ، وهم جديرون به؛ إذ لا جُرمَ أعظمُ من جُرمهم.

والضّمير في ﴿لَهُمْ﴾ يَرجع إلى "عَبَدَةِ الأصنام"[1] المُخاطَبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.

نُكْتَةُ تكرارِ حرف الظَّرفيَّة:

تصوير المعاناةِ من الدّاخل العميق والجوف الغائر

تكرَّر ذكرُ القيد بالظّرف الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ بعد أن سبق في جملة ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لتقريرِ كَبِّهم في قاع جهنَّم، وتأكيد أنّ زفيرَهم يأتي من أعماقها، وأنّهم يُعالجون النّار تَنَفُّسًا واحتراقًا من داخلهم، كما يعانونها من خارجهم، فإنَّ حرف الظَّرفيَّة يُصوِّر

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 524.

المعاناةَ من الدّاخل العميق والجوف الغائر والحرِّ المُلتهب، ليُحدث للمخاطبين بعد ذلك ذِكْرًا ينهاهم عن غيِّهم، ويُسعدهم في حيِّهم.

توجيهُ تخصيصِ الزّفير بالذِّكْر:

يـكـاد يـبلـغ الـعـذابُ بأهل الـنّـارِ إلى عدم الـقُـدرة على الشّهيق

إذا كان الزّفير هنا بمعنى اللّهيب[1]؛ وتسميةُ اللّهيب زفيرًا مناسبٌ من حيثُ دلالتُه على ارتفاع درجة الحرارة، ولا حرارةَ في الشَّهيق؛ لأنَّه سحبُ الهواءِ البارد من الجوِّ إلى داخل الجوف؛ فيرطّبُ الدّاخلَ ويُسَرّي عنه بعضَ ما يجدُ.

نوعُ الواو ودلالتُها:

تضافرُ أحوالِ العذاب تصعيدٌ شديدٌ وتعذيبٌ عتيدٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ عطفٌ على جملة ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾، ويصِحّ أن تكون للحال؛ فتكون الجملةُ بعدَها حالًا بعد حالٍ بعد حالٍ: ﴿وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ﴾، ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾؛ فتتضافرُ على كشف أحوالِهم في جهنّم، وهي أحوالٌ صعبةٌ، تتصعّد بهم في نارِ جهنَّم؛ ليكتسبوا عذابًا بعد العذاب، كما اكتسبوا الكفرَ بعد التّكذيبِ والعِناد.

نُكْتَةُ تكرارِ ﴿فِيهَا﴾:

توكيدُ المُكث في النّار قَطْعٌ لمَظَنَّة النَّجاة

تكرّر حرفُ الظَّرفيَّة للمرّة الثّالثة في السّياق المُتقارِب؛ إلحاحًا على القَطْع بأنّهم ساقطون في قعر جهنَّم لا محالة، وأنَّهم ﴿فِيهَا﴾ يُعانون، وفي أحشائها يُعذَّبون بما هنالك من أسباب العذاب وأدواته، ممّا لا يُرجى معه خلاصٌ ولا نجاةٌ، ولا حتى تخفيفٌ.

غرضُ الجملةِ الاسميّة:

الكفّار في جهنّم دائـمـون على حال الصَّمَم

التّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ يُفيد دوامَ الكفّارِ على هذه الحالة الأليمة الشّديدة؛ فالمعاناة مُضاعفةٌ، والعذابُ كثيفٌ.

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 55.

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على الخبر:

جزاءُ رفضِ سماعِ الذِّكرِ في الدُّنيا فقدُه في الآخرة

تقديمُ القَيْد بالجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾ على الخبر ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾ ليس لإفادة سماعِهم في غيرها؛ إذ لا غيرَ لهم أصلًا، وإنَّما لتقرير الخبر، والقطعِ بأنّهم سيكونون فيها محرومين من نعمة السّمع الَّتي عطَّلوها في الدُّنيا عن إيصال الحقّ إلى القلب؛ فكأنَّهم يُعاقَبون بنقيض نِعَم اللّه تعالى عليهم في الدّنيا، فلمّا رفضوا سماعَ الذِّكر في الدُّنيا؛ عاقبهمُ اللّهُ تعالى جزاءً وفاقًا على صنيعهم.

توجيهُ تخصيصِ نفيِ السَّماع بالذِّكر:

فـقـدُ سـمـعِ الأخـبـارِ عـذابٌ نفسيٌّ ومعنويٌّ

يُحرِّم الكفارُ السَّمعَ في جهنَّم لأسباب كثيرة؛ منها أنّ "سماع الأشياء روحٌ وأُنْس؛ فمنع اللّه تعالى الكفّار ذلك في النار"[1]، كذلك يُحرمون السَّماع لأنَّ "تَعْمية الأخبار مما يُعدِم القرارَ، ويُعظِم الأكدار"[2]، كذلك يَحرمهم السّمْعَ شدَّة العذاب، والزَّفير الْمُلتهب.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

نفيُ صيغةِ المضارعة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾ يَسْلُب منها دلالةَ التَّجدُّد؛ ليُفيدَ الفعلُ دوامَ صَمَمِهم وثبوتَه فيهم، وعدمَ ارتفاعِه عنهم البتَّة، وثباتَ حالِهم على تلك المعاناة.

نُكْتَةُ حذفِ مفعول ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

تـنـزيـلُ الفعل الْمُتعدّي منزلة الـلّازم لنفي السَّماع مُطلقًا

حذَفَ النّظمُ الكريم مفعولَ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ﴾، والتَّقدير: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾ "نداءً يُبشِّرُهم بانقضاء عقوبتِهم"[3]، و"لا يسمعون شيئًا؛ لأنَّهم يُحشَرون صُمًّا، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ﴾

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 345.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 483.
(3) القُشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 524.

[الإسراء: 97]"[1]، أو يُنزَّل فعلُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ منزلةَ الفعلِ اللّازم؛ لإفادة مُجرَّد إثباتِ الفعل للفاعل، بِغضِّ النّظر عن مسموعٍ مُعيّن، فأثبتَ لهم الصّممَ العامَّ بحيثُ لا يسمعون أيَّ شيءٍ، وما الظّنّ بأعمى أصمّ في قعر جهنّم، تنهشه الأفاعي والعقاربُ وهوامُّ أوديتِها، ممّا لا يعلمه إلّا اللّه تعالى؟!

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحَصَب والحَصَى:

الحَصَبُ والحَصْبةُ: الحِجارةُ والحَصَى، واحِدَتُهُ: حَصَبةٌ، والحَصَبُ: كُلُّ ما ألقَيْتَه في النّار من حَطَب وغَيْرِه[2]، والحَصَى: صِغارُ الحجارة، وثلاث حَصَياتٍ، والواحدة: حَصاةٌ، والحَصَى: العددُ الكثير[3].

الحَصَبُ ما يُلقَى في النّار والحِجارةُ الكبيرة والحَصَى صغارُها

الوُرود والإتيان:

الوُرودُ: قَصْد الماء، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 23]، واستُعمل في النّار على سبيل الفظاعة، قال تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ۝٩٨﴾ [هود: 98][4].

و"الإتيان: مَجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قيل للسيل المارّ على وجهه: أتيٌّ وأتاويّ، والإتيان يُقال للمَجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويُقال في الخير وفي الشّرِّ، وفي الأعيان والأعراض نحو قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]"[5].

الوُرود الإتيانُ إلى الماء بخاصّة والإتيانُ المَجيءُ عمومًا

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 345.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حصب).
(3) الفراهيديّ، العين: (حصى).
(4) الرّاغب، المُفردات: (ورد).
(5) الرّاغب، المُفردات: (أتى).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾

[الأنبياء: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّقابلُ بينَ المُختلِفَيْن تكميلٌ وتتميمٌ

لمّا ذكر سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ وبيَّن حالَ هذا الفريقِ وجزاءَه في النّار؛ ناسبَ أن يذكر الفريقَ المقابلَ له، وما لَهُ من جزاءٍ في الآخِرة؛ فهو من باب الإتيان بالنَّقيضِ بعد ذِكْرِ نقيضِه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبَقَتۡ﴾: (سبق) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على التَّقديم، يُقالُ: سَبَقَ يَسْبِقُ سَبْقًا[1]، والسَّبْقُ: القُدْمَةُ في الجَرْيِ وفي كُلِّ شَيءٍ؛ تَقولُ: لَهُ في كُلِّ أَمْرٍ سُبْقَةٌ وسابِقَةٌ وسَبْقٌ، والجَمْعُ: الأَسْباق والسَّوابِقُ[2]، والاسْتِباقُ: التَّسابُقُ، قال: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، ويُتَجوَّز به في غيره من التَّقدُّم، ويُستعار السَّبْقُ لإحراز الفَضْلِ والتَّبريز.

وعلى ذلك قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المتقدِّمون إلى ثواب الله وجنَّته بالأعمال الصّالحة[3]، والسَّبَق بالتَّحْريكِ: الخَطَرُ (الرّهان) الَّذي يوضع بَيْنَ أَهْلِ السِّباق[4]، والسَّبقُ المذكور في الآية: هو سبقُ الفضلِ والعناية[5].

2) ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾: (حسن) أَصْلٌ واحِدٌ؛ فالحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ[6]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبق).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (سبق).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 182.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسن).

والحُسْنُ: نَعْتٌ لما حَسُنَ، تقول: حَسُنَ يَحْسُنُ حُسْنًا[1]، والحُسْنَى مُؤَنَّثُ الأَحْسَنِ، وهو المُتَّصِفُ بِالحُسْنِ الكامِلِ في ذاتِهِ[2]، ووَصْفُ أسماءِ اللّه تعالى بِالحُسْنى؛ لدلالتها على ثُبوتِ صِفاتِ كمالٍ حَقيقي للّه تعالى، وهي أيضًا: لَقَبٌ قُرْآني يَدُلُّ على العاقِبَةِ الحَسَنَةِ، وبه فُسِّرَ قَوْلُه تعالَى: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: 50][3]، والحُسْنَى كذلك: لا تُقالُ إلّا في الأحداثِ دوْنَ الأَعْيانِ[4]، والمراد بها في الآية: الحالةُ الحَسَنَةُ في الدّينِ، أو المَوعِدَةُ الحُسْنَى، أيْ: تَقَرَّرَ وعْدُ اللّه إيّاهم بالمُعاملةِ الحُسْنَى[5].

3) ﴿مُبْعَدُونَ﴾: أصلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[6]، ويكونُ ذلكَ في المحسوسِ وهو الأكثر، والمعقول نحو: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ١٨﴾ [إبراهيم: 18]، وبَعِدَ بالكسر يَبْعَد بالفتح: هلك، قال تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: 95][7]، والمقصودُ بقوله: ﴿مُبْعَدُونَ﴾؛ أيْ: مُبعَدونَ عن النّار بُعْدًا شديدًا، بحيثُ لا يلفحُهم حَرُّها، ولا يَروعُهم منظرُها، ولا يَسمعونَ صوتَها[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أصحابُ الجنَّةِ مُبعدون عن النّار وشَرِّها

استثنى الذِّكرُ الحكيم من الَّذين توعَّدهم بأن تُحصَب بهم جهنّمُ مَن عُبِدوا من دونه سبحانه وهم كارهون ذلك، فقال - في معنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا﴾ في دنياهم المنزلةُ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾؛

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (حسن).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 186.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سبق)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 27/ 376.
(4) الرّاغب، المُفردات: (حسن).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 155.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعد).
(7) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (بعد).
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 27/ 376.

بسبب إيمانِهم الخالص وعملِهم الصّالح، وقولِهم الطّيب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصّفات الحميدةِ عن النّار وحَرِّها وسعيرِها ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ إبعادًا تامًّا بفضل الله تعالى ورحمته"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة فصلِ الآية عن سابقها:

اختلافُ الفريقَيْن وتناقضُ حالَيْهما موجِبٌ للفصل

فُصِلت جملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها "مستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ دعا إليه مقابَلَةُ حِكايةِ حالِ الكافرين وما يُقال لهم يومَ القيامة، بحكاية ما يلقاه الَّذين آمنوا يومَ القيامة وما يُقال لهم، فـ ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ هم الفريقُ المقابِلُ لِفريق القريةِ الَّتي سبق في عِلْم الله تعالى إهلاكُها، ولمّا كان فريقُ القريةِ هم المشركين؛ فإنَّ الفريق المقابِلَ له هم المؤمنون، ولا علاقةَ لهذه الجملة بجملة ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ولا هي مُخصِّصَة لِعموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾"[2]، وقال آخَرون: إنّها "مُخصِّصة للعموم المذكور"[3].

غرضُ التّوكيدِ:

إنجاءُ الله تعالى عبادَه المؤمنين في الآخرة مُحقّقٌ

التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ﴾ يُعالج مقامَ زَعْمٍ كاذِب؛ فقد رويَ أنّه ﷺ دخل المسجدَ وصناديدُ قريشٍ في الحَطيم، وحولَ الكعبةِ ثلاثُمائة وستون صنمًا، فجلس إليهم فعَرَض له النّضرُ بنُ الحارث فكلّمه رسولُ الله ﷺ فأفحمه، ثمّ تلا عليهم: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية، فأقبل عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى فرآهم يتهامسون، فقال: فيمَ خوضُكم؟ فأخبره ابنُ المُغيرة بقول رسول الله ﷺ، فقال ابن الزِّبَعْرَى لرسول الله: أأنتَ

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 254.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 155.

(3) الطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة، ص: 443.

قلتَ ذلك؟ قال: نعم، قال: قد خصمتُك وربِّ الكعبةِ، أليس اليهودُ عبدوا عُزيرًا، والنّصارى عبدوا المسيح، وبنو مُلَيح عبدوا الملائكة؟ فأجابه النّبيّ ﷺ بقوله: بل هم عبدوا الشّياطين الَّتي أمرتهم بذلك، فأنزل اللّه سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآية[1].

قال الفخر الرّازيّ: "واعلم أنّ سؤال ابن الزِّبَعْرَى ساقطٌ من وجوهٍ؛ أحدها: أنّ قوله: ﴿إِنَّكُمۡ﴾ خطاب مُشافهة، وكان ذلك مع مشركي مكَّة، وهم كانوا يعبدون الأصنام فقط، وثانيها: أنّه لم يَقُلْ: (ومن تعبدون)؛ بل قال: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾، وكلمة (ما) لا تتناول العقلاء"[2]، إلّا أنّهم أهلُ عنادٍ، فَزيد في البيان[3] بهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾.

نُكْتَةُ التّعبير بالاسم الموصول:

سـعـادةُ السّـعـداء في الآخـرة سابقةُ توفيقٍ لهم في الدّنيا

التّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم﴾ يُتيح النّصّ على ذِكْر جملة الصِّلة الثّريّة: ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾، ولا يُتيحها التّعبير بالاسم لو قيل: (إنّ المعبودين منّ الصّالحين مثل عيسى وعُزير)، أو: (إنّ المؤمنين أو المهتدين)، وفي النَّصِّ على جملة الصِّلة ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ تنويهٌ بفضل اللّه تعالى ورحمته بأوليائه المؤمنين، وأنّهم سُعِدوا بالتّوفيق، ونَجَوا بالعناية الرّحمانيّة؛ ففي ذِكْر الموصول في تعريفهم "إيماءٌ إلى أنَّ سبب فوزهم هو سبقُ تقديرِ الهداية لهم"[4]، لا كسبُ أيديهم فقط؛ وذلك ما جاء معناه صريحًا في قوله ﷺ: "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ" قالوا: ولا أَنْتَ يا رَسولَ اللّه؟ قالَ: "لا، ولا أنا، إلّا أنْ يَتَغَمَّدَني اللّه بِفَضْلٍ ورَحْمَةٍ"[5]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 186 باختصار.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 187.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 421.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 156.
(5) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (5673).

ومن عطاء الموصول هنا كذلك الإيماءُ إلى أنَّ الخبر سيكون من وادي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا﴾؛ أيِّ: عن جهنّم ﴿مُبۡعَدُونَ﴾؛ وبذلك تتوثَّق عُرى التّركيب، ويشتدُّ ارتباطُ آخرِه بأوَّله.

بلاغة الكناية في لفظ ﴿سَبَقَتۡ﴾:

سَبقُ الحُسْنى من الله تعالى للعبد سببُ نجاتِه

مُفردة (السبْق) في قوله تعالى: ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ كنايةٌ عن ضمان النّجاة من جهنّم، وفيها كذلك كنايةٌ عن رضوان اللّه تعالى على هؤلاء المؤمنين، الَّذين سبق لهم منه سبحانه وتعالى الوعدُ بالحُسْنَى وهي الجنّة، كما سبق لهم منه تعالى التّوفيقُ إلى الإيمان أيامَ دُنياهم.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿سَبَقَتۡ﴾:

سبقُ العنايةِ في البداية ضمانٌ للولاية في النّهاية

في التّعبير بالماضي ﴿سَبَقَتۡ﴾ إشارةٌ إلى تحقُّق البِشارة، وتأكُّدِ الوعدِ لهؤلاء المحظوظين، وأنّ الحُكمَ لهم بالجنّة مُستَقِرٌّ أزلًا، وأنّ مجيئَهم إلى الدُّنيا وعيشَهم فيها عيشَ الموقّنين، ما هو إلّا إظهارٌ لأمر استقرّ في عِلْمه سبحانه وتعالى، وفي ذلك تأكيدٌ لِما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرّحمن: 29] من أنّها أمورٌ يُبديها سبحانه ولا يبتديها.

براعة تقديمِ ﴿لَهُم﴾ على ﴿مِّنَّا﴾:

تقديمُ الأولياءِ تكريمٌ مِنَ الله وتمكين

في تقديم القيد بالجارّ والمجرور: ﴿لَهُم﴾ على القيد بالجارّ والمجرور الآخر: ﴿مِّنَّا﴾ تأكيدٌ للبِشارة المُسْداة لِهؤلاء الموفَّقين السّعداء، ومزيدُ تمكينٍ وتكريم ﴿لَهُم﴾، وأنّهم عند اللّه تعالى مُقدَّمون، وأنَّ الشأنَّ عنده تعالى فيما يتعلَّق بهم هم، وأنّ قيمة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ في أنّها تُمنَح ﴿لَهُم﴾، وتُسعِدُهم.

واللّام في ﴿لَهُم﴾ للاختصاص، و﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ إنّما أُعِدَّتْ ﴿لَهُم﴾ ومِن أجلهم، وأنّهم مُلّاكُها وأهلُ اختصاصِها، وأنّهم لا يُشارَكون فيما يملّكون ويُخصَّص لهم في دار السّعادة؛ بموجِب سبْق الحُكم لهم بالسّعادة.

تعيينُ المقصودِ بضميرِ الجماعةِ:

ضمير الجماعة في القيد بالجارّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ وكذا الإشارةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُقصَد به "كلّ مؤمنٍ مات على الإيمان والعملِ الصّالح"(1)؛ فـ "الآية عامَّة في كلّ مَن سبقت له منَ اللّه تعالى السّعادة، وقال أكثرُ المُفسّرين: عنى بذلك كلَّ مَن عُبِد من دون اللّه تعالى، وهو للّه تعالى طائعٌ، ولِعبادةِ مَن يَعبدُه كارِه"(2).

كلُّ مؤمنٍ مات على الإسلام فهو منَ السُّعداء

غرض تقديم ﴿مِّنَّا﴾ على ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾:

تزداد عَظَمةُ البِشارةِ بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ إذا كانت من اللّه تعالى؛ لذلك قُدِّم هذا القيد ﴿مِّنَّا﴾ على المُسنَد إليه ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾؛ إيحاءً بأنَّ عَظَمة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ وقيمتَها إنّما تُستَمدّ من أنّ سَبۡقَها ﴿لَهُم﴾ من اللّه تعالى كان، وما كان من اللّه تعالى بخاصّة كان فيه الخيرُ كلّه، والسّعادةُ كلُّها وإنْ كان يسيرًا، فما الظَّنُّ بها وهي ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الكاملةُ الفخامةِ، الجامعةُ أسبابَ السَّعادة؟

مِنَّةُ اللهِ تعالى تزداد جمالًا عند العناية بإظهار مصدر النِّعم

معنى حرف (من) ونُكْتَةُ التّعبير بضمير العَظَمة:

حرف (مِن) في القيد ﴿مِّنَّا﴾ يُفيد ابتداء البِشارة بالحُسنى، ومبتَدأُ سَبۡقِ الوعد بها، وأنّها إنّما وُهِبت من قِبَل الكريم سبحانه؛ فكفى بها طُهۡرًا وجمالًا، وكفى بها عَظَمة ومتاعًا، وفي إيثار التّعبير بضمير العَظَمة في القيد ﴿مِّنَّا﴾ إيحاءٌ بِعَظَمة تلك ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾؛ لأنَّها إنّما وُهِبتۡ، وسيقت البُشرى بها من العظيم سبحانه وتعالى، فلا بدَّ أنّها عظيمة، وأنّ فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خَطَر على قلب بشرٍ.

هبةُ العظيم تزداد بهاءً مع التَّحبُّب والتَّقرُّب

فائدة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾:

أغلب المُفسِّرين على أنّ المقصود بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ هنا "السّعادةُ

لفظُ الحُسنَى يشمل كلَّ ما أوصل إلى الجنَّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 155.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/ 245.

والبِشارةُ بالجنّة وثوابِها"(1)، لكنّ الذِّكْر الحكيمَ آثَر التّعبيرَ عنها بالحُسْنَى لاتِّساع دلالة الحُسْن، واستيعابِها كلَّ مناحي التّوفيقِ والتّسديدِ، الَّتي يوفِّق اللّهُ تعالى إليها عبادَه المؤمنين؛ وما يترتّب على ذلك التّوفيق من الجزاء الأُخرويِّ الحَسَن، ولذلك ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنّ المقصود بلفظِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾: "إمّا السّعادةُ، وإمّا البُشْرى بالثّواب، وإمّا التّوفيقُ للطّاعة"(2)، وأنّ التّعبيرَ بها "يحتمل الجنّة، كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ [اللّيل: 5 - 6]؛ أيْ: بالجنّة، فعلى ذلك قوله تعالى: ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾، ويحتمل السّعادةَ، أو بشارةَ اللّهِ سبحانَه بالجنّة، أو الطّاعةَ الَّتي يُجازَون عليها، أو التّوبةَ"(3)، أو "يريد كلمةَ الرّحمةِ والحَتْم بالتّفضيل"(4).

معنى التّعريف في لفظ ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾:

الـكـمـالُ في الـحُـسْـن والاكـتـمـال في الوصف الأحسن

تعريف ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ يوحي باكتمال الحُسْن في المقصود بها، سواء كان المقصودُ بها (الجنّة) فتكون (ال) للعهد، أو كان المقصودُ بها توفيقَ اللّه تعالى عبادَه المؤمنين إلى الإيمان به سبحانه، والخروجَ من الدُّنيا عليه فتكون (ال) للاستغراق، وما دام واهبُها والموفِّقُ إليها هو اللّه ﷻ فلا بدّ أنّها من العَظَمة والكمال والجمال بحيثُ لا يُحيط بها الوصفُ، وأنّه لا يوفّيها حقّها من ذلك إلّا التّعريفُ على حَدّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ [البقرة: 2].

عِلّةُ فصل جملةِ الفاصلةِ:

تـقـريـبُ المُـخْـبَـر عـنـه مـن الخبر السَّعيد يُدخِل عليه السّعادةَ مباشرةً

في بناء جملة الخبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ على الفصل والبناء على ذِكْر مُسنَدٍ إليه جديد - إبرازٌ لصفة أصحابِها، وتأكيدٌ

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 379.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 137.
(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1535.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 101.

على رِفعَة منزلتِهم، وبُعْدِ مكانتِهم عند اللّه تعالى، فبَعْدَ أن فُصِّل في المُسنَد إليه الأوّل ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ بتفاصيل جُملةِ الصّلة - عاد ليستحضرَ ذِكْرَهم مُرَكَّزًا بالإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتقريبهم من الخبر السّعيد ﴿عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾، وربطهم به مباشرةً بلا حواجزٍ، وليختمَ لهم بخاتمة الأمان؛ وذلك من إدخال السّرور عليهم، وإسعادهم في الصّميم.

براعةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

عـبـادُ الـلـهِ الـصّـالـحـون بـمـنـزلـةٍ عاليةٍ عنده ﷻ

في إيثار اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المُشتمِل على (لام البُعد) تنويهٌ ببُعدِ مكانتهم في باب الصَّلاح والإصلاح، ورفعةِ منزلتهم عند اللّه تعالى؛ وذلك يتَّسقُ مع حُسْن حَظِّهم في سَبْق الحُسنَى لهم منه ﷻ، كما أنّ في ذِكْر اسم الإشارة تمييزًا لهم بِتلك الحالة الحَسَنة، وتنبيهًا على أنَّهم أحْرياءُ بما يُذكر بعدَه من أجل ما تقدّم عليه من الأوصاف؛ وهو سَبْق الحُسنى من اللّه تعالى[1].

نُكْتَةُ تقديم ﴿عَنۡهَا﴾:

في تقديم ﴿عَنۡهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ تعجيلٌ بالبِشارة لأولئك ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم﴾ من اللّه تعالى ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾؛ وإيحاءٌ بِخطر الاقتراب من جهنّم، فما الظّنّ بِهَول الإلقاء فيها بِمَن حُكِم عليهم بأن يكونوا حَصَبها؟

تعيينُ مرجع الضّمير:

في تـكـرارِ ذِكْـرِ (جـهـنـم) مزيدُ ترهيبٍ وتقويةُ تحذيرٍ

الضّمير في ﴿عَنۡهَا﴾ يرجعُ إلى جهنّم المذكورة في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ كما ترجع إليها الضّمائر الّتي بعدَها ممّا يسبق هذا في: ﴿أَنتُمۡ لَهَا﴾ و﴿وَرَدُوهَاۖ﴾ و﴿وَكُلّٞ فِيهَا﴾ و﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ و﴿وَهُمۡ فِيهَا﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا﴾، وفي تكرار ضمير ﴿جَهَنَّمَ﴾ كلّما أُتيحت فرصةُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 156.

ذِكْرِه مزيدُ ترهيبٍ منها، وإلحاحٌ على التّحذير من استحقاقها بالكفر وعبادةِ أحدٍ من دون اللّه تعالى الإلهِ الحَقّ الجديرِ بالتّوحيد.

براعةُ استعمالِ اسم المفعول ﴿مُبۡعَدُونَ﴾:

المــؤمـــنــون مُـبْـعَـدون عن النّار؛ فلا ينالُهم منها أيُّ مكروهٍ

في التّعبير عن المُسنَد باسم المفعول ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ طَيٌّ للفاعل؛ لتوفير عناية المُتلقّي على تدبُّر معنى الفعل من الإبعاد والإقصاء عن ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ وتحقيقِ معنى أنّهم مُنَجَّون من النّار[1]؛ و"أنّهم يُرفَعون إلى أعلى عِلّيين"[2]؛ فلا ينالهم منها أيُّ مكروهٍ، لا مِن حيثُ الرّائحةُ، ولا من حيث سماعُ الحَثيثِ، ولا من حيثُ التألُّمُ بالمَنظر القبيح.

وقد آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ "ولم يَقُلْ: (متباعدون)؛ ليَعْلَمَ العالِمون أنّ المدار على التّقدير الإلهيّ، وسابق الحُكم من اللّه ﷻ لا على تَباعُد العبد أو تَقَرُّبه"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبعاد والإخراج:

الإبعـادُ الطّـردُ والإخـراجُ الإزالةُ من المكان

الإبعادُ الطّردُ والتّنحيةُ، وأبْعَدَ الشَّخصَ والكِتابَ وغيرَهما: جَعَلَه بَعيدًا، وفَصَلَه، وأقصاه، وعزلَه، ونحّاه ضدّ قرّبَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾[4].

والإخراجُ عامٌّ في كلِّ شيء؛ وهو الإزالة من محيطٍ أو ما يجري مجرى المحيط[5].

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 443.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 61.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 524.
(4) أحمد عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (بعد).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 282.

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾

[الأنبياء: 102]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أهـل الإيـمـان في مـأمـنٍ يـوم القيامة من النّار

بعد أن ذكر حالَ الَّذين رضي الله عنهم، وسبقت كلمةُ اللّه في رضائه عنهم، وإدخالهم الجنّة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: 101]، وبيَّنَ أنّهم مبعدون عن تلك النّار الَّتي سبق وصفها، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101]؛ ناسب أن يذكر هنا صفة بُعدهم عن نار جهنّم، فهم لا يسمعون حسيس النار، ولا يصلهم منها أدنى أذًى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسِيسَهَاۖ﴾: أصلُ الكلمة مِنَ الحِسِّ، وهو مُطلَقُ الصَّوتِ، أو الخَفيُّ منه[1]، والحِسُّ والحَسيسُ: الشَّيْء تَسْمَعُه مِمّا يَمُرُّ قَريبًا مِنْك ولا تراهُ، وهو عامّ في الأشياء كلها[2]، وكذلك: الحِساسُ [3]، والحَسيسُ في الآية مرادٌ به: الصَّوْتُ الَّذي يَبْلُغُ الحِسَّ، أيِ الصَّوْتُ الَّذي يُسْمَعُ مِنْ بَعيدٍ [4].

2) ﴿ٱشۡتَهَتۡ﴾: الشَّهْوَةُ: الرَّغْبَةُ الشَّديدَةُ، يُقالُ: شَهِيَ الشَّيءَ وشَهاهُ، يَشْهاهُ، شَهْوَةً، واشْتَهاهُ، وتَشَهّاهُ: إذا أَحَبَّه ورَغِبَ فيه [5]، والشَّهْوَةُ أيضًا: اشْتياقُ النَّفْسِ، وتُطْلَقُ بِمعنى طَلَبِ الشَّيْءِ مَرَّةً بعد أُخْرى [6]، والشَّهْوانُ: الشَّديدُ الرَّغْبَةِ في الشَّيْءِ، وشَيْءٌ شَهِيٌّ، أي:

(1) الجوهري، الصحاح: (حسس).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (حسس).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (حسس).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 156.
(5) ابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شهو).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (شهو).

لَذيذٌ مَحبوبٌ [1]، والجَمْعُ: شَهَواتٌ، والمُرادُ بالشَّهْوةِ في الآية: نُزوعُ النَّفْس إلَى ما يَلَذُّ لها [2].

3) ﴿خَٰلِدُونَ﴾: أصلُ (خلد) يَدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمَة، فيُقالُ: خَلَدَ: أقامَ، وأَخْلَدَ أيضًا، ويَقولونَ رَجُلٌ مُخْلَدٌ ومُخْلِدٌ، إذا أبطأ عنه المَشيبُ؛ لأنَّ الشَّبابَ قَدْ لازَمَهُ ولازَمَ هو الشَّبابَ [3]، والخُلودُ: الدَّوامُ والبَقاء، وطولُ الإقامة بالقرار [4]، وهو أيضًا: المكثُ الطَّويل، يُقالُ: خَلَدَ بالمكان، يخلد، خُلودًا: إذا دام فيه، وبقي فيه لا يخرج منه، وأخلَدَ الرَّجُلُ بصاحبه، أي: لزِمَهُ، والمُرادُ بالخُلودِ في الآية: طولُ المُكثِ.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

أهل السَّعادة والتَّوفيق للطّاعة والبُشرى بالثَّواب مُبعَدون عن دخول النّار

يقول اللّه سبحانه: هؤلاء المؤمنون الصّادقون الَّذين سبقت لهم من خالقهم الدَّرجةُ الحسنى لا يَسمَعون - وهم في الجَنَّة - صَوتَ جَهنَّمَ وإحراقِها الأجسادَ؛ لِبُعدِهم الشَّديدِ عنها، والمُؤمنونَ دائمون فيما أحبَّته نفوسهم من ألوان النَّعيم حسّيَّةً كانت أو معنويَّةً، فبكلٍّ يتنعَّمون، وهذه ثلاث صفات لمن سبقت لهم الحسنى، وهي: البُعد عن النّار، وعدم الإحساس بما فيها من الشّدائد، وخلودهم في الجنَّة ينعَّمون بلذّتيها الحسّيَّةِ والمعنويَّة [5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فنُّ المُبالغة في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾:

الحفاوة بأهل الجنّة بصرف الأذى عنهم

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾؛ أي: لا يسمع أهل الجنّة حسيس النّار إذا نزلوا منازلهم في الجنّة، فالجملة مسوقةٌ للمبالغة

(1) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (شهو).

(2) الراغب، المفردات: (شهو).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلد).

(4) البقاعي، نظم الدرر: 1/ 198، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 160.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 421، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 346، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 531، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1162، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 254.

في إنقاذهم منها[1]، بغية أن يُتصوّر مدى حفاوة اللّه بهم، وفضله عليهم في إبعاد الأذى عنهم يوم القيامة، فالجملة: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ بدلٌ من ﴿مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101]، أو حالٌ من ضميره مَسوقةٌ للمُبالغة في إنقاذهم منها[2].

سِرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

حيثيّات عدم سماع المؤمنين لحسيس النّار

قوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ مؤكِّدةٌ لما أفادته الجملة الأولى الَّتي حكت بُعدَ المؤمنين عن النّار؛ ومعلومٌ أنّ الإبعاد يكون بعد القرب، فيُفهَم منه أنّهم أورِدوا أوَّلًا، ولمّا كان مظنَّةَ التأذّي بها دُفِعَ بقوله سبحانه ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾؛ فهي مستأنفةٌ لدفع ذلك، فعلى هذا يكون عدم سماع الحسيس قبل الدّخول إلى الجنّة، وذلك حين المرور على الصّراط، فهم لا يسمعون حسيسها لسرعة مرورهم، وهو ظاهرُ قول ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال في الآية: (أولئك أولياء اللّه تعالى يمرّون على الصِّراط مرًّا هو أسرع من البرق فلا تصيبهم ولا يسمعون حسيسها)، وقوله: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ مع ما قبلها خبرٌ بعد خبر، أو هي بدلٌ من ﴿مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101]، وجوَّز أن تكون حالًا من ضميره[3]، فالعلاقة بين الجملتين هي كمال الاتّصال، فامتنع لذلك الوصل بينهما؛ إذ فُصِلت جملة ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ عن الجملة الأولى؛ لأنّ بها تفصيلًا لبعض ما أجملته الجملة الأولى، من الإبعاد عن النّار، فهي منها بمثابة البدل.

سرّ اختيار نفي السّماع دون الرّؤية:

نفي السَّماع أدلُّ على البعد من نفي الرُّؤية

وجملة ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ بيانٌ لمعنى ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101]؛ أي: مبعدون عنها بعدًا شديدًا فلا تلفحُهم نارُها، ولا يروعهم

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 17/ 75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 87.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 93.

منظرها، ولا يسمعون صوتها، والصّوت يبلغ إلى السّمع مِنْ أبعد ممّا يبلغ منه المرئيُّ[1]، والرُّؤية تدلُّ على القرب الشّديد، ثمّ إنّ نفي رؤية النّار لا يدلّ على البعد عنها، بينما عدمُ سماع الحسيس يدلّ على البُعد الشّديد، وعمومًا يدلّ عدمُ السّماع على عدمِ الرّؤية؛ لأنّ عدم السّماع فيه معنى البعد الشّديد، أمّا عدم الرّؤية فلا يدلّ على ذلك.

دلالة التّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يَسۡمَعُونَ﴾:

وعد الله بعدم سماع المؤمنين حسيس النّار

أفاد المضارع المنفيّ هنا نفي الحدث في المستقبل؛ الَّذي هو سماع حسيس جهنّم؛ فأولئك المؤمنون هم مبعَدون عن نار جهنّم، و﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ حالًا ومستقبلًا، وهم خالدون في الجِنان في مأمنٍ من شرورها، مع ما في الجملة من الدَّلالة على الحاليَّة الَّتي يعبَّر عنها بالفعل المضارع، وكذلك فإنَّ المضارع أبلغ في تصوير المشهد واستحضار الصّورة.

بلاغة التّعبير بـ (الحسيس) دون (الصّوت):

الحسيس أقل ما يُمكن سماعه

الحسيس في قوله تعالى ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾ هو الصّوت الَّذي يبلغ الحسّ؛ أي الصّوت الَّذي يُسمع من بعيد؛ أي لا يقربون من النّار ولا تبلغ أسماعهم أصواتُها، فهم سالمون من الفزع من أصواتها فلا يقرع أسماعَهُم ما يؤلمها[2].

دلالة الكناية في: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾:

بيان شدَّة بعد النّار عنهم

والحسيسُ صوتٌ يُحَسّ به؛ أي: لا يسمعون صوتَها سمعًا ضعيفًا؛ كما هو المعهودُ عند كون المصوِّت بعيدًا؛ حتَّى إن كان صوتُه في غاية الشّدّة[3]، فعدمُ سماع حسيسها كناية عن شدّة بعدها عنهم، أو بعدهم عنها، وأكّد ذلك قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء: 101].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 87.

خلودهم في حالات تختارها أنفسهم

دلالة التّعبير بـ ﴿فِي﴾:

قوله: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾؛ التّعبير بـ ﴿فِي﴾ لدلالة الظّرفيّة المجازيّة، فجعل ما اشتهت أنفسُهم موضعَ خلودهم، جاء في المقتضب: "وأمّا (في) فهي للوعاء"[1]، فصارت ما اشتهته أنفسهم كالوعاء لهم وهم خالدون على هذا الحال، فيكون خلودهم في حالةٍ تختاره أنفسهم من التّنعّم والتّلذُّذ والشّهوات.

الدّوام في غاية التّنعّم

فائدة تقديم الظّرف ﴿فِي﴾:

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ بيانٌ بفوزهم بالمطالب بعد ذلك الخلاص، والمراد أنّهم دائمون في غاية التّنعّم، وتقديم الظّرف للقصر والاهتمام[2]، فقد قصر ذلك التّنعّم على ما تختاره أنفسهم من الشّهوات والملذّات، وكذلك لرعاية الفواصل[3]، وفي تقديم الجارِّ والمجرور أيضًا تعجيلٌ بمسرَّة البشرى، فيكفي المؤمن أن يسمع ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ حتَّى يتحقّق في نفسه عظيم البشرى بأنه سيكون في ما تشتهي نفسه من ملذّات.

الاتّساع في ما تشتهيه أنفسهم من الملذّات

بلاغة الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

بعد أن ذُكِرَ بُعدُ أهل الجنَّة عن النار وسلامتُهم منها في قوله ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ﴾؛ عُقّبَ ذلك بما هو أخصّ من السّلامة وهو النّعيم الملائم، وجيء فيه بما يدلّ على العموم؛ وهو ﴿فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾[4]، و﴿مَا﴾ موصولةٌ واقعةٌ هنا على صفةٍ من صفات العقلاء، ومدّة الألف المتّسعة في آخرها تشاكل الاتّساع في معناها، وأفاد ذلك اتّساع ما تشتهي أنفسهم من الملذّات الّتي لا تنتهي، فهم خالدون في ملذّاتهم وما تشتهيه أنفسهم، يتَّسع ذلك سعة

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 308.
(2) المبرّد، المقتضب: 4/ 139.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 93.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.

خلودهم في الجنّة، فالجملة ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ بيانٌ لفوزهم بالمطالب إثرَ بيان خلاصِهم من المهالك والمعاطب؛ أي دائمون في غاية التّنعّم[1].

سرُّ التّعبير بالاشتهاء دون غيره:

بيان عظيم نعيم المؤمنين في الجنّة

الاشتهاء: حبّ الشّيء واشتياقه والرّغبة فيه ونزوع النّفس إليه[2]، وعبّر بالاشتهاء دون التّلذّذ لما بين الكلمتين من فرقٍ معنويّ؛ فالشَّهْوَة توقان النَّفس إلَى ما يلذّ ويسرّ، واللّذة ما تاقت النَّفس إليّهِ ونازعت الى نيله[3]، فاللّذة فيها الاحتياج إلى بذل الجهد لنيل ما اشتهته النّفس، وأمّا قوله: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ فليس بينهم وبين ما اشتهت أنفسهم حاجةٌ إلى بذل جهدٍ؛ بل هم كائنون فيما اشتهته أنفسهم.

دلالة التّعبير بالماضي ﴿ٱشۡتَهَتۡ﴾ دون المضارع:

نعيم المؤمنين في الآخرة بما كان محظورًا في الدُّنيا

دلّ الماضي في قوله: ﴿ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ على ما اشتهته أنفسهم في الدّنيا ولم يتحقّق لهم، لما في الدّنيا من محظوراتٍ عليها، والمحظورات على النّفس في الدّنيا كثيرة، وكانت من قبيل نزغ الشّيطان في طلب تحقيقها، لكنّ أحدهم كان قد كفّ نفسه عنها في الدّنيا فجعلها اللّه له في الآخرة خالصةً لهم خالدين فيها.

سرّ إسناد التّشهّي إلى الأنفس:

النّفس مستقرُّ التّشهّي

في قوله: ﴿ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ فأسند التّشهّي إلى النّفس؛ لأنّ النّفس هي محطُّ الشّهوات في الدّنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]، فلمّا حصّنها صاحبها في الدّنيا ومنعها من الشّهوات، فقد استحقّت في الآخرة أن تنال ما تشتهيه، قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ [الزخرف: 71].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 87.
(2) عبد المنعم، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، ص: 190.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 121.

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿أَنفُسُهُمْ﴾:

الإضافة نسبة اسم إلى اسم آخر، وإسناده إليه، ففي قوله تعالى: ﴿فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾؛ الإضافة هُنا بمعنى اللّام، وهي لبيان الملك أو الاختصاص[1]، فهي الأنفس الَّتي اختصّت بهذه المكرمة الإلهيّة؛ وهي أنفُسُ أولئك الأولياء الَّذين امتنعوا في الدّنيا من الشَّهوات، فاستحقّت تلك الأنفس اختصاص الله لها بأن تكون لها في الجنّة ما تشاء وتشتهي خالدةً على هذا الحال.

تمليك الأنفس في الجنّة حريّتها واختيارها

سِرُّ التعبير بالخلود في قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

وما يدلّ على الدوام وهو قوله: ﴿خَٰلِدُونَ﴾[2]، فإنّ لتلك الأنفس ما تشتهي من كلّ شيء، وهم خالدون على هذا الحال، والتّعبير بالخلود هو التّعبير الجاذب عند الحديث عن اشتهاء النّفس؛ فشهوات النّفس تنقضي حال نوالها، وهذا على خلاف شهوات الآخرة الَّتي تخلد بأصحابها، ولا تنتهي أبدًا.

خلود المؤمنين في شهواتهم

دلالة التَّعبير بالاسميَّة ﴿خَٰلِدُونَ﴾ دون الفعليَّة:

الجملة الاسميّة تدلّ على الثّبات، فلا تغيُّر لحالهم هذه، ولو كانت جملةً فعليّةً لاقتضى ذلك التّجدّد واحتمال التّغيّر من وقتٍ إلى آخر، لكنّهم باقون على حال الانغماس فيما اشتهت أنفسهم، خالدون على هذه الحال دون حدوث تثبيطٍ لها أو انحسارٍ فيها.

ديمومة أهل الجنّة وانغماسهم بما يشتهون

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الاشتهاء واللّذّة:

الشّهوةُ تَوَقانُ النّفس إلى ما يلذّ ويسرّ، وميلُ الطّباع إلى المُشتهى، وليست من قبيل الإرادة، واللّذة ما تاقت النّفس إليه ونازعت إلى نيله، فالفرق بينهما ظاهر[3]، واللَّذّة لا تكون إلّا مشتهاة[4].

تدرّج أهواء النّفس وتنوّعها

---

(1) الخضري، حاشية الخضريّ: 2/ 3.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 156.

(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 306.

(4) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 463.

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾ [الأنبياء: 103]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

صورةٌ من سعادة المؤمنين في هذا اليوم

بعد أن ذكر إبعاد المؤمنين يوم القيامة عن نار جهنّم، وأنّهم لا يسمعون أدنى ما يأتي من أصواتها، أو من أصوات المُعذّبين فيها؛ ناسبَ أن يذكر هُنا صورةً من سعادتهم في هذا اليوم العظيم، فبرّأهم من الحزن الأكبر، الَّذي هو مجموع الأفزاع يوم القيامة، ثمّ بيّن أنّ الملائكة تتلقّاهم لتُبشّرهم بالجنّة والنّعيم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفَزَعُ﴾: أصلُ الفَزَعِ يدلُّ على الفَرَقِ والذُّعْرِ مِنَ الشّيْءِ، وهو في الأصل مصدرٌ [1]، وربَّما جُمع على أفْزاعٍ، تقولُ: فَزِعْتُ إليك وفَزِعْتُ منك، ولا تقل فَزِعْتُكَ [2]، والفَزَعُ: نَفْرَةُ النَّفْسِ وانْقِباضُها مِمّا تَتَوَقَّعُ أنْ يَحْصُلَ لها مِنَ الألَمِ، وهو قريبٌ مِنَ الجَزَعِ، والمُرادُ به في الآية: فَزَعُ الحَشْرِ حينَ لا يَعْرِفُ أحَدٌ ما سيَؤولُ إليه أمْرُهُ، فيَكونونَ في أمْنٍ مِنْ ذلك بِطَمْأنَةِ المَلائِكَةِ إيّاهُم [3].

2) ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾: أصْلُ (لقي) يدلُّ على تَوافي شيْئَيْنِ [4]، اللِّقاءُ: مقابلة الشّيء ومصادفته معًا، وقد يُعبَّر به عن كلِّ واحدٍ منهما، يُقالُ: لَقيَهُ يَلْقاهُ لِقاءً ولُقيًا ولُقْيَةً، ويُقال ذلك في الإدراك بالحسِّ، وبالبَصر، وبالبصيرة [5]، ولَقيتُه لَقْوَةً، أيْ مَرَّةً واحِدَةً ولِقاءَةً، واللُّقْيَةُ فُعْلَةٌ مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فزع).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فزع).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 156.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(5) الراغب، المفردات: (لقي).

اللِّقاءِ، والجَمْعُ لُقًى[1]، والالتِقاءُ: المُحاذاةُ [2]، والتَلَقّي: استقبالُ ما يُلْقَى [3]، والتَّلَقّي في الآية مُرادٌ به: التَّعَرُّضُ للشّيْءِ عِنْدَ حُلولِه تَعَرُّضَ كَرامَةٍ، والصّيغَةُ تُشْعِرُ بِتَكَلُّفِ لِقائِه وهو تَكَلُّفُ تَهيُّؤٍ واسْتِعْدادٍ [4].

3) ﴿تُوعَدُونَ﴾: أصلُ (وعد) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخيْرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعيدُ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ [5]، والوَعْدُ: هو الإخْبارُ بأمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ، وعدتُ الرجلَ أعِده وعْدًا حسنًا من مالٍ وغيره، وفُلانٌ وفيُّ الوَعْدِ والموعود [6]، والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ [7]، والمقصودُ بالوعد في الآية: الإخْبارُ عَنْ فِعْلِ المُخْبِرِ، وهو تَذْكيرهم بما وُعِدوا في الدُّنيا مِنَ الثَّوابِ [8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمن المؤمنين يوم القيامة وتبشير الملائكة لهم

يقول اللّه تعالى: لا يَحزُنُ المؤمنينَ الفزعُ الأكبَرُ يَومَ القيامةِ عِندَ النَّفخِ في الصّورِ للحَشرِ، ويَستَقبلُ الملائكةُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ، فيُهَنِّئونَهم ويُبَشِّرونَهم برَحمةِ اللّهِ، ونيْلِ كرامتِه؛ يقولونَ لهم: هذا اليومُ الحاضِرُ هو اليَومُ الَّذي كُنتُم في الدُّنيا توعَدونَ أن يُثيبَكم اللّهُ فيه على قيامِكم بطاعتِه [9].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

بيان أحوال أولياء الله

هذه الجملة والتي قبلها خبريّتان؛ متّفقتان في المعنى؛ فقد ذَكَرَتا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (لقي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 157.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعد).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 157.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 422، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 346، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 381.

أحوال أولياء الله الَّذين عملوا الحسنى في الدّنيا، فكانت الجملة الثّانية وهي قوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ بمثابة عطف بيانٍ من الجملة الأولى في كونها مبيّنةً وموضّحةً لها، فاقتضى ذلك فصلهما لكمال الاتّصال بينهما.

دلالة التّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ﴾:

لا يُصيب أهلَ الجنّة حزنٌ قطُّ

المضارع يفيد التّجدّد، ونفيُ المضارع ينفي ذلك التّجدّد، فلا يحزنهم مهما تجدّد الحزن عند غيرهم، فإنّهم لا يحزنهم شيءٌ من ذلك، ولا يصيبهم ما يصيب الآخرين، وأفاد هذا الأسلوب نفيَ حدوث الحَزَنِ عندهم في المستقبل مطلقًا، لأنَّهم إذا لم يحزنهم أكبر الإفزاع لم يحزنهم ما عداه بالضَّرورة[1].

سرّ التّعبير بـ ﴿ٱلۡفَزَعُ﴾ معرَّفًا:

الفزع هو الخوف الشّديد وما يُحدثه من عظيم الأثر

عبّر بالفزع لأنَّه أعظم أثرًا في النّفس من الخوف أو غيرها من الألفاظ القريبة، لِما في الفزع من المفاجأة والصّدمة.

والتّعريف في قوله: ﴿ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ للتّعظيم؛ على خلاف قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾ [النّمل: 89]، للتّهوين؛ إذ نَكَّرَ لفظة ﴿فَزَعٖ﴾ [النّمل: 89] الَّتي أريدَ بها أدنى وأقلُّ فزعٍ يمكن أن يصيب النّفس، فآمنهم منه، فناسب تأمينَهُم تنكيرُ الفزع، وتهوينُ شأنه، ولمّا ذكر الفزع في قوله: ﴿ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ مُعرّفًا جاء للتّعظيم من شأنه.

سِرُّ تقييد الفزع بـ ﴿ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ دون الكبير:

النّجاة من الفزع الأكبر نجاة من أفزاع الآخرة كلّها

صيغة (أكبر) في قوله: ﴿ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾؛ بصيغة المبالغة (أفعل)؛ فالأفزاع الَّتي تواجه النّاس في ذلك اليوم كثيرة، وصيغة ﴿ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ مبالغةٌ في عظيم شأن هذا الفزع، فهو أكبر فزعٍ يمكن أن تواجهه النّاس يوم القيامة، فمن نجا من هذا الفزع فقد نجا من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 93.

عواقب ذلك اليوم العصيب، ولو قال الفزع الكبير لما تحقَّقت تلك الفائدة، فإنّ جميع الأفزاع يوم القيامة كبيرة.

والوصف بالأكبر يتناسب مع ما جاء من أقوال في تفسير المراد بالفزع؛ إذ ذكر منها أنَّه النَّفخة الآخرة[1]، والقيام للحشر؛ فإنَّ ذلك أكبر الفزع.

سرُّ البدء بِنَفي الحزن من الفزع الأكبر:

النّجاة من الأفزاع والأحزان بداية كلِّ المسرّات

وقد بدأ بنفي الحَزَنِ من الفزع الأكبر بقوله: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾؛ لبيان نجاتهم من الأفزاع بالكلّيّة بعد بيان نجاتِهم من النّار؛ لأنّهم إذا لم تحزُنهم أكبرُ الأفزاع فلن يحزنهم ما عداه بالضّرورة[2].

دلالة استعمال لفظة التّلقّي:

كرامة المؤمنين يوم القيامة

قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ التّلقّي هو التّعرّض للشّيء عند حلوله تعرُّضَ كرامةٍ، والصّيغة تُشعر بتكلُّفِ لقائه وهو تكلُّف تهيُّؤٍ واستعداد [3]، وهذا يدلُّ على كرامة اللّه تعالى لعباده المتَّقين؛ إذ تتلقّاهم ملائكته بالبشرى بالجنّات، والتَّطمين من العذاب، بما يُذهب عنهم فزعَ ذلك اليوم وهولَهُ وشدَّته.

دلالة إسناد التَّلقّي إلى الملائكة جمعًا:

تشوّف الملائكة للقاء المؤمنين

إسناد التّلقّي إلى الملائكة في قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ بيانٌ لكرامة هؤلاء المؤمنين وعظيم منازلهم يوم القيامة، فجمعُ الملائكة يدلُّ على عظيم البشرى الّتي يحملونها لأصحاب الجنّات من أهل الإيمان.

دلالة تقديم المفعول على الفاعل في قوله ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾:

حفاوة الملائكة وتلقّيهم للمؤمنين من أهل الإحسان

تقديم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ للاهتمام والاختصاص، فقد اختصّ هؤلاء في هذا اليوم بهذا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 541.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 157.

التّلقّي من الملائكة، ولا أحد غيرهم، والحفاوة في الآية كلّها قد أحاطت بهؤلاء القوم من المؤمنين لكرامتهم؛ فقد سبقت لهم من الله الحُسنى كما ذكرت الآية السّابقة.

الغرض من حذف لفظ (القول):

تعجيل تبشير المؤمنين بما وُعِدَوا به

وجملة ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾؛ مقولٌ لقولٍ محذوف؛ أي: يقولون لهم: هذا يومكم الَّذي كنتم توعدون، تذكيرًا لهم بما وُعدوا به في الدنيا من الثّواب، لئلّا يحسَبوا أنَّ الموعود به يقع في يوم آخر؛ أي: هذا يومُ تعجيلِ وعدكم[1]، وقد أفاد هذا الحذف الإيجازَ، والدّلالة على رغبة القائلين بسرعة التّبشير، وأنّه أوّل قولهم لهم، فيتلقّونهم بهذه البُشرى.

دلالة التّعبير باسم الإشارة القريب ﴿هَٰذَا﴾:

ابتداء اليوم بأوّل بشرى تزفّها الملائكة

في قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾؛ عبّر باسم الإشارة القريب (ذا) للمفرد المذكّر، لتعيين اليوم وتمييزه؛ بأنّه اليوم الحاضر، و(ها) للتّنبيه، فلا أقرب من هذا اليوم لأولئك الفائزين به، فهو اليوم الَّذي قد بدأت بشاراته، وتوافدت مكارمه، وتحقّق عندهم يومًا حاضرًا مُعاشًا.

دلالة الإضافة في ﴿يَوۡمُكُمُ﴾:

الآخرة دار المتّقين

دلّ التّعبير بلفظ ﴿يَوۡمُكُمُ﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾ لدلالة بدء الحيازة والتّمكّن وقرب الجزاء وحصول السّعادة العاجلة، و(اليوم) هُنا مقصودٌ به الزّمن أو الوقت الَّذي جاءتهم فيه البشرى؛ فهو وقتٌ ممتدّ إلى الخُلود؛ إذ سبق ذلك قوله: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾، وإضافة (يوم) إلى ضمير المخاطبين لإفادة اختصاصه بهم وكون فائدتهم حاصلةً فيه[2]، وفي الإضافة أيضًا تعريفٌ لليوم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 157.

فهو اليوم الَّذي يعرفونه في الدنيا؛ إذ قد كانوا وُعِدوا وهم في الدُّنيا بإتيان هذا اليوم وتحقُّقِ فوزهم فيه وسعادتهم.

دلالة الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

الاهتمام باليوم الفاصل بين الخلائق

في قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فقد جيء بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ لفائدة تعظيم شأن ذلك اليوم وما سيلقاه المؤمنون الموعودون في هذا اليوم الفاصل، قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ [المرسلات: 38]، كما أنَّ في الاسم الموصول فائدةً أخرى؛ وهي زيادة التأكيد بمعرفتهم لذلك اليوم، وذلك بما دلَّت عليه الصِّلة ﴿كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾، فاجتمع لهؤلاء المؤمنين تعجيل البشرى بثلاثة أمور: باسم الإشارة للقريب، وبإضافة اليوم لهم، وبالموصول وصلته.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تُوعَدُونَ﴾ دون الماضي:

انتظار اليوم العظيم والصّبر على المكاره

دلّ المضارع في قوله: ﴿ٱلَّذِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾؛ على تجدُّدِ الوعد، تناسبًا مع تجدُّدِ المكاره، لأنَّ البشارة تُعين على الصَّبر على المكاره، ولذلك فائدةٌ كُبرى في تعزيز الصّبر على المَكاره والاستمرار والتّشوّف لاستقبال ذلك اليوم العظيم.

دلالة حذف متعلّق ﴿تُوعَدُونَ﴾:

الوصف الدَّقيق لحال المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فقد حذف متعلّق ﴿تُوعَدُونَ﴾ إيجازًا؛ إذ قد سبق ذِكر ذلك اليوم؛ ثمَّ ما في ذلك النّظم من الوصف النّفسيّ الَّذي كان عليه أولئك المؤمنون في ذلك الموقف العظيم، وهم يستذكرون أيامهم في الدّنيا، ووعدهم بهذا اليوم العظيم، وليقف الكلام على ﴿تُوعَدُونَ﴾ رعايةً للفاصلة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْف والحذر والخشية والفزع:

الخَوْف تَوَقُّعُ الضَّرَر المَشْكوك في وُقوعه، ومن يتيَقَّن الضَّرَر لم

الـخَـوْف تَـوَقُّـعُ الضَّرَر المَشْكوك في وُقوعه

يكن خائفًا لَهُ، وكَذَلِكَ الرَّجاء لا يكون إلّا مَعَ الشَّك، ومن تيَقّن النَّفْع لم يكن راجيًا لَهُ، والحذرُ توقّي الضَّرَر وسَواءٌ كانَ مظنونًا أو متيقَّنًا، والحذرُ يدْفع الضَّرَر والخَوْفُ لا يَدْفَعهُ، ولِهَذا يُقال خُذ حذركَ ولا يُقال خُذ خوفك[1]، والفزع؛ كما قال الرّاغب: انقباضٌ ونفارٌ يعتري الإنسان من الشَّيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ويطلق على الذهاب بسرعةٍ لما يهول[2].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 93.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبة بين التطمين للمؤمنين وذكر أهوال القيامة

بعد أن بيّن بشارة الملائكة للمؤمنين يوم القيامة بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فناسبَ أن يبيّن هنا عظيمَ أهوال هذا اليوم مقابل ما ذكر من تطمينات المؤمنين وبشارتهم؛ فناسب أن يذكر طيّ السّماء بما تضمّنته من أقدارٍ، ومخلوقاتٍ، وكائناتٍ، وما يرافق ذلك من الأهوال العظيمة.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَطَيِّ﴾: الطّيُّ: نَقيضُ النَّشْرِ، طَوَيْته طَيًّا وطية وطيةً، بالتَّخْفيفِ؛ الأخيرة عَنِ اللِّحْياني وهي نادِرَةٌ، وحَكَى: صَحيفةٌ جافيَةُ الطّيةِ، بِالتَّخْفيفِ أيضًا، أي الطَّيّ، وحَكَى أبو عَلي: طَيَّةٌ وطوى ككَوَّة وكوى، وطَوَيته وقَدِ انْطَوَى واطَّوَى وتَطَوَّى تَطَوّيا[1]، والمراد بـ (طيِّ السَّماءِ) في الآية: تَغْييرُ أجْرامِها مِنْ مَوْقِعٍ إلى مَوْقِعٍ أو اقْتِرابُ بَعْضِها مِنْ بَعْضٍ كَما تَتَغَيَّرُ أطْرافُ الوَرَقَةِ المَنْشورَةِ حينَ تُطْوَى لِيَكْتُبَ الكاتِبُ في إحْدى صَفْحَتَيْها[2].

2) ﴿ٱلسِّجِلِّ﴾: يُطْلَقُ على الوَرَقَةِ الَّتي يُكْتَبُ فيها، ويُطْلَقُ على كاتِبِ الصَّحيفَةِ[3]، ولَعَلَّهُ تَسْمِيَةٌ على تَقْديرِ مُضافٍ مَحْذوفٍ، أيْ: صاحِبُ السِّجِلِّ، وقيلَ سِجِلٌّ: اسْمُ مَلَكٍ في السَّماءِ تُرْفَعُ إليه صَحائِفُ أعْمالِ العِبادِ فيَحْفَظُها[4]، وفي الآية: أنْ يُرادَ بِالسِّجِلِّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طوي).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 159 - 160.
(3) ابن سيده، المحكم: (سجل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 159.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (سجل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 159.

الكاتِبُ الَّذي يَكْتُبُ الصَّحيفَةَ ثُمَّ يَطْويها عِنْدَ انْتِهاءِ كِتابَتِها، وذلكَ عَمَلٌ مَعْروفٌ، فالتَّشْبيهُ بِعَمَلِهِ رَشيقٌ [1].

3) ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾: أصلُ (عود) يَدُلُّ على تَثْنِيَةٍ في الأمْرِ، ومنه العَوْدُ، قالَ الخَليلُ: هو تَثْنِيَةُ الأمْرِ عَوْدًا بَعْدَ بَدْءٍ، تَقولُ: بَدَأَ ثُمَّ عادَ، والعَوْدَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ [2]، والمرادُ بالعَوْدِ في الآيَة: الرُّجوعُ إلَى شَيْءٍ بَعْدَ مُفارَقَتِهِ، وإعادَةُ الخَلْقِ: إعادَةُ مُماثِلِهِ في صورَتِهِ [3].

4) ﴿فَٰعِلِينَ﴾: أصلُ (فعل) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحداثِ شيءٍ مِنْ عَمَلٍ وغيْرِهِ، مِنْ ذلكَ: فَعَلْتُ كذا أفْعَلُهُ فَعْلًا [4]، والفعل: أخَصُّ من العمَلِ، أو كِنايَةٌ عَن كلِّ عمَلٍ، مُتَعَدٍّ أو غيرِ مُتَعَدٍّ، والمُرادُ بِقَوْلِهِ ﴿فَٰعِلِينَ﴾: أنَّهُ تعالى الفاعِلُ لِما وعَدَ بِهِ، أيِ القادِرُ، والمَعْنَى: (إنّا كُنّا قادِرينَ على ذلكَ) [5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإعادةُ عِدَةٌ من الـحـقِّ تـعـالى كائنةٌ لا محالة ولا بـــدَّ مـن تحقُّقها

الذين سبقت لهم الحسنى لا يَحزُنُهم الفَزَعُ الأكبَرُ في ذلك اليَومِ الَّذي نَطْوي فيه السَّمواتِ كما تُطوى الصَّحيفةُ على الكَلامِ المكتوبِ فيها، وكما قدَرْنا على إيجادِ الخَلْقِ أوَّلَ مرَّةٍ، كذلك نقدرُ على إعادتِهم، فنبعثُهم أحياءً مِن قبورِهم، ونحشرُهم على مِثلِ هيئَتِهم حينَ خَرَجوا مِن بُطونِ أُمَّهاتِهم؛ حُفاةً، عُراةً، غيرَ مَختونينَ، وعَدْناكم ذلك وعدًا حَقًّا علينا أنْ نَفيَ به، فمِن شأنِنا أنَّنا نفعلُ ما نريدُ، وسنفعلُ ما وعَدْنا به لا محالةَ [6].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 159.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 160.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فعل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 158.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 431، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 192، والبقاعي، نظم الدرر: 12/ 490.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع آية ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ ودلالتها:

هول يوم البعث وأحداث القيامة

آية ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ قد تكون متعلّقةً بالآية قبلها، فيكون انْتِصاب ﴿يَوۡمَ﴾ بِقَوْلِهِ ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ﴾ أو بقوله ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾[1]، فيكون المعنى لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوي السماء، أو: وتتلقّاهم الملائكة يوم نطوي السماء.

وقد تكون الآية استئنافيّة، والظرف ﴿يَوۡمَ﴾ متعلِّقًا بقوله ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾؛ أيْ: نُعيدُهُ يَوْمَ نَطْوي السَّماءَ، وقيلَ: مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذوفٍ، وهو اذْكُرْ أو أعني[2].

فائدة تكرار لفظ ﴿يَوۡمَ﴾:

يوم اجتماع النّقائض

كرّر لفظ يوم في قوله: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ بعد أن قال: ﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ﴾ لبيان أنّه هو اليوم نفسه وهو يوم القيامة، وكذلك بيانِ عظيمِ الأهوال الَّتي ستحدث في ذلك اليوم، والأحداث الكثيرة الَّتي سيضمّها ذلك اليوم، وفائدة ذلك أنّه يومٌ تجتمع فيه النّقائض، فهو يوم البشرى للمؤمنين، وهو اليوم المهول الَّذي تُطوى فيه السّماء والأحداث والأقدار، وفي ذلك إشارةٌ إلى شديد الحفاوة بالمؤمنين في يوم تجتمعُ فيه الأهوالُ بزوال الكونِ أو طيّهِ وتبديله.

سِرُّ التَّعبير بـ (الطَّيِّ) دون غيره:

الزّوال أو التّبدّل بالطّيِّ

الطّيُّ: رَدُّ بعض أجزاء الجسم اللّيِّن المطلوق على بعْضه الآخر[3]، والطَّيُّ ضدُّ النَّشر، وقوله: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾؛ هي الصّحيفة؛ أي: طَيًّا كطَيِّ الطّومار[4]، وقد أتى التّعبير بالطَّيّ في قوله: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي﴾ لتحقّق معاني معنى القدرة الإلهية في بيان تغيير السّماوات وتبديلها.

---

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 6/ 865.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 208.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 159.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 88.

دلالة نون العَظَمَة والمضارع في قوله: ﴿نَطۡوِی﴾:

عظيم شأن السّماوات وعظيم شأن طيّها

في قوله: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِی ٱلسَّمَآءَ﴾؛ عبّر بنون العظمة ﴿نَطۡوِی﴾ مكان ضمير المفرد (أطوي) للدلالة على التّعظيم والإجلال، وهذا يناسب من جهةٍ أخرى سياق الآية وموضوعها، حيث ذكرت الأحداث المهولة العظيمة الَّتي لا يقدر عليها إلّا اللّه تعالى وحده، وعُبِّر بالفعل المضارع الدّالِّ على الاستقبال تناسبًا مع الإخبار بالغيب.

دلالة القراءات في قوله: ﴿نَطۡوِی﴾:

قدرة الله وعظمته في تبديد الكون أو تبديله بطَيّه

قرأ أبو جَعْفَرٍ بالتّاءِ مَضْمومَةً عَلَى التَّأْنيثِ وفَتْحِ الواوِ: ﴿تُطۡوَى﴾، وبرَفْعِ ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، وقَرَأ الباقونَ بِالنّونِ مَفْتوحَةً وكَسْرِ الواوِ ونَصْبِ السَّماء: ﴿نَطۡوِی ٱلسَّمَآءَ﴾[1].

فعلى قراءة الجمهور تكون نسبة الفعل إلى نون العظمة؛ لعظمة الأحداث يوم البعث الَّتي لا يقدر عليها إلّا العظيم سبحانه، وكذلك لتناسب السّياق؛ إذ قد نسبت الأفعال السابقة واللّاحقة إلى نون العظمة: ﴿كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنبياء: 93]، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء: 94]، ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا﴾ [الأنبياء: 101]، ﴿بَدَأۡنَآ﴾، ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾، ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾، ﴿كَٰتِبۡنَا﴾.

وأفاد البناء للمفعول في قراءة أبي جعفر: ﴿يَوۡمَ تُطۡوَى ٱلسَّمَآءُ﴾ التعظيمَ والدّلالةَ على أنّ الفاعل معلومٌ، فهو وحده تعالى القادرُ على تبديل الكون أو تحويله بطَيّه، وقراءة البناء للمفعول متماشية مع سياق الآيات قبل ﴿مُبۡعَدُونَ﴾، وبعد: ﴿تُوعَدُونَ﴾، فمَن أبعدهم عن جهنّم هو اللّه، ومن وعدهم الجنة هو أيضا اللّه؛ فهو سبحانه القادر على طيّ السماء.

بلاغة التَّشبيه في قوله: ﴿كَطَيِّ﴾:

تكشف الآية الكريمة عن ملامح تبدّل السّماء على طريقة التَّشبيه

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 324.

في قوله: ﴿نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾؛ أي: طَيًّا مثل طَيِّ الصَّحيفة على ما كتب فيها؛ أي: كطيِّ السِّجلِّ كائنًا للكتب أو الكائن للكتب، فإنَّ الكُتُب هي الصَّحائف وما كُتب فيها[1] وأفاد التَّشبيه تبسيطَ فهم قضيّةٍ كونيّةٍ كبرى اختصرت كثيرًا من التّساؤلات والأفكار في عبارة وتشبيه موجز، وفي هذا التشبيه كذلك إشارةٌ إلى يُسْرِ ذلك الفعل على اللّه تعالى وسهولته كسهولة طيِّ الكتاب.

عظيم قدرة الله تعالى فشدائد الأمور أهون عليه سبحانه

جناس الاشتقاق بين ﴿نَطۡوِي﴾ و(طي):

في قوله: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ﴾؛ فبين المصدر (طيّ) والفعل المضارع ﴿نَطۡوِي﴾ جناسُ اشتقاقٍ أفاد تطابق وجه الشّبه في أمورٍ عديدةٍ بين المشبَّه والمشبَّه به، وهذا التَّطابقُ في هذا التّشبيه أفاد تجلية المعاني العلمية.

تجلية المعاني بالتّشبيه

دلالة اللّام في قوله: ﴿لِلۡكُتُبِۚ﴾:

قوله: ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾؛ وقرئ ﴿لِلۡكِتَٰبِۚ﴾؛ وهو إمّا مصدرٌ واللّامُ للتّعليل؛ أي كما يُطوى الطّومارُ للكتابة، أو اسمٌ، فيكون تعليل الطَّيّ للكتب لاكتمال مهمّتها، وانتفاء الحاجة من وجودها مفتوحةً[2] أو اللّامُ في قوله: (للكتاب) لتقوية العامل فهي داخلة على مفعول (طيّ)[3].

يأتي طيّ الكتاب بعد إنهاء الكتابة فيه

دلالة القراءات في قوله: ﴿لِلۡكُتُبِۚ﴾:

اخْتلفوا في قَوْله ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾ في الجمع والتوحيد؛ فَقَرَأَ حَمْزَةُ والكِسائي وخَلَفٌ وحَفْصٌ ﴿لِلۡكُتُبِۚ﴾ بِضَمِّ الكافِ والتّاءِ مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ عَلَى الجَمْعِ، وقَرَأَ الباقونَ بِكَسْرِ الكافِ وفَتْحِ التّاءِ مَعَ الألِفِ عَلَى الإفْرادِ: ﴿لِلۡكِتَٰبِۚ﴾[4]، ولمّا كان تعريف السّجلِّ

عظيم قدرة الله تعالى فكلُّ شيءٍ عليه هيِّن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 730.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 88.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 159.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 325.

وتعريفُ الكتاب تعريفَ جنسٍ استوى في المعرّف الإفرادُ والجمعُ، فأمّا قراءتهما بصيغة الإفراد ففيها التّناسب أو مراعاة النَّظير في الصّيغة، وأمّا قراءة ﴿لِلۡكُتُبِۚ﴾ بصيغة الجمع مع كون السِّجل مفردًا ففيها حسن التّفنّن بالتّضادّ[1].

سرُّ التعبير بالمفرد في ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

السَّماء جنسٌ يُراد به الجمع

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾ ذكر الواحد وأراد الجمع؛ لأن الطَّيّ لا يختصُّ بسماءٍ دون سماءٍ؛ بل تُطوَى جميعها لقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: 67]، وفائدة التَّعبير بالمفرد أنّها تُطوَى جميعًا كما تُطوَى الواحدة منها، فاللّٰه تعالى كاملُ القدرة؛ لا يُعجزه كثيرٌ ولا قليل.

دلالة التّعبير بالكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ دون (مثل):

قدرته تعالى على الإعـادة كقدرته على الابتداء

في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ تشبيهٌ للإعادة بالابتداء، في تناول القدرة لهما على السَّواء، قال الزّمخشريّ: وأوّل الخلق إيجاده من العدم، فكما أوجده أوّلًا من عدم، يُعيده ثانيًا [2] فالتَّشبيه لبيان السّهولة وعدم التّعذُّر [3] وليس المعنى على إعادة مثل البدء[4].

دلالة استعمال الفعل الماضي ﴿بَدَأۡنَآ﴾:

جعلناه خلْقًا مــبـدوءًا غير مسبوق في نوعه

جاء التَّعبير بالماضي ﴿بَدَأۡنَآ﴾ تحقيقًا للدَّليل وتأكيدًا ليُسْر الإعادة مستقبلًا، ولأنَّ بدء الخلق قد كان في الزَّمن الماضي وقد تحقَّق وانقطع، بخلاف إعادة الخَلْقِ والبعثِ فإنَّه أمرٌ مستقبليٌّ.

دلالة (ما) في قوله: ﴿كَمَا﴾:

تــعـــدُّد الاحتمالات الّتي بدأ بها الكون

قوله: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ﴾؛ أي كالذي بدأنا؛ فـ(ما) اسم موصول؛ أي: نعيد أولَ خلقٍ مماثلًا للذي بدأناه[5]، ويحتمل أن تكون (ما)

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 159.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 138.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 96.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 97.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 97.

مصدريَّةً، والمعنى: (نُعيد أولَ خَلْقٍ إعادةً مثلَ بَداءَتِنا له)[1]، ويحتمل أن تكون كافَّةً[2]، جوَّزت دخول حرف الجرِّ (الكاف) على الفعل الماضي ﴿بَدَأۡنَآ﴾، ويكون المعنى: (نُعيد الخَلْقَ كبدئنا له).

ثمّ إنّ بناء (ما) يوافق الاتّساع في المعنى، من إفادة الإبهام والتَّعظيم، فإنّ مدّة الألف المتَّسعة في آخرها تُشاكل الاتّساع في معناها[3].

دلالة التَّشبيه في الآية:

قدرة الله العظيمة على إعادة الخلق

قوله: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾؛ أي نعيده كما بدأناه أول مرّة، و﴿أَوَّلَ خَلۡقٖ﴾: "مفعول ﴿بَدَأۡنَآ﴾ والمعنى: (نُعيدُ أوَّل خَلْقٍ إعادةً مثل بدأتنا له)؛ أي: (كما أَبْرَزْناه من العَدَمِ إلى الوجودِ نُعيده من العَدَمِ إلى الوجود)"[4]، فالكافُ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ أي: نُعيده عَوْدًا مثلَ بَدْئِه[5] وأفادت كاف التَّشبيه في قوله: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾ أنَّ إعادة خلق الأجسام شُبّهت بابتداء خلقها، ووجه الشَّبه هو إمكانُ كليهما والقدرةُ عليهما وهو الَّذي سيق له الكلام على أن التشبيه صالح للمماثلة في غير ذلك[6] والكاف مكفوفة بـ (ما)، والمعنى: (نعيد أوَّلَ الخلق كما بدأناه) تشبيهًا للإعادة بالابتداء[7].

دلالة التَّعبير بالأوَّليَّة في قوله: ﴿أَوَّلَ﴾:

القدرة على الإعادة كالقدرة على البدء الأوَّل

دلّ قوله: ﴿أَوَّلَ﴾ على لحظة بدء الخلق، فالقادر سبحانه الَّذي خلق الخلق أوّل مرةٍ ولم يكن هناك شيءٌ؛ هو القادر على إعادته كما بدأه، و﴿أَوَّلَ خَلۡقٖ﴾ ظرفٌ لـ ﴿بَدَأۡنَآ﴾ أو حالٌ من ضمير الموصول المحذوف[8]، أو مفعولٌ به للفعل ﴿بَدَأۡنَآ﴾.

---

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 211.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 211.
(3) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/ 131.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 427، والسّمين، الدّر المصون: 8/ 211.
(5) السَّمين، الدّرّ المصون: 8/ 211.
(6) القزوينيّ، الإيضاح، ص: 164.
(7) الفخر الرّازيّ، مفاتح الغيب: 22/ 191.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 88.

إعــادة الـخـلـق يوم القيامة

دلالة التعبير بالمضارع ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾:

قوله: ﴿أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾؛ فقد دلّ الفعل المضارع على الاستقبال تنصيصًا؛ لورود قرينة في السّياق تدلّ على الاستقبال، وهو ظرف ﴿يَوۡمَ﴾ الَّذي هو يوم القيامة، والسّياق بمجمله يدلّ على أحداث يوم القيامة.

لــفُّ الـنّـظـم انسجامًا مع لفّ الكون

بلاغة التّقديم والتّأخير في الآية:

وقد رُتّب نظم الجملة على التّقديم والتّأخير لأغراض بليغة، وأصل الجملة: (نعيد الخلق كما بدأنا أولَ خلقٍ يومَ نطوي السّماء كطيّ السّجلِّ للكتب وعْدًا علينا)، فحول النّظم، فقدّم الظّرف للتّشويق إلى متعلَّقه، ولِما في الجملة الَّتي أضيف إليها الظّرف من الغرابة، ومن دواعي هذا التَّقديم والتَّأخير انسجامه مع التَّقديم والتَّأخير في بدء الكون وإعادته وطَيِّه، وكأنّه قد لُفَّ النّظمُ تبعًا وانسجامًا لمعنى لفِّ الكون، وقدم ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ﴾ وهو حالٌ من الضمير المنصوب في ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ للتّعجيل بإيراد الدّليل قبل الدّعوى لتتمكّن في النّفس فضلَ تمكّن، وكلّ ذلك وجوهٌ للاهتمام بتحقيق وقوع البعث[1].

وعد الآخرة خيرٌ للمؤمن شرٌّ على الكافر

دلالة التعبير بالوعد في قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾:

الوَعْدُ يكون في الخير والشّرّ؛ يُقال وعَد يَعِدُ بالكسر وعْدًا، قال الفرّاء يُقال: وعَدْتُه خيرًا ووعدته شرًا[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ [إبراهيم: 22]، ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ [القصص: 61]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: 9]، وأما التعبير بالوعد في قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ فهو خيرٌ للمؤمن شرٌّ على الكافر؛ إذ عقّب على خبر طيّ السّماء بما يفيد تحقُّقَ حصول البعث من

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 158.

(2) الرّازيّ، مختار الصحاح، ص: 740.

كونه وعدًا على اللّه بتضمين الوعد معنى الإيجاب، فَعُدّي بحرف (على) في قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾؛ أي حقًّا واجبًا[1].

دلالة تعدّي الوعد بـ (على) في قوله: ﴿عَلَيۡنَآۚ﴾:

هيمنة اللّه تعالى وقدرته على تحقيق الوعد

قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾؛ فقد تعدّى الوعد بـ (على)؛ ولم يقل وعدًا من عندنا فدلّ على استعلاء وقوع ذلك الأمر على كلّ أمرٍ دونه، فهو الوعد بقيام السّاعة وبعث النّاس توكيدًا للمخاطبين بلزوم مجيء يوم القيامة وإعادتهم بأجسادهم وبعثهم للحساب، وللدَّلالة على تحقُّق حصول البعث من كونه وعدًا على اللّه بتضمين الوعد معنى الإيجاب، فعُدَّيَ بحرف (على)؛ أي حقًّا واجبًا[2].

سِرُّ فصل جملة ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾:

الوعد والفعل متلازمان في الآية

في قوله: ﴿وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ﴾ فقد ضمن الوعد معنى الإيجاب؛ أي: الفعل، ثمّ أكّد بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾، فجاءت هذه الجملة واقعةً موقع التَّأكيد للتي قبلها، فبين الجملتين كمالُ اتصالٍ غرضُه التَّأكيد على تحققُّ الوعد الإلهي بالمعاد.

دلالة التأكيد بقوله ﴿إِنَّا﴾:

وعد اللّه واقعٌ لا محالة

جاء التوكيد في ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ بحرف التوكيد ﴿إِنَّا﴾ لتنزيل المخاطبين منزلة من يشكّ في قدرة اللّه أو يُنكرها؛ لأنّهم لمّا نَفَوا البعث بعلَّة تعذُّر إعادة الأجسام بعد فنائها، فقد لزمهم إحالتهم ذلك في جانب قدرة اللّه تعالى[3]، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ أي سنفعل ذلك لا محالة، وهو تأكيدٌ لما ذكره من الوعد[4].

سِرُّ ذِكرِ فعل الكون ﴿كُنَّا﴾:

اتصاف اللّه تعالى بالكمال منذ الأزل

من دقائق التَّعبير القرآنيِّ استعمالُ الفعل الماضي ﴿كُنَّا﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 158.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 158.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 17/ 103.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 22/ 192.

واسم الفاعل ﴿فَٰعِلِينَ﴾ بدلًا من الأفعال الدّالّة على المستقبل كـ (سنفعل ذلك)؛ والغرض من ذلك تنزيل المستقبل منزلة الماضي، فإنّ الأزمان عند الله كلّها سواء، وفيه كذلك إخبارٌ باتصاف الله تعالى بكامل القدرة والتَّصرُّف منذ الأزل.

وفي ذكر فعل الكون إفادة أنَّ قدرته قد تحقَّقت بما دلَّ عليه دليل قوله: ﴿كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ﴾[1].

دلالة التَّعبير بـ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ دون (قادرين):

دلالة القُدرة مع الفعل والإنجاز

قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ فقد عبّر بالفعل دون القدرة؛ لأنّ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ تدلّ على القدرة مع الإنجاز، وهو على خلاف (قادرين)؛ الَّتي قد تكون قدرةً مجرَّدةً عن إنجاز الفعل، فلا يكون معها إنجازٌ للفعل.

دلالة توالي المؤكِّدات في قوله ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾:

قـدرة الله في خلق القوى والقوانين وإعادتها

اجتمعت ثلاثة مؤكِّدات في هذه الآية؛ وهي (إنَّ)، والفعل الناسخ (كان)، والجملة الاسميَّة الَّتي دخلت عليها (كان)، وأفاد توالي المؤكِّدات إبرازَ عظيم قدرة الله تعالى على ذلك الفعل العظيم؛ وهو إعادة الخلق كما بدأه، وذلك ممّا لا يقدر عليه أحدٌ سواه، ولا يَّدعي أحدٌ قدرتَهُ عليه، وأفادت كذلك تهديدَ مَنْ أنكر قدرة الله تعالى على إنجاز هذا الوعد، وجاء التَّهديدُ من تآزُرِ هذه المؤكِّدات الدّالَّة على تحقُّق الوقوع يقينًا.

دلالة حذف متعلق ﴿فَٰعِلِينَ﴾:

دلّ الحذف في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾؛ على القدرة المطلقة في فعل أيّ شيء، ففي حذف المتعلّق دليلٌ على العموم الدّالِّ على القدرة المطلقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 158.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البعث والإعادة:

الإعادة للكون كلّه والبعثُ للأحياء

بعثُ الخلق اسْمٌ لإخراجهم من قُبورهم إلَى الموقف ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52][1]، وأصل البَعْث: إثارة الشّيء وتوجيهه، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يخرجهم ويُسَيِّرهُم إلى القيامة، فالبعث إحياءُ الموتى، والإعادة: العَوْدُ: الرّجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [المؤمنون: 107]، والظاهر أنّ الإعادة تكون في الأحياء والجمادات، والبعثُ يكون في الأحياء.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مـآل المؤمنين ورثـة جنَّـة النعيم

إن كان المراد بالأرض أرضَ الجنَّة كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: 74]، فمناسبة ذكر هذه الآية عقب الَّتي تقدَّمتها ظاهرةٌ، ولها ارتباطٌ بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الأنبياء: 44].

وإن كان المراد أرضًا من الدُّنيا، أي مصيرُها بيد عباد الله الصالحين؛ كانت هذه الآية مسوقةً لوعد المؤمنين بميراث الأرض الَّتي لقوا فيها الأذى، وهي أرض مكَّة وما حولها، فتكون بشارة بصلاح حالهم في الدُّنيا بعد بشارتهم بحسن مآلهم في الآخرة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَتَبْنَا﴾: يدلُّ (كتب) على الإثبات والتَّقدير والإيجاب والفرض والعزم، ويُعبَّر بالكتابة عن القضاء المضيِّ، وما يصير في حكم المضيِّ، ومنه قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: 22][2]، والمرادُ بالكتابةِ في الآية: الحُكم والقضاء، أي: ولقد قضينا قضاءً محتَّمًا في كتاب الزَّبور.

2) ﴿ٱلزَّبُورِ﴾: أصلُ (زبر) يَدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ وما أشبه ذلكَ، يُقالُ: زَبَرْتُ الكِتابَ، إذا كَتَبْتَهُ، ومنهُ الزَّبورُ[3]، والزُّبُرُ: الكُتُبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 161.
(2) الراغب، المفردات: (كتب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زبر).

الَّتي كُتِبَ فيها ما أوحيَ إلى الرُّسُلِ مِثلُ صُحُفِ إبراهيمَ والتَّوراةِ وما كَتَبَهُ الحواريّونَ مِنَ الوحيِ إلى عيسَى ﷺ وإنْ لَمْ يكتُبْهُ عيسَى [1]، والمرادُ بالزَّبورِ في الآية: كتاب داوود، وهو مَبْثوثٌ في الكِتابِ المُسَمَّى بِالمَزاميرِ مِنْ كُتُبِ اليَهودِ [2].

3) ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾: قال مجاهد: "الذّكر أمّ الكتاب عند الله"[3]، الَّذي يكتب فيه الأشياء قبل ذلك؛ وهو اللّوح المحفوظ كما في بعض الآثار، واختار تفسيره بذلك الزّجّاج، وإطلاقُ الِّذكر عليه مجاز[4]، وقيل المراد بـ ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ كتابُ الشريعة وهو التوراة[5].

4) ﴿يَرِثُهَا﴾: (ورث) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هي الوِرْثُ، والميراثُ أصْلُهُ الواوُ، وهو أنْ يَكونَ الشَّيْءُ لِقَوْمٍ ثُمَّ يَصيرَ إلَى آخَرينَ بِنَسَبٍ أوْ سَبَبٍ [6]، وحقيقة الإرْثِ في الآية: الكَسْبُ إلى شَخْصٍ عَقِبَ شَخْصٍ آخَرَ، والمراد: أنَّ الصّالحين يَخلُفون من كانوا على الأرض من فاسدين ظالمين عتاة [7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

العاقبةُ تكون دائمًا للمتّقين

ساق سبحانه وتعالى في هذه الآية سنَّةً من سننه الَّتي لا تتخلَّف، إذ كتب وقضى ﷻ في جميع الكُتُبِ المنَزَّلةِ مِن السَّماءِ - بعدَ اللَّوحِ المحفوظِ الَّذي كتَب فيه كلَّ ما هو كائنٌ - أنَّ الأرضَ يَرِثُها عباديَ العامِلونَ بطاعَتي، الَّذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيّات، فهُم الَّذين يورثهم الله الجنّات، ويحتمل أنَّ المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصّالحين يمكِّن الله لهم في الأرض، ويوَلّيهم عليها [8].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 162.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 162.
(3) مجاهد، تفسير مجاهد: 1/ 476.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 98.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 163.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورث).
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4927.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 434، 437، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 349، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 384.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

خبر ما كتب الله في الذّكر والزّبور بشرى للمؤمنين

في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾؛ (الواو) استئنافيّة؛ للانتقال من موضوع طيّ السّموات في آخر أيام الدّنيا، إلى الحديث عمّا كتبه اللّه في الزّبور وهو التّوراة أو القرآن أو الكتب السماويّة كلّها، أو لتأكيد مضمون ما قبلها من مآل المتقين في قوله ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾، أو للإخبار عن وعد اللّه للَّمتقين في الُّدنيا بالّتمكين في الأرض كما وعدهم في الآيات السّابقة بالجنَّة في الآخرة.

دلالة اللّام في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

بيان عظيم قدرة الله وعلمه

في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾؛ (اللّام) لام القسم، لقَسَم مقدّرٍ، وفائدته التّوكيد للخبر الَّذي جاء بعدها؛ وهو ما كتبه اللّه في الزّبور من وعد المؤمنين بميراث الجنّات؛ بعد طيّ السّماء، وانتهاء الدّنيا بكلِّ ما فيها؛ أي، وباللّه لقد كتبنا في الزّبور أو كتبنا في جميع الكتب المنزلَّة بعدما كتبنا وأثبتنا في اللّوح المحفوظ[1]، وفي ذلك بيانٌ لعظيم قدرة اللّه، وواسع علمه، أنّه ذكر الماضي والحاضر والمستقبل، وجمع عظائم الأحداث، مثل بدء الخلق وإعادته وميراث الأرض، وما كتبه من علمه ووعده في اللّوح المحفوظ.

دلالة التعبير بـ (قد) مع الفعل الماضي ﴿كَتَبۡنَا﴾:

تحقُّق وعد الله للمؤمنين بنعيم الآخرة

دخول (قد) على الفعل الماضي ﴿كَتَبۡنَا﴾ لإفادة تحقيق وقوع ما قد كتب اللّه تعالى في الزّبور، وما وعد به سبحانه عباده المؤمنين من الميراث، وفي هذا التحقيق إبرازٌ لعظيم قدرة اللّه على فعله ما وعد به، وبشرى للمؤمنين لتطمئنَّ قلوبهم بموعود ربِّهم سبحانه.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 88.

سرُّ التّعبير بالكتابة في قوله ﴿كَتَبۡنَا﴾:

توثيق وعد الله للمؤمنين

عبّر بالكتابة في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ للدَّلالة على ثبوت ما كتبه اللّه من وعدٍ وتحقيقه، فهو سبحانه وعدَ عباده وكتبَ وعدَهُ في الذّكر؛ وهو في اللوح المحفوظ على قولٍ، وفي الزّبور وهو أحد الكتب السّماويّة أو جميعها، وما وعد اللّه به عباده متحقِّقٌ لا محالة.

دلالة إسناد الكتابة إلى نون العظمة:

وعد الله المؤمنين من مشتركات الكُتُب والرِّسالات

في قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾؛ أسند الكتابة إلى نون العظمة ليدلّ على عظيم شأن هذه الكتابة، وما ورد فيها من نصٍّ ومعنىً، وهو قوله: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، وهذا من عظائم ما كُتب في الزّبور وما بشّرت به الكتب السّماويّة كلّها ورسالات الأنبياء جميعًا، فجعلت هذه البشارة - لعظمها - من مشتركات الكتب السَّماويّة، مكتوبةً في أصولها.

سرّ التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي ٱلزَّبُورِ﴾:

تضمين ميراث الجنّة في الزّبور

قوله: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾ فقد دلّ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ على الوعاء، إذ كان هذا الوعد مضمّنًا في الزّبور محتوىً فيه؛ إمّا أن يكون في العبارة نفسها، أو أن يكون مفهومًا من عموم ما في الزّبور من الوعود للمؤمنين، فيُعرف من سياق آياته وفحوى خطابه أنّ الجنّة ستكون من نصيب المؤمنين، وهم عباد اللّه الصّالحين.

توجيه القراءات في ﴿ٱلزَّبُورِ﴾:

الزّبور كتب الأنبياء

قَوۡله: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ﴾؛ قرأ حَمزة وخلف ﴿فِي ٱلزُّبُورِ﴾ بضَم الزّاي[1]؛ بوزن (فُعول) يَعْني في الكُتب جمع زَبْر مثل قَرْح وقُروح[2]؛ فشمل بذلك كتب الأنبياء ورسلهم، فهذا الوعد تكرَّرَ في الكتب لِفِرَقٍ من العباد الصّالحين[3].

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 253.
(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 471.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 253، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 163.

وَقرأ الباقونَ ﴿فِي ٱلزَّبُورِ﴾ بِفَتح الزّاي[1] بصيغة الإفراد وهو اسمٌ للمزبور؛ أي المكتوب، (فعول) بمعنى (مفعول)؛ أو أنّه أرادَ زبور داوود[2]، فعلى قراءة الجمهور فهو غالبٌ في الإطلاق على كتاب داوود قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: 163] و[الإسراء: 55]، فيكون تخصيص هذا الوعد بكتاب داوود؛ لأنّه لم يُذكر وعْدٌ عامٌّ للصّالحين بهذا الإرث في الكتب السّماوية قبله، وما ورد في التّوراة فيما حكاه القرآن من قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، فذلك خاصٌّ بأرضِ المقدِسِ وببني إسرائيل[3].

دلالة التعبير بـ ﴿مِنْ﴾ في قوله ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾:

بشرى الله تعالى للمؤمنين أزليّة

﴿مِنْ﴾ تفيد ابتداء الغاية؛ فقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾؛ فالمعنى أنّه قد وعد هذا الوعد ابتداءً من كتابة اللوح المحفوظ، أو إنّه قد بدأ هذا الوعد من علم اللّه الأزليّ على معنى أنّ الذّكر هو علم اللّه تعالى، وقد وقع في حديث البخاري عنه ﷺ أنه قال: (كان اللّهُ تعالى ولم يكُنْ قبلَهُ شيءٌ وكان عَرشُهُ على الماء ثمَّ خلّقَ اللّهُ السماواتِ والأرضَ وكتَبَ في الّذكْرِ كَّل شَيء)[4]، وقيل: الذكرُ العِلْمُ، وهو المرادُ بأمِّ الكتاب.

سِرُّ تخصيص الوعد المذكور في الآية بـ ﴿ٱلزَّبُورِ﴾:

الزّبور هو جملة الكتب السّماويّة

سبب اختصاص الزّبور بالّذكر في الآية، لما في معناه من العموم والشّمول للرّسالات السّماويّة كلّها ومنها القرآن، والظّرف في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ مستقرٌّ في موضع الحال من الزّبور، فالمّراد الإيماء إلى أنّه وعدٌ وعده اللّه قومًا صالحين بعد بني إسرائيل،

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 431.
(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 471.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 162.
(4) البخاري، كتاب بدء الخلق، الحديث رقم: (3019).

وليسوا إلّا المسلمين الَّذين صَدَقَهم اللّهُ وعدَهُ، فملكوا الأرض ببركة رسولهم ﷺ وأصحابه، واتسع ملكهم، وعظم سلطانهم[1].

دلالة (أل) في ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾:

إحاطة الوعد بكل حفاوة الكمال والرّفعة

تعريف الذّكر بـ (أل) هو للّدلالة على الكمال، جاء في الكتاب: "إذا قلت هذا الرّجل فقد يكون أن تعني كماله"[2]، وقوله هنا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾ وهو العلم الكامل للّه تعالى، أو اللّوح المحفوظ كمالًا وعلمًا[3]، فيكون الوعد قد أحيط بكلّ حفاوات الكمال والرّفعة ضامنًا ذلك تحقُّقَهُ.

وقد تكون (أل) للعهد على القول بأنَّ المراد بـ ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ هو التّوراة[4].

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تمكين المؤمنين في الأرض

(أل) هنا للعهد، وبحسب تفسيرها فهي إمّا أن تكون الأرضَ المعهودة للمؤمنين المستضعفين الَّتي لَقوا فيها الأذَى، وهي أرض مكّة وما حولها، فتكون بشارةً بصلاح حالهم في الدّنيا بعد بشارتهم بحُسن مآلهم في الآخرة، وهذا وعدٌ منه تعالى بإظهار الدينِ وإعزازِ أهلِه.

وإمّا أن يُراد بها الجنّة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ المرادَ أرضُ الجنَّة كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ﴾ [الزّمر: 74].

وقيل الأرضُ المقدَّسة يرثها أمّة محمَّدٍ ﷺ[5].

سرُّ التّعبير بالميراث في قوله ﴿يَرِثُهَا﴾:

ضمان ميراث الصّالحين

إذا كان المراد بالأرض أرضًا في الدُّنيا، فإنَّ قوله ﴿يَرِثُهَا﴾ يدلُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 163.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 94.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 98.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 163.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 88.

على سنَّة اللّه تعالى في إهلاك الظّالمين واستبدالهم بأهل الصلاح من المؤمنين، فيرث المؤمنون الأرض الَّتي كان يتجبَّر فيها الظّالمون.

وإذا كان المراد بالأرض أرضَ الجنّة، فإنّ ما فيها من النّعيم يُنسي ما قد بذل الصّالحون في الدّنيا وما لاقوا من العناء والشقاء، وكأنّهم يرثون هذه الأرض دون عناءٍ ودون تبعةٍ، كما ينتقل الإرث للوارث دون أن يبذل فيه كبير مشقَّةٍ، وهذا المعنى على سبيل الاستعارة لعلاقة المشابَهة؛ إذ استعار الميراث للجزاء على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وهي استعارةٌ تبعيّةٌ لحدوثها في مشتقّ.

دلالة إسناد الإرث إلى ﴿عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

إصلاحُ السّريرة مـــع الـــلـــه والإخلاصُ له

قوله: ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾؛ أضاف العباد إلى نفسه وحَلّاهم بحلية الصَّلاح، معناه: لا يصلح إلّا ما كان خالصًا لي، لا يكون لغيري فيه أثرٌ، وهم الَّذين أصلحوا سريرتهم مع اللّه، وانقطعوا بالكلّيّة عن جميع ما دونه[1].

سِرُّ الإضافة في قوله: ﴿عِبَادِيَ﴾:

ذِكرُ خاصّةِ عبادِ الله

أفادت الإضافة في قوله: ﴿عِبَادِيَ﴾؛ قبول اللّه منهم تلك العبادة الَّتي أخلصوا فيها للّه؛ حتى استحقّوا أن يُضافوا إليه سبحانه بصفتهم عبادًا له سبحانه، وحقَّق ما أفادته إضافتهم إليه من الخصوص بقوله: ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[2].

دلالة التعبير بالاسم في قوله ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾:

التّعبير بالاسم في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ دلّ على الثّبات، فالصّلاح صفةٌ ثابتةٌ عندهم راسخةٌ في أحوالهم، بالغةٌ مبلغَ القبول عند اللّه سبحانه.

(1) التّستري، تفسير التّستُريّ، ص: 105.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 5/ 117.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّوريث والتّمليك :

الوراثة الحصول على شيءٍ من غير عقدٍ أو تعب

الوِراثَةُ والإِرْثُ: انتقال قُنيةٍ إليك عن غيرك من غير عقدٍ، ولا ما يجري مجرى العقد، ويقال لكلّ من حصل له شيءٌ من غير تعبٍ؛ قد وَرِثَ كذا، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: 72]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ [المؤمنون: 10 - 11] وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: 6] فإنَّه يعني وِراثَةَ النّبوّةِ والعلمِ، والفضيلةِ دون المال، فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه، بل قلّما يقتنون المال ويملكونه(1).

الملك القوَّة في الاستحواذ على الشَّيء

وأمّا التّمليك فالميم واللام والكاف أصلٌ صحيح يدلّ على قوّةٍ في الشّيء وصحَّة، يقال: أملكَ عجينَهُ: قوَّى عجنَهُ وشدَّه، وملكت الشَّيء: قوَّيته، والأصل هذا، ثمَّ قيل ملك الإنسان الشيء يملكه ملكًا، والاسم المِلْكُ؛ لأنَّ يده فيه قويَّةٌ صحيحة، فالمِلك: ما ملك من مال، والمملوك: العبد(2)، ويمكن أن يقال في الملك أنّه القوّة في الاستحواذ على الشيء، فصار ملكًا له.

(1) الأصفهانيّ، المفردات، ص: 863.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/ 352.

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ [الأنبياء: 106]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

البشارة للقوم العابدين

بعد أن ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّ ميراث الأرض الَّذي هو أرض الدُّنيا أو جنّة الآخرة يكون لعباد اللّه الصّالحين، ذكر هنا أنّ هذا الخبر هو البلاغ الأهمُّ لعباد اللّه الموصوفين بالصّلاح، فيكون أعظمَ بشارةٍ لهم، وهي الكرامة الَّتي يختصّ بها القوم العابدون.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَبَلَٰغًا﴾: أصلُ (بلغ) يدلُّ على لُحوقِ الشّيْءِ والوُصولِ إليه أو الـمُشارَفَةِ عليه [1]، والإبلاغُ: الإيصالُ، يُقال: بَلَّغَهُ وأبْلَغَهُ السَّلامَ، يُبَلِّغُهُ، بلاغًا وتبليغًا وإبلاغًا: إذا أوصلَهُ [2]، والمُرادُ بالبلاغ في الآية: الكفاية أو السَّبب لبلوغ المقصد، أي: إنَّ في هذا القرآن، وفيما ذُكر في هذه السّورة من آدابٍ وهداياتٍ، وعقائدَ وتشريعاتٍ؛ لبلاغًا وكفايةً في الوصول إلى الحقِّ، لقوم عابدين [3].

2) ﴿عَٰبِدِينَ﴾: أصلُ (عبد) يدلّ على لينٍ وذُلّ [4]، والعُبوديَّةُ: إظهار التّذلُّل، والعبادةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى [5]، والمُرادُ بالعبادة في الآية: الوقوفُ عند حُدودِ الشَّريعةِ [6].

المَعنى الإجماليُّ:

إنَّ في القرآن منفعةً وكفايةً للذين عبدوا الله حقَّ عبادته

يَقولُ اللّهُ تعالى: إنَّ في هذا القرآنِ الَّذي أنزَلْناه على نبيِّنا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلغ)، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 258.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(5) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عبد).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 164.

محمَّدٍ ﷺ لَكفايةً ومنفعةً لِقَوم عابِدينَ اللّهَ بما شَرَعه لهم ورَضيَه منهم، يَتبلَّغونَ به في الوصولِ إلى بُغْيتِهم مِن خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، فمن لم يُغْنِه القرآن، فلا أغناه اللّه، ومن لا يكفيه، فلا كفاه اللّه [1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّذييل في الآية:

تبليغ القوم العابدين بأعظم بلاغ

الآية: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ بمجملها تذييلٌ للوعد، وإعلانٌ بأنْ قد آنَ أوانه، وجاء إبّانه[2]، فبمجيء الإسلام والإيمان بمحمَّدٍ ﷺ فقد بلغ البلاغُ إلى النّاس، وخصّ العابدين منهم، النّابهين إلى عظيم شأن هذا البلاغ، والبلاغ بمجمله هو استحقاق ميراث الأرض للمؤمنين الصّادقين.

سرّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

إيصال وعد الله للعابدين جميعًا

فصل هذه الجملة عمّا قبلها؛ لأنّ كلا الجملتين خبريَّة، وإنَّ الثّانية تذييل للسّابقة، فهي بمثابة البدل لما سبقها، فيكون بينهما كمال الاتّصال، فالإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾؛ أي إلى وعد اللّه للمؤمنين، الَّذي جاء في الرّسالات السّماويّة؛ في الزّبور من بعد الذّكر، وفي القرآن[3].

دلالة التأكيد في قوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾:

توثيق وعد الله المؤمنين بوراثة الأرض

في قوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ أكّد بـ ﴿إِنَّ﴾ ما ذُكر آنفًا من وعد اللّه تعالى لعباده الصّالحين أنَّهم سيرثون الأرض، ودلالة التّأكيد محو الشّكوك الَّتي ترد على نفوس المُخاطبين من قضيّة ميراث الأرض لعباد اللّه الصّالحين، بأنّ فيما ذُكر أعظمَ بلاغٍ للعابدين، الَّذين يرجون بعبادتهم رضاءَ اللّه، ونشرَ دينِ اللّه، وجَعْلَهُ مهيمنًا في عموم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 437، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 532.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 163.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 164.

الأرض فيكون لهم ميراث الأرض، أمّا إن أريد بالأرض مكانهم في الجنان فيكون ذلك البلاغ أعظم أثرًا في نفوس العابدين أنّهم موعودون بوراثة جنان اللّه يوم القيامة.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَبَلَٰغًا﴾:

توكيد بلوغ الرّسالة بالوعد

فائدة اللام في قوله: ﴿لَبَلَٰغًا﴾ للتوكيد، فما ذُكِرَ في كتاب اللّه من مواعظ وبشائر غايةُ الكفاية لمن أراد الهداية وبلوغ الجنّات، وأيُّ كفايةٍ أعظَمُ من هذا الكتاب المبارك الَّذي قال عنه ربُّنا سبحانه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [العنكبوت: 51].

دلالة التّعبير بالمصدر ﴿لَبَلَٰغًا﴾:

وصول الخبر إلى كلّ عاقلٍ في كلّ زمانٍ ومكان

دلّ التّعبير بالمصدر على الثّبات؛ فهو الاسم الَّذي يدلُّ على الحدث الجاري على الفعل المجرَّد عن الذّات والمكان والزَّمان، فلا يتغيّر بتغيّر الزّمان، وإنّما يتّصف بالثّبات، والمصدر في قوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا﴾ دلّ على وصول هذا الخبر إلى كلّ عاقلٍ واعٍ، يبحث عن الحقّ؛ في كُلّ زمانٍ أو مكان، ودلَّ على كفاية ذلك البلاغ لكلّ من وصل إليه.

الغرض من التنكير في قوله ﴿لَبَلَٰغًا﴾:

البلاغ من الله سببٌ في الاتّعاظ والاهتداء

التّنكير في قوله: ﴿لَبَلَٰغًا﴾؛ لبيان عظيم شأن هذا البلاغ ونفعه، فإنَّ ما ذكره ربُّنا من أدلَّةٍ وبراهين على عظيم قدرته على البعث والحساب، وما بشَّر به عباده المتَّقين كافٍ في البلوغ إلى معرفة الحقِّ[1]، والاتّعاظ والاهتداء.

دلالة اللام في قوله ﴿لِّقَوۡمٍ﴾:

أهل الإيمان هم أهل التّذكّر والانتفاع

اللّام في قوله: ﴿لِّقَوۡمٍ﴾؛ متعلّقٌ بقوله ﴿لَبَلَٰغًا﴾، وهي هنا تفيد الاختصاص، فقد اختُصّ هؤلاء القوم العابدون بالانتفاع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 508.

بما في وحي اللّه تعالى من مواعظَ وهداياتٍ، أمّا الجاحدون فهم عنها معرضون.

دلالة التَّعبير بالعابدين دون المؤمنين:

العبادة دلالة على مجاهدة النّفس

المراد بالقوم العابدين: مَنْ شأنُهم العبادةُ لا ينحرفون عنها، ووصف العابدين بلفظ (قوم) المشعرِ بأنَّ العبادة هي قِوامُ قوميَّتهم[1]، والعبادة تأتي بعد الإيمان؛ وكثرتها توحي بقوّته والصّبر على مجاهدة النّفس.

الغرض من التَّنكير في قوله ﴿لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾:

البلاغ عامٌّ لجميع من سكن الأرض

أفاد التّنكير في ذكر القوم العابدين التّعميم؛ فهذا البلاغ هو لعموم من كان عابدًا للّه وتحفيزًا للآخرين ليكونوا عابدين للّه تعالى فينالوا نصيبًا من عهد اللّه في ميراث الأرض وهي جنانُ اللّه تعالى، أو ميراث الأرض في الدّنيا بالجهاد والاجتهاد، ويشمل هذا الوعد مَن اتّصف بهذه الصّفة ﴿عَٰبِدِينَ﴾ منذ نزول القرآن إلى قيام السّاعة، وأفادت الاسميّة في قوله: ﴿عَٰبِدِينَ﴾ الدّلالةَ على القوّة والثّبات والتزام العبادة منهم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القوم والفريق والجماعة والملأ :

القوم الكثرة من النّاس يشتركون بصفةٍ أو علاقةٍ

القوم جماعةٌ يشتركون بصفةٍ مُعيّنةٍ أو مصلحةٍ أو علاقةٍ أو نسب؛ وإن لم يلتقوا أو يجتمعوا فيما بينهم، وأمّا الجماعة فهي مجموعة الأفراد أقلّها اثنان أو ثلاثة، بينهم علاقاتٌ اجتماعيةٌ متبادلةٌ فيما بينهم، وهي تدلّ على مجموعة النّاس الَّذين يلتقون ويجتمعون فيما بينهم.

وأمّا الفريق فهو الجماعة الثّانية من جماعةٍ أكثر منها، تقول

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 164.

الفريق جماعةٌ صغيرةٌ مفارقةٌ لجماعة أكبر

جاءني فريقٌ من القوم، وفريق الخيل ما يفارق جمهورها في الحلبة فيخرج منها، وفي مثلٍ: أسرع من فريق الخيل، والجماعةُ تقع على جميع ذلك[1].

الملأ هم الأشراف من القوم

وأمّا المَلأ فهم الأشراف الَّذين يملأون العُيون جمالًا والقلوب هيْبَةً، وهو من مَلَأت، ويجوز أن يكون الملأ الجَماعَة الَّذين يقومونَ بالأمور من قَوْلهم هو مَليءٌ بِالأمر إذا كانَ قادرًا عَليْهِ، والمعنيان يرجعان إلَى أصلٍ واحِدٍ وهو الملء[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 165.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية: 280 - 281.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّسول هو الرّحمة المهداة برسالة الرّحمة

بعد ما ذُكر من رحمة الله بعباده الصّالحين العابدين الَّذين يرجون الدّار الآخرة، ناسب أن يذكر رحمة الرّسول الَّتي هي عنوان رحمة الله بالعالمين، وأنّ الله تعالى أرسل محمدًا ﷺ رحمةً للعالمين، وجعل معه رسالةً هي في مُجملها رحمةٌ مهداةٌ للنّاس.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾: العالَم: هو ما يُعلَمُ بِهِ الشّيءُ[1]، ويأتي بمعنى الأنام، والأنامُ: ما على ظَهْرِ الأرض مِن جميع الخَلْق[2]، وسُمّي الخَلْقُ عالَمًا لأنَّه عَلامةٌ على الصّانِعِ، أو تَغْليبًا لِذَوي العِلْم، وعلى كُلٍّ هو مُشْتَقٌّ من العِلْم لا مِن العَلامَةِ، والجَمع: العَوالِم، والعالَمون: أَصْنافُ الخَلْقِ، سُمّي بِذلك؛ لاجتِماعِهِم[3]، وقيل: العالَم هو ما احتَواهُ الفَلَك[4]، وقيل: هو مُختَصٌّ بِمَن يَعقِل مِن الإنسِ والجِنِّ والمَلائِكةِ والشّياطين[5] والمراد بالعالَم في الآية: الصِّنفُ مِنْ أصنافِ ذَوي العِلْم، أي: الإنسانُ، أو النَّوعُ مِنْ أنْواعِ المَخلوقاتِ ذاتِ الحياةِ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أساسُ دعائم شريعة الإسلام الرَّحمةُ والرِّفقُ واليُسرُ

يُخبر الله تعالى في الآية الكريمة أنَّ من مظاهر فضله على النّاس أن أرسل إليهم نبيَّه ﷺ ليكون رحمةً لهم فقال: وما أرسلناك - أيّها

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (علم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (علم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (علم)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 95.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 167.

الرَّسول الكريم - بهذا الدّين الحنيف وهو دين الإسلام، إلّا من أجل أن تكون رحمةً للعالمين من الإنس والجنِّ؛ وذلك لأنَّنا قد أرسلناك بما يُسعدهم في دينهم وفي دنياهم، وفي آخرتهم، متى اتَّبعوك، واستجابوا لما جئتهم به، وأطاعوك فيما تأمرهم به أو تنهاهم عنه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً﴾:

رحمة الله عمّت الكون كُلّه

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً﴾؛ عُطفت هذه الجملة على جميع ما تقدَّم من ذكر الأنبياء الَّذين أوتوا حكمًا وعلمًا وذِكرِ ما أوتوه من الكرامات، فجاءت هذه الآية مشتملةً على وصف جامع لبعثة محمد ﷺ ومزيَّتها على سائر الشرائع مزيَّةٌ تناسب عمومَها ودوامها، وذلك كونها رحمةً للعالمين، فهذه الجملة عطفٌ على جملة ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: 91] ختامًا لمناقب الأنبياء، وما بينهما اعتراض واستطراد[2] أو أنّها معطوفةٌ على ما قبلها، وفائدة ذلك بيان أنّ الشّريعة الَّتي جاء بها الرّسول ﷺ هي رحمةٌ للخلق جميعًا، وهي سبب ميراث الأرض الَّتي وعد بها بقوله: ﴿أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

بلاغة أسلوب القصر في الآية:

الرحمة مقصود رسالة الإسلام

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ الاستثناء هنا مفرّغٌ لأنّ الكلام منفيٌّ غير تامٍّ، فيكون ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، و﴿رَحۡمَةً﴾ مفعول لأجله؛ أي: لأجل الرّحمة، أو حال من ضمير المخاطب مبالغةً في أنْ جَعَلَه نفسَ الرّحمة[3]، فإذا انضمَّ إلى ذلك انحصار الموصوف في هذه الصِّفة صار من قصر الموصوف على الصِّفة، وكأنّ الرّسول قد

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 258.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 165.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 214.

اتّحد بالرّحمة وانحصر فيها، ووقوعُ الوصف مصدرًا يفيد المبالغة في هذا الاتِّحاد بحيث تكون الرّحمة صفةً متمكّنةً من إرساله[1]، فصارت بعثتهُ ﷺ رحمةً لمن كان فيهم، ثمّ امتدّت رحمتُه إلى العالمين.

دلالة التعبير بنون العظمة في قوله ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

ما أعظم الرّسالة والرّسولَ ﷺ

قوله: ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ التّعبير بنون العظمة للتّفخيم والتّعظيم، وبيانِ مكانة الرّسول ﷺ والرّسالةِ عند اللّه تعالى؛ فالرسول معظَّمٌ مشرَّفٌ؛ لأنَّ مرسله هو اللّه العظيم سبحانه، والرِّسالةُ عظيمةٌ مباركةٌ، فهي وحي العظيم ﷻ.

دلالة كاف الخطاب في قوله ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾:

كاف الخطاب في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ فيها تشريفٌ بخطاب الحضور والمواجهة؛ تعظيمًا لقَدرِه ﷺ.

سرُّ تخصيص الإرسال بالرَّحمة:

الرّسول رحمةٌ مُهداة

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ﴾؛ خصّ الإرسال بالرّحمة؛ وذلك لإبراز دور الرّسالة كونها رسالة رحمةٍ للعالمين بما فيها من التَّشريعات الضّامنة لمصلحة العباد، فهي رسالة ضامنةٌ للرَّحمة الَّتي تعمّ الإنسانيّة المؤمنة الملتزمة المُنقادة إلى أصول هذه الرّسالة، ويدلّ لهذا المعنى ما أشار إليه النّبيّ ﷺ بقوله: "يا أيُّها النّاسُ إنَّما أنا رَحْمَةٌ مُهْداةٌ"[2].

وتفصيل ذلك في أمرين: الأول تخلُّق نفسه الزَّكيَّةِ بخلُق الرَّحمة، والثاني كونه رحمةً للعالمين فهو مظهر تصاريف شريعته؛ أي ما فيها من مقوِّمات الرّحمة العامّة للخلق كلِّهم؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ متعلِّقٌ بقوله ﴿رَحۡمَةٗ﴾[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 166.

(2) الحاكم، المستدرك على الصّحيحين، كتاب الإيمان، رقم الحديث: (100).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 167، وأبو زهرة، شريعة القرآن من دلائل إعجازه، ص: 72.

الغرض من التَّنكير في ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

الرَّسول هو الرّحمة العظيمة

تنكير ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قوله ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ لفائدة التَّعظيم لشأن هذه الرَّحمة المُهداة إلى عموم العالمين ممَّن يستجيبون لدعوة الحقِّ، ويؤمنون بما أنزل إليك رسولًا هاديًا؛ إذ لا مقتضى لإيثار التّنكير في هذا المقام غير إرادة التّعظيم، وإلّا لقيل: إلّا لنرحم العالمين، أو إلّا أنّك الرّحمة للعالمين، وليس التّنكير للإفراد قطعًا؛ لظهور أنّ المراد جنس الرّحمة، وتنكيرُ الجنس هو الَّذي يعرِضُ له قصدُ إرادة التّعظيم[1].

دلالة التّعبير بالمصدر ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

عموم الرّحمة وشمولها

التّعبير بالمصدر يدلّ على الثّبات، وعموم الرّحمة دون ارتباطٍ بزمنٍ لنزولها، أو بأقوامٍ محدودين؛ فهي رحمةٌ عامّةٌ شاملةٌ، وفيها أيضًا مبالغةٌ في أنَّ اللّه ﷻ جعل النبيَّ ﷺ نفس الرَّحمة[2].

بلاغة الإيجاز في الآية:

الإيجاز البليغ بما يعجز عليه كلُّ بليغ

قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ أوجزت هذه الآية الكريمة في اللّفظ واحتوت معاني عظيمةً؛ فصيغت بأبلغ نظم فاشتملت بوجازة ألفاظِها على خمس كلماتٍ بأربعةٍ وعشرين حرفًا بدون حرف العطف، ذُكِرَ فيها الرّسول ﷺ، مع مدح المُرسِل، وهو اللّه تعالى، ومدح الرسول ﷺ، ومدح، والمُرسَل إليهم، ومدح الرِّسالة، مع إفادة عموم الأحوال، واستغراق المرسل إليهم، وخصوصيَّة الحصر، وتنكير ﴿رَحۡمَةٗ﴾ للتّعظيم، فهذه اثنا عشر معنًى خصوصيًّا[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 165 - 166.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 214.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 167.

﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾ [الأنبياء: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وحي الله تعالى لنبيّه ﷺ سببُ الرَّحمة

بعد أن ذكر الرّحمة المُهداة، وهو رسول اللّه ﷺ برسالته، ناسبَ أن يذكر هُنا أنّ الوحي المنزّل عليه ﷺ كلّه دعوةٌ إلى توحيد اللّه وهذه المسألة هي جوهر الرّحمة كلّها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُوحَىٰٓ﴾: أصلُ (وحى): يَدُلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غيْرِه إلى غيرِكَ، والوَحْيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة قيل: (أمرٌ وحْيٌ)؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّدٍ عن التَّركيب، وبإشارةٍ ببعض الجوارح، وبالكتابة [1].

2) ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾: أصلُ (أله): أصلٌ واحِدٌ، وهو التَّعَبُّدُ، فالإلهُ اللّه تعالَى، وسُمّيَ بذَلِكَ لأنَّهُ مَعْبودٌ، ويُقالُ: تَألَّهَ الرَّجُلُ: إذا تعَبَّدَ [2]، وقيل: هو من: أَلِهَ، أي: تحيَّر، وإنَّما قيل ذلك لأنَّ القُلوب تَأْلَهُ عند التَّفكُّرِ في عَظَمَتِه: أي تَتَحيَّرُ [3]، و(إلَهٌ) حقُّه ألّا يُجمع، إذ لا معبود سواه، لكنَّ العرَب لاعتقادهم أنَّ هاهنا معبودات جمعوه، فقالوا: الآلهة [4]، والمُرادُ بالإله في الآية: المَعبودُ بِحَقّ، وهو اللّه سبحانه تعالى.

3) ﴿وَٰحِدٞۖ﴾: أَصْلٌ واحِد يَدُلُّ على الِانفرادِ [5]، والمراد به في الآية: الفَرد الَّذي لا ثاني له، أي: المُتَوَحِّدُ بالخَلْقِ، وهو اللّه تعالى[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وحي - وحى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أله).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات: (أله).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أله).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد).
(6) المراغي، تفسير المراغي: 13/ 87، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 116.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مَبنى الإسلامِ قائمٌ على توحيدِ اللهِ ﷻ

قل أيُّها المبعوث رحمةً للعالمين - لهؤلاءِ المشركين من قومك ولغيرهم: إنَّما يوحي اللّهُ إليَّ أنَّما مَعبودُكم مَعبودٌ واحِدٌ لا شَريكَ له في العِبادةِ، فهل أنتم مُستَسلِمونَ لِتَوحيدِ اللّهِ، مُنقادونَ لِطاعتِه وعِبادتِه وحْدَه بعدَ هذا البيانِ؟ [1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تصدير الآية بالأمر ﴿قُلۡ﴾:

إعلان توحيد الله سبحانه

صُدّرت الجملة بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ للعناية بالمفعول الوارد بعده، ووجوب إعلانه وهو القول: ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ الّتي تضمّنت قضيّة التّوحيد؛ وأن لا إله إلّا اللّه سبحانه، ولبيان أنَّ سبب الرّحمة هو الإسلام للّه تعالى، وأنّ ما يوحى إلى النبيِّ ﷺ من اللّه هو مكمن الرّحمة للعالمين، وأنّ أساس الرّحمة هو توحيد اللّه تعالى.

بلاغة أسلوب القصر في الآية وتعدُّده:

التّوحيد هو أصل الشّريعة

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ أي ما يوحى إليّ إلّا أنّه لا إله لكم إلّا إلهٌ واحدٌ؛ لأنّه المقصود الأصليُّ من البعثة[2]، وصيغت الجملة في صيغة حصر الوحي إليه في مضمونها؛ لأنّ مضمونها هو أصل الشّريعة الأعظم، وكلّ ما تشتمل عليه الشّريعة متفرّعٌ عليه، فالدّعوة إليه هي مَقادة الاجتلابِ إلى الشّريعة كلّها[3] وقد ذهب جماعةٌ إلى أنّ في الآية حصرين بناءً على أنّ ﴿أَنَّمَآ﴾ المفتوحة تفيد ذلك كالمكسورة، والأوّلُ لقصر الصّفة على الموصوف والثاني لقصر الموصوف على الصِّفة، فالثّاني قصر فيه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 441، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 350، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 388.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 17/ 77.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 171.

اللّه تعالى على الوحدانية، والأول قصر فيه الوحي على الوحدانية، والمعنى ما يوحى إليّ إلّا اختصاص اللّه تعالى بالوحدانية[1].

و﴿أَنَّمَآ﴾ بالفتح عدّها الزّمخشريّ والبيضاويّ من طريق الحصر؛ فقالا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾: إنّما لقصر الحكم على شيءٍ، أو لقصر الشّيء على حكم؛ نحو (إنَّما زيدٌ قائمٌ)؛ و(إنّما يقومُ زيدٌ)، وقد اجتمع الأمران في هذه الآية؛ لأنّ ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مع فاعله بمنزلة (إنّما يقومُ زيدٌ)، و﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ بمنزلة (إنّما زيدٌ قائمٌ)، وفائدة اجتماعهما الدّلالة على أنّ الوحي إلى الرّسول ﷺ مقصورٌ على استئثار اللّه بالوحدانية[2]، ولا شكّ في إفادتها التأكيد.

وقد توالى القصران في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾؛ القصر الأوَّل إضافيٌّ؛ أي ما يوحى إليَّ في شأن الإله إلّا أنَّ الإله إلهٌ واحدٌ، والقصر الثاني إضافيٌّ أيضًا؛ أي في شأن الإله من حيث الوحدانية، ولمّا كان القصر الإضافيُّ من شأنه ردُّ اعتقاد المخاطب بجملة القصر لزم اعتبار ردّ اعتقاد المشركين بالقصرين.

سِرُّ التّعبير بالوحي مضارعًا مبنيًّا لما لم يسمَّ فاعله:

التّوحيد أصل قضايا الوحي

عبّر بالوحي في قوله تعالى ﴿يُوحَىٰٓ﴾ لجلالة المسألة الَّتي ذكرتها الآية؛ وهي قضيّة التّوحيد، وهي أصلُ كلّ قضايا الوحي، والتّعبير بالمضارع دلالةٌ على التّجدّد، فكلّ وحيٍ حتمًا يتضمّن وحدانية اللّه تعالى، ودلالة البناء للمفعول بيانُ عظيمِ شأنِ ما يوحَى إلى الرّسول ﷺ؛ وهو توحيد اللّه تعالى، وبيانُ عظيم شأن الجهة الَّتي يصدر منها هذا الوحي؛ وهو اللّه سبحانه.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 100، والشّنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 156.

(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 169 - 170.

بيان أنّ التّوحيد ركـن الإيمـان لعموم الأمّة

دلالة تعدّي فعل ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بـ (إلى) دون اللّام:

الأصل في (إلى) أنّها تكون لانتهاء الغاية؛ فقوله: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ﴾ [النّمل: 33]؛ أي منتهٍ إليكِ، جاء في المُقتضب: "وأمّا (إلى) فإنّما هي للمنتهى"(1)، فقوله هنا: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ أي: منتهى ما يوحى إليّ هو التّوحيد، لعظيم شأن التّوحيد، كونه جوهر الوحي والرّسالة، وهكذا فإنّ الأمّة كُلّها مُكلّفةٌ بفحوى هذا الإيحاء ومضمونه، أمّا اللّام فهي للاختصاص أو الملك والاستحقاق(2)، فلم يأت التّعبير باللّام لأنّ ذلك سيجعل الرّسول هو المختصّ بهذا المأمور، وليس الأمر كذلك؛ فالأمّة كلّها مأمورةٌ بالتّوحيد والعمل به في جميع أمور حياتهم.

الوحدانيّة هي الأصل الأصيل

سِرُّ قصر الوحي على الوحدانيّة دون غيرها:

في قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ قُصر الوحي على الوحدانية، فكيف ذلك وقد أوحي إليه ﷺ أمورٌ كثيرةٌ غير ذلك كالتكاليف والقصص، وأُجيبَ بوجهين: الأوّل أنَّ معنى قصره عليه أنّه الأصل الأصيل وما عداه راجعٌ إليه أو غيرُ منظور إليه في جنبه، فهو قصرٌ ادِّعائيٌّ، والثاني أنَّه قصرُ قلبٍ بالنِّسبة إلى الشِّرك الصّادر من الكفّار(3).

الارتباط المباشر بين الله وعباده

دلالة كاف الخطاب في ﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾:

قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾؛ أي فغيره ليس بإله، ودلّت كاف الخطاب في قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾؛ على توجيه المخاطبين إلى إلهٍ واحدٍ هو وحدَهُ الَّذي يجيب دعاءكم، ويدفع ضرَّكُم، ويجلبُ لكم الخير، فهو وحدَهُ الَّذي يستحقّ منكم العبادة، فجعل ارتباطًا مباشرًا بينهم وبين الإله المعبود؛ فلا واسطة بينه وبينهم، ثمّ إنّ في ذلك تعريضًا بأولئك الَّذين اتّخذوا إلهًا معبودًا غير اللّه سبحانه.

---

(1) المُبرّد، المُقتضب: 4/ 139.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 304.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 101.

سِرُّ تكرار لفظ ﴿إِلَٰهٌ﴾:

تكرار ﴿إِلَٰهٌ﴾ في قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾؛ للتأكيد على الألوهيّة، الَّتي تدلّ على استحقاق العبادة، فلا إله معبودٌ إلّا اللّٰه.

سرُّ وصف الإله بقوله ﴿وَٰحِدٌۖ﴾ دون أحد:

الفرق بين الواحد والأحد

لمّا ذكر الآلهة بيّن أنّه ﴿وَٰحِدٌۖ﴾ لا ثاني له، ولمّا استعمل لفظ الجلالة قال ﴿أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1] في قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1]، والفرق بين الواحد والأحد أنّ الأحد بُنِيَ لنفي ما يُذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والواحد اسمٌ بُنِيَ لمفتتح العدد، تقول: جاءني واحدٌ من النّاس ولا تقول: جاءني أحدٌ، فالواحد منفردٌ بالذّات في عدم المثل والنّظير، والأحد منفردٌ بالمعنى، وقيل: الواحد هو الَّذي لا يتجزَّأ ولا يُثنَّى ولا يقبل الانقسام، ولا نظير له، ولا مثل، ولا يَجمعُ هذين الوصفين إلّا للّٰه تعالى[1].

دلالة الفاء في قوله ﴿فَهَلۡ﴾:

إثبات الحُجّة على المُخاطبين

الفاء للتَّفريع على ما قبلها[2]، والدَّلالة على أنَّ ما قبلها موجبٌ لما بعدها[3]، فيكون المعنى: (فإذا تبيَّن لكم صدق الرِّسالة، ووحدانيَّة اللّٰه تعالى، فهل أنتم مسلمون)؛ أي: داخلون في الإسلام إذ لم يبقَ بعدُ شائبةُ شبهةٍ في حَقّيتهِ وفي بطلان ما أنتم فيه من الشِّرك[4].

ودلَّ التَّفريع بهذه الفاء على ظهور براهين الحقِّ، وتحقُّق أدلَّة التَّوحيد، بما لا يترك حجَّةً لأحدٍ بالتخلُّف عن الإسلام، والجحود بالآيات النَّيِّرات.

دلالة الاستفهام في ﴿فَهَلۡ﴾:

العلاقة بين المُخاطبين والإسلام

الاستفهام هنا إمّا حقيقيٌّ؛ أي: فهل تُسلمون بعد هذا البيان؟،

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 9/ 269.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 172.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 101.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/ 224.

وهو مستعملٌ أيضًا في معنًى كنائيٍّ؛ هو التّحريضُ على نبذ الإشراك، وعلى الدُّخول في دعوة الإسلام(1).

وإمّا لطلب الإقرار: لأنّ الرّبّ تعالى لا يستفهم خلْقَهُ عن شيء؛ وإنّما يستفهمهم ليقرّرهم ويذكّرهم أنّهم قد علموا حقّ ذلك الشّيء(2).

وإمّا للاستبطاء: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ أي منقادون لما يوحى إليّ من التَّوحيد، وهو استفهامٌ يتضمَّن الأمر بالانقياد(3).

دلالة التّعبير بالضّمير ﴿أَنتُم﴾:

ضمير ﴿أَنتُم﴾ للمخاطب الجمع المذكّر، أفاد تخصيصهم بالخطاب، فطلب منهم الإقرار بالإسلام، والتّعجيل بالإجابة لما رآه منهم من الاستبطاء بالإيمان بعد ظهور الحجج.

الغرض من التّعبير بالخبر اسمًا ﴿مُّسۡلِمُونَ﴾:

استبطاء تأخّر إسلامهم

في قوله: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ عبّر باسم الفاعل الدّالّ على الثّبات دون الفعل الدّال على التّغيّر والتّجدّد؛ فلم يقل: (فهل تسلمون) أو (فهل أسلمتم)؛ لإفادة أنَّ المطلوب منهم إسلامٌ ثابتٌ؛ وكأنّ فيه تعريضًا بهم بأنّهم في ريبٍ يتردَّدون(4).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإله والرّبّ:

الـرّب للخلق والملك والإله للتّعبّد

الرَّبُّ معناه: المُدبّر المُربّي الخالق المالك المصوِّر الرّزّاق، والإله معناه: المعبود، فهي جميعًا تدلُّ على أوصاف اللّه سبحانه وتعالى، لكن اسم (الرّبِّ) يدلُّ على وصف المُلك والخَلق والقدرة، واسم (اللّه): يدلّ على التّعبّد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 172.
(2) الزّركشيّ، البرهان: 2/ 327.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 101.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 172.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الأنبياء: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحال الَّذي يستحقّون عليه التّهديد والوعيد

بعد أنْ بانَ للنّاس الحقّ، وثبتت على المنكرين الحجّة؛ فذكر لهم في الآيات السّابقة التّوحيد والرّسول والرّسالة، جاء في هذه الآية بيانُ حال المنكرين لها؛ فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ فذكر حالهم الّتي يستحقّون عليها التّهديد والوعيد، لما اقترفوه من التّولّي والإنكار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾: أَصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أي: يُقارِبُني[1]، والمرادُ بالتَّولّي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ: وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ[2].

2) ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾: الإذْنُ: مَصْدَرُ أذِنَ، يَأْذَنُ، وأصْلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإطلاقُ الفِعْلِ، والإباحَةُ، يُقالُ: أذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أيْ: أطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[3]، والإيذانُ: الإعلامُ، ومِنه الأذان: وهو الإعْلامُ بدخولِ الوقتِ، وأذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمْتُ بِهِ[4]، وهو بوَزنِ أَفْعَلَ مِنْ أذِنَ لكذا بمعنى سَمِعَ، واشتقاقُهُ مِن اسْمِ الأُذُنِ، وهي جارِحةُ السَّمْعِ، ثُمَّ استُعملَ بمعنى العِلْمِ بِالسَّمْعِ ثُمَّ شاعَ اسْتِعْمالُهُ في العِلْمِ مُطلقًا، وأمّا (آذَنَ) فهو فِعْلٌ مُتَعَدٍّ بِالهَمْزَةِ وكَثُرَ استِعمالُ الصّيغَتينِ في معنى الإنذارِ وهو الإعلامُ المشوبُ بتحذيرٍ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) المناوي، التوقيف على أمهات التعاريف، ص: 44، والزبيدي، تاج العروس: (أذن).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (أذن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 172.

3) ﴿سَوَآءٍ﴾: أصلُ (سوي) يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ، يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أيْ: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سويَّةٍ مِنْ هذا الأمرِ، أيْ: سواءٍ[1]، فالسَّواءُ: العدلُ، قال اللّه تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: 58]، أي على حكم العدل والإنصاف[2]، والمقصود بـ﴿سَوَآءٍ﴾ في الآية: اسمٌ معناهُ مُستَوٍ، والمعنى: (أنذرتُكم مُستوينَ في إعلامكم به لا يدَّعي أحدٌ منكم أنَّه لم يَبلُغْهُ الإنذارُ)[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أجَـلُ الـعـذاب ويـوم القيامة لا يدريه أحدٌ لا نبيٌّ مُرسل ولا ملَك مُقرَّب

أرشد الحقُّ سبحانه النَّبيَّ ﷺ إلى ما يقوله للنّاس في حال إعراضهم عن دعوته، فقال: فإن أعرضوا عن اتِّباع ما أوحي إليك فقل لهم: هأنذا أعلمكم بأنّي حربٌ لكم، كما أنَّكم حربٌ لي، فأنا بريءٌ منكم كما أنكم براَء منّي، وأنتم سواءٌ في هذا الإعلام، لا أخُصُّ أحدًا منكم دون أحد، وإنما أخبرتكم جميعا ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي: حال كونكم جميعًا مستوين في العِلْم، وما أدري أقريبٌ زَمَنُ وُقوعِ ما وعَدَكم اللّهُ به من العَذابِ، أم هو بَعيدٌ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

التّفريع في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾:

صفة الوحدانيّ يصحُّ أن يكون طريقها السّمع

في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾؛ الفاء عاطفة للدّلالة على أنّ ما قبلها موجبٌ لما بعدها[5]، والمعنى: (فإن أعرضوا بعد هذا التَّبيين المفصَّل والجامع فأبْلِغْهم الإنذارَ بحلول ما توعَّدهم اللّه به)[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوى).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (سوى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 173.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 442، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 350، والمراغي، تفسير المراغي: 17/ 79.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 101.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 172.

دلالة التّعبير بالتّولّي في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ دون الإعراض:

التّـولّي هو الإدبار والإنكار والإعراض لفتُ الوجه عن الشّيء

الإعراض يُستعمل في ترك المُجادلة أو ترك الاهتمام، وأمّا التّولّي فهو مستعارٌ لعدم الاستماع، ولهذا قال: ﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ﴾؛ أي: أسمعتُكُم، وهو مستعارٌ هُنا لعدم الامتثال، وحقيقةُ الإعراض: لفتُ الوجه عن الشيء؛ لأنَّه مشتقٌّ من العارض وهو صفحة الخد؛ لأنّ الكاره لشيءٍ يصرفُ عنه وجهه، وحقيقة التّولّي: الإدبار والانصراف[1]، فالتّولّي هنا أعظم دلالةً من الإعراض.

دلالة الأمر ﴿فَقُلۡ﴾:

الأمـر تهديدٌ لمنكري الرّسالة

المعنى: (قل ذلك بمسمعٍ منهم)؛ إظهارًا لتحدّيه إيّاهم بأنَّه فوّضَ أمره إلى ربِّه ليحكم فيهم بالحقِّ[2] وفي إيراد المعنى بطريق تلقين القول جلالٌ للوحي، وتأكيدٌ على رسوليَّتهِ ﷺ، والأمر هنا على حقيقته.

سِرُّ التعبير بقوله ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾:

الإيذان إعلانٌ مشوبٌ بالتّحذير

الإيذان هو الإعلام، وفيه معنى الإنذار؛ وهو الإعلام المشوب بتحذير[3]، بخلاف الإعلام والإخبار فليس فيهما معنى النِّذارة والتَّحذير.

دلالة كاف الخطاب في ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾:

امتداد أثر الخطاب إلى قيام السّاعة

قوله: ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾؛ الكاف مفعولٌ به دلّ على المخاطب الَّذي أعرض عن الإيمان، بعد أن جاءته الآيات، فقد أعلمهم الرّسول بحقيقة الدّين، وأقام عليهم براهين التّوحيد، فهو خطابٌ يمتدّ إلى كُلّ مُعارضٍ لهذا الدّين إلى قيام السّاعة.

دلالة حذف المفعول الثاني لـ ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾:

تقديرات المحذوف في الجملة

حذف مفعول ﴿ءَاذَنتُكُمۡ﴾ الثاني لدلالة قوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ عليه، أو يُقدَّر: آذنتكم ما يوحى إليّ، لدلالة ما تقدَّم عليه، والأظهَرُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 117.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 175.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 172.

تقدير ما يشمل المعنيين، بتقدير (توعدون بما يوحى إليّ)، فَحَذْفُ متعلّق ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ للدّلالة عليه في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، ويَشمَلُ هذا القول كلَّ ما يوعَدونه من عقاب في الدُّنيا والآخرة إن عاشوا أو ماتوا؛ ولأنَّ السّياقَ يؤذِنُ به لقوله قبله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء: 96][1].

الكناية في قوله ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾:

الشّريعة ميزان المســاواة بين النّاس تبليغًا وحُكمًا

قوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ كنايةٌ عن شمول البلاغ والإعلام، بحيث لا يخفى على أحد، فالبلاغ الَّذي عناه النّص أنّ الأمر أصبح لدى المُخاطَبين واضحًا تمام الوضوح، وهو تركيبٌ يغلب عليه الاستعمال في مقام التّحذير والوعيد[2]، وفيها كناية أخرى عن استواء النّاس أمام الشّريعة، فلا يفضل أحدٌ على أحدٍ في التّبليغ، ولا يُترك أحدٌ دون جماعته لقلّة شأنه ومكانته، فيكون التّبليغ للجميع على سواء.

دلالة تعدي الفعل ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰ﴾:

القوّة والتّمكين في التّبليغ

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ ﴿عَلَىٰ﴾ فيه للاستعلاء المجازي، وهو قوة الملابسة وتمكّن الوصف من موصوفه[3]، ففيها من القوّة والتّمكين في التّبليغ وإيصال الرّسالة إلى كلّ على سواء.

دلالة الواو في قوله ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾:

حتميّة وقوع الجزاء دون معرفة وقته

حرف العطف في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾؛ عطفٌ على جملة الإنشاء ﴿فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾، وهو لشدّة الاتصال بين الجملتين، فبعد أن أبلغهم بقدوم الجزاء من الله على أعمالهم؛ بيّن لهم في الآية التّالية أنّه لا يَعلَمُ موعِدَ وقوع هذا العقاب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 173.
(2) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 387.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 173.

دلالة الاستفهام في ﴿أَقَرِيبٌ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾؛ خرج الاستفهام إلى معنى التّحذير، من أنّ ما يوعدونه أمرٌ متحقّق الوقوع؛ عاجلًا أو آجلًا.

دلالة التَّعبير بـ(إن) دون (ما):

النَّفي مؤكَّدٌ

استعمال (إنْ) آكد في النَّفي من (ما) لاقترانها الكثير بـ (إلّا) الَّتي تفيد الحصر، وقد وردت (إنْ) النافية في القرآن الكريم في عشرة ومئة مواضع، كلّها مقترنةٌ بـ (إلّا) أو (لمّا) عدا سبع آيات[1]؛ منها الآيتان من سورة الأنبياء: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾، ويؤكِّد قوّة (إنْ) في النّفي الاستعمالُ القرآنيّ لها في مواضع يستدعي السّياق فيها زيادة توكيدٍ في النّفي.

وممّا يدلّ على الفرق في استعمال (ما) أو (إنْ) قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: 9]، وقوله هنا: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، فجاء بنفي الدّراية الأولى بـ (ما) وجاء بنفي الدّراية الثّانية بـ (إنْ) وذلك لأنّ الآية الثّانية أبعدُ في عدم الدّراية وأقعَدُ من الأولى، فقد أطلعَ اللّه رسوله فيما بعد على ما سيفعله به وبهم في الدّنيا والآخرة، فقد وعده بالفتح والنَّصر والمغفرة، وكسرِ شوكة الكفر في الدّنيا، وأطلعه على ما سيفعل به وبهم في الآخرة[2]، في حين أنَّ النَّفي بـ (ما) في الأولى هو للأحداث الَّتي لم يُطلع اللّه تعالى عليها نبيّه صلوات اللّه وسلامه عليه.

ثم إنّه استعمل هنا (إنْ) في النّفي تناسبًا لفظيًّا مع استعمال (إنْ) الشّرطيّة فيما سبق في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ﴾.

(1) السّامرّائي، معاني النحو: 4/ 171.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 118.

سِرُّ التَّعبير بالدِّراية دون العلم في قوله ﴿أَدۡرِيٓ﴾:

الدّراية تفوق العلم في الاشتمال

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ عبِّر بالدّراية دون العلم، والفرقُ بين الدِّراية والعلم: أنَّ الدِّراية، بمعنى الفهم، وهو لنفي السَّهو عمّا يَرِدُ على الإنسان فيدريه؛ أي يفهمه، وقيل: الدّارية مثل العلم؛ لأنّ الدّراية علمٌ يشتمل على المعلوم من جميع وجوهه، وذلك أنّ (الفِعالة) للاشتمال، ولذلك جاء أكثر أسماء الصّناعات على (فعالة)؛ فالدّراية تفيد ما لا يفيده العلم [1].

بلاغة الطِّباق بين القريب والبعيد:

علم القيامة خاصّ بالله تعالى

الجمع بين القريب والبعيد في قوله: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾، طباق إيجابٍ اقتضاه مطابقةُ الكلام لمقتضى الحال، دلّ على شمول كلّ الأزمان؛ فلا أحد يعلم بموعد يوم القيامة؛ فلا يُعلم قُربه من بُعده، ولم يخبر اللّه به نبيَّه، أو أحدًا من خلقه، وجعل ذلك العلم خاصًّا به سبحانه.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَّا﴾ في قوله ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾:

السّعة في الزّمن وفي الوعد

تقع ﴿مَّا﴾ على ذوات ما لا يعقل ويفيد العموم، كما في قوله هنا: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾، وغرضُ التَّعريف بالاسم الموصول هو التّعظيم من شأن هذا الوعد؛ كونه أمرًا قد استأثر اللّه بعلمه.

سرُّ التَّعبير الكِنائّي بـ ﴿تُوعَدُونَ﴾ في هذا السّياق:

الوعد بالعذاب في الدّنيا أو الآخرة

المصدر المؤوّل ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ في محلّ رفع فاعل الصّفة المشبّهة قريب سدّ مسدّ الخبر [2]، وقوله: ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾ كنايةٌ عن حلول ما توعَّدهم به من عذابٍ عاجلٍ، أو هي كنايةٌ عن الحساب يوم القيامة، والأصوَبُ حلولُ العذاب العاجل بهم؛ لأنّ قوله تعالى بعده: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إشارةٌ إلى تأخُّر العذاب عنهم في الدّنيا [3].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 230 - 231.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 17/ 77.

(3) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 386.

دلالة حذف متعلّق ﴿تُوعَدُونَ﴾:

وقوع غضب الله على المعارضين لدينه

حذف متعلّق: ﴿تُوعَدُونَ﴾، وتقديره: (ما توعدون به)؛ لظهوره فلا يحتاج إلى ذِكر، وللدَّلالة على العموم؛ وهو الملائمُ لسياق الوعيد والتَّهديد، فدخل فيه كلُّ وعيدٍ في الدُّنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ١١٠﴾ [الأنبياء: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

التَّناسبُ بين علم الله بأقوال النّاس وعلمه بموعد حسابهم

بعد أن ذكر في الآية السّابقة ما استحقَّه النّاس المُنكرون من التّهديد والوعيد، وبيّنت أنّ وعيد اللّه لهم آتٍ لا محالة، وأنّ الرّسول لا يعرف موعده إن كان قريبًا أم بعيدًا، فهو من علم الغيب الَّذي لا يعلمه إلّا اللّه تعالى؛ ناسبَ أن يذكر هُنا أن اللّه تعالى يعلم كلَّ شيءٍ من الجهر أو الكتمان، وأنّكم ستُحاسبون على ذلك كلّه في يوم القيامة الَّذي سبق أن ذُكر في قوله: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: 97] وقوله: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ﴾.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَكۡتُمُونَ﴾: أصلُ الكِتْمانِ يدُلُّ على إخْفاءٍ وسَتْرٍ، يُقال: كَتَمَ السِّرَّ، يَكْتُمُهُ، كَتْمًا وكِتْمانًا، أيْ: أخْفاهُ عن النّاسِ، وسَتَرَهُ، ولم يُفْشِهِ[1]، والمُرادُ بالكتمِ والكِتمانِ في الآية: إخفاء الشّيء قصدًا مع تحقُّق الدّاعي إلى إظهاره[2].

المَعنى الإجماليُّ:

اللّه سبحانه عالم الغيب والشّهادة والسِّرّ والجهر والباطن والظّاهر

إنَّ اللّه سبحانه وتعالى يعلم ما تجهرون به من الطَّعن في الإسلام، وتكذيب الآيات، ويعلم ما تكتمون من الأضغان والعداوات للمسلمين، فيجازيكم على قليل ذلك وجليله، وإذا كان اللّه يعلم الجهر وما يخفى، وهو مُجازٍ عليهما لا محالة؛ كان على العاقل البصير أن يُخلص النّية للّه تعالى، وأن يصون لسانه وقلبه عن الوقوع فيما يوبقه من القولِ والنّيَّةِ وسوءِ الظَّن[3].

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (كتم).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 1/ 354.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 80، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1167.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

امتناع حصول الإيهام في المعنى

قُطعت هذه الآية عمّا قبلها لكمال اتِّصالهما، لأنَّها تعليليَّةٌ، والمقصود منها تعليل الإنذار بتحقيق حلول الوعيد بهم، وتعليل عدم العلم بقربه أو بعده، عُلِّلَ ذلك بأنَّ اللّه تعالى يعلم جهرهم وسرهم، وهو الَّذي يؤاخذهم عليه، وهو الَّذي يعلم متى يحلُّ بهم عذابه[1].

المتشابه اللفظيُّ مع سورة الأعلى:

الأمر بالإخلاص وترك النّفاق

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾ [الأعلى: 7]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ فقد حدّد الجهر في سورة الأنبياء بالقول، لأنَّه طلب منهم الجهر بكلمة الإسلام، فقال لهم: فهل أنتم مسلمون؟ والمقصود هنا الأمر بالإخلاص وتركِ النفاق، و﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ حال من الجهر.[2] ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ أي: ما تجاهرون به من الطَّعن في الإسلام وتكذيبِ الآياتِ الَّتي من جملتها ما نطق بمجيء الموعود ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ من الأحقاد للمسلمين فيجازيكم عليه[3]، فاقتصر على ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾ هنا، وأمّا في سورة الأعلى فقال: ﴿ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾ [الأعلى: 7]؛ فلم يُحَدَّدا بشيءٍ، فهما عامّان في كلّ شيء في هذا الخلق، وهو منسجمٌ مع سياق الآيات في قوله: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلى: 3]، فـ (التّقدير) هنا عامٌّ و(الهداية) عامّةٌ في جميع أنواع خلقه، فكلُّ خلقٍ ممّا خلقَ اللّه له جهر وله ما يخفى من الأصوات والأشكال والأفعال.

دلالة التأكيد في صدر الآية:

إزالـة الشّكـوك عند المُخاطبين

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ فقد صدّر الآية بالتَّوكيد بـ (إنّ)، والتّوكيدُ مع الأسلوب الخبريِّ يفيدُ أن يكون أسلوبًا طلبيًّا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 174.

(2) ابن عادل، اللّباب: 13/ 626.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 89.

وهو ما يُلقى إلى مُخاطبٍ يتردَّد في تصديقه، فأكّده بمؤكِّدٍ واحدٍ كي يزيل هذا التّردّد، ومناسبة هذا الخطاب هو استمرارٌ لقوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾؛ فاستبطأ ردّهم وإجابتهم، فجاء التّأكيد بقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

دلالة التعبير بالإضمار ﴿إِنَّهُۥ﴾ دون الإظهار (إن الله):

ارتباط وحدانيّة الله بالتّفرّد بالعلم

في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾؛ فقد عبّر بالمضمر ﴿إِنَّهُۥ﴾ دون إظهار لفظ الجلالة، والأصل في الكلام والمُحَدَّثِ عنه أن يكون ظاهرًا، وأنّه إذا ذُكِرَ ثانيًا أن يُذكر مضمرًا؛ للاستغناء عنه بالظّاهر السّابق، وقد سبق هنا قوله: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، ثمّ قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾، فاستغنى عنه بالظّاهر السّابق، ولبيان صلة هذه الآية بالآية السابقة، فهو إلهُهُم الواحد، الَّذي يعلم ما يجهرون به من القول، وما يكتمونه، وهو العِلْمُ الَّذي لا يقدر عليه إلّا اللّه الواحد.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾:

يفيد المضارع في قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ الدّلالة على ما يتجدّد من العلم في كلّ لحظة في صدور النّاس؛ ممّا يُعلنونه وممّا يُخفونه؛ وهذا ما لا يُدركه أحدٌ من الخلق.

سِرُّ التَّعبير بالجهر دون الإعلان:

الجهر يدلّ على رفع الصّوت

قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾؛ الفرق بين الإعلان والجهر: أنَّ الإعلان خلاف الكتمان، وهو إظهار المعنى للنَّفس ولا يقتضي رفع الصَّوت به، والجهرُ يقتضي رفع الصَّوت به، ومنه يقال رجل جَهيرٌ وجَهْوَري إذا كان رفيعَ الصَّوت[1]، فذكرَ الجهرَ من القول، وطابقه بالكتمان ليدلّ على الشّمول لجميع ما ينطق به النّاس، قال: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 60.

﴿يَخۡفَى ٧﴾ [الأعلى: 7] وهذا ما سيحاسب اللّه عليه النّاس؛ ثمّ إنّ الجهر من القول، لا يقلّ أثرًا في القلب عمّا هو خفيٌّ في الصّدر؛ فلابدّ من توافق ما يُظهِرُ الإنسان مع ما يُخفي، وإن اختلفا فهو النّفاق.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾:

انسجام الدواخل مع المجهور من الأقوال

التّعريف بـ (أل) في قوله: ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ أفاد استغراق كلِّ أشكال الجهر من القول، وتدخل هُنا جميع مستويات الصّوت البشريّ؛ فعلى الإنسان أن يراقب أقواله وطريقته في الجهر بالقول؛ وأن ينسجم ذلك مع دواخل النّفس.

دلالة ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾:

اختيار الألفاظ عند الجهر بالقول

قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ ﴿مِنَ﴾ هنا بيانيَّة، لبيان المقصود به في قوله ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾، وفائدتُها هنا محاسبة النّفس على ما يجهر به اللِّسان من القول مبتدئًا باختيار حُسْنِ ألفاظه، وموافقة جَهْرِه سرَّه.

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾:

شمول حالات القول

التَّعريف بـ (أل) في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أفاد غرض استغراق جنس القول، فدلّ على شمول كلِّ قولٍ يصدر من إنسانٍ، مهما دلّ هذا القول على أيِّ معنًى، وبأيّ لغةٍ كان.

سِرُّ ذكر (الأقوال) دون (الأفعال):

سياق الآية يقتضي الجهر بالقول

اقتصر على ذكر الأقوال دون الأفعال في قوله: ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ مع علمه بهما معًا، وذلك لأنّ السّياق في صدد طلب الإعلان منهم بقبول دين الإسلام، فقال: ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾، فذكر لهم الوحي، وطلب منهم إعلان الإسلام.

دلالة الواو في قوله ﴿وَيَعۡلَمُ﴾:

جمع الحالات القوليّة

قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ عطفَ جملة العلم بالكتمان على العلم

بالجهر، والواو حرف عطفٍ للجمع، إذ إنّ كِلا العلمَين واحدٌ عند اللّه تعالى، فشمل كلّ حالات العلم بأقوال النّاس وما يكتمون في صدورهم.

سرُّ إعادة الفعل (يَعْلَمُ):

اللـه تـعالى الـعالـم بكلّ شيء

تكرار الفعل (يَعْلَمُ) لفائدة التأكيد على شمول علم اللّه جميعَ ما يخطر على قلب بشرٍ؛ فهو يعلم السِّرَّ والجهر ويعلم الإعلان والكتمان، والعلمُ بالجهر والعلم بالسِّرِّ عند سبحانه سواء.

دلالة حذف متعلّق ﴿تَكۡتُمُونَ﴾:

شمول المعاني المكتومة في النّفس

حذف متعلق الفعل ﴿تَكۡتُمُونَ﴾ وذلك لفائدة التّعميم، أي: الإيحاء بشمول الفعل، وعدم تخصّصه بمفعولٍ دون آخر، فقد أفاد هنا عمومية ما يكتمه المخاطبون؛ بل عمومية ما يكتمه الناس جميعًا، وعموم ما يُكتم من الحقّ والباطل، والخير والشّرّ، وغير ذلك.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجهر والإعلان:

الإعلان لا يقتضي رفع الصوت والجهرُ يقتضي ذلك

الإعلان خلافُ الكتمان، وهو إظهار المعنى للنفس، ولا يقتضي رفع الصوت به، والجهرُ يقتضي رفع الصوت به، ومنه رجلٌ جَهيرٌ وجَهْوَري إذا كان رفيع الصوت، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ [الإسراء: 110].

الكتمان والإخفاء:

الكتمان في المعاني والإخفاء في المعاني وغيرها

الكتمان هو السُّكوتُ عن المعنى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 159]؛ أي يسكتون عن ذكره، والإخفاء يكون في ذلك وفي غيره، والشّاهد أنك تقول: أخفيتُ الدِّرهمَ في الثَّوب، ولا تقول: كتمتُ ذلك وتقول: كتمتُ المعنى وأخفيتُه؛ فالإخفاء أعمُّ من الكتمان[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية: 447 - 448.

﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ١١١﴾ [الأنبياء: 111]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحكمة من تأخير العذاب هو الفتنة للمنكرين

ذُكر في آيةٍ سابقةٍ عدمُ علمهِ ﷺ بموعد الحساب ومتى يقع، وأنّ ذلك لا يكون إلّا بعلم اللّه وبحكمته سبحانه، فناسبَ في هذه الآية أن يَذكُر الرّسول ﷺ حكمة اللّه من تأخير العذاب؛ فلعلّه الفتنة للمنكرين، ليمدّهم في طغيانهم، فيكون ذلك فتنةً لهم ومتاعًا إلى حينٍ لا يعلمه إلّا اللّه سبحانه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: أَصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[1]، يُقالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أَحْرَقْتُهُ بِالنّارِ؛ لِتَمْييزِ الجيِّدِ مِنَ الرَّديءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: الفَتّان، وكَذَلِكَ الشَّيْطان[2]، والفِتنَةُ: الكُفر[3]، والعَذابُ، والبَلاءُ، والابتلاء[4]، والاختبار[5]، وما يَقَعُ بيْنَ النّاسِ من الحُروبِ[6]، والمُرادُ بالفِتنةِ في الآية: اختلالُ الأحوالِ المفضي إلى ما فيهِ مَضَرَّةٌ[7].

2) ﴿وَمَتَٰعٌ﴾: أَصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِه، والماتِعُ: الجيِّدُ البالِغُ الجَوْدَة[8]، والمَتاع في الأَصْلِ: كلّ شيْءٍ يُنتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بهِ ويُتزوَّد؛ والفناء يَأْتي

(1) الخليل، العين: (فتن).
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فتن).
(3) ابن سيده، المحكم: (فتن).
(4) الخليل، العين: (فتن).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (فتن).
(6) ابن عباد، المحيط في اللغة: (فتن).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 174.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

عَلَيْهِ في الدُّنْيا [1]، والتَّمْتيعُ: الإمْهالُ، وأيضًا: التَّعْمِيرُ، ومِنْهُ قَوْلُه تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]، أي: أَطَلْنا أَعْمارَهُم [2]، والمقصود بالمتاع في الآية: ما يُتمتَّع به في الدُّنيا مُدَّةً قليلةً.

3) ﴿حِينٍ﴾: أصْلُ الحِيْنِ الزَّمانُ، فالحِينُ الزّمانُ قليلُهُ وكَثِيرُهُ [3]، قالَ الرّاغِبُ: الحينُ وقْتُ بلوغِ الشّيءِ وحصولِه، وهو مُبهَمُ المعْنَى، ويَتَخَصَّصُ بالمُضافِ إليْهِ، ومَنْ قالَ: (حِيْن) تأْتي على أوْجُهٍ: للأجَلِ، والسَّنَة، وللسّاعَةِ، وللزَّمانِ المُطْلَق، فإنَّما فسَّرَ ذلِكَ بحَسَبِ ما وجدَ وعلقَ بِهِ [4]، وقالَ الفَرّاءُ: الحِينُ حينانِ، حِينٌ لا يوقَفُ عَلَى حَدِّه، وهو الأَكْثَرُ، وحِينٌ ذَكَرَهُ اللّه تعالَى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25]، وهذا مَحْدودٌ لِأَنَّهُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ [5]، والمقصود بـ ﴿حِينٍ﴾ في الآية: القَدْرُ المحدودُ من الزَّمن.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تأخير العذاب فتنةٌ للظّالمين

قُلْ يا مُحمَّدُ ﷺ لهم: فإنْ تأخَّرَ عذابُكم، فما أدري سَبَبَ ذلك وحِكمَتَه، لكنْ لعَلَّه فِتنةٌ لكم، فتزدادُ سيِّئاتُكم، وتتمَتَّعونَ قَليلًا في حياتِكم إلى وقتٍ مُعيَّنٍ، ثمَّ يأتيكم العَذابُ [6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى﴾:

جمع المعاني المؤدّية إلى الإنذار والتّخويف

(الواو) في قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى﴾ حرف عطفٍ للجمع، عطَفَ قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ على جملة: ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (متع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حين).
(4) الراغب، المفردات: (حين).
(5) الفراء، معاني القرآن: 2/ 45.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 442، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 388، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 174، 175.

﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾؛ وهو بهذا العطف جمعَ بين قضيّتين غيبيّتين لا يعلمهما إلّا اللّه سبحانه، هُما بمجموعهما يدُلّان على معنى التّحذير من غضب اللّه، والإنذار من وقوعه عليهم، وهو في كلِّ الأحوال نقمةٌ على الكافرين؛ سواءٌ تعجَّل أو تأخَّر.

سرّ النفي بـ (إن) دون (ما) في قوله ﴿وَإِنْ أَدْرِى﴾:

نفي الدِّراية عن رسول الله ﷺ بمآلات المعاندين

استعمال (إنْ) آكَدُ في النَّفي من (ما) لاقترانها الكثير بـ (إلّا) الَّتي تفيد الحصر، وإذا دخلت (إنْ) على الفعل المضارع كانت في الغالب لنفي الحال، كما في قوله هنا: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾، ويؤكِّد قوّةَ (إنْ) في النّفي الاستعمالُ القرآنيّ لها في مواضعَ يستدعي السّياقُ فيها زيادةَ توكيد النّفي.

سرّ التعبير بـ (لعل):

الإشفاق على المخاطبين

تأتي لعلّ لتوقُّع شيءٍ محبوبٍ أو مكروه، فالمحبوبُ يسمّى ترجّيًا أو إطماعًا، والمكروه يُسمّى إشفاقًا، وفي قوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ هو من قبيل الإشفاق لا التّرجّي، فرسول اللّه ﷺ أشدّ رحمةً بالنّاس منهم على أنفسهم، ويمكن أن تتجرّد (لعلّ) لمطلق التّوقّع كقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ [هود: 12] [(1)].

دلالة التّعبير بالإضمار في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ دون الإظهار:

الفتنة للمخاطبين في تأخُّر قدوم الوعيد

الإضمار في قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ هو من قبيل الإيجاز؛ إذ استغنى عن ذكر عدم معرفة ميعادِ ما يوعدون به لتقدُّم ذكره في قوله ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾، فلا مقتضى لتكراره، ولشموله حالتَي القرب أو البعد الَّتي بيّنها في قوله: ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾.

دلالة تنكير ﴿فِتْنَةٌ﴾:

تعظيم شأن الفتنة والوعيد بها

تنكير ﴿فِتْنَةٌ﴾ في قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ دلّ على التّعظيم

(1) السّيد الجرجاني، حاشية على الكشّاف: 1/ 177.

من شأنها وتحذيرهم من الوقوع فيها، وطلب العود إلى الرّشد وإلى الإيمان، فالعبدُ في حال اختبارٍ وابتلاءٍ بالخير والشَّرِّ، فينبغي أن يردَّه كلُّ ذلك إلى ربِّه ﷻ.

دلالة الواو في قوله ﴿وَمَتَٰعٌ﴾:

الابتلاء قد يكون بالخير كما يكون بالشَّرّ

قوله: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ الواو حرف عطفٍ للجمع، فتكون الفتنة والمتاع مُمتزِجَتَينِ معًا، فمهما نالوا من المتاع في هذه الدنيا، فإنَّ ذلك فتنةٌ لهم، وقد يكون فيه إملاءٌ للظّالم ليبقَى في غفلته.

دلالة التَّعبير بالاسم ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ دون الفعل:

استقرار النّفوس الضعيفة على متاع الدّنيا

التّعبير بالاسم في ذكر (المتاع) في قوله: ﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ﴾؛ فائدته بيان الثبوت وعدم التّغيّر، فإنّ تأخيرَ العذاب لفترةٍ من الزّمن وإلى حينٍ غير مسمّى فيه متاعٌ تستقرّ به النّفوس وتطمئنُّ به القلوب، فلا يُحسّون أو يستشعرون خطر ما يتربّص بهم من العذاب والفجأة الّتي تبهُتهم إن حان وقتها، وأذِنَ لها اللّه بالحلول.

دلالة التعبير بالظرفية ﴿حِينٍ﴾:

المتاع القليل في الدّنيا

قوله: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ أي: وتمتيعٌ لكم وتأخيرٌ إلى أجلٍ مقدَّر، والتَّعبير بالظَّرف ﴿حِينٍ﴾ منكَّرًا يدلُّ على القرب، فمهما تأخَّر فهو آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، ففيه تهديدٌ بانقضاء ما تعلَّقت به نفوسهم مع كونه متاعًا يشبه ما يتمتَّع به المسافر، فيكون المتاع حقيرًا وزمنُ بقائه قليلًا حقيرًا.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّوجّه إلى الله تعالى للحكم بالحقِّ بين دعاة الإيمان ودعاة الكفر

بيّنت الآيات السّابقة دعوة الرّسول ﷺ إلى الإيمان والتّوحيد، ووجَّهَ أنَّهُ خطابه، مستنكرًا ما عليه النّاس من الّذين لا يؤمنون بالتّوحيد، وبرسالات الأنبياء، وذكّرهم بوعيد اللّه، وأنّه آتٍ لا محالة، ثمّ بعد هذا كلّه؛ ناسبَ أنْ يتوجّه إلى اللّه بالدّعاء، وطلبِ الحكم بالحقّ، بين دعاة الإيمان والتّوحيد من جانبٍ، ودعاة الكفر والعصيان من جانب آخر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱحۡكُم﴾: (حكم) أصْلٌ واحِدٌ، وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وكُلُّ شيْءٍ مَنَعْتَهُ من الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ [1]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بيْنَهُما إذا قَضيْتُ، والمراد بالحُكم في الآية: القَضاءُ والفَصْلُ، وهو تَعْيينُ نَفْعٍ أو ضُرّ للغيْرِ على أساسٍ من الحقِّ والصَّوابِ.

2) ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾: الاِسْتِعانَةُ: مَصْدَرُ اسْتَعانَ، وهي طَلَبُ العَوْنِ، والمُؤازَرَةِ في الأمْرِ، والعَوْنُ: اسْمٌ بمعنى المُساعَدَةِ على الأمْرِ، يُقال: اسْتَعَنْتُهُ، واسْتَعَنْتُ بِهِ، فَأعانني [2]، والإعانَةُ تَسهيلُ فِعْلِ شيءٍ يَشُقُّ ويَعسُرُ على المُستَعينِ وحدَه [3]، والمُرادُ بالمُستَعان في الآية: المطلوبُ منه العون، وهو اللّه تعالى.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(2) ابن سيده، المحكم، والمطرزي، المغرب في ترتيب المعرب، والفيومي، المصباح المنير: (عون).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 184.

3) ﴿تَصِفُونَ﴾: وصَفْتُهُ أصِفُهُ وصْفًا، أي: حلّيتُهُ [1]، والصِّفة: الحالةُ الَّتي عليها الشّيءُ من حِلْيَتِه ونَعْتِه، والوَصفُ قد يكون حَقًّا وقد يكونُ غير ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النحل: 116] تنبيهًا على كون ما يذكرونَه كذبًا [2]، ومعنى الوصف في الآية: الأقوالُ الدّالَّةُ عَنِ الأوصافِ؛ إذ وصفوا النَّبيَ ﷺ بصفاتِ ذَمّ كقولهم: مجنونٌ وساحِرٌ، ووصفوا القرآنَ بأنَّهُ شعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، وشَهَروا ذلكَ في دهمائهم لتأليبِ النّاسِ عليهِ [3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تفويض الأمر إلى الله وتوقُّع الفرَج منه والاستعانةُ به وحده تعالى

قال مُحمَّدٌ ﷺ داعيًا رَبَّه: ربِّ افصل بيني وبين من كذَّبني من مشركي قومي، وكفرَ بكَ وعبدَ غيرك، بإحلال عذابك ونقمتك به بالعدل الَّذي يقتضي تعجيلَ العذاب به، وتشديدَهُ عليه، وربُّنا المتَّصِفُ بالرَّحمةِ الواسِعةِ هو وحْدَه الَّذي نَطلُبُ منه العَونَ عليكم - أيُّها المُشركونَ - على ما تَفترونَه عليه وعلى رَسولِه مِن الوَصفِ الباطِلِ [4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

طلب الحكم من الرّسول

في قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ التفاتٌ؛ إذ التفت من الخطاب إلى الغائب؛ لبيان لجوء الرّسول إلى اللّٰه تعالى، بعد أن عجزت المحاجّة عن تقويض ما هم فيه من التّعنّت والإعراض، فيكشف لنا الالتفات عن مشهد الرّسول ﷺ، وهو ملتجئٌ إلى اللّٰه تعالى يطلب منه الحكم بينه، وبين قومه من المعرضين، وهي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصف).
(2) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 223.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 177.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 445، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 351، والمراغي، تفسير المراغي: 5/ 223.

صورةٌ حاملةٌ لمشهد وعيدٍ وتخويفٍ، وفي الالتفات تنشيطٌ للذِّهن وتطريةٌ للسامع.

سرُّ فصل هذه الآية عمّا قبلها:

التّلويح بالعاقبة وبحكم الله

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فما كان قولُ الرَّسول الشَّفوق على الأمَّة حين سمع هذا الخطاب؟ فقيل: قال مبتهلًا إلى الله تعالى: ﴿رَبِّ﴾ أي؛ أيُّها المحسنُ إليَّ في نفسي وأتباعي بامتثال أوامرك واجتناب نواهيك ﴿ٱحۡكُم﴾ أي أنجز الحكمَ بيني وبين هؤلاء المخالفين ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي بالأمر الَّذي يحقُّ لكلٍّ منّا من نصرٍ وخذلان على ما أجريته من سنَّتك القديمة في أوليائك وأعدائك[1].

دلالة تعدُّد القراءات في قوله ﴿قَٰلَ﴾:

تنوّع المعاني بين الخبر والإنشاء

قرأ حفص عن عاصم ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ بألفٍ، وعليه فالجملة خبريَّةٌ، وقرأ الباقون ﴿قُل رَّبِّ ٱحۡكُم﴾ بغير ألف[2]، وعليه فالجملة إنشائيَّةٌ، فمَنْ قرَأ ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم﴾ فالمعنى: قال النَّبيُّ ﷺ: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾، مسألةٌ سألها ربَّه، ومَنْ قَرَأ ﴿قُل رَّبِّ﴾ فهو تعليمٌ من الله لنبيِّه ﷺ أن يسأله الحكم بالحقِّ، وجاء في التّفسير: أنّه كان من مضى من الرّسل يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]؛ ومعناه: احكم، فأمرَ الله نبيَّه ﷺ أن يقول: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾[3]، ومن بلاغة القراءتين هنا جمعهما بين الأمر وامتثاله، فالله ﷻ أمر نبيَّه ﷺ بالقول، وأتت القراءة الأخرى بالفعل الماضي لتؤكد امتثاله وتبليغه لما أُمر به.

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّة ﴿رَبِّ﴾ دون الألوهيَّة:

الحكم بين النّاس من أفعال الرّبوبيّة

الرّبُّ هو الخالق المُربّي المُداري لعباده سبحانه، والرّازق لهم،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 513.
(2) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 471، وابن الجزري، النشر: 2/ 325.
(3) الأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 173.

والمدبِّر لأمورهم، واللّه تعالى الحاكم بين عباده، فذُكِرَ الرّبُّ لأنّ سياق الآية يستدعي ذِكر الرّبِّ دون الإله، فلو كان مقامَ عبادةٍ لذكر الألوهيّة، لكنّه ذكر الرّبوبيّة؛ لأنه يدعو ربَّه بالحكم بينه وبين قومه.

دلالة حذف أداة النِّداء مع ﴿رَبِّ ٱحۡكُم﴾:

قـرب الـرّسـول ﷺ مـن الـرّبِّ سبحانه

حذف أداة النداء في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ إيجازًا وقربًا من اسم الرّبّ العظيم سبحانه، دالًّا على سرعة استجابة الدّعاء من الرّسول ﷺ، ومن أحق بأن يُستجابَ دُعاؤه إن لم يكن رسول اللّه ﷺ، فكُلّ دُعاء نبويّ مذكور في القرآن مُستجابٌ مُحقّق.

دلالة التعبير بالحكم في قوله: ﴿ٱحۡكُم﴾ دون (اقض):

الـحُـكـم فصل الأمـر والقضاء البتّ فيه

(القَضاء): يَقْتَضي فصل الأمر على التَّمام من قَوْلك قَضاهُ إذا أتمَّهُ وقطعَ عمله، ومِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾ [الأنعام: 2]؛ أي: فصلَ الحكم بِهِ، وقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]؛ أي: فصلنا الإعْلام بِهِ، وقوله: ﴿قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [سبأ: 14]؛ أي: فصلنا أمر مَوته، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]؛ أي فصلَ الأمر بِهِ.

أمّا الحكم فيَقْتَضي المَنْعَ عَن الخُصومَة، من قَوْلك: أحكمته إذا منعته، ويجوز أن يُقال: الحكمُ فصلُ الأمر على الأحْكام بِما يَقْتَضيهِ العقل والشَّرْع، فإذا قيل: حكمَ بِالباطِلِ فَمَعْناه أنَّهُ جعلَ الباطِل مَوضِع الحقِّ، ويُسْتَعْمل الحكمُ في مَواضِعَ لا يُسْتَعْمل فيها القَضاءُ، كَقَوْلِك: حُكْمُ هَذا كَحُكم هَذا، أي هما متماثلان في السَّبَب أو العلَّة أو نَحْو ذَلِك[1].

دلالة الأمر في قوله: ﴿ٱحۡكُم﴾:

طـلـب تـعـجـيل الـعـذاب والـتّـشـديـد عليهم

قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم﴾؛ على صيغة الأمر، أي: اقضِ بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لتعجيل العذابِ والتشديد عليهم،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 190.

وقد استُجيب دعاؤه ﷺ حيث عذبوا بِبَدْرٍ أيَّ تعذيبٍ[1]، فالأمر هنا للدعاء.

دلالة حذف المتعلق الثاني للفعل ﴿ٱحۡكُم﴾:

طلبُ الحُكم بالحقِّ

حُذف المتعلّق الثاني لِفعل ﴿ٱحۡكُم﴾ لتنبيههم إلى أن النّبيّ ﷺ على الحقّ، وأنّهم على الباطل، فإنّه ﷺ ما سألَ الحكمَ بالحقِّ إلّا لأنَّهُ يريده؛ أي: احكم لنا أو فيهم أو بيننا[2].

فائدة قوله ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

الحكم بما وعد الله

ليس المرادُ بالحقِّ هنا نقيضَ الباطل؛ بل هو ما وعدَهُ اللّه تعالى إيّاه، من نصرِ المؤمنين، وخذلانِ الكافرين، ووعدُه لا يكونُ إلّا حقًّا، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: 89]، أو أنَّ قوله: بالحقِّ؛ تأكيدٌ لما في التّصريح بالصِّفة من المبالغة وإن كانت لازمةً للفعل، ونظيرُه في عكسه من صفة الذمِّ قولُه تعالى: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: 112][3].

دلالة الباء في قوله ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

حُكم الله حقٌّ مطلق

الباء في قوله تعالى ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ للملابسة[4] والإلصاق، فحكم اللّه كلّه حقّ؛ بل هو الحقُّ المطلق، فاللّه تعالى هو الحقّ المُبين، وهو خالق الكون والأحياء سبحانه.

سرُّ ذكر القيد ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ والله لا يحكم إلّا بالحقّ:

تضمَّنَ دعاء الرّسول وعيدًا للمنكرين

دلّ ذِكر قيد ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾ في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ - واللّه لا يحكم إلّا بالحقِّ - على ما تضمّنه الدّعاء من الوعيد والتّهديد، وأنّ المنكرين هم على الباطل، فإنَّ ذِكر الحقّ تهديدٌ لهم بما سيُصيبهم من العقوبة على إنكارهم للحقِّ، وهو دينُ اللّه ورسالةُ نبيِّهِ ﷺ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 89.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(3) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: 380.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

خير التّكلان الاستعانة بالرحمن

عُطِفتْ جملة: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ على جملة: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾؛ وكلتاهما مقولُ القول للفعل (قال)، وهو مما يَلْفِتُ إلى رحمته ﷺ بالأمّة، حيث لم يطلبْ لها الوعيد، وإنَّما قرنَ في طلبه بين الوعيد والرَّحمة، وكفى بذكر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دالًّا على سعة رحمته سبحانه.

دلالة تعريف المسند إليه بالإضافة:

الاعتزاز بالرّبوبيّة وتعظيم شأنها

تعريف المسند إليه بالإضافة في قوله: ﴿وَرَبُّنَا﴾؛ لتضمُّنها تعظيمًا لشأن المسلمين بالاعتزاز بأنَّ اللّه ربُّهم[1]، فالمؤمن يشعر بطمأنينة النّداء لربّه، وضمير المتكلِّم المشارك للنبيِّ ومن معه من المسلمين، وفيه تعريضٌ بالمشركين بأنهم ليسوا من مربوبيَّة اللّه في شيءٍ حَسْبَ إعراضهم عن عبادته إلى عبادة الأصنام، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمد: 11][2].

دلالة الوصف بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

من أسلوب القرآن الجمع بين الوعد والوعيد

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ عطف بيان من ﴿وَرَبُّنَا﴾؛ لأنَّ المراد به هنا الاسم لا الوصف ردًّا على المشركين؛ لأنَّهم أنكروا اسم (الرحمن)، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠﴾ [الفرقان: 60][3].

وقد يكون ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ خبرًا للمبتدأ ﴿وَرَبُّنَا﴾ أي كثير الرَّحمة على عباده[4]، فيكون في الآية تهديدٌ للكافرين المعاندين، وترغيبٌ في سعة رحمة اللّه تعالى لمن استجاب له ورجع إليه سبحانه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 176.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 102.

سرُّ تلقين الله تعالى لنبيّه هذا الدُّعاء:

الالتجاء إلى الله حقيقة الإيمان

على قراءة ﴿قُل رَّبِّ ٱحۡكُم﴾ بغير ألف[1]، فإنّ المستفاد من الأمر هو تلقين اللّه تعالى نبيّه هذا الدّعاء الَّذي يتضمَّن طلبَ الحُكم بين النّاس بالحقِّ فيما اختلفوا فيه، ثمّ بيانَ رحمة اللّه، وأنّه هو سبحانه جهةُ الاستعانة على ما يصفه المُعرضون عن دين اللّه والمنكرون والملحدون، وفي تلقين هذا الدُّعاء للرّسول مَعانٍ عدّة منها بيان أنَّ رسول اللّه ﷺ بشرٌ لا عِلم له بالغيب، وأنّه يطلب رحمة اللّه بالنّاس جميعًا ويقدّمها على عذابه وعقابه، فهو رحمةٌ مهداةٌ لهم، وسبقَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وفي دُعائه تعليمٌ للمؤمنين أنَّ الاستعانة تكون باللّه، وباللُّجوء إليه سبحانه في أمور الدّعوة إلى دين اللّه.

سرّ تكرار لفظ الرّبوبيّة في الآية:

التّلذّذ والإيمان بذكر الرّبِّ

في قوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كرّر الرّبوبيَّة في الآية الكريمة، تلذّذًا بمعانيها وقناعةً وعقيدةً بصحَّة اللّجوء الى الرّبِّ سبحانه الخالق المقدّر الحاكم بين النّاس المؤيّد بنصرهِ المدافعِ عن الَّذين آمنوا بالحقِّ والعدل، ولأنه سبحانه هو الحكم وهو الَّذي يُستعان به في كلِّ أمر.

سرُّ تقديم الرّحمة:

تعظيم شأن المؤمنين ورحمةُ الله بهم

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ أي كثيرُ الرحمة على عباده ثم قال: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾، فقدّم الرّحمة على طلب العون عليهم وعلى ما يفترون، وفائدتُها تقديم طلب الرّحمة للمؤمنين، فهم المُقدّمون عند اللّه تعالى، تعظيمًا لشأنهم وشأن إيمانهم، واختصاصهم بالرّحمة.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾:

التعبير في قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: المطلوب منه

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 471، وابن الجزري، النشر: 2/ 325.

طلب العون من الله وكفّ شرّ المنكرين

المعونة، فدلّ على طلب الاستعانة من اللّه على الَّذين يتجاوزون حدوده ويُنكرون الرّسالة وما جاء به الوحي، وطلبُ العونِ من اللّه إمّا لغاية هداية المعاندين والمنكرين، وإمّا ليكُفّ اللّه عن المؤمنين شرّهم ومكرهم.

دلالة (أل) التَّعريفيَّة في ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾:

تعريف ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ﴾ لإفادة الكمال في الإعانة فهو المستعان به على الحقيقة لا سواه، فلا أحد يعين ولا أحد يقدر على فعل ما يريد إلّا هو سبحانه وتعالى.

دلالة التّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾:

الاستعانة بالله على ما يصفون وما ينكرون

في قوله: ﴿ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ ﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء؛ حقيقيًّا كان أم مجازيًّا؛ جاء في كتاب سيبويه: "أمّا (على) فاستعلاء الشيء"[1]، ولفظها يدلّ على ذلك فهي من العلوّ، وهي هُنا استعلاءٌ مجازيٌّ، فكأنّ الاستعانة باللّه علَتْ على ما يصفون وهيمَنَتْ عليه. "وقد يُستعمل (على) في الأفعال الشّاقّة المستثقلة، تقول: قد سرنا عشرًا وبقيت علينا ليلتان"[2].

دلالة حذف المتعلّق في قوله ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾:

افتضاح المنكرين للرِّسالة بما يصفون

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تصفون من التّكذيب والافتراء، والحجج المُجانبة للحقّ، ممّا يوحيه الشّيطان إلى أوليائه، قال تعالى: ﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، فحذف متعلّق (تصفون) لشمول أنواع ما يأتي به المُعارضون المُعاندون من الحجج وما يُنكرون وما يقترفون، وللدّلالة على كثرة أوصافهم الباطلة الَّتي أتوا بها، وما سوّلت لهم أنفسهم وأفكارهم، وعلى عظيم ما يرتكبون من الإثم بهذا الوصف المُنكر.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 2/ 310.

(2) ابن جنّي، الخصائص: 2/ 272.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَا﴾:

كثرة الأقوال والأفعال المجانبة للحقّ

الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا تَصِفُونَ﴾؛ تقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات من يعقل، كما في قوله هنا ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، و(ما) تفيد الاتِّساع، جاء في بدائع الفوائد: أنّ (ما) "لا تخلو من الإبهام أبدًا، ولذلك كان في لفظها أَلِفٌ آخرة لما في الألِفِ من المدّ والاتّساع في هواء الفم، مشاكلةً لاتّساع معناها في الأجناس"[1]، فتُظهر (ما) هُنا سعة ما يصفون من الأقوال والأفعال.

سرُّ التُّعبير بقوله ﴿تَصِفُونَ﴾ دون (تقولون):

الأقوال الّتي يصفون بها الدّين والرّسول بما يسوء

ومعنى ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ وما تَصدر به أقوالكم من الأذى لنا، فالوصف هنا هي الأقوال الدّالَّة على الأوصاف، وهم وصفوا النّبي ﷺ بصفات ذمٍّ كقولهم: مجنون وساحر، ووصفوا القرآن بأنه شِعرٌ وأساطير الأوّلين، وشهَروا ذلك في دهمائهم لتأليب الناس عليه[2].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تَصِفُونَ﴾:

تجدُّد أوصافهم بما يسوء

التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿مَا تَصِفُونَ﴾ أفاد التّجدّد والاستمرار على ما يصفون من أوصافٍ مؤذيةٍ لأهل الإيمان كقولهم (أساطير الأوّلين)، واتّهامهُم النّبيّ ﷺ بالشِّعر والكذب والسِّحر.

بلاغة ختام السّورة بهذه الآية مع مراعاة مطلعها:

بيان تناسب الآية مع مطلعها

خُتمت هذه السّورة بقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ خطابًا لأولئك الَّذين أنكروا الرّسالة، وفيها من الاستعانة باللّه عليهم، وعلى مكرهم ووصفهم بغير حقٍّ بهتانًا وزورًا، وفي هذه العبارة تناسُبٌ دقيقٌ مع مطلعها الّذي قال تعالى فيه: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء: 1]؛ فبيّن أنّ أمر اللّه في عقوبة المنكرين المُعارضين لدين اللّه ورسالاته آتٍ لا محالة، وهو قريبٌ، ومدحَ المؤمنين

---

(1) ابن قيّم الجوزيّة، بدائع الفوائد: 1/ 131.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 177.

على الصّبر والاستعانة باللّه، فأتى في آخر السّورة بعبارة الاستعانة فقال: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، فقد انطبق آخرُ السّورة على أوّلها بذكر السّاعة ردًّا على قوله ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 1] وذكر غفلتهم وإعراضهم، وذكر القرآن الَّذي هو البلاغ، وذكر الرِّسالة بالرَّحمة لمن نسبوه إلى السِّحر وغيره، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأوَّلين وغير ذلك، وقام الدَّليلُ بالسَّمع بعد العقل على تحقُّقِ أمر السّاعة بأنه سبحانه لا شريك له يمنعه من ذلك، وأنه يعلم السِّرَّ وأخفى، وهو رحمن، فمن رحمته إيجاد يوم الدّين ليجازي فيه المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بكفرانه، وفي ذلك أعظم ترهيبٍ في أعلى حاثٍّ على التَّقوى للنَّجاة في ذلك اليوم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميّةُ:

الحقّ والعدل والقسط:

الحقّ هو الحكم المطابق للواقع في كلّ شيء

الحقّ في اللّغة هو الثّابت الَّذي لا يسوغ إنكاره؛ من حقَّ الشّيءُ، إذا ثبتَ ووجبَ، وفي اصطلاح أهل المعاني: الحكم المطابق للواقع، يُطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك، ويقابله الباطل، وقد يطلق الحقّ على الموجد للشَّيء، وعلى الحكمة، ولما يوجد عليه، كما يقال: اللّه حقٌّ، وكلمته حقٌّ، وقد يراد به الإقبال على اللّه تعالى بلزوم الأعمال الصّالحة المطابقة للعقائد المطابقة للواقع، وبالباطل: الالتفات عنه إلى غير ذلك ممّا لا يُجدي نفعًا في الآخرة[2]، فاصطفى النَّظمُ الكريمُ الأليقَ بالسّياق.

والعدل: نقيضُه الجَور، والعين والدّال واللّام أصلان صحيحان؛ لكنّهما متقابلان كالمُتضادّين، أحدهما يدلّ على استواء، والآخر يدلّ على اعوجاج[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 12/ 516.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 193.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 229.

والقسْط هو العدْل، ومِنْه سمّي المِكْيال قسطًا؛ لِأَنَّهُ يُصوِّر لَك العدْلَ في الوَزْن حَتَّى تراهُ ظاهرًا وقد يكون من العدْل ما يخفى، ولِهَذا قُلْنا إنّ القسْط هو النَّصيبُ الَّذي بيّنت وجوهه وتقسَّطَ القَوْم الشّيْء تقاسموا بِالقِسْطِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.

سُورَةُ الحَجِّ

سُورَةُ الحَجِّ

التّعريفُ العامُّ بالسّورة:

نـزولُ السّـورة للتّثبيت بعد المعاناةِ الحافلةِ بـالأحـداثِ والتّحدّياتِ

إنّ أسلوبَ معظمِ آياتِ السّورة ومضمونَها يُسوّغان ترجيحَ صحّةِ رواية مكّيّتِها، مع احتمالِ أن تكون بعضُ آياتها مدنيّةً(1)، وقد ذكر ابنُ تيميّة أنّ فيها المكّيَّ والمَدنّيَ، واللّيليَّ والنّهاريَّ، والسّفريَّ والحضريَّ، والشّتائيَّ والصّيفيَّ(2).

وسورةُ الحَجّ هي السّورةُ الثّانيةُ والعشرون في ترتيب المصحفِ الشّريف، جاءت بين سورتَي الأنبياء والمؤمنون، وعددُ آياتها: سَبْعونَ وأرْبعُ آياتٍ في الشّاميّ، وخمْسٌ في البَصْري، وستٌّ في المَدَني، وسبعٌ في المَكّي، وثمانٍ في الكوفي(3).

وأمّا ترتيبُها النّزوليُّ: فقد ذكر بعضُهم أنّ ترتيبَها الثّامنةُ والثّمانون بين سورتَيِ الرّعد والرّحمن(4)، والتّرتيبُ النّزوليُّ ليس قطعيًّا في ثبوتِه لافتقاده إلى صحّةِ الرّوايات، وممّا يؤكّد ذلك اختلافُهم فيه، ولكن مع هذا كلِّه، فهم على الأقلّ متّفقون على أنّها مِن أواخر السّورِ نزولًا قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرةِ.

ملابسات النزول:

وقد نزلت هذه السّورةُ إثرَ فترةٍ طويلةٍ مِن حياة المسلمين بمكّة، فجاءت تحملُ في طيّاتها ما تُثبّت به فؤادَ النّبيِّ ﷺ، وترفعُ مِن معنويّاته، بِذكْرِ طائفةٍ مِنَ الأنبياء، كُذِّبوا قبلَه مِن أقوامهم، مثلما فعلَ أقوامُ نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وأصحابِ مدين، وقومِ موسى، وقد

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 6/ 8.
(2) ابن تيميّة، الفتاوى الكبرى: 15/ 265.
(3) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 189.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 6/ 8.

أخذهم اللّهُ جميعًا أخذَ عزيزٍ مقتدر، فكان نزولُ السّورةِ بعد جوٍّ مشحونٍ، يُمثّل ذروةَ الصّراعِ بينَ الحَقّ والباطل، في مرحلةٍ ساخنةٍ مِن مراحل الدّعوةِ في مكّة.

۞ أسماءُ السّورة الكريمةِ:

سـورةُ (الـحـجّ) لـمْ تُسَمَّ باسمٍ غيرِه في الأثرِ

ليس لهذه السّورةِ إلّا اسمٌ واحدٌ، هو (الحجّ)، سُمّيت به في جميع المصاحف، وكُتبِ التّفسير والسُّنّةِ، وهو اسمُها الثّابتُ رِوايةً وشُهرةً.

وذكروا في وجهُ تسميتها بذلك: أنّ اللّه ذكر فيها كيف أمر إبراهيم ﷺ، بالدّعوة إلى حجّ البيت الحرام، وذكر ما شرع للنّاس يومئذ من النُّسُك؛ تنويهًا بالحجّ وما فيه من فضائل ومنافع، وتقريعًا للّذين يصُدّون المُؤمنين عن المسجد الحرام، وإن كان نُزولُها قبل أن يُفرض الحجُّ على المُسلمين بالاتّفاق، وإنّما فُرض الحجُّ بالآيات الّتي في سورة البقرة، وفي سورة آل عمران(1).

وتسميتها بسورة الحجّ ليس لاختصاصها بذكر هذه الفريضة فيها، فقد شاركتها في ذلك الزّهراوان وزِدْنَ عليها بتقرير الفريضة، وإنّما هو ناشئٌ عنِ ارتباط هذا الاسم بمحورِها ومقصودِها العامِّ، حيثُ إنّها جاءت لتَعْرِضَ أثَرَ الإيمانِ باللّه واليوم الآخر وإقامة شعائر اللّه في العبادات الظاهرية تحقيقًا لهويّة الأُمّةِ المسلمةِ، والتّمكينِ لها في الأرض، مِن بين سائرِ النّاس، لذا فإنّها عرضت لفريضة الحَجّ، في سياقِ بيانِ جزاء مَن كفر باللّه واليوم الآخر، وصَدَّ عن سبيل اللّه، وعنِ المسجد الحرام، الّذي رفع إبراهيمُ ﷺ قواعدَه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 179.

الإيـمـانُ بالله واليوم الآخر هو المَلاذُ الآمِـنُ مِن أهوال السّاعةِ

۞ بيانُ محورِ السّورة العامِّ والموضوعاتِ الّتي تلتفُّ حولَه:

المحورُ الرّئيسُ الّذي عالجتْه السّورةُ، يتعلّق بتقرير أثَرِ الإيمان باللّه واليوم الآخِر، في تحقيقِ التّمكينِ للمؤمنين الذين يقيمون شعائر الدين في الأرض، وقد عملتِ السّورةُ على بيان أحوالِ النّاس ومواقفِهم إزاءَ دعوتِهم؛ لتحقيق هذا الرّكنِ الرّكينِ في حياتِهم، مِن خلال إقامةِ الأدلّةِ في الأنفُس والآفاقِ، على تحقُّقِ هذا الإيمان في نفوسهم، مِن خلال ضربِ الأمثال والتّشبيهاتِ الّتي تُنَفّر مِنَ الكفر باللّه، وإنكارِ البعثِ والمَعاد، ومِن خلال بيان مآلِ المُكَذّبين السّابقين، ثُمّ بيانِ ما ينتظر كلَّ فريقٍ مِنَ النّاس في يوم الحسابِ العظيمِ.

وفي بيان مواقفِ النّاس من هذه الدّعوةِ، وما حلَّ بهم، بيّنت السّورةُ الكريمةُ بعضَ هذه الأصنافِ، بتكرارِ عبارةِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، مُناطَةً بالمُجادَلة بغير عِلْم، واتّباعِ الشّيطان المَريدِ، والمجادلةِ بلا هدًى ولا كتابٍ منيرٍ، وعبادةِ اللّه على حَرْف، مع الاطمئنان بالخير إن حصلَ، والانقلابِ على العَقِبِ عند طُروءِ الفتنة.

وقد ضربتِ السّورةُ الأمثالَ، وأقامتِ الصّورَ البيانيّةَ والتّشبيهاتِ، في حَقّ أصنافِ المكذّبين مِنَ النّاس، بأسلوبٍ تفرّدت به في التّعاملِ مع مَن يَظنُّ أنّ اللّه تعالى لن ينصرَ دينَه ونبيَّه.

وتعرّضتْ للأثرِ الدُّنيويّ لهذا الإيمان باللّه واليوم الآخر، في حياة المؤمنين والكافرين، فقد ظهرَ في عدّةِ مواضعَ منها تتعلّقُ بالكافرين، مِنَ القُرى المُهْلَكةِ، وبالمؤمنين الّذين يُدافِعِ اللّهُ عنهم، ممّن أطاع اللّهَ، وأمرَ بالمعروف ونهَى عنِ المنكر، وفْقَ مُرادِ اللّه تعالى.

وقد خُتِمَتِ السّورةُ الكريمةُ، بذِكْر عواملِ التّمكينِ للمؤمنين، كما تعرّضتْ للأثر الأُخرَويّ لِكلا الفريقَين، بدخول المؤمنين جنّات تجري مِن تحتها الأنهارُ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ

﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: 23]، وتعذيبِ الكافرين بثيابٍ مقطّعةٍ مِنَ النّار، وصبِّ الحميم على رؤوسهم، لتُصْهَر به بطونُهم وجلودُهم، على سبيل تصويرِ شناعةِ العذابِ وقسوتِه.

۞ بيانُ المناسبةِ بينَ السّورةِ وما قبلَها وما بعدَها:

السّورةُ متّصلةٌ بسورتي الأنبياء والمؤمنون مضمونًا وأسلوبًا

جاءت سورةُ الحَجّ في التّرتيب المُصحفيّ بعد سورة الأنبياء، ووجهُ اتّصالهما: أنّه لمّا خُتِمَتِ الأنبياءُ بالتّرهيب مِنَ الفزع الأكبر يومَ الدّين، حيثُ تُطْوَى السّماءُ، ويأتيهم ما يوعدون، ويُدانون بما يَستحقّون، افتُتِحَتِ الحَجّ بالأمر بالتّقوى، المُنجيَةِ مِن هول ذلك اليوم العظيم[1].

ويتجلّى اتّصالُ السّورتيْن المَكيّتَين، في كون الثّانيةِ مكمّلةً للأولى، وخلاصةُ تلك الوجوه، فيما يأتي[2]:

الأوّل: أنّ آخرَ سورةِ الأنبياء كان فى أمر القيامة، حيثُ تُطْوَى السّماءُ طيًّا، ويَقترب الوعدُ الحقُّ، فكان أن صُدّرت سورةُ الحَجّ بالاستدلال على البعث بالبراهين العقليّة.

الثاني: وأنّه قد أُقيمت في سورة الأنبياء الحُجَجُ الطّبيعيّةُ على الوَحدانيّة، فجاء السّياقُ في الحجّ يجعل العِلْمَ الطّبيعيَّ مِن براهين البعث.

الثالث: وأنّ سورةَ الأنبياء مَلأى بقصص النّبيّين، وبراهينِهم لقومهم، فجاءت سورةُ الحَجّ خطابًا مِنَ اللّه للأمم الحاضرة؛ لتنبيهِ السّمع، والتّعريفِ بصُنع اللّه فى أرضه وسمائِه، وتدبيرِه خَلْقَ الأجنّةِ والنّباتِ والحيوان.

وأمّا عنِ ارتباطها بسورة (المؤمنون) بعدَها[3]، فنلخّصُه في ما يأتي:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 1.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 83.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 3.

الأوّل: كونُه تعالى ختمَ السّورةَ السّابقةَ بخطاب المؤمنين، وأمْرِهم بإقام الصّلاة وإيتاءِ الزّكاة، وفعلِ الخيرات، لعلّهم يُفلحون، وحَقّقَ فلاحَهم في بِدْء هذه السّورة.

الثاني: وأنّه تكلّم في كلٍّ مِنَ السّورتين عنِ النّشأةِ الأولى، وجعل ذلك دليلًا على البعث والنّشور.

الثالث: وأنّ في كلٍّ مِنَ السّورتين قَصَصًا للأنبياء الماضين وأُممِهم، ذُكِرت عبرةً للحاضرين والآتين.

الرّابع: وأنّه تعالى نصبَ في كلٍّ مِنَ السّورتين أدلّةً على وجود الخالقِ ووَحْدانيّتِه.

❁ الموضوعاتُ الرّئيسةُ للسّورة:

احتوت هذه السّورةُ على عدد مِنَ الموضوعات، نوجزُها في النّقاطِ الآتيةِ[1]:

أوّلًا: بيانُ أنواعِ النّاسِ في هذه الحياة، وعاقبةِ كلِّ نوع.

ثانيًا: إقامةُ الأدلّة على وحْدانيّةِ اللّه تعالى، وعلى أنّ البعثَ حقٌّ، بأسلوبٍ منطقيٍّ واضحٍ، يُقنِعُ العقولَ، ويَهدي القلوبَ.

ثالثًا: الحديثُ المُفصّلُ عن تعظيم الشعائر، خصوصًا فريضة الحَجّ، وما اشتملت عليه هذه الفريضةُ من منافعَ وآدابٍ وأحكامٍ.

رابعًا: المقارنةُ بين مصيرِ المؤمنين، ومصيرِ الكافرين.

خامسًا: بيان سُنَنِ اللّه في خلقه، الّتي مِن أعظمها: دفاعُه عنِ المؤمنين، ونصرُه لهم، وعدمُ إخلافِ وعْدِه.

❁ الخصائصُ الموضوعيّةُ والأسلوبيّةُ للسّورة:

أولًا: الخصائص الموضوعية:

سورةُ الحجّ تُشْبِهُ في مَطلعها سورةَ النّساء، فقد ذكَّرت سورةُ النّساءِ النّاسَ ببدايةِ خَلْقِهم مِن نفسٍ واحدةٍ، وذَكَّرتهم سورةُ الحجّ بمعادِهم ونهايتِهم، وخُتمت كُلّ سورةٍ منهما بما تكون به التّقوَى[2].

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 269 - 271.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 9/ 476، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 3.

وقدِ امتازت سورةُ الحجّ بكثرة الحديثِ عنِ النّاس، حيثُ وردت لفظةُ (النّاس) نحوَ خمسَ عشرةَ مرّةً[1]، منها أربعُ مرّات بأسلوب النّداء[2]، وتحدّثت عنِ الحجّ وأحكامِه، وعنِ البعث وما يجري فيه، ممّا هو مُرتبطٌ بالنّاس؛ لأنّ موقفَ عرفاتٍ في الحجّ يُذَكّرهم بالبعث، وموقفِ الخلائقِ في صعيدٍ واحدٍ يومَ يقومُ النّاسُ لربّ العالَمين.

وامتازت أيضًا باستعمال أسلوبِ الاستفهامِ التّقريريِّ، في أكثرَ مِن موضعٍ مِن السّورة[3]، وهذا الاستفهامُ جاءَ في معرض تذكيرِ النّاس بآيات اللّه في الأنفسِ والآفاق، للدّلالةِ على اللّه سبحانَه وتعالى وعظمتِه، على سبيل الإلزام بالحُجّة، وانتزاعِ الاعترافِ منه بما يُريدُه المُتكلّمُ، وفي ذلك غرضٌ نفسيٌّ يتوافقُ مع حالِ المخاطَبِ والمُتكلّم.

وامتازتِ السّورةُ بكثرة الأمثلةِ، الّتي لم تُشاركْها فيها سورةٌ أُخرى، وذلك بما يتلاءمُ مع موضوعاتِها الّتي اختصّت بها[4]، كما امتازت بأنّها تحدّثتْ عن خَلْقِ الإنسانِ ومراحلِ تطوُّره بدِقّةٍ متناهيةٍ، وفَصَلت بينَ كلّ مرحلةٍ مِنَ المراحل السّبعِ بحرف (ثمّ)، الّذي أفاد التّراخيَ الرُّتَبيَّ والزّمنيَّ، بما يتلاءمُ مع آفاق العِلْم وروعةِ البيان، ويُميّزُها عن غيرها من آيات الخلقِ في كتاب اللّه في الآية الخامسة منها.

ثانيًا: الخصائص الأسلوبية:

يمتازُ أسلوبُ السّورة - في مجموعه - بالقوّةِ والشّدّةِ والرّهبةِ، والإنذارِ والتّحذير، وغرْسِ التّقوى في القلوب بأسلوبٍ تخشعُ له النّفوسُ، ممّا يَظْهَرُ في كثير مِن آياتها.

وامتازتِ السّورةُ بوجود سَجدتَين، في الآيتين [18، 77] دون بقيّة السّوَرِ، وبكونِ لفظِ ﴿شَعَٰٓئِرَ﴾ [الحج: 32، 36] ذُكِر في السّورة مرّتين، مِن أصل أربعِ مرّاتٍ واردةٍ في القرآن كلِّه[5].

وكذلك ذُكِرت مادّةُ (نَسَكَ) ومشتقّاتُها، ثلاثَ مرّاتٍ في السّورة، من أصل خمسِ مرّاتٍ في القرآن كلّه[6].

---

(1) الآيات: (1، 2، 3، 5، 8، 11، 18، 25، 27، 40، 49، 65، 73، 75، 78).

(2) الآيات: (1، 5، 49، 73).

(3) الآيات: (70، 65، 63، 18).

(4) من أمثلة التّشبيهات الخاصّة بسورة الحجّ: مشهد البعث المُزلزل الرّهيب (الآيات: 2، 1)، ومشهد ذلك المُتزعزع في دينه (الآية: 11)، وحركة مَنْ يَئِس مِن نصر الله (الآية: 15)، ومشهد العذاب (الآية: 22، 19)، ومشهد مَن يُشرك بالله (الآية: 31)، ومشهد القرى المُدمّرة بظُلمها (الآية: 48، 45)، وضَرْبُ المَثلِ بالذّباب (الآية: 73).

(5) الآيات: (البقرة: 158)، (المائدة: 2)، (الحجّ: 32، 36).

(6) الآيات: (البقرة: 196)، (الأنعام: 162)، (الحجّ: 34، 67).

كما انفردتِ السّورةُ بتعابيرَ وتراكيبَ عن غيرها، كقوله تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: 15]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الحج: 18]، وقوله تعالى: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: 52]، وقوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: 52]، وقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ [الحج: 9]، وقوله: ﴿ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ [الحج: 36]، وقوله تعالى: ﴿وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: 36]، وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30]، وغيرِها.

ناهيكَ عن أبنيَةٍ صرفيّةٍ خاصّةٍ بها، ومِن أمثلة الصّيغِ الصّرفيّةِ الخاصّةِ بسورة الحجّ: ﴿حَمۡلٍ﴾ [الحج: 2]، و﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5]، و﴿هَامِدَةٗ﴾ [الحج: 5]، و﴿حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: 11]، و﴿يُصۡهَرُ﴾ [الحج: 20]، و﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾ [الحج: 36]، و﴿صَوَآفَّۖ﴾ [الحج: 36]، و﴿ضَامِرٖ﴾ [الحج: 27]، و﴿عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]، وغيرُها، ولا شكّ أنّ هذه الألفاظَ مرتبطةٌ تمامًا بمحاورِ السّورةِ الفرعيّةِ.

وتضمّنت في فواصلِها اثنين وعشرين اسمًا مِن أسماءِ اللّه الحسنى، مِن نحو: ﴿قَدِيرٌ﴾ [الحج: 6]، ﴿شَهِيدٌ﴾ [الحج: 17]، ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: 24، 64]، ﴿لَقَوِيٌّ﴾ [الحج: 40، 74]، ﴿عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40، 74]، ﴿لَعَلِيمٌ﴾ [الحج: 59]، ﴿حَكِيمٌ﴾ [الحج: 52]، ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: 58]، ﴿حَلِيمٌ﴾ [الحج: 59]، ﴿لَعَفُوٌّ﴾ [الحج: 60]، ﴿غَفُورٌ﴾ [الحج: 60]، ﴿سَمِيعُۢ﴾ [الحج: 61، 75]، ﴿بَصِيرٌ﴾ [الحج: 61، 75]، ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ [الحج: 62]، ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الحج: 62]، ﴿لَطِيفٌ﴾ [الحج: 63]، ﴿خَبِيرٌ﴾ [الحج: 63]، ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ [الحج: 64]، ﴿لَرَءُوفٌ﴾ [الحج: 65]، ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الحج: 65]، ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ [الحج: 78]، ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: 78].

وأنّ هناكَ كلماتٍ مِن أسماء وأفعالٍ، تفرّدت السّورةُ بها في مادّتها، فلم تُذكَر في غيرها ولو بمشتقاتٍ أُخرى.

مِن هذه الأسماء الّتي تفرّدت هذه السّورةُ بها: ﴿وَبِئۡرٖ﴾ [الحج: 45]، و﴿تَفَثَهُمۡ﴾ [الحج: 29]، و﴿صَوَٰمِعُ﴾ [الحج: 40]، و﴿ضَامِرٖ﴾ [الحج: 27]، و﴿عِطۡفِهِۦ﴾ [الحج: 9]، و﴿عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]، و﴿مَّقَٰمِعُ﴾ [الحج: 21]، و﴿هَامِدَةٗ﴾، و﴿ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: 29، 33]، و﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾ [الحج: 17].

ومِن الأفعال: ﴿تَذۡهَلُ﴾، و﴿يَسۡطُونَ﴾ [الحج: 72]، و﴿يَسۡلُبۡهُمُ﴾ [الحج: 73]، و﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ [الحج: 40]، و﴿وَجَبَتۡ﴾ [الحج: 36]، علمًا بأنّ هذه الألفاظَ لها ارتباطٌ بالحديث عن عاقبةِ الكافرين، وأحداثِ السّاعة، وشعيرةِ الحجّ، وآياتِ اللّه الكونيّةِ، وغيرِ ذلك مِنَ الموضوعات الّتي تَصُبُّ في المحور الرّئيسِ لهذه السّورة الكريمةِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾

[الحج: 1]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الــرّبــطُ بين وعيدِ الكافرين بسوءِ المصير والتّخويف بحَدَث السّاعةِ الخطير

بعد أنِ اختُتِمت السّورةُ السّابقةُ بالتّرهيبِ القارعِ مِنَ الفزعِ الأكبرِ، وأنّه لا مندوحةَ مِن إنهاءِ هذه الدّنيا، بما توعّدَ اللّه به البشرَ مِن طيِّ السّماء، وإتيانِ ما يوعَدون، والدّينونةِ بما يَستحقّون، وكان أعظمَ ذلك المتوعّدِ به يومُ الدّين، حيثُ يكونُ الحُكْمُ بالحَقّ للرّحمن، المُستعانِ على كلّ ما سواه، افتُتِحت سورةُ الحَجّ بنداء النّاسِ كافّةً؛ لإخبارِهم بما ينتظرُهم مِن هولٍ عظيم، يجدرُ بهم قبلَه أن يتّقوا ربَّهم المُنعِمَ عليهم بسوانحِ الرّبوبيّة، وكمالِ العطايا العُلْويّة؛ لأنّه تعالى هو الملجأُ الوحيدُ مِن كُلِّ عذابٍ شديدٍ، على اعتبار أنّ التّقوى مُنجيَةٌ مِن هول ذلك اليوم، في إشارةٍ إلى الحذرِ الأكيد، مِن يوم الوعدِ والوعيد، وذلك بأن يَجعلوا بينهم وبينَه وقايةً مِنَ الطّاعات، فهي أكبرُ حمايةٍ، وأضمنُ نجاةٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّاسُ﴾: (أنس) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو ظُهورُ الشَّيْءِ، وكُلُّ شَيْءٍ خالَفَ طَرِيقَةَ التَّوَحُّشِ، قالوا: الإِنْسُ خِلافُ الجِنِّ، وسُمّوا لِظُهورِهِمْ، يُقالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إذا رَأَيْتَهُ، قالَ تعالَى: ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النّساء: 6]، ويُقالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إذا سَمِعْتَهُ، وهَذا مُسْتَعارٌ مِنَ الأَوَّلِ، والأُنْسُ: أُنْسُ الإنْسانِ بِالشَّيْءِ إذا لَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ[2]، والمعنى المحوريُّ الّذي تدورُ حولَه هذه المادّةُ اللّغويّةُ: الأُنْسُ والأُلفةُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 01.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).

كونُ الشّيء في وسَطٍ مُجانسٍ أو مُشاكلٍ له يظهرُ منه: كإنسان العين في وسَطها يُرَى، و(النّاس) اسمُ جمعٍ للإنسان، كقوم ورهطٍ، وأصلُه (أناس) حُذفت همزتُه بعد دخول (ال) عليها لكثرة الاستعمالِ، ثمّ استمرّ الحذفُ بعد حذف (ال)[1]، والمرادُ بالنّاس في الآية جميعُ المكلّفين، مؤمنِهم وكافرِهم، ذكَرِهم وأُنثاهم.

2) ﴿زَلْزَلَةَ﴾: (زل) - المكرّر - أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ فِي الْمُضاعَفِ، وكَذلِكَ فِي كُلِّ زاءٍ بَعْدَها لامٌ في الثُّلاثي، وهَذا مِنْ عَجِيبِ هَذا الأَصْلِ، تَقولُ: زَلَّ عَنْ مَكانِهِ زَلِيلًا وزَلًّا، والماءُ الزُّلالُ: العَذْبُ؛ لِأَنَّهُ يَزِلُّ عَنْ ظَهْرِ اللِّسانِ لِرِقَّتِهِ، والزَّلَّةُ: الخَطَأُ؛ لِأَنَّ الْمُخْطِئَ زَلَّ عَنْ نَهْجِ الصَّوابِ، وتَزَلْزَلَتِ الأَرْضُ: اضْطَرَبَتْ، وزُلْزِلَتْ زِلْزالًا، والمَزَلَّةُ: المَكانُ الدَّحْضُ[2]، والمعنى المحوريُّ: انزلاقٌ عنِ الموضع لاستوائِه مع ملاستِه التّامّة، كما يُزْلَقُ عنِ الحجارة الْمُلْس، ومن كنائيّ ذلك ومجازه: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النّحل: 94]، ومِن المعنى الأصليِّ: "زلزل الشّيءَ: حرّكه شديدًا، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١﴾ [الزّلزلة: 1]، ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾، ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة: 214]: خوفو وحُرِّكوا، ومِنَ الزلزلة: شدّةُ التّحريك، وتكونُ في الأشخاص والأحوالِ[3]، والتَّزَلْزُلُ: الاضطرابُ، وتكريرُ حروف لفظِه تنبيهٌ على تكرير معنى الزّللِ فيه[4]، والمرادُ بزلزلة السّاعةِ ذلك الاضطرابُ الكونيُّ الّذي يكون بين يدي السّاعةِ.

3) ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾: السِّينُ والواوُ والعَيْنُ، يَدُلُّ عَلَى اسْتِمْرارِ الشَّيْءِ ومُضيه، مِنْ ذَلِكَ السّاعَةُ سُمِّيتْ بِذَلِكَ، يُقالُ: جاءَنا بَعْدَ سَوْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وسواعٍ، أيْ: بَعْدَ هَدْءٍ مِنْهُ[5]، والمعنى المحوريُّ الّذي تدورُ حوله مادّةُ: (سوع) أو (سيع)، تسيُّبُ مرورٍ خلالَ أثناءٍ ضامّةٍ بلطفٍ، أي: في غير عنفٍ، ومن هذا المُرور، جاءتِ الدّلالةُ على الامتداد المكانيِّ: السّاعة: البُعْد، ثمّ على الامتداد والمُرورِ الزّمنيّ المَحدودِ، السّاعةُ: جزءٌ من أجزاء اللّيل والنّهار، وأُطلقت على القيامة باعتبارها الأمَدَ أو غاية المُهْلَة الّتي أُمْهِلها النّاسُ على الأرض، ﴿۞إِلَيۡهِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنس).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (زلّ).
(4) الرّاغب، المفردات: (زلّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).

﴿يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ [فصّلت: 47]، وسائرُ ما جاء مِنَ التّركيب من لفظِ (ساعة)، فهو بمعنى القيامةِ(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الاستهلالُ بأمرِ النّاسِ بالتّقوَى توقّيًا لأحداثِ الزّلزلةِ العُظمى

يُنادي اللّهُ المُكلّفين مِنَ النّاس ذكورِهم وإناثِهم، مُؤمنِهم وكافرِهم، مُعاصِرين لنزول الوحيِ أو بعدَه، إلى يوم القيامة، بأنِ اجعلوا لأنفسكم وقايَةً وحمايةً، مِن عذاب ربّكم الشّديدِ، وذلك بالالتزام بما أمركم به، والانزجارِ عمّا نهاكم عنه، مُعلّلًا ذلك بأنّ زلزلة السّاعةِ المُفجعةَ، وأهوالَ يومِ القيامة الواقعةَ، شيءٌ عظيمُ الخطر، مُنبِئٌ عن مَجيءِ الوعد الحقِّ، حيثُ تُحاسبون على أعمالكم، وتُجْزَون عليها، جزاءً وِفاقًا(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ النّداء بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

نداءُ الله تعالى للمؤمنين إنزالٌ للقريب منزلةَ البعيدِ للتّنبيه والتّوكيدِ

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ورد النّداء بـ (يا)، الّتي لم يأت غيرُها مِن أدوات النّداء في القرآن الكريم، وقد قال عنها النّحويّون: إنّها تأتي لنداء البعيد حقيقةً أو حُكمًا، وقد يُنادَى بها القريبُ توكيدًا، وزعم بعضُهم أنّها تستعملُ في نداء القريب والبعيد على حدٍّ سواء(3)، فإذا كانت لنداء البعيد - كما هو الأغلبُ عند النّحويين - فإنّ لاستعمالها في نداء القريب أغراضًا بيانيّةً حريٌّ أن يُتنبَّه إليها، يقول صاحبُ الكشّاف: "و(يا) حرفٌ وُضِع في أصله لنداء البعيد، صوتٌ يهتف به الرّجلُ بمَن يُناديه، وأمّا نداءُ القريب، فله أي والهمزةُ، ثمّ استُعمل في مناداة مَن سها وغفلَ، وإن قَرُب؛ تنزيلًا له منزلةَ مَن بَعُدَ، فإذا نودي به القريبُ المُفاطِن، فذلك للتّأكيد المُؤْذِن

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (سوع).
(2) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1174.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/ 429.

بأنّ الخطاب الّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا، فإن قلتَ: فما بال الدّاعي يقول في جُؤاره: يا ربّ، ويا اللّه، وهو أقربُ إليه مِن حبل الوريد، وأسمَعُ به وأبْصَرُ؟ قلتُ: هو استقصارٌ منه لنفسه، واستبعادٌ لها مِن مظانّ الزُّلفَى، وما يُقرّبُه إلى رضوان اللّه، ومنازلِ المُقرّبين، هضمًا لنفسه وإقرارًا عليها بالتّفريط في جنبِ اللّه، مع فرطِ التّهالك على استجابة دعوتِه، والإذنِ لندائه وابتهالِه"[1]، ونداءُ اللّهِ تعالى للمؤمنين لا يُتصوّرُ فيه إلّا أن يكون مِن إنزال القريبِ منزلةَ البعيد، ليتنبّهوا ولا يَغفلوا، وهو مظهرٌ مِن مظاهر التّوكيدِ، وقد يُقصدُ بهذا النّداءِ التّنبيهُ على أنَّ ما يَعقبُه أمرٌ خطيرٌ يُعتنى بشأنِه[2].

نُكْتَةُ استعمالِ (أيْ):

تأكيدُ المُنادَى؛ مــرَّةً باعتبارِ الأصالةِ وأخرى بالبَدليّةِ أوِ الصّفةِ

هناك توكيدٌ مِن نوعٍ آخرَ في استعمال (أيّ)، الّتي قالوا عنها: إنّها تأتي في حالات محدّدة؛ منها: أن تكون وصلةً لنداء المُعرَّف بـ (أل)[3]، إذ إنّنا لا يصحُّ أن نقول: يا الرّجلُ، بل: يا أيّها الرّجلُ، وعلى هذا فإنّهم يُعربون (أيّ) في قولنا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ على أنّها منادَى مبنيٌّ على الضّمّ في محلّ نصبٍ، ويُعربون: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بعدَها على أنّها بدلٌ منها، أو صفةٌ لها، أو خبرٌ لمبتدأ مرفوعٍ[4]، فهنا مظهرٌ آخرُ مِن مظاهر التّوكيدِ في ذكْرِ المُنادَى مرّتين.

نُكْتَةُ استعمالِ حرفِ التّنبيه في السّياقِ:

التّنبيهُ مُستوعِبٌ لكلّ فئاتِ النّاس؛ لعمومِ إطلاقِه في الأساسِ

هناك مظهرٌ آخرُ مِن مظاهر التّوكيدِ في هذه الجملة، في مَجيء (الهاء) الّتي قالوا عنها: إنّها تأتي للتّنبيه، على أنّها نعتٌ آخرُ للمُنادَى؛ لأنّه هو المقصودُ بالنّداء[5]، والتّنبيهُ لفتٌ للنّظر، وإشعارٌ بأهميّة السّياق

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 121.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 58.
(3) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 92.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 1/ 185 - 186.
(5) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/ 402.

ومضمونه، يَطالُ المُكلّفين مِنَ المخاطَبين بالنّداء، ويُمهّدُ للبدل الّذي يُقصَد بالنّداء مِنَ النّاس جميعًا، حتّى ينتبَه الغافلُ، ويتوبَ النّافرُ، ويتداركَ العاثِرُ، ويؤمنَ الكافرُ، وكلُّ هؤلاء مخاطَبون بالنّداء والتّنبيه.

دلالةُ تتابعِ المؤكّدات في النّداء المَسوق:

غرضُ تتابُعِ المؤكّدات فتحُ القلوبِ لما هو آتٍ

فظهر بذلك أنّ هذا التركيب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قد حُفَّ بسلسلة مِنَ المؤكّدات الّتي تَسترعي عند سماعها، أن تُصغيَ لها بأذنك، وتفتحَ لها قلبَك، وتستعدَّ بعدَها لتلقّي أمرٍ أو نهيٍ مِنَ اللّه سبحانه وتعالى، يقول صاحبُ الكشّاف: "فإنْ قلت: لم كَثُرَ في كتاب اللّه النّداءُ على هذه الطّريقة، ما لم يكثرْ في غيره؟ قلتُ: لاستقلالِه بأوجُهٍ مِنَ التّأكيد، وأسبابٍ مِنَ المبالغة: لأنّ كلّ ما نادى اللّهُ له عبادَه مِن أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجرِه، ووعدِه ووعيدِه، واقتصاصِ أخبار الأُمم الدّارجةِ عليهم، وغيرِ ذلك ممّا أنطقَ به كتابَه أمورٌ عظامٌ، وخطوبٌ جِسامٌ، ومعانٍ عليهم أن يتيقّظوا لها، ويَميلوا بقلوبهم وبصائرِهم إليها، وهم عنها غافلون، فاقتضتِ الحالُ، أن يُنادَوا بالآكدِ الأبلغِ"[1].

بيانُ المقصودين بالنّداءِ في مطلعِ السّورة:

الخطابُ يَعُمّ جميعَ المكلّفين بطريق التّغليبِ

يقولُ الآلوسيُّ عنِ النّداء بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: "خطابٌ يعمُّ حكمُه المُكلّفين عند النّزول، ومَن سينتظمُ في سِلْكِهم بَعْدُ مِنَ الموجودين القاصرين عن رُتبة التّكليف، والحادِثين بعد ذلك إلى يوم القيامة، لكن لا بطريق الحقيقةِ عندنا، بل بطريق التّغليبِ، أو تعميم الحُكم بدليل خارجيّ؛ فإنّ خطابَ المُشافهة، لا يتناولُ من لم يكلَّف بعدُ، وهو خاصٌّ بالمكلّفين الموجودين عند النّزول، ولا خِلافَ في دخول الإناث، والدّخولُ هنا عندنا بطريق التّغليبِ"[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 90.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 106.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

أغلبُ ما يكونُ خطابُ النّاسِ لعمومِ البشرِ مِن كلِّ الأجناس

أفاد تعريفُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا الاستغراقَ لكلّ مَن يصلحُ أن يُطلق عليه لفظُ إنسان، فهو يعمُّ ويستغرقُ كلَّ مَن يصلحُ للتّكليفِ في العُرفِ الشّرعيِّ، وقد أشار ابنُ عبّاس رضي الله عنهما، إلى أنّ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابٌ لأهل مكّة الّذين خالفوا النّبيَّ الأكرمَ ﷺ وناوشوه، وأنّ (يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا)، هو خطابٌ موجّهٌ لأهل المدينة، وهو هنا خطابٌ عامٌّ لسائر المكلّفين.

ويوجَّه قول ابن عبّاس رضي الله عنهما على أنّه أكثريٌّ لا كُلّيٌّ، وعِلّةُ ذلك؛ أنّ البقرة والنّساء والحُجراتِ، سورٌ مَدنيّة وِفاقًا، وقد أورِد في كلٍّ منها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فدلّ ذلك على عدم اطّرادِ القاعدة في هذا المجالِ[1].

نُكْتَةُ المَجَازِ بالحذفِ في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾:

أفادَ الحذفُ هنا التّعميمَ؛ لاتّقاء كلِّ ما يجبُ اتّقاؤه

ليس المرادُ من هذه الجملة ظاهرَها، بأن يجعلوا وقايةً أو حاجزًا بينهم وبين ربّهم، وإنّما المُرادُ: أن يجعلوا حاجزًا بينهم وبين محارمِه، باتّباع أوامرِه واجتناب نواهيه، أو على معنى: أن يتّقوا عذابَه، بأن يجعلوا ما يحول بينَهم وبين عذابِه، أو على معنى: أن يتجنّبوا غضبَه، ولا شكّ أنّ الخِلاف بين هذه الآراء، هو مِنَ اختلاف التّنوّعِ لا التّضادّ، إذ لا مانعَ مِنَ الحَمْل عليها جميعًا؛ فإنّهم إن تَجنَّبوا محارمَه فقد تجَنَّبوا غضبَه، وبالتّالي تجنّبوا عذابَه، ففي الجملة مجازٌ عقليٌّ، بأن يكون أمرُهم باتّقاء اللّه، والمرادُ محارمُه أو غضبُه أو عذابُه، كقوله تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82]، والمرادُ أهلُها، أو يكونُ في الجملة مجازٌ بالحَذْف.

(1) القِنّوجيّ، فتحُ البيان: 1/ 103.

فائدةُ التّعبير بلفظِ ﴿رَبَّكُمۡ﴾ مُضافًا إلى ضمير (هم):

لفظةُ الرّبوبيّة فيها أُنسٌ وتلطّفٌ ورعايةٌ حانيَةٌ بالمخاطَبين

لا شكّ أنّ التّعرّضَ لعنوانِ الرّبوبيّة المُنبِئة عنِ المالكيّةِ والتّربيةِ معَ الإضافةِ إلى ضميرِ المخاطَبين، إنّما هو لتأكيدِ الأمرِ، وتأكيدِ إيجابِ الامتثالِ به، ترهيبًا وترغيبًا، أي: احذروا عقوبةَ مالكِ أمورِكم ومُربّيكم[1]، ولا شكَّ بأنّ لفظةَ الرّبوبيّة تحملُ في طيّاتها معانيَ الإصلاح والعنايةِ والرّعايةِ بهم؛ لأنّ الرّبّ هو السّيّدُ والمُصلِحُ، فإذا أضافه إلى ضميرِ (هم) ازدادتِ العنايةُ بالمخاطَبين؛ لما في إضافته إليهم مِن معاني التّشريفِ والتّكريم.

نُكْتَةُ فصلِ الجملةِ المُصدّرةِ بالمؤكِّد ﴿إِنَّ﴾:

جاءت فاصلةُ الآيةِ جملةً تعليليّةً للأمر بالتّقوَى

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾، فُصلت هذه الجملةُ عن سابقتِها ولم تُعطفْ عليها، إمّا لكمال اتّصالِها بها، لكونها جملةً تعليليّةً للأمر بالتّقوى، فهي "تعليلٌ لموجبِ الأمرِ، بذكرِ بعضِ عقوباته الهائلةِ، فإنَّ ملاحظةَ عِظَمِها وهولِها، وفظاعةِ ما هيَ مِن مباديه ومقدّماتِه مِنَ الأحوالِ والأهوالِ التّي لا مَلْجأ منها سوى التَّدرّعِ بلباسِ التَّقوى، ممّا يوجبُ مزيدَ الاعتناءِ، بملابستِه وملازمتِه لا محالةَ"[2]، وإمّا أن تكون واقعةً موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عن سؤالٍ مقدّر: لماذا نتّقي ربَّنا؟.

دلالةُ تتابعِ المُؤكّدات في السّياقِ:

مِن أعظمِ ما أنكرَ كفرةُ العِبادِ حقيقةُ البعثِ والمعادِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾، أُكّدت هذه الجملةُ بـ﴿إِنَّ﴾، والجملةِ الاسميّة؛ وذلك لأنّ أمرَ السّاعة مِنَ الأُمور الغَيبيّة الّتي يقع فيها التّكذيبُ، لاسيّما وأنّ السّورةَ مكّيّةٌ وتُخاطبُ كفّارَ مكّة الّذين أنكروا أمرَ البعث، فجاءتِ المُؤكّدات في مكانها الأليَقِ بها.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 91.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 91.

دلالةُ لفظِ ﴿زَلۡزَلَةَ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

يُستَعارُ لفظُ (الزّلزلة) لاضطرابِ القلوبِ عند عظائمِ الخُطوبِ

يمكنُ أن تكون الزّلزلةُ على حقيقتها، فتكون عند إشرافِ العالَم الدّنيويِّ على الهلاك، ويمكنُ أن تكون مَجازًا عنِ الأهوال والمُفْزِعات الّتي تحصلُ يومَ القيامة، فتُستَعار الزّلزلةُ لاضطراب القلوبِ، بجامع التّحريكِ والاهتزازِ عند الحدث العظيمِ(1).

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾:

السّاعةُ نهايةٌ تنقلبُ بها الظّواهرُ الكونيّةُ وتبدأ بعدَها الحياةُ الأخرويّةُ

التّعريفُ هنا للعهدِ الذّهنيِّ، أيّ: السّاعةُ التّي تعرفونَها، والأصلُ في معناها: الجُزءُ مِنَ الوقت في اللّيل أوِ النّهار، وعُلِمَ مِن استعمالِ القرآن لها، أنّها تدلُّ على الوقت الّذي تَفنى فيه الدّنيا(2)، والسّاعةُ نهايةُ الحياة الدّنيا، حيثُ يصيبُ السّماءَ الانفطارُ، وتُكَوَّرُ الشّمسُ، وينخسفُ القمرُ، وتنتثرُ النّجومُ والكواكب، ويكونُ مِنَ البلايا والرّزايا ما تتصدعُ له القلوبُ، وتفزعُ منه النّفوسُ، ويشيبُ مِن هوله الوِلْدانُ، ولا ينفعُ حينَئِذٍ سلطانٌ، ولا يُغني عنِ المَرء قوّةٌ ولا عنفوانٌ.

بلاغةُ المَجاز في إضافة الزّلزلةِ إلى السّاعة:

إضافةُ المصدرِ إلى فاعلِه أو مفعولِه مِن فصيح البيانِ

لا تخلو السّاعَةُ مِن أن تكون على تقدير الفاعلةِ للزّلزلة، كأنّها هي الّتي تُزَلزِلُ الأشياءَ، على طريق المَجازِ الحُكميّ، فتكون الزّلزلةُ مصدرًا مضافًا إلى فاعله، أو على تقدير المفعول فيها، على طريقة الاتّساعِ في الظّرف، وإجرائه مجرى المفعولِ به، كقوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33](3)، فعلى المعنى الأوّل: فالسّاعةُ هي التّي تُزَلزِل الأرضَ أوِ النّاسَ، على سبيل المجازِ العقليِّ الحُكميِّ، وعلى المعنى الثّاني: تكونُ الزّلزلةُ قد أُضيفت إلى مفعولِها، وهو السّاعةُ، على اعتبار أنّها زلزلتِ السّاعةَ، فالسّاعةُ مفعولٌ به، وهو مِنَ المجاز

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 187.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 187.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 141.

العقليّ أيضًا؛ لأنّ السّاعةَ لا تُزلزل، إنّما يُزَلْزَل النّاسُ والأرضُ فيها، ويمكنُ أن تكون السّاعةُ مفعولًا فيه، على معنى أنّ الزّلزلة تحدثُ فيها، فهي ظرفُ زمانِها[1].

نُكْتَةُ تنكير لفظِ ﴿شَيۡءٌ﴾:

أمرُ الزّلزلة يوقِعُ في النّفوس خوفًا وترقُّبًا لأهوالِها وذُعرًا

أفاد التّنكيرُ هنا التّهويلَ؛ لتوغّلِه في ذلك الوصف، أي: زلزلةٌ لا يُعرفُ كُنْهُها، بأنّها شيءٌ عظيمٌ[2]، وقد جاءت هذه اللّفظةُ في موضعٍ لا تجدُ فيه كلمةً أُخرى تَسُدّ مكانَها، وكان الشّيخُ عبدُ القاهر الجُرجانيُّ قد تحدّثَ عن لفظةِ ﴿شَيۡءٌ﴾، في أثناء حديثِه عن تحقيق القولِ في البلاغةِ والفصاحةِ، فقال: "إنّ الألفاظَ لا تتفاضلُ مِن حيثُ هي ألفاظٌ مُجرّدةٌ، ولا مِن حيثُ هي كَلِمٌ مُفْرَدةٌ، وإنّ الفضيلةَ وخلافَها، في ملاءمةِ معنى اللّفظةِ لمعنى الّتي تليها، وما أشبهَ ذلك، ممّا لا تعلّقَ له بصريح اللّفظِ[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في وصف الشّيءِ بـ ﴿عَظِيمٌ﴾:

وصفُ الشّيءِ بالعَظَمَة تهويلٌ لزلزلةِ السّاعةِ المُعْلَمَةِ

المعنى المحوريُّ لمادّةِ (عظم): غِلَظُ جَسامةٍ أو صَلابة، كما في عَظَمة السّاعد واللّسانِ، ولعلّه نظرٌ في تسميّة العَظْم إلى أنّه يُبنى عليه اللّحْمُ، أي: العظام، كما قال تعالى: ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾، فيكون اللّفظُ بمعنى اسم الفاعلِ، أو سُمّي لصلابتِه الّتي تجعلُه لا ينقصُ بالغمز، ثمّ استُعمِلت في الضّخامةِ المعنويّةِ، مِن عِظَم الشّأن والأمر، فهو بمعنى الجسامة والضّخامةِ الحسّيّةِ أو المعنويّةِ قدرًا أو أثرًا، ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النّمل: 23]، ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطّلاق: 5]، ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الحجّ: 30][4]، وعلى هذا، فالعظيم هنا استعارةٌ تصريحيّةٌ للشّيء القويِّ الشّديدِ في الشّرّ[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 106 - 107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 187.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 40 - 41.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (عظم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 188.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّلزلةُ والرّجفةُ:

الرّجفةُ أشدُّ ما يكونُ مِنَ الزّلزلة وكلاهما لفظٌ قرآنيٌّ أصيلٌ

الرّجفةُ الزّلزلةُ العظيمةُ، ولهذا يقال: زُلزِلتِ الأرضُ زلزلةً خفيفةً، ولا يقال رجفت إلّا إذا زُلزِلَت زلزلةً شديدةً، وسُمّيت زلزلةُ السّاعة رجفةً لذلك، ومنه الإرجافُ، وهو الإخبار باضطراب أمرِ الرّجلِ، ورجفَ الشّيءُ إذا اضطرب، يقال: رجفت منه، إذا تقلْقَلَتْ[1].

(1) العسكريّ، الفروق في اللّغة، ص: 249.

﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحجّ: 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

فَضّلتِ الآيةُ الكريمةُ المشاهدَ العجيبةَ لانقلابِ حالِ النّاسِ عندَ الزّلزلةِ

هذه الآيةُ مرتبطةٌ تمامَ الارتباطِ بالآية السّابقة؛ لأنّها جاءت لتُبيّنَ عِظَمَ أحداثِ السّاعة الّتي أشارت إليها الآيةُ السّابقة، فالضّميرُ في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾، إمّا أن يعود على الزّلزلةِ المُتحدَّثِ عنها، وإمّا أن يعود إلى السّاعة، فيكون "مِنَ القلاقل والبلابلِ ما تنصدعُ له القلوبُ، وتَجِلُ منه الأفئدةُ، وتشيبُ منه الولدانُ، وتذوب له الصّمُّ الصِّلابُ"[1]، ممّا عبّرت عنه الآيةُ الكريمة، بذهول المُرضعةِ عنِ الرّضيع، ووضع ذاتِ الحَمْل ما في بطنها مِنَ التّرويع، ورؤيةِ النّاسِ كالسُّكارى، وما هم بسُكارى، ولكنّهم في حالةٍ قُصوى مِنَ الهَلَعِ والتّفزيع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَذۡهَلُ﴾: (ذهل) أصلٌ "يدلُّ على شُغْلٍ عن شيءٍ بذُعْرٍ أو غيره، ذَهِلْتُ عنِ الشّيءِ أذْهَلُ، إذا نسيتَه أو شُغِلْت، وأذْهَلَني عنه كذا"[2]، و"الذّهول شُغْلٌ يورِثُ حُزنًا ونسيانًا"[3]، و"الذَّهْل: تركك الشّيءَ، تناساه عن عمد، أو شَغَلَكَ عنه شُغْلٌ، تقول ذَهِلْتُ عنه أو أذهلني كذا عنه"[4]، فدلالةُ اللّفظ تحملُ معنى التّرك، إمّا عمدًا أو غفلةً، أو نسيانًا؛ لشغلٍ أذهب الذّهنَ عن تذكُّره، فالذّهل حالةٌ تصيبُ النّاسَ، فيتركون أهمَّ شاغلٍ لهم، وينصرفون عنه.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 532.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذهل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ذهل).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ذهل).

2) ﴿مُرْضِعَةٍ﴾: (رضع) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو شُرْبُ اللَّبَنِ مِنَ الضَّرْعِ أوِ الثَّدْيِ، تَقولُ: رَضِعَ المَوْلودُ يَرْضَعُ، ويُقالُ: امْرَأَةٌ مُرْضِعٌ، إذا كانَ لَها وَلَدٌ تُرْضِعُهُ، فَإِنْ وصَفْتَها بِإرْضاعِها الوَلَدَ قُلْتَ: مُرْضِعَة[1]، فهذه هي الرّضاعة، ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ [البقرة: 233]، وكلُّ ما جاء مِنَ التّركيب في القرآن فهو بمعنى الرّضاعةِ الحقيقيّةِ، والمُرْضعةُ: التّي تُرضعُ، وجمعُها: (مراضعُ)[2].

3) ﴿حَمْلٍ﴾: (حمل) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إِقْلالِ الشَّيْءِ، يُقالُ: حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَمْلًا، والحَمْلُ: ما كانَ في بَطْنٍ أَوْ عَلَى رَأْسِ شَجَرٍ، يُقالُ: امْرَأَةٌ حامِلٌ وحامِلَةٌ، فَمَنْ قالَ حامِلٌ، قالَ: هَذا نَعْتٌ لا يَكونُ إلّا لِلْإِناثِ، والحِمْلُ: ما كان على ظَهْرٍ أو رَأْسٍ[3]، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ المرأةُ الحاملُ؛ لأنّها جاءت في مقابلِ المُرضعةِ.

4) ﴿سُكَٰرَىٰ﴾: جمع سَكْرانٍ، و(سكر) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ، مِنْ ذَلِكَ السُّكْرُ مِنَ الشَّرابِ، يُقالُ: سَكِرَ سُكْرًا، ورَجُلٌ سِكّيرٌ، أَيْ: كَثيرُ السُّكْرِ، والتَّسْكيرُ: التَّحْييرُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ [الحجر: 15]، والسَّكْرُ: حَبْسُ الماءِ، والماءُ إذا سُكِرَ تَحَيَّرَ[4]، وقال الرّاغب: السُّكْرُ: حالة تعرّض بيتَ المرءِ وعقلَه، وأكثرُ ما يُستعملُ ذلك في الشّراب، وقد يعتري مِنَ الغضب والعشقِ[5]، والمرادُ بـ ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ في الآية: شدّةُ الذّهول الّذي يَذْهبُ بالعقول؛ لعظَمِ الموقفِ وأهوالِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يوم تَرون آثارَ هذه الزّلزلة العُظمى، تَنْسَى كلُّ أُمٍّ تُرضِع ولدَها، أنّه في حِجرها، وأنّ ثديَها في فمه، وتغفلُ عنه غفلةً تامّةً، لشدّةِ ما أصابَها مِنَ الرّعب والفَزَعِ والذّهولِ مِن أهوالها، وتتحلّلُ عضلاتُ الإمساكِ في أرحام الأُمّهاتِ، فلا تستطيعُ الحفاظَ على أجنّتِها، فتنحدرُ تلك الأجِنَّةُ دون إرادةٍ مِن أُمّهاتِها، وترى النّاسَ مِن قوة الهولِ والفَزَعِ كأنّهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رضع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكر).
(5) الرّاغب، المفردات: (سكر).

سُكارَى مِن شدّة الذّهولِ والهَذيان، وليسوا سكارَى على الحقيقةِ، ولكنّ عذابَ الله يومئذٍ شديدٌ ومَهولٌ[1].

أهوالُ السّاعةِ غيّرتْ نواميسَ الكونِ المألوفةَ بما يُذْهِلُ ويُشغلُ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصْلِ الآيةِ عن سابقتِها:

تُرك عطفُ هذه الآية على سابقتها، إمّا لكمال اتّصالِها بها؛ لأنّها مبيّنةٌ ومُفسّرةٌ لها، وفي ذلك يقول ابنُ عاشور: "جملةُ: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ﴾، بيانٌ لجملةِ: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾؛ لأنّ ما ذُكر في هذه الجملة، يُبيّنُ معنى كونِها شيئًا عظيمًا، وهو أنّه عظيمٌ في الشَّرِّ والرُّعبِ"[2]، وقد يكون سببُ فصْلِها عنها أنّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ مُقدّرٍ: وماذا يحدثُ عند هذه الزّلزلة؟ على سبيل الاستئنافِ البيانيِّ، أو ما يُسمّى: شبْهَ كمال الاتّصالِ.

التّمثيلُ لأهوالِ السّاعةِ العجيبةِ بثلاثةِ مشاهدَ عجيبةٍ

دلالةُ موقعِ ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا﴾ في السّياقِ:

يقولُ الرّازيُّ عن موقع ﴿يَوۡمَ﴾ الإعرابيِّ: "مَنْصوبٌ بِـ ﴿تَذۡهَلُ﴾، أي: تَذْهَلُ في ذَلِكَ اليَوْمِ"[3]، ويمكن أن يكون ﴿يَوۡمَ﴾ منصوبًا بإضمار الفعل (اذكر)، أو أن يكون بدلًا مِنَ الزّلزلة، وعلى كلّ الأحوال تكون جملةُ: ﴿تَذۡهَلُ﴾، حالًا مِن ضمير المفعول[4].

تتعدّدُ الوجوهُ الإعرابيّةُ بحسبِ تنوّعِ المعاني

عوْدُ الضّمائرِ في قوله: ﴿تَرَوۡنَهَا﴾:

قد يعودُ الضّمير في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ إلى معنيَين؛ أوّلُهما: الزّلزلةُ، وثانيهما: يمكنُ أن يعود الضّميرُ إلى السّاعة، وضميرُ الخطاب هنا، هو لكلِّ مَن تتأتّى منه رؤيةُ تلك الزّلزلة بالإمكان[5]، "فعلى الأوّلِ يكونُ الذُّهولُ والوَضْعُ حقيقةً؛ لأنّه في الدّنيا، وعلى الثّاني: يكونُ

قيامُ السّاعةِ هولٌ في الدّنيا ومَلمحٌ للمَصير في الآخرة

---

(1) مجموعة من الباحثين، التّفسير الوسيط: 6/ 1175.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 188.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 201.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 108.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 201، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 188.

على سبيلِ التّعظيم والتّهويل، وأنّها بهذه الحيثيّةِ، إذِ المرادُ بالسّاعةِ القيامةُ، وهو كقولِه: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [المزّمّل: 17]"[1].

بلاغةُ الرّؤيةِ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الرّؤيةُ إمّا إدراكٌ بالبصيرة أو مشاهدةٌ بالعين الباصرةِ

قد تكون الرّؤيةُ هنا بمعنى الإدراك والعلم؛ لأنّ الزّلزلة تُسمعُ ولا تُرى، وأمّا إذا عاد الضّميرُ إلى السّاعة، فالرّؤيةُ هنا بصريّةٌ، وتعني: مشاهدةَ ما يحدثُ فيها مِنَ المَرئيّات، مِن حضور النّاسِ للحشر، ومُشاهدةِ أحوال العذابِ، وقرينةُ ذلك قولُه: ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ﴾.

فائدةُ التّعبير بالفعلِ المضارعِ في ﴿تَرَوۡنَهَا﴾:

تشخيصُ الفعلِ للمشهدِ من فصيح البيانِ

دلّ الفعلُ المضارع في هذا السّياقِ العجيبِ، على استحضار الصّورةِ أمامَ المشاهدِ كأنّها رأيُ عينٍ، والتّصويرُ لهذا المشهد العظيم يكاد يأخذُ بالأبصار، ويخلعُ القلوبَ مِنَ الصّدور، ويهدُّ كيانَ الإنسان الذّاهلِ، المشحونِ بالرّعب والارتجافِ والذّهولِ.

فائدةُ تقديم ﴿يَوۡمَ﴾ على عاملِه:

الظّرفُ المقدّمُ ذو أثرٍ في الاهتمام بزمنِ الوقوع

تقديمُ الظّرف على عامله ﴿تَذۡهَلُ﴾ هنا للاهتمام بالتّوقيت بذلك اليوم، وتوقّعِ رؤيتِه لكلّ مُخاطَبٍ مِنَ النّاس، وأصل نظْم الجملة: (تذهل كلُّ مرضعة عمّا أرضعت، يومَ ترونَ زلزلةَ السّاعة)[2]، وغفلةُ المُرضعة عن وليدها الّذي تتعلّق به بالفطرةِ، وتحميه مِن كلّ أذًى بالغريزة، وربّما فَدَتْه بنفسها عند الخيار، لكنّها لهول الموقف، وزلزلةِ الكون، كان المشهدُ أقوى مِنَ العاطفةِ والفطرةِ والغريزةِ، فَذَهِلَت المُرضعةُ عن رضيعها.

نُكْتَةُ التّعبير بالفعلِ ﴿تَذۡهَلُ﴾ مادّةً وصيغةً:

الفعلُ (تَذْهَلُ) من فرائدِ سورة الحجّ ولم يرد في سواها

دلالةُ هذا اللّفظِ الفريد في القرآن الكريم، في مادّته وصيغته، تحملُ معنى التّرك، إمّا عمدًا، أو غفلةً، أو نسيانًا؛ لشُغْلٍ أذهبَ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 188.

الذّهنَ عن تَذَكّره، على معنى: يومَ تشهدون قيامَ السّاعة، تنشغل الوالدةُ عن رضيعَها الّذي ألقمتْه ثدْيَها؛ مِن شِدّة الكَرب، وتُسْقِطُ الحاملُ حملَها مِنَ الفزع، وتغيبُ عقولُ النّاس، فهم سُكارى مِن هول المنظر وفَزَعِه، وليسوا بسُكارى مِنَ الخمر، ولكنّ شدّةَ العذاب أفقدتْهم عقولَهم وإدراكَهم.

فجاء اللّفظُ يحملُ دلالةَ تركِ شيءٍ مهمٍّ، لانشغال النّفْس بشيءٍ أهمَّ، وسُلوِّها عمّا تألفُه، وكانت دلالةُ مادّتِه وصوتِه وبنائِه الصّرفيّ، على المضارع الّذي أفاد استحضارَ الصّورةِ أمامَ القارىء، تشخّصُ للسّامع صورةً حيّةً مِنِ انعدام الإدراك للشّيء، مِن هول ما ترى، وعِظَم ما تشهدُ.

بلاغةُ الكنايةِ في التّعبير عن هولِ الموقف:

شِـدّةُ المـوقـفِ وهـولُـه تُشغلُ المـرضـعـةَ عن رضيعِها وصَونِه

تحصّلَ مِن هذه الكناية في قوله: ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾، دلالةٌ على جميع لوازم شدّةِ الهول، وليس يلزمُ في الكنايةِ أن يُصرّحَ بجميع اللّوازم؛ لأنّ دلالةَ الكناية عقليّةٌ وليست لفظيّةً، والمُرادُ: أَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ لِكُلِّ مُرْضَعَةٍ مَوْجودَةٍ في آخرِ أيّامِ الدُّنْيا، فالمَعْنَى الحَقيقي مُرادٌ، فَلَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكونَ الإِرْضاعُ واقِعًا، فَأُطْلِقَ ذُهولُ المُرْضِعِ وذاتِ الحَمْلِ، وأُريدَ ذُهولُ كُلِّ ذي عَلَقٍ نَفيسٍ عَنْ عَلَقِه، عَلَى طَريقَةِ الكِنايَةِ[1].

نُكْتَةُ الكنايةِ في التّعبير بـ ﴿كُلُّ﴾ في السّياق:

الـفَـزَعِ المُـزَلـزِلُ يُذْهِلُ المُرضعةَ عــن رضيـعِـهـا ناهيكَ عن غيرِها

زيادَةُ كَلِمَةِ ﴿كُلُّ﴾، للدّلالَةِ على أنَّ هَذا الذُّهولَ يَعتَري كُلَّ مُرضِع، ولَيسَ هو لِبَعضِ المَراضِعِ، باحتِمالِ ضَعف في ذاكِرَتِها، ثمّ تَقتَضي هَذِهِ الكِنايَةُ كِنايَةً عَن تَعميم هَذا الهَولِ لِكُلِّ النّاسِ؛ لِأَنَّ خُصوصية هذا المعنى بِهَذا المَقام أنَّهُ أظهَرُ في تَصويرِ حالَةِ الفَزَعِ والهَلَعِ، بِحَيثُ يَذهَلُ فيهِ مَن هو في حالِ شِدَّةِ التَّيَقُّظِ؛ لِوَفرَةِ دَواعي اليَقَظَة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 189_190.

وذَلِكَ أنَّ المَرأةَ لِشِدَّةِ شَفَقَتِها كَثيرَةُ الاستِحضارِ لِما تُشفِقُ عَلَيه، وأنَّ المُرضِعَ أشَدُّ النِّساءِ شَفَقَةً على رَضيعِها، وأنَّها في حالِ مُلابَسَةِ الإرضاعِ أبعَدُ شَيءٍ عنِ الذُّهولِ، فَإذا ذَهِلَت عَن رَضيعِها في هَذِهِ الأحوالِ، دَلَّ ذَلِكَ على أنَّ الهَولَ العارِضَ لَها هَولٌ خارِقٌ لِلعادَةِ، وهَذا مِن بَديعِ الكِنايَةِ عَن شِدَّةِ ذَلِكَ الهَولِ؛ لِأنَّ استِلزامَ ذُهولِ المُرضِعِ عَن رَضيعِها لِشِدَّةِ الهَولِ، يَستَلزِمُ شِدَّةَ الهَولِ لِغَيرِها بِطَريقِ الأولَى، فَهو لُزومٌ بِدَرَجَة ثانية، وهَذا النَّوعُ مِنَ الكِنايَةِ يُسَمَّى الإيماءَ(1).

علّةُ التّعبير بتاءِ التّأنيث في قوله: ﴿مُرۡضِعَةٍ﴾:

التَحَقَتْ هاءُ التَّأْنيثِ بِوَصْفِ ﴿مُرۡضِعَةٍ﴾؛ للدّلالَة على تَقريب الوَصف من مَعنَى الفعل، فَإنَّ الفعلَ الَّذي لا يوصَفُ بحَدَثه غيرُ المَرأة، تَلحَقُهُ عَلامَةُ التَّأنيث؛ ليفادَ بهَذا التَّقريب أنَّها في حالَة التَّلَبُّس بالإرضاع، كَما يُقالُ: هي تُرضِعُ، ولَولا هَذه النُّكتَةُ لَكانَ مُقتَضَى الظّاهر أن يُقالَ: كُلُّ مُرضِع؛ لأنَّ هَذا الوَصفَ من خَصائص الأُنثَى، فَلا يُحتاجُ مَعَهُ إلى الهاء، الَّتي أصلُ وضعها للفرق بَينَ المُؤَنَّث والمُذَكّر، خيفَةَ اللَّبس، وهَذا من دَقائق مَسائل نُحاة الكوفَة، وقَد تَلَقّاها الجَميعُ بالقَبول(2)، ونَظَمَها ابنُ مالك في أُرجوزَته (الكافية) بقَوله(3):

وَما مِنَ الصِّفاتِ بِالأُنْثَى يُخَصّْ***عَنْ تاءِ اسْتَغْنَى لِأَنَّ اللَّفْظَ نَصّْ
وَحَيْثُ مَعْنَى الفِعْلِ تَنْوِي التّاءَ زِدْ***كَذي غَدَتْ مُرْضِعَةً طِفْلًا وُلِدْ

ففي التّعبيرِ بالمُرضعة مبالغةٌ في التّنبيه على شدّة أهوالِ يوم القيامة، وتخصيصُها بالذّكر؛ لأنّها أشفقُ على ولدها(4).

نُكْتَةُ التّعبيرِ باسمِ الفاعل في قولِه: ﴿مُرۡضِعَةٍ﴾:

جاء النّظمُ الكريمُ باسم الفاعلِ لفعل الإرضاع؛ ليَدُلَّ على كثرة

انشغالُ المُرضعةِ عن رضيعِها لهولِ الموقفِ أدلُّ على انشغال غيرِها

اسمُ الفاعل يدلُّ على تمكّن الفعلِ من صاحبِه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 189_190.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 189_190.
(3) ابن مالك، شرح الكافية الشّافية: 4/ 1732.
(4) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 308.

إرضاعِها لطفلها، حتّى بات هذا الفعلُ اسمًا لها، فاسمُ الفاعل يدلُّ على تمكّن الفعلِ مِنَ الفاعل، وهذا يدلُّ على مدى حرصِها عليه، وعلى إرضاعِه، وأنّها لا يمكنُ أن تترك إرضاعَه إلّا لأمرٍ جَلَلٍ.

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾:

معنى (ما) في السّياقِ بحسبِ المعاني المُحتملةِ

(ما) هنا إمّا موصولةٌ بمعنى (الّذي)، والعائدُ محذوف؛ لأنّه ضميرٌ متّصلٌ منصوب بفعلٍ، ويكثر حذفُه، والتّقديرُ: (عن الّذي أرضعتْه)، وهو الأولى؛ لأنّه يَدُلّ على المبالغة في ذهولِها عن شيءٍ هو نُصْبُ عينيها، وهي في عملٍ متعلّقٍ به[1]، وإمّا أن تكون (ما) مصدريّةً، يقول أبو السّعود: "والتّعبيرُ عنه بما دونَ (مَنْ) لتأكيدِ الذّهولِ، وكونِه بحيثُ لا يخطرُ ببالِها أنَّه ماذا، لا أنّها تعرف شيئيَّتَه، لكن لا تدري مَن هو بخصوصه، وقيل: ما مصدريّةٌ، أي: تذهلُ عنْ إرضاعِها، والأوّلُ أدَلُّ على شِدّةِ الهولِ وكمالِ الانزعاج"[2].

نُكْتَةُ العُدولِ عنِ الفعل المضارع إلى الماضي:

انتقاءُ الصّيغةِ المناسبةِ للدّلالة مِن بليغِ الاستعمالِ

في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾، عدلَ السّياقُ الكريمُ عن قوله: (عَمّا تُرْضِعُ)، إلى الفعل الماضي؛ ليشير إلى أنّ تركَ إرضاعِها له حَدَثَ وانتهى مِن لحظة أن رأت زلزلةَ السّاعة، وهذا أشدُّ وصفًا للتّرك مِنَ الفعل المضارع، ويكون المعنى: (تذهلُ ناسيةً طفلَها الّذي أرضعتْه، وغذّتْه من لبنها الّذي هو قطعةٌ منها)، وكأنّها في هذا الحزن الدّاهم تنسى نفسَها، أو قطعةً مِن ذاتها[3].

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ الإرضاع:

أثرُ الحذفِ في السّياقِ مظهرٌ لبيانِه ودلالتِه

في قوله تعالى: ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ حُذف المفعولُ، والتّقدير: (عمّا أرضعته)، وحُذِف العائدُ إيجازًا للعِلْم به، وليَعُمّ وليدَها وغيرَه، فقد تكونُ مرضعةً لغير وليدها، والإرضاعُ شاغلٌ عن كلّ شيء سواه؛

(1) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 308.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 92.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4938.

نظرًا لشُبوبِ عاطفة الأمومةِ، واتّصالِ التّشبّث بالوليد الرّضيع، فلمّا كان الذّهولُ عنه، دلّ ذلك على أنّ الحدث كان عظيمًا، وهو مدمِّرٌ للحياة الدّنيا، وناقلٌ للنّاس إلى حياة أُخرى أعظمَ وأبقى.

نُكْتَةُ العطفِ في جملة ﴿وَتَضَعُ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، هو من عطف الأهوال على الأهوال، وهذه الحالة أشدُّ من سابقتِها؛ لأنّها تتعلّق بحالةِ انفصالٍ أشدَّ مِنَ السّابق، هو بين الأمّ وجنينِها.

بلاغةُ الكنايةِ في وضع ذاتِ الحَمْل حَمْلَها:

تقديمُ هولِ قيامِ السّاعةِ المُريعةِ بعبارةٍ دقيقةٍ بديعةٍ

جملة: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، كنايةٌ عن شِدّة الاضطراب، وهولِ السّاعة؛ لأنّ الحملَ يكونُ محفوظًا في قرارٍ مكين، فإذا وضعتْه أُمُّه، فإنّما وضعتْه من شدّة الأهوالِ والخوف الّذي لاقته.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَتَضَعُ﴾ والتّأكيدِ بـ﴿كُلُّ﴾:

التّعبيرُ بالأفعالِ المضارعةِ يفيدُ تصويرَ المشهدِ بجلاءٍ

وقد أفاد التّعبيرُ بالفعل المضارع هنا، استحضارَ الصّورةِ للقارئ، في مشهدٍ حيٍّ أمامَه، وأفاد التّوكيدُ بـ﴿كُلُّ﴾ شُمولَ كلّ حاملٍ بهذا الوضع القسريِّ، فليس لبعضهنّ دون بعضٍ، وهذا أبلغُ في تصوير الكنايةِ عن شِدّة الفَزَع والهَلَع، بحيثُ تضعُ فيه كلُّ ذات حملٍ حملَها، مع حرصِها عليه، ومع كونِه في قرارٍ مكين.

دلالةُ التّعبير بقوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾:

شِدّةُ الموقفِ أوجبتِ الانفصالَ رغمَ ما بين الحاملِ وحَمْلِها مِنَ الاتّصال

لم يأت لفظُ الآية: (وَتَضَعُ كُلُّ حامِلٍ حَمْلَها)، كما قال عن المُرضعة، وإنّما عبَّر بقوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ أي: صاحبةُ حَمْل، وفي ذلك يقول الرّازيّ: "والمَعْنَى: أنّها تُسْقِطُ ولَدَها لِتَمامٍ أوْ لِغَيْرِ تَمامٍ، مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ اليَوْمِ"[1]، فالحاملُ قد يكون حملُها حديثًا أو قديمًا، فالحَمْلُ يمكثُ تسعةَ أشهر في رحمِها، فقوله: ﴿ذَاتِ حَمْلٍ﴾ يشملُ هذا كلَّه، أي: كلَّ ما يصِحُّ أن يكون حملًا، سواء أكان صغيرًا أم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 201.

كبيرًا، فضلًا عن أنّ قوله: ﴿ذَاتِ حَمۡلٍ﴾ يشملُ كلَّ ما يمكنُ أن تحملَه في بطنها أو في غيره، وقد جرتِ العادةُ بأن يُقال: امرأةٌ ذاتُ حمل، دون حامل، كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ [الطلاق: 4]، مع ما في هذه الإضافة مِنَ التّنبيه على شِدّة اتّصال الحمل بالحامل، فيدلُّ على أنّ وضعها إيّاه إنّما كان لسببٍ مُفظع.

نُكْتَةُ التعبير بالمصدر: ﴿حَمۡلَهَا﴾ وإضافته:

يضافُ المحمولُ لأُمّه؛ لالتصاقِه بها

وعبّر بالمصدر: ﴿حَمۡلٍ﴾ عنِ الاسم المفعول (محمول)؛ لأنّ الوصفَ بالمصدر أبلغُ[1]، وفي قوله: ﴿حَمۡلَهَا﴾ أضاف المحمولَ لأمّه الّتي حملته؛ لأنّ الحملَ مُلتصقٌ بها، لا يفارقُها إلّا لأمر جَلَلٍ، وكان الذّهولُ عنِ الحَمْل بفعلٍ "مِنَ الرّهبة والفَزَع، فالحَبالَى ينزل حملهُنّ مِنَ الفَزَع قبلَ ميعاد وضعِه، أو تضعُه على الرّغم منها لفزعها واضطرابِها، وكأنّ هذه الزّلزلةَ تُزَلزلُ الجسمَ، وتزلزلُ النّفسَ"[2].

نُكْتَةُ عطفِ جملةِ ﴿وَتَرَى﴾:

رؤيةُ الفزعةِ العامّةِ تُنبئ بهول الحَدَثِ الّذي أسكرَ بلا مُسْكِرٍ

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، هذه هي الحالةُ المُفْزِعةُ الثّالثةُ التّي ذكرتها الآيةُ، وهي حالةٌ أشدُّ مِن سابقتَيْها؛ لأنّها لا تتعلّق بحالة فرديّةٍ، إنّما بحالة جمْعيّةٍ تَعُمّ جميعَ النّاس، لذلك فترتيبُ هذه الأحوالِ، ارتقى تصاعديًّا في الشِّدّة مِنَ الأقلّ فزعًا إلى الأشدّ.

غرضُ التّعبير بالمضارع في قوله: ﴿وَتَرَى﴾:

الصّورةُ المُعَبَّرُ عنها في السّياقِ مُستبشَعةٌ في كلّ زمانٍ

أفاد التّعبيرُ بالفعل المضارع استحضارَ صورةِ المَشهد المُفظع، لما يجري في ذلك اليوم، كأنّه يجري الآن أمامَ القارئ، حتّى يستحضرَ صورتَه وخلاصةَ المشهد، كما يراه المخاطَبُ، أنّ النّاس لذُهولِهم ونسيانِهم لأنفسهم، قد شُبِّهوا بالسُّكارى، فهم في غفلة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 191.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4939.

سادرون، دونَ وعيٍ ولا رُشدٍ، كالسُّكارى المُفْرِطين في السُّكر، وإن لم يكونوا قد تناولوا مُسْكرًا، كما هو دأبُ أصحابِ هذا البلاءِ، مِنَ المُعتادين للسُّكْر[1].

نُكْتَةُ العُدولِ عن ﴿تَرَوْنَهَا﴾ إلى ﴿وَتَرَى﴾:

هولُ الفَزَعِ يومَ القيامةِ لا يكادُ يَخْفَى على أحد

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، الخطابُ في ﴿وَتَرَى﴾ هنا كما هوفي المرّة الأولى لغير معيَّن، بل هو لكلّ مَن يَصْلُحُ للخِطاب، وقال بعضُهم: إنّ سبب إفرادِ الضّمير هنا هو التّفنّنُ؛ كراهةَ إعادةِ الجَمْع[2]، لكنّه في الحقيقة تعليلٌ غيرُ كافٍ، يقول الزّمخشريّ: "فإن قلتَ: لم قيل أوّلًا: ترون، ثمّ قيل: ترى، على الإفراد؟ قلتُ: لأنّ الرّؤية أوّلًا عُلّقَت بالزّلزلة، فجعلَ النّاسَ جميعًا رائين لها، وهي معلّقة أخيرًا، بكون النّاس على حال السُّكر، فلا بدّ أن يجعل كلّ واحد منهم رائيًا لسائرِهم"[3]، وأضاف أبو السّعود: "فإنَّ المرادَ بيانُ تأثيرِ الزَّلزلةِ في المَرئيِّ لا في الرّائي، باختلافِ مشاعرِه؛ لأنَّ مدارَه حيثيّةُ رؤيتِه للزّلزلةِ لا لغيرِها، كأنَّه قيلَ: ويصيرُ النّاسُ سُكارى الخ، وإنّما أوثِرَ عليهِ ما في التّنزيلِ للإيذانِ بكمالِ ظهورِ تلك الحالةِ فيهم، وبلوغِها مِنَ الجلاءِ إلى حَدٍّ لا يَكادُ يخفى على أحد[4].

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

هولُ قيامِ السّاعةِ عامٌّ ومُطبقٌ لا فِرارَ لأحدٍ منه

تعريفُ النّاس هنا قد يُفيدُ الاستغراقَ؛ لبيان أنّ هذا الحالَ عامٌّ وطامٌّ في النّاس كلِّهم، لا ينجو مِن هذا الوصف أحدٌ، ويمكنُ حملُه على العهد الذّهنيِّ، على معنى: (وترى النّاسَ الّذين تعرفُهم وتعيشُ بينهم وحالُهم كذلك).

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4939 (بتصرّف).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 191.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 143.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 92.

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لقوله: ﴿ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾:

المَلْمحُ الإعرابيُّ يتحدّدُ به تأويلُ الرّؤيةِ في السّياق

لفظةُ: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مفعولُ الرّؤية؛ لأنّها رؤيةٌ بصريّةٌ، تكتفي بمفعولٍ واحدٍ، و﴿سُكَٰرَىٰ﴾ حالٌ منصوبةٌ، وإذا كانتِ الرّؤيةُ قلبيّةً بمعنى الظّنّ، تكونُ ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ مفعولًا ثانيًا للرّؤية[1].

نُكْتَةُ توجيهِ القراءاتِ في لفظَيْ ﴿سُكَٰرَىٰ﴾:

تنوّعُ الدّلالةِ مع تنوّعِ القراءةِ من فصيحِ البيانِ

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَف: بفتح السّين وإسكان الكاف من غير ألف ﴿سَكْرَىٰ﴾ على وزن فَعْلَى، مثل: عَطْشَى وجَوْعَى؛ إجراءً للسُّكْر مَجْرى العِلل، فَحُجّة مَنِ اختار ﴿سَكْرَىٰ﴾، قالَ: لأنّ السُّكْرَ آفَةٌ داخلةٌ على الإنسان، كالمَرض والهَلاك، فقالوا سَكرى مثل هَلْكَى، وقَرأ الباقون: بضمّ السّين وفتح الكاف بعدها ألف ﴿سُكَٰرَىٰ﴾ جمع سكران[2]، ولا شكّ أنّ كِلا القراءتَيْن أفادتا تمكّنَ التّشبيهِ فيهم، والفرقُ بينهما: أنّ ﴿سَكْرَىٰ﴾ مشترك بين الجَمْع وبينَ الوصف للمفرد، وقد يُراد بها التّركيزُ على الوصف، كما يقال: (مواقفُ كبرى)، و﴿سُكَٰرَىٰ﴾: فيها تركيزٌ على الكثرة؛ لأنّها خاصّةٌ بالجمع.

بلاغةُ التّشبيه البليغِ في حالة الرّؤيةِ القلبيّةِ:

تشبيهُ حالِ النّاس عند قيامِ السّاعة بحالٍ واقعيّةٍ يعرفونَها

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾، إذا كانتِ الرّؤيةُ هنا بصريّةً فلا تشبيهَ، وإذا كانت قلبيّةً بمعنى الظّنّ، فقد شبّهتِ الآيةُ حالَ النّاس بحال السُّكارى، بجامع اضطرابِ أحوالِهم وعدم استقرارِها؛ لشدّة الاضطرابِ والفزع مِن هولِ ما رأوا، وقرينةُ التّشبيه قولُه بعدَها: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، والمَعْنَى: وتَراهُمْ سُكارَى على التَّشْبيهِ، وما هُمْ بِسُكارَى على التَّحْقيقِ[3]، فحُذفت أداةُ التّشبيه ووجهُ الشّبه، وهذا ما يُسمّى بالتّشبيه البليغ عند المُحقّقين من أهل البلاغة[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 109.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع، ص: 280، وابن الجزري، النشر: 2/ 325، وقمحاوي، طلائع البشر، ص: 332، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 92.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 201.

(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 231.

دلالةُ الواو على الحال في الآية:

اختيارُ جُملة الحالِ لوصف عِظَمِ الحالِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، الواو هنا حاليّةٌ، على معنى: والحالُ أنّهم ليسوا كذلك، والجملةُ بعدَها في محلّ نصبٍ على الحال، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ إذا كانت الجملةُ السّابقةُ على التّشبيه؛ لأنّها جملةٌ اسميّةٌ اقترنت بالواو[1].

بلاغةُ التّوكيدِ في سياقِ نفْيِ الجملةِ الاسميّةِ:

نفَى السُّكْرَ عنهم وأثبتَه لغيرِهم؛ لتجليةِ الصّورة

تقدّم النّفيُ هنا على المُسنَد إليه والمسندِ الفعليِّ، وهذه الحالة تُفيد التّخصيصَ عند أهل المعاني، أي: إنّه نفَى السُّكْرَ عنهم، وأثبتَه لغيرهم، فضلًا عنِ اقتران الخبرِ بالباء الَّتي يكثر وقوعُها في خبر (ما) العاملةِ عملَ (ليس)، وهي مفيدةٌ للتّأكيد أيضًا.

دلالةُ الواوِ في جملة توصيفِ عذابِ الله:

مَن تعرّضَ لعذابِ الله فإنّ عذابَ الله شديدٌ

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، أفادتِ الواو هنا معنى الاستدراك، على قوله: ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾، "كأنّه تعليلٌ لإثبات السُّكْرِ المجازيِّ، كأنّه قيل: إذا لم يكونوا سُكارَى مِنَ الخَمر، وهو السُّكْرُ المعهودُ، فما هذا السُّكْرُ الغريبُ؟ وما سببُه؟ فقال: سببُه شِدّةُ عذابِ اللّه تعالى"[2].

نُكْتَةُ إضافةِ العذابِ للفظِ الجلالة:

مَن لم يُدرك عِظَمَ عذاب الله في دنياه اصطلَى بشِدّتِه في أُخراه

أُضيفَ العذابُ إلى لفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾؛ ليفيدَ أنّه عذابٌ ليس كأيّ عذابٍ، حيثُ وصَفَتْهُ الآيةُ بأنّه شديدٌ، ولا ريبَ أنّ اللّه الّذي وصفَ رحمتَه بأنّها ﴿وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: 156]، قد أعطى للإنسان الفرصةَ للمُراجعةِ والالتزام، وحَذّره من قِصَر الدّنيا، وقُرْب قيام السّاعة، ومِن كوْنِ عذابِ اللّه شديدًا، وقد أرسل له الرّسلَ بالبلاغ، فأخبره بقُرب ذلك، لعلّه يتوبُ إلى اللّه متابًا، ومَن أنذرَ فقد أعذرَ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 109.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 231.

بلاغةُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ في وصفِ العذاب:

أثَرُ تغايُرِ أوصافِ العذاب في تلاؤمِها مع السّياقِ الّذي جاءت فيه

وردت مادّةُ (عذب) ومشتقّاتُها في القرآن الكريم ما يزيد عن ثلاثمائة وسبعين مرّةً، وجاء هذا العذابُ موصوفًا بصفاتٍ كثيرةٍ، بعضُها أكثرُ ورودًا من بعض، ومِن هذه الصّفات: (العذابُ العظيم، الأليمُ، الشّديدُ، المُهينُ، القريبُ، المُقيمُ، النُّكرُ، وغيرُها)، ومِن حيثُ المَبدأُ يمكنُ أن نقول: إنّ كلّ صفةٍ مِن هذه الصّفات تُغايرُ أُختَها، فلا ترادفَ بينَها البتّةَ، ولا تَسُدُّ صِفةٌ منها مَسَدّ أختِها، وليس التّغايرُ في ذِكْرها تلوينًا في الخطاب، ولا افتنانًا في الكلام، إنّما تأتي كلُّ صفةٍ منها متلائمةً مع السّياق الّذي جاءت فيه، فمثلًا: جاء وصفُ العذاب بأنّه (مهين)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ [الأحزاب: 57]، في سياق الحديث عمّن اجترؤوا فيه على اللّه ورسوله، فظنّوا أنّهم مِنَ العَظَمة والكِبر بحيثُ يقدِرون على فعلتهم هذه، فجاء العذابُ مِن جنس العمل، ووُصِفَ بأنّه عذابٌ مهين؛ لينزِعَ عنهم كلَّ ذرّة من كِبر وخُيلاءَ.

وجاء وصْفُ العذابِ بالعِظَم في مواضعَ استوجبت ذلك، مِن مثلِ قولِه تعالى في شأن قصّة الإفك حولَ أمّ المؤمنين: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النّور: 14 - 16]، فالبُهتانُ العظيمُ شأنُه عند اللّه عظيمٌ، لذا استوجبَ هذا العذابَ العظيم.

وجاء وصْفُه بالشِّدّة في سياقاتٍ استوجبت هذا الوصفَ، مِن مثْلِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشّورى: 16]،

فمِثْلُ هذه المَحاجّةِ بعد أنِ استُجيب للّه تعالى تستوجِبُ عذابًا يوسَمُ بالشّدّة، وفي آية الحجّ هنا، استوجب العذابَ وصْفُه بالشّدّة؛ لأنّهم جمعوا بينَ الاعتداءِ والاحتيال وعدمِ الاستجابة للوعظ.

وكذلك الحالُ في وصفه بـ(أليم)، مِن مثلِ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٧﴾ [النّحل: 116 - 117]، فإنّك مهما تأمّلتَ وصفًا للعذاب، يفوق كونَه أليمًا لهذه المواضع فلن تجدَ.

وكذلك الحالُ في وصْفه بالقُرب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا ٤٠﴾ [النّبأ: 38 - 40]، فالتّذكيرُ بمَشاهدِ الآخرة في سياق إبراز النّدمِ على ما فات مِنَ الأعمال، في يوم لا ينفع فيه مثلُ هذا النّدمِ، يُناسبه وصْفُ العذاب بالقُرب، لتَنزجِرَ النّفوسُ، ولا تغترَّ بالمتاع سريعِ الانقضاء.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الذّهولُ والغفْلةُ والسّهوُ والغَرور:

دلالـةُ لـفـظِ الذّهـولِ تحملُ معنى التّرك إمّا عمدًا أو غفلةً أو نسيانًا

الغَفْلَة: سَهوٌ يعتري الإنسانَ مِن قِلّة التّحفّظ والتّيقّظ؛ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22][1]، لذا فإنّ الغفلةَ تكونُ بغير قصدٍ.

أمّا الغَرور: فهو كلّ ما يَغُرُّ الإنسانَ مِن مال وجاه وشهوة وشيطان، قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ٣٣﴾ [لقمان: 33]، وقد فُسّر بالشّيطان؛ إذ هو أخبثُ الغارّين، وبالدّنيا لما قيل: الدُّنيا تغرُّ وتضُرُّ وتَمُرُّ[2]، فيكون الغَرور بقصد.

(1) الرّاغب، المُفردات: (غفل).
(2) الرّاغب، المُفردات: (غرر).

والسَّهْوُ كما يقول الرّاغب: خطأٌ عن غفلة، وذلك ضربان؛ **أحدُهما:** أن لا يكون من الإنسان جوالِبُه ومولّداتُه، كمجنون سَبّ إنسانًا، **والثّاني**: أن يكون منه مولّداتُه، كمَن شرب خمرًا، ثمّ ظهر منه منكرٌ لا عن قَصْد إلى فِعْله، والأوّلُ معفوٌّ عنه، والثّاني مأخوذٌ به، وعلى نحو الثّاني ذمَّ اللّهُ تعالى، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: 5][(1)].

وقد فرّق العسكريُّ بينَ الغفلة والسّهو، فقال: "الغفلةُ تكون عمّا يكونُ، والسَّهو يكونُ عمّا لا يكونُ، تقول: غفلتُ عن هذا الشّيء حتّى كان، ولا تقول: سهوتُ عنه حتّى كان؛ لانّك إذا سهوتَ عنه لم يكن، وفرقٌ آخَرُ: أنّ الغَفْلَة تكون عن فعل الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان مِن فلان، ولا يجوز أن يَسْهَى عن فعل الغير.

وأمّا الفرق بينَ الغَفلة والنّسيان؛ فالغفلةُ: عدمُ التّفطّن للشّيء وعدمُ عقليّته بالفعل، سواء بقيت صورتُها أو معناها في الخيال أو الذِّكْر، أو انمحت عن أحدهما، وهي أعمُّ مِنَ النّسيان؛ لأنّه عبارةٌ عنِ الغَفْلَة عنِ الشّيء، معَ انمحاءِ صورتِه أو معناه عنِ الخيال، أو الذِّكْر بالكليّة، ولذلك يحتاج النّاسي إلى تجشّم كسبٍ جديد وكُلفةٍ في تحصيله ثانيًا[(2)].

وأمّا الذّهول: فهو شُغلٌ يورثُ حُزنًا ونسيانًا[(3)]، فدلالةُ اللّفظِ تحملُ معنى التّرك، إمّا عمدًا أو غفلة أو نسيانًا؛ لشُغْلٍ أذهبَ الذّهنَ عن تَذَكّره، فالذّهلُ حالةٌ تُصيب النّاسَ، فيتركون أهمَّ شاغل لهم وينصرفون عنه، لذا كان الذّهولُ أعمَّ مِنَ الغفلة؛ لأنّه يقعُ بقصدٍ وغير قصدٍ، وأخصَّ مِنَ الغرور والنّسيان؛ لأنّه نشأ عن حُزنٍ وشاغلٍ عظيم، أشغلَ صاحبَه عمّا في يديه.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سها).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 388 - 389.

(3) الرّاغب، المفردات: (ذهل).

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ٤﴾ [الحجّ: 3 - 4]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقةُ بين حالِ النّاس يومَ القيامة ومَن جادلَ فأفضَى به الشّيطانُ إلى السّعير

بعد أن تناولتِ الآيةُ السّابقة قيامَ السّاعة، وكيف أنّها تباغتُ النّاسَ بما يُزلزل كيانَهم، وتضطربُ به أحوالُهم، حتّى تنسى الوالدةُ رضيعَها الّذي ألقمته ثديَها، وتُسْقطَ الحاملُ ما في بطنها، وترى النّاس في هَلَع واضطراب، يَهيمون بلا عقول، ويَترنّحون كالسّكارى، جرّاءَ شِدّة الهول، واستحكام الفَزَع، عُطف عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، لبيان حالِ المجادِلين بغير علم، والمتّبعين زيغَ الشّيطان، الّذي مَنِ اتّبعه أرداه، واستدرجه إلى عذاب السّعير، وبئسَ المصيرُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُ﴾: (جدل) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو مِنْ بابِ اسْتِحْكامِ الشَّيْءِ في اسْتِرْسالٍ يَكونُ فيه، وامْتِدادِ الخُصومَةِ ومُراجَعَةِ الكَلام[1]، والجِدال: المُفاوضةُ على سبيل المنازعة والمغالبة، وقيل: الأصلُ في الجِدال: الصّراعُ وإسقاطُ الإنسان صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصّلبة[2]، ويقال: إنّه لجَدِلٌ، إذا كان شديدَ الخصام، وإنّه لَمِجْدَلٌ، وقد جادل فلانًا جِدالًا ومُجادلة[3]، ومِجْدالٌ: شديد الجَدَل، وفي القرآن الكريم: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل).
(2) الرّاغب، المفردات: (جدل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جدل).

زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: 1]، أي: يتجادلان في ذلك الأمر، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: 197]، أي: لا ينبغي للرّجل أن يجادل أخاه، فيخرجَه الجدالُ إلى ما لا ينبغي، والمعنى المرادُ في الآية: المفاوضةُ والمخاصمةُ في شأن اللّه دون علمٍ على سبيل المنازعةِ والمغالبة، دون قصْدِ الوصول إلى الحقّ.

2) ﴿مَّرِيدٖ﴾: (مرد) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَجْرِيدِ الشَّيْءِ مِنْ قِشْرِه، أَوْ ما يَعْلوهُ مِنْ شَعْرِه، ومِنْهُ شَجَرَةٌ مَرْداءُ، والمَرْداءُ: رَمْلَةٌ مُنْبَطِحَةٌ لا نَبْتَ فيها، والجَمْعُ: مَرادَى، والمارِدُ: العاتي، وكَذا المَريدُ، كَأَنَّهُ تَجَرَّدَ مِنَ الخَيْرِ[1]، ويقال: مَرَد على الشّر وتمرَّد: عتا وطغى، والمارد والمريد: الخبيثُ المُتمرّد الشّرّيرُ[2]، وعلى هذا: فالماردُ والمَريدُ من شياطين الجنّ والإنس: المُتعرّي مِنَ الخيرات[3]، وهو المرادُ في الآية.

3) ﴿تَوَلَّاهُ﴾: (ولي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، مِنْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمّا يَليني، أي: يُقارِبُني، ومِنَ البابِ المَوْلَى: المُعْتِقُ، والمُعْتَقُ، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ، كُلُّ هَؤُلاءِ مِنَ الوَلْيِ، وهو القُرْبُ[4]، قال الرّاغب: الوَلاءُ والتَّوالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا، ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقرب مِن حيثُ المكانُ، ومِن حيثُ النّسبةُ، ومِن حيثُ الدّينُ، ومن حيثُ الصّداقةُ والنّصرةُ والاعتقادُ، والوِلايَةُ النُّصْرةُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، وقيل: الوِلايَةُ والوَلايَةُ، نحو: الدِّلالة والدَّلالة، وحقيقتُه: تَوَلّي الأمرِ، والوَلي والمَوْلَى يُستعملان في ذلك كلُّ واحدٍ منهما، يقال في معنى الفاعل، أي: الموالي، وفي معنى المفعول، أي: الموالَى[5]، والمرادُ من ﴿تَوَلَّاهُ﴾ في الآية: القُرْبُ مِنَ الشّيطان ومُناصرتُه واتّباعُه.

4) ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: (سعر) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى اشْتِعالِ الشَّيْءِ واتِّقادِهِ وارْتِفاعِه، مِنْ ذَلِكَ السَّعيرُ: سَعيرُ النّارِ، واسْتِعارُها: تَوَقُّدُها[6]، وسَعَر النّار: أوقدها وهيّجها، وكذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرد).
(3) الرّاغب، المفردات: (مرد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعر).

سعّرها: زوّدها بما تأكله فيزدادُ انتشارُ لهبها[1]، والمرادُ بـ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآية: سعيرُ النّار المُتوقّدة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيـانُ حالِ المُجادِلين بغير عِلْم ممّن يَزُجُّ بهمُ الشّيطانُ في السّعير

تعالجُ هاتان الآيتان حالَ صِنفٍ مِنَ النّاس ممّن يخاصِمُ ويجادِلُ في اللّه تعالى بجهالة، فلا يرجعُ في مزاعمِه إلى برهانٍ عقليٍّ، ولا إلى دليلٍ نقليٍّ، كهذا الّذي يُنكِرُ البعثَ والنّشورَ، ويَستبعدُه على اللّه الّذي خلقنا أوّلَ مرّة، وخَلَق الأرضَ والسّماواتِ والكونَ برُمّته، وينسبُ إلى اللّه البنينَ والبناتِ، في حين أنّه تعالى لا والدَ له ولا ولد، وينكرُ معجزةَ القرآن دونَ حُجّة أو برهان، وهو في ذلك وأمثالُه، يتّبعُ كلّ شيطان مَريد، مُتجرّدًا للفساد، عَريا عنِ الخير والحَقّ والرّشاد، ناسيًا أنّ اللّه قضَى على الشّيطان المَريد أنّه مَن اتّبعه وسلك سبيلَه، فإنّه يُضِلُّه عن سواءِ السّبيل في دنياه، ويسوقُه إلى عذاب السّعير في أُخراه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرف (الواو) في سياق الآيةِ:

اشتراكُ الجُمَلِ المتعاطفةِ في بيانِ أحوالِ النّاس مُفصحٌ عنِ البيان

يرى بعضُ المُفسّرين أنّ الواو استئنافيّةٌ، والكلامَ بعدَها مبتدأٌ، جيءَ به إثْرَ بيانِ عظيم شأنِ السّاعةِ المُنبئةِ عنِ البعثِ، بيانًا لحالِ بعضِ المُنكرينَ لها[2]، فالجملةُ مستأنفةٌ مسوقةٌ لذِكْر مَن غفَل عنِ الجزاء في ذلك وكذّب به، والمناسبةُ بينها وبين ما تقدّم مِن ذِكْر أهوال السّاعة وزلزلتِها واضحةٌ[3]، ويرى ابنُ عاشور أنّ الواو هنا عاطفةٌ، عطفت الآيةَ على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾، ومُسوِّغُ العطفِ أنّ النّاس فَريقانِ: فَريقٌ يَمْتَثِلُ الأمْرَ فَيَتَّقي اللّه

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سعر).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 92.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 387.

ويَخْشَى عَذابَهُ، وفَريقٌ يُعْرِضُ عَنْ ذَلِكَ ويُعارِضُهُ بِالجَدَلِ الباطِلِ في شَأْنِ اللّه تَعالَى، مِنْ وحْدانيتِهِ وصِفاتِهِ ورِسالَتِه، وهَذا الفَريقُ هم أئمّةُ الشِّرْكِ وزُعَماءُ الكُفْرِ؛ لِأنَّهُمُ الَّذينَ يَتَصَدَّوْنَ لِلْمُجادَلَةِ بِما لَهُمْ مِنْ أغاليطَ وسَفْسَطَةٍ، وما لَهُمْ مِن فَصاحَةٍ مُزَوّرة وتَمْويهٍ[1].

معنى (من) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

العبرةُ بعمومِ اللّفظِ لا بخصوصِ السّببِ

(من) هنا تبعيضيّةٌ، على معنى أنّ بعضَ النّاس مَن يجادلُ، وليس جميعُهم يفعل ذلك، وذكروا في سبب نزولها أسبابًا، والحَقُّ أنّها عامّةٌ في كلّ مَن تعاطى الجدالَ، فيما يجوزُ على اللّه، وما لا يجوزُ مِنَ الصّفات والأفعال، ولا يرجعُ إلى عِلْم، ولا يعضُّ فيه بضرس قاطعٍ، وليس فيه اتّباعٌ للبرهان، ولا نزولٌ على النَّصَفة، فهو يخبطُ خبْطَ عشواء، غيرَ فارق بين الحقّ والباطل[2].

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

المُبْطِلون ماضون في الإنكار مهما لقيتِ الهدايةُ مِن انتشار

أفاد التّعريفُ هنا الاستغراقَ، أي: مِن جميع النّاس، ويمكن حَمْلُها على العهد، أيّ: النّاس الكافرين، فبعضُهم هو مَن يجادل، وبعضُهم مَن لا يفعل ذلك، وحَمْلُها على الاستغراق أولى، وفائدة التعريف تأتي من أنّه تعالى أخبرَ فيما تقدّم عن حال أهل القيامة وشدائدِها وأهوالِها، ودعا النّاسَ إلى التّقوى؛ دفعًا للبلوى، ثمّ ميّزَ في هذه الآية قومًا مِنَ النّاس لا يَكُفّون عن مجادلتِهم في اللّه.

وأنّه تعالى بيَّن أنّ هذا الصّنفَ مِن النّاس، ما منعَهم التّحذيرُ الشّديدُ بذِكْر زلزلة السّاعة، وشدائدِ الانتقال إلى القيامة، مِنَ الجدالِ والكُفر الصّفيق، فأبان حالَهم العجيبَ[3].

نُكْتَةُ تقديم شبْهِ الجملة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

التّقديمُ للعناية بأصنافِ النّاس مِن فصيح البيانِ

سببُ تقديم شبْهِ الجملة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على المبتدأ ﴿مَن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 192.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 143.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/ 143.

﴿يُجَٰدِلُ﴾، هو أنّ مدارَ السّورة قائمٌ على بيان أحوال النّاس، حيثُ امتازت هذه السّورة بكثرة الحديثِ عنِ النّاس في أكثرَ مِن جانبٍ، حيثُ وردت لفظةُ (النّاس) نحو خمسَ عشرةَ مرّة[1]، النّداءُ فيها للنّاس كان في نحو أربع مرّاتٍ[2]، ثمّ إنّ هذه السّورةَ تحدّثت مليًّا عن أصناف النّاسِ وأنواعِهم مِن مُجادِلين ومنافقين ومؤمنين ورُسلٍ[3]، وإذا كانت هذه السّورةُ قد تميّزت بالحديث عنِ النّاس وأقسامِهم وما يتعلّق بهم، فلا ريبَ أن يتقدّم في الآية الحديثُ عنهم؛ رعايةً واهتمامًا بهم، كيف لا، وقد بدأت السّورةُ بندائِهم.

دلالةُ التّعبير بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

استعمالُ الموصولِ في حالة الإبهامِ لأغراضٍ بيانيّةٍ

قولُه تعالى: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾، يمكنُ أن تكون ﴿مَن﴾ نكرةً موصوفةً، وصفتُها: ﴿يُجَٰدِلُ﴾، ويمكنُ أن تكون اسمًا موصولًا، والغرضُ مِنَ التّعبير بالاسم الموصولِ هنا الذّمُّ والتّحقيرُ لشأن مَن يفعلُ هذه المجادلةَ، والاسمُ الموصول مبهمٌ، ويفتقرُ إلى جملةِ صلةِ الموصول ﴿يُجَٰدِلُ﴾، الّتي أزالت الإبهامَ عنه بوصفِ المُجادلة في شأن اللّه تعالى.

دلالةُ التّعبير بالمجادلةِ مادّةً وصيغةً:

لا يَخلو زمانٌ مِن وجودِ المُجادِلين في آيات الله

المجادلةُ هي المفاوضةُ على سبيل المنازعةِ والمغالبةِ، فاختيارُ الكلمة هنا دون غيرها؛ للإشارة إلى أنّ هذه المفاوضةَ لم يكن مقصودُها الوصولَ إلى الحقّ، وإنّما هي للمنازعةِ والمغالبةِ، وأمّا التّعبيرُ بالفعل المضارع، ففضلًا عن إفادته معنى التّجدّدِ الاستمراريِّ، إلّا أنّها أعطت شيئًا للقارىء مِن استحضار صورةِ هذا المُجادِل، وإفرادُ لفظِ المجادَلة، هو مِن باب مراعاةِ لفظ ﴿مَن﴾، ولو جاء على الجمع لجاز لغةً.

---

(1) الآيات: (1، 2، 3، 5، 8، 11، 18، 25، 27، 40، 49، 65، 73، 75، 78).

(2) الآيات: (1، 5، 49، 73).

(3) الآيات: (3، 8، 11، 18، 75).

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾:

الحذفُ في التّركيب السّديدِ منَ الإفصاحِ المفيدِ

حُذفَ مفعولُ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ هنا للتّعميم، والتّقديرُ: (يجادل المؤمنين، أو الرّسلَ، أو الدّعاةَ)، فَحَذْفُ المفعولِ مِن شأنه أن يَعُمّ هذا وغيرَه، والمقصودُ مِنَ السّياق عمومًا مَن يتصدّى لهذا الأمر، ولا يتأخّرُ عن مجادلة أهل الحقّ؛ مِن رُسلٍ ودُعاة وناصحين، وقد ذُكِرَ المُجادِلُ، وحُذِف المُجادَلُ، والمجادلةُ بغير الحقّ: مخاصمةٌ ومحاجّةٌ، تقوم على الباطل، وتنتصرُ لكلّ زيفٍ زائلٍ، وحَذْفُ مَن تتّصلُ به للعِلْم به مِنَ السّياق، وورودُ الفاعلِ للتّنديد به، وتأكيدِ ضلاله وزَيغه، وشتّان بين المذكورِ والمَحذوف.

بلاغةُ الحذف في قوله: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

الحذفُ قد يكونُ للتّعميمِ في ثنايا السّياقِ الحكيمِ

تقديرُ الكلام: (مِنَ النّاس مَن يجادلُ في شأنِ اللّه جلّ في علاه، ويقول فيه ما لا خيرَ فيه مِنَ الأباطيلِ)[1]، فالحَذْفُ هنا للتّعميم ليَشملَ كلَّ مجادلةٍ مِن شأنها أن تكون بغير علم، وأفاد الحرفُ ﴿فِي﴾ الظّرفيّةَ المَجازيّةَ، حيثُ شبّهت ظرفَ المجادَلةِ المعنويَّ بالظّرف الحِسّيّ، بجامع الإحاطةِ والتّغلغُلِ.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾:

لحروفِ المعاني أثرٌ في دلالاتِ السّياقِ القرآنيّ

الباء تُفيدُ الملابسةَ والملاصقةَ، على معنى أنّ هذه المجادلةَ لابَسَها الجهلُ وعدمُ العلم، ويمكن حَمْلُها على السّببيّة، على معنى: أنّه يجادلُ المؤمنين أوِ النّاسَ بسبب قِلّة عِلْمه.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عِلۡمٍ﴾ في السّياق:

انتقاءُ صيغةِ التّنكيرِ دليلٌ على دقّةِ القرآنِ في التّعبيرِ

يمكنُ أن يُفيدَ التّنكيرُ هنا معنى التّقليل، على معنى: أنّ هذا المُجادِلَ لا يملك أدنى عِلْم لما يُجادل فيه، ويمكنُ أن يُفيدَ التّعظيمَ، على معنى: أنّه لا يملك عِلْمًا يُؤهّلُه لهذه المجادلة؛ لسُموّها عنه، وتقاصُرِ حُجّته وعِلْمه عنها، ولفظُ ﴿عِلۡمٍ﴾ بالتّنكير على إطلاقه،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 92.

يُفهم منه: "أنّهم في غاية الجهل، ما عندهم مِنَ العِلْم شيءٌ، وغايةُ ما عندهم تقليدُ أئمّةِ الضّلال، مِن كلّ شيطان مريد، مُتَمرّدٍ على اللّه، وعلى رُسلِه، مُعاندٍ لهم، قد شاقّ اللّهَ ورسولَه، وصار مِنَ الأئمّة الّذين يَدعون إلى النّار"(1).

فائدةُ التقييد بقوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾:

المجادلةُ قد تقعُ بحقٍّ أو بباطل

يقول الرّازيّ: "هذه الآيَةُ بِمَفْهومِها، تَدُلُّ على جَوازِ المُجادَلَةِ الحَقَّة؛ لِأَنَّ تَخْصيصَ المُجادَلَةِ مع عدم العِلْمِ بِالدَّلائِلِ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المُجادَلَةَ مع العِلْم جائِزَةٌ، فالمُجادَلَةُ الباطِلَةُ هي المُرادُ مِن قَوْلِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ [الزُّخْرُف: 58]، والمُجادَلَةُ الحَقَّةُ هي المُرادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النَّحْل: 125]"(2).

معنى الواوِ في جملةِ: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾:

مَن استحوذَ عليه الشّيطانُ كَثُرَ جَدَلُه وانحرفَ عنِ الحَقّ

الواو هنا عاطفةٌ، حيثُ عطفت صفةً على صفة، وحالًا على حال، والحالُ الثّانية هي السّببُ الكامِنُ وراءَ الحالة الأولى، فإنّ اتّباعَه للشّيطان، هو الّذي دفعَه للمجادَلة بغير عِلْم، والآيةُ نزلت في النّضر بنِ الحارث، وكان صاحبَ لسانٍ وجدلٍ، وقد أشار الزّمخشريُّ إلى كون الآية "عامّةً في كلّ مَن تعاطى الجِدال، فيما يجوز على اللّه وما لا يجوز، مِنَ الصّفات والأفعال، ولا يرجع إلى علم، ولا يعضُّ فيه بضِرس قاطعٍ، وليس فيه اتّباعٌ للبرهان، ولا نزولٌ على النَّصَفة، فهو يَخْبِط خَبْطَ عشواء، غير فارق بين الحَقّ والباطل"(3).

بلاغةُ المجازِ في التّعبير عنِ الطّاعةِ بالاتّباع:

طاعةُ الشّيطانِ صورةٌ مِن صور اتّباعِه

عبّرتِ الآيةُ عن طاعة الشّيطانِ بلفظ الاتِّباع، بجامع الملازمةِ والاقتفاء، على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّة؛ لأنّ الطّاعة تقتضي الاتّباعَ للشّيطان في وسوسته وإغوائه، واتّباعُ الشّيطانِ ضلالٌ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 533.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 143، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 232.

وهوانٌ، خصوصًا وأنّه "مخلوقٌ محترقٌ بالشّرّ، مبعَدٌ باللّعن، ولمّا كان السّياقُ لذمّ متَّبِعِه، أشار إلى أنّه لا قصْدَ له في اتّباعه إلّا الشّرّ"[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿وَيَتَّبِعُ﴾:

مَـــنِ اتّـــبـــعَ الشّيطانَ أفضَى به إلى الهوان

أفاد التّعبيرُ بالفعل المضارع هنا، تجدُّدَ اتّباعِه للشّيطان في كلّ مَرّة يوسوسُ له فيها، فضلًا عن إفادتِها استحضارَ صورتِه وهو يتّبعُه، ذلك أنّه "لا يستندُ في جَدَله وإنكارِه إلى علم صحيح، أو حُجّةٍ صادقة، ولكنّه يُقلّدُ ويتّبعُ خطواتِ كلِّ شيطان متمرّدٍ على ربّه شِرّيرٍ، دأبُهُ الفسادُ والضّلالُ"[2]، والشّأنُ هنا أنّ كلَّ مَن أسلم للشّيطان قيادَه، واتّبعَه في إغوائه الخادع، وتزيينِه المخادع، فإنّ الشّيطان يهوي به في قاع سحيقٍ مِنَ الضّلالة والمَفسدةِ، التّي تُفضي به إلى جهنّمَ، وقد قدّر اللّهُ وقضَى أنّ كلَّ مَنِ اتّبع ذلك الشّيطانَ وسلكَ سبيلَه، أضلّه الشّيطانُ عن طريق الحقّ، ووجّهَه إلى الباطلِ المُفضي به إلى عذاب جهنّمَ المُخزي.

نُكْتَةُ المجازِ في استعمالِ ﴿كُلَّ﴾ في السّياقِ:

مِنَ المجازِ ما يكثُرُ حتّى يُساويَ الحقيقةَ

إطْلاقُ لَفْظِ ﴿كُلَّ﴾ على الكَثْرَةِ شائِعٌ في كَلامِ العَرَبِ، وأصْلُهُ مَجازٌ لِجَعْلِ الكَثيرِ مِنْ أفْرادِ شَيْءٍ، مُشابِهًا لِمَجْموعِ عُموم أفْرادِهِ، ثُمَّ كَثُرَ ذَلِكَ حَتَّى ساوَى الحَقيقَةَ، فَصارَ مَعْنًى مِنْ مَعاني ﴿كُلَّ﴾ لا يَحْتاجُ اسْتِعْمالُه إلى قرينَة، ولا إلى اعْتِبارِ تَشْبيهِ العَدَدِ الكَثيرِ مِنْ أفْرادِ الجِنْسِ، بِعُمومِ جَميعِ أفْرادِهِ، حَتَّى إنَّهُ يَرِدُ فيما لا يُتَصَوَّرُ فيه عُمومُ أفْرادٍ[3].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾:

التّنكيرُ للتّحقيرِ أو للتّعميم بحسبِ المعاني المحتملةِ

نُكّرت هذه اللّفظةُ هنا للتّحقير والذّمِّ، ويمكنُ أن يكونَ التّنكيرُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 13.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 449.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 34 - 35.

للتّعميم؛ لأنّ هذه اللّفظةَ تشملُ شياطينَ الإنس والجنّ، يقول الرّازيّ: "﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ قَوْلانِ: **أحَدُهُما**: يَجوزُ أنْ يُريدَ شَياطينَ الإنْسِ، وهُمْ رُؤَساءُ الكُفّارِ الَّذينَ يَدْعونَ مَنْ دونَهُمْ إلى الكُفْرِ، **والثّاني**: أنْ يَكونَ المُرادُ بِذَلِكَ إبْليسَ وجُنودَهُ"[1].

دلالةُ وصفِ الشّيطانِ بـ ﴿مَّرِيدٖ﴾:

الشّيطانُ مُتَعرٍّ مِن كلّ خير ورَمزٌ لكلّ معصيةٍ وشَرٍّ

المَريدُ من شياطين الجنّ والإنس: المُتَعَرّي مِنَ الخيرات، وهو صفةٌ مشبّهةٌ من (مرد)، إذا عتا فيه وبلغ الغايةَ الّتي تتجاوزُ ما يكون عليه أصحابُ ذلك العمل، وكأنّه محوّلٌ من (مَرَدَ) بفتح الرّاء، بمعنى (مرن)، إلى ضمّ الرّاء للدّلالة على أنّ الوصفَ صار له سجيّةً، فالمَريدُ صفةٌ مشبّهةٌ هنا، أي: العاتي في الشّيطنة[2]، وقال البقاعيّ: "ولمّا كان السّياقُ لذمّ متّبِعِه، أشار إلى أنّه لا قصدَ له في اتّباعه إلّا الشّرّ؛ لأنّه لا لبسَ في أمره بصيغة المبالغة، فقال: ﴿مَّرِيدٖ﴾ أي: مُتَجرّدٌ للفسادِ، لا شُغْلَ له غيرُه، فهو في غاية الضّراوةِ عليه"[3].

نُكْتَةُ فصلِ جملة ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾:

لم تُعطَف هذه الآيةُ على سابقتِها؛ لكمال اتّصالِها بها، حيثُ إنّ هذه الآيةَ بمثابة الصّفةِ الثّانيةِ لقوله: ﴿شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾، فالضّميرُ المَجرورُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾، وكذلك الضّمائرُ في قوله: ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ﴾[4].

غرضُ بناءِ الفعل ﴿كُتِبَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

اختيارُ الصّيغةِ الصّرفيّةِ الأنسبِ مِنَ السّياقِ الفصيحِ المُعْجِب

يُبنَى الفعلُ للمجهول، أو لِما لم يُسمّ فاعلُه أحيانًا، إمّا للعِلْم بالفاعل، فاللّه تعالى هو الّذي كتب ذلك عليه، وإمّا لدعوة المخاطَبين للانشغال بالفعل عنِ الفاعل، والمعنى: (كتب اللّهُ على هذا الشّيطان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 193.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 7.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 7.

المَريد، وحكمَ عليه حُكمًا ظاهرًا، لا يَتوارى بحجابٍ، ولا يستترُ بجلبابٍ، والشّأن أنّه مَنِ اتّبعه دون وعْيٍ بالمخاطر والمهالكِ الّتي يُدلي بها الشّيطانُ لمُتّبِعه بغُرور، ما يفتأُ أن يُجرجرَه به إلى عذاب السّعير، ويا بئسَهُ من مصير).

دلالةُ التّعبير بالكتابةِ بينَ الحقيقةِ والمجاز:

الكتابةُ مُستعارةٌ للثّبات واللّزومِ على الأرجحِ

يقول الرّازيّ: "﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ وجْهانِ؛ أَحَدُهُما: أَنَّ الكِتْبَةَ عَلَيْهِ مَثَلٌ، أي: كَأنَّما كُتِبَ إِضْلالُ ﴿مَن﴾ عَلَيْه، ورَقَمَ بِهِ لِظُهورِ ذَلِكَ في حالِه، والثّاني: كُتِبَ عَلَيْهِ في أُمِّ الكِتابِ"[1]، وإلى المعنى المجازيِّ مال ابنُ عاشور، فالكتابةُ عنده مستعارةٌ للثّبوت واللّزوم، أي: لَزِمه إضلالُ مُتولّيه ودلالتُه على عذاب السّعير، فأُطلقَ على لزوم ذلك فعلُ ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ أي: وجبَ عليه، فقد شاع أنّ العَقدَ إذا أُريد به تحقيقُ العملِ به وعدمُ الإخلال به، كُتب في الصّحيفة[2].

نُكْتَةُ تعْديةِ الفعل ﴿كُتِبَ﴾ بـ (على):

تضمينُ الفعلِ معنى زائدًا مِن بلاغةِ السّياقِ

تعْديةُ الكتابةِ بحرف الاستعلاء، تُشْعِرُ بأنّ ما يأتي بعدَها هو في معنى القَهْر والإلزام؛ لأنّ مِن شأن فِعْل التّولّي للشّيطان أن يقودَ إلى هذه النّتيجة المُخْزية، ويَؤول به إلى الوبال العظيم، ويمكنُ أن يكون قد ضُمِّن الفعلُ ﴿كُتِبَ﴾ فِعلًا يتعدّى بحرف الاستعلاء، مثل: حُكِمَ عليه، أو قُضِيَ عليه، فتكون البلاغةُ في اجتماع قوّة الفعلَيْن: الكتابةِ والقضاء.

دلالةُ عوْدِ الضّمائرِ في سياق الآية:

عـوْدُ الضّمائر في الآيـة مُرتبطٌ بـمـعـانـيـهـا المحتملةِ

قولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، نجدُ أنّ للعلماء في عود الضّمائر في هذه الآية آراءَ كثيرةً، كلّها وجيهٌ مقبولٌ، وقد أوجزَ الرّازيّ الرّأيَ فيها فقال: "واعلَم أنَّ هَذه الهاءَ بَعدَ ذكر مَن يُجادلُ، وبَعدَ ذكر الشَّيطان، يُحتَمَلُ أن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 193.

يَكونَ راجعًا إلى كُلّ واحد منهُما، فَإن رَجَعَ إلَى ﴿مَن يُجَـٰدِلُ﴾ فَإنَّهُ يَرجعُ إلَى لَفظه الَّذي هو موحَّدٌ، فَكَأنَّهُ قالَ: كُتبَ عَلَى مَن يَتَّبعُ الشَّيطانَ، أنَّهُ مَن تَوَلَّى الشَّيطانَ أضَلَّهُ عَن الجَنَّة وهَداهُ إلَى النّار، وذَلكَ زَجرٌ منه تعالى، فَكَأنَّهُ تعالى قال: كُتبَ على مَن هَذا حالُهُ، أنَّهُ يَصيرُ أهلًا لهَذا الوَعيد، فَإن رَجَعَ إلَى الشَّيطان، كانَ المَعنَى: (ويَتَّبعُ كُلَّ شَيطان مَريد، قَد كُتبَ عَلَيه أنَّهُ مَن يَقبَلُ منهُ، فَهو في ضَلال)، وعلى هَذا الوجه أيضًا يَكونُ زَجرًا عَن اتّباعهِ"[1].

دلالةُ المعنى الإعرابيِّ للجملةِ المصدّرةِ بـ ﴿أَنَّهُۥ﴾:

تداخلُ الجُمَل في التّركيب مُفضٍ إلى الدّلالةِ بدقّةٍ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾، ﴿أَنَّهُۥ﴾: أنّ: حرفُ مصدريٌّ وحرفُ نصبٍ، و(الهاء): اسمُ (أنّ)، و﴿مَن﴾: اسمُ شرطٍ جازمٌ مبتدأ، و﴿تَوَلَّاهُ﴾: فعلٌ ماضٍ والفاعلُ مستترٍ تقديرُه: (هو)، و(الهاء): مفعول به، وجملة ﴿تَوَلَّاهُ﴾: في محلّ رفع خبرِ (مَنْ)، والمصدرُ المُؤوّلُ: ﴿أَنَّهُۥ﴾ في محلّ رفعٍ نائبِ فاعلِ ﴿كُتِبَ﴾، و﴿فَأَنَّهُۥ﴾: (الفاء) رابطةٌ، (أنّه): سبق إعرابُها، و﴿يُضِلُّهُۥ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ، والفاعلُ مستترٌ تقديرُه (هو)، والجملةُ في محلّ رفع خبر (أنّ)، والمصدرُ المؤوّلُ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ في محلّ رفعٍ خبرٍ لمبتدأ محذوفٍ، أو أنّه في محلّ رفعٍ مبتدأ، والخبر محذوفٌ، أي: فإضلالُه حاصلٌ، والجملةُ الاسميّةُ في محلّ جزمٍ جواب الشّرط[2]، والبنيَةُ الإعرابيّةُ هنا خادمةٌ للسّياق، إذ أنّ البِناءَ الشّرطيَّ مُبرِزٌ لعاقبة مَن يتولّى الشّيطانَ، أو يتولّاه الشّيطانُ، ومُؤكِّدٌ للنّتائجِ الوخيمةِ في تلك العلاقةِ الأثيمةِ.

بيانُ ﴿مَن﴾ بينَ الموصوليّةِ والشّرطيّةِ:

احتمالُ الآيةِ المَعنيَيْن بحسب دلالاتِها موفٍ بالغرضِ منها

الإعرابُ المتقدّمُ هو الأشهرُ على أنّ (مَنْ) شرطيّةٌ، ويرى بعضُهم

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 202.

(2) مجموعة من المؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1464.

أنّ (مَنْ) موصولةٌ وليست شرطيّةً؛ لأَنَّ المَعْنَى على الإخْبارِ الثّابِتِ، لا على التَّعْليقِ بِالشَّرْطِ، وهي مُبْتَدَأٌ ثانٍ، والضَّميرُ المُسْتَتِرُ في قَوْلِه: ﴿تَوَلَّاهُ﴾ عائِدٌ إلى ﴿مَن﴾ المَوْصولَة، والضَّميرُ المَنْصوبُ البارِزُ عائِدٌ إلى ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾، أي: أنَّ الَّذي يَتَّخِذُ الشَّيْطانَ وليا فَذَلِكَ الشَّيْطانُ يُضِلُّهُ[1]، وعلى غِرارِ ما مضى، فإنّ الخلافَ النّحويَّ ذو أهميّةٍ في تنويعِ التّأويل، واستقراءِ المعنى المراد، بما ينقدحُ عنه ذهنُ المُتلقّي لتحديد الدّلالةِ الأقربِ إلى روحِ السّياقِ المُحكم.

معنَى الفاءِ في قوله: ﴿فَأَنَّهُۥ﴾:

تختلفُ دلالاتِ حرفِ المعنى بحسبِ الدّلالاتِ المُحتمَلةِ

الفاءُ في قَوْلِه: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ داخِلَةٌ على الجُمْلَةِ الواقِعَةِ خَبَرًا عَنْ ﴿مَن﴾ المَوْصولَة، تَشْبيهًا لِجُمْلَةِ الخَبَرِ عَنِ المَوْصولِ بِجُمْلَةِ الجَزاءِ، لِشَبَهِ المَوْصولِ بِالشَّرْطِ؛ قَصْدًا لِتَقْوِيةِ الإخْبارِ، ويَجوزُ أنْ تُجْعَلَ الفاءُ في قوله: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ فاءَ تَفْريعٍ، ويُجْعَلَ ما بَعْدَها مَعْطوفًا على ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾، ويَكونَ المَعْطوفُ هو المَقْصودَ مِنَ الإخْبارِ، كَما هو مُقْتَضَى التَّفْريعِ، والتَّقْديرُ: (كُتِبَ عَلَيْهِ تَرَتُّبُ الإضْلالِ مِنْهُ لِمُتَوَلّيه، وتَرَتُّبُ إيصالِهِ مُتَوَلّيهُ إلى عَذابِ السَّعير)"[2].

فائدةُ توالي المؤكّدات:

أسلوبُ التّوكيدِ موطِّئٌ لِما بعدَه مِنَ المعاني المتّصلةِ بالإنكار

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾، أُكِّدَتِ الجُملتان الفرعيّتان ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ ضمن الجملة الكبرى، بأكثرَ مِن مُؤكِّد، مِن (أنّ)، والجُملة الاسميّة، وتَكرارِ ذِكْرِ المسنَد إليه في خبر الجُملتيْن، وهذه المُؤكّدات جاءت في موضعها الألْيَقِ بها؛ لأنّها جاءت في سياق الوعيد لهذا المُجادِل، وفي سورةٍ مكّيّةٍ تُخاطبُ المشركين مِن أهل مكّة، ثمّ إنّ مِن شأن هذه المُؤكِّدات أن توطّئَ لِما سيأتي في الآية بعدَها مِن حديثٍ عن ريْبِ النّاسِ في شأن البعثِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 194.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 194.

قيامُ الضّمائرِ مقامَ الأسماءِ الظّواهرِ مِن إعجازِ البيانِ القرآنيِّ

بلاغةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

لو فُكّكَتْ هذه الضّمائرُ في الآية، وعُبّرَ بالأعلام عنِ الضّمائرِ الكثيرةِ فيها لطال حجمُها، ولضاع منها وجوهٌ كثيرةٌ احتملتها هذه الضّمائرُ، في عوْدِها للمجادِلِ أو للشّيطان المَريد، والعربيّةُ توجزُ في الإبانة، وتختزلُ كلَّ لفظٍ يمكنُ فهمُه بالتّقدير أوِ التّأويل، أوِ القرائنِ الدّالّة، على اعتبارِ أنّ البلاغةَ الإيجازُ، وأنّ اللّفظَ الزّائدَ في التّركيب يُعتَبر إطنابًا مُستقبَحًا، لا بيانًا مُستَمْلَحًا.

وَسْوَسَةُ الشّيطانِ لا تنفكُّ مُتجدّدةً لإغواءِ الإنسانِ

فائدةُ التّعبيرِ بالأفعالِ المضارعةِ في الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ﴾، أفادتِ الأفعالُ المضارعةُ التّجدُّدَ الاستمراريَّ لوسوسة الشّيطانِ في هذه الآية، فضلًا عن أنّ التّعبيرَ بها فيه ما فيه، مِن استحضار صورةِ الشّيطان وهو يُضلُّهم ويقودُهم إلى عذاب السّعير.

المُحسّناتُ تَزيدُ التّركيبَ رونقًا وحُسْنَ إيقاعٍ

بلاغةُ الطّباقِ في قوله: ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ و﴿وَيَهۡدِيهِ﴾:

في التّعبير بلفظَيِ الضّلال والهداية، طباقُ إيجابٍ؛ وهو طباقٌ حقيقيٌّ مِنَ المُحسّنات المعنويّة، لِما بينَ اللّفظتيْن مِن تضادٍّ وتقابُلٍ.

إيثارُ التّعبيرِ عنِ المتعلّقِ المُستغرَبِ لا المعهودِ

نُكْتَةُ ذكْرِ مُتعلّقِ الضّلالِ دونَ الهدايةِ:

يقول ابنُ عاشور: "ولَمّا كان الضَّلالُ مُشْتَهِرًا في معنى البُعْدِ عنِ الخَيْرِ والصَّلاحِ، لم يُحْتَجْ في هذه الآية إلى ذِكْرِ مُتَعَلِّقِ فِعْلِ ﴿يُضِلُّهُۥ﴾ لِظُهورِ المعنى، وذُكِرَ مُتَعَلِّقُ فِعْلِ ﴿وَيَهۡدِيهِ﴾، وهو ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ لِأنَّ تَعَلُّقَهُ بِهِ غَريبٌ، إذِ الشَّأْنُ أنْ يَكونَ الهُدَى إلَى ما يَنْفَعُ لا إلَى ما يَضُرُّ ويُعَذِّبُ"[1].

أسلوبُ القرآنِ في التّهكّمِ بالكَفَرة موجعٌ وبليغٌ

بلاغةُ الاستعارةِ في الهدايةِ إلى عذاب السّعير:

استُعيرتِ الهدايةُ للسَّوْق إلى عذاب السّعير؛ لقصد السّخرية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 194.

والتّهكّم، بجامعِ ما يترتّبُ على كلٍّ مِنَ الخير، تحقيقًا أو تخييلًا، على سبيل الاستعارة العِناديّةِ التّهكّميّةِ[1]، والسّياق "فيه تهكّمٌ، ومُؤدّاه: أنّ الرّسلَ يَهدون إلى الجنّة، أمّا الّذين يتّبعون الشّياطين، فإنّ إغراءَهم يوصلهم إلى النّار، وتلك هدايتُهم، إن صَحّ أن تُسَمَّى هدايةً"[2].

(1) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 309.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4941.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ارتباطُ الآيةِ بإثباتِ البعثِ وعرضِ نُموِّ البَشَرِ واستنباتِ الزّرعِ

العلاقةُ بين هذه الآية وما سبقَها مِن آيات، وثيقةٌ غايةَ الوثاقة، ذلك أنّ اللّه تعالى لمّا ذكر حالَ مَن يجادِلُ في اللّه بغير علم، ويُنكرُ البعثَ والمَعاد، ويتّبعُ خُطواتِ الشّيطان المَريد، الّذي حذّره مِن عاقبة اتّباعه، ذَكر في هذه الآية الدّلائلَ على قُدْرته، بما هو مُبْصَر مشاهَدٌ، مِن بَدْءِ الخَلْق، والمراحلِ الّتي يمرّ بها البشرُ منذ التّكوين، إلى بلوغ الأَشُدّ، ثمّ الرّجوعِ إلى اللّه بالوفاة، أوِ التّعميرِ إلى أرذل العُمُر، ليرتدَّ الإنسانُ كما بدأ، غيرَ عارفٍ ولا واعٍ بشيء، بعد أن كان ذا علم وعرفانٍ، ثمّ يسوقُ مثلًا آخرَ للأرض الّتي ينزلُ عليها الماء، فتخضرّ وتُزهِر، وتُنبت وتُثمر، وتعطي ما يَسُرّ النّاظرين، ويُشْبِعُ الآكلين، مِن خُضْرة وبَهْجة، ونباتٍ وثمار، ولا غَروَ أنّ النّموذجين كليهما، دالّان على قُدْرة اللّه، وعطائه، وتصرّفِه في المخلوقات إيجادًا وإعدامًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَعۡثِ﴾: (بعث) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو الإثارَةُ[1]، والمعنى المحوريُّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).

هو: إثارةُ (الحيّ) مِن مكان يَلْزَمه بقوّة، فيندفعُ ناهضًا أو مبتعدًا، كبعث النّائم والبعير، ومِن ذلك: بَعْثُ الموتى من القبور: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس: 52]، وهو في كلّ القرآن بهذا المعنى[1]، ومنه قوله ﷻ: ﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الرّوم: 56].

2) ﴿نُّطۡفَةٖ﴾: (نطف) أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: جِنْسٌ مِنَ الحَلْي، والآخَرُ: نُدوةٌ وبَلَلٌ، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُتَوَسَّعُ فيه، فالأوَّلُ: النَّطَفُ، يُقالُ: هو اللُّؤْلُؤُ، الواحِدَةُ نَطَفَةٌ، ويُقالُ: بَلِ النَّطَفُ: القِرَطَةُ، والأَصْلُ الآخَرُ: النُّطْفَةُ، وهي الماءُ الصّافي، ولَيْلَةٌ نَطوفٌ: مَطَرَتْ حَتَّى الصَّباحِ، والنِّطافُ: العَرَقُ، ثُمَّ يُسْتَعارُ هَذا فَيُقالُ النَّطَفُ: التَّلَطُّخُ، ولا يَكادُ يُقالُ إلّا في القَبيحِ والعَيْبِ، ويُقالُ نَطِفٌ، أي: مَعيبٌ، ونَطِفَ الشَّيْءُ: فَسَدَ[2]، ويُعَبَّرُ بها عن ماء الرَّجُل، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ [المؤمنون: 13]، وقال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: 2]، وقال: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: 37][3]، وهو المراد بالآية.

3) ﴿عَلَقَةٖ﴾: (علق) أَصْلٌ كَبيرٌ صَحيحٌ، يَرْجِعُ إِلَى مَعْنًى واحِدٍ، وهو أَنْ يُناطَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ العالي، ثُمَّ يَتَّسِعُ الكَلامُ فيهِ[4]، والمعنى المحوريُّ: نشوبٌ أو امتساكٌ، مع ارتفاعٍ وغِلظ ما، كعَلَقَ البكرة، وحبالة الصّيد ينشب فيها الصّيد، والسّيفُ ونحوه يمتسك بالعِلاقة إلى الوتد في الحائط، والعلقةُ المتحوّلة مِنَ النّطفة: الدّمُ الجامد المتماسك؛ لأنّها تَعْلَق بجدار الرّحم، وجمعُها عَلَقٌ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾ [العلق: 2][5].

4) ﴿مُّضۡغَةٖ﴾: (مضغ) أَصْلٌ صَحيحٌ، وهو المَضْغُ لِلطَّعام، ومَضَغَهُ يَمْضُغُهُ، والمَضاغُ: الطَّعامُ يُمْضَغُ، والمُضاغَةُ: ما يَبْقَى في الفَمِ مِمّا يُمْضَغُ، والمُضْغَةُ: قِطْعَةُ لَحْمٍ، لِأَنَّها كالقِطْعَةِ الَّتي تُؤْخَذُ فَتُمْضَغُ، والماضِغانِ: ما انْضَمَّ مِنَ الشِّدْقَيْنِ[6]، وإذا صارَتِ العَلَقةُ الَّتي خُلِقَ مِنْها الإنسان لحمَةً، فَهي مُضْغَةٌ[7]، فالمضغةُ: الحالةُ الّتي ينتهي إليها الجنينُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطف).
(3) الرّاغب، المفردات: (نطف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (علق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مضغ).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (مضغ).

بعد العلقة، قال تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ [المؤمنون: 14]، وقال: ﴿مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾[1].

5) ﴿مُّخَلَّقَةٖ﴾: (خلق) أَصْلانِ؛ أَحَدُهُما: تَقْديرُ الشَّيْءِ، والآخَرُ: مَلاسَةُ الشَّيْءِ.

فَأمّا الأَوَّلُ فَقَوْلُهُمْ: خَلَقْتُ الأديمَ لِلسِّقاءِ، إذا قَدَرْتَ، ومِنْ ذَلِكَ الخُلُقُ، وهِي السَّجيةُ، لِأَنَّ صاحِبَهُ قَدْ قُدِّرَ عَلَيْهِ، وفُلانٌ خَليقٌ بِكَذا، وأَخْلِقْ بِهِ، أي: ما أَخْلَقَهُ، أي: هو مِمَّنْ يُقَدَّرُ فيهِ ذَلِكَ، والخَلاقُ: النَّصيبُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قُدِّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصيبُهُ، ومِنَ البابِ رَجُلٌ مُخْتَلَقٌ: تامُّ الخَلْقِ، وأمّا الأَصْلُ الثّاني: فَصَخْرَةٌ خَلْقاءُ، أي: مَلْساءُ[2]، ويُستعملُ في إبداع الشّيء من غير أصلٍ ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، بدلالة قولِه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، ويُستعملُ في إيجاد الشّيء مِنَ الشّيء نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، وليس الخَلْقُ الّذي هو الإبداعُ إلّا للّه تعالى[3]، والمُخَلَّقَةُ: المُسَوّاةُ المَلْساءُ لا نَقْصَ ولا عَيْبَ فيها[4].

6) ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾: (رحم) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ مِنْ ذَلِكَ: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ لَهُ وتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، والرُّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بِمَعْنًى، والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرابَةِ، ثُمَّ سُمّيتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا مِنْ هَذا، لِأَنَّ مِنْها ما يَكونُ ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ لَهُ مِنْ ولَدٍ[5]، وامرأةٌ رَحومٌ: تشتكي رَحِمَها، ويقال: رَحِمٌ ورُحْمٌ، قال تعالى: ﴿وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 81] والمرادُ بـ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ في الآية: أرحامُ النّساء، جمعُ رحم.

7) ﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾: (رذل) يدلُّ على ضعف وهُزال، فالرَّذْلُ: الدّونُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وكَذَلِكَ الرُّذالُ[6]، فقولُه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ أي: حيثُ تذهبُ الصّحّة والقوّةُ، ولا يبقى إلّا الثِّقَلُ وضَعْفُ الجسم والعقل، ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحجّ: 5]، ومثلُها قولُه: ﴿۞قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشّعراء: 111]، وقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ

(1) الرّاغب، المفردات: (مضغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 477.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رذل).

﴿أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ [هود: 27]، يقصدون بالأرذلين والأراذل: ضعفاءَ القَدْرِ والقيمة، الّذين لا يُعتدُّ بآرائهم ولا مواقفِهم، أي: في رأي الكفرةِ[1]، فأرذلُ العمر: هو أخسُّه وأحقرُه[2]، وهو المرادُ في الآية.

8) ﴿هَامِدَةٗ﴾: (همد) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى خُمودِ شَيْءٍ، وهَمَدَتِ النّارُ: طَفِئَتِ البَتَّةَ، وأرْضٌ هامِدَةٌ: لا نَباتَ بِها، ونَباتٌ هامِدٌ: يابِسٌ، والإهْمادُ: الإقامَةُ بِالمَكانِ[3] والمرادُ بـ ﴿ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ في الآية: الّتي لا نباتَ بها.

9) ﴿وَرَبَتۡ﴾: الرَّبْوَةُ والرَّباوة والرّابية والرَّباة والرِّبْو: كلُّ ما ارتفع مِنَ الأرض، ورَبَتِ الأرضُ: زادت وانتفخت، والمعنى المحوريُّ لمادّة (ربو أو ربي): نموُّ الشّيء مستغلِظًا مُرتفعًا، كالرّابية ورَبْو الأرض، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ﴾ انتفخت فارتفعت ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البقرة: 265]، ومثلُها: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ﴾ [الرّعد: 17] طالعًا عاليًا مرتفعًا فوق الماء، ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقّة: 10] ناميةً شديدةً[4].

10) ﴿بَهِيجٖ﴾: (بهج) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو السُّرورُ والنَّضْرَةُ، يُقالُ: نَباتٌ بَهيجٌ، أي: ناضِرٌ حَسَنٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾ [ق: 7]، والابْتِهاجُ السُّرورُ مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا[5]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادّة، هو: انشراحُ الصّدر وسرورُه لبديع منظرٍ، ناشئٍ مِن باطن، كالشّحم في السّنام، وهو مستحبٌّ منظرًا ومَخبرًا، ويبدو كأنّه ناشئٌ من البدن، وكالنَّور، وهو طريٌّ بديعُ اللّون ناشئٌ من أثناء النّبات، والمنظرُ الحسن يُقِرّ العين ويسُرّ النّفسَ، والّذي ورد في القرآن من استعمالات التّركيب ثلاثةُ ألفاظ تصفُ النّبات: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النّمل: 60]، ﴿ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾، ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧﴾ [ق: 7][6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رذل).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 126.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (همد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بهج).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بهج).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الحديثُ عن مراحلِ الخِلقةِ البشريّةِ وإنباتِ النّباتِ بدقّةٍ متناهيةٍ

نداءٌ للنّاس المُنكرين للبعث، المُجادِلين فيه بغير علم، بقوله: إن كنتم في شكٍّ في إمكانِه وحصولِه، فلا مجالَ لإنكاركم ولا لِشَكِّكُم، فإنّا خلقناكم في أصل الخِلقة الأولى مِن ترابٍ، ثمّ قدَّرنا أن يكون خلقُكم مِن نُطفةٍ، ثمّ مِن علقةٍ، ثمّ مِن مُضغةٍ، ينشأُ عنها جنينٌ كاملُ التّكوين، فنثبّتُ في الأرحام ما نشاءُ بقاءَه، ونُسقطُ منها ما نشاء فناءَه، ثمّ تَخرجون طفلًا، ثمّ لا تلبثون أن تبلغوا أشُدَّكم، ليموت مَن يموتُ، بعد عمرٍ يُطوى ويفوتُ، ويعمّرُ مَن قُدّر له أن يُعمّر، ليبلغ منتهَى العُمُر، ويصلَ إلى أرذلِه، فتداهمُه الأعراضُ، وتنخرُ في جسمه الأمراضُ، فيبلغ مِنَ الكبر عتيًّا، ويردُّ إلى أرذل العُمُر، لكي لا يعلمَ مِن بعد علم شيئًا، ومقابلَ هذا، فإنّ مثالَ خَلْق الإنسان، يُشْبهُ خَلْقَ النّبات المُزدان، حيثُ نرى الأرضَ هامدةً لا حركة فيها ولا نبات، فإذا تهاطلت عليها الأمطارُ الغزارُ، وأصابها الغيث النّافعُ الغدقُ، دبّت فيها الحياةُ، وانشقّت عن مختلف أصنافِ النّبات، وعلا فيها مورقُ الشّجر، وآتت أُكُلَها ضِعفين مِن مختلف أنواع الثّمر، وفي المثالين دلالةٌ على قدرة اللّه الخالق، الّذي خلقَ فسوّى، وقدّرَ فهدى، وكلُّ ذلك صنعُ اللّه الّذي أتقن كلَّ شيء.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ نداءِ النّاس في مَطلع هذه الآية:

أسلوبُ النّداءِ منهجٌ في التّواصل تُفْتَح له القلوبُ وتتفاعلُ معه العقولُ

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جملةٌ مِنَ القضايا اللّغويّة والبيانيّة الّتي مَرّت في بداية السّورة، ومِن أهمّها: النّداءُ بـ (يا) الّتي لم يأت غيرُها مِن أدوات النّداء في القرآن الكريم، و(يا) حرفٌ وُضِعَ في أصله لنداء البعيد، ثمّ استُعمِل في مناداة مَن سها وغفلَ وإن قَرُب، تنزيلًا له منزلةَ مَن بَعُد؛ للتّأكيد المُؤْذِنِ بأنّ الخطاب

الّذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا[1]، ونداءُ اللّه تعالى للمؤمنين لا يُتصوّرُ فيه إلّا أن يكون مِن إنزال القريبِ منزلةَ البعيد؛ ليتنبّهوا ولا يَغفلوا، وهو مظهرٌ مِن مظاهر التّوكيد.

ذِكرَ المُنادَى مرّتين؛ مرّةً بكونِه منادًى وأخرى بذِكْره بدلًا أو صفةً

نُكْتَةُ استعمالِ (أيِّ) في السّياق:

(أيّ) الّتي قالوا عنها: إنّها تأتي في حالات محدّدةٍ، منها: أن تكون وصلةً لنداء المُعرَّف بـ(أل)[2]، إذ إنّنا لا يصحُّ أن نقول: يا الرّجل، بل: يا أيّها الرّجل[3]، فهنا مظهرٌ آخرُ مِن مظاهر التّوكيد، في ذكر المُنادَى مرّتين، مرّةً بكونه وصلةً للمُنادى، ومَرّةً بذِكْر المُنادَى بعدَه، على أن يكون صفةً أو بدلًا منها.

استعمالُ الحرف في السّياق ضامنٌ لمُلَحِ الاتّساق

نُكْتَةُ استعمالِ حرفِ التّنبيه في السّياق:

مَجيءُ (الهاء) للتّنبيه هنا، مظهرٌ آخرُ مِن مظاهر التّوكيد في هذه الجملة، وهي نعتٌ آخرُ للمُنادَى، لكونه هو المقصودُ بالنّداء[4].

أهميّةُ لفْتِ الانتباه بصيغة النّداءِ المُنتقاة

بلاغةُ التّأكيد بأسلوب النّداءِ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

فظهر بذلك أنّ هذا التّركيبَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، قد حُفَّ بسلسلةٍ مِنَ المُؤكِّدات الّتي تسترعي عند سماعها أن تُصغيَ لها بأُذنِك، وتفتحَ لها قلبَكَ، وتستعدَّ بعدَها لتلقّي أمرٍ أو نهيٍ مِنَ اللّه سبحانه وتعالى.

الخطابُ يَعُمُّ جميعَ المُكلَّفين بطريق التّغليب

بيانُ المقصودين بالنّداءِ في السّياق:

النّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: خطابٌ يَعُمّ حُكْمُه المُكلّفين عند النّزول، ومَن سينتظمُ في سِلْكهم بعدُ مِنَ الموجودين القاصرين عن رُتبةِ التّكليف، والحادِثين بعدَ ذلك إلى يوم القيامة، لكن لا بطريق الحقيقة عندنا، بل بطريق التّغليب، أو تعميمِ الحُكْم بدليلٍ خارجيّ[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 121.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 92.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 1/ 185 - 186.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/ 402.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 106.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

تخصيص الخطاب بالمشركين؛ لإقامة الحُجّة عليهم

أفاد تعريفُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ هنا الاستغراقَ لكلّ مَن يَصلُحُ أن يُطلق عليه لفظُ إنسان، ويمكنُ أن يكون التّعريفُ هنا للعهد الذّهنيّ، ويكونَ دخولُ المشركين في هذا الخطاب أظهرَ مِن دخولهم في الخطاب السّابقِ؛ لأنّهم الّذين أنكروا البعثَ، فالمقصودُ الاستدلالُ عليهم، ولذلك قيل: إنّ الخطابَ هنا خاصٌّ بهم[1].

بلاغةُ التّعبير بالجملةِ الشّرطيّةِ:

تعلّقُ تحقّقِ الجوابِ بحصول الفعلِ مُفصحٌ عنِ المُراد

التّعبيرُ بالجملةِ الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾، أبلغُ في الدّلالة مِنَ الجملة الخبريّةِ؛ لأنّ الجملةَ الشّرطيّةَ تعلّقُ نتيجةٍ على سببٍ، أو تَربطُ تحقّقَ جوابِها بحدوث فعلِها، فالأمرُ بالنّظرِ إلى أصل خِلقتهم مِن تراب مترتّبٌ على كونهم في ريبٍ مِنَ البعث.

نُكْتَةُ التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الشّرطيّةِ:

إنزالُ الأمرِ المُحقَّقِ منزلةَ غيرِ المُحقَّقِ بالمطابقةِ بينَ المقالِ والحالِ

استعمالُ ﴿إِن﴾ الشّرطيّة الّتي يُؤتَى بها للأمر المَشكوكِ بوقوعه، بخلاف (إذا) التّي يُؤتَى بها للأمر المُحقَّق، مع أنّ المشركين يقعون فعلًا في هذا الرَّيب من شأن البعث في كلّ زمانٍ ومكان، هو مِنَ الخروج عن مقتضى الظّاهر إلى مقتضى الحال لغرض بلاغيٍّ، يقول أبو السّعود: "وتصديرُه بكلمة الشكّ للإشعار بأنّ حقَّه أن يكون ضعيفًا مشكوكَ الوقوع، وإمّا للتّنبيه على أنّ جزمَهم ذلك بمنزلة الرَّيب الضّعيف؛ لكمالِ وضوح دلائلِ الإعجازِ ونهايةِ قوّتِها"[2]، ويضيفُ ابنُ عاشور: "وَجُعِلَ رَيْبُهُمْ في البَعْثِ مَفْرُوضًا بـ ﴿إِن﴾ الشَّرْطية، مع أنَّ رَيْبَهُمْ مُحَقَّقٌ؛ لِلدّلالةِ على أنَّ المَقامَ لَمّا حَفَّ بِهِ مِنَ الأدِلَّةِ المُبْطِلَةِ لِرَيْبِهِمْ، يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ مَقامِ مَن لا يَتَحَقَّقُ رَيْبُهُ، كما في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 196.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 63.

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾ [الزّخرف: 5][1]، والشّكّ في موضع اليقين تهكّمٌ بهم؛ لأنّ ﴿إِن﴾ تشكّكُ في الماضي المتحقّق، وتجعلُه بمنزلة المستقبل المُتردّدِ، في ذِكْر أساس الخَلْق، فإنّ المذهب الكلاميَّ: إيرادُ الحُجّة عند المخاطَب[2].

بلاغةُ فعلِ ﴿كُنتُمۡ﴾ مع الرّيب:

البعثُ يقينٌ لا يشوبُه رَيبٌ على الإطلاق

قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾، ولم يقل: (إنِ ارْتَبْتُمْ)؛ للمبالغة في تنزيه أمر البعثِ عن شائبة وقوعِ الرَّيب فيه، والإشعارِ بأنّ ذلك إنْ وقع فمِن جِهتهم، لا مِن جِهته العاليةِ، واعتبارِ استقرارِهم فيه، وإحاطتِه بهم[3].

بلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيّةِ في السّياق:

إحاطةُ الرّيب بهم تعبيرٌ عن إنكارهم للبعثِ

قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾، شبّهتِ الجملةُ إحاطةَ الرَّيب بهم، وملابستَه لهم، بإحاطة الظّرف بالمَظروف، بجامع الشّمولِ والاستغراق، على سبيل الاستعارةِ التّصريحيّة التّبعيّةِ، فكأنّ الرَّيبَ قد أحاط بهم مِن كلّ جانبٍ.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿رَيۡبٖ﴾ في السّياق:

تنزيهُ أمرِ البعث عن شائبةِ الرّيب

أفاد تنكيرُ الرّيب التّقليلَ والتّحقيرَ مِن شأنه؛ لأنّه ينبغي أن لا يكونَ في شأن البعث البتّةَ، والتّعبيرُ عنِ اعتقادِهم في حقِّه بالرَّيبِ، مع التَّنكيرِ المُنبِئِ عنِ القلّةِ، مع أنَّهم جازمون باستحالتِه وإيرادِ كلمة الشَّكِّ، مع تقرّرِ حالِهم في ذلك، وإيثارِ ما عليهِ النّظمُ الكريمُ، عَلى أنْ يقالَ: (إنِ ارتبتُم في البعثِ)؛ للمبالغة في تنزيه أمر البعثِ عن شائبةِ وقوعِ الرّيب فيه[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 196.

(2) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 309.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 63.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 93.

إفـادةُ التّعلّق بمحذوفٍ واصفٍ للرّيب في البعث

البـعـثُ المـرادُ في السّياق هو الـبـعـث بـعد الموت

الفاءُ تربطُ بينَ الدّليل وجـواب الشّرط المحذوف أحيانًا

كـفَى الإنـسانَ تكريمًا أن خلقَه تعالى بنفسه

كـثرةُ أساليب التّوكيد نابعةٌ مِـن أهـمـيّـة الموضوعِ

معنى ﴿مِّنَ﴾ و(أل) في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾:

يقول الآلوسيّ: "و﴿مِّنَ﴾ ابتدائيّةٌ متعلّقةٌ بمحذوف وقعَ صفةً للرّيب، واستُظْهِرَ أنّ المرادَ: (في ريب مِن إمكان البعث)؛ لأنّه الَّذي يقتضيه ما بعدُ، وجوزَ أن يكون المرادُ: (من وقوع البعث)"[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡبَعۡثِ﴾:

أفاد تعريفُ ﴿ٱلۡبَعۡثِ﴾ العهدَ الذّهنيَّ، أي: هو البعثُ مِنَ القبور بعد الموت؛ لِما دلّ عليه إنكارُهم له في مرّات عديدة.

معنى الفاء الرّابطةِ لجواب الشّرط:

قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾، الفاءُ رابطةٌ لجواب الشّرط، أو هي عاطفةٌ على جواب الشّرط المحذوف؛ لأنّ ما جاء بعدَها لا يصلحُ أن يكون جوابًا لفعل الشّرط المُتقدّم، يقول الآلوسيّ: "وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾، دليلُ جوابِ الشّرط، أو هو الجوابُ بتأويل، أي: (وإن كنتم في ريب مِنَ البعث فانظروا إلى مَبدأ خلقِكم ليزولَ ريبُكم فإنّا خلقناكم)... الخ"[2]، فقد ردّ عليهم في شُبهتهم في شأن البعث بأن ينظروا إلى أصل خِلقتهم، وتطوّرِ أحوالها، فإنّ مَن قَدَر على خَلْقهم مِنَ العَدَم المَحْض، أقْدَرُ على إعادتهم بعد الموت، والكلُّ هيّنٌ عليه.

نُكْتَةُ إسنادِ الخَلْق إلى ضمير العَظَمَةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾، في إسنادِ الخَلْق إلى ضمير العَظَمة، إشارةٌ إلى تولّيه سبحانه وتعالى شؤونَ خَلْقه بنفسه، دونَ أن يَكِلَهُ إلى غيره، وفي هذا ما فيه مِن رفعِ شأن خَلْق الإنسان، وتفضيلِه على غيره من خَلْق اللّه.

غرضُ تتابعِ المؤكّدات في السّياق:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾، أكّد الجملةَ بـ(إنّ)

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 111.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 111.

والجملةِ الاسميّةِ، وتَكرارِ ذِكْرِ المُسنَدِ إليه، مرّةً على أنّه اسمُ (إنّ) ضميرُ العظمة، ومرّةً على أنّه فاعلُ ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾؛ لأنّ المقام هنا استوجب التّأكيدَ؛ لأنّه يتعلّق بإثبات أمرِ البعث الّذي ينكرونه، ويأتي عددُ المُؤكّدات متناسبًا مع عِظَم هذا الرَّيب في نفوسهم.

معنى ﴿مِّن﴾ في المراحلِ الخَلْقيّةِ المَذكورة:

حرف المعنى ذو أثرٍ في الدّلالة مفيدٍ

جاءت ﴿مِّن﴾ معَ المراحل الأربع الأولى، مِن مراحل الخَلْق السّبعةِ الّتي ذكرتها الآيةُ، وذلك في قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، وهي مفيدةٌ معنى الابتداء، وتَكرارُها للتّوكيد(1)، أي: خلقًا يبدأ مِن تراب، ثمّ مِن نطفة ... وهكذا.

فائدةُ العدولِ مِن صيغة (مفْعولَة) إلى (فُعْلَة):

المَنحى الصّرفيُّ فيه سعةٌ في استعمال الصّيغ الأنسبِ للدّلالة

في قوله: ﴿نُّطۡفَةٖ﴾، و﴿عَلَقَةٖ﴾، جاءتا على وزن (فُعْلَة)، والمرادُ: (مفعولة)، أي: منطوفة، وممضوغة؛ وذلك لدعوة المخاطَبين للانشغال بأطوار التّخليق، الدّالّةِ على البعث والإبداع، وليس للانشغال بمَن نَطَفَها أو مَضَغَها، فقد تقدّم في أوّل الآية إسنادُ الخَلْق إلى ضمير العَظَمة في ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾ [الحج: 5].

نُكْتَةُ تنكير المراحلِ الأربع الأولى:

مراحلُ خَلْقِ العظيم للإنسان عظيمةٌ

جاءتِ الألفاظُ المُعبِّرةُ عن مراحل الخِلْقة الأولى للإنسان منكّرةً، وهي: ﴿تُرَابٖ﴾، و﴿نُّطۡفَةٖ﴾، و﴿عَلَقَةٖ﴾، و﴿مُّضۡغَةٖ﴾؛ وذلك للتّعظيم والتّفخيم لشأنها، "فهذه أدوارُ خَلْق الإنسان في بطن أمّه، وما كان لأحد عِلْمٌ بهذه الأدوار التّكوينيّة، حتّى جاء العِلْمُ مِن بعدُ ببيانها، وعِلْمُ الله الّذي جاء في القرآن الحكيم، فوقَ كلّ علم؛ لأنّه العالِمُ الخبير، والمُنشئُ الخالقُ القدير، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]"(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 197.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4944.

نُكْتَةُ التّعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ في مراحل الخَلْق:

إفادةُ الحرفِ التّراخيَ الرُّتبيَ والزَّمنيَ

عبّرتِ الآيةُ الكريمةُ عنِ استقلاليّة كلِّ مرحلة مِن مراحل الانتقال بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾، الَّذي أفاد التّراخيَيْن: الرُّتبي والزّمني معًا، وفي ذلك يقول أبو السّعود: "وفي جَعْلِ كلِّ واحدةٍ مِن هذه المَراتبِ مبدأً لخلْقِهم، لا لخلقِ ما بعدَها مِنَ المراتبِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآيةَ، مزيدُ دلالةٍ على عظيمِ قُدْرتِه تعالى، وكسرٍ لسَورةِ استبعادِهم"[1].

غرضُ التّقديمِ والتّأخيرِ في ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾:

أسلوب الاستدلالِ دقيقٌ في انتقاء البِنيةِ والاستعمالِ

قَدّمت الآيةُ (المُخَلّقة) على (غير المُخلّقة)، وفي ذلك قال ابنُ عاشور: "وقَدَّمَ ذِكْرَ الْمُخَلَّقَةِ عَلَى ذِكْرِ غير المخلّقة، على خِلافَ التَّرْتيبِ في الوُجود؛ لِأَنَّ الْمُخَلَّقَةَ أَدْخَلُ في الِاسْتِدْلالِ، وذَكَرَ بَعْدَهُ غَيْرَ الْمُخَلَّقَةِ؛ لِأَنَّهُ إكْمالٌ لِلدَّليلِ، وتَنْبيهٌ على أنَّ تَخْليقَها نَشَأَ عَنْ عَدَمٍ، فَكِلا الحالَيْن دَليلٌ على القُدْرَةِ على الإنْشاءِ، وهو المَقْصودُ مِنَ الكَلامِ"[2].

نُكْتَةُ التّكرير في قوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾:

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكنْ

وقد جاءت هاتان اللّفظتان مضعّفتين؛ للدّلالة على سرعة تطوّرِ الخَلْق فيهما، وللمبالغة في إظهار كثرةِ الأعضاء المُختصِّ كلٌّ منها بخَلْقٍ وصورةٍ[3]، "وفي جعْلِ كلِّ واحدةٍ من هذه المراتبِ مبدأً لخلقِهم، لا لخلقِ ما بعدَها من المراتبِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ الآيةَ، مزيدُ دلالةٍ على عظيمِ قُدرتِه تعالى، وكَسْرٍ لسَورةِ استبعادِهم"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 198.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 112.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾:

تبيينُ معجزة الخلق إقناعٌ وبلاغٌ

اللّام في: ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ هنا للتّعليل، وهي متعلّقةٌ بالفعل: ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾، واللّامُ في ﴿لَكُمۡۚ﴾، إمّا أن تكون للتّخصيص، أي: لكم دون غيركم، أو للتّعدية، والمعنى: "﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ أصلَ نشأتكم، مع قُدرته تعالى على تكميل خَلْقِه في لحظة واحدةٍ، ولكن ليبيّنَ لنا كمالَ حِكْمته، وعظيمَ قُدرته، وسعةَ رحمته"(1).

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾:

آيـةُ الله في الخَلْق متجدّدةٌ على الدّوام

التّعبيرُ بالفعل المضارعِ هنا يُفيدُ التّجدُّدَ الاستمراريَّ، فخَلْقُ الإنسانِ متكرّرٌ حتّى قيام السّاعةِ، وعِلّته قائمةٌ متجدِّدَةٌ بتجدُّدِ هذا الخَلْق، وقولُه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾: "أي: خلقناكم على هذا النّمط البديعِ، لنبيّنَ لكم جميلَ نظامنا، وعظيمَ حِكمتنا، الّتي مِن جُملتها أمرُ البعثِ"(2)، وهو أمرٌ قائمٌ متجدّدٌ، نلاحظُه في الأرحام الّتي تدفعُ في كلّ يوم بلا انقطاع، وسيبقى هذا القانونُ المُطّردُ - بأمرِ اللّه وتقديرِه - إلى يوم القيامةِ.

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾:

الحذفُ للتّعميم والتّفخيم للاستفادةِ والاقتناع

في قوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾، ذكرَ الرّازيّ وجهين في تقدير المفعول المحذوف؛ "**أحَدُهُما:** لِنُبَيِّنَ لَكُمْ أنَّ تَغْيِيرَ المُضْغَةِ إلى المُخَلَّقَةِ، هو بِاخْتِيارِ الفاعِلِ المُخْتارِ، ولَوْلاهُ لَما صارَ بَعْضُهُ مُخَلَّقًا وبَعْضُهُ غَيْرَ مُخَلَّقٍ، **وثانيهما:** التَّقْدِيرُ: (إنْ كُنْتُمْ في رَيبٍ مِنَ البَعْثِ فَإنّا أخْبَرْناكُمْ أنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ كَذا وكَذا؛ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ما يُزِيلُ عَنْكُمْ ذَلِكَ الرَّيْبَ في أمْرِ بَعْثِكُمْ، فَإنَّ القادِرَ على هذه الأشْياءِ كَيْفَ يَكُونُ عاجِزًا عَنِ الإعادَةِ)"(3).

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 533.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 89.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 204.

ثـمّ يعيده وهو أهون عليه

وأضاف أبو السّعود: "وتركُ المفعولِ لتفخيمِه كمًّا وكيفًا، أي: خلقناكُم على هذا النَّمطِ البديعِ لنبيّن لكم بذلك ما لا تحصرُه العبارةُ مِنَ الحقائقِ والدَّقائقِ، الّتي مِن جُملتها سِرُّ البعثِ، فإنَّ مَن تأمَّل فيما ذُكِر مِنَ الخَلْقِ التّدريجيِّ تأمُّلًا حقيقيًّا، جزمَ جَزْمًا ضروريًّا بأنَّ على خَلْقِ البشرِ أوّلًا من تراب لم يشَمَّ رائحةَ الحياةِ قَطُّ، وإنشائِه على وجهٍ مصحِّحٌ لتوليدِ مثلِه مرَّةً بعد أُخرى، بتصريفِه في أطوارِ الخلقةِ، وتحويلِه مِنْ حالٍ إلى حالٍ، مع ما بينَ تلك الأطوارِ والأحوالِ مِنَ المُخالفةِ والتَّباينِ، فهو قادرٌ على إعادتِه، بل هو أهون في القياسِ، نظرًا إلى الفاعلِ والقابلِ"[1]، يقول الأندونيسيّ: "وفيه عدولٌ عنِ الماضي، فالنّسق قبلُ ماضٍ؛ لاستحضار الصّورة، ومعمول ﴿لِّنُبَيِّنَ﴾ محذوف للعموم، والمراد: لنبيّن لكم إمكانَ البعثِ بذِكْر النّظير"[2].

نُكْتَةُ تقديمِ التّبيين على الإقرار والإخراج:

التّبيينُ مسلكٌ في البلاغ مبينٌ

يقول أبو السّعود: "وتقديمُ التَّبيينِ على ما بعدَهُ، مع أنَّ حصولَه بالفعلِ بعد الكلّ؛ للإيذان بأنَّه غايةُ الغاياتِ ومقصودٌ بالذّات"[3]، والمرادُ: تبيانُ ما يرفع اللّبسَ، ويزيلُ عنكم الشّكوكَ المكتنفةَ في أمر البعث، إذِ المنطقُ يقتضي أنّ مَن خلقه أوّلَ مرّة، قادرٌ على بعثه ثانيةً، وعليه: فنحن نقرُّ في الأرحام ما نشاء إقرارَه، حتّى يكتملَ ويخرجَ إلى الدّنيا بشرًا سويًّا، وذلك الإقرارُ والإخراج قَدَرُ اللّهِ القادرِ، وحِكْمةُ الخالق الأزليّةُ، الّتي لا يُعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

معنى الواو في قوله: ﴿وَنُقِرُّ﴾:

بيانُ أنّ معانيَ حـــرفِ المعـنـى بحسبِ معاني الآيةِ

الواوُ إمّا أن تكون عاطفةً على قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.
(2) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 310.
(3) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 310.

وعُدِلَ عنِ الفعل الماضي إلى المضارع؛ للدّلالة على استحضار تلك الحالةِ، لِما فيها مِنَ المشابهة واستقرارِ الأجساد في الأجداث، ثمّ إخراجِها منها بالبعث(1)، وإمّا أن تكونَ استئنافيّةً، فهو "استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ حالِهم بعد تمام خلقِهم، وعدمُ نظمِ هذا وما عُطف عليه في سِلْكِ الخَلْق المُعَلّل بالتّبيّن، مع كونِهما مِن متمّماته ومِن مبادي التَّبيين أيضًا؛ لِما أنَّ دلالةَ الأوَّلِ عَلى كمالِ قدرتِه تعالى على جميعِ المقدورات، الّتي منْ جُملتها البعثُ المبحوثُ عنه، أجلى وأظهرُ، أي: ونحنُ نقرُّ في الأرحام بعد ذلك ما نشاءُ أن نقرَّه فيها"(2).

دلالةُ التّعبير بـ﴿وَنُقِرُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

التّعبيرُ بالفعل المضارعِ لاستحضار الصّورة والتّجدّدِ

يُقال: قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قَرارًا، إذا ثبتَ ثُبوتًا جامدًا، وأصلُه: مِنَ القُرِّ، وهو البرد، وهو يقتضي السّكون، والحَرُّ يقتضي الحركةَ(3)، ولذلك سمّى القرآنُ الكريم الرَّحِمَ بأنّه قرارٌ مكين، فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ [المؤمنون: 12 - 13]، والتّعبيرُ بالمضارع هنا يفيدُ استحضارَ الصّورة، فضلًا عنِ التّجدّدِ الاستمراريِّ لهذا الحِفظ.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾:

كلُّ الأرحام صالحةٌ لاستنباتِ الحياة بقُدرة ربّ الأرض والسّماوات

قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾، أفاد التّعريفُ هنا الجنسيّةَ الاستغراقيّةَ؛ لتعمَّ كلَّ الأرحام، سواء أكانت للنّاس أو لكلّ مَن تحمّل برحِمها، والرَّحِمُ علاقةٌ ووشيجةٌ، تحتضنُ بذرةَ الحياة، ومراحلَ التّكوينِ للخَلْق الإلهيّ للإنسان، وتجمعُ علائقَ القُربى، والأصلُ أن يبرز دورُ الأرحام في تحقيق وجودِ الأنام، وجيء بلفظِ ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ للدّلالة على أنّ ما استقرَّ فيها إلى نهاية التّكوين، هو الّذي يخرجُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 199.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.
(3) الرّاغب، المفردات: (قرّ).

للحياة، ويواصلُ المراحلَ المتبقّاةَ، وما سقط قبلَ انتهاءِ التّكوين فهو كالعدمِ الّذي لا معنى له.

سِرُّ تقديم شبْهِ الجملة ﴿فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾:

مَن رَعتْهُ العنايةُ فلا خوف عليه مِنَ الإذايةِ

قُدّم شبْهُ الجملة على مفعول ﴿وَنُقِرُّ﴾؛ للعناية بهذا الجنين في بطن أُمِّه، ولبيانِ حفظِ اللّه تعالى له، ورعايةُ اللّهِ للجنين، هو اصطناعٌ على عين العليّ القادرِ، الّذي أوجد عواملَ حفظِه مِنَ الاندثار، ووقايتِه مِنَ الأخطار، فلا يلحقُه أذًى رغم أنّه مُحاطٌ بالمخاطر، في ظلمةِ الرّحِم المُطبِقة.

نُكْتَةُ التّعبير بالاسمِ الموصولِ وصلتِه في الآية:

الموصوليّةُ ذاتُ أثرٍ في الدّلالة مفيدٍ

قوله: ﴿مَا نَشَآءُ﴾، أفاد التّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ العمومَ والإبهامَ، لِمَن اقتضتِ المشيئةُ حفظَه، أي: نقرُّ فيها مَن شئنا أن نحفظَه، فضلًا عن دلالة الاسم الموصول على تفخيم شأنِه، وتهويل أمرِه، والتّعبيرُ بجملةِ صلةِ الموصول بالمضارعيّة؛ للدّلالة على تجدُّد هذا الحفظ والرّعاية، وحُذف مفعولُها، وهو الضّميرُ العائد؛ إيجازًا لدلالة ما قبْلَه عليه.

دلالةُ تَكرار التّعبيرِ بضمير العَظَمةِ في الآية:

كلُّ فعلٍ مِنَ العظيمِ عظيمٌ

تكرّر ضميرُ العَظَمة في قوله: ﴿خَلَقۡنَٰكُم﴾، و﴿لِّنُبَيِّنَ﴾، ﴿وَنُقِرُّ﴾، و﴿نَشَآءُ﴾، و﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾، و﴿أَنزَلۡنَا﴾، وذلك لأنّ الأمر متعلّقٌ بمراحل خلْقِ الإنسان وأطواره الّتي جاءت تدليلًا على البعث، فاستحقّ الأمرُ أن يكون إسنادُ الأفعال فيها لضمير العَظَمةِ مباشرةً؛ لتفخيم شأنِها.

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿أَجَلٍ﴾:

كلُّ مخلوقٍ منوطٌ بأجلِه في الحياة والموت

نُكّرَ الأجلُ للتّعميم؛ لأنّ مُدَدَ البقاءِ في الأرحام متفاوتةٌ، يقول أبو السّعود: "﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، هو وقت الوضعِ، وأدناهُ ستّةُ أشهرٍ، وأقصاهُ سنتانِ، وقيل: أربعُ سنين، وفيه إشارةٌ إلى أنّ بعضَ ما في الأرحامِ، لا يشاءُ اللّهُ تعالى إقرارَه فيها بعد تكاملِ خلقِه فتُسقطُه"[1].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.

سِرُّ بناءِ لفظِ ﴿مُّسَمًّى﴾ للمفعول:

جاء قولُه: ﴿مُّسَمًّى﴾ مبنيًّا للمفعول؛ للعلم بالفاعل، فاللهُ تعالى هو الّذي سمّى أجلَه وقَدّره في علمه اللَّدُنّيّ، فحُذِف الفاعلُ للإيجاز مِن ناحية، ولدعوتِهم للانشغال بشأن الخَلْق عن خالقه؛ لأنّ أمرَ خالق الإنسان فوقَ مقدورِهم واستطاعتهم.

لا أحدَ ينازعُ اللهَ في الإحياء والإماتة

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في قوله: ﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالفعل المضارع التّجدُّدَ الاستمراريَّ؛ لأنّ هذا الأمرَ قائمٌ ومستمرٌّ ما دامتِ الحياةُ، فضلًا عمّا فيه مِن استحضار الصّورة.

لا ينقطعُ مَددُ اللهِ بإيجاد البشرِ على الدّوام

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالإفرادِ في قوله: ﴿طِفۡلٗا﴾:

يقول الآلوسيّ في تعليل الإفراد: "والإفراد إمّا باعتبار كلِّ واحد منهم، أو بإرادة الجنس الصّادقِ على الكثير، أيّ: أنّه اسمُ جنس، أو لأنّه مصدرٌ فيستوي فيه الواحد وغيرُه، أو لأنّ المرادَ طفلًا طفلًا فاختصر"[1]، ولا شكّ بأنّ الإفراد يدلُّ على العناية بهؤلاء الأطفال كلٌّ على حِدَةٍ.

ذِكْرُ الطّفولةِ في البيان اهتمامٌ بجنسِها على الدّوامِ

دلالةُ الموقعِ النّحويِّ للفظِ ﴿طِفۡلٗا﴾:

﴿طِفۡلٗا﴾ حالٌ مِنْ مفعول ﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾[2]، على معنى: نُخرجكم مِن بطون أمّهاتِكم حالَ كونِكُم صرتُم أطفالًا، تستطيعون العيشَ خارجَ الأرحام.

اختيارُ موقعِ اللّفظِ مهمٌّ في التّعبير الدّلاليِّ المفيدِ

نُكْتَةُ إعادةِ لامِ التّعليل في ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾:

إعادة اللّام في ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ مع تجريدِ الأوّلين عنها ﴿وَنُقِرُّ﴾ ﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾؛ للإشعارِ بأصالته في الغرضيَّة بالنِّسبةِ إليهما، إذْ عليه يدورُ التَّكليفُ المُؤدّي إلى السَّعادةِ والشَّقاوةِ[3]، وهي بتكرارها

بلوغُ الأشُدِّ هو مناطُ المسؤوليّة والجزاءِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 113.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 232.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.

تُجَدِّدُ ارتباطَ كلِّ مرحلة بالعُمُر المفترض، وأنّ بلوغَ الرّشد منعطفٌ مهمٌّ في حياة الإنسان، حيثُ يبدأ التّكليفُ، وتُناط بالمَرء المسؤوليّةُ، وتلزمُه العقوبةُ حالَ وقوعِ الخطأ أوِ الجريمة.

فائدةُ إسنادِ البلوغِ إلى ضمير المخاطَب:

للضّمائرِ أثرٌ في المعنى مِن حيثُ النّوعُ والعددُ

عدلتِ الجملةُ عن نسقِ الأفعال السّابقة في إسنادها إلى اللّه، وأسنَدتِ البلوغَ إليهم هنا، مع أنّه لا يكون دون مشيئتِه سبحانه وتعالى؛ لأنَّه المناسبُ لبيانِ حالِ اتّصافِهم بالكمالِ، واستقلالِهم بمبدئيّةِ الآثارِ والأفعالِ[1].

فائدةُ التّعبير بالأشُدّ:

بلوغُ الأشُدِّ هو الغايةُ مِن تطوّر الخلقِ الإنسانيّ

جُعل بلوغُ الأشدّ عِلّةً لإخراجهم أطفالًا؛ لأنّه أقوى أطوارِ الإنسان، وأجلَى مظاهرِ مواهبِه في الجسم والعقل، كما قال تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ [الأحقاف: 15]، وهو الجانب الأهمُّ، كما أومأ قولُه بعدَ هذا ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾، فجَعَل الأشُدَّ كأنّه الغايةُ المقصودةُ مِنَ تطويره[2].

دلالةُ قوله: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ على المحذوف:

بتقدير المَحذوفِ في الذّهن يتجلّى المعنى ويكتملُ

يقول أبو السُّعود عنِ الجملة السّابقة: "عِلّةٌ لـ ﴿نُخۡرِجُكُمۡ﴾ معطوفةٌ على عِلّةٍ أُخرى له مناسبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمَّ نُخرجُكم لتكبروا شيئًا فشيئًا، ثمّ لتبلغوا كمالَكم في القوة والعقل والتَّمييزِ"[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾:

تتنوّعُ دلالاتُ حرفِ المعنى بحسبِ المعاني المُرادةِ

الواو إمّا أن تكون عاطفةً على قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾، وإمّا أن تكون استئنافيّةً، شَرعَت بوصف حالةٍ جديدةٍ، يقول الآلوسيّ عنها: "استئنافٌ لبيان أقسام الإخراج مِنَ الرّحِم،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 94.

كما استوفى أقسامَ الأوّل، وفيه تبْيين تفضيلِ حالِ بلوغ الأشُدّ، وأنّها الحقيقُ بأن تكون مقصودةً مِنَ الإنشاء، لكنْ منهم من لا يصلُ إليها فيُحْتَضرُ، ومنهم مَن يجاوزُها فيُحْتَقرُ"(1)، ويمكنُ أيضًا أن تكون الواو للاعتراض، حيثُ جيءَ بِقَوْلِه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، على وجْهِ الاعْتِراضِ؛ اسْتِقْراءً لِأحْوالِ الأطْوارِ الدّالَّة على عَظيم القُدْرَةِ والحِكْمَةِ الإلَهيةِ، مَعَ التَّنْبيهِ على تَخَلُّلِ الوُجودِ والعَدَمِ أطْوارَ الإنْسانِ بَدْءًا ونِهايَةً، كَما يَقْتَضيهِ مَقامُ الاسْتِدْلالِ على البَعْثِ، والمَعْنَى: (ومِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى قَبْلَ بُلوغِ بَعْضِ الأطْوارِ)(2).

معنى (مِن) ونُكْتَةُ تقديم ﴿وَمِنكُم﴾:

تـقـديـمُ ما بـه العـنـايةُ والاهتمامُ آثَرُ في البيان

(مِن) هنا تبعيضيّةٌ، على معنى: أنّ بعضَهم مَن يُتَوفّى وليس جميعُهم، وقد أفاد تقديمُ شِبهِ الجملة الخبريّة على المبتدأ (مَنْ) العنايةَ والرّعاية بالمُخاطَبين؛ لأنّ الآية سيقت لهم دليلًا على إثبات الوحي، فاقتضى الأمرُ أن يُقدِّم النّصُّ ما هم ببيانِه أعنى، وهو لهم أهمُّ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بما لم يُسمّ فاعلُه ﴿يُتَوَفَّىٰ﴾:

الـدّعـوةُ لـلانـشـغـال بـالـفـعـلِ عن فاعله مُبيِّنَةٌ عنِ المُراد

بناءُ الفعل لِما لم يُسَمّ فاعلُه في قوله: ﴿مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾؛ لأنّ الفاعل معروفٌ ومُقَرّرٌ، وإنّما عليهم أن ينشغلوا بما هو أنفعُ لهم، وهو حصولُ الوفاة لهم، يقول أبو السّعود: "والتَّوفّي على صيغةِ المبنيِّ للمفعولِ، للجَري على سنَنِ الكبرياءِ، لتعيين الفاعلِ"(3).

معنى (الواو) و(من) في قوله: ﴿وَمِنكُم﴾:

طـولُ السّلامة قَـدَرٌ وكـلُّ منيّة بقضاء

قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾، الواو هنا عاطفةٌ، عَطَفت هذه الجملةَ على قوله: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾، و(مِن) هنا تبعيضيّةٌ، على معنى: أنّ بعضَهم مَن يُتَوفّى، وليس جميعُهم.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 114.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 201.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95.

غرضُ التّعبير بالاسمِ الموصول وصلتِه:

أرذل العُمُر سَقَمٌ مُفْسِدٌ وهَرَمٌ مُفَنِّدٌ

قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، التّعبيرُ بالاسمِ الموصول هنا للتّعميم؛ لأنّ تحديدَ مَن يُرَدُّ إلى أرذل العمر ليس مِن منهج القرآن، ولا مُرادًا مِن سياق الآية، وجاءت جملةُ صلةِ الموصول فعليّةً؛ لتدلَّ على تجَدُّدِ هذا الحال.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿يُرَدُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

الـرّدُّ إلى أرذل العُمُر بلاءٌ لا يتمنّاه العاقلُ

قوله تعالى: ﴿مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾، الارتدادُ: الرّجوع، والاسمُ منه الرِّدَّةُ بالكسر، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التّركيب فهو بمعنى الرّجوع والإرجاع[1]، وبناءُ الفعل لِما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنّ الفاعل معروفٌ ومُقَرَّرٌ، وإنّما عليهم أن ينشغلوا بما هو أنفع لهم إذا وصلوا لمثل هذه الحالة في آخر العُمُر، و"الحَقّ سبحانَه جعلها نماذجَ؛ حتّى لا نقول: يا ليتَ أعمارَنا تطولُ؛ لأنّ أعمارَ الجميع لو طالتْ إلى أرذَلِ العمر لأصبح الأمرُ صعبًا علينا، فمِن رحمة اللّه بنا أنْ خلقَ الموتَ"[2].

نُكْتَةُ إسناد لفظِ ﴿أَرۡذَلِ﴾ إلى ﴿ٱلۡعُمُرِ﴾:

أرذَلُ العُمُرِ نَكْسَةٌ في الخَلْق وبَلاء في الحالِ

أسندَ القرآنُ الشّيخوخةَ والهرمَ إلى العُمُر، والمرادُ الشّخصُ المُعَمَّرُ، على سبيل المجاز العقليِّ لعلاقة السّببيّةِ؛ لأنّ تقدّمَ العُمُرِ هو السّببُ في هذه الحالة؛ لأنّ اللّه تعالى يقول: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ٦٨﴾ [يس: 68].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ﴾:

عِلّةُ ذَمّ أرذل العمر ذهابُ العِلْم كُلّيّةً

يقول الآلوسيّ: "واللّامُ متعلّقةٌ بـ ﴿يُرَدُّ﴾، وهي لام العاقبةِ، والمرادُ: المبالغةُ في انتقاص علمِه، وانتكاس حالِه، وليس لزمان ذلك الرَّدّ حَدٌّ محدودٌ، بل هو مختلِف باختلاف الأمزجةِ[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ردد).

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9706.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 114.

معنى ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ﴾:

أشدّ الهوان ذِلّةُ المَـرءِ وجهالتُه بـعـدَ عِـلْـمِـه ومكانتِه

و﴿مِنۢ﴾ الدّاخِلَةُ على ﴿بَعۡدِ﴾ هُنا مَزيدَةٌ لِلتَّأْكيد، أَوْ هي لِلابْتِداءِ عِنْدَ الجُمْهورِ، وهو ابْتِداءٌ صوري يُساوي مَعْنَى التَّأْكيدِ[1]، والانتقالُ مِنَ العِلْم والقوةِ الذّهنيّة إلى عدم العِلْم، هو أخسُّ العُمُر وأدْوَنُه، "فيصيرُ مِن بعد عِلْمه بالأشياء وفَهْمِه لها، لا عِلْمَ له ولا فَهْمَ، شأنُه في ذلك شأنُ الأطفال"[2].

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيّ بين سورتَي النّحلِ والحجِّ:

سياقُ آيةِ الحجّ أدقُّ في تصوير مراحلِ الخَلْق

جاء قولُه تعالى في سورة النّحل: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠﴾ [النّحل: 70] بدون (من) الموجودةِ هنا، وفي ذلك يقول ابنُ الزّبير: "للسّائل أن يسألَ عن زيادة ﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾، وسقوطِها من آية النّحل مع اتّحاد المعنى، هل ذلك لسبب حاملٍ يقتضي زيادتَها هنا، وسقوطَها هناك؟.

والجوابُ: أنّ سببَ ذلك - واللّه أعلم - التّناسبُ وتشاكلُ النّظم ومراعاةُ اللّفظِ، ألا ترى إلى تكرّر (مِن) في آية الحجّ، فقد تكرّرت لفظةُ (من) في ستّة مواضعَ، الخمسةُ منها قبل قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾، والواحدةُ بعدَها، وكلّها مُحْرِزَةٌ معناها الّذي جيء بها مِن أجله، إلّا الّتي في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾، إذِ النّظمُ مع سقوطها ملتئمٌ، والمعنى تامٌّ، فاستوى وجودُها وعدمُها، فاستعارها سياقُ آية الحجّ للتّشاكل والتّناسب في النّظم، ولم يكن في آية النّحل ما يستدعيها، إذ لم يَرِد ما يقتضيها، فورد كلٌّ على ما يجبُ ويناسبُ"[3]، ويمكنُ أن يُضاف إلى ما تقدّم: أنّ آية سورةِ الحجّ جاءت في معرضِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 202.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 281.

(3) ابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/ 303.

الاستعراض الدّقيقِ لمراحل الخلق، بتفصيلٍ انفردت فيه سورةُ الحجّ، فاقتضى ذلك وجودَ (مِن) فيها؛ لمزيدٍ مِنَ التّوكيد في النّفي، للعِلْم في هذه المرحلة.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَيۡـًٔا﴾ في السّياق:

الشّيخوخةُ آفاتٌ وضَررٌ والنّسيانُ فيها أدهى وأمَرُّ

في قوله تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ﴾، جاءت ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ نكرةً، والنّكرةُ إذا وقعت في سياق النّفي أفادتِ العمومَ، والمعنى: (لا يعلمُ شيئًا مهما كان، فلا يستفيدُ علمًا جديدًا، بل إنّ علمَه يتناقصُ، حتّى يبدأ بنسيان العاداتِ المألوفةِ)، قال أبو السّعود: "أي: شيئًا مِنَ الأشياءِ، أو شيئًا مِنَ العلمِ، مبالغةً في انتقاص عِلْمِه، وانتكاس حاله، أي: ليعودَ إلى ما كان عليهِ في أوان الطّفوليّة، من ضعفِ البنيَة، وسخافةِ العقل، وقلّة الفهم، فينسَى ما علمِه، ويُنكر ما عرفَهُ، ويعجزُ عمّا قدرَ عليه"[1].

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيِّ بين سورتَي الحجّ وغافر:

يمتازُ سياقُ آية سورة الحجّ بإثبات وقوع البعث وتحقُّقِه

في سورة المؤمن جاء قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: 67]، بينما في الحجّ: ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، ولم يقع في غافر التّعريفُ بهذه الأحوال مِنَ الانتقال عنِ العلقة، بقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، أي: تامّةَ الخلق وغيرَ تامّة، فأشار تضعيفُ لفظ مخلّقةٍ إلى هذا، فقيل: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾، أمّا السّقطُ المولود لغير التّمام، فحصل من مفهوم قوله تعالى بعدُ: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، فهذه الانتقالاتُ والأحوالُ قدِ اختصّت بها هذه الآيةُ، ولم ترِد في آية سورة المؤمن،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95.

مع البادي في اتّحاد المقصودِ في الموضوعين، فلسائلٍ أن يسأل عن وجه ما ورد في الآيتين؟

والجواب، والله أعلم: أنّ آية سورة الحجّ مقصودٌ فيها إقامةُ البرهان على البعث الأخرويّ، وبسطُ الدّلالات على كيفيّتِه، وإرغامُ منكريه، ألا ترى أنّ هذه الأحوالَ والانتقالاتِ، على ما وضحَ مِنَ التّدريج، لا تكونُ إلّا مِن فاعل قادرٍ مختارٍ عليمٍ حكيم، ويزيدُ هذا المقصودَ - أيضًا - بيانًا، تعقيبُ آيةِ الحجّ بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ﴾، فهذا إحياءٌ بعد الموت، ثمّ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحج: 6]، فتأمّلْ هذا التّعقيبَ، وافتتاحَ الآية بقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾، واعتَبِر ما انطوت عليه هذه الآيُ، يَلُحْ لكَ ما تقدّم مِن مقصودِها، أمّا آيةُ سورةِ المؤمن فلم تتجرّد لهذا الغرض، وإن تضمّنت ذلك بالإيجاز، وإنّما بناؤها على تذكير الخَلْق وتنبيهِهم على وحدانيّته سبحانَه، وانفرادِه بالخَلْق والأمر، وتنزيهِه عنِ الشّركاء والأنداد، ونفْيِ ما عُبِدَ مِن دونه تعالى، وإنّما اختصّت عن آية سورة الحجّ بما ذكرنا، واختصّت تلك بما تقدّم، فلذلك زيدَ فيها مِنَ التّفصيل ما تقدّم، ولم يكنِ العكسُ ليناسبَ، والله أعلمُ بما أراد(1).

بلاغةُ المتشابهِ اللّفظيّ بين سورتَي الحجّ والمؤمنون:

تناسبُ ذِكْر مراحل الخلقِ مع السّياقاتِ المتنوّعةِ

في سورة المؤمنون جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون: 12 -

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 2/ 357_358.

16]، فقد بدأت سورةُ المؤمنون بمرحلة الطّين، وهي تأتي بعد مرحلة التّراب التّي ذكرتها سورةُ الحجّ، بيدَ أنّه بعد مرحلة العلقة في سورة المؤمنون كان العطفُ بين هذه المراحل بالفاءات، الّتي تُفيد التّرتيبَ والتّعقيبَ السّريعَ، بخلاف آية الحجّ، ولم تأت آياتُ المؤمنون على وصف المُضغة بالتّخليق وعدمِه، كما فعلت آيةُ الحجّ، وزادت بأنّ العظام كُسيت لحمًا، وأنّه أصبح بعد ذلك خلقًا آخرَ.

وواضحٌ من سياق آيات سورة المؤمنون، أنّ ذِكرَ مراحلِ الخَلْق لم يُقصَد فيه ذِكْرُ مراحل الخَلْق كاملةً؛ ليتناسبَ ذلك مع سياق الآيات فيها، في ذِكر مظاهرِ قدرةِ اللّه في الكون، بينما نجدُ أنّ سياق آيةِ الحجّ، كان في الاستدلال على البعث؛ لذلك ذُكِرت مراحلُ خَلْق الإنسان كاملةً، حتّى بعد خروجه مِن رَحِم أُمّه، وفُصِل بين هذه المراحل بـ﴿ثُمَّ﴾ الّتي أعطت كلّ مرحلةٍ خصوصيّتَها واستقلالَها؛ للدّلالة على أنّ مَن خَلَق الإنسانَ وفْق هذه الدّقّة المتناهيةِ، والمراحلِ المختلفة، قادرٌ على أن يبعثَه بعد موته.

معنى الواو في جملة: ﴿وَتَرَى﴾:

الأدلّــــةُ على الأنفسِ والآفاق دالّــةٌ عـلى أنّ البعث حقٌّ

قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾، الواو هنا عاطفةٌ، عطفت هذه الجملةَ على قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾، ومُسَوّغ العطفِ الاشتراكُ بينهما في كون الأولى تناولت الأدلّةَ الأنفسيّةَ على البعث، وهذه تناولت الأدلّةَ الآفاقيّةَ(1).

دلالةُ الخِطاب بـ ﴿وَتَرَى﴾ والمخاطَبُ فيه:

بيانُ أنّ رؤية ظواهرِ الكون بصريّةٌ

الخطابُ هنا لكلِّ أحدٍ ممَّن يتأتّى منه الرّؤيةُ، وصيغةُ المضارع للدّلالة على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، وهي بصريةٌ(2).

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 114.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95.

كلُّ ما في ظاهر الأرض وباطنِها دالٌّ على قدرة الله وجلالِه

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾:

التّعريف هنا للعهد الذّهنيّ، والمرادُ بها الأرضُ الّتي نعرفُها، والتي تخضرُّ عند نزول الغيث، وخلاصةُ العرض: كونُ الدّليل على البعث قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً﴾ ميّتةً يابسةً، ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ﴾ وتحرّكت بالنّبات وانتفخت، ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ﴾ صنفٍ حسنٍ رائقٍ، يسرُّ ناظِرَه[1].

كلُّ لفظةٍ جاءت مكينةً مُستقرّةً في مكانها

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالهمودِ في آية الحجّ والخشوعِ في فصّلت:

جاء في سورة فصّلت قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [فصلت: 39]، وهنا في سورة الحجّ: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً﴾، ولا شكّ أنّ لفظةَ الهمود، دلّت على خُلوّ الحيّ مِنَ الحياة، وغيرِ الحيّ مِن حقيقته ومعنى وجودِه، وهذا ملائمٌ للاستدلال على بعث الله تعالى لهذه الأرض بعد هُمودها، وهو أدلُّ في الاستدلال على البعث، بينما نجدُ أنّ لفظةَ الخشوع في سورة فصّلت قد تناسبت وتناغمت مع جوّ العبادةِ والخشوع والسّجودِ فيها، فقد سبقَها قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ٣٨﴾ [فصلت: 37 - 38]، فكلُّ لفظةٍ جاءت ملائمةً لسياقها الّذي وردت فيه، ولو أُبدلت لفظةٌ منهما مكانَ أُختها لذهبَ الرّونقُ، ولفسدَ المعنى.

والعُدولُ عنِ اللّفظ الأصليّ المتوقّعِ ابتداءً، وهو (السّكون والحركة)، إلى (الهمود والاهتزاز) يُسمّى فنَّ الإرداف؛ لأنّ العدولَ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 513.

إلى الرّديف للمُلاءمةِ؛ لأنّ (الهمود) سكونٌ مع موت، و(الاهتزاز) مُشعِرٌ بالحياة والانبعاث بعد الموت.

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿هَامِدَةً﴾:

﴿هَامِدَةً﴾ حالٌ مِنَ الأرضِ، والمعنى: (وتراها في حال كونها خاليةً مِن مظاهر الحياة)، وهو تصويرٌ يبيّنُ اللّه تعالى فيه ما يقعُ مِن تغييرٍ للأحياء مِن حال إلى حالٍ، وهو ما صوّر به الأرضَ حالةَ همودها، وما يُلمحُ عليها مِن يُبوسة وجُمود، فإذا نزل عليها الماءُ مِنَ السّماء، اهتزّت بالحياة، وتغيّرت مِن حالة الهمود والجمودِ، إلى حالة الحياة والنّماءِ والعطاء، والخطابُ في هذا السّياق لكلِّ مَن هو مؤهّلٌ للخطاب؛ وهو استدلالٌ ناصعٌ جليٌّ وبليغٌ، على قُدرة اللّه تعالى، الّذي يُخرجُ الحيّ مِنَ الميّت، ويُحيي الأرضَ بعدَ موتها.

الـهـمـودُ دلـيـلُ الحـالـةِ المقابِلَة للنّموِّ والحياةِ

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ:

التّعبيرُ بالجملة الشّرطيّةِ أدلُّ على مقصودِه مِنَ الجملة الخبريّة العاديّة؛ لأنّه يعلّقُ جوابًا على فعل الشّرط، أو يربطُ بين سببٍ ونتيجة، وهنا علّقَ اهتزازَ الأرضِ وارتفاعَها بنزول الماء.

بـيـانُ ارتـبـاط جـواب الـشّرط بتحقُّقِ فعْلِه

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ (إذا) دون (إنْ):

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ﴾، جاءت (إذا) وهي ظرفٌ مستقبلٌ في محلّ نصبٍ بجوابه، متضمِّنٌ معنى الشّرط؛ لأنّها تأتي مع الأمر المحقّقِ، ونزولُ الماءِ عليها بشرى لهم بأنّه أمرٌ محقّق.

بشرَى للمؤمنين بـتـحـقُّـقِ نـزولِ المـاء الّـــذي به الحياةُ

نُكْتَةُ المَجازِ في إسناد الاهتزازِ إلى الأرض:

المرادُ باهتزاز الأرض: هو تحرُّكُ نباتِها، أوِ انفصالُ بعضِ أجزائها عن بعض؛ لأجل خروجِ النّبات، وفي كلا المعنيَيْن هناك مجازٌ عقليٌّ في إسناد الاهتزاز لَمن لم يقعْ منه، فاللّهُ تعالى هو الَّذي يُحرّكها ويحرّكُ نباتَها، ويمكن أن يكون تشبيهُ الأرضِ بالنّائم الّذي تحرّك، على سبيل الاستعارة التّبعيّة[1].

إسـنـادُ الاهـتـزازِ إلى الأرض صورةٌ موحية بالمُرادِ

(1) الأندونيسيّ، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/ 311.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في قوله: ﴿وَرَبَتۡ﴾:

قرأ أبو جعفر بهمزة مفتوحةٍ بعد الباء الموحّدة ﴿وَرَبَأَتۡ﴾، وقرأ الباقون بحذف الهمزة[1]، و﴿وَرَبَتۡ﴾ أي: زادَت، مِنۡ رَبا يَرۡبو، و﴿وَرَبَأَتۡ﴾ بالهمزِ أي: ارتفعَتۡ، من: رَبَأَتِ الأَرۡضُ ترۡبأً رَباءً: زكَتۡ وارۡتَفَعَتۡ[2]، وكِلا القراءتَيۡن تُكمِلان بعضَهما؛ فإنّ ارتفاعَها ناشىء عن نموِّها وازديادِها، وفي قراءة أبي جعفر مجازٌ عقليٌّ في إسناد الارتفاع لِمَن لم يقعۡ منه، فاللّهُ تعالى هو الَّذي رفعها، ولم ترتفع بنفسها.

تكاملُ القراءتان المتواترتان في تجليةِ المعنى

معنى الواو في قوله: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ﴾:

الواو هنا عاطفةٌ، عطفت حالًا على حال مِن أحوال الأرض، حيثُ عطفتِ الإنباتَ على الاهتزاز والارتفاع، وقولُه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾، أي: وأخرجت بالماء كلَّ نوعٍ مِن أنواع النّبات حَسَنٍ، يسرُّ ناظِرَه ذلكَ، أي: الصّنعُ البديعُ في الإنسان والأرضِ حاصلٌ بأنَّ اللّه هو الحَقُّ، أي: الموجودُ الثّابت، المتحقّقُ في الأُلوهيّة، فهذه الموجوداتُ دالّةٌ على وجود الصّانع، وأنَّهُ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ، أي: شأنُه إحياءُ الموتى، كما أحيا الأرضَ الميّتةَ"[3].

تَعۡطِفُ الأفعالَ على بعضها؛ لتجلية الصّورة واكتمالِها

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الإنبات إلى الأرض:

في إسناد الإنباتِ إلى الأرض مجازٌ عقليٌّ حُكميٌّ[4]، فاللّه تعالى هو الّذي يُنۡبتها، فأُسۡنِدَ الفعلُ لغير الفاعل اتّساعًا؛ لأنّ اللّه تعالى هو المُنۡبتُ حقيقةً لها، وفي الآية فنُّ التّهذيبِ لِما فيها مِن حُسۡن التّرتيب، لذكر نزولِ الماء، ثمّ الاهتزازِ، ثمّ الرّبو، ثمّ الإنباتِ[5].

المرادُ مِن إسناد الإنباتِ إلى الأرض إنباتُ الله لها

معنى ﴿مِن﴾ و﴿كُلِّ﴾ في الآية الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾، ﴿مِن﴾ هنا ابتدائيّةٌ، والمعنى:

روعةُ الخلقِ الإلهيِّ في التّنويع المُبۡهجِ الخَلّابِ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 325، وقمحاوي، طلائع البشر، ص: 332.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 234.
(3) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 66.
(4) الأندونيسيّ، الشامل في بلاغة القرآن: 2/ 311.
(5) الأندونيسيّ، الشامل في بلاغة القرآن: 2/ 311.

(أنبتت النّباتَ إنباتًا، يبدأ مِن كلّ زوجٍ بهيج)، وقد أفاد دخولُ ﴿كُلِّ﴾ الدّلالةَ على أنّ هذا الإنباتَ قد لَحِق كلَّ زوجٍ بهيجٍ منها، وليس لبعضِها دون بعضِها الآخر، بمعنى: "مِن كلّ صنفٍ حَسَنٍ، ولونٍ مُسْتَحْسَنٍ، سارٍّ للنّاظرين إليه، والبهجةُ: الحُسْنُ، قاله ابن عبّاس، يعني: الشّيءَ المُشْرق الجميلَ"[1].

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ ﴿زَوۡجِۭ﴾:

التّعبيرُ بلفظ الزّوجِ شَمِلَ كلَّ أصنافِ النّبات

يقول ابنُ عاشور: "الزَّوجُ: الصّنفُ مِنَ الأشياء، أُطلقَ عليه اسمُ الزَّوج تَشبيهًا لَهُ بالزَّوج مِنَ الحَيَوان، وهو صنفُ الذَّكر وصنفُ الأُنثَى؛ لأنَّ كُلَّ فَرد من أحَد الصّنفَين يَقتَرنُ بالفَرد مِنَ الصّنف الآخَر، فَيَصيرُ زَوجًا، فَيُسَمَّى كُلُّ واحد منهُما زَوجًا بهَذا المَعنَى، ثُمَّ شاعَ إطلاقُهُ على أحَد الصّنفَين، ثُمَّ أُطلقَ على كُلّ نَوع وصنف، وإن لَم يَكُن ذَكَرًا ولا أُنثَى، فَأُطلقَ هُنا عَلَى أنواع النَّبات"[2].

نُكْتَة تنكيرِ لفظِ ﴿زَوۡجِۭ﴾:

النّظرُ إلى تنوّعِ المخلوقاتِ يُؤكّدُ عَظَمةَ الخالقِ

أفادَ تنكيرُ ﴿زَوۡجِۭ﴾ التّكثيرَ؛ لأنّ أصنافَ النّبات كثيرةٌ لا تُحصَى، ولا عجبَ أن توجَدَ فيها ألوانٌ شتّى مِنَ النّباتات البديعةِ الرّائعةِ، فهي خَلْقُ اللهِ الّذي أتقنَ كلَّ شيءٍ، وأعطى كلَّ شيء خَلقَه ثمّ هدى.

بلاغةُ الإدماجِ في قوله: ﴿بَهِيجٖ﴾:

يمتنُّ اللهُ على عبادِه ببهجةِ النّبات

البَهيجُ: الحَسَنُ المَنْظَرِ، السّارُّ لِلنّاظِرِ، وقَدْ سيقَ هَذا الوَصْفُ إدْماجًا لِلامْتِنانِ، في أثْناءِ الِاسْتِدْلالِ؛ امْتِنانًا بِجَمالِ صورَةِ الأرْضِ المُنْبِتَةِ، لِأنَّ كَوْنَهُ بَهيجًا لا دَخْلَ لَهُ في الِاسْتِدْلالِ، فَهو امْتِنانٌ مَحْضٌ، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النّحل: 6]، وقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: 5][3].

(1) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 9/ 16.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 203.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 204.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّيبُ والشّكُّ:

بــين الــرّيــب والـشـكِّ عمومٌ وخصوصٌ

يقول الرّاغبُ: "الشَّكُّ: اعتدالُ النّقيضين عند الإنسان وتساويهما، وذلك قد يكونُ لوجود أمارتَين متساويتَين عند النّقيضَين، أو لعدم الأمارةِ فيهما، والشَّكُّ ربّما كان في الشّيء، هل هو موجود أو غيرُ موجود؟ وربّما كان في جنسه، مِن أيّ جنس هو؟ وربّما كان في بعض صفاته، وربّما كان في الغرض الّذي لأجله أوجدَ"[1].

ويفرّق العسكريُّ بينَ الشّكّ والرّيب بقوله: "الشّكُّ: هو تردُّد الذّهنِ بين أمرين، على حدٍّ سواء، وأمّا الرّيب: فهو شكٌّ مع تهمة"[2].

الهمودُ والخمودُ:

الهمودُ أشَدُّ في خُلوه مِن مظاهر الحياة

جاء وصفُ الخُمود للقُرى الهالكةِ في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ١٥﴾ [الأنبياء: 15]، وقوله: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ [يس: 29].

والمعنى المحوريُّ للخمود: انقطاعٌ للحادِّ الّذي شأنُه أن ينفذَ مِنَ الشّيء، كانقطاع اللّهبِ الّذي كان ينفذُ مِنَ النّار بالدّفن أو غيره مع عدم انطفاءِ الجمر، وانقطاعِ الكلام مع بقاء القُدرة عليه، ومنه: خَمَد المريض: أُغْمي عليه أو مات[3]، بينما جاء وصفُ الأرض بالهمود في هذه الآية من سورة الحجّ، وقد تقدّم في معناه: أنّه خلوُّ الشّيء مِن قوته، أو مظاهرِ الحياة فيه، وعلى هذا: يظهرُ أنّ الهُمودَ هو أشدُّ مِنَ الخُمود؛ لأنّه خلوٌّ مِنَ القوّة بالكامل، وليس خلوًّا جزئيًّا منها.

(1) الرّاغب، المفردات: (شكك).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 264.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خمد).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحجّ: 6 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

التّدليل على قدرة الخالق على الإيجاد والإفناء

لمّا قرَّرَ اللّٰه تعالى الأدلَّةَ على البعث في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ ... ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحجّ: 5] – رتَّبَ عليها في هاتين الآيتين ما هو المطلوبُ والنَّتيجةُ، وذكرَ أمورًا خمسةً، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[1]، ولمّا ذكرَ سبحانَهُ افتقارَ الموجوداتِ إليهِ، وتسخيرَها على وفْقِ اقتدارِهِ واختيارِه، في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الحج: 5] الآيةَ، ذكر بعد ذلك أنَّ اللّٰه حَقٌّ، وأنَّ إحياءه المَوْتَى صدق، وأنّه قدير على الإتيان بالسّاعة، دون شك يخالجه، ولا رَيْبٍ يساوره، وأنَّه يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ ممّن انتقلوا من عالم الشّهادة الموسوم بالفناء، إلى عالم الغيب المُتّسم بالخلود والبقاء، فنبَّهَ بذلكَ على أنَّ كلَّ ما سواهُ وإنْ كانَ موجودًا، فإنَّهُ لا حقيقةَ لهُ مِنْ نفسِه، لأنَّهُ مُسخَّرٌ مُصرَّفٌ، والحقُّ الحقيقيُّ هو الموجودُ المُطلَقُ، والغنيُّ المُطلَقُ، وهو اللّٰهُ تعالى[2]، وفي الآية تنبيه على جُملةٍ مِنْ أصولِ الإيمانِ الرّاسخة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: المعنى المحوريُّ للحاءِ والقافِ: إحكامُ الشَّيءِ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 205، وابن عادل، اللّباب: 14/ 25.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 14، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 517.

وصحَّتُهُ[1]، وتمكُّنُهُ في مَقرِّهِ[2]، ومِنْ ذلكَ: ثوبٌ مُحققٌ، إذا كانَ مُحكَمَ النَّسْجِ[3]، والحقُّ نقيضُ الباطلِ، أي: الشَّيءُ الثّابتُ الرّاسخُ المتمكِّنُ[4]، والحقُّ يقالُ على أوجهٍ:

الأوَّلُ: يقالُ لموجدِ الشَّيءِ، ولهذا قيلَ في اللهِ سبحانَهُ: هو الحقُّ[5]، ومِنْ ذلكَ قولُهُ تعالى هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾[6]، **والثّاني**: يقالُ للموجَدِ، ولهذا يقالُ: فعلُ اللّهِ تعالى كلُّهُ حقٌّ، **والثّالثُ**: في الاعتقادِ للشَّيءِ المُطابِقِ لِما عليهِ ذلكَ الشَّيءُ في نفسِهِ، نحوُ: اعتقادُ فلانٍ في البعثِ والثَّوابِ والعقابِ والجنَّةِ والنّارِ حقٌّ.

والرّابعُ: للفعلِ والقولِ بحسَبِ ما يجبُ، وبقَدْرِ ما يجبُ، وفي الوقتِ الَّذي يجبُ، كقولِنا: فِعْلُكَ حقٌّ، وقولُكَ حقٌّ[7]، والحاقَّةُ: اسمُ فاعلٍ مِنْ حَقَّ يَحِقُّ حَقًّا، أي: ثبتَ، وعُبِّرَ بها عنِ القيامةِ؛ لثبوتِها واستقرارِها بالأدلَّةِ الواضحةِ[8].

2) ﴿قَدِيرٌ﴾: يدلُّ (قدر) على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِهِ، والأقدرُ مِنَ الخَيْلِ: الَّذي تقعُ رِجْلاهُ مَواقعَ يديهِ، كأنَّ ذلكَ قدَّرَهُ تقديرًا، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 91] معناهُ: ما عظَّموا اللّهَ حقَّ عظَمتِهِ، ولم يَصِفوهُ بصفتِهِ الَّتي تنبغي لهُ جلَّ شأنُهُ، ويقولونَ: رجلٌ ذو قُدرةٍ ومَقْدرةٍ، أي: يَسارٍ، يعني: أنَّهُ يَبْلُغُ بغناهُ مِنَ الأمورِ المَبْلَغَ الَّذي يوافقُ إرادتَهُ[9]، ويقالُ: قَدَرَ على الشَّيءِ قُدْرةً، فهو قادرٌ[10]، والقُدرةُ إذا وُصِفَ بها الإنسانُ فاسمٌ لهيئةٍ لهُ بها يتمكَّنُ مِنْ فعلِ شيءٍ ما، وإذا وُصِفَ اللّهُ تعالى بها، فهي نَفْيُ العَجْزِ عنهُ، ولا يوصَفُ غيرُ اللّهِ سبحانَهُ بالقُدرةِ المُطلَقةِ، والتَّقديرُ: تبيينُ كمّيةِ الشَّيءِ[11]، ويمكنُ إرجاعُ هذهِ المعاني إلى معنًى محوريٍّ؛ وهو ضبطُ الشَّيءِ القابلِ للتَّسيُّبِ أو الانبساطِ، وإمساكُهُ على وضعٍ أو كمٍّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حقق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (حقق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حقق).
(5) الرّاغب، المفردات: (حقق).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 145.
(7) الرّاغب، المفردات: (حقق).
(8) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حقق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(10) الخليل، العين: (قدر).
(11) الرّاغب، المفردات: (قدر).

أو مسافةٍ مُعيَّنةٍ، فلا يتسيَّبُ ولا يسترسلُ، كما تضمُّ القِدْرُ اللَّحمَ وغيرَهُ في جَوْفِها بحيثُ لا يتسيَّبُ[1].

3) ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾: (سوع) معناه المحوريُّ استمرارُ الشَّيءِ ومُضيهُ[2]، تقولُ: أسَعْتُ الإبلَ إساعةً، إذا أهملتَها حتى تمرَّ على وجهِها، وساعَتْ فهي تَسوعُ، وناقةٌ مِسْياعٌ، وهي الَّتي تذهبُ في المَرْعى، والسّاعةُ: جزءٌ مِنْ أجزاءِ الزَّمانِ، سُمّيَتْ بذلكَ؛ لأنَّها تمضي وتمرُّ[3]، والسّاعة الوقت الحاضر، والجمع السّاع والسّاعات، وعامله مساوعة من السّاعة، كما تقول: مياومة من اليوم، ولا يستعمل منهما إلّا هذا[4]، والسّاعَةُ: جُزْءٌ من أجْزاءِ الجَديدَيْنِ، والوَقْتُ الحاضِرُ، ج: ساعاتٌ وساعٌ، والقيامَةُ، أو الوَقْتُ الّذي تقومُ فيه القيامةُ[5]، كما في قولِه ﷻ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]؛ تشبيهًا بالسّاعةِ مِنَ الزَّمَنِ؛ لسُرعةِ الحسابِ فيها، أو لما نُبِّهَ عليهِ بقولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ [الأحقاف: 35][6].

4) ﴿لَا رَيْبَ﴾: للأصل (ريب) معنىً واحدٌ، يدلُّ على شكٍّ وخوفٍ، تقولُ: رابَني هذا الأمرُ، إذا أدخلَ عليكَ شَكًّا وخَوْفًا[7]، وأرابَ الرَّجلُ: صارَ مُريبًا ذا ريبةٍ[8]، واسترَبْتُ بِه: رأيتُ منهُ ما يَريبُني[9]، والرّيب: الشَّك من قَوْله جلّ وعزّ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، والرّيب: التُّهَمَة، رابَني يريبني ريبًا، وأرابني يريبني، وقد فصل قوم بَين هاتين اللّغتين فَقالوا: رابني، إذا علمت مِنْهُ الرّيبَة، وأرابني إذا ظَنَنْت ذَلِك بِهِ[10]، والرّيبةُ: قَلَقُ النَّفسِ واضطرابُها؛ فإنَّ كونَ الأمرِ مشكوكًا فيهِ ممّا تَقْلَقُ لهُ النُّفوسُ، ولا تستقرُّهُ، وكونَهُ صادقًا ممّا تطمئنُّ لهُ، ومِنَ البابِ أيضًا: رَيْبُ الزَّمانِ؛ وهو نوائبُهُ الَّتي تَقْلَقُ لها النُّفوسُ، وتَشْخَصُ فيها القُلوبُ[11].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قدر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سوع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سوع).
(5) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (سُوع).
(6) الرّاغب، المفردات: (سوع)، والسمين، عمدة الحفّاظ: (سوع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريب).
(8) الخليل، العين: (ريب).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (ريب).
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ريب).
(11) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ريب).

5) ﴿يَبۡعَثُ﴾: (بعث) معناه المحوريُّ الإثارةُ للشَّيءِ[1]، بحيثُ يندفعُ ناهضًا أو مُبتعدًا[2]، يقالُ: بَعَثْتُهُ فانبعث، ويختلفُ البَعْثُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّقَ به، فبعثتُ البعيرَ: أثَرْتُهُ وسيَّرتُه، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36] معناهُ: يُقيمُهم للحَشْرِ[3]، ويومُ البَعْثِ: يومُ القيامةِ[4]، وقولُهُ ﷻ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّـهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: 31]، أي: قيَّضَهُ ويسَّرَهُ، وقولُهُ: ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة: 46]، أي: ذهابَهم ومُضيهم[5]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَـٰهُمۡ﴾ [الكهف: 12]، أي: أيقَظْناهم؛ سُمّي إيقاظُهم بَعْثًا؛ تشبيهًا للنَّومِ بالموتِ، وقولُهُ: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: 35]، أي: أرْسِلوا[6].

6) ﴿ٱلۡقُبُورِ﴾: المعنى الجامعُ للأصل (قبر) غُموضٌ في شيءٍ وتطامُنٌ، ومِنْ ذلكَ: أرضٌ قَبورٌ: غامضةٌ، ونخلةٌ قَبورٌ: يكونُ حِملُها في سَعَفِها[7]، قال سيبويه: المقبرة: ليس على الفعل، ولكنّه: اسم، وقبره يقبره، ويقبره: دفنه، وأقبره: جعل له قبرا، وأقبر القوم قتيلهم: أعطاهم إياه يقبرونه[8]، والقَبْرُ: مَقَرُّ الميِّتِ، ومصدرُ قَبَرْتُهُ: جعلتُهُ في القبرِ، وأقبَرْتُهُ: جعلتُ لهُ مكانًا يُقْبَرُ فيه[9]، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ [عبس: 21][10]، والمَقْبَرةُ والمَقْبُرةُ: موضعُ القُبورِ[11].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ جلَّ ذكرُهُ عن تفرُّدِهِ بالوجودِ الذّاتيِّ، وعظيمِ قُدرتِهِ، فيقولُ: ذلكَ المذكورُ مِنْ بَدْئِنا خَلْقَ النّاسِ في بُطونِ أُمَّهاتِهم، ووصفِنا أحوالَهم قبلَ الميلادِ وبعدَهُ، طِفلًا وكَهْلًا وشَيْخًا هَرِمًا، وتنبيهِنا على إحيائِنا الأرضَ الهامدةَ؛ ليُعلَمَ أنَّ الَّذي فعلَ ذلكَ اللهُ الَّذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعث).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بعث).
(3) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(4) الخليل، العين: (بعث).
(5) الرّاغب، المفردات: (بعث).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بعث).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبر).
(8) ابن سيده، المحكم: (قبر).
(9) الرّاغب، المفردات: (قبر).
(10) السّمين، عمدة الحفاظ: (قبر).
(11) الخليل، العين: (قبر).

المعبودُ بالحقِّ هو المُتفرِّدُ بالوجودِ والقُدرة على قيام السّاعة وبعث أهل القبور

هو الحقُّ لا شكَّ فيهِ، وأنَّ ما سواهُ مِنَ الأوثانِ والأصنامِ باطلٌ؛ لأنَّها لا تَقْدِرُ على فعلِ شيءٍ مِنْ ذلكَ، وليُعلَمَ أنَّ قُدرتَهُ سبحانَهُ الَّتي لا يتعذَّرُ عليها إحياءُ الموتى، بعدَ فَنائِهم ودُروسِهم في التُّرابِ، وأنَّ فاعلَ ذلكَ قديرٌ على كلِّ ما أرادَ وشاءَ، لا يمتنعُ عليهِ شيءٌ أرادَهُ، وأنَّ السّاعةَ لا شكَّ في مَجيئِها وحُدوثِها، وأنَّ اللّهَ يبعثُ حينئذٍ مَنْ في القُبورِ مِنَ الأمواتِ أحياءً إلى موقفِ الحسابِ(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ الكريمة:

الرّبْط للجملة مفيد لبيان مظاهر قدرة الله تعالى

قولُهُ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، كلامٌ مُستأنَفٌ جيءَ بهِ إثْرَ إقامةِ البُرهانِ على البَعْثِ مِنَ العالَمَينِ الإنسانيِّ والنَّباتيِّ؛ لبيانِ أنَّ ذلكَ مِنْ آثارِ أُلوهيَّتِهِ سبحانَهُ، وأنَّ ما يُنكِرونَ إمكانَهُ مِنْ إتيانِ السّاعةِ والبَعْثِ هو مِنْ أسبابِ تلكَ الآثارِ العجيبةِ الَّتي يشاهدونَها في الأنفُسِ والآفاقِ، ومَبادي صُدورِها عنهُ تعالى(2).

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في السّياق:

الإيذانُ بِبُعدِ منزلةِ المُشارِ إليهِ في الكمالِ والعظمة

الإشارةُ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، راجعةٌ إلى ما ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ ... ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: 5]؛ مِنْ خَلْقِ الإنسانِ على أطوارٍ مختلفةٍ، وتصريفِهِ في أحوالٍ متباينةٍ، وإحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها، وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، مِنْ معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بِبُعدِ منزلةِ المُشارِ إليهِ في الكمالِ(3)، مما يدل على كمال عظمة القادر على كل ذلك.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 572.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.
(3) السّمين، الدّر المصون: 8/ 235، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.

وجهُ إفرادِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ معَ رجوعِهِ إلى مُتعدِّدٍ:

الإفرادُ باعتبارِ تأويلِ المُشارِ إليهِ بالمذكورِ من البيانِ المأثور

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (تلكَ بأنَّ اللّهَ هو الحقُّ)؛ لأنَّ الإشارةَ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، راجعةٌ إلى مذكوراتٍ في الآيةِ السّابقةِ؛ وهي خَلْقُ الإنسانِ في أطوارٍ مُختلفةٍ، وتحويلُهُ على أحوالٍ مُتضادَّةٍ، وإحياءُ الأرضِ بعدَ موتِها[1]، لكنْ عُدِلَ إلى الإفرادِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾، معَ أنَّ المُشارَ إليهِ مُتعدِّدٌ؛ لتأويلِهِ بما ذُكِرَ، أي: ما ذُكِرَ مِنْ كذا وكذا بأنَّ اللّهَ هو الحقُّ... الخ[2].

نكتةُ إفرادِ حرفِ الخطابِ المُقْتَرِنِ باسمِ الإشارةِ:

الخطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ خطابٌ لكلِ من يصل إليه

قولُهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، بإفرادِ حرفِ الخطابِ المُقترِنِ باسمِ الإشارةِ، دونَ أنْ يقالَ: (ذَلِكُمْ بأنَّ اللّهَ هو الحَقُّ)، بجمعِ حرفِ الخطابِ؛ لإرادةِ مُخاطَبٍ غيرِ مُعيَّنٍ، على نَسَقِ قولِهِ عَلَتْ كلمتُهُ في الآيةِ السّابقةِ: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ﴾ [الحج: 5]، ولأنَّ اتِّصالَ اسمِ الإشارةِ بكافِ خطابِ الواحدِ هو الأصلُ[3]، ومخاطبة غير المعيّن تحمل كل مخاطَب سمع هذا الكلام أن يصغيَ إليه ويعتبر بما فيه كأنه هو المخاطب به أصالة وابتداء.

سرُّ تنوّع إعراب ﴿ذَٰلِكَ﴾ في السّياق الكريم:

حمل المخاطب على الاتعاظ بكل المعاني المحتملة

يحتملُ اسمُ الإشارةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، ثلاثةَ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّهُ مبتدأٌ، والخبرُ الجارُّ والمجرورُ بعدَهُ[4]، أي: ذلكَ حصلَ بسببِ أنَّ اللّهَ هو الحقُّ إلخ[5].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 65.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 19، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 204.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 109، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 65، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 445.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 204.

والثّاني: أنَّهُ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلكَ[1].

والثّالثُ: أنَّهُ منصوبٌ بفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: فعَلْنا ذلكَ بسببِ أنَّ اللّهَ هو الحقُّ[2].

فالباءُ على الأوَّلِ مرفوعةُ المحلِّ، وعلى الثّاني والثّالثِ منصوبتُهُ[3]، وفائدة ذلك التّنوّع بارزة، في ثراء السّياق وانفساحه لأكثر من معنى، بوقوعه مبتدأ أو خبرا، أو معمولا لفعل محذوف، وفي جميع الحالات، تزداد الدّلالة رسوخا ووضوحا، بأنّ اللّه هو الحقّ بيقين وصدق، وتبرز قدرة اللّه على فعل ما أراد، كما يريد.

دلالةُ الباءِ بعد الإشارة في الآية:

بديع الخلق من الله وبقدرة الله

الباءُ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ للسَّببيَّةِ[4]، والمعنى: ذلكَ الصُّنْعُ البديعُ حاصلٌ بسببِ أنَّ اللّهَ سبحانَهُ هو الحقُّ وحدَهُ في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، المُحقِّقُ لما سواهُ منَ الأشياءِ[5].

ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للمُلابَسةِ، والمعنى: كانَ ذلكَ الخَلْقُ وذلك الإنباتُ البَهيجُ مُلابِسًا لحقّيةِ إلهيَّةِ اللّهِ، وهذهِ المُلابَسةُ مُلابَسةُ الدَّليلِ لمدلولِهِ[6].

بلاغةُ التَّوكيدِ في الآيتينِ:

اقتضاءُ مقامِ الإنكارِ والتَّكذيبِ التَّوكيدَ بيان مفصح مفيد

لمّا كانَ المقامُ لإثباتِ جملةٍ مِنَ الحقائقِ والقضايا الكُبرى الَّتي يُكذِّبُ بها المُشرِكونَ، ومنها: حقّيتُهُ جلَّ شأنُهُ، وإثباتُ البعثِ، وإثباتُ قُدرتِهِ المُطلَقةِ سبحانَهُ وتعالى جيءَ بالجملِ الدّالَّةِ على هذهِ الحقائقِ مُؤكَّدةً، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 413.
(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 413.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 235.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 283، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4947.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 204.

﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لاقتضاءِ مقام الإنكارِ والتَّكذيبِ التَّوكيدَ، وإظهارًا لعنايةِ المتكلِّم بإثباتِ هذهِ الحقائقِ الكُبرى الَّتي عليها مَدارُ كثيرٍ مِنْ أصولِ الإيمانِ.

سرُّ اختيارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ سواه:

مناسبةُ اللّفظِ لمقامِ الكمالِ وعظيمِ قُدرةِ ذي الجلال

اختيرَ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِه، مِنْ أسمائِه الحُسنى سبحانَهُ وتعالى؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ جامعٌ لأوصافِ الكمالِ، والتَّنزيهِ مِنْ كلِّ نقصٍ[1]، فهو يدلُّ على الذّاتِ وعلى سائرِ صفاتِهِ جلَّ وعزَّ، وقد جرَتْ عادةُ القُرآنِ على استعمالِهِ في مقامِ الهيبةِ والجلالِ وعظيم القُدرةِ، والسّياقُ هنا لإثباتِ حقّيتِهِ ﷻ، وإثباتِ البعثِ والنُّشورِ والسّاعةِ، ونحوِ ذلك، ممّا لا يَقْدِرُ عليهِ إلّا اللّهُ المعبودُ بالحقِّ.

نكتةُ استعمالِ ضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾:

اللهُ تعالى وحدَهُ سببُ الوجودِ والمتفرّدُ بكماله

يدلُّ استعمالُ ضميرِ الفصلِ، في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، على الحصرِ[2]، والمعنى: (ذلكَ بسببِ أنَّ اللّهَ سبحانَهُ وتعالى وحدَهُ الثّابتُ)، أي: الموجودُ بذاتِهِ الَّذي بهِ تتحقَّقُ الموجوداتُ بأسْرِها مِنَ المُمكناتِ، فالمُمكناتُ لاستواءِ الوجودِ والعَدَمِ، بالنِّسبةِ إلى ذواتِها لا يكونُ وجودُها إلّا بسببِهِ تعالى؛ إذ لا وجودَ بلا موجِدٍ[3].

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

اللـه تـعـالى هو الحق وما دونه مـن المـعـبـودات باطل

لامُ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ لامُ الجنسِ، وذكرُها في هذا التَّركيبِ قد أصابَ المَحَزَّ، وطبَّقَ المَفْصِلَ؛ لأنَّ مِثلَ هذا التَّركيبِ يفيدُ القصرَ بسببِ تعريفِ الطَّرفينِ - وهما

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 13، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4947.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 283، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4947.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 19.

لفظُ الجلالةِ و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ - وتوسيطِ ضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾، وكونُ اللّامِ للجنسِ يُقوّي المبالغةَ في القصرِ، يعني: أنَّكَ إذا أردتَ أنْ تَعْرِفَ مفهومَ الحقِّ فهو اللّهُ جلَّتْ قُدرتُه، كقولِكَ: (عمرٌو هو الشُّجاعُ)؛ فإنَّهُ يفيدُ قصرَ الشَّجاعةِ على عمرٍو، وكأنَّكَ إذا أردتَ أنْ تَعْرِفَ مفهومَ الشُّجاعِ لا تجدُ لهُ صورةً إلّا في عمرٍو.

والقصرُ في الآيةِ إضافيٌّ، أي: هو الحقُّ دونَ غيرِهِ مِنْ معبوداتِكم؛ فإنَّها لا وجودَ لها، قالَ تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النّجم: 23]، وهذا الاستدلالُ هو أصلُ بقيَّةِ الأدلَّةِ؛ لأنَّهُ نَقْضٌ للشِّركِ الَّذي هو الأصلُ لجميعِ ضلالاتِ أهلِهِ، وأمّا بقيَّةُ الأمورِ المذكورةِ بعدَ قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ فهي لبيانِ إمكانِ البَعْثِ(1).

سرُّ استعمالِ لفظ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ دونَ (الخالقِ):

مناسبةُ لفظِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ لسياقِ إثباتِ الوحدانيَّةِ

جاءَ قبلَ هذهِ الآيةِ قولُهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ [الحج: 5] الآيةَ، فالظّاهرُ أنْ يقالَ: (ذلكَ بأنَّ اللّهَ هو الخالقُ)، لكنْ عُدِلَ عنهُ، إلى قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لأنَّ الخالقَ قد يخلقُ شيئًا ثمَّ يتخلَّى عنهُ، أمّا اللّهُ ﷻ، فهو الخالقُ الحقُّ، أي: الثّابتُ الَّذي لا يتغيَّرُ، كذلكَ عطاؤُهُ لا يتغيَّرُ، فسوف يظلُّ سبحانَهُ خالقًا يُعطيكَ كلَّ يومٍ؛ لأنَّ عطاءَهُ دائمٌ لا يَنْفَدُ(2)، وكذلكَ التَّعبيرُ بالحقّيةِ يناسبُ سياقَ إثباتِ وحدانيَّتِهِ وقُدرتِهِ ﷻ؛ لأنَّهُ يفيدُ أنَّهُ سبحانَهُ، هو وحدَهُ الثّابتُ الموجودُ بذاتِهِ، وما سواهُ مِنَ الموجوداتِ، لولا حفظه لها، لكانت في مَحْوٍ وفي اضمحلالٍ، ومُفيضُ الوجودِ على الموجوداتِ، هو المُستحِقُّ للعبادةِ، وهو القديرُ على الإحياءِ والإماتةِ، والبَعْثِ والنُّشورِ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 205.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9714.

بلاغةُ الفذلكة في الآية الكريمة:

التّذييل بجملة الإجمال لما سبق تفصيلُهُ في المقال

جملةُ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، تذييل لِما تقدَّمَ في قولِ الحقِّ علَتْ كلمتُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: 5]؛ لأنَّها إجمالٌ لِما سبقَ تفصيلُهُ، وخلاصةٌ لِما تقدَّمَ؛ إذ الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّمَ مِنْ أطوارِ خَلْقِ الإنسانِ وفَنائِه، ومِنْ إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها وانبثاقِ النَّبْتِ منها، فتكونُ الجملةُ تذييلًا[1].

دلالةُ الواوِ في جملة ﴿وَأَنَّهُۥ﴾:

الوصل بالعطف يكمّل المعنى المسوق في الآية

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على قولِهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[2]، والمعنى: (ذلكَ بأنَّ اللهَ هو الحقُّ، وبأنَّهُ يُحيي الموتى)، كما أحيا الأرضَ الميتةَ المذكورةَ، في قولِهِ قبلَ هذهِ الآيةِ: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٥﴾ [الحجّ: 5][3].

نكتةُ تكرارِ (أنَّ) في الآيتين:

كل المذكورات آيات معجزات باهرات

جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، بتكرارِ (أنَّ)، لِما يُفيدُهُ ذلك مِنْ إظهارِ الاعتناءِ بمضمونِ كلِّ جملةٍ، بجعلِها جملةً مُستقِلَّةً مُصدَّرةً بالتَّوكيدِ المناسبِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 204.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 19.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 429.

لمقام الرَّدِّ على الجاحدينَ المعاندينَ، وإثباتِ الوحدانيَّةِ والبَعْثِ وغيرِهما مِنَ الأمورِ المذكورةِ في هاتينِ الآيتينِ.

المرادُ بقولِهِ: ﴿يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾:

بيان أنّ المراد الإحياءُ بالفعلِ أو القُدرةُ عليهِ

اختُلِفَ في بيانِ المرادِ بإحياءِ الموتى في قولِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، فقيلَ: المرادُ: أنَّهُ يُحيي الموتى بالفعلِ؛ لأنَّهُ لمّا بيَّنَ في قولِهِ في الآيةِ السّابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ الآية [الحجّ: 5]، إمكانَ الإحياءِ بالبراهينِ الثّلاثةِ النَّيِّرةِ، أخبرَ بأنَّهُ يُحيي الأمواتَ بالفعلِ[1]، وقيلَ: المرادُ القُدرةُ على الإحياءِ، والمعنى: (وأنَّهُ قادرٌ على إحياءِ الموتى)[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُحۡيِ﴾:

شأنُهُ سبحانَهُ وعادتُهُ إحياءُ الموتى وذلك أمر عليه يسير

قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، معناهُ: شأنُهُ وعادتُهُ إحياءُ الموتى؛ لأنَّ صيغةَ المضارعِ تُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، باعتبارِ مُتعلَّقاتِ القُدرةِ، فهو سبحانَهُ يُحيي النُّطفةَ والأرضَ الميّتةَ مرارًا بعدَ مرارٍ[3]، ويُحيي غيرَهما ممّا لا يُحيطُ بهِ علمًا إلّا هو ﷻ.

دلالةُ ذكرِ لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ في الآية:

التَّأكيدُ ومراعاةُ الطِّباقِ في ثنايا السّياق

قولُهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، بذكرِ الموتى، معَ أنَّ الإحياءَ لا يكونُ إلّا لهُم، فيكونُ الفعلُ ﴿يُحۡيِ﴾، مُغنيا عن ذكرِهم؛ لتأكيدِ وقوعِ الإحياءِ عليهِم، ودفعِ توهُّمِ المجازِ، ولأنَّ التَّصريحَ بذكرِهم، أوقعُ في إثباتِ البَعْثِ والنُّشورِ الَّذي هو مقصودُ الكلامِ، وليرتسمَ في نفسِ السّامعِ صورةُ الإحياءِ، وهو يقعُ على ما يضادُّ الحياةَ؛ وهو الموتُ، فيكونَ في الكلامِ طِباقٌ.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 19.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 145، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.

نكتةُ تخصيصِ (إحياءِ الموتى) بالذِّكرِ:

تخصيصُ إحياءِ الموتى بالذِّكرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾، معَ كونِهِ مِنْ جملةِ الأشياءِ المقدورِ عليها، المذكورةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ للتَّصريحِ بما فيهِ النِّزاعُ، والدَّفعِ في نُحورِ المُنكِرينَ؛ لأنَّ الكلامَ مَسوقٌ للرَّدِّ عليهِم، وتقديمُهُ على ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ لإبرازِ الاعتناءِ بهِ[1].

مقتضي الرَّدِّ على المُنكِرينَ بأدلّة من الواقع وبراهين

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ في الآية:

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ وعزَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عاطفةٌ لهذهِ الجملةِ على ما قبلَها، والمعنى: (ذلكَ بأنَّ اللّهَ هو الحقُّ، وبأنَّهُ يُحيي الموتى، وبأنَّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ).

بلاغةُ تقديمِ شبه الجملة على ﴿قَدِيرٞ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، وفيه أنّه بعدَما ذكرَ سبحانَهُ وتعالى أنَّهُ وحدَهُ الثّابتُ الموجودُ بذاتِهِ، وأنَّهُ يُحيي الموتى؛ ذكرَ تعالى في قولِهِ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قُدرتَهُ البالغةَ على كلِّ شيءٍ، وصدَّرَ الكلامَ بالتَّوكيدِ المناسبِ، لمقامِ الرَّدِّ على الجاحدينَ، وقدَّمَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على ﴿قَدِيرٞ﴾؛ لأنَّ ذلكَ يدلُّ على عظيمِ اهتمامِهِ بخَلْقِهِ[2]، ولما يقتضيه المقام من بيان أنه سبحانه ذو القدرة المطلقة الَّتي لا يخرج عنها شيء، إضافةً إلى ما في تأخيرِ ﴿قَدِيرٞ﴾ مِنْ مُراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما بعدَها.

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ ومراعاةُ الفاصلةِ من بليغ الكلام

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في السّياق:

يدلُّ استعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاءِ، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، على سُمو قُدرتِهِ ﷻ، وتمكُّنِهِ مِنَ الإيجادِ لِما يريدُ، فالأشياءُ المُمكنةُ كلُّها مقهورةٌ تحتَ

التَّنبيهُ على عِظَمِ القُدرةِ مقصدٌ مهمّ في بيان الآية

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4947.

باهرِ قُدرتِهِ، وعظيمِ سُلطانِهِ، يفعلُ ما يشاءُ، ويحكمُ ما يريدُ، وإذا قضى أمرًا، فإنَّما يقولُ لهُ كنْ فيكونُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ العُمومِ ﴿كُلِّ﴾:

شُمول قُدرتِهِ ﷻ ممّا يجب الإيمان به

يدلُّ استعمالُ لفظِ العُمومِ في قولِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ على شُمولِ قُدرتِهِ تباركَ شأنُهُ لكلِّ شيءٍ مِنَ الخَلْقِ وغيرِهِ[1]، فلا يعجزه شيء سبحانه، والَّذي يصحُّ منهُ إيجادُ كل هذهِ الأشياءِ لا بدَّ وأنْ يكونَ واجبَ الاتِّصافِ لذاتِهِ بالقُدرةِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بـ ﴿قَدِيرٞ﴾ دونَ (قادرٍ):

المبالغةُ في وصفِهِ تعالى بالقُدرةِ ومراعاةُ الفاصلةِ من بيان السّياق

لمّا كانَ المقامُ مقامَ مبالغةٍ في بيانِ شُمولِ قُدرتِه جلَّ وعزَّ وإحاطتِها وعُلو شأنِها - عُبِّرَ في قولِهِ علَتْ كلمتُهُ: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بـ ﴿قَدِيرٞ﴾، ولم يُقَلْ: (قادرٌ)؛ لِما تُفيدُهُ صيغةُ فعيلٍ مِنَ المبالغةِ، أي: مُبالِغٌ في القُدرةِ، وإلّا لَما أوجدَ هذهِ الموجوداتِ الفائتةَ للحصرِ الَّتي مِنْ جُملتِها ما ذُكِرَ[2]، وفيهِ أيضًا مراعاةُ مناسبةِ فاصلةِ الآيةِ لِما بعدَها[3].

نكتةُ إعرابِ جملةِ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾:

عطف الجملة من الآية على ما قبلَها أرجح وآثر في الدّلالة

اختُلِفَ في إعرابِ قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ﴾: فقيلَ: إنَّهُ عطفٌ على المجرورِ بالباءِ، في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾[4]، وقيلَ: إنَّهُ ليسَ معطوفًا عليهِ، ولا داخلًا في حيِّزِ السَّببيَّةِ، وإنَّما هو خبرٌ، والمبتدأُ محذوفٌ؛ لكونِ المعنى مفهومًا، والتَّقديرُ: (والأمرُ أنَّ السّاعةَ)[5]، واعتُرِضَ عليهِ: بأنَّ فيهِ قطعًا للكلامِ عنِ الانتظامِ[6].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.
(3) اطفيّش، تفسير اطفيش: 6/ 288.
(4) السّمين، الدّر المصون: 8/ 235، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 96.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 109، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 487.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.

وقيلَ: يُضمَرُ لهُ فعلٌ ينصبُهُ، ويدلُّ عليهِ ما تقدَّمَ، والمعنى: (ولِتعلَموا أنَّ السّاعةَ آتيةٌ)، يعني: أنَّ بَدْءَ الخَلْقِ وإحياءَ الأرضِ بالماءِ، دلالةٌ لكُم؛ لِتعلَموا أنَّ القيامةَ آتيةٌ(1).

المرادُ بلفظ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ في الآية الكريمة:

المرادُ بالسّاعة يـومُ القيامةِ على الظّاهرِ وهو أنسب للسّياق

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالسّاعةِ في قولِهِ جلَّ وتبارك: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ يومُ القيامةِ المُشتمِلُ على النَّشْرِ والحَشْرِ وغيرِهما.

وقيلَ: المرادُ بها هنا فَناءُ العالَمِ بالكلّيةِ؛ لئلّا يلزمَ التَّكرارُ معَ البَعْثِ، في قولِهِ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾(2).

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾:

كـون الـلّام للعهدِ مهمّ في توجيه المعنى

اللّامُ في قولِهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ للعهدِ؛ لأنَّ لفظَ السّاعةِ إذا وردَ مُعرَّفًا في القُرآنِ الكريم فالمرادُ بِهِ يومُ القيامةِ، ولا يتبادرُ الذّهنُ إلى غيرِهِ، ومِنْ أمثلةِ ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: 31]، وقولُهُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقولُهُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ﴾ [الأعراف: 187]، وهذا التذكير بهول السّاعة ويقين حلولها، تأكيد يقينيّ لا يساور المؤمنين فيه شكّ، لأنّ مصدر الإخبار من العليم القهّار الّذي بيده النّواصي، حيث جعلها ساعة تحدّد للكائنات ميقات النّهاية، الّتي سوف تعصف لا محالة بالدّنيا، وتؤول بالبشر جميعا إلى صعيد الآخرة.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ على (تأتي):

الـدّلالـةُ على تحقيقِ الإتيانِ وتقرُّرِه مقصد في الآية مفيد

إيثارُ صيغةِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ تعالى شأنُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ على الفعلِ، فلم يُقَلْ: (وأنَّ السّاعةَ تأتي)؛ للدَّلالةِ على تحقيقِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 277، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 15.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 116.

إتيانِها وتقرُّرِه؛ لاقتضاءِ الحكمةِ إيّاهُ لا محالةَ[1]، واسمُ الفاعلِ أدلُّ على الثُّبوتِ مِنَ الفعلِ[2]؛ إذ الفعلُ يدلُّ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ.

بلاغةُ النّفي بالحرف ﴿لَّا﴾ النّافية للجنسِ:

تأكيدُ نفيِ الرَّيبِ ترسيخ للإيمان وترسيّة للإيقان

صيغةُ نفيِ الجنسِ على سبيلِ التَّنصيصِ، في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾، صيغةُ تأكيدٍ؛ لأنَّ ﴿لَّا﴾ النّافيةَ للجنسِ في مقامِ النَّفيِ بمنزلةِ (إنَّ) في مقامِ الإثباتِ، ولذلكَ أُعمِلَتْ عملَها في نصبِ الاسمِ ورفعِ الخبرِ[3]، والمعنى: (وأنَّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها بوجهٍ مِنَ الوجوهِ؛ لقيامِ الدَّليلِ على ذلكَ بقولِ مَنْ لا مَرَدَّ لقولِه، وهو حكيمٌ لا يُخلِفُ ميعادَهُ، ولا يتركُ عبادَهُ بغيرِ حسابٍ)[4].

معنى نفيِ الرَّيْبِ في السّياق المحكم:

السّاعةُ ليسَتْ مَظِنَّةً للرَّيْبِ لأنّها واقعٌ ما له من دافع

معنى نفيِ الرَّيْبِ عنِ السّاعةِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾: أنَّها في ظُهورِ أمرِها ووضوحِ دلائلِها التَّكوينيَّةِ والتَّنزيليَّةِ، بحيثُ ليسَ فيها مَظِنَّةٌ أنْ يُرتابَ في إتيانِها[5]، لا أنَّهُ لا يرتابُ فيها أحدٌ أصلًا؛ فقد ارتابَ فيها الكَفَرةُ الجاحدونَ المعاندونَ.

نكتة إعرابِ جملةِ ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾:

الساعة وكل ما فيها من أحداث حق لا مرية فيه

تحتملُ جملةُ ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أنْ تكونَ خبرًا ثانيًا لـ ﴿وَأَنَّ﴾، وتحتملُ أنْ تكونَ حالًا مِنْ ضميرِ السّاعةِ في الخبرِ[6]، أي: مِنَ الضَّميرِ المُقدَّرِ في ﴿ءَاتِيَةٞ﴾، وعطف آية ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ على آية ﴿وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ إشارة إلى أنّ عمليّة إحياء الموتى، ليست مُنْتهى قدرة اللّه، إنّما في قدرته تعالى كثير من الآيات والعجائب، ومنها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 95، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.
(2) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 6/ 289.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 206.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 96، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 235، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 96.

قيام الساعة والبعث والنشور، ومعنى: ﴿لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾، أي: لا شَكَّ فيها، والسّاعة: زمن القيامة وموعدها[1]، وعلى البشر أن يتيقّنوا بكونها آتية بلا أدنى ريب، وأن يهيّئوا أنفسهم لمباغتتها لهم، في أيّة لحظة، فالسّاعة لا يعلمها ملك مقرّب، ولا نبيّ مرسل.

سرُّ تأخيرِ ﴿فِيهَا﴾ عن ﴿لَّا رَيۡبَ﴾:

دفعُ توهُّمِ إرادةِ الحصرِ مفيد في بيان معنى الآية الكريمة

قُدِّمَ ﴿رَيۡبَ﴾ على ﴿فِيهَا﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾؛ لأنَّهُ لو قُدِّمَ ﴿فِيهَا﴾، لأفادَ تقديمُهُ الحصرَ، وأنَّ الرَّيْبَ منفيٌّ عنِ السّاعةِ دونَ غيرِها، وليسَ مقصودُ الكلامِ إثباتَ الرّيْبِ في غيرِها، بل المقصودُ نَفْيُ الرَّيْب عنها البتَّةَ.

نكتة ارتباطِ مجيء السّاعة بمَطْلَعِ السّورةِ:

تقويةُ التَّحذيرِ والوعيدِ من الساعة وأهوالها

في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ تأكيدٌ لقيامِ السّاعةِ الَّتي تقدَّمَ التَّحذيرُ منها في قولِهِ جلَّ وتباركَ في مَطْلَعِ السّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1][2]، فتكونُ هذهِ الجملةُ مُقوّيةً للتَّحذيرِ والوعيدِ السّابقينِ، وذلكَ ممّا يزيدُ التَّماسكَ والتَّرابطَ بينَ أجزاءِ السّورةِ.

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ﴾:

عطفُ الجملةِ على ما قبلَها ربط للمعاني وتجليّة للدّلالة

الواو في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ﴾ عاطفة على ما قبلها، و(أنَّ) وما بعدَها في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، في تأويلِ مصدرٍ معطوفٍ على المصدرِ المجرورِ بباءِ السَّببيَّةِ، داخلٍ معَهُ في حيِّزِها[3]، ومِنْ لطائفِ هذا العطفِ: أنَّ السّاعةَ هي القيامةُ، لكنَّ القيامةَ ستكونُ للحسابِ والفصلِ بينَ النّاسِ، فلا بدَّ مِنْ بَعْثِهم مِنَ القُبورِ، لذلكَ قالَ بعدَها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 16/ 9716.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 115.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9716.

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ الهيبةِ وكمالِ القُدرةِ

الظّاهِرُ أنْ يقالَ: (وأنَّهُ يَبْعَثُ مَنْ في القُبورِ)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لِما في لفظِ الجلالةِ مِنَ الإشارةِ إلى صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها القُدرةُ الباهرةُ، وذلكَ يناسبُ مقامَ الحديثِ عن إحياءِ مَنْ في القُبورِ؛ للفصلِ بينَهم يومَ القيامةِ في كلِّ ما اختلَفوا فيهِ[1]، وفي إظهارِ لفظِ الجلالةِ أيضًا غَرْسٌ للمَهابةِ في النُّفوسِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَبۡعَثُ﴾:

أهوال الساعة والبعث أمر عظيم

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لاستحضار مشهد البعث يوم القيامة، وتصويره كأنه واقع يراه من يسمع وصفه، وهذا الأسلوب يكثر في كتاب الله تعالى حين يذكر أحوال القيامة وأهوالها، كقوله تعالى ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ [غافر: 47] الآية، وقوله ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: 88]، وكل ذلك يناسب مقام التهويل والتحذير من ذلك اليوم العظيم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾:

شُمولُ البَعْثِ لكلِّ مَنْ في القُبورِ غرض للسّياق مذكور

يدلُّ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ على شُمولِ البَعْثِ والإحياءِ لكلِّ مَنْ في القُبورِ؛ لأنَّ الموصولَ مِنْ ألفاظِ العُمومِ، والمعنى: (وأنَّ اللهَ يَبْعَثُ كلَّ مَنْ في القُبورِ، لا يتخلَّفُ عن ذلكَ اليومِ العظيمِ أحدٌ، وفي ذلكَ مِنَ التَّهويلِ والتَّعظيمِ لذلكَ المَشْهَدِ المَهيبِ ما فيهِ).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.

بلاغةُ الكنايةِ في سياقِ الآيةِ:

الكنايةُ عن كونِهِ تعالى حكيمًا منَ البيانِ المفصحِ البليغ

في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، جُعِلَ إتيانُ السّاعةِ وبَعْثُ مَنْ في القُبورِ المذكورانِ في قولِه ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، كنايةً عن كونِهِ تعالى حكيمًا؛ لكونِهما مِنْ روادفِ الحكمةِ، كأنَّهُ قيلَ: ذلكَ بسببِ أنَّهُ تعالى قادرٌ على إحياءِ الموتى، وعلى كلِّ مقدورٍ، وأنَّهُ حكيمٌ لا يُخلِفُ ميعادَهُ، وقد وعدَ بالسّاعةِ والبَعْثِ، فلا بدَّ أنْ يَفي بما وعدَ[1].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

البَعْثُ والإحياءُ:

البَعْثُ أعمُّ مِنَ الإحياءِ ودلالتُه عليهِ أبلغُ وأوضحُ

أصلُ البَعْثِ: إثارةُ الشّيءِ وتوجيهُهُ، يقالُ: بعثْتُهُ فانبعثَ، ويختلفُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّقَ بهِ، فبعثْتُ البعيرَ: أثَرْتُهُ وسيَّرْتُهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]، أي: يُخرِجُهم ويُسيِّرُهم إلى القيامةِ، وأمّا الإحياءُ فيقالُ: أحيا اللّهُ الشّيءَ، أي: جعلَ الحياةَ تدبُّ فيهِ[2]، وبناءً على ذلكَ يكونُ البَعْثُ أعمَّ مِنَ الإحياءِ؛ لأنَّها يُستعمَلُ في إحياءِ الموتى، وإخراجِهم للقيامةِ، ويُستعمَلُ في غيرِه، كإثارةِ البعيرِ وتسييرِهِ.

القادرُ والقديرُ:

القديرُ أبلغُ مِنَ القادرِ في الدّلالةِ على معنى القدرة

الاسمُ (قادرٌ) مَصوغٌ على وزنِ اسمِ الفاعلِ، وهو دالٌّ على الاتِّصافِ بصفةِ القُدرةِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37]، والمقامُ يقتضي هذهِ الصّيغةَ دونَ غيرِها؛ لأنَّ إنزالَ آيةٍ لا يحتاجُ إلى المبالغةِ في القُدرةِ، والاسمُ (قديرٌ) مَصوغٌ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 145، وانظر للتوسّع: إرشاد العقل السّليم: 6/ 96.

(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 286.

على فعيلٍ، وهو مِنْ أوزانِ المبالغةِ، يدلُّ على المبالغةِ في الاتِّصافِ بالقُدرةِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، والسّياقُ يقتضي استخدامَ صيغةِ المبالغةِ؛ لأنَّهُ للتَّنبيهِ على شُمولِ قُدرةِ اللّٰهِ تعالى وإحاطتِها[1].

الرَّيْبُ والشَّكُّ:

الشَّكُّ تساوي النَّقيضينِ والرَّيْبُ شكٌّ معَ تُهمةٍ أو خَوْفٍ

الشَّكُّ: اعتدالُ النَّقيضينِ عندَ الإنسانِ وتساويهما، وقد يكونُ ذلكَ بسببِ وجودِ أمارتينِ متساويتينِ عندَ النَّقيضينِ، أو بسببِ عدمِ الأمارةِ فيهما، وقد يكونُ الشَّكُّ في الشَّيءِ هل هو موجودٌ أو غيرُ موجودٍ؟ وقد يكونُ في جنسِهِ مِنْ أيِّ جنسٍ هو؟ وقد يكونُ في بعضِ صفاتِهِ، وقد يكونُ في الغرضِ الَّذي لأجلِهِ أوجِدَ[2].

والرَّيْبُ قريبٌ مِنَ الشَّكِّ، وفيهِ زيادةٌ، كأنَّهُ تُهمةٌ وظنٌّ سَوْءٍ، تقولُ: رابَني أمرُ فلانٍ، إذا ظننتَ بهِ سَوْءًا[3]، ويكونُ الرَّيْبُ شكًّا معَ خوفٍ أيضًا، تقولُ: رابَني هذا الأمرُ، إذا أدخلَ عليكَ شكًّا وخَوْفًا[4].

البَعْثُ والإرسالُ:

البَعْثُ فيهِ تنبيهٌ وإيقاظٌ والإرسالُ فيهِ رِفْقٌ ورحمةٌ غالبًا

قيلَ في الفرقِ بينَ البَعْثِ والإرسالِ: إنَّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يَجْري مَجْراها، وأمّا البَعْثُ فيكونُ دونَ ذلكَ[5]، وقيلَ: إنَّ الاستعمالَ القرآنيَّ لكلمتَي البَعْثِ والإرسالِ يشتركُ في مَلْمَحٍ دلاليٍّ عامٍّ؛ هو التَّوجيهُ، وبينَ الكلمتينِ ملامحُ دلاليَّةٌ فارقةٌ؛ هي: أنَّ البَعْثَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ التَّنبيهِ والإيقاظِ والإثارةِ، والإرسالَ يتميَّزُ بمَلْمَحِ الرِّفْقِ والرَّحمةِ إلّا في المواضعِ الّتي جاءَ مركَّبًا فيها، معَ حرفِ الاستعلاءِ (على)؛ نحوُ: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾﴾ [الفيل: 3][6].

(1) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 457.
(2) الرّاغب، المفردات: (شكك).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 265.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 103.
(6) محّمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 136 - 137.

الأجداثُ والقُبورُ:

الأجـــــداثُ تُستعمَلُ عندَ الـحـديـثِ عن حالةِ الموتى عندَ إحيائِهم

القَبْرُ والجَدَثُ كلاهما يُستعمَلُ في موضعِ دفنِ الميِّتِ، لكنْ يُلاحَظُ في القرآنِ أنَّهُ يستعملُ لفظَ الأجداثِ عندَ الحديثِ عنِ الحالةِ الَّتي يكونُ عليها الموتى عندَ إحيائِهم وخروجِهم مِنْ قبورِهم للحسابِ والجزاءِ؛ مِنْ كونِهم فَزِعينَ ومُسرِعينَ ونحوَ ذلكَ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ٥١﴾ [يس: 51]، وقولِهِ: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ٧﴾ [القمر: 7]، وقولِهِ: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ٤٣﴾ [المعارج: 43].

وأمّا القُبورُ فتُستعمَلُ في غيرِ ذلكَ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٍ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر: 22]، وقولِهِ: ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾ [الممتحنة: 13]، وقولِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾ [الانفطار: 4][1].

(1) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 81 - 87.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا
كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا
خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحجّ: 8 - 9]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

ذكرُ حالِ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ بعدَ ذكرِ قدرة الله على الإيجاد والإفناء

ذُكِرَ في مناسبةِ هاتينِ الآيتينِ لِما قبلَهما ببضعِ آياتٍ وجهٌ مبنيٌّ على أحدِ الأقوالِ في تعيينِ مَنْ نزلتِ الآيتانِ في حقِّهِ على ما سيأتي تفصيلُهُ، وذلكَ الوجهُ: هو أنَّهُ لمّا ذكرَ تعالى حالَ الضُّلّالِ الجُهّالِ المُقلِّدينَ في قولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحجّ: 3] - ذكرَ في هذهِ حالَ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِنْ رؤوسِ الكفرِ والبِدَعِ، فقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ الآيتينِ[(1)]، ذلك أنّه مع كلّ الأدلة البيّنة الواضحة، فإنّ بعضَ النّاس يجادل في الله وقدرته، بصلف وجهل وتعنّت، وينكر البعثَ بغير معرفة مسعفة، ولا برهان عقليّ مرشد، ولا وحي من عند الله منير، فيزلّ ويضلّ[(2)].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُجَٰدِلُ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (جدل) هو استحكامُ الشَّيءِ في استرسالٍ يكونُ فيهِ[(3)]، والجِدالُ: المُفاوَضةُ على سبيلِ المُنازَعةِ والمُغالَبةِ، وأصلُهُ مِنْ جَدَلْتُ الحَبْلَ، أي: أحكمتُ فَتْلَهُ، فكأنَّ المتجادلينِ يَفْتِلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيِهِ، قالَ تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: 125]، وقالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾[(4)].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 399، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 91.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/ 451.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جدل).
(4) الراغب، المفردات: (جدل).

ورَجُلٌ جَدِلٌ مِجْدالٌ، أي: خَصِمٌ مِخْصامٌ[1]، ويقال: إنّه لَجَدِلٌ، إذا كان شديد الخصام، وإنّه لَمِجْدَلٌ، وقد جادل فلانا جِدالا ومُجادلة[2]، وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ [الكهف: 54]، قال الزّجاج: عنى بالإنسان هنا الكافر، ويدلّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: 56][3].

2) ﴿مُّنِيرٍ﴾: للأصل: (نير) معنىً جامعٌ، وهو وُضوحُ الشَّيءِ وبُروزُهُ[4]، فالمَنارُ: عَلَمُ الطَّريقِ الَّذي يُهتدى لهُ[5]، وأنارَ الثَّوْبَ ونارَهُ ونيَّرَهُ: أعلمَهُ[6]، والنّورُ: الضَّوءُ المُنتشِرُ الَّذي يُعينُ على الإبصارِ، وذلكَ ضربانِ: دُنيويٌّ، وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ ضربانِ: ضربٌ معقولٌ بعينِ البصيرةِ، وهو ما انتشرَ مِنَ الأمورِ الإلهيَّةِ، كنورِ العقلِ ونورِ القُرآنِ، ومحسوسٌ بعينِ البصرِ، وهو ما انتشرَ مِنَ الأجسامِ النَّيِّرةِ، كالقَمَرينِ والنُّجومِ والنَّيِّراتِ، فمِنَ النّورِ الإلهيِّ قولُهُ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المائدة: 15]، ومِنَ المحسوسِ الَّذي بعينِ البصرِ، نحوُ قولِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]، ومِنَ النّورِ الأُخرويِّ قولُهُ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الحديد: 12][7].

3) ﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (ثني) هو تكريرُ الشَّيءِ مرَّتينِ، أو جعلُهُ شيئينِ متواليينِ أو متباينينِ، ومِنْ ذلكَ قولُكَ: ثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْيًا، والاثنانِ في العددِ معروفانِ، والمُثنّاةُ: ما قُرِئَ مِنَ الكتابِ وكُرِّرَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ [الحجر: 87]؛ لأنَّ قراءتَها تُثنّى وتُكرَّرُ[8].

والعِطْفُ: المَنْكِب، وهو مُجْتَمَعُ عَظْمِ العَضُد والكَتِف، ومعناه المحوري: ثَنْيُ الممتدِّ إلى غير وِجْهةِ بَدْءِ امتداده، تقولُ: عَطَفْتُ رأسَ الخشبة فانعطف، أي: حَنَيْتَهُ فانحنى، ومن العِطف بالكسر العِطافُ، وهو الرّداء، لوقوعه على عِطْفَى الرجل[9].

(1) الخليل، العين: (جدل).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جدل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نير).
(5) السّمين، عمدة الحفاظ: (نير).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نير).
(7) الرّاغب، المفردات: (نير).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثني).
(9) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عطف).

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، أي: لاوي عُنُقِه، وهُنَّ عواطفُ: أي: ثواني الأعناقِ، وثَنَى فلانٌ على عِطۡفِهِ إذا أعرضَ عنكَ وجفاك[1]، وقولُهُ ﷻ: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، كناية عنِ التَّكبُّرِ والإعراضِ، نحوُ: لَوَى شِدۡقَهُ؛ فقوله: ﴿ثَانِيَ﴾ اسمُ فاعلٍ مِنۡ ثَنَى يَثۡنِي[2]، وعِطۡفا الإنسانِ: جانباهُ[3].

4) ﴿خِزۡيٌۖ﴾: للأصل (خزي) معنيانِ رئيسانِ: أحدُهما: السّياسةُ، والآخرُ: الإبعادُ، فمِنَ الأوَّلِ قولُهم: خَزَوۡتُهُ، إذا سُسۡتُهُ، ومِنَ الآخرِ قولُهم: أخزاهُ اللّٰهُ، أي: أبعدَهُ ومَقَتَهُ[4]، وخَزِي الرَّجلُ: لَحِقَهُ انكسارٌ: إمّا مِنۡ نفسِه، وإمّا مِنۡ غيرِه، فالَّذي يَلۡحَقُهُ مِنۡ نفسِه، هو الحياءُ المُفرِطُ، والَّذي يَلۡحَقُهُ مِنۡ غيرِه يقالُ: هو ضَرۡبٌ مِنَ الاستخفافِ، قالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [المائدة: 33][5]، وخَزِي يَخۡزَى خِزۡيًا: ذلَّ وهانَ[6]، ويمكنُ إرجاعُ المعنيينِ إلى معنًى محوريٍّ واحدٍ؛ وهو ذُلُّ الحيِّ وطَواعيتُهُ وانقيادُهُ لِما يُرادُ؛ لكَسۡرِ حِدَّةِ استعصائِهِ أو رغبتِهِ، ومن ذلكَ: خَزا نفسَهُ: مَلَكَها وكفَّها عن هواها[7].

5) ﴿عَذَابَ﴾: عَذُبَ الماءُ يَعۡذُبُ عُذوبةً، فهو عَذۡبٌ، أي: طيِّبٌ[8]، وأعذبَ القومُ، إذا عَذُبَ ماؤُهم، واستعذَبوا، إذا استقَوۡا وشَرِبوا عَذۡبًا[9]، والعذابُ: هو الإيجاعُ الشَّديدُ، وقد عذَّبَهُ تعذيبًا: أكثرَ حَبۡسَهُ في العذابِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ [النمل: 21]، واختُلِفَ في سببِ تسميةِ العذابِ بذلكَ، فقيلَ: هو مِنۡ قولِهم: عذبَ الرَّجلُ، إذا تركَ المَأۡكَلَ والنَّوۡمَ، فهو عاذبٌ وعَذوبٌ، فالتَّعذيبُ في الأصلِ هو حَمۡلُ الإنسانِ أنۡ يعذبَ، أي: يَجوعَ ويَسۡهَرَ، وقيلَ: أصلُهُ مِنَ العَذۡبِ، فعذَّبتُهُ: أزَلۡتُ عَذۡبَ حياتِهِ، وقيلَ: أصلُ التَّعذيبِ، إكثارُ الضَّربِ بعَذَبةِ السَّوۡطِ، أي: طَرَفِها، وقيلَ: التَّعذيبُ هو الضَّربُ، وقيلَ: هو مِنۡ

(1) الخليل بن أحمد، العين: (عطف).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ثني)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.
(3) الرّاغب، المفردات: (عطف)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 109.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزو).
(5) الرّاغب، المفردات: (خزو).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (خزو)، والزّبيدي، تاج العروس: (خزو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خزو).
(8) الخليل، العين: (عذب).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).

قولِهم: ماءٌ عَذْبٌ، إذا كانَ فيهِ قَذًى وكَدَرٌ، فيكونُ عذَّبتُه، كقولِك: كدَّرتُ عَيْشَهُ[1]، وقولُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: عذابَ النّارِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَصيرُ المُجادِلِ بالباطِلِ الخِزْيُ في الدُّنيا وعذابُ الحريقِ في الآخرة

يُخبِرُ اللّهُ سبحانَهُ عن حالِ المُجادِلِ بالباطِلِ المُتكبِّرِ المُعرِضِ عنِ الحقِّ، فيقولُ: ومِنَ النّاسِ مَنْ يخاصِمُ في دينِ اللّهِ وتوحيدِهِ، بغيرِ علمٍ منهُ بما يخاصِمُ بهِ، وبغيرِ بيانٍ معهُ، لِما يقولُ ولا بُرهانٍ، وبغيرِ كتابٍ مِنَ اللّهِ أتاهُ يُنيرُ عن حُجَّتِه، وإنَّما يقولُ ما يقولُ جهلًا وظنًّا منهُ، ويكونُ هذا المُجادِلُ بالباطِلِ مُتكبِّرًا مُتبخترًا لاويا عُنُقَهُ؛ إعراضًا واستكبارًا عن قبولِ الحقِّ؛ ليصدَّ عن دينِ اللّهِ، ثمَّ يُخبِرُ جلَّ ثناؤُهُ عن عقوبتِهِ، ويقولُ: لهذا المُجادِلِ في اللّهِ بغيرِ علمٍ في الدُّنيا خِزْيٌ، وهو القتلُ والذُّلُّ والمَهانةُ بأيدي المؤمنينَ، ونُذيقه عذاب الحريق، أي: نحرقه يومَ القيامةِ بالنّارِ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة تعيين المُجادلِ في الآية الكريمة:

(العِبْرة بعُمومِ اللّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ)

في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾، وفيه اختُلِفَ في تعيينِ المُجادِلِ المذكورِ هنا على أقوالٍ: فقيلَ: هو أبو جَهْلٍ[4]، وقيلَ: هو الأخنسُ بنُ شريقٍ[5]، وقيلَ: هو النَّضْرُ بنُ الحارثِ[6]، كما ذُكِرَ أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحج: 3] نازلٌ فيه، فكُرِّرَتْ قصَّتُهُ كما كُرِّرَتْ

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عذب).
(2) الراغب، المفردات: (حرق)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حرق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 572 - 573.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 487.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 573، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 15.

أقاصيصُ سائرِ المعاندينَ، أو كُرِّرَتْ ليُناطَ بها هنا ما لم يُنَطْ بها أوَّلًا؛ فقولُهُ: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣﴾ [الحج: 3] ذمٌّ للمُقلِّدينَ، وقولُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذمٌّ للمُقلَّدينَ[1].

وعلى كلِّ حالٍ فالآيةُ عامَّةٌ لكلِّ مَنْ يتصدَّى لإضلالِ النّاسِ وإغوائِهم؛ لأنَّ العِبْرةَ بعُموم اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ[2].

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

تنوّع التّأويل الإعرابيّ يتّسع به المعنى ويتجلّى به القصد

قيلَ: الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ للحالِ، والجملةُ حاليَّةٌ، كأنَّهُ يقولُ: فهذهِ الأمثالُ في غايةِ الوضوحِ والبيانِ، ومِنَ النّاسِ معَ ذلكَ مَنْ يُجادِلُ[3].

وقيلَ: الواوُ للعطفِ، والجملةُ عطفٌ على جملةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ [الحجّ: 5]، والمعنى: (إنْ كنتُم في رَيْبٍ مِنْ وقوعِ البَعْثِ، فإنّا نُزيلُ رَيْبَكم بهذهِ الأدلَّةِ السّاطعةِ)، فالنّاسُ بعدَ ذلكَ فريقانِ: فريقٌ يوقِنُ بهذهِ الدَّلالةِ، فلا يبقى في رَيْبٍ، وفريقٌ مِنَ النّاسِ يُجادِلُ في اللّهِ بغيرِ عِلمٍ، كما هو حالُ أئمَّةِ الشِّركِ وزُعَماءِ الباطلِ[4].

سرُّ تقديم ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾:

مراعاةُ حُسْنِ نظمِ الكلامِ مُفضٍ إلى نصاعته وبيانه

قُدِّمَ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ على ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأن المقام مقام تقسيم وتفصيل لأنواع الناس في الاستجابة لدين اللّه تعالى، فذكر هنا القسم الأول وهو الَّذي يجادل ويعاند فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، ثم ذكر بعدها القسم الآخر وهم

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 446.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/ 519.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 206.

أهل التردُّدِ والنفاقِ فقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، ومعنى اللّفظ: ومن النّاس فريق يجادل في اللّه، فيدخل في ذلك كلّ مجادل في ذات اللّه، أو صفاته أو شرائعه الواضحة(1).

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿مَن﴾ في قولِهِ: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾:

عُمومُ الآيةِ يشملُ كلَّ مُجادلٍ في اللهِ بغيرِ علم

يدلُّ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، على عُمومِ الآيةِ لكلِّ مَنْ يُجادِلُ في اللّهِ بغيرِ عِلمٍ، ويتصدَّى لإضلالِ النّاسِ وإغوائِهم، وعلى رأسِهم أئمَّةُ الشِّركِ، وزُعَماءُ الباطلِ(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ في السّياق:

استمرارُ الجِدالِ وتجدُّدُهُ دليل على تأصّله وتجذّره

في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ، في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، دلالةٌ على استمرارِ هؤلاءِ المعاندينَ الجاحدينَ في جدالِهم، وتجدُّدِه منهُم، فهو دَيْدَنُهم وشأنُهم الَّذي أولِعَتْ بِهِ أنفُسُهم وضَرِيتْ بِهِ؛ لأنَّ عَمَى الجهلِ والعِنادِ، سدَّ عليهِم طُرُقَ الحقِّ الَّتي تُحيطُ بهم.

دلالةُ صيغةِ التَّفاعلِ في لفظ: ﴿يُجَٰدِلُ﴾:

بَذْلُ المُجادلينَ وُسْعهم في الجِدالِ مسلكٌ في العناد والضّلال

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ التَّفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، على أنَّ هؤلاءِ المعاندينَ الجاحدينَ يجادلونَ بغايةِ جَهْدِهم(3)؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ تقتضي المشاركةَ بينَ الطَّرفينِ في الجِدالِ، وذلكَ يستلزمُ أنْ يَبْذُلَ كلٌّ منهُما غايةَ الوُسْعِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ على الآخرِ، وإظهارِ عَجْزِه، فالعَجَبُ لهؤلاءِ المعاندينَ مِنْ شدَّةِ صلابتِهم في باطلِهم، وتمسُّكِهم بغَيِّهم وضَلالِهم!

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.

علَّةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾ في سياق الآية:

الجدال بغير حق شيمة أهل الباطل في كل زمن

حذفُ مفعولِ الفعلِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾، في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾؛ لإفادةِ العُمومِ في المفعولِ، وأنَّ الجاحدينَ المعاندينَ، يجادلونَ كلَّ مَنْ يُثبِتُ وجودَ اللّهِ ووحدانيَّتَهُ، يُجادلونَ الأنبياءَ والرُّسُلَ، ويُجادلونَ المُؤمنينَ، ويُجادلونَ العلماءَ، ويُجادلونَ كلَّ مَنْ يخالفُ هواهم وغيَّهم وضلالَهم.

وقد يكون الغرض من حذف المفعول من باب تنزيل المتعدي منزلة اللازم، لأن الغرض من الآية الإنكار على المجادلة بغير حق في ذاتها بقطع النظر عن الَّذين يقع عليهم فعل المجادلة.

بلاغةُ الإيجازِ في التّعبير عن الجدال في الله:

الله تعالى حق لا يماري فيه إلا الجاحدون

في قولِهِ تبارك شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾، إيجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: (ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في شأنِ اللّهِ، فيدخلُ في ذلكَ كلُّ مجادلٍ في ذاتِ اللّهِ، أو صفاتِهِ وقُدرتِهِ وعلمِهِ ووحدانيَّتِهِ، أو شرائعِهِ الواضحةِ)[1]، فيكونُ في هذا الإيجازِ تعميمٌ، وفيهِ أيضًا تقبيحٌ للمُجادَلةِ، بأنَّها واقعةٌ في اللّهِ ﷻ، الَّذي لا ينبغي أنْ يُرتابَ فيهِ، ولا يُجادَلَ في وُجودِهِ ووحدانيَّتِهِ، واتِّصافِهِ بصفاتِ الكمالِ، بعدَما تقدَّمَ مِنَ الأدلَّةِ والبيانِ الَّذي لا مِثْلَ لهُ، ولا خَفاءَ فيهِ[2].

نكتة إعراب قوله: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾:

الجدال مذموم وصاحبه إلى الخزي في الدارين

قولُهُ: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ في ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾، يجوزُ أنْ يتعلَّقَ بالفعلِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾[3]، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمحذوفِ حالٍ مِنْ فاعلِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾، أي: يجادلُ مُلتبِسًا بغيرِ علمٍ، أي: جاهلًا[4]،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4949.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 14.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 236.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 236، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 96.

وعلى تعلّق الجارّ والمجرور بالفعل يكون المعنى: (الجدال بغير علم مذموم في ذاته)، وعلى تعلقه بفاعل المجادلة يكون المعنى: (الَّذي يجادل وهو بلا حجة ولا دليل مذموم منبوذ)، والمحصلة من التقديرين أنَّ مآل الجدال وصاحبه الخزي في الدنيا والآخرة.

سرُّ تكرارِ حرفِ النَّفي في: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ﴾:

التَّنبيهُ على استقلالِ كلٍّ مِنَ المعطوفينِ وأهميّتهِ في الدّلالة

تكريرُ حرفِ النَّفي في المعطوفينِ في قولِه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، حيثُ لم يُقَلْ: (بغيرِ عِلمٍ وهُدىً وكتابٍ مُنيرٍ)؛ تنبيهٌ على استقلالِ كلٍّ منهُما[1]، وذلكَ أنسبُ بمقامِ تقبيحِ الجِدالِ الَّذي ليسَ لهُ شيءٌ يستندُ إليهِ مِنْ عقلٍ ولا نقلٍ.

علَّةُ عدمِ الاستغناء بذكرِ (العِلمِ) عن ذكرِ (الهُدى):

المرادُ مُجادَلةُ المُقلِّدِ الَّتي هي دونَ مرتبةِ المُجادَلةِ بعِلمٍ

الهُدى في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ مصدرٌ في معنى المضافِ إلى مفعولِه، أي: ولا هُدىً هو مَهْدي بِه، وتلكَ مُجادَلةُ المُقلِّدِ، إذا كانَ مُقلِّدًا هاديًا للحقِّ، مِثْلَ أتباعِ الرُّسُلِ، وهذا دونَ مرتبةِ مَنْ يُجادِلُ في اللّهِ بعِلمٍ، ولذلكَ لم يُستغْنَ بذكرِ السّابقِ عن ذكرِ هذا[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في وصفِ الكتابِ بالإنارة:

الكتاب مِصباحٌ مُضيءٌ في ظلامِ اللّيلِ الحالك

المرادُ بالكتابِ المُنيرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، الكتابُ المُبينُ للحقِّ، وفيهِ استعارةٌ مكنيَّةٌ، حيث شُبِّهَ الكتابُ بالمِصباحِ المُضيءِ في اللَّيلِ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ بِه، وهو المِصباحُ، وأُبقي على شيءٍ مِنْ لوازمِه، وهو الإنارةُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ[3].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 20.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.

نكتةُ التَّعريضِ في نفي وجود كتاب منير:

التَّعريضُ بالكافر الكنود إبراز لغضب الله على كلّ مناوئ جحود

يجيءُ في وصفِ الكتابِ بصفةِ الإنارةِ، في قولِهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، تعريضٌ بالنَّضرِ بنِ الحارثِ - على القولِ بأنَّ الآيةَ نازلةٌ في حقِّهِ - إذ كانَ يُجادِلُ في شأنِ الإسلامِ، بالموازنةِ بينَ كتابِ اللهِ المُنيرِ، وبينَ كُتُبِ أخبارِ رُسْتَمَ وأخبارِ أسفنديارَ المُظلِمةِ الباطلةِ(1).

نكتةُ الجمعِ بينَ العِلمِ والهُدى والكتابِ المُنيرِ:

تأكيدُ أنَّ الجِدالَ المذكورَ بظنٍّ وتخمينٍ لا بحقٍّ ويقين

قيلَ في تفسيرِ قولِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾: المرادُ بالعِلمِ: العِلمُ الضَّروريُّ، وبالهُدى: الاستدلالُ والنَّظرُ؛ لأنَّهُ يهدي إلى المعرفةِ، وبالكتابِ المُنيرِ: الوَحْيُ، والمعنى أنَّهُ يُجادِلُ بظنٍّ وتخمينٍ(2)، مِنْ غيرِ مُقدِّمةٍ ضروريَّةٍ ولا نظريَّةٍ ولا سمعيَّةٍ، وهو كقولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ [الحجّ: 71]، وقولِهِ: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ [الأحقاف: 4](3)، وفي ذلكَ تقبيحٌ لحالِ هذا المُجادِلِ في شأنِ اللهِ، بعدَ وُضوحِ الدَّلائلِ؛ لأنَّهُ بانتفاءِ هذهِ الثَّلاثةِ، لا يكونُ جدالُهُ إلّا بالباطلِ(4)، وقيلَ: الأولى حَمْلُ العِلمِ على العُمومِ، وحَمْلُ الهُدى على معناهُ اللُّغويِّ، وهو الإرشادُ(5).

نكتةُ التَّنكيرِ في الأسماء ﴿عِلۡمٖ﴾ ﴿هُدٗى﴾ ﴿كِتَٰبٖ﴾:

التَّنكيرُ لإفادةِ العُمومِ فليس للمجادل بالباطل دليل يعضده

يفيدُ التَّنكيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ العُمومَ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، فيكونُ هذا المُجادِلُ عاريًا عن كلِّ ما يَعْضُدُ جِدالَهُ، وليس عنده علم ضروريّ، ولا علم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 15.
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 519.

مكتسب بالنّظر الصّحيح العقليّ، ولا علم من وحي، فهو جاهل محض من جميع الجهات[1].

نكتة إعراب ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ وأثره في فهم السّياق:

الحال تحدّد المعنى وتصف معالم المشهد بدقّة

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، منصوبٌ على الحالِ مِنْ فاعلِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾، والمعنى: (ومِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ في اللّهِ بغيرِ علم مُتكبِّرًا مُعرِضًا)[2]، فاجتمع بهذا القيد ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ للمجادل كلُّ موانع قبول الحق والانقياد له، وهي الجهل وانعدام العلم مع التكبر والجحود.

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾:

ثَنْيُ العِطْفِ من خصائص التَّكبُّرِ والإعراضِ

قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾: إنَّ معناهُ: مُتكبِّرًا في نفسِهِ[3]، وقيلَ: مُعرِضًا عمّا يُدْعَى إليهِ[4]، وسواءٌ كانَ عبارةً عنِ التَّكبُّرِ أوِ الإعراضِ، يكونُ استعمالُهُ على طريقِ الكنايةِ؛ لأنَّ كلًّا مِنَ الكِبْرِ والإعراضِ يستلزمُ ثَنْيَ العِطْفِ عادةً، فذُكِرَ اللّازمُ، وأُريدَ بهِ الملزومُ، كما هو طريقُ الكنايةِ[5].

براعةُ التَّصويرِ في قولِهِ: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾:

تشخيصُ صورة المُتكبِّرِ والمُعرِضِ عنِ الحقِّ في السّياق

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، يرسمُ صورةً لكِبْرِ هذا المُجادِلِ بالباطلِ، حيثُ يكونُ مائلًا بجنبه، فهو لا يستندُ إلى حقٍّ، فيُعوِّضُ عن هذا بالعجرفةِ والكِبْرِ، ويُعطينا التَّعبيرُ القرآنيُّ أيضًا التَّدرُّجَ الطَّبيعيَّ للإعراضِ عنِ الحقِّ الَّذي يبدأ بلَيِّ الرَّأسِ، ثمَّ الجانبِ، ثمَّ يُعطيكَ دُبُرَهُ، هذهِ كلُّها علاماتٌ للفرارِ منَ الجَدَلِ حينَ لا يَقْوَى المُجادِلُ على الإقناعِ[6].

---

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: 4/ 280.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 414، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 447، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 96.

(3) الرّازي، ، مفاتيح الغيب: 23/ 207، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.

(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 16.

(5) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 21، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 117.

(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9719.

سرُّ إفرادِ الضَّميرِ في لفظ: ﴿عِطۡفِهِۦ﴾ وما بعدَهُ:

لِيّ العطف وثنيه تصوير تمثيليّ لمشهد الكبرياء والصّلف

إفرادُ الضَّمائرِ في قولِهِ تعالى: ﴿عِطۡفِهِۦ﴾، وما ذُكِرَ بعدَهُ مراعاةٌ للفظِ (مَنْ)، في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، وإنْ كانَ معنى تلكَ الضَّمائرِ الجمعَ[1]، ومعنى ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، أنّه" يجادل في الله حال كونه ثاني عِطْفِه، يعنى لاويا عنقه موليّا جنبيه، طاويا كشحه عنها كبرا وخيلاء على أصحاب الدّلائل والبراهين، وأرباب الكشف والشّهود، عتوّا واستكبارا"[2].

القراءاتُ وتوجيهُها في ﴿لِيُضِلَّ﴾:

تـعـدُّدُ المعـاني بتعدُّدِ القراءاتِ مـفـيـد لـتـنـوّع الدّلالة

اختلفَ القُرّاءُ، في قولِهِ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾: فقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورويْسٌ بخُلْفٍ عنه بفتحِ الياءِ، وقرأ الباقونَ بضمِّها[3]، أمّا القراءةُ بضمِّ الياءِ، فمِن: (أضلَّ يُضِلُّ) المتعدِّي؛ فدلالةٌ على أنَّ هذا المُجادِلَ جادلَ وأظهرَ التَّكبُّرَ؛ ليتبعَهُ غيرُهُ، فيُضِلَّهُ عن طريقِ الحقِّ، فجمعَ بينَ الضَّلالِ والكفرِ وإضلالِ الغيرِ، وأمّا القراءةُ بفتحِ الياءِ، فمن (ضلَّ يَضِلُّ) اللازمِ؛ فالمعنى أنَّهُ فعلَ ذلكَ؛ ليَضِلَّ هو في نفسِهِ[4]، فاللام على هذا للعاقبة؛ أي: لتكون عاقبته إلى ضلال، وهذا تحذير شديد من الجدال والكبر إذ يصيران بصاحبهما للضلال المبين، ومن بلاغة هاتين القراءتين أن هذا المتكبِّر جَمَع بين الضّلال في نفْسه وبين إضلال غيره، فأتى بجريمتين.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لِيُضِلَّ﴾:

بـيـان أنّ الـلّام للتَّعليل حقيقةً أو عـلـى سبيلِ الاستعارة

قُرِئَ قولُهُ تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّها كما تقدَّمَ، أمّا على قراءةِ ضمِّ الياءِ فاللّامُ للتَّعليلِ على سبيلِ الحقيقةِ؛ لأنَّهُ يصحُّ أنْ يكونَ الغَرَضُ إضلالَ الغيرِ، وأمّا على قراءةِ فتحِ الياءِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 209.
(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية: 1/ 548.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 299.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207، والسّمين، الدّر المصون: 8/ 236.

فأوردَ سؤالٌ حاصلُهُ: أنَّ اللّامَ إمّا تعليلٌ للمُجادَلةِ، ويَرِدُ عليهِ أنَّ أحدًا لا يُجادِلُ ليَضِلَّ، والجوابُ: أنَّهُ لمّا أدَّى جِدالُهُ إلى الضَّلالِ، جُعِلَ كأنَّهُ غَرَضُهُ[1]، يعني: لمّا كانَتْ عاقبةُ جِدالِهِ الضَّلالَ، كانَ مُشبَّهًا بالغَرَضِ في التَّرتُّبِ على الفعلِ، فاللّامُ الدّاخلةُ عليهِ لامُ العاقبةِ، ومُستعارةٌ لها مِنَ الغَرَضِ استعارةً تبعيَّةً[2].

وإمّا تعليلٌ لثَنْيِ العِطْفِ، ويَرِدُ عليهِ، أنَّهُ لم يكنْ مُهتديا ليَضِلَّ، وأُجيبَ: بأنَّهُ لمّا كانَ الهُدى مُمكِنًا لهُ، فتركَهُ وأعرضَ عنهُ، وأقبلَ على الجِدالِ بالباطلِ - جُعِلَ كالخارجِ مِنَ الهُدى إلى الضَّلالِ[3]، أي: جُعِلَ التَّمكُّنُ مِنَ الهُدى والاقتدارُ عليهِ كحصولِهِ بالفعلِ[4].

سرُّ حذفِ المفعولِ على قراءةِ ضمِّ الياءِ:

المُرادُ عُمومُ النّاسِ أو طائفةٌ مخصوصةٌ منهُم

المرادُ بالإضلالِ على قراءةِ ضمِّ الياءِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾: إمّا الإخراجُ مِنَ الهُدى إلى الضَّلالِ؛ فالمفعولُ مَنْ يُجادِلُهُ مِنَ المُؤمنينَ، أوِ النّاسِ جميعًا بتغليبِ المُؤمنينَ على غيرِهم، وإمّا التَّثبيتُ على الضَّلالِ أو الزّيادةُ عليهِ مجازًا؛ فالمفعولُ همُ الكفَرةُ خاصَّةً[5].

المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾:

سبيلُ اللهِ هو الدّينُ الحقُّ والصّراطُ القويمُ المحقّقُ

المرادُ بسبيلِ اللّهِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾: دينُهُ، وهو الدّينُ الحقُّ[6]، أي: ليُضِلَّ عنِ الدّينِ الحقِّ؛ وهو دينُ الإيمانِ والتَّوحيدِ، وفي التَّعبيرِ عنهُ بالسَّبيلِ بَراعةٌ؛ لأنَّهُ يُصوِّرُ أنَّ الطَّريقَ المستقيمَ الموصلَ إلى رِضوانِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى، هو دينُ الإيمانِ والتَّوحيدِ، ومَنْ ضلَّ عنهُ وأضلَّ غيرَهُ، فقد خَسِرَ خُسرانًا مُبينًا، وتاهَ في شِعابِ الضَّلالِ والكُفْرِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 448.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 22.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146، والطيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 448.

(4) ابن التّمجيد، حاشيّة على البيضاويّ: 13/ 21.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 117.

(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 430، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 208.

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

زيادةُ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ بإظهارِ الاسمِ الأعظمِ الرّفيعِ

أُظهِرَ لفظُ الجلالةِ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُقَلْ: (ليُضِلَّ عن سبيلِهِ)، أي: عن سبيلِ اللّهِ الدّالِّ عليه قولُهُ: ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾؛ لِما في الإظهارِ مِنْ مزيدِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ لحالِ هذا المُجادِلِ بالتَّعرُّضِ للفظِ الجلالةِ مرَّتينِ، فهو يُجادِلُ فيما لا ينبغي الجِدالُ فيه؛ وهو اللّهُ تعالى، ويريدُ أنْ يُضِلَّ عنِ السَّبيلِ المُستقيمِ الَّذي لا ينبغي الضَّلالُ عنهُ وهو سبيلُ اللّهِ.

بلاغةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

تشريفُ سبيلِ الحقِّ بإضافته إلى الله الحقّ

أُضيفَ السَّبيلُ إلى لفظِ الجلالةِ، في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ تشريفًا لسبيلِ الإيمانِ والتَّوحيدِ؛ لِما تُنبِئُ عنهُ الإضافةُ مِنِ اختصاصِ هذا السَّبيلِ بالانتسابِ إليهِ تعالى شأْنُهُ، وتشنيعًا على الَّذي يضل عن سبيل؛ كيف يضل عنه وهو سبيل اللّه الواحد القهار؟!.

نكتةُ إعرابِ جملةِ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾:

احتمالُ الجملةِ للاستئنافِ والحالِ تأويلِ على أكثر من معنى

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾، جملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبيانِ نتيجةِ ما سلكهُ مِنَ الطَّريقةِ، أي: يَثْبُتُ لهُ في الدُّنيا بسببِ ما فعلَهُ خِزْيٌ؛ وهو ما أصابَهُ يومَ بدرٍ مِنَ القتلِ والهَوانِ[1]، والكلامُ وإنْ كانَ خاصًّا بالمشركينَ مِنْ أهلِ مكَّةَ، لكنَّ الحكمَ عامٌّ[2].

وجوزَ أنْ تكونَ هذهِ الجملةُ حالًا مُقارِنةً، أي: مُستحِقًّا ذلكَ، وأنْ تكونَ حالًا مُقدَّرةً[3].

نكتةُ تقديمِ ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ على ﴿خِزۡيٞ﴾:

الاختصاصُ وتعجيلُ المَساءةِ مفيد في بيان المراد

قُدِّمَ قوله تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، على لفظ ﴿خِزۡيٞ﴾؛ لإفادةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97، والشّوكاني، فتح القدير: 3/ 520.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 22.
(3) السّمين، الدّر المصون: 8/ 236.

الاختصاصِ، ببيانِ أنَّ الخِزْيَ والصَّغارَ لهذا المُجادِلِ ومَنْ على شاكلتِهِ لا لغيرِهِ، وتعجيلِ مَساءتِهِ، ببيانِ أنَّ الخِزْيَ لهُ وأنَّهُ يَلْحَقُهُ في الدُّنيا، فيكونُ ذلكَ أدعى لاغتمامِهِ؛ لأنَّ الشَّرَّ إذا تُيُقِّنَ وقوعُهُ وقَرُبَ ازدادَ خوفُ النَّفْسِ واضطرابُها بسببِهِ.

علَّةُ تنكيرِ لفظِ ﴿خِزۡيٞۖ﴾:

تعظيمُ شأنِ الخِزْيِ وتهويلُهُ بكونِ الدّنيا محلّاً له

يدلُّ تنكيرُ ﴿خِزۡيٞۖ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾، على تفخيمِ شأنِ هذا الخِزْيِ وتهويلِهِ المناسبَيْنِ لمقامِ الوعيدِ، وبيانِ سوءِ العاقبةِ، أي: لهُ في الدُّنيا خِزْيٌ عظيمٌ هائلٌ لا يوصَفُ؛ لِما يَحيقُ بهِ مِنَ القتلِ والأَسْرِ[1]، وذمِّ المؤمنينَ ولَعْنِهِم لهُ[2]، وكأنَّ الدُّنيا كلَّها ليسَتْ إلّا مَحَلًّا لذُلِّهِ وهَوانِهِ، ولم يَخرُجْ منها بغيرِ ذلكَ.

وجهُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في سياقِ الآيةِ:

الدَّلالةُ على ثبوتِ الخِزْيِ واستقرارِهِ تبريزٌ للمعنى المقصود

في اختيارِ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾، حيثُ لم يُقَلْ مثلًا: (نُخْزيهِ في الدُّنيا) دلالةٌ على ثبوتِ الخِزْيِ واستقرارِهِ، وأنَّ اللّهَ تعالى قد حكمَ بهِ، وقضى بهِ قضاءً مُبرَمًا، فضربَ الخِزْيُ بجِرانِهِ عليهِم، ولَزِمَهم لُزومَ الصَّمْغِ.

دلالةُ إعرابِ جملةِ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾:

ما أخزى الظالمين بالذل في الدنيا والعذاب في الآخرة!

قولُهُ ﷻ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، معطوفٌ على قولِهِ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾، ويفيدُ هذا العطفُ أنَّ هذا المُجادِلَ بالباطلِ وأمثالَهُ، قد جُمِعَ لهُم بينَ الخِزْيِ في الدُّنيا، وعذابِ الحريقِ في الآخرةِ، فأحاطَ بهم العذابُ مِنْ جانبَيْهِم.

بلاغةُ الاستعارةِ في الإذاقةِ من العذابِ:

ربط عذابِ النّارِ بالشَّيءِ المَذوقِ المحسوس

في قولِ اللّهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، استعارةٌ مكنيَّةٌ، وذلكَ بتشبيهِ عذابِ النّارِ بالشَّيءِ المَذوقِ، ثمَّ حُذِفَ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 109، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207.

المُشبَّهُ بِهِ، وهو الشَّيءُ المَذوقُ، وأُبقي على شيءٍ مِنْ لوازِمِه، وهو الإذاقةُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّة[1]، والمعنى: (ونجعلُهُ يُحِسُّ بألمِ العذابِ بالحريقِ كما يُحِسُّ الذّائقُ بالشَّيءِ المَذوقِ، كما أحرقَ قُلوبَ المُهتدينَ بجِدالِهِ بالباطلِ)[2]، وفي اختيارِ لفظِ الإذاقةِ أيضًا تأكيدٌ لإصابةِ عذابِ الحريقِ لهُ؛ لأنَّ الشَّيءَ المَذوقَ يتمكَّنُ مِنْ حاسَّةِ الذَّوْقِ بحيثُ لا يُمكنُها دَفْعُهُ، وكذلكَ الإحساسُ بالعذاب.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ إذاقتِهِ عذابَ الحريقِ تهويل لنوع العذاب المحتمل

قوله تعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، أُسنِدَ فعلُ الإذاقةِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾؛ لتعظيم شأنِ إذاقتِهِ عذابَ الحريقِ، أي: ونُذيقُهُ بما لَنا مِنَ العظَمةِ عذابَ الحريقِ[3]، وعذابُ العظيمِ عظيمٌ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ولا يُحاطُ بكُنْهِهِ، و"الحريق بمعنى المحرق، فيجوز أن يكون من إضافة المسبّب إلى سببه على أن يكون الحريق عبارة عن النّار، وأن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته والأصل: العذاب الحريق"[4].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾:

وقوعُ إذاقتِهِ عذابَ الحريقِ مستقبلًا تخويف من المصير

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾؛ لأنَّ إذاقةَ هذا المُجادِلِ وأمثالِهِ عذابَ الحريقِ، أمرٌ مُستقبليٌّ، يكونُ يومَ القيامةِ، كما نصَّ عليهِ قولُهُ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، فاختيرَتْ صيغةُ المضارعِ الدّالَّةُ على الاستقبالِ، فجُمِعَ له بهذا بين العذاب الحاضر وهو خزي الدنيا، وبين عذاب الآخرة وهو النار، وهذا من أشد الوعيد وأبعد الخسران.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 209.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 9.

دلالةُ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ في السّياق:

تحديدُ زَمَنِ وقوعِ عذابِ الحريقِ موضح لخطرِه في المآل

يدلُّ التَّعبيرُ بظرفِ الزَّمانِ، في قولِهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، على تحديدِ زَمَنِ وقوعِ عذابِ الحريقِ، وأنَّهُ يكونُ يومَ القيامةِ الَّذي يُجمَعُ فيهِ الخلائقُ بالإحياءِ بعدَ الموتِ[1]، وفي التَّعبيرِ بهِ تقابلٌ معنويٌّ بينَهُ وبينَ الدُّنيا، في قولِهِ: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾، وفي ذلكَ زيادةُ حَسْرةِ المُجادِلِ، ببيانِ أنَّهُ لم يَنَلْ مِنْ دُنياهُ وآخِرتِهِ إلّا الخِزْيَ في الدُّنيا، وعذابَ الحريقِ في الآخرةِ.

المرادُ بلفظ ﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾ في الآية الكريمة:

مصيرُ الكافرِ يوم القيامة إلى النّار ودركاتها وعذابها المحرق

اختُلِفَ في المرادِ بالحريقِ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾: فقيلَ: الحريقُ طبقةٌ مِنْ طبقاتِ جهنَّمَ[2]، وقيلَ: قولُهُ: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ مِنْ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِهِ، أي: العذابَ الحريقَ، أي: المُحرِقَ، كالسَّميعِ بمعنى المُسمِعِ[3]، وقيلَ: المعنى النّارِ البالغةِ في الإحراقِ، والإضافةُ مِنْ إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ[4].

التّشابه اللّفظيّ بين آيتي سورة الحجّ (3) و(8) وآية لقمان (20):

أثرُ الزّيادةِ في المبنى على الزّيادةِ في المعنى

التَّشابهُ اللَّفظيُّ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، وقولِهِ سبحانَهُ في آيةٍ سابقةٍ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣﴾ [الحجّ: 3]: في الآيتينِ حديثٌ عمَّنْ يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ علمٍ، وقد زادَتْ هذهِ الآيةُ نَفْيَ الهُدى والكتابِ المُنيرِ، وزادتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّهُ يتَّبِعُ كلَّ شيطانٍ مَريدٍ، وفُرِّقَ بينَ الآيتينِ - على بعضِ الأقوالِ في تفسيرِهما - بأنَّ الآيةَ السّابقةَ لبيانِ حالِ الضُّلّالِ الجُهّالِ المُقلِّدينَ، وهذهِ الآيةَ لبيانِ حالِ الدُّعاةِ إلى الضَّلالِ مِنْ رؤوسِ الكفرِ والبِدَعِ[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 109.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 488، والسمين، الدر المصون: 8/ 237.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 118.

(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 399، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 91.

والتَّشابهُ اللَّفظيُّ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، وقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان: 20]: بينَ الموضعين اتِّفاقٌ تامٌّ في اللَّفظِ، إلّا أنَّ ما هنا آيةٌ تامَّةٌ، وما في لُقمانَ جزءٌ مِنْ آيةٍ؛ إذ صَدْرُ آيةِ لُقمانَ: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20]، وقيلَ في التَّشابهِ بين هاتين الآيتين: إنَّ ما في هذهِ السّورةِ وافقَ ما قبلَهُ مِنَ الآياتِ مِنْ حيثُ الفاصلةُ، وهي: ﴿قَدِيرٞ﴾، ﴿ٱلۡقُبُورِ﴾، وكذلكَ ما في لُقمانَ وافقَ ما قبلَهُ وما بعدَهُ مِنَ الفواصلِ، وهي: ﴿ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 19]، ﴿ٱلسَّعِيرِ ٢١﴾ [لقمان: 21]، ﴿ٱلۡأُمُورِ ٢٢﴾ [لقمان: 22][1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدالُ والمِراءُ والحِجاجُ:

المِراءُ مشاحنة مذمومة والجِدالُ للرُّجوعِ عنِ المذهبِ والحِجاجُ لإظهارِ الحُجَّةِ

الجِدالُ والمِراءُ مُتقاربا المعنى، وفُرِّقَ بينَهما: بأنَّ المِراءَ مذمومٌ؛ لأنَّهُ مُخاصَمةٌ في الحقِّ بعدَ ظُهورِهِ، وليسَ كذلكَ الجِدالُ[2]، وأمّا الفرقُ بينَ الجِدالِ والحِجاجِ: فهو أنَّ المطلوبَ بالحِجاجِ هو ظُهورُ الحُجَّةِ، والمطلوبَ بالجِدالِ الرُّجوعُ عنِ المذهبِ؛ فإنَّ أصلَهُ مِنَ الجَدْلِ، وهو شدَّةُ الفَتْلِ، ويُؤيِّدُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، وقولُهُ: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النّحل: 125]، وذلكَ أنَّ دَأْبَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، رَدْعُ أقوامِهم عنِ المذاهبِ الباطلةِ، وإدخالُهم في دينِ اللّهِ، بإيرادِ الأدلَّةِ والحُجَجِ، وقد يُرادُ بالجِدالِ مُطلَقُ المُخاصَمةِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [النّساء: 109]، وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود: 74] فقيلَ:

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 144.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 159.

إنَّهُ قالَ للملائكةِ: بأيِّ شيءٍ استحقّوا عذابَ الاستئصالِ؟ وهل ذلكَ واقعٌ لا مَحالةَ أم هو تخويفٌ لهُم؛ ليرجعوا إلى الطّاعةِ؟ وبأيِّ شيءٍ يُهْلَكونَ؟ وكيفَ يُنجّي اللّهُ المؤمنينَ؟ فسُمّي ذلكَ السُّؤالُ المُستقصي جدالًا؛ فالمرادُ: يُجادِلُ رُسُلَنا، وتلكَ المُجادَلةُ مِنْ رقّةِ قلبِه، ورحمتِه بهم، وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ٧٥﴾ [هود: 75] إشارةٌ إلى هذا[1].

الضّياءُ والنّورُ:

الضّياءُ ما كانَ مِنْ ذاتِ الشَّيءِ المُضيءِ والنّورُ ما كانَ مُستمَدًّا مِنْ غيرِهِ

فُرِّقَ بينَ الضّياءِ والنّورِ: بأنَّ الضّياءَ: ما يتخلَّلُ الهواءَ مِنْ أجزاءِ النّورِ، فَيَبْيَضُّ بذلكَ، ويدلُّ على ذلكَ أنَّهم يقولونَ: ضياءُ النَّهارِ، ولا يقولونَ: نورُ النَّهارِ، إلا إنْ عَنَوُا الشَّمسَ[2]، وفُرِّقَ بينَهما أيضًا: بأنَّ الضّياءَ: ما كانَ مِنْ ذاتِ الشَّيءِ المُضيءِ، والنّورَ: ما كانَ مُستفادًا مِنْ غيرِه، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]؛ فالضّياءُ أتمُّ وأكملُ مِنَ النّورِ، والنّورُ أعمُّ منهُ[3].

الخِزْيُ والذُّلُّ:

الخِزْيُ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ والذل أعم

الفرقُ بينَ الخِزْيِ والذُّلِّ: أنَّ الخِزْيَ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ[4]، فيكونُ الذُّلُّ أعمَّ، وفي هذا يقول ابن درستويه: بأنّ الخزي الإقامة على السّوء، ويقال: خزي يخزى خزيا، وهو أيضا إذا استحيا من سوء فعله، أو فعل قد فعله غيره به، قيل خزي يخزى خزاية، فهما في معنى واحد، وليس ذلك بشيء؛ لأنّ الإقامة على السّوء والاستحياء من السّوء ليسا بمعنى واحد[5]، وأمّا الذّلّ، فقد قال بعض المفسّرين: الذّلّ ضدّ العزّ، يقال: ذلول من الذّل، وذليل من الذّل، والأوّل من اللّين والانقياد، والثّاني من الهون والاستخفاف[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 89.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 332.
(3) لامنس، فرائد اللّغة، ص: 178.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 243.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾ [الحجّ: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ أنَّ سببَ الخِزْيِ والعذابِ عدل الله الّذي لا يظلم أحدًا

بعدَما ذكرَ سبحانَهُ وتعالى أنَّ المُجادِلَ في اللّهِ بالباطِلِ، لهُ في الدُّنيا خِزْيٌ، ويُذاقُ في الآخرةِ عذابَ الحريقِ، بيَّنَ ﷻ أنَّ هذا الخِزْيَ المُعجَّلَ وذلكَ العِقابَ المُؤجَّلَ لأجلِ ما قدَّمَتْ يداهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَدَّمَتۡ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (قدم) سَبْقُ الشَّيءِ[2]، يقالُ: شيءٌ قديمٌ، إذا كانَ زمانُهُ سالفًا[3]، ويقالُ: حديثٌ وقديمٌ، وذلكَ إمّا باعتبارِ الزَّمانين، وإمّا بالشَّرَفِ، نحوُ: فلانٌ مُتقدِّمٌ على فلانٍ، أي: أشرفُ منهُ[4]، وقادمةُ الرَّحْلِ: خلافُ آخِرتِهِ، ولفلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أي: شيءٌ سابقٌ مِنْ أثَرٍ حَسَنٍ[5]، ويقالُ: تقدَّمَهُ، وتقدَّمَ عليهِ، واستقدمَ[6]، وهو يتقدَّمُ بينَ يدَيْ أبيهِ: يَعْجَلُ في الأمرِ والنَّهيِ دونَهُ[7]، وأراد في السّياق، بقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، أي ما قدّمت من الأعمال، وما قمت به من الأفعال، والمقصود هنا أفعال الشّرّ المقتضية للعقوبة والنّكال، وقد جاءت مضافة إلى اليد، دون سائر الأعضاء، لأنّ اليد هي الّتي يرتكب بها أكثر ما يجني الإنسان من أفعال، أو ما يقترفه من جرائر، فأضيف إلى اليد ما عمله، وإن لم يكن باشر فعله باليد.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(4) الرّاغب، المفردات: (قدم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(6) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قدم).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (قدم).

2) ﴿بِظَلَّامٍ﴾: للأصل (ظلم) معنيانِ رئيسانِ؛ أحدُهما: خلافُ الضّياءِ والنّورِ، والآخرُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ تعدّيا[1]، فمِنَ الأوَّلِ: الظُّلمةُ، وهي عدمُ النّورِ، وجمعُها: ظُلُماتٌ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النّور: 40]، ويُعبَّرُ بها عنِ الجهلِ والشِّرْكِ والفِسْقِ، كما يُعبَّرُ بالنّورِ عن أضدادِها، ومِنَ الثّاني: الظُّلْمُ، وهو وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ المختصِّ بِهِ، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِهِ أو مكانِهِ، ولذلكَ يقالُ: ظلمتُ السِّقاءَ: تناولتُهُ في غيرِ وقتِهِ، ويُسمَّى ذلكَ اللَّبَنُ الظَّليمَ[2]، والظُّلْمُ لا يَخْرُجُ عنِ انتقاصِ المُستحقِّ؛ فالجَوْرُ على حقوقِ النّاسِ منعٌ لهُم منها[3].

3) ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾: (عبد) أصلانِ يدلُّ الأوَّلُ منهما على لينٍ وذُلٍّ، ويدلُّ الثّاني على شِدَّةٍ وغِلَظٍ، فالأوَّلُ العبدُ، وهو المملوكُ[4]، والجمعُ: العبيدُ، والعُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعِبادةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا اللّهُ تعالى[5]، والعبدُ يقالُ على أضرُبٍ: الأوَّلُ: عبدٌ بحُكْمِ الشَّرعِ؛ وهو الإنسانُ الَّذي يصحُّ بيعُهُ وشراؤُهُ مِنَ النّاسِ، نحوُ: ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ [البقرة: 178]، والثّاني: عبدٌ بالإيجادِ الَّذي لا يكونُ إلّا للّهِ، وهو المقصودُ بقولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ٩٣﴾ [مريم: 93]، والثّالثُ: عبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمةِ، والنّاسُ في هذا نوعانِ: عبدٌ للّهِ مُخلَصٌ، وهو المقصودُ بنحوِ قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، وعبدٌ للدُّنيا مُعتكِفٌ على خِدْمتِها ومراعاتِها[6]، والأصلُ الثّاني: العَبَدَةُ، وهي القوَّةُ والصَّلابةُ[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ سبحانَهُ وتعالى عنِ المُجادِلِ بالباطلِ أنَّهُ بعدَ لُحوقِ الخزْيِ بِهِ في الدُّنيا، وإلقائِهِ في النّارِ في الآخرةِ - يقالُ لهُ على جهةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ: إنَّ ما أصابَكَ مِنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) الراغب، المفردات: (ظلم)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ظلم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد)، وانظر جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عبد).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/ 20.
(6) الراغب، المفردات: (عبد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

جزاء المجادل الكفور بما قدّم مع انتفاء الظُّلم عنهُ سبحانَهُ وتعالى

الهَوانِ في الدُّنيا، وما أنتَ فيهِ الآنَ مِنِ اصطلاءِ لَهَبِ النّارِ؛ بسببِ ما اجترحَتْ يداكَ في الدُّنيا مِنَ الآثامِ والذُّنوبِ، ولأنَّ اللّهَ لا يظلمُ عبادَهُ، فلا يُعذِّبُ أحدًا بغيرِ جُرْمٍ قد فعلَهُ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكت الإعراب في سياق: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾:

يلحق الكافر وهو في عذابه التوبيخ والإهانة

اختُلِفَ في إعرابِ جملةِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾: فقيلَ: الجملةُ مَقولُ قولٍ محذوفٍ تدلُّ عليهِ صيغةُ الكلامِ، وهي جملةٌ مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ[1]، أي: يقالُ لهُ يومَ القيامةِ: ذلكَ[2]، وقيلَ: الجملةُ في موضعِ الحالِ مِنْ ضميرِ النَّصبِ في قولِه ﷻ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ﴾[3]، أي: ونُذيقُهُ يومَ القيامةِ عذابَ الحريقِ قائلِينَ أو مَقولًا لهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾[4]، والظّاهرُ أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، وخبرُهُ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾[5]، وجُوّزَ أنْ يكونَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضعِ رفعٍ على أنَّهُ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، والمعنى: (الأمرُ ذلكَ بما قدَّمَتْ يداكَ)[6].

مرجعُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارةُ للخِزْيِ والعذابِ من بليغ التّعبير عن المراد من السّياق

قيلَ: الإشارةُ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، راجعةٌ إلى العذابِ، والمعنى: (عذابُ الحريقِ بما قدَّمَتْ يداكَ مِنَ المعاصي والكفرِ)[7].

وقيلَ: الإشارةُ راجعةٌ إلى ما تقدَّمَ مِنَ الخِزْيِ في الدُّنيا، وعذابِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 209.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 209.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 118.
(5) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 414، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 520.
(6) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 414.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 16، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 210.

الحريقِ في الآخرةِ، أي: ما ذُكِرَ مِنْ خِزْيِ الدُّنيا وعذابِ الحريقِ في الآخرةِ بما قدَّمَتْ يداكَ مِنَ المعاصي والكفرِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تفخيمُ شأنِ المُشارِ إليهِ وتفظيعُهُ مقصودٌ في السّياق

في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، تحقيقٌ للمُشارِ إليهِ، حتَّى كأنَّهُ محسوسٌ مُشاهَدٌ[2]، وما فيهِ مِنْ معنى البُعْدِ؛ للإيذانِ بكونِهِ في الغايةِ القاصيةِ مِنَ الهَوْلِ والفَظاعةِ[3]، أي: الخِزْيُ والعذابُ الفظيعانِ الهائلانِ، بما قدَّمَتْ يداكَ.

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾:

بيانُ ملمحِ السَّببيَّةِ ودلالةِ ذلك في السّياق

الظّاهرُ أنَّ الباءَ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ للسَّببيَّةِ، والمعنى: (ما مُنيتَ بِهِ مِنْ خِزْيِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، بسببِ ما قدَّمَتْ يداكَ مِنَ الكفرِ والتَّكذيبِ)[4]، وإسناده إلى (يديه)، لما أنّ الاكتساب عادة يكون بالأيدي، وقيلَ: يجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للمُقابَلةِ[5]، أي: (ذلك مقابلُ ما قدَّمَتْ يداكَ)، ودلالة السّياق بقوله للمخاطب: (إنّ ما ذكر من الخزي والتّعذيب، كان جزاء وفاقًا، لما اقترفت كفّاك، وما قدّمت يداك)، واللّه يفعل ذلك من منطلق العدل والإنصاف، في المكافأة على الصّالحات، والعقوبة على الزّيغ والانحرافات.

دلالةُ (ما) في: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾:

كلّ البشر يجازون بما قدّموا ولا يظلمون فتيلا

(ما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ موصولةٌ، والمعنى: (ذلكَ المذكورُ مِنَ الخِزْيِ والعذابِ، بسببِ الَّذي قدَّمَتْهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9722.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 432.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 118.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 207، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 430.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 22.

يداكَ مِنَ الكفرِ والتَّكذيبِ)[1]، ومفاد ذلك، أنّ "يقال لهذا المتكبّر المختال الضّالّ: ذلك الّذي تلقاه من خزي وعذاب، بسببِ ضلالك وكبريائك، واللهُ لا يظلم أحدا"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ: ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

جعلُ الكفرِ كالشَّيءِ المبعوث بهِ إلى الآخرة مقدّمًا بين يدي مرتكبه

في التَّعبيرِ بالتَّقديم في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ نكتةٌ لطيفةٌ، حيثُ جُعِلَ كفرُهُ كالشَّيءِ الَّذي بعثَ بهِ إلى دارِ الجزاءِ، قبلَ أنْ يَصِلَ هو إليها، فوجدَهُ يومَ القيامةِ حاضرًا ينتظرُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: 49][3].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

ملاءمةُ الماضي لمقامِ التَّخسيرِ والتَّحسيرِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي، في قولِه سبحانَهُ وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾؛ لِما تُفيدُهُ هذهِ الصّيغةُ مِنْ تحقُّقِ صُدورِ الكفرِ والتَّكذيبِ عنهُ، وذلكَ يناسبُ مقامَ التَّخسيرِ والتَّحسيرِ، وبيانِ سببِ استحقاقِهِ للخِزْيِ والهَوانِ في الدُّنيا، والعذابِ الأليمِ في الآخرة.

بلاغةُ المجازِ في جملة: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾:

التَّعبيرُ بالجزءِ وإرادةُ الكلِّ من فصيح البيان

قولُهُ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ معناهُ: ذلكَ بما قدَّمتَ، لكنْ نُسِبَ التَّقديمُ إلى اليدينِ؛ لأنَّهما آلتا الاكتسابِ[4]؛ فاليدُ هي الَّتي تفعلُ وتَبْطِشُ لجُملةِ الشَّخصِ[5]، فيكونُ في الكلامِ مجازٌ مُرسَلٌ مِنْ قَبيلِ التَّعبيرِ عنِ الكلِّ باسمِ الجزءِ[6].

وفي نسبةِ التَّقديمِ إلى اليدينِ أيضًا مَزيدُ تسجيلٍ عليهِ، بأنَّ ما لَحِقَهُ مِنَ الخِزْيِ والعذابِ بسببِ مباشرةِ أسبابٍ منهُ هو، لا بسببِ أمرٍ خارجٍ عنهُ[7]، فيكونُ ذلكَ أدعى لحَسْرَتِهِ وندامتِهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 210.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 210.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 210.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 109.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 16.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4950.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.

علَّةُ تثنيةِ اليدِ في قولِهِ: ﴿يَدَاكَ﴾:

المبالغةُ في نسبةِ التَّقديمِ لهُ حتّى تقام عليه الحجّة

قيلَ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ بالتَّثنيةِ، ولم يُقَلْ: (ذلكَ بما قدَّمَتْ يدُكَ) بالإفرادِ؛ لِما تُفيدُهُ تثنيةُ اليدِ مِنَ المبالغةِ في نسبةِ التَّقديمِ لهُ، وأنَّهُ قد صدرَ منهُ بكِلْتا يديه(1)، ومن صدر منه ذلك بكلتا اليدين، دلّ على تشبّثه بالفعل، وإصراره على المقارفة، دون التفات إلى التّحذير، ولا اكتراث بالمصير، وهو ما استوجب به أن يذكّر بأنّه لم يظلم، وإنّما كان ما حلّ به جزاء ما اقترف، وإن أنكر ولم يعترف.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآيةِ المحكمة:

تغيير الصّيغة مِنَ الغَيبةِ إلى الخطابِ يقتضيه المشهد في هذا الباب

في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، التفاتٌ مِنَ الحكايةِ، في قولِهِ: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ إلى الخطابِ، حيثُ لم يُقَلْ: (ذلكَ بما قدَّمَتْ يداهُ)، وفائدةُ هذا الالتفاتِ تأكيدُ الوعيدِ، وتشديدُ التَّهديدِ(2)، إضافةً إلى ما في توجيهِ الخطابِ لهُ مِنَ التَّقريعِ والتَّبكيتِ، فيُجمَعُ لهُ بينَ العِقابِ الجسديِّ بالحريقِ، والعِقابِ النَّفسيِّ بالتَّخسيرِ والتَّحسيرِ.

إعرابُ جملة نفي الظّلم عن الله جلّ في علاه:

دخولُ السّياق أو عدمه في حيّزِ السَّببيَّةِ كلاهما مبينٌ عن الدّلالة السّنيّة

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ جلَّ وتبارك: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، معطوفٌ على (ما) الموصولة، في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾؛ لأنَّهُ في تأويلِ مصدرٍ، أي: وبانتفاءِ ظُلمِ اللّهِ العبيدَ، فيكونُ داخلًا في حيِّزِ السَّببيَّةِ(3)، أي: ذلكَ مُسبَّبٌ لهذينِ الأمرينِ، فصاحبُهُ حقيقٌ بهِ؛ لأنَّهُ جزاءُ فسادِهِ، ولأنَّهُ أثَرُ عدلِ اللّهِ تعالى، وأنّهُ لم يَظْلِمْهُ فيما أذاقَهُ(4)، وقيلَ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾، غيرُ داخلٍ في حيِّزِ السَّببيَّةِ، والتَّقديرُ: (والأمرُ أنَّ اللّهَ ليسَ بمُعذِّبٍ لعبيدِهِ مِنْ غيرِ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 22.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 118.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/ 52، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 430.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 23، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 210.

ذنبِ مِنْ قِبَلِهم)[1]، وعلى هذا الوجهِ تكونُ الجملةُ اعتراضًا تذييليًّا مُقرِّرًا لمضمونِ ما قبلَها[2].

سرُّ التَّوكيدِ بلفظ ﴿وَأَنَّ﴾ في السّياق:

تأكيدُ الكلامِ زيادةُ تأكيدٍ لمضمونه

تصديرُ قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ بالتَّوكيدِ؛ للاهتمامِ بمضمونِ الكلامِ، وإفادةِ تحقُّقِ انتفاءِ ظُلْمِه سبحانَهُ وتعالى للعبيدِ، والمقامُ يقتضي ذلكَ؛ لأنَّهُ لإقامةِ الحُجَّةِ على المُجادِلِ بالباطِلِ، وبيانِ أنَّ ما حاقَ بهِ نتيجةُ أعمالِهِ.

وجهُ اختيارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ غيرِه:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ إظهارِ العدلِ وانتفاءِ الظّلم

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسْنى، في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾؛ لِما يُنبِئُ عنهُ هذا الاسمُ الجليلُ مِنْ صفاتِ الكمالِ الَّتي بها استحقَّ سبحانَهُ وتعالى الأُلوهيَّةَ والوحدانيَّةَ[3]، ومِنْ جملةِ ذلكَ عَدْلُهُ سبحانَهُ وتعالى، وقُدرتُهُ على تعذيبِ مَنْ يعصيهِ ويخالفُ أوامرَهُ، ويُجادِلُ فيهِ بالباطِلِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بنفيِ الظُّلمِ في الآيةِ الكريمة:

بيانُ المبالغةِ في بيانِ كمالِ نَزاهتِهِ تعالى عنِ الظُّلم

قولُهُ جلَّتْ حكمتُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ معناهُ: أنَّه تعالى ليسَ بمُعذِّبٍ لعبيدِهِ بغيرِ ذنبٍ منهُم، والتَّعبيرُ عن ذلكَ بنفيِ الظُّلمِ معَ أنَّ تعذيبَهم بغيرِ ذنبٍ ليسَ بظُلْمٍ فضلًا عن كونِهِ ظُلمًا بالغًا؛ لبيانِ كمالِ نَزاهتِهِ جلَّ شأنُهُ عن ذلكَ، بتصويرِهِ بصورةِ ما يستحيلُ صُدورُهُ عنهُ سبحانَهُ مِنَ الظُّلمِ، كما يُعبَّرُ عن تركِ الإثابةِ على الأعمالِ بإضاعتِها، معَ أنَّ الأعمالَ غيرُ موجبةٍ للثَّوابِ، حتّى يلزمَ مِنْ تخلُّفِه عنها ضَياعُها[4].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 488، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/ 121، وقد ذكر ذلك في تفسير الآية (182) من سورة آل عمران.

الظُّلْمُ مِنْ حيثُ هو ظُلْمٌ أمرٌ شديدٌ وعاقبته وخيمة

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ بقوله ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾:

اختُلِفَ في سرِّ التَّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ، في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾، معَ أنَّهُ تعالى ذكرُهُ لا يظلمُ مِثقالَ ذرَّةٍ: فقيلَ: لأنَّ أقلَّ قليلِ الظُّلمِ لو صدرَ منهُ تعالى كأكثرِ الكثيرِ منّا[1]، كما يقالُ: حَسَناتُ الأبرارِ سيِّئاتُ المُقرَّبينَ[2]، وقيلَ: المبالغةُ لكثرةِ العبيدِ، كما يدلُّ عليهِ اقترانُهُ بلفظِ الجمعِ، وهو العبيدُ[3]، واعتُرِضَ عليهِ: بأنَّهُ لا يلزمُ مِنْ نَفْيِ ظُلْمِ كثيرٍ مِنَ العبادِ نَفْيُ ظُلْمِ بعضِهم[4]، وقيلَ: يجوزُ أنْ تُعتبرَ المبالغةُ بعدَ النَّفيِ، فيكونُ مبالغةً في النَّفيِ، لا نفيًا للمبالغةِ[5]، ويكونُ معنى الكلامِ: وأنَّ اللّهَ مُنتَفٍ عنهُ الظُّلْمُ غايةَ الانتفاءِ[6]، وقيلَ: صيغةُ المبالغةِ تقتضي بظاهرِها نَفْيَ الظُّلمِ الشَّديدِ، والمقصودُ أنَّ الظُّلمَ مِنْ حيثُ هو ظُلْمٌ أمرٌ شديدٌ، فصيغَتْ لهُ زِنَةُ المبالغةِ، وكذلكَ التُزِمَتْ في ذكرِهِ حيثُما وقعَ في القرآنِ[7].

اختيارُ اللَّفظِ المُشيرِ إلى المَسْكَنةِ وقلَّةِ القُدرةِ

سرُّ إيثارِ لفظِ (العبيدِ) على لفظِ (العِبادِ):

اختيرَ لفظُ العبيدِ، في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾، ولم يُقَلْ: (وأنَّ اللّهَ ليسَ بظلّامٍ للعِبادِ)؛ لأنَّ العبيدَ هنا ذُكِروا في معنى مَسْكَنَتِهم، وقلَّةِ قُدرتِهم، ولأنَّهُ موضعُ تشفيقٍ وتنجيةٍ مِنْ ظُلمٍ، فلذلكَ جاءَتْ هذهِ الصِّيغةُ[8]، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ لفظَ العبيدِ أنسبُ بفواصلِ الآياتِ هنا، قال الشّعراويّ: "فالحقّ سبحانه ليس بظلّام للعبيد؛ لأنه بيَّن الحلال والحرام، وبيَّن الجريمة، ووضع

(1) النّيسابوريّ، إيجاز البيان: 2/ 570.
(2) الخفاجيّ، حاشية على البيضاويّ: 6/ 284.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 430.
(4) الخفاجيّ، حاشية على البيضاويّ: 6/ 284.
(5) الخفاجيّ، حاشية على البيضاويّ: 6/ 284.
(6) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 23.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 210.
(8) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 109، واعترض على هذه التّفرقة أبو حيان في البحر المحيط: 3/ 457.

لها العقوبة، وقد بلَّغتِ الرُّسل من بداية الأمر، فلا حُجَّةَ لأحد"[1]، وعليه فالحجّة قائمة على مجموع المخلوقات المكلَّفة، ممَّن سمّاهم العبيد.

التّشابه اللّفظيّ بين هذهِ الآية وآيتي آل عمران (182) والأنفال (51):

اختلفت الآيات المذكورة في تثنية اليد وجمعها

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ في مُعظَم ألفاظِها معَ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢﴾ [آل عمران: 182]، وقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾ [الأنفال: 51]، واختلفَتْ مِنْ حيثُ تثنيةُ اليدينِ هنا، وجمعُ الأيدي في آيتَيْ آلِ عمرانَ والأنفالِ، والسِّرُّ في ذلكَ: أنَّ هذهِ الآيةَ نزلَتْ في النَّضرِ بنِ الحارثِ أو أبي جَهْلٍ، فوحَّدَهُ في الخِطابِ بقولِهِ: ﴿يَدَاكَ﴾، وفي غيرِها نزلَتْ في الجماعةِ الَّذينَ تقدَّمَ ذكرُهم، فجمعَ في قولِهِ: ﴿أَيۡدِيكُمۡ﴾ [آل عمران: 182] [الأنفال: 51][2].

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(قدّمت يداك) و(كَسَبت يداك):

استعمالُ كَسْبِ اليدينِ في سياقِ الحديث عنِ الأخذِ والاستحواذِ

يُلحَظُ في القرآنِ الكريمِ أنَّهُ يستعملُ كَسْبَ اليدينِ، في سياقِ الحديثِ عنِ الأخذِ والاستحواذِ، ويستعملُ تقديمَ اليدينِ، حينَ لا يكونُ السّياقُ للحديثِ عنهما.

ومِنْ أمثلةِ ذلكَ: قولُهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: 41]، وقد ذكرَ قبلَها كَسْبًا غيرَ مشروعٍ بقولِهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم: 39].

وقولُهُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 109، واعترض على هذه التّفرقة أبو حيان في البحر المحيط: 3/ 457.
(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 144.

عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشّورى: 30]، وقد ذكرَ قبلَها كَسْبًا وسوءَ تصرُّفٍ، بقولِهِ: ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشّورى: 27].

ومِنْ أمثلةِ ذكرِ تقديمِ اليدينِ: قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦﴾ [الرّوم: 36]، وقد قالَ قبلَها: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [الرّوم: 33]، وليسَ فيها كَسْبٌ[1].

(1) السّامرائيّ، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم: 5/ 173.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحجّ: 11]

ذكرُ حالِ المنافقينَ الخاسرين بعدَ ذكرِ حالِ المشركينَ الهالكين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيَّنَ ﷻ حالَ المُظهِرينَ للشِّرْكِ المجادلينَ فيه، وعقابهم المستحقّ بما كسبت أيديهم من جرائم وجرائر، عقَّبَهُ بذكرِ المنافقينَ، فقالَ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾[1]، حيث أوضح تأرجح المنافقين، في عبادتهم اللّه على حرف، لكون عقيدتهم مزلزلة، تتجلّى فيها مظاهر الاضطراب وعواصف الأهواء، في تقلّب بين النّعمة والبلاء، تتغيّر بها أحوالهم بين الإيمان والارتداد عن الدّين؛ ممّا يسبّب خسران الدّنيا والآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرۡفٖۖ﴾: للأصل (حرف) ثلاثةُ معانٍ رئيسةٌ: حدُّ الشَّيءِ، والعُدولُ، وتقديرُ الشَّيءِ[2]، فمِنَ المعنى الأوَّلِ: حَرْفُ الشَّيءِ: طَرَفُهُ، وجمعُهُ: أحرفٌ وحُروفٌ، يقالُ: حَرْفُ السَّيفِ، وحَرْفُ السَّفينةِ، وحَرْفُ الجبلِ، وحُروفُ الهجاءِ: أطرافُ الكلمةِ، والحروفُ العواملُ في النَّحوِ: أطرافُ الكلماتِ الرّابطةِ، بعضَها ببعضٍ[3]، ومنهُ الحَرْفُ بمعنى الوجهِ، تقولُ: هو مِنْ أمرِهِ على حرفٍ واحدٍ، أي: طريقةٍ واحدةٍ، قالَ جلَّ وتباركَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أي: على وجهٍ واحدٍ، وذلكَ أنَّ العبدَ يجبُ عليهِ طاعةُ ربِّهِ عندَ السَّرّاءِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 208، والنيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 67، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (حرف).

والضَّرّاءِ، فإذا أطاعَهُ عندَ السَّرّاءِ، وعصاهُ عندَ الضَّرّاءِ - فقد عَبَدَهُ على حَرْفٍ[1]، ومِنَ المعنى الثّاني: يقالُ: انحرفَ عنهُ ينحرفُ انحرافًا[2]، وتحريفُ الشَّيءِ: إمالتُهُ، كتحريفِ القَلَمِ، وتحريفُ الكلامِ: أنْ تجعلَهُ على حَرْفٍ مِنَ الاحتمالِ، بحيثُ يُمكِنُ حَمْلُهُ على الوجهينِ[3]، والمعنى الثّالثُ: المِحْرافُ، وهو حديدةٌ تُقدَّرُ بها الجِراحاتُ عندَ العِلاجِ[4].

2) ﴿ٱطْمَأَنَّ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (طمن) غَوْرٌ أو انخفاضٌ فيما شأنُهُ الارتفاعُ أو الاستواءُ[5]، يقالُ: اطمأنَّ المكانُ يطمئنُّ طمأنينةً[6]، وأرضٌ مُطمئِنَّةٌ ومُتطامِنةٌ: مُنخفِضةٌ[7]، وطمأنَ ظَهْرَهُ وطامنَهُ: حَناهُ[8]، والطُّمأنينةُ والاطمئنانُ: السُّكونُ بعدَ الانزعاجِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ﴾ [الأنفال: 10][9]، اطمأن القلب، سكن ولم يقلق، والاسم الطّمأنينة واطمأنّ بالموضع أقام به، واتّخذه وطنا، وموضع مطمئنّ منخفض، قال بعضهم والأصل في اطمأنّ الألف مثل احمارّ واسوادّ، لكنّهم همزوا، فرارا من السّاكنين على غير قياس[10].

3) ﴿فِتْنَةٌ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (فتن) الابتلاءُ والاختبارُ[11]، والفَتْنُ: إدخالُ الذَّهَبِ النّارَ؛ لتظهرَ جَوْدتُهُ مِنْ رداءتِهِ[12]، والفَتّانُ: الصّائغُ؛ لإذابتِهِ الذَّهَبَ والفِضَّةَ في النّارِ[13]، واستُعمِلَ الفَتْنُ في إدخالِ الإنسانِ النّارَ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣﴾ [الذّاريات: 13][14]، والفِتْنَةُ: اضطرابُ الحالِ، وقَلَقُ البالِ، مِنْ حدوثِ شرٍّ لا مَدْفَعَ لهُ[15]، والفِتْنَةُ: الضَّلالُ، والإثمُ والمعصيةُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة:

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (حرف)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرف).
(3) الراغب، المفردات: (حرف).
(4) الخليل، العين: (حرف)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حرف)، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حرف).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طمن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طمن).
(7) الخليل، العين: (طمن)، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (طمن).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (طمن).
(9) الراغب، المفردات: (طمن).
(10) الفيّوميّ، المصباح المنير في غريب الشّرح الكبير: (طمأن).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (فتن).
(13) الزّبيديّ، تاج العروس: (فتن).
(14) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(15) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 213.

49]، ويقالُ: أعوذُ باللّهِ مِنَ الفتّانِ، وهو الشَّيطانُ[1]؛ لكونِه يَفْتِنُ النّاسَ بخِداعِه وغُرورِه وتزيينِه المَعاصيَ[2].

4) ﴿ٱنقَلَبَ﴾: (قلب) أَصْلانِ صَحيحانِ: أحَدُهُما قَلْبُ الشَّيءِ: تصريفُهُ وصرفُهُ عن وجهٍ إلى وجهٍ، كقلبِ الثَّوبِ، وقلبِ الإنسانِ، أي: صرفِهِ عن طريقتِهِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21]، والانقلابُ: الانصرافُ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: 144]، وتقليبُ الشَّيءِ: تغييرُهُ مِنْ حالٍ إلى حالٍ؛ نحوُ: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأحزاب: 66]، وتقليبُ الأمورِ: تدبيرُها والنَّظرُ فيها؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾ [التوبة: 48]، وتقليبُ اللّهِ القُلوبَ والبصائرَ: صرفُها مِنْ رأيٍ إلى رأيٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [الأنعام: 110]، وتقليبُ اليدِ: عبارةٌ عن النَّدمِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ [الكهف: 42][3]، والأصلُ الآخرُ للقَلْبِ: هو خالصُ الشَّيءِ وشريفُهُ؛ كقَلْبِ الإنسانِ وغيرِهِ؛ لأنَّهُ أرفعُ شيءٍ فيهِ[4]، وقيلَ: سُمّي القَلْبُ بذلكَ؛ لكثرةِ تقلُّبِهِ[5].

5) ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (خسر) نَقْصُ الشَّيءِ بذهابِ أجزاءٍ منهُ[6]، يقالُ: خَسَرْتُه وأخسَرْتُه، إذا نقصتُه، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطففين: 3]، أي: ينقصونَ[7]، والخُسْرُ والخُسْرانُ: انتقاصُ رأسِ المالِ، ويُستعمَلُ ذلكَ في المُقتنَياتِ الخارجةِ، كالمالِ والجاهِ، وفي المُقتنَياتِ النَّفسيَّةِ، كالصِّحَّةِ والسَّلامةِ والعقلِ، والإيمانِ والثَّوابِ، وهو الَّذي جعلَهُ اللّهُ تعالى الخُسْرانَ المُبينَ، وقالَ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: 15][8]، وقالَ: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣﴾ [الكهف: 103][9].

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فتن).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (فتن).
(3) الرّاغب، المفردات: (قلب)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قلب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(5) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خسر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (خسر)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خسر).
(8) الرّاغب، المفردات: (خسر).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (خسر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ذكر اضطراب أهل النّفاق بين الرّضا بالإنعام والانقلاب عند الامتحان

يُخبِرُ اللّهُ سبحانَهُ وتعالى عن صنفٍ مِنَ النّاسِ مُذَبْذَبينَ في دينهم وإيمانِهم، لا يستقرّونَ على حالٍ؛ فإنْ نالوا رَخاءً مِنَ العيشِ بوُفورِ المالِ والصِّحَّةِ وسَعَةِ الرِّزْقِ أقاموا على الإسلام، وثَبَتوا عليهِ ظاهرًا، وإنْ أصابَهم شيءٌ مِنَ النَّقْصِ والابتلاءِ بالشُّرورِ والآلامِ وضيقِ المَعاشِ ارتدّوا عنِ الإسلامِ، وتركوهُ، ثمَّ يُخبِرُ جلَّ ثناؤُهُ عن هذا الصِّنفِ بأنَّهم خَسِروا دُنياهم وآخِرتَهم، أمّا الدُّنيا فلأنَّهم بالرِّدَّةِ صاروا مهدوري الدَّمِ والمالِ، وأمّا الآخِرةُ فلما أُعِدَّ لهُم فيها مِنَ العذابِ الأليمِ، وخُسْرانُهم هذا هو أعظمُ الخُسْرانِ وأفظعُهُ، وهو خُسْرانٌ ظاهرٌ مكشوفٌ، لا يخفى على أحدٍ، فكلُّ مَنْ سَمِعَ خبرَهم يحكمُ بخُسْرانِهم، وبَوارِ تجارتِهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ على الاستئناف في السّياق:

حال الكافرين بين جحود ونفاق

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ للاستئنافِ، والجملةُ شروعٌ في بيانِ حالِ المُذَبْذَبينَ بعدَ بيانِ حالِ المُجاهِرينَ[1]، ليبرز لنا أنّ هاته الفئة المنافقة تعاني من زعزعة في العقيدة، واضطراب في الأنفس، فهي تعبد اللّه على وجه التّجربة والاختبار، فإن أصاب أحدهم في حياته خيرٌ، بقي على الإيمان، وإن أصابه بعض فتن الحياة، من مرض أو إفلاس أو فقد عزيز، نكص على عقبيه، وترك الإيمان، وارتدّ إلى الكفران، فخسر في دنياه راحةَ البال، واطمئنان الحال، كما خسر في آخرته النّعيم الّذي وعَدَ اللّه به المؤمنين، وذلك هو الخسران المبين الّذي لا خسران مثله.

وقد تكون الواو عاطفة في مقام التقسيم، عطفت جملة ﴿وَمِنَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97.

﴿ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على جملة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾، إذ قد ذكر فيما مضى أحوال الكافرين مع ربِّ العالمين، فمنهم أهل الجحود والجدال والصدِّ عن سبيل اللّه تعالى، ومنهم فريق آخر "يُقابِلونَ الأمْرَ بِالتَّقْوى والإنْذارَ بِالسّاعَةِ مُقابَلَةَ غَيْرِ المُطْمَئِنِّ بِصِدْقِ دَعْوَةِ الإسْلامِ ولا المُعْرِضِ عَنْها إعْراضًا تامًّا ولَكِنَّهُمْ يَضَعونَ أنْفُسَهُمْ في مَعْرِضِ المُوازَنَةِ بَيْنَ دينِهِمُ القَديمِ ودينِ الإسْلامِ"[1].

نكتة تعيين المرادِ بمن يعبد الله على حرف:

بيان أنّ المراد في السّياق قومٌ منافقون مِنَ الأعرابِ

بقولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، نزلتِ الآيةُ في قومٍ منافقينَ مِنَ الأعرابِ، رَبَطوا إيمانَهم بما يحصلُ لهُم مِنَ المصالحِ الدُّنيويَّةِ، فعن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قالَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، قالَ: كانَ الرَّجلُ يقدمُ المدينةَ، فإنْ ولدتِ امرأتُهُ غلامًا، ونُتِجَتْ خَيْلُهُ - قالَ: هذا دينٌ صالحٌ، وإنْ لم تَلِدِ امرأتُهُ، ولم تُنْتَجْ خَيْلُهُ - قالَ: هذا دينُ سوءٍ[2].

دلالةُ (مِنْ) في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

المنافقون ثلّة من النّاس يتلوّنون بحسب الظّروف المكتنفة

يدلُّ حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، على التَّبعيضِ، والمعنى: (وبعضُ النّاسِ) أو (وبعضٌ مِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ على حرفٍ)، وهاته الفئة المقصودة من النّاس، هي الفئة المنافقة، الّتي تمثّل القلق العقائديّ، والاضطراب النّفسيّ، فترى الواحد منهم "إن صلحت له دنياه، أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيّرت، انقلب كافرا، فلا يقيم على العبادة إلّا لما صلح من دنياه، فإن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 210.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، برقم (4742)، 6/ 98، وانظر للتّوسّع فيمن نزلت فيه الآية: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 208، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 211.

أصابته فتنة أو شدّة أو ضيق، ترك دينه، ورجع إلى الكفر، وارتدّ عن دينه"[1].

سرُّ إظهارِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في موضعِ الإضمار:

الدّلالةُ على الاضطرابِ والتَّردُّدِ من فصيح البيان

في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ؛ إذ الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ومنهُم مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ على حَرْفٍ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ لفظِ النّاسِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾، والنُّكتةُ في هذا الإظهارِ أنَّ السّياقَ لبيانِ حالِ المُذَبْذَبينَ، فعُبِّرَ بلفظِ النّاسِ الّذي مدلولُهُ في الأصلِ الحركةُ والاضطرابُ والتَّردُّدُ[2].

وقد يكون تكرار الناس في هذه الآية بسبب أنه لما "طالَ الفَصْلُ هُنا بَيْنَ القِسْمِ الأوَّلِ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾، والقِسْمِ الثّاني ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أتَى في التَّقْسيمِ الثّاني هنا بِإظْهارِ المُقَسَّمِ مِنْهُ[3]"، فقال ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، لينتظم الكلام ويتناسق في دلالته.

دلالةُ ﴿مَن﴾ في قولِهِ: ﴿مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ﴾:

سواء كانت الأداةُ موصولةً أو موصوفةً فهي مجليّة للمعنى

تحتملُ ﴿مَن﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، أنْ تكونَ موصولةً، والمعنى: (وبعضُ النّاسِ أو بعضٌ مِنَ النّاسِ الّذي يَعْبُدُ اللّهَ على حرفٍ)، وتحتملُ أنْ تكونَ نكرة موصوفةً، والمعنى: (وبعضُ النّاسِ أو بعضٌ مِنَ النّاسِ فريقٌ يَعْبُدُ اللّهَ على حرفٍ)، وهذا تصوير للّذين ضعف لديهم الإيمان، واضطرب عندهم الاعتقاد، فكأنّهم يكونون على حرف مع الإيمان، فهم بذلك أقرب إلى الكفر، لأنّ طرف الشّيء هو الأقرب إلى ما يجافيه[4].

---

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2504.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 16.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 2/ 335.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 1951.

علّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَعۡبُدُ﴾:

استمرارُ التّذبذبِ وتجدُّدُهُ موحٍ بحالِهِم المضطربة

في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ دلالةٌ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، أي: يَعۡبُدُ اللهَ على حرفٍ على سبيلِ الاستمرارِ والتَّجدُّدِ[1]، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِهِ بسببِ إصرارِهِ على التَّذبذبِ والاضطرابِ في الدّينِ.

سرُّ اختيارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ العِبادةِ مفصحٌ عن البيان

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى، في قولِ الحقِّ تقدَّسَ شأنُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾؛ لأنَّ السّياقَ للحديثِ عن عِبادةِ المُضطربينَ المُتردِّدينَ في دينِهم، والعِبادةُ يناسبُها إيرادُ لفظِ الجلالةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في عبادة الله على حرف:

مَن حامَ حول الحمى وقع فيه

في قولِهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، فالمعنى: أنَّهُ على طَرَفٍ مِنَ الدّينِ، لا في وسطِهِ وقلبِهِ، وهذا تمثيلٌ لكونِهِ على قَلَقٍ واضطرابٍ في دينِهِ، لا على سكونٍ وطمأنينةٍ، كالَّذي يكونُ على طَرَفٍ مِنَ العسكرِ، فإنْ أحَسَّ بظَفَرٍ وغنيمةٍ ثَبَتَ واطمأنَّ، وإلّا فَرَّ وطارَ على وجهِهِ[2]، أو كمَنْ يمشي على حرفِ جبلٍ أو حرفِ وادٍ، فهو مُتهيِّئٌ لأنْ يَسۡقُطَ عنهُ إلى أسفلِهِ[3].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ﴾:

تفصيل الإجمال في السّياق يستوفي بيان الحالة في السّراء والضّراء

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾، تفسيريَّةٌ أو تفصيليَّةٌ؛ لأنَّ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ إجمالًا تفصيلُهُ فيما بعدَهُ، فالمرادُ بعبادتِهِ على حرفٍ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 17.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 146.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 17، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 212.

ما ذُكِرَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾[1].

علَّةُ استعمالِ الماضي للوقوعِ في المستقبل:

زيادة التَّجهيلِ والتَّقبيحِ لمن لا يستقر قلبه على الإيمان

(إِنْ) لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ، بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ في الاستقبالِ، ولذلكَ يكونُ كلٌّ مِنْ جملتَي الشَّرطِ والجزاءِ معَها فعليَّةً استقباليَّةً، ولا يُخالَفُ ذلكَ لفظًا إلّا لنكتةٍ[2]، فقوله تعالى هنا: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾؛ تنبئ بأنَّ هذا المُضطرِبَ لا يَثْبُتُ على ما هو عليهِ مِنَ الإيمانِ، بمُجرَّدِ توقُّعِ حصولِ إصابةِ الخيرِ الدُّنيويِّ لهُ في المستقبلِ، بل لا بدَّ مِنْ حصولِ الخيرِ وتحقُّقه ليَثْبُتَ، وفي ذلكَ مزيدُ تجهيلٍ لهُ، وتقبيحٍ لصنيعِه.

نكتةُ استعمالِ فعلِ ﴿أَصَابَهُۥ﴾:

إيمانُ المُضطرِبِ موقوفٌ على منفعة الحصول المُتيقَّنِ للخيرِ

استُعمِلَ الفعلُ ﴿أَصَابَهُۥ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾؛ لبيانِ أنَّ ثباتَ هذا المُضطرِبِ على ما هو عليهِ ظاهرًا مِنَ الإيمانِ موقوفٌ على أنْ يحصلَ لهُ الخيرُ الدُّنيويُّ، مِنَ الصِّحَّةِ وسَعَةِ العيشِ حصولًا مُتيقّنًا، كما يُنبِئُ عنهُ لفظُ الإصابةِ الدّالُّ على التَّمكُّنِ.

علَّةُ تنكيرِ لفظِ ﴿خَيۡرٌ﴾ في السّياقِ:

التَّنكيرُ للنَّوعيَّةِ منبئ عن المقصود بالتّنويع

تنكيرُ ﴿خَيۡرٌ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: فإنْ أصابَهُ نوعٌ مِنْ أنواعِ الخيرِ، وهو الخيرُ الدُّنيويُّ مِنَ الصِّحَّةِ وسَعَةِ العَيْشِ ونحوِ ذلكَ، وأمّا الخيرُ الأُخرويُّ فلا يَخْطُرُ لهُ في بالٍ؛ إذ الدُّنيا أكبرُ همِّه، ومَبْلَغُ علمِه.

المرادُ بالاطمئنانِ في قولِه: ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾:

المؤمن يطمئن بالله بسبب إيمانه لا رجاء مصلحة دنيوية

معنى قولِه جلَّ اسمُهُ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾: فإنْ أصابَهُ الخيرُ الدُّنيويُّ كالرَّخاءِ والعافيةِ والولدِ اطمأنَّ به، أي: ثبتَ على ما كانَ عليهِ مِن

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 67، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 24.

(2) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 122.

الإيمانِ ظاهرًا، لا أنَّهُ اطمأنَّ بهِ اطمئنانَ المؤمنينَ الَّذينَ لا يُزَحْزِحُهم عاصفٌ ولا يَثْنيهم شيءٌ عن إيمانِهم[1]، ويؤيد هذا المعنى تقييد الفعل بالجار والمجرور ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾، أي حصلت له الطمأنية بسبب الخير الَّذي أصابه، والمنفعة الَّتي نالها، لا بسبب رسوخ الإيمان في قلبه.

بلاغةُ المجازِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾:

الاطمئنانُ تعبير معنويٌّ عن استقرارِ العِلمِ في النَّفْسِ

معنى ﴿ٱطۡمَأَنَّ﴾ في الأصلِ: استقرَّ وسكنَ في مكانِهِ، فهو حقيقةٌ في سكونِ الأجسامِ، وإطلاقُهُ على استقرارِ العِلمِ في النَّفْسِ وانتفاءِ معالجةِ الاستدلالِ مجازٌ، بتشبيهِ التَّردُّدِ ومعالجةِ الاستدلالِ بالاضطرابِ والحركةِ، وشاعَ ذلكَ المجازُ حتَّى صارَ مُساويا للحقيقةِ، يقالُ: اطمأنَّ بالُهُ، واطمأنَّ قلبُهُ[2]، والمعنى في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾: استمرَّ على التَّوحيدِ؛ فَرَحًا بالخيرِ الَّذي أصابَهُ[3].

دلالة الباءِ في قولِهِ: ﴿ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾:

ربط الإيمان بالمنفعة الزّائلة مسلك للاضطرابات الحاصلة

الباءُ في قولِهِ علَتْ كلمتُهُ: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: فإنْ أصابَهُ خيرٌ مِنَ الدُّنيا اطمأنَّ بسببِهِ، وثبتَ على ما هو عليهِ ظاهرًا[4]، وذلك أنّه "إن استمرّ رزقه رغدا، ولم يحصل له من المكاره شيء، اطمأنّ بذلك الخير، لا بإيمانه، فهذا ربّما أنّ اللّه يعافيه، ولا يقيّض له من الفتن ما ينصرف به عن دينه"[5]، وهذا الفعل شبيه بالمقاتل الّذي ينحرف إلى طرف الجيش، مترقبا ما يؤول إليه الحال، وما تسفر عنه المعركة، فإن أحسّ بظفر وغنيمة قرّ وإلّا فرّ، فهو إنْ أصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وإنْ أصابَتْهُ فِتْنَةٌ، رجع إلى ما كان عليه من الكفر[6].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 39.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 213.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 17.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان: 13/ 17.
(6) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 235.

دلالةُ الواوِ في سياق الآية المحكمة:

عطف الجملةِ على ما قبلَها ربط للمعاني المتلاحقة

قوله: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، الواوُ في الآية الكريمة للعطفِ، وهي تفيدُ دخولَ هذهِ الجملةِ معَ سابقتِها، في حيِّز التَّفصيلِ والتَّفسيرِ، لقولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾.

نكتةُ استعمالِ (إنْ) الشّرطيّة:

المُسارعةُ إلى الكفرِ معَ قلَّةِ الشُّرورِ والآلامِ من معاني هذا الكلام

تُستعمَلُ (إنْ) في مقامِ الشَّكِّ بوقوعِ الشَّرطِ، ولذلكَ كانَ الحكمُ القليلُ النّادرُ مَوْرِدًا لها، وقد عُبِّرَ بها في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾؛ لبيانِ أنَّ إصابةَ الشُّرورِ والآلامِ لهذا المُضطرِبِ في دينِه، في حكمِ القليلِ النّادرِ الوقوعِ، بالنِّسبةِ لنِعَمِ اللّهِ الكثيرةِ في الواقعِ، ومعَ ذلكَ فهو ينقلبُ على وجهِه، ويتركُ دينَهُ؛ لفواتِ شيءٍ مِنْ حُظوظِ الدُّنيا، وفي ذلكَ مزيدُ تسفيهٍ لحِلْمِه.

المرادُ بلفظ (الفِتْنةِ) في سياق الآية الكريمة:

مفادُ الابتلاءِ بالشُّرورِ والآلامِ وأثره في تأديب عصاة الأنام

الفِتْنةُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، مخصوصةٌ بالابتلاءِ بالشُّرورِ والآلامِ؛ لوقوعِها في مقابلةِ الخيرِ[1]، وهذا على الاستعمالِ الغالبِ، وإلّا فالخيرُ أيضًا قد يكونُ سببًا للابتلاءِ، بدليلِ قولِه سبحانَهُ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35][2]، والفتنة ما يفتتن به في مكروه يعتريه في نفسه، أو خطب ينزل به في أهله، أو جائحة تلمّ به في ماله، فتراه يتنكّر لأنعم اللّه المغدقة عليه، فيما مضى من حياته، وينسلخ من الإيمان، ويجاهر اللّه بالكفران والعصيان.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ (الفِتْنةِ) دونَ (الشَّرِّ):

الصَّبرُ على الابتلاءِ يجعلُ الشَّرَّ خيرًا ويخفّف آلام الفتنة النّازلة

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وإنْ أصابَهُ شر)؛ ليقعَ التَّقابلُ بينَ الخيرِ والشَّرِّ، لكنْ عُدِلَ إلى ما في النَّظمِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 213.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 68.

﴿فِتۡنَةٌ﴾، وسُمّيتْ فِتْنةً، أي: اختبارًا وابتلاءً؛ لأنَّهُ قد ينجحُ في هذا الاختبارِ بالصَّبرِ والرِّضا، فلا يكونُ شرًّا في حقِّهِ[1].

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿فِتۡنَةٌ﴾ في الآية المحكمة:

المنافق يرتد على وجهه عند أول ابتلاء

يدلُّ تنكيرُ ﴿فِتۡنَةٌ﴾، في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ على التَّقليلِ[2]، والمعنى أنَّ هذا المُتردِّدَ في دينِه، إنْ أصابَهُ أيُّ شيءٍ يفتتَنُ بِهِ مِنْ مكروهٍ يعتريهِ في نفسِهِ أو أهلِهِ أو مالِه، انقلبَ على وجهِهِ[3].

بلاغةُ التَّركيبِ في جملة ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾:

مــآل المنـافـق إلى الانتكاس والافتضاح

قيلَ: الانقلابُ في قولِهِ جلَّ وتبارَكَ: ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، مطاوعُ قَلَبَهُ، إذا كبَّهُ، أي: ألقاهُ على عكسِ ما كانَ عليهِ، بأنْ جعلَ ما كانَ أعلاهُ أسفلَهُ، فالانقلابُ مُستعمَلٌ في حقيقتِهِ، والكلامُ تمثيلٌ، وهذا التَّفسيرُ هو المناسبُ لقولِهِ: ﴿عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾، أي: سقطَ وانكبَّ عليهِ، وحرفُ الاستعلاءِ ظاهرٌ، وهو أيضًا الملائمُ لتمثيلِ أوَّلِ حالِهِ بحالِ مَنْ هو على حَرْفٍ[4]، وقيلَ: المرادُ بالانقلابِ: الانصرافُ مِنَ الجهةِ الَّتي أتاها إلى الجهةِ الَّتي جاءَ منها، وهو مجازٌ شائعٌ، والمرادُ هنا: أنَّهُ رجعَ إلى الوجهِ الَّذي كانَ عليهِ مِنَ الكفرِ أو الشَّكِّ رجوعًا مُتمكِّنًا[5].

واعتُرِضَ: بأنَّهُ لا يناسبُ اعتبارُهُ هنا؛ لأنَّ مِثلَهُ يقالُ فيهِ: انقلبَ على عَقِبيهِ، لا على وجهِهِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 143]؛ إذ الرُّجوعُ إنَّما يكونُ إلى جهةٍ غيرِ جهةِ الوجهِ[6].

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9728.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 17.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 97، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 119.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 213.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 17، والخفاجيّ، عناية القاضيّ: 6/ 285.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 213.

رسمُ صورتين متناقضتين للمُضطرِبِ في دينِهِ تعبّران عن الحالة المذكورة

براعةُ المقابلةِ بين حالتي الاطمئنان والانقلاب:

في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُه: ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾ مقابلةٌ بديعةٌ، وذلكَ بمقابلةِ إصابةِ الخيرِ بإصابةِ الفِتْنةِ، ومقابلةِ الاطمئنانِ بالانقلابِ على الوجهِ، وفي ذلكَ رَسْمٌ لصورتينِ متناقضتينِ، يُرى هذا المُضطرِبُ في إحداهما هادئَ النَّفْسِ، مُستقِرَّ البالِ بحسَبِ الظّاهرِ، ويُرى في الأخرى طائشَ الفِكْرِ والفُؤادِ، سريعَ التَّحوُّلِ والانقلابِ.

احتمالُ الجملةِ وجوهًا مِنَ الإعرابِ مفيد في البيان

نكتة إعراب جملةِ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾:

يحتملُ قولُهُ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، أنْ يكونَ مُستأنَفًا[1]، والاستئنافُ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ يُثيرُهُ الكلامُ السّابقُ، كأنَّهُ لمّا ذُكِرَ حالُهُ المُتقلِّبُ بينَ الاطمئنانِ والانقلابِ، قيلَ: فما عاقبتُهُ؟ فأُجيبَ بأنَّه قد خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ، ويحتملُ أنْ يكونَ بدلَ اشتمالٍ مِنْ قولِه: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ حالًا مُؤكِّدةً مِنْ فاعلِ ﴿ٱنقَلَبَ﴾ بتقديرِ (قد)[3].

وقوعُ الخُسْرانِ متحقّق طال أو قصر الزّمان

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿خَسِرَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾؛ لإفادةِ أنَّ خُسرانَ المُضطرِبِ في دينِهِ للدُّنيا والآخرةِ أمرٌ قد تحقَّقَ، وجرى بهِ حُكمُ اللهِ سبحانَهُ وتعالى الَّذي لا مَرَدَّ لحُكْمِه، قال السّيوطيّ: "خسر دُنْياهُ الَّتي كانَ لَها يحزن، وبها يفرح، ولها يسْخط، ولها يرضى، وهي همّه وسدمه، وطلبته ونيته، ثمَّ أفْضى إلَى الآخِرَة، ولَيْسَ لَهُ حَسَنَة يُعْطى بها خيرًا"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 489، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 285.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 214.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 285.
(4) السّيوطيّ، الدّرّ المنثور: 6/ 15.

بلاغةُ الإيجازِ في التّعبير عن خسران الدّارين:

الإيجازُ بحذفِ المضافِ من بليغ البيان

تعليقُ الخُسْرانِ بالدُّنيا والآخرةِ، في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، على حذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (خَسِرَ خيرَ الدُّنيا وخيرَ الآخِرةِ)[1]، وفي هذا الحذفِ لَطافةٌ مِنْ حيثُ إيهامُ أنَّ خسارةَ هذا المُتقلِّبِ في دينِهِ، لا تتعلَّقُ بشيءٍ مخصوصٍ مِنَ الدُّنيا والآخرةِ، بل هي خسارةٌ لهما بجملتِهما، وكأنَّهُ قد أفلسَ في الدّارينِ، وباءَ بالخِزْيِ والهَوانِ في المرحلتين.

علَّةُ الجمعِ بينَ الدُّنيا والآخرةِ في السّياق:

الطِّباقُ وتفخيمُ أمرِ الخُسْرانِ وتعظيمُهُ من بليغ الاستعمال

في الجمعِ بينَ الدُّنيا والآخِرةِ في وقوعِ الخُسْرانِ عليهما، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، بلاغةٌ مِنْ وجهين: **أحدُهما:** الطِّباقُ بينَ الدُّنيا والآخِرةِ.

والثّاني: أنَّ في ذلكَ تنبيهًا على عِظَمِ خسارةِ هذا المُتحيِّرِ في دينِهِ؛ فقد خَسِرَ المبدأَ والمَعادَ، ورجعَ منهما بخُفَّيْ حُنينٍ، ولم يكنْ لهُ نصيبٌ مِنَ الخيرِ فيهما؛ لأنَّهُ يخسرُ في الدُّنيا العِزَّةَ والكرامةَ، وإصابةَ الغنيمةِ، وأهليَّةَ الشَّهادةِ والإمامةَ والقضاءَ، ولا يبقى مالُهُ ودمُهُ مَصونًا، وأمّا في الآخرةِ، فيَفوتُهُ الثَّوابُ الدّائمُ، ويحصلُ لهُ العِقابُ الدّائمُ[2].

نكتة مرجع الإشارة في لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

المُشارُ إليهِ خُسْرانُ الدّارينِ وهو غايةُ الخسرانِ ومنتهاه

الإشارةُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ راجعةٌ إلى خُسْرانِ الدّارينِ المذكورِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾[3]، أي: خُسْرانُ الدُّنيا والآخِرةِ هو الخُسْرانُ المُبينُ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 214.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 209.

(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 431.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيدِ:

تعظيمُ شأنِ المُشارِ إليهِ من فصيح البيان

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ في قولِ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ لزيادةِ تمييزِ المسندِ إليهِ أتمَّ تمييزٍ؛ لتقريرِ مدلولِه في الأذهانِ[1]، وأوثِرَ اسمُ الإشارةِ إلى البعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ للإيذانِ بكونِ المُشارِ إليهِ في غايةِ ما يكونُ[2]، أي: ذلكَ الأمرُ العظيمُ هو الخُسْرانُ المُبينُ[3].

بلاغةُ القصرِ في: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ﴾:

القصرُ ادِّعائيٌّ لتحقيقِ الخبرِ وهو بليغ في بابه

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾، ضميرُ فصلٍ، والقصرُ المستفادُ مِنْ تعريفِ المسندِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ ادُّعي أنَّ ماهيَّةَ الخُسْرانِ المُبينِ انحصرَتْ في خُسْرانِهم، والمعنى خُسْرانُهم لا غيرُ، هو الخُسْرانُ المُبينُ، والمقصودُ تحقيقُ الخبرِ، ونَفْيُ الشَّكِّ في وقوعِه، وضميرُ الفصلِ أكَّدَ معنى القصرِ، فأفادَ تقويةَ الخبرِ المقصورِ[4].

بلاغةُ المجازِ بالاستعارةِ في لفظِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾:

في لفظِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ دلالةٌ على الفقدان والهوان

في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ مجازٌ بالاستعارةِ؛ لأنَّ الخُسْرانَ في الأصلِ تَلَفُ جزءٍ مِنْ أصلِ مالِ التِّجارةِ، فشُبِّهَ نفعُ الدُّنيا ونفعُ الآخرةِ، بمالِ التّاجرِ السّاعي في توفيرِه؛ لأنَّ النّاسَ يرغبونَ بتحصيلِه، وثُنّي على ذلكَ إثباتُ الخُسْرانِ لصاحبِه الَّذي هو مِنْ مُرادِفاتِ مالِ التِّجارةِ المُشبَّهِ بهِ، فشُبِّهَ فَواتُ النَّفعِ المطلوبِ بخسارةِ المالِ[5].

علَّةُ وصفِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ بصفة ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾:

أبينُ الخسرانِ خسارةُ الدنيا والآخرة

في وصفِ الخُسْرانِ بكونِه مُبينًا في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إشارةٌ إلى تفظيعِ شأنِ هذا الخُسْرانِ وتهويلِه، فهو

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 214.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 119.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 18.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 214.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 214.

خُسْرانٌ ظاهرٌ لا يخفى على أحدٍ[1]، ويظهرُ بأدنى تأمُّلٍ[2]؛ إذا لا خُسْرانَ مِثْلُهُ[3]؛ فهو الخسارةُ الَّتي لا عِوَضَ لها، وهي تلازمُ الإنسان، ولا تنفكُّ عنهُ؛ لأنَّها لا تقتصرُ على الدُّنيا، بل تمتدُّ للآخِرةِ الَّتي لا صَبْرَ على شِدَّتِها[4]، وفي ذلك تأكيد على أنّ وعيد اللّه واقع، ما له من دافع، حيث إنَّه "قد خَسِرَ ذلك المتزلزل المتذبذب في الدُّنْيا، بأنواع المصيبات والبليّات، وفي الآخِرَةِ بالحرمان من درجات الجنّات، والخلود في دركات النّيران، بأنواع الخسران، وبالجملة ذلِكَ الخسران المستوعب له في النّشأتين، هو الخُسْرانُ المُبِينُ، والحرمان العظيم، لا خسران أعظم منه وأفحش"[5].

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في الآية:

ثبوتُ ظُهورِ أمرِ خُسْرانِهم دليل على سوء مآلهم

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كونَ خسارتِهم للدُّنيا والآخرةِ، خُسْرانًا ظاهرًا لكلِّ أحدٍ؛ أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، لا يعترضُهُ شكٌّ، ولا يُنْقَضُ، فلا خسارةَ فوقَ خسارةِ الدُّنيا والآخِرةِ، ولا تبديلَ لكلماتِ اللّهِ، ولا مَرَدَّ لِما حكمَ به وقضى جلَّ وعزَّ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفِتْنةُ والاختبارُ:

الـفِـتْـنـةُ أشـدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ وقد استعملت لمناسبة معناها للسّياق

الفرقُ بينَ الفِتْنةِ والاختبارِ: أنَّ الفِتْنَةَ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، وأصلُها: عَرْضُ الذَّهَبِ على النّارِ؛ ليتبيَّنَ صلاحُهُ مِنْ فسادِهِ، وتكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: 15]، وقالَ: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: 16 - 17]، جُعِلَتِ النِّعمةُ فِتْنةً؛ لأنَّهُ قُصِدَ بها المبالغةُ في اختبارِ المُنعَمِ عليهِ بها[6].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 431.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 214.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9728.
(5) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 548.
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 396.

﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [الحج: 12 - 13]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

وجه خُسْرانِ المتذبذبِ في دينِهِ والتّنديد بدعوة من لا ينفع ولا يضرّ

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها: فهي أنَّهُ ﷻ، لمّا ذكرَ خسارةَ المتذبذبِ في دينِهِ بقولِهِ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾، بيَّنَ هذا الخُسرانَ الَّذي ردَّهُ إلى ما كانَ فيهِ قبلَ الإيمانِ، بقولِهِ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾[1]، وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للآيةِ الأولى ففيها وجهانِ: **أحدُهما:** أنَّهُ لمّا كانَ الإحسانُ جالبًا للإنسانِ، منْ غيرِ نظرٍ إلى مَوْرِدِهِ؛ لأنَّ القلوبَ جُبِلَتْ على حبِّ مَنْ أحسنَ إليها - بيَّنَ أنَّ ما قيلَ في جانبِ النَّفْعِ، إنَّما هو على سبيلِ الفَرْضِ، فقالَ: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾[2].

والثّاني: أنَّ الآيةَ ارتقاءٌ في تضليلِ عابدي الأصنامِ؛ فبعدَ أنْ بيَّنَ لهُم أنَّهم يعبدونَ ما لا غَناءَ لهُم فيهِ، زادَ فبيَّنَ أنَّهم يعبدونَ ما فيهِ ضرٌّ، وذلكَ أنَّ عبادةَ الأصنامِ تضرُّهُ في الدُّنيا، بالتَّوجُّهِ عندَ الاضطرارِ إليها، فيَضيعُ زَمَنُهُ في تطلُّبِ ما لا يحصلُ، وتضرُّهُ في الآخرةِ بالإلقاءِ في النّارِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَضُرُّهُۥ﴾: (ضرّ) أصله له ثلاثةُ معانٍ رئيسةٌ: الأوَّلُ: خلافُ النَّفْعِ، والثّاني: اجتماعُ الشَّيءِ، والثّالثُ: القوةُ[4]، فمِنَ الأصل الأوَّلِ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 18.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 19.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 215.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرر).

الضَّرُّ خلافُ النَّفْعِ، والضُّرُّ: سوءُ الحالِ، إمّا في النَّفْسِ لقلَّةِ العِلمِ والفضلِ، وإمّا في البَدَنِ لعدمِ جارحةٍ أو نقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ مِنْ قلَّةِ مالٍ وجاهٍ، قالَ تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ﴾ [الأنبياء: 84]، وقال تعالى: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، وقال: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ﴾[1]، وأمّا الأصلُ الثّاني: فضَرَّةُ الضَّرْعِ: لحمتُهُ، وسُمّيتْ بذلكَ لاجتماعِها، وأمّا الثّالثُ: فالضَّريرُ: قوةُ النَّفْسِ، يقالُ: فلانٌ ذو ضَريرٍ على الشَّيءِ، إذا كانَ ذا صبرٍ عليهِ ومقاساةٍ[2]، ويمكنُ إرجاعُ المعاني الثّلاثةِ إلى معنىً محوريٍّ، وهو زَحْمٌ ودفعٌ للممتلئِ برَخْوٍ، يلزمُهُ التَّضييقُ أو النَّقْصُ، كالضَّرْعِ الممتلئِ، فإنَّهُ يزحمُ فَخِذَي النّاقةِ، وهما يدفعانِه، وكما في الألْيَةِ حيثُ تكونُ تجمُّعًا لحميًّا رِخْوًا متزاحمًا، والضَّرَرُ: النَّقْصُ يدخلُ في الشَّيءِ[3].

2) ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾: أصل (ضلّ) ضَياعُ الشَّيءِ وذهابُهُ في غيرِ حقِّهِ[4]، وغيابُ الشَّيءِ في أثناءِ شيءٍ، بحيثُ لا يتميَّزُ هذا عن ذاكَ[5]، يقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبَنِ: غابَ، وأضلَلْتُ الميِّتَ: دَفَنْتُهُ، والشَّيءَ: غيَّبْتُهُ، وكأنَّهُ شيءٌ قد ضاعَ، وتقولُ: أضلَلْتُ بعيري، إذا ذهبَ منكَ وغابَ عنكَ، وضَلِلْتُ المَسْجِدَ والدّارَ، إذا لم تَهْتَدِ لهُما، وكذلكَ كلُّ شيءٍ مُقيمٍ لا يُهتدى لهُ[6]، والضَّلالُ بمعنى الضَّياعِ يُقابلُهُ الوُجْدانُ، وقد يُطلَقُ بمعنى العُدولِ عنِ الطَّريقِ المستقيمِ، ويقابلُهُ الهدايةُ، ويقالُ لكلِّ عُدولٍ عنِ المنهجِ عمدًا كانَ أو سهوًا، يسيرًا كانَ أو كثيرًا[7]، ويقالُ: ضلَّ الكافرُ، إذا غابَ عنِ الحُجَّةِ[8].

3) ﴿لَبِئْسَ﴾: (بأس) أصل يدلّ على الشِّدَّةِ وما يماثلُها، فالبأسُ: الشِّدَّةُ في الحربِ، ورجلٌ ذو بأسٍ، أي: شجاعٌ[9]، ووقعَ في أمرٍ بَئِيسٍ: شديدٍ[10]، والبائسُ: الرَّجلُ النّازلُ به

(1) الراغب، المفردات: (ضرر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضرر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ضل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ضلل).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضلل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بأس).

بَليةٌ[1]، والبُؤْسُ والبأساءُ: الشِّدَّةُ والمكروهُ، و(بِئْسَ): كلمةٌ تُستعمَلُ في جميعِ المَذامِّ، كما أنَّ (نِعْمَ) تُستعمَلُ في جميعِ المادحِ، قالَ تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: 79]، وقالَ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم: 29][2].

4) ﴿ٱلْعَشِيرُ﴾: للأصل (عشر) معنيانِ رئيسانِ؛ أحدُهما: عددٌ معلومٌ، ثمَّ يُحمَلُ عليهِ غيرُهُ، والآخرُ يدلُّ على مخالطةٍ، فمِنَ الأوَّلِ: العَشَرةُ، تقولُ: كنتُ عاشرَ عَشَرةٍ[3]، ومِنَ الثّاني: عَشيرُكَ: الَّذي يُعاشِرُكَ، قريبًا كانَ أو غيرَ قريبٍ، أمرُكما واحدٌ[4]، وسُمّيت عَشيرةُ الرَّجلِ بذلكَ؛ لمعاشرةِ بعضِهم بعضًا، والزَّوجُ عَشيرُ امرأتِهِ، والمَعْشَرُ: كلُّ جماعةٍ أمرُهم واحدٌ[5]، ويمكنُ إرجاعُ المعنيينِ إلى معنًى محوريٍّ واحدٍ، وهو تجمُّعٌ أو كثرةٌ بتداخلِ أشياءَ أو اختلاطِها، مكوِّنةً كيانًا مترابطًا، فأفرادُ العشيرةِ مثلًا مترابطونَ، والعددُ المعروفُ يدلُّ على مجموعةٍ متضامَّةٍ مختلطةٍ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

شدَّةُ ضَلالِ عابدِ الأوثانِ الَّتي لا تضرُّ فتيلا ولا تنفعُ كثيرا ولا قليلا

يُخبِرُ اللّهُ تعالى شأنُهُ عن سببِ خُسْرانِ المُرتدِّ الَّذي يَعْبُدُ اللّهَ على حَرْفٍ، فيقولُ: يَعْبُدُ مِنْ دونِ اللّهِ آلهةً لا تضرُّهُ إنْ لم يَعْبُدْها في الدُّنيا، ولا تنفعُهُ في الآخرةِ إنْ عَبَدَها، وارتدادُهُ ذلكَ هو الأخذُ على غيرِ استقامةٍ، والذَّهابُ عن دينِ اللّهِ ذهابًا بعيدًا، يَعْبُدُ آلهةً ضَرُّها في الآخرةِ لهُ أقربُ وأسرعُ إليهِ مِنْ نَفْعِها، لَبِئْسَ النّاصرُ، ولَبِئْسَ الخَليطُ المُعاشِرُ والصّاحبُ[7].

(1) الخليل، العين: (بأس).
(2) الرّاغب، المفردات: (بأس)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بأس).
(3) الرّاغب، المفردات: (عشر).
(4) الخليل، العين: (عشر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عشر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عشر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 577 - 578.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة إعراب جملةِ: ﴿يَدۡعُواْ﴾:

الجملةُ استئنافٌ أو حالٌ وكلاهما لترسيّة المعنى المراد

اختُلِفَ في إعرابِ قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾:

فقيلَ: هو استئنافٌ مُبيِّنٌ لعِظَمِ الخُسْرانِ المذكورِ في قولِهِ تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[1]، وقيلَ: هو استئنافٌ ناعٍ عليهِ بعضَ قبائحِهِ[2].

وقيلَ: هو حالٌ مِنْ ضميرِ الفاعلِ في قولِهِ: ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ﴾[3].

المرادُ بالدُّعاءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿يَدۡعُواْ﴾:

الـدُّعـاء هـو الـعِـبـادةُ على الأظهرِ والأشهر

المرادُ بالدُّعاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾ العبادةُ، أي: "يَدْعو مِنْ دونِ اللّه ما لا يَضُرُّهُ إن عصاه، وما لا يَنْفَعُهُ إن أطاعه، بعد إسلامه، راجعًا إلى كفره"[4]، "وهذه الآية تدلّ على أنّ الآية الأولى، لم ترد في اليهود؛ لأنّهم ليس ممّن يدعو من دون اللّه الأصنام، والأقرب أنّها واردة في المشركين الّذين انقطعوا إلى الرّسول على وجه النّفاق"[5].

وقيلَ: يجوزُ أنْ يُرادَ بالدُّعاءِ النِّداءُ، أي: يُنادي لأجلِ تخليصِهِ ممّا أصابَهُ مِنَ الفِتْنَةِ جمادًا ليسَ مِنْ شأنِهِ الضَّرُّ والنَّفْعُ[6]، والأوَّلُ أظهرُ وأنسبُ بذكرِ العِبادةِ فيما قبلَ هذهِ الآيةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يَدۡعُواْ﴾:

الـدَّلالـةُ على تـجـدُّدِ الـدُّعـاءِ واستـمـرارِهِ من فصيح البيان

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ، في قولِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿يَدۡعُواْ مِن

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 119.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 215.

(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 7/ 10.

(5) ابن عادل الدّمشقيّ، اللباب في علوم الكتاب: 14/ 33.

(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 119.

﴿دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، على استمرارِ الدُّعاءِ وتجدُّدِه، أي: يعبدُ معَ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، ما لا يضرُّهُ وما لا ينفعُهُ، بالاعتمادِ على غيرِ اللّهِ، ومنابذةِ ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5][1].

دلالة قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

كل ما سوى الله فهو دونٌ

اختُلِفَ في معنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في قولِه جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾: فقيلَ: لمّا كانَ كلُّ ما سوى اللّهِ دونَهُ نُبِّهَ على ذلك بقولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: عن أدنى رُتبةٍ مِنْ رُتَبِ المُستجمِعِ لصفاتِ الكمالِ[2]، وقيلَ: معناهُ: يَعْبُدُ مُتجاوِزًا عِبادةَ اللّهِ تعالى[3]، وقيلَ: معناهُ: يَعْبُدُ غيرَ اللّهِ[4].

نكتةُ إظهارِ اللّفظ ﴿ٱللَّهِ﴾ في موضعِ إضمارِه:

تقبيحُ صنيعِ مَنْ عَـدَلَ عن عبادةِ الـلـهِ إلى عبادة سواه

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (يدعو مِنْ دونِهِ ما لا يضرُّهُ وما لا ينفعُهُ)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى الإظهارِ، بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾؛ لِما يُفيدُهُ الإظهارُ مِنْ تقبيحِ صنيعِ هذا المُتقلِّبِ في دينِه، بارتدادِهِ وعُدولِهِ عن عبادةِ اللّهِ الَّذي لا تنبغي العِبادةُ إلّا لهُ.

سرُّ ورودِ الاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ في سياقِ الآيةِ:

الإشـارةُ إلى أنَّ الـمـرادَ بـالمدعـوِّ الأصنامُ

في التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾، في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ بالمدعوِّ الأصنامُ؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ لا تكونُ لآحادِ مَنْ يَعْقِلُ[5]، وإنَّما تكونُ لآحادِ ما لا يَعْقِلُ، وفي التَّعبيرِ بها هنا أيضًا تهوينٌ لشأنِ المدعوِّ وتحقيرٌ لهُ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 18.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 18.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4952.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 489، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 119.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ بالأداة ﴿لَا﴾:

الـدَّلالــةُ على استـمرارِ انتفاءِ الضَّرِّ والنَّفْعِ من بيانِ السّياق

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾؛ لأنَّ المضارعَ يفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، وإذا دخلَ عليهِ حرفُ النَّفيِ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ وتجدُّدَهُ، فيكونُ المرادُ هنا استمرارَ انتفاءِ الضَّرِّ والنَّفعِ وتجدُّدَهُ؛ لأنَّ الأصنامَ لا تضرُّ ولا تنفعُ على الاستمرارِ، ولا يُتصوَّرُ تحوُّلُها عن هذا الوصفِ.

وجهُ نفيِ الضَّرِّ والنَّفعِ عنِ الأصنامِ معَ عدمِ تصوُّرِه منها:

زيـادةُ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ على عـبـادةِ غيرِ البصيرِ السَّميع

مِنَ المعلومِ أنَّ الأصنامَ الَّتي يعبدُها الكافرُ مِنْ دونِ اللهِ لا يمكنُ أنْ تضرَّهُ، ولا يمكنُ أنْ تنفعَهُ، وإنَّما الَّذي يضرُّ وينفعُ حقيقةً مَنْ عاندَهُ وانصرفَ عن عبادتِهِ، تضرُّهُ الرُّبوبيَّةُ الَّتي يعاندُها، والمُجازي الَّذي يُجازيهِ بعملِهِ؛ فمعنى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾: ما لا يضرُّهُ إنِ انصرفَ عنهُ ولم يَعْبُدْهُ، ولا ينفعُهُ إنْ عبدَهُ[1]، وفي ذلكَ مزيدُ تجهيلٍ لعابدِ الأصنامِ، ومزيدُ تقبيحٍ وتشنيعٍ لحالِهِ.

بلاغةُ تقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ في الآيةِ:

الـتَّـهـكُّـمُ بالمتملِّصِ مِنَ الإسلامِ للزِّرايةِ بحالِه ومآلِه

قُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ، في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾؛ إيماءً إلى أنَّهُ تملَّصَ منَ الإسلامِ، تجنُّبًا للضَّرِّ؛ لتوهُّمِهِ أنَّ ما لَحِقَهُ مِنَ الضَّرِّ بسببِ الإسلامِ، وبسببِ غضبِ الأصنامِ عليهِ، فعادَ إلى عبادةِ الأصنامِ حاسبًا، أنَّها لا تضرُّهُ، وفي هذا الإيماءِ تهكُّمٌ بهِ يظهرُ بتعقيبِهِ، بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ﴾، أي: فهو مُخطِئٌ في عبادتِهِ الأصنامَ؛ لتُزيلَ عنهُ الضَّرَّ فينتفعَ بفعلِها، والمعنى أنَّها لا تفعلُ ما يَجْلُبُ ضَرًّا ولا ما يَجْلُبُ نفعًا[2]، ولأنَّ درءَ المَفْسَدةِ مُقدَّمٌ على جَلْبِ المَصلحةِ؛ لأنَّ المَفْسَدةَ خروجُ الشَّيءِ عنِ استقامةِ تكوينِهِ[3].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9730.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 215.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9731.

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾:

بيان أنَّ العطفَ وصل للمعاني وربط للمباني

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾، لعطفِ عدم النَّفْعِ على عدمِ الضَّرِّ، وفي هذا العطفِ نكتةٌ، وهي أنَّهُ لمّا قُدِّمَ الضَّرُّ؛ لأنَّهُ مِنَ الأعذارِ المقبولةِ في ارتكابِ الخطأ؛ أُتبِعَ بالنَّفْعِ قطعًا لكلِّ مقالٍ، أي: وما لا ينفعُهُ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ، ولا بتركِ الضَّرِّ إنْ وُجِدَ منهُ[1].

سرُّ تكريرِ (ما) مع نفي الضُّرّ ونفي النّفع:

تأكيدُ الذَّمِّ في السّياق لتقرير النّفي للنّفع والضّر مفردين ومجتمعين

تكريرُ الاسم الموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾، حيثُ لم يُقلْ: (ما لا يضرُّهُ ولا ينفعُهُ)؛ لئلا يُظَنَّ أنَّ الذَّمَّ يُشترَطُ فيهِ انتفاءُ الضَّرِّ والنَّفْعِ معًا، حتَّى إنَّ مَنْ دَعا ما انتفَى عنهُ أحدُهما لم يُذَمَّ[2]، ولأنَّ في تكريرِهِ تلويحًا إلى أنَّ المدعوَّ جمادٌ، ليسَ مِنْ شأنِهِ الضَّرُّ والنَّفْعُ[3].

بلاغةُ الطِّباقِ في لفظي الضّرّ والنّفع:

تصويرُ العَجْزِ بصورتين متقابلتين مع نفي كلّ منهما

في الجمعِ بينَ الضَّرِّ والنَّفْعِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ طِباقٌ بليغٌ، ومِنْ وجوهِ بلاغةِ هذا الطِّباقِ أنَّهُ يُظهِرُ عَجْزَ الأصنامِ في صورتينِ متقابلتينِ، إحداهما العَجْزُ عنِ الضَّرِّ، والأخرى العَجْزُ عنِ النَّفْعِ.

مرجعُ الإشارةِ في لفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

المُشارُ إليهِ في السّياق هو دعاءُ ما دون الله

الإشارةُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾، إلى الدُّعاءِ المُستفادِ مِنْ ﴿يَدۡعُواْ﴾[4]، أي: ذلكَ الفعلُ الدّالُّ على أعظم السَّفَهِ - وهو دعاءُ شيءٍ انتفى عنهُ القُدرةُ على الضَّرِّ والنَّفْعِ - هو الضَّلالُ البعيدُ[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 19.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 19.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 119.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 215.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 19.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تمييزُ الضَّلالِ أتمَّ تمييزٍ وتفظيعُ شأنِه أعظم تشنيع

الإتيانُ باسمِ الإشارةِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾؛ لزيادةِ تمييزِ المسندِ إليه أتمَّ تمييزٍ؛ لتقريرِ مدلولِهِ في الأذهانِ، والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ إلى البعيدِ؛ لتفظيعِ شأنِ المُشارِ إليهِ وتهويلِهِ؛ فإنَّ دعاءَ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ، هو غايةُ الضَّلالِ الَّتي لا ضلالَ بعدَها.

بلاغةُ القصرِ وتأكيده بضميرِ الفصل:

تحقيق الخبر ونفي الشّك في وقوعه

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ ضميرُ فصلٍ، والقصرُ المستفادُ مِنْ تعريفِ المسندِ ﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾ قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ ادُّعي أنَّ ماهيَّةَ الضَّلالِ البعيدِ انحصرَتْ في دُعائِهم ما لا يضرُّ ولا ينفعُ، والمعنى: (دعاؤُهم لا غيرُ هو الضَّلالُ البعيدُ)، والمقصودُ تحقيقُ الخبرِ ونفيُ الشَّكِّ في وقوعِهِ، وضميرُ الفصلِ أكَّدَ معنى القصرِ، فأفادَ تقويةَ الخبرِ المقصورِ[1].

نكتةُ المجازِ في قولِهِ: ﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾:

بيان أهمّيّة الجمع بين الاستعارة والمجاز العقليّ في السّياق

في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، حيثُ استُعيرَ الضَّلالُ البعيدُ مِنْ ضلالِ مَنْ أبعدَ في التِّيهِ، فطالَتْ وبَعُدَتْ مسافةُ ضَلالتِهِ[2]، وعَسُرَ عليهِ الرُّجوعُ منها، وحاصلُ الاستعارةِ: أنَّهُ قد استُعيرَ فَقْدُ الطَّريقِ الحسّي لفَقْدِ الطَّريقِ المعنويِّ، والجامعُ مُطلَقُ فَقْدِ الطَّريقِ، فيصحُّ وصفُهُ بالبُعْدِ، وإسنادُ البُعْدِ إليه مجازٌ عقليٌّ، وأصلُهُ للضّالِّ، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ ترشيحيَّةٌ[3].

نكتةُ وصفِ الضَّلالِ بالبعيدِ:

المبالغةُ في تقبيح شأنِ الضَّلال لخطورته ومساءته

في وصفِ الضَّلالِ بالبعيدِ، في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 215.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 147، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 66.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 25.

﴿ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾، مبالغةٌ في تقبيحِ شأنِ الضَّلالِ؛ لأنَّ البعيدَ هو المُتجاوِزُ الحدَّ المعروفَ، في مدى الضَّلالِ، والمعنى: (هو الضَّلالُ الَّذي لا يماثِلُهُ ضَلالٌ؛ لأنَّهُ يَعْبُدُ ما لا غَناءَ لهُ)[1]، إضافةً إلى ما في هذا الوصفِ مِنْ نكتةِ المجازِ العقليِّ المُتقدِّمةِ.

علَّةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في السّياقِ:

ثبوتُ بُعْدِ ضلالِهم عنِ الحقِّ والهُدى وتوصيفه بما يستحقّه

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ كونَ ضَلالِهم في غايةِ البُعْدِ عنِ الحقِّ والهُدى أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، لا يعترِضُهُ شكٌّ، ولا يُنْقَضُ، فلا ضلالَ فوقَ ضلالِ مَنْ يَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبصِرُ، ولا يُغني عنهُ شيئًا.

نكتة إعراب جملةِ: ﴿يَدۡعُواْ﴾:

الجملةُ استئنافٌ أو حالٌ وكلاهما ذو أثر في الدّلالة

اختُلِفَ في إعرابِ قولِ الحقِّ تعالى شأنُهُ: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾: فقيلَ: الجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ مآلِ دُعائِهِ المذكورِ، وتقريرِ كونِهِ ضلالًا بعيدًا، معَ إزاحةِ ما عسى يُتوهَّمُ مِنْ نفيِ الضَّرَرِ عن معبودِهِ، بطريقِ المباشرةِ، أنَّهُ منفيٌّ عنهُ بطريقِ التَّسبُّبِ أيضًا[2]، وقيلَ: الجملةُ في موضعِ حالٍ ثانيةٍ، وهي ارتقاءٌ في تضليلِ عابدي الأصنامِ؛ فبعدَ أنْ بيَّنَ لهُم أنَّهم يعبدونَ ما لا غَناءَ لهُم فيهِ زادَ فبيَّنَ أنَّهم يعبدونَ ما فيهِ ضَرٌّ[3].

وقيل: "﴿يَدۡعُواْ﴾ الثاني توكيدٌ لـ ﴿يَدۡعُواْ﴾ الأولِ فلا معمولَ له، كأنه قيل: يَدْعو يَدْعو مِنْ دونِ اللهِ الَّذي لا يَضُرُّه ولا ينفعه"[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَدۡعُواْ﴾:

الـدَّلالـةُ على استمرارِ الدُّعاءِ وتـجـدُّدِهِ في سياق الآية

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 215.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 215.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 240.

﴿ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الدُّعاءَ المذكورَ أمرٌ مُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ؛ لأنَّ هذا الضالَّ الخاسرَ، قد أبعدَ في الضَّلالِ، واستمرأ فعلَهُ القبيحَ، فلا مَطْمَعَ في رجوعِهِ عنهُ.

احتمالُ الكلامِ عـدَّةَ أوجـهٍ مِنَ الإعرابِ مفيد في البيان

إعرابُ جملة ﴿يَدۡعُواْ﴾ في السياق باعتبارِ المفرداتِ:

قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ فيهِ وجوهٌ كثيرةٌ، وذلكَ أنَّهُ: إمّا أنْ يُجعَلَ ﴿يَدۡعُواْ﴾ مُتسلِّطًا على جملةِ: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ أو لا، فإنْ جُعِلَ مُتسلِّطًا عليهِ، كانَ فيهِ عدَّةُ أوجهٍ: **منها**: أنَّ ﴿يَدۡعُواْ﴾ بمعنى (يقولُ)، واللّامُ للابتداءِ، وهي تفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ الواقعةِ بعدَها، و(مَنْ) موصولةٌ في محلِّ رفع بالابتداءِ، و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأٌ ثانٍ، و﴿أَقۡرَبُ﴾ خبرُهُ، وهذهِ الجملةُ صلةٌ للموصولِ، وخبرُ الموصولِ محذوفٌ تقديرُهُ: يقولُ للَّذي ضَرُّهُ أقربُ مِنْ نفعِهِ: إلهٌ، أو إلهي، أو نحوُ ذلكَ، والجملةُ كلُّها في محلِّ نصبٍ بـ ﴿يَدۡعُواْ﴾؛ لأنَّهُ بمعنى (يقولُ)، وعلى هذا فيكونُ قولُهُ: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ مُستأنَفًا غيرَ داخلٍ في المحكيِّ قبلَهُ؛ لأنَّ الكفّارَ لا يقولونَ في أصنامِهم ذلكَ، **ومنها**: أنَّ ﴿يَدۡعُواْ﴾ مُشبَّهٌ بأفعالِ القلوبِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ لا يَصدرُ إلّا عن اعتقادٍ، وأفعالُ القُلوبِ تُعلَّقُ، فـ ﴿يَدۡعُواْ﴾ مُعلَّقٌ أيضًا باللّامِ، و(مَنْ) مبتدأٌ موصولٌ، والجملةُ بعدَهُ صلةٌ، وخبرُهُ محذوفٌ على ما مرَّ في الوجهِ الأوَّلِ، والجملةُ في محلِّ نصبٍ، كما تكونُ كذلكَ بعدَ أفعالِ القُلوبِ، ومنها: أنْ يُضمَّنَ ﴿يَدۡعُواْ﴾ معنى (يزعمُ)، فيُعلَّقَ كما يُعلَّقُ، والكلامُ فيهِ كالكلامِ في الوجهِ السّابقِ.

ومنها: أنَّ ﴿يَدۡعُواْ﴾ بمعنى (يُسمّي)، فتكونُ اللّامُ مزيدةً في المفعولِ الأوَّلِ، وهو الموصولُ وصلتُهُ، ويكونُ المفعولُ الثّاني محذوفًا تقديرُهُ: يُسمّي الَّذي ضَرُّهُ أقربُ مِنْ نَفْعِهِ إلهًا ومعبودًا، ومنها: أنَّ اللّامَ مُقدَّمةٌ مِنْ تأخيرٍ، والأصلُ: يدعو مَنْ لَضَرُّهُ أقربُ.

ومنها: أنَّ اللّامَ زائدةٌ في المفعولِ بهِ، وهو (مَنْ)، والتَّقديرُ: (يدعو مَنْ ضَرُّهُ أقربُ).

وإنْ لم يُجعَلْ مُتسلِّطًا على الجملةِ بعدَهُ كانَ فيهِ أوجهٌ، **أظهرُها**: أنَّ ﴿يَدۡعُواْ﴾ الثّاني توكيدٌ لـ ﴿يَدۡعُواْ﴾ الأوّلِ الَّذي هو بمعنى (يَعْبُدُ)، فلا معمولَ لهُ، كأنَّهُ قيلَ: يدعو يدعو مِنْ دونِ اللّهِ الَّذي لا يضرُّهُ ولا ينفعُهُ، وعلى هذا فتكونُ جملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ مُعترضةً بينَ المُؤكَّدِ والتَّوكيدِ، ويكونُ قولُهُ: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ كلامًا مُستأنفًا، فتكونُ اللّامُ للابتداءِ، و(مَنْ) موصولةٌ، و﴿ضَرُّهُۥٓ﴾ مبتدأٌ، و﴿أَقۡرَبُ﴾ خبرُهُ، والجملةُ صلةٌ، و﴿لَبِئۡسَ﴾ جوابُ قَسَمٍ مُقدَّرٍ، وهذا القَسَمُ المُقدَّرُ وجوابُهُ خبرُ المبتدأِ الَّذي هو الموصولُ[1].

ويتجلّى لنا هنا دور الإعراب، من حيث إنّه فرع عن المعنى، وأنّ النّسيج الأسلوبيّ للسّياقات القرآنيّة، متفرّد عن سواه، بإعجازه البيانيّ الملمح، وطرائقه الأسلوبيّة المتوخّاة، وجمعه للمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

وجهُ إيثارِ (مَنْ) على (ما) وصيغةِ التَّفضيلِ:

المبالغةُ في ذمِّ من يدعو غير اللهِ وتقبيحِ حالِهِ

إيثارُ (مَنْ) على (ما) معَ كونِ معبودِهِ جمادًا، وإيرادُ صيغةِ التَّفضيلِ معَ خُلوهِ عنِ النَّفعِ، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾؛ للمبالغةِ في ذمِّهِ وتقبيحِ حالِهِ، أي: يقولُ ذلكَ الكافرُ يومَ القيامةِ بدعاءٍ وصُراخٍ حينَ يرى تضرُّرَهُ بمعبودِهِ ودخولَهُ النّارَ بسببِهِ، ولا يرى منهُ أثرَ النَّفْعِ: لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ مِنْ نَفْعِه، واللّهِ لَبِئْسَ النّاصرُ هو، ولَبِئْسَ الصّاحبُ هو، فكيفَ بما هو ضَرَرٌ مَحْضٌ عارٍ عنِ النَّفعِ؟!

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿يَدۡعُواْ﴾ الثّاني، إعادةً للأوَّلِ، وتمهيدًا لما بعدَهُ مِنْ بيانِ سوءِ حالِ معبودِهِ، إثْرَ بيانِ سوءِ حالِ عِبادتِهِ، بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ

(1) السّمين، الدّر المصون: 8/ 238.

﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾، كأنَّهُ قيلَ مِنْ جهتِهِ سبحانَهُ بعدَ ذكرِ عبادتِهِ لِما لا يضرُّهُ ولا ينفعُهُ: يدعو ذلكَ، ثمَّ قيلَ: لَمَنْ ضَرُّهُ أقربُ مِنْ نَفْعِه واللهِ لَبِئْسَ المولى، ولَبِئْسَ العَشيرُ، فكلمةُ (مَنْ) وصيغةُ التَّفضيلِ للتَّهكُّمِ بهِ[1].

علَّةُ إيثارِ الإضافةِ للضَّميرِ على الإسنادِ:

الإضافةُ أوسعُ مِنَ الإسنادِ دلالةً ووضوحًا

قولُه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾، وفيه أنّه لمّا كانَ الضَّرُّ الحاصلُ مِنَ الأصنامِ غيرَ ناشئٍ عن فعلِها، بل هو ضَرٌّ مُلابِسٌ لها - أُثبِتَ الضَّرُّ بطريقِ الإضافةِ للضَّميرِ دونَ طريقِ الإسنادِ، فقيلَ: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾، ولم يُقَلْ: لَمَنْ يضرُّ ولا ينفعُ؛ لأنَّ الإضافةَ أوسعُ مِنَ الإسنادِ، فلم يحصلْ تنافٍ بينَ قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ وقولِه: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

كونُ الضَّرِّ أقربَ مِنَ النَّفعِ كنايةٌ عـن تمحُّضِهِ للضَّرِّ

في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾ كنايةٌ بديعةٌ؛ لأنَّ كونَ الضَّرِّ أقربَ مِنَ النَّفعِ كنايةٌ عن تمحُّضِهِ للضَّرِّ، وانتفاءِ النَّفْعِ منهُ؛ لأنَّ الشَّيءَ الأقربَ حاصلٌ قبلَ البعيدِ، فيقتضي ألّا يحصلَ معَهُ إلا الضَّرُّ[3].

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾:

اللّامُ واقعةٌ في جـوابِ قَسَمٍ محذوفٍ

اللّامُ في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ[4]، فهي تُؤكِّدُ الحُكْمَ وتُثبِتُهُ[5]، فيكونُ ذمُّ المَوْلَى والعَشيرِ أمرًا مُحقَّقًا ثابتًا، لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98، ولا يخفى أن هذه النكتة مبنية على بعض الوجوه المذكورة في إعراب ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ﴾.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 216، وانظر للتوسع: أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 490.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 216.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4954.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الذَّمِّ ﴿لَبِئۡسَ﴾:

جُمِعَتِ المساوئ كلُّها لمن يُدعى من دون الله تعالى

لمّا كانتِ الوِلايةُ الكاملةُ لا تنبغي إلّا لمَنْ يكونُ توقُّعُ النَّفْعِ منهُ والضرِّ على حدٍّ سواءٍ؛ لقُدرتِهِ عليهما باختيارِهِ، وكانَ العَشيرُ لا يَصْلُحُ إلّا إنْ كانَ مأمونَ العاقبةِ، وكانَ هذا المدعوُّ إنْ نُظِرَ إليه في جانبِ الضرِّ، وُجِدَ غيرَ قادرٍ عليهِ، أو في جانبِ النَّفْعِ فكذلكَ، وإنْ فُرِضَ توقُّعُ نَفْعِهِ أو ضَرِّهِ، كانَ خَوْفُ ضَرِّهِ أقربَ مِنْ رجاءِ نَفْعِهِ؛ استحقَّ غايةَ الذَّمِّ، فلذلك عُبِّرَ في ذمِّهِ بالأداةِ الموضوعةِ لمَجامعِ الذَّمِّ، فقيلَ: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾؛ لكونِهِ ليسَ مرجوَّ النَّفْعِ، كما هو مَخْشي الضَرِّ، ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾؛ لكونِهِ ليسَ مأمونَ الضَّرِّ، فهو غيرُ صالحٍ لوِلايةٍ، ولا لعِشْرةٍ بوجهٍ[1].

سرُّ تكريرِ فعلِ الذَّمِّ في قولِهِ: ﴿لَبِئۡسَ﴾ ﴿وَلَبِئۡسَ﴾:

تأكيدُ الذَّمِّ باعتبارِ الوصفين من بليغ السّياق

كُرِّرَ فعلُ الذَّمِّ في قولِ اللهِ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾، ولم يُقَلْ: (لَبِئْسَ المَوْلَى والعَشيرُ)؛ تأكيدًا للذَّمِّ بإيقاعِهِ على كلٍّ مِنَ الوصفين، وتنبيهًا على أنَّ الأصنامَ عاطلةٌ عنِ الاتِّصافِ بكلٍّ منهُما، ولذلكَ استحقَّتِ الذَّمَّ باعتبارِ كلٍّ منهُما.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضَّلالُ والغَيُّ:

الـغَـيُّ سببُ الضَّلالِ وقد آثر السّياقُ الضّلال لتعبيره عن المراد

الفرقُ بينَ الضَّلالِ والغَيِّ: أنَّ الضّلالَ يعني الضَّياعَ والتّيهَ، والعُدولَ عنِ القَصْدِ وطريقِ الحقِّ، والغَيَّ يعني الجهلَ بالأمورِ، وفسادَ الرَّأيِ والاعتقادِ، والغَيُّ يُؤَدّي إلى الضَّلالِ؛ فمَنْ جَهِلَ بالأمورِ، وفَسَدَ رأيُهُ واعتقادُهُ، جارَ عنِ القَصْدِ، وانحرفَ عنِ الطَّريقِ المُستقيمِ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 20، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 216.
(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 683.

(سَاءَ) يُشيرُ إلى قُبحِ العملِ المذمومِ و(بئس) أعم منه

(بِئْسَ) و(ساءَ):

(ساءَ): أصلُ السّوءِ: القُبحُ، وضِدُّه: الحُسنُ[1]، والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَمِلَ سوءًا؛ أي: شَرًّا وفَسادًا[2].

(بِئْسَ): بِئْسَ مَهْموزٌ فِعْلٌ جامِعٌ لأنواعِ الذَّمِّ، وهو ضِدُّ نِعْمَ في المَدْحِ، قالَ الزَّجّاجُ: بِئْسَ ونِعْمَ هُما حَرْفانِ لا يَعْمَلانِ في اسْمِ عَلَمٍ، إنما يَعْمَلانِ في اسْمِ مَنْكورٍ دالٍّ عَلَى جِنْسٍ، وإنما كانَتا كَذَلِكَ لِأَنَّ نِعْمَ مُسْتَوْفيةٌ لِجَميعِ المَدْحِ، وبِئْسَ مُسْتَوْفيةٌ لِجَميعِ الذَّمِّ، فإذا قُلْتَ بِئْسَ الرَّجُلُ دَلَلْتُ عَلَى أنه قَدِ اسْتَوْفَى الذَّمَّ الَّذي يَكونُ في سائِرِ جِنْسِهِ[3].

والفرق بينهما أن (ساءَ) أخصُّ في مدلوله مِن (بئس)، فهو يُفيدُ إنشاءَ الذَّمِّ الخاصّ، وأمّا (بئس) فهي لإنشاء الذّمِّ العامّ[4]، فَإذا قلت: بِئْسَ الرجلُ، دلّتَ على أنّه قد استوفى الذّم الَّذي يكون في سائِر جنسِه[5]، وإذا قلت: ساء ما فعل فلان، فقد قصدت ذمّه بفعل خاصٍّ، ولم ترد الحكم عليه بالسوء من كل وجه.

(1) الخليل، العين: (سوء)، والأزهري، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (ساء).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بأس).
(4) السامرائي، معاني النحو: 4/ 299.
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة: (بأس).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحجّ: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكـرُ حالِ المؤمنينَ بعدَ ذكرِ حالِ أضدادِهم واقعًا ومصيرًا

لمّا قسَّمَ جلَّ شأنُه المُعانِدينَ والمُخالِفينَ إلى المُجادِلينَ ومَنْ لا يَثْبُتُ على الإسلام، وبالغَ في هَدْمِ أساسِ دينِهم، وبيَّنَ أنَّهم خَسِروا الدُّنيا والآخرةَ، وأنَّ معبوديهم غيرُ قادرينَ على دَفْعِ خُسْرانِهم، بل يتضرَّرونَ بسببِ عِبادتِهم؛ عقَّبَهُ بذِكرِ أضدادِهم، وهم الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ[1]، وسياق الآية قائم على الإتيان بالمقابل، لأنّ النّفس لها استعداد للمقارنة، وتحديد ملامح الإختلاف بين أسباب دخول النّار، وأسباب دخول الجنّة، وهو أوضح في البيان، وأجدى في إيقاع الحجّة[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدۡخِلُ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (دخل) وُلوجُ الشَّيءِ أو تغلغلُهُ في أثناءِ شيءٍ[3]، ومِنْ ذلكَ: المدخولُ: المهزولُ؛ لأنَّ لَحمَهُ كأنَّهُ قد دخلَ، ودخيلُكَ: الَّذي يُداخِلُكَ في أمورِكَ[4]، وهو دخيلٌ في بني فلانٍ، إذا انتسبَ معهم، وليسَ منهُم[5]، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ ذلكَ في المكانِ والزَّمانِ والأعمالِ، قالَ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [البقرة: 58]، وقالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ [الإسراء: 80]، وقالَ: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾ [الحجّ: 59]، وادَّخلَ: اجتهدَ في دخولِه، قالَ تعالى: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ [التّوبة: 57][6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 111، والطّيبي، فتوح الغيب: 10/ 453.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9733.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دخل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (دخل)، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (دخل).
(6) الرّاغب، المفردات: (دخل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (دخل).

2) ﴿يَفۡعَلُ﴾: المعنى المحوريّ للأصل (فعل) إحداثُ شيءٍ مِنْ عملٍ وغيرِه[1]، والفعلُ: التَّأثيرُ مِنْ جهةِ مُؤثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كانَ بإجادةٍ أو غيرِ إجادةٍ، ولِما كانَ بعِلمٍ أو غيرِ عِلمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ويكونُ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 197]، وقالَ: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ [النّساء: 30][2]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]، أي: قادرينَ، فالفعلُ يُعبَّرُ بهِ عنِ القُدرةِ على الشَّيءِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

تنعُّمُ المؤمنينَ بالجنّاتِ وكونه تعالى فعّالٌ لما يريد

يُخبِرُ الحقُّ سبحانَهُ عن جزاءِ عِبادِهِ المؤمنينَ الصّالحينَ، فيقولُ: إنَّ اللّهَ يُدخِلُ الّذينَ صدَّقوا اللّهَ ورُسُلَهُ، وعَمِلوا بما أمرَهم اللّهُ بِهِ في الدُّنيا، وانتهَوْا عمّا نهاهُم عنهُ فيها؛ جنّاتٍ تَجْري مِنْ تحتِها الأنهارُ، إنَّ اللّهَ يفعلُ ما يريدُ، فيُعطي ما شاءَ مِنْ كرامتِهِ أهلَ طاعتِهِ، وما شاءَ مِنَ الهَوانِ أهلَ معصيتِهِ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

ذكر حال المؤمنين في مقابلة الكافرين مدحًا لأوصافهم

قولُهُ جلَّ وتباركَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ استئنافٌ جيءَ بِهِ لبيانِ كمالِ حُسْنِ حالِ المؤمنينَ العابدينَ لهُ تعالى[5]، ولذلكَ اختيرَ فصلُهُ عمّا قبلَهُ مِنَ الكلامِ المَسوقِ لبيانِ حالِ المشركينَ، فالغرضانِ متبايِنانِ[6]، وقيلَ: قولُهُ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (فعل).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 579.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 121.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 27.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، مقابلُ قولِه: ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، وقولِه: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، فالجملةُ مُعترِضةٌ[1].

سرُّ تصديرِ الآيةِ بالتَّوكيدِ بلفظ ﴿إِنَّ﴾:

الاعـتـنـاءُ بمضمونِ الكلامِ يـبرزُ أهـمـيّـتـه للمؤمنين من الأنام

صُدِّرَ قولُه جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ بالتَّوكيدِ؛ لإظهارِ الاعتناءِ بمضمونِ الكلامِ المُشتمِلِ على ذكرِ جزاءِ عبادِ اللهِ المؤمنينَ الصّالحينَ، وتحقيقِ حصولِه، وبيانِ أنَّ وقوعَهُ أمرٌ لا ريبَ فيهِ، وتوكيدِ البِشارةِ بهِ.

نكتةُ اسميَّةِ الجملةِ في سياقِ الآيةِ:

الـدَّلالـةُ على الثُّبوتِ والدَّوامِ مـتـنـاسـب مع خلودِ الجنّاتِ ودوامِ جزائها

أوثِرَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ، في قولِ الحقِّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ، تفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، وذلكَ يناسبُ مقامَ الوعدِ والتَّرغيبِ، وبيانِ جزاءِ المؤمنينَ العابدينَ للّهِ تعالى؛ لِما فيهِ مِنَ الإيماءِ إلى أنَّ هذا الوعدَ ثابتٌ دائمٌ، لا يُخلِفُهُ سبحانَهُ وتعالى؛ فضلًا وتكرُّمًا منهُ على عبادِهِ المؤمنينَ.

سرُّ إيثارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ جزاءِ العابدينَ لربّ العالمين

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى، في قولِ الحقِّ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ فيهِ إشارةٌ إلى اتِّصافِهِ سبحانَهُ وتعالى، بجميعِ صفاتِ الكمالِ، وتنزُّهِهِ عن جميعِ شوائبِ النَّقْصِ[2]، ومِنْ جملةِ ذلكَ القُدرةُ على إثابةِ الطّائعينَ، وكونُهُ سبحانَهُ المعبودَ المُستحِقَّ للعبادةِ، فيناسبُ ذكرُهُ مقامَ بيانِ جزاءِ العابدينَ الموحِّدينَ، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ المعبودَ المُستحِقَّ للعبادةِ، يُثيبُ العابدينَ لهُ الطّائعينَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 217.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 20.

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُدۡخِلُ﴾:

الــدَّلالــةُ على وقــوعِ الـفـعـلِ فِي المستقبلِ معبّرة عن خلود النّعيم

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِ الحقِّ جلَّتْ حكمتُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ لأنَّ المضارعَ كما يدلُّ على الحالِ، يدلُّ على الاستقبالِ، وهو هنا للاستقبالِ؛ لأنَّ إدخالَ المؤمنينَ جنّاتِ النَّعيمِ، أمرٌ مستقبليٌّ يكونُ يومَ القيامةِ.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في السّياق:

بــيــانُ عــلَّــةِ استحقاقِ أهل الإيمان لدخولِ جنّة الرّضوان

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ لإفادةِ عُمومِ الجزاءِ لكلِّ مَنْ جمعَ بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ؛ لأنَّ الموصولَ مِنْ ألفاظِ العُمومِ، وللإشارةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى علَّةِ استحقاقِهم للجنّاتِ، وهي الإيمانُ والعملُ الصّالحُ، كأنَّهُ قيلَ: يُدخلونَ جنّاتٍ تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ؛ لأنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلي الماضي ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾:

بــيــانُ تــحــقُّــقِ الإيـمـانِ وعملِ الصّالحاتِ مِنَ المُؤمنينَ الأبرارِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي، في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ وعملَ الصّالحاتِ أمرانِ ثَبَتا وتحقَّقا مِنَ المؤمنينَ الفائزينَ بالجنّاتِ، وأنَّ جزاءَهم قد ترتَّبَ على ما أسلَفوا مِنْ خيرٍ، فهم قد نالوا جزاءهم الأثير، بما عملوا من مبرّة وخير، "وإنّ اللّه تعالى يسكنهم جنّات فيها نعيم دائم مقيم، يلتقي فيها نعيم الجسم بسرور النّفس، فالإقامة دائمة في ريحان الجنّة، والأنهار تجري من تحت الأشجار، فيكون متعة النّظر، وراحة البصر"[(1)].

علَّةُ عطفِ عملِ الصّالحاتِ على الإيمانِ:

أتبعَ ﷻ الإيمانَ بالعملِ الصّالحِ، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 13/ 20.

﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾؛ لأنَّ عملَ الصّالحاتِ تصديقٌ للإيمانِ[1]؛ فإنَّ مطلوبَ الإيمانِ، أنْ تستمعَ لأوامرِهِ؛ لأنَّهُ حكيمٌ، وتثقَ في قُدرتِهِ؛ لأنَّهُ قادرٌ، وتخافَ مِنْ بَطْشِهِ؛ لأنَّهُ جبّارٌ، ولا تيأسَ مِنْ بَسْطِهِ؛ لأنَّهُ باسطٌ، ولا تأمنَ قَبْضَهُ؛ لأنَّهُ قابضٌ[2].

انطلاقُ العملِ الصّالحِ مِنَ الإيمانِ يبرز ما لـه مـن قيمة وشان

سرُّ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وجمعِهِ:

في إيرادِ لفظِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ مجموعًا مُعرَّفًا بلامِ الجنسِ إشارةٌ إلى أنَّ المُؤمنينَ الفائزينَ بالجنّاتِ الَّتي تجري مِنْ تحتِها الأنهارُ قد كَثُرَتْ خُطاهم في طُرُقِ الخيراتِ، وطَرَقوا مُختلِفَ أبوابِ الأعمالِ الصّالحاتِ، ولم يَقتصِروا على عملٍ واحدٍ، فالصّالحاتُ أنواعٌ كثيرةٌ، وهم حَرَصوا على أنْ يكونَ لهُم منها على اختلافِها وتنوُّعِها أوفَى نصيبٍ.

الإشارةُ إلى تعدُّدِ طُرُقِهم في الخيرِ لتسويغِ تنوّعِ الجزاء لهم

بلاغةُ الحذفِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

حُذِفَ الموصوفُ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، ولم يُقلْ: (آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحاتِ) إيجازًا، ولأنَّ الصّالحاتِ جمعُ صالحةٍ؛ وهي الفَعْلَةُ الحَسَنةُ، وهي في الأصلِ صفةٌ جرَتْ مَجْرى الأسماءِ؛ لأنَّهم يقولونَ: (صالحةٌ) و(حَسَنةٌ)، ولا يُقدِّرونَ موصوفًا محذوفًا[3].

الإيجازُ بحذفِ الموصوفِ من بلاغة الاستعمالِ في المألوف

نكتةُ جمعِ لفظِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في السّياقِ:

يدلُّ جمعُ لفظِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ على تعدُّدِ الجِنانِ وتنوُّعِها، وأنَّها ليسَتْ جنَّةً واحدةً، بل هي جِنانٌ كثيرةٌ،

الإشارةُ إلى تعدُّدِ الجنّاتِ وتنوُّعِها دليل على تنوّع الإنعام وتلوّنه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 20.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9734.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 352.

فكما تنوعت الأعمال الصالحة؛ كذلك تنوعت الجنات؛ مقابلةً للإحسان بالإحسان.

فأخبر تعالى أنّه سوف يدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار، مؤكّدا روعتها وجمالها، وتنوّع نعيمها وخلوده، بدون زوال ولا تنغيص بالعوارض، وسمّيت الجنّة جنّة، لكونها مشتملة على المنازل والقصور، والأشجار والنّوابت الّتي تجنّ من فيها، ويستتر بها من كثرتها الكاثرة، وظلالها النّاضرة(1).

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في سياق الآيات:

تعظيمُ شأنِ الجنّاتِ دالّ على عظمِ الإنعامِ بها

يدلُّ تنكيرُ لفظِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، على تعظيم شأنِ الجنّاتِ وتفخيمِه، فهي جنّاتٌ مُختلِفةٌ عن كلِّ الجنّاتِ الَّتي ألِفَها الإنسانُ في الدُّنيا، فنعيمُ الدُّنيا مهما عَظُمَ لا يُقاسُ بشيءٍ مِنْ نعيمِ الآخِرةِ.

علَّةُ وصفِ الجنّاتِ بجَرَيانِ الأنهارِ مِنْ تحتِها:

المـــاءُ أصـلُ كثيرٍ مِنْ ألوانِ النَّعيمِ وجريانه الـدّائـم رمز للحياة الدّائمة

وُصِفَتِ الجنّاتُ بجَرَيانِ الأنهارِ مِنْ تحتها في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ لأنَّ الجنّاتِ هي الحدائقُ والبساتينُ المليئةُ بأنواعِ المُتَعِ؛ مِنَ الزَّرْعِ، والخُضْرةِ، والنَّضارةِ، والزُّهورِ، والرّائحةِ الطيِّبةِ، وهذهِ كلُّها بنتُ الماءِ(2)، ولأنَّ جَرَيانَ الأنهارِ مِنْ تحتِها فيهِ مُتعةُ النَّظرِ، وراحةُ البصرِ(3).

دلالةُ صيغةِ المضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾:

استمرارُ جَرَيانِ الأنهارِ مِنْ تحتِ الجنّاتِ منبئ بالخلود والدّوام

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿تَجۡرِي مِن

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 535 (بتصرّف).

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9735.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4955.

﴿تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ على استمرارِ جَرَيانِ الأنهارِ مِنْ تحتِ الجنّاتِ، إذ لا انقطاعَ لنعيمِ الجنّاتِ، فتكونُ أنواع النعيم - ومنها جَرَيانُ الأنهارِ - دائمةً خالدةً.

سرُّ تقديمِ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾:

تعجيلُ المَسَرَّة بإظهارِ ما ينتظر أهل الجنّة من المبرّة

قُدِّمَ ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾؛ لتعجيلِ المَسَرَّةِ بحصولِ الجَرَيانِ مِنْ تحتِ الجنّاتِ؛ لأنَّهُ لونٌ مِنْ ألوانِ النَّعيمِ، يُدخِلُ البَهْجةَ والسُّرورَ في نُفوسِ المؤمنينَ المُنعَّمينَ.

توجيهُ قولِهِ تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾:

احتمالُ الكلامِ لتقديرِ محذوفٍ وعدمِهِ

إنْ أُريدَ بجريان الأنهار من تحت الجنّاتِ، في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾، الأشجارُ المتكاثفةُ السّاترةُ لِما تحتَها، فجَرَيانُ الأنهارِ مِنْ تحتِها ظاهرٌ، وإنْ أُريدَ بها الأرضُ، فلا بدَّ مِنْ تقديرِ مضافٍ، أي: تجري مِنْ تحتِ أشجارِها، وإنْ جُعِلَتْ عبارةً عن مجموعِ الأرضِ والأشجارِ، فالتَّحتيَّةُ بالنَّظرِ إلى الجزءِ الظّاهرِ المُصحِّحِ، لإطلاقِ اسمِ الجنَّةِ على الكلِّ[1].

سرُّ الاقتصارِ على ثوابِ الآخرةِ دونَ الدُّنيا:

الدُّنيا إلى زوالٍ والآخرة خير وأبقى

اقتُصِرَ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ على ذكرِ ما للمؤمنينَ مِنْ ثوابِ الآخرةِ دونَ التَّعرُّضِ لذكرِ حالِهم في الدُّنيا؛ لعدمِ أهمّيةِ ذلكَ لَدَيْهِم، ولا في نظرِ الدّينِ[2]، ومهما كان جزاء الدنيا فمصيره إلى الزوال، والجزاء الحقيقي جزاء الآخرة الدائم.

وجهُ ارتباطِ جملةِ فعل الله ما يريد بما قبلَها:

بيان أنّ الجملة تعليلٌ لِما قبلَها وهو من فصيح الدّلالة

قولُهُ جلَّ وعزَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تعليلٌ لِما قبلَهُ، وتقريرٌ لهُ بطريقِ التَّحقيقِ، أي: يفعلُ كلَّ ما يريدُهُ مِنَ الأفعالِ المُتقَنةِ اللّائقةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 98، والآلوسيّ: 9/ 121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 217.

الَّتي مِنْ جُملتِها إثابةُ مَنْ آمنَ بِه وصدَّقَ رُسُلَهُ، وعِقابُ مَنْ أشركَ بِه وكذَّبَ برُسُلِه[1]، لا يُسألُ عمّا يفعلُ، فيُثيبُ مَنْ يشاءُ، ويُعذِّبُ مَنْ يشاءُ[2]، وقيلَ: قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، تذييلٌ للكلامِ المُتقدِّم، مِنْ قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ إلى هنا، وهو اعتراضٌ بينَ الجملِ المُلتئِم منها الغرضُ، وفيها معنى التَّعليلِ الإجماليِّ لاختلافِ أحوالِ النّاسِ في الدُّنيا والآخرةِ[3].

سرُّ إعادةِ ﴿إِنَّ﴾ ولفظِ الجلالةِ في ثنايا الآية:

الجمع في مضمونِ الكلامِ بين التّوكيد وكمال الوصف بلفظ الجلالة

أُعيدَتْ ﴿إِنَّ﴾ ولفظُ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، ولم يُقَلْ: (ويفعلُ ما يريدُ) كما هو الظّاهرُ؛ اهتمامًا بشأنِ مضمونِ الكلامِ، ومبالغةً في وقوعِه[4]؛ لأنَّ (إنَّ) تفيدُ التَّوكيدَ، ولفظَ الجلالةِ يتضمَّنُ الوصفَ بكلِّ كمالٍ[5]، ومِنْ جُملةِ ذلكَ القُدرةُ على إثابةِ المُطيعِ وعِقابِ العاصي.

سرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾:

الدّلالة على التّجدُّدِ والاستمرارِ في أفعال الله وفق إرادته المطلقة

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، والمعنى أنَّهُ سبحانَهُ فعلَ ما أرادَ، ويفعلُ دائمًا ما يريدُ[6]، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يَحولُ بينَهُ وبينَ مُرادِهِ شيءٌ، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لقُدرتِهِ سبحانَهُ وتعالى على إثابةِ المؤمنينَ ومعاقبةِ الكافرينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾:

الدّلالة على العُموم تعميم للحكم في الموصول وصلته

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالةِ على عُمومِ قُدرتِهِ تعالى لكلِّ ما يريدُ مِنْ نَفْعٍ وضَرٍّ ونحوِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 99، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 121.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 522.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 217.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 27.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4955.

(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4955.

ذلكَ[1]، وفعلُ اللّهِ ما يريدُ، هو إيجادُ أسبابِ أفعالِ العِبادِ، في سُنَّةِ نِظامِ هذا العالَمِ، وتبيينُهُ الخيرَ والشَّرَّ، وترتيبُهُ الثَّوابَ والعِقابَ، وذلكَ لا يُحيطُ بتفاصيلِهِ إلّا اللّهُ تعالى[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّخولُ والوُلوجُ:

الدُّخولُ: نَقيضُ الخُروجِ، ويُستعمَلُ في المكانِ، والزَّمانِ، والأعمالِ[3]، والوُلوجُ: الدُّخولُ في مَضيقٍ[4]، وبناءً على ذلكَ يكونُ الوُلوجُ أخصَّ مِنَ الدُّخولِ؛ إذ لا يُشترطُ في الدُّخولِ أنْ يكونَ في مَضيقٍ.

الوُلوجُ أخصُّ مِنَ الدُّخولِ؛ لأنَّهُ يكونُ في مَضيقٍ عادة

العملُ والفعلُ والصُّنعُ:

قيلَ في الفَرْقِ بينَ العملِ والفعلِ: إن العملَ: المُثابَرةُ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ بِهِ مرَّةً أو بسرعة، قالَ تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: 13]، والفعلَ: الإتيانُ بالشَّيءِ بسرعةٍ مِنْ غيرِ تَوانٍ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: 4][5].

الفعلُ أعمُّ مِنَ العملِ والصُّنْعُ أخصُّ منهما

وقيلَ: الأصلُ في العملِ أنْ يكونَ بقصدٍ، والفعلُ عامٌّ، يَصدُرُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ وغيرِ العاقلِ، وقلَّما يُنسَبُ العملُ إلى حيوانٍ، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفعلُ أعمَّ، والعملُ أخصَّ[6]، وأمّا الصُّنْعُ فهو إجادةُ الفعلِ، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ، وهو أخصُّ مِنَ الفعلِ والعملِ[7].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 217.
(3) الرّاغب، المفردات: (دخل).
(4) الرّاغب، المفردات: (ولج).
(5) النزهي، الفروق اللغوية، ص: 55.
(6) الرّاغب، المفردات: (عمل) (فعل)، وفاضل السّامرائيّ، لمسات بيانيّة: 10/ 252.
(7) الرّاغب، المفردات: (صنع).

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾ [الحجّ: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين الجزاء في الآخرة والنَّصرِ الممدود مِنْ عندِ اللهِ الودود

اختُلِفَ في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها اختلافًا مبنيًّا على الاختلافِ في معناها، والاختلافِ فيمَنْ نزلَتْ في حقِّهِ: فقيلَ: لَمّا أتمَّ سبحانَهُ الدَّليلَ على خُسْرانِ المُنقلِبِ، وربْحِ الثّابتِ، وكان ذلكَ مُفهِمًا أنَّ مَنْ رَجاهُ لِما وعدَ بهِ بادرَ إلى الإقبالِ عليهِ، ولم ينفعْ إلا نفسَهُ، ومَنْ لم يَرْجُ ذلكَ أعرضَ عنِ اللّهِ سبحانَهُ، فلم يَضُرَّ إلا نفسَهُ؛ ترجمَ عن حالِ هذا الثّاني العابدِ على حرفٍ بقولِهِ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الآيةَ[1]، وقيلَ: بعدَ أنْ ذكرَ حالَ المُجادِلِ بالباطلِ، ثمَّ بيَّنَ ما يؤولُ إليهِ أمرُهُ، مِنَ النَّكالِ في الدُّنيا، والخِزْيِ في الآخرةِ، ثمَّ ذكرَ مُشايعيهِ وعمَّمَ خسارَهم في الدّارينِ، وأردفَ ذلكَ ذكرَ حالِ المؤمنينَ، وما يَلْقَوْنَهُ مِنَ السَّعادةِ والنَّعيمِ في الدّارِ الآخرةِ؛ أتبعَ ذلكَ بذكرِ المُجادِلِ عن دينِ اللّهِ بالَّتي هي أحسنُ، وهو رسولُ اللّهِ ﷺ، وبالغَ في إثباتِ نَصْرِهِ بما لا مزيدَ عليهِ[2].

وقيلَ: لَمّا بيَّنَ سبحانَهُ أنَّهُ يفعلُ ما يريدُ، وكانَ مِنْ جملةِ ذلكَ أنَّهُ إنْ نزلَ بأحدٍ سوءٌ فلنْ يستطيعَ أحدٌ أنْ يُغيِّرَهُ، وإنْ نالَ أحدٌ نَفْعَهُ فلن يمنعَهُ أحدٌ، وإنْ أرادَ نُصْرةً مِنْ غيرِهِ فلن تكونَ إلّا بإرادةِ اللّهِ؛ قالَ سبحانَهُ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الآيةَ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 21.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 97.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4956.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (مدّ) جَرُّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالُ شيءٍ بشيءٍ في استطالةٍ[1]، فيزيدُهُ طولًا واستمرارًا أو قَدْرًا[2]، ومِنْ ذلكَ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ومدَّ النَّهرَ نَهْرٌ آخرُ: زادَ فيهِ وواصلَهُ، وأمدَدْتُ الجيشَ بمَدَدٍ، ومَدَدْتُ الإبلَ مَدًّا: أسقيتُها الماءَ بالدَّقيقِ أو بشيءٍ تُمِدُّهُ بِهِ[3]، ورجلٌ مَديدُ القامةِ، أي: طويلُ القامةِ[4]، والمُدَّةُ: الوقتُ الممتدُّ[5].

2) ﴿بِسَبَبٍ﴾: (سبّ) المُكرَّرةُ أصلٌ يدلُّ على طولٍ وامتدادٍ[6]، ومِنْ ذلكَ: السَّبَبُ، وهو الحَبْلُ[7]، وجمعُهُ: أسبابٌ[8]، قالَ تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: بحَبْلٍ[9]، وسُمّي كلُّ ما يُتوصَّلُ بهِ إلى شيءٍ سببًا، عينًا كانَ أو معنًى، قالَ تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: 84 - 85]، ومعناهُ: أنَّ اللّٰهَ آتاهُ مِنْ كلِّ شيءٍ معرفةً وذريعةً، يتوصَّلُ بها، فأتبعَ واحدًا مِنْ تلكَ الأسبابِ، وقالَ سبحانَهُ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: 36 - 37]، أي: لعلّي أعرفُ الذَّرائعَ الحادثةَ في السَّماءِ، فأتوصَّلَ بها إلى معرفةِ ما يدَّعيهِ موسَى، ووُصِفَ الطَّريقُ بالسَّببِ؛ لأنَّهُ يُتوصَّلُ بهِ إلى ما بعدَهُ[10].

3) ﴿لْيَقْطَعْ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (قطع) فصلُ وإبانةُ شيءٍ مِنْ شيءٍ[11]، سواءٌ كانَ الشَّيءُ مُدرَكًا بالبصرِ كالأجسامِ، أو مُدرَكًا بالبصيرةِ كالأشياءِ المعقولةِ، قالَ جلَّ شأنُهُ في قَطْعِ الأعضاءِ: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124]، وقالَ في قَطْعِ الأرحامِ: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمّد: 22]، وقَطْعُها يكونُ بالهجرانِ ومنعِ البرِّ، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ﴾ قيلَ: معناهُ: ليَقطَعْ حَبْلَهُ حتَّى يقعَ، وقيلَ: معناهُ: ليقطَعْ أجَلَهُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (مدد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مدد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (مدد).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (مدد)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 295.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سب)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سبب).
(7) الخليل، العين: (سبب).
(8) الجوهريّ، الصّحاح: (سبب).
(9) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 22.
(10) الرّاغب، المفردات: (سبب)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سبب).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قطع).

بالاختناقِ، وقَطَعَ الأمرَ: فَصَلَهُ، ومنهُ قولُهُ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ [النّمل: 32] وقَطْعُ دابرِ الإنسانِ: إفناءُ نَوْعِهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنعام: 45][1].

4) ﴿كَيْدُهُۥ﴾: (كيد) أصل يدلُّ على معالجةٍ لشيءٍ بشِدَّةٍ، وكلُّ شيءٍ تُعالِجُهُ فأنتَ تَكيدُهُ، فالكَيْدُ: صياحُ الغُرابِ بجهدٍ، والكَيْدُ: أنْ يُخرِجَ الزَّنْدُ النّارَ ببُطْءٍ وشدَّةٍ[2]، ويقالُ: رأيتُهُ يَكيدُ بنفسِهِ، أي: يُقاسي المَشَقَّةَ في نَزْعِهِ عندَ الموتِ[3]، والكَيْدُ: ضَرْبٌ مِنَ الاحتيالِ، وقد يكونُ مذمومًا وممدوحًا، قالَ تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183]، وقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ﴾ [يوسف: 76]، ويُستعمَلُ في المذموم أكثرَ[4].

5) ﴿مَا يَغِيظُ﴾: المعنى المحوريُّ للأصل (غيظ) حرارةٌ شديدةٌ تمتدُّ في جوفٍ فتعمُّهُ[5]، ومِنْ ذلكَ: الغَيْظُ: أشدُّ الغضبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يجدُها الإنسانُ مِنْ فَوَرانِ دم قلبِهِ، قالَ تعالى: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾ [آل عمران: 119]، وقالَ: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ﴾ [الفتح: 29][6]، والغَيْظُ أخصُّ مِنَ الغضبِ؛ فكلُّ غَيْظٍ غضبٌ، وليسَ كلُّ غضبٍ غَيْظًا[7]، ويقالُ: تغيَّظتِ الهاجرةُ، وفلانٌ يُغايِظُ صاحبَهُ في العملِ، أي: يُباريهِ ويُغالِبُهُ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الشّاكُّ في نصر اللـه لنبيّه لا يزيل غيظه قطع حبل مربوط في السّماء

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن فريقٍ مِنَ النّاسِ دخلوا في الإسلامِ، ولم

---

(1) الرّاغب، المفردات: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (كيد).
(4) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (غيظ).
(6) الرّاغب، المفردات: (غيظ).
(7) السّمين، عمدة الحفاظ: (غيظ).
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (غيظ).

يَثْبُتِ الإيمانُ في قلوبِهم، وأيسوا مِنْ تحقُّقِ وعدِ اللّهِ بالنَّصرِ، ولم يكونوا على صفةِ المؤمنينَ الرّاسخينَ الواثقينَ بوعدِ اللّهِ، فيقولُ: مَنْ كانَ يَحْسَبُ أنَّ اللّهَ لن يُنجِزَ وعدَهُ بنصرِهِ أو بنصرِ نبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ في الدُّنيا والآخرةِ، فليَربِطْ حَبْلًا بالسَّماءِ ثمَّ لْيقطعْهُ، فيسقطَ مِنَ السَّماءِ فيتمزَّقَ كلَّ مُمزَّقٍ، ولا يُغني عنهُ فعلُهُ شيئًا مِنْ إزالةِ غَيْظِهِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة موقع الآيةِ ممّا قبلَها:

الآيـةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ أو تذييلٌ تظهر بلاغته في التّصوير والتّمثيل

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾... الآيةَ، أنْ يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا، أُريدَ بهِ ذكرُ فريقٍ ثالثٍ، غيرِ الفريقينِ المذكورينِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾، وهذا الفريقُ الثّالثُ جماعةٌ أسلَموا وأيسوا مِنْ نصرِ المسلمينَ، وغاظَهم تعجُّلُهم للدُّخولِ في الإسلامِ، وهؤلاءِ هم المنافقونَ.

ويحتملُ أنْ يكونَ تذييلًا لقولِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ﴾... الآيةَ، بعدَ أنِ اعتُرِضَ بينَ تلكَ الجملةِ وبينَ هذهِ بجملٍ أخرى، فيكونُ المرادُ: أنَّ الفريقَ الَّذينَ يعبدونَ اللّهَ على حرفٍ، والمُخبَرَ عنهُم بقولِهِ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَۚ﴾، هم قومٌ يظنّونَ أنَّ اللّهَ لا ينصرُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ بَقوا على الإسلامِ، فأمّا ظنُّهم انتفاءَ النَّصرِ في الدُّنيا، فلأنَّهم قد أيسوا مِنَ النَّصرِ استبطاءً، وأمّا في الآخرةِ فلأنَّهم لا يؤمنونَ بالبَعْثِ، ولذلكَ عُلِّقَ فعلُ ﴿لَّن يَنصُرَهُ﴾ بقولِهِ: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾؛ إيماءً إلى كونِهِ مُتعلَّقَ الخُسْرانِ في قولِهِ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةَۚ﴾؛ فإنَّ عدمَ النَّصرِ خُسْرانٌ في الدُّنيا بحصولِ ضِدِّهِ، وفي الآخرةِ باستحالةِ وقوعِ الجزاءِ في الآخرةِ، حسَبَ اعتقادِ كفرِهم، وهؤلاءِ مُشرِكونَ مُتردِّدونَ.

ويترجَّحُ هذا الاحتمالُ بتغييرِ أسلوبِ الكلامِ، فلم يُعطَفْ بالواوِ كما عُطِفَ قولُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ﴾، ولم تورَدْ فيه جملةُ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ كما أورِدَتْ في ذكرِ الفريقينِ السّابقينِ، ويكونُ المقصودُ مِنَ الآيةِ تهديدَ هذا الفريقِ، فيكونُ التَّعبيرُ عن هذا الفريقِ بقولِهِ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ﴾ الآيةَ إظهارًا في مقامِ الإضمارِ؛ فإنَّ مُقتضَى الظّاهرِ أَنْ يُؤتى بضميرِ ذلكَ الفريقِ، فيقالَ بعدَ قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيةَ عائدًا الضَّميرُ المستترُ في ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ على مَنْ يَعْبُدُ اللّه على حَرْفٍ، والعُدولُ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ لوجهينِ: **أحدُهما:** بُعْدُ مرجعِ الضَّميرِ، **وثانيهما**: التَّنبيهُ على أنَّ عبادتَهُ اللّهَ على حرفٍ ناشئةٌ عن ظنِّهِ أَنْ لن ينصرَهُ اللّهُ في الدُّنيا والآخرةِ، إنْ صمَّمَ على الاستمرارِ في اتِّباعِ الإسلامِ؛ لأنَّهُ غيرُ واثقٍ بنصرِ المسلمينَ.

وضميرُ النَّصبِ في ﴿يَنصُرَهُ﴾ عائدٌ إلى مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ على حَرْفٍ، على كلا الاحتمالينِ.

ويحتملُ أَنْ تكونَ الآيةُ استئنافًا ابتدائيًّا، لذكرِ فريقٍ آخرَ يُشبهُ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ على حَرْفٍ، وهم فريقٌ أسلَموا في فترةِ ضَعْفِ الإسلامِ، وأيسوا من النَّصرِ، فضاقَتْ صُدورُهم، فخطرَتْ لهُم خواطرُ شيطانيَّةٌ، أنْ يتركوا الإسلامَ ويَرْجِعوا إلى الكفرِ، فزجرَهم اللّهُ وهدَّدهم بأنَّهم إنْ كانوا آيسينَ مِنَ النَّصرِ في الدُّنيا، ومُرتابينَ في نَيْلِ ثوابِ الآخرةِ، فإنَّ ارتدادَهم عنِ الإسلامِ لا يضرُّ اللّهَ ولا رسولَهُ، وإنْ أرادوا فليختنِقوا فينظُروا هل يُزيلُ الاختناقُ غَيْظَهم، وهؤلاءِ مِنَ المنافقينَ، وعلى هذا الوجهِ يمكنُ أنْ يكونَ ضميرُ ﴿يَنصُرَهُ﴾، عائدًا إلى رسولِ اللّهِ ﷺ[1].

دلالة ﴿مَن﴾ على الشّرطيّة في الآية الكريمة:

تحتملُ ﴿مَن﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾، أنْ تكونَ شرطيَّةً، وقولُهُ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ جزاءٌ للشَّرطِ، وهذا هو الظّاهرُ، وتحتملُ أنْ تكونَ موصولةً، وقولُهُ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ خبرٌ للموصولِ، والفاءُ للتَّشبيهِ بالشَّرطِ[2]، والمعنى: (مَن كان منهم يظنّ أنّ اللّه تعالى لن ينصر نبيّه ومصطفاه، فليبادر إن شاء إلى خنق نفسه بحبل ممدود إلى السّقف، وليقطع نصر اللّه، ثمّ لينظر بعد ذلك في نفسه، هل يذهبنّ احتياله هذا في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 217 - 220.
(2) السّمين، الدّر المصون: 8/ 241، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 95.

المضارّة والمضادّة، ما يغيظه من النّصرة؟)، والجواب: كلّا؛ فإنّ اللّه سوف ينصر رسوله لا محالة، وهو وعد غير مكذوب، قد قطعه على نفسه علّام الغيوب، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: 51][1].

عهد على الله نصر رسوله الأمين ورسله والمؤمنين

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَانَ﴾ والفعلِ المضارعِ ﴿يَظُنُّ﴾:

الدّلالةُ على استمرارِ الظَّنِّ كما هو دأب المنافقين

يدلُّ التَّعبيرُ بـ ﴿كَانَ﴾ مَعَ الفعلِ المضارعِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ على التجدُّدِ والاستمرارِ في هذا الظَّنِّ الفاسدِ الَّذي لا يستندُ إلى شيءٍ، وأنَّهُ أصبحَ عادةً ودَيْدَنًا لصاحبِهِ، أي: مَنْ كانَ يظنُّ مُستمِرًّا في ظنِّهِ الَّذي لا يَصدُقُ أنْ لن ينصرهُ اللّهُ إلخ[2]، ويتأكد هذا المعنى على وجه كون الآية عائدة على فريق المنافقين المذبذبين في قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾، فالمرتابون المشكّكون هم دائما في سوء ظن باللّه تعالى ووعده سبحانه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَظُنُّ﴾ في السّياق:

اختيار الفعل المناسب لزيادةِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ

عُبِّرَ بالظَّنِّ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾؛ لزيادةِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ على مَنْ تتحدَّثُ عنهُ الآيةُ، ببيانِ أنَّ يأسَهُ مِنَ النَّصرِ مبنيٌّ على ظنٍّ فاسدٍ، لا اعتبارَ لهُ، ولا اعتدادَ بهِ[3]. "وهذا زجر للكفّار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه، فإنّ أعداءه ﷺ، كانوا يتمنّون ألّا ينصره اللّه، وألّا يعليه على أعدائه، فمتى شاهدوا أنّ اللّه نصره غاظهم ذلك"[4]، وعليه فظنّهم خائب، وكيدهم زائل، ولا يستطيعون تغيير قدر اللّه تعالى، بإرسال الرّسل بالبيّنات، وحمايتهم وتأييدهم بالآيات والمعجزات.

---

(1) القاسميّ، : محاسن التأويل: 7/ 237.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4956.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9738.

(4) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 2/ 62.

فائدة استعمالِ نفي الاستقبال بـ﴿لَّن﴾:

نفيُ النَّصرِ في المستقبلِ تأكيد لزيف ظنّهم

يدلُّ استعمالُ حرفِ النَّفي ﴿لَّن﴾، في قولِ الحقِّ سبحانَهُ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ على أنَّهم يظنّونَ انتفاءَ النَّصرِ في المستقبلِ كما في الحاضرِ، فهم يائسونَ مِنَ النَّصرِ، لا يرونَ لهُ علاماتٍ في زَعْمِهم، وهذا يتناسب مع حال الظنِّ المتلبِّس للمنافقين، فإنهم لا يظنون بالله إلا ظن السوء، ولا يرجون توفيقه لعدم تعلق قلوبهم به سبحانه، والسّياق راد لظنهم، موضح للمراد، "فالمعنى أنّه تعالى ناصر لرسوله ﷺ في الدّنيا بإعلاء كلمته، وإظهار دينه، وفي الآخرة بإعلاء درجته، وإدخال من صدّقه جنّات تجري من تحتها الأنهار، والانتقام ممّن كذّبه، وإذاقته عذاب الحريق، لا يصرفه سبحانه عن ذلك صارف، ولا يعطفه عنه عاطف"[(1)].

بلاغةُ الطّباق بالجمعِ بينَ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في الآية:

الجمعُ بينَ الدُّنيا والآخِرة استغراق لزمن الحياة العاجلة والآجلة كليهما

جُمِعَ بينَ الدُّنيا والآخرةِ، في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لِما في الجمعِ بينَهما مِنْ براعةِ الطِّباقِ، وبيانِ أنَّ يأسَهم مِنَ النَّصرِ مُستغرِقٌ لزمنينِ هما الدُّنيا والآخرةُ، وهذا من جهلهم بالله وسوء ظنِّهم به جل في علاه.

غرضُ الأمرِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾:

بيان أنّ الأمر للتَّعجيزِ أو للإهانةِ مستخدم في إطار المثال المقترح

إنْ كانَ المرادُ بالسَّماءِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ السَّماءَ المعروفةَ كما هو الظّاهرُ؛ فالأمرُ في ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ للتَّعجيزِ، وتعليقُ الجوابِ على حصولِ شرطٍ لا يقعُ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ [الرّحمن: 33][(2)]؛ لأنَّهُ لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يربطَ حَبْلًا في السَّماءِ، كأنَّه يقولُ لهُم: حتَّى إنْ أردتُم شَنْقَ أنفُسِكم فلن تستطيعوا،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 121.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 219.

وسوفَ تَظَلّونَ هكذا بغَيْظِكم[1]، وإنْ كانَ المرادُ بالسَّماءِ سَقْفَ البيتِ فالأمرُ للإهانةِ[2].

نكتة استخدام الباءِ في قولِهِ: ﴿بِسَبَبٍ﴾:

الباءُ من حروف المعاني ذات الأهميّة في دلالة الجملة

الباءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ صِلَةٌ، فالمعنى: (فليَمْدُدْ سببًا إلى السَّماءِ)، أو للإلصاقِ على معنى: (فليتمسَّكْ بسببٍ إلى السَّماءِ)[3]، وعن ابن عطيّة: "وقال ابن زيد السَّماء هي المعروفة، وذهب إلى معنى آخر، كأنّه قيل لمن يظنّ أنّ اللّه تعالى لا ينصر محمّدًا ﷺ: (إن كنت تظنّ ذلك، فامدد بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ واقطعه، إن كنت تقدر على ذلك، فإن عجزت، فكذلك لا تقدر على قطع سبب محمّد ﷺ، إذ نصرته من هنالك، والوحي الّذي يأتيه)"[4].

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿بِسَبَبٍ﴾ في الآية الكريمة:

إيراد السّبب عامًّا يتضمّن كلّ جنس السّبب بلا تخصيص

التَّنكيرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ للإفرادِ، أي: فليَمْدُدْ بفردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ، المُسمَّى بالسَّببِ إلى السَّماءِ، إذ ليسَ القصدُ إلى سببٍ مُعيَّنٍ، دونَ باقي الأسبابِ.

دلالةُ حرفِ العَطْفِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾:

حرفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ عزَّ وتبارَكَ: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ[5]، وذلكَ أنَّهُ لمّا كانَ مَدُّهُ سببًا إلى السَّماءِ مُتعذِّرًا؛ عُبِّرَ عمّا يتفرَّعُ عليهِ بأداةِ التَّراخي[6].

معنى القَطْعِ في قولِهِ: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾:

القَطْعُ على ظاهرِهِ أو بمعنى الاختناقِ

قيلَ: المرادُ بالقَطْعِ في قولِهِ تبارَكَ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾: الاختناقُ؛

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9739.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 455.
(3) اطفيّش، تفسير اطفيّش: 6/ 297.
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 111.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 29.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 21.

لأنَّ المُختنِقَ يقطعُ نَفَسَهُ بحَبْسِ مَجاريه، تقولُ العربُ: قَطَعَ فلانٌ: إذا اختنقَ[1]، فذُكِر اللّازمُ، وهو القَطْعُ، وأُريدَ الملزومُ، وهو الاختناقُ، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا أو كنايةً[2].

وقيلَ: المرادُ بالقَطْعِ: معناهُ الظّاهرُ، وهو الفَصْلُ والإبانةُ، ومفعولُ ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ محذوفٌ؛ لدلالةِ المقامِ عليه، والتَّقديرُ: (ثمَّ لْيَقْطَعْهُ)، أي: ليقطعِ السَّبَبَ الَّذي مدَّهُ[3].

دلالة إعراب جملةِ: ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ﴾:

أهميّة النّصبِ على إسقاطِ الخافضِ في الجملة

الجملةُ الاستفهاميَّةُ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ: ﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ في محلِّ نصبٍ على إسقاطِ الخافضِ؛ لأنَّ النَّظرَ إذا عُلِّقَ بالاستفهام كان بمعنى الفكر، وإذا كانَ بمعنى الفِكْرِ تعدَّى بـ (في)[4]، والمعنى: (فليَنظُرْ في أنَّهُ هل يُذهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغيظُ).

غرضُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ﴾:

احتمالُ الاستفهامِ عدَّةَ مَعانٍ توسّع في الدّلالة مفيد

قيلَ: الاستفهامُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ بمعنى النَّفي، ولذا كانَتْ نونُ التَّوكيدِ في الفعلِ، وهي تجيءُ في الفعلِ المنفيِّ؛ تأكيدًا للنَّفي، وهذا تأكيدٌ فوقَ تأكيدِ النَّفي بمجيئِهِ بصيغةِ الاستفهام[5]، وقيلَ: الاستفهامُ للتَّقرير؛ ليُقِرّوا هم بأنفُسِهم أنَّ غَيْظَهم سيظلُّ كما هو، لا يَشْفيهِ شيءٌ، وأنَّهم سيموتونَ بغَيْظِهم[6].

وقيلَ: الاستفهامُ إنكاريٌّ[7].

بلاغةُ التَّعبيرِ عن المدِّ والقَطْعِ بالكَيْدِ:

الكلامُ على سبيلِ التَّشبيهِ أو التَّهكُّمِ من البيان الفصيح

سُمّي المَدُّ والقَطْعُ كَيْدًا، في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 147، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 454.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 29.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 219.
(4) السّمين، الدّر المصون: 8/ 242.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4957.
(6) الشّعّراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9741.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 221.

﴿يَغِيظُ﴾؛ لأنَّهُ وضعَهُ موضعَ الكَيْدِ، حيثُ لم يَقْدِرْ على غيرِهِ، فأُطلِقَ الكَيْدُ على فعلِهِ هذا تشبيهًا لهُ بهِ، أو على سبيلِ الاستهزاءِ؛ لأنَّهُ لم يَكِدْ بهِ إلّا نفسَهُ، والمرادُ: ليسَ في يدِهِ إلّا ما ليسَ بمُذهِبٍ لِما يَغيظُهُ[1].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿مَا يَغِيظُ﴾:

احتمالُ (ما) للموصوليَّةِ والمصدريَّةِ ثراء وتنوّع

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾، يحتملُ أنْ تكونَ بمعنى (الَّذي)، وفي ﴿يَغِيظُ﴾ عائدٌ عليها، ومعنى الكلامِ: هل يُذهِبَنَّ كَيْدُهُ الَّذي يَغيظُهُ، ويحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً، فلا عائدَ عليها، والمعنى: (هل يُذهِبَنَّ كَيْدُهُ غَيْظَهُ)[2].

سرُّ توالي الأوامرِ في قولِهِ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ﴾ ... ﴿لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ﴾:

المبالغةُ في التَّبكيتِ والتَّعجيزِ ملمح في الخطاب مبين

لما كانَ سياقُ الكلامِ لإظهارِ ضَعْفِ رأيِ مَنْ يظنُّ أنَّ اللّهَ لن ينصرَهُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ جيءَ بأوامرَ متتاليةٍ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ﴾؛ للمبالغةِ في التَّبكيتِ والتَّعجيزِ؛ فمهما فعل ومهما كاد من الكيد فأمر اللّه محقق، ونصر اللّه نبيه واقع، وهو سبحانه الَّذي يفعل ما يريد.

براعةُ الإيجازِ في الآيةِ الكريمةِ:

تعدُّدُ أوجهِ الإيجازِ بتعدُّدِ أوجهِ المعاني من بليغ الاستعمال

قيل: في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ اختصارٌ، والمعنى: إنَّ اللّهَ ناصرُ رسولِهِ في الدُّنيا والآخرةِ، فمَنْ كانَ يظنُّ أنَّ اللّهَ يفعلُ خلافَ ذلكَ، ويَغيظُهُ أنَّهُ ﷺ يَظْفَرُ بمطلوبِهِ؛ فليستفرِغْ مجهودَهُ في إزالةِ ما يَغيظُهُ، بأنْ يفعلَ ما يفعلُ مَنْ بَلَغَ منهُ الغَيْظُ كلَّ مَبْلَغٍ، حتَّى مدَّ حَبْلًا إلى سماءِ بيتِهِ فاختنقَ، فليُصوِّرْ في نفسِهِ أنَّهُ إنْ فعلَ ذلكَ، هل يُذهِبُ نصرَ اللّهِ الَّذي يَغيظُهُ؟[3].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 147، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 286.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 584، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 112.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 147.

وقيلَ: في الآيةِ إيجازٌ بديعٌ، شُبِّهَتْ حالةُ استبطانِ هذا الفريقِ الكفرَ، وإظهارِهم الإسلامَ على حَنَقٍ، أو حالةُ تردُّدِهم بينَ البقاءِ في المسلمينَ وبينَ الرُّجوعِ إلى الكفّارِ؛ بحالةِ المُغتاظِ ممّا صنعَ، فقيلَ لهُم: عليكم أنْ تفعلوا ما يفعلُهُ أمثالُكم مِنَ المُغتاظينَ، فامدُدوا حَبْلًا بأقصى ما يُمَدُّ إليهِ حَبْلٌ، وتعلَّقوا بهِ في أعلى مكانٍ، ثم اقطَعوهُ تَخِرّوا إلى الأرضِ، وذلكَ تهكُّمٌ بهم، في أنَّهم لا يجدونَ غِنىً في شيءٍ مِنْ أفعالِهم، وإنذارٌ باستمرارِ فِتْنتِهم في الدُّنيا معَ الخُسْرانِ في الآخِرة[1].

بلاغةُ التَّعريضِ في الآيةِ المحكمة:

تنبيهُ المؤمنينَ على عدمِ اليأسِ مِنْ نصرِ اللهِ المبين

في قولِه ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾، تعريضٌ بالتَّنبيهِ لخُلَّصِ المؤمنينَ ألّا ييْأسوا مِنْ نصرِ اللّهِ في الدُّنيا والآخِرةِ، أو في الآخِرةِ فقطْ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَدُّ والإمدادُ:

الإمــدادُ يُستعمَلُ غالبًا في المحبوبِ والمدُّ في المكروهِ

المَدُّ والإمدادُ يُستعمَلُ كلٌّ منهما في أنْ يُزادَ في الشَّيءِ ما هو مِنْ جنسِه، ويُفرَّقُ بينَهما: بأنَّ الإمدادَ يُستعمَلُ غالبًا في المحبوبِ، نحوُ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ [الطّور: 22]، والمَدُّ يُستعمَلُ غالبًا في المكروهِ، نحوُ: ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ۝٧٩﴾ [مريم: 79][3].

الكَيْدُ والمَكْرُ:

الكَيْدُ أقوى مِنَ المَكْرِ وكلاهما مستعمل في السّياق القرآنيّ

المَكْرُ مِثلُ الكَيْدِ في أنَّهُ لا يكونُ إلّا معَ تدبُّرٍ وفِكْرٍ، إلّا أنَّ الكَيْدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 219.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 17/ 220.
(3) الرّاغب، المفردات: (مدد).

أقوى مِنَ المَكْرِ؛ لأَنَّهُ يتعدَّى بنفسِهِ، والمَكْرَ يتعدَّى بحرفٍ، فيقالُ: كادَهُ يَكيدُهُ، ومَكَرَ بهِ، ولا يقالُ: مَكَرَهُ، والَّذي يتعدَّى بنفسِهِ أقوى، والمَكْرُ إلحاقُ الضَّرَرِ بالآخر دونَ إعلامٍ لهُ بهِ، والكَيْدُ إيقاعُ المكروهِ بالآخر سواءٌ عَلِمَ أم لا[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 508.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾

[الحج: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ حال القرآن بعدَ بيانِ موقفِ النّاسِ منه

لَمّا تَضمَّنَتِ الآياتُ السابقة تبيينَ أحوال الناس تجاهَ دعوة الإسلام والقرآن الكريم، بما لا يبقى بعدَه التباسٌ؛ عُقِّبت بالتنويه بتبيينها، بأنْ شبَّه ذلك التبيينَ بنفسه، كنايةً عن بلوغه الغايةَ في جنسه بحيث لا يُلحَقُ بأوضحَ منه، أي: مثل هذا الإنزال (أنْزَلْنا) القرآنَ آياتٍ بيِّنات[1]، فهو انتقالٌ في المناسبةِ من ذكر طرق الناس تجاهَ القرآن وآياته، إلى بيان حالِ القرآن نفسِه، وأنَّه طريقُ النَّجاةِ، وسبيلُ الفوز.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾: (بين) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو: بُعْدُ الشَّيْءِ وانْكِشافُهُ[2]، والبَيانُ: الكشفُ عن الشَّيء، وهو أعمُّ من النُّطق، لأنّ النطقَ مختصٌّ بالإنسان، ويُسمّى ما بُيّن به بيانًا[3]، والمراد بالآيات البيّنات: الواضحاتُ الدّلالة على مرادها حتى لا تحتاجَ إلى كشفٍ وبيانٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إذا بان المعنى توضَّحت مقاصده

تُشَبِّهُ الآيةُ نزولَ القرآن بأنَّه مثلُ ذلك الإنزال البليغِ الواضح، فقد أنزلناه آياتٍ بيّنات الدلالة على معانيها الحكيمة، وتوجيهاتها السَّديدة، وفي إقامتها الحُجَّة على ما تقرّرُه كالبعث ونحوه، وأنَّ اللّه تعالى يهدي مَن يُريد هدايتَه لسلامةِ فِطرته، وبُعْدِه عن العِناد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 221.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) الراغب، المفردات: (بين).

وأسبابِه إلى صراطِه المستقيم، فهو الهادي الَّذي ليس هناك مِن هادٍ سِواه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

الـــواو بـين الاسـتـئـنـافِ وعطف الغرضِ على الغرضِ

تحتمل (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أنْ تكون استئنافيّةً، والجملة بعدَها مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وتحتملُ أن تكون عاطفةً لهذه الجملة على الجمل الَّتي قبلَها، عطفَ الغرض على الغرض[2]، فإنَّ تعدُّدَ الأغراضِ ذات الغاية الواحدة يُقوّي الوصلَ ويُحسِّنُه؛ لتحقيق الترابط القائم بين تلك الأغراض والغايات، والوصلُ أرجحُ منَ الاستئناف.

دلالة (الكاف) وفائدتها:

تجليةُ المعنى أسلوبٌ قرآنيٌّ فريد

(الكاف) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه، وهو هنا قد شبَّه الشيءَ بنفسه، فالمشارُ إليه الإنزالُ المأخوذ من الفعل (أنزل)، أي: الإنزال للقرآن مثلُ الإنزال البيِّن أنزلناه، فالمُشبَّه به عينُ المشبَّه به، إشارةً إلى أنَّه لوضوحه لا يُبيِّن ما وضح من نفسِه[3].

نكتةُ تعيينِ المشار إليه باسم الإشارةِ للبعيد:

أوثرتِ الإشارة إلى المشار إليه وهو (الإنزال المبيَّن) باسم الإشارة للبعيدِ، إشعارًا ببُعْد المنزلة والعلوِّ والرِّفعة، كما قال سبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، كما يفيدُ التعظيمَ والتفخيم لعملية الإنزال؛ إذ من شأن البعيد العالي الرتبة أنْ يكون فَخْمًا محجوبًا.

بلاغةُ أسلوب التشبيه:

تشبيه الـشَّيءِ بنفسِه قـوَّةٌ في البـيـانِ وتأكيد للمعاني

جاء التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ بتشبيه الشَّيءِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 290، ومجموعة من العلماء، المنتخب في التفسير، ص: 490، ومجموعة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 338.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 139.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 221، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 17/ 98.

بنفسِه، كنايةً عن بلوغه الغايةَ في جنسه، بحيث لا يلحقُ بأوضح منه، أي: مثل هذا الإنزال - المبيَّن - أنزلنا القرآنَ آياتٍ بيِّنات[1]، وهذا التَّشبيهُ من عيون التَّشبيهات الَّتي سلكَها القرآن في الإيضاح عن معانيه، وفيه قوَّةُ الإبانة، وتوكيدُ المعاني، إذ لا يُشبَّه الشَّيءُ بنفسِه إلّا إذا كان في أعالي الوضوح، وشوامخ البيان، ومن المعلوم أنَّ تشبيه الشيء بنفسه محالٌ؛ لأنَّ أصل التشبيه أنْ يُشبَّه الشيءُ بمغايرٍ له بينهما مناسبةٌ؛ ليتوضَّحَ المشبَّه ويزدادَ رسوخًا في الذهن، لكنه قد يلجأ البليغُ إلى ذلك التشبيه بإحداث مغايرةٍ اعتبارية بين (المشبَّه والمشبَّه به)، فكأنَّ المتكلِّم يدَّعي أنهما متغايرانِ، فيوقعُ التشبيهَ للدلالة على أنَّه لا يمكنُ تشبيهُه بغيره في وجه الشبه وهو (البيان)؛ إذ لا يمكن أن يكونَ هنالك بيانٌ أقوى منهُ، فيترسّخ معنى الدعوى الضمنيَّة القائلة: إنَّه قد وصل مرحلةً من البيان والوضوح حتى لا يمكنَ أنْ يكون هناك أوضحُ منه ليُشبَّه به.

علَّة التَّعبير بصيغة (أنزلنا) دون (نزَّلنا):

دلالــةُ الإنــزال مُشعِرةٌ بوحدةِ البـيـان بخلاف التَّنزيل

آثر النَّظمُ في هذه الآية التعبيرَ بصيغة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، وهي صيغةٌ تدلُّ على نزول الشيء دفعةً واحدةً، دون (نزَّلنا) الدالة على نزولِ الشيء على دُفُعات ومراحلَ، لتوجيه الأنظار إلى دلالة الإنزال لا إلى دلالة تنزيل القرآن نجومًا؛ فالعبرةُ هنا كامنةٌ في كون الإنزال هو في أعلى درجاته وأرفع منازله، وآياتُهُ كلُّها على درجةٍ واحدةٍ من البيان والجلاء، وهو ما يُؤكِّده السّياق في وصف الآيات بالبيِّنات، ولو قال: (وكذلك نزَّلناه) لانزاحت بعضُ الأفهام الواهمة إلى أنَّ الآياتِ متفاوتةٌ في معانيها ودلالاتها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 221.

فائدةُ إسناد فعل الإنزال إلى ضمير العظمةِ:

أُسنِد فعل الإنزال إلى ضمير العظمةِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ ليدلَّ على عظمة المُنزِّل سبحانه، كما يدلُّ بالالتزام على عظمة المنزَّل وهو القرآن الكريم.

تعيينُ مرجع الضَّميرِ:

لا يرجعُ الضَّمير إلى معهودٍ ذهنيٍّ إلّا في أمرٍ بيِّن الشَّأن

الضميرُ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يعودُ إلى (القرآن الكريم)، فهو المعهود هنا، ولا معهود سواه، ولا يحتاجُ إلى ذكرٍ سابق؛ لأنَّ الضمير هنا مرجعُهُ مُتعيِّنٌ في الأذهانِ، وما دام مرجعُهُ مُتعيِّنًا، فلا يحتاج لذكرٍ سابق لفظًا[1]، وهذا لا يكون إلّا في الأمور ذات الشَّأن، وقد وقع ذلك كثيرًا في القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر: 1]، فيحصل للمُنزَلِ ادّعاءٌ ضمنيٌّ بأنّه عظيمُ الشأن رفيعُ القدر، لا يحتاج إلى مَرجِعٍ ليدلَّ عليه، بل قد وصل به الوضوحُ والمعرفة والجلاءُ لدرجةٍ يلتفتُ الذهنُ إليه، إذ لا يتبادرُ إليه غيرُهُ.

نكتةُ حذفِ مُتعلّق فعلِ الإنزال:

توجيه الأذهانِ إلى النّازلِ لا المُنزَلِ عليه

حُذِف متعلِّقُ فعلِ الإنزال في قوله تعالى: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ للعِلْم به، حيث لم يقل: (أنزلناه إليك أو عليك) أي: يا محمد؛ إذ ليس هنالك من احتمالٍ آخرَ يُعارض تعيينَه، فكون المراد بالمُنزَل عليه القرآنُ رسولَنا محمدًا ﷺ أمرٌ محسومٌ، وأيضًا فإنَّه لم يزعم أحدٌ من الناس على مَرِّ التاريخ بأنَّ القرآن قد نزل عليه هو دونه ﷺ، ولذا لم تكن هنالك حاجةٌ إلى ذكره وتعيينه؛ إذ إنَّ حذفَ المعلوم المتعيَّن في الكلام البليغ أولى من ذكره - إلّا عند وجودِ نكتةٍ لذلك - وإلّا عُدَّ من فضل الكلام وتطويله، فكيف به إذا كان في البليغ المعجز؟ ونكتةُ الحذف لفتُ الأذهان إلى النّازل لا المنزَلِ عليه؛ إذ السّياقُ في بيان الآياتِ البيِّنات المنزلة دون المنزل عليه.

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9742.

معنى الحالِ ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ ودلالتها:

آياتُ القرآن جامعةٌ بين قطعيَّةِ الاحتجاج وظهورها ووضوحها

قولُه تعالى: ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ حالٌ منصوبةٌ من ضمير المفعول في: ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، تُبيِّنُ صاحبَها وتُقيِّدُ عاملَها، والآية هي الدليلُ والعلامةُ المُميِّزةُ للشيء، والمراد: أنزلناها حالَ كونها دلائلَ قاطعاتٍ في حُجَّتها، واضحاتٍ وظاهراتٍ على ما تقرِّرُه وتسوقُهُ من عقائدَ وأحكامٍ وسلوكيات، وأنَّ الإنزال كان مقيَّدًا بهذا الوصف البرهانيِّ الجليِّ، فلم تكن هنالك آيةٌ تشذُّ عند إنزالها عنه، ومَن كانت هذه حالُهُ فحريٌّ الإيمانُ به، والإذعانُ له، والخضوعُ لحكمه.

بلاغةُ وصف الآيات بالبيِّنات:

القرآن قطعي الحجة واضح الدلالة

وُصفتِ الآيات بـ(البيِّنات)؛ للدلالة على كونها أيضًا واضحاتٍ ظاهراتٍ في حججها القاطعة، فجمعت (الآيات) بين قطعيَّة الاحتجاج، وظهوره ووضوحه، ويفيدُ جمعُ القلَّة في ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أنها متميِّزةٌ عما عداها من الآيات البيِّنات، إذ تفيد القلة التعيُّن والتميُّزَ بحيث يكون الشيءُ القليل واضحًا للناظرين، كما أفاد توصيفُ الآيات بصيغة (فعيل) - وهي صفة مشبهة - الدلالة على أنَّ البيانَ صفةٌ ملازمةٌ لا تنفكُّ عن الموصوف، ويحصلُ من مجموع البراهين القطعية، مع الوضوح والظهور لها، تنويهٌ عالٍ بقيمة تلك الآيات المنزلة، والموقفِ الَّذي ينبغي أنْ يَسلكَهُ المنصفونَ من الباحثينَ عن الحقيقة إزاءَها.

نوع الواو ومعناها:

ارتباط الإنزالِ بغايته وهي هداية الخلقِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾ محتملةٌ للاستئناف والعطف، أمّا على إرادة الاستئناف؛ فهو على جعل الجملةِ تعليليَّةً بتقدير اللام الَّتي للتَّعليل والغرض[1] أي: لأنَّ: ﴿ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾؛ فكأنَّها واقعةٌ في جوابِ سؤال مقدَّر مفادُه: لو كانتِ الآيات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 222، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 286.

والبراهين ظاهرةً وواضحةً فعلامَ يقع الاهتداء والضَّلال عقيبَ سماعِها، فأفاد الاستئنافُ تعليل ذلك بقرنِ الهداية بإرادة اللّه تعالى ومشيئته، فليستِ الآياتُ الظاهرةُ إلا سببًا ناقصًا للهداية، والسببُ الحقيقي هو إرادةُ اللّه تعالى إيصالَ مَن يشاء من عباده إلى الطريق المستقيم؛ لحكمتِهِ المحيطةِ بخلقِهِ وطبائعِهم ونفوسهم صفاءً وخُبثًا وخيرًا وشرًّا.

من تشوّف الهداية بصدقٍ نالَها

وفي حالِ كانتِ (الواو) عاطفةً، فهي تعطف ما بعدها على ضمير النصب في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أي: كذلك أنزلنا الآياتِ، وأنزلنا أنَّ اللّه تعالى يهدي إليه مَن يريدُ له الهداية[1]، أي: كما هو واضح بَيِّن أنَّ اللّه تعالى أنزلَ هذا الكتابَ آياتٍ بيّناتٍ، فكذلك واضح وبَيِّنٌ أنَّ اللّه تعالى يهدي إليه مَن يريد، وفي جعلها عاطفةً رفعٌ لشأنِ الهداية، وربطٌ للإنزال بغايته، أي: هداية النّاس، وتوجيهٌ ربانيٌّ لَمَن يسمعُ تلك الآياتِ أنْ يسأل اللّه بقلبٍ صاف وروح متشوِّفة الهدايةَ والوصولَ إلى الحقيقة، فالآياتُ البيّنات كما هي وسيلةٌ للنور والهداية، قد تكون لَمَن يستكبرُ عليها أوْ يتهكّم بها طريقًا للإضلال، وسببًا للغواية والانحراف.

بلاغةُ الالتفات من التكلُّم إلى الغَيبة:

الانتقال من تشريف النّازلِ إلى حضِّ العباد على الاهتداء به

التفتَ الكلام من التكلُّم ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ إلى الغَيبة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ لتربية المهابة[2] من اللّه تعالى في قلوب المخاطَبين، ونكتةُ الالتفات في كون الإنزال جاءَ على طريقةِ التَّكلُّم لتشريف المُنزَل، وكون الهداية على طريقة الغيبةِ؛ لحضِّ العبادِ عليها، واليقظةِ لمكانتِها، فإنَّ هداية اللّه سبحانه وتعالى بمكانٍ يسعى له مَن يريدُها، هذا بجانب الغرض العام الَّذي يكون لأجله الالتفات، وهو تطريةُ الكلام وتنشيطُ ذهنِ السّامع.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4957.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30.

نكتةُ التعبير بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾:

تربيةُ المهابة في قلوب الغافلين داعيةُ الاستجابة

التعبير باسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾ يكون أثيرًا في مواطن التأليه والعبودية، ويكون أثيرًا أيضًا عند قصد غرض تربيةِ المهابة والهلَع في قلوب الغافلين، والواردُ في الآيةِ هو من قبيلِ النَّوع الثّاني، وهو تربية المهابة، وهو أيضًا سرُّ الالتفات من التَّكلُّم إلى الغيبة كما مرَّ بيانه، ولمّا كان لفظ الجلالة دالًّا على جميع أوصافِ الذات العليَّة، فيكون بمنزلة العلّة لتعليق حصول الهداية به، واختصاصها بذاته الجليلة.

بلاغةُ تقديم المسند إليه:

الله تعالى وحدَه منزلُ الآيات وهو وحدَه الهادي إلى البيِّنات

قُدِّم المسندُ إليه - وهو اسم الجلالة - في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾ على المسند وهو الفعل المضارع بعده، وهو خبرٌ فعلي؛ لإفادة الحصر الحقيقيّ، والاهتمام بالمسند إليه[1]، أي: أنَّ اللّه تعالى وحدَه دون غيرِه مَن يهدي مَن يُريد هدايته من العبادِ، فكما أنَّه وحدَه الَّذي أنزل الآيات البيِّنات؛ فهو كذلك وحده الهادي إلى طريق الحقِّ والبيِّنات، وبهذا الحصر عُلِم أنَّ كلَّ ما سوى اللّه تعالى هادٍ على معنى (إراءة الطريق) فحسب، إلّا المولى تعالى فهو الموصِلُ إلى الصواب والمطلوبِ بالفعل.

نكتة مجيء المسند فعلًا مضارعًا:

عـنـايـة الـلـه تعالى بعبادِه لا تفترّ ورعايته لا تتوقّف

جاء المسند الفعليُّ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد هداياته سبحانه وتكرُّرها باعتبار المهديّينَ، كما أنَّه يشملُ أيضًا تثبيت[2] مَن شاءَ اللّه لهم الاستمرارَ في الهداية؛ لأنَّهم مشمولونَ بفضل اللّه تعالى عليهم وخاضعونَ لرعايته وهدايته المستمرَّة لهم، وتظهرُ نكتة التعبير بـ(المضارع) في

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 67، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 123.

بيان رعاية اللّه لعبادِه، وأنَّه يُيسِّر لهم سبلًا من الهداية، وطرقًا في بلوغ النَّجاة ما داموا أحياءً.

فائدةُ مجيءِ المفعولِ اسمًا موصولًا:

الهدايةُ مرهونةٌ بإرادة الله تعالى والعبادُ معلَّقون بها

آثر النَّظمُ استعمالَ الاسم الموصول مفعولًا في قوله تعالى: ﴿مَن يُرِيدُ﴾، دون أن يقول (يهدي الناس) ونحوه؛ للتَّنبيه على ما تدلُّ عليه صلةُ الموصول، وهو أنَّ الهداية مرهونةٌ بإرادة اللّه ومشيئته وتوفيقه، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213] وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦﴾ [القصص: 56]، فتحقَّقت بذلك فوائد؛ منها: بيان أنَّ الهداية متوقِّفةٌ على إرادة المولى سبحانه، والعموم، وتعليق العباد باللّه تعالى إنابةً والتجاءً، كما أفاد التعبيرُ بالموصول التنويهَ بشأن المهتدين والتفخيم لأمرهم، فلم يذكروا إلّا بلفظ مبهم يتوضّح بصلته.

دلالةُ التعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾:

جاءت صلة الموصولِ بصيغةِ المضارع ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدّلالة على استمرار الإرادة وتكرّرها، باعتبار مَن أراد اللّه لهم الهداية، ممَّن لا يحصيهم النّاس عددًا لكثرتهم، وتفرُّقِ أزمانهم وأماكنهم، والإرادة صفة للّه تعالى لا تعدُّد فيها ولا تكثُّر، لكنها تتكثر باعتبار متعلَّقاتها المتجددة بتجدد الراغبين فيها والمقبلين عليها، وأن اللّه تعالى لا يحرمُ الرّاجينَ هدايتَه، ولا يمنعُ السّائرين الوصولَ إليه.

نكتةُ عدم ذكر المفعول:

لفتُ الأنظارِ إلى الإرادةِ فهيَ المقصودُ المبتغى

حُذِف مفعول ﴿يُرِيدُ﴾ مع بقاء الفعل متعدّيا؛ للعلّم به بقرينة ﴿يَهۡدِي﴾ أي: يريدُ اللّه هدايته؛ والغرضُ من حذفه حينئذٍ التنصيص على الإرادة، وعدمُ تعلُّقِ الغرض بذكر المفعول وهو الهداية، ولإفادة العموم فيشمل الهداية وما يوصِلُ إليها من التوفيق

والتيسير والتذليل للآيات، أوْ تُرك المفعول من أوّلِ الأمرِ لتنزيلِ الفعلِ المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازم، أي يهدي مَن توجدُ له وتتحقّقُ فيه الإرادة، لبيان أنَّه لا هداية إلا بإرادة اللّه تعالى، مع الإشارة إلى أنَّ آيات اللّه مع وضوحها وبيانها، لا يهتدي بها إلّا مَن أراد اللّه له الهداية، وفتحَ بصرَه وقلبَه إليها[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيِّن والواضح:

البيّن أوسعُ استعمالًا من الواضح ومستلزمٌ له

يدلُّ كلٌّ من لفظي (البيّن) و(الواضح) على: الظّهور والبروز، وإنْ كان البيان أعمَّ ويلزم منه الوضوحُ؛ لأنَّه يشملُ ما كان حسًّا وما كان معنًى، وما كان لغةً وما كان اصطلاحًا، فالبيّنُ يقابلُ المجملَ في اصطلاح الأصوليين، أمّا الواضح فأكثرُ استعماله في وصف الحسيّات، فتقول: طريقٌ واضح، وإنِ استُعمل أحيانًا في المعاني، كما تقول: نهج واضح، فكلمة (وضح) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى ظُهور الشَّيْءِ وبُروزِه، ووَضَّحَ الشَّيْءَ: أبانَه[2].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1002.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضح).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ [الحج: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من اختصاصِه هدايةً إلى اختصاصه فصلًا وحكمًا

لمّا خُتِمَتِ الآية السابقة ببيان إرادة هداية اللّه تعالى لمن يريد من عبادِه، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾، ناسب ذكر أصنافٍ من النّاس ممَّن بلغتهم هداية اللّه تعالى، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾؛ لتبيين مَن أراد اللّه هدايتَهم فكانوا من المهتدين، وتبيينِ من لم يكونوا كذلك.

وأيضًا: فإنَّه لَمّا اشتملتِ الآيات السّابقة على بيان أحوال المتردّدين في قبول الإسلام؛ كان ذلك مثارًا لأن يُتَساءَلَ عن أحوال الفرق بعضهم مع بعض في مختلف الأديان، وأنْ يُسأل عن الدّين الحقِّ؛ لأنَّ كلَّ أمةٍ تدَّعي أنَّها على الحقِّ وغيرها على الباطل وتجادلُ في ذلك، فبيَّنت هذه الآية أنَّ الفصل بين أهل الأديان فيما اختصموا فيه يكونُ يومَ القيامة، إذ لم تفدهم الحُجَجُ في الدنيا(1)، فهو تعالى المتولّي هدايةَ مَن يريدُ وإضلال من يشاء، والمُتولّي الفصلَ بين المهتدين وغيرهم من أهل الأديان والفِرَق، فيكون ما تقدَّم بمثابة الدَّليل على اختصاصِه بالفصل والقضاء فيما بينهم؛ لأنه المتولّي للهداية والإضلال جميعًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَادُواْ﴾: أصل (هود) يَدُلُّ عَلَى إِرْوادٍ وسُكونٍ، والتَّهْويدُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 222.

المَشْيُ الرّوَيْدُ، ويقولونَ: هَوَّدَ، إذا نامَ، فَأمّا اليَهودُ فَمِنْ هادَ يَهودُ، إذا تابَ هَوْدًا، وسُمّوا بِهِ؛ لِأنَّهُمْ تابوا عَنْ عِبادَةِ العِجْلِ، وفي القُرْآنِ: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ [الأعراف: 156][1]، وعلى هذا قال بعضُهم: كلمة (يَهود) مأخوذةٌ في الأصل من قولهم: ﴿هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾، وكان اسمَ مدح، ثم صارَ بعدَ نسخ شريعتهم لازمًا لهم، وإن لم يكن فيه معنى المدح[2].

2) ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾: أصل (صبأ) طلع، يقال: صبَأْتُ على القوم أصْبَأُ صَبْأً وصُبوءًا، إذا طلَعْتُ عليهم، وصبأ نابُ البعير صُبوءًا: طَلَعَ حَدُّهُ، وصبَأَتْ ثَنيةُ الغلام: طَلَعَتْ[3] ومنه الصابئ، أي: كأنَّه مَن طلعَ مِن دينه وغيره، وقيل: بل هو من قولهم: صَبا يَصْبو صَبْوًا وصَبْوَةً: إذا نزعَ واشتاق، وفعلَ فِعْلَ الصِّبْيانِ، قال تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33][4]، وقد اختُلف في المراد بالصّابئة، فقيل: هم طائفةٌ من المجوس واليهود، لا تؤكل ذبائحُهم ولا تُنكَحُ نساؤهم، وقيل: هم قومٌ يعبدون الملائكةَ ويصلّون إلى الشمس كلَّ يوم خمسَ صلوات، وقيل: هم قوم يعبدونَ الكواكب[5]، وذهب بعضُ المحقّقين إلى أنَّهم قومٌ من أهل الكتابِ، عُرِفوا بالصّابئة المندائيَّة أتباع يحيى عليه السلام.

3) ﴿وَٱلْمَجُوسَ﴾: (مجس) كَلِمَةٌ لم يُعرف لَها قياسٌ، وهي فارِسية، يُقالُ: تَمَجَّسَ الرَّجُلُ، إذا صارَ مِنْهُمْ[6]، وهذه الكلمةُ علَمٌ على طائفةٍ فلا يُقال فيها: إنَّها مُعرَّبة، وقد ورد في الحديث: "فَأَبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أَوْ يُنَصِّرانِهِ، أَوْ يُمَجِّسانِهِ"[7]، قال أبو عليّ النحويّ: المجوس واليهود إنّما عُرِّفا على حدِّ يهوديٍّ ويهود، ومجوسيٍّ ومجوس، فجمع على قياس شعيرة وشعير، ثم عُرِّف الجمع بالألف واللام، ولولا ذلك لم يجزْ دخولُ الألف واللام عليهما، لأنَّهما معرِفتان، قال: وهما مؤنَّثانِ فجَرَتا في كلامهم مَجرى القبيلتين[8]، والمجوسُ: قومٌ يعبدونَ النار، ويقولون: إنَّ للعالَم أصلين النّورَ والظُّلمةَ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هود).
(2) الراغب، المفردات: (هود).
(3) الجوهري، الصحاح: (صبا).
(4) الراغب، المفردات: (صبا).
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 2/ 536.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مجس).
(7) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الجنائز، باب: إذا أسلم الصبي فمات: 2/ 94.
(8) الجوهري، الصحاح: (مجس).
(9) صديق خان، فتح البيان: 9/ 25.

4) ﴿يَفۡصِلُ﴾: (فصل) كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَمْيِيزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِهِ عَنْهُ، يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا، والفَيْصَلُ: الحاكِمُ[1]، والفَصْلُ: إبانةُ أحدِ الشّيئين مِنَ الآخَر: حتى يكونَ بينهما فرجةٌ، ومنه قيل: المَفاصِلُ، الواحدُ مَفْصِلٌ، وفَصَلْتُ الشّاةَ: قطعتُ مفاصِلَها، وفَصَلَ القومُ عن مكان كذا، وانْفَصَلوا: فارقوه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ [يوسف: 94]، ويستعمل ذلك في الأقوال والأفعال، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَـٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدخان: 40]، ويَفْصِلُ بين الناس بالحُكم بينهم، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحكم الفصل بين المهتدين والضالّين هو لله تعالى وحدَه يومَ القيامة

يُخبر اللّه تعالى أنَّ الَّذين آمنوا باللّه وبرسله جميعًا، واليهودَ المنتسبين إلى موسى عليه السلام، وعُبّادَ النجوم والملائكة، والنَّصارى المنتسبينَ إلى عيسى عليه السلام، والمجوسَ عُبّادَ النّار، والمشركينَ عبّادَ الأوثان، إنَّ هؤلاء جميعًا سيفصل اللّه بينهم يوم القيامة، ويقضي بينهم بحكمه الفصل العدْل، فيظهر المُحِقّ من المُبطِل منهم؛ لأنَّه مطَّلعٌ على كلِّ شيء، عالمٌ بأعمال خلقه، وسيُجازيهم على أعمالِهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة الفصل في الآية:

التفصيل بعد الإجمالِ شفاءُ العليل وإرواء الغليل

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ محمولٌ على كونه جوابًا لسؤالٍ[4] مقدَّر عن مصير المهتدينَ والضالّين، ومَن يتولَّى الفصلَ بينهم والقضاءَ فيهم، على طريقة الاستئناف البياني،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).
(2) الراغب، المفردات: (فصل).
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 490.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 23.

فيكونُ بين الآية وما قبلَها (شبهُ كمال اتصال)، كما أنَّ العطف لو وقعَ أَوْهَمَ أنَّه معطوفٌ على ما قبله فيكون من جملة ما تقدَّمه وذلك ليس بمراد؛ فالآيةُ جاءت جوابًا عن "حال الفريقين: المهديِّ والضّالِّ، حيثُ أجاب عن ذلك ببيانِ جميعِ الفِرَقِ بما فيها من مؤمنٍ وضالٍّ؛ لأنَّ لهذه السورة أتمَّ نظرٍ إلى يوم الجمع، الَّذي هو مقصودُ السورة الَّتي قبلَها، وهي سورة الأنبياء، فقصد إلى استيعاب الفرق تصويرًا لذلك اليوم بأليق صورة"[1].

غرضُ التَّوكيد:

زيادةُ الاهتمام بمضمون الخطابِ

سيقَ الإخبار عن فصلِ اللّه ﷻ بينَ جميع الفرق المهديِّ منهم والضالِّ مؤكّدًا بحرف ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لزيادة الاهتمام بالحكم وتقريره وتأكيده في أذهان المخاطبين، وكذلك تأكيده في ضمائر المتشكّكين منه، وفي هذا التوكيد للحكم إزالةٌ للشكِّ الكامنِ في قلوب المتردّدين عمَّن يتولَّى الفصل والقضاء بين الناس أجمعين، ورسالةُ تطمينٍ للمؤمنين بعدم إشغالِ النفس بحساب الضالّين؛ لأنَّ اللّه هو المتولّي للفصلِ في الخصوماتِ يومَ الدين، وهو العدل القويُّ المتين.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه:

التشويق لسماع الخبر يجلب الانتباه والإصغاء

قُدِّم المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ اهتمامًا به، وتشويقًا لمعرفة الخبرِ، لا سيَّما أنَّ الجملة أتَتِ استئنافًا بيانيًّا للجواب عن سؤالٍ مقدّر، ممّا يزيدُ التَّشويقَ لتتمَّة الخبر.

بلاغةُ مجيءِ المسندِ إليه اسمًا موصولًا:

يُلْحَظ أنَّ المسند إليه فيما يخصُّ المؤمنين واليهود، قد سيق بواسطة الاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ تنويهًا بشأن المؤمنين، وبيانًا لسبب مدحِهم، الَّذي

(1) البقاعي نظم الدرر: 13/ 23.

يومئ إليه تصديرُ ذكرهم وتقديمُه على مَن سواهم، فإيمانُهم الخالص منافٍ لكلِّ مظاهر الشِّرك وأسبابِه، كما يحملُ التعبيرُ بالموصول إبهامًا وعمومًا، فيشملَ جميعَ المؤمنين والعائدينَ إلى اللّه تعالى، فتكون قرينةً على أنَّ (اللام) الواقعة في ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ﴾ للاستغراق الكلي.

إبـــرازُ الـوصـف الَّـذي تضمَّنته جـمـلـةُ الـصِّلـة لـكـونـه مـنـاطَ المدح أوِ الذمِّ

وفي التعبير عن اليهود التائبين بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ مدحٌ لهم بالتوبة، فمعنى ﴿هَادُواْ﴾ أي: تابوا وأنابوا، ففيه مدحٌ لهم بهذا الاعتبار؛ ليكون ذلك تأنيسًا لوحشة اليهود من القوارع المذكورة في بعض الآيات الذّامَّة لعُصاتهم، وإنصافًا للصّالحين منهم، وتبشيرًا لصالحي الأمم من اليهود وغيرهم، الَّذين مضوا مثل الَّذين كانوا قبل عيسى عليه السلام وامتثلوا لأنبيائهم بالطّاعة والعملِ الصّالح[1].

توجيه التَّعبيرِ بلفظِ: ﴿هَادُواْ﴾:

الـذيـن هـادوا يدخل فيهم كلُّ من تهوَّد وإنْ لم يـكـن مـن سِـبـط يهوذا

عبَّر النَّظم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ دون (اليهود)؛ لأنَّ اليهود لمّا تفرَّقوا في البلدان في عهد الرومان التحقَ بهم غيرُهم من فلول بقيَّة الأسباط، ممَّن لم يكونوا من سبط (يهوذا) - الَّذي قيل إنَّهم سُمّوا يهودًا لنسبتهم إليه، فلعلَّ هذا وجهُ اختيار لفظ ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ في الآية دون اليهود؛ وللإشارة إلى أنَّهم الَّذين انتسبوا إلى اليهود ولو لم يكونوا من سبط يهوذا[2]، وهذا توجيهٌ تاريخيٌّ يُذكر في هذا المقام لا لإثباته، بل لمعرفته، وإلّا فإثباته يحتاج إلى تحرير وتحقيق لغوي وتاريخي، ونلمح في التعبير عنهم بالموصول وصلته معنى تسميتهم باليهود، فلم يكن ذلك الاسمُ لأمرٍ نسبيٍّ، فيختصَّ بشعبٍ ونسلٍ معيَّن، وإنما هو وصفٌ لكلِّ مَن تاب ورجع إلى اللّه تعالى مُؤمنًا بموسى عليه السلام، وفي هذا نقضٌ لفكرة (الشعب المختار) القائمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 531.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 532، 533.

على النَّسَبِ والنَّسْل الواحد، وفي جعل الصِّلة فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿هَادُواْ﴾ ما يدلُّ على تحقُّق الإيمان باللّٰه ووقوعِ الرجوع إليه بشكلٍ لا جدال فيه.

بلاغةُ العدولِ عن الاسم الموصول إلى الاسم الظاهر:

دفعُ الالتباسِ قانونٌ قرآنيٌّ في إفهام الخطابِ للنّاس

عدل النَّظم عن الاسم الموصول، كما جاء في حقِّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ إلى الاسم الظّاهر في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ﴾؛ لأنَّه لا يعبَّر بالاسم الموصول إلّا مقرونًا بصلته، والتي يجب أن تكونَ معهودةً عند المخاطب ومعروفةً بحيث يفهمُ المقصودُ بها ويُعرَفُ، ولتدلّ على ذات فعلٍ يصدق على حقيقة المقصود، فلا يُقال في (الصّابئين): الَّذين صبَؤوا، ولا في (النّصارى): الَّذين نصروا، ولا في (المجوس): الَّذين مجسوا، لأنّه يؤدّي إلى اللَّبس، ولربَّما انصرفَ الذّهنُ إلى ملاحظة معنًى اشتقاقيٍّ فيها، إذ تسمية فريق (النصارى) بهذا الاسم لم يكن قائمًا على ملاحظة النُّصرة لعيسى عليه السلام، بل مجرّدُ نسبةٍ لاتِّباعهم عيسى عليه السلام، وكذلك تسمية فريق (الصابئين) لم يكن لمعنى اشتقاقيّ خاصٍّ بهم، بل لأنَّ الناسَ أطلقوا على هؤلاءِ العبّاد للكواكب والنجوم هذا اللّقبَ الموحي بتركِ عبادة اللّٰه الواحدِ الأحد، ولو أطلقَ عليهم (الذين صبَؤوا) لكان شاملًا لجميع الفِرَق والنِّحَل؛ إذ ما من فرقةٍ إلا وترى الفرقةَ الأُخرى قد صبأتْ وخرجتْ عن مُعتقدها، وكذلك تسميةُ فريق (المجوس) لم يكن من أجلِ دلالةٍ اشتقاقيّةٍ، بخلافِ (المؤمنين واليهود) الَّذي سُمّوا بهذا الاسمِ للدّلالة الاشتقاقيَّة الملحوظةِ في الاسمين، وهو وجودُ الإيمان والرّجوع، ولذلك أيضًا عدلَ عن (المشركينَ) إلى ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ لبيان أنَّ تسميتَهم بهذا الاسمِ ملحوظٌ فيه معنًى اشتقاقيٌّ كان سببًا لحظوتهم بهذه التَّسمية.

علَّةُ تقديمِ الصابئين على النصارى:

التَّـقـديـم إمّـا لمراعاة الواقع أو توجيه المخاطَب

قدَّم النَّظمُ الكريمُ ذكرَ ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ على ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ مع شهرة النَّصارى ومعرفتهم لدى جميع المخاطبين، بخلاف (الصابئين)؛ فإنَّ الَّذين يعرفونهم أقلُّ عند نزول الآيات، وذلك إمّا للفتِ الأنظار إليهم، وتوجيهِ العناية لهم، وإمّا كما قيل باعتبار تقدُّمهم عن النصارى في الزمان والوجود[1]، فالتقدُّم إمّا للشُّهرة وإمّا للسَّبق الزَّماني وإما لغيرهما، والملحوظ هنا الثاني.

نكتةُ التَّعبير عن المشركين بالاسم الموصول:

إبـراز الـذَّمِّ لمَنْ أشـرك وتحقيرُ مَن كذَّب

يُلحظ كذلك أنَّه عند التَّعبير عن (المشركين) آثر النَّظم استعمالَ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مجددًا؛ وذلك لذمِّهم وتحقيرهم بسبب شركهم، وللتَّنصيص على علَّة هذا الذم وهو سوءُ معتقدهم حين أشركوا به سبحانه، وفائدة هذا التنوع في التعبير عن الفِرَق المختلفة بالموصول وصلته تارةً وبالاسم الظاهر أخرى، والرجوع مجددًا إلى الموصول بيانُ أنَّ مَن عبَّر عنهم بطريق الموصولية ليس وصفًا خاصًّا بفرقة من الفرق، إذِ أوصاف (المؤمنين واليهود والمشركين) قد تطلقُ ويرادُ بها كلُّ مَن آمن أو رجعَ أوْ أشرك، وهذه الأوصاف مبثوثةٌ في الفرق كلِّها، في حين أنَّ المراد بيانُ أسماء تلك الفرق، فتمَّ العدول عن الظاهر فيها إلى الموصول للدلالة على أنَّها تسمياتٌ مختصّةٌ بفرقةٍ معينة دون غيرها، في حين لا يتحقّقُ هذا الفهم مع الصابئين والنصارى والمجوس، ولذا عبَّر عنهم بألقابهم المختصة؛ لأنها معانٍ محصورةٌ فيهم لا تنبثُّ ولا تسري في غيرهم.

فائدة ذكر مادة الشرك دون الكفر:

تعيينُ المقصود بالخطاب ودفعُ ما قد يلتبس

يُلاحظ أنَّ الآية ذكرت صفة الشِّرك دون الكفر، فلم يقل: (والذين كفروا)، والكفر أعمُّ من الشِّرك، فكلُّ مشركٍ كافرٌ دون

---

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 75.

العكس، فيُسأل عن سرِّ ذكر الشرك دون الكفر في هذا السّياق؟ والذي يبدو أنَّ اختيار لفظ (الشِّرك) هنا معتبرٌ فيه المخاطبون أوَّلًا، وهم قومُه ﷺ، فهم قومٌ مشركون كانوا يعبدون الأصنام تقرُّبًا وزلفى إلى اللّه تعالى، وهذا اعتبارٌ مقاميٌّ خاصّ، وهو المقصود بقرينة ذكر الفِرَق الأخرى؛ فلمّا كان السياق قد ذكر طائفةً من أصنافِ الكفّار والمشركين ناسبَ أنْ يذكر العرب بما اشتُهروا به من الشرك الاعتقادي والعباديّ، وإلّا لظُنَّ أنَّ المقصودَ هم عمومُ الكفّار، فيكون من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، وهو غير مراد.

بلاغةُ التَّرتيبِ في تعداد أهل الملل:

التّرتيبُ ملحوظٌ فيه اعتباراتٌ زمانيّة ومعنويّة

جاء ترتيبُ الملل والفرق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ لغرض بلاغيّ مقصود، فقدِّم ذكر (المؤمنين) المقصود بهم ملّةُ الإسلام المتابعون للنبيِّ ﷺ لشرفِهم ومكانتهم، فهم أهل الإيمان الحقِّ، فحُقَّ لهم أن يُقدَّموا على مَن سواهم، ثمَّ ثنَّى بذكر (اليهود)، وذلك بالنّظر إلى أصل الاعتقاد في اللّه[1]، وأمّا تقديم ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ على ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ فلسبقهم الزَّماني عليهم، وذكرُ (المجوس) كالتَّتميم لأشهرِ الفرق المعروفة لدى العرب، ثمَّ ذكرَ (المشركين) باعتبارِهم المخاطَبين أصالةً، فيكونُ هناك مراعاةٌ لأكثرَ من مناسبةٍ بلاغيَّة اقتضتِ التقديم والتأخير.

توجيه المتشابهِ اللَّفظيِّ في التَّقديم بين النَّصارى والصّابئين:

تقديمُ إحدى الفرقتين على الأخرى لاعتبارات متعدِّدة

ذُكِر (الصّابئون والنّصارى) ضمن بقيَّة الفرق المذكورة في ثلاثة مواضعَ في القرآن، وهي ما جاء في سورة البقرة، في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: 62]، وفي المائدة في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: 69]، وفي سورة الحج ﴿إِنَّ

(1) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 101.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾؛ فقدَّم في آية البقرة (النّصارى) على (الصّابئين)؛ لِأنَّ النَّصارَى مقدَّمون على الصّابئين في الرُّتْبَة؛ لأنَّهم أهلُ كتاب، وفي آية الحج قدَّم (الصّابئين) على (النَّصارى) باعتبار الزمان، فالصّابئون مقدَّمون على النَّصارَى في الزَّمان؛ لأنَّهم كانوا قبلَهم، وأما في آية المائدة فقد راعى المعنيين جميعًا، فقدم ذكر الصابئين في اللَّفْظ وأخَّرهم في التَّقْدير[1].

سرُّ تصدير جملة الابتداء وجملة الخبر بأداةِ ﴿إِنَّ﴾:

زيــادةُ التَّأكيد وطــولُ الفصلِ بينَ المبتدأ والخبر

صُدِّرت جملة الابتداء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾، وجملة الخبر من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأداة ﴿إِنَّ﴾؛ لزيادة التوكيد[2]، أي: في الوعد والوعيد[3]، فقد أُكِّد الخبرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾؛ لتأنيسِ المؤمنين وترهيبِ الكافرين؛ لأنَّ الَّذي يفصلُ بينهم جميعًا بحُكمِه الفصل، ويميّزُ صالحَها وطالحَها، هو اللّه سبحانه لا غير، وقيل: الَّذي حسَّن دخول ﴿إِنَّ﴾ على الجملة الواقعةِ خبرًا طولُ الفصل بين جملتي المبتدأ والخبر بالمعطوفات[4]، ونلمح في إعادة التوكيد تقريرًا للجوابِ عن السُّؤال المتقدِّم الَّذي أثارته الآية السابقة مِن أنَّ اللّه تعالى يهدي مَن يريد، فإنْ كانت هدايتُهُ منوطةً بإرادته فمَن يتولَّى الفصل بين المهديّين وغيرهم، فجاءَ الجوابُ مؤكَّدًا بالأداتين لينفيَ كلَّ شكٍّ وريبٍ في نسبة ذلك الخبر للمبتدأ، فعلى المؤمنين ألّا يَنشغلوا بمحاسبتهم على كفرهم، بل جلُّ وظيفتهم ممارسةُ الدّعوةِ قولًا وفعلًا، وتركُ الحساب والجزاء لِمَن بيده هدايتُهم وإضلالُهم.

(1) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 75.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 148.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 494.

نكتةُ الإخبارِ بالجملة الاسميَّة:

اختصاصُ الله تعالى بالحساب توجيهٌ ربانيٌّ للدعاة

جاء الإخبارُ عن الله تعالى بأنَّه هو الَّذي يفصلُ بين النّاس يومَ القيامة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بالجملةِ الاسميَّة؛ لبيانِ ثباتِ هذا الحُكم، وأنَّه للّه تعالى دونَ سواه، ويفهمُ من هذا الثبوت والاختصاص رفعُ مسؤولية الحساب والجزاء عن الدّعاة من المؤمنين، والانشغال بأمور التوجيه والإصلاح قولًا وعملًا.

نكتة تعدد المسند إليه:

بيان مناط الحكم ومقصد الخطاب

لقد تعدَّدَ المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ فقد كان المسندُ إليه في أوّلِ الآية مدخولَ ﴿إِنَّ﴾ من الفِرق والمِلل المختلفة، وعندما جاء الخبرُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وردَ بهيئةِ الجملة الاسميَّة؛ ليكون المسند إليه لفظَ الجلالة، لبيان أنَّ مناطَ الحكم أنَّ الله يفصلُ بين الجميع مِللًا وأفرادًا، شعوبًا وقبائلَ وجماعات، ومِن ثمَّ أعيدَ الكلام بهيئةٍ تشبهُ ابتداءَ الكلام إشارةً إلى أنَّه المقصودُ والمُبتغى.

فائدةُ تقديم المسند إليه:

التقديمُ للتعظيم وكونه الأصلَ وإفادةِ القصر

قُدِّم المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ على المسند، وهو الخبر الفعليُّ، تعظيمًا له سبحانه، ولأنَّه الأصلُ الَّذي اختصَّ وحدَه بالحكم الفصل، الَّذي يملكُه ويقدرُ عليه وحدَه دون سواه، ولإفادة القصر، وللتَّشويق للخبرِ[1]؛ فإنَّ السّامع عندما يسمع قول الحقِّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يتشوَّقُ لما بعدَه، فينزل الخبر متينًا عنده.

سرُّ التعبير بلفظ الجلالةِ:

آثر النَّظمُ استعمالَ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ لما أنَّ المقامَ مقامُ إجلالٍ وتهيّب، وهو مقامُ الفصلِ بين الفِرَق، ومُجازاتِها على

(1) التفتازاني، المختصر شرح تلخيص المفتاح: 214 - 217.

ما تستحقُّه، ولذلك سُمّي يوم القيامة (يومَ الفصل)، وفيه قال سبحانه حكايةً عن مقاولتهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١﴾ [الصافات: 20 - 21] وقال تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [المرسلات: 12 - 15]، كما أنَّ تعليق الحكم - وهو (الفصل بين الخلائق) - بالاسم الدالِّ على جميع الصفات الحسنى تأشيرٌ للعلّة، فيكون كدعوى الشيءِ ببيّنة وبُرهان.

مقامُ الحُكمِ بين العبادِ يُناسِبه بـنـاءُ المـهـابـةِ والجلال

دلالةُ اختيارِ مفردةِ الفَصْل دون مرادفاتها:

مـفـردةُ الفصلِ أعمُّ من رديفاتِها وتوحي بالمباعدةِ بين الفرق

الحكمُ والقضاء كلاهما من الفَصْل، سواءٌ في ذلك الفصلُ المعنويّ بين الناس بأخذ حقوق بعضِهم لبعض إذا سلبوهم إيّاها، أم الفصلُ الحسيّ بمعنى التمايز بينهم؛ بأنْ يكونَ كلُّ فريق في جانب مفصولًا عن الآخر، فلفظ (الفصل) يشملُ الحُكمَ والقضاء؛ فهو دالٌّ على العموم؛ ولازمٌ للحكم والقضاء؛ إذ ينجمُ عن الحكم بين المتخاصمين والقضاء بينهما فصلُ المُحقّ من المبطل، وتمييز الصّادقِ من الكاذب في الدَّعوى، كما أنَّ لفظَ (الفصل) يدلُّ على تمييز الفرق بعضِها عن بعض، والفصلِ بينها فصلًا تامًّا؛ فالفصلُ هو: إبانة أحدِ الشّيئين من الآخر: حتى يكونَ بينهما فُرجة[1]، والمعنى أنّه سبحانه يقضي بين الخلائق، فيُدخلُ المؤمنين منهم الجنّةَ والكافرينَ منهم النّارَ، وقيل: الفصلُ هو أنْ يُميِّزَ المُحقَّ من المُبطل بعلامةٍ يُعرَف بها كلُّ واحدٍ منهما[2]، وعليه فالتَّعبير به هو الأنسب بالمقام الَّذي ذُكرت فيه الفِرَقُ والملل متداخلة مترابطة على التفصيل، وهو آكدُ وأنسبُ وأليقُ من التَّعبير بالحُكم لأنَّه من لوازمه، فلفظُ الحُكم لا يوحي بالمجانبة والمباعدة بين الفِرَق، ولا ننسى أنّه

(1) الراغب، المفردات: (فصل).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 524.

أنسبُ بالسّؤال المقدَّر الَّذي أثارته الآيةُ السّابقة من أنَّ اللّه تعالى يهدي إليه مَن يريد بشكلٍ مُبهم؛ فيتولد سؤالٌ عمَّن يفصلُ بين المهديِّ وغيره؟ ومن ثمَّ حسُن التعبير به دونَ الحُكمِ والقضاء.

بلاغةُ مجيءِ المسند فعلًا مضارعًا ﴿يَفۡصِلُ﴾:

غايةُ النَّظم زرعُ القيمِ المؤثِّرة في سلوك النّاسِ

عبَّر النَّظمُ بصيغة المضارع ﴿يَفۡصِلُ﴾؛ لتصويرِ الفصلِ الكائن بينَ العباد يومَ القيامة، وللإشارةِ إلى مقدِّمات الفصلِ بينهم، وأنَّه قد ابتدأ في الدُّنيا بتسجيلِ أعمال العباد في صحائفِهم، فهو تصويرٌ للمستقبلِ لما يتركُهُ من تهويلٍ في نفس المتلقّي بما يَستحضرُه من مواقف القيامةِ، وإيماءٌ إلى مقدِّمات الفصل بتسجيلِ الأعمال في صحائفِ العباد، فهو كذلك ترهيبٌ وتخويفٌ؛ لردعهم عن الشَّرِّ وحثِّهم على الخير، والمضارعُ يدلُّ على تجدُّد الفصل واستمراره وعدم انقطاعه، وأنَّ هذا الفصل يتجدّدُ بتعدُّد الفرق المفصولةِ عن بعضها، وتنوّعِ الجماعات والملل، ممّا يرسمُ في الذهن صورةً حيّةً لما يقع في عرصات الحساب من تمايز المهديّين من غيرهم، كما يدلُّ المضارع على المستقبل المحدّد بيوم القيامة؛ للدلالة على أهمية أن يعيشَ أهلُ الإيمان في الحياة وهم يتطلَّعون ليوم الفصل، ليكونوا مع المهديين دون الضالين، فيثبتوا على إيمانهم، وأنْ ينتبهَ الضالّون عن الصّراط المستقيم فيرتدعوا عن غَوايتهم وجُحودهم بالحقِّ والحقيقة.

بلاغةُ إضافة الظَّرف إلى الضّمير ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾:

تآلف المعاني اللفظيَّة والإضافيَّة دليلُ قوَّة الاتِّساق

من فوائد التعبير بالضمائر الاختصارُ والرّبطُ، فالضمير في ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ يقوم مقامَ إعادة كلِّ الفرق المذكورة في الآية، وإضافةُ الظَّرف إلى الضَّمير جاء وفقَ الأصل، ونكتتُه البيانيَّة إيقاعُ دلالة فعلِ الفصل بينَ تلك الفرق، أي: إنَّ الفصل سيكون بينهم، كلُّ فرقة تكون منفصلةً عن الأخريات، وبه يتأكّد معنى مفردة (الفصل) المذكور في السّياقِ، ونلمحُ في تعدية الفعل إلى الظرف ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾

دون القول (يفصلهم) إشارةً إلى أنَّ الفصل يكونُ في أدقِّ الأمور الواقعة فيما بينهم، وليس مجرّد فصلِ الذوات المؤمنةِ عن الذوات غير المؤمنة، يتبيّن هذا من تأمُّلِ الفرق بين (فصلتُ الشيئين) الدالّ على أنّهما ملتصقان ممتزجان، و(فصلتُ بين الشيئين) الدالّ على أنّهما متمايزان لكن بينهما أمورٌ مُشتبهة؛ إذ تشخيصُ البينيَّة يدلُّ على أنَّ الفصل بين تلك الأمور المتشابهة كان بدقّةٍ عاليةٍ تُتابعُ ألطفَ الأشياء وأصغرَها الَّتي وقع فيها التباين بينها.

نكتةُ ذكر زمان الفصل:

تأنيسُ أهلِ الحقِّ وتهديدُ أهلِ الباطلِ

نَصَّتِ الآيةُ على تحديد زمن الفصل بينهم - وهو ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ - دون أن يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بحذف الظَّرف، وذلك لما في ذكره من تأنيسِ أهل الحقّ، وتهديد الخاطئين المخالفينَ بإخبارهم بأنَّ الفصلَ الحقَّ آتٍ لا محالةَ يومَ القيامة، وأنَّ إمهال الدنيا لا يعني إهمالَ أهلِ الباطل، فيومُ القيامة آتٍ للفصل والجزاء، كما أفاد تحديد يومِ الفصل؛ ليُعلَمَ أنَّ ذلك الفصلَ بالنسبة للمؤمنين، وأما وقوع الفصل والعلم به فمنكشف لمولانا تعالى أزلًا وأبدًا.

دلالةُ تقديم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

التَّهديدُ مهمازٌ لمراجعة المسارِ وتقويم الاعوجاجِ

قدّم الظرفَ المكانيَّ المضافَ إلى الضَّمير ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على الظرف الزمانيّ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ اهتمامًا بأمر (الفصل) الكائن بين المختلفين في الدّين، وسيقَ بما يشي بالاختصاص الناتج عن تقديم الظرف كذلك، مع أنَّ الفصل في هذا اليوم عامٌّ وليس مختصًّا بهم؛ للإشعارِ بأنَّ مسألة الفصلِ لها من الأهميَّة البالغةِ ما يجعلُها تبدو كأنَّها وحدَها هي المخصوصةُ به، وكأنَّ يومَ الفصل لم يكنْ إلا لها، وفي ذلك ما يدعو كلَّ الفِرَق إلى مراجعةِ نفسِها؛ لتصحيحِ مسارِها وتقويمِ اعوجاجِها قبل أن يأتيَ يومُ الفصل.

نكتةُ ذكر وصف ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ دونَ مرادفاته:

القيامة أعمُّ الأسماءِ وأهولُ الألفاظ

آثر النَّظم الكريم استعمالَ اسم ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ دون بقيَّة الأسماء، لا سيَّما نعتُ الفصل، وغيره من الحساب والجزاء والدّين، وذلك لما في التَّعبير بـ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ من تهويلِ أمرِها، وبثِّ الرهبة في قلوب الخاطئين، ويومُ القيامة عظيمُ الأهوال، متعدّدُ المواقف، وما الحسابُ إلا واحدٌ من مواقفه، وعليه فالتعبير بـ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ لتعدُّد أهواله، أنفذُ في إيقاع الرّهبة في القلوب من غيره، ولشمولِ القيامة وعمومِه، فهو يشملُ الحسابَ، والفصلَ، والحُكمَ، والجزاءَ، كما أنّ اسم ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ يشعر بالقيام من عالم الأموات والرجوع إلى الحياة للحساب والجزاء، فكانت تسميةُ اليوم بذلك دلالةً على أهميَّةِ الفصلِ بينَ الخلائق، حتى إنَّهم يُبعثون مُجدَّدًا للفصلِ بينَ المهديِّ، فيتنعّم وغيره فيتعذَّب.

علَّة فصل جملة الفاصلة:

الفصل إمّا للاستئناف البيانيّ أو الابتدائي

فُصلتِ الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ عن السّابق؛ إما لأنَّها جوابٌ عن سؤال: لماذا اختصّ الفصلُ بينهم باللّه يومَ القيامة؟ فكان الجواب؛ لأنَّه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي: ومُجازٍ كلًّا بما يَستحقُّه؛ لكونه شهيدًا على جميعِهم، وإمّا لأنَّها مُستأنفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ للإعلام بإحاطةِ علْم اللّه بأحوالِهم واختلافِهم، والصَّحيحِ من أقوالهم[1]، والأوّلُ أرجحُ؛ لشدَّة الارتباط بين اختصاصه تعالى بالفصل، واختصاصِه بالشَّهادة على كلِّ ما يصدر عنهم من أقوال وآراء، الَّتي يبرزها السّؤالُ وجوابُه.

سببُ توكيد جملة الفاصلة:

أُكِّد قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واسمية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 225.

الجملة؛ لإعلام جميع الفرق إعلامًا مؤكّدًا بأنَّ اللّه تعالى علمَه محيطٌ بهم وبأقوالهم وأفعالهم ومعتقداتهم، ثمَّ هو مُجازيهم على هذا كلِّه بما يَستحقّون عدلًا وإنصافًا، وذلك لدفع خَلَجات النُّفوسِ، وشبهات العقولِ؛ فإنَّ النَّفسَ إذا استقرَّ فيها معتقدٌ باطلٌ رفضتْ ما سواه، فشأنُ التَّوكيدِ زحزحةُ الفاسد، وإراقةُ دمِ الباطل، وبذلك يتناسبُ هذا التوكيد مع التوكيد السّابق لاختصاصِ الفصل والقضاء والحُكم باللّه، ويفيدُ تعليلُ ذلك المؤكَّد بمؤكَّد آخر، وهو كونُ اللّه شهيدًا على ما يقولون عالمًا بما يفعلون.

التوكيد يُزحزح الفاسدَ ويُشكِّك بالباطل

نكتةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

أُظهر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ فيما شأنه الإضمار، فمقتضى الظّاهر: (إنَّه على كل شيء شهيد)؛ ونكتة ذلك التَّفخيم، وإظهار المهابة، مع الإشارَة إلَى علَّة الحكم[1]، وفي تفخيم المولى لذاته الجليلة تفخيمٌ للمشهود به وللشَّهادة، إذ بهما يتميّز المهديّون من الضالَّين.

تفخيم الشهيد تفخيم للمشهود عليه

بلاغةُ استعمال حرف الاستعلاء:

استعملَ النَّظم حرفَ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ للدّلالة على التمكُّن؛ إذ لا شيءَ يخرجُ عن قيّوميته سبحانه وعلمِه، فهو قيّوم شهيدٌ على كلِّ شيء صغُر أوْ كبُر، فالتعديةُ بحرف ﴿عَلَىٰ﴾ دون (الباء) مشيرةٌ إلى معنى الرّقابة، والإحاطة بهم، فهو بكلِّ شيءٍ محيط؛ لأنَّ كل شيء خاضعٌ له سبحانه[2]، والفرقُ بين (شهِد به) و(شهِد عليه) أنَّ الأوّلَ يدلُّ على أنَّه يتكلَّم بالمشهود به ويُدلي بالشهادةِ أمامَ الآخرين، ويدلُّ الثاني على أنَّ المتكلِّم غيرُه، وهو يشهدُ على كلامه بأنه الحقُّ أوِ الباطلُ، فكلُّ فرقة تدّعي أنَّ الحقَّ معها، فهو يشهدُ عليها بما يوافقُها أوْ يخالفُها، ولذا تعدَّى بـ(على) في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ

علمُ الله محيطٌ بكلِّ الأعمال إحاطةَ المتمكِّن

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4959.

﴿عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ [فصلت: 20] الآية؛ لأنهم يتكلَّمون فيقومُ السّمع والبصر والجلود بتصديق ذلك أوْ تكذيبه.

نكتةُ استعمال لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾:

لا يخرجُ عن علمه سبحانه شيءٌ ولا يفلتُ من حُكمه أحدٌ

استُعمل لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾؛ لوقوع قيوميَّته سبحانه على كلِّ ما في الكون، أي: كل ما يسمَّى شيئًا فهو خاضعٌ لشهادته عليه، ولذا أضافَ إليه كلمة ﴿شَيۡءٍ﴾ الدالة على عموم الموجودات، على معنى: أنَّه سبحانه "عالمٌ بِكُلِّ شَيْء من الأشياء ومراقبٌ لأحواله، ومن قضيَّته الإحاطةُ بتفاصيل ما صدرَ عن كلِّ فردٍ من أفراد الفرق المذكورةِ، وإجراءُ جزائه اللّائق به عليه"[1]، فهو تعالى لا يشهد على الأمور الكلية فحسب، بل شهادتُه تستغرق جميعَ التفاصيل والأقوال الجزئية الَّتي صدرتْ منهم أوْ فعلوها.

فائدةُ استعمال لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾ دون (أمّة):

استغراق الأفراد والجماعات على حدٍّ سواء

مقتضى ظاهر السّياق والمعنى أن يكون التعبير بلفظ (أمَّة) أو (جماعة)، ونحو ذلك، لكنَّ النَّظم آثر استعمال لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾؛ لأنَّه أعمُّ وأشملُ من غيره، فهو سبحانه ليس شهيدًا على الأمم فحسب، بل على كلِّ موجود ممّا يصحُّ أن يُعلَم ويُخبَر عنه[2]، وفيه إيذانٌ بأنَّه لا يفوتُه حسابُ أحدٍ من النّاسِ، فكان التَّعبير بـ﴿شَيۡءٍ﴾ مُستغرقًا للجماعات والأفراد على حدٍّ سواء.

غرض تقديم الجار والمجرور على المسند:

قــصــرُ صفة الــشــهــادةِ الحقيقيَّة على الله تعالى

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المسند ﴿شَهِيدٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ فلم يقل: (إنَّ الله شهيدٌ على كلِّ شيءٍ)؛ لإفادة الاختصاص والحصر، فليس أحدٌ على كلِّ شيء شهيدًا إلا الله تعالى، وهو من قصْر الصِّفة على الموصوف، كما أنَّ فيه مراعاةً للجانب الصَّوتي في الفواصل.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 100.

(2) الراغب، المفردات: (شيء).

بلاغة اختيار وصف ﴿شَهِيدٌ﴾ دون رقيب:

لمّا أظهرتِ الفرق معتقداتِها ناسب ذلك لفظُ الشَّهيد

آثر النَّظمُ استعمال مفردة (الشهيد) دون (الرّقيب)، إذ الشَّهيد يعلمُ كلَّ ما ظهر من الأعمال علمًا مشاهدًا، فيدلي بالشهادة في وقتها المحدَّد، والرَّقيب يعلم كلَّ ما خفي من الأعمال الباطنة والظّاهرة من باب أوْلى، لكنه لا يدلي بشهادة بل يكتفي بالمراقبة، ولمّا كانت هذه الفرقُ المذكورة لا تُخفي معتقداتِها ولا أعمالَها، وتدَّعي أنَّها على الحقِّ البيّن، ناسب التَّعبيرُ بـ(الشهيد) دون الرقيب؛ لما في الشهادة من إخبارٍ بصدق المدّعي وكذبِه، بخلاف المراقب الَّذي يعلم من دون أن يشهد بشيء، فبينهما تقاربٌ دلاليٌّ أصلُه العلمُ والإحاطة، ويشير إلى هذا التقارب قولُه تعالى حكايةً لقول المسيح عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 117].

نكتةُ استعمال صيغة فعيل:

جاءت مفردة ﴿شَهِيدٌ﴾ بصيغة (فعيل)، وهي تحتمل أن تكون صيغةَ مبالغة أوْ صفةً مشبَّهة، وكونها صفةً مشبّهة أدقُّ لثبات هذه الصِّفة فيه سبحانه، فهو شهيدٌ دائمًا على كلِّ شيء.

بلاغةُ التَّذييل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ تذييلٌ لما قبله، مقرِّرٌ لمضمونه، وتعليلٌ له[1]، فهو شاملٌ لكلِّ ما تقدَّم ذكره بنوعِ توجيهٍ للمعاني، فهو سبحانه يفصل بينهم يوم القيامة بحكمه الفصل العدل؛ لأنه سبحانه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 30، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 124.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفصل والحكم:

الفصل أعمُّ من الحكم والحكم يُقال باعتبار النتيجة

الفصلُ لازم الحُكم، وهو يحملُ معنى المجانبة والمباعدة بين هذه الفِرَقِ المتجاذبة، بما يعني أنَّ اللّه تعالى سيفرِّق بينها بعد حُكمه وقضائه فيها الحُكمَ العادلَ والقضاءَ الحقَّ، ويُمايز بينها بوضوحٍ شديدٍ تبدو فيه كلُّ فِرقةٍ بعيدةً في جانب مفصولٍ عن الفرقة الأخرى.

كما أنَّ من مقتضيات الفصل بينهم إيقاعُ الجزاء عليهم، بما يفصلُ بعضهم عن بعض في دار الجزاء، وهو علّةُ تسمية يوم القيامة (يومَ الفصل)؛ ومن هنا يظهر أن التعبير بالفصل آكد وأنسب وأليق من التعبير بالحُكم؛ لأنَّ لفظ الحكم قد لا يفيد ما أفاده لفظُ الفصل من المجانبة والمباعدة بين الفِرَق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ انقيادِ الكون كلِّه بعدَ بيانِ جُحودِ معظمِ النّاس

لمّا أخبرتِ الآيةُ السّابقة عن فرق الطّائعين وغير الطّائعين، وكان المؤمنون باللّه حقًّا قلّةً في مقابلةِ غيرهم، ناسبَ الإخبارُ عن أنَّ الكون كلَّه يؤمنُ باللّه ويسجدُ له عن محبّةٍ صادقةٍ وطاعةٍ خالصة، وأنَّ الَّذين ندّوا عن هذا السّجود والطّاعة والانقياد للّه هم قلّةٌ في الكون، مهما كانوا كثرةً في الناس، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فهو انتقالٌ من بيانِ جحود مُعظم النّاس في مقابلة إذعانِ الكونِ كلِّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسْجُدُ﴾: أصلُ (سجد) يَدُلُّ عَلَى تَطامُنٍ وذُلٍّ، يُقالُ: سَجَدَ، إذا تَطامَنَ، وكُلُّ ما ذَلَّ فقَدْ سَجَدَ، وأَسْجَدَ الرَّجُلُ، إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ وانْحَنَى[1]، وسَجَدَ البَعيرُ: خَفَضَ رَأْسَهُ عِنْدَ رُكوبِهِ وسَجَدَ الرَّجُلُ: وضَعَ جَبْهَتَهُ بِالأَرْضِ، والسُّجودُ للّه تَعالَى في الشَّرْعِ: عِبارَةٌ عَنْ هَيْئَةٍ مَخْصوصَةٍ، والمَسْجِدُ بَيْتُ الصَّلاةِ، والمَسْجِدُ أَيْضًا مَوْضِعُ السُّجودِ مِنْ بَدَنِ الإِنْسانِ، والجَمْعُ مَساجِدُ[2]، والسُّجود عبارةٌ عن التّذلّل للّه وعبادته، وهو عامٌّ في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان؛ **الأول:** سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سجد).

(2) الفيّومي، المصباح المنير: (سجد).

يَستحقُّ الثواب فضلًا ورحمةً، **والثاني** سجودُ تسخير، وهو للإنسان، والحيوان، والنّبات، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ١٥﴾ [الرعد: 15][1]، والسُّجود في الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يشمل النوعين التسخيريَّ والاختياريَّ.

2) ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾: أصلُ (دبَّ) حَرَكَةٌ عَلَى الأَرْضِ أخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكُلُّ ما مَشَى عَلَى الأَرْضِ فَهو دابَّةٌ[2]، والدَّبُّ والدَّبيبُ: مشيٌ خفيفٌ، ويستعملُ ذلك في الحيوان، وفي الحشرات أكثر، ويُستعملُ في الشّراب والبلى - حشرات الثياب - ونحو ذلك ممّا لا تدركُ حركتَهُ الحاسّةُ، ويستعملُ في كلّ حيوان - حيّ متحرِّك - وفي هذا المعنى جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: 45]، وقوله: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: 164]، وقوله: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6][3]، وأمّا تَخْصيصُ الفَرَسِ والبَغْلِ بِالدّابَّةِ عِنْدَ الإِطْلاقِ فَعُرْفٌ طارِئٌ، وتُطْلَقُ الدّابَّةُ عَلَى الذَّكَرِ والأُنْثَى، والجَمْعُ: الدَّوابُّ[4]، والمراد هنا عمومُ مَن يتحرَّكُ على ظهر الأرض، ما عدا الإنسانَ لتخصيصه بالذكر بعدَ ذلك معَ استثناء بعضه من السُّجود.

3) ﴿حَقَّ﴾: أَصْلُ (حقَّ) يَدُلُّ عَلَى إِحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِه، ثُمَّ يَرْجِعُ كُلُّ فَرْعٍ إِلَيْهِ بِجَوْدَةِ الِاسْتِخْراجِ وحُسْنِ التَّلْفيقِ، ويُقالُ حَقَّ الشَّيْءُ وجَبَ[5]، والحَقُّ خِلافُ الباطِلِ، وهو مَصْدَرُ حَقَّ الشَّيْءُ مِنْ بابَيْ (ضَرَبَ وقَتَلَ) إذا وجَبَ وثَبَتَ[6]، ويستعمل الحقُّ استعمالَ الواجب واللّازم والجائز، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧﴾ [الروم: 47]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: 103][7] ومعنى ﴿حَقَّ﴾ هنا: وجب عليه ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ لكُفره باللّه[8].

(1) الراغب، المفردات: (سجد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبّ).
(3) الراغب، المفردات: (دبّ).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (دبب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقّ).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (حقق).
(7) الراغب، المفردات: (حقّ).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 568.

4) ﴿يُهِنِ﴾: أصلُ (هون) يَدُلُّ عَلَى سُكونٍ أَوْ سَكينَةٍ أَوْ ذُلٍّ، ومِنْ ذَلِكَ الهَوْن: السَّكِينَةُ والوَقارُ، قالَ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، والهونُ: الهَوانُ، قالَ ﷻ: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ [النحل: 59][1]، ويقال: فيهِ مَهانَةٌ، أيْ: ذُلٌّ وضَعْفٌ، ويَتَعَدَّى بِالهَمْزَةِ فَيُقالُ أَهَنْتُهُ، واسْتَهَنْتُ بِهِ بِمَعْنَى: الِاسْتِهْزاءِ والِاسْتِخْفافِ[2].

والهَوانُ على وجهين: **أحدُهما**: تذلّلُ الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضةٌ، فيمدحُ به نحو قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63].

الثاني: أن يكونَ من جهةِ مُتسلّطٍ مُستخفٍّ به فيذمُّ به، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: 93]، وقوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩٠﴾ [البقرة: 90]، وقوله: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: 18][3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطب الآية النَّبيَّ ﷺ، وكلَّ مَن يقع عليه الخطاب، ألم ترَ بقلبك، فتعلمَ أنَّ اللّه يسجدُ له مَن في السَّماوات مِن الملائكة، ومَن في الأرض مِن الخلْق مِن الجنّ وغيرهم، والشّمسِ والقمرِ والنُّجوم في السماء، والجبالِ، والشَّجَر، والدوابِّ في الأرض، وسجودُ ذلك ظلُّه حينَ تطلعُ عليه الشّمسُ، وحين تزول، إذا تحولّ ظلّ كلّ شيء، وكثيرٍ مِن الناس يؤمنُ باللّه ويخضعُ لتعاليمه فاسْتَحقّوا بذلك الجنة فضلًا ورحمةً، وكثيرٍ مِنهم لم يؤمنْ به ولم ينفّذْ تعاليمَه، فاستحقّوا بذلك العذابَ والإهانة، ومَن يطردْه اللّه من رحمتِه، ويُهِنْه؛ لا يقدرُ أحدٌ على إكرامه، إنَّ اللّه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، فهو يفعلُ ما يريد[4].

كلُّ ما في الكون منقادٌ؛ إلا شواذَّ الخَلقِ ونَكِرات البشر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هون).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (هون).
(3) الراغب، المفردات: (هان).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 586، ومجموعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 490.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فَصْل الآية عمّا قبلها:

الآيةُ تحملُ تعليل المعاني المتقدِّمة

لمّا كان جميع ما تقدم في هذه السّورة دالًّا على أنَّه سبحانه على كلِّ شيء قدير، وأنه يفعلُ ما يريد، وختمَ ذلك بأنه بكلِّ شيء عليم لم يغِبْ ولا يغيبُ شيء عنه، فاقتضى ذلك قيوميّتَه، وكان بحيث يستعظمُ لكثرة الخلائق فكيف بأحوالهم، قرر ذلك في جوابِ مَن كأنَّه سأل، فهي في معنى العلّة، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾[1]؛ وتحتملُ أن تكونَ جوابًا لسؤالٍ يستعظمُ أنْ يفصلَ اللّه بين المهديِّ وغيره، فأجابَ بأنَّ الخلائق كلَّها تسجدُ للّه وهو عالمٌ بها وقادرٌ على إيجاد ذلك السُّجود، فهي استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤال مفترضٍ، كما أنَّ هذه الجملة إنشائيةٌ لفظًا ومعنًى، والجملة السّابقة لها خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، فلا يجوز الوصلُ بينهما لاختلافهما في ذلك.

براعةُ الاستفتاح بالاستفهام:

دعوةُ الأذهان التَّفكُّر في شأنِ الأكوان

استهلَّتِ الآية بجملة الاستفهام: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾، والاستفتاح بالاستفهام التقريري لإثارةِ الذِّهن للتَّفكُّر في قدرة اللّه تعالى الموجبة للشُّكر والعبادة والحمد، والتأمُّلِ فيما يجب أن يكون عليه العبدُ تجاهَ خالقه وبارئه ورازقه، بعد ذكر طائفة من الفِرَق الَّتي انحرفَت عن طريق الحقِّ، ووقعَتْ في حبائل الشَّيطان وأوهامِ النَّفس والهوى، كما أنَّ الاستفهام يوحي بعنصرِ الحوار بين طرفين ممّا يولِّد حركيّةً في التلقّي وتفاعُلًا مع النصِّ بشكل أعمق.

غرضُ الاستفهام وفوائده:

تقريرُ المُخاطَبِ المؤمنِ والإنكارُ على الكافر

الاستفهامُ الواردُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾؛ لتقرير النبيِّ ﷺ والمؤمنين به، وإلجائهم إلى الاعتراف بمضمون

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 25.

الكلام والإقرار به، وهو معنى قول ابن عاشور: "أو يكون الاسْتِفْهام لإنكار النَّفي وتقرير المنفيِّ"[1]، ولا يشترطُ في الاستفهام التقريري أن يكونَ المقرّر عليه عالمًا بمضمونه، فقد يقرَّر مَن لا علمَ له بالمضمون لغاية الوعظ والإرشاد، فهو تقريرٌ يبتغي التعليمَ والتفهيمَ بأسلوبٍ مليء بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن فوائد الاستفهام ودلالاته أنَّه مثيرٌ للتنبيه واليقظة، وقد حملَ الاستفهامُ معه - بجانب التقرير والتنبيه - "الحثَّ على التأمُّل، وتمجيدَ اللّه، والإخلاصَ في طاعته، واستشعارَ جلاله وكماله"[2]، كما دلَّ الاستفهام مع التقرير على التعجيبِ من حال المُمتنعين عن السُّجود له، النّاكثينَ عن طاعته، وقد سجد له الكونُ كلُّه وأذعن، وليعلم هؤلاءِ الناكثون عن السُّجود له سبحانه أنَّه غنيٌّ عنهم.

أو يكونُ الاستفهام للإنكار، فقد أنكر على المخاطبين بالجملة عدمَ علْمهم بدلالة أحوالِ المخلوقات على تفرُّد اللّه بالإلهيَّة[3].

ويتعيَّن غرض الاستفهام للتقرير أو الإنكار بحسب المخاطَب، ولا إشكال في تعدُّد الأغراض؛ فإنَّ النكات لا تتزاحم وإنْ كان الراجح إرادةَ التقرير للمنفي.

دلالةُ دخولِ النَّفي بأداةِ ﴿أَلَمْ﴾ على الفعل ﴿تَرَ﴾:

تحويل الزمن من المضارع إلى الماضي

استعمل النَّظم الكريم الأداة ﴿أَلَمْ﴾ في دخولِها على المضارع ﴿تَرَ﴾ دون أدوات النَّفي الأخرى مثل (لا)، فلم يقل: (أفلا ترى)، وذلك لقصد انصباب الفهم على الزمن الماضي دون المستقبل، والمعنى: (أما رأيتَ فيما مضى؟) ونكتةُ دخولها على المضارع لإثارةِ دعوة المخاطب في الرؤية المتجدِّدة، فإنَّ المضارع فيه استمراريَّة،

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 31.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 391.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 226.

فجمع هذا التركيب بين دلالة الماضي والحاضر المستمرّ، كأنَّه قال له: ألم ترَ فيما مضى، وفيما هو كائنٌ، وسيكونُ سجودَ كلِّ المخلوقات له تعالى؟ وعند تحول المضارع إلى الماضي يكون التقرير أجدى وأنفع في الدلالة؛ لأنَّ التقرير إنَّما يكون على شيءٍ علمَه المخاطَب ويدعوه المُستفهِمُ إلى الإقرار به والاعتراف، فيناسبُه التعبير بالماضي صيغةً أَوْ زمنًا ليكونَ التقريرُ على شيء واقعٍ فعلًا، ولا سبيلَ للإنكار أوِ الرّفض أوِ النَّفي لوقوعه.

سرُّ التَّعبيرِ بالرؤية دون العلم:

الإشعارُ بصدق الخبر ويقينيَّته كالمرئي بالعين بلا التباس

معنى (الرؤية) في الآية رؤيةُ العِلْم، فمعنى ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أي: ألمْ تعلمْ، الَّذي جوابه: بلى رأيتُ، أو بلى علمتُ؛ لأنَّ العلمَ بسجود الكائنات غير المرئيَّة بالبصر لا يكون إلا بإعلام منه سبحانه، والتعبيرُ بالرؤية وإرادة العلم للإشعار بصدقِ الخبر، وأنَّه بلغ من الصِّدق واليقين مرتبةَ المرئي المشاهَد بالبصر رؤيةً واضحةً كاملةً، لا لبسَ فيها، وفي الانتقال من (العلم) إلى (الرؤية) مجازٌ مرسَلٌ علاقته السببيّة؛ إذ الرّؤيةُ من أسباب حصولِ العِلْم، فعبّر بالسَّبب وأراد به المسبَّب؛ للدِّلالة على كمالِ صدقِ الخبر حتَّى كأنَّه مشاهدٌ محسوس.

بلاغةُ الالتفاتِ من الغَيبة إلى الخِطاب:

مفاجأةُ المخاطَب بالسُّؤالِ تحفيزٌ على ضرورة الامتثال

الالتفاتُ من الغَيبة في الآية السّابقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ إلى الخِطاب في هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾، فلم يقل: وأنَّ اللّه يسجُدُ، تطريةٌ للكلام وتنشيطٌ لذهن السّامع، ولفتٌ لغير المنتبهين إلى قيوميّته سبحانه على كلِّ شيء، ولأنه سبحانه لا يحتاج إلى اعترافهم بهذا، فهو الغنيُّ عنهم وعن كلِّ مخلوقاته، لكنَّه سبحانه يُقدِّر ويكافئُ مَن يَخضع لطاعته ويُقِرُّ بربوبيته وألوهيَّته، وهم أكثر ما في الكون ومَن فيه، إلا هذه النِّسبةَ من بني البشر

وأضرابِهم من الشياطين، مع ما في الالتفات من عنصرِ المفاجأة الدّالِّ على ضرورة الاستجابة لما تضمَّنته من الحثِّ على الرُّؤيةِ.

بلاغةُ الجملةِ السّادَّة مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾:

تلاحمُ الأجزاءِ وتعاضُدُ التَّركيبِ أقوى دلالةً وأمتنُ أثرًا

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ جملةٌ مكوّنةٌ مِن ﴿أَنَّ﴾ واسمِها وخبرِها، سادّةٌ مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾، الَّتي هي هنا بمعنى (تعلم)، ورأى إذا جاءت بمعنى (علم) نصبتْ مفعولين، ونكتةُ مجيء مفعولَي فعل الرؤية جملةً دون أنْ يكونا مُفردَين، فيُقال مثلًا: (ألم ترَ سجود المخلوقات واقعًا لله) تلاحمُ أجزاءِ الجملةِ، وتضافرُ عناصرها حولَ دلالة واحدة، حتى تبدوَ من شدَّةِ تلاحُمِها كأنَّها كلمةٌ واحدةٌ، يُطلبُ التقريرُ عليها والاعترافُ بمضمونها، مع ما في الصورة التركيبية من قوَّة، بمجيء أداة التَّوكيد، ولفظ الجلالة مسندًا إليه، والمسند الفعلي، فهذه البراعة والقوّةُ ما كانت لتكون لو أتى مفعولا فعلِ الرُّؤية مفردين.

فائدةُ ذكر لفظِ الجلالة:

لفظُ الجلالةِ مُستجمِعٌ لصفات الكمال كلّها

أوثِرَ التَّعبيرُ باسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ ظاهرًا مع أنَّ المقامَ يُناسبه الإضمارُ؛ لتقدُّم ذكره في الآية السّابقة؛ لما ينطوي عليه من معنى الهَيْبة والجلال المُلائم للمقام، وهو المُناسبُ لذكر السُّجود، وهو معنًى من معاني العبادة الحقَّة الَّتي لا تكون إلا لله سبحانه، وفيه إشارةٌ إلى علَّة السُّجود له تعالى؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ مُستجمِعٌ لصفات الكمال كلِّها، فيكونُ من تعليق الحكمِ على المُستجمع لذلك كلِّه، فيشير إلى التعليل، فيكون كدعوى الشيء ببيِّنةٍ وبُرهان.

نكتةُ مجيءِ المسنَد فِعْلًا ﴿يَسۡجُدُ﴾:

السُّجودُ مُستمِرٌّ في الكون كلِّه والزّمانِ جميعِه

جيء بالمسند فعلًا مضارعًا في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ لدلالته على تجدُّد الحدث وعدم ثباته مع استمراره المتجدّد بتجدد الآنات والأزمنة والأمكنة، فالسُّجودُ لله تعالى متجدِّد، وكلُّ نوعٍ من

السّاجدين له هيئةُ سجود تخصُّه قد أذِن اللّه له بها، فالسجودُ للّه ﷻ لا ينقطعُ عن الكون لحظةً، بل يستمرُّ كأثَرٍ لتعدُّد السّاجدينَ وتنوّعِهم، سواءٌ في الأرض أم في الملأ الأعلى.

بلاغةُ التَّعريض بذكر لفظِ السجود:

خصَّ النَّظمُ لفظَ السُّجود بالذِّكر دون لفظِ العبادة، الَّذي هو أوسعُ وأعمُّ دلالةً؛ للتَّعريضِ بمن يأنف السُّجودَ للّه تعالى من المشركينَ، والتحقيق أنَّ لفظ (السجود) في الآية بمعنى: الخضوع والانقياد بما يشمل هيئة الركوع ومطلقَ الانحناء للتعظيم والتبجيل والتكريم، وهو بهذا المعنى يتَّسق مع لفظ (العبادة) الدالِّ لغةً على التذلُّل والخضوع، لكنه يفترقُ عنه في أنّ السُّجود تذلّلٌ يرافقهُ انحناءٌ في الهيئة، فيكون لاختيار السّجودِ دونَ العبادة تحقيقٌ لكمالِ العبوديَّة والتذلُّل، فهي أدقُّ تصويرًا لحالة سجودِ الكون وما فيه لخالقِه ومدبِّره.

لفظ ﴿يَسْجُدُ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

السُّجودُ لفظ مشترك يُراد به عمومُ المجاز

لفظ السجود ينصرف في الحقيقةِ الشَّرعيَّة إلى السُّجود المعروف في الصَّلاة، الَّذي هو أحد أركانها، ويعني الهويَّ على الأرض خُضوعًا للّه وتذلُّلا، كما أنَّه في حقيقته اللُّغويَّة إنما يعني الذلَّ والتطامن[1]، وهو مفيدٌ الانقيادَ والطّاعة والخضوع، وبناءً على هذين التأصيلين صار اللَّفظ مُحتمِلًا للتَّوجيهين الآتيين:

الأوَّل: حمله على حقيقته الشرعية، وحصوله يكون من الملائكة ومن الإنس والجنِّ، والآية عليه خبرٌ مرادٌ به الطّلب[2]، وهو مجازٌ لغويٌّ.

الثّاني: حملُه على معناه اللغوي الَّذي هو الذُّل والتَّطامن مع انحناءٍ للجسم أو الجبهة أو أيّ جزءٍ في المخلوقات، وهذا الثاني

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سجد).

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/ 370.

أوسعُ معنًى وأشملُ، من حيث إنَّ الانقيادَ قَدْرٌ مشتركٌ بين الجميعِ؛ "فيصحُّ إطلاقُه على العُقلاء السّاجدينَ وغيرهم، وعلى ظلالِهم أيضًا"[1]، وبهذا يكون النظمُ قد جمعَ في لفظٍ واحدٍ بينَ الحقيقة الشرعيَّة والحقيقة اللغويَّة؛ ليكون معنًى مناسبًا مع جميع المخلوقات الَّتي يقع السُّجود منها بهيئات مختلفة.

معنى (اللّام) ودلالتها:

تحتملُ اللّام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ أن تكون للاستحقاق على معنى سجودِ العبادة، فالسُّجود بهذا المعنى الشرعيِّ إنّما هو مُستحَقٌّ للّه وحدَه لا يجوزُ إشراكُ غيره فيه، وأنّ مَن سجدوا لغيره سبحانه هم ظالمونَ باغونَ على ما يستحقّه اللّه تعالى، وأما احتمال كون اللام للاختصاص على معنى مطلق الانقياد مع خفض في الهيئة فلا يصحُّ؛ لأنَّ المعنى اللغويَّ غيرُ مختصٍّ به تعالى، أوْ للتَّبيينِ كالتي في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ١﴾ [الشرح: 1] وفي قولهم: حمدت اللّه لك[2]، والأرجحُ أنْ تكون اللامُ للتعدية تعيينًا للمسجودِ له، وإيصالًا لمعنى الفعل إلى الذات العلية، وتخصيصًا للسُّجود به كأنَّه الغرض الأصليُّ من السُّجود.

تحتملُ اللّامُ الاستحقاقَ والاختصاصَ والتَّبيينَ والتعديةَ

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

قدَّم النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور على الفاعلِ في ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإفادةِ الحصر والاختصاص، فالانقيادُ في السَّماوات والأرض محصورٌ باللّه ﷻ، وهو قصر إضافيٌّ للصّفة - أي السُّجود بمعنى مطلق الانقياد - على الموصوف سبحانه.

لا يكونُ السُّجودُ إلّا لله تعالى على التَّحقيق

وأما قصر العبادة الحقّة عليه وحدَه دونَ سواه، فالسُّجود بمعناه المتبادر، وهو الهويُّ على الأرض بِقَصْدِ الخُضوعِ قَدِ اخْتُصَّ اللّه

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 8/ 489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 114.

بِهِ عَلَى الإِطْلاقِ؛ لِأَنَّ المَوْجوداتِ العُلْيا والمُؤْمِنينَ بِاللَّه يَسْجُدونَ لَهُ، والمُشْرِكينَ لا يَسْجُدونَ - بمعنى السُّجود المذكور - لِلْأَصْنام ولا للّه تَعالَى[1]، وهو قصرٌ حقيقيٌّ لا يشاركه فيه أحدٌ، كما أنّه دالٌّ على الاهتمام، فالتقديمُ هنا للأهمِّ، وهو المنقاد له، وهو اللّه سبحانه المعبود بحق دون سائر من عُبِد من دونه.

سرُّ استعمال الاسم الموصول ﴿مَن﴾ دون (ما):

السُّجود يجعل غير العاقل عاقلًا والعاقلُ الّذي لا يسجدُ كالبهائم الّتي لا تعقِل

أوثر التعبير بـ ﴿مَن﴾ الموصوليَّة، وهي دالَّةٌ على العاقل، مع كون الظِّلال المذكورة في الآية داخلةً فيها، وهي ليست من العقلاء، من باب تغليب العاقل على غيره[2]، أَوْ يكون تخصيصُ العقلاء ملحوظًا فيه أنَّهم العمدة، وأنَّ انقيادهم دليلُ انقيادِ غيرهم[3]، وهناك لفتةٌ أخرى وهي أنَّ السُّجود من صفات العقلاء، فعاملَ غيرَ العقلاء معاملةَ العقلاء بسببِ سجودِهم، تعريضًا بمن أَنِف السُّجود للّه تعالى، فكأنَّ من سجد للّه تعالى دخلَ في دائرة العقلاء، ومن سواهم فهو أدنى من البهائم.

دلالة حرفِ الظَّرفيَّة:

الظَّرفيَّة دالّةٌ على الاستغراق والشّمول

دلَّ حرفُ الظرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الاستغراق والشمول للمكان، كما استغرقت ﴿مَن﴾ جميع المخلوقات، فليس هنالك من مكانٍ في السَّماء والأرضِ يخلو من مُنقادين للّه ﷻ، حتى مَن لم يَسجدوا له سجودَ عبادة كالكفّار والعُصاة في الأرض، فإنَّهم مُنقادون للّه تعالى من حيث إنَّ حياتَهم ومماتَهم بيد اللّه وأمرِه، وحركةَ أجزاءِ أجسادِهم الباطنةِ والظّاهرة كلِّها تعملُ بإرادته سُبحانه وإذنه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 110.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3918.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 119.

نكتةُ جمعِ السَّماوات وإفرادِ الأرضِ:

الأرضُ مفردٌ لفظًا جمعٌ دلالةً والسَّماوات جمعٌ لفظًا ودلالةً

جمعُ السّماوات وإفرادُ الأرض عادةٌ قرآنية، فلم يَرِدْ أبدًا في الكتاب العزيز لفظُ الأرض مجموعًا على (أرَضين)؛ لأنَّها تردُ غالبًا مُرادًا بها "الجهة، فهي بمنزلة السُّفْل والتّحت، فلا معنى لجمعها، كما لا يُجمعُ الفَوق والتَّحت والعُلو والسُّفْل"[1]، و(أل) في الأرض للجنس، فيصدقُ بالجمعِ من حيثُ الدِّلالة، ويدلُّ على ما دلَّ عليه لفظ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ المجموع.

ولذا لما استُدْعي في تركيبٍ أن يَجمَع لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في مقابلةِ لفظ (السّماء) المجموع، لكونه أراد بها الذات والعدد، وليس جهة السفل، انظر كيف عبَّر القرآن؟ إنَّه قابله بأسلوب عجيبٍ، وذلكم المعني هو قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: 12]، فإنَّ الأرضَ لا نسبةَ لها إذا قيستْ بالسَّماوات وسِعَتِها، بل هي بالنِّسبة إليها كحصاةٍ في صحراء أَوْ حَلْقة في فَلاة، فهي وإنْ تعدَّدت كالواحد القليل، فاختيرَ لها اسمُ الجنس[2]، ومِن أسبابِ إفرادِه كذلك في القرآن استثقالُ جَمْعِه، وهو (أرَضون)[3].

دلالة الطِّباق في لفظَي السَّماوات والأرض:

ضآلة الجاحد أمام عظمة الساجدين

إنَّ بين لفظَي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ فنًّا بديعيًّا هو الطِّباقُ، والغرضُ منه كشفُ حقيقةِ المشرك والجاحد في إعراضهما عن السُّجود للّه تعالى والانقيادِ لأمره، كم هما ضئيلانِ جدًّا في مواجهة السّاجدين، فماذا يمثل هذا المعرِض عن الانقياد لربِّه سبحانه في مقابلِ انقيادِ السَّماوات والأرض ومَن فيهما للّه ربِّ العالمين؟ كما

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 6.
(3) السيوطي، الإتقان: 2/ 355.

يعطي الطباقُ استغراقًا آخر للمكان من خلال ذلك التقابلِ الدالِّ على الحصر والإحاطةِ بجميع الخلائق السّاجدة.

نكتةُ تقديم السَّماوات على الأرض:

عجائبُ السَّماوات أدلُّ على عظيم القدرة

قدَّم النظمُ الكريم ذكرَ السَّماوات على الأرض؛ لعظمِها ولكونها أدلَّ على قدرته سبحانه وأبرزَ، وذلك "أنَّ السَّماواتِ والأرض تُذكرُ غالبًا في سياق آياتِ الربِّ الدالَّة على وحدانيّته وربوبيَّتِه، ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسِعَتِها وعِظَمِها وما فيها من كواكبِها وشمسِها وقمرِها وبروجها، وعلوِّها واستغنائها عن عَمَد تُقلُّها أوْ علاقةٍ ترفعها إلى غير ذلك من عجائبها"[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أهلَ السَّماوات يغنونَ عن جميع مَن في الأرض، فلو جحدَ أهلُ الأرض جميعًا ما كان لهم ذكرٌ ولا شأنٌ، كما يُنبِئُ عنه جمعُ السَّماوات وإفرادُ الأرض باللَّفظ.

بلاغةُ الإطناب بعطف الخاصِّ على العامِّ:

تخصيص بعض المخلوقات بالذّكر دليلٌ على مكانتها في النِّظام الكونيِّ

ذكرت الآيةُ مجموعةً من المعطوفات على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهي: الشّمس والقمر وما تلاهما، وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ، مع دخولها فيه واشتمالِها عليه؛ وذلك لظهورها وشُهرتها، وكونِها أجلَّ في عيون الناظِر من غيرها، ومِن ثمَّ تكون أدلَّ على بلوغ المقصود، وهو إثباتُ أنَّ الله تعالى غنيٌّ عن كُفر مَن كفرَ به ولم يسجد له تعالى.

بلاغة اللف والنشر:

جَمَعَ السَّماوات والأرض ونشرَ ما فيهما على التَّرتيب

في الآية الكريمة لفٌّ ونشرٌ مرتّب، حيث بدأ بذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ثمَّ ثنَّى بـ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، وذكر بعد ذلك ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾، وهي نشر لما في السَّماوات، ثمَّ ذكرَ ﴿وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، وهي نشرٌ لما في الأرض، مستندًا في ذلك إلى أفهام

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/ 74.

المخاطبين ليُعيدوا كلَّ مذكورٍ إلى ما يناسبُه، مع الحرص على العَرْض المنظَّم الَّذي يرتبطُ فيه كلُّ مذكور مع ما سبقَه.

بلاغةُ تقديمِ الآية النهارية على الليليَّة:

تقديمُ ذكرِ ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ وهي آية نهاريَّةٌ على ﴿وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ وهما من الآيات الليلية، راجعٌ إلى كون الشمس أبرزَ وأظهرَ، ومنافعِها المتعلِّقة بالبشر أكثرَ وأوفرَ.

فن الطباق بين الشمس والقمر:

نـــور الـقـلـب كضياء الشمس ونور القمر

في قوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ طباق، حيث قابلَ فيه الشمس وهي مصدر الضَّوء في النَّهار بالقمر وهو مصدر النّور في الليل، وكأنَّ في ذكرهما معًا إشعارًا بأنَّ الإيمانَ يصنع في القلوب مِن النّور، ما تصنعه الشّمس والقمر في النهار واللَّيل من الضّياء والنّور، ويشتركان مع النجوم في الإضاءة والنور، ولكن لمّا كان نورهما أعلى من أنوار النجوم كلِّها قدّمهما عليها.

علَّةُ تقديم الآية السَّماويّة على الأرضيّة:

انـقـيـادُ أهـلِ الـسَّـمـاوات جـمـيـعًـا لـلـه تـعـالى وأسبقيّتهم

يرجع سببُ تقديم السّاجدين في السَّماوات على السّاجدين في الأرض لسببين:

الأوّل: أنَّ السّجود في أهل السَّماوات صفةٌ عامّة فيهم لا تتخلّف، فكلُّ أهل السماوات ساجدونَ للّه خاضعونَ له طائعون، ولذا قدَّمهم أيضًا في قوله سبحانه: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: 83]، بخلاف أهل الأرض؛ ففيهم الطّائع السّاجد، وفيهم الضالُّ الجاحد الَّذي لا يسجد للّه، ويُعبِّر عن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥۤ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾.

الثاني: الأسبقيَّة الزمانيَّة؛ فإنَّ أهل السماوات (الملائكة) أسبقُ

وجودًا من أهل الأرض، وحوارُ اللّه تعالى لملائكتِه في قصَّة خلق (آدم) عليه السلام دالٌّ على هذه الأسبقيَّة الوجوديَّة[1].

ترتيبُ المذكوراتِ لعللٍ معنويَّة وأسبابٍ محسوسة

بلاغة ترتيب ذكر المخلوقات الأرضيَّة:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ قُدِّم ذكرُ ﴿وَٱلۡجِبَالُ﴾ لشموخها وعِظَم وظيفتها في تثبيت الأرضِ، ثمَّ قدَّم ذكرَ ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ على ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ من تقديم السَّبب على المُسبَّب؛ لأنَّ الأشجار مَرعى الدوابّ، كما أنَّ الأشجارَ أعظمُ خلقةً من الدوابِّ، وقُدِّمت هذه المذكورات على قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾؛ لأنَّها لا تعقلُ، وسجودُ ما لا يعقل للّه أدخلُ في مقام تمجيد اللّه من سجودِ مَن يعقل؛ لإطباقِ الجميع على السُّجودِ مع أنَّها بالنّسبة لنا غيرُ عاقلةٍ كما أنّها غيرُ مكلَّفة، وقُدِّم ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، أي: الطائعين على ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾؛ لأنَّهم عصاةٌ فجَرةٌ؛ فقُدِّم عليه الطّائعون لشرفِ الطّاعة، وأُخِّر العُصاة لقُبْحِ المعصية[2]. ونلحظ سمة الجمعية في المذكورات سواء كانت جموع تكسير أوْ أسماءَ جموع؛ للدلالة على الشمول والاستغراق، ومن ثمَّ عدل النظمُ عن (الناس) إلى تقسيمهم إلى صنفين كثيرين محافظةً على ظاهرة الشمول والاستغراق، فالكثيرانِ ساجدانِ اختيارًا أوِ اضطرارًا؛ لأنهم منقادونَ لأمرِه ومشيئتِه.

احتمال الواو للعطف والاستئناف واستعمال اللفظ في معنييه الحقيقي والمجازي

بلاغةُ العطفِ وثراء احتمالاته الدّلاليَّة:

الواوان في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ يحتمل أنْ تكونا للعطف؛ والعطفُ إمّا من عطفِ المفردات على جعلِ ﴿يَسۡجُدُ﴾ مُحتملًا لمعنى السّجود الشَّرعيّ، والمعنى اللغوي

---

(1) من الآيات الدالة على ذلك وهي كثيرة، قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص: 71 - 72].

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/ 391، 392.

الَّذي هو الانقياد، ولا بأس بهذا على قول مَن يرى جوازَ استعمال اللفظ في معنييه الحقيقيِّ والمجازيِّ[1].

ويرى علماء الوقف والابتداء أنَّه بناءً على هذا التوجيه يكون الوقف على ﴿ٱلنَّاسِۖ﴾ وقفًا تامًّا، والواو في جملة: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ استئنافيةٌ مكوَّنةٌ من مبتدأ وخبر[2].

وإمّا من باب عطف الجمل، على تقدير: (ويسجد كثيرٌ من النّاس)، فيكون قوله: ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مرفوعًا بالفاعليَّة للفعل المحذوف، وهو أظهر[3].

وهذا على رأي مَن يمنع استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه في كلمة واحدة؛ وذلك أن السّجود المسند لغير العقلاء غيرُ السّجود المُسند للعقلاء[4].

ويُحتمل أن تكون الواو للاستئناف، فيعربُ قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ مبتدأً محذوف الخبر، والتقدير: (وكثير من الناس حقَّ له الثواب)[5] أو (مُثابٌ) لدلالة خبر مقابله عليه، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ كذا قدَّره الزمخشري، وقدره أبو البقاء: (مطيعون أو مثابون) أو نحو ذلك[6]، والأرجحُ أنْ يكون العطفُ من قبيل (عطف المفردات)، وحملُ السّجود على معنى الانقياد لمشيئة الله وتدبيره بوعي أو بغير وعي، فيكون (السّجود) من عموم المجاز، ولعلَّ الغاية مِن خلط العاقل بغيره في السّجود توجيهُ الجاحدينَ إلى السُّجود بوعيٍ واختيارٍ ما داموا منقادينَ لتدبيره وأمره بلا وعيٍ منهم، وأنَّ مَن يسجد له كلُّ المخلوقات وتنقاد لأمره فهو القادر على تمييز المهديِّ من غيره.

بلاغةُ الاحتراس بذكر الكثير دون الأكثر:

أوثر التعبير بلفظ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ دون (أكثر) في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ للاحتراسِ عن أنَّ مقابل الأكثرِ الأقلُّ، وخصوصًا مع حمل لفظ السّجود على معناه الحقيقي[7]، فلا يلائمه التعبير بـ(الأكثر).

(1) أجازه بعض الشافعية من علماء الأصول، القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 33، واستحسنه هنا ابن عاشور في التحرير والتنوير: 17/ 226.
(2) الأنباري، إيضاح الوقف والابتداء: 2/ 782، والأشموني، منار الهدى، ص: 513، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 214.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 534.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 245، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 534.
(5) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 539.
(6) السمين، الدر المصون: 8/ 245.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 226.

نوع التعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسِۖ﴾ وفائدته:

(أل) في لفظ (النــــاس) للجنس الدالّ على الكمال

(أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِۖ﴾ للجنس بمعنى الحقيقة، وهي تفيد الكمال في ذلك الجنس، ولذا خصَّص من هذا العامِّ بعضهم، فجعلهم من الساجدين حيث قال: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، أي: الكثير من الأفراد الَّذين تتحقق فيهم هذه الحقيقة، وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ على هذا صفة لـ ﴿وَكَثِيرٞ﴾، وفائدة هذه الصفة بيانُ أنَّهم الكاملون في الإنْسانية العاملون بقضية العقل[1]، والكثرة الأخرى لم ينسبوا للناس؛ للدلالة على أنَّهم لضلالهم خرجوا من هذه الحقيقة، وليسوا أحرياء بالوصف بالإنسانية والعقل.

بلاغةُ التَّقابل بين الجمل:

الكــــثرة في الســاجدين للشرف وفي غيرهم للعدد

عُبِّر في جملة ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ وجملة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ بلفظِ ﴿وَكَثِيرٞ﴾ على سبيل التقابل، ولا ينبغي فهم أنَّ الكثرة المقصودة هي في العدد على سبيل التساوي ولا التقارب، فغيرُ الساجدين لله - بالمعنى الشَّرعيّ - أكثرُ من السّاجدين له، كما ينبئُ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103]، ولهذا حملوا الكثرة في كلِّ فريق على ما يناسبها، فهي "عَلَى أن الأول كثيرون باعْتبار الشرف والفضل، والفريق الثاني كثيرون من حيث العدد"[2].

نوع الواو ودلالتها الارتباطيّة بالسِّباق:

الواو للعطف أو الاستئناف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ إمّا أن تكون للاستئنافِ، ويكون الوقفُ عليها تامًّا، فتكون الجملةُ استئنافيةً مكونةً من مبتدأٍ وخبرٍ، فلفظ ﴿وَكَثِيرٌ﴾ مبتدأ، وجملة ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ خبره، وإمّا أن تكون للعطف، وهي معطوفة على ما قبلها

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 35.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 33.

عطف الجمل على تقدير (يسجد)؛ على معنى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ يسجدُ أيضًا، أي: كراهيةً وعلى رغمه؛ إمّا بظلّه، وإما بخضوعه عند المكاره[1]، أوْ على تقدير (يأبى)، والمعنى: (ويسجد كثيرٌ من الناس، ويأبى كثير منهم حقَّ عليه العذابُ)[2].

براعة استعمال فعل ﴿حَقَّ﴾ دون (استحقّ):

التعبير بلفظِ (حقَّ) أقوى ترهيبًا وأرسخُ وقوعًا

جاء التعبير بالفعل ﴿حَقَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ دون أن يُقال: (استحقَّ العذاب)، والتَّعبير القرآنيُّ أقوى وأثبت لإيقاع العذاب بالفعل، فمعنى ﴿حَقَّ﴾ وجبَ وثبتَ وتقرَّر[3] عليه العذابُ من اللّه، بإبائه السّجود للّه، أمّا التعبير بالاستحقاق فلا يكفي في إيقاع العقاب، فقد يستحقُّ المرءُ العقابَ دون معاقبته فعلًا، كمَن يُعفى عنه بعد إعلامه بأمر العقاب فلا يوقَع عليه، فمعنى ﴿حَقَّ﴾ إخبارٌ بالوقوع، و(استحقّ) إخبارٌ بالحكم، فقوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ أشدُّ وقعًا وترهيبًا من ذكر الاستحقاق.

غرضُ تقديم الجارّ والمجرور:

الإشعارُ بهولِ الموقفِ وشدَّة العذاب

تقديم الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ دالٌّ على الاختصاص والحصر، المُشعر بترهيب الموقف، فمَنْ علِم أنَّه عليه حقَّ العذابُ دونَ غيرِه، أصابه هولُ الحدث وقشعريرةُ الموقف، والاختصاص مُشتملٌ على جميعِ أفراد ﴿وَكَثِيرٌ﴾.

بلاغةُ المغايرة في الوصف:

المؤمنون هم الناس والكافرون هم أهل العذاب

حدثت مغايرةٌ في وصف كثيرِ السابق وكثيرِ اللّاحق في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، فقد وصفت الكثرة الأولى بالجارّ والمجرور؛ للدلالة على أنهم المستحقونَ للوصف

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 247.
(2) الأشموني، منار الهدى، ص: 513.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 127.

بالناس، لاستعمالهم العقل والفكر والنظر، في حين وصفت الكثرة الثانية بثبوتِ العذاب لها، والغايةُ من التوصيف بذلك الإشارةُ إلى أنهم افتقدوا الإنسانية وما تتطلبه من النظر والتفكير، واتصفوا بالحكم الَّذي نجم عن أفعالهم ومواقفهم، حتى ثبتَ لهم العذاب ووجبَ عليهم.

معنى التعريف في لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابُۗ﴾:

الكــمــال في العذاب يتناغم مـع العـمـوم والاستغراق

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡعَذَابُۗ﴾ للعهد، أي: عذاب النّار المعهود ذكره في القرآن، وفي كونها كذلك فقد دلّت على عِظَم العذاب الَّذي يثبتُ على الممتنعين عن السُّجود للّه والانقياد له، وتحتمل (أل) الجنسية الدالة على الكمال؛ فكأنَّهم ثبتت لهم حقيقةُ العذاب وطبيعتُها الكاملة؛ ليكون منسجمًا مع (أل) في ﴿ٱلنَّاسِۖ﴾ في الدلالة على الكمال في الوصف.

نكتةُ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلۡعَذَابُۗ﴾ دون (العقاب):

يُلحظ في العذاب شدَّته باعتبارِ التَّعذيب

عبَّر بـ ﴿ٱلۡعَذَابُۗ﴾ دون (العقاب) في الآية الكريمة؛ لأنَّ ﴿ٱلۡعَذَابُۗ﴾ هو اللفظ الأوسع معنًى، فيشمل ما دلَّ عليه العقاب وزيادة، وذلك أنَّ أهل اللغة قائلون في الفرق بين العقاب والعذاب: إن العقاب ينبئ عَن اسْتِحْقاق، وسمّي بذلك لِأَنَّ الفاعِل يسْتَحقّهُ عقيبَ فعله، أمّا العذاب فيجوز أن يكون مُسْتَحقًّا وغيرَ مُستحقٍّ[1]، ومعنى هذا أنَّ بين العقاب والعذاب عمومًا وخصوصًا مطلقًا، فكلُّ عقابٍ عذابٌ، وليس كلُّ عذابٍ عقابًا، وهذا في العرف اللُّغويّ، أمّا في الاستعمال القرآنيّ، فيُلحظ في العذاب شدّته وسطوته وقوّته؛ لأنَّه قيل باعتبارِ وقوع التَّعذيب والألم، أمّا العقاب فقيل باعتبارِ المعاقبة على الذَّنب والعقوبةِ عليه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 239.

فن الاحتباك:

الحذف والدلالة يتعاونان في تعميق المعنى

نلحظُ في قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ ظاهرة الاحتباك، وهو عبارةٌ عن الحذف من الأوَّل لدلالة الثاني عليه، والحذف من الثاني لدلالة الأول عليه[1]، فقد ذكرَ في الكثرة الأولى ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ ولم يذكر ما ثبت لهم، وبقرينةِ ما ثبت للكثرة الثانية من ثبوت العذابِ لها فإنَّ الكثرة الأولى ثبت لها (وحقَّ عليها النعيم)، في حينِ حذف من الكثرة الثانية (من الناس) لدلالة الأوَّل عليه، والغايةُ من الحذفين سلبُ صفةِ الإنسانية عن الكثرة الثانية وإثباتها للأولى، والغايةُ من حذفِ ما ثبتَ لهم من النَّعيم حتّى يذهب الذهنُ إلى معانٍ عديدة في أوصاف ذلك النعيم وأنواعه، ويكون الاحتباكُ قد أدَّى الغرض منه في الاقتصار عندَ كلِّ كثرةٍ بما يهمُّها ويُناسبها.

نوع الواو ودلالتها:

الواو استئنافية أو عاطفة على محذوف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ استئنافيَّة[2]، وقيل: للعطف على محذوف، تقديره: فمنْ يُكرمِ اللّٰه بتوفيقه لامتثالِ أمره فما له مِن مُهين ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾[3]، والغرضُ من الوصل والعطف الإشارةُ إلى أنَّ السجود الاختياريَّ لكثيرٍ من الناس دليلُ الإكرام والإعزاز؛ لأنه ناجم عن وعيٍ ونظرٍ ورغبةٍ بالخضوع للخالق تعالى خضوع المحبّ لحبيبه، ومن ثمَّ استحقوا لقب ﴿ٱلنَّاسِۖ﴾، في حين أنَّ هؤلاءِ الجاحدينَ مُنقادون لمشيئة اللّٰه وتدبيره، فهم ساجدونَ بلا وعيٍ ولا اختيار، وما ذاك إلا دليلُ إهانتهم حالةَ جحودهم واستكبارهم عن مقرِّرات العقل والنَّظر الصَّحيح، فلم ينتفعوا بالجحود ولا السُّجود حتى حصلتْ لهم الإهانةُ بشكلِها الظّاهر.

(1) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: 1/ 55 - 57.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 17/ 245.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 27.

نوعُ (مَنْ) ومعناها وسر التعبير بها:

إكرامُ الله للسّاجدين اختيارًا وإهانته للسّاجدين اضطرارًا

(مَنْ) اسمُ شرطٍ في موضع رفع بالابتداء، والجواب ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾، والخبر ﴿يُهِنِ﴾، أي: يهنه الله[1]، وبعضهم يعرب (مَنْ) مفعولًا مقدَّمًا، لفعلِ ﴿يُهِنِ﴾[2]، وهذا الاختلافُ مبنيٌّ على تحليلِ الفعل ﴿يُهِنِ﴾ فمَن جعلَه متعديًا إلى مفعولٍ محذوفٍ مُراعىً في الكلام فإنَّ (مَن) حينئذ تكون مبتدأً، ومَن جعل الفعلَ ﴿يُهِنِ﴾ منزَّلًا منزلةَ اللّازم فإنّه يُعرب (مَن) مفعولًا به مقدَّمًا، وإنَّما عبَّر بـ(مَن) الموضوعة للعقلاء لبيانِ أنَّ هولاءِ الجاحدينَ هم المقصودونَ بالإهانة، فقد تركوا السُّجود الاختياريَّ وخضعوا للسُّجود الاضطراريّ، مع أنَّهم يمتلكونَ العقلَ والتفكير، ومع ذلك حُرموا وطُردوا وأُهينوا بتركِهم السُّجود الاختياري الدالَّ على الفطرة الإنسانيَّةِ الصّافية.

سر التعبير بمفردةِ ﴿يُهِنِ﴾ مادّةً وصيغةً:

عبَّر بالمضارع لإفادة الاستمرار لا مجرَّد الإخبار

فعل المضارع ﴿يُهِنِ﴾ مأخوذٌ من الإهانة والإذلال، وهو مجزومٌ لأنَّه فعلُ الشَّرط، ووزنه (يُفِل)، وفيه إعلالٌ بالحذف بسبب التقاء الساكنين بسبب الجزم، وأصله (يُهينُ)؛ وفيه من دلالة المضارع استمرار[3] الإهانة وتكرُّرها وتجدُّدها وتنوُّعها بين حسيَّة ومعنويَّة، كالإذلال النفسيّ ونحوه، فإنَّ الذلَّ لمّا كان يتبع الهوانَ سُمّي الهوان ذلًّا[4]، ونلحظُ في الفعل ﴿يُهِنِ﴾ إيقاعَ الهوان والإهانة فيهم، حتى يُصبحوا متصفين بالهوان والذلّ في الدنيا قبلَ الآخرة؛ لأنَّهم تركوا مقتضياتِ الفطرةِ، ولم يعملوا بأدلَّة العقل، وخرجوا على جمهور المتعبِّدين بترك السُّجود الاختياري، فكأنَّ الهوان يُصبُّ عليهم صبًّا، والإذلالَ ينزل فيهم فلا يستطيعونَ عنه فكاكًا.

(1) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 540.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 247.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 460.
(4) العسكري، الفروق اللغوية: 1/ 251.

نكتةُ إسناد فعل ﴿يُهِنِ﴾ للفظ الجلالةِ:

الإهانةُ البالغة نصيبُ مَن تكبَّر وتأبَّى على الانقياد

بُني فعل ﴿يُهِنِ﴾ للفظ الجلالة، وأُظهر الفاعل للإشعار ببالغ المهانةِ الَّتي ينالها من تأبَّى على الانقياد لله والسُّجود بين يديه، فإنَّه مُهانٌ أشدَّ الإهانة وأبلغَها، لكون إهانته ليستْ من بشرٍ مثله، ولكنّها من الله القادر على أن يبلغ به كلَّ ما يشاء من أنماط الإهانة وألوانها، وترى القرآن الكريم يركِّز في كثير من آياته على وصف عذاب الكافرين بالمُهين وليس فقط بالأليم؛ لأنَّ للإهانة من الألم النفسيِّ والمعنويِّ أضعافَ ما للألم الحسّي، خصوصًا عند هؤلاء المُستكبرين على السُّجود لله والانقياد لأوامره، فالجزاءُ من جنس العمل؛ إذ ظنُّوا أنهم بتركهم السّجودَ الاختياريَّ يَحصَلون على عزٍّ وشرفٍ وجاهٍ دنيويٍّ، لكن كانت العقوبةُ مغايرةً لمقاصدهم وأهدافهم، فنالوا الهوانَ والألمَ النفسيَّ، وهو إرشادٌ قرآنيٌّ خفيٌّ إلى أنَّ مَن أراد العزَّةَ والرِّفعة في الدُّنيا فعليه أنْ يُلازمَ الخضوع والسُّجود لمولاه، لينالَ كلَّ مقامٍ عالٍ رفيعِ القَدْر.

نوع الفاء ودلالتها الرابطة:

تعليقُ انتفاء الجوابِ على ثبوت الشَّرط ودلالة مفهومه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ واقعةٌ في جواب الشَّرط، رابطة إيّاه بالشَّرط، على معنى: أنَّه لا كرامةَ لمَن أهانه الله، فمِن أين يأتي إكرامُه؟ ليس له من مُكْرِم، والجملةُ المبدوءة بالفاءِ في محلِّ جزم جوابِ الشَّرط، وإيثارُ النظم الكريم الأسلوبَ الشرطيَّ رسمٌ للعلاقة الطرديَّة بين الإهانة الإلهية وانتفاء المُكرِم، ويدركُ بدلالة المفهوم أنَّ مَن أكرمه الله ووفّقَه لطاعته فلا مهينَ له.

نوع (ما) ودلالة استعمالها:

النفي بِـ(ما) آكد وأوسع من النفي بِـ(ليس)

استعمل في جملة جواب الشرط المنفية أداة النفي (ما) حيث قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾، وهي آكدُ وأوسعُ نفيًا من (ليس)، فيما لو كان التعبير: (فليس له من مكرم)، إذ النفيُ بها يشمل نفيَ

الحال والاستقبال، أي: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ لا في الحال ولا في الاستقبال، فمَن ذا الّذي يمكنه إيصالُ الإكرام إلى مَن أهانه اللّه تعالى، وهذا وجه استعمالِها دون (ليس)، كما أنَّ النفي بـ(ليس) يجعلُ جملةَ الجواب فعليّةً، والنفيَ بـ(ما) يجعلها جملةً اسميَّةً، ومعنى الاسميّةِ يتلاءم مع دوام النفي واستغراقِه، ولا يتأتّى هذه الاستغراقُ إلا بمجيء (مِن) الزائدة المؤكِّدة، وهي إنّما تأتي في السّياق القرآنيِّ مع (ما) دون (ليسَ).

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

اختصاص اللّه تعالى بالإهانة للمستكبرين والإكرام للطائعين

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ الواقع خبرًا مقدمًا على ﴿مِن مُّكْرِمٍۚ﴾ الواقع مبتدأً مؤخرًا؛ لإفادة الحصر والاختصاص، والمعنى: ليس له مِن مكرم، هو فقط من أهانه اللّه تعالى، بخلاف مَن يكرمه اللّه أو تتوجه إليه الإهانة من غيره تعالى، فإنَّ اللّه تعالى يهيِّئ له في الدنيا والآخرة وسائل الإكرام، ويسخِّر له مَن يُكرمُه، وفي الآية توجيهٌ لطيفٌ للمؤمنين المكرَّمين من اللّه أنّهم قد يتعرَّضون في دنياهم إلى إهانة مِن هؤلاء الأذلّاء بسبب موقفهم وسجودهم وخضوعهم لمولاهم، فإنَّ هذه إهانةٌ صوريّةٌ وليست حقيقيّةً؛ لأنَّ مَن أكرمه اللّه بطاعته لا يكون له مهينٌ إلا بحسب الظّاهر، وما هو في حقيقته إلا إكرامٌ ورفعُ درجةٍ وامتحانٌ.

نوع اللام ودلالتها:

سلب الإكرام عمن سوى اللّه تعالى

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ﴾ لامُ الاختصاص، الدالَّةُ - مع مجرورها، وبتقديمهما على المبتدأ ﴿مُّكْرِمٍۚ﴾ - على أنَّ هذا الحكم خاصٌّ بمن أهانه اللّه بعذابه وانتقامه، فلا أحدَ يُغني عنه من اللّه شيئًا، ويُفهَم من سلْب اختصاصِ الإكرام عن أيِّ أحد لِمَن أذلَّه اللّه وأهانه اختصاصُ اللّه تعالى بالإكرام كما أنَّه المختصُّ بالإهانة على سبيل الحقيقة.

دلالةُ تنكير اسم الفاعل:

استمرار الهوان واستغراقُ النفي

التعبير باسم الفاعل ﴿مُّكۡرِمٍۚ﴾ منفيًّا يدلُّ على انعدام وجود مَن يملك أنْ يُكرم من شاء اللّه إهانتَه، ولذلك نكَّره؛ ليفيدَ العموم، فالنكرةُ في سياق النفي تعمُّ، كما هو معلوم، وصيغة اسم الفاعل تدلُّ على استمرار الحدث المنفيِّ وهو (الإكرام).

فنُّ الطِّباق بين ﴿يُهِنِ﴾ و﴿مُّكۡرِمٍۚ﴾:

التلاحم وتأشير العلة داخل الخطاب

بين قوله: ﴿يُهِنِ﴾ و﴿مُّكۡرِمٍۚ﴾ طباقٌ، فكل من الإهانة والإكرام متضادّان، فلا إكرامَ لمن أهانه اللّه، ولا إهانةَ لمن أكرمَه اللّه، وهذه ثمرة هذا الطباق المنسجم مع الطباق التركيبي في قوله: ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، وبهذا عرف أن السّاجدين له بإكرامه لهم، والجاحدين والرّافضين للخضوع له بإهانته لهم.

بلاغة الاكتفاء:

إهانةُ مَن رفض الذُّلَّ لخالقه تعالى لونٌ في الإبانة

آثر النَّظم الاكتفاءَ بجملة: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾، فذكر الإهانة وطوى الإكرام، فلم يقل: (ومَن يُكرمِ اللّه فما له مِن مُهين)؛ لأنَّ السياق لإظهار القدرة، وإظهارُها في الإهانة أتمُّ، كما أنَّ أصل السياق للتهديد[1]، وأنَّ الثاني دالٌّ على الأوّل فاكتُفي به، ونكتةُ الاكتفاء تسليط الضَّوء على الإهانةِ، فهي مدار العِبرة، ومثار الفرحة للخاضعين.

بلاغة جملة التَّعليل والفصل:

التأكيد في جملة التعليل مفيدٌ للاهتمام لعدم وجود المنكِر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ في محلِّ العلَّة للجملتين المُعترضتين - وهما جملتا ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ و﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ - لأنَّ وجود حرفِ التوكيد في أوَّل الجملة مع عدمِ المنكِر يُمحِّض حرف التوكيد إلى إفادة الاهتمام، فنشأ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 27.

من ذلك معنى السببيَّة والتعليل، فتغني ﴿إِنَّ﴾ غَناءَ حرفِ التعليل والسببية[1]، كما أنَّ الجملة فُصِلت ولم تعطف على ما قبلَها؛ لأنها بمنزلة جوابٍ عن سؤالٍ مقدَّر مفاده: لمَ اختار مولانا تعالى الهدايةَ لبعضِ مخلوقاته فسجدوا وخَضَعوا له، واختارَ لآخرينَ جحودَهم فحقَّ عليهم العذابُ، ونالوا الهوانَ والذِّلَّةَ ممّا اقترفوا من تركٍ للسُّجود والانقياد؟ فأجاب عن ذلك بأنَّ اللّه يفعلُ ما يريدُ لحكمةٍ عظيمةٍ وبالغةٍ في مخلوقاته، فبَيْن الجملتين شبهُ كمالِ الاتصال، ولذا تُرك العطفُ والوصلُ بينهما.

بلاغةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

انفرادُ كلِّ غرضٍ بنفسِه ممّا يستدعي إظهارَ الاسم الجليل بنفسِه

أبرز النَّظمُ الاسمَ الجليل: ﴿ٱللَّهَ﴾ في موضع الإضمار في جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لتقدُّم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾؛ لما فيه من جلال وهيبة تهزُّ القلوبَ هزًّا، وتُرهِبُ العُتاة والمتمرِّدين على طاعةِ ربِّهم والانقياد له، ولبيان استقلال كلِّ غرضٍ في الجملتين بنفسِه، كما أن ذكر الاسم المستجمع لجميع صفات الكمال والعظمة يفيد تعليل فعله لما يشاء، فكأن المعنى: (يفعل ما يشاء؛ لأنَّه اللّه)، فيكون كدعوى الشيء ببينة وبرهان.

بلاغة مجيءِ المسند فعلًا مضارعًا ﴿يَفۡعَلُ﴾:

طلاقةُ القدرة الإلهيَّة بفعل كلِّ ما تعلَّقت به إرادته

جاءَ التعبيرُ بالفعل المضارع ﴿يَفۡعَلُ﴾؛ لما تُفيده الصّيغة من طلاقة الزمن وتجدُّد الوقوع واستمراره، بمعنى أنَّه سبحانه في أيِّ وقتٍ يشاءُ يعملُ أيَّ عملٍ يشاء، ممّا تعلَّقت به إرادتُه سبحانه، "ولو جاز أنْ يُمانعَه غيرُه ولو في لحظة، لم يكن فاعلًا لما يشاء"[2]، وحاشاه سبحانه أنْ يُمانعَه أحدٌ في مملكتِه وسلطنتِه، وهو العزيز الَّذي لا يُغالَب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 227.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 27.

مناسبةُ استعمال ﴿مَا﴾ في سياقها:

التعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ مُتسقٌ ومُتناسبٌ مع السّياق؛ لأنه يعبَّر بها حالَ قصدِ الجمع والشمول مع الاختصار، فإنَّ لفظ ﴿مَا﴾ يُطلقُ على كلِّ شيء؛ لإبهامه وعمومه.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿يَشَآءُ﴾:

كما أفادَ الفعلُ ﴿يَفۡعَلُ﴾ طلاقةَ القدرةِ فيما خصَّصته لها الإرادة، فإنَّ الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ يفيدُ طلاقةَ الإرادةِ فيما تتعلَّقُ به من تخصيصِ المُمكِن بالوقوع في مكان وزمان مُعيَّنين، فتتعلّقُ القدرةُ بإيجاده وإخراجِه إلى الوجود.

غرضُ حذفِ مفعول فعل المشيئة:

حذفُ مفعول المشيئة لإفادة التعميم

حُذف مفعولُ المشيئة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لإفادة التعميم في كلِّ ما تتعلّق به مشيئتُه سبحانه من الممكنات، أي: يفعلُ ما يشاء فعلَه، والأصلُ عدمُ ذكرِ مفعولِ (المشيئة) إلّا إذا تعلَّقَ بذكره غرضٌ بيانيٌّ[1].

(1) الزركشي، البرهان: 3/ 170، 171.

﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [الحج: 19 - 22]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذكر أحـوال النّـاس إلى ذكر جزائهم

بعدَ أنْ ذكر اللّٰه تعالى فيما سبقَ أربابَ الفرقِ الستِّ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الآية، وذكر فيها أنَّ اللّٰه سبحانه يفصلُ بينهم يوم القيامة بعدله، وهو العليمُ بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم، وبيَّن أنَّ ذلك الفصلَ بينَ المهديِّ وغيره مختصٌّ به لكمالِ علْمه بمَن يسجدُ له ومَن لا يسجدُ له، ناسبَ أنْ يُتبعَه بذكر جزائهم بما يُرغِّب المؤالف ويدفعُه نحو المزيدِ من الطّاعة، ويُرهِّب المخالفَ ويزيدُه ندمًا على ما فرطَ منه، وخوفًا ممّا يَنتظره من أليمِ العقاب وجليلِ العذاب، كما عبّرت عنه هذه الآيات، الَّتي بدأتْ بذكر جزاءِ أهل الجحود والنُّكران والاعتراض، فقالت: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾، لتستكملَ الآياتُ منهجَ الهداية بالتَّرهيب والتَّرغيب، بالإجمال والتَّفصيل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَصۡمَانِ﴾ ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾: معنى (خصم) نازَع، والخَصْمُ مصدرُ خَصَمْتُه، أي: نازعتُه خَصْمًا، يقال: خاصمْتُه وخَصَمْتُه مُخاصَمَةً وخِصامًا، قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾ [البقرة: 204][1]

(1) الراغب، المفردات: (خصم).

والخِصامُ: مَصْدَرُ خاصَمْتُهُ مُخاصَمَةً وخِصامًا، والذَّكَرُ والأُنْثَى فيهِ سَواءٌ، وكذا الواحدُ والجمعُ فيه سواء، فيقال لكلِّ واحدٍ منها - الذَّكر والأنثى والواحد والجمع: خَصْم، وقَدْ يُجْمَعُ الجَمْعُ عَلَى خُصوم[1]، والمراد هنا الجمعُ وليس المفرد، فقوله: ﴿خَصۡمَانِ﴾ يريد طائفتينِ، فلفظة (خَصْم) مصدرٌ يوصفُ به الجمعُ والواحد، ويدل على أنّه أراد الجمعَ تعبيره بواو الجماعة في: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾[2].

2) ﴿قُطِّعَتۡ﴾: أصل (قطع) يَدُلُّ عَلَى صَرْمٍ وإبانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا، والقَطيعَةُ: الهِجْرانُ، يُقالُ: تَقاطَعَ الرَّجُلانِ، إذا تَصارَما، ويُستعملُ القَطْعُ في فصلِ الشّيءِ مُدركًا بالبصر كالأجسام، نحوُ قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الأعراف: 124]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، أوْ مدركًا بالبصيرة كالأشياءِ المعقولة، ومنه قَطْعُ الوصلِ: وهو الهجرانُ، وقَطْعُ الرَّحِمِ فإنّه يكون بالهجرانِ ومنعِ البرّ، قال تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد: 22]، وقال: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: 27][3]، ومعنى ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾: جُعِلَتْ لهم بتقدير، كما يُفصَّل الثوبُ[4].

3) ﴿يُصَبُّ﴾: أصلُ (الصَّبّ) إراقَةُ الشَّيْءِ، وإلَيْه تَرْجِعُ فُروعُ البابِ كُلِّهِ، ومِنْ ذَلِكَ: صَبَبْتُ الماءَ أَصُبُّهُ صَبًّا، ويُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، فَيُقالُ لِما انْحَدَرَ مِنَ الأَرْضِ: صَبَبٌ، وجَمْعُهُ أَصْبابٌ، كَأَنَّهُ شَيْءٌ مُنْصَبٌّ في انْحِدارِهِ[5]، وفي مسند أحمد في وصفه ﷺ: "إذا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤًا كَأنَّما يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ"[6]، وصَبُّ الماء: إراقتُه من أعلى، يقال: صَبَّهُ فانْصَبَّ، وصَبَبْتُهُ فَتَصَبَّبَ، قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥﴾ [عبس: 25][7]، وانْصَبَّ النّاسُ عَلَى الماءِ اجْتَمَعوا عَلَيْهِ، والصُّبَّةُ بِالضَّمِّ والصُّبابَةُ بَقِيةُ الماءِ في الإناءِ[8]، ومن استعماله في غير الحسِّ قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣﴾ [الفجر: 13]، وقوله تعالى هنا:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 114.
(3) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 114.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبّ).
(6) أخرجه أحمد في المسند: 2/ 144، الحديث رقم: (746).
(7) الراغب، المفردات: (صبّ).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (صبب).

﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ قيل معناه: يُصَبُّ الحَميمُ - وهو الماء المغليُّ - فوقَ رؤوسِهم[1].

4) ﴿يُصۡهَرُ﴾: الفعل (صَهَر) له أصْلانِ: أَحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى قُرْبَى، والْآخَرُ عَلَى إِذابَةِ شَيْءٍ، ومنه يُقالُ: صَهَرْتُ الشَّحْمَةَ، والصُّهارَةُ: ما ذابَ مِنْها، ويُقالُ: صَهَرَتْهُ الشَّمْسُ، كَأَنَّها أذابَتْهُ[2]، ومعنى ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ أي: يؤثِّر من فَرْط حرارته في باطنهم، تأثيرَه في ظاهرهم، فتذابُ به أحشاؤهم، كما تذابُ به جلودُهم[3].

5) ﴿مَّقَٰمِعُ﴾: الفعل (قمع) له أُصولٌ ثَلاثَةٌ صَحيحَةٌ، والمعنيُّ هنا إذْلالٌ وقَهْرٌ، يقال: قَمَعْتُهُ، أي: أَذْلَلْتُهُ، ومِنْهُ قَمَعْتُهُ، إذا ضَرَبْتَهُ بِالمِقْمَعِ، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾ و﴿مَّقَٰمِعُ﴾ جمعُ مِقْمَعٍ، وهو ما يُضرَبُ به ويُذلَّل، ولذلك يقال: قَمَعْتُه فانْقَمَعَ، أي: كففته فكفّ[4]، وقيل في معنى ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾: هي سياطٌ منَ الحديد يُجلَدونَ بها، وهي جمع مِقْمَعَة، وحقيقتُها: ما يُقمَعُ به، أي: يُكَفُّ بعنفٍ[5].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

بيــانُ حــال فريقي النّاس تـفـصيلًا بعد تعدادِ أسمائهم إجمالًا

تُبين الآيات أنَّ النّاس فريقانِ تنازعوا في أمر ربِّهم، وما يليقُ به، وما لا يليق؛ فآمن به فريقٌ خضعوا وانقادوا وسجدوا له، وكفرَ فريقٌ وجحدَ ولم يخضعْ ولم يسجُدْ، فالذين كفروا أعدَّ اللهُ لهم يومَ القيامة نارًا تُحيط بهم من كلِّ جانب، كما يحيط الثوبُ بالجسد، ولزيادةِ تعذيبهم تصُبُّ الملائكةُ على رؤوسهم الماءَ الشَّديدَ الحرارة، فينفذُ إلى ما في بطونهم فيُذيبها كما يذيبُ جلودَهم، وليس هذا فقط

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صهر).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قمع).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.

فقد أُعِدَّت لهم أعمدةٌ من حديدٍ كالسّياط؛ تضربُهم بها الملائكةُ لتردَّهم إلى النّار كلما حاولوا الخروجَ منها من شدَّة الغمِّ والكرْب، فتَسلِقُهم بعد ذلك بألْسِنةٍ حِداد، وتقولُ لهم متهكِّمةً بهم مُقرِّعة لهم: ذوقوا عذابَ النّار المُحرقةِ جزاءَ كُفركم بأيديكم وجحودكم بخالقكم وموجدكم، فلم يكن تعذيبُكم ظُلمًا عليكم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية عمّا قبلَها:

ما أُجمل في سباقٍ فُصِّل في لحاق

قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ واقعٌ موقعَ الجواب عن سؤالٍ مقدَّر، أثارَه قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ عن تفصيل صفة العذابِ الّذي حقَّ على كثيرٍ من الناس، الَّذين لم يسجدوا للّه تعالى، فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك، فهي استئناف بيانيٌّ يسمى شبه كمال الاتصال[2]، والذي نميلُ إليه أنَّ هذه الآية وما يليها تفصيلٌ لحالِ كثيرٍ من الَّذين يسجدونَ، ولا يسجدون، الَّذي أشارت إليه الآية السابقة: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾، فبينت الآيات ذلك من خلال خصمين اختصما في الاعتقاد باللّه وربوبيته وجحد ذلك، فبيَّن حالهما بهذا التمثيل البديع بالخصمين، فيكون تركُ الوصل لأنّها سيقت للبيان، والجوابِ عن حال الفريقين أيضًا.

بلاغة استعمال اسم الإشارة:

تصوير المشهد تهويلٌ وتشويق

الإشارة باسم الإشارة المُثَنَّى ﴿هَٰذَانِ﴾ إلى ما يستفاد من الكلام بتنزيله منزلة ما يشاهد بالعين[3]، وكأنَّ الفريقينِ المقصودينِ حاضرانِ ماثلانِ أمامَ المخاطب، بالقدر الَّذي سوَّغ الإشارة إليهما

---

(1) جماعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 490، 491، والمراغي، تفسير المراغي: 17/ 101، 102.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 228.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 228.

باسم الإشارة الدالِّ على القرب؛ لما فيه من تهويل المشهد، وترهيبِ المعرض، وتشويق المُقبِل.

تعيين المشار إليه:

المُشار إليهما هما فريقا الكفر والإيمان في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

المشارُ إليه في الآية هما فريقا السّاجدينَ والممتنعينَ عن السُّجود، وهما اللَّذان طالهما هذا الإخبار: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ فهذان (الكثيران) هما المُشار إليهما باسم الإشارة ﴿۞هَٰذَانِ﴾، حيثُ السّياق موصولٌ بهما، ولا دليلَ ظاهرًا يصرفُه عن ذلك، وما روي من أسباب النزول في ذلك ليس نصًّا في السّببيَّة، ولا ينهضُ للحكم بعدولِ الكلام عمّا اقتضاه السّياقُ من الاتصال.

والصَّحيحُ أنَّه لا تعارضَ بينَ ما ورد في أسباب النزول بشأنِ غزوة بدر، وبينَ ما جاء في السّياق، فالسّياق يؤكِّد على أنَّ الفريقين شاملانِ للكفّار والمؤمنين عمومًا، وما جاء في أسباب النزولِ عبارةٌ عن تمثيلٍ لهذين الفريقين، فهو قريب من التفسير بالمثال.

سرُّ التَّعبير بقوله تعالى: ﴿خَصۡمَانِ﴾ دون مرادفاته:

التعبير بالمصدر أدلُّ على تمام الخصومة

أوثرَ التعبيرُ بلفظ (الخصم) دون غيره كالفريق أو الفوج أو الجماعة، لما يحملُه من معنى الخصومة، وهي وإنْ كانت مستفادةً ومعلومة من الفعل الماضي ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ غيرَ أنَّ الفعل الماضي لا يُعبِّر عن تمام معناها، الَّذي دلَّ عليه المصدر (الخصم)، وهو تمام الخصومة وكمالها؛ لأن المصدر يُطلق ويُراد به الحقيقة والماهية، فلا أبلغَ من المصدر ليدلَّ عليها، وتسميةُ الفريقين بالخصمينِ من إطلاق المصدر على الفاعل، فيكون فيه كمالُ المبالغة والتصويرُ الدقيق لشدَّة الخصومة بين الفريقين، حتى كأنَّهما نفسُ حقيقة المُخاصمة على حدّ قولنا: (زيد عدلٌ)، ففي الإسناد مبالغةٌ على أن ﴿۞هَٰذَانِ﴾ مبتدأٌ و﴿خَصۡمَانِ﴾ خبر له.

نكتةُ التعبير بالفعلية ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾:

الخصومة بين الفريقين واقعةٌ حتمًا في الزمان كلِّه ولذلك عبَّر عنها بالماضي

عبّر النَّظم الكريم بالجملة الفعليَّة ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ الَّتي جاءت بصيغةِ الماضي، وهي نعت لـ﴿خَصۡمَانِ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ هذا الخصامَ والجدال قد وقعَ بالفعل، ونكتةُ التعبير بالماضي هو تحقُّقُ وقوع الخصومةِ قطعًا، فإنَّ أهل الحقِّ وأهل الباطل لا يلتقيان أبدًا، أوْ يحملُ على أنّ اعتقاد كلٍّ من الفريقين بحقيَّة ما هو عليه، وبطلانِ ما عليه صاحبُه، وبناءُ أقواله وأفعاله عليه خصومةٌ للفريق الآخر، وإنْ لم يجر بينهما التحاورُ والخصام[1]، وتفيدُ الجملةُ النعتيَّةُ ثبوتَ هذا الوصف واستمرارَه في الفريقين، وأنَّه واقعٌ في الماضي زمنًا، ومستمرٌ وثابتٌ في الحاضر والمستقبل.

بلاغةُ العدول إلى الجمعِ والمرجعُ مثنًّى:

الجمع محمولٌ على أفراد الفريقين لا على عين الفريقين

أسند النَّظم فعلَ الاختصام إلى جمع في قوله تعالى: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ مع كون المتقدِّم مثنى ﴿خَصۡمَانِ﴾ وليس جمعًا، فلم يقل: (اختصما) حملًا عَلَى المَعْنَى، فإنَّ الخصم جنسٌ عامُّ المَعْنَى، فهو يصدقُ على جمع، فـ﴿خَصۡمَانِ﴾ معناه: فوجان أوْ فريقان سُمّيا بالمصدر للمبالغة، وكلُّ فوجٍ منهما أو فريقٍ يضمُّ تحته أفرادًا، ولذلك عُبِّر بالجمع حَمْلًا على مصاديقه وأفراده، "ولولا هذا التأويل لكان الأنسب أن يقال: اختصما، ولو عكسَ جاز، أي: لو ذكر مكان ﴿۞هَٰذَانِ﴾ (هَؤُلاء) ومكانَ ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ (اختصما) جاز بأن يُحملَ الإفرادُ عَلَى اللَّفْظ، والجمع عَلَى المَعْنَى، مثل قوله عزَّ مِن قائل: ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾ [ص: 21]"[2]، والغايةُ من الجمع الإشارةُ إلى كثرة المتخاصمينَ في أمرِ الربِّ تعالى إثباتًا ونفيًا، ممّا يدل على أنَّها قضيّةٌ جوهريَّةٌ في حياة الإنسان،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 101.
(2) ابن التمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 35.

ينبغي الاهتمام بها، والعملُ على تفنيد آراء أهل الباطل، وتفكيكِ أسبابِ جحودهم وكفرانهم بالبرهانِ والمَوعظة الحسَنة.

فنُّ الجناس:

تعميق المعنى وتصوير المشهد

بين قوله تعالى: ﴿خَصۡمَانِ﴾ وقوله: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ، يسهمُ في تصوير شدّةِ الخصومة وبلوغِها مبلغًا عاليًا؛ حتّى تصل أحيانًا إلى الاحتراب والاقتتال، وأنَّ هذه الخصومة ينبغي أن تكونَ من أهل الإيمان، المتسلِّحين بالبرهان والحكمة والمناظرة؛ لمواجهة أهل الضَّلال، المتسلِّحين بالشكِّ والحيرة والمغالطة.

بلاغةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

العـــداوة بين الفريقين في الله شديدةٌ

استخدم الحرف ﴿فِي﴾ الدالّ على الظرفيَّة في قوله ﴿فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، وهو هنا للظّرفيَّة المجازيّة، والغرضُ الإشعارُ باستغراق الخصام في دين اللّه وذاته وصفاته، وبلوغه درجةً عاليةً من العداوة، وأنَّها في حال يأسٍ أن يتحقَّق بينهما استقرارٌ، وتفيد الظرفيةُ المجازية كمالَ حالة الخصومة، حتى كأنَّهم دخلوا إلى مكانٍ واستقروا فيه، فلا يجتمعونَ على رأيٍ في مواقفهم منه تعالى، ومن دينه الحق وأوامره ونواهيه، فالقضيةُ الّتي وقع فيها الجدالُ عميقةُ الخلاف، ذاتُ أغوار بعيدة، وهم دخلوا في خصومتهم في تلك الأغوار والأبعاد.

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

الحذف يعطي عموم المعنى

في قوله تعالى: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، تقديرُه: اختصموا في ذاتِ ربِّهم أَوْ صفاتِه[1] أَوْ في دينِه ونحو ذلك، وهذا الحذفُ يُغني عنه تحديدُ الخصومة في الربّ، لأنّ هذا الخلاف يدلُّ على وجود الخصومة في كلِّ ما يتعلّقُ بالربِّ تعالى من ذاتٍ أو صفاتٍ أَوْ شريعةٍ أو أمرٍ أو نهيٍ، ممّا يؤدي إلى ثراء المعنى وتنوُّعه، فيرسم صورةً للخلاف والمخاصمة في كلِّ ما يتعلّقُ بالقضيَّة

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 36.

الجوهريَّة والأساسيَّة في الحياة، من الارتباط باللّه تعالى ارتباطًا حقًّا وصادقًا.

نكتةُ التعبير بلفظ الربوبيَّة:

التـعـريـض بـالـكـفـار لإعراضِهـم عن طاعة مَن أنعمَ علـيهـم بـوافر النِّعَم

الذي يظهر من التعبير بلفظ الربوبيَّة دونَ الاسم الجليل (اللّه) في قوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، أنَّه قصد التَّعريض بالفريق الكافر باللّه المُعرِض عن طاعته والسُّجود له، لكونه قد أعرضَ عن طاعة مَن أنعم عليه بكلِّ النِّعم، وأوّلُها نعمة الخلق والإيجاد، ثمَّ نعمة الرزق والرعاية، ثمَّ ما لا يُحصى من النّعَم: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾ [إبراهيم: 34].

نكتة العدول عن الاسم الجليل إلى ﴿رَبِّهِمۡۖ﴾:

العـدول يحدد مركز الخصومة

عدلَ عن (اختصموا في اللّه) بالاسم الجليل إلى ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ لاختلافِ المتخاصمين فيهِ وجودًا وعدمًا، فيتبيَّنُ أنَّ الفريق الآخر ينكرُ ربوبيته أصلًا، ولذا رفض السُّجود والخضوع، فكيف يختصم في مدلول اسمه؟ ممّا يدلُّ على أنَّ الاختصام وقع في الربوبية أصلًا دون الألوهيَّة الحقة، أي: بين فريق الإيمان باللّه وربوبيته، وفريق الكفر بربوبيته ووجوده أصلًا، وهم أهل الإلحاد.

براعةُ إضافة لفظ الربوبيّة إلى الضَّمير:

الإضــافــةُ لـلـمـؤمـنـين تـشـريـف ولـلـكـافـريـن تعنيف

أُضيف لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير الجمعِ ﴿رَبِّهِمۡۖ﴾، مع أنَّ فيهم مَن لا يعبده ولا يعترفُ به ربًّا؛ لتنبيههم جميعًا إلى أنَّه ربُّهم جميعًا، اعترفوا به أو لم يعترفوا؛ وفيه اجتماعُ غرضين اثنين مختلفين؛ لأنَّ الإضافة بالنسبة للمؤمنين تشريفٌ لهم، وبالنسبة لغيرهم تعريضٌ بهم، وتعنيفٌ لهم، كما تحملُ إضافةُ الربِّ لمُنكريه بيانًا للواقع وما في نفس الأمر، وتوجيهًا لانتباههم إلى أنَّ إنكارَ وجودِ ربٍّ للعالم ينطوي على جهالةٍ مخالفة لأبسط قوانين السببيّة.

نوع الفاء ودلالتها:

التفريع تفصيل لما أُجمل ذكره سابقًا

الفاء في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾ للتفريع، فقد رتّبت ما بعدَها على ما قبلها، ففصَّلت مع مدخولها ما أُجمل قبلها من أمر الخصمين الَّذين ﴿ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، من حيث بيانُ جزاءِ كلِّ فريقٍ منهما، أو لتفصيل ما أجمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾[1]، ولا فرق من حيث المضمون، فالذين يفصِلُ اللّٰه بينهم يوم القيامة، هما الفريقان اللَّذان اختصموا في ربهم؛ فريقُ الإيمان وفريق الكُفران.

سرُّ التَّعبير بالاسم الموصول دون الاسم الظّاهر:

زرع قيمة الهدايةِ بإطماع الكافرين في القرآن

عبّر النَّظم عن أهل الكفر والتمرُّد على طاعة ربّهم بالاسم الموصول ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الاسم الظّاهر (الكافرون)؛ للتنصيص على ترتُّب هذا العذاب على مضمونِ الصلة، وهو الكفرُ الَّذي دلَّت عليه الجملةُ؛ إذ الاسم الموصول يدلُّ على العموم ويفيد ما يفيدُه الشرط، نحو: (الذي يأتيني فله درهم) فتكون علّة استحقاقِ الدرهم هي الإتيانَ، وهنا تكون علّةُ استحقاق العذاب الكفرَ والتلبُّسَ به، ولأجلِ إطماعِ المخاطَبين من أهل الكفر المعاصرينَ لنزول القرآن وما بعده في أنْ يتحوّلَ عنهم وصف الكفر، فيصبحوا مؤمنين يومًا، ولو عبَّر بالاسم لما كان فيه هذا الإطماع، فاسم الفاعل بمعنى الصفة المشبهة يدلُّ على الثبات كألفاظ (المؤمن والكافر والفاسق).

نكتةُ الإتيان بعنوان الكفر لا الشّرك:

لفظ الكفر يعمّ جميع الأصناف ولو أتى بالشرك لظُنَّ الاقتصارُ عليه

عبّرتِ الآية بنعتِ الكفر دون الشرك، رغمَ تقدُّم ذكر الشِّرك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، وسبب ذلك أنَّ وصف الكفر يعمُّ أهل الشرك وغيرهم من الفِرَقِ المذكورة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 101.

ممَّن ليسوا بمؤمنين بربٍّ أصلًا، فكلهم فريق واحد والمؤمنون فريق آخر، كما أن الاختصام في الربّ أصلًا، كما ينبئُ عنه قوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمۡۖ﴾، وليس في الوحدانيَّة، فناسبَ اختيار لفظ الكفر على لفظ الشرك.

غرضُ مجيءِ الخبر ﴿قُطِّعَتۡ﴾ ماضيًا:

تقطيعُ ثيابِ النّار في حكمِ الواقعِ الحتميّ

عبّرتِ الآيةُ بصيغةِ الماضي ﴿قُطِّعَتۡ﴾؛ للدِّلالة على تحقُّقِ وقوعِ ما توعّدهم اللّه به من تقطيع هذه الثياب لهم وإلباسهم إيّاها، المعبَّر عنها بقوله سبحانه: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾، فهو تنبيهٌ على أنَّ إعداد هذا اللَّونِ من العذاب وغيره أيضًا قد وقع بالفعل وما يتأخّر عنها إلا زمنُ لبسهم لها في عرَصات الجحيم، وهي موعظةٌ بليغةٌ وردعٌ كبيرٌ لِمَن يأبى الخضوعَ والانقياد لربِّ العالمين؛ ليراجع قراره المصيريَّ ويعلنَ توبتَه وأوبتَه لخالقِه وسيِّده.

سرُّ التعبير بالتقطيع دون التفصيل:

التقطيع أدقُّ في التصوير من التفصيل لإفادة معنى إحكام الثياب على الأبدان

التعبير بـ(التقطيع) أبلغُ من التعبير بـ(التفصيل)؛ لدلالته على أنَّ ثيابهم من النار قد قطِّعت على مقدارِهم دونما زيادةٍ أَوْ نقصان، فالتَّقطيع: مبالغةُ القطع، وهو فصل بعضِ أجزاء شيء عن بقيّته، والمراد: قطعُ شقّة الثوب، وذلك أنَّ الَّذي يريد اتخاذ قميص أو نحوه يقطَعُ من شقَّة الثوب ما يكفي، كما يريده[1].

وأما التفصيل فيُطلق على حياكة الثوب، وقد يكون الثوب المفصَّل فضفاضًا لا محكمًا، فلا يدلُّ على المقصود وهو شدّةُ إحكام الثياب عليهم، ولذا فالتعبير بالتقطيع هنا أبلغ من التعبير بالتفصيل؛ لدلالته على أنَّ ثيابهم من النار قد ﴿قُطِّعَتۡ﴾ أي: قُدّرت لهم على مقادير جثثهم[2]، كما أنَّ التقطيع يدلُّ على عدم الاهتمام بالمصنوع،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.

فكأنهم يلبسون قِطَعًا من ثياب نارية غير معتنى بها، بخلاف التفصيل الَّذي يدلُّ على اهتمام بصُنع الثوب وترتيبه وأناقته.

نكتةُ بناء الفعل المضعّف ﴿قُطِّعَتۡ﴾ للمفعول:

زيادةُ ترهيب الكافرين بعدم ذكر الفاعل والإيجاز في النَّظم

بُني الفعل الماضي ﴿قُطِّعَتۡ﴾ للمفعول، فضلًا عمّا فيه من دلالةٍ على تحقق الوقوع وسبق الإعداد كما مضى، وأيضًا ما في تضعيفه من دلالة على المبالغة والتهويل في معنى التقطيع، والكثرةِ الَّتي ينبئُ عنها الفعل، وإشارةٍ "إلى السرعة في إعداد ذلك لهم فيجعلُ لهم ثياب من نار"[1]، فإنَّ في التعبير بهذا البناء اختصارًا لا يخفى، حيث لا حاجة تدعو إلى ذكر الفاعل، لكونه معلومًا، وهو مَن يأمره اللّه سبحانه وتعالى به، ولزيادة التّهويل والترهيب؛ فإنَّ الجهل بمَن يقطّع لهم الثياب يزيدُ الأمر ترهيبًا؛ فإنَّ الإنسان يخشى ما يجهلُهُ ويُعاديه.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

العذابُ الأشدُّ لمنكري الربوبيّة

قُدِّم الجار والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على نائب الفاعل ﴿ثِيَابٌ﴾؛ للدلالةِ على الاختصاص، فهذه الثياب مقطَّعةٌ لهم وحدَهم لا لغيرهم، ولأجلهم لا لأحدٍ سواهم، مع ما في التَّقديم من التَّهكُّم بهم، كما يُقال للسجين: أعددتُ لك سياطًا، وتنبئُ (اللام) على أنهم المقصودونَ بالتقطيع، فصاروا غرض الفعل ونتيجته، وليسوا وسيلةً لتحقيق هدف آخر، وفي عودِ الضّمير على الموصول بصلته ما يدلُّ على أنهم اختصّوا بهذا العذاب لعلة الكفر؛ لأنّ الضمير يرجعُ لما قبله بصفاته وهيئاته الَّتي اتَّصفَ بها.

فصاحةُ اختيار مفردةِ الثياب لا الملابس:

ثياب النّار ثوابُ الأعمال الباطلة والأفعال الفاسدة

جاءَ تعبير الآية بالثياب دون الملابس، لما في التعبير بها من الإشارة إلى كونها جزاءً على أعمالهم الَّتي قدّموها، فأبَوا من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.

خلالها السّجود والانقياد لله تعالى، فالجزاءُ يسمَّى ثوابًا تصوُّرًا أنَّه هو هو، ألا ترى كيف جعل الله تعالى الجزاءَ نفس العمل في قوله: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ [الزلزلة: 7]، ولم يقل (جزاءه)، والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير[1]، كما أنَّ في مفردة (الملابس) ما يوحي بالإكرام، لأنها تلبس للحماية والزينة، بخلاف (الثياب) فإنها تطلق على ما يستر ولو بعض البدن، وتعبير ﴿قُطِّعَتۡ﴾ الدالّ على الإهانة والاستخفاف يلائمُه التعبير بالثياب دون الملابس؛ إذ الملابس لا تقطع، بل الثوب يقطع ويتخذ منه قميصًا مثلًا.

نكتةُ جمع ﴿ثِيَابٌ﴾ لا (أثواب):

جمع الكثرة دليلُ تراكم العذاب المحيط بهم

من اللّافت للنَّظر في صيغة جمع (الثياب) إيثارُ جمع الكثرة ﴿ثِيَابٌ﴾ على جمع القلة (أثواب)؛ ونكتة ذلك الدلالةُ على إحاطة العذاب بهم وتراكمِه عليهم، فهو طبقات بعضها فوق بعض[2]، وكلها محكمةٌ قد قطِّعت بإحكام شديد، وإذا كانت طبقةٌ واحدة من النار كافيةً في شدَّة الإيلام، فكيف إذا كانت طبقات؟

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها:

تحتملُ (مِن) الابتداء أو البيان

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن نَّارٖ﴾ للابتداء، والمعنى ﴿ثِيَابٞ﴾ مبتدأة ومنشأة ﴿مِّن نَّارٖ﴾، أوْ أنَّها للبيان، بأن تكون قد أزالت الإبهام الَّذي قد يُفهم من لفظ ﴿ثِيَابٞ﴾ قبل أن يتمَّ بيان أنَّه ﴿مِّن نَّارٖ﴾، أي: أنَّه مُعدٌّ أيضًا لعذابهم لا لوقايتهم.

وجه ذكر النّار دون جهنم:

تقطيع الثّياب من النّار المحيطة بالأجساد لا من جهنم الَّتي هي اسم علم

سببُ إيثار التعبير بالنار دون (جهنم) في قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾؛ لعدم تصوّر تقطيع الثياب من جهنم الَّتي هي

(1) الراغب، المفردات: (ثوب).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 128.

عَلَمٌ على النّار، فإنَّ الثيابَ مقطَّعة من النار، فهي ثيابٌ نيرانيَّةٌ تلتصقُ بأجسادهم، وتسترُها من شدَّة ثخانتها، بالإضافة إلى ما ذكر من أوصاف النار، وصور التعذيب بها الَّتي حملتها الأخبارُ الَّتي اكتنفت ذكرها، وهي تقطيع الثياب منها، وصبُّ الماء الحار المغليِّ فوقَ رؤوسهم، ليصهرَ أبدانهم ظاهرها وباطنها، ثمّ أسواط الحديد الَّتي يضربون بها إذا ما حاولوا الخروجَ من النار، فكلُّ هذه الأوصاف مغنيةٌ عن التجهُّم الَّذي يفيده اسم (جهنم)، فهو أشدُّ وأقسى من مجرد إفادة معنى التجهُّم، هذا فضلًا عما يفيده لفظ (النار) من الإحراق والإيلام، كما أنّ النارَ مُحيطةٌ بهم بخلاف (جهنم) فإنها عبارةٌ عن اسم علَم للمكان، فلا يفيد الإحاطة بالمعذَّبين إحاطةَ النار بهم.

غرضُ تنكيرِ ﴿نَّارِ﴾:

تنكيرُ كلمة ﴿نَّارِ﴾؛ لتفخيم شأنها وتهويل أمرها، فهي نار عظيمةٌ مُحرقةٌ مُؤلمةٌ، لا يعلمُ المتوعَّدون بها قدرَها.

بلاغةُ المجاز وتوجيهاتُه:

الاستعارة التَّمثيليَّة التَّهكميَّة أو المجاز المرسل يرسمانِ صورةً مخيفةً للعذاب

في قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ احتمالان مَجازيّان؛

الأول: احتمال الاستعارة التمثيلية، حيثُ شبَّه إعدادَ النار المحيطةِ بهم بتقطيع ثياب وإعدادها لهم على قدر جثثهم، وهي استعارة تمثيلية تهكُّميَّة؛ إذ ليس هناك تقطيعٌ ولا ثياب على الحقيقة[1]، وكأنَّ النار تمَّ تفصيلها على قَدْر جسومهم، كما يفصَّل الثوب إحكامًا للعذاب، ومبالغةً فيه، فليس فيها اتّساعٌ يُمكن أنْ يُقلِّل من شِدَّتها، وأنها ليست فضفاضةً عليهم[2].

وأمّا **الاحتمال الثاني**: فأنْ يكون من باب المجاز المرسل، فلفظ:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 128.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 16/ 9761.

﴿قُطِّعَتْ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقته المُسببيّة، بإطلاق المسبَّب وهو التقطيع وإرادة السَّبب وهو التقدير؛ إذ لا يُقطَّع الثوب إلا بعد تقديرٍ وتخمينٍ عَلَى مقادير جثثهم وأبدانهم(1).

براعةُ الخبر ﴿يُصَبُّ﴾ بعد الخبر ﴿قُطِّعَتْ﴾:

لمّا اشتملت ثيابُ النّار الأبدان استكمل النَّظم الرؤوس بصبِّ الحميم

يدلُّ التعبيرُ بتعدُّد الخبر وتلاحقِه في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ على أنَّ رؤوسهم ليستْ في مأمنٍ من وقوع العذاب بها أيضًا، وذلك أنَّه لمّا قال: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ﴾ وكانت الثياب ممّا يشملُ الأبدان ويحيطُ بها دون الرؤوس، نصَّ بعد ذلك عليها دفعًا لتوهُّم عدم وقوعها تحت طائلة العذاب، ولبيان أنَّ لها عذابًا يُناسبها، وهو أنَّ يُصبَّ الماءُ المغليُّ عليها، لينسابَ من فوقها آخذًا طريقَه إلى الوجه والعنق وما يطالُه من جسده، وربَّما ينفذُ إلى داخل جوفِه عبر منافذِ الرأس ومسامِّ الجلد أو بطريقةٍ لا نعلمها، اللّه محيطٌ بتفاصيلها، وهكذا يكونُ العذابُ شاملًا للبدن كلِّه، وما ذلك إلا لرفضِهم السّجودَ لربِّهم، فكانت النارُ تُجبرهم على هيئةِ السُّجود، إذ بصبِّ الماء على الرؤوس سوف يَنحنون على هيئة السّاجدين المطأطئي الرؤوس من شدَّة العذاب.

نكتةُ مجيء ﴿يُصَبُّ﴾ مبنيًّا للمفعولِ:

تهويل مشهد الصَّبِّ بحذف ذكر فاعله وتسليطُ الاهتمام على الفعلِ

أوثر التعبير بقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ﴾ مبنيًّا للمفعولِ للتهويل، ولأجل الاختصار، لعدم الحاجة إلى تعيين الفاعل للعلْم به، فما من شكٍّ في أنَّ هذا الصبَّ يقومُ به ملائكةُ العذاب الَّذين يُسند إليهم فعلُ كلِّ ما يُحيق بكِبْر المعذَّبين وغرورِهم من ألوان العذاب.

فصاحةُ مفردة ﴿يُصَبُّ﴾:

التعبير بالصَّبِّ دالٌّ على استغراق المصبوب كاملَ الموضع المرادِ تعذيبُه؛ لأنَّ الصَّب معناه: إراقةُ السّائل وسكبُه من أعلى(2) لينسابَ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 37.
(2) الراغب، المفردات: (صبب).

لم يعرق جبينهم لله في الدّنيا، فصُبَّ عليهم الحميم في النّار

إلى أسفل بقوَّة، وفيه من كمال التمكُّن ما يحقِّقُ كمالَ التصوير في بلوغ المراد، وفي اختيار هذه المفردة دلالةٌ على سقوطِ الماء المغليّ من أعلى بشدَّةٍ وقوَّةٍ، وكأنَّهم يجلسونَ تحت شلالٍ متدفّقٍ لا يستطيعونَ رفعَ رؤوسِهم من جريانه وشدَّتِه العالية.

سرُّ اختلاف التَّعبير بالصيغ الماضية والمضارعة:

تقطيع الثياب سابقٌ لمجيء أهلها أمّا الصّهر والصَّبُّ فلا يكون إلّا عند حضورهم

اختلفت صيغ الأفعال عند التعبير عن العذاب وألوانه بما يتناسبُ معَ الغياب والحضور للمعذَّبين، فجاء بالماضي ﴿قُطِّعَتۡ﴾؛ لبيانِ حتميَّة وقوعِ هذا الأمر، وأنها قد أُعدَّت سلفًا، وتهيَّأت لهم حال غيابهم، وجاء بصيغة المضارع في قوله: ﴿يُصَبُّ﴾ وقوله: ﴿يُصۡهَرُ﴾؛ لتصوير مشاهد التَّعذيب الَّتي ستكون في نار جهنم، وكأنَّها تحدث الآن أمامَ العيون وتحسُّها وتشاهدها، وما دلَّت عليه صيغة الماضي اكتستْ به بقيَّة الأفعال، ومثلها المضارع، فجميع هذه الأفعال حتميَّة الوقوع، وهي تصوِّر المشهد، لكنّ إيثار الماضي مع التَّقطيع باعتبار أنَّ وجود الثياب سابقٌ على وجود لابِسِها وهم عنها غائبون، أمّا الصَّب والصَّهر فلا يكون إلّا عند وجود المصبوب عليه المصهور وحضوره، ولذا عبَّر عن العذاب المعدِّ بصيغة الماضي، والعذاب حالة الحضور بصيغة المضارع.

نكتةُ تقديم ﴿مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾:

لم تقبل عقولهم الإيمان فغمرتهم النّيران

قُدِّم قوله تعالى: ﴿مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ﴾ على نائب الفاعل ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾؛ لتعيين الجهة بالنصِّ عليها اهتمامًا بها، لكونها غير مشمولة في قوله تعالى: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾؛ إذ الثياب للبدن لا للرأس، كما يفيدُ اختصاصَ هذا النوع من العذابِ بهؤلاء الكافرينَ بربِّهم الرّافضين السّجودَ له في حياتهم الدنيا غُرورًا واستكبارًا.

براعة استعمال حرف الجرّ ﴿مِن﴾ في الآية:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ﴾ لابتداء الغاية في أوَّل

أمكنة الفوقية، "وكذلك أنَّ الحميم إذا صُبَّ فوقَهم عن بُعد، فإنّه يدركُه الهويُّ فيُنقصُ من حرارته، فإذا صبَّ فوق رؤوسهم بالقربِ نزلَ كما هو، وهذا مشاهدٌ عندنا في الشيء إذا طبخناه أوْ صبَّ في الإناء؛ فإنَّه يبردُ بالمغرفةِ ترفعُ بها إلى فوقٍ وتصبُّه، فيبردُ بالهواء، ومهما علَوْنا بالمغرفة إلى فوق، كان أشدَّ في تبريده، فأفادتْ زيادةُ ﴿مِن﴾ أنَّه يصبُّ فوقَ رؤوسِهم مِن أقرب أمكنة الفوقيَّة إليهم، حتى لا ينتقص من حرارته شيءٌ"[1]، وبذلك يكون التعبير بـ ﴿مِن﴾ مُؤذِنًا بشدَّة الوقوع[2].

الـصَّـب يـكـون من أقرب أمكنة الفوقية لا من أبعدها

دلالةُ استعمال الظرفِ ﴿فَوۡقِ﴾:

استعمالُ الظّرفِ ﴿فَوۡقِ﴾ في قوله: ﴿مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ﴾ دالٌّ على تعيين جهةِ صبِّ الحميم، وأنَّه من أعلى، وبذلك يكون أشملَ للرّأس ولسائر البدن، ولا تغني عنه كلمة (الصبِّ) الَّتي تدلُّ على مجرَّد الارتفاعِ للماء المصبوبِ النّازل على الأبدان، من دونِ تحديدٍ لكونه نازلًا على رؤوسهم، لكنْ بتشخيصِ محلِّ الصب وهو فوقَ أعلى البدن ومكان الرأس يتحقَّقُ المراد من شمولِ العذاب لأبدانِهم بشكلٍ مُستغرق.

تـعـيـين محـل الـصـبّ مفيد لتحقيق شمول العذاب

توجيه تخصيص الرؤوس بالذكر:

خصَّ الرؤوس بالذكر بحيث لم يقلْ: (من فوقهم) فيشير به إلى الجهة؛ لأنَّ ذكرَ الرؤوس مقصودٌ لذاته، لكونها غيرَ مشمولة بقوله: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾، وأيضًا لتخويفهم بتعذيبِ الرأس، كونُها أكثرَ مواضعِ الجسم شعورًا وإحساسًا بالتعذيب والآلام، وللاستخفافِ بغرورهم وكِبرهم الَّذي منعَهم من السُّجود في الدنيا، فعُذِّبوا بما ينال موضعَ الأنفة من أبدانهم وهي الرّؤوس، فكان الجزاءُ من جنس العمل.

عـذاب الـرأس أشـد تـعـذيبًا وأكـثر إيـلامًـا وأعمقُ تهكُّمًا

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 185.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 128.

نكتة التَّعريف بالإضافةِ:

صبُّ الحميم على رؤوس المكذِّبين ومنها على سائر الأجساد

أُضيف لفظُ الرؤوس إلى ضمير الجمع حيث قال: ﴿رُءُوسِهِمُ﴾ دون التعريف بـ(أل)، حيث لم يقل: (الرؤوس) للتخصيص، فصَبُّ الحميم بهذه الكيفيَّة إنّما يكون على رؤوسهم هم لا على جميع الرؤوس، وأنه كذلك على رؤوسهم لا على سائر أجسادِهم الظاهرة، لينسابَ إلى بواطنِهم ويَصهرَ ما فيها من أحشاء، وعلى ظواهرِهم ليَصهرَ ما عليها من جلود؛ إضافةً إلى ما سبق ذكرُه من تعذيبِ ظاهرِ أجسادهم بالثياب من النار، الَّتي قُطِّعت على مقدار أجسادِهم بإحكام وازدراء.

نوع التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾:

عذابُ الحميم معهودٌ والغفلة عنه تدلُّ على الصُّدود

(أل) في قوله ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ للعهد، حيثُ المراد به السّائلُ الشّديدُ الحارُّ منه دون البارد، بقرينة قوله: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ وهذا إنَّما يكون بالحارِّ من الحميم دون البارد، فإنَّ البارد لا يَصهر؛ وذلك أنَّ كلمة ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ كما قال ابن الأعرابي: هي من الأضداد، فتطلقُ على الحارِّ والبارد[1].

كما يؤيد أنّه الحارُّ دون البارد ما أخرجه الترمذي وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: "إنَّ الحَميمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الحَميمُ حَتَّى يَخْلُصَ إلَى جَوْفِهِ فَيَسْلِتُ ما في جَوْفِهِ، حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وهو الصَّهْرُ ثُمَّ يُعادُ كَما كانَ"[2].

بلاغةُ جملةِ الحال:

بعد تعذيبِ ظاهرِ الأجساد ينفذُ الحميم إلى بواطنِها

لجملة الحال ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ دلالةٌ ترابطيَّة تتميميَّة احتراسيّةٌ؛ وذلك أنّه لمّا ذكر ما يعذَّب به ظاهرُ الجسد المدلولُ عليه بتقدير الثياب النارية وتقطيعها، وبصبِّ الحميم من

(1) الواحدي، البسيط: 15/ 332.
(2) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب: أبواب صفة جهنم، الحديث رقم: (2582).

فوق رؤوسهم، ذكر بعد ذلك ما يصلُ إلى باطنهم وأحشائِهم، "وهو الحميم الَّذي يذيبُ ما في البطن من الحشا، ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر، وهو الجلد فيؤثّر في الظّاهر تأثيرَه في الباطن"[1]، وهو ما صُرِّح به في قوله سبحانه: ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥﴾ [محمد: 15]، وقوله تباركتْ أسماؤُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: 56]، فقد حققتْ جملةُ الحالِ احتراسًا عن نزول الحميم إلى الرؤوس مِن دون أنْ يخترقَها ويَصهَرَ الأحشاءَ بحرارته العالية.

فصاحةُ اختيار مفردة الصَّهر دون الإذابة:

كلُّ صَهْرٍ إذابةٌ وليست كلُّ إذابة صَهْرًا

استعمالُ مفردة الصّهر أفصح من الإذابة في قوله تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾؛ لأنها أدلُّ على شدَّة حرارة النّار، الَّتي لا تُذيب فقط الشّحوم والدّسَم كما هو معنى الإذابة[2]، ولكنَّها لشدَّتها تصهرُ الأمعاءَ والجلود، فتجعلُها تذوب كما تذوبُ الشُّحوم، وأيضًا فإنَّ الصَّهر إنما يكون بالمخالطة الشّديدة، فذلك أصلُ معناه[3] حتى يذوبَ ما ليس من طبيعته؛ كالأمعاء والأحشاء والجلود، ولو قيل: (يذابُ به ما في بطونهم) فإنَّه قد ينصرفُ إلى الشَّحم وليس إلى أصلِ الأمعاء والجلود.

مناسبة بناء فعل ﴿يُصۡهَرُ﴾ للمفعولِ:

عدم تعيين الفاعل أشدُّ ترهيبًا

بُني فعل الصَّهر ﴿يُصۡهَرُ﴾ للمفعولِ؛ ليتَّسق مع بناءِ الفعلين قبلَه ﴿قُطِّعَتۡ﴾ و﴿يُصَبُّ﴾، وذلك للعلْم بالفاعل من الملائكة الموكَّلين بالتعذيب، وعدمِ تجدُّد حاجةٍ تدعو إلى تعيينه، إضافةً إلى التهويل بها والتفظيع الحاصل من إبهام الفاعل.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 496.
(2) الخليل، العين: (ذوب).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 30.

معنى الباءِ ودلالتها:

التصاقُ الحميم بالأجساد تصويرٌ عميقٌ لشدَّة العذاب

(الباء) في قوله تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ﴾ للإلصاق، وهي مع الفعل قبلَها دالّةٌ على التصاق ﴿ٱلۡحَمِيمُ﴾ وهو الماءُ المغليُّ بباطنهم، حتى إنَّه لينفذُ بعد ذلك إلى ظاهرِهم، ودلالةُ الالتصاق تُعطي تلاحمًا بين الحميم وأجسادهم وما تنفذُ إليه من أحشائهم، فيكون فيه تصويرٌ أعمقُ لعملية الصَّهر والاحتراق.

نكتةُ مجيء نائب الفاعل اسمًا موصولًا:

التعبير بالموصول يفيد العموم والإبهام

أتى النَّظم بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ دون الاسم الظاهر كـ(الأحشاء)؛ لكون التعبير بها أجمع وأخصر، حيث دلَّت على شمول الصَّهر لكلِّ ما في بطونهم دونما تعيينٍ لبعض دون بعض، فالإبهام والعموم في ﴿مَا﴾ يجعل الصَّهرَ متناولًا لكل الأحشاء من دون تمييز واقتصار.

دلالةُ استعمال حرفِ الظَّرفيَّة:

تعيينُ محلِّ العذاب أشدُّ إيلامًا للمستكبرين

دلَّ استعمال الحرف ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِهِمۡ﴾ على استغراق الصَّهر والعذاب لكلِّ ما هو مظروفٌ في البطون، مشمولٌ داخلَ تجويفها، وهو متَّسقٌ مع دلالة ﴿مَا﴾ العامة المبهمة، وفي هذا الحرف تأشيرٌ على شدَّة حرارة الحميم المصبوب على الرأس، إذ نفذ منه ونزل إلى ما في البطون والجلود.

نكتةُ جمع البطون مع إضافتها إلى ضمير الجمع:

العموم والاستغراق أشدُّ تفضيعًا وترهيبًا

جُمِع لفظُ (البطون)، وأُضيف إلى ضمير الجمع لإفادةِ العموم، فالجمعُ المُعرّف بالإضافة كالجمع المعرّف بـ (أل) في إفادة العموم.

نوع الواو ومعناها السّياقيّ:

الواو للعطف والعطف إما من عطف الأفراد أو عطف الجمل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ عاطفةٌ، وهو إمّا من عطف المفردات، بأن تكون كلمة ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ معطوفة على ﴿مَا﴾ فتدخلُ في حُكم الصَّهر، ومرادُه أنَّ الحميمَ إنَّما يمسُّ الظّاهر ويُلابِسه ومع ذلك فتأثيرُه في الباطن أقوى، وهو أحدُ احتمالين، والاحتمالُ

الآخر أنْ ينسابَ الحميمُ داخلَ بطونهم من منافذَ يصنعُها بحرارتِه الصّاهرة الشديدة في الرأس والوجه، فيَصهرها ثمَّ ينفذ إلى الجلود فيصهرُها كذلك.

وإمّا أن يكون العطفُ من عطف الجمل، أي بالعطف على جملة ﴿يُصۡهَرُ﴾ وحينئذ يقدَّر لها فعلٌ أي: (وتُحرَق الجلود)؛ "لأنَّ الجلود لا تذابُ، إنَّما تجتمعُ على النار وتنكمشُ، وهذا كقولهم: (علفتها تبنًا وماءً باردًا) - أي: وسقيتها ماءً باردًا - وقول الشاعر: (وزجَّجن الحواجب والعيونا)"[1]، أي: وكحَّلن العيونا، والأَوْلى الوجهُ الأوَّل؛ لأنّ صهرَ ما في البطون والجلود لا يتنافى مع كونها لا تذوبُ بمعنى الفناء، بل تنصهرُ وتنضج وتنكمش، ثمّ يبدَّلون جلودًا غيرها ليزدادوا عذابًا.

التعريف بـ (أل) مراعاةٌ للفاصلة ولبيان أنّ حرق الجلود ليس خاصًّا بهم

نكتةُ تعريف الجلود بـ (أل) لا بالإضافة:

جاءَ تعريف لفظ ﴿وَٱلۡجُلُودُ﴾ بـ(أل) دون الإضافة كما في ﴿بُطُونِهِمۡ﴾، وذلك أنَّ حرق الجلود شأنٌ عامٌّ في جميع المعذبين، ولا يخصُّهم وحدَهم، بناءً على أنّه من عطف الجمل، ولذا لم يسلُك به مَسلكَ ما قبله من الإضافة المخصِّصة في لفظي ﴿رُءُوسِهِمُ﴾ و﴿بُطُونِهِمۡ﴾ في قوله سبحانه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾، كما فيه رعاية للجانب الصَّوتي في الفاصلة، والذي نميلُ إليه أنَّ (أل) عوضٌ عن المضاف إليه، فكأنَّ المعنى: (ما في بطونهم وجلودهم)، وتكون النكتةُ في العدول الدلالةَ على الاستغراق للجلد كلِّه، حتى لا يبقى منه موضعُ لمعة إلا وتعرَّضت للصّهر والعذاب.

تلاحقُ صور العذاب لشديدِ الاستكبار والاستخفاف

نوع الواو ودلالتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾: عاطفةٌ لهذه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 496، والسمين، الدر المصون: 8/ 250.

الجملة على جملة ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾ قصدًا للتشريكِ والجمعِ بينَ العذابين، وما تلاحقُ هذه الصّور من العذابات المتوالية بالجملِ النعتيَّة والحاليَّة والمعطوفة إلا لشدَّة استكبارِهم وعدمِ خضوعهم وانقيادِهم لربوبيَّة خالقهم وموجدِهم العظيم.

نكتةُ تقديم الجار والمجرور ﴿وَلَهُم﴾:

قُدِّم شبهُ الجملة ﴿وَلَهُم﴾ وهو الخبرُ على المبتدأ وهو لفظ ﴿مَّقَٰمِعُ﴾؛ لإفادة الاختصاص، وفيه تخويفٌ لهم، وتنكيلٌ بهم، وتهكُّم يقابلُ استخفافَهم بعظمة اللّٰه واستكبارَهم على خالقهم، ورفضَهم لربوبيَّتِه وسلطانِه.

نوع اللّام ومعناها:

الكُفّارُ مُستحقّون أنْ يُضرَبوا بمقامعِ الحديد

اللّامُ في قوله: ﴿وَلَهُم﴾ للاستحقاقِ، وقُصد بمجيئها إفادةُ استحقاقهم الضَّرْبَ بمقامعِ الحديد وأسواطِه؛ كلَّما حاولوا الخروج من النّار هربًا من شدَّة العذاب، وقيل: اللّام للأجْل والغرض، والكلامُ على حذف مضاف، أي: لتعذيبِهم، وقيل: هي بمعنى (على) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ [غافر: 52]، أي: وعليهم[1]، والأرجح الأول لأنَّ دلالة الاستحقاق تظهرُ أنَّ ما وقع عليهم كان نتيجةَ أعمالهم وغرورِهم في الدنيا واستكبارِهم عن الخضوع لربِّهم.

تعيين مرجع الضمير ﴿وَلَهُم﴾:

الضميرُ في قوله: ﴿وَلَهُم﴾ يعودُ فيما هو ظاهرٌ على ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وللَّذين كفروا ﴿مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ﴾، وقيل: هو عائدٌ على زبانية النّار، أي: وللزبانيةِ ﴿مَّقَٰمِعُ﴾ بأيديهم يقمَعون بها الكفار، ويضربونهم كلَّما حاولوا الخروجَ من النّار، وهو بعيدٌ لمنافرتِه السّياق[2]، وعدمِ تقدُّم المرجعِ الدالِّ على ذلك.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 101، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 249.

فصاحةُ التعبير بلفظ ﴿مَّقَٰمِعُ﴾:

لفظُ المقامع يوحي بالعذاب الشَّديد

المقامع: جمع مِقمَعة - بكسر الميم - بصيغة اسم آلة للقَمْع، وهو السَّوطُ، وقيل: المِطرَقة[1]، أي: يُضربونَ بسياطٍ مِن حديد، والقَمْعُ: الكفُّ عن شيءٍ بعُنْفٍ[2]، وفي التعبير بـ(المقامع) ترهيبٌ لهم وتحذيرٌ بإخبارهم عن مصيرهم الَّذي يَنتظرُهم، لعلَّهم أنْ يَفيقوا ويَنتبهوا، وهي توحي بما سيكونُ لهم من عذابٍ شديدٍ سوى عذابِ النّار، فالعذابُ لا يقتصرُ على الحَرْق، بل يتعدّاه إلى أصنافٍ فظيعة، وأشكالٍ رهيبة.

دلالة الاحتراس بالوصفِ:

تميُّزُ العذاب بتميُّز آلاته

وُصفت المقامع بأنَّها مصنوعةٌ ﴿مِنۡ حَدِيدٖ﴾ احتراسًا أنْ يُظنَّ أنَّها مصنوعةٌ من الجلودِ كالسّياط المعهودة، وذلك زيادةٌ في التَّرهيب، وبيانٌ لما يقع عليهم من شديد العذاب.

دلالةُ ﴿كُلَّمَآ﴾ في بناء الجملة:

لا مهربَ من عذابِ الله ولا مخرجَ إلّا طريق جهنَّم

(كلَّ) منصوبٌ على الظّرفيَّة الزمانيَّة؛ لأنَّها أُضيفت إلى (ما) الظرفية، والعامل فيها قولُه: ﴿أُعِيدُواْ﴾، وهو جوابُها، و(ما) نكرةٌ موصوفةٌ، ومعناها: الوقت، والعائد محذوفٌ، تقديره: كلَّ وقت[3]، أي: كلَّ وقتٍ أرادوا فيه الخروجَ، وحاولوه، ووجهوا بسياطٍ مِن حديدٍ تضربُهم وتَزجرُهُم وتَمنعُهُم منه، وهذه الأداةُ تُستعمل استعمالَ أدواتِ الشَّرط والجزاء، فتفيدُ تعلُّق مضمونِ الجواب بمضمون الشَّرط، ممّا يوحي بالارتباطِ والتلازم بينَ حالتي إرادة الفرار والإعادةِ بكلِّ عُنفٍ وقوّةٍ وقَسوة، فتظهرُ صورةُ (الطِّباق) الخفي بين مُريدٍ للهروب ومُحاولٍ له، وإعادةٍ إلى المكان المهروبِ منه بعنفٍ.

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 250.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.
(3) السمين، الدر المصون: 1/ 180، 8/ 250.

نكتةُ منع إرادة الخروج لا الخروج:

الـنّـار سجنٌ مقفلٌ لا نجاةَ منه ولا مهربَ

عُلِّق أمرُ إعادة الكفّار إلى جهنم على مجرَّد إرادة الخروج: ﴿أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ دون الفعلِ (خرجوا)، يدلُّ على شدَّة مراقبتِهم والتضييقِ عليهم، حتى إنَّهم ليُضرَبون بها لمجرَّد محاولةِ التَّفكيرِ بالخروج، لا على الخروج نفسه؛ لأنَّهم لنْ يُدركوه أصلًا، وهذا من عجيب تهويلِ ذلك المشهَد الأليم، وفيه ردٌّ على تشبيه زبانية النّار بسجّاني الدُّنيا، فإنَّ سجونَ البشر مهما بلغَتْ من تشديدِ الحراسة، فهي كالهباء لما يكون في النّار؛ إذ لا علمَ للسجّان البشريِّ بالإرادة، وإنما بالفعل نفسه إنِ انكشفَ له وعلِمَ به.

سر التَّعبير بأداة ﴿أَن﴾ المصدرية مع الفعل المضارع دون المصدر:

محاولة الخروج من النار متكرِّرة لا للأمل فيها بل لشدَّة العذاب

في العدولِ عن المصدر الصَّريح وهو الخروج، إلى المصدر المؤوَّل وهو ﴿أَن﴾ المصدريّة والمضارع بعدها: ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾، إشعارٌ بأنَّهم لشدَّة ما يُلاقونَه من عذاب، سوفَ تتكرّر منهم الإرادة لمحاولات الخروج الّتي تشيرُ إليها ﴿كُلَّمَآ﴾ أيضًا، وأنَّ الضّربَ بالمقامع مع كلِّ إرادة للمحاولة لا يمنعُهم من تكرار المحاولة مرّات ومرّات، أملًا في النّجاح والخروج، لكن هيهات هيهات، إنَّه أمل بائس، وبذلك يتناغمُ التعبير بـ﴿كُلَّمَآ﴾ مع المصدر المؤول ﴿أَن يَخۡرُجُواْ﴾ تناغمًا دقيقًا في الدَّلالة على تكرُّر الإرادة ومحاولةِ الخروج والفرار.

مَعْنَيا (من) ودلالتهما:

تـحـديـد المـبـدأ والسبب يصور حقيقة المشهد الأليم

(من) المتكررة في قوله تعالى: ﴿أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ﴾ لها معنيان؛ فالأولى ابتدائيّةٌ، والضّميرُ يعود إلى (النار) والمعنى أنَّهم كلما أرادوا أنْ يَبتدئوا خروجًا من النّار ويُحاولوه تُعيدُهم مقامع الحديد إلى مبدأ محاولةِ الخروج.

والثانية في قوله: ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ سببيَّة، وهي كاشفةٌ عن سببِ محاولاتهم الخروجَ من النّار، أي: أنّهم يريدون الخروج من النار

بسببِ ما يُلاقونه فيها من عظيم الغمِّ والهمِّ وأصنافِ العذابِ الأليم، وكلٌّ من حالتي الابتداءِ والسّبب وتأشيرهما يُعطيان للمشهد تشخيصًا دقيقًا، بحيث ندرك كميّةَ الألم ونوعيَّة المهانة، الَّتي تجعلهم في حالاتِ فرارٍ دائمة، ويمكنُ حملُ ﴿مِنۡ﴾ الثانية على أنها ابتدائية أيضًا، فيكون مبتدأ الخروجُ من غمِّ النار، وهو المقصود بالأصالة كما هي وظيفةُ البدل.

موقعُ ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ الإعرابيّ وأثرُهُ في المعنى:

خروجُ الكفّار بسببِ الغمِّ المُحيطِ بهم

قوله تعالى: ﴿مِنۡ غَمٍّ﴾ إمّا أن يكونَ بدلًا من الضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ بإعادةِ العامل، بناءً على أنّها ابتدائيّة أيضًا وليست للسببيَّة كما تقدَّم آنفًا، أي: بدلَ اشتمال كقوله: ﴿لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ﴾ [الزخرف: 33]، ولكن لا بدَّ في بدل الاشتمال من رابطٍ، ولا رابط هنالك، فقالوا: هو مقدّر تقديره: (من غمها)، وأنّه حُذف لكونه مفهومًا من المعنى[1]، وإمّا أن يكون مفعولًا له، ولمّا نقصَ شرطٌ من شروط النصب جُرَّ بحرف السَّبب بناءً على أنها سببيَّة، وذلك الشّرط: هو عدمُ اتحاد الفاعل؛ فإنَّ فاعلَ الخروج غيرُ فاعل الغمِّ، فإنَّ الغمَّ من النار والخروجَ من الكفّار[2].

براعة استعمال مفردة ﴿غَمٍّ﴾ دون مرادفاتها:

غـمُّ الكافرين مستحكمٌ بهم معنويًّا وحسيًّا

آثر النَّظم استعمالَ مفردة ﴿غَمٍّ﴾ وهي مصدرُ غَمَمْتُ الشَّيء، أي: غطَّيتُه، والمعنى: كلّما أرادوا أن يخرجوا من تغطيةِ العذاب لهم، أوْ ممّا يُغطّيهم من العذاب ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، أي: في قعرِها بأنْ رُدّوا من أعاليها إلى أسافلها من غير أنْ يخرجوا منها، إذ لا خروجَ لهم كما هو المشهور من حالهم[3]، ومعنى التَّغطية يدلُّ على الإحاطةِ المُستمكنة

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 496.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 251.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.

منهم، فلا يُراد بـ(الغمِّ) هنا المعنى الحسيُّ وحده، أو المعنويُّ وحده، بل كلاهما، ومن هنا جاءت براعةُ استعمال هذه المفردة.

غرضُ تنكير ﴿غَمٍّ﴾:

نُكِّرت لفظة ﴿غَمٍّ﴾ للتعظيم والتفخيم، والمراد من غمٍّ عظيم من غمومها[1] الكثيرة الَّتي تجتاح أجسادَهم وقلوبَهم وأرواحَهم.

فصاحة استعمال الإعادة دون الإدخال:

الإعـادة تكون في داخل النّار والإدخال من خارجها إلى جوفها

جاء التَّعبير القرآنيُّ دقيقًا في قوله تعالى: ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ وذلك أنَّ المعذَّبين لم يخرجوا من النّار أصلًا؛ لأنَّهم يُردّون إلى مكانهم الَّذي يحاولون الخروج منه عند إرادتهم التحرّك نحو الخروج، في حين أنّ الإدخال لا يكون إلّا بعد أنْ يتحقَّقَ الخروج، ولذا أوثر التعبير بـ ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ دون (أدخلوا فيها).

نكتةُ التعبير بالمبني للمفعول ﴿أُعِيدُواْ﴾:

جاء التَّعبير عن فعل الإعادة بصيغةِ المبنيِّ للمفعول ﴿أُعِيدُواْ﴾، فلم يذكر الفاعل اختصارًا للعلْم به، ولأنَّ القصد هو الإخبار بإعادتهم المحقَّقة إلى النار، الَّتي يحاولون الخروجَ منها، كما يتجانسُ بناؤه للمفعول مع الأفعال السّابقة عليه المبنية للمفعول الدالَّة على نوعٍ من الإبهام، الَّذي يُثير المخاوفَ والرّهبةَ من المجهول.

بلاغة التَّعدية بحرف الظَّرفيَّة دون انتهاء الغاية:

الظرفيةُ دالَّةٌ على التمكُّن والاستقرار في النار

تعدَّى فعلُ الإعادة بحرف الظَّرفيَّة دون انتهاء الغاية (إلى)، وهو يتعدَّى بالحرفين، فقال: ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ ولم يقل: (أعيدوا إليها)؛ وذلك لأنَّ الظرفيَّة المدلول عليها بـ (في) مقصودةٌ، فهم لم يخرجوا من النّار أصلًا حتى يَعودوا إليها، بل إنَّ محاولاتهم الخروجَ وإفشالَها كلُّ ذلك يتمُّ في داخل النار، ويدلُّ كذلك على التمكُّن والاستقرار[2].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 129.

عذابُ الكافرين إيلام بدنيٌّ وإيذاءٌ بالقول وعذابٌ نفسيٌّ

بلاغةُ حذف فعل القول:

قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ هي جملةٌ معطوفة على جملة ﴿أُعِيدُواْ﴾ بتقدير فعلِ قولٍ محذوفٍ؛ لامتناعِ عطفِ الإنشاء على الخبر عند البيانيّين[1]، أي: وقيل لهم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ فيكون من عطف الجمل، ويشير إلى هذا المحذوف ورودُه مُصرَّحًا به في آية شبيهةٍ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة: 20]، وفي هذا القول تقريعٌ لهم وتهكُّم بهم، وتحسير على ما آل إليه مصيرُهم، فيكون قد جمع لهم بينَ الإيلام بالفعل والإيذاء بالقول، وإنِ اعتمدنا القول بجواز عطف الإنشاء على الخبر وهو الراجح؛ فلا حاجةَ إلى تقدير فعل القول أصلًا، ويكون القصد الأمرَ بذوق العذاب وهم فيه، فيخرج إلى معنًى مجازيٍّ هو التهكم والاستخفاف أيضًا.

بلاغةُ الاستعارة في فعل الأمر ﴿وَذُوقُواْ﴾:

الغرضُ من فعل الأمر ﴿وَذُوقُواْ﴾ هو ذوق عذاب الحريق على سبيل السُّخرية بالكافرين، والإهانةِ لهم؛ فإنَّهم قد علموا أنَّهم يذوقونه[2]، وفي التعبير بلفظ ﴿وَذُوقُواْ﴾ اسْتعارَة تهكُّمية[3]، فقد عبَّر به عن الإيلام الشَّديد تهكُّمًا بهم، إذ شبّه تألّموا بما يضادُّه وهو الذوق للطَّعام والشَّراب كما هو الأصل، بعد أنْ جعلَ بينهما شبَهًا ومُناسبةً، ثمَّ استعارَ الذوق للألم على سبيل الاستعارة التصريحيّة تهكُّمًا واستخفافًا.

العذابُ يُذاق كما تُذاق الأطعمة الكريهة المشمأزّ منها

بلاغةُ الاستعارة المكنية في لفظ ﴿عَذَابَ﴾:

في لفظ (العذاب) وهو هنا المُذاق، استعارةٌ مكنية، فقد شبَّهه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 57، 28/ 194.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 38.

بطعامٍ بغيضٍ كريهٍ إلى طاعمِه، لما فيه من مرارةٍ في طعمه وصعوبةٍ في بلعه، ثم حذفَ المشبَّه به وهو الطعامُ الموصوف بهذا الوصف، ودلَّ عليه بشيء من لوازمه وهو الذوقُ المأمور به في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ﴾، وبذلك تجتمعُ الاستعارة التصريحيَّةُ في ﴿وَذُوقُواْ﴾ والمكنية في ﴿عَذَابَ﴾، وتكون قرينةُ المكنية هي التصريحيّةَ.

نوع الإضافة وصيغة المضاف إليه:

التركيب والصيغة يتآزرانِ في تهويل العذاب

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ من إضافةِ الموصوف إلى الصفة، أي: العذابَ المُحرقَ بالغَ الإحراق وشديدَه، لما في الصيغة (فعيل) من دلالةٍ على المبالغة.

بلاغةُ فنِّ التتميم:

العذابُ شاملٌ للإباءِ الكامل والجحودِ الثّابت

عدَّدتِ الآيةُ الكريمة ألوانَ العذاب الَّتي تنتظرُ الخصم الكافر، الّذي أبى السّجود والانقيادَ للّه، وشملَتْ كلَّ جزءٍ منهم في الظّاهر والباطن، فمِن تقطيعِ ثياب النار لهم، إلى صبِّ الماء المغليِّ الّذي يصهَرُ أحشاءهم داخلَ بطونهم، وينفذُ إلى ظاهرِهم ليصهرَ جلودَهم، أو العكسَ بأنْ يصهرَ جلودهم ثم ينفذَ إلى بواطنهم ليصهرَ ما فيها من أحشاء وأجزاء، فهو تتميمٌ لوصف العذاب الشَّديد في النّار.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التقطيع والتفصيل:

التقطيع أدلُّ على الإحكام والإهانة والتفصيل يكونُ لما فيه فرجة

التقطيع: مبالغة القطع، وهو فصلُ بعض أجزاءِ شيء عن بقيّته، والمراد: قطعُ شقَّةِ الثوب، وذلك أنَّ الَّذي يريدُ اتخاذَ قميص أو نحوِه يقطعُ من شقّةِ الثوب ما يكفي، كما يريده[1]، ولذا فالتعبير بالتقطيع هنا أبلغُ من التعبير بالتفصيل؛ لدلالته على أنّ أثوابَهم من النّار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 230.

قد قُطِّعت على مقدارِهم دونَما زيادةٍ أَوْ نقصان، قال البيضاوي: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ قُدِّرت لهم على مقادير جثثهم[1].

وأما التفصيل فهو من الفصل، وهو: إبانةُ أحد الشّيئين من الآخر، حتى يكونَ بينهما فرجةٌ، ومنه قيل: المَفاصِلُ، جمع مَفْصِل، ويقال: فَصَلْتُ الشاة: قطعتُ مفاصلها، وفَصَلَ القومَ عن مكان كذا، وانْفَصَلوا: فارقوه[2].

ويطلقُ التفصيل أيضًا على حياكة الثوب، وقد يكون الثوبُ المفصَّل فضفاضًا غير محكَم، فلا يدلُّ على المقصود وهو شدّةُ إحكام الثياب النارية عليهم، كما أنَّ في التقطيع من الثوبِ لغرضِ لَبسِه ما يشيرُ إلى الإهانة حتى لبِسوا قِطَعًا مقطّعةً.

الغمُّ والهمُّ:

الـغـمُّ كـربٌ يحصلُ للقلبِ بـسـبـب ما يحصلُ والهمُّ لما يتوقَّع حصولُه

قال العسكريُّ في الفرق بينهما: الهمُّ هو الفِكر في إزالَة المَكْروه واجتلابِ المحبوب، ولَيْسَ هو من الغمِّ في شَيْء، ألا ترى أنَّك تَقولُ لصاحبك: اهتمَّ بحاجتي ولا يَصحّ أن تَقولَ: اغتمّ بها، والغَمُّ معنًى ينقبضُ القلبُ مَعَه، ويكون لوُقوع ضَرَر قد كانَ أو توقّع ضَرَرٍ يكون أَوْ يتوهّمُه[3].

وقال الزبيدي في التفريق بينهما: الغمُّ هو الكربُ يَحصُلُ لِلْقَلْبِ بسَبَبِ ما حَصَلَ، والهَمُّ هو الكَرْبُ يَحْصُلُ بِسَبَبِ ما يُتَوَقَّعُ حُصولُه مِنْ أذًى[4].

وبذا يظهرُ أنَّ التعبير بالغمِّ في الآية أوْلى؛ لأنَّه تعبيرٌ عمّا يحصل لهم من الكَرْب حالَ وجودهم في النّار بالفعل، وهو متعلِّقٌ بأصل المعنى اللُّغوي وهو الغطاء، فإنَّ الغمَّ يُغطّيهم من كلِّ جانبٍ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 68.
(2) الراغب، المفردات: (فصل).
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 266، 267.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (غمم).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٢٣﴾ [الحج: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتميمُ الإخبار عن الجزاء بذكر النَّقيضِ بعدَ النَّقيض

بعد أنْ ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ خبرَ أحدِ الخصمينِ المتضمِّن بيان حالِه وجزائه في الآخرة، وهو الخصمُ الكافر الَّذي أبى الانقياد لخالقِه والسُّجود له، انتقل النظمُ الكريم ليذكرَ لنا خبرَ قسيمِه الآخر، وهو فريقُ المؤمنين الّذين انصاعوا لأوامر اللّه، وسارعوا إلى السُّجود له والانقياد له خاضعينَ، سواءٌ في معناه الشرعيِّ التكليفيِّ بوضع الجباه على الأرض في الصَّلاة المعهودة، أوْ معناه الأوسع وهو كاملُ الانقياد للّه قلبًا وقالبًا، ظاهرًا وباطنًا، حسًّا ومعنًى، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾: أصلُ (حلو) يدلُّ على تحسينِ الشَّيء، وهو الحُلي، ومنه: حُلي المَرْأةِ، وهو جَمْعُ حَلْي، كَما يُقالُ: ثَدْيٌ وثُدي، وظَبْيٌ وظُبي، وحَلَّيْتُ المَرْأةَ، وهَذِهِ حِلْيَةُ الشَّيْءِ أيْ صِفَتُهُ، ويُقالُ حِلْيَةُ السَّيْفِ، ولا يُقالُ: حُلي السَّيْفِ[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ أي: يُلْبَسونَ الحُلي، "والتحليةُ وضعُ الحُلي على أعضاءِ الجسم"؛[2] للزّينة والبهاء.

2) ﴿أَسَاوِرَ﴾: أصلُ (سور) يَدُلُّ عَلَى عُلو وارْتِفاعٍ، ومِنْ ذَلِكَ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حلو)، والراغب، المفردات: (حلى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.

سارَ يَسورُ إذا غَضِبَ وثارَ، وإنَّ لِغَضَبِهِ لَسَوْرَةً، والسّورُ: جَمْعُ سورَةٍ، وهي كُلُّ مَنْزِلَةٍ مِنَ البِناءِ[1]، والسّورة المنزِلةُ الرفيعةُ، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أنّ اللّه أعطاكَ سورَةً *** ترى كلَّ ملكٍ دونَها يَتذبذبُ

وسورُ المدينة: حائطُها المشتملُ عليها، وسورَةُ القرآن تشبيهًا بها لكونها محاطًا بها إحاطةَ السّور بالمدينة، أوْ لكونها منزلةً منازلَ القمر، وسِوارُ المرأة معرّبٌ، وأصله دستوار، وكيفما كان فقد استعملتْهُ العرب، واشتقّ منه: سَوَّرَتُ الجارية، وجارية مُسَوَّرَةٌ ومخلخلةٌ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: 53]، وقال: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: 21][2]، والمراد هنا: أساورُ الذّهبِ الّتي تُلْبَسُ في الذّراع[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ألــوانُ النّعيم لصاحبِ الإيمان السَّليم والعملِ القويم

أما وقد ذكر فيما سبق مصيرَ الكافرين، فها قد حانَ بيانُ مصيرِ المؤمنين الّذين آمنوا باللّه إيمانًا صادقًا، وانقادوا لأوامره فعملوا الأعمال الصّالحة، واجتنبوا نواهيَه فابتعدوا عن كلِّ ما يُغضبُ ربَّهم، فإنَّ جزاءهم أنَّ اللّه تعالى يُدخلهم جناتٍ تجرى من تحت قصورها وأشجارها الأنهارُ العذْبة، يُنعَّمونَ فيها صنوفَ النَّعيم، منها يَشربون، وبها يَتمتّعون، وتُزيّنُهم الملائكة بأساورِ الذّهب وباللؤلؤ، كأنْ يكونَ لهم من اللؤلؤ قلائدُ، أو تيجانٌ، ونحو هذا، ويضافُ إلى هذا أنَّ لباسهم المعتادَ من حرير، حيث كان الذهبُ والحريرُ محرَّمينِ عليهم في الدنيا[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سور).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سور).
(3) السجستاني، غريب القرآن، ص: 68.
(4) مجموعة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 491، وحجازي، التفسير الواضح: 2/ 577، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1011.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التقابل بين الفريقين:

التقابلُ بينَ حالِ كلٍّ من الفريقين في المكان واللّباس وخطابِ الكرامة

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانُ جزاء المؤمنين إثرَ بيان جزاء الكافرين، الَّذي تولّته الآياتُ السّابقة، وقد جاء التقابلُ عجيبًا بينَ الحالين؛ فقابلَ بينَ إدخال المؤمنين الجنة في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وبينَ إعادة الكافرين في النار في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، وبينَ تحليةِ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ وعذابِ الكافرين في قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾، وبينَ لباس المؤمنين في قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ولباس الكافرين في قولِه: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾، وبينَ سماعِ القول الطيِّب لأهل الجنة في قوله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وسماع القول المؤلم: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ لأهل النّار[1].

علَّة فصل الآية عن السّابق:

الآيةُ مستأنفةٌ بيانيًّا أو ابتدائيًّا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إمّا أن يكون استئنافًا بيانيًّا مبنيًّا على سؤال مقدَّر[2] عن ماهيّة جزاء المؤمنين وكيفيّته، وهم الخصم الثاني، بعد أن بيَّنت الآيات السّابقة جزاءَ الَّذين كفروا وهم الخصمُ الأوّل المجادل في الربّ تعالى المنكر لربوبيّته، وعلى هذا فإنَّ بين الآية وما قبلها (شبه كمال اتصال)، وإمّا أن يكون مستأنفًا استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيان جزاء المؤمنين الَّذي استحقّوه بما قدّموه من إيمانٍ صادق وانقيادٍ لربِّهم الخالق.

غرضُ العدول عن مقتضى الظّاهر بالفصل:

استرعاء الأسماع وتنبيه الأذهان بتتويج أهل الإيمان

كان مقتضى الظّاهرِ أنْ يكون هذا الكلام معطوفًا بـ(الواو) على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 31.

جملة: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾؛ لأنه قسيمُ تلك الجملة في تفصيل الإجمال، الَّذي تحقّق في قوله: ﴿۞هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ بأن يقال: (والّذين آمنوا وعملوا الصالحات يُدخِلُهم اللّه جنّاتٍ)، فعدلَ عن ذلك الأسلوبِ إلى هذا النَّظم الرائع المبين؛ لاسترعاء الأسماعِ إلى هذا الكلام، إذ جاءَ مُبتدَأً به مُستقِلًا عما سبقه، مُفتتحًا بحرف التأكيد، ومتوَّجًا باسم الجلالة[1].

غرضُ العدولِ بتصدير الجملة بلفظ الجلالة والتوكيد:

الاهتمام بالمؤمنين وتعظيم جزائهم والتنويهُ بهم

خولف بين هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في أسلوب التَّوكيد مع جملة: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ﴾ حيث خلتِ الأولى من تصديرِها بلفظ الجلالةِ، وبحرفِ التأكيد ﴿إِنَّ﴾، وذلك لتعظيم هذا الجزاء، والإيذانِ بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة، والإظهار لمزيد العناية والاهتمام بأمرِ المؤمنين، والدلالةِ على تحقُّقِ مضمون الكلام[2].

نكتةُ تقديم المسند إليه على الخبر الفعليّ:

الجليلُ سبحانه هو وحدَه من بيدِه إدخالُ المؤمنين الجنَّة

بتأمُّل السّياق يُلحَظ أنَّ السرَّ البلاغيَّ في تقديم المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على الخبر الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هو إفادةُ القصر والاختصاص، فاللّه تعالى وحدَه هو الَّذي يُجازي المؤمنينَ بإيمانهم والصّادقين بصدقهم، ولا صادَّ له يصدُّه عن عطائه وفضله، كما أنَّ فيه أيضًا تقويةً للحكم الَّذي تضمَّنه الخبرُ الفعليُّ، وهو إدخال المؤمنين الجنّات المنعوتةِ بالنعوت المذكورة، ليتنعّموا فيها بكلِّ وسائل النعيم ومظاهره؛ لأنَّه إذا كان اللّه تعالى هو الَّذي يَجزيهم هذا الجزاء، فمِن لوازمه أن يكونَ جزاءً لا تبلغُ العقولُ إدراكَ عظمته وقدرِه، مع ما فيه من التَّشويق لمعرفةِ الخبر فيما يخصُّ شأنَ جزاءِ المؤمنين.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 31.

بلاغة التَّعريض في اختيار لفظ ﴿يُدۡخِلُ﴾:

دخولُ المؤمنين الجنَّة تعريضٌ بحرمة ذلك على غيرهم

من التجلياتِ الظّاهرة في إيثار لفظ ﴿يُدۡخِلُ﴾ في جزاء المؤمنين، واختياره التكريم للمؤمنين والتعريض بالكافرين، فإنّه لمّا قال هناك: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ قال هنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ﴾؛ لبيان الفرق بين الفريقين، وإبراز مدى الهوَّة بينهما، والإدخالُ يُشعر بالإكرام كما يُدخلُ صاحبُ الدار ضيفَه، بخلاف الإعادةِ فيها بعد إرادة الهروب منها فإنَّها تشعرُ بالإهانة والسُّخرية.

بلاغةُ التعبير بالموصول:

التَّنبيهُ على استحقاق المؤمنين ثوابهم العظيم

عبَّر عن المؤمنين باسم الموصول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون اسم الفاعل (المؤمنين)، تنبيهًا على السَّبب الَّذي من أجلِه استحقّوا ما نالوه من ثواب اللّه فضلًا ورحمةً، وهو ما أفصحَتۡ عنه جملةُ صلةِ الموصول، وهو كونهم: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولو قال: (المؤمنين) وهو صفةٌ مشبّهةٌ لا يراد به معنى الوصف الاشتقاقي لكان مدحًا بثبوت اسمِ المؤمنين لهم، دون أن يكتملَ التنبيه إلى سبب استحقاقهم هذا الجزاء العظيم وهو الإيمانُ والعملُ الصّالح.

بلاغةُ الإطنابِ بعطف الخاص على العام:

الإيمانُ وصالحُ العمل طريقُ بلوغِ الأمل

العطف في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من عطف الجمل، حيثُ عطفَ جملة: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على جملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالواو بقصد الجمع والتشريك بينهما، فالإيمان الكاملُ المحقّق لهذا الثواب الجزيل المنصوص عليه في الآية الكريمة، هو ما صاحبَه العملُ الصّالح فكمّله وصدّقه، وكان بمثابة الدليل عليه.

وقد يُحتجُّ بـ(الواو العاطفة) بينهما على أنَّ العملَ ليس داخلًا في حقيقة الإيمان، لكنّه مكمِّل له، وسببٌ في زيادته ورفعته، تأسيسًا على أنَّ العطف يقتضي المغايرة، ويُردُّ عليه بأنَّ العطفَ من عطف الخاصِّ على العام، فهو لونٌ من ألوان الإطناب.

وأيًّا ما كانَ فجمعُهما معًا بالعطف في جملة صلة الموصول إشعارٌ بلزومهما معًا في حصولِ التَّكريم، ونيلِ ما ذُكر من الثواب في الآية الكريمة، لكن يبقى الإيمانُ منجيًا من عذاب الخلود، والعملُ الصّالح مكمِّلًا له في نيل الثّواب والإكرام؛ لأنَّ الله ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: 48].

غرض تنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجمعها:

التنكير والجمع يفيد التكثير والتعظيم

نُكِّر لفظ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ وجُمِع لتفخيم شأنها وتعظيمِ أمرها، وتكثيرِ عددها، وإشعارًا بأنَّ ما فيها من مظاهر النَّعيم لا يردُ على خاطِر، ولا يبلغُ وصفَه واصفٌ.

براعةُ اختيار وصف الجنّات بجريان الأنهار:

محاكاةُ النَّظم للنَّفس البشريَّة تأثيرٌ بليغٌ بما يشفي اللّديغ

في اختيار وصف الجنّاتِ بجريان الأنهار في قوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانٌ لمظهرٍ من مظاهر النعيم، الَّتي تكون لأهل هذه الجنات، فلا يُشَك في أنّ النفوس تأنسُ وتتمتّعُ بما تلتقطُه العيون من منظرِ المياه، وهي تجري في الأنهار الَّتي تتخلّل الجناتِ والبساتينَ في الدنيا، لتنسابَ من تحتِ أشجارها وبينها، وهذا ما لا تختلفُ حوله الأذواقُ السليمةُ، فالناس في أوقات تنزُّههم يهرعون إلى الحدائق الَّتي هذه صفتها، وأهلُ الثراء يتَّخذون لأنفسهم في أفنية منازلهم الواسعةِ ما يُحاكون به الحدائقَ الكبرى في هذا، وهذا كلُّه في الدنيا وأحوالها الفانية، فكيف إذا كان ذلك كلُّه في جنات الآخرة وأنهارها الباقية؟! كما يوحي فعلُ الجريان ﴿تَجۡرِي﴾ بالتدفُّق الهادئ اللّطيف، فلا فورةَ غضب فيه، ولا شدّة موج منه، ولا حركةً عنيفةً تتتابُه.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ ابتدائيّةٌ دالَّةٌ على أنَّ منشأ جري الأنهار وابتداءَه من الجهة التحتيَّة، فهو تدفُّقٌ من أسفلِ الجنّات.

نكتةُ اختيارِ الظَّرفِ ﴿تَحۡتِهَا﴾:

الـظّـرفُ هنا قـيـدٌ كـاشـفٌ تشويقًا للسّامع بـهـذه الـصّـورة الجماليّة

عُلم في العادةِ أنَّ مياهَ الأنهار إنَّما تجري من الجهة التحتيَّة وليس من الجهة الفوقيّة، فما وجه النص عليه إذن في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؟ والجواب: أنَّ قوله تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ قيدٌ كاشفٌ، قُصِد منه زيادةُ إحضارِ حالة جريِ الأنهار، إذ الأنهار لا تجري من فوق، فهذا الوصفُ جيء به لتصوير الحالة للسّامع لقصد الترغيب، وهذا من مقاصد البلغاء، إذ ليس البليغُ يقتصرُ على مجرَّد الإفهام، وقريبٌ من هذا قولُ النّابغة يصف فرسَ الصّائد وكلابَه:

مِن حِسِّ أطلسَ تسعى تحتَهُ شِرَعٌ *** كأنَّ أحناكَها السُّفلى مآشيرُ[1]

نكتةُ إسناد الجريان للأنهار:

تـصـويـر جـريـانِ الأنـهـارِ أنفسِها لكثرة مياهها

الأنهارُ بمعنى الشّقوق لا تجري وإنَّما تجري مياهُها، ومن ثمَّ فإنَّ في إسناد الجري للأنهار (مجازًا عقليًّا)، وسرُّه بيانُ كثرة المياه الّتي في الأنهار، وكأنَّ الأنهار هي الّتي تجري بها، وهذا توجيهٌ واضحٌ في شأنِ أنهار الدُّنيا، وأمّا الجنَّة فهي غيبٌ مَحضٌ، وما قيل إنَّما هو توجيهٌ لما يفهمُه الذِّهن البشريّ، ولمّا كان وصفُ الأنهار لتقريبِ الأمر للأذهان، فكذلك هذا التَّوجيه لتقريبِ تفسيره للأفهام.

بناء ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للمفعول:

الاختصار وبيان الهيئة تعميق لوصف النعيم

في بناء الفعل ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للمفعول تحقيقُ الاختصار بعدم ذكر الفاعل؛ للعناية بفعل التَّحلية، فإنَّ الفاعلَ على الحقيقة هو اللّه تعالى، لكن قد يأمرُ ملائكةً ليباشروه، فطوى النظمُ ذكر الفاعل عنايةً بالفعل ذاته، كما أنّ فيه إشعارًا بفخامة ما يُحلَّون به وتجدده بالزيادة والتنويع، كما أنَّ إسناد الفعل المجهول أفادَ أنّهم يجدون أنفسهم مُحلّين بتكوين اللّه تعالى[2]، من دون لبسٍ منهم أوْ توجُّه للُّبس.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 354.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 312.

وقوع الجملة حالًا أوْ نعتًا:

بيانُ هيئة الداخلين غاية الإكرام وتوصيف الدخول فيه ترغيب عظيم

الجملة الفعلية: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ إمّا حالٌ من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لبيان هيئتِهم وتنعُّمِهم حالَ الدُّخول إلى الجنّات، فهم يدخلونَها وقد حُلّوا بالزّينة والأساور واللآلئ الجميلةِ الفاخرة، أو نعتٌ للجنّات قُصد منه تلذيذُ السّامعينَ بذلك النَّعيمِ المقيم، وما يشتملُ عليه من جمالٍ رائق وحُسنٍ بهيّ.

سرُّ ذكر حرفِ الظَّرفيَّة:

استعجالُ التَّمتّع بالمحرَّمات في الدُّنيا مانعٌ منها في الآخرة

اختار النَّظم الكريم استعمالَ حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا﴾ بالنصّ على الظرفية، حيثُ الضمير المجرور يعود إلى ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ للنصّ على أنّ هذه التحلية، وهي من مظاهر النعيم الأخرويّ، لا مطمحَ إليها في دار الدنيا، وأنَّها ستكون في جنات النعيم في الآخرة، وأمّا الدنيا؛ فهي دار عملٍ واختبارٍ، وقد تكون معيشةُ الصّالحين من حيث قلّة الرّزق فيها قاسيةً، ولو قيل: (يحلون من أساور) بترك حرف الظرفية، لربَّما طمحتِ النُّفوسُ إليها في الدُّنيا، ولتعارَضَ ذلك مع حرمة التحلّي بالذهب على الرجال في الدنيا، ومن ثمَّ كان حرف الظرفيّة هنا حاسمًا ومانعًا لكلِّ احتمال آخر.

ولمّا كان الكفّار يتنعّمون به في الدنيا الفانية، ويَزهون به وقد حُرم منه المؤمنون بالتحريم التكليفي، جعله اللّه تعالى من مظاهر النعيم في الآخرة لعباده المؤمنين خالصًا.

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها البلاغية:

دفعُ أوهامِ الأفهامِ في تعيين المراد بتحلية الأساور

الحرف ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ يحتملُ الابتداء، ويكونُ المعنى أنّ ابتداء تنعُّمِهم أنْ يتحلّوا بالأساور، وهنالك حليٌّ أخرى أجملُ وأبهى، ويكون الاقتصار على ذكر الأساور الَّتي تُلبس باليد عادةً لوضوحِها على لابسيها وحامليها، كما تحتمل التبعيض، أي: بعض أساور؛ للدلالة على أنّ لبسَهم لا بدَّ أن يستلزم الجمال،

وذلك يحصلُ بالبعض دون أن يعمَّ أيديَهم كلَّها، ويحتملُ البيان؛ لما أنّ ذكر التحلية ممّا يُنبئ عن الحُلي المبهم، وقيل: زائدة[1] للتأكيد، والأوْلى تسميتُها مؤكِّدة تأدُّبًا مع النَّظم الكريم، ووجهُ التأكيد أنّه لمّا لم يُعهَد تحليةُ الرِّجال بالأساور كان الخبرُ عنهم بأنَّهم يُحلَّون أساور مُعرِّضًا للتردُّد في إرادة الحقيقة، فجيء بالمُؤكِّد لإفادة المعنى الحقيقيِّ[2]، لكنْ يُضعفُ هذا الوجه أنَّ (مِن) لا تُزادُ للتأكيد عند جمهور النحويين في الإثبات، ويترتّبُ على الحكم بزيادتها النحويَّة أنْ يُعرب ﴿أَسَاوِرَ﴾ مفعولًا به للفعل ﴿يُحَلَّوْنَ﴾.

وجه اختيار صيغة جمع ﴿أَسَاوِرَ﴾:

جمعُ الجمعِ مرادٌ به الأصناف والألوان والأنواع المتعدِّدة

الأساوِرُ: جَمْعُ أَسْوِرَة، والأَسْوِرَةُ: جَمْعُ سِوارٍ[3]، أي: أنَّ أساور هو جمع الجمع، وأُتي به بهذه الصيغة في الآية ﴿أَسَاوِرَ﴾ دون (أسورة) كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: 53]؛ للدّلالة على كثرة ما يُحلّون به من الأساور، حتى إنّه لم يُكتَفَ في التعبير عنها بالجمع، فعمدَ إلى جمْع الجمْع، ليدلَّ على هذه الكثرة الكاثرة، الدّالة على كثرة الأنواع والأصناف والألوان وأشكال الجواهر المصنوعة منها، كلُّ ذلك نعيمٌ يحرص عليه أهل الدُّنيا في الدُّنيا، خصَّ اللّه بها أهلَ طاعته في دار كرامته.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن ذَهَبٍ﴾:

تنوعُ الاحتمال وتعدُّد الإشارات والدلالات

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ ابتدائية على معنى: أنشئت من ذهب[4]، والغرضُ من تحديدِ ابتداء تنعُّمهم بالأساور المصنوعةِ من الذَّهب الإشارةُ إلى حِلِّ ما كان مُحرَّمًا على الرِّجال، وأمّا النِّساءُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 232.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 526، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 231.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 497.

فإنهنَّ يتحلّينَ بتلك الأساور المصنوعة من الذهب الَّتي لم يعتادوا لُبسها في الدنيا، فيحصل لهنَّ سرورٌ وهناءةٌ أعظم، أو أن ﴿مِن﴾ بيانيّةٌ، لما في ذكر الأساور من إبهام أيضًا يحتاج لتوضيح وكشف، إذ تحتملُ الأساور أن تكونَ من فضَّةٍ أوْ لؤلؤٍ[1].

توجيه القراءات في عطف ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ على ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾:

القــــــراءات القـرآنيَّة بحرٌ زخّــار بالمعاني والدّلالات

في قوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قراءتان: الأولى: قراءة النصب ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ وبها قرأ نافع وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، والثانية: قراءة الخفض ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ وبها قرأ بقية العشرة[2].

وتوجيه قراءة النصب ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾: أنه عطف على موضع ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ بناءً على أنّ ﴿مِنْ﴾ زائدةٌ للتوكيد، فيكون المعنى أنهم يُحلَّون الأساورَ واللؤلؤ جميعًا، أوْ على تقدير فعلٍ محذوفٍ: (ويُؤتَون لؤلؤًا)، أوْ (ويَلبسونَ لؤلؤًا)[3]، وعلى هذا التوجيهِ يكون اللؤلؤ مُقابلًا للأساورِ الذهبية، فقد تكون الأساورُ الذهبيّة في الأيدي، وعلى رؤوسِهم تيجانُ اللؤلؤ مثلًا.

وتوجيهُ قراءة الجر ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾: أنه عطفٌ على لفظ ﴿أَسَاوِرَ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ أو على ﴿ذَهَبٍ﴾ في قوله: ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ أي: يُحلّون أساورَ من ذهب ومن لؤلؤ، أي: منهما[4]، ويعطي التوجيه الأول مفادَ التوجيهِ السّابق من مقابلة اللؤلؤ للأساورِ الذهبيَّة، وأما التوجيهُ الثاني فكلٌّ من الذهب واللؤلؤ بيانٌ لتلك الأساور، فتكون الأساورُ مصنوعةً من ذهبٍ ولؤلؤ.

توجيه عطف الاسميَّة على الفعلية:

تـــخـــالـــفُ المـتـعـاطـفـين شكلًا وتوافقُهما معنًى

(الواو) في الجملة الاسمية: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ عاطفةٌ على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102، والدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 418.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 326.
(3) الهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 543.
(4) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 268، والهمذاني، الكتاب الفريد: 4/ 544.

الجملة الفعلية: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، ولا مانع من ذلك، بل هو حسن[1] طالما توفّرت المناسبةُ الدّاعية إلى ذلك، ومَن يمنع إنَّما يمنع لسببٍ صناعيٍّ لا دليل عليه، فإنَّ لكلِّ جملةٍ معنًى بسببه اختيرت الاسميّةُ أوِ الفعليَّةُ.

نكتةُ التعبير بصيغة الجملة الاسمية في ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾:

الـعـدول عن الفعلية يوقف على سرّ تقديم التحلية على اللّباس

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ جملةٌ اسميَّة معطوفةٌ على جملة فعليَّة، ولم يلتزم النَّظم الصيغة الفعلية، حيث لم يقل: (ويلبسون فيها حريرًا)؛ وليس ذلك من أجل الدلالة على أنَّ الحريرَ ثيابُهم المعتادة، أوْ لمجرَّد المحافظة على هيئة الفواصل، بل للإيذان بأن ثبوتَ اللِّباس لهم أمرٌ محقّقٌ غنيٌّ عن البيان، إذ لا يمكن عراؤُهم عنه، فالبيان انصبَّ على ماهيَّة اللِّباس ونوعِه لا على كونه يُلبس أوْ لا، بخلاف الأساور واللّآلئ، فإنها ليست من اللَّوازم الضروريَّة، فجُعل بيانُ تحليتهم بها مقصودًا بالذات، ولعلَّ هذا هو الباعثَ على تقديم بيانِ التحلية على بيانِ حال اللِّباس[2]، وفيه ضعف لأنه لو كان القصد بيان التحلية لما ذكرت الأساور الذهبية واللآلئ كما ذكر الحرير في الملبوس.

وقيل: السرُّ في هذا هو أنّ الجُمْلَة الاسمية تفيد الدوام، وهم دائمونَ على لبس الثياب وليس أمرًا طارئًا في بعض الحالات، فتناسبَ ذلك مع دلالة الجملة الاسميَّة، وأما التحلّي بالأساور ففي وقت بعد وقت، وصيغة المُضارِع تفيدُ الاسْتمْرار التجدديَّ، ويتجدّدُ لبسُهم لها، ويحدثُ في حالاتٍ دونَ أُخرى، وذلك يتناسبُ مع دلالة الجملة الفعليَّة[3]، وهو الأرجح توجيهًا؛ إذ لا ينفكُّ أهلُ الجنة عن الملابس، وقد ينفكون عن لبس الحلي.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 102.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 233.

دلالةُ إضافة (لباس) إلى ضمير الجمع:

لباسُ أهل الجنَّة الحريرُ لا غير

إضافة (اللّباس) إلى ضميرِ الجمعِ في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ للاستغراق، أي: "جميع ما يلبسونه في الجنات حرير"[1]، بقيد أنّ تشتهيه أنفسُهم - ويبعُد ألا تشتهي الحريرَ العزيز نفسٌ - فإنه لا يكون في دار الجزاء إلا ما تشتهيه الأنفسُ، لقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ٣٢﴾ [فصلت: 31 - 32]، وقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزخرف: 71].

فنُّ الاحتباك في الآية:

الحذف والذكر لبيان الأهمّ

في قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ احتباكٌ، حيث حذفَ من كلِّ جملةٍ ما ذُكر في الجملة الأخرى؛ فكأنَّه قيل: (يُحلَّونَ فيها وحِلْيَتُهم أساورُ من ذهب ولؤلؤ، ولباسُهم فيها حرير يَلبسونَه)[2]، فاقتصر في جانب التحلية على الفعل ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ للدلالة على أنّه الأهمُّ بالذكر من بيان الحِليةِ ونوعِها؛ إذ في التحلية نفسِها إكرامٌ، واقتصر في الثانية على بيان نوع الملبوس دون لبسه، إذ لا ينفكّون عنه، وليسَ في اللبس نفسه الإكرامُ، وإنَّما في نوعيَّة الملبوس.

براعة اختيار لفظ (لباس) دون (ثياب) كما جاء في شأنِ أهل النّار:

اللِّباس ما يكون ملامِسًا للجسد مُتلبِّسًا به وتُخفيه الثياب الَّتي تكون فوقَه ظاهرةً

المراد بـ(اللِّباس) في الآية: ما يُخالط الجسد ويتلبَّس به ويلاصقُه، فتسترُ به العورة، وتُرتدى فوقه الثيابُ الَّتي تكون ظاهرةً للتجمُّل والتزيّي بها، وما دام هناك لباسٌ باطنيٌّ، فالثوب الخارجيُّ موجودٌ كذلك، وهي تقابل ما جاءَ في شأن الكافرين، حيث ذُكرتِ الثياب: ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾، فلهم ثياب من نارٍ، ولا لباسَ دونها، وهذا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 526.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 233.

زيادة في توبيخهم وإهانتهم، والغرضُ من ذكر اللباس دون الثياب هنا الدلالةُ على كمال ترفُّهِم في مقابلة كمالِ الإهانة لمقابليهم؛ إذ يكون الملاصقُ لأجسامهم الحريرَ النّاعم، وفي الجهة المقابلة لهم تكون الثياب الناريّة محيطةً بهم، ولا يبعد أنَّ ملابسهم الملاصقة من نار أيضًا، ويكون في الكلام احتباكٌ، حيث ذكر الثياب هنالك وحذف اللّباس، وذكر اللّباس هنا وحذفَ الثياب الَّتي فوقها، وجاءت آية أخرى تبيّن أنّهم يلبسون ثيابًا فوق اللّباس الحريريّ، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: 31].

غرضُ تقديم الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾:

قُدّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ لإفادة القصر، إذ إنَّ لباس الحرير مقصور على كونه في الجنة، لا في الدنيا، والتَّنبيه على زيادة التنعم بها ورعايةِ الفواصل[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللِّباسُ والثّياب:

اللِّباس ما يكون ملامسًا للجسد مُتلبّسًا به وتخفيه الثيابُ الَّتي تكون فوقه ظاهرةً

المراد بـ(اللباس) ما يُخالط الجسدَ ويتلبس به ويلاصقُه، فتستر به العورة، كالإزار؛ فإنَّه يقال له: لباس[2] ويُرتَدى فوقه الثياب الَّتي تكون ظاهرةً للتجمُّل والتزيّي بها، ومعنى ذلك أن اللّباس هي الملابس الباطنة الَّتي تلاصقُ الجسد، والذي يطلق عليه في الاستعمال المعاصر: (الملابس الداخلية)، والثياب هي الَّتي تكون فوقها ظاهرةً، فيتجمّل بها المرء ويخالطُ بها الناس، ويلتقي عوامَّهم ووجهاءَهم ويمارسُ بها أعماله وأشغاله، ويذهبُ بها إلى دور العبادة كما أرشد القرآن إليها بقوله: ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 40.
(2) الراغب، المفردات: (أزر).

وفي تعبير القرآن هنا باللباس - وهو ما استتر - وكونه من حرير، إيماءٌ إلى أنَّ الثياب الظاهرة إنما تكون أكثر فخامةً وجمالًا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم أن هذه الثياب الظاهرة لأهل الجنّات، إنّما تكون من سندس وإستبرق كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ﴾ [الإنسان: 21]، وهي لأهل العذاب إنما تكون من نار، لقوله سبحانه: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الحج: 19].

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾

[الحج: 24]

الهداية حالٌ دائمةٌ للمؤمنين في الدُّنيا وفي الآخرة

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أخبر اللّه سبحانه وتعالى في الآية السّابقة عمّا أعدّه للذين آمنوا من صنوف الأجْزيةِ والمثوبات في دار النّعيم المقيم؛ أخبر في هذه الآية الكريمة عن الأحوال التّي أدّت بهم إلى هذا المقام الأمين، وأنّ لهم من جنس هذه الأحوال في الجنّات نصيبًا وحظًّا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهُدُوٓاْ﴾: أصل (هدي): يدلُّ على أمريْن: التّقدّم للإرشاد، والآخر: بَعثَةُ لُطْف؛ فالأوّل هو الهداية؛ وهي: أن يتقدّمك غيرُك ليرشدك ويَدُلَّك، والثاني: هو الهديَّة؛ وهي إهداء الشَّيء بلطفٍ إلى ذي مودّة[1]، ومن مجموع هذيْن المعنييْن: الإرشاد مع اللّطف، أخذوا تعريفَ الهُدى: وهو الدّلالة إلى المطلوب بِلطف، وخُصّ ما كان دلالةً بـ(هَدَيْتُ)، وما كان إعطاءً بـ(أهديتُ)[2]، وسبب تقييد الدّلالة في الهداية بأنّها بلطف - وإن كانت تجري أحيانًا بشدّة على نحوٍ غير لطيف - أنّهم تصوّروا اللطفَ غير منفكٍّ عنها وإن جرتْ على أسلوبٍ ظاهره غير ذلك؛ لأنّ الهادي أحدًا لا يدلّه إلى المطلوب إلّا وهو يريد به الخير، والقصد الشريف هو عنوان المودّة واللُّطف، فاللطف حاضرٌ مكنون وإن لم يظهر ويُلْحَظ في أسلوب التوجيه إلى الهُدى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الكلمات الطيّبات مُفتَتَح صراطِ الله

يخبر اللّه تعالى عن وصفٍ جامعٍ للذين آمنوا وعملوا الصالحات

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(2) الرّاغب، المُفردات: (هدى).

استحقّوا به منازلَ النّعيم الَّتي سبق بيانُها في الآية السّابقة؛ فبيّن أنّهم كانوا مُتحقّقين بالهدايةِ في بابين؛ الأوّل أنّهم هُدوا إلى الطّيّب من القول؛ فلا ينطقون إلّا بالكلام الطيّب، وأعظم هذه الكلمات كلمة التّوحيد الجامعة لكلّ طيِّبٍ؛ فلا يسمعون يوم القيامة ولا يقولون إلّا كلامًا طيّبًا، والباب الثاني: أنّهم هُدوا إلى صراط الحميد؛ وهو السَّبيل الَّذي يرتضيه الله لهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا: اهتَدَوا إلى صراط الحقّ والدّين؛ فزادهم الله هدايةً بأن ثبَّتهم على هدايتهم، ثمّ أمَدّ لهم في الهُدى إلى يوم الدّين؛ فهداهم إلى الجزاء الكامل والعاقبة السعيدة؛ فهو تمامٌ بعد تمامٍ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ ممّا قبله:

المصير مرهونٌ بسلامة اللِّسان في أقــوالــه ومَنْطِقِه

جملة ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ﴾ معطوفة على جملة ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ [الحج: 23][1]؛ وهو من عطف القصّة على القصّة؛ لأنّ مسألة هدايتهم للطَّيب من القول هي حالٌ أخرى لهم من أحوال النَّعيم المذكورة بعد قوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ [الحج: 23]، وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ﴾ [الحج: 23]، والعطف بالواو للدّلالة على أنّ هذه الأحوال الثلاثة مجموعةٌ لهم إذا دخلوا الجنّة؛ وعليه فجملة: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ﴾ هي وصفٌ لحالٍ أُخرويَّة من أحوال النَّعيم؛ وهي بهذا الاعتبار تقع على معنييْن؛ **الأوّل**: أنّهم هُدوا إلى الطَّيِّب من القولِ (يقولونه) وهو لَهَجُهم بالحمد: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: 43]... الآية، **والثاني**: أنّهم هُدوا إلى الطَّيِّب من القولِ (يَسْمعونَه)؛ وهو إسماعُ الملائكةِ لهم التَّحيّةَ والسَّلام: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ [الرّعد: 23 - 24]؛ وعليه: فكأنَّ النّظم جارٍ على حذف مُضافٍ؛ أيْ: وهُدوا إلى قولِ الطَّيب من القول، أو: وهُدوا إلى سماعِ الطَّيِّب.

(1) صافي، الجدول: 17/ 105.

الــــــواو بـين الاسـتـئـنـاف أو العطف

ويصحّ أن تكون الواو استئنافيّة، على أنّ هذه حالٌ من أحوال العمل لا من أحوال الجزاء؛ فهي حالٌ دنيويّة من الكسْب الصّالح جوزوا عليها بالأجزية الأُخرويّة السّابقة في السّياق؛ فكأنّه قيل: وقد هُدوا من قبل - في الدنيا - إلى الطَّيِّب من القول وهُدوا إلى صراط الحميد.

كما يصحّ أن تكون الجملة على هذا المعنى معطوفة على جملة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الحج: 23]؛ كأنّه قيل: إنّ اللّه يدخِل الّذين آمنوا وعملوا الصالحات وهدوا إلى الطَّيِّب من القول، وهو من عطف الخاصّ على العامِّ؛ لأنَّ الطَّيِّب من القول جزءٌ من العمل الصّالح.

احتماليَّة أنْ تـكـون الـواو حاليَّةً

ويصحُّ أن تكون الجملة حاليّةً من الموصول في قوله: ﴿يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحج: 23][1]، وتكون الهداية في ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ شاملة لحالي الدُّنيا والآخرة؛ لأنّ الأصل حين يقول: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ أن يكون ذلك مُتحقِّقًا لهم في جميع أحوالهم، والأصل حمْلُ الكلام على إطلاقه[2]؛ فموقعُ الآية سخيٌّ كما ترى.

دلالة الفِعليّة في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾:

إمدادُ اللهِ عبدَه بـالـهـدايـة على قـدر استعداده لها

التَّعبير بالفعليَّة في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ إشارةً إلى اشتماله على معنى الكسْب، وأنّهم مع هداية اللّه لهم توفيقًا فقد اهتدوا كسْبًا وفِعلًا؛ وفي هذا مدحٌ لهم من ناحية، ومِن ناحية أخرى ترغيبٌ للمتلقّينَ في الاتِّساءِ بحالهم.

دلالة بناء الفعل: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله:

الهداية للإيمان والـتـقـوى من تـيـسـير الـلـه لعبده

لم يُسَمِّ الفاعل في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ وبُني الفعل للمفعول إشارةً إلى سهولة الهداية لهم وللأتقياء منهم[3]؛ فالهداية واقعةٌ لهم بسهولة التوفيق وخفائه ولُطفِه، فلأجل هذا اللُّطف الخَفيّ لم

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 32.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 131.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 32.

يُصرّح بالفاعل، وهي أيضًا واقعةٌ منهم بتيسير الاستقامة؛ فإنّ أفعال الهدى وخصال الإيمان تصدر منهم بسهولة؛ لأنّهم مواظِبون مُعتادون غير مُخلِّطين، ومَن كان كذلك انحدر منه العمل سهلًا كما ينحدر الماء فوق التَّلّ، فكأنّ الفعلَ لسهولته في جريانه يقع اطّرادًا من غير افتقاره لفاعل؛ ولذا بناه للمفعول وطوى ذِكْر الفاعل.

المشاكلة اللّفظيَّة التَّقابليَّة مع أحوال أهل النّار

ونكتة أخرى؛ وهي المشاكلة اللَّفظيَّة التَّقابليَّة مع أحوال أهل النّار؛ فقوله: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ على البناء للمفعول يتقابل مع الأفعال الواردة في أهل النّار والتي بُنيت للمفعول أيضًا في قوله: ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ [الحج: 19]، وقوله: ﴿يُصَبُّ﴾ [الحج: 19]، وقوله: ﴿يُصۡهَرُ﴾ [الحج: 20]، وقوله: ﴿أُعِيدُواْ﴾ [الحج: 22]، وقد اطَّرد النَّمط على البناء للمفعول في أحوال أهل الجنّة في قوله: ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾ [الحج: 23]، وهذه ميزة بلاغيةٌ - لا علّة بلاغيةٌ - ناتجةٌ عن مراعاة غرضٍ معنويٍّ تأسَّسَ عليه حذفُ الفاعلِ، وبناءُ الفعلِ للمفعول.

دلالة مجيء الفعل على صيغة الماضي:

تحقّق السبب مؤذِنٌ بحصولِ المُسبَّب

جاء الفعل ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ على صيغة الماضي؛ وذلك نظرًا إلى أنَّها حال دنيويَّة؛ فالماضي يدلُّ على المُضيِّ والانقضاء الزَّمنيِّ، وإن كان من أحوال الآخرة فصيغة الماضي للدَّلالة على تحقُّقه من ثلاثة وجوه: **الأوَّل**: تحقّق سببه، وهو أنَّ هذه الحال الأُخرويَّة ناتجةٌ عن تحقُّق الحال الدُّنيويَّة، فالدُّنيا سببٌ للآخرة، وتحقُّق السَّبب مُؤذِنٌ بتحقُّق المُسبَّب، فعبّر بالماضي للدّلالة على أنّه مضمونٌ واقعٌ لا محالة، **والثّاني**: الدّلالة على أنَّ هذه الأحوال مُتحقّقة أزَلًا؛ فكلٌّ مُيسَّرٌ لقَدَرِه من حال السعادة أو الشقاء المَقضيِّ في علم اللّه، **والثّالث**: أنَّ الهداية المذكورة حين تحصل لهم تقع على وجه التَّمام والكمال والتَّحقيق وصيغة الماضي خير مُعبِّرٍ عن ذلك.

دلالة التَّعبير بحرف الانتهاء:

حروف المعاني صورة للمعاني الثَّواني

عُبِّر بحرف الانتهاء في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، للدّلالة على أنّ الطَّيِّب من القول من غايات الهداية ومنتهى مقاصدها، وإذا وقع في النَّفس والقلب كونُ ذلك غايةً عظُم فيهما؛ ورغِبَتْ فيه بقوةٍ؛ واستعدَّتْ وعمِلَت له.

دلالة اصطفاء وصف ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ مادّةً وصيغةً:

تشدَّدَ أهلُ الإيمانِ في العمل؛ فشُدِّدَ لهم في الإحسان

﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ صفة مُشبَّهة من الفعل (طاب)، ومجيء اللَّفظ على بناءِ الصِّفة المُشبَّهة، مبالغةً في ثبوت الصفة للموصوف، للدلالة على ثبوتِ ذلك الوصفِ ولزومه للقوْل في جميع الأحوال فلا يَنْفَكّ عنه ولا يُفارِقه؛ فهو لـزومٌ ذاتيّ؛ فالقول في ذاته طيّبٌ دائمُ الطّيب، ولذا فسّر الطيّب من القول بالكلمة الطيّبة كلمة الشهادة والإيمان (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؛ فهذه الكلمة هي أطيب الكَلِم وأرفعه، وكلّ قولٍ لا يتعارض مع مقتضاها هو قولٌ طيّب، وهذه الصّيغة مطابقة لسياق مدح المُحدَّث عنهم والترغيب في أحوالهم.

التّعبير بالطَّيِّب دون الحَسَنِ

وجاء وصف القول بالطَّيِّب دون الحَسَن، كما قال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة: 83]، أو ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [الإسراء: 53]؛ لأنّ القول الطَّيّب هو أعلى من ذلك؛ فلا يصدر إلّا عن العدول الأخيار؛ ولذا جعله غايةَ الهداية ومنتهاها ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ﴾؛ فهو مناسب لسياقه ولحال المُحدَّث عنه؛ ويُؤيِّد هذا أنّ وصف ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ جُعِل مقرونًا بسياق التَّكاليف؛ وهو هنا واردٌ في الجزاء عليها، أو في أصل التَّكاليف الَّتي لا تمام لها إلّا بهذا القول؛ وهي كلمة التَّوحيد وما في حكمها؛ كما في قوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأعراف: 157]، و﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: 168]،... الآية؛ فهذه تكاليف، ووصف الطيّب اقترن بالتكاليف، واقترن بالجزاء عليها، كما في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ﴾ [الرَّعد: 29].

الطيّب هو الخالي من كلِّ عيبٍ

ومن أحْكَم التَّوجيهات في إيثار وصف الطَّيِّب دون غيره أنّ هذا الوصف ورد - هنا - في أحوال الَّذين آمنوا وعملوا الصالحات من أهل الجنّة، وهذا الوصف دائم الاقتران بهم؛ فلذلك كان الأنسبَ - هنا - دون غيره؛ فاللّه تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ [النَّحل: 32]، ويقول أيضًا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزُّمر: 73]؛ فحالهم طيّبة: ﴿طَيِّبِينَ﴾ [النَّحل: 32]، وقولهم طيّب: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾، والمقول لهم من السّلام طيّب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ﴾ [الزمر:73]؛ هذا والطيّب هو الخالي من كلِّ عيبٍ؛ فلا شائبة فيه، وأمّا الحَسَن فزُخْرفٌ قد ينطلي فلا تُلمَحُ شوائبه وإنِ اشتمل عليها[1].

دلالة تقديم ذِكْر الوصف على الموصوف:

الحرفُ (مِنْ) هو جوهرُ بلاغةِ تركيبِه

لم يُقل في السّياق الكريم: (وهُدوا إلى القول الطيّب)، ولم يُقل: (وهُدوا إلى طيِّب القول)؛ وإنَّما قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ فقدَّم ما هو صفةٌ: ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ على ما هو موصوفٌ: ﴿ٱلۡقَوۡلِ﴾؛ لا على جهة الإضافة؛ وإنَّما على جهة تتضمَّنُ جهة الإضافة؛ فهي أعلى منها؛ وجهةُ العُلو هو التَّشويق لمعرفة ما بعد: ﴿مِنَ﴾؛ لأنها بيانيّة؛ لتعيين مجال الصّفة، وأنّها كائنةٌ في القول، وقد تأسَّسَ على ذلك نظمُ ما هو صفةٌ معرَّفًا بـ(أل)، ولو قيل: (وهدوا إلى طيب القول) على جهة الإضافة لفاتَ ذلك.

ففي هذه الطريقة: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ معنى التَّشويق إلى ما هو موصوف، وأنَّ القول الطَّيِّب شيءٌ عظيم، وطريقُ ذلك الحرفُ: ﴿مِنَ﴾، وفيها أيضًا معنى إضافة الصِّفة إلى الموصوف؛ وهذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (حسن)، و(طيب).

مستوًى من المعنى خفيٌّ فيها تحت: ﴿مِنَ﴾، وفيها أيضًا معنى عظيم الاهتمام بما هو صفة؛ بالإسراع إلى ذِكْره إبلاغًا في مدحه؛ للتَّرغيب الشَّديد فيه، وفيها أيضًا إشعارٌ بمعنى أنَّهم هُدوا إلى الطَّيِّب دون غيرِه مِن القول، ولو قيل: (إلى طيب القول)؛ لكان فيه هذا المعنى، ولو قيل: (إلى القول الطيب)؛ لاحتمل أن يكونوا قد قالوا قولًا غير طيب، فلمّا قيل: ﴿إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾؛ منَع ذلك من إيقاع هذا الاحتمال في نفس المتلقّي عند بادئ الفَهْم والتَّلقّي.

القول الطيب كان مِن ديدنهم

معنى (أل) في ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾ و﴿ٱلْقَوْلِ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لحقيقة الجنس؛ فهي لاستغراق خصائص الجنس وليس لاستغراق أفراده؛ لأنّ أفراد الطَّيّب لا تنحصر في أعمالهم وأقوالهم، ويصحّ أن تكون (أل) للعهد إذا أُريد بالقول الطَّيِّب كلمة الشهادة وليس بظاهر، والظاهر العموم، أو أنّ المُراد كلمة الشهادة على إرادة الجنسيّة مبالغةً، كأنّ كلمة الشّهادة استجمعت خصائص الجنس وصفاته، وتكون (أل) في الطيّب دالّةً على معنى الكمال.

قد يكونُ المعطوفُ عنصرَ إبانةٍ عن المعطوفِ عليه

موقع جملة: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ معطوفة على جملة ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ لإفادة أنّهم جمعوا بين القول الحَسَن والفعل الحسن[1]، ومِن محاسن العطف تكرارُ قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾؛ فهو شُبْكةٌ لفظيةٌ بين المتعاطفين؛ وهي صورةٌ للشُّبْكةِ المعنويَّةِ من جهةِ أنها تلفتُ إلى عظمةِ المعطوفِ عليه - وإن كان سهلًا لأنه قولٌ - ؛ حيث تسبَّبَ في حصولِ المعطوف تسبُّبًا قويًّا عظيمًا؛ كأنَّ هدايتهم إلى الطَّيب من القول هي الَّتي هدتهم إلى صراط الحميد؛ فالطيبُ من القول هو الَّذي وصَّلَهُم إلى صراط الحميد.

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 33.

معنى الإضافة في ﴿صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾:

إذا حُمِد الشيء رُغِب فيه بقوة

الإضافة في قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ يصحّ فيها وجهان؛ **الأوّل**: أنّها من إضافة الموصوف إلى صفته؛ وأصله: صراطٌ حميد؛ أي: صراطٌ هو المحمود في نفسه ولسالكه؛ فـ(فعيل) بمعنى (مفعول)، والحميد صفةٌ للصِّراط وهو نفْس الصِّراط، وغرض الإضافة من جهة اللَّفظ هو التَّخفُّف من التَّنوين، ومن جهة المعنى: المبالغة بجعلِ الحمد مُلابسًا للصِّراط مُختَصًّا به؛ فهما كالشَّيء الواحد؛ لأنّ الموصوف وصفتَه متلابسان لا ينفكّان، والتَّنبيه على زيادة الفضل ومدح الصِّراط؛ لأنَّ الشَّيء إذا أُضيف للحمْد فهو ممدوحٌ مرغوب؛ ففيه حضٌّ على سلوكه واتّباعه، **والوجه الثّاني** أنّ الإضافة لتعريف الصِّراط وتعيينه و﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ صفةٌ للّه تعالى، و(فعيل) للمبالغة أو صفة مُشبَّهة من الفاعل أو المفعول، أي: (الحامد أو المحمود)؛ أي: ذو الحمْد الكثير أو الحمْد الدّائم[1].

دلالة الاكتفاء بالحمد دون العِزَّة:

مـقـامُ الـهـداية سهْلٌ مرغوب لا عزيزٌ محجوب!

لم يُقل في السّياق الكريم: (إلى صراط العزيز الحميد) على الوجه الثّاني في معنى الإضافة كعادة القرآن في اقتران هذيْن الاسميْن؛ لكون العزّة مقتضية للشِّدَّة والمنعة؛ وهذا لا يتناسب مع سهولة الهداية ويُسْر إجرائها عليهم بما استُفيدَ من بناء الفعل للمفعول في قوله: ﴿وَهُدُوٓاْ﴾؛ فلإتمام هذه السهولة في هدايتهم؛ اكتفى بـ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ دون (العزيز)[2].

نكتة التَّذييل بوصف ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾:

الـمـقـامـاتُ الـمـحـمـودة أوْلَـى بالحرص والطَّلَبِ

جاء التَّذييلُ في الآية الكريمة بوصف ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ دون غيره لمناسبة المقام؛ فهو مقام مدحٍ لهم، ومقام ترغيبٍ في انتهاج مسلكهم، ومقام إشارةٍ إلى أنّهم واصلون إلى هذا النَّعيم بتيسير

---

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 115، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 498.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 32.

الهداية والتَّوفيق إليها، والمدح لهم والترغيب في صِراطِهم وطريقتهم والوصول لغايتهم من حقّه أن يُدَلَّ عليه بأحمد الأوصاف وأمدحها حتى يستنهِض الخلْق أن يسيروا على الصِّراط نفسه وينتهجوا الهداية نفسها.

موقِعُ قِسْمَي المعنى يجعلُ كلًّا منهما يرغِّبُ في الآخَرِ

نكتة ترتيبِ قِسْمَي المعنى في الآية:

أخَّر النظم الكريم هداية الصِّراط عن هداية القول؛ تقديمًا للأقوال على الأفعال، وختْمًا بالغاية والعاقبة؛ فإنّ الهداية للطَّيِّب من القول مقصودٌ لأجل بلوغ الصِّراط الحميد، أو للتَّنبيه على أنَّ هدايتهم للطَّيِّب من القول هي أحد خصال الصِّراط الحميد؛ فيكون من باب إتْباع الخاصّ بالعامّ، لأنّ الصِّراط الحميد يعمُّ الأقوال والأفعال، كما أنَّ النَّظم الكريم قد راعى الفاصلة القرآنية في لفظ ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾.

وإذا تأمَّلنا قِسْمَي المعنى في الآية وجدناه يصدُق عليه أول آية في السّورة على جهة لطيفة؛ فقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ يرجع إلى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]؛ وتقوى اللّه في الأقوال على جهة الاطِّراد واللُّزوم عملٌ صعبٌ؛ فهو جليلٌ، والإحسانُ بادٍ في هذا المعنى، وقولُه: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ يتعلَّق بقوله: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1]؛ لأنَّ هذا المعنى يكون في يوم القيامة؛ على أنَّ صراط الحميد عاقبته وهو الجنةُ.

لا يستأهِل النَّعيم إلّا من حُمِدَ سَعْيُه!

بلاغة الكناية في مقطع الفاصلة:

قولُه تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ كنايةٌ عن سبب استحقاقهم للنَّعيم السّابق في السّياق، بطريق الإيماء إلى أنّ الهداية للصِّراط الحميد هو ما استأهلوا به نعيم الجنان[1]، وفي هذا تماسكٌ وترابطٌ لطيفٌ بين معاني سياق الحديث عن أهل الإيمان.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 235.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥﴾ [الحج: 25]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شَرُّ شُعَبِ الكفْر الصَّدُّ والعُدوان

لمّا أخبر سبحانه عن مصير الفريقيْن وزاد المؤمنين نعتَ الهدايةِ إلى صراط العزيز الحميد قولًا وعملًا، وكان هذا الصِّراط هو سبيل اللّه الَّذي يرتضيه - أعاد ذِكْر الكافرين وزادهم نعتًا مُقابلًا - وهو الصَّدُّ عن سبيل اللّه وعن المسجد الحرام؛ فالهداية إلى الطَّيب من القول والهداية إلى صراط الحميد غاية التَّوفيق لغاية الإقبال على سبيل اللّه؛ ويُقابله الصَّدُّ المذكورُ في هذه الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾: أصل (عكف) يدلُّ على مُقابلةٍ وحبْس، والمقصود بالمقابلة: الإقبال على الشَّيء[1]، والعكوف: الإقبال على الشَّيء وملازمته على سبيل التّعظيم له[2]، والمُراد به في الآية: المُلازم المقيم.

2) ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾: أصل (بدو) يدلّ على ظهور الشيء، يُقال: بدا الشَّيء يبدو: إذا ظهر، فهو بادٍ، وسُمّي خلاف الحضر بدوًا؛ لأنَّهم في بَرازٍ من الأرض ظاهرون، وليسوا في قُرًى تسترهم أبنيتُها، والبادية خلاف الحاضرة[3]، وكلمة (بدو) - بالفتح - مصدر للفعل بَدا، واسمٌ لمكان البَدْو (أي: للبادية)، وللمُتّصفين بالبَداوة وهم سكّان البادية[4]، والمُراد به في الآية: الوافد على البيت الحرام من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عكف).
(2) الرّاغب، المُفردات: (عكف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (بدو).

سُكّان البادية، ويدخل في مدلوله مَنْ يأتي من خارج مكّة ولو لم يكن من البدو.

3) ﴿بِإِلْحَادٍ﴾: أصل (لحد) يدلُّ على مَيْلٍ عن استقامة[1]، واللَّحد: حفرةٌ مائلةٌ عن الوسط[2]، وألحد الرَّجل؛ أي: ظَلَم في الحَرَم؛ وهو من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾؛ أي: الجائر بمكة، قيل: الإلحاد فيه: الشَّكُّ في اللّه، وقيل: كلُّ ظالمٍ فيه مُلحدٌ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حقَّ القولُ بالوعيد على كلّ كافرٍ صادٍّ عن سبيل المؤمنين إلى يوم يُبعثون

إنَّ الَّذين كفروا باللّه ورسله، واعتادوا مع ذلك منْع الناس من الدُّخول في الإسلام، ومنْع المؤمنين من دخول المسجد الحرام الَّذي جعله اللّه حرمًا آمنًا للنّاس جميعًا المُقيم والزّائر - يجازيهم على ذلك بالعذاب الشديد، وكذلك كلّ مَنْ ينحرف عن الحقِّ، ويرتكب أيَّ ظُلمٍ في الحرم عذَّبه عذابًا أليمًا[4].

وهذه الآية الكريمة تحمل تهديدًا ووعيدًا شديدًا لكلِّ مَن كفر باللّه وكذّب رسوله، وصدَّ عن سبيل اللّه بأنْ صرفَ النّاس عن الدّخول في الإسلام، وعن دخول المسجد الحرام للطواف بالبيت والإقامة بمكَّة للتَّعبُّد في المسجد الحرام؛ فالآية وإن تناولتِ المُشركين الَّذين صدّوا رسول اللّه ﷺ وأصحابه عن دخول مكة عام الحديبية؛ فإنّها عامّةَ فى كلِّ مَنْ كفر وصدَّ إلى يوم القيامة[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ممّا قبلها:

كلُّ مُيسّرٌ لِاستحقاقِه

وقعتْ جُملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ في موقع الاستئناف

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لحد).
(2) الرّاغب، المُفردات: (لحد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لحد).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن: 1/ 491.
(5) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 466.

البيانيِّ ممّا قبلها، كأنّه قيل: إذا كان حال المؤمنين - الَّتي استحقّوا بها النّعيم - الهداية إلى الطَّيِّب من القول وإلى صراط الحميد، فما هي حال الكافرين الَّتي استحقّوا بها النّار؟ فأجيب: ﴿كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾، ولذلك فُصِلَتْ[1].

نكتةُ استهلالِ الجملةِ بالتَّأكيدِ:

إن عاقَب الله تعالى أحدًا فبِعَدْلِه؛ وإن أثاب فبفضله

استُهلتِ الجملة بالتَّأكيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لتقرير مضمونها اهتمامًا به وتأكيدًا للجزاء[2]، كما أكّد جزاء المؤمنين في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحج: 23]؛ فالتَّأكيد هنا يُقابل التَّأكيد هناك، وجريًا على نمط السّورة في الاستهلال بالمؤكِّدات كما في الآيات: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الحج: 1]، و﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: 6]... الآية[3]، وهذه ميزةٌ بلاغيّةٌ من مُكوِّناتِ سَمْتِ السّورةِ؛ وهي ناتجةٌ عن مراعاة أغراضٍ معنويَّةٍ تأسَّسَ عليها مجيءُ التَّأكيد.

دلالة التَّعبير بالموصوليّة:

التَّعريف بالصِّلة تعريفٌ لمُشتَهِر أو إشهارٌ لما هو جديرٌ بالشُّهرة

عبَّرَ الذِّكر الحكيم بالموصول دون غيره؛ فلم يَقُلْ: (إنّ الكافرين)؛ وذلك لتمييزهم بما في حَيِّز الصِّلة أكمل تمييز، ولإجراء وصف الكفر على ذواتهم تقبيحًا لها، وللدَّلالة على أنَّهم معلومون عند المُخاطَب بمضمون الصِّلة مُشتهرون به، فكأنّه قال: الَّذين وقع منهم هذا الفعل الخبيث من الكفر والصّدّ، فيقع التَّصوُّر لذواتهم وهي ترتكِبُ القبيحَ وتُزاوله[4].

دلالةُ التعبير بالكفر فعلًا ماضيًا:

إنَّ كُفرَ الصّادِّ عن سبيلِ الله ليس ككُفرِ غيره

التَّعبير عن فعل الكفر بصيغة الماضي في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 17/ 235.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 17/ 236.
(3) مُستفادٌ من كلام فضيلة د. امحمد صافي المستغانمي في برنامج (في رحاب سورة) تفسير سورة الحجّ، تلفزيون الشّارقة.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 33.

للدّلالة على أنَّ الكفر قد صار كاللَّقب لهم[1]؛ فهم مُتحقِّقون به لا ينفكّون عن ملابسته؛ فهو حَيٌّ ذو حرَكيةٍ فيهم؛ ويُؤيِّد هذا إثباتُ الصَّدِّ عن سبيل اللّه والمسجد الحرام لهم في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾؛ فكان في نَظْم الكُفْر فعلًا ماضيًا تهيئةٌ لذلك، ولو قيل: (إن الكافرين) أو: (أهل الكفر)؛ لَمَا كان ذلك.

الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ من شأنِ رؤساءِ أهلِ الكفر

معنى الواو في جملة: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ ممّا قبلها:

الواو في جملة ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ إمّا عاطفة، وإمّا حاليّة؛ فعلى العطف كأنّه قيل: (كفروا وصدّوا)، وعلى الحال كأنّه قيل: وهم يصدّون؛ أيّ: كفروا؛ والحال أنّهم يصدّون[2]، وعلى الأوّلِ فالمعنيان سواء في التَّقرير والإثبات، وعلى الثّاني فالمعنى الثّاني مُمَيَّزٌ؛ لنظمه حالًا؛ ففي ذلك النَّظْم لفتٌ إليه، وأنَّهم كأنَّهم خُصّوا به؛ لكونه حالًا لهم يُذكَرون به، وذلك هو الأليق بهذا المعنى؛ لأنَّ أهل الكفر ليسوا سواءً في هذا الصَّدِّ المذكور؛ فبعضهم ليس بصادٍّ عن سبيل اللّه؛ ككثيرٍ من الأتباع في جملة الكافرين.

الكفرُ يواتِرُ الإدمانَ على شُعَبِه ولزوم طرائقه

نكتة عطف المضارع على الماضي:

قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ مضارعٌ معطوف على الماضي: ﴿كَفَرُواْ﴾، وساغ عطف المضارع على الماضي لأنّ المُراد بالمضارع - هنا - الاستمرار وليس مجرّد الحال أو الاستقبال، كما في قولهم: فلان يُحسن إلى الفقراء؛ فإنَّ المُراد به استمرار وجود الإحسان، فكذلك هنا المُراد استمرار وجود الصَّدِّ وتكراره، ففيه معنى الدّأب وتحقُّق المُلابَسة الَّتي في الماضي، أو المُراد من المُضارعة استحضار الصّورة الماضية وهي تحدث وتقع منهم تهويلًا لأمر الصَّدِّ؛ فهو بمعنى (صدّوا) كما في قوله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 88 و[محمد ﷺ: 1][3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 236.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 132.

(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 528، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 132.

ويجوز أن تكون الواو في ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ واو الحال، فلا عطف، وقد سبق بيان بلاغة هذا الوجه، والتَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ﴾ يُفيد تفرُّغَهم للصَّدِّ، واستمرارهم عليه وتكراره منهم، وهو مُؤذِنٌ بصبرِهم على مُزاوَلَةِ الشَّرِّ وإدمانِهم لارتكابِه[1]، وفي التَّعبير بالمضارع رحمةٌ منه سبحانه لهم؛ ليكون كالشّرط في الكفر، فيدلّ على أنّ مَن ترك الصَّدَّ زال عنه الكفر وإنْ طال ذلك منه[2].

دلالة حذف مفعول ﴿وَيَصُدُّونَ﴾:

الكافِرُ عدوٌّ نفْسِه قبل أنْ يكون عَدوًا للمؤمنين

حَذَفَ القرآنُ المفعول في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فلم يُحدِّد يَصدون مَنْ؟ لغرضيْن؛ **الأول**: إرادة العموم وعدم التَّعيين؛ فهم يَصدّون كلَّ أحَدٍ يقدرون على صَدّه، فيصدّون المؤمن بردِّه عن دينِه، ويصدّون الكافرَ بتثبيتِه على ضلالِه، وفي العموم المذكور إيذانٌ بتنويع وسائلِهم في الصَّدِّ واتِّساعهم في استخدام أدَواتِه، **والثاني**: احتمالُ أنْ يكون ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ لازِمًا غير مُتَعَدٍّ، على معنى (يُعرِضون)، فهم الَّذين يَصدّون ذواتهم، ولعلَّ هذه نُكتَة مجيء المضارع مضموم العين، لأنّه وإنْ كان الفعل لازمًا إلا أنّه في معنى المُتعدّي، لأنَّ الفاعل يَصُدّ نفسَه ويمنع ذاتَه، ولذا جاء الفعل مضموم العين بناءً على أنّ القياس في المُتعدّي ضمّ العين[3]، وهذا الحذفَ في نور دلالته المذكورة يُؤيِّد أن الأبلغَ كونُ الواو في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ واو الحال.

دلالة الإضافة ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

سبيلُ الله هو كلّ ما يوصِّلُ إليه ممّا يُحبُّه ويرضاه

إضافة ﴿سَبِيلِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ أفادت أنّ صُدودَهم

(1) رضا، المنار: 10/ 348.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 27، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/ 411، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/ 279، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/ 212، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 175.

أو صَدَّهم غيرَهم كان عن خصومتِهم مع اللّه ﷻ وكراهيتِهم لكلّ ما له نِسْبَةٌ إلى اللّه[1]، ودلّت أيضًا: على تعظيم (السَّبيل) بإضافته إلى اسم الألوهيّة الجامع، فإنّ إضافته إليه غايةٌ في التَّشريف، ودلَّت أيضًا: على أنّ هذا السَّبيل هو سبيل عبوديّةٍ وتألّهٍ من المخلوق للخالق، وتُشير الإضافة كذلك مع الإفراد إلى أنَّ هذا السَّبيل هو سبيل الحقِّ الوحيد، فكلُّ سبيلٍ لا يتّبَع هذا السَّبيل لا تصحُّ إضافته للّه، ولا يتّصف بالحقيقة، ولا يستحقّ الاتّباعَ لِبطلانه، والإضافة إلى اسم الذّات الأعظم تُفيد - أيضًا - أنّ مُحاولةَ صَدِّهم عبَثٌ لا يُفيد، وسعيٌ على غير طائلٍ؛ فهم يُمانِعون شيئًا مُضافًا إلى القاهِر الجبّار الَّذي لا يُمانِعه أحدٌ إلّا وغَلَبَتْه يَدُ القُدرةِ وردَّتْهُ صاغِرًا، وفي الإضافة أيضًا تنبيهٌ على غياب جلال اللّه وجماله في قلوبهم ونفوسهم، وهذه الإضافةُ أيضًا قرينةٌ للاستعارة؛ فسبيل اللّه مُستعارٌ لِدينِه، وهي استعارةٌ أصليَّةٌ تصريحيّة[2]؛ حيث شبَّه الدّين بالسَّبيل بجامع أنَّ كلًّا منهما يوصل إلى غاية؛ فحُذِف المُشبَّه وترك المُشبَّه به.

موقع قوله: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ ودلالة عطفه:

سبيلُ اللهِ دينُه ومساجِدُه

قوله: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ معطوف على قوله: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ فهو معمولٌ للصَّدِّ، كأنّه قيل: (ويصدون عن سبيل اللّه ويصدّون عن المسجد الحرام)؛ فهم جامعون للحالَيْن في صدِّهم، ومجيء الثّاني بعد الأوَّل من باب مجيء الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ تعظيمًا للخاصِّ واهتمامًا بشأنه، وتنبيهًا على أنّ المسجد الحرام هو كالشّعار والرُّكن الماثِل على سبيل اللّه؛ فمَن صَدَّ عنه فقد صدَّ عن السَّبيل، والصَّدُّ عن المسجد الحرام هو صدٌّ عمّا يتعلّقُ به، وتعلُّق المسجد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 175.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/ 175.

الحرام بالصَّدِّ عن طريق العطف يدلُّ على أنّه صدٌّ عرفه المسلمون يومئذٍ، وهو صدُّهم المسلمين عن دخول المسجد الحرام والطَّواف بالبيت، والمعروف من ذلك: أنّهم منعوا المسلمين بعد الهجرة من زيارة البيت(1).

نُكتةُ تخصيص المسجد الحرام بالذِّكْر:

المسجد الحرام من رموز الإسلام العُظمى

خُصّ المسجد الحرام بالذِّكر دون غيره من الأفراد الَّتي تندرج في سبيل اللّه؛ لينتقل منه إلى التَّنويه بالمسجد الحرام وذِكْر بنائه، وتشريع الحجِّ إليه من عهد إبراهيم عليه السلام، وفي ذِكْره تخلُّصٌ بديعٌ من العموم قبله إلى بيان حقِّ المسلمين في المسجد الحرام(2).

نكتة الوصف بالموصول:

اختيارات اللهِ للموجودات بالأفضليّةِ لا تُعلّل

جملة ﴿ٱلَّذِى جَعَلۡنَٰهُ﴾ صفةٌ للمسجد الحرام، وغرض الإتيان بها التَّوسُّل لوصف المعرفة بالجملة، وهذا من حيث اللَّفظ، ومن حيث المعنى فالغرض هو تعريف المسجد الحرام بصِلتِه المُعظِّمةِ له المعهودة عند المخاطَبين(3)، فإنَّ جعله للنّاس من اللّه يستلزم تعظيمه فضلًا عن الانكفاء عن إلحاق الصَّدِّ به، وفي التعريف بالصِّلة إشعارٌ بعلَّة المؤاخذة على الصَّدِّ، فإنَّ جعلَه أوّل بيت وُضع للنّاس يقتضي أنّه حَرَمُ كلِّ النّاس، فلا يُحال عنه قاصِدٌ له، فلا ينفردُ به المشركون ثمّ يصدّوا غيرهم، وفيه تعليلٌ في المعنى للتَّسوية اللّاحقة في قوله: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾(4).

دلالةُ إسنادِ الجَعْل إلى نون العَظَمَة:

مواهبُ اللهِ في الأزمنةِ والأمْكِنةِ راجعٌ إلى سِرِّ حِكمته

في الإسناد إلى نونِ العَظَمَة(5) في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ تعظيمٌ لشأنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 236.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 236.
(3) فاضل السَّامرَّائيّ، معاني النَّحو: 1/ 120، 122، 123.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.

التَّشريع - الَّذي اشتمل عليه الجَعْل المذكور - وخطرِ الإخلال به، وفيه تعظيم للفاعل وهو الله سبحانه، وأنّه لا حقّ لأحدٍ سواه في مِثل هذا الجَعْل بما استحقّه من كمال العَظَمَة والقُدرة والحُكْم.

معنى اللّام وأل في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

يستمد المؤمن أنواره من بيت الله الحرام ليشع نوره على الأنام

اللّام هنا يمكن أن تكون للتّعدية، ويمكن أن تكون للتّخصيص على معنى أنّ ذلك مُخصَّصٌ لهم مع احتمال اللّام لمعنى التّعليل، ويكون المعنى حينئذٍ أنّه مجعولٌ لأجلهم، وقد أفاد تعريف كلمة ﴿لِلنَّاسِ﴾ هنا الجنسيَّةَ الاستغراقيّةَ على اعتبار أنّه أراد عموم النّاس، ويمكن أن تكون للعهد؛ والمُراد بالنّاس عندئذٍ: المؤمنون الَّذين يقصدونه.

غرض تنكير ﴿سَوَآءً﴾ وحذفِ جهةِ التَّسوية:

ولا يظلم ربّك أحدًا

الغرض من التَّنكير في قوله: ﴿سَوَآءً﴾ العموم وإفادة الكمال؛ أيْ: يستوي فيه العاكف والباد استواءً تامًّا لا نقص فيه، ولا مزايدةَ فيه لأحدهما على الآخر، وهذا الاستواء التّامُّ إنّما يكون في العبادة المقصودة منه ومن ملحقاته؛ وهي: الطَّواف، والسَّعي، والوقوف بعرفة[1]، وتلك العبادة هي جهة التَّسوية المحذوفة لكمال ظهورها في السّياق والعلم بها لدى المخاطبين.

توجيه القراءات في ﴿سَوَآءً﴾:

الوجوه الإعرابية تُثري المعاني الدلالية

قرأ حَفْصٌ بِنَصْبِ ﴿سَوَآءً﴾ منونةً، وَقَرَأَ الباقونَ بِالرَّفْعِ والتنوين ﴿سَوَآءٌ﴾[2]، وحجّة مَن نصب أنه جعله مصدرًا عِمل فيه ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، كأنه قال: (سوّينا فيه بين الناس سواءً)، وارتفع ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ بـ: ﴿سَوَآءً﴾، كأنّه قال: (مستويًا فيه العاكف)، فهو مصدر في معنى اسم الفاعل، كما قالوا: (رَجل عَدْل) أي: عادل، وعلى هذا أجازوا:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 326.

(مررت برجل سواءً درهمُه)، أي: (مستويًا درهمُه)، ويجوز أن يكون ﴿سَوَآءً﴾ انتصب على الحال، وإذا نصبتَه على الحال جعلتَه حالًا من المضمر، في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ المرتفع بالظرف، ويكون الظرف عاملًا في الحال؛ لأنّه هو العامل في المضمر الَّذي هو صاحب الحال، أو يكون حالًا من الهاء في ﴿جَعَلْنَٰهُ﴾، ويكون العامل في الحال (جعلنا) كما عملت في الهاء الَّتي هي صاحب الحال، وحجة من رفع أنه جعله خبرا لـ: ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ مقدَّمًا عليه، والتقدير: (العاكف والبادِي سواء فيه)، أي ليس أحدهما أحق به من الآخر(1).

ففي قراءة النصب بلاغة إقامة المصدر مقام اسم الفاعل دلالة وعملًا، وفي قراءة الجمهور بالرفع بلاغة التقديم والتأخير، وعلى قراءة الرفع يحسُن الوقف على ﴿لِلنَّاسِ﴾، ثم الابتداء بـ: ﴿سَوَآءٌ﴾، وتكون الجملة بمثابة الإجابة عن سؤال مقدَّر محذوف: (كيف يا رب جعلت البيتَ للناس؟) فأتت الإجابة رافعة الإبهام: (المقيم وغير المقيم فيه سواء)، أي: ليس أحدهما بأحقّ به من صاحبه، واستواء العاكف والبادي فيه دلالة على أن أرض الحرم لا تُملَّك، ولو مُلِّكت لم يستويا فيه، وصار العاكف فيها أولى بها من البادي بحقّ ملكه، ولكن سبيلها سبيل المساجد الَّتي مَن سبق إليها كان أولى بالمكان لسبقه إليها، فسبيله سبيل المباح الَّذي مَن سبق إليه كان أولى به(2).

معنى (أل) في ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾ و﴿وَٱلْبَادِۚ﴾ وتعدد الصور البيانيَّة فيه:

عالَمية الإسلام من أهمّ مميزاته

أفاد التَّعريف في الاسمَين هنا الاستغراقَ؛ ليعمَّ كلَّ مَنْ كان شأنه كذلك، وفي هذا تصوير لعالَميَّة الإسلام وشمولية هذا الدّين الحنيف، وقولُه: ﴿ٱلْعَٰكِفُ﴾: هو المقيم الملازِم للمسجد الحرام، وفيه كنايةٌ عن السّاكن بمكّة؛ لأنّ السّاكن بمكّة يعكف كثيرًا في

(1) مكِّي، الكشف: 2/ 118.
(2) الفارسي، الحجة للقراء السبعة: 5/ 271.

المسجد الحرام بقرينة مقابلته بالبادي، وهو ساكنُ البادية القادم على المسجد الحرام من خارج الحرَم[1].

وإطلاق العكوف في المسجد في قوله: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ﴾ على الإقامة بالبلد (مكّة) مُجازٌ مُرسلٌ بعلاقة اللُّزوم العرفيّ؛ فأُطلق اللّازم - وهو الإقامة بالمسجد - وأراد الملزوم؛ وهو الإقامة بالبلد[2]، وفي انضواء وصف العكوف في قوله: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ مع وصف ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾ في التَّسوية المذكورة في قوله: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ تعريضٌ بالعاكفين الصّادّين بأنَّهم لا يستحقّون سُكْنى مكَّة مَزيةً على غيرهم، وبأنّهم حين يمنعون الخارجين عن مكَّة من الدُّخول للكعبة قد ظلموهم باستئثارهم بمكَّة[3].

نكتةُ التَّقديم والطِّباق في (العاكف) و(الباد):

قَدَّم السياق القرآنيُّ ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ على ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾؛ لأنّه الأقرب والألصق بغرض إثبات جعل المسجد الحرام للنّاس كلِّ النّاس، وإسراعًا في تسجيل عدم أفضليَّته في الاستحقاق عن غيره، وبينَ: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ﴾ و﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾ طباقٌ في المعنى؛ فالعاكف هو المُقيم السّاكن، والباد هو المسافر الرّاحِل، وفيه دعوة للمُتلقّي إلى فقه كلِّ واحدٍ منهما في نور الآخر، فيتمكَّن المعنى المُتعلِّق بهما في النَّفس، وهذا إحسان إلى المعنى وإلى المُتلقّيه جميعًا، وفيه أيضًا: تقويةٌ لمعنى استوائهما في حُكْم الجَعْل المذكور.

دلالةُ حذف خبر الموصول في: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

في آية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ حُذِف خبر ﴿إِنَّ﴾؛ وتقديره نحوُ (نذيقهم من عذاب

سُبُل الكفر تتنوّع ولا تتضادّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 237.

أليم)[1]، وعِلّة الحذف هي الإيجاز؛ لإدماج مصير الصّادّين عن سبيل اللّه والمسجد الحرام في مصير المُلحدين فيه بظلم، للإشارة إلى اشتمال كلٍّ منهما على الآخر، فالصَّدُّ عن المسجد الحرام إلحادٌ فيه بظلم، والمُريد فيه إلحادًا بظُلّم مُنخرِطٌ في فئةِ الصّادّين، والبديع في هذا الحذف أنّه جعل التّهويل والمبالغة في الاستهجان يتناول الفئتَين على السَّواء: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ﴾ و﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ﴾ بدلالة مصير الثّاني على مصير الأوَّل، وخصوصُ الثّاني في عموم الأوَّل.

موقعُ جملةِ ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ﴾:

الكفر مُحدِثُ كلِّ انحرافٍ

جملة ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ﴾ تذييلٌ لمجموع جملة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معطوفة عليها[2]، وهي من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ كعطف الصَّدِّ عن المسجد الحرام على الصَّدِّ عن سبيل اللّه.

دلالة (مَنْ) الشَّرطيّة وفائدة نَظْم المعنى في جملة شرطيّة:

تحقيق الأجزيةِ باشتراطها

(مَنْ) تقع شرطًا للعاقل، ويكون بها الجزاء للعقلاء والعالمين[3]، وهي تُفيد العموم في الشَّرط؛ أي: كلّ مَنْ يفعل ذلك من المُكلَّفين بالخطاب استحقَّ العقوبة والجزاء، وغرض التَّعبير بأسلوب الشَّرط تحقيقُ الجزاء في قوله: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ بتعليقه على الشَّرط وتسبيبه عنه وتفريعه عليه، وفي هذا الأسلوب نوعُ حسم وجزم وقطع وشدَّة؛ ومِن شأن ذلك مناسبتُه لمعنى جملة الشَّرطِ والجواب.

دلالة تعليق الوعيد على مُجرّد الإرادة وحذفِ مفعولِها:

أيُّ جُـرْمٍ يكون ذلك الإلحادُ فيه بظلم؟!

لا يخفى ما في تعليق الوعيد في الجواب على مُجرَّد الإرادة في الشَّرط من تهويلِ إرادة الإلحاد فيه بظُلم وتعظيم خطر النّيّة والقصد، ولذا لم يَقُل: (ومن يُلحِد فيه بظلم)، ويعظُم هذا التَّهويل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/ 309، وفاضل السَّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 88.

في النَّفس ويَقوَى ويشتدُّ مع إفادة العموم بحذف مفعول الإرادة؛ فلم يُحدَّد في السّياق الكريم: (لم يُرد فيه مَنْ؟! أو أي شيء؟!) لقصد العموم؛ ليتناول كلَّ متناوِلٍ للسّوء فيه؛ أي: ومَنْ يُرد فيه شيئًا ما، أو مُرادًا ما، أو مَنْ يُرد فيه النّاس[1].

دلالة تقديم: ﴿لِلنَّاسِ سَوَآءً﴾ و﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾:

تعاطي الإلحاد بظُلمٍ في الحَرَم أشدّ في الوعيد من سائر الأماكن

تَقدَّم شِبه الجملة في قوله: ﴿لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ وفي قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾ للاعتناء والحصر؛ أيْ: جعلناه للنّاس خاصَّةً دون غيرهم، فأمّا قولُه: (جعلناه للنّاس سواء العاكف فيه والباد)؛ فالظّاهر أنَّه يُفيد الحَصر الحقيقيَّ، وإلّا فهو للحَصْر الإضافيِّ على جهة تغليب الإنس على الجِنِّ، وأنّه مجعولٌ للمُكلَّفين من الجنّ كذلك، وأمّا قوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾؛ أيْ: الجزاء المذكور من الوعيد منوطٌ بمَنْ يُرد الإلحادَ فيه لا في غيره، وهو حصرٌ إضافيٌّ على جهة المبالغة والتَّعظيم؛ لأنّ تعاطي الإلحاد بظُلْمٍ يستوجب العذابَ في كلِّ الأماكن.

معنى الباء في: ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾:

جاءت الباء في قوله: ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ للمُلابَسَة؛ أيْ: مُلابسًا للإلحاد، أو هي صِلةٌ زيدتْ للتَّأكيد، أو هي سببيّة؛ أيْ: إرادته بسبب الإلحاد، أو الباء على بابها في التَّعدية بتضمين ﴿يُرِدۡ﴾ معنى (يتلبّس)[2]، وتحت هذه الباء معنى لطيف جِدًّا؛ وهو إنكار إرادة الإلحاد في المسجد الحرام؛ فمِثْلُ ذلك الإلحاد فيه من شأنه ألّا تتعلَّقَ به إرادةٌ ما إلّا على خلاف الأصلِ؛ فذلك الإلحاد شيءٌ مُنكَرٌ قبيحٌ مرفوضٌ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 116، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 134.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصُون: 8/ 259، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 134.

المَنْع في الله هو سعيٌ في سبيل الله لا صدٌّ عنه

فائدة التَّقييد بقوله: ﴿بِظُلۡمٖ﴾:

وردت الباء في قوله تعالى: ﴿بِظُلۡمٖ﴾ للملابسة[1] أو السَّببيَّة[2]، وتقييد الإلحاد بالظُّلم للاحتراس بالقيد عن الصَّدِّ بحقٍّ، وأنّ الصَّدَّ المنوط بالمؤاخذة هو ما كان في غير موضعه، فيخرج به صدّ الكفار عنه للنّهي عن قربانهم له، وكذا صدُّ الحائض والجُنُب، وصدُّ الخائنِ؛ فكلُّ ذلك مأذونٌ فيه فليس ظلمًا[3].

إذاقة العذاب أعلى مستوًى في التعذيب

بلاغة الاستعارة في التَّعبير بالإذاقة:

قوله: ﴿نُّذِقۡهُ﴾ مُشعِرٌ بأشدّ العذاب؛ لأنّ الإذاقة تدلُّ على سريان الألَم في الحاسّة واستغراقه لها، فشبَّه إصابة العذاب لهم بالإذاقة بجامع التّمكّن على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة، وهذا من أبشع ما يكون في مستوى الإحساس بالوجَع والتّضرُّر به.

العـذاب كلّه شرّ وإن تفاوت مقداره

معنى ﴿مِنۡ﴾:

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ إمّا تبعيضيَّة؛ أيَ: نُذقه عذابًا من عذاب أليم على اعتبار أنَّ المشروط نوعٌ من الإلحاد لا الإلحاد الكامل[4]، ومفعولُ الذَّوقِ على هذا محذوفٌ، وبولِغ في تقرير هذا العذاب بحذفه إشعارًا بأنَّه أشدُّ أنواع العذاب؛ فهو يُمثِّل الأصلَ، والأصلُ ينوبُ عنه؛ مبالغةً في تقرير المذكور تناسُبًا مع عِظَم جُرْم الإلحاد المذكور، ويصحُّ أن تكون صِلةً للتَّوكيد على رأي مَنْ لا يشترطون لزيادة (مِنْ) وقوعها بعد نفيٍ أو نهيٍ[5].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(نُذِقْه) و(نُمِسَّه):

الذّوق يدلّ على الإحساس العميق والتّشبُّع بالشَّيء

أصل (مسّ) يدلّ على جَسّ الشّيء باليد[6]، يُقال فيما يكون

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 34.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 239.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسّ).

معه إدراكٌ بحاسَّة اللّمس[1]، والمَسُّ يُقال في كلِّ ما ينال الإنسان من شَرٍّ[2]، والذَّوْق أصل (ذوق) يدلُّ على اختبار الشَّيء من جهة الطَّعم، ثم يُستعمل مجازًا في عموم التَّجربة والاختبار وإن لم يكن بحاسَّة الفَمِ... وقد جمع اللّٰه بينهما في القرآن فقال: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: 48]، فجعل المسّ يُذاق مبالغةً في أنّ العذاب يستوفي حواسّهم وجوارحهم[3].

والحاصل أنَّ الفرق بين المَسّ والذّوق واضحٌ على المعنى الخاصّ لكلٍّ منهما؛ فالمسُّ: يتعلَّق بحاسَّة اللَّمس، ويكون من طريق اليَد أو البَشَرة (ظاهر الجلد)، وتعلّقه بذلك يدلّ على أنّ الأصل فيه أن يتعلّق بالإحساس الظّاهر الخفيف، وقد يتعلّق بالإحساس العميق المُتشبِّع، ويُحدّد ذلك السّياق الَّذي ورد فيه، وأمّا الذّوق فيتعلّق بحاسّة اللِّسان والتَّعاطي بالفم، ويُستعمل هو والمَسُّ في عموم تجربة الشَّيء واختباره حِسًّا، إلّا أنّه يُستلَهَمُ من هذا التَّعلُّق اللُّغويُّ أنَّ الذَّوق يدلُّ على الإحساس العميق والتَّشبُّع بالشَّيء؛ فهو يدلُّ على كمال الإحساس وتمامه، ولا يلزم ذلك في المَسّ إلّا بقرينة، وسياقات القرآن المجيد تُنبئُ عن هذا الفَرْق.

---

(1) الرَّاغب، المُفردات: (مسس).

(2) السَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (مسس).

(3) السَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (مسس).

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المتّقون هم أولياء المسجد الحرام

لمّا ذكرَ القرآنُ في الآية السابقة صدود الكافرين عن سبيل اللّه، ثمّ ذكر مِثالًا خاصًّا على ذلك صدَّهم المؤمنين عن المسجد الحرام الَّذي هو من سبيل اللّه، والإلحادَ في المسجد الحرام بظلم؛ أخبر هنا بمثالٍ على الولاية الصَّحيحة للمسجد الحرام؛ وهي ولايةٌ توافِقُ سبيلَ اللّه ولا تخرُجُ عنه؛ فهي ولايةٌ باستقامةٍ وعدل؛ لا ولايةٌ بإلحادٍ وظلم؛ وهي ولاية إبراهيم الخليل عليه السلام على البيت بالتَّطهير والخدمة وإبلاغ الشعائر، وهذه الولاية قائمة بعده في أولياء مِلَّته وأتباع شريعته؛ فبَيْن الآيتَيْن مناسبةُ التَّعريضِ بالمُخالِف بطريق المقابلة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَوَّأۡنَا﴾: أصل (بوأ) يدلّ على أمريْن: الرُّجوع إلى الشَّيء على جهة اللُّزوم له، وعلى تساوي الشَّيئَيْن[1]، وأصل البواء: اللَّزوم، وهو كذلك مساواة الأجزاء في المكان[2]، فالأجزاء إذن متساويةٌ في لزوم المماثَلة، والبَواء خلاف النُّبو الَّذي هو منافاة الأجزاء، يُقال: مكان بَواء إذا لم يكن نابيًا بنازِله، وبَوَّأْتُ له مكانًا: سَوَّيتَه فتَبَوَّأ، وباءَ فلان بدم فلان يَبوءُ به؛ أيْ: ساواه[3]، فهو إنزالٌ مخصوص بالموضع المُهَيَّأ المُعَدّ في الخير أو في الشَّرِّ؛ ولذا أُريد به - هنا في الآية - إنزال التَّمجيد والتَّكريم؛ فهو إنزالٌ بمحلٍّ ذي مَنزِلة

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بوأ).

(2) الرَّاغب، المُفردات: (باء)، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (بوأ).

(3) الرَّاغب، المُفردات: (باء).

تشريفًا للنّزيل فيه؛ والمعنى في الآية: أنزلناه في الموضع الَّذي قدّرناه لبناء البيت.

2) ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾: أصل (طوف) يدلّ على دوران الشَّيء على الشَّيء[1]؛ ومنه الطّائِفُ: الَّذي يدور حول الكعبة على جهة التَّعبُّد[2]، ويُقال الطّائف لزائر الحَرَم غيرِ المُقيم بمكَّة بقرينة المُقابلة في السّياق مع ﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾، وقد دلّ العطفُ بينهما على المُقابلة بينهما وأنّهما مُتباينان، والسّياقُ القريب في قوله: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، والسّياقُ البعيد في قوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾.

3) ﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾: أصل (قوم) يدلّ على انتصابٍ أو عزمٍ، وعلى جماعة من النّاس[3] يقوم بعضُهم ببعضٍ؛ ومنه القوم؛ لأنّ اجتماعهم سببٌ في قيامهم بالعزْم والأمر، والمُراد بقوله: ﴿وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾: المُصلّون، أو: المُقيمون بمكّة المجاورون للبيت.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلّ تشريفٍ مقرونٌ بمسؤوليّةٍ وتكليفٍ

يُخبر الحقُّ سبحانه وتعالى عن قصّة تكليفه لإبراهيم عليه السلام ببناء البيت فيقول مخاطبا نبيَّه ﷺ: واذكر أيّها الرّسول الكريم ذلك الوقت الَّذي قدّرنا لإبراهيم فيه مكان البيت - وكان غير معروف - ليبْنيه ويرفع قواعده، فعرّفنا له موضعَه، وأوحينا إليه أنْ يُداوِم على تطهير قلبه من الشِّرك بعبادة اللّه مُخلصًا له الدّين، وأن يُطهِّر بيتي من الأنجاس الحِسّية والمعنويَّة للطّائفين به، والقائمين المُصلّين عنده[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (طوف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 335.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ ممّا قبلها:

للأفضليّةِ حُرمة

جملة: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾؛ من باب عطف القصّة على القصّة، وهذه الجملة بمنزلة التّأكيد والتّعليل لمضمون الجملة المعطوفة عليها، كأنّه قيل: هذا العذاب على الإلحاد فيه بظلم مُتأكِّدٌ ومُعلَّلٌ في المعنى بكون هذا المكان المُحرَّم مأمورًا بتطهيره من الشِّرك والرِّجس والخَبَث حسًّا ومعنًى؛ لأنّه مُبَوّأ الصِّدق والحقِّ لأبي المِلّةِ والأنبياءِ إبراهيم عليه السلام، وصحَّ التّأكيد والتّعليل مع العطف لعدم قصدهما أصالةً من النَّظم[1].

ويصحُّ أن تكون الواو للاستئناف النَّحويِّ؛ باعتبار أنَّ الكلام قد تمَّ عند قوله: ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، وانتقل للإخبار إلى غرضٍ آخر مُستقلٍّ، ومعنى الاستئنافِ والعطفِ متقاربٌ، حيث إنَّ عطفَ القصَّةِ على القصَّة فيه معنى الاستئنافِ؛ لأنَّه يشرعُ في معنًى جديدٍ كُلّي على معنًى كُلّي سابق[2].

دلالة التَّعبير بـ (بوّأ) مادَّةً وصيغةً:

التّبوّء إنزالٌ مجيدٌ فيه تَكْرُمةٌ

صيغة (بوّأ): (فعّل) تدلّ على التّعدية بالتّضعيف؛ كأنّه قيل بهمزة التّعدية: أسْكنّاه مكانَ البيتِ، أو أنزلناه فيه، ومادَّة (بوأ) تدلُّ على الإنزال المجيد الّذي فيه تكرمة؛ لأنَّه يدلُّ على تسوية المكان والقرار فيه؛ فهو إنزالٌ مع تمامِ التَّهيئة للمَحلِّ للنَّزيل؛ وهذا من باب إكرام المَنْزِل لتكريم النّازل فيه[3]، وهذا يتناسب مع مقام نبي اللّه إبراهيم عليه السلام، ومع مكانة المسجد الحرام.

موقع الظرف (إذ) ودلالته:

زيادة الفضل موجبةٌ لزيادة الاحتراس

(إذ) في قوله: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ اسمٌ للزمان الماضي مُلازِمٌ للظَّرفيّة

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/ 7.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 240، وصافي، الجدول: 17/ 107.
(3) الرَّاغب، المُفردات: (باء).

والإضافة، منصوبٌ على المفعوليّة بفعلٍ مُقدَّرٍ تقديره: واذكر إذ بوأنا؛ أيِّ: اذكر زمنَ ذلك ووقتَه، وهي مشتملة على معنى التسبُّب[1]؛ ولذلك قال مَن قال: إنّ جملة ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ تعليلٌ لما قبلها[2]؛ لأنّ المعنى: (نُذِقْه من عذابٍ أليم بسببِ أنْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت، فلأجل هذا التبَّوُّء المجيد لا يجوز الإلحاد فيه).

دلالة إضافةِ الظَّرف إلى الجملة الفعليّة وإسنادِ الأمر بالذِّكر إلى الوقت:

استحضارُ الماضي داعٍ للنّظر

أُضيف اسم الزَّمان الماضي (إذ) إلى الجملة الفعليَّة ﴿بَوَّأۡنَا﴾ وهي في محل جرٍّ مُضاف إليها الظَّرف، والإضافة للجملة الفعليّة تدلّ على صفة التَّعظيم للزَّمان؛ أيِّ: واذكر ذلك الوقت العظيم؛ لأنَّ الفعل يدلُّ على الحدوث المُتجدِّد ولو وقع ذلك في الزمن الماضي، فإنّه وقع مضارعًا في الماضي قبل أن ينقضي، واجترار صورة الفعل مُحقَّقًا بالماضويّة ومُتجدِّدًا - وهو يقع في زمانه المخصوص به - فيه تعظيمٌ لزمن الفعل ووقته[3]، وتوجيه الأمر بالذّكر إلى الظّرف بتقدير: (واذكر إذ) مع أنّ المقصود الحدث المظروف فيه، للمبالغة في إيجاب ذِكْر الحادثة المذكورة، بطريق القياس البرهانيِّ اليقينيِّ؛ لأنَّ الحرص على ذِكْر الوقت يستلزم بالضرورة واليقين استحضار ما اشتمل عليه من المظروفات والوقائع[4].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ ونكتة تقديمه على ما بعده:

لأجْل الكِرام يحِلّ الكرم

اللّام في قوله: ﴿لِإِبۡرَٰهِيمَ﴾ يمكن أن تكون للتَّعدية، وذلك لتضمين ﴿بَوَّأۡنَا﴾ معنى الجَعْل والتَّهيئة، والمكان مفعول به؛ أيِّ: جعلنا وهيَّأنا له مكان البيت، والمُراد بالجعل الإحداث التَّشريعيِّ الَّذي يتعدَّى لمفعولٍ

(1) ابن مالك، شرح التّسهيل: 2/ 209، وابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 1/ 501.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 240.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 240.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 236، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 240.

واحدٍ[1]، ويمكن أن يكون معنى اللّام - هنا - العلّة والأجَل[2]؛ أيِّ: بوّأنا مكان البيت لأجل إبراهيم مَقَرًّا لعبادته ورمزًا لدينه وشريعته، كما يُقال: شكرتُ الجميلَ لأجل ولدي؛ أيِّ: لإكرامه بين النّاس لئلّا يكون لأحدٍ مِنَّةٌ عليه ويَدٌ، ويمكن أن تكون للتّخصيص؛ فهذا التّبوّء هو لإبراهيم عليه السلام على وجه الخصوص، وفي تقديمه على: ﴿مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾: معنى الاختصاص والحصر؛ أيِّ: أنزلناه وهيّأناه خصوصًا دون غيره؛ على جهة الاصطفاء والتّشريف.

دلالةُ ذِكْرِ المكان وإضافته للبيت:

التّبوُّءُ منوطٌ بالمكان

لم يُقل في السّياق الكريم: (بوّأنا لإبراهيم البيت) لتعيين مُتعلّق التّبوّء من البيت، ففي إسناد التّبوّء للبيت إبهامٌ وإطلاق، لأنّ المعنى: (بوّأناه مكانًا يَتّخذ فيه بيتًا)[3]، فالتّبوّء منوطٌ بالمكان، وفيه تنبيهٌ على خصوص المكان الّذي فيه البيت الحرام، وأنّ مكانه اختير له ليُبنى فيه، وهذا على غرار قول النّبيّ صلى الله عليه وسلم: "من كذب عليَّ مُتعمّدًا فليتبوَّأ مقعده من النّار"[4]؛ ولم يَقُلْ: فليتبوأ النّار مع أنَّ النّار من حيث كونُها منزلًا ومكانًا للعذاب يصحُّ الإسناد إليها، ولكنَّه أراد إناطة التّبوُّء بالمقعد الخاصّ المُتعيّن له فيها، ولو أُسند إلى النّار لكان شيوعًا لا يُعرف منه تعيين موقعه منها[5]، وهذا إبلاغٌ في التّهديد، وفي سياق الآية إبلاغٌ في التّكريم بالتّفصيل في الوصف.

معنى (أل) والمَجاز المُرسل في: ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾:

مَقارُّ الأديانِ بيوتٌ لها

(أل) في قوله: ﴿مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ للعهد؛ أيِّ: البيت الحرام، ولولا العهديَّة لما كان لإضافة ﴿مَكَانَ﴾ إليه فائدة[6]؛ لأنَّه إذا لم يكن

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 46، والخطيب، التّفصيل: 9/ 260.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 240.
(4) مسلم، الصّحيح، أورده الإمام مسلم في مقدّمة الصّحيح.
(5) الرّاغب، المُفردات: (باء).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 241.

معروفًا مُتعيّنًا، فلا فائدة من الإخبار بتعيين مكانه؛ لأنّ المُضاف يتعرّف بما أُضيف إليه أو يتخصّص به، فقوّة المضاف من قوّة ما أُضيف إليه، وأصل البيت: المكان المُتّخَذ للمبيتِ ليلًا، ثمَّ أُطلق على مأوى الإنسان في كلِّ وقت، ثمَّ أُطلق على كلِّ مَقرٍّ مُتَّخَذٍ لغرضٍ وإنْ لم يكن الغرض المأوى والمبيت بجامع أنّه صار مأوًى لحصول هذا الغرض الخاص، فكذلك البيت الحرام صار مأوًى للدّين والتَّعبُّد، وهذا الإطلاق مجازٌ مُرسَل علاقته الإطلاق والتَّقييد(1).

موقع جملة ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ﴾ ممّا قبلها:

علامة الإخلاص انتفاء الشّرك

جملة ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ﴾ تفسيريّةٌ لجملة: ﴿بَوَّأۡنَا﴾، لذلك لم تُعطف عليها، وذلك بتضمينها معنى القول دون حروفه؛ فهي في معنى: (بيّنا أو قدّرنا أو تعبّدنا) كأنّه قيل: (بوأنا قائلين له: لا تشرك)، لأنّ التَّبْوِءَة المذكورة بغرض التّعبّد، والعبادة تفسيرها نفي الإشراك، وعليه: فـ﴿أَن﴾ تفسيريّة(2)، ويحتمل أن تكون مصدريّة مُدْمَجَة بمضمون النّهي؛ أيْ: لعدم الإشراك(3).

دلالةُ الخطاب في: ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ﴾:

خطاب الأعلى بخطاب الأدنى تحفيزٌ للأدنى وتنشيطٌ له

وقع النّهي بخطاب المُفرد في قوله: ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ﴾؛ لِعودِهِ على إبراهيم عليه السلام، والغرض منه تثبيته على ما هو مُتحقّقٌ منه بالفعِل، زيادةً في إكرامه لزيادته في مراقي الإيمان وكمالاته، أو النّهي من باب الخاصّ الَّذي أُريد به العامُّ على طريقة المجاز المُرسَل، فاللّفظ لإبراهيم والمقصود أُمّته وأتباع مِلّته؛ لأنّه لا يُتوقّع منه الشّرك؛ فنهيه عنه تحصيلُ حاصلٍ، وتهييجًا لأتباعه على الامتثال إذا وجدوا أخصّ الخلْق قد خوطب بذلك(4).

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 135، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 241.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصُون: 8/ 262، وصافي، الجدول: 17/ 107، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 241.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 47.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 47.

دلالةُ التَّقديم في ﴿بِي شَيۡـٔٗا﴾ وتسلُّطِ نفي الإشراكِ على: ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

الإيمانُ الحقيقيُّ الكامل هو الَّذي لا تشوبه شائبةُ شركٍ

تقدم قوله: ﴿بِي﴾ على مفعول الإشراك ﴿شَيۡـٔٗا﴾؛ للاختصاص والحصر الحقيقيِّ؛ أيِّ: نفي الإشراك في العبودية كائن للّه وحده خاصّة، ولفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في قوله: ﴿لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾ نكرةٌ موغِلةٌ في العموم والإبهام تُفيد الجنس في حقيقته(1)، وهي نكرة في سياق النَّفي فتعمّ، فهو عمومٌ في الأفراد مؤكّد للعموم الحاصل من لفظ شيء في الحقيقة والخصائص؛ أيّ: لا تشرك بي شيئًا من الأشياء الموجودة في الذّهن أو في الواقع، ولا يخفى ما فيه من المبالغة في إيقاع التَّعبُّد للّه على جهة الإخلاص المحض للّه ونفي الشَّريك له من كلّ شيء ومن كلِّ وجه، وفي هذا العموم إشارة إلى أنّ كلّ شيءٍ سوى اللّه لا يستحقّ عبوديّةً ولا يستأهِل أنْ يُشْرك مع اللّه في طاعة.

موقع جملة: ﴿وَطَهِّرۡ﴾ ممّا قبلها وسِرُّ ترتيبهما:

الـجـمـعُ بين طـهـارة الـحـالِّ والمَحَلّ

جملة الأمر: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ معطوفة على جملة النَّهي: ﴿لَّا تُشۡرِكۡ﴾(2)؛ للجمع بين طهارة الحالّ وطهارة المحلّ، وهذا من بديع العطف بينهما، وتقديم الأوّل على الثّاني، وقُدِّمت جملة النَّهي على جُملة الأمر؛ لأنَّ السّابقة أصلٌ للاحقة ولغيرها؛ ولأنَّ الثّانية تفصيلٌ للأولى وبيان لها.

دلالةُ الإضافة لضمير الجلالة المُفْرد دون الجمع:

إفــراد الـضـمير تقرير للنَّهي عن الشِّرك

إضافة البيت لضمير الجلالة المُتكلِّم في قوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ إضافةُ مِلْكٍ وتشريف، ولم يجئ بالإضافة لضمير العظمة (نا)؛ لأنَّ الضَّمير المُفرد احتراسٌ عن مداخلة الاحتمال في إرادة الذّات العليَّة وحدها، ولو قيل: (طهّر بيتنا) لاحتمل أن يتناول الضَّميرُ ذاتَ اللّه سبحانه وإبراهيم الخليل، بدليل ضميرِه المُستكنِّ في الأمر؛ أيِّ: طهِّر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 136.

(2) صافي، الجدول: 17/ 107.

أنت، فلِدفع إيهام هذا الاشتراك وُحِّد الضمير، وفي إفراده أيضًا تقريرٌ للنَّهي عن الشِّرك في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا﴾.

فائدة تعريف المُشتقّات والمَجازُ فيها:

لكلّ مقام مقال

في قوله تعالى: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أفاد التّعريف في هذه الكلمات الأربعة الاستغراقَ الشّموليَّ ليعمّ سائر أصنافهم، وفي هذا مزيدٌ من إظهار رحمة اللّه ﷻ بهم، وقد عُبِّر عن الصَّلاة بالقيام والرُّكوع والسُّجود مجازًا مرسلًا علاقته الجزئيَّة، والجزءُ هنا له مزيد اختصاص بالكُلِّ، والمسجد الحرام ذو حضور قوي في سياق السّورة؛ مع ضميمة تسمية السّورة باسم شعيرة وفريضة: (الحج)؛ فناسب ذلك التَّفصيلُ المذكورُ؛ فلم يكن من البلاغة والتَّناسب أن يُقال: (وطهر بيتي للطائفين والمصلين)؛ بل لا بدَّ من التَّفصيل.

وفي المجاز المذكور: تنبيهٌ على ركنية اللَّفظ المُعبَّر به عن الصَّلاة، وأنّ الصَّلاة جامعةٌ لمجموع الأحوال الظّاهرة قيامًا وركوعًا وسجودًا، فكما أنّ الظّاهر مُتعبّدٌ للّه في جميع الأحوال ابتداءً من حال التَّوجُّه بالقيام إلى حال الإخفاض بالركوع وحال الخضوع بالسجود، فكذلك الباطن مُتمحِّضٌ للّه بثبوت الإخلاص ونفي الشّرك[1]، قال أبو السُّعود: "ولعلَّ التعبير عن الصَّلاة بأركانها؛ للدَّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ منها مستقلٌّ باقتضاء ذلك؛ فكيف وقد اجتمعت؟!"[2].

دلالةُ صيغة الجمع السّالم في: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾:

لأجل الطّواف والقيام أُمِر بتطهير البيت

جمع المذكر السّالم في قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أدلّ على الفعليّة، فجمع السّلامة يجري مجرى علامة الجمع في الفعل؛ فطائفون أشبه بيطوفون، والفعليّة هي العِلّة المُتعلِّقة بحُكم التَّطهير؛ أيْ: لأجل

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 136.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 21.

فِعل الطَّواف حصل الأمر بتطهير البيت، ولذلك لم يَقُلْ: (وطهّر بيتي للطّواف)؛ لِخُلو المصدر من بيان قصد الفِعل، كذلك لم يَقُلْ بالاسميّة: (وطهّر بيتي للذين يطوفون)؛ لأنّ لفظ (الذين) يُنبئُ عن الشَّخص والذّات، وحكْمُ التَّطهير من حيث هو تكليف - مُعلَّلٌ بالفعل لا بذوات الأشخاص؛ ولذا كان لفظ ﴿لِلطَّآيِفِينَ﴾ أوْلَى بهذا الموضع[1]، وهذا الجمع من أوزان القِلَّة، أو هو مُلحقٌ بهنَّ؛ ففيه دلالةٌ على تميُّز هؤلاء المُحدَّث عنهم؛ إذ ليس كل المسلمين يطوفون بالبيت، ومَن قُدّر لهم أن يطوفوا به لا يجتمعون في وقت واحد؛ فالذي يطوف به مُميَّز شأنُ القليل في كلِّ شيءٍ؛ وفي هذا بيانٌ لفضل العبادة في البيت الحرام.

عِلَّة الترتيب في ﴿لِلطَّآيِفِينَ وَٱلۡقَآيِمِينَ﴾:

القيام إمّا إقامةٌ للصَّلاة وإمّا مقامٌ في البلد

قدَّم الذِّكر الحكيم ﴿لِلطَّآيِفِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَآيِمِينَ﴾؛ لأنّ الطّواف خصوصيّة البيت الحرام الَّذي اعتنى به سياق السّورة، والقيام حاصلٌ في كلِّ مسجدٍ من الأرض؛ فكان للطواف حقُّ الصَّدارة، والطَّوافُ بالكعبة هو أوَّل ما يقوم به العبدُ حين يدخل المسجد الحرام، فلعل القرآن لاحظ هذا؛ فقدَّم ﴿لِلطَّآيِفِينَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَآيِمِينَ﴾.

نكتةُ تركِ العطف بين الرُّكوع والسُّجود:

الرُّكوع من جنس السُّجود؛ فبينهما كمال اتِّصال

قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَٱلۡقَآيِمِينَ﴾، وعطَف الركوع على القيام لانفصالهما في الهيئة؛ فإنّ القيام انتصابٌ واستقامة، والركوع إخفاضٌ وانثناء، والواو لا يبرحُها معنى المغايرة، وترَك السّياق القرآنيُّ العطف بين الركوع والسجود، فلم يَقُلْ: (والرُّكَّع والسُّجود)؛ لكون الرُّكوع والسُّجود كالهيئة الواحدة، لاشتراكهما في الإخفاض والخضوع؛ فالسُّجود تتميمٌ للرُّكوع؛ لذا عوملا معاملة الشّيءِ الواحد؛ فلم يُفصل بينهما بالعطف، ففي ترك العطف إشارة

(1) السُّهيليّ، نتائج الفِكَر، ص: 214، وفاضل السَّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 126.

إلى أنّ الراكع إن لم يسجد فليس براكع في حكم الشريعة، فلو عطفت بالواو لتوهّم أن الركوع حكم يجري على حيالِه[1].

نـكـتـةٌ أخــرى للعطف وعدمه في الآية

يحتمل أنّ يكون معنى قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ الوافدين للزّيارة من غير أهل مكّة، ومعنى قوله: ﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ المقيمين بمكّة، ومعنى قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المُصلّين من الكلّ، فهذه ثلاثةٌ مُتباينة، ولذا عطف بالواو للمغايرة بينهُنَّ، وامتنع العطف بالواو في ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ لأنَّ المقصود بهما واحدٌ وهم المُصَلّون[2].

دلالةُ حُسن التَّرتيب في النَّظم في الآية:

الطَّواف والإقامة مُـخـتـصّـان بتطهير البيت

جرى التَّرتيب في الآية في قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ على مراعاة الرّتبة والقُرب؛ ولذا بدأ بالطّائفين لِرُتْبَة الطّواف من البيت، ولتعلّق حكم التّطهير بمَنْ يطوف به تعلُّقًا أوّليًّا، ثمّ ثنّى بالقائمين لدخولهم في التَّعلُّق في حُكم تطهير البيت أيضًا، ولذا جاء لفظه أيضًا على بناء جمع السَّلامة كنظيره، ثمّ يليه في الرُّتبة لفظ ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾؛ لأنّ المستقبلين البيتَ بالرّكوع لا يختصّون بالبيت كالطّائفين والقائمين، فلا يلزم أن يكون الرُّكوع في البيت ولا عنده؛ ولذلك لم يتعلَّق حُكم التَّطهير بهذا الفعل الَّذي هو الرُّكوع، ولذلك لم يَجِئْ بلفظ الجمع السّالم (الرّاكعون)، إذ لا يُحتاج فيه إلى بيان لفظ الفعل كما احتيج فيما قبله من (الطّائفين والقائمين)، ومِثْلُه في الوضع السّجود؛ فلذلك لم يجئ أيضًا على الجمع السّالم: (السّاجدون)، وجاء بعد الرّكوع لكونه بعده[3].

نكتة المغايرة بين صيغتي الجمع في ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾، ﴿ٱلسُّجُودِ﴾:

في قوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ غاير القرآنُ بين صيغتي الجمع؛

---

(1) السُّهيليّ، نتائج الفِكَر، ص: 215.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 219، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 36.
(3) السُّهيليّ، نتائج الفِكَر، ص: 215.

لا يوجد في القرآن جمع (راكع) على (رُكوع)

فجاء ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾ على وزن (فُعَّل)، و﴿ٱلسُّجُودِ﴾ على وزن (فُعول)، فلم يَقُلْ: (الرُّكّع السُّجَّد)، ولم يَقُلْ: (الرُّكوع السّجود)؛ لأنّه أراد الرُّكوع بحالته الظّاهرة، وأراد السّجود بِمعناه الظّاهر في الهيئة، ومعناه الباطن في الخشوع والخضوع؛ لأنَّ صيغة (فُعَّل) في جمع (فاعل) تدلُّ على الحركة الظّاهرة وعلى تكثير القيام بالفعل، وصيغة (فُعول) في جمع (فاعل) هي جمعٌ على وزن المصدر فتدلُّ على الفِعل في معناه الحقيقيِّ الَّذي يتناول الظّاهر والباطن؛ فلو قال: (الركّع السّجّد) لكان السُّجود مقتصرًا على حالة الظّاهر فقط ولم يتناول حقيقته في الباطن، وهذا غير مُرادٍ في النَّظْم، ولذلك لم يجمع بين الصّيغتيْن إلّا في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: 29]؛ لأنّه أراد الحالة الظّاهريّة فحسب، بدليل قوله: ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾ [الفتح: 29]؛ أيْ: رؤية العيْن الظّاهريّة الحِسّية، وأمّا في الرّكوع فجاء جمْعُه - هنا - بصيغة (فُعَّل - رُكَّع)؛ لأنّه لم يَرِدْ منه إلّا الهيئة الظّاهرة، ونكتة ذلك أنّ الرّكوع مُتَّصِلٌ بالسّجود، وتمهيدٌ لِسِرِّ السَّكينةِ والخشوعِ فيه، فتمامُ هيئةِ الرّكوع في الظّاهر معونةٌ على تحقيق السّجود في الباطن وإتمامه على أكمل الوجوه، فالوصول لحقيقة السُّجود هو المقصود من الرّكوع، فلمّا كان السّجود هو الغاية من الرّكوع، وكان السّجود بهذا المستوى دالًّا على كمال الرُّكوع وليس العكس؛ قصد إلى الدّلالة على الرّكوع بالمعنى الظّاهريّ فحسب؛ لأنّه مِفتاح السُّجود، والسُّجود كافٍ في الدّلالة على حقيقة الباطن والظّاهر فيهما[1]، ومن تَتِمّات براهين هذا التَّوجيه ىهذا المبحث من الألفاظ أنّ كلمة (راكع) لم تُجمع في القرآن إلّا على هذه الصّيغة (فُعَّل - ركّع)، وعلى بناء الجمع السّالم: (الرّاكعون - الرّاكعين)، فلا غرو ألّا تأتي هنا إلّا على هذه البناء.

(1) السُّهيليُّ، نتائج الفِكَر، ص: 215، وفاضل السَّامرّائيّ، معاني الأبنية، ص: 133 و139.

بلاغةُ توجيه المتُشابه اللَّفظيِّ بين هذه الآية وآية البقرة:

العكوفُ بالقيام مـن حسنـاتِ مجاورة البيت الحرام

في هذه الآية عبّر القرآن الكريم بقوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾، بينما جاء في سورة البقرة: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ [الآية: 125]، والنّكتة في ذلك أنّ لفظ العكوف لمّا تقدّم - هنا - في سورة الحجّ في قوله: ﴿ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾؛ استغنى عن إعادته لعدم التِّكرار في مادَّة اللَّفظ، وذَكَّره بوصف القيام؛ فقال: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾؛ فهو في مقابلة (العاكف والباد)؛ ليُفيد بذلك معنًى جديدًا، وهو أنّ القيام من لوازم العكوف؛ يعني دوام القيام بالصَّلاة في البيت من لوازم العكوف والمكوث بمكَّة، والعكوف التَّعبُّديّ أو العكوف بملازمة البيت الحرام لازمٌ عن الإقامة في مكّة، على اعتبار أنّ معنى القائمين هم المقيمون غير الوافدين؛ فكأنّه فسّر أحد اللَّفظيْن بالآخر وكمَّل كلًّا بنظيره[1].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 36.

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا أحسنَ ممّن دعا إلى الله وبلّغ عنه

لمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السابقة تشريف إبراهيم عليه السلام بالمحلّ الكريم مكانَ البيت، وجعل في ضمن ذلك تكليفه بتطهير نفسه بعدم الشّرك، وتطهير بيته لأجل الزّائرين له، كان ذلك بمثابة التّمهيد لتكليفه بإعلان النِّداء إلى فريضة الحجِّ؛ فاستأهل بهذه التّكاليف أن يكون إمامًا يُنادي في النّاس ويُؤذِّن فيهم بالبلاغ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَذِّن﴾: (أذن) تدلُّ كثيرٌ من اشتقاقاتِه على معنى العِلْم، والأذان هو: الإعلام، وأصله: أذِنَ؛ أيْ: عَلِمَ الشَّيءَ سَماعًا بِأُذُنِه، وأذّن تأذينًا إذا أكثَرَ من إعلامِ غيرِه، وآذَنَه إيذانًا: أعلَمَه، فالتَّركيبُ دائرٌ حول العِلم بالشَّيء والإعلامِ به[1]، والمُراد في الآية: أعْلِم النّاسَ بالحجِّ.

2) ﴿رِجَالٗا﴾: أصل (رجل) يدلُّ على العضو الَّذي هو رِجْلُ كلِّ ذي رِجْل[2]، والرِّجْلُ: هو العضو المخصوص بأكثر الحيوان[3]، ورجال: جمع راجِل؛ وهو الماشي على رِجْلَيْه؛ وهو المعنى المقصود في الآية الكريمة.

3) ﴿ضَامِرٖ﴾: أصل (ضمر) يدلُّ على دِقَّةٍ في الشَّيء، ومنه قولهم: ضَمَر الفرسُ وغيرُه ضمورًا، وذلك من خِفّة اللَّحم، وقد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (أذن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجل).
(3) الرَّاغب، المُفردات: (رجل).

يكون من الهُزال[1]، والمُراد هنا: ركبانًا على البعير الضّامر أو الفرس الضّامر.

4) ﴿فَجٍّ﴾: أصل (فجّ) يدلّ على تفتُّح وانفراج[2]؛ من ذلك: الطَّريق الواسع بين جبلَيْن، أو في جبل بأن يكون شَقًّا فيه، أو في قُبُل جَبَل، وقيل: هو ما انخفض من الطُّرق، ولذا وصف في الآية بـ﴿عَمِيقٍ﴾، وقيل: كلُّ طريقٍ بَعُدَ فهو فجٌّ، وهذا يُناسب وصفه بالعميق كذلك[3]، والمُراد به في الآية الكريمة: الطريق أو كلّ وادٍ غامض[4].

5) ﴿عَمِيقٍ﴾: أصل (عمق) يدلّ على البُعد إلى أسفل[5]، والعُمْق إذا كان صفةً للطَّريق؛ فهو البُعد الأُفُقيُّ، وإذا كان صفةً للبئر؛ فهو بُعد قعرِها الرَّأسيّ[6]، والمُراد هنا: البُعد الأفقيُّ في مسافة الطَّريق.

المَعنى الإجْماليُّ:

على العبد تأدية ما عليه وعلى الله وحده إنجاح المقاصد

ذكر اللّهُ سبحانه ما أمر به نبيَّه إبراهيم بعد أن بوّأه مكان البيت قائلًا له: وأعلِم النّاس - أيّها النّبي - أنَّ اللّه فَرَضَ على المُستطيعين منهم أن يقصِدوا هذا البيت فيُلبّوا نداءَك، ويأتوك على مختلَفِ أحوالهم مُشاةً وركبانًا على كل ضامرٍ من الإبل؛ وهو: (الخفيف اللَّحم من السَّيْر والأعمال لا من الهُزال)، يأتين من كلِّ طريقٍ بعيدٍ[7].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

طهارة الباطن والظّاهر تمهيدٌ لإقامة الفريضة

موقع جملة: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ ودلالةُ ترتيب هذه المعاني:

جملة: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ معطوفة على الأمر والنّهي قبله في جملة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فجّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فجج).
(4) السَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (فجج).
(5) الرَّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عمق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عمق).
(7) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 491، ونخبة من أساتذة التَّفسير، التفسير الميسر، ص: 335.

﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾[1] وجملة ﴿لَّا تُشۡرِكۡ﴾، كأنّه قيل: ﴿لَّا تُشۡرِكۡ﴾.. ﴿وَطَهِّرۡ﴾.. ﴿وَأَذِّن﴾، وجاء قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ بعد قوله: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ وقوله: ﴿لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾؛ للإشارة إلى أنّ التّسويق للمكان والإعلام به والدّعوة لزيارته مُترتّبةٌ على تهيئتَيْن: تهيئة المُستضيف في نفسه وشخصه، ليكون على أكمل جاهزيَّةٍ وأتمّ استعدادٍ في الاستضافة والإعلان، ويُعبِّر عنه قوله: ﴿لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا﴾، وتهيئة المحلّ والمكان الّذي هو مقرّ الزّيارة والوِجْهة المقصودة بالتّأذين إليها[2].

دلالةُ التَّضعيف في: ﴿وَأَذِّن﴾:

التّضعيف مُؤذِنٌ بالتّكرار أو ما في قوَّة التّكرار ولو مَرّة

تضعيف عين الفعل في قوله: ﴿وَأَذِّن﴾ مُشعِرٌ بتكرار الفعل وتجديده؛ أيْ: (أذِّنْ مرارًا وتكرارًا) حتّى يكثر النّداء بالتّأذين في النّاس، فكثرة الأذان تُناسب كثرة النّاس[3]، ففي التّضعيف إنباءٌ بكثرة مَن يأتون البيت الحرام، وهذه دلالة غيبيَّة، وقد ثبتت في الواقع.

دلالة التَّعدية بحرف الوعاء ﴿فِي﴾:

دعـوة الأنبياءِ نافِذَةٌ في العقول والقلوب

تعدية الأذان بحرف الوعاء في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾، ولم يَقُلْ: (وأذّن للنّاس)، أو (أذّن إلى النّاس)؛ لأنّه أراد أن تكون الخلائق - والأذانُ واصلٌ إليها - أوعيةً للأذان، ولا تكون أوعيةً لهذا الأذان إلّا بأنْ يقع الأذان منهم موقع المظروف من الظّرف، فينخرط في أفئدتهم وتنطوي قلوبهم عليه، وكأنّه يشير بذلك إلى ضمان الاستجابة والتّلبية منهم لهذا الأذان؛ لأنّهم لن يستجيبوا له إلّا إذا كان هذا الأذان حاصلًا فيهم لا مُجرَّد كونه واصلًا إليهم، فكم من نداءٍ وصل إلى الأسماع ولم يقفز في العقول والألباب، فاستحالتْ معه التّلبية، وامتنعت إليه الاستجابة.

(1) صافي، الجدول: 17/ 108.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 17/ 242.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 17/ 242.

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

في الشَّرائع ما هو قديمٌ مُمتدٌّ يدوم تكليف النّاس به

في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ﴾ نجد أنَّ (أل) في لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للجنس، فيدخل فيه الموجودون منهم ساعة الأذان دخولًا أوليًّا، ويدخل فيه مَن سيوجد منهم إلى يوم يُبعثون؛ لأنّه من خطاب الأنبياء بالتَّكليف المُمتدّ في ذراريهم من بعدهم؛ فلا ينقطع بانقطاعهم[1].

نكتةُ تقديمِ قولِه: ﴿فِي ٱلنَّاسِ﴾ على قوله: ﴿بِٱلْحَجِّ﴾:

التقديم احتفاءٌ بالنّاس وتشريفٌ لهم في مقام التَّكليف

لم يُقل المولى سبحانه وتعالى في السّياق الكريم: (وأذّن بالحجّ في النّاس) لإفادة الاختصاص والحصر، بتقديم المقصود أصالةً من الخطاب، فالمُكلَّف بالخطاب أحقّ بالتَّقديم من موضوع الخطاب، وهذا احتفاءٌ بالنّاس وتشريفٌ لهم في مقام التَّكليف.

معنى الباء وأل في: ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ ودلالة الاقتصار على هذه اللفظة:

لكل شعيرة من شعائر الإسلام أماكنها وآدابها

الباء في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ على بابها من إفادة التَّعدية، و(أل) في قوله: ﴿بِٱلْحَجِّ﴾ للعهد الذِّهنيِّ؛ وهو حجُّ بيت اللّه الحرام الرُّكن الخامس من أركان الإسلام، ولم يَقُل في السّياق الكريم: (وأذن في الناس بحجِّ بيتي أو بحجِّ بيت اللّه الحرام) وذلك إيجازًا؛ لكون المعدول عن ذِكْرِه معلومًا من السّياق؛ فالحجُّ لا يكون إلّا إلى البيت الحرام.

موقع جملة ﴿يَأْتُوكَ﴾ ممّا قبلها:

جملة الأمر وجوابه لتقرير التَّكليف ومُطاوعةِ المُكلّف له

الفعل المضارع في قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مجزومٌ لوقوعه جوابًا للأمر في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ مع عدم اقترانه بالفاء، وجملة جوابِ الأمر لا محلَّ لها؛ لأنَّها على تقدير شرطٍ: (إنْ تؤذِّن فيهم يأتوك)[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 242.

(2) صافي، الجدول: 9/ 108.

نكتةُ إسنادِ الفعل إلى ضميرِ الخطاب: ﴿يَأۡتُوكَ﴾:

أُسنِد الفعل إلى ضمير خطابِ إبراهيم عليه السلام: ﴿يَأۡتُوكَ﴾؛ لأنَّ الإتيان إلى مكّة بسبب ندائهِ - إتيانٌ إليه، وأيضًا: هو أوّل مَنْ حجّ وغيرُه يقتدي بهِ وكأنَّه يأتيه، ففيه تشريفٌ لإبراهيم عليه السلام[1]، وقيل: تعليق الفعل بضمير خطابه للدّلالة على أنّه عليه السلام كان يحضر موسم الحَجّ كلّ عام، والنّاس تأتي إليه يُعلِّمهم ويدعوهم[2]، وفي إسناد الإتيان إلى المفعول الواقع ضميرًا لإبراهيم عليه السلام - أيضًا مجازٌ عقليٌّ بإسناد الفعل إلى غير مفعوله الحقيقيِّ؛ لأنّ إتيانهم ليس لإبراهيم؛ بل إلى البيتِ لأجل اللّه، لكن لمّا كان الخليل عليه السلام سببًا لبناء البيت وسببًا لإتيانهم بتأذينه؛ أُسند الفعلُ إلى سببه مجازًا[3]، ويصحُّ أن يكون في قوله: ﴿يَأۡتُوكَ﴾ مجازٌ بحذف المُضاف، بإسناد ما هو للمُضاف إلى المُضاف إليه، والتَّقدير: (يأتون بيتك الَّذي بنيته)، فحذفَ البيتَ وأقامَ المُضاف إليه مقامَه وهو ضمير الخطاب[4].

أُسـنـد الإتـيـانُ لضمير إبراهيم إيذانًا بأنّه شهيدٌ عـلى أعـمـالـهـم أمام الله

نكتة تقديم ﴿رِجَالٗا﴾ على قوله:

قُدِّم قوله ﴿رِجَالٗا﴾ على الرُّكبان في قوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾؛ لأنّ المُترجّل عادة ما يكون هو الأقرب من الحرم، فيدخل فيه المُقيم والمُجاور للحرم أو لمكّة، والأقرب أحقُّ بالبدء، ولأنّ الرّاكب عادةً ما يأتي من بعيدٍ؛ فقد ناسبه التَّأخير في النّظم؛ لأنّه متأخّرٌ في موضع إقامته عن المقيم الرّاجل؛ وعليه فهو يناسب التَّرتيب في قوله: ﴿ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾، والتَّرتيب في قوله: ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾، وأيضًا: للاهتمام والعناية بمقام الرّاجل؛ فإنَّ السَّعي على الأرجل أشقُّ من السَّعي على ظهور الإبل[5].

الـسَّـعـيُ على الأرجـــل أشـقُّ من السَّعي على ظهور الإبل

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 38.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 243.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 48.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 48.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 69.

الحجُّ لا يستلزم الرُّكوب وتسلية مَـن لا يملك ركوبًا

وفي تقديم الراجل على الراكب احتراسٌ من توهُّم أنَّ الاستطاعة الواجبة في الحجِّ تستلزم الرُّكوب والسّفر بالرّواحل، فأخبر أنّها كافيةٌ بمجهود البدن ولو من غير راحلة، وأيضًا: في تقديم الرّاجلين على الرّاكبين تسليةٌ وإيناسٌ لِمَنْ لا يستطيع رُكوبًا ووسيلةً إلّا على رِجْليه، وتهذيبًا لِمُستطيع ذلك ألّا يزدري أحدًا ممّن لا يملك استطاعة الرّكوب(1).

إشعارٌ بسرعة الاستجابة وإشارة إلى أن الأصل هو التَّرجُّل

وفي تقديم الرّاجل على الرّاكب أيضًا إشعارٌ بالإسراع في تلبية النّداء على الفور؛ ففيه مدحٌ للنّاس؛ لأنّ ترجُّلهم إفادةٌ على سرعة جاهزيَّتهم واستعدادهم بقرينة جواب الأمر ﴿يَأۡتُوكَ﴾؛ أيّ: بمجرّد تأذينك فيهم يأتوك على الفور، وأيضًا في تقديم ﴿رِجَالٗا﴾ إشارةٌ إلى الهيئة الأصليّة وهي الأسبق فقُدّمت؛ لأنّ الأصل أن يكون الإنسان راجلًا لا راكبًا.

معنى الواو في جملة: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾:

توزيع الأحوال على أقسام النّاس

جملة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ معطوفةٌ على ﴿رِجَالٗا﴾، والواو فيها واو التَّقسيم الَّتي بمعنى (أو)؛ فالعطف للتَّوزيع؛ أيّ: توزيعُ هاتيْن الحالَيْن على الآتين؛ أيّ: يأتوك منهم راجلٌ ومنهم راكبٌ، والغرض من هذه الواو استيعاب الأقسام والأحوال؛ فقِسْمٌ يأتي راكبًا، وقِسْمٌ يأتي راجلًا(2)، ويدخل في قوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ الإتيانُ على الوسائل الحديثة.

نكتة التَّعبير بصفة الضُّمور:

وصف الإبل بالمآل الَّذي انتهت عليه إلى مكّة

لم يُقل في السّياق الكريم: (رجالا وركبانًا)؛ وإنّما قال: ﴿رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾؛ لأنّه أراد الإخبار عن الحالة التّامّة للمسافر الَّتي تصفه وتصف راحلته وتصف طول المسافة ومقدار العناء، فوصف

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 69.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 243.

المركَبِ بالضّامر يشهد بعناء المُسافر وبُعد السّفر[1]، وهذا التَّشديدُ في وصف العمل ينظر إلى التَّشديد في يوم الحساب الَّذي يكون فيه العقاب على العمل السَّيئ، والثّواب على العمل الصالح؛ قال تعالى في مطلع السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحجّ: 1].

دلالة النّصّ بالعموم ومجاز الحذف في: ﴿كُلِّ ضَامِرٖ﴾:

خروج لفظ العموم عن إفادة الإحاطة إلى إفادة الكثرة بقرينةٍ

لفظ العموم ﴿كُلِّ﴾ في قوله: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ يُفيد الكثرة لا الإحاطة وذلك بقرينة المقام؛ أيّ: على كلّ ضامرٍ يُراد منه قصد البيت على غرار قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: من كلّ ثمرةٍ تشتهيها؛ فالعموم المُستفاد من ﴿كُلِّ﴾ يُفيد الإحاطة في الأفراد المحصورين بالقيد، وليس الإحاطة المطلقة[2]، وفي تركيب ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ﴾ إيجازٌ بحذف الموصوف، وإقامة الصّفة مقامه، وهذا الحذف من المجاز، والتَّقدير: (وعلى كلّ بعيرٍ ضامر)[3].

دلالة جمع الضَّمير في: ﴿يَأۡتِينَ﴾:

المُفرد المُضاف لأداة العموم هو جمعٌ في المعنى

قوله: ﴿يَأۡتِينَ﴾ صفةٌ لـ: ﴿ضَامِرٖ﴾، وجمَعَ الضَّميرَ ولم يُطابقه بضمير الموصوف المُفرد، فوصف المفرد بالجمع، مراعاةً للمعنى؛ لأنّ الموصوف: ﴿ضَامِرٖ﴾ في معنى الجمع؛ إمّا لإضافة ﴿كُلِّ﴾ إليه فمعناه الكثرة الَّتي توافق لفظ الضمير بنون جمع المؤنّث، وإمّا لأنّ لفظ ﴿ضَامِرٖ﴾ يُراد به عموم الجنس[4]، وفي الوصف بالجمع إنباءٌ بكثرة مَن يأتي البيت الحرام على غير حال التَّرَجُّل؛ فيدخلُ فيه الإتيان على الضّامر، وما في حُكْمِه من الوسائل الحديثة، وممّا حسَّن العدولَ إضافةُ لفظ العموم: ﴿كُلِّ﴾ إلى كلمة: ﴿ضَامِرٖ﴾.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 39.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 49، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 244.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 48.
(4) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القُونويّ: 13/ 48.

دلالةُ تأنيثِ الضَّميرِ في: ﴿يَأۡتِينَ﴾:

تعديد مرجع الضمير يؤثّر في اتّساع المعنى

أُنِّثَ الضَّمير في ﴿يَأۡتِينَ﴾؛ لأنّه عائدٌ على ما لا يعقل من الرَّواحل، فحقّه التّأنيث، أو لأنّ ﴿يَأۡتِينَ﴾ وقع حالًا ثانيةً من ضمير ﴿يَأۡتُوكَ﴾؛ فيعود على جماعات النّاس؛ أيْ: يأتوك جماعات؛ فأجرى الضَّمير بالتَّأنيث عليهم لذلك[1]، ورجوعُه على ﴿كُلِّ ضَامِرٖ﴾ على مراعاة ﴿ضَامِرٖ﴾ غير العاقل هو الظاهرُ، والتَّأنيثُ فيه معنى السُّهولة الَّذي يتْبَعُه هنا معنى الكثرة، والتَّأنيثُ على هذا يتناسب مع العدول عن الوصف المُفرَد إلى الوصف الجمع.

نكتة إسناد الإتيان لغير العاقل:

في سورة الحجّ مُدِحَتْ الإبل الحاجّة وفي (العاديات) مُدِحتْ الخيل المُجاهِدة

إسناد الإتيان للرّواحل في: ﴿يَأۡتِينَ﴾؛ لأنّ الرّواحل هي سبب إتيان النّاس، والإتيان كما يُسنَد إلى الرُّكبان حقيقةً يُسنَد كذلك إلى المركوب حقيقةً، ونكتة إسناد الإتيان إليها تشريفها ومدْحها، حيث جعلها مشاركةً للحجيج في الإتيان إلى البيت، وللإشارة إلى أنَّ الاستطاعة لا تقتصر على صلاحية البدن بالمَشْي والتَّرجُّل، وأنّها حاصلةٌ بالمؤونةِ والوسائل المُجْزِئة عن عمَلِ البدن بركوب الوسائل المُعينة والنّاجزة[2].

دلالة التَّعبير بفعل الإتيان:

الـرّاجِـلُ ساعٍ بنفسه والرّاكب ساعٍ بغيره وفي كلِّ خير

التَّعبير بفعل الإتيان في جملة جواب الأمر ﴿يَأۡتُوكَ﴾ وتكراره في: ﴿يَأۡتِينَ﴾، فجعلَه مرّة للنّاس، ومرّةً للرّواحل، أو مرّة للنّاس بالمطابقة الصَّريحة في ﴿يَأۡتُوكَ﴾، أو المطابقة المؤوّلة بالجماعات في ﴿يَأۡتِينَ﴾؛ للدّلالة على تيسير الحجّ حتّى للمُشاة الرّاجلين، فكيف بالرُّكبان المُعتَمِدين، ودلَّ على هذا التَّيسير اصطفاء لفظ الإتيان؛ فإنّه مجيءٌ بسهولة، ودلَّ عليه جملة جواب الأمر؛ فإنّها تدلّ على الإسراع والفوريّة[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 245.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 39، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 245.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 245.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالة ﴿كُلِّ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ ابتدائيّة؛ أيْ: إتيانهم بادئٌ من الفجّ العميق إلى البيت العتيق، ولفظ ﴿كُلِّ﴾ في قوله: ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ يدلّ على الإحاطة في الأفراد مع ملاحظة القيد؛ أيْ: من كلّ فجٍّ يبتغون منه الحَجّ[1].

يـأتي الحجيج مـن كـلِّ فـجٍّ يبتغون الحَجّ

سِرُّ إيثار التَّعبير بلفظ: ﴿فَجٍّ﴾:

وعبّر بلفظ ﴿فَجٍّ﴾ دون غيره، كالطّريق؛ لأنّ الفجّ هو طريقٌ مخصوصة بالمسالك الّتي تقع بين الجبال، ومكّة محاطة بالجبال، فعبّر بالفجّ عن الطَّريق تغليبًا للطّرق النّافذة إلى مكّة في الجبال على سائر ما عداها من الطُّرق[2]، ولنكتةٍ أخرى بديعةٍ: وهي مناسبة هذا اللَّفظ ﴿فَجٍّ﴾ لوصف ﴿ضَامِرٖ﴾؛ لأنّ الضُّمور صفةٌ تُكنّي عن المَشقّة والبُعد، وكذلك الفجّ يقتضي هذه الصِّفة؛ لأنَّ سلوك البعير وسائرُ المراكب من خلال الفِجاج المُحاطة بالجبال أشقُّ وأصعبُ وأبعثُ على الضُّمور والهُزال من السُّلوك في الطَّريق العامَّة الواسعة[3].

الـدّلالـة على المـشـقّـة الّـتـي يلقاها الحجيج

نكتة الوصفِ بالعُمق دون البُعد:

وصفُ الفجّ بالعميق في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ مجازٌ مُرسَل علاقته الإطلاق والتَّقييد، وقد أُطلق العميق الَّذي هو البُعد الرأسيّ من القعر إلى السّطح، وأُريد به البعيد مطلقًا أو البعيد أفقيًّا، ويصحّ أن يكون وصف الفجّ بالعميق على سبيل الاستعارة التَّصريحيّة، حيث شبّه موقع الأماكن بالنسبة إلى مكّة بمكانٍ خفيضٍ عنها ذي عمّق، فيقتضي الإتيان إليها صعودًا رأسيًّا بالارتفاع نحوها، أو في ذلك تشبيه للسّفر من الموطن بالإصعاد، والرّجوع إليه

إلى البيت الحرام تشتاق النُّفوس الزَّكيَّة العليَّة

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 49.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 245.

(3) مُستفاد من كلام فضيلة د. احمد صافي المستغانمي في برنامج (في رحاب سورة)، تفسير سورة الحج، تلفزيون الشارقة.

بالانحدار والهبوط[1]، فبالإتيان إلى البيت الحرام يحصل التّرقّي الرّوحيُّ والقلبيُّ.

ولم يَقُلِ السّياق الكريم: (من كلّ فجٍّ قريب)؛ لأنَّ صفة القرب ثابتةٌ بدلالة النَّصّ فلا تحتاج إلى تنبيهٍ، ولأنَّ التَّقييد بالبُعْد يدلُّ على القُرْب، بخلاف القرب فلا يدلّ على ضدِّه؛ ولقصد التَّقييد بما يُفيد المدح؛ فإنّ الوصف بالعمق أشقّ في تحصيل التَّلبية، فالإتيان منه أمدح للمُلَبّين[2].

كنايةٌ عن العُمْق النّفسيّ للحاجّ وتناسبًا مع كروية الأرض

والتَّعبير بوصف العميق دون البعيد كنايةٌ عن العُمْق النّفسيّ لأغوار الرّوح؛ فكلّ مَن يأتي إلى البيت الحرام يسمو ويرقى وتزكو نفسُه كأنّه قادمٌ من فجٍّ عميق[3]، واصطفَى وصفَ العميق دون البعيد أيضًا؛ لأنّ البُعد امتدادٌ سطحيٌّ أفقيّ، والعمق امتدادٌ رأسيٌّ تصاعديّ، والعمق يناسب كرويّة الأرض، ولا يناسبه وصف البعد؛ لأنّ الأرض ليست مسطّحة، فكلّ مَن يأتي إلى مكّة من بعيد هو في الحقيقة يأتي من عُمَق؛ لأنّ الأرض كرويّة الشكل[4].

بلاغة الكناية في تعليق الإتيان بالفجّ العميق:

أكثر عمّار البيت من بلاد العَجَم البعيدة

في تعليق إتيان النّاس ركبانًا من الفجّ العميق كنايةٌ تومِئُ إلى عِلّة إتيانهم من بعيدٍ، وهو اتّساع رقعة الإسلام وكثرة المسلمين، حتّى يأتون من أقاصي البلاد يُلبّون النّداء ويحقّقون دعوة الخليل ﷺ[5]، ويؤيدُ هذا العدولُ عن وصف الضّامر بالمفرد إلى وصفه بالجمع، والتأنيثُ في قوله: ﴿يَأۡتِينَ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 245.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 49.

(3) مُستفادٌ من كلام فضيلة د، امحمد صافي المستغانمي في برنامج (في رحاب سورة)، تفسير سورة الحجِّ، تلفزيون الشارقة.

(4) مُستفادٌ من كلام فضيلة د، امحمد صافي المستغانمي في برنامج (في رحاب سورة) تفسير سورة الحجِّ، تلفزيون الشارقة.

(5) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 9/ 140.

﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج: 28]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن لبّى نداء الله كان حقًّا على الله أن يُكرمه

لمّا ذُكر في الآية السّابقة تكليف الخليل ﷺ بأذان الحجّ وأخبر عن مُطاوعة النّاس تلبيةً له بالإتيان من أقاصي الأقطار؛ أخبر هنا عن جملةٍ من الرَّغائب والمقاصد جُعِلَتْ غايةً وعِلّةً لِرحلتهم وإتيانهم؛ فهي مِن تمام الحديث عن الحجِّ، وكذلك ما يأتي مِن آيات.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾: أصل (شهد) يدلّ على حضورٍ وعِلمٍ وإعلام، والشُّهود والشَّهادة: الحضور مع المشاهدة؛ إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، لكنَّ الشُّهود بالحضور المُجرَّد أَوْلَى، والشّهادة مع المشاهدة أولى[1]، والشّهادة لا بدّ أن تكون عن شهودٍ؛ أيْ: حضور؛ إذِ الشَّهادَةُ: قولٌ صادر عن عِلمٍ حصل بمشاهدةِ بصيرةٍ أو بصر[2]، وقوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ يعني: ليحضروا.

2) ﴿مَنَٰفِعَ﴾: أصل (نفع) يدلّ على خلاف الضُّرّ[3]، والنّفع: ما يُستعان به في الوصول إلى الخيرات، وما يُتوصّل به إلى الخير فهو خير، فالنّفع خير، وضدّه الضُّرّ[4]، والمنافع: جمع منفعة؛ وهي اسمٌ لما يُنال من المصالح والخيرات، والمُراد بها في الآية: المصالح الدّينيّة والدُّنيويَّة.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 49.
(2) الرّاغب، المُفردات: (شهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(4) الرّاغب، المُفردات: (نفع).

3) ﴿بَهِيمَةِ﴾: أصل (بهم) يدلّ على استغلاقٍ في الشَّيء، ومنه: أبهمت الباب: أغلقته إغلاقًا لا يُهتدى لفتحه[1]، ويُقال لكلّ ما يصعُب على الحاسَّة إدراكُه إنْ كان محسوسًا، وعلى الفهم إن كان معقولًا: مُبْهَم، والبَهيمةُ: ما لا نُطق له، وذلك لما في صوته من الإبهام؛ لكن خصّ في التعارف بما عدا السِّباع والطَّير؛ فالبهيمة شاملة للأنعام وغيرها، فمن ثم حسنت إضافتها للأنعام لإفادة البيان[2]، والمُراد بالبهيمة في الآية الكريمة: كلُّ ما يُضحى به من الإبل والبقر والغنم.

4) ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: أصل (نعم) يدلُّ على ترفّهٍ وطيبِ عيْشٍ وصلاح، والنَّعَمُ هو البهيمة من الإبل، وجمْعُه: أَنْعامٌ، وإنما سُمّيت الأنعام بذلك؛ لكون الإبل عندهم أعْظَمَ نِعْمةٍ، لكِنِ الأَنْعامُ تُقال للإبل والبقر والغنم، ولا يُقال لها أَنْعامٌ حتى يكون في جملتها الإبل[3].

5) ﴿ٱلۡبَآئِسَ﴾: أصل (بأس) يدلّ على الشِّدّة وما ضارعها؛ فالبأس هو الشدّة في الحرب، والبؤس: الشِّدَّة في العيش[4]، و﴿ٱلۡبَآئِسَ﴾ من (بئِسَ) كـ(سمِع)، إذا ساءت حاله وافتقر، وبيّن أنّه من (بئِس) الَّذي هو شدَّة الفقر، لا من (بَؤُس - ككرُم) الَّذي معناه: اشتدَّ في الحرب - بقوله: ﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾[5].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه سبحانه عن غاية إتيان النّاس راجلين وراكبين من كلِّ مكانٍ بعيدٍ، وهي أنّهم أتَوا ليشهدوا وليُحصِّلوا منافع عظيمة لهم في دينهم؛ كمغفرة ذنوبهم واستجابة دعائهم، والفوز برضا ربهم، وفي دنياهم كربح تجارةٍ ببيعٍ وشراءٍ وعرضِ سلعٍ وأنواع صناعاتٍ[6]،

خيرُ المواسم ما اجتمعت فيها حسنة الدُّنيا وحَسَنَة الدّين

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المُفردات: (بهم).
(2) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (بهم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرَّاغب، المُفردات: (نعم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس)، والرّاغب المُفردات: (بؤس).
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 40.
(6) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 303، الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 468.

وليذكروا اسم اللّه على ذَبْح ما يتقربون به من الإبل والبقر والغنم في أيام معيَّنة هي: عاشر ذي الحجَّة وثلاثة أيام بعده؛ شكرًا للّه على نعمه، وهم مأمورون أن يأكلوا من هذه الذبائح استحبابًا، ويُطعِموا منها الفقير الَّذي اشتدّ فقره[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ تعليليّة لقوله: ﴿يَأۡتُوكَ﴾؛ فهو مُتعلِّقٌ به، واللّام للتَّعليل؛ أيّ: يأتوك ليشهدوا، والإتيان مُسَبَّبٌ عن الأذان في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ﴾، فصار ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ مُسبَّبًا غائيًّا عن الأذان كذلك؛ أيّ: أذِّن ليأتوك وليشهدوا، ولذا قيل: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ﴾ متعلّق بـ﴿وَأَذِّن﴾[2]، وكان من الممكن أن يُقال: (يشهدون منافع لهم ...) إلخ؛ على الحاليَّة من فاعل ﴿يَأۡتُوكَ﴾، لكنَّ الأليق بالمعنى هو العلّيّة.

مَـنْ أتى ساعيًا لله؛ شهِدَ الخيرَ الوفير في حياته

بلاغة الكناية في شهود المنافع:

معنى شهود المنافع في قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾: حضورها بغرض تحصيلها، فشهودها كنايةٌ عن إحرازها وإنجازها؛ لأنّه لازمٌ ضروريٌّ لشهودها، فهي لا تُشْهَد إلّا لفائدةِ اغتنامها[3]، والمعنى المُكنَّى به مُرادٌ وحاصلٌ كالمُكنَّى عنه، وعُبِّر بالمُكنَّى به لمناسبة سياق الامتنان.

المنافعُ مشهودةٌ بالخواطر والنّواظر

دلالة تنكير كلمة: ﴿مَنَٰفِعَ﴾:

تنكير كلمة ﴿مَنَٰفِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾ للإبهام؛ فلا يتحدّد نوع هذه المنافع على التَّعيين، وللتَّكثير والتَّفخيم الاختصاصيّ؛ فهي منافع كثيرةٌ تختصّ بهذه الشّعائر المُقدّسة، فلا تكاد توجد في غيرها، ولا تكاد تنحصر أو تُعدّ[4]، وعُبِّر بصيغة

أماكن الشّعائر مهابِطُ الخيرات والفتوحات

(1) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 335.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 138، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 245.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 246.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 152، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 471، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 104، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 246.

الكثرة: ﴿مَنَٰفِعَ﴾؛ لتصوير حقيقة ما يشهده الآتي البيت الحرام، ووراء ذلك من المعنى التّرغيبُ الشَّديدُ في الإتيان المذكور.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ وفائدة التَّقييد بـ: ﴿لَهُمۡ﴾:

اللـه تـعـالى لا تنفعه طاعةٌ ولا تضرُّه معصيةٌ

قوله: ﴿لَهُمۡ﴾ مُتعلِّق بمحذوف صفة لـ﴿مَنَٰفِعَ﴾؛ أيّ: منافع ثابتةٌ أو كائنةٌ لهم، واللّام للاختصاص والأجْل؛ أيّ: منافع لأجلهم أو منافع لهم خاصَّةً، ووصفَ القرآنُ المنافع بأنّها ﴿لَهُمۡ﴾ ليدلّ على أنّ طاعتهم لأجل نفْع أنفسهم، فلا ينتفع المولى سبحانه بشيءٍ منها، ولا يضرّه شيءٌ إذا قصروا عنها[1]، وفيه تصريحٌ بالامتنان عليهم بتلك المنافع من شأنه الزّيادة في ترغيبهم في تلبية دعوة نبي اللّه إبراهيم عليه السلام.

نكتة تقديم المنافع على ذِكْر اسمِ الله:

الـنَّـفـس مُـسـتـشـرِفـةٌ لعواجل المنافع والمصالح

قدَّم شهود المنافع على ما بعده في النَّظم رعايةً لحاجات النُّفوس في استشرافها المصالح الذّاتيَّة وتشوُّفها لعواجل المنافع، والمُسْتَشْرَفُ مُقدَّم؛ وهو من جبر الخاطر بما يُعين على التّكليف ويُحفِّز إليه، وفيه أيضًا إشعار بأنَّ لهذه المنافع مدخلًا في ذِكْر اسم اللّه سبحانه وتعالى؛ فمِن ذِكْرهم ما يكون شكرًا للّه على تلك المنافع، وهذا تعظيمٌ وتفخيمٌ لتلك المنافع من جهةٍ، وحثٌّ على الذِّكْرِ من ناحية أخرى.

بلاغةُ تعدُّد الصّورة في معنى ذِكْر اسمِ اللهِ:

عند ذِكْـرِ اسم اللهِ كلُّ خير

قوله: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ كنايةٌ عن الذّبح والنَّحر، كأنّه قيل: (لينحروا بهيمة الأنعام)[2]، وإنَّما كان ذِكْر اسم اللّه كنايةً عن الذَّبح؛ لأنَّه لا ينفكُّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 38.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 153، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 70، والطيبي، فتوح الغيب: 10/ 472، وأبو حيان: البحر المحيط: 7/ 502.

عنه؛ فالمُرادُ بالذِّكر ما وقع عند الذَّبح، وهذا مِن وجوه المعنى في الآية[1]، ويجوز أن يكون ذِكْر اسم اللّه مجازًا مُرسلًا علاقته الملزوميَّة أُطلق الملزوم الَّذي هو: (ذِكْر اسم اللّه) وأُريد لازمُهُ؛ وهو (الذّبح)؛ فإنّ المسلم إذا ذبح ذَكَرَ اسمَ اللّه على ذبيحته.

فائدة التَّعليل بذِكْرِ اسم الله دون سواه:

تحقيقُ الذِّكر غايةٌ قُصوى من العبادات

علّل القرآنُ بذِكْر اسم اللّه دون سواه ممّا يتعلَّق بالذّات العليَّة في قوله: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّ الغرض الأصليّ من القربات ومن إتيان المشاعر تحصيل الذِّكْر الأكبر التّامّ؛ وهو ذِكْر اسم اللّه[2]، وفي جعل ذِكْر اسم اللّهِ غايةً للإتيان - لعطفه على قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾؛ فهو في تقدير: (وليذكروا اسم اللّه) - نفسُ الغرضِ؛ أيْ: إيذان بأنَّه الغاية القصوى دون غيره[3].

دلالةُ الإضافة إلى اسم الألوهيَّة الجليل:

ذِكْرُ اللهِ إقرارٌ من العَبْد على كمال مولاه وعَظَمَتِهِ

أضاف القرآنُ الاسمَ في قوله: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾ إلى اسم الذّات ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على كمال هذا الذِّكر والتَّحقّق به؛ ولتعليل استحقاقه سبحانه للذِّكر وغيره من ألوان التَّوسُّل عند الذَّبح وغيره من صنوف التَّعبُّد؛ لأنَّ اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ يدلُّ على أنّه الجامع لجميع الكمالات، وباستحواذه هذا الكمال فقد قدَر على جمْعهم في صعيدٍ واحدٍ في الحجّ، وفي الإضافة إلى اسم الذّات الأعظم تعريضٌ بأصنامهم؛ أيْ: ليذكروا اسمَ اللّهِ الكامل، لا اسمَ شيءٍ من الأصنام النّاقصة كما كانوا يفعلون في الجاهليّة[4].

فائدة تنكير ﴿أَيَّامٖ﴾ ونكتة وصفها بمفعول العلم:

كون الشَّيء معلومًا؛ أيْ: معدودًا بحسابٍ ويقينٍ

أفاد تنكير هذه الأيّام تفخيمها وتعظيمها؛ فهي أيّام عظيمة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 21.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 153، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 104.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 21.

(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 39.

عند اللّه تعالى، ووصف الأيّام بمفعول العِلم ﴿مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ في قوله: ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ - وهي عشر ذي الحجّة وأيّام التشريق - لأنّها آخر وقت الحج؛ لذا يحرص النّاس على عِلْمها والتَّيقّن من حسابها وعدّها، ويُؤيِّده مجيء وصف وقت الحجِّ بهذا الوصف في قوله: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [البقرة: 197]، وفائدة التَّقييد بـ﴿مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ التَّحريض على هذه الأيّام وعلى اغتنام فضلها؛ إذْ ليست كغيرها، فكأنَّه قال: هي مخصوصاتٌ فلتُغتَنم[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾:

الـــرِّزق ستْرٌ وغطاءٌ

لفظ: ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ مُتعلِّق بقوله: ﴿وَيَذۡكُرُواْ﴾، وهو للاستعلاء المجازي الَّذي هو بمعنى الملابسة والمصاحبة؛ أيّ: على رِزْق الأنعام[2]، أو بمعنى السَّببيَّة؛ أيّ: لأجل ما رزقهم[3]، وعلى الوجه الأوَّل ففي حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ إشعارٌ بعظيم امتنان اللّه تعالى عليهم؛ فإنَّ رزقه جليل عظيم يستوجب من العبد أن يبذل كل ما في وُسْعه مِن شكر ظاهر وباطن له سبحانه، وأن يُبالغ في ذلك؛ وإن كان لا يستطيع أن يُكافئَ رزقَ اللّه بشُكْره؛ إلّا أنَّ الآية سلكت مسلكًا من مسالك المبالغة؛ حثًّا شديدًا على عظيم الشُّكر وأحسنه وأبلغه؛ وهو أن أفهمت أن ذِكْرَ اسم اللّه يكون منهم حتى يعلو فوق هذا الرِّزق، وليس المقصودُ ذات الذِّكر؛ وإنَّما الغرض منه هو شكرُه ﷻ.

بلاغةُ مجاز الحذف في مُتعلّق الرِّزق وتعليق الذِّكْر عليه:

الأرزاق تُـنـال بالأذكار لا بنَكَد الأفكار

قوله: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ مُتعلِّق بـ: ﴿رَزَقَهُم﴾ والتَّركيب على حذف مضاف؛ أيّ: (رزقهم من نحرِ بهيمة الأنعام أو ذبحها)، ومعنى ذلك: أنّ إجازة الذّبح للأنعام رزقٌ يستوجب ذِكْر اسم اللّه

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 119، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 473.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 246.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 17.

عند إتيانه[1]، وفيما عليه ظاهرُ النَّظم الكريم: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ من الحذف المذكور تذكيرٌ بنعمة بهيمة الأنعام في نفسها؛ ومِمّا حسَّن هذا الفَهْم أنَّ الله قال: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾؛ فنحْرُ بهيمة الأنعام نعمةٌ تستوجب الرِّزق، وبهيمة الأنعام نفسُها نعمةٌ أخرى تستوجِب ذلك بملاحظة منافعها؛ ففي تعليق الذِّكر على الرِّزق إدماجٌ للحُكْم من وجوب ذِكْر اسم الله على الذّبائح مع الامتنان بأنَّها أرزاقٌ من الله وحده، بما يستلزم الشُّكر عليها وإطعام المحتاجين منها؛ ولذا فرَّع عليها قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾[2]؛ فبالحذف قوي الامتنان والإنعام؛ ولهذا لم يُقلْ في السّياق الكريم: (ليذكروا اسمَ اللّهِ على بهيمة الأنعام)، بل علّقه على الرِّزق؛ تحريضًا على القُربةِ والطّاعة، وتنبيهًا على مقتضى ذِكْرِ اسم الله عليها، وهي كونها رِزْقًا ومحضَ تفضُّلٍ من الله[3]، فنحرُها رزقٌ، وهي رزق آخر.

معنى ﴿مَا﴾ و﴿مِّنۢ﴾ وفائدتهما ومعنى الإضافة: ﴿بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾:

الأولى أفادت الإبهام والعموم والثانية إزالة الإبهام والإضافة هنا بيانية

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ موصولةٌ تُفيد الإبهام والعموم[4]، ويحتمل أن تكون مصدريّة؛ أيْ: (على رزْقه إيّاهم، أو على مرزوقهم)، والموصولة اسمٌ له عائدٌ، والمصدريّة حرفٌ لا عائد له[5]، والإبهام في: ﴿مَا﴾ على الموصوليّة مع مدَّ الألف فيها يُصوّر عَظَمة هذا الرِّزق وفخامته، و﴿مِّنۢ﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ بيانيّة أزالتْ إبهام ﴿مَا﴾ وعيّنتْ مفهومها[6]، والإضافة في قوله: ﴿بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ بيانيّة؛ أيْ: بهيمةٌ من الأنعام؛ فالبهيمة مبهمةٌ في كلِّ ذاتِ أربعٍ في البرِّ والبحر، فبيَّنت بالأنعام؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 246.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 246.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 70، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 104.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 247.
(5) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 265.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 70.

وهي الإبل والبقر والضَّأن والماعز[1]، فإضافتها إليها من إضافة العامِّ إلى الخاصِّ[2].

الموقعُ البيانيُّ لجملة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾:

وفرة الأرزاق تنادي بوفرة الإنفاق!

جملة: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ مُفرَّعةٌ عن قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾، والفاء فصيحة لترتيب مدخولها على ما قبله بتقدير محذوفٍ يُعلَمُ من السّياق؛ أيْ: فإذا كان الأمر كذلك من ذبح الأنعام الَّتي هي رزقٌ من اللّه وتُبارَكُ بذِكْرِ اسم اللّه، فكلوا منها، وقد حُذِفَ معطوف الفاء؛ للإشعار بأنَّه أمرٌ مُحقّقٌ لا يحتاج إلى التَّصريح به[3]؛ فالفاء في ﴿فَكُلُواْ﴾ لها معنى السَّببيَّة مع التَّعقيب[4].

دلالةُ الخطابِ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ ومعنى: (مِن):

النّيّةُ قد تجعل الانفرادَ بالعطاء إقصاءً والمشاركةَ فيه مساواةً ومواساةً

الخطاب بالأمر في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ للإباحة، وقد جاء بطريق الالتفات احتراسًا من توهّم أنّ المُتَطوَّع به لا يُؤكل منه كما كان أهل الجاهليّة يصنعون، ويصحّ أن يكون الأمر للنَّدب، لأنّ الأكل من الذَّبائح والأضاحي المبذولة للفقراء فيه نوعُ مواساة ومساواة للفقراء بإظهار المُشاركة لهم فيها، ولا يخفى ما فيه من التَّواضع، ولا يخفى ما في الامتناع عن ذلك من معنى الإقصاء لهم والتَّمايز عليهم[5]، و: (مِن) في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ للتَّبعيض؛ فلهم بعضٌ فيها، وللمُستحقّين بعضٌ كذلك.

نكتة الالتفات من الغيبة للخطاب:

الأحكام التّكليفيّة تتقرّر بالخطاب المباشر

جاء الالتفات من ضمائر الغيبة في قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾

(1) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 3/ 153.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 50.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 104.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 50.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 153.

إلى ضمير الخطاب في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ﴾ وفي ذلك إقبالٌ عليهم، وحثٌّ لهم على التّقرُّب بالهدايا والضّحايا[1]، فمع تقرُّبهم إلى العباد وتقريبهم لهم بالإطعام وغيره يكون تودُّدُ اللّه لهم، وتقريبه لهم في ساحة رضوانه في الدُّنيا والآخرة.

موقع جملة: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ﴾: ممّا قبلها:

مَن نسي حقّ غيرِهِ بحقِّ نفسِهِ فقد ضلّ وبَغى

جملة ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ معطوفة على قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾[2]؛ فهي داخلة في حيّز التَّفريع بالفاء، والتَّثنية بالإطعام بعد الأكل منها، من باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77]؛ فالذي سوَّغ الأمر بالأكل منها من قبل الأمر بإطعام الغير منها هو سياق الامتنان؛ فالغرض أن يذوقوا هم النِّعمة والمُمْتَنَّ به أوّلًا؛ تناسقًا مع قوله: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾، ولا ريب أن هذه المنافع تتعداهم إلى غيرهم؛ بأن يكونوا سببًا فيها.

دلالةُ الخطاب بالأمر في قوله: ﴿وَأَطۡعِمُواْ﴾:

البائس الفقير أحقّ بالإعطاء من غيره

الخطاب بالأمر في قوله: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ للوجوب[3]، بقرينة أنّها مجعولة للبائس الفقير، وهو مقصودٌ أصالةً من الذَّبح، وبقرينة أنَّه وصف مُستحِقّ الإطعام بوصفي البؤس والفقر؛ لتأكيد كونه مُستحقًّا يجب البذل له.

معنى: (أل) في ﴿ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ وعِلّة ترك العطف بين الوصفيْن:

أفاد التّعريف في قوله: ﴿ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ الجنسيّة الاستغراقيّة؛ ليعمّ سائر أصناف الفقراء، وترك القرآنُ العطف بين هذيْن اللّفظيْن: ﴿ٱلۡبَآئِسَ﴾، ﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾؛ لكون البائس هو الفقير؛ فبينهما كمال اتّصالٍ لامتناع العطف بين الصّفة والموصوف؛ فكلُّ بائس فقير[4].

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 39.

(2) صافي، الجدول: 17/ 108.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 221.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 247، 248.

نكتة النَّصِّ على ﴿ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ معًا:

مراعاة حالات المحتاجين واجبة ويزداد تأكدها بقداسة الموقف والمكان

لم يكتف القرآنُ في السّياق الكريم بالوصف ﴿ٱلۡفَقِيرَ﴾ مع أنّه مُغْنٍ عن البائس، لترقيق أفئدة النّاس على الفقير بتذكيرهم أنَّه في بؤس لأنّ وصف (فقير) صار لشيوع تداوله على الألسن كاللَّقب المألوف ويكأنَّه غير مُشعِرٍ بمعنى الحاجة، فضلًا عن أنّه قد حصل من ذِكْر الوصفيْن التّأكيد على الإطعام والمبالغة في التّحريض عليه[1]، وهذا يتناسب مع التَّشديد في العمل الَّذي هو من سمت السّورة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشُّهود والحضور:

الشُّهود يشتمل على معنى الحضور وزيادة

أصل (حضر) يدلّ على خلاف الغَيْبة، فيدلّ على إيراد الشيء ووُروده في محلٍّ ما، مع حصول مشاهدته أو عدم حصولها[2]، وأصل: (شهد) يدلّ على حضورٍ وعِلمٍ وإعلام[3]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة؛ لكن الشّهود بالحضور المُجرّد أَوْلى، والشّهادة مع المشاهدة أَوْلَى[4].

وعليه: فالشّهود يكون في معنى الحضور وزيادة، فلا بدّ من اقترانه بالمشاهدة، وهي الرؤية البصريّة أو القلبيّة، ولذا فهو يُفيد العِلم واليقين بخلاف الحضور، فقد يكون مُجرَّدًا عن المشاهدة؛ فيحصل من غير حصولها، وقد يقترن بها فيكون حضورًا وشُهودًا، ولذا قال هنا: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ﴾؛ ولم يَقُلْ: (يحضروا)؛ ليدلّ على حصول تلك المنافع لهم على جهة العِلم واليقين، فهم يرونها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 247، 248.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (حضر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(4) الرَّاغب، المُفردات: (شهد).

ويُلابسونها، ولو قيل: (يحضروا)، فيدلّ على وجودهم من غير أن يلزم عن ذلك معاينة تلك المنافع والعِلم بها؛ ولذا قال في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ [ق: 37]؛ لأنّه قد يكون حاضرًا من غير شهودٍ باستبصارٍ وفهم[1]، ولذا لم يَقُلْ: (وهو حاضر)؛ لأنَّه قد يحضر وهو غير شاهد، ولكن إذا كان شاهدًا فلا بدّ أن يكون قد حضر.

(1) الشوكانيّ، فتح القدير: 1/ 1402.

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٢٩﴾

[الحج: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنعام الله موصولٌ بعبوديّة الخلق إليه

بعد أنْ حفّز القرآنُ الكريم الحجيج قُصّاد بيت الله العتيق في الآية السّابقة على نيل المنافع والمآرب الَّتي يحبّونها من أمور الدنيا والآخرة، والتي غيّا بها إتيانهم وعلّل بها تلبيتهم؛ أخبر في هذه الآية الكريمة عن إتمام مواجب الحجّ وأركانه، من إزالة ما علق بأجسادهم وتوفية نذورهم والطواف بالبيت طواف الإفاضة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لْيَقْضُوا۟﴾: أصل (قضي) يدلّ على إحكامِ أمْرٍ وإتقانه وإنفاذِه لِجِهَتِه، والقضاء: إحكامُ الشَّيء والفراغ منه؛ ولذلك سُمّي القاضي قاضيًا؛ لأنّه يُحكِم الأحكام ويُنفِذُها[1]، والمُراد بالقضاء هنا الإتمام والتأدية.

2) ﴿تَفَثَهُمْ﴾: (تفث) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ في الآية الكريمة الَّتي نحن بصدد تفسيرها، وقد عرَّف أبو عُبَيْدَةَ التَّفَثَ بأنَّه قَصُّ الأظافِرِ وأَخْذُ الشّارِبِ وشَمُّ الطّيبِ وكُلُّ ما يَحْرُمُ عَلَى المُحْرِمِ إلّا النِّكاحَ[2]، وقال الزَّجّاج: لا يعرف أهلُ اللُّغة التّفَث إلّا من التَّفسير[3]، ونقل النّيسابوريّ إجماع المُفسِّرين على معناها فقال: وأجمع أهل التَّفسير على أنَّ المُراد بالتَّفث هنا: إزالة الأوساخ والزوائد كقصّ الشّارب والأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عُمدة الحُفَّاظ: (قضي).
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 119.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 423.
(4) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 78.

3) ﴿نُذُورَهُمۡ﴾: جمع (نَذْرٍ)، وأصل (نذر) يدلُّ على تخويفٍ أو تخوّفٍ، وتناذروا: خوَّف بعضُهم بعضًا؛ ومنه النّذْر وهو أنّه يَخاف إذا أخلف[1]، والنّذْر أن توجِب على نفسك ما ليس بواجبٍ لحدوث أمرٍ[2]؛ ومعناه التزامٌ واجبٌ في الذّمّة، سواء أكان واجبًا في أصله كالفرائض، أم واجبًا لعارضِ إلزام النّفْس بما لا يَلزم، والمُراد بالنُّذور هنا: "مواجب حجّهم، والعرب تقول لكلّ من خرج عمّا وجب عليه: وفّى بنذره، وإن لم ينذِر، أو المُراد ما ينذِرونه من أعمال البرّ في حجّهم"[3].

4) ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾: أصل (عتق) يجمع معنى الكرم خِلقةً وخُلُقًا، وأيضًا معنى القِدَم[4]، والعَتيقُ: المُتقدِّم في الزَّمان أو المكان أو الرّتبة، ولذلك قيل للقديم: عَتيقٌ، وكذلك للكريم، ولِمَن أُعتِق من الرِّقّ[5]، سمَّى اللّهُ البيتَ ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾؛ لأنّ اللّه أعتقه من الجبابرة؛ فلم يَظهر عليه جبّارٌ قطُّ، وكذلك لقِدَمه؛ لأنّه أوّل بيت وُضع للناس[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خير الرّزق ما يُستعان به على تأدية الفرائض

بيّن اللّه سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة ما يفعلونه بعد تحلُّلِهم وخروجهم من الإحرام؛ فأمرهم بأن يُزيلوا عنهم أدرانهم وأوساخهم، وليوفوا نذورهم التى نذروها للّه ﷻ في حجّهم، وليطوفوا طواف الإفاضة بهذا البيت القديم الَّذي جعله اللّه أوّل بيتٍ لعبادته، وصانه من اعتداء كلّ جبّار أثيم[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (نذر).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 438.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتق).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (عتق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عتق).
(7) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 304.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ﴾ ونكتة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

التفرّغ لأداء الواجبات بعد الاستنشاط بالمنافع والمآرب

جملة ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ معطوفة على جملة: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾، وهو من عطف الجُمَل[1]، ولو قيل: (ثم يقضوا) من غير لام لكان كذلك، إلّا أنّ القرآن كرّر اللّام فدلَّ ذلك بقوةٍ على العطف المذكور، والعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ﴾ للتّراخي الرُّتبيّ؛ فالمعطوف بها أهمّ في الغرض المسوق له الكلام من المعطوف عليه، ذلك أنّ قضاء المناسك والوفاء بالنُّذور والطَّواف بالبيت أهمُّ من نَحْر الهدايا[2].

غرض المضارعة المُقْترن بلام الأمر: ﴿لْيَقْضُواْ﴾ و﴿وَلْيُوفُواْ﴾ و﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ﴾:

لامُ الأمر أوسع في مجال الطّلب من لام الأمر فلا تقتصر على خطاب المعلوم

المُضارع المُقترن بلام الأمر لا يدلّ على الطَّلب بنفسه؛ بل بواسطة لام الأمر الطَّلبيَّة المُقترنة به، وهو أوسع من فعل الأمر بالنِّسبة للمخاطب وغيره، فلام الأمر تدخل على مضارع الغائب المعلوم، وعلى الغائب المجهول، وعلى المخاطَب المعلوم، وعلى المخاطب المجهول، وعلى المتكلّم المجهول، وهو - هنا - أفاد الطَّلب من الموجود الغائب بواسطة الرَّسول؛ فالخطاب فيه لإبراهيم عليه السلام، كأنّه قيل: قل لهم أو مُرْهم بقضاء تَفَثِهم، والتّركيب يدلُّ على الغيبة لأنَّه ورد بالياء ﴿لْيَقْضُواْ﴾[3].

تنوُّع القراءاتِ في قوله تعالى: ﴿لْيَقْضُواْ﴾:

توجيهُ القراءةِ على المعنى المُتعدِّد أوْلَى من التّوجيهِ على المعنى الأُحاديِّ

قُرِئَ تواترًا بتسكين اللّام (وهي قراءة الجمهور) في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ﴾ على أنّها لام الأمر، كما قُرِئَ تواترًا أيضًا بكسر اللّام وهي قراءة ورش، وابن عامر، وأبي عمرو، وقنبل، ورويس[4]: ﴿لِيَقْضُواْ﴾؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 248.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 248.
(3) درويش، إعراب القرآن: 7/ 412.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 326.

فيصحّ اعتبارها لامَ الأمر أيضًا؛ لأنَّ لام الأمر بعد (ثُمّ) يصحّ فيها وجهان: السُّكون أو الكسر، ويصحُّ اعتبارها - على قراءة الكسر - لام العِلّة، ويكون اللّفظ خبريًّا لا إنشائيًّا، وموقعه العطف على: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ﴾؛ أيْ: (ليشهدوا ثمّ ليقضوا)[1].

وبالحمل على لام الأمر تحصُل المُغايرة بين المعطوف عليه والمعطوف؛ للتَّنبيه على خطر المعطوف وعظيم أهمّيَّتِه في السّياق على ما يُفْهِمُه التَّعبيرُ بـ: ﴿ثُمَّ﴾، وعلى الحمل على تكرار لام العلَّة يكون في تكرارها إشعارٌ بأهمّيّة ما دخلت عليه؛ لإشعارها باستقلال ما بعدها، وأنَّه يجب تحقيقه باعتناء واهتمام ورعاية، ويؤيدُه التّعبيرُ بـ: ﴿ثُمَّ﴾ أيضًا.

دلالة الإضافة في ﴿تَفَثَهُمۡ﴾ و﴿نُذُورَهُمۡ﴾ ونكتة صيغة (نذور):

جمع النُّذور لاعتبار الكثرة المُتوزِّعة

أُضيف التّفث إلى ضميرهم في قوله: ﴿تَفَثَهُمۡ﴾؛ لتعريف التّفث وتعيينه، وهو التّفَثُ المُتعلّق بالحجيج، وفيه تنبيههم على إرادة الخير بهم في أبدانهم؛ إذ كان من المُمكن أن يُقال: (ثم ليقضوا التفث)، ومثل هذا يُقال في قوله: ﴿نُذُورَهُمۡ﴾؛ إذ كان من الممكن أن يُقال: (وليوفوا النذر)؛ والخيرُ هنا معنويٌّ أصالةً؛ وكل أولئك ذوو صلة بسياق الامتنان؛ ولذلك استحضر القرآن جميع نذورهم على كثرتها وتنوعها؛ فعبر بصيغة الكثرة: (النذور)؛ لأنّ الوفاء يحصل من جمْع النّاس لِنذورٍ كثيرةٍ متوزّعةٍ عليهم؛ فجمع النُّذور لاعتبار الكثرة المُتوزِّعة.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالنُّذور:

كلٌّ من الفرض والنّذر يشغل الذِّمّة على جهة الإلزام

إذا أُريد بالنُّذور مواجِبُ الحَجّ وأركانه؛ فالتّعبير بالنّذور استعارةٌ تصريحيّةٌ، حيث شبّه الفرض الواجب بالنّذر بجامع الإلزام في كلٍّ، والعرب تقول لكلّ مَن خرج من إلزام ما وجب عليه بأدائه وفَّى

---

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 326، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 41.

بنذره، وإن لم ينذِر؛ لأنّه قد أدّى الإلزام من غير اعتبار الفرق: هل كان هذا الإلزام إلزام الشّارع عليه، أو كان إلزامًا منه على نفسه بالنّذر[1]، ويجوز أن يكون تسمية أركان الحجِّ بالنُّذور مجازًا مُرسلًا علاقتُهُ الإطلاق والتَّقييد، أو تسمية العامِّ باسم الخاصِّ؛ فالفرض أعمُّ، والنَّذْر أخصُّ، والحملُ على الاستعارة أَوْلَى؛ لأنَّها ألصق بمعنى الوفاء في قوله: ﴿وَلۡيُوفُواْ﴾؛ لِما فيها من تشديد حصول الفعل؛ إذِ الإلزام هو المعنى الجامع بين طرفيْها.

دلالة صيغة (التفعُّل) في ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾:

صيغة تفعُّل تدلُّ على التّكلُّف والتّدرُّج وتجويد الفعل

أصل الفعل في قوله: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ﴾: يتطوّف (يتفعّل تفعُّلًا)، وصيغة التَّفعّل تدلّ على التَّكلّف، وعبّر بتلك الصّيغة لطلبِ المبالغة في تحسين الطّواف وإيقاعه على أتمّ الوجوه؛ لأنّ ما يُتَحرّى التّكلّف فيه يقع تامًّا على أحسن ما يكون[2]، ولا يخفى ما فيه من تعظيم أمر الطَّواف، وفي التَّفعُّل أيضًا إشارة إلى أنَّ المقصود هو طواف الرُّكْن، فتكون الصّيغة للتَّشديد على الوجوب بقرينة قضاء التّفَث؛ فإنّه يكون بعد التّحلّل الَّذي يكون بتمام ركن الطّواف[3]، وأيضًا صيغة التّفعُّل تدلُّ على التّمهُّل والتّدرّج، فاستعمالها يدلّ على هيئة الطّواف الَّتي تقع بتُؤدةٍ وتريّث، وتدلّ على التّدرُّج في أشواطه تصاعُديًّا حتّى تمامها.

غرض تقييد الطَّواف ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾:

هذا الطَّواف بأصل البيت كأنَّه طواف بالبيت كلِّه

جاء تقييد الطّواف بالبيت في قوله: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ لتعيين أنّه طواف العبادة الكائن حول البيت، والكلام على حذف مضاف؛ أيْ: بأصل البيت أو بكامل البيت؛ ليقع الطَّواف من وراء الحِجْر المُسمّى بحِجْر إسماعيل، وليقع حول كلّ البيت لا بعضه،

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 438، وابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القُونويّ: 13/ 52.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 52.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 52، وأبو زهرة، محمد أبو زهرة: 9/ 4976.

وفي حذف المُضاف تنبيهٌ على أنَّ هذا الطَّواف بأصل البيت كأنَّه طواف بالبيت كلِّه، والباء في قوله: ﴿بِٱلْبَيْتِ﴾ للمُلابسة أو الظَّرفيَّة، كأنَّه قيل: طوفوا بمكان البيت - بموضعه، وهو يُؤدّي للملابسة؛ أيّ: مُلابسين لمكانه.

بلاغة: الاستعارةِ والصّيغةِ في ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾:

من السُّنن القَدَريّة الثّابتة كون البيت الحرام عتيقًا

وصفُ البيت بالعتيق لكونه محرَّرًا من ولايات الجبّارين عليه، وفيه استعارةٌ تصريحيّة حيث شبَّه البيتَ بالعبد العتيقِ، بجامعٍ معنويٍّ في كُلٍّ، وهو عدم الخضوع لولايةٍ تُخرِجُه عن قانونه الَّذي أراده اللّه عليه[1]، وقد وصف البيت بالعتيق على صيغة (فعيل) صفةً مُشبّهةً بمعنى اسم المفعول؛ أيّ: مُعتَق بمعنى مُحرَّر من كلِّ سوءٍ، أو عتيقٌ في الوجود بمعنى قديم؛ فهو أقدم مسجدٍ وضِعَ للنّاس، والصِّفة المُشبَّهة - هنا - تُفيد ديمومة الصِّفة للموصوف وأنَّها تجري منه كما تجري الطَّبائع والسَّجايا في أصحابها؛ كأنّه قيل: البيتُ دائمُ العِتْق[2]، وفي مجموعِ ذلك تنبيهٌ على أنَّ الدّين الإسلاميَّ الَّذي من شعائره الطَّوافُ بهذا البيت العتيق إنَّما جاء ليُحرِّر النّاس من العبوديَّة لبعض النّاس لعبوديّة ربِّ النّاس، وذلك من ثوابتِهِ في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 250.

(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 83.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعظيمُ حرمات اللـه من أجَلِّ أعمال القلوب

لمّا ذَكَر القرآنُ في الآيات السّابقة تكليفَ إبراهيم عليه السلام بخطابِ الأمَمِ أنْ يَحجّوا على التّفصيل الّذي كان؛ نَبّه هنا على خُلاصةٍ ينبغي أن تُعتَبَر، وهي إيقاع الشَّعائر والتّكاليف على جهة التّعظيم لها - تحريضًا على الاجتهاد فيها، واحتراسًا من الإخلال بحُرمتها.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعَظِّمۡ﴾: أصل (عظم) يدلّ على كِبَرٍ وقوّة[1]، والعَظْمُ جمعه: عِظام، وعَظُمَ الشَّيْء: أصله: كبُر عظمه، ثم استُعير لكلِّ كبيرٍ؛ فأُجري مجراه محسوسًا كان أو معقولًا، عينا كان أو معنًى[2]، والمعنى في الآية: يعلم بأنّ الشعائر واجبة المراعاة والحفظ والاستمرار على ذلك[3].

2) ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: أصل (رجس) يدلّ على اختلاط؛ ومنه (الرّجس) القذر؛ لأنّه لطْخٌ وخَلْط[4]، وكلّ قذرٍ رِجْس، وكلّ (رِجْس) فهو بمعنى النَّجِس[5]، والرِّجْسُ يكون على أربعة أوجه: من حيث الطَّبع، أو من جهة العقل، أو من جهة الشَّرع، أو من كلِّ ذلك كالمَيْتَة؛ فإنَّ المَيْتَة تُعافُ طبْعًا وعقلًا وشرعًا[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عظم).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (عظم).
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 439.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجس).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: رجس.
(6) الرَّاغب، المُفردات: (رجس).

3) ﴿ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾: جمع (وثن)، وأصله: حجارة كانت تُعبد[1]؛ ومنه: الوثن والواثِن: المُقيم الرّاكد الثّابت الدّائم[2]، والوثن والوتن - يروى بالثاء والتاء - ومعناهما الدّوام على العهد، والوثن: الصَّنم، وقيل: الصغير منها[3].

4) ﴿ٱلزُّورِ﴾: أصل (زور) يدلّ على المَيْل والعدول[4]؛ ومنه الزَّوْر: الصَّدرُ، وقيل: وسَط الصَّدر، وقيل: أعلى الصَّدْر، والزَّوَر - بالتَّحريك - عِوَج الزَّوْر ومَيْله[5]، من ذلك الزّور: الكذِب والافتراء على اللّه؛ لأنّه مائلٌ عن طريقة الحقِّ[6]، ويُسمَّى الصَّنم زورًا؛ لكون ذلك كذِبًا ومَيْلا عن الحقِّ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أعمالُ القلوبِ مُعتبرةٌ في صحّة أعمال الجوارح

إنَّ مَن يُعظّم حرمات اللّه ﷻ بأن يترك مُلابستها واقترافها؛ فهو؛ أيْ: هذا التَّعظيم، خيرٌ له عند ربِّه؛ إذ بسبب هذا التَّعظيم لتلك الحرمات ينال رضا ربه وثوابه[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ وسبب العطف بالواو:

الرّبط بين معاقِد الكلام المتّحِد بإشارة التّنبيه

في قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ﴾ سيق اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للتّنبيه والرّبط بين معاقد الكلام الواحد ذي الوجوه والأقسام الَّتي يتقرّر بعضها ببعض؛ فهي كاللُّحمةِ الفاصلة لاسترعاء التَّمييز والانتباه بين ما قبلها وما بعدها، تنبيهًا على أنّ ما بعدها هو كالخلاصةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وثن).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (وثن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وثن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زور).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (زور).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زور).
(7) الرَّاغب، المُفردات: (زور).
(8) طنطاويّ، الوسيط: 9/ 305.

والغرضِ ممّا قبلها؛ فوظيفتها في الرّبط واضحة، ووظيفتها في الفصل أنّها تفصِل الذِّهنَ للتَّوقّف والملاحظة ليربط أوّل الكلام بآخره عن تفكّرٍ وعناية، وعلامة هذه الإشارة في الدّلالة على هذه الوظائف أنّ ما بعدها لا يصلح أن يكون خبرًا لها[1]؛ ولذلك عطف بالواو الاستئنافيّة في قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لاستحضار ما في السّباق مما له صلة بهذه الآية، وسيقتْ الإشارة بلفظ البعيد: ﴿ذَٰلِكَۖ﴾؛ للدّلالة على البُعد المجازيِّ في المنزلة، وأنّ ما قبلها عظيمٌ في مضمونه ذو بُعدٍ وخَطَر وكبير أثَر[2].

دلالة التَّعبير باسم الشَّرط (من):

أسلوب الشَّرط يُحرِّض المُخاطَب على التّفاعل والانتباه

اسم الشَّرط (مَنْ) أفاد العموم في جميع المُكلّفين من الرِّجال والنِّساء، وهو مُستعملٌ في جزاء ذوي العقل والعِلم، ومجيء التّركيب على أسلوب الشّرط؛ لتنزيله منزلةَ الوعد المُحقّق لِمَنْ قام بموجبِه وعمِل بمضمونه، وهو أبلغ في التّرغيب والتّحريض على الاحتراز من المخالفة والاستهانة بشأن شعائر الدّين وتكاليفه، وأسلوب الشّرط أخفّ على النّفوس وأرغب لها من أسلوب الأمر لتعليقه بالجزاء، فهو أيسر وأبلغ في فاعليّته مع المُخاطَب من أن يُقال: (عظِّموا حرمات الله).

دلالة التَّعبير بفعل الشَّرط مُضارعًا: ﴿يُعَظِّمۡ﴾:

تجديد اكتساب النـيّـات في تـعـظـيـم التّكاليف

صيغة المضارعة في فعل الشَّرط في قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ﴾ دلّتْ على تجديد اكتساب النّيات في تعظيم أمر الله وحُرُماته، لاستمرار ذلك التَّعظيم وعدم انقطاعه، وفيه أيضًا تنبيهٌ على حياة هذا التَّعظيم في النَّفس والقلب؛ بما في الفعل من حرَكيةٍ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 141.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 141.

سِرّ الإضافة إلى الاسم الجليل:

لم يُقل في السّياق الكريم: (يعظّم الحرُمات)، بل أضاف المفعول إلى الاسم الجليل: ﴿حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشعارًا بعلّة التّعظيم، كأنَّه قيل: عظّموا الحُرُمات لأنّها حرّمتْ بحكم من الله، وأضافها إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ دون غيره؛ للدّلالة على كمال التّرغيب والتّرهيب في الطّاعة والمخالفة، وعلى كمالِ الحكمة والمصلحة في تحريمها، وعلى كمال مصدرها في استحقاقه للحُكم بها، فاسم الجليل جامع لمعاني الكمال والجلال والاستحقاق وكمال الصِّفات قدرةً وقهْرًا، وحكمةً وحُكْمًا، وإحاطةً وعِلْمًا؛ وهذا يتناسق مع التَّشديد في العمل والجزاء في السّورة، والنُّكتة الأظهر: الإشارة إلى معنى العبوديّة بالتَّكاليف من المخلوق إلى الخالق سبحانه.

تعظيم التَّكاليف تعظيمٌ للإله العظيم

غرض التّعبير بجملة جواب الشّرط اسميّة وتنكيرِ المُسنَد: ﴿خَيۡرٞ﴾:

التَّعبير بجملة جواب الشَّرط اسميَّة في قوله: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ دلَّ على ضمانة الجزاء وثبوته - وعدَ الله لا يُخلف الله وعده!، وهذا يُقابل الحركيَّة في فعل الشَّرط: ﴿يُعَظِّمۡ﴾، فيظهر من ذلك أن ثواب الله فوق العمل الصالح وخيرٌ منه، ويُؤيِّدُ هذا التَّنكيرُ في قوله: ﴿خَيۡرٞ﴾؛ فهو يُفيد التّكثير والتّعظيم؛ أيْ: خيرٌ عظيمٌ واسعٌ أكبر من مَشقَّة عملِه ومَشقَّة امتناعه عن الحرمات.

وَعْدُ اللهِ ناجز

غرضُ التَّعبير بالمُسنَد إليه: (هو) ضمير غيبة:

التَّعبير بالمُسنَد إليه ضمير غيبة في قوله: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾؛ لظهور عائده وعدم التباسه؛ أيْ: مَن يُعظّم؛ فالتّعظيم خير له، وفي الإضمار خِفّةٌ في اللّفظ، وجُنَّةٌ عن التّكرار، وفُسْحةٌ في تقدير المعنى.

في الإضمار خِفّةٌ في اللّفظ وجُنّةٌ عن التّكرار وفُسْحةٌ في استشعار المعنى

الغَرضُ من التّعبير بالجارّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ وبيان معنى اللّام:

عُبِّر بالجارِّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾؛ للتَّأكيد على أنّ عائدَ الجزاء كاملًا له، فلا ينتفع به إلّا هو، ويدلّ بمفهومه على أنَّ عاقبة الجناية له

وحده فلا يضرّ اللّهَ شيءٌ منها، واللّام في: ﴿لَّهُۥ﴾ هي لام الأجَل والاختصاص والمنفعة؛ أي: الخير لأجْله خاصّة، وتدلّ اللّام على معنى الاستحقاق؛ أيّ: خيرٌ له يستحقّه؛ فوراء قولِه: ﴿لَّهُۥ﴾ من المعنى عظيم التّرغيب في تعظيم حرمات اللّه سبحانه وتعالى.

الفضل في الجزاء لا يُنافي أصل الاستحقاق بالعمل

سرُّ التّعبير بالظّرف: ﴿عِندَ﴾:

التّعبير بالعنديَّة في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ لإفادة معنى الاستقرارِ والثُّبوتِ والتَّحقُّقِ للجزاءِ المفهوم من قوله: ﴿خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾، وقولُه: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ ظرفٌ لمكان حضور الشَّيء مُتعلّق بـ: ﴿خَيۡرٞ﴾؛ لأنَّه بمعنى (أجْر)، أو يتعلَّق بمحذوف صفةٍ لـ: ﴿خَيۡرٞ﴾؛ لأنّها نكرة، والصِّفةُ المُقدَّرة مؤكِّدةٌ للخير المذكور؛ أيّ: خيرٌ مُستقرٌّ عنده.

التّعبير عن الثّواب بالخير إطماعٌ للنّفوس فيه

فائدةُ إضافة الظَّرف إلى الرُّبوبيَّة دون اسم الجلالة:

إضافة الظَّرف إلى الرَّبِّ في قوله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ أفاد تعظيمَ مُتعلَّقِ الظَّرف وهو ﴿خَيۡرٞ﴾، فقد أكّدَ تعظيمَه الذّاتيّ المُستفاد من تنكيره بتعظيمِه الإضافيّ بنسبته إلى عنديّةِ المَحلِّ الجليل وهو اسم الرُّبوبيَّة المُضاف إلى ضمير المُكلَّف المُعظِّم لحرمات اللّه، لإشعاره بالقُربِ وكمالِ العناية، ولمزيدِ تشريفِه وتطمينِه باللُّطفِ والإحسان أنّ الجزاءَ المذكور مُتيقّنُ الثُّبوتِ والحصول مضمونُ الوقوع مأمونُ الفوات مع ما فيه من الإشعار بعلَّة الخير المذكور؛ أيّ: هو خيرٌ وأجرٌ عظيمٌ؛ لأنّه من الرَّبّ واسع الإحسان، وفي ذلك إشارة إلى أنّ هذا الجزاء بالخير أعظم من العمَل الَّذي جاء به، ففيه إشارة إلى أنّ الجزاء على الأعمال يحصل بالفضل لا بالاستحقاق الكامل له.

تأكيدُ التّعظيم الذّاتيّ بالتّعظيم الإضافيّ

موقع جملة ﴿وَأُحِلَّتۡ﴾ ممّا قبلها:

جملة: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ اعتراضيّة بين قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾، جيء بها تقريرًا لما قبلها من الأمر بالأكل والإطعام في قوله: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا

عطف الخير بحِلّ الأنعام على الخير الّذي هو الأجر والثّواب

﴿وَأَطۡعِمُواْ﴾، واحتراسًا من توهُّم أنّ الإحرام يُحرِّم تناولَ الأنعام كما يحرِّم الصيد(1).

غرضُ تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على نائب الفاعل:

الإباحة تقتضي تمتيع النّاس بالنِّعم

تقدُّم شِبه الجملة ﴿لَكُمُ﴾ على نائب الفاعل ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ للعناية والاختصاص والمنفعة؛ أيْ: أُحلّت لأجلِكم ومنفعتكم، وقد يدلّ على الحصر باعتبار أنَّ الخطاب للمسلمين دون غيرهم؛ ففيه على الوجهيْن تنبيهٌ على عظيم الامتنان والإحسان؛ فيكون فيه توطئة وتهيئة للأمر في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾؛ ففي التَّقديم في نورِ دلالته المذكورة على الوجهيْن حثٌّ على استجابة ذلك الأمر.

غرضُ تعريف المُسند إليه باللّام ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾:

لمّا كانت الأنعامُ أشرفَ الطّعام خُصَّتْ بذِكْر إباحتها دون غيرها

(أل) في ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ في قوله: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ للعهد؛ أيْ: الأنعام الصّالحة المأذون فيها، فلا يدخل فيها ما استُثْني منها بالتّحريم في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، ولا يخرج منها ما حرّمه المشركون على أنفسهم افتراءً وإضلالًا؛ مثل: البحيرة، والسّائبة، والوصيلة، والحامي وبعض ما في بطونها(2).

دلالةُ الاستثناءِ في ﴿إِلَّا﴾:

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ استثناءٌ مُتَّصلٌ على اعتبار أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا حرّم الله من الأنعام لعارضٍ كالميتةِ، وما أُهِلّ به لغير الله تعالى منها، ويحتمل أن يكون الاستثناء مُنقطعًا على اعتبار أنّ ﴿مَا﴾ عبارة عمّا حُرِّم في مثل قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ [المائدة: 3]، والدّم ولحم الخنزير ليس من جنس الأنعام(3).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 105.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 253.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 141.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مَا يُتۡلَىٰ﴾:

الآياتُ تُتلى بالتّكليف والتّشريع

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ موصولة؛ أيْ: إلّا الَّذي يُتلى عليكم تحريمُه، فمعمول التّلاوة محذوف؛ لأنَّ الاستثناء فيما تعلَّق بالآيات من الحِلِّ والحُرْمة، وليس الاستثناء من نفْس الآيات المتلوَّة، والمُراد: ما جاء ذِكْرُه في سورة الأنعام في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام: 145] الآيات، وما ذُكر في سورة النَّحل في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 115][1]، وعِلّة التعبير بـ(ما) كونُ الكلام في المعاني لا في الأعيان[2]، وهو الآيات المتلوّة بالتّحريم، وقد أفادت الإبهامَ المُبَيَّن بآيتي الأنعام والنَّحل السّابقتيْن.

غرضُ التَّعبير بحرف الاستعلاء:

الآياتُ المَتلوَّة في محلّ العُلوّ جديرةٌ بالإنصات والامتثال

عُبِّر بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ لكون التّلاوة واقعةً على الأسماع ويكأنّ الآيات وهي تُتْلى تنصبّ عليها وتنحدِر انصباب الشَّيء على الشَّيء فيستعلي عليه، والاستعلاء هنا مجازيٌّ يُصوّر استعلاء الآيات بالهدايةِ وإلزام التَّكاليف عليهم، وفيه إشارة إلى أنّ الآيات المَتلوّة في محلٍّ من العلوِّ فهي جديرةٌ بالإنصات إليها والعمل بمقتضاها، لا سيّما إذا تضمّنتْ خطابًا بالحِلّ أو الحرمة.

دلالة التعبير بصيغة المضارع في: ﴿يُتۡلَىٰ﴾:

آياتُ الله أحقّ بالنّظر والاستحضار كلَّ وقت

عُبِّرَ بالمضارع استحضارًا للصّورة الماضية لِما نزَل وتُلي وهو يَنزل ويُتْلى لمزيد الاعتناء بشأن التَّنزيل تحريضًا على دوام النَّظر فيه لضبط حلاله وحرامه عِلمًا وعملًا وللدّلالة على الاستمرار التَّجدّدي لِما يُتْلى وسيُتْلى في هذا المقام؛ فعلى هذيْن الوجهيْن يشمل ما نزل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 253.

(2) فاضل السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 130.

من القرآن في ذلك ممّا سبق نزول سورة الحج بأنّه تُلي فيما مضى ولم يزل يُتْلى ويشمل ما سينزل بعد ذلك مثل قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ [المائدة: 103][1].

موقع جملة: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾ ممّا قبلها:

تقديم الوعد بالثّواب على التّكليف بالأعمال إفساحٌ للنّفس وتحفيزٌ لها

جملة ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ مُفرَّعةٌ على قوله: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾، وعُطفت بالفاء لإفادة معنى السَّببيَّة والإسراع في التَّعقيب بمدخولها وهو الأمر بالاجتناب؛ أيْ: فبسبب الوعد والجزاء على تعظيم حرمات اللّه اجتنبوا أصل المُحرَّمات - رجس الأوثان وقول الزّور، والعطفُ بالباء يعني عِظَم المعطوف عليه وقوته في باب السَّببيَّة.

معنى الأمر ودلالة صيغته في: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾:

لفظُ الاجتنابِ نصٌّ في التَّحريم

الأمر في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾ للوجوب؛ لأنَّ اللَّفظ نصٌّ في التَّحريم، وهو التَّعبير بالاجتناب الدّال على المباعدة والمُفارقة لمعمول الفعل، وهذا يوقع في النَّفس عظيمَ خطر المَنهيِّ عنه؛ ولهذا خرج في صيغة (الافتعال: الاجتناب) الدّالَّة على غاية الجهد؛ وهذا يعني أن القوم الكافرين ساعة خطابهم بهذا كانوا عريقين في الكُفر راسخين فيه.

معنى (أل) في: ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾:

الـرِّجس هو النَّجَس الحِسّي ويُستعمل في المعنويِّ

(أل) في ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾ لتعريف الجنس؛ فتُفيد العموم والإبهام؛ أيْ: كلّ ما يَصدق عليه حقيقة الرِّجْس معنويًّا كان أو حِسّيًّا، إلّا أنَّه عيَّن الرِّجس ومَيَّز إبهامه وخصَّص عمومَه بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾[2]، وهذا البيان بعد الإبهام تصويرٌ لخطر رِجْس الأوثان، وأنَّ على القوم أن يتنبَّهوا له؛ لأنَّه من شأنه أن يُجتَنَبَ من غير أمر؛ لكمال ظهور قذارته وقبحه؛ ولكنهم في غفلة عظيمة عن ذلك، فنُبِّهوا؛ مِن أجل ذلك.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 141، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 253.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 141.

مجاز الحذف في ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ﴾:

التّكاليف تتعلّق بالأفعال لا بالذّات

في قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ مجازٌ بالحذف على تقدير مضاف؛ أيِّ: فاجتنبوا عبادة الرّجس من الأوثان؛ لأنّ قوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ﴾ تكليف، والتّكاليف تتعلَّق بالأفعال لا بالذّوات؛ ولأنّ الأوثان لا تكون رجْسًا إلّا إذا عُبِدَتْ، وفائدة الحذف بإيقاع الاجتناب على الذّات لا فِعل العبادة - المبالغة في التّنفير من عبادتها بالتّنفير منها[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في: ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾:

تنوّع المعنى التّفسيريّ بتعدُّد الأوجه المُحتملة لحرف المعنى

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ بيانيّة لتخليص جنسٍ من الأجناس؛ أيِ: بيانُ جنسِ الأوثان المعلوم من أجناس الرّجس المُبْهمَة والمُجمَلة: ويحتمل أن تكون تبعيضيّة على اعتبار أنّ الرجس جنسٌ عامّ أُريد به بعض أنواعه؛ فالأوثان هي بعضُ الرّجس وقيل: هي على بابها من ابتداء الغاية؛ فكأنّه نهاهم عن الرِّجس عامًّا ثمّ عيّن لهم مبدأه الَّذي يُصيبهم منه إذْ عبادة الوَثَنِ جامعةٌ لكلّ فسادٍ ورجسٍ ومنشأ كليهما[2].

التّشبيه البليغ في إطلاق الرّجس على الأوثان:

التّشبيه البليغ قائمٌ على المبالغة والتّأكيد

إطلاق الرِّجس بمعنى القَذَر والنَّجَس على الأوثان في قوله: ﴿ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ تشبيهٌ بليغٌ مُؤكّد؛ أيِّ: الأوثان كالرّجس؛ فحذف الأداة ووجه الشّبه لتصوير أنّ المُشبّه: ﴿ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ هو عين المُشبّه به: ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾ على جهة المبالغة والتَّأكيد في اتّحاد الطَّرفيْن، وهو - هنا - من مواضع مجيء المُشبَّه بيانٌ لإجمال المُشبَّه به[3]، والغرض غاية التّنفير من الأوثانِ، ويجوز أن يكون الرِّجس استعارة كذلك.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 504، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 254، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 269.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 253.

بلاغة أسلوب التَّجريد في إلحاق الأوثان بالرّجس:

تمحيضُ الأوثانِ لمعنى الرِّجس مبالغةٌ في التّنفير منها

جرى قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ على أسلوبٍ معنويٍّ بديعٍ يُسمّى التَّجريد، فكأنّه جرّد الرِّجس من جميع أنواعه وصورِه، ثمَّ استخرج منه الأوثان دون سائر أفراده، كأنَّ عبادة الوثن هي المعدِنُ والخُلاصة الَّتي ينجمِع الرّجس عليها، فَذَكَر الرّجسَ أوّلًا، ثمّ جرَّد الأوثان عنه كأنّه غيره، رغم أنّها أحد أنواعه، للتَّنبيه على تجرّد الأوثان وتمحُّضها في معنى الرّجس.

دلالة الواو في: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾ وسِرُّ ترتيب جملتَي الأمرَيْنِ والإضافة في ﴿قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾:

لا يقع الشّرك إلّا على زورٍ من القول

جملة ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ معطوفة على جملة ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾؛ وهو من باب عطف العامِّ على الخاص؛ لأنّ اتّخاذ الأوثان هو أُسّ الزّور؛ فهو أخصّ الزّور وأعلاه[1]، وفي ترتيبهما معنى أنَّ اتِّخاذ الرِّجس من الأوثان كأنَّه هو رأس قول الزّور كلِّه؛ وهو كذلك؛ فأعلى أفراد قول الزّور عبادة الرِّجس من الأوثان، فاجتنابُ قولِ الزّور بابٌ عموميٌّ عظيمٌ مَن لَزِمَه لم يقع في مثل عبادة الرِّجس من الأوثان، وإضافة القول للزّور في جملة ﴿قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ بيانيّةٌ - عَرّفت القول وعَيّنَتْ حقيقته[2].

سِرُّ تكرار فعل الأمر رغم قُرب ذِكْره:

اجتنابُ العامِّ يقتضي اجتنابَ ما يندرج تحته من أفراد الخاصِّ

إعادة العامل في قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ لمزيد الاعتناء بمضمون معموله - مبالغةً في خطَره والتَّنفير منه، ليكون مُستقِلًّا بالاجتناب، وفائدة ذلك: الإشارةُ إلى كون اجتنابه كافيًا في اجتناب ما يندرج تحته، فإذا استقلّ الإنسان باجتناب قول الزّور؛ فقد عُصِم واهتدى من سائر ألوان الضَّلال[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 70، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 105.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 478، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوثَن والصّنم:

الوثن أعمّ من الصَّنم في دلالته

أشرنا فيما سبق إلى أصل كلمة (وثن)، والصّنَم: أصله: خبث الرائحة، وقوّة العبد، وهو صنِم، ككتِف؛ أي: قويٌّ، والوثن يُعبد[1]، وكان يُتّخذ من خشبٍ أو فضةٍ أو نُحاسٍ فيُعبَد[2]، فلعلّه سُمّي بالصَّنم لِما توهَّم فيه عابدوه من قوى خفيَّة ليس لها ظواهر تدلُّ عليها[3].

والفرق بين الصَّنم والوثن أنّ الصَّنم خاصٌّ بما له صورة (مصوّر - مجسّم)؛ فهذا أَدْعَى إلى توهُّم سِرٍّ فيه[4] وبما نُحت من خشبٍ أو فضَّةٍ أو نُحاسٍ، وسياقات القرآن عن الأصنام تومئ إلى أنَّها شيء مصنوعٌ مُبالَغٌ في نحته ونقشه وتصويره[5].

وأمّا الوثن فهو حجارةٌ معبودةٌ قد تقع من غير تجسيمٍ، فهو غير منحوت على صورة مُعيّنة[6]، وقد يُتصوّر استعمال الوثن في غير غرض العبادة ممّا لم يُحرِّمه الشَّرع؛ كزينةٍ أو بناءٍ ونحوه؛ فالمأمور باجتنابه في الأوثان هو عبادتها[7]، واشتمال كلمة (وثن) على معنى التَّكثير يُرجّح أنَّ المُعتبَر فيه أنّه شريكٌ أو ثانٍ (أيّ: تعدد المعبود) - تعالى اللّه عن ذلك - ! فملحظُ الوثن أنّه شريك، وملحظُ الصّنم أنّه جثّة مصوّرةٌ منصوبةٌ؛ وعليه: يكون الوثن أعمُّ من الصّنم[8].

---

(1) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (صنم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صنم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صنم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صنم).
(5) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 322.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (صنم).
(7) أبو حيَّان: البحر المحيط: 6/ 366.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صنم).

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾

[الحج: 31]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ مَثَلِ المُشْرِكِ بعدَ الأمرِ باجتنابِ الأوثانِ

تتناسب هذه الآيةُ مع ما قبلها في أنَّهُ لمّا ذكرَ من أُمَّهاتِ الخبائثِ ما يستتبعُ سائرَها، وهو الشِّركُ وقولُ الزّورِ، وجعلَ التَّخلُّصَ إلى ذكرِهما ما كانوا يُعظِّمونَهُ من النَّسائكِ والقرابينِ تشبيهًا لها بالمعبودِ بالحقِّ، فقالَ: ﴿وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 30]؛ مثَّلَ لعبادتِها تمثيلًا عجيبًا، وتصويرًا غريبًا، حيثُ قالَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُنَفَآءَ﴾: المعنى المحوريُّ للجذر (حنف) مَيْلُ الشَّيءِ[2] واعوجاجُهُ عن مُعتادِ الحالِ[3]، ومن ذلك: رجلٌ أحنَفُ، أيْ: مائلُ الرِّجْلَيْنِ، وذلكَ بأنْ يكونَ عندَهُ مَيْلٌ في صَدْرِ القَدَمِ[4]، والحَنَفُ: هو مَيْلٌ عن الضَّلالِ إلى الاستقامةِ، والحَنيفُ: هو المائلُ إلى ذلكَ، قالَ تعالى: ﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النَّحل: 120]، وقالَ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الحج: 30 - 31]، ويُقالُ: تحنَّفَ فلانٌ، أيْ: تحرَّى طريقَ الاستقامةِ، وسمَّتِ العربُ كلَّ مَنْ حجَّ أو اختتَنَ حنيفًا؛ تنبيهًا إلى أنَّهُ على دينِ إبراهيمَ عليه السلام[5].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 476.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حنف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حنف).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصِّحاح: (حنف).
(5) الرّاغب، المُفردات: (حنف).

2) ﴿خَرَّ﴾: (خرّ) أصلٌ واحدٌ، وهو اضطرابُ الشَّيءِ، وسقوطُهُ بقوَّةٍ مع صوتٍ غالبًا[1]، قالَ تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النّحل: 26]، وقالَ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، فمعنى ﴿خَرَّ﴾: سقطَ سُقوطًا يُسمَعُ منهُ خَريرٌ[2]، والخَريرُ يُقالُ لصوتِ الماءِ والرّيحِ ونحوِ ذلكَ ممّا يَسقُطُ من عُلوٍ[3]، والخَرْخَرَةُ: صوتُ النَّمِرِ في نومِهِ[4].

3) ﴿فَتَخۡطَفُهُ﴾: المعنى المِحوريُّ للجذر (خطف) استلابُ الشَّيءِ في خِفَّةٍ وسرعةٍ[5]، ومن ذلكَ يُقالُ: بَرْقٌ خاطفٌ لنورِ الأبصارِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 20]، والشَّيطانُ يَخْطِفُ السَّمْعَ؛ إذا استرقَهُ، قالَ تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ﴾ [الصّافات: 10][6]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ﴾ [العنكبوت: 67]، معناهُ: يُقتَلونَ، ويُسلَبونَ[7]، والخُطّافُ: الطّائرُ، تُصورَ أنَّهُ يَخْطَفُ شيئًا في طَيَرانِهِ، والخُطّافُ أيضًا: الحديدةُ الَّتي تدورُ عليها البَكَرةُ[8]، والخاطفُ: الذِّئبُ؛ لاستلابِهِ الفريسةَ، والخَطَفى: السُّرعةُ في المَشْيِ، كأنَّهُ يختطفُ في مِشيتِهِ عُنُقَهُ، أيْ: يجتذبُهُ[9]، ويُقالُ: بازٌ مُخطِفٌ: يختطفُ ما يصيدُهُ، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾[10].

4) ﴿تَهۡوِي﴾: الأصل (هوي) يدلُّ على خُلوٍ وسُقوطٍ[11]، ومِنْ ذلكَ يُقالُ: هَوَى يَهْوِي؛ إذا سقطَ مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ[12]، وطاحَ في المَهْواةِ والهاويةِ، وهي ما بينَ الجَبَلَيْنِ[13]، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ [القارعة: 9]، قيلَ: هو مِثْلُ قولِهِم: هَوَتْ أُمُّهُ، أيْ: ثَكِلَتْ، وقيلَ: معناهُ: مَقَرُّهُ النّارُ، والهاويةُ هي النّارُ، والهَوَى: مَيْلُ النَّفْسِ إلى الشَّهْوةِ، وقيلَ: سُمّي

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خرر).
(2) الرَّاغب، المُفردات: (خرر).
(3) الخليل، العين: (خرر).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (خرر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خطف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خطف).
(7) الرَّاغب، المُفردات: (خطف).
(8) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خطف).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (خطف).
(10) الرَّاغب، المُفردات: (خطف).
(11) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هوي).
(12) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: 2/ 998.
(13) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (هوي).

بذلكَ؛ لأنَّهُ يَهْوي بصاحبِهِ في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويةِ، والهَواءُ: ما بينَ الأرضِ والسَّماءِ، وقد حُمِلَ على ذلكَ قولُهُ جلَّ وتبارك: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43]؛ إذ هي بمنزلةِ الهواءِ في الخَلاءِ، وأهواهُ: رفعَهُ في الهواءِ، وأسقطَهُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣﴾ [النَّجم: 53][1]، وقولُه: ﴿تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، أيْ: تُسقطه، وتَقذفُه[2].

5) ﴿سَحِيقٖ﴾: (سحق) أصلانِ أحدُهما: البُعْدُ، والآخرُ: إنهاكُ الشَّيءِ حتَّى يُبْلَغَ بهِ إلى حالِ البلى، فالأَوَّلُ: السُّحْقُ، وهو البُعْدُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [المُلك: 11][3]، وقالَ: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[4]، أيْ: بعيدِ العُمْقِ، ويُقالُ: أسحقَهُ اللّهُ، أيْ: بعَّدَهُ من رحمتِه، ونخلةٌ سَحوقٌ، أيْ: طويلةٌ[5]، والأصلُ الثّاني: سَحَقْتُ الشَّيءَ أَسْحَقُهُ سَحْقًا؛ إذا دَقَقْتُهُ وفَتَتُّهُ[6]، ويُستعمَلُ في الدَّواءِ؛ إذا فُتِّتَ، يُقالُ: سَحَقْتُهُ، فانسحقَ، وفي الثَّوبِ؛ إذا أخلقَ[7]، ويُقالُ: أسحقَ الضَّرْعُ: ذهبَ لَبَنُهُ؛ وذلكَ على التَّشبيهِ بالثَّوبِ البالي[8].

المَعنى الإجماليُّ:

وجوبُ المحافظةِ على التَّوحيد

يأمرُ اللّهُ تعالى عِبادَهُ بتوحيدِهِ وإخلاصِ العِبادةِ لهُ، فيقولُ: اجتَنِبوا - أيُّها النّاسُ - عِبادةَ الأوثانِ وقولَ الزّورِ مُستقيمينَ للّهِ على إخلاصِ التَّوحيدِ لهُ، وإفرادِ الطّاعةِ والعِبادةِ لهُ دونَ الأوثانِ والأصنامِ غيرَ مُشركينَ بهِ شيئًا من دونِه، فإنَّهُ مَنْ يُشرِكُ باللّهِ

(1) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (هوي).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 23.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحق).
(4) الرَّاغب، المُفردات: (سحق).
(5) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سحق).
(6) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: 1/ 532.
(7) الرَّاغب، المُفردات: (سحق).
(8) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سحق).

شيئًا؛ فمَثَلُه في بُعدِه من الهُدى وإصابةِ الحقِّ مَثَلُ مَنْ سقطَ من السَّماءِ، فتَخْطَفُه الطَّيرُ، وتُقطِّعُه في الهواءِ، فيَهْلِك، أو تَرمي به الرِّيحُ في مكانٍ بعيدٍ غايةَ البُعدِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

إعرابُ ﴿حُنَفَآءَ﴾ و﴿غَيۡرَ﴾ وسرُّ ذِكْرِهما:

المقابلةُ بينَ الميَلِ عنِ الدَّليلِ ومعَ الدَّليلِ وتأكيدُ التحذيرِ من الشِّرك

﴿حُنَفَآءَ﴾ و﴿غَيۡرَ﴾ في قولِه سبحانَهُ وتعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ حالانِ مِنْ فاعلِ ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ﴾ [الحج: 30][2]، والحالُ الثّانيةُ حالٌ مُؤكِّدةٌ؛ إذ يلزمُ مِنْ كونِهم حُنَفاءَ عدمُ الإشراكِ[3]، والمعنى: (مُسلِمينَ لا يميلونَ إلى دينِ غيرِ الإسلام)[4]، أو المعنى: (مائلينَ عنِ الباطلِ إلى الدّينِ الحقِّ مُخلِصينَ عبادتَكم لوجهِ اللّهِ)[5].

والحال الأولى تتَّصلُ بالزّور من قبلها، فإنَّ الزّور هو الانحرافُ عن الدَّليل، كالشِّرك المُؤدّي إلى إنكار براهين الألوهيَّة، وتحريمِ ما لم يُنزِّل اللّه به سلطانًا من السّائبة ونحوها، وتحليلِ الميتة ونحوها ممّا قام الدَّليلُ السَّمعيُّ على تحريمه، وإنَّ الحَنَف هو الميلُ مع الدَّليل؛ ولذلك جيء بقوله: ﴿حُنَفَآءَ﴾ من بعد قوله: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: 30]، والزّورُ تدور مادَّته على القوَّة والوعورة، والحَنَفُ تدور مادَّتُه على الرِّقة والسُّهولة؛ فكان ذو الزّور مُعرِضًا عن الدَّليل بما فيه من الكثافة، والحنيف مُقبلًا على الدَّليل بما له من اللَّطافة[6]، فكان في الثّاني نوعُ توكيدٍ للأوَّلِ؛ لما بينهما من التَّقابل والالتقاء مع ما في الثاني من تأسيس معنًى جديدٍ كما لا يخفى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 620، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 420.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 71، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 270.
(3) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 270، وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ ﴿غَيۡرَ﴾ صفةً لقولِهِ: ﴿حُنَفَآءَ﴾، يُنظر: البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 425.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 57.
(6) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 150.

وهذا التَّشديدُ في تقريرِ العملِ الصالحِ الَّذي هو اجتنابُ الرِّجس من الأوثان، واجتنابُ قولِ الزّور - بمجيءِ قولِه: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ ناظرٌ إلى هولِ السّاعةِ وعظيمِ أمرِها في مطلعِ السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحجّ: 1]، فإنَّ تلك الأهوالَ الفخمة العظيمة إنَّما تُصيبُ في الأصلِ مَن يَضْعُفُ في مِثْل هذه الأعمال، ويُقَصِّرُ فيها، إلّا مَن رحِم اللّهُ.

معنى اللّامِ الدّاخلةِ على لفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾:

اللّامُ تدُلُّ على إخلاصِ العبادة واختصاصِها بالله

اللّامُ الدّاخلةُ على لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ للاختصاص، والمعنى: (مائلينَ عن الباطلِ إلى الدّينِ الحقِّ، مُخلِصينَ عبادتَكم لوجهِ اللّهِ)، أيْ: جاعلينَ عِبادتَكم أو مَيْلَكم ذلكَ خالصًا لوجهِ اللّهِ غيرَ مُرائينَ فيها[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿لِلَّهِ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ التَّوحيدِ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِه من الأسماءِ الحُسنى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾؛ لأنَّ السّياقَ للحديثِ عن التَّوحيدِ وعدمِ الشِّرْك، وذلكَ يناسبُه الإتيانُ بلفظِ الجلالةِ الدّالِّ على مَنْ لهُ الكمالُ كلُّهُ[2]، ومِنْ ذلكَ استحقاقُهُ العُبوديَّةَ دونَ غيرِه.

وفي التَّعبيرِ باسمِ الجلالة - المُسيطِرِ على الأسماءِ والصِّفات كلِّها - تعليلٌ في المعنى لقولِه: ﴿حُنَفَآءَ﴾؛ لأنَّ تفصيلَ معنى اسم الجلالة هو ما يُقْبِلُ عليه الحنيفُ، وفي آثارِ أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى تكمنُ الدَّلائل الَّتي يُقْبِل عليها الواحد من هؤلاء الحنفاء، فالميلُ إنَّما يتسبَّبُ عن الجمالِ أو الجلال، والتَّعبيرُ بالاسم الجامع لأوصاف الجمالِ والجلال أفاد أنَّهم مالوا إليه تسبُّبًا عنهما معًا.

---

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 57.

(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.

سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿مُشۡرِكِينَ﴾:

حذفُ المفعولِ يفيدُ العُمومَ فيه ويَصرِفُ النَّظرَ عنه إلى الفاعلِ

حُذِفَ مفعولُ اسمِ الفاعلِ ﴿مُشۡرِكِينَ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ للتوصُّلِ بالعُمومِ المُستفادِ مِنَ الحذفِ إلى المبالغةِ في إفادةِ التَّوحيدِ والإخلاصِ وعدمِ الإشراكِ، والمعنى: (غيرَ مُشركينَ بهِ شيئًا من الأشياءِ)، وهذه المبالغةُ لا تزيد شيئًا في المعنى، وإنَّما هي تصوِّر حقيقة المعنى.

ويجوز أن يكون غيابُ المفعولِ لإثبات معنى اسم الفاعل في نفسه، منفيًّا مِن غير نظرٍ إلى مفعول، أيْ: لا يكونُ منهم إشراكٌ به، وهذا أبلغُ في تقرير توحيدهم ومدحهم به.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الشِّرْكِ في قوله: ﴿مُشۡرِكِينَ﴾:

مناسبةُ لفظِ الشِّركِ لسياقِ الحثِّ على التَّوحيدِ

عُبِّرَ بلفظِ الشِّركِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (غيرَ كافرينَ به)؛ لأنَّ السّياقَ لإيجابِ اجتنابِ الرِّجْسِ من الأوثانِ واجتنابِ قولِ الزّورِ، والأمرِ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ في الطّاعةِ والعِبادةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ لقولِهِ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، فيكونُ نفيُ الشِّركِ أنسبَ بهذا السّياقِ؛ لِما بينَ الشِّركِ والتَّوحيدِ مِنَ التَّقابلِ.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦۚ﴾:

الباءُ للمُصاحَبةِ والمَعيةِ

الباءُ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾ للمُصاحَبةِ والمَعيةِ، أيْ: غيرَ مُشركينَ معَهُ غيرَهُ[1]، وفي التَّعبير به مناسبةٌ لسياقِ الحثِّ على التَّنزُّهِ والتَّبرُّؤِ عنِ الشِّركِ بكافَّةِ صورِهِ وأشكالِهِ.

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَمَن﴾:

الواوُ في قولِ اللّهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَها مبتدأةٌ مؤكِّدةٌ لِما قبلَها مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 254.

اجتنابِ الإشراكِ[1]؛ لأنَّ المقصودَ مِنْ ضَرْبِ هذا المَثَلِ تصويرُ كيفيَّةِ انحدارِ المُشرِكِ مِنْ سماءِ العقلِ والفكرِ إلى مَهاوي الضَّلالِ[2]، وهذه الجملة تفصيلٌ لحال المشرك وأثرِ الشِّرك فيه، مِمّا يُقرِّرُ معنى الأمر: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30]، فكان الظّاهر غيابَ الواو، بأنْ يُقال: (مَنْ يُشْرِكْ باللّه؛ فَكأنّما خرَّ مِنَ السَّماءِ)، فمجيءُ الواو على خلافِ الأصلِ والظّاهر؛ للإشعارِ باستقلالِ مضمون التَّشبيه، تشديدًا في بيان حال الشِّرك والمُشرِك؛ حتى يرتدعَ وينزجرَ، فإنَّ زلزلة الساعة شيءٌ عظيمٌ.

استئنافُ التَّمثيلِ بالواو للمبالغة في التَّحذير من الشِّرك

معنى (مَنْ) في قولِهِ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ﴾:

﴿وَمَن﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شرطيَّةٌ، وهي تُفيدُ عُمومَ المَثَلِ المضروبِ لكلِّ مَنْ أشركَ باللّهِ جلَّ وتباركَ، وهذا يناسب عمومَ المخاطَب بالحديث عن السّاعة في مطلع السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [الحج: 1].

(مَنْ) شرطيَّةٌ لعموم المخاطَبين

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُشۡرِكۡ﴾:

تدلُّ صيغةُ المضارعِ في قولِ اللّهِ عزَّ وتباركَ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على تجدُّدِ الشِّركِ واستمرارِهِ مِمَّنْ ضربَ اللّهُ ﷻ لهُ هذا المَثَلَ؛ إذ المُستحِقُّ لهذا المصيرِ البائسِ هومَنِ استمرأ الشِّركَ، واستمرَّ عليهِ، ولم يَرْجِعْ عنهُ بالإيمانِ والتَّوحيد.

الدَّلالةُ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للمُصاحَبةِ والمَعيةِ، والمعنى: (ومَنْ يُشرِكْ معَ اللّهِ غيرَهُ؛ فكأنَّما سقطَ مِنَ السَّماءِ)، والأصل أنَّ فعلَ الإشراكِ يتعدّى بنفسه، وإن كان قد تعدّى بالباء كثيرًا في القرآن الحكيم، فيكون هذا من

سبحانَ اللهِ من زعمِ المُشركين باقتِرانِ الصُّاحِبِ له!

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 105، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4980.

التَّضمين، ومعنى (أشرك بالله) على هذا: أشرَك اللهَ في عبادتِه قارنًا به غيرَه[1].

ووراء تعدّيه بواسطتها الإشارةُ إلى أنَّ الأصلَ والحقَّ أن الشِّرك لا يَتسلَّط على الله سبحانه وتعالى، فمِثْلُه تعالى لا يُشرَك معَه غيرُه من المخلوقاتِ.

إعظامُ قُبحِ الشِّرك واستحقاقُ صاحبه أشدَّ الوعيد

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إظهارٌ في موضعِ الإضمارِ؛ إذ الظّاهر أنْ يُقالَ: (ومَنْ يُشْرِكْ بهِ)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى إظهارِ الاسمِ الجليلِ؛ لإظهارِ حالِ قُبْحِ الإشراكِ[2]، أيْ: ومَنْ يُشْرِكْ باللّهِ الَّذي لهُ العظَمةُ كلُّها والكِبْرياءُ كلُّهُ؛ فكأنَّما خرَّ منَ السَّماءِ ...[3]؛ وليكون تمهيدًا لذِكْر جوابِ الشَّرط المُشتمِل على المُسبَّب الفظيع في بابه؛ لأنَّ نفْسَ المُشركِ قد خَلَتْ من جلال اللّه وجماله، فكانت مُتفرِّقةً مُتقطِّعةً مُتَشرْذِمةً، وجوابُ الشَّرط يُصوِّر ذلك الحالَ الغريبَ العجيب.

إعادةُ ذِكْر الاسم الظّاهر لِتستقلَّ جملةُ التَّشبيه

سرُّ تكرارِ اسم الجلالة:

أُعيدَ ذِكْرُ اسم الجلالة بلفظه دون ضمير؛ ليجريَ على نسَق ذِكْرِ الواو في صدرِ بيانِ التَّشبيه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾، فداعي الواو هو داعي الإظهار في موضع الإضمار من الإشعارِ باستقلالِ مضمون التَّشبيه، ليكونَ أشدَّ في الوعيد وأبلغَ في التَّحذير.

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَكَأَنَّمَا﴾:

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: 15/ 442.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 105، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 142.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ، وهو قولُه تبارك شأنُه: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ﴾، وقد أفادت الترتيب والتعقيب.

بلاغةُ استعمالِ (كَأنّ) في قولِهِ: ﴿فَكَأَنَّمَا﴾:

التّوكيدُ وإفادةُ التّشبيهِ المناسبانِ لمقامِ ضربِ المَثَلِ

يدلُّ استعمالُ: (كَأنَّ) في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على توكيدِ مضمونِ الكلامِ الَّذي دخلَتْ عليه، وعلى إفادةِ التَّشبيهِ المناسبِ لمقامِ ضربِ المَثَلِ لِمَنْ أشركَ باللّهِ ﷻ.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿خَرَّ﴾:

تقبيحُ التَّحوُّلِ من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ

في التَّعبيرِ بلفظِ ﴿خَرَّ﴾ - في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ - تنبيهٌ على قُبْحِ شأنِ التَّحوُّلِ من التَّوحيدِ إلى الشِّرْكِ؛ إذ فيهِ إيماءٌ إلى عُلوِ ما كانَ فيهِ هذا المُشرِكُ من أوْجِ التَّوحيدِ الَّذي فُطِر عليه، وسُفولِ ما انحطَّ إليهِ من حَضيضِ الإشراكِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿خَرَّ﴾:

تَوْكيدُ التَّشبيهِ بتَحَقُّقِ الخُرورِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ؛ إذ كانت تقتضي مضارعةُ الشَّرطِ ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ مجيءَ الجوابِ مُضارعًا: (فكأنَّما يخِرُّ من السَّماء)، وفي هذا العدولِ إشارةٌ إلى تحقُّقِ سُقوطِ هذا المُشرِك من السَّماءِ ووقوعِهِ، وملاءمةٌ لسياقِ بيانِ عظيمِ الخُسْرانِ، حيثُ يدلُّ الكلامُ على أنَّه مَنْ يُشرِكْ باللّهِ؛ فقد تُيُقِّنَ وثبتَ سُقوطُهُ من مَعالي التَّوحيدِ إلى مَهاوي الشِّركِ.

فظاعةُ المَشهَدِ بسُرعَةِ السُّقوطِ

صيغةُ الماضي: ﴿خَرَّ﴾ تُشير كذلك إلى غايةِ سرعة سقوطِ المُشركِ من السَّماء، وأنَّ الحركةَ غيرُ ممتدَّةٍ بين مُنطَلق الهويّ وبين مُنتهاه، من خَطْفِ الطَّيْرِ له بالمخلاب، أو سقوطه في أبعَدِ مكان، فكأنَّه حصَلَ الخَرُّ دفعةً واحدةً، ثُمَّ جاء الخطابُ ليصِفَ الحدَثَ

---

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 534.

بعد مُضيه وانتهائه، وهذه مبالغةٌ ظاهرةٌ في بيان تلك السُّرعة، وتهويلٌ شديدٌ لأمرِ هذا الخُرور.

معنى حرفِ الجرِّ في: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

تصويرُ بُعدِ مسافة السُّقوطِ مبالغةٌ في تقبيحِ الشِّرك

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لابتداءِ الغايةِ، فهو يُفيدُ أنَّ ابتداءَ سُقوطِ هذا المُشرِكِ من السَّماءِ، وفيهِ إشارةٌ إلى بُعْدِ مسافةِ السُّقوطِ حيثُ كانَتِ البدايةُ من السَّماءِ الَّتي هي غايةٌ في البُعدِ في تصوُّرِ المخلوقينَ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في تقبيحِ شأنِ هذا المُشرِكِ التّاركِ للإيمانِ والتَّوحيدِ.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ وسرُّ إفرادِ السَّماء:

تصويرُ عُلوِّ التَّوحيدِ في سقوطِ المُشرِكِ منه بالسَّماء المعهودة

الظّاهر أنَّ (أل) في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهدِ، والمُرادُ بها السَّماءُ الدُّنيا؛ إذ هي الَّتي تنصرفُ إليها الأذهانُ، وهي الَّتي جرَتْ عادةُ النّاسِ على التَّمثيلِ بها لبُعدِ الشَّيءِ، ويحتملُ أنْ يُرادَ بها جنسُ السَّماءِ، فيكونُ في الكلامِ زيادةُ مبالغةٍ بأنْ يكونَ ابتداءُ السُّقوطِ من السَّماءِ السّابعةِ، والأوَّلُ هو الأَوْلَى؛ لكونه ألصقَ بطبيعةِ التَّشبيهِ من البيانِ والتَّوضيحِ، وإفرادُ السَّماءِ ناظرٌ إلى التَّوحيدِ الَّذي عدَلَ عنه هذا المُشرِكُ إلى الشِّركِ باللّهِ ﷻ.

معنى الفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَخۡطَفُهُ﴾:

الفاءُ في قولِهِ عزَّ من قائلٍ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ عاطفةٌ لخَطْفِ الطَّيرِ للمُشرِكِ على سُقوطِهِ من السَّماءِ[1]، فكلٌّ منهما داخلٌ في حيِّزِ التَّمثيلِ المذكورِ.

دلالةُ استعمالِ الخَطْفِ في قولِهِ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ﴾:

تصويرُ أثرِ الشِّركِ في نفسِ المُشرِكِ مع فظاعةِ مَصيرِه

في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ تهويلٌ لمصيرِ السّاقطِ من السَّماءِ؛ لأنَّ معنى ﴿فَتَخۡطَفُهُ﴾: فتسلُبُهُ بسرعةٍ، وتَخْطَفُ

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 271.

لَحْمَهُ، وتُقطِّعُهُ بمَخالبِها، وهو نازلٌ في الهواءِ قبلَ أنْ يَصِلَ إلى الأرضِ[1]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ مَنْ تركَ التَّوحيدَ، ورضيَ بالشِّركِ؛ فقد أضاعَ نفسَهُ، وعرَّضَها للهلاكِ والبَوارِ؛ فهو يُصوِّرُ حقيقةَ أثرِ الشِّرك في النَّفس بِأنْ يُشتِّتَ فِكْرَهُ، ويُقَلْقِلَ نفسَه، فيَجعلَها مُضطرِبةً مُتزعزِعةً.

نكتةُ عطفِ المضارعِ ﴿فَتَخۡطَفُهُ﴾ على الماضي ﴿خَرَّ﴾:

تعجيبُ السّامع بِحالِ مَنْ تخطفُهُ الطَّير في جوِّ السَّماء

قولُهُ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، والظّاهر أنْ يُقالَ: (فخَطَفَتْهُ الطَّيرُ) بصيغةِ الماضي؛ ليتوافقَ زمنُ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، لكنْ عُبِّرَ بالمضارعِ هنا في قولِهِ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾؛ إشعارًا باستحضارِ تلكَ الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ، ويُسمّي النُّحاةُ هذا الأسلوبَ حكايةَ الحالِ الماضيةِ، وهذا إنَّما يُصارُ إليهِ في الأمورِ الَّتي لها شأنٌ، ويكونُ القصدُ تعجيبَ السّامعِ[2]؛ ولأنَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ يُفيدُ أنَّ خَطْفَ الطَّيرِ لهُ بمنزلةِ الصِّفةِ لهُ، والمعنى أنَّ مَنْ سقطَ من السَّماءِ، من صفتِهِ خَطْفُ الطَّيرِ لهُ وتمزيقُها لهُ[3]، هذا باعتبارِ عطفِ الجملة على جواب الشَّرط: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أمّا بالنَّظر إلى فعل الشَّرط في أوَّلِ الجملة ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾؛ فقد وافقته في صيغة المضارع، وإنَّما الخَرُّ جاء على خلاف الظّاهر بصيغة الماضي بين فِعلَيْن مُضارعَيْن: ﴿يُشۡرِكۡ﴾، ﴿خَرَّ﴾، ﴿فَتَخۡطَفُهُ﴾؛ إشارةً إلى سرعةِ السُّقوط وتحقُّقه.

وقيلَ: قولُهُ: ﴿خَرَّ﴾ في معنى: يَخِرُّ، ولذلكَ عُطِفَ عليهِ المستقبلُ،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 55، والنّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 439، والبقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 481، وابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 58.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 597، 18/ 621.

وهو ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾[1]، وقيلَ: ﴿خَرَّ﴾ على بابِهِ، و﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، أيْ: فهو تَخْطَفُهُ[2]، والعطفُ من عطفِ الجملةِ على الجملةِ[3].

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾:

الخَطْفُ لأصل أثر الشِّرك في النَّفس والتَّخطُّف للمبالغة في التَّأثير

قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿فَتَخَطَّفُهُ﴾ بفتحِ الخاءِ وتشديدِ الطّاءِ، وقرأ الباقونَ: ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ بإسكانِ الخاءِ وتخفيفِ الطّاءِ[4]، فقراءةُ التَّخفيفِ من: (خَطِفَ يَخْطَفُ)، والخَطْفُ: الأخذُ[5]، وقراءةُ فتح الخاءِ وتشديدِ الطّاءِ على حذفِ تاءِ التَّفعُّلِ، والأصل: (فتتَخَطَّفُهُ)[6]، والتَّشديدُ للمبالغةِ، وتُشيرُ قراءةُ التَّخفيفِ إلى أصلِ أثر الشِّرك في النَّفس، وقراءةُ التَّشديدِ تشير إلى تمكُّنه وعظيم أثره فيها.

سرعةُ الخَطْفِ والتَّخطُّفِ تُلائِمُ اقترانَهما بالسُّقوط

وحذفُ التّاء في قراءة التَّشديد (فتخَطَّفه) يُشير إلى سرعة الخطف، كما تُشير إليه الدَّلالة الصَّوتيَّة على قراءة التَّخفيف ﴿فَتَخْطَفُهُ﴾ في كَوْنِ الصِّيغةِ المُجرَّدة أقلَّ حروفًا من المضعَّفة، فعلى القراءتَيْن تسويغٌ للجمع بين دلالة الماضي على السُّرعة في قوله: ﴿خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وبين صيغة المُضارع في المعطوفِ عليه ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلطَّيْرُ﴾:

التَّشبيهُ بأفرادٍ مُبهَمَةٍ من جنس الطَّيْرِ لا مخصوصةٍ بالعهد

اللّامُ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ للجنسِ، أيْ: فيَخْطَفُهُ هذا الجنسُ المُسمَّى بالطَّيرِ؛ إذ ليسَ هناكَ معهودٌ ذِكْريٌّ؛ ليُقالَ: إنَّ اللّامَ عهديَّةٌ، والمقصودُ باستعمال (أل) الجنسيَّةِ هنا: الإشارةُ إلى حقيقة الطَّير من خلال بعض أفرادها، على سبيل الإبهام، فلامُ الجنس هنا للعهد الذِّهنيِّ.

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 271.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 120.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 143.
(4) ابن الجَزَريّ، النَّشر: 2/ 326.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 425.
(6) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 120.

مناسبةُ مقامِ بيانِ سوءِ المصيرِ

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾:

عُبِّرَ بمصدَرِ الطَّيرِ في قولِه جلَّ من قائلٍ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾ الدّالِّ على الجمعِ، ولم يكن التَّعبيرُ بالجمعِ (الطُّيور) مثلًا موافِقًا للاستعمال القرآنيِّ في غيرِه من المواضعِ الدّالَّة على الجَمْع: كقولِه تعالى: ﴿فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [البقرة: 260]، وقولِه: ﴿وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي﴾ [المائدة: 110]، وقولِه: ﴿فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ [يوسف: 41]، وقولِه: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النَّمل: 16]، ولفظ (الطير) يُفيد المَصدَرية والجمعَ معًا، والتَّعبيرُ به هُنا يحتمل الوجهَيْن، فباعتبارِ المعنى المَصدَري: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، أيْ: يَخْطَفُه جنسُ الطَّيْر، وباعتبارِ الدَّلالَةِ على الجمعِ: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، أيْ: يَخْطفُهُ عدَدٌ كثيرٌ من الطَّيْرِ، وفيه بيانٌ لسوءِ مصيرِ هذا السّاقطِ من السَّماءِ، حيثُ يغدو نُهْبَةً للطُّيورِ الكثيرةِ الَّتي تسلُبُ في سُرعةٍ وخِفَّةٍ لَحمَهُ، وتُمزِّقُهُ كلَّ مُمزَّقٍ.

مـجـيءُ (أو) لتقويةِ التَّصْويرِ ومُـطـابـقـةِ التَّشبيهِ للمُشَبَّهِ

دلالة ﴿أَوۡ﴾ وأثرُها في المعنى:

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ للتَّخيير، أيْ: أنتَ مُخيَّرٌ في التَّشبيه بحالِ مَنْ خَرَّ من السَّماءِ فتَخْطَفُهُ الطَّيرُ، أو بحالِ مَنْ خَرَّ منها، فتَهْوي بِهِ الرّيحُ في مكانٍ سحيقٍ، ويجوز أن تكون ﴿أَوۡ﴾ للتَّقسيم على معنى أنَّ مَهلِكَهُ إمّا هوًى يتفرَّق به في شِعْب الخَسار، أو شيطانٌ يُطوِّح به في مَهْمَهِ البَوار، وعلى هذَيْن التَّوجيهَيْن يكونُ المُشبَّهُ واحدًا.

ويجوزُ كذلك أنْ تكونَ ﴿أَوۡ﴾ للتَّنويع، فإنَّ الكافرينَ على نوعَيْن: الأوَّلُ مَنْ لا خلاصَ لهُ عن الكفرِ لتعلُّقِ العِلْمِ بموتِهم على الكفرِ، فذلك مُشَبَّهٌ بالنَّوعِ الأوَّلِ الَّذي تَوزَّعَ لحمُه في بطونِ جوارحِ الطَّيرِ، والآخر مَنْ يُمكنُ خَلاصُهُ على بُعدٍ بأن يُهدَى للإيمانِ والتَّوبة، فذلك مُشَبَّهٌ بالنَّوعِ الثّاني الَّذي رمَتْه الرّيح في المَهاوي، وعلى هذا التَّوجيهِ يكونُ المُشبَّهُ اثنَيْن[1].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 58، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 143.

مناسبةُ اللّفظِ لمقامِ سوءِ المُنقلَبِ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿تَهۡوِي﴾:

في التَّعبير بلفظِ ﴿تَهۡوِي﴾ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ مناسبةٌ لطيفةٌ لمقام بيانِ سوءِ مُنقلَبِ مَنْ أشركَ باللّهِ سبحانَهُ وتعالى، لِما فيهِ من الإشعارِ بأنَّ الرّيحَ تُطوِّحُهُ، وتقذفُهُ، وترمي بهِ في مكانٍ بعيدٍ غايةَ البُعدِ ليسَ فيهِ إلّا الهلاكُ[1].

تصويرُ الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿تَهۡوِي﴾:

عُبِّرَ بالمضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾؛ استحضارًا لتلكَ الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ لتعجيبِ السّامعِ منها، حيثُ يرى صورةَ هذا السّاقطِ من السَّماءِ، وقد اكتنفَتْ بهِ الرّيحُ، وعصفَتْ بهِ، وألقَتْهُ في مَهاوي الرَّدى، حيثُ ينتظرُهُ الموتُ المُحتَّمُ.

الباءُ للتَّعديةِ وفيها تهويلٌ بشدَّةِ المَنظَرِ

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِ﴾:

الباءُ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ للتَّعديةِ، أيْ: تُهْوِيهِ الرّيحُ[2]، وفي التَّعبيرِ بها بيانُ شدَّةِ عَصْفِ الرّيحِ بالسّاقطِ من السَّماءِ؛ حيثُ يصيرُ في وسَطِها، وهي تُطوِّحُهُ إلى أنْ ترميَ بهِ في مكانٍ سحيقٍ.

تعجيلُ المَساءةِ لمزيدِ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُ ولأمثالِهِ من الكافرينَ

نكتةُ تقديمِ ﴿بِهِ﴾ على ﴿ٱلرِّيحُ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِ﴾ على المُسنَدِ إليهِ ﴿ٱلرِّيحُ﴾ في قولِهِ عزَّ من قائلٍ: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ لتعجيلِ المَساءةِ، بتقديمِ ذِكْرِ تعلُّقِ إهواءِ الرّيحِ بالسّاقطِ من السَّماءِ، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهذا الكافرِ ولأمثالِهِ من الكافرينَ؛ لأنَّه العنصرُ المُحدَّثُ عنه المَعنيّ بالتَّشبيهِ المُقابلِ للحنفاءِ للّهِ.

---

(1) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 439، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 534.

(2) اطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 312.

الرّيح والرّياح يردان في الخير والشَّرِّ جميعًا

بلاغةُ قراءتَي الإفراد والجمع:

قرأ الجمهورُ: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ بإفراد ﴿ٱلرِّيحُ﴾، وقرأه أبو جعفر بخُلْفٍ عنه بالجمع: ﴿ٱلرِّيَٰحُ﴾، وقراءةُ الجمع ألصقُ بقوله: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، حيث التَّعبيرُ بالجمع ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾، وقراءةُ الإفراد ألصقُ بقوله: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ حيث إفرادُ السَّماء، وهذا وجهٌ بليغٌ من وجوه تماسُكِ عناصر التَّشبيهِ وترابُطِها تُحقِّقُه القراءتانِ.

والريحُ المُفردُ هنا ينظرُ إلى الشِّرك، والجمعُ ينظرُ إلى أثر الشِّرك فيه المؤسَّسِ على تلاعُبِ الأهواء به، وتحكُّمها فيه من التَّشتُّت والتَّمزُّق والتَّقطُّع، والمُفردُ ينظر إلى قوَّة الشِّرك في إهلاكه وقوَّة سقوطه بالرّيح، كأنَّه دُفِع به مرَّةً واحدةً، والجمعُ يُنظر إلى إحاطةِ أهواء الشَّكِّ به وتمكّنها منه، واستغراقه فيها، وكلَّما أُمعِن النَّظرُ في سياق الشِّرك والمشركين وأحوالهما؛ استُخرِج مِنَ القراءتَيْن ما هو أجودُ وأفخم.

وملمح بلاغي آخر في توجيه قراءة الجمع والإفراد هو اختلاف الجهة، فوجه القراءة بالجمع هو إتيانها من كل جانب، وذلك معنى يدل على اختلاف هبوبها، فهي رياح لا ريح؛ لأن الريح الواحدة إنما تأتي من جانب واحد، فكان لفظ الجمع فيها أولى، لتصرّفها من جهات فيكون لفظها مطابقا لمعناها في الجمع، ووجه القراءة بالتوحيد أن الواحد يدلّ على الجمع؛ لأنه اسم للجنس، فهو أخفّ في الاستعمال، مع ثبات معنى الجمع فيه[1].

سرُّ اختيارِ لفظَي ﴿ٱلطَّيۡرُ﴾ و﴿ٱلرِّيحُ﴾:

مناسبةُ التَّشبيهِ حالَ المشرك في الخِفَّة وعدم الاستقرار

واختيارُ الطَّيرِ والرِّيح في التَّمثيل للمُشرك: ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ لمناسبة القصدِ إلى تصوير حَيْرتِهِ وتشتُّته وتوزُّع أفكارهِ، وما جرى في هذا الطَّريق من المعنى، فإنَّ الطَّير والرِّيح

(1) مكّي، الكشف: 1/ 271.

تكون بين السَّماءِ والأرض، وكلٌّ من الطَّير والرّيح مُتحرِّكٌ غير مُستقرٍّ ولا ثابتٍ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾:

في الظَّرفيَّة المكانيَّةِ بيانٌ لدخول الكافر واحتوائه له

يدلُّ حَرْفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّة، فيكون المكانُ السَّحيقُ ظرفًا لهلاكِ السّاقطِ من السَّماءِ الَّذي ألقَتْ بهِ الرّيحُ في ذلك المكانِ، وفي ذلك بيانٌ لدخول الكافرِ واحتوائه له.

نكتةُ تنكيرِ ﴿مَكَانٍ﴾:

في التَّنكير زيادةٌ في التَّشنيع أو التَّحقيرِ

تنكيرُ ﴿مَكَانٍ﴾ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ للإفرادِ، والقصدُ إلى فردٍ من أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالمكان، والمعنى: (أو تَهْوِي به الرّيحُ في مكانٍ من أمكنةِ الأرضِ سحيق)[1]؛ زيادةً في التَّشنيع بمصير المُشبَّه به، ويمكن أن يكون التَّنكيرُ هنا للتَّحقيرِ.

نكتةُ اختيارِ وصفِ ﴿سَحِيقٍ﴾:

المبالغةُ في بيانِ سوءِ حالِ السّاقطِ من السَّماءِ

اختيرَ وصفُ ﴿سَحِيقٍ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ دونَ غيرِه، فلم يَقُلْ مثلًا: (في مكانٍ بعيدٍ)؛ لِما يُفيدُهُ لفظُ ﴿سَحِيقٍ﴾ من غايةِ البُعدِ في السُّفولِ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في بيانِ سوءِ حالِ السّاقطِ من السَّماءِ؛ إذ تُلقيهِ الرّيحُ، وتَرْميهِ في مكانٍ شديدِ البُعدِ محفوفٍ بالعَطَبِ والهلاك، فيتقطَّعُ عند وصولِه إلى الأرضِ بقوَّةِ السَّقْطةِ وشدَّةِ الضَّغْطةِ؛ لبُعدِ المَحَلِّ الَّذي سقطَ منهُ[2]، فلا تُرجى لهُ نَجاةٌ ولا خَلاصٌ، ولا يوجَدُ أحدٌ يُنقِذُهُ ممّا هو فيه، تُضافُ إلى ذلكَ ملاحظةُ ما في مادَّةِ السَّحْقِ من التَّعبير عن إنهاكِ الشَّيءِ وتفتيتِه، فذلكَ يناسبُ غايةَ المناسبةِ سياقَ بيانِ عقوبةِ المُشرِكِ باللّٰهِ[3].

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 43.
(3) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 288.

بلاغةُ التَّشبيهِ في الآيةِ:

خيرُ التَّشبيهِ المُركَّب ما تقابلت أجزاؤهُ أو بعضها

يُحملُ التَّشبيهُ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ على كونِه من التَّشبيهِ المُركَّبِ والمُفرَّق.

فكَوْنُه من المُركَّب بأنْ يُقال: مَنْ أشرك باللّهِ؛ فقد أهلكَ نفسَهُ إهلاكًا، ليسَ بعدَهُ نهايةٌ بأنْ صورَ حالَهُ بصورةِ حالِ مَنْ سقط من السَّماءِ، فاختطفَتْهُ الطَّيرُ، فتفرَّقَ قِطَعًا في حواصلِها، أو عصفَتْ به الرّيحُ حتَّى هوَتْ بِهِ في بعضِ الأماكنِ البعيدة، والتَّشبيه المركَّب هنا مُتعدِّد، سواء جعلنا ﴿أَوۡ﴾ للتَّخيير، أم جعلناه للتَّنويع، فعلى الأوَّل: المُشبَّه به مُتعدِّدٌ، والمُشبَّه واحدٌ، وعلى الثّاني: المُشبَّه مُتعدِّدٌ، والمُشبَّه به مثله.

ومن التَّشبيه المُركَّب ما يمكنُ جعْلُ بعض أجزائه تشبيهاتٍ مُستقلَّةً، وهذا نتاج سخاء عناصر إبانة التَّشبيه في سياقه، ويُقال في بيان أجزاء التَّشبيهِ بأنَّ الإيمانَ شُبِّهَ في عُلوهِ بالسَّماءِ، وشُبِّهَ الَّذي تركَ الإيمانَ، وأشركَ باللّهِ بالسّاقطِ من السَّماءِ، وشُبِّهَتِ الأهواءُ الَّتي تتوزَّعُ أفكارَهُ بالطَّيرِ المُختطِفة، وشُبِّهَ الشَّيطانُ الَّذي يُطوِّحُ به في وادي الضَّلالةِ بالرّيحِ الَّتي تَهْوي بما عصفَتْ بِهِ في بعضِ المَهاوي المُتلِفةِ[1]، فلا تعانُدَ بين التَّركيبِ والتَّفريق.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّة:

(السُّقوطُ) و(الخَرُّ):

السُّـقـوطُ هو الوقوعُ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ والخَرُّ سُقوطٌ يُسمَعُ منهُ صوتٌ

السُّقوطُ: الوقوعُ من عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، أو طَرْحُ الشَّيءِ من مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ مُنخفِض، كسُقوطِ الإنسانِ من السَّطْحِ[2]، والخَرُّ: هو سُقوطٌ يُسمَعُ منهُ صوتٌ، والخريرُ يُقالُ لصوتِ الماءِ والرّيح وغيرِ ذلكَ ممّا يَسْقُطُ من عُلْوٍ، وقولُهُ تعالى: ﴿خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 155، والنّسفيّ، مدارك التزيل: 2/ 440.

(2) الرّاغب، المُفردات: (سقط)، وزيدان، الفروق اللّغويّة: 505 - 506.

رَبِّهِمۡ﴾ [السّجدة: 15]، استُعمِلَ فيهِ الخَرُّ تنبيهًا على اجتماعِ أمرَيْنِ: السُّقوط، وحصول الصَّوتِ منهُم بالتَّسبيحِ[1].

(البُعْدُ) و(السَّحْقُ):

كلاهما يُستعمَلُ في خلافِ القُرْبِ مع ملاحظةِ شدَّةٍ في السَّحْقِ

البُعْدُ: خلافُ القُرْبِ، ويأتي بمعنى الهلاكِ[2]، والسَّحْقُ يأتي بمعنى البُعْدِ، ويأتي بمعنى إنهاكِ الشَّيءِ حتَّى ينتهيَ إلى حالِ البِلَى[3]، فيشتركانِ في استعمالِهما في البُعْدِ مع ملاحظةِ أنَّ في السَّحْقِ شدَّةً في البُعْدِ[4].

(1) الرَّاغب، المُفردات: (خرر)، وزيدان، الفروق اللّغويّة: 505 - 506.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحق).
(4) زيدان، الفروق اللّغويّة: 288 - 292.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾ [الحج: 32 - 33]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تأكيدُ ما سبقَ مِنَ التَّوحيدِ والإخلاصِ

جاءتِ الآيتان مفتتحتَيْن بأداة الإشارة البعيدةِ لتأكيد ما تقدَّمَ من تعظيم أمرِ التَّوحيد، ولتعظيم ما هو مُسبَّبٌ عن التَّوحيدِ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾(1)، وتعظيمُ شعائرِ اللّه يُضفي تعظيمًا على التَّوحيدِ وتوابعِه، فهذهِ الآيةُ أعمُّ ممّا قبلَها، وتعود عليها بإضافات معنويَّة: فبتعظيم الشَّعائرِ تعْظُم منافعُها أيضًا، فيكون من المُتلَقّين إقبالٌ شديدٌ عليها، والمنافع حاملةٌ لذوي البصائر على التَّفكُّر فيها لا سيَّما مع تفاوتها، والتَّفكُّرُ فيها موصِّل إلى التَّقوى بمعرفة أنَّها من اللّه، وأنّه قادرٌ على ما يريد، وأنَّه لا شريك له(2)، فالآيةُ الثّانيةُ من هاتَيْن الآيتَيْن امتدادٌ للأولى وتفصيل لها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَعَٰٓئِرَ﴾: الشَّعَرُ معروفٌ، وجمعُهُ: أشعارٌ، ومنهُ استُعيرَ: شَعَرْتُ كذا، أيْ: علمتُ عِلْمًا في الدِّقَّة كإصابةِ الشَّعَرِ، وسُمّي الشّاعرُ شاعرًا لفِطْنتِهِ ودِقَّة معرفتِهِ(3)، وأشعرتُهُ، فشَعَرَ: أدريتُهُ فدَرَى(4)، ومشاعرُ الحجِّ: معالِمُهُ الظّاهرةُ للحواسِّ، والواحدُ: مَشْعَرٌ، ويُقالُ أيضًا: شعائرُ الحجِّ، والواحدُ: شَعيرةٌ، قالَ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة: 198]، وقالَ: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 223، والبقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 46.
(3) الراغب، المفردات: (شعر).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (شعر).

2]، أيْ: ما يُهْدَى إلى بيتِ اللّهِ، وسُمّيتْ بذلكَ؛ لأنّها تُشْعَرُ، أيْ: تُعلَّمُ بأنْ تُدْمَى بشعيرةٍ، أيْ: حديدةٍ[1]، والشّعائرُ أيضًا: كلُّ شيءٍ للّهِ تعالى فيهِ أمرٌ أُشعِرَ بهِ وأُعلِمَ[2].

2) ﴿مَحِلُّهَآ﴾: المعنى المحوريُّ للحاءِ واللّامِ: فَتْحُ الشّيءِ[3]، وفكُّ ما كانَ مربوطًا موثّقًا[4]، كحَلِّ العُقْدةِ، ومنهُ قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه: 27]، وحَلَلْتُ: نَزَلْتُ، أصلُه من حَلِّ الأحمالِ عندَ النُّزولِ، ثمَّ جُرِّدَ استعمالُهُ للنُّزولِ، فقيلَ: حلَّ حُلولًا، وأحلَّهُ غيرُهُ، قالَ: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28]، ويُقالُ: حَلَّ الدَّينُ: وجبَ أداؤُهُ، والمحلَّةُ: مكانُ النُّزولِ، وعن حَلِّ العُقْدةِ استُعيرَ قولُهم: حلَّ الشّيءُ حلالًا، قالَ ﷻ: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ [المائدة: 88]، ومن الحُلولِ: أحلَّتِ الشّاةُ: نزلَ اللَّبَنُ في ضَرْعِها، وقالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: 196][5]، والمَحِلُّ في قولِه تعالى: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ مصدرٌ ميميٌّ من حَلَّ يَحِلُّ؛ إذا بلغ المكانَ، واستقرَّ فيه، وهو كنايةٌ عن نهايةِ أمرِها، كما يُقالُ: بلغَ الغايةَ، ونهايةُ أمرِها: النَّحرُ أو الذَّبحُ[6].

3) ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾: العتيقُ: المُتقدِّمُ في الزَّمانِ أو المكانِ أو الرُّتبةِ، ولذلكَ قيلَ للقديمِ: عتيقٌ، وللكريمِ: عتيقٌ، وعِتاقُ الخيلِ والطَّيرِ: كرائمُها، ويُقالُ: فلانٌ عتيقُ الوجهِ، أيْ: جميلُه، ويُقالُ لِمَنْ خَلا عن الرِّقِّ: عتيقٌ، قالَ تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحجّ: 29] قيلَ: سُمّي البيتُ العتيقُ بذلكَ؛ لأنَّهُ مُعْتَقٌ من الجبّارينَ، لم يَقصِدْهُ جبّارٌ إلّا قُصِمَ، وقيلَ: لأنَّهُ مُعْتَقٌ من الطّوفانِ، وقيلَ: لأنَّهُ مُقدَّمٌ بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 96][7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ ﷻ عن تعظيمِ شعائرِه، فيقولُ: ومَنْ يُعظِّمْ شعائرَ اللّهِ الّتي هي نَعَمُ الهَدْيِ، فإنَّ تعظيمَها من تقوى قُلوبِكم - أيُّها المؤمنونَ - ثمَّ يُخبِرُ عمّا جعلَ في هذهِ الهدايا من المنافعِ،

(1) الرّاغب، المُفردات: (شعر).
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حلل).
(5) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (حلل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.
(7) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ، والزّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (عتق).

تعظيمُ الهَدْيِ مِن تقوى القُلوبِ

فيقولُ: لكم - أيُّها المؤمنونَ - فيها منافعُ مُتعدِّدةٌ مُتنوِّعةٌ من لَبَنِها وصوفِها وأوبارِها وأشعارِها ورُكوبِها تنتَفِعون بها إلى أن تَنْحَروها، ثمَّ مَحِلُّ الهَدْيِ وانتهاؤُهُ إلى البيتِ العتيقِ، وهو الكعبةُ المُشرَّفةُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾:

لفصل الخطابِ والتَّنبيهِ على أهمّيَّةِ ما سيُذكَرُ بعدَه

اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ فصلِ الخطابِ، وهو مُستعمَلٌ هنا للفصلِ بينَ كلامَينِ أو بينَ وجهَيْنِ من كلامٍ واحدٍ، والقصدُ منهُ التَّنبيهُ على الاهتمامِ بما سيُذكَرُ بعدَهُ، وهو مِنْ أساليبِ الاقتضابِ في الانتقالِ، والمشهورُ في هذا الاستعمالِ لفظُ (هذا)، كما في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ۝٥٥﴾ [ص: 55]، وهو كما يُقدِّمُ الكاتبُ جُملةً مِنْ كتابِهِ في بعضِ المعاني، فإذا أرادَ الخَوْضَ في معنًى آخرَ؛ قالَ: هذا وقد كانَ كذا وكذا[2].

إعرابُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾:

الرَّفْعُ على الخبريَّةِ الأظهرِ

الأظهرُ أنَّ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، أي: الأمرُ والشَّأنُ ذلكَ[3]، كما يُقدِّمُ الكاتبُ جملةً مِنْ كتابِهِ في بعضِ المعاني، ثمَّ إذا أرادَ الخَوْضَ في معنًى آخرَ؛ قالَ: هذا وقد كانَ كذا وكذا[4]، وقيلَ: هو مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ، أيْ: ذلكَ الأمرُ الَّذي ذكرتُهُ[5]، أو ذلكَ أمرُ اللهِ[6]، أو ذلكَ بيانٌ أو ذِكْرٌ[7]، وقيلَ: هو في مَحَلِّ نصبٍ، أيْ: امتَثِلوا ذلكَ[8].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 621 - 623، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 421.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 476، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 251.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 269.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154.
(5) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 269.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 251.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56.

تعظيمُ شأنِ المُشارِ إليه وتفخيمُه

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أوثِرَ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ اسمُ الإشارةِ للبعيدِ؛ للدَّلالةِ على بُعْدِ منزلةِ المُشارِ إليه؛ كنايةً عن تعظيم مضمونِ ما قبلَهُ[1]، أي: الأمرُ العظيمُ الكبيرُ ذلكَ، فمَنْ راعاهُ؛ فازَ، ومَنْ حادَ عنهُ؛ خابَ وخَسِرَ[2].

الرُّجوعُ إلى حديثِ المناسكِ بعدَ الانتقالِ إلى غيرِه

علَّةُ تكرارِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تكرَّرَ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: 30]، وقولِه هنا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، والنُّكتةُ في هذا التَّكرارِ: أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الموضعَيْنِ مِنْ فصلِ الخطابِ، بيانُه أنَّهُ لمّا ذَكَرَ تعالى نُبَذًا مِنْ مناسكِ الحجِّ - وكانَ حديثًا في بيانِ التَّوصيةِ في حُرُماتِ الحجِّ وتعظيمِ شعائرِ اللهِ - ناسبَ أنْ يذكرَ سائرَ المُحرَّماتِ استطرادًا؛ فقدَّمَ مِنْ أُمَّهاتِ الخبائث ما يستتبعُ سائرَها مِنَ الشِّركِ وقولِ الزّورِ، وجعلَ التَّخلُّصَ إلى ذكرِهما ما كانوا يُعظِّمونَهُ مِنَ القرابينِ تشبيهًا لها بالمعبودِ بالحقِّ، ولمّا أرادَ العَوْدَ إلى ما بدأ بهِ مِنْ حديثِ المناسكِ؛ أعادَ بفصلِ الخطابِ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[3]، وهذا التَّكرارُ من وجوه التَّأليف بين المعاني المختلفة الَّتي جَرَتْ في حيِّز اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الموضعَيْن، وهو من وجوه التَّماسك بين معانيها.

الواوُ للعطفِ على ما سبَقَ عمومُهُ اهتمامًا بالمعطوفِ الأخصِّ

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾:

قيلَ: الشَّعائرُ في قولِه سبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ لَقَبٌ لمناسكِ الحجِّ، وقيلَ: المُرادُ بها: نَعَمُ الهَدْيِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، فعلى التَّفسيرِ الأوَّلِ تكونُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 59.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 476.

جملةُ ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِرِها عطفًا على جملةِ ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 30] إلى آخِرِها، وشعائرُ اللّهِ أخصُّ مِنْ حُرُماتِ اللّهِ، فجاء عطفُ هذهِ الجملةِ للعِنايةِ بالشَّعائرِ؛ لأنَّ ذِكْرَ الأخصِّ بعدَ الأعمِّ للاهتمام.

وعلى التَّفسيرِ الثّاني للشَّعائرِ تكونُ جملةُ ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ عطفًا على جملةِ ﴿وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ [الحجّ: 28]؛ تخصيصًا لها بالذِّكْرِ بعدَ ذِكْرِ حُرُماتِ اللّهِ[1].

دلالةُ ﴿وَمَن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ﴾:

(مَـنْ) أسلوب شـرطٍ للحسم والفصل والتّرتُّب

﴿وَمَن﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ شرطيَّةٌ، والغرضُ مِنِ استعمالِ أسلوبِ الشَّرطِ في هذهِ الآيةِ الحثُّ على تعظيم الشَّعائرِ والتَّحريضُ عليه[2]، والرَّبطُ بينَ تعظيم الشَّعائرِ وتقوى القُلوبِ؛ إذ التَّقوى هي الغايةُ مِنْ مناسكِ الحجِّ وشعائرِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُعَظِّمۡ﴾:

تعظيمُ الشعائرِ غـرسٌ ينمـو ويكبر

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ تعظيمِ شعائرِ اللّهِ وتجدُّدِه، وأنَّ ذلكَ ينبغي أنْ يكونَ شأنَ المسلم على الدَّوامِ حتَّى يصيرَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهِ الرّاسخة، فأصلُ هذا التَّعظيمِ لشعائرِ اللّه ثابتٌ راسخٌ في نفسِ المؤمن، ثم إنَّه يتجدَّدُ بتجدُّدِ ما يدعو إليه، وما يتسبَّب فيه.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿شَعَٰٓئِرَ﴾:

الإشـارةُ إلى التَّعدُّدِ والتّنوُّعِ

يحتملُ أنْ يُرادَ بالشَّعائرِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 256.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 111.

﴿يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ مناسكُ الحجِّ كلُّها؛ فيكونُ التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ ظاهرًا لكثرةِ مناسكِ الحجِّ وتعدُّدِها، ويحتملُ أنْ يُرادَ بها نَعَمُ الهَدْيِ على وجهِ الخصوصِ، والتَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ باعتبارِ تنوُّعِها مِنْ حيثُ هي غَنَمٌ أو إبلٌ أو نحوُهما، ومِنْ حيثُ كونُها لقارنٍ أو مُتمتِّعٍ أو غيرِهما، والتَّعبير بجمعِ الكثرة هنا على ظاهره؛ إن روعيتْ أفراد نَعَم الهدي، وعلى غير ظاهره؛ إن روعيتْ أجناسها، ويكون للتَّعظيم.

بلاغةُ الإضافةِ إلى لفظِ الجلالةِ وسِرُّ اختيارِه:

تعظيمُ الشَّعائرِ وتشريفُها مِنَ التَّوحيد

إضافةُ الشَّعائرِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ لتشريفِ الشَّعائرِ وتعظيمِها[1] مِنْ حيثُ نِسْبَتُها إلى اللّهِ تعالى، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا تعليلٌ للتَّعظيم، كأنَّهُ قيلَ: ومَنْ يُعظِّم الشَّعائرَ؛ لأنَّها شعائرُ اللّهِ، فهي ليسَتْ واجبةَ التَّعظيم لذاتِها، بل لأنَّها للّهِ تعالى[2].

وعُبِّر باسم الجلالة دون الرَّبِّ ونحوه من الأسماء والصِّفاتِ؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ حديثُ ذمّ للشِّرك وأهله، وتبعًا لذلك حديث مدحٍ للتَّوحيدِ وأصحابِه، فتعظيمُ تلك الشَّعائرِ يصبُّ في التَّوحيد، ويُرسِّخه في النَّفس والعقل والقلب.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ

الفاءُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[3]، والرّابطُ بينَ الشَّرطِ وجوابِهِ هو العُمومُ في قولِه: ﴿ٱلۡقُلُوبِ﴾؛ فإنَّ مِنْ جملةِ القُلوبِ قُلوبَ الَّذينَ يُعظِّمونَ شعائرَ اللّهِ، والتَّقديرُ: (فقد

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 62.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4982.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4982.

حلَّتِ التَّقوى قلبَهُ بتعظيمِ الشَّعائرِ؛ لأنَّها مِنْ تقوى القُلوبِ) ، أيْ: لأنَّ تعظيمَها مِنْ تقوى القُلوبِ[1].

غرضُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ) في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا﴾:

تأكيدُ حصولِ التَّقوى للقُلوبِ

جيءَ بالتَّوكيدِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ لتأكيدِ حصولِ التَّقوى لقُلوبِ الَّذينَ يُعظِّمونَ شعائرَ اللّه، وللاهتمامِ بمضمونِ الكلامِ، فإنَّ التَّقوى شأنُها عظيمٌ، وحصولُها في قلبِ العبدِ مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ الجليلة، فإنَّ القُلوبَ هي مَحَلُّ نظرِ الحقِّ ﷻ إلى العبدِ.

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا﴾:

راجعٌ لمصدرِ الفعلِ أو لمضافٍ حُذِفَ للمبالغة

في مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ وجهانِ: **أحدُهما**: أنَّ الضَّميرَ للشَّعائرِ على حذفِ مضافٍ، والأصلُ: فإنَّ تعظيمَها مِنْ تقوى القُلوبِ، فحُذِفَ المضافُ لدلالةِ الكلامِ عليه، فرجعتِ الكنايةُ إلى الشَّعائرِ[2]، وفي هذا الحذفِ نكتةٌ لطيفةٌ؛ وهي أنَّ نفسَ الشَّعائرِ عُدَّتْ مِنَ التَّقوى للمبالغةِ في كونِ امتثالِها مِنَ التَّقوى[3]، **والثّاني**: أنَّ الضَّميرَ للمصدرِ المفهومِ مِنَ الفعلِ قبلَهُ، أيْ: فإنَّ التَّعظيمةَ مِنْ تقوى القُلوبِ[4]، والأوَّلُ هو الأعلى لتكثيرِ الفائدةِ المناسبةِ للسّياقِ عليه.

معنى ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾:

القلبُ مَنبَعُ الشُّعورِ بالتَّعظيمِ وتقوى القلوبِ سببٌ لِشِدَّةِ تعظيمِ الشَّعائرِ

تحتملُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أنْ تكونَ تبعيضيَّةً، أيْ: فإنَّها بعضُ تقوى القُلوبِ، وكونُ التَّعظيمِ مِنَ التَّقوى - معَ أنَّها تَوَقّي النَّفْسِ عنِ المُحرَّماتِ - باعتبارِ أنَّهُ يتضمَّنُ ترْكَ المُحرَّمِ المنهيِّ عنهُ[5]، وتحتملُ أنْ تكونَ لابتداءِ الغايةِ، أيْ: فإنَّ تعظيمَها ناشئٌ مِنْ تقوى القُلوبِ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.
(2) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 273، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 60.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 225، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 622، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 60.
(6) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 45، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 144.

وتحتملُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، أيْ: فإنَّ تعظيمَها لأجلِ تقوى القُلوبِ[1]، وهو وجهٌ بليغٌ يدلُّ على أنَّ تعظيمَ الشعائرِ لم يكن إلّا بِسَبَبِ مَضمونِ القلوبِ الَّتي هي منبَعُ الشُّعورِ بما يُعظَّم أو يُحقَّر، فكُلَّما ترقَّى القلبُ في مدارجِ التَّقوى؛ ازدادَ تعظيمُه لشعائرِ اللّٰه.

دلالة الإضافة في: ﴿تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾:

القلبُ هو مَحَلُّ التَّقوى ومَوطنُ نظرِ اللهِ إلى العبدِ ومكانُ تعظيمِ شعائرِه

أُضيفتِ التَّقوى إلى القُلوبِ في قولِ اللّٰهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾؛ لأنَّ حقيقةَ التَّقوى في القلبِ[2]، فإذا ثبتَتْ فيه، وتمكَّنَتْ؛ ظهرَ أثرُها في سائرِ الأعضاءِ[3]، ولأنَّ القلبَ هو مَحَلُّ نظرِ اللّٰهِ جلَّ ثناؤُهُ إلى العبدِ، ومَحَلُّ قياسِ تعظيمِهِ لشعائرِ اللّٰهِ[4].

سرُّ استعمالِ القُلوبِ دونَ الأفئدةِ:

القُلوبُ موضعُ العقلِ والعِلمِ والدّينِ

عُبِّرَ بالقُلوبِ دونَ الأفئدةِ في قولِ اللّٰهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾؛ لأنَّ الأفئدةَ مواضعُ العواطفِ والهوى، والقلوبَ مواضعُ العقلِ واليقينِ والوَحْيِ والدّينِ، وهي المناسبةُ للسّياقِ هنا؛ لأنَّهُ للحديثِ عن تعظيمِ شعائرِ اللّٰهِ سبحانَهُ وتعالى.

علَّةُ فصلِ الجملةِ:

الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ أو حالٌ بعدَ اعتراضٍ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يقلْ: (ولكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مُسمًّى) بالعطفِ؛ لِما بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّهُ قيلَ: ما الحكمةُ في أنَّ اللّٰهَ بالغَ في تعظيمِ ذَبْحِ الحيواناتِ هذهِ المبالغةَ؟ فأُجيبَ بقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾[5]، وقيلَ: الجملةُ حالٌ مِنَ الأنعامِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 144.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9810.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 224.

في قولِه: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [الحجّ: 30]، وما بينَهما اعتراضاتٌ، أو حالٌ مِنْ ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ على تفسيرِها بنَعَمِ الهَدْيِ(1).

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمۡ﴾:

اللّامُ لاختصاص المسلمينَ بالانتفاع إكرامًا لهم وتيسيرًا في شريعتِهم

اللّامُ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وضميرُ الخطابِ موجَّهٌ للمؤمنينَ، أيْ: لكُم - أيُّها المؤمنونَ - دونَ غيرِكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مُسمًّى(2)، وفي هذا الاختصاصِ والتَّمليكِ تكريمٌ للمؤمنينَ الحُجّاجِ المُعظِّمينَ لشعائرِ اللّهِ.

وهذه المنافعُ إمّا دنيويَّة؛ وهي الانتفاعُ بأسواقِ مكَّةَ والتِّجارةِ فيها وقتَ المناسك، وبركوبِ الهدايا والحَملِ عليها، وبشربِ ألبانها واستعمالِ أصوافها وأوبارها، إلى غيرِ ذلك من أوجُهِ الانتفاعِ العاجلِ، وإمّا منافعُ أُخْرَوية بالأجرِ والثَّوابِ في أداءِ المناسكِ إلى انقضاءِ وقتِ الحجِّ(3). فأمّا وجهُ اختصاصِ المخاطَبين بالمنافعِ الأخرَوية؛ فظاهر، وأمّا اختصاصُهم بالمنافعِ الدُّنْيَوية؛ فلإباحةِ انتفاعِ المسلمين بالهَدايا انتفاعًا لا يُتلِفها مع التَّعريضِ بالرَّدِّ على المشركينَ الَّذين حرَّموا على أنفُسِهمُ الانتفاعَ بالهدايا بعد تقليدِها وإشعارِها(4).

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿فِيهَا﴾:

شعائرُ اللهِ أُمَّهاتُ الخيرِ للطّائعين

يدلُّ حرفُ الجرِّ (في) الواردُ في قولِ الحقِّ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ على ظرفيَّةِ الشَّعائرِ للمنافعِ الَّتي تكونُ إلى أجلٍ مُسمًّى، وفي التَّعبيرِ بهِ تصويرٌ للشَّعائرِ بصورةِ الأصلِ والمَنْبَعِ الَّذي تكمُنُ فيهِ المنافعُ تصويرًا يتناغَى مع الحثِّ إلى تعظيمِها في الآيةِ السّابقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.
(3) البَغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 384.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.

وجَعلُ المنافعِ فيها يقتضي أنَّها انتفاعٌ بخصائصِها ممّا يُرادُ مِنْ نوعِها، ففيه تشريعٌ لإباحةِ الانتفاعِ بالهدايا انتفاعًا لا يُتلِفُها، مع الرَّدِّ على المشركينَ الَّذين كانوا إذا قلَّدوا الهَدْيَ، وأشعَروهُ؛ حَظَروا الانتفاعَ بِهِ مِنْ رُكوبِهِ والحَمْلِ عليهِ وشُرْبِ لَبَنِهِ وغيرِ ذلكَ[1].

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾:

الضَّميرُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عائدٌ على الشَّعائرِ بتفسيرِها بالبُدْنِ على الرّاجحِ[2]، أيْ: لكُم في البُدْنِ منافعُ من الرُّكوبِ والدَّرِّ والنَّسْلِ والصّوفِ وغيرِ ذلكَ[3]، وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ على الشَّعائرِ على العُمومِ[4]. :

الضَّميرُ عائدٌ على (البُدْنِ)

نكتةُ تأخيرِ المُسنَدِ إليهِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

قُدِّمَ شِبهُ الجملةِ المشتملُ على ضميرِ الخطابِ ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ للاهتمامِ بالمُقدَّم، وتعجيلِ مَسَرَّةِ المؤمنينَ حينَ يَطْرُقُ سَمْعَهم كونُ المنافعِ الَّتي في البُدْنِ لهُم؛ لأنَّ السّياقَ للامتنانِ عليهِم، وفي التَّقديمِ تقويةٌ للامتنانِ.

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ وتعجيلُ المَسَرَّةِ

وأمّا المشتملُ على ضميرِ الشَّعائرِ ﴿فِيهَا﴾؛ فتقديمُه على ﴿مَنَٰفِعُ﴾ لمناسبةِ السّياقِ بتعظيمِ الشَّعائرِ وزيادةِ الاهتمامِ بها، مع ما فيه من الإشعارِ بانحصارِ النَّفعِ والخيرِ في الهدايا أو في عمومِ المناسك، مبالغةً في الحثِّ على تعظيمِ الشَّعائرِ والإقبالِ عليها.

نكتةُ التَّعبيرِ بجمعِ الكثرةِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ جمعِ الكثرةِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ كلمتُهُ:

الإشارةُ إلى تعدُّدِ المنافعِ وتنوُّعِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 426، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 507، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 273، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 535.

﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ على تعدُّدِ منافعِ البُدْنِ وتنوُّعِها مِنْ دَرِّها ونَسْلِها وصوفِها وظَهْرِها ونحوِ ذلكَ[1]، وفي هذا الجمعِ مناسبةٌ لسياقِ الامتنانِ، وزيادةٌ لمَسَرَّةِ المؤمنينَ المخاطَبينَ.

غرضُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

الـدَّلالـةُ على انـتـهـاءِ مُـدَّةِ الانتفاعِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ الدّالِّ على انتهاءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، على أنَّ حلَّ الانتفاعِ بالهدايا مُؤقَّتٌ بوقتٍ معلومٍ ينتهي عندَهُ، وفي التَّعبيرِ بذلكَ تنبيهٌ للمسلمينَ لئلّا يتجاوزوا الحدَّ في انتفاعِهم بها، وقد اختُلِفَ في هذا الوقتِ المعلومِ هل هو وقتُ بَعْثِها هَدْيًا أو وقتُ نَحْرِها[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿أَجَلٖ﴾:

تنكيرُ ﴿أَجَلٖ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ وتبارَكَ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ للإفرادِ، والمعنى: (لكُم فيها - أيُّها المؤمنونَ - منافعُ إلى فردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالأجلِ).

سرُّ ذِكْرِ الوصفِ ﴿مُّسَمّٗى﴾:

مِـــنْ تـعـظـيـمِ الشَّعائرِ تأكيدُ تَوقيتِ الانتفاعِ

في وصفِ الأجلِ بكونِهِ مُسمًّى في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ تأكيدٌ لكونِ الانتفاعِ بالهدايا مُؤقَّتًا بغايةٍ معلومةٍ لا ينبغي للمسلمينَ تجاوزُها إلى ما بعدَها، فإنَّ اللّائقَ بالشَّيءِ المُعظَّمِ تفصيلُ الحديثِ عنه وكمالِه، وقد اختُلِفَ في هذا الأجلِ المُسمَّى؛ فقيلَ: هو وقتُ تقليدِها، وقيلَ: هو وقتُ نَحْرِها[3].

بلاغةُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

الـدَّلالـةُ على الــتَّـراخــي في الرُّتبةِ

﴿ثُمَّ﴾ في الأصلِ للتَّراخي في الوقتِ استُعيرَتْ في قولِ اللّهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ للتَّراخي في الأحوالِ، والمعنى: (لكُم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 224، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 624.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 624.

في الهدايا منافعُ كثيرةٌ في دُنياكم ودينكم)، وإنَّما يعتدُّ اللّهُ بالمنافعِ الدّينيَّة، قالَ سبحانَهُ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الأنفال: 67]، وأعظمُ هذهِ المنافعِ وأبعدُها شَوْطًا في النَّفعِ مَحِلُّها إلى البيتِ[1]، وفي ذلكَ بيانُ كونِ نفسِ النَّحْرِ منفعةً[2] مع الإبلاغِ في تعظيمِ منفعتِها.

دلالةُ الاسمِ المُشتَقِّ ﴿مَحِلُّهَآ﴾:

المَحِلُّ اسمُ زمانٍ أو مصدرٌ ميميٌّ

﴿مَحِلُّهَآ﴾ في قولِهِ علَتْ كلمتُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ اسمُ زمانٍ، أيْ: وقتُ وجوبِ نَحْرِها، وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا ميميًّا بمعنى الوجوبِ مِنْ حلَّ الدَّينُ؛ إذا وجبَ، أيْ: وجوبُ نَحْرِها[3]، وقيلَ: هو مصدرٌ ميميٌّ من حَلَّ يَحُلُّ؛ إذا بلغَ المكانَ، واستقرَّ فيهِ[4].

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿مَحِلُّهَآ﴾:

المَحِلُّ كنايةٌ عن نهايةِ أمرِ الهدايا

على القولِ بأنَّ المَحِلَّ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ مصدرٌ ميميٌّ مِنْ حَلَّ يَحُلُّ؛ إذا بلغَ المكانَ، واستقرَّ فيهِ، يكونُ قولُهُ: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ كنايةً عن نهايةِ أمرِ الهدايا، كما يُقالُ: بلغَ الغايةَ، ونهايةُ أمرِها النَّحْرُ أو الذَّبْحُ[5].

نكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ ﴿مَحِلُّهَآ﴾:

التَّقديمُ على الأصلِ للعِنايةِ بالمُقدَّمِ ولرِعايةِ الفاصلةِ

قُدِّمَ المُسنَدُ إليهِ ﴿مَحِلُّهَآ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ على الأصلِ في التَّرتيبِ، وللعِنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو وقتُ وجوبِ النَّحْرِ أو وجوبُ النَّحْرِ، ولَمّا كان المقصودُ تعظيمَ مَحِلِّها - بجعلِهِ نفسِهِ منفعةً - كانَ اللّائقُ به التَّقديمَ، فهو رأسُ معنى جملتِهِ؛ ولأنَّ في تأخيرِ قولِهِ: ﴿إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ مراعاةً لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها وما بعدَها مِنَ الفواصلِ.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 157، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 507.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 146.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 61.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.

وإنَّما بُحِث في هذا التَّقديم؛ لأنَّ الجملةَ الَّتي قبلَ هذه الجملةِ أُخِّر فيها ذِكْرُ المُسنَد إليه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾، فكان نَظْمُهُ في هذه غيرَ مُشاكلٍ لنَظْمِه في تلك، فبُحِثَ في عِلَّة نظمه على الأصل.

براعةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾:

الـدَّلالـةُ على انـتـهـاءِ غـايـةٍ مكانيَّةٍ

﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ لانتهاءِ الغايةِ؛ وهي هنا غايةٌ مكانيَّةٌ، أيْ: ثمَّ مَحِلُّها مُنتهيةً إلى البيتِ العتيقِ، والمُرادُ بهِ ما يليهِ بعلاقةِ المُجاوَرة، فإنَّها لا تنتهي إلى البيتِ نفسِهِ، وإنَّما تنتهي إلى ما يَقْرُبُ منهُ، وقد جُعِلَتْ مِنًى والمَرْوَةُ وطُرُقُ مكَّةَ مَناحِرَ[1]، ومِنْ براعةِ التَّلاؤمِ والتَّناسبِ في الآيةِ: أنَّهُ قد ذُكِرَت هنا غايةٌ مكانيَّةٌ، وقد تقدَّمَ ذِكْرُ غايةٍ زمانيَّةٍ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾.

نكتةُ ذِكْرِ البيتِ العتيقِ:

الـبـيـتُ أشـرفُ الـحَـرَمِ ومقصد الحجّاج

أمّا على القولِ بأنَّ الشَّعائر هي المناسك؛ فذِكْرُ البيت في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ على حقيقتِهِ، أيْ: محِلُّ النّاس من إحرامِهم إلى البيت العتيقِ، بأن يطوفوا به طوافَ الزّيادة يومَ النَّحر، وأمّا على القول بأنَّ الشَّعائرَ هي الهدايا؛ فإنَّ المُرادَ بالبيت في قوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾: الحرمُ، أيْ: مَنْحَرها في الحَرَم المحيط بالبيت العتيق[2]، وجوَّزَ إطلاقَ البيت على حرمه كلِّه أنَّ الحرمَ - الَّذي هو حريمُ البيت - في حُكمه، كقولِكَ: بلَغْنا البَلَدَ، وإنَّما شارفتُموهُ، واتَّصلَ مَسيرُكم بحُدوده[3].

واختُلِفَ في سببِ ذِكْرِ البيتِ العتيق دونَ الحَرَم، فقيل: ذُكِرَ البيتُ؛ لأنَّه أشرفُ الحَرَمِ[4]، وقيلَ: لأنَّ التَّقرُّبَ بالهدايا بواسطةِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 146.

(2) البَغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 385.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 157.

(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.

تعظيمِ الكعبةِ، إذِ الهدايا إنَّما شُرِعَتْ تكملةً لشرعِ الحجِّ، والحجُّ قصدُ البيتِ، كما دلَّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]، فالهدايا تابعةٌ للكعبةِ، قالَ تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]، وإن كانَتِ الكعبةُ لا يُنْحَرُ فيها، وإنَّما المَناحرُ مِنًى والمَرْوَةُ وطُرُقُ مكَّةَ بحسَبِ أنواعِ الهدايا[1]، ففي ذِكْرِ البيت تعظيمٌ للنَّحْر، كما عُظِّم بتعظيم محلِّها، وتكملةٌ للامتنان بمنافعِ الشَّعائر، فإن البيتَ ذو منافعَ لهم أيضًا.

نكتةُ وصفِ البيتِ بالعتيقِ:

العتيقُ وصفُ تشريفٍ وتعظيمٍ حاملٌ لعدَّةِ معانٍ

قيلَ في سببِ وصفِ البيتِ بالعتيقِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾: إنَّهُ سُمّي بذلكَ؛ لأنَّهُ قديمٌ إذْ هو أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للنّاسِ، وقيلَ: لأنَّهُ أُعتِقَ مِنَ الجبابرةِ، كم مِنْ جبّارٍ سارَ إليهِ ليَهْدِمَهُ فمنعَهُ اللّهُ؟ وقيلَ: لأنَّهُ لم يُمَلَّكْ قطُّ، وقيلَ: لأنَّهُ أُعتِقَ مِنَ الغَرَقِ زمنَ نوحٍ ﷺ، وقيلَ: لأنَّهُ بيتٌ كريمٌ مِنْ قولِهم: عِتاقُ الخيلِ والطَّيرِ[2]، وقيلَ: لأنَّ اللّهَ تعالى يُعتِقُ فيهِ رِقابَ المُذنِبينَ مِنَ العذابِ[3]، وكلُّ هذهِ الأوصافِ تقتضي التَّشريفَ والتَّعظيمَ، ولا يمتنعُ الجمعُ بينَها.

بلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ

زيادةُ رَبْطِ أجزاءِ الكلامِ وإشارةٌ إلى وحدَةِ مَقصَدِها

في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ردُّ للعَجُزِ على الصَّدْرِ باعتبارِ مبدأِ هذهِ الآياتِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: 26][4]، فقد افتُتِحَتِ الآياتُ بذِكْرِ البيتِ، واختُتِمَتْ بذِكْرِهِ، وفي ذلكَ تأكيدٌ لكونِ مَدارِ الحجِّ على قصدِ البيتِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 153.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 119.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفؤادُ والقلبُ:

الـفـؤادُ محلُّ الـتَّـوقُّـد والـعـواطـف والـقـلـب محلُّ القوَّة والعزم

قيلَ: الفؤادُ كالقلبِ، لكنْ يُقالُ لهُ: فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيهِ معنى التَّوقُّدِ، يُقالُ: فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ، ولَحْمٌ فَئِيدٌ: مَشْوِي، قالَ تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾ [الهمزة: 6 - 7]، وتخصيصُ الأفئدةِ تنبيهٌ على فَرْطِ تأثيرٍ لهُ[1]، وقيلَ: الفُؤادُ ألْيَنُ مِنَ القلبِ، ولذلكَ يكونُ مَحَلًّا للعواطف، ولِما خفَّ شأنُه، ويكونُ القلبُ مَحَلًّا لِما عَظُمَ شأْنُهُ من العَزْمِ والتَّمكُّنِ والاعتقادِ[2].

---

(1) الرَّاغب، المُفردات: (فأد).

(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 665 - 675.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾

[الحج: 34 - 35]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

التَّقرُّبُ إلى اللهِ بالذَّبحِ ليسَ خاصًّا بهذهِ الأمَّةِ

لمّا ذَكَرَ سبحانَهُ وتعالى أنَّ تعظيمَ الشَّعائرِ مِنْ أعظم دعائمِ التَّقوى وأنَّ مَحِلَّ نَحْرِها هو البيتُ العتيقُ؛ أتبعَ ذلكَ ببيانِ أنَّ الذَّبحَ وإراقةَ الدِّماءِ على وجهِ التَّقرُّبِ إليهِ تعالى ليسَ خاصًّا بهذهِ الأمَّةِ، بل لكلِّ أُمَّةٍ مناسكُ وذبائحُ تُذكِّرُ باللّهِ عندَ ذَبحِها والشُّكرِ لهُ على توفيقِهِ لإقامةِ هذهِ الشَّعائرِ، فالإلهُ واحدٌ، والتَّكاليفُ تختلفُ باختلافِ الأزمنةِ والأمكنةِ والمصالحِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَنسَكٗا﴾: (نسك) أصلٌ يدلُّ على عبادةٍ وتقرُّبٍ إلى اللّهِ تعالى[2]، والنّاسكُ: العابدُ، واختُصَّ بأعمالِ الحجِّ، والمناسكُ: مواقفُ النُّسُكِ وأعمالُها، والنَّسيكةُ: الذَّبيحةُ، قالَ تعالى: ﴿فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ﴾ [البقرة: 196][3]، والمنسَك على قراءة فتح السّين في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ مصدرُ النَّسْك، أي: المُتعبَّد والقربان، وعلى قراءة كسر السّين (المَنسِك) موضعُ النَّسْك ومكانه[4].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 58، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 112.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نسك).
(3) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نسك).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 24.

2) ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾: الأصل (خبت) يدلّ على انخفاض باتِّساع واستقرارٍ[1]، ومِنْ ذلكَ: الخَبْتُ، وهو المُطمئنُّ مِنَ الأرضِ[2]، ويُقالُ: أخبتَ الرَّجلُ؛ إذا قصدَ الخَبْتَ، أو نزلَهُ، نحو: أسهلَ وأنجدَ، ثمَّ استُعمِلَ الإخباتُ استعمالَ اللّينِ والتَّواضعِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 23][3]، وقالَ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾، أيِ: المتواضعينَ الخاشعينَ، وفي قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الحجّ: 54]، أيِ: فتلينَ لهُ قلوبُهم، وتخشعَ[4].

3) ﴿وَجِلَتۡ﴾: الوَجَلُ: الخوفُ[5]، وقيلَ: الخوفُ الشَّديدُ[6]، وقيلَ: استشعارُ الخوفِ، يُقالُ: وجِل يَوْجَلُ وجَلًا، فهو وجِلٌ، قالَ سبحانَهُ وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2][7]، أيِ: خافَتْ[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكْـرُ صفاتِ المُخبِتينَ

يُخبِرُ اللّهُ سبحانَهُ وتعالى عن سنَّةِ التَّقرُّبِ إليهِ بالذَّبحِ الَّتي أجْراها في الأُمَمِ المؤمنة، فيقولُ: ولكلِّ أمَّةٍ سالفةٍ مِنْ أهلِ الإيمانِ باللّهِ شَرَعْنا التَّقَرُّبَ بالذَّبحِ؛ ليذكُروا بذلكَ اسمَ اللّهِ على ما رزقَهم مِنْ بهيمةِ الأنعامِ الَّتي هي الغَنَمُ والبَقَرُ والإبلُ، فاجتَنِبوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ، واجتَنِبوا قولَ الزّورِ، فإلهُكم إلهٌ واحدٌ لا شريكَ لهُ، فإيّاهُ فاعبُدوا، ولهُ أخلِصوا، وانقادوا، وبشِّرْ - يا محمّد ﷺ - الخاضعينَ للّهِ بالطّاعةِ، المُذعِنينَ لهُ بالعُبوديَّةِ المتواضعينَ الَّذينَ تخشعُ قُلوبُهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خبت).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (خبت).
(3) الرَّاغب، المُفردات: (خبت)، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خبت).
(4) الرَّاغب، المُفردات: (خبت)، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خبت).
(5) الخليل، العين: (وجل)، والجوهريّ، الصِّحاح: (وجل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 261.
(7) الرَّاغب، المُفردات: (وجل).
(8) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وجل).

لِذِكْرِ اللّهِ، وتخضعُ من خشيتِهِ، والصّابرينَ على ما أصابَهم مِنْ شدَّةٍ في أمرِ اللّهِ، ونالَهم مِنْ مكروهٍ في جَنْبِهِ وعلى مصائبِ الدُّنيا، والمُقيمي الصَّلاةِ، وممّا رزَقْناهم مِنَ الأموالِ يُنفِقونَ في الواجبِ عليهِم إنفاقُها فيهِ، في زكاةٍ ونَفَقةِ عيالٍ، وفي سبيلِ اللّهِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قولِهِ ﴿وَلِكُلِّ﴾:

اختصاص هذه الأمّة بمَنْسكٍ ليس ببدْعٍ

قيلَ: إنَّ جملةَ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[2]، وقيلَ: الجملةُ عطفٌ على قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أو على قولِهِ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[3]، وقيلَ: عطفٌ على محذوفٍ جامعٍ للمعاني السّابقة؛ لأنَّهُ لمّا كانَ التَّقديرُ: (جعلَ لكُم سبحانَهُ هذهِ الأشياءَ مناسكَ)؛ عُطِفَ عليهِ قولُهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾[4].

معنى اللّامِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ﴾:

جعلَ لكلِّ أمةٍ مَنْسَكًا خاصًّا بها وجعلَهُ بمنزلةِ الشَّيءِ المملوكِ لها

اللّامُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وهي تُفيدُ أنَّهُ سبحانَهُ وتعالى قد جعلَ لكلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ السّابقةِ المُؤمِنةِ مَنْسَكًا، خصَّها بهِ، وجعلَهُ بمنزلةِ الشَّيءِ المملوكِ لها.

دلالةُ استعمالِ (كلٍّ) في قولِهِ: ﴿وَلِكُلِّ﴾:

الخارجُ عن مَنْسكِ هذه الأُمَّةِ خارجٌ عن سِلْكِ جميعِ الأممِ المؤمنةِ

يدلُّ لفظُ العُمومِ (كلٌّ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ على أنَّ المَنْسَكَ ليسَ خاصًّا بهذهِ الأُمَّةِ، بل هو مُشترَكٌ بينَ الأُمَمِ المؤمنةِ[5]، والمعنى: (شَرَعْنا لكلِّ أمَّةٍ من الأممِ السّالفةِ مِنْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 527.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) اطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 315.
(4) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 46.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121، والنّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 440، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 424.

عهدِ إبراهيمَ ﷺ إلى مَنْ بعدَهُ مَنْسَكًا)[1]، والكلامُ يُفيدُ الاقتداءَ ببقيَّةِ الأُمَمِ أهلِ الدِّينِ الحقِّ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾:

التَّقديمُ للتَّخصيصِ والاهتمام

تقديمُ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ على الفعلِ ﴿جَعَلْنَا﴾ في قولِهِ تبارك شأنُهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ للتَّخصيصِ، أيْ: لكلِّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ المؤمنةِ جعَلْنا مَنْسَكًا، لا لبعضِ الأُمَمِ دونَ بعضٍ[3]، ويُفيدُ التَّقديمُ أيضًا الاهتمامَ بكونِ جعلِ المَنْسَكِ لكلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ.

توجيهُ اختيارِ لفظِ ﴿أُمَّةٍ﴾:

الإشارةُ إلى معنى الاجتماعِ على مذهبٍ واحدٍ

الأُمَّةُ في الأصلِ: القومُ المجتمعونَ على مذهبٍ واحدٍ[4]، وليسَ المُرادُ بها في قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ العُمومَ، بل المرادُ بها مَنْ لهُم مِلَّةٌ وشَرْعٌ، وإنْ نُسِخَ دونَ المشركينَ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾[5]، والمعنى: (ولكلِّ جماعةٍ مؤمنةٍ قبلَكم جعَلْنا مَنْسَكًا)[6]، ففي التَّعبيرِ بلفظِ الأُمَّةِ هنا إشارةٌ إلى معنى الاجتماعِ على المُعتقَدِ الواحدِ، فهذا اللَّفظ هو الأشبهُ بسياقِ المَنْسك الَّذي يؤمُّهُم، ويجعلهم أُمَّةً يؤلِّفُ بينهم، وهذا ترغيبٌ لطيفٌ للمشركين في التَّوحيد بترغيبهم في اتِّخاذ هذا المَنْسك، واعتقاده، والعمل به، ولو عُبِّر بلفظٍ آخر من أسرته كالجماعة والقوم ونحوهما؛ لذهب رونقُ المعنى، وإن صحَّ المعنى العقليُّ على الجملة.

نكتةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ في ﴿جَعَلْنَا﴾:

تعظيمُ الجَعْلِ والتَّشنيعُ على المخالفينَ لِما شرعَهُ اللهُ

أُسنِدَ فعلُ الجَعْلِ إلى ضميرِ العظَمةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلِكُلِّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 225.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 58، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 535.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 311.
(6) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 440.

﴿أُمَّةٍ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾؛ لتعظيم شأنِ جَعْلِ المَنْسَكِ، أيْ: جعَلْنا بعظَمتِنا الَّتي لا يصحُّ أنْ تُخالَفَ[1] - وعظمتُه تعالى تظهر ضمن ما تظهر فيه في كون المَنْسك مِن شأنه تأليفُ قلوب العباد، وجمعهم على شيءٍ واحدٍ - وللرَّدِّ على المشركينَ المُخالفينَ باتِّخاذِ مناسكَ لم يَشْرَعْها اللّهُ تعالى؛ إذ المُرادُ أنَّ المسلمينَ لهم مَنْسَكٌ واحدٌ جعلَهُ اللّهُ تعالى، وهو البيتُ العتيقُ، وفي ذلكَ تقبيحٌ لفعلِ المشركينَ؛ إذ جعَلوا لأصنامِهم مناسكَ تُشابِهُ مناسكَ الحجِّ، وجعَلوا لها مواقيتَ ومَذابحَ مِثلَ الغبغبِ مَنْحَرِ العُزَّى، فذكَّرهم اللّهُ ﷻ بأنَّهُ ما جعلَ لكلِّ أمَّةٍ إلّا مَنْسَكًا واحدًا للقُرْبانِ إليهِ سبحانَهُ، فلا يَحِقُّ أنْ يُجعَلَ لغيرِ اللّهِ مَنْسَكٌ، فلا تتعدَّدُ المناسكُ.

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ تعالى: ﴿مَنسَكٗا﴾:

منسكُ كلِّ أمَّةٍ مؤمنةٍ واحدٌ لا يتعدَّد وحقُّه التَّعظيم لما يُجريه فيه

لمّا كانَ مِنْ مقاصدِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾ الرَّدُّ على المشركينَ الَّذينَ اتَّخذوا مناسكَ ما أنزلَ اللّهُ بها مِنْ سُلْطانٍ؛ دلَّ ذلكَ على أنَّ التَّنكيرَ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿مَنسَكٗا﴾ للإفرادِ، أيْ: ولكلِّ أمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المؤمنةِ جعَلْنا مَنْسَكًا واحدًا لا مُتعدِّدًا[2]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ المكانَ الَّذي يُتقرَّبُ فيهِ بالذَّبحِ للّهِ تعالى يكونُ عظيمًا بعظَمةِ ما يَجْري فيهِ مِنْ أفعالِ الذَّبحِ والذِّكرِ والتَّكبيرِ ونحوِ ذلكَ ممّا لا يكونُ لغيرِ الواحدِ الأحدِ جلَّ شأنُهُ، ثم لجمعه النّاس على مُعتقدٍ واحدٍ كان عظيمًا أيضًا، والإفرادُ والتَّعظيم لا يتعاندان.

توجيهُ القراءتَيْنِ في قولِهِ: ﴿مَنسَكٗا﴾:

مناسكُ الأمم تلتقي وتفترق

قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿مَنسِكٗا﴾ بكسرِ السِّينِ، وقرأ الباقونَ بفتحِها ﴿مَنسَكٗا﴾[3]، فقيلَ: هما بمعنًى واحدٍ، والمُرادُ: مكانُ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/ 326.

الذَّبح أو المصدرُ، وقيلَ: المكسورُ مكانٌ، والمفتوحُ مصدرٌ[1]، ولعلَّ الاختلافَ في حركة بناء السّين الَّتي هي عينُ الفعل: (نسك) يلفتُ إلى حصولِ التَّغايُرِ الشَّكليِّ بينَ ما لكلِّ أمَّةٍ مِن منسكٍ، وإن كان ذبحُ المناسك وإراقةُ الدِّماءِ على اسم اللّه سبحانه وتعالى شرعًا في كلِّ أمَّة وملَّة، فالحجة لمن فتح: أنه أتى بالكلمة على أصلها، وما أوجبه القياس لها؛ لأنّ وجه: (فعَل يفعُل) بضمّ العين أن يأتي المصدر منه والموضع (مفعَلًا) بالفتح كقولك: (مَدخَلا ومَخرَجا، ومَنسَكا)، وما كان مفتوح العين أتى المصدر منه بالفتح، والاسم بالكسر، كقولك: (ضربت مضرَبًا، وهذا مضربِي)، والحجة لمن كسر السين: أنّه أخذه من الموضع الَّذي تذبح فيه النسيكة، وهي: الشاة الموجَبة للّه[2].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها في قولِه: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ﴾:

التقرُّبُ إلى الله بذِكْرِ اسمه هو مقصدُ المناسكِ الأسمى

اللّامُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ للتَّعليلِ، والمعنى: (شرعَ اللّهُ لكلِّ أمَّةٍ أنْ يَذْبَحوا لوجهِهِ على وجهِ التَّقرُّبِ)، وجعلَ العِلَّةَ في ذلكَ أنْ يُذكَرَ اسمُهُ - تقدَّسَتْ أسماؤُهُ - على النَّسائكِ[3]، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ المقصودَ الأهمَّ مِنَ المناسكِ تذكُّرُ المعبودِ المُنعِمِ جلَّ وتباركَ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿لِّيَذۡكُرُواْ﴾:

الدَّلالةُ على تجدُّدِ الذِّكرِ واستمرارِهِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، ولم يُعبَّرْ بالمصدرِ مثلًا بأنْ يُقالَ: (لذكرِ اسم اللّه)؛ لِما تُفيدُهُ صيغةُ المضارعِ من التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فالمقصودُ أنْ يُذكَرَ اسمُ اللّهِ تعالى المُنعِمِ في كلِّ وقتٍ مِنْ أوقاتِ نَحرِ النَّسائكِ، ويعضد هذا التَّجدُّدَ والاستمرارَ

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 274، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.

(2) ابن خالويه، الحجة، ص: 253.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 157، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 225.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 71، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

أنَّهُ سبحانَهُ وتعالى جعلَ النَّحْرَ لوجهِهِ سنَّةً في كلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المؤمنةِ، فالتجدُّدُ هنا على مستوى كلِّ أمةٍ، وعلى مستوى كلِّ فردٍ، وعلى مستوى تجدُّد النَّحر من كلِّ فردٍ.

سرُّ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾:

تنبيهٌ على وجوبِ كونِ الذَّبحِ للتَّقرُّبِ للهِ تعالى وحدَهُ

في إضافةِ الاسمِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ تنبيهٌ على وجوبِ كونِ الذَّبحِ للتَّقرُّبِ للهِ تعالى وحدَهُ، والمعنى: (ليذكُروا اسمَ اللهِ المَلِكِ الأعلى وحدَهُ على ذبائحِهم وقرابينِهم؛ لأنَّهُ الرَّزّاقُ لهُم وحدَهُ)[1]، وعلى هذا الأساسِ حَرُمَ مِنَ الذَّبائحِ ما أُهِلَّ به لغيرِ اللهِ، وطُلِبَ ذِكْرُ اسمِ اللهِ على الذَّبائحِ، حتَّى جُعِلَ ذِكْرُ اسمِ اللهِ هو الغرضَ البارزَ، وكأنَّما تُذبَحُ الذَّبيحةُ بقصدِ ذِكْرِ اسمِ اللهِ.

وجهُ اختيارِ لفظِ الجلالةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الوحدانيَّةِ

اختيرَ لفظُ الجلالةِ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾، ولم يقلْ: (ليذكُروا اسمَ ربِّهم) معَ أنَّ سياقَ ذِكْرِ الرِّزقِ يقتضي ذلكَ؛ لأنَّ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ أنسبُ بالتَّنصيصِ على الوحدانيَّةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وبالردِّ على المشركينَ في ذبحِهم لآلهةٍ غيرِ اللهِ المعبودِ الحقِّ، وهم لا يُنكِرون ربوبيَّته؛ فالتَّأكيدُ على الأُلوهيَّةِ والوحدانيَّةِ للهِ ﷻ مِنَ المقاصدِ الرَّئيسةِ لسورةِ الحجِّ، ولذلكَ تكرَّرَ لفظُ الجلالةِ كثيرًا في هذهِ السّورةِ، وقد جرَتِ السُّنَّةُ بذِكْرِ لفظِ الجلالةِ عندَ الذَّبحِ بأنْ يُقالَ: باسمِ اللهِ، واللهُ أكبرُ، وفي ذلك تبيينٌ وتوضيحٌ عمليٌّ لما في كتابِ اللهِ من الأحكامِ. :

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها:

يحتملُ حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

خيريّةُ اسمِ الله تشتمل ما ذُكِر عليه من بهيمة الأنعام

﴿ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ أنْ يكونَ للاستعلاءِ المجازيِّ مُتعلِّقًا بـ ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾[1]، معَ تقديرِ مضافٍ بعدَ ﴿عَلَىٰ﴾، والتَّقديرُ: (على إهداءِ ما رزقَهم)، أيْ: نَحْرِها أو ذَبْحِها[2]، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى لامِ التَّعليلِ[3]، والمعنى: (ليذْكُرُوا اسمَ اللّهِ لأجلِ ما رزقَهم مِنْ بهيمةِ الأنعام)[4]، والوجهُ أنَّ ذِكْرَ اسم اللّه عند الهَدْيِ والنَّحر يجعلُ الخيرَ محيطًا بما رزقَهم من بهيمة الأنعام، كأنَّه مُستعلٍ عليه ومتمكِّن منه، وهذا ترغيبٌ في التَّوحيد، وبيانٌ لعظيم امتنان اللّهِ على عباده المؤمنين.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

بهيمةُ الأنعام وِعاءٌ لخيرات اسمِ الله

﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ موصولةٌ، والمعنى: (على الَّذي رزقَهم إيّاهُ)، و﴿مَا﴾ فيها مِنَ الإبهامِ؛ بيانُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾، وفي هذا الإبهام مع ضميمة المَدِّ في الألف بيانٌ سكون بركاتِ اسم اللّه وجريانها في بهيمة الأنعام، على ما يُفْهِمُهُ التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَىٰ﴾، فـ﴿مَا﴾ مؤسَّسة على ﴿عَلَىٰ﴾.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ الماضي ﴿رَزَقَهُم﴾:

الإحسان بالنِّعم والـلَّـفت إليها وجعل بعضها علَّةً لبعضٍ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ سلطانُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾، ولم يُعبَّرْ بصيغة المضارعِ الدّالِّ على استمرارِ الرِّزقِ، فلم يقلْ: (على ما يرزقُهم)؛ لأنَّ صيغةَ الماضي تدلُّ على تحقُّقِ الرِّزقِ وحصولِه، وأنَّ اللّهَ رزقَهم بهيمةَ الأنعام قبلَ أنْ يتقرَّبوا بذَبْحِها إليهِ سبحانَهُ، وذلكَ أنسبُ بسياقِ طلبِ ذِكْرِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى عندَ ذَبْحِها، ويتأكَّدُ هذا إنْ جُعِلَتْ ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى لامِ التَّعليلِ، ويعظم

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 259.

الامتنان، ويشتدُّ طلبُ ذِكْر اسمه تعالى عندئذٍ على جعل: ﴿عَلَىٰ﴾؛ للاستعلاء باللَّفت إلى أصل الامتنان برزقهم بهيمة الأنعام، وبامتداده والتَّرقّي فيه بجعل الخير الإلهيِّ الرَّبانيِّ الكثير في تلك البهيمة، فبينَ التَّعبير بالماضي و﴿عَلَىٰ﴾ من التَّعاضد والتَّناصر ما ترى.

معنى ﴿مِّنۢ﴾ ودلالتُها:

تشويقٌ لبهيمة الأنعام مُنطوٍ على تعظيمها وتفخيمها لِما أحاط بها البركة

﴿مِّنۢ﴾ في قولِه جلَّ وتباركَ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ بيانيَّةٌ لِما في اسمِ الموصولِ ﴿مَا﴾ مِنَ الإبهام، والمعنى: (ليذكُروا اسمَ اللّهِ على الَّذي رزقَهم إيّاهُ)، وهو بهيمةُ الأنعام، وفي بناء المعنى على الإبهام أوَّلًا، والبيان ثانيًا تشويقٌ لبهيمة الأنعام مُنطوٍ على تعظيمها وتفخيمها لِما أحاط بها، وداخلَها مِن بركات اسم اللّه ونفحاته سبحانه وبحمده وتناغيًا مع التَّذكير بالامتنان بها قبل طلب ذِكْر اسمه تعالى عليها.

فائدةُ إضافةِ ﴿بَهِيمَةِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾:

تبيينُ البهيمةِ بإضافتِها إلى الأنعامِ

إضافةُ البهيمةِ إلى الأنعام في قولِ الحقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ للبيانِ، والمعنى: (مِنْ بهيمةٍ هي الأنعامُ)[1]؛ لأنَّ البهيمةَ أعمُّ مِنَ الأنعام، وفي هذهِ الإضافةِ تنبيهٌ على أنَّ مِنَ البهائمِ ما ليسَ مِنَ الأنعامِ، كالخيلِ والبِغالِ والحميرِ[2]، والمُرادُ أنَّ القُرْبانَ يجبُ أنْ يكونَ نَعَمًا، ولا يجوزُ أنْ يكونَ مِنْ غيرِها[3].

معنى اللّامِ في ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾:

بيانٌ لجنسِ الأنعامِ من الغنَمِ والبقَرِ والإبلِ

لامُ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ للجنسِ، والمعنى: (ليذْكُروا اسمَ اللّهِ على ما رزقَهم مِنْ بهيمةٍ هي جنسُ الأنعامِ مِنَ الغَنَمِ والبَقَرِ والإبلِ).

---

(1) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 113.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 628.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71.

نوعُ الفاءِ ومعناها في قولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ﴾:

إفرادُ مَنسكِ كلِّ أُمَّةٍ دليلٌ على وحدانيَّة الله

الفاءُ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها، فإنَّ جعْلَهُ تعالى لكلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ مَنْسَكًا ممّا يدلُّ على وحدانيَّتِه تعالى[1]، ووجهُ ذلك: أنَّ الشّارعَ لجميعِ الشَّرائعِ الحقَّةِ واحدٌ[2]، ولو كانَتْ آلهةً كثيرةً؛ لكانَتْ لكلِّ أُمَّةٍ مناسكُ متعدِّدةٌ[3]، وقيلَ: الفاءُ للتَّعليلِ، وما بعدَها علَّةٌ لتخصيصِ اسمِ اللّهِ تعالى بالذِّكرِ[4]، وقيلَ الفاءُ هي الفاءُ الفصيحةُ، وهي تُفْصِحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، والمعنى: (إذا كانَ لكلِّ أُمَّةٍ مَنْسَكٌ، فاللّهُ الَّذي شرعَ المناسكَ واحدٌ، وكلُّها لعبادتِه والتَّقرُّبِ إليه)[5].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

وحدانيَّةُ اللهِ مقطوعٌ بها ثابتةٌ على الدَّوام

في التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه جلَّ شأْنُه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ دلالةٌ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، فإنَّ وحدانيَّةَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى أمرٌ قطعيٌّ ثابتٌ لا يقبلُ النَّقْضَ ولا التَّغييرَ، لا شريكَ لهُ سبحانَهُ على الدَّوامِ والاستمرارِ.

علَّةُ تركِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

براهينُ وحدانيَّةِ اللهِ تمنعُ تصوُّرَ إنكارِ المخاطَبِ لها وإنْ أنكَرَ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ دونَ تأكيدٍ مع أنَّ وحدانيَّةَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى ممّا ينازِعُ فيهِ المشركونَ؛ لأنَّ الظّاهرَ أنَّ الخطابَ للمؤمنينَ الموحِّدينَ، وإنْ جُعِلَ الخطابُ عامًّا، فترْكُ التَّأكيدِ باعتبارِ تغليبِ المؤمنينَ على غيرِهم[6]، ولتنزيلِ المشركينَ منزلةَ غيرِ المُنْكِرِ؛ لِما يُحيطُ بهم مِن الدَّلائلِ الَّتي مِن شأنِها أن تصرفَهم عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 535.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4984.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

نكتةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

سبحان مَن يُدْبِر عنه عبادُه ويُقْبِلُ هو عليهم!

في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ التفاتٌ بديعٌ، وهو الالتفاتُ مِنَ الغَيبةِ في الإخبارِ عنِ الأُمَمِ الماضية بقولِه سبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ﴾ إلى الخطابِ بما معناهُ: فالإلهُ واحدٌ لجميعِكم، والأمرُ كذلكَ في الذَّبيحةِ ينبغي أنْ تُخْلَصَ لهُ جلَّ وعزَّ(1)، والسِّرُّ في هذا الالتفاتِ أنَّ الخطابَ أصرحُ وأجدرُ بالقبولِ(2)، والعدولُ إلى الخطاب يُفْهِم أن مضمون الخطاب هو المقصود مِن الكلام، والمُراد وصولُهم إليه مِن مُقدِّماتٍ له، وفي الخطاب تقريبٌ لهم وتودُّدٌ إليهم؛ تمهيدًا لذِكْر: ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، فهو سبحانه يُحبُّ أن يكون هؤلاء العاصون منهم، وهذا ينزعُ، وينظرُ إلى اسم الرَّبِّ في مطلع السّور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الحج: 1].

بلاغةُ الجمعِ بينَ الموصوفِ والصِّفةِ ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

بيانُ أنَّهُ تعالى واحدٌ في ذاتِهِ وفي إلهيّتِهِ للكلِّ

في الجمعِ بينَ الموصوفِ والصِّفةِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ براعةٌ، وذلكَ أنَّهُ لمّا كانَ الإلهُ مَنْ يَحِقُّ له الإلهيَّةُ بما تقرَّرَ مِنْ أوصافِه، لا ما سُمّي إلهًا؛ قالَ: ﴿إِلَٰهٞ﴾، ووصفَهُ بقولِهِ: ﴿وَٰحِدٞ﴾، أيْ: وإن اختلفَتْ فُروعُ شرائعِهِ ونسخَ بعضُها بعضًا، ولو اقتصرَ على ﴿وَٰحِدٞ﴾؛ لربَّما قالَ مُتعنِّتٌ: إنَّ المُرادَ اقتصارُنا على واحدٍ ممّا نعبدُهُ(3)، وقيلَ: إنَّما قيلَ: ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، ولم يُقَلْ: (واحدٌ)؛ لِما أنَّ المُرادَ بيانُ أنَّهُ تعالى واحدٌ في ذاتِه، كما أنَّهُ واحدٌ في إلهيَّتِهِ للكلِّ(4)، وزيادةُ التَّفصيلِ بذِكْر الإله الموصوف زيادةٌ في التَّقرُّبِ منهم والإقبال عليهم.

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 508.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 47.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَلَهُۥٓ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها من الأمرِ بالإسلام على وحدانيَّتِه تعالى[1]، وقيلَ: هذا التَّفريعُ مُترتِّبٌ على التَّفريعِ السّابقِ في قولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾، وهو المقصودُ، فوقعَ في النَّظم تغييرٌ بتقديمٍ وتأخيرٍ، وأصلُ النَّظمِ: فلله أسلِموا؛ لأنَّ إلهَكم إلهٌ واحدٌ[2].

الفاءُ لترتيبِ ما بعدَها على مجموع ما قبلَها

ويجوز أن تكون الفاءُ لترتيب ما بعدها على مجموع ما قبلها مِن قولِه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وما ترتَّبَ عليه؛ لأنَّه ناظرٌ إلى مجموع ذلك كلِّه، والمعنى: "انقادوا بجميع ظواهركم وبواطنكم في كلِّ ما أمر به، أو نهى عنه؛ ناسخًا كان أو لا، وإن لم تفهموا معناه، كغالب مناسك الحجِّ"[3]، وهذا المأمورُ به هو بوّابة الإخبات المذكور في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾؛ ولهذا قرن القرآنُ بينهما في آيةٍ واحدةٍ، وتفصيلُ المُخبتين لم يُؤسَّس على الوحدانيَّة فقط، بل عليها وعلى توابعها، فيكون الأمرُ بالإسلام للّه مبنيًّا على اعتقاد الوحدانيَّة، وظاهرًا في توابعها.

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿فَلَهُۥٓ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ للتَّعدية، والمُرادُ بالإسلام الانقيادُ للّهِ تعالى في جميعِ تكاليفِه، ومِنْ جملةِ ذلكَ الإخلاصُ في الذِّكرِ عندَ الذَّبح[4].

نكتةُ تقديم ﴿فَلَهُۥٓ﴾ على ﴿أَسۡلِمُواْۗ﴾:

إفادةُ التَّقديم للحصرِ معَ التَّعريضِ بالمخالفين

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الأمرِ في قولِ الحقِّ جلَّ سلطانُهُ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ للقصرِ، أيْ: فإذا كانَ إلهُكم إلهًا واحدًا؛ فانقادوا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 152.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 225.

لهُ في جميعِ تكاليفِهِ لا لغيرِهِ، ومِنْ جملةِ ذلكَ إخلاصُكم في التَّقرُّب لهُ أو الذِّكر بأنْ تجعلوهُ لوجهِهِ خاصَّةً، ولا تَشوبوهُ بالشِّركِ[1]، وفي ذلكَ تعريضٌ بالرَّدِّ على المشركينَ الَّذينَ يتقرَّبونَ بذبائحِهِم لغيرِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ[2].

غرضُ الأمرِ ﴿أَسۡلِمُواْۗ﴾:

الأمرُ للوجوبِ يُفيدُ فَرْضيَّةَ الاستسلامِ والانقيادِ للّهِ تعالى

الأمرُ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾ للوجوب، وهو يُفيدُ فَرْضيَّةَ الاستسلامِ والانقيادِ للّهِ تعالى في جميعِ ما أمرَ بهِ، ونهى عنهُ، وفي جميعِ تكاليفِهِ، ووجوبَ الإخلاصِ ونَبْذِ الشِّركِ والأوثانِ، وذلكَ هو حقُّ اللّهِ على العبادِ الَّذي لا ينبغي التَّفريطُ بهِ، والقرينة على ذلك قولُه: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

إعرابُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

الإخباتُ معطوفٌ على الإسلامِ لشدَّةِ العلاقةِ

الظّاهر أنَّ قولَهُ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ؛ لبيان طرفَي حلقة النّاجين من هول السّاعة وزلزلتها، فطرفها الأوَّل إسلامُ الوجه للّه خاصَّة، وطرفُها الثّاني الإخباتُ المذكورُ؛ ولأنَّ الإسلامَ هو منشأ الطُّمأنينة والتَّواضع اللَّذيْن هما أنسبُ شيء لحالِ الحاجِّ المُتجرِّد من المَخيط، المكشوفِ الرأس، الطّالب لوضع أوزاره، وتخفيفِ آصاره لستر عواره[3]، وقيلَ: هو معطوفٌ على محذوفٍ، والتَّقديرُ: (أنذرِ المُشركينَ، وبشِّرِ المؤمنينَ)[4]، وبناءً على ذلكَ يكونُ في الآيةِ إيجازٌ بالحذفِ، وقيلَ: هو اعتراضٌ بينَ سَوْقِ المِنَنِ[5].

تعيينُ المُخاطَبِ في قولِهِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ إذ هو المأمورُ بتبليغِ الشَّرعِ

الخطابُ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ للنَّبيِّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 152.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 64.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.

ﷺ؛ إذ هو المأمورُ بتبليغ الشَّرعِ، انتَقلَ إليهِ مِنْ خطابِ الجماعةِ في قولِهِ عزَّ وتبارك: ﴿فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾[1]؛ لأنَّهُ ﷺ الرَّأسُ مِنَ المأمورين، الحائزُ لِما يُمكِنُ المخلوقينَ أنْ يَصِلوا إليهِ مِنْ رُتَبِ الكمالِ، وخِلالِ الجمالِ والجلالِ[2].

غرضُ الأمرِ ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

الأمرُ يُفيدُ وجوبَ إدخالِ الفرحِ والسُّرورِ على قلوبِ المُخبتين

الأمرُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ على ظاهرِه، وهو الوجوبُ، وبناءً عليهِ يجبُ على النَّبيِّ ﷺ أن يُبشِّرَ المؤمنينَ المُخبِتينَ؛ ليُدخِلَ الفرَحَ والسُّرورَ على قُلوبِهم.

بلاغةُ حذفِ المُبشَّرِ بِهِ في ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

الإطلاقُ ليذهبَ الذِّهنُ في تقديرِ البِشارةِ كلَّ مذهبٍ

في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ أمرٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّهِ ﷺ أنْ يُبشِّرَ المُخبِتينَ بشارةً مُطلَقةً، حيثُ لم يَقُلْ: (وبشِّرِ المُخبِتينَ بكذا)، وهذه البِشارةُ المُطلَقةُ أبلغُ من المُفسَّرةِ؛ لأنَّها مُرسَلَةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ، وتجعلُ الذِّهنَ يذهبُ كلَّ مذهبٍ مُمكِنٍ في تخيُّلِ ماهيَّتِها[3]، فهذا من الثواب غيرِ المُحدَّدِ ولا المُعيَّنِ في الذِّكْرِ الحكيم؛ كنايةً عن عِظَمِه وفخامته؛ لأنَّهم المُصطفَوْن المجاهدون في اللهِ حقَّ جهاده.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

الإخباتُ مُستعارٌ للتَّواضعِ أو كنايةٌ عنهُ

المُرادُ بالمُخبتينَ في قولِهِ عزَّ سلطانُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾: المتواضعونَ الَّذينَ لا تكبُّرَ عندَهم، وأصلُ المُخبِتِ مَنْ سَلَكَ الخَبْتَ، وهو المكانُ المُنخفِضُ، ثمَّ استُعيرَ للمتواضعِ، كأنَّهُ سَلَكَ نفسَهُ في الانخفاضِ، والمُرادُ بهم هنا المؤمنونَ؛ لأنَّ التَّواضعَ مِنْ شيمِهم، كما كانَ التَّكبُّرُ مِنْ سِماتِ المشركينَ، قالَ سبحانَهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 107، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 147.

(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.

(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.

﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾ [غافر: 35][1]، وقيلَ: لمّا كانَ الإخباتُ مِنْ لوازمِ التَّواضعِ؛ صحَّ أنْ يُجعَلَ كنايةً عنهُ[2].

حُسْنُ خَتْمِ الآيةِ بلفظِ ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾:

خَتْمُ الكلامِ بما يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى

في خَتْمِ الآيةِ بلفظِ ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ حُسْنُ ختامٍ، ويُسمَّى تشابهَ الأطرافِ، وهو أنْ يُختَمَ الكلامُ بما يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى، وهنا كذلكَ، فإنَّ الظّاهر هو الخَتْمُ بقولِهِ: (وبشِّرِ الحاجّينَ)، لكنْ بعدَ التأمُّلِ يظهرُ حُسْنُ ما ذُكِرَ؛ لأنَّ أفعالَ الحجِّ مِنْ نَزْعِ الثّيابِ، والتَّجرُّدِ عنِ المَخيطِ، وكَشْفِ الرَّأسِ، والتَّردُّدِ في تلكَ المواضعِ المُغبرَّة، والتَّلبُّسِ بأفعالٍ شاقَّةٍ، والاغترابِ عن الوَطَنِ والأحِبَّةِ؛ تدلُّ على التَّواضعِ المَحْضِ والانقيادِ المُفرطِ، وذلكَ معنى الإخباتِ[3].

نكتةُ وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَر:

لإظـهـارِ عـلَّـةِ البشارة لهؤلاء المخبتين

قولُهُ تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾ وضعٌ للظّاهرِ موضعَ ضميرِ الغائبِ الرّاجعِ إلى المخاطَبينَ بقولِهِ سبحانه: ﴿أَسۡلِمُواْۗ﴾؛ فمُقتضَى الظّاهر أنْ يُقالَ: (وبشِّرْهم)، أيْ: بشِّرْ - يا محمّد ﷺ - الَّذينَ أسلَموا، فعُبِّرَ بـ ﴿ٱلۡمُخۡبِتِينَ﴾؛ لأنَّ الإخباتَ صِفَتُهم المُستوجِبةُ للسَّعادةِ الأبديَّةِ الحقيقةِ بأنْ يُبشَّرَ بها[4]، وعليهِ يكونُ ذِكْرُ صفةِ الإخباتِ تعليلًا لاستيجابِ التَّبشيرِ، كأنَّهُ قيلَ: وبشِّرْهم؛ لأنَّهم مُخبِتونَ، وهذا مبنيٌّ على أنَّ اللّامَ في اسمِ الفاعلِ بمعنى اسمِ الموصولِ، أيْ: وبشِّرِ الَّذينَ أخبَتوا، واسمُ الموصولِ يومِئُ إلى علَّةِ الحُكْم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 260.

(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 113.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 508، والخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 64.

(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 64.

ويجوز ألّا يكون في الكلام عدولٌ، وأنَّ المُخبتين المُبَشَّرين غيرُهم، وأنَّ ذِكْر المُخبتين مِن بعد ذِكْر ضمير المخاطَبين في قوله: (فله أسلموا): ترغيبٌ في الرُّقي إلى مقام الإخبات، وهو مقام أعلى مِن مقام الإسلامِ له تعالى.

إعرابُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

مثلُ المُخبتينَ يتشوَّفُ إلى معرفة حالهم

يجوزُ أنْ يكونَ الموصولُ في قولِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ في موضعِ جرٍّ أو نصبٍ أو رفعٍ، والنَّصبُ على المدحِ، والرَّفعُ على إضمارِ (هم)، وهو مدحٌ أيضًا[1]، وعلى الأخيرِ تكونُ هذه الآيةُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ استئنافًا بيانيًّا، أيْ: في جوابِ مَن سأل: مَن هم المُخبتون؟ فقيل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ بحذف صدرِ الاستئنافِ؛ لأنَّ ذِكْرَ المُخبتين مِن بعد طلب إسلام الوجه للّه تعالى، وأمْرَ نبينا ﷺ بتبشيرهم، مِمّا يعني أنَّهم من الخواصِّ: يشوِّق المتلقي لمعرفتهم، ويُحرِّكُ نفسَهُ للسُّؤال عنهم مَن هم، ويُؤنس بذلك نَظْمُ الجوابِ في آية مستقلَّة.

نكتةُ استعمالِ ﴿إِذَا﴾:

ذِكْرُ الله من دأْبِ المُخبتين

تُستعمَلُ ﴿إِذَا﴾ في مقام الجزم بوقوعِ الشَّرطِ، ولذلكَ كانَ الحُكمُ الغالبُ مَوْقِعًا لها، وفي التَّعبير بها هنا إشارةٌ إلى أنَّ ذِكْرَ المُخبتينَ للّهِ تعالى ووَجَلَ قلوبِهم منهُ أمرٌ مقطوعٌ بِهِ، وفي هذا ملاءمةٌ لمقام مدحِ المُخبتينَ.

بلاغةُ بناءِ ﴿ذُكِرَ﴾ للمفعولِ:

الاهتمامُ بالذِّكرِ بصرفِ النَّظرِ عن الذّاكرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ للدَّلالة على الاهتمام بالذِّكرِ دونَ التفاتٍ إلى تعيينِ الذّاكرِ، فمَناطُ وجَلِ قُلوبِهم هو حصولُ ذِكْرِ اللّهِ، لا صُدورُ الذِّكرِ مِنْ ذاكرٍ مُعيَّنٍ.

---

(1) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 274.

مناسبةُ صيغةِ الماضي لمقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿ذُكِرَ﴾ ﴿وَجِلَتْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ بعد ﴿إِذَا﴾ الَّتي تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، وذلكَ لدلالةِ الماضي على الوقوعِ قطعًا؛ نظرًا إلى نفسِ اللَّفظِ، فيُفيدُ هنا أنَّ الذِّكْرَ والوَجَلَ مقطوعٌ بحصولِهما.

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ الوَجَلِ

نكتةُ ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ دونَ غيرِه:

ذُكِرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ ذِكْرٍ وَوَجَلِ قُلوبِ المُخبِتِينَ مِنَ اللّهِ تعالى، ولفظُ الجلالةِ أنسبُ؛ لِما يُفيدُهُ مِنَ الجلالِ والكمالِ، أي: الَّذينَ إذا ذُكِرَ الَّذي لهُ الجلالُ والجمالُ؛ وجِلَتْ قُلوبُهم[1].

الوَجَلُ هو الخوفُ الشَّديدُ

نكتةُ استعمالِ الوَجَلِ دونَ مرادفاتِهِ:

قيلَ: إنَّ الوَجَلَ هو الخوفُ الشَّديدُ[2]، ولذلكَ عُبِّرَ به دونَ الخوفِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لإفادةِ زيادةِ الهَيبةِ الَّتي تعتري قُلوبَ المُخبِتينَ عندَ ذِكْرِ اللّهِ تعالى، والمعنى: (الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللّهُ؛ خافَتْ قُلوبُهم خوفًا مُزعِجًا)[3]، وذلكَ لقوَّةِ يقينِهم ومراعاتِهم لربِّهم، وكأنَّهم بينَ يديهِ[4].

إسنادُ الوَجَلِ إلى القُلوبِ مجازٌ عقليٌّ

دلالةُ إسنادِ الوَجَلِ إلى القُلوبِ:

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللّهُ وجِلوا) بإسنادِ الوَجَلِ إلى جملةِ الشَّخصِ، لكنْ أُسنِدَ الوَجَلُ إلى القلبِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ على سبيلِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ القلبَ هو مَحَلُّ الوَجَلِ[5]، ومنهُ تَسْري آثارُهُ وعلاماتُهُ إلى سائرِ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 261.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 59.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 65.

الأعضاءِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الوَجَلَ الحقيقيَّ ما يَسْكُنُ القلبَ، لا ما يُظهِرُهُ صاحبُهُ على أعضائِه، فالإسناد يُفيد أنَّ الوجل ساكنٌ راسخٌ فيهم ينمو ويعلو، ويترقَّوْن به، وليس مَظْهرًا من مظاهرهم، وذلك أبلغُ في مدحهم، والكشف عن حقيقتهم للاهتداء بسَنَنِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الجمع وتأنيثِها ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾:

تعدُّدُ القُلوبِ بتعدُّدِ المُخبِتينَ وهي عظيمةٌ بما سكَنها من الوجل

عُبِّرَ عن القُلوبِ بصيغةِ جمع الكثرةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ لإفادةِ كثرةِ تعدُّدِ القُلوبِ بتعدُّدِ أصحابِها المُخبِتينَ المُتحدَّثِ عنهُم؛ إذ لكلِّ واحدٍ منهُم قلبٌ؛ فهؤلاء المخبتون كثيرون.

ولعلَّ إسنادَ الوجل إلى القلوب - مع ضميمة أنَّ المخبتين مُميَّزون؛ وشأنُ المُميَّز أن يُعامَلَ معاملةَ القليل؛ ولو كان كثيرًا جدًّا - يُرشد إلى أنَّ صيغةَ جمع الكثرة: (قلوب) تُفيد تعظيمَ قلوبِ المُخبتين لكونها وجِلَةً، وهذه القلوبُ كانت أرضًا خصبةً للوَجَل، وللوَجَل تأثيرٌ فيها عظيم؛ حيث رقَّت تلك القلوب، ولانَت، وخشَعَت بقوَّةٍ من خشية اللّه؛ بسبب ذِكْرِه سبحانه وتعالى، ويُصوِّر ذلك تأنيثُ القلوب بتأنيث فعلها المُسنَد إليها: ﴿وَجِلَتۡ﴾.

بلاغةُ ذِكْرِ الصَّبر والصَّلاة والإنفاق وترتيبِها:

حكايةُ أحوالِ المُخبتين

لمّا كانَ المقامُ لذِكْرِ الحجِّ، وكانَ ذلكَ مَظِنَّةً لكثرةِ الاختلاطِ الموجِبِ لكثرةِ الأنكادِ، ولا سيَّما وقد كانَ أكثرُ المُخالَطينَ مشركينَ؛ لأنَّ السّورةَ مكّيةٌ؛ قيلَ على سبيلِ العطفِ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾[1]، ويدخلُ في الصَّبرِ أيضًا الصَّبرُ على مَشاقِّ الحجِّ الَّتي لا تخلو عنها مناسكُهُ[2]، والصَّبرُ على سائرِ المَشاقِّ والتَّكاليفِ والنَّوائبِ الَّتي يتعرَّضُ لها العبدُ، وهذه النّوائب تكثُر، وتتنوَّع وتتعدَّد عند مِثلِ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296.

المُخبتين الَّذين كَمُلتِ الرِّقةُ والرَّأفة واللّين والرَّحمة - وما جرى في هذا الطّريق مِن المعنى - في قلوبهم على غيرهم من العباد، فلا يكون منهم إلّا الصَّبرُ مع كلِّ نازلةٍ، وعند كلِّ مصيبةٍ؛ حتى صاروا مِن الكاملين في الصَّبرِ الرّاسخين العريقين فيه.

ثم إنَّهم استعانوا على تحمُّلِ تلك المشاقِّ والصَّبرِ عليها بالصَّلاة، فقال: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، ثمَّ إنَّ الإنفاق من كمال لين القلوب ورقَّتها ورحمتها ورأفتها بالعباد، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، فرجع عجز الأوصاف إلى صدرها: ﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، فلم تكن النَّوائب حجابًا بينهم وبين الإنفاق على العباد، فهذه الصِّفة من تمام صفة الصَّبر أيضًا.

بلاغةُ الجمعِ بينَ ذِكْرِ اللهِ والوَجَلِ والصَّبرِ:

ملاءمةٌ للحاجِّ ومراعاةٌ للنَّظيرِ

ذكرُ الصَّبرِ والوَجَلِ وذِكْرِ اللّهِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ مُلائمٌ للحاجِّ، وفيهِ مراعاةُ النَّظيرِ، وهي جمعُ أمرٍ، وما يُناسبُهُ لا بالتَّضادِّ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالمشتقِّ دونَ الفعلِ (الصّابِرينَ، المُقيمينَ):

الكاملُ إخباتًا كـاملٌ صبرًا وصلاةً

عُبِّرَ بصيغةِ اسم الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾، ولم يقلْ: (وصبَروا وأقاموا الصَّلاةَ) بصيغةِ الفعلِ؛ لأنَّ صيغةَ اسم الفاعلِ تُفيدُ الدَّوامَ والثَّباتَ[2]، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى رُسوخِهم في الصَّبرِ، وأنَّهُ صارَ عادةً لهُم[3].

وكذلكَ الشَّأنُ بالنِّسبةِ لإقامةِ الصَّلاةِ، فإنَّ إقامتَها على الوجهِ المشروعِ والحفاظَ عليها دَيْدَنُ المؤمنِ، ومِنْ صفاتِ المُفلحينَ، ولا يُقيمُها على الوجهِ المشروعِ مع الشَّواغلِ إلّا الرّواسِخُ في حُبِّها، فهُم

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 65.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 65.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.

- بسببِ تمكُّنِ حُبِّها في قُلوبِهم والخوفِ مِنَ الغفلةِ عنها - كأنَّهم دائمًا في صلاةٍ[1].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

استــعــلاءُ صبرِهم على ما أصابَهم

يدلُّ استعمالُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاءِ المجازيِّ في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ على أنَّ صبرَ المُخبِتينَ مُستَعْلٍ على المَشَقّاتِ والمصائبِ الَّتي يتعرَّضونَ لها، ومُتمكِّنٌ منها تمكُّنَ المُستعلي مِنَ المُستعلَى عليه، وهي مقهورةٌ تحتَ سُلطانِه وقوَّتِه، فيَرْضَوْنَ بكلِّ ما يُصيبُهم، ولا تُزَعْزِعُهم المِحَنُ والنَّوائبُ.

معنى ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

تصويرُ فخامةِ ما أصابهم وكثرتِه

﴿مَآ﴾ في قولِه جلَّ وتبارَكَ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ موصولةٌ، والمعنى: (والصّابرينَ على الَّذي أصابَهم مِنَ الكُلَفِ والمصائبِ ونحوِ ذلكَ كائنًا ما كانَ)[2]، والإبهامُ في: ﴿مَآ﴾ مع ضميمة مدِّ الألفِ فيها يُصوِّرُ فخامةَ ما أصابهم وكثرته.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَصَابَهُمْ﴾ دونَ غيرِه:

كثرةُ استعمالِ المُصيبةِ فيما يَسوءُ الإنسانَ

اختيرَ الفعلُ ﴿أَصَابَهُمْ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ دونَ غيرِه كأنْ يُقالَ مثلًا: (والصّابرينَ على ما نابَهم)؛ لأنَّ في الإصابةِ إنباءً عن تمكُّنِ المُصيبةِ من المُصابِ وتأثيرِها فيهِ.

وقد كَثُرَ استعمالُ القرآنِ للمُصيبةِ فيما يتعرَّضُ لهُ الإنسانُ من الأحداثِ الَّتي تستوجبُ الصَّبرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة: 155 - 156]، وقولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فُصِّلت: 35]، وقولِه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التَّغابن: 11].

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 71، والبقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 48.

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَصَابَهُمۡ﴾:

الصَّبْرُ يكونُ بعدَ وقوعِ المُصيبةِ وتحقُّقِها

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ وتباركَ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾؛ لأنَّ الماضيَ يدلُّ على وقوعِ الحَدَث، والصَّبْرُ يكونُ بعدَ وقوعِ المُصيبةِ وتحقُّقِها؛ إضافةً إلى ما في التَّعبير بصيغةِ الماضي مِنَ التَّخفيفِ والتَّهوينِ؛ لأنَّها تدلُّ على أنَّ المُصيبةَ قد وقعَتْ، وانقضَتْ، ولو عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ؛ لأفادَتْ تجدُّدَ المصائبِ واستمرارَها، وفيه أيضًا معنى تحقُّق وقوعِ ما يُصيبهم لا محالة؛ لأنَّ ذلك مِن شأنِ الكُمَّلِ كالمُخبتين، كما في قوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: 17].

نكتةُ ذِكْرِ إقامةِ الصَّلاة:

السَّفرُ مَظِنَّةُ التَّقصيرِ في إقامةِ الصَّلاةِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ معناهُ: (والمُقيمي الصَّلاةِ في أوقاتِها)، وذِكْرُ إقامةِ الصَّلاةِ في سياقِ مدحِ المُخبِتينَ؛ لأنَّ السَّفرَ للحجِّ مَظِنَّةُ التَّقصيرِ فيها[1]، فأبانتِ الآيةُ أنَّ المُخبتينَ يُحافظونَ على الصَّلاةِ وإنْ حصلَ لهم من المَشاقِّ بأفعالِ الحجِّ وغيرِه ما عسى أنْ يحصلَ[2].

وفي عطفِ إقامةِ الصَّلاةِ على الصَّبْرِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاةَ ممّا يُعينُ على التَّخفيفِ مِن آلامِ المصائبِ، وقد تكرَّرَ هذا العطفُ في القرآنِ الكريم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 153].

تعليلُ تعريف (المُقيمين) وحذفِ نونِه:

للكمال في إقامة الصَّلاة ولِشِدَّة تعلُّقِهم بها

قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بُني على الإضافة، فوجبَ حذفُ نونِ المضافِ[3]، والمُضافُ والمُضافُ إليه كالكلمةِ الواحدةِ، ففي

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 297، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 148.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4985.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 508، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 487.

الإضافةِ معنًى لزومِهم الصلاةَ وعدمِ انفكاكِهم عنها في أغلبِ أوقاتِهم، وإذا كان من شأنهم أن يستعينوا بالصَّلاةِ في سياقِ الصَّبرِ على ما أصابَهُم، فكيف يكونُ حالُهم مع الصَّلاة في حالاتِ السَّراءِ؟ إنَّهم مُقبِلون عليها بكُلّياتهم في عظم أحوالهم وأوقاتهم حتّى كأنَّهم مُختصّون بها، وكأنَّها مُختصَّةٌ بهم، وذلك مُؤسَّسٌ على أحوالِهم الَّتي لفَت إليها السّياق مِن رُسوخِهم في الإخبات ووَجَلِ قلوبهم عند ذِكْر اللّه ممّا يتمثَّل جليًّا في إقامتهم للصَّلاة، والمناسبُ لذلك أيضًا أن تكون (أل) في قوله: ﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ للكمال بقرينة الإضافة، كما نرى هذا المعنى في ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: 2] من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2].

توجيهُ المتُشابه من سورة النِّساء:

الإضافةُ لشدَّةِ التَّرابط واستئنافُ النَّصبِ للمدح والتَّخصيص

وَرَدَ الوصفُ بإقامة الصَّلاة في آيةِ الحجِّ هذه ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ في تركيبٍ متشابهٍ، وذلك في قوله تعالى من سورة النِّساء: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النِّساء: 162].

وجاء في آية النِّساء على الأصل في التَّركيب من عملِ اسم الفاعل ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ﴾ [النساء: 162] عملَ الفعل في مفعوله ﴿ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النِّساء: 162]؛ لغيابِ داعي الإضافة الَّذي وُجد في سياق سورة الحجِّ، من المدح بشدَّة ارتباطهم بالصَّلاة، فالمَقامُ في سورة النِّساء مقامُ سَوقٍ لصنوف ظلمِ اليهود، وما ارتكبوه من أنواع المعاصي المُنكَرة، ثم استدراكٍ على ما قد يُتَوهَّم من تعميم هذا الوصفِ لجميعهم، فقال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ

﴿إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [النساء: 162]، ثمَّ جاء خلالَ هذا الاستدراكِ تخصيصُ الوصفِ بإقامة الصَّلاة لعلوِّ شأنها ورفيع مقامها، ولِكَوْنِها زاجرةً مانعةً من المعاصي الَّتي وقع فيها أغلبُ قومهم، والتي ذُكرت قريبًا في سياق ذمِّهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45]، فجاء الوصفُ بإقامة الصَّلاةِ على أصل التَّركيب دون إضافة؛ لصرف الاهتمام إلى أصلِ الفعل، جنسِ الصَّلاة الَّتي تنهى عن الفحشاء والمنكرِ مع استئناف النَّصبِ على المدح والتَّخصيصِ لتمييزها من بين سائرِ الأوصاف المذكورة.

وأمّا آيةُ الحجِّ؛ فقد جاء الوصفُ فيها مجرورًا على العطف، لعدم تمييزِ مناسبتِها للسّياق من بين المعطوفات، وجاء بالإضافة للتَّنبيه على قوَّةِ ارتباط الموصوفين بالصِّفة، وشدَّةِ حرصِهم على إقامة الصَّلاة.

نكتةُ ذِكْرِ الإنفاق ﴿يُنفِقُونَ﴾:

من أوصافِ المُخبِتين أنَّهم يُنفقونَ ممّا رزقَهم اللهُ في وجوهِ البِرِّ

لمّا كانَ ما يحصلُ في الحجِّ مِنْ زيادةِ النَّفقةِ وربَّما كانَ مُقعِدًا عنهُ؛ رُغِّبَ فيهِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[1]، وهذهِ لمناسبةِ سياقِ الحديثِ عن الحجِّ؛ أمّا على عموم لفظ الآية واستقلالها بالدَّلالة؛ فمن أوصاف المُخبِتين أنَّهم يُنفقونَ ممّا رزقَهم اللّهُ في سائرِ وجوهِ الخيرِ والبِرِّ.

معنى (مِنْ) ودلالتُها:

الإنفاقُ من بعضِ ما رزقَ اللهُ عبادَه

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ، وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ الشَّرعَ لا يطلبُ مِنَ المُنفِقِ أنْ يُنفِقَ مالَهُ كلَّهُ، وإنَّما يطلبُ منهُ إنفاقَ جزءٍ يسيرٍ منهُ، والمعنى: (وبعضَ الَّذي رزَقْناهم ينفقونَ)، وفيهِ إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49.

العبدَ المؤمنَ قد يَصِلُ إلى مرتبةِ الإخباتِ بإنفاقِ بعضِ مالِه، ولا يُشترطُ أنْ يُنفِقَ مالَهُ كلَّهُ ليصلَ إليها.

وقد تكونُ (مِن) ابتدائيَّةً؛ لاستحضارِ المُخبِتين على الدَّوام بأنَّ ما بأيديهم من الأموال رزقٌ وهِبةٌ من اللّه، وأنَّ اللّهَ يُخلِفُ ما أنفقوا منه، أو لتذكيرِ المخاطَبين بذلك؛ للحثِّ على الإنفاق، فقد يزيد الإنفاقُ على حدِّ التَّبعيض حتّى يبلُغَ رُتبَةَ إخراجِ المالِ كلِّه، كما ثبت عن أبي بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه[1].

أو تكون (من) باقيةً على التَّبعيض ولا اعتراض، باعتبار تنوُّعِ الأرزاق وكثرتِها، وأنَّ الإنفاقَ لا يكونُ أبدًا إلّا من بعضِها.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

تحقيقُ كونِ الرِّزقِ مِنَ اللهِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ آلاؤُهُ: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ على أنَّ المالَ الَّذي يُنفِقُهُ المُخبِتونَ في وجوهِ الخيرِ والبرِّ ممّا ثبتَ، وتحقَّقَ كونُ مصدرِهِ مِنَ اللّهِ تبارك وتعالى مالكِ المُلْكِ ذي الجلالِ والإكرام، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على مقابلةِ الإحسانِ بالإحسانِ.

نكتةُ الإسنادِ إلى نونِ العظَمةِ ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

تعظيمُ شأنِ الرِّزقِ ببيانِ كونِهِ صادرًا من الله تعالى

أُسنِدَ ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (وممّا رُزِقوا يُنفِقون)؛ لتعظيمِ شأنِ الرِّزقِ ببيانِ كونِهِ صادرًا من الكريمِ الوهّابِ سبحانَهُ وتعالى الَّذي جعلَهُ سببًا لاستقامةِ عيشِ النّاسِ، ولتقويةِ داعي الامتثالِ، والمعنى: (المُخبِتونَ لكونِ الرِّزقِ نِعمةً منّا، لا يبخلونَ به، ولأجلِ عظَمتِنا يُحسِنونَ الظَّنَّ بأنّا نُخْلِفُ عليهم ما يُنفِقونَ)[2].

نكتةُ تأخيرِ الفعلِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

قُدِّمَ قولُهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ على قولِهِ: ﴿يُنفِقُونَ﴾؛

(1) أبو داود، السُّنن، ص: 1678، والتِّرمذي، السّنن، ص: 3675.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49.

بيانُ أنَّ الإنفاقَ ممّا رزقَهم اللهُ وحدَهُ

لبيانِ أنَّ الإنفاقَ ممّا رزقَهم اللّهُ وحدَهُ، فليسَ مِنْ جهودِهم ولا أعمالِهم، ولكنْ مِنْ توفيقِ اللّهِ، ومِنْ رِزْقِهِ الَّذي رزقَهُ إيّاهم[1]، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في الحثِّ على الامتثالِ بتعجيلِ ذِكْرِ المُنفَقِ منهُ، ويُفيد التَّقديم والتَّأخير أيضًا أنَّ إنفاقَهم مُؤسَّسٌ على فقههم أنَّ الرّازق هو اللّه، وأنَّ الرِّزق نعمةٌ عظيمةٌ، فكيف يكون إنفاقهم كمًّا وكيفًا؟ يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تأخيرِ ﴿يُنفِقُونَ﴾ مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها وما بعدَها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

استمرارُ الإنفاقِ وتجدُّدُهُ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ الإنفاقِ وتجدُّدِهِ، أيْ: يُجدِّدونَ الإنفاقَ على الاستمرارِ؛ إحسانًا إلى خلقِ اللّهِ وامتثالًا لأمرِهِ، كالخَبْتِ الباذلِ لِما يودِعُهُ اللّهُ تعالى فيهِ مِنَ الماءِ والمَرْعَى[2]، أيْ: كُلَّما تجدَّد لهم وفرةُ مالٍ؛ أنفقوا، وهذه حالُ أهل أدنى مراتب الإخبات، وكلَّما تجدَّد لهم أصلُ مالٍ؛ أنفقوا، وهذه حالُ أهل أعلى مراتب الإخبات الَّذين يُجدِّدونَ الخروجَ مِن جميعِ مالهم.

بلاغةُ العُدولِ إلى الفعلِ ﴿يُنفِقُونَ﴾:

إفادةُ التَّجدُّدِ ومراعاةُ تلاؤمِ الفواصلِ

الظّاهر أنْ يُعَبَّرَ باسمِ الفاعلِ: (والمُنفِقينَ ممّا رزَقْناهم)؛ ليوافقَ ما سبقَ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ لإفادةِ التَّجدُّدِ - فإنَّ المالَ قد لا يتوافر لهم على الثُّبوت والاستمرار والدَّوام - ولمراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4986.

(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَجَل والخَوْف:

الـوَجَـلُ هـو الخَوْفُ الشَّديدُ أو استشعارُ الخَوْفِ

الخَوْفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[1]، والوَجَلُ: الخوفُ الشَّديدُ[2]، وقيلَ: هو استشعارُ الخوفِ، يُقالُ: وجِلَ يَوْجَلُ وجَلًا، فهو وجِلٌ[3].

الإخبات والخُضوع:

الإخباتُ صفةُ مدحٍ والخُضوعُ قد يكونُ مدحًا وذمًّا

الفرقُ بينَ الإخباتِ والخُضوعِ: أنَّ المُخبِتَ هو المُطمئِنُّ بالإيمانِ، وقيلَ: هو المجتهدُ بالعِبادةِ، وقيلَ: المُلازمُ للطّاعةِ والسُّكونِ، وهو للمدحِ، مِثلُ المؤمنِ والمتَّقي، وأمّا الخُضوعُ؛ فقد يكونُ مدحًا، وقد يكونُ ذمًّا، وأصلُ الإخباتِ أنْ يصيرَ إلى خَبْتٍ، يُقالُ: أخبَتَ؛ إذا صارَ إلى خَبْتٍ، وهو الأرضُ المستويةُ الواسعةُ، فالإخباتُ بحسَبِ الاشتقاقِ هو الخُضوعُ المُستمِرُّ على استواءٍ[4].

---

(1) الرَّاغب، المُفردات: (خوف).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 261.

(3) الرَّاغب، المُفردات: (وجل).

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 25.

﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تخصيصُ الإبلِ بالذِّكرِ بعدَ التَّعميمِ بذِكْرِ الأنعامِ

لمّا حثَّ سبحانَهُ على التَّقرُّبِ بالأنعامِ كلِّها، وبيَّنَ أنَّ ذلكَ مِنْ تقوى القُلوبِ، وكانتِ الإبلُ أعظمَها خَلْقًا وأكثرَها نفعًا وأنفَسَها قيمةً؛ خصَّها بالذِّكرِ في سياقٍ تكونُ فيهِ مذكورةً مرَّتَيْنِ، أو أنَّهُ خصَّها؛ لأنَّهُ خصَّ العربَ بها دونَ الأُمَمِ الماضيةِ، فقالَ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، الآيةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾: الأصل (بدن) معناه شَخْصُ الشَّيءِ دونَ أطرافِهِ[2]، والبَدَنُ: الجَسَدُ، لكنَّ البَدَنَ يُقالُ باعتبارِ عِظَمِ الجُثَّةِ، والجَسَدَ يُقالُ باعتبارِ اللَّونِ، ومنهُ قيلَ: ثوبٌ مُجسَّدٌ، وقيلَ: امرأةٌ بادِنٌ وبَدينٌ: عظيمةُ البَدَنِ، والبُدْنَةُ: واحدةُ البُدْنِ، وهي الإبلُ السِّمانُ الَّتي تُهْدَى للبيتِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾[3].

2) ﴿صَوَآفَّۖ﴾: للجذر (صفّ) أصلٌ واحدٌ؛ وهو استواءٌ في الشَّيءِ وتساوٍ بينَ شيئَيْنِ في المَقَرِّ[4]، ومِنْ ذلكَ: الصَّفُّ، يُقالُ: وقَفا صفًّا؛ إذا وقفَ كلُّ واحدٍ إلى جَنْبِ صاحبِهِ، واصطفَّ القومُ، وتصافُّوا[5]،

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 49، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 114.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بدن).
(3) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (بدن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صفف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (صفف).

وصَفَفْتُ كذا: جعلتَهُ على صفٍّ، قالَ سبحانَهُ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطّور: 20]، وصَفَفْتُ اللَّحْمَ: قَدَّدْتَهُ، وألقيتَهُ صفًّا صفًّا، والصَّفيفُ: اللَّحْمُ المصفوفُ، والصَّفْصَفُ: المُستوي من الأرضِ، كأنَّهُ على صفٍّ واحدٍ، قالَ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: 106 - 107]، قالَ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾، أيْ: مُصطفَّةً[1].

3) ﴿وَجَبَتۡ﴾: المعنى المحوريُّ للأصلِ (وجب) معناه سُقوطُ الشَّيءِ ووقوعُهُ[2]، قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾، أيْ: سقطَتْ، يُقالُ: وجبَ الحائطُ، أيْ: سقطَ ووقعَ، ومنهُ: وجبَتِ الشَّمسُ، أيْ: غابَتْ، وحقيقتُهُ: سقطَ قُرْصُها، والوجوبُ أيضًا الثُّبوتُ والاستقرارُ، ويُعبَّرُ به عن الموتِ، فيُقالُ: وجبَ فلانٌ، أيْ: ماتَ، تُخُيِّلَ فيهِ السُّقوطُ والثُّبوتُ، ووجَّبَتْ بهِ الأرضُ توجيبًا: أسقطَتْهُ عليها[3].

4) ﴿جُنُوبُهَا﴾: أصلُ الجَنْبِ: الجارحةُ، وجمعُهُ: جُنوبٌ، قالَ سبحانَهُ: ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: 191]، ثمَّ يُستعارُ مِنَ النّاحيةِ الَّتي تَليها، كاستعارةِ سائرِ الجوارحِ لذلكَ، نحوُ اليمينِ والشِّمالِ لجهتِهما وناحيتِهما[4]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النّساء: 36]، الجَنْبُ: الجارحةُ المعروفةُ، وعُبِّرَ بذلكَ عن ملازمتِهِ لهُ وقُرْبِهِ منهُ؛ لأنَّ الصّاحبَ غالبًا يُلصِقُ جَنْبَهُ إلى جَنْبِ الآخرِ في المُماشاةِ والمحادثةِ والمصاحبةِ وغيرِ ذلكَ[5]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾، أيْ: سَقطَ جَنبُها، ووقعَ على الأرضِ بعد أن كانَتْ قائمةً، وهو كنايةٌ عن حصولِ الموتِ بالنَّحرِ.

5) ﴿ٱلۡقَانِعَ﴾: (قنع) أصلانِ صحيحانِ، أحدُهما: يدلُّ على الإقبالِ على الشَّيءِ، والآخرُ: يدلُّ على استدارةٍ في الشَّيءِ، فمِنَ الثّاني: قِناعُ المرأةِ؛ لأنَّها تُديرُهُ برأسِها، ومِنَ الأوَّلِ: الإقناعُ، وهو مدُّ اليدِ عندَ الدُّعاءِ، وسُمّي بذلكَ عندَ إقبالِهِ على الجهةِ الَّتي يمدُّ يدَهُ إليها، والإقناعُ أيضًا: إمالةُ الإناءِ للماءِ المُنحَدِرِ، وقنَعَ الرَّجلُ يقنعُ قُنوعًا؛ إذا

---

(1) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (صفف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وجب).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وجب).
(4) الرّاغب، المُفردات: (جنب).
(5) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (جنب).

سأل، و﴿ٱلۡقَانِعَ﴾ في الآية الكريمة: السّائلُ، وقيلَ: السّائلُ الَّذي لا يُلِحُّ في السُّؤالِ.

6) ﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾: المعترُّ هو المُتعرِّضُ للسُّؤالِ، يُقالُ: عَرَّ واعترَّ، أيْ: تعرَّضَ، وقيلَ: هو الَّذي يتعرَّضُ، ولا يسألُ، والعَرُّ والعُرُّ: الجَرَبُ الَّذي يعرُّ البَدَنَ، أيْ: يعترضُهُ، ومنهُ قيلَ للمَضَرَّةِ: مَعَرَّةٌ، تشبيهًا بالعرِّ الَّذي هو الجَرَبُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ [الفتح: 25][1].

7) ﴿سَخَّرۡنَٰهَا﴾: المعنى المحوريُّ لـ(سخر) الاحتقارُ والاستذلالُ[2]، وانقيادُ الشَّيءِ بيُسْرٍ معَ عدمِ مقاومةٍ[3]، ومِنْ ذلكَ قولُنا: سخَّرَ اللّٰهُ الشَّيءَ، وذلكَ إذا ذلَّلَهُ لأمرِهِ وإرادتِهِ[4]، قالَ تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33]، وقالَ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: 13]؛ وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

المَعنى الإجماليُّ:

وجوبُ شُكْرِ المُنعِمِ على نِعَمِهِ

يُخبِرُ اللّٰهُ سبحانَهُ وتعالى عن نِعْمةٍ جليلةٍ مِنْ نِعَمِهِ على عِبادِهِ المؤمنينَ - وهي إبلُ الهَدْيِ - فيقولُ: والإبلَ العظامَ الأجسامِ الضِّخامَ، جعَلْناها لكم مِنْ أعلامِ أمرِ اللّٰهِ الَّذي أمرَكم بهِ في مناسكِ الحجِّ؛ إذا قلَّدْتُموها، وأشعَرْتُموها، لكم فيها خيرٌ، وذلكَ الخيرُ هو الأجرُ في الآخرةِ بنَحْرِها والصَّدقةِ بها، وفي الدُّنيا بالرُّكوبِ - إذا احتيجَ إلى ذلك - والأكلِ منها ونحوِ ذلكَ؛ فاذكُروا اسمَ اللّٰهِ على البُدْنِ عندَ نَحْرِكم إيّاها صوافَّ، فإذا سقطَتْ، ووقعَتْ جُنوبُها إلى الأرضِ

(1) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (عرر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سخر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سخر).

بعدَ النَّحْرِ؛ فقد حلَّ لكُم الأكلُ منها، وأَطْعِموا منها السّائلَ وغيرَ السّائلِ، هكذا سخَّرْنا البُدْنَ لكم؛ لِتَشْكُروني على تسخيرِها لكُم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾:

الجملةُ معطوفةٌ على ما سبقَ

الواو في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ للعطفِ على جملةِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا﴾، أيْ: جعَلْنا مَنْسَكًا للقُرْبانِ والهدايا، وجعَلْنا البُدْنَ - الَّتي تُهْدَى، ويُتقرَّبُ بها - شعائرَ مِنْ شعائرِ اللّهِ جلَّ وتعالى[2]، فكلٌّ مِن المَنْسَكِ والبُدْنِ يُذكَر عليه اسمُ اللّه، وفي هذه الآية قولُه: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، وفي المعطوف عليها: ﴿فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ﴾، واختصاصُه بالإسلام له من شكره، بل هو أعظمُ شكره.

سرُّ التَّعبيرِ بالبُدْنِ دونَ الإبلِ:

الإشــارةُ إلى صفةِ السِّمَنِ في الإبلِ

المُرادُ بالبُدْنِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ الإبلُ، وإنَّما سُمِّيتْ بذلكَ لسِمَنِها وعِظَمِ بَدَنِها[3]، وفي التَّعبيرِ بها هنا دونَ الإبلِ إشارةٌ إلى هذهِ الصِّفةِ الَّتي بها استحقَّتْ أنْ تُفرَدَ بالذِّكرِ دونَ باقي نَعَمِ الهَدْيِ؛ لعظيمِ ما فيها مِنَ المنافعِ والأجرِ والثَّوابِ، فالتَّعبيرُ بها أبلَغُ في الامتنانِ الَّذي ينبغي أن يُؤدّيَ إلى الشُّكرِ.

نكتةُ تقديمِ ﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾ على عاملِهِ:

الاهتمامُ بالبُدْنِ تنويهٌ بشأنِها

لفظُ ﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ منصوبٌ على الاشتغالِ، أيْ: وجعَلْنا البُدْنَ[4]، وتقديمُهُ البُدْنِ على عاملِها للاهتمامِ بها؛ والتنويه بشأنِها[5]، والمقامُ مقامُ تمييزٍ لها عن غيرِها مِنَ الهدايا.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 630.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 262.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 428، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 157.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 509.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 262.

نكتةُ التَّعبيرِ بالجَعْلِ ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾:

مناسبةُ لفظِ الجَعْلِ لسياقِ الامتنانِ

المُرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللّهَ شرعَ وأمرَ بقُرْبانِ البُدْنِ في الحجِّ مِنْ عهدِ إبراهيمَ ﷺ، وجعلَها جزاءً عمّا يُترخَّصُ فيهِ مِنْ أعمالِ الحجِّ، وأمرَ بالتَّطوُّعِ بها، فوعدَ عليها بالثَّوابِ الجزيلِ، فنالَتْ بذلكَ الجَعْلِ الإلهيِّ يُمْنًا وبَرَكةً وحُرْمةً ألحقَتْها بشعائرِ اللّهِ، والسّياقُ للامتنانِ بذلكَ على المُخاطَبينَ[1].

دلالةُ إسنادِ ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ شَرْعِ البُدْنِ

أُسنِدَ فعلُ الجَعْلِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى نونِ العظَمةِ لتعظيمِ شأنِ جَعْلِ البُدْنِ مِنْ شعائرِ اللّهِ، ببيانِ أنَّ الَّذي جعلَها كذلكَ هو ذو الجلالِ والعظَمةِ سبحانَهُ وتعالى، والمعنى: (والبُدْنَ جعَلْناها بعظَمتِنا مِنْ شعائرِ اللّهِ)، وتشريعُ العظيمِ عظيمٌ، وزيدَ في التَّذكيرِ بالعظَمةِ بذِكْرِ لفظِ الجلالةِ في قولِهِ جلَّ وتبارَكَ: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾[2].

دلالةُ قولِه: ﴿لَكُم﴾ ونكتةُ تقديمِه:

الامتنانُ على المُخاطَبينَ

جيءَ بالجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُم﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ وتبارَكَ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ للامتنانِ على المُخاطَبينَ، والمعنى: (والبُدْنَ جعَلْناها مِنْ شعائرِ اللّهِ لأجلِكم)[3]، كما تقولُ لزيدٍ مِنَ النّاسِ: فعلتُ هذا لكَ، فأنتَ بذلكَ تمتَنُّ عليهِ بما فعلتَ، كأنَّكَ تقولُ: فعلتُ هذا لأجلِكَ لا لأجلِ غيرِكَ، ولولاكَ؛ ما كانَ هذا الفعلُ، فأنتَ سببُهُ، وفي تقديمه على ما بعدَه تودُّدٌ مِن اللّهِ إليهم، وتقريبٌ لهم، وإقبالٌ عليهم؛ لأنَّه ذَكَر نفسه بصفة الإحسان والإنعام في مطلع السّورة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 262.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 262.

معنى ﴿مِّن﴾ في: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾:

البُدْنُ بعضُ شعائرِ اللهِ سبحانه وتعالى

حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى ذِكْرُهُ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ للتَّبعيضِ، وهو يُفيدُ أنَّ البُدْنَ بعضُ شعائرِ اللّهِ جلَّ وعزَّ[1]، وقولُهُ: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ﴾ في موضعِ المفعولِ الثّاني للجَعْلِ بمعنى التَّصيير[2]، والمعنى: (والبُدْنَ جعَلْناها لكُم بعضَ شعائرِ اللّه)، ولم يجئِ التَّعبيرُ على نحو: (والبدن جعلناها لكم شعيرةً) لفوات ذِكْر اسم الجلالة، ولم يقل: (والبدن جعلناها لكم شعيرةً من شعائر اللّه)؛ للإطناب بتكرار الشَّعيرة، فما عليه التَّنزيل الكريم أوجزُ وأدلُّ وأنسبُ بسياق الامتنان، فهو يُفيد عُلوَّ هذه الشَّعيرة وعِظَمَها في سياق الشَّعائر.

سرُّ إضافةِ الشَّعائرِ إلى لفظِ الجلالةِ:

تشريفُ الشَّعائرِ وتعظيمُها

معنى كونِ البُدْنِ مِنْ شعائرِ اللّهِ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللّهَ جعلَها معالمَ تُؤذِنُ بالحجِّ، وجعلَ لها حُرْمةً[3]، وإضافةُ الشَّعائرِ إلى لفظِ الجلالةِ تشريفٌ لها وتعظيمٌ يبعثانِ في النُّفوسِ إجلالَها ورِعايةَ حُرْمتِها، كقولِهم: بيتُ اللّهِ[4].

براعةُ الالتفاتِ إلى الغيبة:

إقامةُ شعائر الله علامةُ كمال التَّوحيد

الظّاهر أنْ يُقالَ: (والبُدْنَ جعَلْناها لكُم مِنْ شعائرِنا)، لكنِ التُفِتَ مِنَ التَّكلُّمِ في قولِه سبحانَهُ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾[5] للتوصُّلِ بذِكْرِ لفظِ الجلالةِ إلى زيادةِ تعظيمِ شأنِ الشَّعائرِ، أيْ: مِنْ أعلامِ دينِ المَلِكِ الأعظمِ، ومَناسكِهِ الَّتي شرعَها لكم، وشرعَ فيها الإشعارَ، وهو أنْ يُطعَنَ بحديدةٍ في

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 61، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 67.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 509، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 276.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 263.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 158، والنّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 441، وزاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 115.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 67.

سَنامِها؛ تمييزًا لِما يكونُ منها هَدْيًا عن غيرِه[1]، وفيه أنَّ هذه الشَّعيرةَ علامةٌ على توحيدِ العبدِ وإيمانه، وقربه مِن اللّه وتألُّهه.

إعرابُ جملةِ ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾:

الجملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبلَهُ

قولُ الحقِّ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾ - أيْ: منافعُ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ - جملةٌ مستأنفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبلَها[2]، فهي بعضُ نتاجِ ما قبلَها، ولهذا غابت الواو.

وقيلَ: الجملةُ حالٌ إمّا مِنْ ضميرِ المفعولِ في ﴿جَعَلۡنَٰهَا﴾[3]، والضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ على البُدْنِ، أو حالٌ مِنْ ﴿شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، والضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ على الشَّعائرِ[4].

توجيهُ تكرارِ ﴿لَكُمۡ﴾:

تأكيدُ الامتنانِ والمَسَرَّةِ في قلوبِ المؤمنين

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (والبُدْنَ جعَلْناها لكُم مِنْ شعائرِ اللّهِ فيها خيرٌ)؛ لكنْ كُرِّرَ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾؛ لأنَّ السّياقَ للامتنانِ على المؤمنينَ وإدخالِ المَسَرَّةِ في قلوبِهم، وفي التَّكريرِ تأكيدٌ لذلكَ.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾:

تعجيلُ المَسَرَّةِ في قلوبِ المُخاطَبين

تقديمُ الخبرِ ﴿لَكُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿خَيۡرٞۖ﴾ في قولِ الحقِّ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾؛ ليتأتّى كونُ المبتدأ نكرةً ليفيدَ تنوينُهُ التَّعظيمَ[5]، ولتعجيلِ إدخالِ المَسَرَّةِ في قلوبِ المخاطَبينَ ببيانِ أنَّ الخيرَ لهُم لا لغيرِهم.

معنى (في) من قولِه: ﴿فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾:

البُدْنُ منبعٌ للخيرِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ

يدلُّ استعمالُ حرفِ الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى ذِكرُهُ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾ على أنَّ البُدْنَ ظرفٌ للخيرِ الدُّنيويِّ

---

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 50.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 107.
(3) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 115.
(4) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 276.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 263.

والأُخرويِّ تشتملُ عليهِ اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، وفي التَّعبير بهِ زيادةُ تأكيدٍ لسياقِ الامتنانِ، فاللّهُ تعالى ذِكْرُهُ يمتنُّ على عِبادهِ المؤمنينَ بما هو بمنزلةِ المَنْبَعِ والمَعْدِنِ للخيرِ، وكأنَّ البُدْنَ تَفيضُ بالخيرِ، ومثله قولُه تعالى من الآيةِ السّابقة: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾.

بلاغةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾:

الاهتمامُ بما تجمعُهُ البُدْنُ وتحتوي عليهِ مِنَ الفوائدِ

تقديمُ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿خَيۡرٞ﴾ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾؛ للاهتمام بما تجمعُهُ البُدْنُ، وتحتوي عليهِ مِنَ الفوائدِ والمنافعِ[1]، وفي ذلكَ زيادةُ امتنانٍ على المخاطَبينَ، كما تقدَّمَ.

غرضُ تنكيرِ ﴿خَيۡرٞ﴾:

تفخيمُ شأنِ ما في البُدْنِ مِنَ المنافعِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ

تنكيرُ ﴿خَيۡرٞ﴾ في قولِ اللّهِ عزَّ وتباركَ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞ﴾ للتَّعظيمِ، وهو يُفيدُ تفخيمَ شأنِ ما في البُدْنِ مِنَ المنافعِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، أمّا الدُّنيويَّةُ؛ فهي ما يحصلُ مِن انتفاعِ الفقراءِ بلُحومِها وجُلودِها وجِلالِها ونِعالِها وقلائدِها، وما يحصلُ للمُهْدِينَ وأهلِهم مِنَ الشِّبَعِ مِنْ لحمِها يومَ النَّحرِ، وأمّا الأُخرويَّةُ؛ فهي ما يحصلُ مِنْ ثوابِ المُهْدِينَ، وثوابِ الشُّكرِ مِنَ المُعْطِينَ لُحومَها لربِّهم الَّذي أغناهُم بها[2].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ﴾:

الشّاكِرُ يُقابِلُ النِّعَمَ بالذِّكْرِ للمُنعِم

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ للسَّببيَّةِ[3]، وهي تفيدُ تسبُّبَ ذِكرِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ عندَ نَحرِ البُدْنِ عمّا سبقَ ذِكرُهُ مِنَ المنافعِ الدّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ الَّتي فيها[4]: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ على العبدِ أنْ يقابلَ النِّعَمَ بالذِّكرِ للمُنعِمِ سبحانَهُ وتعالى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 263.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 263.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 67.

(4) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 263.

غرضُ الأمرِ في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُواْ﴾:

الأمرُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ للوجوبِ، وهو يُفيدُ وجوبَ ذِكْرِ المُنعِمِ سبحانَهُ وتعالى عندَ نَحْرِ البُدْنِ[1].

سرُّ الإضافة في ﴿ٱسۡمَ ٱللَّهِ﴾:

تـنـبـيـهٌ على وجـوبِ كـونِ الـذَّبْحِ للتَّقرُّبِ للهِ تعالى وحدَهُ

في إضافةِ الاسمِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ تنبيهٌ على وجوبِ كونِ الذَّبْحِ للتَّقرُّبِ للهِ تعالى وحدَهُ، والمعنى: (فاذكُروا اسمَ اللهِ وحدَهُ على البُدْنِ عندَ ذَبْحِها؛ لأنَّهُ الَّذي جعلَها لكُم مِنْ شعائرِه، وجعلَ لكُم فيها الخيرَ والمنافعَ).

وجهُ اختيارِ لفظِ الجلالةِ دونَ الرُّبوبيَّةِ:

ذِكْرُ لفظِ الجلالةِ عندَ الذَّبْحِ

اختيرَ لفظُ الجلالةِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾، ولم يقلْ: (فاذكُروا اسمَ ربِّكم عليها صوافَّ) معَ أنَّ سياقَ الامتنانِ بالبُدْنِ الَّتي هي مِنْ آثارِ نِعَمِ الرُّبوبيَّةِ يقتضي ذلكَ؛ لأنَّ السُّنَّةَ جرَتْ بذِكْرِ لفظِ الجلالةِ عندَ الذَّبحِ، بأنْ يُقالَ: اللّهُ أكبرُ، لا إلهَ إلّا اللّهُ، واللّهُ أكبرُ، اللهمَّ منكَ وإليكَ[2]، ولأنَّ الذَّبْحَ من جملة الأُلوهيَّة، لا يكونُ لغيرِ الإلهِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى، فناسبَ ذِكْرُ المُختصِّ بهِ في هذا المقامِ، مع ما فيه من التَّعريض بصنيع الَّذين صرَفوا الذَّبحَ للّاتِ والعُزَّى وغيرِها من الأصنامِ.

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿عَلَيۡهَا﴾:

في الآيـةِ حـذفٌ غرضُهُ الإيجازُ

في قولِه تبارك شأنُهُ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ حذْفٌ غرضه الإيجاز، والتَّقديرُ: (فاذكُروا اسمَ اللّهِ على نَحْرِها)، وذلكَ بأنْ يُقالَ عندَ النَّحْرِ أو الذَّبْحِ: باسمِ اللّهِ، واللّهُ أكبرُ، اللهمَّ منكَ وإليكَ[3].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 67.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 158.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 226.

بيانُ إعراب ﴿صَوَآفَّۖ﴾:

حالٌ غرضه ذِكْرُ محاسِنَ مِنْ مَشاهدِ البُدْنِ

﴿صَوَآفَّۖ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ منصوبٌ على الحالِ مِنَ الضَّميرِ المجرورِ في قولِه: ﴿عَلَيۡهَا﴾[1]، والمعنى: (قد صفَّتْ قوائمَها)، والإبلُ تُنْحَرُ قيامًا معقولةً[2]، وفائدةُ هذهِ الحالِ ذِكْرُ محاسِنَ مِنْ مَشاهدِ البُدْنِ، فإنَّ إيقافَ النّاسِ بُدْنَهم للنَّحْرِ مُجتمعةً ومُنتظِمةً غيرَ مُتفرِّقة ممّا يزيدُ هيئتَها جلالًا، وقريبٌ مِنْ ذلكَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصّف: 4][3].

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿صَوَآفَّۖ﴾:

قيامُ الإبلِ يستلزمُ أنْ تُصفَّ أيديها وأرجلها

في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ كنايةٌ بديعةٌ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿صَوَآفَّۖ﴾ كنايةٌ عن كونِها قائماتٍ؛ لأنَّ قيامَ الإبلِ يستلزمُ أن تُصفَّ أيديها وأرجلها[4].

نوعُ فاءِ ﴿فَإِذَا﴾ ومعناها:

جاءت الفاءُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ للعطفِ، وهي تُفيدُ عطفَ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها.

معنى (إذا) ودلالتُها:

تعليقُ الأكلِ مِنَ البُدْنِ على سُقوطِ جُنوبِها بعدَ النَّحْرِ

حرفُ (إذا) في قولِ اللهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ للشَّرطِ، وهو يُفيدُ تعليقَ حصولِ الأكلِ مِنَ البُدْنِ على حصولِ سُقوطِ جُنوبِها إلى الأرضِ بعدَ النَّحْرِ، والقصدُ مِنْ هذا التَّوقيتِ المبادرةُ بالانتفاعِ بها؛ إسراعًا إلى الخيرِ الحاصلِ مِنْ ذلكَ في الدُّنيا بإطعامِ الفقراءِ وأكلِ أصحابِها منها، فإنَّه يُستحَبُّ أنْ يكونَ فُطورُ الحاجِّ يومَ النَّحْرِ مِنْ هَدْيِه، وكذلكَ الخيرُ الحاصلُ مِنْ ثوابِ الآخرةِ[5].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 428.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 61.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 264.
(4) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 114.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 264.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿وَجَبَتۡ﴾:

مناسبةُ الماضي لمقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ سبحانَهُ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، ولذلكَ غُلِّبَ لفظُ الماضي معَها؛ لدلالتِهِ على الوقوعِ نظرًا إلى ظاهرِ اللَّفظِ، وإن كانَ المعنى على الاستقبالِ، وسُقوطُ جُنوبِ البُدْنِ إلى الأرضِ بعدَ نَحْرِها أمرٌ مقطوعٌ بهِ عادةً.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾:

سُقوطُ الجُنوبِ كنايةٌ عن الموتِ

في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ وُجوبَ الجُنوبِ معناهُ: سُقوطُها إلى الأرضِ، وهو كنايةٌ عنِ الموتِ وزوالِ الرّوحِ[1]، والكناياتُ في أكثرِ المواضعِ أبلغُ مِنَ التَّصريحِ[2].

معنى فاءِ ﴿فَكُلُواْ﴾:

الفاءُ في قولِهِ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾؛ وهي تُفيد الفوريَّةَ لا التَّراخي؛ وذلك لما فيها من إدخال البهجة والسُّرور على المُضحّي وآل بيته.

غرضُ الأمرِ ﴿فَكُلُواْ﴾:

الأمرُ للإباحةِ أو الاستحبابِ وليس للوجوب

الأمرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ ليسَ للوجوبِ؛ لأنَّ المُكلَّفَ لا يُفرَضُ عليهِ الدّاعي إلى فعلِهِ مِنْ طَبْعِهِ[3]، بل هو للإباحةِ، والمعنى: (فإذا نُحِرَتْ، فسقطَتْ ميِّتةً بعدَ النَّحرِ، فقد حلَّ لكم أكلُها)[4]، وقيلَ: الأمرُ للاستحبابِ، يُستحبُّ أنْ يأكلَ الإنسانُ مِنْ هَدْيِهِ، وفي ذلكَ أجرٌ وامتثالٌ؛ إذ كانَ أهلُ الجاهليَّةِ لا يأكلونَ مِنْ هَدْيِهم[5]؛ لأنَّهم كانوا يتأفَّفونَ أنْ يأكُلوا مِنَ المذبوحِ للفُقَراءِ[6].

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 72.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 63.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 264.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 635.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 123.
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9825.

معنى حرفِ (مِنْ) ودلالتُهُ:

المُستحَبُّ أو المُباحُ أكلُهُ لصاحبِ الهَدْيِ هو بعضُ البُدْنِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ (مِنْ) الدّالِّ على التَّبعيضِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ على أنَّ المُستحَبَّ أو المُباحَ أكلُهُ لصاحبِ الهَدْيِ هو بعضُ البُدْنِ، والباقي يُطعَمُ منهُ القانعُ والمعترُّ كما صرَّحتِ الآيةُ.

دلالةُ واوِ ﴿وَأَطۡعِمُواْ﴾ ونُكتَةُ التَّرتيب:

الأكلُ والإطعامُ مُترتِّبان على سقوط جنوب البُدْنِ

الواوُ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ للعطفِ، وهي تُفيدُ أنَّ ما يترتَّبُ على تحقُّقِ الشَّرطِ - وهو سُقوطِ جُنوبِ البُدْنِ إلى الأرضِ - أمرانِ: **أحدُهما**: الأكلُ منها، **والثّاني**: إطعامُ القانعِ والمُعترِّ، وقُدِّم الأولُ على الثّاني بيانًا لحال النَّفس الإنسانيَّة وما رُكِزَ في جبلَّتها مِن تقديم نفسها على غيرها، فراعَى سبحانه وتعالى ذلك لُطفًا ورحمةً بها.

غرضُ الأمرِ ﴿وَأَطۡعِمُواْ﴾:

الأمرُ بالإطعام هو للنَّدبِ أو للوجوبِ

اختُلِفَ في دلالةِ الأمرِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾، فقيلَ: الأمرُ للنَّدْبِ، ولو صَرفَ المُهدي الهَدْيَ كلَّهُ إلى نفسِهِ؛ لم يَضْمَنْ شيئًا، وهذا في كلِّ هَدْيٍ ليسَ بكفّارةٍ، وأمّا الكفّارةُ؛ فعليهِ التَّصدُّق بجميعِها[1]، وقيلَ: الأمرُ للوجوبِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾:

الدَّلالةُ على الدَّوامِ والثَّباتِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ، وأنَّ ذلكَ صفةٌ ثابتةٌ فيهما؛ إذ لا يُقالُ: فلانٌ قانعٌ أو مُعتَرٌّ إلّا وقد تكرَّرَ منهُ الوصفُ بحيثُ صارَ راسخًا فيهِ رُسوخَ الصِّفاتِ الجِبِلّيّة.

إعرابُ جملةِ ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾:

الجملةُ استئنافيَّةٌ للامتنانِ بما خلقَ اللهُ من المخلوقاتِ لنفعِ النّاسِ

جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للامتنانِ بما

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 68.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 265.

خلقَ اللّهُ جلَّ شأنُهُ مِنَ المخلوقاتِ لنفعِ النّاسِ، فقد سخَّرَها للنّاسِ مَعَ ضَعْفِ الإنسانِ وقوَّةِ تلكَ الأنعامِ، فيأخذُ الرَّجلُ الواحدُ العددَ منها، ويَسوقُها مُنقادةً، ويُؤلِمونَها بالإشعارِ ثمَّ بالطَّعنِ، ولولا أنَّ اللّهَ أودعَ في طِباعِها هذا الانقيادَ؛ لَما كانَتْ أعجزَ مِنْ بعضِ الوُحوشِ الَّتي هي أضعفُ منها، فتنفرُ مِنَ الإنسانِ، ولا تُسخَّرُ لهُ[1].

إعرابُ كافِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الكافُ نعتُ مصدرٍ محذوفٍ أو حـالٌ من المصدر المحذوف

الكافُ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أيْ: سخَّرْناها لكم - معَ عِظَمِها وقُدرتِها وقوَّتِها - تسخيرًا مِثلَ ما وصَفْنا مِنْ حالِها وقتَ النَّحْرِ مِنْ كونِها صَوافَّ[2]، ويجوزُ أنْ تكونَ الكافُ حالًا مِنْ ذلكَ المصدرِ المحذوفِ[3].

دلالةُ استعمالِ الإشارةِ للبعيدِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تعظيمُ المُشارِ إليهِ وتفخيمه

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِه سبحانَهُ وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ لتعظيمِ المُشارِ إليهِ وتفخيمِه، والمعنى: (مِثلَ هذا التَّسخيرِ العظيمِ المِقدارِ العجيبِ الشَّأنِ، سخَّرْناها لكُم)[4]، فسُبْحانَ الوهّابِ المَنّانِ الَّذي ذلَّلَ هذهِ الحيواناتِ على قوَّتِها ونُفورِها!

دلالةُ استعمالِ الماضي ﴿سَخَّرۡنَٰهَا﴾:

تـأكيـدُ تحقُّقِ الـتَّـسـخـيرِ ووقـوعـه منذ الأزل

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تأكيدِ تحقُّقِ التَّسخيرِ ووقوعِه، فهو أمرٌ قدَّرَهُ اللّهُ تعالى، وحكَمَ بهِ في الأزلِ، وهو أمرٌ محسوسٌ مُشاهَدٌ عَرَفَهُ النّاسُ، وألِفوهُ، ولا يُنازِعُ فيهِ أحدٌ منهُم.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

أُسنِدَ فعلُ التَّسخيرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 266.
(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 115.
(3) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 8/ 280.
(4) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 51، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 266.

تعظيمُ شأنِ التَّسخيرِ وتهويلِه؛ إذ يحصُلُ بعظمة الله

إلى نونِ العظَمةِ؛ لتعظيم شأنِ التَّسخيرِ وتهويلِه، أيْ: سخَّرْناها بعظَمتِنا الَّتي لولاها ما كانَ ذلكَ لكُم، وذلَّلْناها ليلًا ونهارًا معَ عِظَمِها وقوَّتِها، ولو شِئْنا؛ جعَلْناها وحشيَّةً(1)، وهذا الإسنادُ يرجعُ إلى الإسنادِ في صدر الآية: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا﴾، وهذا من وجوه تماسكها وترابطها.

نكتةُ تكرارِ ﴿لَكُمۡ﴾ في الآية:

المبالغةُ في الامتنانِ وتحريكُ الشُّكرِ من العِبادِ للمُنعِم

كُرِّرَ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ معَ تقدُّمِه في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم﴾ وقولِه: ﴿لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ﴾؛ لأنَّ السّياق للامتنانِ على المؤمنينَ بجَعْلِ البُدْنِ لهُم مِنْ شعائرِ اللّهِ، وبما فيها مِنَ الخيرِ الدُّنيويِّ والأُخرويِّ، وفي تكرارِ ﴿لَكُمۡ﴾ زيادةُ مبالغةٍ في هذا الامتنانِ؛ لما يُفيدُهُ مِنْ أنَّ كلَّ ذلكَ مِنْ أجلِهم، وفيهِ تحريكٌ لسِلْسِلةِ الشُّكرِ مِنَ العِبادِ للمُنعِمَ جلَّ ثناؤُهُ؛ فيكونُ تمهيدًا وتوطئةً لقولِه سبحانَهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

توجيهُ التَّرجّي بـ(لعلَّ):

التَّرجّي في حقِّنا لا في حقِّ الله

التَّرجّي في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ليسَ في حقِّ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى العالم بخَفياتِ الأمورِ، بل هو في حقِّنا، وبالإضافة إلى نظرِنا(2)، أيْ: لتتأمَّلوا ذلكَ، فتعْرِفوا أنَّهُ ما قادَها لكم إلّا اللّهُ، فيكونَ حالُكم حالَ مَنْ يُرْجَى شُكْرُهُ، فتوقعوا الشُّكرَ بألّا تُحرِّموا منها إلّا ما حرَّمَ، ولا تُحِلّوا إلّا ما أحلَّ، وتَشْهَدوا منها ما حثَّ على إهدائِه، وتتصرَّفوا فيها بحسَبِ ما أمرَكم(3).

سرُّ التَّعبير بالمضارع ﴿تَشۡكُرُونَ﴾:

طلبُ دوامِ الشُّكرِ واستمرارِه

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المطلوبَ من المُخاطَبينَ المُنعَمِ عليهم

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 52.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 123.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 52.

بالبُدْنِ هو تجدُّدُ الشُّكرِ منهُم واستمرارُهُ مع دوام تجدُّدِ الإحساس بالنِّعَم، فيصيرُ الشُّكرُ دَيْدَنًا وعادةً لهم، وصفةً راسخةً فيهم لا تُفارِقُهم.

بلاغةُ الإيجازِ في جملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

المقصودُ إثباتُ المعنى في نفسِهِ مِن غير نظرٍ إلى مفعولٍ يقع في النَّفس

في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إيجازٌ بديعٌ بالحذفِ، وذلكَ بحذفِ مفعولِ ﴿تَشۡكُرُونَ﴾، والتَّقديرُ: (لعلَّكم تشكرونَ إنعامَنا عليكم بالتَّقرُّبِ والإخلاصِ)[1]، والألصقُ بمقام التقرُّب إليهم والإقبال عليهم والتودُّد لهم، كما في التَّعبير بـ﴿لَكُمۡ﴾ وتكرارِه أن يكون المقصودُ إثباتَ المعنى في نفسه مِن غير نظرٍ إلى مفعولٍ يقع في النَّفس، أيِّ: لعلكم يكون منكم شُكرٌ، فهو يرضى بأيِّ شُكرٍ منهم؛ تقربيًا وتودُّدًا لهم وإقبالًا عليهم.

بلاغةُ التَّعريضِ في: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾:

تعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ وضَعوا الكُفْرَ موضعَ الشُّكرِ

معنى قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: خلَقْناها مُسخَّرةً لكم؛ استجلابًا لِأَنْ تَشْكُروا اللّهَ بإفرادِهِ بالعِبادةِ، وهذا تعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ وضَعوا الكُفْرَ موضعَ الشُّكرِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: لكي تَشْكُروا، ولا تكونوا كالمشركينَ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهم بوضعِ الكُفْرِ موضعَ الشُّكرِ، فعرَّضوا أنفُسَهم لسَخَطِ اللّهِ ﷻ.

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 72.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 266.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ [الحجّ: 37]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

المقصودُ مِنْ نَحْرِ البُدْنِ روحُهُ لا صورتُهُ

لمّا بيَّنَ تعالى أنَّ البُدْنَ المُشْعَرةَ والمُقلَّدةَ مِنْ شعائرِ الدّينِ، وأمرَ بذِكْرِ اسمِهِ عندَ نَحْرِها صوافَّ، وبالأكلِ منها وإطعامِها، وكانَ مِنْ عاداتِ المشركين أنَّهم يَنْضَحونَ البيتَ ونحوَهُ بدماءِ قرابينِهم، ويُشرِّحونَ اللَّحْمَ، ويضعونَهُ حولَهُ زاعمينَ أنَّ ذلكَ قُرْبَةٌ، وكانَ بعضُ ذلكَ شرعًا قديمًا؛ نبَّهَ سبحانَهُ على نسخِ ذلكَ بأنَّ المقصودَ منهُ روحُهُ لا صورتُهُ، والمُعتبَرَ ما يصحبُ ذلكَ مِنَ التَّقوى الَّتي تدعو إلى تعظيمِ اللّهِ تعالى، والتَّقرُّبِ إليهِ والإخلاصِ لهُ، فقالَ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾[1]، ثُمَّ إنَّه تعالى لمّا حثَّ على التَّقرُّبِ بالبُدنِ؛ بيَّنَ السَّببَ، فقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ﴾[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنَالَ﴾: للجذرِ (نول) معنًى محوريٌّ يدلُّ على إعطاءٍ[3]، فالنَّوْلُ والنَّوالُ: العطاءُ[4] والمعروفُ تصيبُهُ مِنْ إنسانٍ[5]، والنَّيْلُ: ما ينالُهُ الإنسانُ بيدِهِ، يُقالُ: نِلْتُهُ أنالُهُ نَيْلًا، قالَ تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: 92]، ومعنى: ﴿لَن يَنَالَ﴾: لن يُصيبَ، ويَبلُغَ، ويُدرِكَ[6].

---

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 52.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 115.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نول).
(4) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نول).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (نول).
(6) الرَّاغب، المُفردات: (نول)، والبقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 155.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

روحُ المَناسكِ تقوى اللهِ ومَقصودُها تعظيمُ الله وللمُحسِنينَ البِشارةُ

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ مُخاطِبًا المُؤمنينَ: لن يَصِلَ إلى اللهِ لُحومُ بُدْنِكم ولا دِماؤُها، ولكنْ ينالُهُ اتِّقاؤُكم إيّاهُ إنِ اتَّقيتُموهُ فيها، فأردتُّم بها وجهَهُ، وعَمِلتُم فيها بما ندبَكم إليه، وأمرَكم به، وعظَّمتُم بها حُرُماتِه، هكذا سخَّرَ لكُم البُدْنَ؛ كي تُعظِّموا اللّهَ على ما هداكُم، وتَشْكُروهُ على توفيقِهِ إيّاكم للانتفاعِ بها، ثمَّ يأمرُ ﷻ نبيَّه محمَّدًا ﷺ بتبشيرِ المُحسِنينَ، فيقولُ: وبشِّرْ - يا محمّد ﷺ - الَّذينَ أطاعوا اللّهَ، فأحسَنوا في طاعتِهم إيّاهُ بكلِّ ما فيهِ خيرٌ، ورأسُ ذلكَ الجنَّةُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

إعرابُ جملةِ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾:

الجملةُ للتَّعليل والتَّوكيد

جملةُ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ في موضعِ التَّعليلِ لجملةِ ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، أيْ: (دلَّ على أنّا سخَّرْناها لكم لِتَشْكُروا) على أنَّهُ لا انتفاعَ للّهِ بشيءٍ مِنْ لُحومِها ولا دِمائِها حينَ تتمكَّنون أنتم مِنَ الانتفاعِ بها، فلا يريدُ اللّهُ منكُم على ذلكَ إلّا أنْ تتَّقوهُ[1]، فهو تعليلٌ في المعنى لما قبله، ويجوز أن يكون بين الآية وفاصلة ما قبلها كمالُ اتِّصال مِن نوع التَّوكيد المعنويِّ، فإنَّ الثّاني منهما بعضُ لوازم الأوَّل، وإنَّ الأوَّل لازمٌ للثّاني؛ فلهذا غاب العاطفُ بينهما.

نكتةُ النَّفيِ بـ﴿لَن﴾ دونَ (لا):

النَّفيُ في الحالِ وفي الاستقبالِ

اختيرَ في قولِ الحقِّ جلَّ وتباركَ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ النَّفيُ بـ﴿لَن﴾ دونَ (لا)؛ لأنَّ ﴿لَن﴾ تُفيدُ النَّفيَ في الحالِ وفي الاستقبالِ أيضًا، فيكونُ النَّفيُ بها أوكدَ وأبلغَ[2]، فهو أدلُّ على المعنى المقصود من النفي بـ(لا).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 267.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4988.

نكتةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿يَنَالَ﴾:

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، ودخولُ النَّفيِ عليهِ يُفيدُ استمرارَ انتفاءِ النَّيْلِ وتجدُّدَهُ، وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لكونِ فائدةِ النَّحْرِ تعودُ على العبدِ لا على المعبودِ سبحانَهُ وتعالى، والتَّجدُّدُ في: ﴿يَنَالَ﴾ ناظرٌ كذلك إلى تجدُّد النَّحر النّاتج عنه اللُّحوم والدِّماء، فهذا مؤسَّس على ذاك.

استمرارُ انتفاءِ النَّيْلِ وتجدُّده بتجدُّد النَّحر

لطيفةٌ في اختلاف قراءاتِ ﴿يَنَالَ﴾ و﴿يَنَالُهُ﴾:

اختُلِفَ في قراءةِ ﴿يَنَالَ﴾، و﴿يَنَالُهُ﴾ من قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾، فقرأ يعقوب بالتّاءِ على التَّأنيثِ فيهما: ﴿لَن تَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن تَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾، وقرأهما الباقونَ بالياءِ على التَّذكيرِ[1]، فمَنْ قرأ بياءِ الغَيبةِ في الفِعلَيْنِ فلأنَّ التَّأنيثَ مجازيٌّ، وقد وُجِدَ الفصلُ بينَهما، ومَنْ قرأ بالتّاءِ فيهما؛ فاعتبارًا باللَّفظِ[2].

اختلافُ التَّذكيرِ والتَّأنيثِ تُجوِّزُه اللُّغة وقد يحمِلُ لطائفَ خفيَّة

وقراءةُ التَّأنيثِ تُشير إلى أدنى مراتب النَّيل، ووراءَ ذلك في الفعل الأوَّلِ الإبلاغُ في بيان المعنى المُتعلِّق بالذّات العليَّة، وهذا تقريرٌ وتحقيقٌ للأُلوهيَّة، ووراءه في الفعل الثّاني عظيم تقرُّبِه تعالى لعباده وإقباله عليهم وتودُّدِه إليهم، وقراءةُ التَّذكير تُشير إلى أعلى مراتب النَّيلِ، ووراء ذلك مِن المعنى في الفعل الأول نفيُ توهُّم أنَّ للكثرة مجالًا لنيله تعالى لحومُها أو دماؤُها؛ فمَهْما عظُمتْ وكثُرتْ؛ فلن ينالَ اللّهَ لحومُها ولا دماؤُها؛ وهذا خطابٌ لبعضِ ذوي العقول الضعيفة، ووراءه مِن المعنى في الفعل الثاني عظيمُ التَّرغيب في تحصيل التَّقوى والتَّرقّي في مقاماتها.

(1) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/ 326.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 227، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 281.

غرضُ التقديمِ في: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾:

المسارعةُ بنفيِ توهُّمِ لَحاقِ نَفْعٍ أو ضَرٍّ

لَمّا كانَ السّياقُ للحثِّ على التَّقرُّبِ بالنَّحْرِ لهُ سبحانَهُ وتعالى؛ كانَ تقديمُ اسمِهِ المُتضمِّنِ كمالَ الجلالِ والجمالِ على الفاعلِ - في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ - أنسبَ للإسراعِ بنفيِ ما قد يُتوهَّمُ مِنْ لَحاقِ نَفْعٍ أو ضَرٍّ، فهو الاسمُ العظيمُ الجامعُ لسائرِ معاني العُلوِ والتَّسبيحِ، فأنَّى ينالُه لحومُ البُدنِ ودماؤها؟[1].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لنفيِ لحاقِ نَفْعٍ أو ضَرٍّ

لَمّا كانَ السّياقُ لبيانِ أنَّ نَفْعَ نَحْرِ البُدْنِ راجعٌ إلى العبدِ لا إلى المعبودِ؛ فقد قالَ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ مُعبِّرًا بلفظِ الجلالةِ الَّذي حُمي عنِ الشِّركةِ بكلِّ اعتبارٍ، أيْ: لن ينالَ لُحومُها ولا دِماؤُها رِضا المَلِكِ الَّذي لهُ صفاتُ الكمالِ والجلالِ، فلا يَلْحَقُهُ نَفْعٌ ولا ضَرٌّ[2].

نكتةُ جمعِ الكثرةِ اللُّحومِ والدِّماءِ:

باعتبارِ تعدُّدِ البُدْنِ المنحورةِ وتنوُّعِها

عُبِّرَ بصيغةِ جمعِ الكثرةِ في قولِ الحقِّ جلَّ وتباركَ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ باعتبارِ تعدُّدِ البُدْنِ المنحورةِ وتنوُّعِها، فلكلِّ بَدَنةٍ لَحْمٌ ودَمٌ.

نكتةُ ذِكْرِ حرفِ النَّفيِ (لا):

لم يتشدَّدِ القرآنُ في تقريرِ معنًى كتقريرِ الألوهيَّة

جيءَ بحرفِ النَّفْيِ (لا) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ لتوكيدِ النَّفْيِ المُستفادِ مِنْ ﴿لَن﴾، ولذلكَ لم يُقَلْ: (لن ينالَ اللّهَ لُحومُها ودِماؤُها)، ولم يتشدَّدِ القرآنُ في تقريرِ معنًى كتقريرِ الألوهيَّة.

سرُّ ذِكْرِ الدِّماءِ معَ اللُّحومِ:

في ذِكْرِ الدِّماءِ مع اللُّحومِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 52.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 52.

﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ الدّالِّ على أنَّهُ سبحانَهُ لا يرضى بلَحْم يُؤكَل، ولا تكونُ مَرْضاتُهُ في دم يُراق، وإنَّما يبلغُ مرضاته وقبولَهُ التَّقوى؛ إشارة إلى أنَّ الدَّمَ المُهَراقَ مطلوبٌ في الحجِّ؛ تذكيرًا بفِداءِ إسماعيلَ عليه السلام[1].

الإشارةُ إلى أنَّ إراقةَ الدِّماءِ مطلوبةٌ في الحجِّ

معنى الحرفَيْنِ ﴿وَلَٰكِن﴾:

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾؛ لعطفِ الجملةِ على ما قبلَها، و(لَكِنْ): حرفُ استدراكٍ مهُمَلٌ؛ لأنَّهُ مُخفَّفٌ، ولو قيل: (لكن يناله التَّقوى منكم) على غياب الواو؛ لكان صوابًا من ناحية البلاغة؛ لأنَّ المعطوفَ عليه بعضُ لوازمه، وهو بعض لوازم المعطوف عليه، فبينهما كمالُ اتِّصال من نوع التَّوكيد المعنويِّ الخفيِّ؛ فكان الظّاهر غيابَ الواو، ولكنَّ القرآنَ أحضرها احتفالًا بمضمون ما بعدها بالإشعار باستقلالِهِ، لِما في الواو مِن معنى المغايرة الَّذي لا يبرحُها؛ فالتَّقوى رأسُ الأمر كلِّه.

الــواوُ عاطفةٌ و(لَـكِـنْ) حـرفُ استدراكٍ مُهْمَلٌ

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿يَنَالُهُ﴾:

في التَّعبيرِ بـ ﴿يَنَالُهُ﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ مُشاكلةٌ ومُناسبةٌ لـ ﴿يَنَالَ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾، وفيه أيضًا استعارةٌ؛ حيثُ استُعيرَ النَّيلُ لتعلُّقِ القبول، وشُبِّهَ قبولُ اللّهِ تقواهم وصعوده إليه بوصولِ الشَّيءِ المبعوثِ إلى اللّهِ، وقد حسَّنَتْهُ المشاكلةُ[2].

اســتــعــارةٌ بديعةٌ حسَّنَتْها المُشاكَلة

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَنَالُهُ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ النَّيلِ واستمرارِهِ، فاللّهُ جلَّ وتباركَ بمَنِّهِ وكرمِهِ يقبلُ التَّقوى مِنْ عبادِهِ، ويُثيبُهم عليها على الدَّوام، والتَّجدُّدُ

ينالُ اللهَ أصلُ التَّقوى والزِّيادة فيها

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4988.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 431، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 269.

في ﴿يَنَالَ﴾ ناظرٌ إلى التَّفاوت في مقامات التَّقوى، والمعنى: (ولكن ينالُه أصلُ التَّقوى والزّيادة فيها).

معنى حرفِ (مِنْ) ودلالتُهُ:

(مِنْ) ابتدائيَّةٌ وهي ترشيحٌ للاستعارة

(مِنْ) في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ ابتدائيَّةٌ، وهي ترشيحٌ للاستعارةِ في ﴿يَنَالُهُ﴾؛ ولذلكَ عُبِّرَ بلفظِ ﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾ دونَ (تقواكم)، أو (التَّقوى) مُجرَّدًا، معَ كونِ المعدولِ عنهُ أوجزَ؛ لأنَّ في هذا الإطنابِ زيادةَ معنًى من البلاغة(1).

نكتةُ تكرارِ التَّسخيرِ في الآية:

تكرارُ التَّنبيهِ على عظيمِ تسخيرِ البُدْنِ

كُرِّرَ التَّذكيرُ بنعمةِ تسخيرِ البُدْنِ في قولِ الحقِّ جلَّ من قائلٍ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ بعدَ قولِهِ قبلَ ذلكَ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾، وطُلِبَ الشُّكرُ هناكَ بقولِهِ تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وطُلِبَ هنا أيضًا بقولِهِ: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ﴾، أيْ: لِتَشْكُروا اللهَ على هدايتِهِ إيّاكم لأعلامِ دينِهِ ومناسكِ حجِّهِ، بأنْ تُكبِّروا، وتُهلِّلوا، فاختُصِرَ الكلامُ بتضمينِ التَّكبيرِ معنى الشُّكرِ، وتعديته(2)، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ المقصودَ الأوَّليَّ مِنْ شرعيَّةِ الأحكامِ: التَّوحيدُ وذِكْرُ اللهِ تعالى وحدَهُ، وأنَّ رأسَ الشُّكرِ هو الذِّكرُ باللِّسانِ(3)، وفي هذا التَّكريرِ زيادةُ مبالغةٍ في الامتنانِ على المُخاطَبينَ، وهذا كلُّه ناظرٌ إلى كلمة الإحسان والإنعام المُضافة إلى ضمير النّاس، والواقعة مفعولًا به للأمر بالتَّقوى في مطلع السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ [الحج: 1].

إعرابُ كاف التَّشبيهِ في ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

الكافُ نعتُ مصدرٍ محذوفٍ أو حالٌ

الكافُ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أو حالٌ مِنْ ذلكَ المصدرِ المحذوفِ(4).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 270.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 159.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 491، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 270.
(4) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 280.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ (ذَٰلِكَ):

تعظيمُ شأنِ التَّسخيرِ المُشارِ إليهِ وتفخيمُهُ

التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ التَّسخيرِ المُشارِ إليهِ وتفخيمِهِ، أيْ: مِثلَ ذلكَ التَّسخيرِ العظيمِ العجيبِ الشَّأنِ سخَّرَها اللّهُ سبحانَهُ وتعالى الجامعُ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ، القادرُ على كلِّ شيءٍ[1].

سرُّ الاختلاف في إسنادِ فعلِ التَّسخير:

نوعُ الضَّميرِ موافِقٌ للسّياقِ ولمُقتضى الحال

أُسنِدَ فعلُ التَّسخيرِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ﴾ لضميرِ الغَيبةِ؛ موافَقةً لسياقِ الغَيبةِ في الآيةِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾، وأُسنِدَ لضميرِ العظَمةِ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ قَبْلَ ذلكَ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾؛ موافقةً لسياقِ العظَمةِ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، والتَّعبيرُ الأولُ في مطلعِ حالِ التَّعرُّفِ عليه تعالى، فاحتاجَ المُتلقّي إلى ظهورِ عظمتِه ظهورًا بيِّنًا، فأُضيفَ التَّسخيرُ إلى ما هو نصٌّ في العظمة، والتَّعبيرُ الثّاني كائنٌ بعد ذلك، فقد خطا المُتلقّي خُطوةً في التَّعرُّفِ عليه، فخوطِبَ بضميرِه.

غرضُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿سَخَّرَهَا﴾:

تأكيدُ تحقُّقِ تسخيرِ البُدْنِ ووقوعِهِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ﴾ على تأكيدِ تحقُّقِ تسخيرِ البُدْنِ ووقوعِهِ، ببيانِ أنَّهُ أمرٌ قدَّرَهُ اللّهُ تعالى، وحكمَ بهِ في الأزلِ، وهو أمرٌ مُشاهَدٌ في الوجودِ، لا خلافَ فيهِ ولا نزاعَ، والعادةُ والتَّجربةُ حاكمتانِ بهِ.

غرضُ ذكرِ ﴿لَكُمۡ﴾:

تأكيدُ الامتنانِ على المخاطَبينَ بتسخيرِ البُدْنِ لهُم

ذُكِرَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ﴾؛ لتأكيدِ الامتنانِ على المخاطَبينَ بتسخيرِ البُدْنِ لهُم، ببيانِ أنَّ ذلكَ التَّسخيرَ العظيمَ لأجلِهم، وهو لهُم لا لغيرِهم.

---

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 53.

معنى لامِ ﴿لِتُكَبِّرُواْ﴾:

توحيدُ اللهِ في عبادتِهِ وتكبيرِهِ مؤسَّسٌ على رُبوبيتِهِ وتسخيرِهِ للبُدْنِ

الظّاهر أنَّ اللّامَ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾؛ لبيانِ علَّةِ تسخيرِ البُدْنِ[1]، والمعنى: (كذلكَ سخَّرَها لكم لتَعْرِفوا عظَمتَهُ باقتدارِهِ على ما لا يَقْدِرُ عليهِ غيرُهُ، فتوحِّدوهُ بالكِبْرياءِ)[2]، وقيلَ: اللّامُ للعاقبةِ، أيْ: سخَّرَها لتكونَ العاقبةُ أنْ تُكبِّروا اللّهَ في الحجِّ على هدايتِكم إليهِ سبحانَهُ وتعالى، ولِتُقيموا شعائرَهُ، ولِتُحسِنوا أداءَ التَّكاليفِ الَّتي كُلِّفْتُموها[3].

نكتةُ اختيارِ عنوانِ الأُلوهيَّةِ:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ التَّكبيرِ

لمّا ذُكِرَ التَّكبيرُ قُرِنَ بالاسمِ الأعظمِ، فقيلَ: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾[4]؛ لأنَّ العادةَ قد جرَتْ باقترانِ التَّكبيرِ بلفظِ الجلالةِ في الكثيرِ من العباداتِ، فيُقالُ: (اللّهُ أكبرُ)، وفي ذِكْرِ التَّكبيرِ هنا لطيفةٌ، وهي أنَّ تسخيرَ البُدْنِ أمرٌ يُعرَفُ به أنَّ المُسخِّرَ مَلِكٌ عظيمُ الشَّأنِ قادرٌ على ما لا يَقْدِرُ عليهِ غيرُهُ، مُتوحِّدٌ في القادريَّةِ، وهذا العِرْفانُ يُلجِئُهم إلى الاعترافِ بأنَّهُ واحدٌ بِكِبْريائِهِ، وأكبرُ مِنْ كلِّ مَنْ عداهُ[5].

معنى حرف الجرِّ في: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾:

دلالةُ الحرفِ على التَّمكُّنِ وعلى تضمينِ فعلِ التَّكبيرِ معنى الشُّكرِ

الظّاهر أنَّ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾؛ للاستعلاءِ المجازيِّ الَّذي هو بمعنى التَّمكُّنِ، أيْ: لِتُكبِّروا اللّهَ عندَ تمكُّنِكم مِنْ نَحْرِها[6]، وهو مُتعلِّقٌ بـ ﴿لِتُكَبِّرُواْ﴾؛ لتضمُّنِهِ معنى الشُّكرِ؛ لأنَّهُ يتعدَّى بـ ﴿عَلَىٰ﴾، بخلافِ التَّكبيرِ[7]، ولولا اعتبارُ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 227.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 72.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4989.

(4) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 53.

(5) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 70.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 270.

(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 159، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 72.

معنى التَّضمينِ؛ لكانَ الأنسبُ أنْ تُذكَرَ اللّامُ بدلَ ﴿عَلَىٰ﴾، ويقال: لِما هداكُم[1]، وقيلَ: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى اللّامِ التَّعليليَّةِ[2]، أيْ: لِتُكبِّروا اللّٰهَ لأجلِ ما هداكُم.

نوعُ ﴿مَا﴾ ودلالتُها في قولِه: ﴿مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾:

(ما) تحتمل المصدريَّة كما تحتمل الموصوليَّة

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ أنْ تكونَ مصدريَّةً، أيْ: على هدايتِهِ إيّاكم[3]، وتحتملُ أنْ تكونَ موصولةً، أيْ: على الَّذي هداكُم إليهِ من الأنعام[4]، وعلى الثّاني ففي إبهامِ ﴿مَا﴾ ومدِّ ألِفِها امتنانٌ بكثرةِ ما يصدُقُ عليه اللَّفظ ﴿مَا﴾ وفخامته وعظمته.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿هَدَىٰكُمۡۗ﴾:

مناسبةُ لفظِ الهدايةِ لسياقِ الامتنانِ

الهِدايةُ في قولِه سبحانَهُ وتعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ بمعناها اللُّغويِّ[5]، أيْ: على ما أرشدَكم إليهِ من طريقِ تسخيرِ البُدْنِ وكيفيَّةِ التَّقرُّبِ بها[6]، ومِنْ وُجوهِ هذهِ الهدايةِ أيضًا: تشريعُ الهدايا في تلكَ المواقيتِ؛ لينتفعَ بها النّاسُ، ويرتزقَ سُكّانُ الحَرَمِ الَّذينَ اصطفاهُم اللّٰهُ؛ ليكونوا دعاةَ التَّوحيدِ، لا يُفارقونَ ذلكَ المكانَ[7].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿هَدَىٰكُمۡۗ﴾:

مناسبةُ الماضي لسياقِ الحثِّ على الشُّكرِ

لمّا كانَ السّياقُ لحثِّ النّاسِ على شكرِ اللّٰهِ سبحانَهُ وتعالى على تسخيرِ البُدْنِ لهُم، وعلى ما أرشدَهم إليهِ مِنْ وجوهِ الانتفاعِ بنَحْرِها؛ ناسبَ الإتيانُ بفعلِ الهدايةِ في قولِ اللّٰهِ تبارك وتعالى: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ ماضيًا؛ لدلالةِ صيغةِ الماضي على أنَّ الهِدايةَ

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 71.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 298، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 151.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 270.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 70.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 72.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 270.

أمرٌ قد تحقَّق، وثبتَ، وحكمَ بِه اللّهُ جلَّ شأنُهُ في الأزلِ، وحقَّقَهُ في الوجودِ، فما على المخاطَبينَ المُسلِمينَ إلّا المبادرةُ إلى التَّكبيرِ والشُّكرِ للمُنعِمِ الوهّابِ عزَّ سُلطانُهُ.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾:

الواوُ للاستئناف أو للعطفِ على جملةٍ محذوفةٍ

الواو لاستئناف الوعد والبشارة لِمَنْ يُحسِن العملَ فيما ذُكِرَ من مناسك الحجِّ وفي عموم عبادة اللّه، أو هو للعطف؛ فلمّا كانَ الدّينُ لا يقومُ إلّا بالنِّذارةِ والبِشارةِ، وكانَ السّياق لأجلِ ما تقدَّمَ مِنْ شعائرِ الحجِّ ومَعالمِهِ بالبِشارةِ أليقَ؛ ذكرَها سبحانَهُ وتعالى مُشيرًا إلى النِّذارةِ بواوِ العطفِ، ليُؤذِنَ أنَّ التَّقديرَ: (فأنذِرْ - أيُّها النَّبيُّ ﷺ - المُسيئِينَ)، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، وبناءً على ذلكَ يكونُ في الكلامِ إيجازٌ بحذفِ جملةٍ، وهذه الجملةُ تنظر إلى جملة ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾، وهذا مقامٌ فوق مقام الإخبات، فمقامُ الإخباتِ جاء بعد الأمرِ بالإسلام له تعالى، ومقامُ الإحسان جاء بعدَ التَّرغيبِ في التَّقوى الَّتي تكون للعبد بعد الإسلام له تعالى، فهذا من التَّماسك والتَّرابط بين الآيات.

غرضُ الأمرِ بالتَّبشيرِ في الآية:

وجوبُ تبشيرِ المُحسِنينَ وفي ذلكَ وعدٌ للمُبشِّرينَ المُتثلينَ لأوامرِ اللهِ

الأمرُ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ للوجوبِ، وهو يدلُّ على وجوبِ تبشيرِ المُحسِنينَ على النَّبيِّ ﷺ، وفي ذلكَ وعدٌ للمُبشِّرينَ المُتثلينَ لأوامرِ اللّهِ سبحانَهُ، كما قالَ مِنْ قبلُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجمعِ المُعرَّفِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

التَّعبيرُ بلفظِ الجمعِ المُعرَّفِ باللّامِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 54.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 227.

﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على عُمومِ اللَّفظِ لكلِّ مُحسِنٍ[1]، وقيلَ: المُرادُ بهم الخُلَفاءُ الأربعةُ[2]. :

علَّةُ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

الحثُّ على استصحابِ معنى الإحسانِ في جميعِ أفعالِ العبدِ

اختيرَتْ صفةُ الإحسانِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ في خِتامِ أفعالِ الحجِّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ولم يُقَلْ: (وبشِّرِ المُؤمنينَ)، أو (وبشِّرِ الشّاكرينَ)، أو (وبشِّرِ المهتدينَ)؛ لأنَّ المُحسِنينَ هم الَّذينَ يعبدونَ اللّهَ تعالى، كأنَّهم يرونَهُ، ويبتغونَ بذلك فضلَهُ ورضوانَهُ، لا يَحْمِلُهم على ما يأتونَهُ، ويَذَرونَهُ، إلّا هذا الابتغاءُ، وعلامةُ ذلكَ ألّا يستثقلَ، ولا يتبرَّمَ بشيءٍ ممّا فعلَهُ، أو تركَهُ، والمقصودُ منهُ الحثُّ والتَّحريضُ على استصحابِ معنى الإحسانِ في جميعِ أفعالِ الحجِّ ونحوِهِ[3]، يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ صفةَ الإحسانِ تشملُ غيرَها؛ لأنَّ العبدَ لا يكونُ مُحسِنًا يعبدُ اللّهَ كأنَّهُ يراهُ؛ حتَّى يكونَ مُؤمِنًا ومُهْتَديًا وشاكرًا، ونحوَ ذلكَ مِنْ صفاتِ الكمالِ.

نكتةُ إظهارِ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

خروجٌ عن أسلوبِ الإضمارِ إلى إظهارِ صفةِ المبشَّرين

الخطابُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ﴾ للمُسلِمينَ، وتغييرُ الأسلوبِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ حيثُ لم يقلْ: (وبشِّرْهم)؛ تخريجٌ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم قد اهتَدَوا، وعَمِلوا بالاهتداءِ، فأحسَنوا[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

الدَّلالةُ على رُسوخِهم في الإحسانِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَبَشِّرِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 510، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 538.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 510.
(3) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 116.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 270.

﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على أنَّ الإحسانَ صفةٌ راسخةٌ في المذكورينَ في الآيةِ الَّذينَ اهتَدَوا، وعَمِلوا بالاهتداءِ؛ ولذلكَ لم يقلْ: (وبشِّرِ الَّذينَ أحسَنوا)؛ فضلًا عمّا في التَّعبير باسمِ الفاعلِ مِنْ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها مِنَ الفواصلِ.

نكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ فعل التَّبشير:

ذهابُ النَّفْسِ في تصوُّرِهِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ

حُذِفَ مُتعلِّقُ فعلِ التَّبشيرِ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فلم يقلْ: (وبشِّرِ المُحسِنينَ بكذا)؛ لتذهبَ نَفْسُ السّامعِ في تصوُّرِ المُبشَّرِ بهِ كلَّ مذهَبٍ مُمكِنٍ، فلا تتصوَّر شيئًا من الخيراتِ والمَسَرّاتِ إلّا كانَ مُرادًا، ورأسُ ذلكَ الجنَّةُ، ولو ذُكِرَ شيءٌ في الكلامِ؛ لاختصَّ التَّبشيرُ بهِ.

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحجّ: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ ما يُؤمَنُ معَهُ التَّمكُّنُ من الحجِّ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجوهٌ مُتقاربةٌ:

أحدُها: لمّا بيَّنَ تعالى ما يلزمُ الحجَّ ومناسكَهُ وما فيهِ مِنْ منافعِ الدُّنيا والآخرةِ، وقد ذُكِرَ قبلُ أنَّ الكفّارَ صدّوهم عنه؛ أتبعَ ذلكَ ببيانِ ما يُزيلُ الصَّدَّ، ويُؤمَنُ معهُ التَّمكُّنُ مِنَ الحجِّ، فقالَ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾(1).

والثّاني: لمّا ذكَرَ سبحانَهُ الحجَّ المُذكِّرَ للمهاجرينَ بأوطانِهم، وذكَرَ ما يُفعَلُ فيهِ مِنَ القُرُباتِ؛ عَظُمَ اشتياقُ النُّفوسِ إلى ذلكَ، وتذكَّرَتْ عُلو المشركينَ الَّذينَ يَصُدّونَ عن سبيلِ اللّهِ والمسجدِ الحرامِ، فأخبرَ سبحانَهُ بأنَّهُ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا(2).

والثّالثُ: الآيةُ جوابٌ لسؤالٍ يَخْطُرُ في نُفوسِ المؤمنينَ ينشأُ من قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الحج: 25]، فإنَّهُ توعَّدَ المشركينَ على صدِّهم عن سبيلِ اللّهِ والمسجدِ الحرامِ بالعذابِ الأليمِ، وبشَّرَ المؤمنينَ المُخبِتينَ والمُحسِنينَ بما يتبادرُ منهُ ضدُّ وعيدِ المشركينَ، وذلكَ ثوابُ الآخرةِ، وطالَ الكلامُ في ذلكَ بما تَبِعَهُ، فتشوَّفَتْ نُفوسُ المؤمنينَ إلى معرفةِ عاقبةِ أمرِهم في الدُّنيا، وهل يُنتصَرُ لهُم مِنْ أعدائِهم، أو يُدَّخَرُ لهم الخيرُ إلى الدّارِ الآخرةِ، فكانَ المقامُ خَليقًا بأنْ يُطَمْئِنَ اللّهُ نُفوسَهم بأنَّهُ كما أعدَّ لهم نعيمَ الآخرةِ هو أيضًا مُدافِعٌ عنهُم في الدُّنيا وناصرُهم(3).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 514.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 54.
(3) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 116، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.

والرابع: أنَّ فاصلةَ الآيةِ السابقةِ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ومضمونُ هذه الآية وجهٌ مِن وجوهِ إحسان اللّه إليهم، فأنتجَ الاقترانُ معنًى قرآنيًّا، وهو: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدَٰفِعُ﴾: المعنى المحوريُّ لـ(دفع) تنحيةُ الشَّيءِ، فالدِّفاعُ: السَّيْلُ العظيمُ؛ لأنَّ بعضَهُ يدفعُ بعضًا[1]، ويُقالُ: تدافعَ القومُ، أيْ: دفعَ بعضُهم بعضًا[2]، والاندفاعُ: المُضي في الأمرِ كائنًا ما كانَ[3]، والضَّيفُ المِدْفَعُ: الَّذي يتدافعُهُ الحيُّ، فيُحيلُهُ ذا على ذا، وهذا على هذا[4]، والدَّفْعُ إذا عُدّي بـ (إلى)؛ اقتضى معنى الإنالةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النّساء: 6]، وإذا عُدّي بـ (عن)؛ اقتضَى معنى الحِمايةِ، كقولِه تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾[5].

2) ﴿خَوَّانٍ﴾: (خون) أصلٌ واحدٌ، وهو التَّنقُّصُ في خُفْيَةٍ أو لُطْفٍ[6]، يُقالُ: تخوَّنَني فلانٌ حقّي، أيْ: تنقَّصني، ويُقالُ: خانَهُ يَخونُهُ، وذلكَ نُقْصانُ الوفاءِ[7]، والخيانةُ والنِّفاقُ واحدٌ، إلّا أنَّ الخيانةَ تُقالُ باعتبارِ العهدِ والأمانةِ، والنِّفاقَ يُقالُ باعتبار الدّينِ[8]، والخِوانُ: المائدةُ سواءٌ كانَ عليها طعامٌ أم لا، تَصَوَّروا فيهِ الخيانةَ حالَ فَقْدِ الطَّعامِ، بخلافِ المائدةِ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ جلَّ ثناؤُهُ عن معاملتِه لأوليائِه وأعدائِه، فيقولُ: إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا باللّهِ وبرسولِه، ويردُّ عنهُم غائلةَ المشركينَ؛ لأنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كلَّ خوّانٍ - يَخونُ اللّهَ،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دفع).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (دفع).
(3) الخليل، العين: (دفع).
(4) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة: 2/ 660، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (دفع).
(5) الرَّاغب، المُفردات: (دفع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خون).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خون).
(8) الرَّاغب، المُفردات: (خون).
(9) السَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خون).

فيخالفُ أمرَهُ ونَهْيَهُ، ويَعْصيهِ ويُطيعُ الشَّيطانَ - كَفورٍ باللّهِ جلَّ وعزَّ، جَحودٍ لنِعَمِهِ عندَهُ، لا يعرفُ لُمنعِمِها حقَّهُ، فيَشْكُرَهُ عليها[1].

المُؤمِنونَ في حِمايةِ اللهِ ورِعايتِه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ

فُصِلَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَ الكلامَيْنِ مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤالٍ يَخْطُرُ في نُفوسِ المؤمنينَ ينشأُ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الحج: 25]، فإنَّهُ توعَّدَ المشركينَ على صدِّهم عن سبيلِ اللّهِ والمسجدِ الحرام بالعذابِ الأليم، وبشَّرَ المؤمنينَ المُخبِتينَ والمُحسنينَ بما يتبادرُ منهُ ضدُّ وعيدِ المشركينَ، وذلكَ ثوابُ الآخرةِ، وطالَ الكلامُ في ذلكَ بما تَبِعَهُ، فتشوَّفَتْ نُفوسُ المؤمنينَ إلى معرفةِ عاقبةِ أمرِهم في الدُّنيا، وهل يُنْتصَرُ لهُم مِنْ أعدائِهم؟ أو يُدَّخَرُ لهم الخيرُ إلى الدّارِ الآخرةِ؟ فكانَ المقامُ خَليقًا بأنْ يُطمئنَ اللّهُ نُفوسَهم بأنَّهُ كما أعدَّ لهم نعيمَ الآخرةِ هو أيضًا مُدافِعٌ عنهُم في الدُّنيا وناصرُهم[2].

غرضُ التَّوكيدِ بِـ﴿۞إِنَّ﴾:

إبرازُ الاعتناءِ بمضمونِ الكلامِ

الظّاهرُ أنَّ تصديرَ قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ بكلمةِ التَّوكيدِ: لإبرازِ الاعتناءِ التّامِّ بمضمونِهِ[3]، فإنَّ دِفاعَ اللّهِ تعالى عن أوليائِهِ المُؤمنينَ أمرٌ عظيمُ الشَّأنِ، جديرٌ بالعِنايةِ والاهتمامِ، وفي التَّنبيهِ على ذلكَ تقويةٌ لعزائمِ المُؤمنينَ، وحثٌّ لهُم على الصَّبرِ ببيانِ أنَّ اللّهَ عزَّ سُلطانُهُ معَهم، ولا يتخلَّى عنهُم، ولا يُسلِمُهم لعدوِّهِ وعدوِّهم، وقيلَ: يحتملُ أنْ يكونَ التَّوكيدُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 642.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.

لتنزيلِ غيرِ المُتردِّدِ منزلةَ المُتردِّدِ؛ لشدَّةِ انتظارِ المؤمنينَ النَّصرَ، واستبطائِهم إيّاهُ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الدِّفاعِ

لمّا كانَ السّياقُ لتحقيقِ دِفاعِ اللّهِ جلَّتْ قُدرتُهُ عنِ الَّذينَ آمَنوا؛ جيءَ بلفظِ الجلالةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ لفظُ الجلالةِ من اتِّصافِهِ سبحانَهُ وتعالى بصفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها القُدرةُ المطلَقةُ الَّتي بها ينصرُ أولياءَهُ على أعدائِهِ، ولِما في لفظِ الجلالةِ مِنْ إدخالِ المَهابةِ في النُّفوسِ، وتثبيتِ قُلوبِ المؤمنينَ، والمعنى: (إنَّ اللّهَ الَّذي لا كُفْءَ لهُ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا)[2]، وكيفَ يخافُ مَنْ كانَ اللّهُ ذو العظَمةِ والكِبْرياءِ مُدافِعًا عنهُ؟ وكيفَ يَغْلِبُ مَنْ كانَ القويُّ العزيزُ خَصْمَهُ؟ وفي اسمِ الجلالةِ الدّالِّ على الأُلوهيَّةِ تعليلٌ في المعنى للدِّفاعِ، فمِن شأنِ الموحِّدينَ أن يتولّاهم اللّهُ، وأن يكونَ مولاهم وناصرَهم؛ ثُمَّ في ذِكْرِ وصفِ الإيمانِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ إفصاحٌ بذلكَ.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ:

إفـــادةُ تـقـوّي الحُكْمِ

يدلُّ تقديمُ المُسنَدِ إليهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ المُثبَتِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ على تقوّي الحُكمِ، وهو دِفاعُ اللّهِ عنِ الَّذينَ آمَنوا؛ لأنَّ الدِّفاعَ قد أُسنِدَ إلى لفظِ الجلالةِ في ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ﴾، وفي ﴿يُدَٰفِعُ﴾ ضميرٌ يعودُ على لفظِ الجلالةِ، فيُفيدُ إسنادَ الدِّفاعِ إليهِ سبحانَهُ وتعالى مرَّةً أخرى، فيُفيدُ تقوّي الحُكْمِ، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا، إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ الَّذينَ آمَنوا، وفي ذلكَ مناسبةٌ لسياقِ تثبيتِ قُلوبِ المؤمنينَ وتأكيدِ نُصرةِ اللّهِ لهُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 271.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 54.

براعةُ التَّعبير بالمضارعِ ﴿يُدَافِعُ﴾:

تجدُّدُ الدِّفاعِ واستمرارُهُ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ على أنَّ دِفاعَ اللهِ تعالى عنِ الَّذينَ آمَنوا شأنُهُ مُتجدِّدٌ مُستمرٌّ، لا ينقطعُ في حينٍ مِنَ الأحيانِ، وهو سبحانَهُ وتعالى ناصرُهم ومُؤيِّدُهم على كلِّ أعدائِهم، وهم في مَعيتِهِ وحِمايتِهِ ورِعايتِهِ على الدَّوام، وفي المضارع تنبيهٌ لطيف على أنَّ هذا الدِّفاع ليس ثابتًا في كلِّ وقتٍ، بل قد ينقطع في وقتٍ ما ابتلاءً للمؤمنين وللكافرين معًا، ولحكمة يُريدها سبحانه من نحو تمحيصِ أهلِ الإيمان، وإمهال أهل الكفران.

توجيهُ القراءاتِ في: ﴿يُدَافِعُ﴾:

ثـراءُ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ القرآنيَّة

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ويعقوب: ﴿يَدْفَعُ﴾ بفتحِ الياءِ والفاءِ وإسكانِ الدّالِ مِنْ غيرِ ألفٍ، وقرأ الباقونَ: ﴿يُدَٰفِعُ﴾ بضمِّ الياءِ وفتحِ الدّالِ وألفٍ بعدَها معَ كَسْرِ الفاءِ[1]، ومَنْ قرأ: ﴿يُدَٰفِعُ﴾ فمعناهُ: يُبالِغُ في الدَّفْعِ عنهُم كما يُبالِغُ مَنْ يُغالِبُ فيهِ؛ لأنَّ فعلَ المُغالِبِ يجيءُ أقوى وأبلغَ[2]، والصّيغةُ تدلُّ على مقابلةِ الفعلِ بمِثْلِه، فاللهُ يدفعُهم وهم يُقابِلونَ أيضًا بالمدافعةِ، فيَحدُثُ تدافعٌ وتفاعلٌ من الجانبَيْنِ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ صيغةُ المفاعلةِ للدَّلالةِ على تكرُّرِ الدَّفْعِ، فإنَّها قد تُجرَّدُ عن وقوعِ الفعلِ المُتكرِّرِ من الجانبَيْنِ، فيبقى تكرُّرُهُ كما في الممارسةِ، فالمعنى: يبالغُ في دَفْعِ غائلةِ المُشرِكينَ وضَرَرِهم - الَّذي من جملتِهِ الصَّدُّ عن سبيلِ اللهِ - مبالغةَ مَنْ يُغالِبُ فيهِ، أو يدفعُها عنهُم مرَّةً بعدَ أخرى بحسَبِ تجدُّدِ القصدِ منهُم إلى الإضرارِ بالمسلمينَ، كما في قولِهِ ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾

(1) ابن الجَزَريّ، النّشر: 2/ 326.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 159، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 228، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9830.

[المائدة: 64]، وحجّة من قرأ بغير ألف أنه جعل الفعل من واحد - وهو اللّه جل ذكره - يدافع عمن يشاء[1].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾:

حذفُ المفعولِ طـريـقٌ إلى لطائفَ لا تُحصى

ذُكِرَ في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾: أَنَّ اللّهَ يدافِعُ عن الَّذينَ آمَنوا، ولم يُذْكَرْ ما يدفعُهُ؛ تشييعًا للمفعول وتعميمًا له، وفي التَّعميم إعظامٌ لقوَّة اللّه وقهرِه وغلبتِه، فلا شيءَ يقوم أمامَ دفعِه ودفاعِه.

وأولى العموم بإيقاع الفعل ما جاء موصوفًا بعد ذلك في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[2]، ففي هذا الإتباعِ إيذانٌ بمفعولِ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ المحذوفِ، أيْ: يُدافِعُ الكافرينَ الخائنينَ، ويدلُّ الحذف بقرينة السّياق على الإشارة إلى عِظَمِ محبَّةِ اللّه مَنْ يدافِع عنهم مِنَ الَّذين آمنوا من خلال وقوعِ المدافعة على مَن نُفيتْ عنهمُ المحبَّة مِنَ الخوَنَة الكفَرَة مع ما في تركِ ذِكْرِ المفعول من التَّحقير؛ تمهيدًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾.

ويجوز أن يُرادَ بالحذفِ إثباتُ الفعل في نفسه من غير نظرٍ إلى مفعولٍ، أيْ: مِن شأنه تعالى أن يكون منه دفعٌ ودفاع عن الَّذين آمنوا؛ لأنَّه تعالى يحبُّهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيماءُ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ وأنَّ دِفاعَ اللهِ عنهُم لأجلِ إيمانِهم

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾؛ لِما فيهِ مِنَ الإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ، وأنَّ دِفاعَ اللّهِ عنهُم لأجلِ إيمانِهم[3]، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللّهَ يدافعُ عنهُم؛ لأنَّهم آمَنوا، وإنَّما ذكَر القرآنُ الإيمانَ؛ لأنَّه أمُّ مقامات الطّاعات وأوَّلُها، فإذا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 154، ومكّي، الكشف: 2/ 120.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 228، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 515.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 271.

كان اللّه يدفع، ويدافِع عن الَّذين آمنوا؛ فكيف بالمحسنين الَّذين قال فيهم: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؟

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

بيانُ قيمةِ الإيمانِ عندَ اللهِ سبحانَهُ وتعالى

عُبِّرَ بالموصولِ وصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ اللّهَ يدافعُ عنِ المؤمنينَ) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّهُ إذا دافعَ عمَّنِ اتَّصفَ بمُطلَقِ الإيمانِ - كما تدلُّ عليهِ صيغةُ الماضي - فأحرى أنْ يُدافعَ عمَّنْ ثبتَ لهُ الإيمانُ الكاملُ، كما تدلُّ عليهِ صيغةُ اسمِ الفاعلِ[1]، وفي ذلكَ ترغيبٌ لكلِّ مَنْ وقعَ منهُ وصفُ الإيمانِ في الخارجِ[2]، ومبالغةٌ في بيانِ قيمةِ الإيمانِ عندَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى.

إعرابُ الجملةِ وعلَّةُ فصلِها:

الجملةُ استئنافٌ تعليليٌّ فُصِلَتْ عمّا قبلَها لكمالِ الاتِّصالِ بها

لمّا خصَّ سبحانَهُ وتعالى المؤمنينَ بِدفاعِهِ عنهُم ونُصرتِهِ لهُم؛ جعلَ العِلَّةَ في ذلكَ أنَّهُ لا يُحِبُّ أضدادَهم، وهم الخَوَنةُ الكَفَرةُ الَّذين يَخونونَ اللّهَ والرَّسولَ، ويَخونونَ أماناتِهم، ويَكفُرونَ نِعَمَ اللّهِ[3]، فقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ واردٌ على وجهِ الاستئنافِ؛ جوابًا لما عسى يُسألُ عن سببِ الدِّفاعِ عنِ الَّذينَ آمَنوا، فيكونُ المعنى: (إنَّ اللّهَ إنّما يَنْصُرُ المؤمنينَ؛ لأنَّهُ يُبْغِضُ أضدادَهم)[4]، وذِكْرُ هذا التَّعليلِ يُفْهِمُ عكسَه، وإذا كان اللّه يُدافع عن الَّذين آمنوا، ويدفع عنهم؛ كان مُحِبًّا لهم، وإذا كان مُحبًّا لهم؛ كان مُبغضًا وغير مُحبٍّ لأضدادهم، فبَيْنَ هذه الجملةِ وما قبلها كمالُ اتِّصالٍ من نوعِ التَّوكيدِ المعنويِّ الخفيِّ؛ فلهذا غابت الواو، فلم يقلْ تعالى: (وإنَّ اللّهَ لا يحبُّ كلَّ خوّانٍ كفور).

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 190.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 54.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 159، والنّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 442.

(4) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 72.

غرضُ التَّوكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾:

في التّوكيدِ تمكينٌ لمحبَّته تعالى أهلَ الإيمان وبغضهِ أهلَ الكفران

جيءَ بالتَّوكيدِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ للاعتناءِ بمضمونِ الجملة، ولزيادةِ المبالغةِ في تأكيدِ الجملة السّابقة؛ لأنَّ هذه الجملةَ مُقرِّرةٌ لمضمونِ الجملةِ الأولى، فإنَّ المدافعةَ منَ اللّهِ لهُم عن عبادِهِ المؤمنينَ مُشعِرةٌ بأنَّهم مُبْغَضونَ إليه غيرُ محبوبينَ له[1]، ففي التَّوكيدِ تمكينٌ لمحبَّته تعالى أهلَ الإيمان، وعدم محبَّته أهلَ الكفران.

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

تقويةُ استقلالِ الجملةِ

الظّاهرُ أنْ يُقالَ: (إنَّهُ لا يُحِبُّ كلَّ خوّانٍ كفورٍ)، لتقدُّم لفظِ الجلالةِ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾، ولكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾؛ لِما في التَّعبير بلفظِ الجلالةِ منَ الملاءمةِ لسياقِ بُغْضِ الكَفَرةِ، الَّذينَ كَفَروا بذي الجلالِ والكمالِ، الَّذي لا ينبغي الكفرُ به؛ ولأنَّ إظهارَ لفظِ الجلالةِ يُقوّي استقلالَ الجملةِ، فتكونُ بمنزلةِ المَثَلِ السّائرِ، وإظهارُ اسم الجلالة من مظاهر توكيد الجملة المُمَكِّن لمحبَّة اللّه لأهل الإيمان بإلاهيتِه والإحسانِ في أُلوهيتِه، ولعدم محبَّته لأهل الإساءة والكفران.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿لَا يُحِبُّ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ نَفْيَ المحبَّةِ كنايةٌ عنِ البُغْضِ[2]، كأنَّهُ قيلَ: إنَّ اللّهَ يُبْغِضُ كلَّ خوّانٍ كَفورٍ.

علَّةُ استعمالِ المضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يُحِبُّ﴾:

استمرارُ انتفاءِ المحبَّةِ وتجدُّدُهُ

عُبِّرَ بالمضارعِ المَنفيِّ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 540، وأبو زهرة التّفاسير: 9/ 4990.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108.

﴿كَفُورٍ﴾؛ لأنَّ المضارعَ للتَّجدُّدِ والاستمرارِ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفْيُ؛ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ وتجدُّدَهُ، والمعنى: (إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ كلَّ خوّانٍ كَفورٍ)، وفي المضارع المنفيِّ ﴿لَا يُحِبُّ﴾ تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ استمرارَ عدمِ الحبِّ وتجدُّدَه قد ينقطعُ بدخول الخائنِ الكافر في زُمرة المحبوبين أهلِ الإيمان والإحسان والوفاء للرَّحمن.

دلالةُ استعمالِ ﴿كُلَّ﴾ في سياقِ النَّفْيِ:

عـمـومُ نَـفْـيِ محبَّةِ اللهِ عن جميعِ الخائنين الكافرينَ

يُفيدُ لفظُ ﴿كُلَّ﴾ في سياقِ النَّفْيِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ عُمومَ نَفْيِ محبَّةِ اللّهِ عن جميع الخائنين الكافرينَ؛ لعُمومِهم في الخيانةِ والكفر آحادًا وجماعاتٍ، فليسَ منهُم إلّا خوّانٌ كَفورٌ[1]، ولا يُتوهَّمُ مِنْ قولِهِ: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أنَّهُ يُحِبُّ بعضَ الخوَنَةِ الكَفَرَة؛ لأنَّ كلمةَ ﴿كُلَّ﴾ اسمٌ جامدٌ لا يُشعِرُ بصفةٍ، فلا يُتوهَّمُ توجُّهُ النَّفْيِ إلى معنى الكلّيةِ المُستفادِ مِنْ كلمةِ ﴿كُلَّ﴾[2].

بلاغةُ صيغةِ المبالغةِ في الوصفَيْنِ:

خيانةُ العظيمِ أمرٌ عظيمٌ

عُبِّرَ بصيغةِ المبالغةِ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كلَّ خائنٍ كافرٍ)؛ لأنَّهُ في حقِّ المشركينَ، وهم مُبالِغونَ في الخيانةِ؛ لا للإشعارِ بمحبَّةِ الخائنِ والكافرِ[3]، ولأنَّ أصلَ معنى خيانةِ أمانةِ اللّهِ وكُفْرانِ نِعْمتِهِ لا يكونُ حقيرًا، بل هو أمرٌ عظيمٌ[4]، فالخيانةُ تتضمَّنُ مخالفةَ الفِطْرةِ، وعدمَ طاعةِ أوامرِهِ ونواهيهِ، وعِبادتَهم أحجارًا وإشراكَهم معَ اللّهِ، وخيانةَ المؤمنينَ ونَكْثَ العُهودِ، كما كانَ يفعلُ اليهودُ، وكذلكَ الكَفورُ هو الَّذي أشركَ، وسيطرَتْ عليهِ الأوهامُ، وكفرَ بنعمةِ اللّهِ تعالى، وافترَى على اللّهِ سبحانَهُ، فادَّعى أنَّ اللّهَ حرَّمَ، والحالُ أنَّهُ ما حرَّمَ، وأنَّهُ أحلَّ،

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4991، واطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 319.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 272.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 108.

(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 298.

والحالُ أنَّهُ ما أحلَّ[1]، إلى غير ذلك ممّا يقتضي المبالغةَ في وصفهم بالكفر والخيانةِ؛ إعظامًا لجريمة فعلِهم، وتشنيعًا لقبح صنيعهم.

فائدةُ وصفِ الخوّانِ بالكَفورِ:

الكفرُ ناشئٌ أصلُهُ من الخيانة مُنشئٌ لألوانٍ من قبيحِ الخيانات

وُصِفَ الخوّانُ بالكَفورِ في قولِ الحقِّ سبحانَهُ وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾، ولم يجِئِ التَّرتيبُ بالعكس: (إنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ كلَّ كَفورٍ خوّانٍ)؛ إشارةً إلى أنَّ مَنْشأَ الكفرِ هو الخيانةُ ونَقْضُ عهدِ التَّوحيدِ، ولِما في تأخيرِ ﴿كَفُورٍ﴾ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما بعدَها.

وقد يكون المقصودُ في الأصلِ الوصفَ ﴿خَوَّانٖ﴾، ويكون الوصفُ: ﴿كَفُورٍ﴾ تعليلًا له، مِن تمامه - إذا روعي مطلَعُ السّياق - قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الحج: 25]، فخيانةُ أهلِ الكفر أهلَ الإسلام والإيمان، ونقضُ العهد معهم بإخراجهم من المسجد الحرام، وصدُّهم عنه؛ إنَّما سببُه رسوخُهم وعَراقتُهم في الكفر وتعصُّبُهم له.

بلاغةُ المُقابلةِ في الآيةِ:

قُرِنَ الدِّفاعُ عن المؤمنينَ ببُغْضِ الكافرينَ لإظهار عِزِّ الله ورحمتِه

في قولِه جلَّ سلطانُهُ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ مقابلةٌ لطيفةٌ، حيثُ قوبِلَ الدِّفاعُ عنِ المؤمنينَ ببُغْضِ الكافرينَ، وقوبِلَ وصفُ الإيمانِ بوصفَيِ الخيانةِ والكفرِ؛ ليكونَ السّامعُ أمامَ صورتَيْنِ متقابلتَيْنِ، إحداهما يظهرُ فيها حبُّ اللّهِ لأوليائِه المؤمنينَ، ودِفاعُهُ عنهُم بلُطفِه ورحمتِه، والأخرى يظهرُ فيها بُغْضُهُ لأعدائِه الخَوَنةِ الكَفَرةِ، المستلْزِمُ هزيمتَهم وإذلالَهم بقَهره وعِزَّته.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4990.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحجّ: 39]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن دفاع الله تعالى عن المَظلومين إذْنُه سبحانه لهم بردّ الظُّلم

قال أبو حيّان: "لمّا ذكر اللّهُ تعالى جملةً ممّا يُفْعَلُ في الحجِّ، وكان المشركون قد صَدّوا رسولَ اللّه ﷺ عامَ الحُدَيبية، وآذَوا مَن كان بِمكَّةَ مِنَ المؤمنين أنزلَ اللّهُ تعالى هذه الآياتِ مُبَشِّرةً المؤمنين بِدَفْعه تعالى عنهم، ومُشيرةً إلى نَصرِهِم، وإذْنِه لهم في القتال"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُذِنَ﴾: (أذن) أصلان مُتقارِبان في المعنى، مُتباعِدان في اللّفظ؛ أحدُهُما: أُذُنُ كلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ: العِلمُ، وعنهما يتفرَّع البابُ كلُّه[2]، يُقال: أذِنَ بالشَّيءِ إذْنًا وأذَنًا وأذانةً: عَلِم، وفي التَّنزيل العزيز: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]؛ أي: كونوا على عِلم، وآذَنَه الأمرَ وآذَنه بِهِ: أعلَمَه[3]، والإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازَتِهِ والرُّخصَةِ فيه[4]، والإذن في الشّيء: رفع الحِجاب عنه، والمأذون فيه القتال لقوله: ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾، فالمقصودُ بقوله تعالى هنا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ التّرخيصُ لهم في مُقاتلة الكفّار بعد أنْ لم يكُنْ مأذونًا لهم فيه.

2) ﴿يُقَـٰتَلُونَ﴾: (قتل) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ، يُقال: قتلَهُ قتلًا، والقِتلَة: الحالُ يُقتَلُ عليها، يُقال: قَتَلَهُ قِتلَةَ سوءٍ، والقَتلة: المَرَّةُ الواحدةُ[5]، والمُقاتَلَةُ: المُحارَبة وتحرّي القتل، قال تعالى:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 514.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أذن).
(4) الرّاغب، المُفردات: (أذن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قتل).

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [البقرة: 193]، والاقتِتالُ كالمُقاتلة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ [الحُجرات: 9]، فمعنى ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾؛ أي: يواجَهون بالاعتداء عليهم، ويعانون قتالَ الكفّار إيّاهم.

3) ﴿ظُلِمُواْۚ﴾: (ظلم) أصلان صحيحان؛ أحدُهما: خلافُ الضّياء والنّور، والآخَرُ: وضعُ الشّيء غيرَ مَوضِعه تعدّيا؛ أي: بلا وجه حقٍّ، فالظُّلمُ أصلُه: وضعُ الشَّيء في غير مَوضِعه، ويجوز أن يكون أصلُه النُّقصانَ، ومنه قوله: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الكهف: 33]؛ أيْ: لم تنقُصْ، وهو في القرآن على أربعة أوجهٍ: الشِّرك، وظلمُ العبد نفسه، وظلمُ الإنسان غيره، والنّقص[1]، والمعنى الثّالث هو المقصود في الآية الكريمة.

4) ﴿نَصۡرِهِمۡ﴾: (نصر) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إتيان خير وإيتائه، ونَصَرَ اللّهُ المسلمين: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عدوِّهم، يَنصرُهُم نَصرًا، وانتصرَ: انتقَمَ، وهو منه، وأمّا الإتيانُ فالعرب تقول: نصرتُ بلدَ كذا، إذا أتيتَهُ[2]، قال الرّاغب: "النَّصرُ والنُّصرَةُ: العَونُ، قال تعالى: نَصرٌ مِنَ اللّهِ وفَتحٌ قَريبٌ، ونُصِرَ أرضُ بني فلان؛ أي: مُطِرَ، وذلك أنَّ المطَرَ هو نُصرَةُ الأرض، ونَصَرتُ فلانًا: أعطيتُه، إمّا مُستعارٌ من نَصرِ الأرض، أو مِنَ العَوْن"[3]، والمعنى المُراد في الآية الكريمة واضح.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لِمَن ظُلِمَ أنْ يَدفعَ الظّلمَ وقد وعَدَه الله تعالى بالنّصر

أذِنَ اللّهُ تعالى لِمَن اعتُدي عليه مِنَ المؤمنين، أو على أهله، أو على عِرضه، أو على بيته، أو على ماله، أو على أيِّ شيءٍ يخصُّهُ بأن يَدفعَ ذلك الظّلمَ، وأن يَردَّ عن كلِّ ذلك صولةَ الصّائل، وأنّه لا حَرَجَ عليه

(1) العسكريّ، الوجوه والنّظائر: (الظُّلم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).

(3) الرّاغب، المُفردات: (نصر).

فيه، واللّهُ تعالى يَعِدُ المَظلومين بالنّصر على الظّالمين، وهو سبحانه يَنتَقِمُ لهم مِنَ الظّالمين؛ فلا يَخش مظلومٌ أن يَرُدَّ عن نفسه، وعمّا يخصُّه ظُلمَ الظّالم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾:

إذنُ الله تعالى للمظلومين بالدّفاع عن أنفسهم دفاعٌ منه ﷻ عنهم

فُصِلَت جملةُ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ عن جملة ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: 38] لكمال الاتّصال بينهما؛ إذِ الثّانيةُ بدلُ اشتمالٍ مِنَ الأولى؛ فمِن دِفاع اللّه تعالى عنِ المظلومين الإذنُ لهم بالمُقاتلة والمُدافَعة عن أنفسهم[1]، وعدم ترْكِهم للاستكانة وتجرُّع الظّلم والهوان؛ فاللّه تعالى لا يرضى ذلك لأوليائه المؤمنين.

سرُّ التّعبير بالإذن دون الإباحة أو الرُّخصة:

المؤمنون وقّافون عند تعاليم الحقِّ ﷻ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالإذن هنا - دون الإباحة أو الرُّخصة - لِما فيه مِنَ الكناية عن أنّ المؤمنين لا يَصدرون في مقاتلة الظّالمين عن هوى أنفسِهم، وإنّما عن إذْنٍ مِن ربِّهم ﷻ، وأنّهم ما لم يَأذَنْ لهم اللّهُ تعالى بذلك لا يفعلوه؛ امتثالًا منهم لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [الحُجرات: 1]، وقد "كان المشركون لا يزالون يُؤذونهم باللِّسان وباليد؛ فشكَوا إلى النَّبيِّ ﷺ؛ فلمّا هاجروا أُمِروا بالقتال"[2]، ومعنى ﴿أُذِنَ﴾ أنّهم كانوا يَنتظرون الأمرَ بالقتال، ويستشرفون للنَّصر على الأعداء، لكن لم يُؤذَن لهم في ذلك، فلمّا أراد اللّهُ لهم أنْ يُقاتلوا أذِنَ لهم فيه[3].

دلالة بناء الفعل ﴿أُذِنَ﴾ لغير فاعله:

قد يُؤثِرُ النَّظمُ الكريم حذفَ الفاعل تنبيهًا على خطورة الفعل

في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ بُنيَ الفعلُ ﴿أُذِنَ﴾ لغير

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 17/ 272.
(2) السَّمرقنديُّ، بحر العلوم: 2/ 462.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويِّ: 16/ 9835.

فاعله؛ لأنّ الآذِنَ واحدٌ معلومٌ لدى المؤمنين، ولا يَعتَدُّ المؤمنون بإذنٍ مِن غيره سبحانه وتعالى؛ لذلك كان طَيُّه مثلَ ذِكره في حدود العِلم به، وتَعَيُّنِه لديهم، وظاهرُ الإذن "أنّه كان هنالك منعٌ عنِ القتال حتّى أُذِنوا وأُمِروا، ولكن لا ندري لأيَّةِ جهة كان ذلك"[1].

وفي طَيِّ ذِكره أيضًا تناسبٌ لِصيغ الأفعال المبنيَّة لغير فاعليها: ﴿يُقَتَلُونَ﴾، ﴿أُخْرِجُواْ﴾، ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾... الخ، فَعَمود المعاني هنا مؤسَّسٌ على طَيِّ الفاعلين؛ تركيزًا على خطورة الأفعال في نفسها.

توجيه القراءات في الفعل ﴿أُذِنَ﴾:

في تنوُّع القراءات القرآنيّة إثراءٌ للدّلالات السّياقيّة

قرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب، وخلف العاشر بخلاف عنه ﴿أُذِنَ﴾ "بضمِّ الهمزة، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَذِنَ﴾"[2]؛ فالحُجَّةُ لِمَن ضَمَّ أنَّه دلَّ بذلك على بناء الفعل لِما لَم يُسَمَّ فاعلُه، والحُجَّة لِمَنْ فتح أنَّه جعل الفعلَ للّٰه ﷻ"[3]؛ وعلى كلا القراءتَيْن فالإذنُ مِنَ اللّٰه سبحانه لعباده المؤمنين بأنَّهم إذا صَلحوا للقتال، أو قاتَلَهُمُ المشركون قاتَلوهم[4].

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ﴾:

ظُلمُ النّاس يُؤذِنُ بنصر الله تعالى لهم

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ﴾ تتضمَّن معنى التَّعليل؛ أي: بسبب أنَّهم يُظلَمون؛ ولأجل أنَّهم يُقاتَلون؛ مُنِحوا هذا الإذن، وتتضمَّنُ هذه اللّام أيضًا معنى الاختصاص والاستحقاق؛ أي: اختُصّوا بهذا الإذن، ومُنِحوه من قِبَلِ الآذِنِ الأعلى سبحانه وتعالى، واستحقّوه لِما احتملوه في سبيل نشر دين اللّٰه تعالى، والذَّودِ عنه.

لطيفة التَّعبير بالموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾:

المقصودُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ هنا "أصحابُ رسول اللّٰه ﷺ الّذين

---

(1) الماتُريدي، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 423.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 226.

(3) ابن خالويه، الحُجّة، ص: 254.

(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 540.

قد يُهيِّئ التّعبيرُ بالموصولِ لذِكْرِ أسبابِ الفعلِ قبلَه

كان مشركو مكّةَ يُؤذونَهم أذًى شديدًا، حتّى هاجر ﷺ؛ فأُنزِلتْ هذه الآية، أو هم قومٌ خَرجوا مهاجرين فاعترضَهم مشركو مكّةَ؛ فأُذِن لهم في مقاتلتهم"(1)؛ وذلك "لإقامة حُجَّةِ اللّه تعالى عليهم، ووفاءً بوعده الّذي امتنَّ به بفضله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15]؛ فاستمرَّ النّاسُ في الطّغيان، وما استدلّوا بواضح البرهان"(2)، وفي التّعبير بالموصول أيضًا اتّساقٌ جلي مع غرض اقترانه بلام التّعليل؛ لأنّ الموصولَ هيّأ لِذِكْر سبب الإذن، وأومأ إلى وجهه، فإنَّهم إنّما أُذِنَ لهم لِما ووجِهوا به مِنَ المُقاتَلَة والظّلم والبَغْي، وكذلك هيَّأ الموصول لِعطاء صيغة المضارعة في جملة الصِّلة ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾، وهيَّأ لِذِكر مُتعلِّقاته.

دلالة بناء المضارع ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ للمجهول:

ليس جديرًا بشرف الذِّكر مَن آثرَ الكفرَ على الإيمان

في بناء الفعل المضارع ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ للمجهول إشارتان بارعتان: الأولى: إهمالُ شأن الفاعل، وهم الكفّارُ الّذين قاتلوا المؤمنين، وإبعادٌ لهم، واستنكارٌ لظُلمهم، ومقاتلتهم المؤمنين؛ وهو القولُ الحقُّ الّذي لا يقتضي منهم ذلك، والثّانية: تطهيرُ السّياق من ذِكرِهم، وتحاشي التَّصريح باسمهم؛ فإنَّهم ليسوا أهلًا للذِّكر الشَّريف، وإلى ذلك ففي البناء هنا للمجهول اتّساقٌ واضحٌ لهذا الخيط الجامع للأفعال المبنيَّة لغير فاعليها في هذا السّياق - كما سبق التّنبيه إليه -، وفي هذا أيضًا إشارةٌ إلى أنّ المؤمنين لم يبتدئوا بالقتال؛ بل ابتدأ غيرُهُم عندما كانوا يؤذون المؤمنين، وهمّوا بقتل النّبيِّ ﷺ، وأحاطوا بداره ليقتلوه، ولكنّ اللّه نجّاه منهم(3).

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 160.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 69.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4991.

بلاغةُ المجاز في الفعل ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾:

أذى المؤمنين كقتالهم

القتالُ في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ "مُستعمَلٌ في المعنى المجازيِّ؛ إمّا بمادَّته؛ وإمّا بصيغة المُضي؛ فعلى قراءة - فتح التّاء - ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ فالمُرادُ بالقتال فيه القَتلُ المجازيُّ، وهو الأذى، وأمّا على قراءة ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ - بكسر التّاء - فصيغةُ المُضي مُستعمَلةٌ مَجازًا في التَّهيُّؤ والاستعداد؛ أيْ: أُذِنَ للّذين تهيَّؤوا للقتال، وانتظروا إذْنَ اللّه تعالى، إذْ لم يكُنْ قتالٌ قبلَ ذلك، كما يُؤذِنُ به قولُه تعالى عَقِبَ هذا: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾"(1).

توجيهُ القراءات في الفعل ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾:

في تعدُّد القراءات القرآنيّة إثراءٌ للدّلالات السّياقيّة

ورد في الفعل ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ قراءتان: بالبناء للمجهول ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾، وهي قراءة نافع، ابن عامر، وحفص، وأبي جعفر؛ فالفاعلُ غيرُ المؤمنين، وبالبناء للمعلوم ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾؛ وهي قراءة الباقين، فالفاعلُ هم (المؤمنون)، وعلى قراءة الكَسر تكونُ الآيةُ خبرًا عن فعل المأذونِ لهم، وعلى قراءة الفتح فالآية خبرٌ عن فعل غيرِهم، وأنَّ الإذْنَ وقَعَ مِن أجل ذلك لهم؛ ففي فتح التّاء بيانُ سَبَبِ القتال(2).

بلاغةُ الكنايةِ في التّعبيرِ بالقتال:

ليس وراء المُقَاتَلَة عدوانٌ

في النَّصِّ على المُقاتَلَة في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ كنايةٌ عن ممارسةِ الكفّار ضدَّ المؤمنين جميع أنواع الإيذاء والاعتداء والبَغي ممّا يسبقُ المُقاتَلَة بطريق اللُّزوم الكنائيّ؛ وممّا لا مُقتضى له إلّا أنْ قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾؛ فليس وراء المُقاتَلَة عُدوانٌ، وهي قائِلَةٌ بأنّ ما دونها مِن تعنيفٍ وسَبٍّ وتعذيبٍ قد مورِس كلُّه ضدَّ المؤمنين.

دلالةُ التّعبير بالقتال دون القتل:

قد تجوز مقاتلةُ المرءِ ولا يجوز قتلُهُ

في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ أوثرَ لفظُ القتال دون

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 273.

(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 4/ 126.

القتل؛ ذلك أنّه "لا يَلزمُ من إباحة المُقاتلة إباحةُ القتل؛ لأنّ المُقاتَلةَ مُفاعلَةٌ تستلزِمُ وقوعَ القتال مِنَ الجانبيْن، ولا كذلك القتل، وحُكي عنِ الشّافعيّ قوله: ليس القتالُ مِنَ القتل بسبيلٍ؛ فقد يَحلُّ قتالُ الرَّجل، ولا يَحلُّ قتلُهُ"[1]؛ "فتبيَّنَ بهذا أنَّه لا تَلازُمَ بين القتال والقتل، وأنّ جوازَ القتال أوسعُ من جواز القتل؛ لأنَّ القتلَ لا يكون إلّا في أشياءَ معيَّنةٍ"[2].

إشارة الجماعة في الفعل ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾:

المــؤمـــنـــون يـتـحـمَّـلـون في سبيل دينهم كلَّ عَنَتٍ

في إيقاع فعل المقاتلة على ضمير الجماعة - نائب الفاعل - دليلٌ على نَيْل ذلك الظّلمِ المؤمنين جميعًا مِن قِبَل الكافرين، حتّى إنَّه قد نال إمامَهم رسول اللّه ﷺ، ولم يَسلمْ منه لا هو ولا كبار الصّحابة، وهكذا هي حال المؤمنين خَلَفًا بَعْد سَلَف، يَتحمَّلون في سبيل دينهم كلَّ عَنَتٍ، ويدفعون عنه كلَّ بَغيٍ.

دلالة الباء في جملة ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾:

الظّـلـمُ مُـسـوِّغٌ لـلـدّفـاع عـنِ النّفس

الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ باء السَّببية؛ أي: إنّ الإذن لهم بالدّفاع عنِ النَّفس بسبب وقوعِ الظُّلم عليهم من أولئك الكافرين البُغاة، وأنّ علّةَ ذلك الإذن لهم بالذَّود عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم، هي ما صُبَّ عليهم من ظُلمٍ غير مُبرَّرٍ، ولا مَقبول.

لطيفةُ حذفِ متعلّقِ الفعل ﴿أُذِنَ﴾:

لـلـمـظـلـومِ مُدافَعةُ الظّالمِ بما يناسبُ نوعَ الظّلمِ وحجمَه

في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ " محذوفٌ تقديره: أُذِن لهم أن يقاتلوا، أو بالقتال"[3]، أو "أُذِن لهم في القتال؛ فحُذف المأذون فيه لدلالة ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾ عليه"[4]؛ ولطيفة ذلك الحذف

---

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 76.
(2) العثيمين، الشّرح الممتع على زاد المستقنع: 2/ 48.
(3) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 273.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 160.

تنويع أساليب المأذون فيه؛ من مُقاتلةٍ وتَفاوضٍ وانتقام - بحقِّه -، وغير ذلك، ولو ذُكِرَ المُقدَّرُ المحذوفُ لَتَعيَّنَ، ولَمَا جاز سواه، وفي ذلك تضييقٌ لا يُناسبُ توسعةَ الإذن أصلًا.

سرُّ التَّوكيد في جملة ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾:

لا إذْن بالقتال لِمَن لم يَتحقَّق وقوعُ الظّلم عليه

التّوكيد في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ قاطِعٌ بِوُقوع الظُّلم الصّريح على الصّحب الكرام ورسولِهم ﷺ، وأنَّ إنزالَ الظُّلم المُحقَّق المُؤكَّد بالإنسان مبرِّرٌ قويٌّ لِدفاعه عن نفسه ودينه، ومُسوِّغٌ لِعدم خنوعه وانكساره أمام الظّالم الطّاغي، وفي المقابل يوحي التَّوكيد - بمفهوم المخالفة - في جملة ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ بِعدم الإذن لِمَن لم يَتحقَّق ويتأكَّد وقوعُ الظّلم عليه؛ فليس لأحدٍ أن يَتمحَّل مَظلمةً ليتَّخذَها ذَريعةً للنَّيل مِنَ النّاس، واللهُ تعالى عليمٌ بذات الصّدور.

دلالة التّعبير بالظُّلم الصّريح ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾:

أيُّ اعتداء على الإنسان يمنحُهُ الإذن بردِّ العدوان

التّعبير بالظُّلم الصّريح في جملة التّعليل ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ يدعَمُ بقوّةٍ الإذنَ للمظلومين بِمدافعة الظُّلم وردِّ العدوان، ويؤازرُ التّوكيدَ، ويُقرِّرُ بيانَ وجه الإذن لهم، وإلى ذلك يُفسِحُ التّعبيرُ بالظّلم - وهو بمعناه الأعمّ: وضعُ الشّيء في غير مَوضِعه[1] - لِدخول جميع أنواع الاعتداء على الإنسان؛ باللّسان، أو باليد، أو بغيرهما، ويُقرِّرُ أنَّ كلَّ ذلك من شأنه أن يمنحَ الإذنَ للمُعتدَى عليه بردِّ العدوان عن نفسه.

لطيفة بناء الفعل ﴿ظُلِمُواْۚ﴾ للمجهول:

الظّالم مخذولٌ مُبعَدٌ وليس جديرًا بشرف الذِّكر

فاعل الفعل ﴿ظُلِمُواْۚ﴾ "أهل مَكَّةَ؛ حين أخرجوهم من ديارهم"[2]، وفي بناء هذا الفعل للمجهول إيحاءٌ بأنّ الفاعلين لهذا الظّلم ممقوتون عند الله تعالى، مذمومون عند النّاس، وأنّه ﷻ يُبعِدُهم عن ساحة الطُّهر، وأنّهم ليسوا جديرين بشرف الذِّكر، وقد صَدَرَ منهم الظّلمُ

---

(1) الجوهريُّ، الصِّحاح: (ظلم).

(2) السّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 58.

لعباد اللّه تعالى المؤمنين، وفي طيّ ذِكرهم كذلك تطهيرٌ للسّياق من رائحتهم، وإيحاءٌ بأنَّ كلَّ ظالم مُبعَدٌ من رحمة اللّه تعالى في الآخرة، كما كان مُعاديًا لأوليائه في الدّنيا، مخذولٌ عنِ الحقِّ والهُدى.

معنى الواو في جملة الفاصلة:

النّصرُ يَنتظِرُ المظلوم حين يأخذ بأسباب الكرامة وينهض لِدفع الظّلم

الواو في جملة الفاصلة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ "استئنافيّةٌ، والجملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للوعْد لهم بالنّصر على طريق الرّمز والكناية"[1]، ويمكن اعتبارُها واوَ الحال؛ أي: والحال أنّ اللّه تعالى على نصرهم بدون الإذن لهم وبدون مُقاتلتِهم الظّالمين لَقديرٌ بإنزال المصائب والهزائم بالظّالمين، ويجوز أن تكون عاطفةً؛ عطفَت جملةَ الفاصلة على جملة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾؛ أي: أُذِنَ لهم بذلك، وذُكِّروا بقدرة اللّه على أنْ ينصُرَهم[2]؛ ففي (الواو) بِشارةٌ للمظلومين بأنّ نصرَ اللّه تعالى يَنتظرُهم حين يأخذون بأسباب العزّة والكرامة.

بلاغة التّوكيد في الآية:

المُراد مِنَ الإذن للمؤمنين بالدّفاع عن أنفسهم غَلَبَتُهم وإظهارُهُم على عدوِّهم

التَّوكيد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ لتحقيق الخبر[3]، وهو يُكافِئُ التَّوكيدَ في جملة ﴿بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ ويوازِنُه، ويَدعَمُ ثقةَ أهل الحقّ في أنفسهم، وفي عون اللّه تعالى لهم، ويُقرِّرُ لديهم عدمَ تَخَلّيه سبحانه عنهم؛ فهُم أولياؤُهُ ونَصَرَةُ دينه[4]، وفي هذا الخبر "وعدٌ لهم بالنّصر، وتأكيدٌ لِما مَرّ مِنَ العِدَةِ الكريمة بالدَّفع، وتصريحٌ بأنّ المُرادَ ليس مُجرَّدَ تخليصهم من يد المشركين؛ بل بِغَلَبَتِهم وإظهارِهم عليهم، وتأكيدُه بكلمة التَّحقيق واللّام لِمزيد تحقيقِ مضمونه، وزيادةِ توطين نفوس المؤمنين"[5].

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه، ص: 6438.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 274.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 317.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 537.

دلالةُ إظهار اسم الجلالة:

وعدُ الله تعالى بالنّصر مُتحقِّقٌ عاجلًا أو آجلًا

في إسناد القدرة - على نصر المظلومين - إلى اللّه تعالى مباشرةً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ داعمٌ قويٌّ للمظلومين؛ لأنَّ القديرَ على نصرهم هو مَن لا يُغلَب ﷻ لا أحد غيره؛ وهذا يزيدهم قوَّةً إلى قوَّة إيمانهم، ويمدُّهم بوقود الثّقة المُطلَقة في تَحَقُّق النّصر عاجلًا أو آجلًا - بحسب علم اللّه تعالى بما يُصلِحُهم ويَنفعُهم؛ لكنّه مُتحقِّقٌ على كلِّ حالٍ.

براعة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ﴾:

قضيّة نصر المظلومين مِنَ اللّه تعالى بِمكان

ممّا يدعَمُ الثّقةَ واليقينَ بالنّصر في نفوس المظلومين تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ﴾، والدّفعُ به قبل بلوغ القارئ نهايةَ الجملة، وقبل وصوله إلى خبر المبتدأ ﴿لَقَدِيرٌ﴾، وكأنَّ قضية نصرهم صارت عنايةَ اللّه تعالى الوحيدة؛ فقدَّم ما إليه يُتلهَّفُ، وبه النّفسُ تُشغَلُ، ولتحقُّقه تَتوقُ، وممّا يتآزَرُ مع ذلك التَّقديم - كما سيأتي قريبًا إنْ شاء اللّه تعالى - التّعبيرُ بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾، والتَّصريحُ بالنَّصر مصدرًا مُضافًا إليهم ﴿نَصۡرِهِمۡ﴾.

نكتة حرف الاستعلاء في ﴿عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ﴾:

نصرُ المظلومين تحت قدرته سبحانه وتعالى يمُدُّ به مَن يشاء

حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ﴾ يُصرِّحُ بقدرة اللّه تعالى ﴿عَلَىٰ﴾ تحقيق نصرهم، وأنَّه ﷻ المُستعلي القادِر القاهِر الّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ، ولا يَمتنِعُ عليه شيءٌ، وأنَّ نصرَ المظلومين تحت مشيئته سبحانه وتعالى وقدرته، يُصرِّفُهُ كيف يشاء، ويَمُدُّ به مَن يشاء.

دلالة التّعبير بالمصدر ﴿نَصۡرِهِمۡ﴾:

النّصرُ مُحقَّقٌ للمظلومين - إذا دفعوه - لا محالةَ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالمصدر (نصْر) دون المضارع (أن يَنصرهم) لِما في التّعبير بالمصدر من إتاحة إضافة النّصر إلى ضميرهم مباشرةً ﴿نَصۡرِهِمۡ﴾، وكأنّه نصْرٌ خاصٌّ بهم مَعلومٌ لهم، مُقرَّرٌ لا نِزاعَ فيه، والتّعبيرُ بالمصدر كذلك أشدُّ رُسوخًا وثباتًا

ودوامًا مِنَ التَّعبير بالفعل (يَنصُر)؛ لِما هو مقرَّرٌ من أنَّ الاسمَ يُفيد الثّبوت والدّوام، والفعلَ يُفيد التَّجدُّد والحدوث، ففي التَّعبير بالمصدر (نَصْر) مزيدُ تثبيتٍ - لِمَن ظُلموا - على طريق الحقّ، وأنَّ عليهم ألّا ينخدعوا بالباطل وأهله مهما ارتفعت نبرتُه، وألّا يستجيبوا للظّالمين، ويُتابعوهم على طريقهم الفاسدة.

سرُّ الإضافة في قوله تعالى: ﴿نَصۡرِهِمۡ﴾:

للمظلومين عند الله تعالى نَصرٌ خاصٌّ مُحقَّقٌ لا محالةَ

المقصود بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ﴾؛ أيّ: "على نَصر المؤمنين وقهر الكفّار ... وهذه بشارة للمؤمنين بالنُّصرة"(1).

وفي إضافة النّصر إلى ضمير ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ - مظلومين - مزيدُ تكريمٍ لهم، ودَعمٌ لِصُمودهم في نُصرة الحقِّ والدّين.

وفي تلك الإضافة ﴿نَصۡرِهِمۡ﴾ إيحاءٌ بأنَّ اللّه تعالى سيُكافئهم نصرًا بنصرٍ، وأنَّ هذا النَّصرَ نصرُهُم المَنوطُ بهم، المضمونُ لهم، المُحقَّقُ لا محالةَ.

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لَقَدِيرٌ﴾:

في توكيد قدرة الله تعالى على نصر المظلوم تعريضٌ بالانتقام مِنَ الظّالم

(اللّام) في الخبر ﴿لَقَدِيرٌ﴾ لام التّوكيد، الّتي تتآزَرُ مع خصوصيّات التّركيب - مِن توكيدٍ في أوّل الجملة، واسميتها، وصيغة المبالغة (قدير) في آخرها - على تطمين المظلومين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ بحتميَّة تحقُّق الوعد، ورغم أنّهم مؤمنون، لا يشكّون في إخبار اللّه تعالى لهم بقدرته على نصرهم - بيد أنّ في التّوكيد تعريضًا بالظّالمين تنزيلًا لهم مَنزِلةَ المُتردِّد في ذلك؛ لأنّهم استَبطَؤوا النّصر(2)؛ وتلويحًا بانتقام اللّه تعالى منهم بأيدي هؤلاء المستضعفين؛ وذلك يكسرهم ويُزلزلهم مِنَ الأعماق مهما أظهروا التَّجاسُرَ على الحقِّ وأهله.

(1) الكرمانيّ، لُباب التّفاسير، ص: 1585.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 274.

دلالةُ التَّعبير بلفظ القُدرة:

المظلوم على وعدٍ بنصر الله تعالى له

في التّعبير بالقدرة في الخبر ﴿لَقَدِيرٌ﴾ "تحريضٌ للمظلوم - وإنْ كان ضعيفًا - أنْ ينتصف مِمَّن ظَلَمه، فإنَّه على وعدٍ بنصر اللّه تعالى له"[1]، قال الزّمخشريّ: "والإخبار بكونه قادرًا على نصرهم عِدَةٌ منه بالنَّصر، واردةٌ على سَنَنِ كلام الجبابرة، وما مرَّ من دفعه عن الّذين آمنوا، مُؤذِنٌ بمثل هذه العِدَة أيضًا"[2]، و"إذا أذِنَ لهم بمقاتلتهم كان مُتكفِّلًا لهم بالنَّصر"[3]، فإيثار التَّذكير بالقُدرة هنا يَدعَمُ المؤمنين الصّامدين، ويمدُّهم بالثّقة والتَّثبيت في سبيل نُصرة الحقّ مهما تطاول عليهم النّصرُ وتباعد، ويُطمئنهم أنّهم مدعومون بالقدرة الإلهيّة.

سِرُّ التّعبير بصيغة المبالغة في ﴿لَقَدِيرٌ﴾:

الله تعالى قادر على نَصر عباده دون قتال؛ لكنّه يريد أن يُبلوا جهدَهم

صيغة المبالغة في ﴿لَقَدِيرٌ﴾ تُقرِّر أنَّه ﷻ "قادرٌ على نَصر عباده المؤمنين مِن غير قتالٍ، ولكن هو يريد من عباده أن يُبلوا جُهدَهم في طاعته، كما قال: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [مُحمَّد: 4]، والآيات في هذا كثيرة"[4]، ويتّسق مع عطاء التّعبير بالقدرة هنا صياغتُها في قالب المبالغة (فعيل): (قدير)، الّذي لا يوصَفُ به على سبيل الحقيقة إلّا الواحد سبحانه وتعالى؛ فصيغة (فعيل) تدُلُّ على ثبوتيَّة الوصف في صاحبها ولزومها، فكأنَّها أصبحت سجيَّةً له وخِلْقَةً، فضلًا عن دلالتها على الشِّدَّة في الوصف والمبالغة فيه.

بلاغةُ الاحتراس في جملة الفاصلة:

لا يُعجِزُ الله تعالى شيءٌ وليس بحاجة إلى أفعال البشر

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ "احتراسٌ؛ أيَ: لا تتوهَّموا

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1044.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 272.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 434.

أنّ اللّه يحتاج إلى جهادكم الكفّارَ؛ بل هو قادرٌ على رفع أذاهم عنكم، ولكن جرتْ عادتُهُ بترتيب الأسباب على مُسَبِّباتِها"[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإذن والإجازة:

الإذنُ يكون قبل الفعل والإجازة تكون بعده

الإذن: هو الرُّخصة في الفعل قبل إيقاعه، ويدُلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ﴾ [النّور: 62]، والإجازة: الرّخصة في الفعل بعد إيقاعه، وهو بمعنى الرّضا بما وقع[2]، ومن هنا فالإذن يُناسبُ الرّخصةَ بالقتال في الآية قبل أن يقع.

ففي إيثار النَّظم الكريم مفردةَ الإذن إشادةٌ بالمؤمنين، الوقّافين عند حدود اللّه تعالى، لا يتقدَّمون بقولٍ ولا فعلٍ حتّى يأذنَ اللّهُ تعالى لهم.

القدرة والقوَّة:

القـدرة: حرية الفعل والتّرك، والـقـوّة: فعل الأمور الشّاقّة

"القدرة: كون الحيّ بحيث إنْ شاءَ فَعَلَ، وإنْ شاءَ تَرَكَ، والقوّة: هي المعنى الّذي يتمكّنُ به الحيُّ من مزاولة الأفعال الشّاقّة"[3]، فآثَرَ النَّظمُ الكريمُ هنا مفردةَ (القدرة) في الخبر ﴿لَقَدِيرٌ﴾ تنبيهًا على أنّه الحُرُّ المختارُ، فوَصفُ القُدرةِ يَشمَلُ القوَّة وزيادة.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 191.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 33.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 421.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحجُّ: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن أبشع الظُّلم التَّضييقُ على النّاس في عباداتهم

لَمّا أذِن الله تعالى في الآية السّابقة لعباده المظلومين أن يقاتِلوا الكفّارَ، وأن يدفعوا عن أنفسهم ظُلمَهم، ذَكَرَ ﷻ هنا سببًا آخر لذلك الإذن بالقتال، هو أنّهم لاقوا منهم أشدَّ العَنَتِ وأبشعَ الظّلم؛ إذ ضيَّقوا عليهم حتّى أخرجوهم من ديارهم الّتي تعلَّقَت بها نفوسُهم، فآثروا الفرارَ بدينهم على البقاء في ديارهم؛ "فجاء وصفُهُم بما يبيّنُ مَظلوميتَهم على وجهٍ يجمعُهم ويوثّقُهم بالله"[1]، ووجه بيان ظلمهم؛ أنّ الخروجَ مِنَ الدّيار والبعدَ عنِ الأوطان ظلمٌ في نفسه، فكيف إذا كان بغيرِ سببٍ مُسوِّغ أو حقٍّ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دِيَٰرِهِم﴾: (دور) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على إحداق الشَّيء بالشَّيء من حَواليه[3]، والدّيار جمع الدّار، والدّار: المَحَلُّ يَجمَعُ البناءَ والعَرصَةَ، أُنثى؛ قال ابنُ جِنّي: هي مِن دارَ يَدورُ لِكثرة حركاتِ النّاسِ فيها[4]، والدّار: المَنزِل مَبنيّةً كانت أو غيرَ مَبنيّةٍ، وهي مُؤنَّثة، وتصغيرها: دويرة، وجمعها في أدنى العدد: أدؤر، والكثير: الدّور، وربَّما قالوا: دارة؛ في مَوضِع الدّار[5]، والمعنى في الآية واضح.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 229، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4992.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 56.
(3) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (دور).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (دور).
(5) العسكريّ، التّلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 169.

2) ﴿دَفۡعُ﴾: (دفع) أصلٌ واحدٌ مشهورٌ يدُلُّ على تَنحية الشّيء، يُقالُ: دفعتُ الشّيءَ أدفعُهُ دَفعًا، ودافعَ اللّهُ عنه السّوءَ دِفاعًا[1]، والدَّفع: الإزالة بقوةٍ وتدافعوا الشّيءَ: دَفَعَه كُلُّ واحِدٍ مِنهُم عَن صاحِبِه، وتدافعَ القومُ؛ أيّ: دفَعَ بعضُهم بَعضًا[2].

3) ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾: (هدَّ) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على كَسرٍ وهَضم وهَدم، وهَدَدتُهُ هَدًّا: هَدَمتُه، ويَرجِعُ البابُ كُلُّه إلى هذا القياس"[3]، والهَدمُ: نَقضُ البناءِ وإسقاطُه، وكذلك التَّهديم، قال اللّه تعالى: ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾، والهَدَمُ: ما تَهَدَّمَ من جَوانب البئر فسَقط فيها[4]، والهَدم: التّخريب، ويقعُ على كلِّ البناء، فما دامَ شَيءٌ مِنَ البناء لا يكون هدمًا ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾؛ معناهُ: أنَّها هُدِّمَت حتَّى صارَت غيرَ صوامِع[5].

4) ﴿صَوَٰمِعُ﴾: (صمع) أصلٌ واحدٌ، يدُلُّ على لَطافَةٍ في الشَّيءِ وتَضامّ[6]، والصَّوامِعُ: مَنازِلُ الرُّهبان، قال بَعضُهم: كلُّ مُنضَمّ مُتَصَمِّعٌ، والصَّومَعة من ذلك، وقال أيضًا: ثَريدَةٌ مُصَمَّعة: مُدَقَّقَة، وصَومَعَتُها: ذِروَتُها، وصَومَعَةُ الرّاهِب منها، أو هي منها لأنّها مُدَقَّقَةٌ، ويُقالُ: صَومَعُ أيضًا بلا هاءٍ، والعِقابُ: صَومَعَةٌ؛ لأنّها أبدًا مرتَفِعَة مُنتَصِبَة على شَرَفٍ، والصَّوامِعُ: البَرانِس[7].

5) ﴿وَبِيَعٌ﴾: البيعةُ: كنيسة النَّصارَى، وجَمعُها: بِيَعٌ، قال اللّه ﷻ: ﴿لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾[8].

6) ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾: صلوات اليهود: كنائسُهم، أيّ: مَواضِع الصّلوات، وقيل: إنَّها مَواضِعُ صلوات الصّابئين، وقيل: معناه؛ لهُدِّمَت مَواضِعُ الصَّلَوات؛ فأُقيمَتِ الصّلوات مَقامَها[9]، قال الرّاغب: "ويُسمَّى مَوضِعُ العبادةِ الصَّلاةَ، ولذلك سُمّيت الكنائسُ: صلوات"[10]؛ ومِنَ الأخير المعنى المُراد في الآية الكريمة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دفع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (دفع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هد).
(4) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (هد).
(5) أبو البقاء، الكُلِّيَّات، ص: 963.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صمع).
(7) المدينيّ، المَجموع المُغيث: (صومع).
(8) الخليل، العين: (بيع).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (صلت).
(10) الرّاغب، المُفردات: (صلا).

7) ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾: المَساجِدُ: السُّجودُ ومَواضِعُه مِنَ الجَسَدِ والأرضِ، الواحِدُ: مَسجَدٌ والمَسجَدُ: مَوضِعُ السُّجودِ نَفسه[1]، ويُراد بالمساجد ههنا: بيوت اللّه المعهودة الّتي تُقامُ فيها صلوات المسلمين.

المَعْنى الإجْماليُّ:

لـولا مـجـاهـدةُ أعداء الله تعالى لَـضـاعَـت دور العبادة

في هذه الآية الكريمة يصفُ اللّهُ تعالى المؤمنين الّذين أذِن لهم في الآية السّابقة بالدّفاع عنِ النّفس - بأنَّهم الّذين ضيَّقَ عليهم الكفّارُ حتّى اضطرّوهم إلى ترك ديارهم، والفرار بدينهم إلى الحبشة، ثمَّ إلى المدينة المنوّرة، وأخبر تعالى أنّ إخراجَهُم لم يكُنْ لِجُرم ارتكبوه؛ بل كان لِحقٍّ اتَّبعوه، و"لولا ما شرعَه اللّهُ من قتال أعداءِ اللّه وأعدائهم لاستولى أهلُ الشِّرك عليهم، ولَضاعَت مَواضِعُ العبادة في الأرض"[2].

ثمّ أكَّدَ اللّهُ تعالى على سُنّةٍ من سُننِه - الّتي لا تتخلَّفُ - بأنَّه ﷻ ينصرُ مَن ينصرُ دينَه ورُسُلَه، وأنَّ ذلك لا يُعجزُه؛ فهو القويُّ العزيز الّذي لا يُغْلَب.."، وقد أنجز سبحانه وعدَه وسُنَّتَه، فسلَّطَ عبادَه المؤمنين مِنَ المُهاجرين والأنصار على أعدائه؛ فأذلّوا الشِّرك والمشركين، وحطَّموا الأكاسرة والقياصرة، وأورثَهم أرضهم وديارهم"[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ﴾:

مِـــن أعـظـم الظُّـلم الإخـراجُ مِنَ الدّيار

فُصِلَت جملةُ ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ عمّا قبلها لِما بينهما من كمال الاتّصال؛ إذِ الثّانية بدلٌ مِنَ ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ في الأولى، والبدل عين المُبدل منه؛ فلم يَحتَجْ إلى واصلٍ لفظيٍّ يصلُهُ به، وإنَّما يتَّصلان ويلتحمان من تلقائهما؛ وتلك خصيصة تزيدُ التّراكيبَ

(1) ابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (سجد).
(2) حجازيّ، التّفسير الواضح: 2/ 590.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 318.

وثاقةً، وتجعلُ توالُدَ المعاني ونَسلَها من بعضها البعض متينَ الصّلة مُتآزرَ اللُّحمَة.

دلالة التّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

اسـمُ الموصـول عُنصرتشويقٍ بـمـا فـيـه من إبهام

التَّعبير باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من عناصر التَّشويق إلى ما وراءه من كواشف إبهامه؛ لأنّه فقيرُ الدّلالةِ يَطلبُ ما يَسُدُّ فَقرَ دلالته، فإذا جاءَت جملةُ الصِّلة تمكَّنَت في النَّفس فضلَ تمكُّنٍ، وصارت هي الأخرى عُنصرَ تشويقٍ؛ وتَطلب ما وراءها من تفاصيلِ قيودها ومتعلِّقاتها، ثمّ يَطلبُ كلُّ ذلك ما وراءه مِنَ الخبر الّذي زادَ الشّوقُ إليه، فيكون في لذّةِ ما حُصِّلَ بعد معاناةٍ.

كذلك يحقِّقُ الموصولُ "إيماءً إلى أنَّ المُراد بالمقاتلة الأذى، وأعظمُه إخراجُهم من ديارهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾ [البقرة: 191]"[1]، ويمكن رفعُ الموصول على أنّه "خبرٌ لمبتدأ محذوف؛ تنويهًا بقَدرهم ورفعًا لشأنهم"[2]، كما يحتمِلُ محلُّه النَّصب والرَّفع؛ فمحلُّ النّصبِ على المدحِ، ومحلُّ الرَّفعِ بإضمارِ مبتدأ، والجملةُ مرفوعة على المدح[3].

لطيفة التَّعبير بالإخراج دون التَّهجير:

العبدُ مُطالَبٌ ببذل جهده ثمّ يَنتظِرُ تدخُّلَ الله تعالى بقدرته

إخراجُ المؤمنين من ديارهم "أحدُ ما ظُلموا به"[4]، وفي التّعبير به كنايةٌ عن شدَّة الاضطهاد الّذي عانَوه؛ وأنَّه لم يبقَ أمامهم من سبيل إلّا الخروجُ؛ وما بقيَت لديهم من قوّةِ احتمالٍ؛ ليبقَوا في ديارهم، وأنَّهم تحمَّلوا مِنَ الأذى في سبيل الحفاظ على دينِهم ما لا يُمكِنُهُم بعده احتمالُ ما فوقه.

وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ العبدَ مُطالَبٌ ببذل جهده أوّلًا، ولا يُكلِّفُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 274.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 438.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 109.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 69.

اللّه تعالى نفسًا إلّا وسعَها، وإلّا ما آتاها، ثمَّ يَنتظِرُ تدخُّلَ اللّه تعالى بقدرته الّتي لا يقومُ لها شيءٌ.

سرُّ بناء الفعل ﴿أُخۡرِجُواْ﴾ للمجهول:

مَن يظلِمُ النّاسَ حقيقٌ بالإبعاد ولا يستحِقُّ شرفَ الذِّكر

في بناء الفعل ﴿أُخۡرِجُواْ﴾ للمجهول؛ أوَّلًا: اتِّساقُه مع بناء الأفعال قبلَه وبعدَه لغير فاعليها، فقبله ﴿أُذِنَ﴾، ﴿يُقَٰتَلُونَ﴾، وبعده ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾... الآية/ إلى آخره، وثانيًا: يُشتَمُّ من بناء الفعل ﴿أُخۡرِجُواْ﴾ للمجهول ذَمًّا لِمَن أخرَجوهم، وتحقيرًا لهم بإبعاد ذِكرهم، وتجاهُل شأنهم، وإنكار صنيعهم؛ وأنَّهم مِنَ الجُرم والإثم بحيث لا يُستحضَرُ ذِكرُهم؛ بل يُبعدون إلى ساحة التَّجاهل والنِّسيان.

بلاغة المجاز في الفعل ﴿أُخۡرِجُواْ﴾:

مَن كان سببَ الفعل فهو شريكٌ فيه وحاملٌ لتبعاته

الكفّارُ لم يُخرِجوا المؤمنين من ديارهم حقيقةً إخراجًا مباشرًا؛ بل "ضيَّقوا عليهم حتّى خرجوا بأنفسهم، فأُضيف الإخراجُ إليهم لّما كانوا أسبابًا لخروجهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ﴾ [البقرة: 36]، وإبليس لم يَتَوَلَّ إخراجَهما مِنَ الجنّة، ولكن حرَّضَهما على سببِ إتيانه؛ فلم يستقرّا بعده في ذلك المكان؛ فأُضيفَ الفعلُ إليه"[1]، وإلى ذلك أُسنِدَ الإخراجُ إلى الكفّار؛ "لأنَّ الكلامَ في مَعرِض تقرير الذَّنب وإلزامه"[2]؛ فكان إثباتُ الإخراج للكفّار أوجبَ لذمِّهم، وأكشفَ لدورهم الآثم في ذلك الخروج.

معنى ﴿مِن﴾ في ﴿مِن دِيَٰرِهِم﴾:

مِن أشقِّ المَشاقِّ مفارقةُ النَّفس إلفَها مِن أهلٍ وأوطانٍ وغيرهما

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ حرفُ ابتداء ومجاوَزة، وهي تفيد ابتداءَ الغاية، وأنّ المؤمنين المظلومين كأنّهم اقتُلِعوا من مَغارِسِهم الأصليّة الّتي نَبَتوا فيها ولهم بها عُلقة نفوس؛

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 9/ 589.

(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 124.

فإنّهم لم يَخرجوا بمحض إرادتهم؛ بل اضطُرّوا إلى الخروج منها ومجاوزتها إلى حيث يأمنون على دينهم وأنفسهم.

وما أشقَّ مُفارَقةَ النَّفس إلْفَها مِن أهلٍ وأوطانٍ وسواهما؛ لذلك كانَتِ الكنايةُ بالإخراج بارعةً في تصوير شدَّة المعاناة النّفسيّة، فضلًا عنِ المعاناة البدنيَّة للنَّجاة بالدّين الحقِّ والنَّفس، ولا تزال ترنُّ في أسماع الأُمَّة المَقولةُ الخالدةُ للرَّسول ﷺ، وهو يَنظرُ إلى مكَّةَ: "إنَّكِ لأحَبُّ أرضِ الله إليَّ، ولَولا أنَّ قَومي أخرَجوني مِنكِ، ما خَرَجتُ"(1).

دلالة إيثار لفظ ﴿دِيَٰرِهِم﴾:

ديــارُ المـرء أعـزُّ عليه وأحبُّ إليه من مَنازِله

جاء القيدُ بالجارِّ والمجرور: ﴿مِن دِيَٰرِهِم﴾ بإيثار اسم الدّيار دون المَنازِل والأوطان؛ لأنَّ معنى الدّار يُصرِّح بمركزيّة الوجود فيها، وأنَّ صاحبَها يدورُ عليها، ويأوي إليها، مهما غاب عنها، وإلى ذلك فإنَّ ذِكرَ الدّار يُغني عن ذِكر الأوطان والمَنازِل، ولا يُغنيان عنها؛ فللأوطانِ دلالةٌ عامَّةٌ وارتباطٌ آخر غير ارتباط الدّيار، والمَنازِلُ مَواضِعُ النُّزول، والنُّزولُ قد يكون مُؤقَّتًا، كما يَنزِلُ المُسافِرُ في نُزُلٍ ثُمَّ يغادِرُ؛ لذا فذِكرُ الدّيار يعكِسُ مدى ارتباط أصحابها - الّذين أُخرجوا منها - بها، ومدى تعلُّقِ نفوسهم بذكرياتهم الحبيبة فيها، ففي الإخراج منها كنايةٌ عن شدَّة المعاناة الّتي يَتعنّاها أهلُها بإخراجهم منها.

نكتة الإضافة في ﴿دِيَٰرِهِم﴾:

إضـافـة الـدّيـار إلــى أصحابها تعكِسُ اعتلاقَ نفوسهم إيّاها

ويُقرِّرُ المعنى السّابق إضافةَ الدّيار إلى ضميرهم ﴿دِيَٰرِهِم﴾، الّتي تَعتلِقُها نفوسُهم كما يَعتلِقُ ذِكرُها ضميرَهم؛ فهي مِلكٌ لهم خاصَّةٌ بهم حبيبةٌ إليهم، فإذا كانت ﴿دِيَٰرِهِم﴾ بهذه المعنى من

(1) ابن المُبرِّد الحنبليّ، التّخريج الصّغير والتّحبير الكبير، حرفُ النُّون: 3/ 185، برقم: (1079)، والحديث برواية أخرى في مسند أحمد، برقم: (18737).

نفوسهم؛ كان إخراجُهُم منها شديدًا على نفوسهم، وظهرَت بتلك الإضافة مُضاعَفةُ الهمِّ، وثقلُ الغَمِّ عليهم، وتجلَّى مدى الظُّلم الّذي تجرَّعوه بإخراجهم منها؛ ممّا اقتضى تطمينَهم بالخبر العظيم ﴿لَقَدِيرٌ﴾ في خاتمة الآية السّابقة.

سرُّ التّقييد ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾:

الإبعاد بجريرةٍ يُـهـوِّن على النَّفس بخلاف الإبعاد بدونها

تَتضاعَفُ معاناةُ هؤلاء المظلومين، ويتأكَّدُ ثِقَلُ ظُلمهم وهمّهم، إذا كان إخراجُهم ﴿مِن دِيَٰرِهِم﴾ ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾؛ لأنّ الإخراجَ بحقٍّ يُهوِّن على النّفس، ويُخفِّفُ ألمَ الفِراقِ ومرارةَ الإبعاد؛ لذلك أيضًا كان إذنُ الله تعالى بأنَّه ﷻ على نصرهم لَقديرٌ.

سرُّ الاكتفاء بالإخراج من ﴿دِيَٰرِهِم﴾ دون (أموالهم):

الإخـــراجُ مِـنَ الـدّيـار يَستلزِمُ الإخـــراجَ مِـنَ الأمـوال مِن غير عكس

اكتفَتِ الآيةُ الكريمةُ هنا بذِكر الإخراج من ﴿دِيَٰرِهِم﴾ دون (أموالهم)، في حين جمعت بينهما ذِكرًا في قوله تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [الحشر: 8]؛ وذلك أنَّ مَقامَ الآية في سورة الحشر يوصي بالمهاجرين خيرًا؛ بتعداد فضائلهم، والدّعوة إلى معرفة حقّهم، ووجوب وصلهم، أمّا هنا فالمَقامُ لِذِكر سبب الإذن للمؤمنين بالقتال، فاكتُفي بذِكر أبشع أنواع الظُّلم، وهو الإخراج مِنَ الدّيار، وهو بالضّرورة يشمَلُ ما تحته مِنَ الإخراج مِنَ الأموال وغيره.

معنى الباء في ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾:

التّوحيدُ موجِبٌ الإقرارَ والتَّمكينَ لا الإخــراجَ والتَّسييرَ

الباء في القيد ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ تُفيدُ معنى السَّببيَّة، وتُفصِحُ عن أنّ إخراجَهم مِن ديارهم إنّما كان ظلمًا واعتداءً، وذلك سببٌ غيرُ حقٍّ حملَ الظّالمين على إخراج المؤمنين، وأنَّهم إنَّما "أُخرِجوا بغيرِ موجِبٍ سوى التّوحيد الّذي ينبغي أن يكون موجبَ الإقرار والتَّمكين لا موجبَ الإخراج والتَّسيير"[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 229.

سرُّ العدول عن (ظلمًا) إلى ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾:

إخراج النّاس مِن ديارهم (بغير حق) يقتضي ظُلمَهم وزيادة

عَدل النَّظمُ الكريمُ عن ذِكر إخراجهم (ظلمًا) إلى ذِكر إخراجهم ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾؛ لأنَّ إخراجَهم ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ يَستلزِمُ أن يكونَ ظُلمًا وزيادةً، والزّيادةُ هي النَّصُّ على انعدام (الحقّ) في ذلك الإخراج أصلًا، ولذلك نُكِّرَ ﴿حَقٍّ﴾.

دلالة تنكير ﴿حَقٍّ﴾:

الإخراجُ مِنَ الدّيار قد يكون بحقٍّ وقد يكون بغير حقٍّ

ومن إشارات تنكير ﴿حَقٍّ﴾ أيضًا التّصريحُ بتمام الظّلم الّذي تعرَّض له المؤمنون المخرَجون مِن ديارهم؛ إذ عُدِم منهم كلُّ حقٍّ، وأيّ حقٍّ يمكن أن يكون سببًا مقبولًا، ومنطقيًّا حقيقيًّا لإخراجهم؛ لذلك كان القيدُ به ضروريًّا في توقُّف ذمِّ الظّالمين المُخرِجين عليه؛ لأنَّ مِنَ الإخراج مِنَ الدّيار ما يكون بِحقٍّ كما في أحكام التَّعزير بالتَّغريب وغيره.

معنى ﴿إِلَّآ﴾ في جملة ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ﴾:

أسلوبُ تأكيد المدح بما يُشبه الذَّمَّ عنصرُ إقناعٍ بصحّة الحُكم

﴿إِلَّآ﴾ هنا مُفرَّغةٌ، والاستثناءُ بها مُنقطِعٌ؛ "أيْ: لكنّهم يقولون: ربُّنا اللّه"[1]؛ لذلك حصل بهذه الجملةِ الشّريفةِ توكيدُ المعنى بما يشبهُ ضدَّه؛ فصورة الأسلوب أنّهم أُخرِجوا ﴿بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ إلّا حقًّا واحدًا؛ هو قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، وهذا لا يكون حقًّا موجِبًا للإخراج؛ بل هو موجِبٌ للإبقاء والتَّطمين والتَّكريم.

وهذا الأسلوب معروف في البديع بتأكيد المدح بما يُشبهُ الذَّمَّ[2]، وذلك كقول النّابغة الذُّبيانيّ:

ولا عَيبَ فيهِم غيرَ أنّ سُيوفَهُم *** بِهنَّ فلولٌ من قراعِ الكَتائِبِ[3]

وهو عنصرُ إقناعٍ بصحّة الحُكم المطلوبِ تقريرُهُ؛ وذلك من

(1) الكِرمانيُّ، لباب التّفاسير، ص: 1585.
(2) الصّعيديّ، بغية الإيضاح: 4/ 622.
(3) النّابغة الذّبيانيّ، ديوان النّابغة الذّبيانيّ، ص: 44.

حيثُ إنَّه يوهِمُ نزاهةَ الحُكم وتحريرَ القضية؛ وسبيلُهُ الاجتهاد في البحث عمّا يُتمِّمُ العبارةَ؛ فإذا عُدِم، وكان لا بُدّ من إتمام الكلام؛ جيء بما يُؤكِّدُ المطلوبَ على سبيل الافتراض؛ وعليه فإنْ كان قولُهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ موجِبًا للذَّمِّ، فهو موجِبٌ لإخراجهم، لكنّه ليس كذلك؛ فكان إخراجُهم محضَ ظلم وافتراءٍ.

دلالة المصدر المؤول في ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ﴾:

التعبيرُ بالمصدر ما لا يُتيحه الجملةُ المصدريَّة تُتيح

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ مصدريَّة، وهي والمضارع بعدها في تأويل مصدر، والتَّقدير: (أُخرجوا من ديارهم بقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾)، غير أنّ إيثارَ التّعبيرِ بـ﴿أَن﴾ المصدريَّة دون المصدر نفسه أتاح ذِكْرَ المضارع بما يُطوَى مِن دلالاتٍ، تأتي لاحقًا إن شاء الله تعالى.

وقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ ليس بحقٍّ يَستوجِبُ الإحراجَ؛ لأنَّه "لا يَضُرُّ بغيرهم؛ فالاعتداءُ عليهم بالإخراج مِن ديارهم لأجل ذلك ظُلمٌ بَواحٌ واستِخدامٌ للقوَّة في تنفيذ الظُّلم"[1].

إشارة التّعبير بـ ﴿يَقُولُواْ﴾ دون الإيمان:

أثرُ قول القائل على السّامعين أقوى من أثر اعتقاده الصّامت المكتوم

التّعبيرُ بالقول في الجملة المصدريَّة ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ﴾ صريحٌ في أنّ مُجرَّدَ القولِ ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ يغيظُ الكفّارَ، ويستفزُّ عداوتهم لأهل الإيمان؛ لدرجة أن يُخرِجوهم من ديارهم، والنّاسُ لا يرَون مُعتقَدَ القائل؛ وإنَّما يكفي منه أنْ يقولَهُ وتُذيعَهُ وتنشرَهُ، فإذا انتشر تأثَّر به سامعوه حتمًا، وقد نعى الله تعالى على قائلي السّوء، وجازاهم به، وذلك صريحٌ في الآية الكريمة: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: 85]، والآية الكريمة: ﴿وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ [المائدة: 64]؛ فالقول يتعدَّى خيرُه أو شرُّه إلى النّاس بخلاف المُعتقَد الّذي يكون وقفًا على صاحبه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 275.

والكفّارُ يعلمون أنّ القولَ مِن أخطر ما يُؤَثِّرُ في النّاس، بخلاف المُعتقَد المكتوم الّذي يكون وقفًا على صاحبه؛ فالنّاس لا يَرَونَ مُعتقَدَ القائل؛ وإنّما يكفيهم منه أن يقولَه، فإذا قالَه انتشر وتأثَّر به سامعوه، وذلك مَكمَنُ حذر الكفّار هنا، فكان إخراج مَن قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾.

دلالة صيغة المضارعة:

إنّما راع الكفّارَ مِـنَ المؤمنين دعـوتُهـم إلى التّوحيد لا مُجرَّدَ إيمانهم المكنون

التّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ﴾ يُلمِحُ إلى أنّ المؤمنين لا يفترون عن إشاعة كلمة التّوحيد في النّاس، فضلًا عن استكنانها نفوسَهم وسكناها قلوبهم، وأنّ ذلك جُلّ مُهمّتِهم في هذه الحياة؛ وذلك يلتقي مع قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: 162].

وتجدُّدُ قول المؤمنين هنا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، وعدمُ سكوتهم، واكتفاؤهم بإيمانهم القلبيِّ، هو السّببُ الأكيدُ في التَّضييق عليهم، وإخراجهم من ديارهم.

مَوقِعُ جملة ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾:

مَقولَةُ (ربُّنا الله) مَكرُمَةُ المَكرُمات

جملة ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ مَقولُ قولِ الّذين ﴿أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾، وتلك جريمتهم إنْ كانت في معايير النّفوس القويمة والأخلاق المستقيمة جريمةً، لكنّها بتلك المقاييس مَكرُمةُ المَكرُمات وغايةُ الغايات الّتي ينبغي أن تكون سببَ التّكريم والتّوقير؛ ذلك أنّ قولَ المؤمنين: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ يُفيدُ قصرَ الرُّبوبيَّة عندهم على الله تعالى وحدَهُ؛ إذ لا ربَّ سواه، ولا خالقَ سواه، ولا مَعبودَ بحقٍّ سواه[1].

سرُّ التّعبير بالرّبوبيّة دون الإلهيّة:

(ربُّنا الله) مصدرُ كلِّ نعمة ومولى كلِّ فضل

التّعبيرُ بعنوان الرُّبوبيّة في قول المؤمنين المُخرَجين: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ يُؤذِنُ بِشعورهم بتَنَزُّل الخيرات عليهم من ربِّهم الرَّحمان؛ فإنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4992.

اتّخاذَ المَخلوقين أربابًا يُكلِّفُ عَنَتًا، أمّا اتّخاذُ اللّه تعالى ربًّا فيَستنزِلُ البركاتِ والرّحماتِ، ويُنيلُ العبدَ صنوفَ الخيرات منه ﷻ، وكأنَّهم بقولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ يوجِّهون عنايةَ الظّالمين إلى مصدر كلِّ نعمةٍ، ومولى كلِّ فضلٍ، وأنَّ لديه ما يَرجون من مَنافِعِ ممّا يطلبونها عند غيره، ولا يجدونها.

دلالةُ الإضافة في قولهم ﴿رَبُّنَا﴾:

إضافة المؤمن نفسَه إلى الرّبّ تعالى تَمنحُه الشّرف والطّمأنينة بالنّصر

الإضافة إلى الرَّبِّ الرّحيم سبحانه وتعالى في قول المؤمنين: ﴿رَبُّنَا﴾ إضافةُ تشريفٍ وتكريم، وإضافةُ طمأنينةٍ وأمانٍ، يستمِدُّ منها العبدُ الثّقةَ في نَيل النّصر، ويَجِدُ فيها لنفسه السّكينةَ والوقار، وبها يَحتمِلُ الصّبرَ في سبيل نُصرة الدّين الحقِّ.

براعةُ الجمعِ بين الرّبوبيّة والألوهيّة ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾:

إظهارُ الكفّار عُلوَّهم على المؤمنين يُناقض شعورَهم الدّفين بخلافه

الجمعُ بين عنوان الرّبوبيّة وعنوان الألوهيّة في قول المؤمنين: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ صريحٌ في التّجرُّد مِنَ الولاء لِغير اللّه تعالى، وفصيحٌ في إخلاصهم الإيمانَ به وحدَه، وذلك ممّا يستفِزُّ الكافرين، ويوغِرُ نفوسَهم الآثمة؛ فإنّهم يودّون لو اختَلَّ إيمانُ المؤمنين، وانحرفوا عن سواء السّبيل كقوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ﴾ [النّساء: 89]، ثمَّ إنّ تصريحَ المؤمنين بِمَربوبيتِهم للّه تعالى في قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ يُعرِّضُ بخصوصيّةٍ لهم؛ وذلك يُشعِرُ الكفّارَ بنزول مرتبتهم عن مرتبة هؤلاء المؤمنين على عكس ما يراه الكفّار الّذين كانوا - ولا تزال أجيالهم - يُظهِرون أنّهم السّادة دون المؤمنين، وإنْ كانت بواطنُهم تحسِدُ المؤمنين على ظَفَرِهم بالعقيدة الصّافية والإيمان النّقيّ.

بلاغة الاستعارة ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾:

قال ابن عاشور: "لمّا كان المقصودُ مِنَ الحقِّ حقًّا يوجِبُ الإخراجَ؛ أي: الحقّ عليهم؛ كان هذا الاستثناءُ مُستعمَلًا على طريقة الاستعارة التّهكُّميّة؛

أيْ: إنْ كان عليهم حقٌّ فهو أن يقولوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ فيُستَفادُ من ذلك تأكيدُ عدم الحقِّ عليهم بسبب استقراءِ ما قد يُتَخيَّلُ أنَّه حقٌّ عليهم"[1].

دلالةُ الواو في جملة ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾:

في ذِكْـر العِلَّة تَيسيرٌ للتَّكليف على النّفوس

في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ "تقويةٌ للأمر بالقتال، وذِكْرُ الحُجَّةِ بالمَصلَحةِ فيه ... فكأنَّه قال: أُذِنَ في القتال فليُقاتِلِ المؤمنون، ولولا القتالُ والجهادُ لَتُغُلِّبَ على الحقِّ في كلِّ أُمَّةٍ"[2].

فالواو في جملة ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾ استئنافيَّةٌ تُبيِّنُ مع ما بعدها سُنَّةَ اللّه تعالى في خلقه، وتُجيبُ عن تساؤلٍ بشأن عَلاقات الفُرَقاء في هذه الدُّنيا، وتُقرِّرُ أنَّها مَبنيَّةٌ على سُنَّة التَّدافُع؛ فلا تميلُ كِفَّةٌ فتطيش أخرى، وليحصَلِ التَّوازنُ فأولئك يَظلمون، وهؤلاء يُقاومون، وأولئك يَهدمون، وهؤلاء يَبنون، وهكذا، وفي هذه الواو وما بعدها كذلك "تعليلُ مضمون جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾"[3].

دلالة ﴿وَلَوۡلَا﴾ في ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾:

سُـنَّـةُ الـدَّفـع يَنتفِعُ بها أهلُ أديـان التّوحيد جـمـيـعًـا لا المـسـلـمـون بخاصّة

﴿وَلَوۡلَا﴾ هنا تُفيدُ معنى الشّرط، وتُرتِّبُ عليه الجزاءَ، والشّرط ﴿دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾، والجزاء خراب الدّنيا المُتمثِّل في تهديم مَعابِدهم الّتي تُفعِمُهم هِمّةً، وتُشعِلُهم أملًا.

وجملة ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ "اعتراضٌ بين جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، فلمّا تضمَّنَت جملةُ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ الإذنَ للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أُتبِعَ ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذن بالدّفاع، مع التّنويهِ بهذا الدّفاع والمُتَوَلّينَ له بأنَّه دفاعٌ عنِ الحقِّ والدّين يَنتَفِعُ به جميعُ أهل أديان التّوحيد مِنَ اليهود والنّصارى والمسلمين"[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 275.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 124.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 276.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 276.

سرُّ التّعبير بالمصدر ﴿دَفۡعُ﴾:

سُنَّة الدَّفع واقعةٌ لا مَحالةَ ولا مَحيصَ عنها

التّعبيرُ بالمصدر في قوله تعالى: ﴿دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾ يُفيدُ الثّبوت والدّوام، بخلاف التّعبيرِ بالفعل لو قيل في غير القرآن الكريم: (ولولا أن يَدفَعَ اللّهُ النّاسَ بعضهم ببعض)، ففي ﴿دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾ إلماحٌ إلى أنّه واقِعٌ لا مَحالة، وأنّه مِن سنن اللّه تعالى الّتي لا مَحيصَ عنها، وأنّ المؤمنين لا بدَّ لهم مِنَ القيام بدفاع أهل الباطل.

بلاغة المجاز ونكتة الإضافة ﴿دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾:

غاية الدَّفع العمرانُ لا الخرابُ وقيامُ حياة النّاس لا إفسادُها

حقُّ الدَّفع أن يُضافَ للمؤمنين، لكنّه أُضيفَ للّه تعالى؛ لأنّ "إذْنَ اللّه تعالى سببُ الدّفع، وهذا يُهيبُ بأهل الدّين إلى التَّألُّب على مقاومة أهل الشّرك"[1]، كذلك تضفي إضافةُ الدّفع إلى اللّه تعالى مِنَ الحكمة الحكيمة ما يُخلِّصُه للعمران لا للخراب، ويُنبِّهُ إلى أنّ غايتَه قيامُ حياة النّاس لا إفسادُها، ويُبشِّرُ المَظلومينَ - المأذونَ لهم في الآية السّابقة، بسلامة العاقبة وحسن الخاتمة ما التزموا ذلك القَصدَ، وعملوا على تحقيق ذلك الغرض، وأنَّ العاقبةَ ستكون لهم لا لظالميهم، وأنَّ الظّالمين إلى زوالٍ مهما تطاول على النّاس طغيانُهم.

توجيه القراءات في ﴿دَفۡعُ﴾:

في الدَّفع توصيةٌ بثبات المُدافِعين وفي الدِّفاع تهيئتُهم لتطاوُلِ أزمنتِهِ

ورد في كلمة ﴿دَفۡعُ﴾ قراءتان: ﴿دَفۡعُ ٱللَّهِ﴾ بغير ألفٍ، وهي قراءة الجمهور، و﴿دِفَٰعُ ٱللَّهِ﴾ بألفٍ، وهي قراءة نافع، وأبي جعفر، ويعقوب[2]، وهما لُغتان، غير أنّ الدِّفاعَ فعلٌ من اثنيْن، دافَعته مثل ناظَرته، والدَّفعُ: من واحدٍ، وقد يكونُ فاعلت من واحدٍ؛ كقولهم: طارقتُ النَّعلَ، وعافاك اللّه"[3]، و"الحُجَّة لِمَن أسقطَ الألفَ: أنّه أراد المصدر من: دفَع دفعًا، والحُجَّة لِمَن أثبتها:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 277.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 230.
(3) ابن خَالَوَيه، إعراب القراءات السّبع، ص: 284.

أنَّه أراد المصدر من: دافع دفاعًا، ومعنى الآية: أنّه لولا مجاهدةُ المشركين وإذلالُهم"(1).

دلالة التّعبير بـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ وتعريفهم:

تدافُعُ النّاسِ واقعٌ في حيِّز دفع الله تعالى داخلٌ تحت مشيئته وسلطانه

التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ مُعرَّفةً بـ (أل) الدّالَّة على استغراق الجنس يدُلُّ على دخول تناوُش ﴿ٱلنَّاسَ﴾ - كلِّ النّاس - في حيِّز دفع الله تعالى، وأنَّه ﷻ القدير الّذي لا يتأبَّى عليه شيءٌ أراده، ولا يندُّ عن سلطانه نادٌّ، وأنّ جميعَ ما يجري في كونه، إنّما هو بتصريف الله تعالى وتدبيره، وداخِلٌ تحت مشيئته ﷻ وسلطانه، وإنْ لم يَدخُلْ تحت إرادته سبحانه؛ أيْ: لا يُحبُّه ولا يرضاه من عباده؛ لأنَّه تعالى لا يُريدُ إلّا الخيرَ، وإنْ أذن بوقوع الشّيء العظيم فلِحِكمةٍ.

بلاغة القيد بالبدل ﴿بَعۡضَهُم﴾:

حرية المؤمنين مرهونةٌ بدفاعهم عن أنفسهم؛ ولا مُدافِعَ عنهم غيرُهم

وجودُ القيد بالبَدَل ﴿بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾ ضروريٌّ في بيان طرفَي الدَّفع والدِّفاع والتَّدافُع، وإلّا لَظُنّ أنّ دفْعَ الله تعالى النّاس يكون بِغيرهم، أو أنّ دفْعَه تعالى إيّاهم يكون بغيرهم، وعلى ذلك فَليَعلَمِ المؤمنون أنّ سبيلَ بقائهم أحرارًا مرهونٌ بدفاعهم عن أنفسهم؛ جريًا على سُنَّة الله تعالى في كونه.

فالنَّصُّ على البعضيَّة مِن جهةٍ كاشفٌ عن أنّ الدّفعَ واقعٌ فيما بينهم - بين دافع ومدفوع -، ومِنَ الجهة الأخرى باعثٌ على الطّمأنينة في نفس المظلومين؛ بأنَّ هذا الواقعَ مِن توجيه الظُّلم عليهم، والإذْنِ لهم في دفعه عنهم - أنَّ ذلك كلَّهُ، إنَّما هو بتقدير الله تعالى وتحت مشيئته.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِبَعۡضٖ﴾:

لو اتّفقَ النّاسُ على وتيرةٍ مِنَ الظُّلم أو الذُّلِّ - بلا تدافُعٍ - لَمَا استمرَّتِ الحياة

الباء في كلمة ﴿بِبَعۡضٖ﴾ باء السّببيَّة؛ فإنّ بعضَ النّاس يُستَفَزُّ إلى دفع غيره بسببِ اعتدائه عليه، أو جوره على حقوقه، وإلّا فلا

(1) ابن خالَوَيه، الحُجّة في القراءات السَّبع، ص: 99.

دَفعَ في الكون أصلًا، فلو أنَّ النّاسَ كلَّهُم على وتيرةٍ واحدةٍ مِنَ الظُّلم والاعتداء، أو مِنَ الذُّلِّ والانكسار لَما تحقَّقَ التّوازنُ، ولَما استمرَّتِ الحياةُ على هذه الأرض؛ فكان لا بُدَّ من ذلك الدّفعِ.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿بِبَعۡضٖ﴾ دون (بعضًا):

الدَّفعُ المأذون فيه للمظلوم العزيزُ الّذي يَكسِرُ شوكةَ الظّالم لا العاجز الذّليل

التَّعبير بالجارِّ والمجرور ﴿بِبَعۡضٖ﴾ يُضَمِّن المصدر ﴿دَفۡعُ﴾ مِنَ المعاني ما يتضمَّنه مع التَّعبير بالمفعول (بعضًا) وزيادة والزّيادةُ هي تضمُّنه معنى المصدر (الكَسْر)؛ وهو ما يُتعدَّى إليه بحرف (الباء) في الجارِّ والمجرور ﴿بِبَعۡضٖ﴾؛ أي: إنَّ الدَّفعَ المأذونَ فيه للمظلوم لا ينبغي أن يكون دَفعًا هزيلًا ذليلًا؛ بل يكون دفعًا عزيزًا يَكسِرُ شوكةَ الصّائل المُجرِم وما يوقِفه عند حدّ العدل المأمور به في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: 90].

دلالةُ حذفِ مُتعلِّقِ الدّفع:

الله تعالى يَدفَعُ النّاس بعضهم ببعضٍ عمّا يَعوقُ توازنَ الحياة

حُذِفَ مُتعلِّقُ الدَّفع في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ﴾، فلم يقُل عمَّ يَدفَعُ بعضُهم ببعض؟ وقد قدَّرَه العلماءُ تقاديرَ عدّة، أوجزها الماورديُّ بقوله: "ولولا دَفعُ اللّه المشركين بالمسلمين، ولولا دَفعُ اللّه عنِ الدّين بالمجاهدين، ولولا دَفعُ اللّه بالنَّبيّين عنِ المؤمنين، ولولا دَفعُ اللّه بأصحاب رسول اللّه ﷺ عمَّن بعدَهم مِنَ التّابعين، ولولا دَفعُ اللّه بشهادة الشّهود عنِ الحقوق، ولولا دَفعُ اللّه عنِ النّفوس بالفضائل ..."[1]، وعلى الإجمال فدَفعُ اللّه تعالى النّاسَ بعضهم ببعض دَفعٌ عن كلِّ ما من شأنه إعاقةُ التّوازن في حياة النّاس.

وسكوت الآية الكريمة عن تحديد المدفوع عنه أتاح تقديرَ هذه الأمور كلِّها، كما يُفسِحُ المجالَ لغيرها؛ وهكذا يُهيِّئُ الحذف لإفساح ميدان التّقدير وتوسيع مجال أنواعه.

(1) الماورديّ، النُّكتُ والعيونُ: 4/ 29.

معنى اللّام في جملة ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾:

بقاء الحياة متوازنةً ببقاء سُنَّة الدَّفع وخرابُها مُتوقِّفٌ على عَدَمها

(اللّام) في جملة الجزاء ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ لام التّأكيد المُؤذِنة بقَسَم، القاطعةِ ببقاء الحياة متوازنةً بين النّاس بسبب بقاء سُنَّة الدّفع، وأنّ خرابَ دُنياهم بالكُلّية مُتوقِّفٌ على عدم ذلك الدّفع.

ويُقرِّرُ ذلك طلاقةُ القدرة الإلهيّة وكمالُ الحكمة الرّحمانيّة بـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ جميعًا وبِضُعَفائهم المأذون لهم بالدّفاع عن أنفسهم خصوصًا كما يُفهَمُ من قول أبي بكر - رضي الله عنه -: "والضَّعيفُ فيكم قَويٌّ عِندي حتَّى أُريحَ[1] علَيهِ حَقَّهُ إنْ شاءَ اللّه والقويُّ فيكُم ضَعيفٌ حتَّى آخُذَ الحَقَّ مِنهُ إنْ شاءَ اللّه لا يَدعُ قَومٌ الجِهادَ في سَبيلِ اللّه إلّا ضَرَبَهُم اللّهُ بالذُّلِّ""[2]

بلاغةُ الكناية بذِكر التَّهديم:

أفحشُ الظُّلم المساسُ بدور العبادة

في التّعبير بفعل (التهديم)، وبخاصَّة في سياق التَّحذير من تهديم دور العبادة كنايةٌ عن فُقدان التّوازُن بالكلّية؛ لأنَّ فيه اجتراءً على مُقدَّسات الأمم، وانتهاكًا لحرمات اللّه تعالى، وذلك أقصى ما يكون من سوء الأخلاق المُفضي إلى خراب البلدان؛ لأنَّ تهديمَ دور العبادة لازمُ خرابِ ما دونها؛ لأنّها أخصُّ ما يُقدِّسون، فإذا هانَت وهُدِّمَت؛ هانَ ما دونها وهُدِّم؛ فتهديمُها كنايةٌ عن خراب ما سواها بطريق الأَوْلى؛ والمعنى: "لولا أهلُ الخير والإيمان، ووقوفُهم في وجه الضّالّين والباغين، لَما قام للّه تعالى دينٌ على هذه الأرض، ولَغَلب الشَّرُّ والضَّلالُ، ولَأتى على كلِّ صالحةٍ في هذه الدّنيا، ولَخُرِّبَتْ بيوتُ العبادة الّتي أقامَها المؤمنون لِعبادة اللّه تعالى"[3].

---

(1) يُقال: أرَحتُ على الرّجل حَقَّه، إذا ردَدتَه عليه، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، باب الحاء والرّاء.

(2) السُّيوطيّ، جمع الجوامع: 14/ 227، ومُسنَد أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه، برقم: (367)، وقال السّيوطيّ: صحيح.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1045.

وفي سورة البقرة تحذيرٌ شديدٌ بالمساس بأمر المساجد، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]؛ أي: لا أظلم منه، فهو يدُلُّ على فقدان الحياة كلَّ قيمةٍ؛ بل يُؤذِن بزوالها زوالًا تامًّا؟

تهديمُ دور العبادة دليلُ انحطاط النّاس واختلالِ حياتهم بالكُلّيّة

إشارة بناء ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ للمجهول:

في بناء الفعل ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ للمجهول حَطٌّ لشأن ذلك المُهدِّم الّذي يَتجرّأ على بيوت العبادة وبيانُ أنّه مَمقوتٌ مُبعَدٌ عن شرف الذِّكْر والحضور وأنَّ مكانَه ومكانتَه التَّجاهُلُ والإزراءُ ثمّ إنَّ النَّصَّ عليه مُتعذِّرٌ مُتعسِّرٌ؛ لأنّ عُبّادَ كلِّ مِلّةٍ مِنَ المِلل - غالبًا ما يَحمِلُهم الحقدُ والجَشَعُ على تهديم دور عبادة غيرهم إلّا المسلمين - أمّة النَّبيّ محمّد ﷺ - فهُمُ الوحيدون الّذين يَدينون بدين ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: 6]؛ فلا يَعتدون على دور عبادة غيرهم أمّا سواهم فالواقِعُ شاهِدٌ بطغيانهم على مساجد المسلمين.

تهديمُ دور العبادة دليلُ حقد المُتَجَرِّئ عليه

لطيفة تشديد الفعل ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾:

معنى الهَدْم "تقويضُ البناء وتسقيطُه، والتّشديد للمبالغة في الهَدم؛ أيَ: لهُدِمَت هدمًا ناشئًا عن غيظٍ، بِحيثُ لا يُبقون لها أثرًا"[1].

فالتَّضعيف في الفعل ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ يحكي خطورةَ المرحلة الّتي تصِلُ إليها حياةُ النّاس مِنَ الفوضى والضّياع بِدون سُنّة الدّفع، وأنّ الخرابَ لن يتوقَّفَ عند مرحلة الهَدم؛ وإنّما سيبلُغُ مرحلةَ التّهديم بذلك العُنف القاسي، وتلك الهمجيّةِ المُدمِّرةِ الواصِلَةِ إلى تخريب أقصى ما يُتوقَّعُ صونُه، وهي دور العبادة المُقدَّسة في مفهوم النّاس وعقائدهم، وفي التّشديد أيضًا "إشعارٌ بأنّ عدمَ مشروعيّة القتال يؤدّي إلى فسادٍ ذريعٍ، وإلى تحطيمٍ شديدٍ لأماكن العبادة"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 277.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 318.

توجيهُ القراءاتِ الواردة في ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾:

قُرِئَ الفعلُ ﴿لَّهُدِّمَتۡ﴾ "بالتَّشديد وهي قراءة الجمهور، وبالتَّخفيف ﴿لَّهُدِمَتۡ﴾، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي جعفر[1]، ويكون للكثير والقليل، والتَّشديد يُختصُّ به الكثير"[2]، قال ابن عطيَّة: "وهذه - أي المُشدَّدة - تَحْسُنُ من حيثُ هي صوامعُ كثيرةٌ؛ ففي هدمها تكرارٌ وكثرةٌ، كما قال: ﴿بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النِّساء: 78] فثقَّلَ الياءَ، وقال: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ فخفَّف لكونه فردًا، ومنه: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ [يوسف: 43]، و﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠﴾ [ص: 50]"[3].

مِــن إشــارات تضعيف الفعل تَــكــرارُ وقوعــه وكثرته

نكتةُ تعدادِ دور العبادة المذكورة:

تلك أسماء "مُتعبَّدات الأمم؛ فالصّوامعُ للرُّهبان، والبيعُ للنَّصارى، والصَّلواتُ لليهود، والمساجد للمسلمين، قال ابن عَطيَّة: والأظهرُ أنَّها قُصِدَ بها؛ أيْ: بذِكْرها تفصيلًا - المبالغةُ في ذِكر المُتعبَّدات، وهذه الأسماءُ تَشترِكُ الأممُ في مُسمَّياتها، إلّا البيعَةَ فإنَّها مُختَصَّةٌ بالنَّصارى في لغة العرب"[4]، وفي تعداد أسمائها اهتمامٌ بشأنها، وتنبيهٌ إلى عظيم مكانتها في أوقاتها، وتنديدٌ بمَنْ يتجرَّأ عليها بالهدم، ودليلٌ على خراب المجتمعات الّتي يقع فيها الاستهانة بها.

فــي ذِكْــر دور العبادة اهتمامٌ بشأنها

سرُّ ترتيب المتُعبَّدات في الآية الكريمة:

قال ابن عاشور: "وتقديمُ الصّوامِع في الذِّكر على ما بعده؛ لأنّها كانت أكثرَ في بلاد العرب مِن غيرها وأشهرَ؛ لأنَّهم كانوا يهتدون بأضوائها في أسفارهم، ويأوون إليها، وتعقيبُها بذِكْر البيع للمناسبة؛ إذ هي مَعابِدُ النّصارى مثلُ الصّوامِع، وأمّا ذِكْرُ الصّلوات بعدهما فِلأنّه قد تهيّأ المقامُ لذِكْرها، وتأخيرُ المَساجد

قد يُقدَّمُ الأكثر والأقدم وإنْ كان المُؤخَّرُ أشرفَها جميعًا

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 327.
(2) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 4/ 273.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 125.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 72.

لأنّها أعمُّ، وشأنُ العُموم أن يُعقَّبَ به الخصوصُ إكمالًا للفائدة"[1]، و"لأنَّها أقدمُ في الوجود"[2].

وإذا كان الأمرُ كذلك فإنّ تقديمَ الصّوامِعِ والبيعِ، ووصفها بِذكر اللّه تعالى فيها كثيرًا كالمساجد - لا يقتضي المدحَ؛ لأنَّ العطفَ بينها جاء بالواو، وهي لا تُفيدُ التَّرتيبَ[3].

سِرُّ الاكتفاء بأسماء دور العبادة السّابقة دون غيرها:

ليس لأهل الشّرك ما تجبُ حمايتُهُ

ذكر النَّظمُ الكريمُ دورَ العبادة الخاصّة بأمم الرُّسل دون غيرها، فـ "لم يَذكُرْ في هذه دورَ عبادة المجوسِ ولا أهل الإشراك؛ لأنَّ هؤلاء ليس لهم ما تَجب حمايتُه، ولا يوجدُ ذِكرُ اللّه تعالى إلّا عند أهل الشّرائع"[4]، وعليه فـ "بيوت النّار لا تَتَضَمَّنُ هذه الآيةُ منعَ هدمها؛ فإنَّها لا يُذكَرُ فيها اسمُ اللّه تعالى، وإنَّما منع هدمها عقدُ الذِّمَّة الّذي يَنعقِدُ بين أهلها وبين المسلمين"[5].

لطيفة ذِكر (المساجد) ولم تكُنْ قد وُجِدت:

بذِكْر مساجد المؤمنين مُبتدأ الدّعوة بِشارةٌ لهم بالتّمكين لِدينهم

في النّصِّ على ذِكر المساجد حينئذٍ "إشارةٌ إلى أنَّه سيكون للمسلمين مساجدُ، وأنَّ هذه المساجدَ ستعمُرُ بالمصلّين والذّاكرين اللّه تعالى كثيرًا فيها، وهو وعدٌ كريمٌ من ربٍّ كريمٍ، لجماعةِ المؤمنين يومئذٍ، وقد تحقَّقَ هذا الوعدُ، فملأتِ المساجدُ آفاقَ الأرض، وامتلأتْ بالمصلّين، واهتزَّت جنباتُها بالذّاكرين"[6]، ويمكن أن "تكونَ الآيةُ نزلَت في ابتداء هجرة المسلمين إلى المدينة، حين بَنَوا مَسجِدَ قُباءٍ ومَسجِدَ المدينة"[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 279.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 230.
(3) الطّوفيّ، الإشارات الإلهيّة، ص: 447.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 125.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 279.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1045.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 278.

بلاغةُ المجاز في إيقاع التَّهديم على (الصلوات):

إهمال فريضة الصّلاة مثل تهديم البناء العزيز على النّفس

إذا كان المقصودُ بالصّلوات تلك الفريضةَ المعلومةَ لدينا، فإنّها "لا تهدِمُ، ولكنْ حملَهُ على فعلٍ آخر، كأنَّه قال: وتُرِكَتْ صَلَواتٌ"[1]، فعُبِّرَ عنِ التَّرك بالتَّهديم مبالغةً في خطورة إهمال الصّلاة وعِظم جُرمه؛ ولذلك قالوا: "المُراد بهدم (الصّلاة): إبطالُها، وإهلاكُ مَن يَفعَلُها؛ كقولهم: هَدم فلانٌ إحسانَ فلانٍ - إذا قابلَهُ بالكفر دون الشُّكر، أو المُراد: مكانُ الصّلوات؛ لأنّه الّذي يَصِحُّ هدمُه، كقوله: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]؛ أيْ: أهلَها، أو أُريدَ ضَمُّ ما لا يَصِحُّ أن يُهَدَّمَ إليه؛ كقولهم مُتقلِّدًا سيفًا ورُمحًا، وإنْ كان الرُّمحُ لا يُتقلَّدُ"[2].

سرُّ تأخير المساجد مع جدارتها بالتّقديم:

المساجدُ أشرفُ دور العبادة وأكثرها عُبّادًا وأبعدُها عن التّهديم

وراء تأخيرِ ذِكْرِ المَساجِدِ في الآية الكريمة لطائفُ وإشاراتٌ؛ منها مُراعاة التَّرتيب الزَّمنيِّ بذِكْر الأقدم فالأحدث، وأنَّ في ذلك إلحاقًا لها بقيدٍ شريفٍ مُختَصٍّ به عند أغلب العلماء - هو قوله تعالى: ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ -، وأنَّ في تأخير ذِكْرها تَرقّيا من شريفٍ إلى أشرفَ، ومن فاضلٍ إلى أفضل، وأنَّ في تأخير ذِكْرها إقصاءً لها عن أجواء التَّهديم المذكور قبلُ، وترقّيا مِنَ الأقل عُبّادًا وزوارًا إلى الأكثر، وأنَّ تأخيرَ ذِكْرها لإعطاء معنى قولهم: آخِرُ الفكر أوَّلُ العمل[3].

وقيل: إنّ الضّميرَ في ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا﴾ عائِدٌ على جميع ما تقدَّمَ"[4] مِنَ الدّور؛ لكنَّ دلالةَ المضارعة فيه يردُّها واقِعُ دور العبادة غيرِ المساجد اليومَ بعباده.

(1) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 451.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 230.
(3) أحمد سعيد، من وجوه الإعجاز البلاغيّ لتأخير ما يقتضي الظّاهر تقديمه في الذِّكر الحكيم، بحث بمجلة تدبُّر، وزارة الإعلام السّعودية، العدد: (14)، سنة: 1444ه، ص: 104، وما بعدها.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 125.

دلالة جملة الصِّفة ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾:

غيظ الكفّار من ذِكْر اسم الله تعالى يبلُغُ بهم حدَّ تهديم المساجد

قال ابن عاشور: "وفائدةُ هذا الوصف الإيماءُ إلى أنّ سببَ هدمِها أنّها ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾؛ أيْ: ولا تُذكَرُ أسماءُ أصنامِ أهلِ الشّركِ، فإنَّهُم لمّا أخرَجوا المسلمين بلا سبب إلّا أنّهم يَذكرون اسمَ الله تعالى فيَقولون: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾، لِمَحوِ ذِكر اسم الله تعالى مِن بلدهم، لا جَرَمَ أنّهم يَهدِمونَ المَواضِعَ المَجعولَةَ لِذكر اسم الله تعالى كثيرًا؛ أي: دون ذِكر الأصنام، فالكثرةُ مُستعمَلَةٌ في الدَّوام لاستغراق الأزمنة، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ في هذه المَواضِعِ فائدةً دينيّةً؛ وهي ذِكرُ اسم الله تعالى"[1].

دلالة التّعبير بمفردة الذِّكْر دون غيره من أنواع العبادة:

تستمِدُّ دورُ العبادة جلالها من كونها مَحلًّا لذِكر الله تعالى كثيرًا

التّعبيرُ بمفردة الذِّكر في قوله تعالى: ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ يدُلُّ على أنَّه غايةُ الغايات، وأنَّ دورَ العبادة - الّتي تتعرَّضُ للتّهديم - حالَ غياب سُنَّة الدَّفع - إنَّما تَستمِدُّ قيمتَها وجلالَها من كونها مَحلًّا لذِكر الله تعالى كثيرًا، وإنْ كان ذِكْرُ اسمه تعالى موجودًا وواقعًا في غيرها بنسبة أقلَّ؛ فذِكرُ الله تعالى بكافّة صوره من صلاة وتلاوة واستغفار وغيرها يفترِضُ أنّه ثمرةُ إقامة الصّوامِعِ والبيعِ والصّلوات والمَساجدِ؛ لذلك سَنَّ اللهُ تعالى سُنَّةَ الدَّفع بين النّاس؛ فاستمرَّتِ الحياةُ، وحُفِظَت فيها تلك الدّور.

نكتة بناء الفعل ﴿يُذۡكَرُ﴾ للمجهول:

الشّأن في المساجد الذِّكْر وفضيلته لا الذّاكر وفضيلته

بُني الفعل ﴿يُذۡكَرُ﴾ للمجهول في جملة الصِّفة ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ لتوفير عناية المُتلقّي على الذِّكر وفضيلته، لا على الذّاكرِ وفضيلته؛ فالشّأنُ في ذِكر المساجد هنا ذِكرُ الله تعالى، ثمّ إنَّ النَّصَّ على الذّاكرين لا يتأتّى؛ لكثرتهم الكاثرة من كلِّ الأمم وفي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 278.

كلِّ الأزمان، فكان إيجازُ اللَّفظ ببناء الفعل ﴿يُذۡكَرُ﴾ للمجهول أنسبَ للدّلالة على الغايتَيْن السّابقتَيْن جميعًا.

نكتة تقديم ﴿فِيهَا﴾ على نائب الفاعل:

الــدَّورُ الأهــمُّ للمساجد أن تحتضِنَ ذِكْرَ الله تعالى كثيرًا

لَمّا كان المَقامُ هنا للتّحذير من ترك بيوت اللّه تعالى للتّهديم، وبيان توقُّفه على غياب سنَّة الدَّفع والجهاد من حياة النّاس كان الأنسبُ تقديمَ قيدِ الظَّرفيّةِ ﴿فِيهَا﴾ على نائب الفاعل، وإنْ كان ﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾ تعالى؛ ومن ثَمَّ جاء ترتيبُ الجملة ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾ مَبنيًّا على تقديم الظّرف ﴿فِيهَا﴾ تناغُمًا مع غرض الكلام وسياق المعاني، وهو تأكيدُ مُهمَّةِ المساجد وما تَقدَّمَها من دور عبادة الأمم الأخرى.

نكتة الاكتفاء بذِكر ﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾ دون لفظ الجلالة:

ذِكْـرُ اسم الله تعالى كافٍ في رضوانه تعالى عنِ العبد

من براعة النَّظم الكريم في جملة الصّفة هنا ذِكْرُ ﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ﴾؛ فإنّ ذكر الاسم يتطلّب إعمالًا لجارحة اللّسان، وهي عبادة لفظية باللسان، وفعلية لكونها مرتبطة بالاعتكاف بالمسجد، ولأنّ سورة الحجّ معتنيةٌ بإظهار شعائر العبادات، فكان التعبير هنا عن عبادة الذكر - بأن تكون بذكر الاسم الجليل - متّسقًا مع الجوّ العامّ للسورة، ومُعلنًا عن مظهرٍ من مظاهر التّعبّد المراد إقامتُه كشعيرة من شعائر اللّه تعالى.

علَّة القيد بـ﴿كَثِيرٗاۗ﴾ دون (ذِكْرًا كثيرًا):

يجب أن يكثِّفَ العُبّادُ ذِكر الله تعالى في دور العبادة ما لا يُكَثِّفونه في غيرها

آثرَ النَّظمُ الكريمُ في جملة الصِّفة: ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ﴾ التّصريحَ بالصِّفة ﴿كَثِيرٗاۗ﴾ دون موصوفها المحذوف: (ذِكرًا)؛ وذلك لِبيان خطورة ذلك التّهديم إنْ حَدَثَ حالَ غياب سُنَّة الدَّفع، والإلماح إلى أنَّ المُفترَضَ في دور العبادة بعامَّةٍ في أزمانها والمساجد بخاصَّة بعد البعثة الخاتمة إلى يوم الدّين أنْ تُعَمَّرَ بِذِكر اسم اللّه

تعالى، وأن يُكثِّفَ فيها العُبّادُ مِنَ الذِّكر - بأصنافه وأنواعه المُختلفة - ما لا يُكَثِّفونه في غيرها، وذهب بعضُهُم إلى أنَّ المقصودَ بقوله تعالى: ﴿يُذۡكَرُ فِيهَا﴾ هي المساجد، وقيل: بل عائدٌ إلى الكلِّ؛ لأنَّ اللّه تعالى يُذكَرُ في هذه المَواضِع كثيرًا، والأقربُ أنَّه مُختَصٌّ بالمساجد تشريفًا لها بأنَّ ذِكْرَ اللّه يَحصُلُ فيها كثيرًا[1].

معنى الواو في جملة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾:

ضَمِنَ اللهُ تعالى النَّصرَ للمؤمنين؛ لأنَّهم بنصرهم دينَه كأنَّهم نصروه

(الواو) في جملة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ واو الاستئناف الدّاعية إلى الذَّوْد عن دور العبادة؛ الواعدة للمؤمنين - الّذين ينصرون اللّهَ تعالى ودينَه بحفظها وتكريمها - بالنَّصر على أعدائهم، وهو "عطف على جملة ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾؛ أيْ: أمَرَ اللّهُ تعالى المسلمين بالدِّفاع عن دينهم، وضمِنَ لهم النَّصرَ في ذلك الدِّفاع؛ لأنَّهم بدفاعهم يَنصرون دينَ اللّه تعالى؛ فكأنَّهم نصروه سبحانَه؛ ولذلك أكَّدَ الجملةَ بِلام القَسم ونون التّوكيد"[2]، وفيها "حَضٌّ على القتال والجِدِّ فيه، ثمّ الآيةُ تَعُمُّ كلَّ مَن نَصر حقًّا إلى يوم القيامة"[3].

دلالة اللّام في جملة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾:

نصرُ اللهِ تعالى مَن ينصرُ دينَه ويذودُ عن بيوته مُحقَّقٌ

(اللّام) في جملة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ لامُ التّأكيد الموطِّئة للقَسَم[4]، القاطعة بتوفيق اللّه تعالى لعباده الصّادقين الّذين يَنصرون دينَه يَدفعون عن بيوته صولةَ الصّائِلين، و"نصرُ اللّه تعالى للعبد أن يُقوّيه على أعدائه حتّى يكونَ هو الظّافِرَ، ويكونَ قائمًا بإيضاح الأدلّةِ والبيّناتِ، ويكون بالإعانة على المعارف والطّاعات، وفيه ترغيبٌ في الجهاد من حيثُ وعَدَهُمُ النَّصرَ"[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 230.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 279.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 125.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 439.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 230.

لطيفة الوعد بالنَّصر دون تعيين المنصور عليه:

من شأن الوَعد الصّريح بالنَّصر شحنُ النّفوس بالثّقة في الدّفع والجهاد

مِن شأن وعدِ اللّه تعالى المؤمنين الّذين يَنصرون دينَ اللّه تعالى، ويذودون عن بيوته - بالنّصر الصّريح - شحنُ نفوسهم بالثّقة في نتيجة جهادهم، وتصدّيهم لِمَن يعتدي على بيوت اللّه تعالى ومُقدَّسات دينهم بأيِّ أذًى.

ومِن أعظم الوعد بالنّصر أن يكونَ هكذا نصرًا عامًّا غيرَ مُقيَّدٍ بِمنصورٍ عليه مُعيَّنٍ؛ ليشمَلَ الوعدَ بالنّصر على هوى النّفس، وعلى وساوس الشّيطان، وعلى اعتداء الأعداء، وعلى غير ذلك ممّا يَفتقِرُ المؤمنُ إلى النّصر عليه في هذه الحياة.

معنى النّون المتُصلّة بالفعل ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾:

نصرُ اللهِ تعالى مَـنْ يـنـصـرُهُ مُحقّقٌ وإنْ طال الزّمن

(النّون) المُشدَّدةُ في آخر الفعل ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ هي نون التّوكيد الثّقيلة وهي تتناغَمُ مع عطاء لام التّأكيد في أوّله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ وتؤازرها في تقرير نصر اللّه تعالى مَن ينصرُهُ بِنصر دينه وكتابه وبيوته وأوليائه وكُلِّ ما يتعلّق به ﷺ وهو نصرٌ ثابِتٌ ومُتحقّقٌ مهما طال الأمدُ وتأخّر النَّصرُ.

دلالة المضارع في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾:

عينُ الله تعالى ترعى ناصريه - بنصر دينه - على الدَّوام

المضارعة في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ تدُلُّ على تجديد اللّه تعالى لِناصريه - بنصرهم دينه وكتابه وبيوته - نصرًا بعد نصر، كلَّما تجدَّدَ عليهم ظلمٌ بعد ظلم؛ فجدَّدوا ذَودًا بعد ذودٍ، وأنّ عينَ اللّه تعالى ترعاهم على الدَّوام، فهو القويُّ الّذي لا يُغلَبُ.

براعة إظهار الاسم الأعظم في الآية الكريمة:

مَقامُ الدّعوة إلى الجهاد يحتاج إلى دعم التّقوّي بتكرار اسم الجلالة

من براعة النَّظم الكريم هنا تَكرارُ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في هذا السّياق ظاهرًا صريحًا أكثر من مرّةٍ، مع أن الظّاهرَ لِتكرار الذِّكر بالضَّمير؛ غير أنَّ اسمَ الجلالة الصّريح ﴿ٱللَّهُ﴾ يَدعَمُ في نفس المؤمن الثِّقة بتحقُّق النّصر، ويُقرِّرُ عنده رجاءَ الغَلبة على

أهل الظُّلم؛ لأنَّ اسمَ الجلالة هو العَلَمُ الجامِعُ للأسماء الحُسنى والصّفات العُلَى كلّها، ولا شكَّ أنَّ المُؤمنَ في مَقام الدّعوة إلى الجهاد والدَّفع يحتاج إلى دعم التَّقوّي على غلبة الظّالمين في نفسه بِحشد معاني تلك الأسماء والصّفات كلِّها، ولا يجمعُها كلَّها سوى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لذا كان تَكرارُهُ صريحًا فاعلًا في ذلك السّياق.

علّة التّعبير بالموصول ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾:

التَّعريف بالموصول يُثير الشَّوقَ إلى تحديد صنف المُعرَّف به

التّعبيرُ بالمفعول به اسمَ موصولٍ في قوله تعالى ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ يُتيحُ ما لا يتيحُهُ المفعولُ الصّريحُ (الدّافع) - مثلًا - مِن حيثُ إثارة الشّوق لِتحديد صنف المفعول مِن خلال إبهام الموصول ﴿مَن﴾، وفقر دلالته إلى جملة الصّلة، ثمّ بما يتيحُهُ الموصولُ مِن جملة الصِّلة المضارعة: ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾، بما فيها مِن موازاة المضارَعة في المضارع ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾؛ ممّا يُنَشِّطُ المُؤمنَ إلى تجديد نُصرة دين اللّه تعالى، والذَّود عن بيوته، كلَّما حاول الظّالمُ المَساسَ بهما.

براعة المُشاكَلَة في ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾:

نصرُ الدّين والذَّودُ عن المَساجد بمثابة نَصره ﷻ مباشرةً

معلوم أنَّ نصرَ اللّه تعالى إنَّما هو باتّباع ما شرعَهُ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ونصرة رسله واتِّباعهم، ونصرة دينه، وجهاد أعدائه[1]، والذَّود عن بيوت اللّه تعالى؛ وهي الّتي يُعالِجُ السّياقُ النّفوسَ لصيانتها مِنَ الظّالمين؛ وبناءً على ذلك؛ ففي الجمع بين الفعل ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾ مُسندًا إلى اللّه والفعل ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾ مُسندًا إلى العبد - مشاكلَةٌ لفظيَّةٌ؛ إذِ النَّصرُ مِنَ اللّه للعبد حقيقةٌ، والنّصرُ مِنَ العبد للّه مَجازٌ.

ولطيفةُ إيثار المُشاكَلة هنا تأكيدُ أنّ نصرَ دين اللّه والذَّودَ عن بيوته بمثابة نصره سبحانه مباشرةً.

نكتة إحاطة الموصول في (مَن ينصره) من جانبيه

ويُلحَظُ أنَّ الموصولَ في جملة ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ مُحاطٌ بِحفظ اللّه

(1) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 265.

سبحانه وتعالى ورعايته من جانبيه: باسم الجلالة صريحًا قبلَهُ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ﴾، ثمَّ بضميره ﷻ في آخره في الفعل ﴿يَنصُرُهُۥٓ﴾.

علّة الفصل في جملة الفاصلة:

نصرُ الدّافعين عنِ المساجد مَضمونٌ؛ لأنَّ ناصرَهُم قديرٌ

فُصِلَت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ عن ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ لِما بينهما مِن كمال اتّصال؛ فالثّانية بمثابة التّعليل للأولى، كما أنَّ معنى الثّانية مُؤكِّدٌ لِمعنى الأولى؛ إذ إنَّ نصرَ اللّه تعالى لِمَن ينصرُهُ، كما أنَّه مُحققٌ بلام التّوكيد في أوّل الفعل ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾، والنّون الثّقيلة في آخره - كذلك هو مُحقّقٌ بقدرته تعالى وعزّته الّتي لا تُغلَبُ، المؤكّدة بـ﴿إِنَّ﴾ في أوّل الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾؛ فالجملةُ تفيدُ أنَّ "نصرَهم مضمونٌ؛ لأنَّ ناصرَهم قديرٌ على ذلك بالقوّة والعزّة، والقوّةُ مُستعمَلةٌ في القُدرة: والعِزّةُ هنا حقيقةٌ؛ لأنّ العِزّةَ هي المَنَعَةُ؛ أي: عَدَمُ تسلُّطِ غيرِ صاحبِها على صاحبها"[1].

نكتة التّوكيد في جملة الفاصلة:

في وعد المظلوم بالنَّصر تحذيرٌ لظالمه مِنَ الهزيمة

ممّا اقتضى التّوكيدَ في جملة الفاصلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ توكيدُ الجملة السّابقة ﴿وَلَيَنصُرَنَّ﴾؛ وبذلك يتحقّقُ للأسلوب التّوازنُ كما أنّ هذا التّوكيدَ يَبعثُ برسالة تهديد إلى مَن تُحدِّثُهُ نفسُهُ بالاعتداء على بيوته تعالى وعِباده؛ لأنّ نصرَ اللّه لأوليائه يَستلزِمُ هزيمةَ أعدائه كما يَبعَثُ برسالة طَمْأنةٍ وتسكينٍ لقلوب المؤمنين كما أنّ من مُقتَضيات هذا التّوكيد عِظَمَ الخبر وجلالَته؛ لأنّه ممّا حقُّه أنْ يؤكَّدَ ويُحتَفلَ له - وإنْ لم يوجدْ مُنكِرٌ - كما يقول ابن حجر: "وقد يكون التّأكيد من جهة أنّ القضيةَ في نفسها ممّا يُهتمُّ به، وإنْ لم يكُنْ هناك مُنكِرٌ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 279.

(2) العسقلانيّ، فتح الباري: 1/ 74.

معنى اللّام في ﴿لَقَوِيٌّ﴾ وسرّ دخولها هنا دون سورة الحديد:

كلَّما تقادمَت الفكرةُ في اعتقاد النّاس قلَّت حاجتُهم إلى توكيدها الأوّل

ممّا يدعَمُ تلك الدّلالات في نفوس الظّالمين والمظلومين توكيدُ الخبر ﴿لَقَوِيٌّ﴾ باللّام؛ فليَحذرِ الظّالمُ، وليتقوَّ المظلوم، وبهذا تستَتِبُّ أحوالُ البلاد، وتستقرُّ، ولمّا كانت سورةُ الحديد مدنيَّةً - عند جمهور المُفسِّرين[1] - وصار المؤمنون هنالك في غِنًى عن توكيد هذا الخبر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، بخلافهم هنا في بداية الإذن بالجهاد والدّفع، فلا يزالون إلى الدَّعم بالتَّوكيد أحوجَ؛ فجاء الخبرُ مُؤكَّدًا باللّام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، فضلًا عنِ المُؤكِّدات المُشترَكةِ بينهما.

لطيفة ختم الآية بجملة الفاصلة:

القويُّ العزيزُ عزَّ وعلا لا يُغلَبُ

معنى الفاصلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أنَّ اللّهَ تعالى "قويٌّ على هذه النُّصرةِ الّتي وعدَها المؤمنين، وأنَّه لا يجوزُ عليه المَنْعُ، وهو معنى قوله ﴿عَزِيزٌ﴾؛ لأنَّ العزيزَ هو الّذي لا يُضامُ ولا يُمنَعُ ممّا يُريدُهُ"[2]؛ ففي الختام اتِّساقٌ جليٌّ مع مضمون الآية الكريمة، ودعمٌ لعطائها المعنويِّ؛ فالسّياقُ منذُ أخبَر بأنّ إخراجَ المظلومين مِن ديارهم بغير حقٍّ إلّا أن يقولوا ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ ومرورًا بالإخبار بدَفع اللّه تعالى النّاس بعضهم ببعض، ثمّ التّحذير المُبطَّن من تهديم الصّوامعِ والمساجد، كلُّ ذلك يقتضي القوَّةَ الّتي لا تُحَدُّ، والعزَّةَ الّتي لا تُغلَبُ.

وجهُ مناسبةِ القوّةِ للعزَّة دون القُدرة:

مَن كان القويُّ العزيزُ ناصرَه فهو المنصورُ وعدوُّه هو المقهورُ

القوَّة والعزَّة صفتان من صفات اللّه تعالى الحُسنى، تقتضي كلٌّ منهما الأخرى؛ فالقوّةُ دليلُ العزّة وأساسها، والعزّةُ لا تكون إلّا بالقوّة وتزينها، وكلاهما من مُقتضيات النّصر ومنحه المظلومين الدّافعين عن دينهم ومساجدهم، قال ابن كثير: "وصَفَ سبحانه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 353.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 230.

نفسَه بالقوّة والعِزَّة، فبقوَّته خَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّرَهُ تقديرًا، وبِعِزَّتِه... كلُّ شيءٍ ذليلٌ لديه، فقيرٌ إليه، ومَن كان القويُّ العزيزُ ناصرَه فهو المنصورُ، وعدوُّه هو المقهورُ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصّافّات: 171 - 173]، وقال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21]"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإخراج والإجلاء:

الإخراجُ: الطّردُ والإزالـــة، والإجــلاء: الكشف

(الإخراج) مِنَ الفعل (أخرج)، يُقال: أخرجَ فلانًا مِنَ المكان: طردَهُ منه، جعلَهُ يتركُهُ ويغادرُهُ، أزالَهُ عنه... ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البقرة: 191][2]، و(الإجلاء) مِنَ الفعل (أجلى)، يُقال: "أجلَى اللّهُ تعالى عَنكَ؛ أي: كشَفَ؛ يُقالُ ذَلِكَ للمريضِ، يُقالُ لِلمريضِ: جَلا اللّهُ تعالى عَنهُ المرضَ؛ أي: كشَفَه، وانجلَى الغَمُّ، وجَلَوتُ عَنّي هَمّي جَلوًا إذا أذهبتَه[3]، والإخراجُ هو المناسِبُ لسياق الطَّرد مِنَ الدّيار، لا فعل الإجلاء الدّالّ على الكشف؛ فالتّعبيرُ بالإخراج هنا يكشِفُ مدى الظُّلم الّذي تعرَّضَ له المُخرَجون من ديارهم بغير حقٍّ مِن أولئك الكفّار الظّالمين.

الدّيار والمنازل:

الدّيـار: الـدّور الّتي يتوطَّنها أهلُها، والمَنازِل: محالُّ النّزول المُؤَقَّت

الدّيارُ جمع الدّار؛ وهي المَحَلُّ يَجمعُ البِناءَ والعَرصَةَ، وهي مِن دارَ يَدورُ لِكَثرَةِ حَرَكاتِ النّاسِ فيها[4]، وكونها البِنيةَ الّتي يدورُ عليها أصحابُها؛ يعني: تعلُّقهم بها.

و"النُّزول: الحلول، وهو في الأصل انحطاطٌ من عُلو، والمَنزِلة:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 436.

(2) مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خرج).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (جلا).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (دور).

مَوضِعُ النّزول، وكذلك المَنزِل"[1]؛ وذلك يعني أنَّها مَحالُّ نزولٍ مُؤقَّتةٌ، لا تعلُّقَ بها للنّازِلين فيها، ولذلك عَدَلَ عن استعمالها، وآثرَ الدّيارَ الّتي هي مَظنَّةُ التَّعلُّق؛ ليكونَ الإخراجُ منها أشدَّ ألمًا للنَّفس.

فالتّعبيرُ بالدّيار هنا يعكِسُ بشاعةَ جُرمِ الكفّار، إذ طردوا المؤمنين من ديارِهم وحَرَموهم ذكرياتِهم في تلك البقاع الّتي توطَّنوها، ومكثوا بها حُقبًا مِنَ الزمان.

التَّهديم والتَّخريب:

التَّهديم: نقض البناء وإزالته بالكُلّيّة، والتَّخريب: التَّدمير

"الهَدْمُ: نَقضُ البناءِ وإسقاطُه، وكذلك التَّهديم"[2]، و"الهَدمُ: التَّخريبُ، ويقعُ على كلِّ البناء، فما دام شيءٌ مِنَ البناء لا يكونُ هَدمًا"[3]، والتَّخريبُ مصدرُ (خرَّبَ)، وهو التَّدمير[4]، والخَرابُ ضِدُّ العُمران[5]؛ ومن ثَمَّ آثرَ الذِّكرُ الحكيمُ فِعلَ التّهديم هنا لِما يوحي به مِن تمكُّن عداوةِ مَن يَجرؤ على تهديم بيوت العبادة في أزمان أديانها لدين الحقِّ تعالى.

العزّة والمَنَعَة:

العِزَّة: الشِّدَّةُ والغَلَبَة، والمَنَعَة: المَعقِل الّذي لا يُخلَصُ إليه

من أسماء اللّه تعالى (العَزيزُ)؛ "وهو: الغالِبُ القَويُّ الَّذي لا يُغلَبُ، والعِزَّة في الأصل: القوة والشِّدَّة والغَلَبَة، ومِن أسماءِ اللّه تعالى (المُعِزُّ)، وهو الَّذي يَهَبُ العِزَّ لِمَن يَشاء مِن عِبادِه"[6].

و"المَنَعَةُ: المعقِل، والعِزُّ، وهي مصدَرٌ كالحَرَكَة والجَلَبَة"[7]، و"مَنيعٌ: لا يُخلَصُ إليهِ في قوم مُنَعاءَ، والاسمُ المَنَعَةُ والمَنْعَةُ والمِنْعَةُ، ومَنُعَ الشَّيء مَناعَةً فهو مَنيعٌ: اعتزَّ وتعسَّر"[8]؛ ففي إيثار لفظ العزَّة

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (هدم).
(3) أبو البقاء، الكلّيّات، ص: 963.
(4) مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خرب).
(5) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 2/ 8.
(6) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (عزز).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (منع).
(8) ابن سِيدَه، المُحْكَم: (منع).

تنبيهٌ إلى جانب الغَلَبَة المُتضمِّنة معنى القوّةِ وزيادة، ففي إيثار النَّظم الكريم وصفُ العزّةِ هنا تقريرٌ لنُصرته سبحانه وتعالى عبادَهُ المؤمنين، الّذين ينصرون دينَه ودورَ عبادتِهِ في كلِّ أُمَّةٍ من أمم الرِّسالات السَّماويَّة.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحجّ: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قال البقاعيّ: "لمّا وصَفَ نفسَه سبحانه بما يقتضي تمكينَ منصورِه الّذي يَنصُرُهُ، وصَفَهُم بما يُبيِّنُ أنَّ قتالَهم له لا لهم، بعدَ أن وصَفَهم بأنَّهم أوذوا بالإخراج مِنَ الدّيار الّذي يُعادِلُ القتلَ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾: (مكن) كلمةٌ واحدةٌ، والتَّمكين هو التَّثبيت(2)، و"التَّمكينُ: إزالةُ المَوانع، مكَّنَ اللّهُ تعالى العبدَ؛ أيْ: أعطاه آلةً يَقدرُ معها على الفعل"(3)؛ والمعنى المحوريُّ: "رسوخ الشَّيء مُتجمِّعًا من دِقاقٍ في باطنٍ يلتئمُ عليه؛ كبيض الضِّباب والجراد في باطنهما؛ ومنه "المَكِنَة - كفَرِحة: التَّمكُّن (رسوخٌ في باطنٍ)"(4)، و"مكَّنَهُ مِنَ الشّيء، ومكَّنَ له: جَعَلَ له عليه سلطانًا، وقدَّرَه؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ يعني: ثبَّتناهم ومنَحْناهم الإمكاناتِ ليقيموا دينَ اللّه.

2) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلانِ صحيحانِ؛ أحدُهُما: يدُلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعدَ غيرِهِ، والأصلُ الآخَرُ: يدُلُّ على ارتفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ(5)، والمعنى المحوريُّ: "لحاقُ غليظٍ بآخر الشّيء أو خَلْفِه يَنغَمِسُ فيه فيمتدُّ معه، كعَقِب القدم، وعقب المَتنَيْن وما ذُكِرَ معهما"(6)، والعاقِبة - مُفردٌ، جمعها: عواقبُ؛ وهي آخِرُ كلِّ شيءٍ وخاتمتُه، والجزاءُ بالخير أو الشَّرِّ(7)؛ وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).
(3) الحميريّ، شمس العلوم: 9/ 6361.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (مكن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عقب).
(7) مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عقب).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مَن يَعملون على توطيد أركان الدّين هُم مَن يمنحُهُمُ اللهُ تعالى النَّصر

الّذين ينصرُهُم اللّهُ تعالى هم الموفَّقون، الّذين يتحيَّنون الفرصةَ لتوطيد أركان دين الله تعالى، وإقامة حدوده، وأداء فرائضه من صيام وصلاةٍ وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عنِ المُنكَر؛ فإذا واتَتهم الظّروفُ باكروا إلى ذلك دون تأخيرٍ؛ فهؤلاء هُمُ الموعودون بالنَّصر المُبين، "ولله تعالى وحدَه عاقبةُ الأمور ومردُّها ومَرجِعُها في الآخرة، فيُجازي كلَّ إنسانٍ بما يستحِقُّه من ثوابٍ أو عقابٍ"[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل جملة ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾:

نصرُ الله تعالى يَتتابَعُ لِمَن يُؤدّون حقَّ التّمكين مِن إقامة شرائع الدّين

هذا "وصف ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾"[2] من "أصحاب رسول اللّه ﷺ ومَن تبعه، ومدحٌ لهم بالدّوام على دين اللّه تعالى الّذين قبِلوه وأخذوه في حال الخوف، بعد ما مكَّنَ لهم في الأرض، وآمنَهُم من ذلك الخوف الّذي كان في الابتداء، وأخبر أنَّهم داموا على ذلك، ولم يتركوه ما داموا عليه، بل زاد لهم حرصًا على ذلك وجهدًا"[3]، وفُصِلَت جملةُ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عمّا قبلها لتنزُّلها ممّا قبلَها مَنزِلةَ البدل أو البيان والتَّفسير؛ وبهذا لا يزالُ الخيطُ الجامِعُ لتلك التّراكيب موصولًا؛ حتّى إنَّها لتوضَعُ في النَّفس وضعًا واحدًا، مُتماسِكةً مُتآزِرةً على سَنَن النَّظم القرآنيِّ الكريم.

دلالةُ التّعبير عنِ المُهاجرين بالموصول:

الاسم الموصول يُهيِّئُ النَّظمَ لِما لا يُهيِّئُه له الاسم الصَّريح

لا يزال النَّظمُ القرآنيُّ للمرَّة الثّالثة على التَّوالي يُؤثِرُ التّعبيرَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا مِنَ المُهاجرين؛ لِما في ذلك مِنَ الإشادة بأوصافهم الواردة في جملة جواب الشَّرط ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 319.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 538.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 426.

الّتي هيَّأ لها الموصول، وما عُطِفَ عليها مِن شمائلَ، فتلك سماتُهم يُحدِّدُها القرآن الكريم بدقَّةٍ؛ بحيث يتحدَّدُ الصِّنفُ الموعودُ بنصر اللّه تعالى القويِّ العزيز، ثمّ إنَّ التَّعبيرَ بالاسم الموصول يُطلِقُ الحُكمَ ويُعَمِّمُه؛ ليُدخِلَ فيه كلَّ مَنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفات، ممَّنْ نصرَ دينَ اللّه تعالى، واستثمرَ فرصةَ التَّمكين، فدَعَمَ الدّين وأهله.

نكتة التَّقييد بـ ﴿إِن﴾ في جملة ﴿إِن مَّكَّنَّـٰهُمۡ﴾:

المؤمن لا يتعلَّقُ بالدُّنيا إذا حصل له التَّمكين

"لمّا كان وقتُ النُّصرة مُبهمًا، وآخِرُه يومُ الفَصل - عبَّرَ بأداة الشَّكِّ ﴿إِن﴾؛ ليكونَ ذلك أدلَّ على إخلاصِ المُخلِص في القتال"[1]، وطهارةِ نفسه من كلِّ غرضٍ آخرَ غير نُصرة اللّه تعالى، كذلك توحي ﴿إِن﴾ بأنَّ المؤمنين الصّادقين "إذا طالَتْ بهم المُدَّةُ، وساعدهم العمرُ لم يستفرغوا أعمالَهم في استجلاب حظوظهم، ولا في اقتناء محبوبهم مِنَ الدّنيا أو مطلوبهم، ولكن قاموا بأداء حقوقنا"[2].

فالقيد بـ ﴿إِن﴾ هنا يوجِّهُ هذه الفئة إلى عدم الرّكون إلى الدّنيا؛ لأنّها ليست من صفات أولياء اللّه تعالى الصّالحين.

التَّمكين الكامل ليس شرطًا لإقامة شرائع الدّين

كذلك يوحي القيد بـ ﴿إِن﴾ بأنَّ أهلَ الصّلاة والزّكاة والأمر بالمعروف والنّهي عنِ المُنكَرِ، يُقيمون شرائعَ الدّين لأيسر تمكينٍ، ولا يَنتظرون لفعل ذلك حصولَ التّمكين الكامل الّذي يُعبَّرُ عنه بـ(إذا)، بل متى وجدوا الفرصةَ، ومهما كانت يسيرةً فإنَّهم يَتحيَّنونها، ويستثمرونها.

دلالة التَّعبير بمفردة التَّمكين:

أقلُّ تمكينٍ كافٍ في وجوب إقامة الدّين على المؤمنين

التَّمكين أقوى مُفردات اللُّغة دلالةً على الثَّبات والرُّسوخ واستجماع أسباب القدرة على فعل مطلوبه؛ لأنَّها صريحةٌ في سيطرة المُمَكَّن مِنَ المكان الّذي يوجد فيه، وأنَّ أحدًا لا يستطيعُ انتزاعَه منه؛ لذا

(1) البقاعيّ، نظْم الدُّرر: 13/ 59.
(2) القُشيريُّ، لطائف الإشارات: 2/ 549.

كان أقلُّ التَّمكين - المُعلَّق بـ ﴿إِن﴾ - الافتراضيّة القائلة بالشَّكِّ والاحتمال - كافيًا في استيجاب إقام الصَّلاة وإيتاء الزّكاة والأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر.

ويتناغمُ عطاءُ ﴿إِن﴾ مع عطاء مادَّة التَّمكين على بيان حدود ما يجبُ على المؤمنين اقتناصُه، كما تتضمَّنُ مادّةُ التَّمكين دلائلَ النّصرة، إذ إنَّ التّمكينَ مأخوذٌ مِنَ المكان، ومعنى ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾ في الآية: جعلْناه في المكان، وهذا يؤول إلى الاستقرار والبقاء مع قوَّةٍ وقُدرةٍ[1].

براعة التّعبير بالماضي ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾:

لأنّ الدّنيا دارُ ابتلاء؛ فالمؤمنون فيها بين تَزعزُعٍ وتمكينٍ

إذا كانت ﴿إِن﴾ تقول بالشّكّ في تمكين اللّه تعالى لِعباده المؤمنين تمكينًا كاملًا - نظرًا إلى طبيعة الدّنيا، وأنّها ليسَت بدار قَرارٍ؛ بل دار مِحنٍ وابتلاءٍ - فإنّ صيغةَ الماضي في ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾ تبعَثُ التّفاؤلَ في نفوس المسلمين، وتقطَعُ لهم بحصول التَّمكين ما أخذوا بأسبابه، وأنَّه واقعٌ لا مَحالةَ؛ بل كأنَّه وقَعَ في الماضي وتحقَّق فعلًا.

لطيفة إسناد التَّمكين إلى ضمير العَظَمَة ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾:

إسنادُ التَّمكين إلى العظيم سبحانه يُثبِّتُ المؤمنين على طريق الجهاد

التَّمكين بهذه الصّيغة القويَّة يحتاج إلى قوَّة قاهرة؛ وعظمة عظيمة تَقْدِرُ على تحقيقه؛ لذلك كان المناسبُ إسنادَهُ إلى العظيم ﷻ؛ ولذا آثر النّظم الكريم إسناده إلى نون العظمة ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾؛ أيْ: حقّقنا لهم التّمكينَ "بما لنا مِنَ العظمة"[2]، ولا يقوى على ذلك التَّمكين بمعناه الحقيقيِّ إلّا اللّه تعالى، والتَّمكينُ الحقيقيُّ دليلُ العزَّة والقُدرة والعَظَمَة؛ فكان في إسناده إلى ضمير العَظَمَة من بواعث الثِّقة في حصوله للمؤمنين إذا أخذوا بأسبابه ما يُثبِّتُهم على طريق النَّصر على الظّالمين.

---

(1) العطويّ، جماليات النَّظم القرآنيّ، ص: 14.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 59.

نكتة التَّعدية بـ ﴿فِي﴾ دون اللّام:

يمنح الله تعالى مَن يَنصُره القدرةَ على النَّصر والتَّمكُّن

عُدّي فعلُ التّمكين بحرف الجرّ ﴿فِي﴾ هنا في: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، في حين عُدّي بحرف اللّام في مَواضِعَ أخرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: 56]؛ "قال بعضهم: معناهما واحدٌ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ [الأنعام: 6]؛ فجاء باللُّغتين للتَّوسُّع في الكلام، والصَّحيح - كما يقول أبو هلال - أنّ (مكَّنتُ له): جعلت له ما يَتمكَّنُ به، و(مكَّنتُه): أقدرته على مُلك الشَّيء في المكان"[1].

ويجوز أن تشيرَ اللّام إلى معنى التّعليل؛ أي: لأجله، ودلالةُ التّمكين أوضحُ من ذلك وأنسبُ بالسّياق، لِما في اللّام من دلالة الحيازة والمُلك، ويُؤيِّدُ هذا المعنى تحديدَ مكان التَّمكين، بقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

دلالة الظّرفيّة في القيد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

دلالـةُ ظرفيّةِ الأرض على إفادة رسوخ الأقدام عليها والتَّمكُّن منها آكدُ

تؤازرُ ظرفيَّةُ القيد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نفوسَ عباد الله تعالى النّاصرين المنصورين، وتُطمئِنُهم بتأكيد التَّمكين من حيثُ إنَّ الظَّرفيَّةَ تُفيدُ رسوخَ أقدامهم على صراط الله تعالى المستقيم، وتُؤكِّدُ لهم إقدارَ الله تعالى إيّاهم على تصريف أحوال البلاد وقيادة العباد حين ينصرون دينَهُ، فصوَّر لهم النَّظمُ الكريمُ أنَّ تمكينَهم سيكون مُتغلغِلًا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا (على الأرض)، بما تُشعِرُ به ﴿فِي﴾ من معنى العمق ممّا يزيد معنى التَّمكين رسوخًا؛ يعني: أنَّهم سيتمتّعون بالاستقلال الكامل في إدارة شؤونهم وشؤون أوطانهم، ودلالةُ حرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾ على ذلك آكدُ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 479.

(2) العطويّ، جماليات النّظم القرآنيّ، ص: 15.

الأرض كلُّها محلٌّ لِوعد الله تعالى بالتَّمكين لِمَن ينصرونه

دلالة (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

المُراد بـ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا "جنسها، وقيل: مكّة"[1]؛ وذلك بحسب توجيه اسم الموصول في أوّل الآية الكريمة، فإنْ أُريد به المهاجرون؛ فالمُراد مكَّة المُكرَّمة، وإنْ أُريد العموم فجنس الأرض لِمَنْ ينصرون اللّه تعالى فينصرهم، وهو ما رجّحه ابن عطيَّة - كما سبق قريبًا، وحتّى لو كان المُرادُ بالأرض مكّةَ المكرَّمة، إلّا أنّ ظلال الشّموليّة في اللّفظة تبقى مُشيرةً إلى دلالة السّعة وعِظَم التَّمكين.

في التّعبير بإقامة الصَّلاة تحقيق لمعناها الحقيقيّ

نكتةُ إيثار الإقامة في الفعل ﴿أَقَامُواْ﴾ دون (صلّوا):

في التّعبير عنِ الصّلاة بالإقامة في قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دون التّعبير بالفعل الصّريح (صلّوا) تصويرٌ للعبد المُصلّي بِمَنْ يُقيمُ شيئًا ويَنصِبُه ويَعْدِلُه، ولا يَدعه يميل، والمعنى: (حقّقوا معنى الصّلاة والصِّلة باللّه، وأْتوا بها على وجهها المطلوب)، و"كلُّ مَوضِع مدحَ اللّهُ تعالى بِفعل الصّلاة أو حثَّ عليه - ذُكِرَ بلفظ (الإقامة)، ولم يَقُلْ (المصلّين) إلّا في المنافقين ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤﴾ [الماعون: 4]، وإنَّما خصَّ لفظَ (الإقامة) تنبيهًا على أنّ المقصودَ مِن فعلها توفيةُ حقوقِها وشرائطها لا الإتيان بهيئتها فقط؛ ولهذا رويَ أنّ المُصلّينَ كثيرٌ والمُقيمينَ لها قليلٌ"[2].

تنفيذ المؤمنين أوامرَ ربِّهم ﷻ فوريٌّ لا فاصل بينه وبينها

دلالة التّعبير بالماضي في جملتَي: ﴿أَقَامُواْ﴾ و﴿وَءَاتَوُاْ﴾:

صيغة الماضي تدُلُّ على تحقُّقِ الوقوع؛ ومن ثمّ ففي الآية "إخبارٌ بالغيب عمّا يكون عليه سيرتُهم إنْ مكَّن لهم في الأرض وبسطَ لهم في الدّنيا، وكيف يقومون بأمر الدّين"[3]، وفضلًا عن ذلك يكون في الإخبار بالماضي هنا وعدٌ مِنَ اللّه تعالى بتحقيق النّصر والتّمكين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.

(2) حقّي، روح البيان: 6/ 41.

(3) السّيوطيّ، الجامع الصّغير: 1/ 137.

لهم، كما يَحتمِلُ لفظُ الآية الكريمة ما استنبطَه العلماءُ من أنّ الماضي هنا مُستعمَلٌ في معنى الإنشاء، وأنّ اللّهَ تعالى بهذه الآية "أخذَ العهد على مَن مكّنه اللّه تعالى أنْ يفعل ما رتّبَ على التَّمكين في الآية"[1]، ويكون المعنى على أنَّه أمرٌ وشرطٌ: إنْ مكَّنا لكم في الأرض أقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة، وأْمُروا بالمعروف، وانْهَوا عن المُنكَر.

في التّعبير بالخبر إشادةٌ بالمؤمنين

ولطيفةُ التّعبير بالخبر في مَوضِع الإنشاء هنا الإشادةُ بالمؤمنين؛ وأنّهم قبلَ أن يُؤمَروا يقومون بالفعل، وأنّ تنفيذَهم الأمرَ فوريٌّ لا فاصل بينه وبينه، ثمّ إنّ هذا التّعبيرَ يوحي بأنّ المؤمنين "لن يكونوا على شاكلة هؤلاء الضّالّين الّذين كانت إلى أيديهم القوّةُ والسّلطانُ؛ فتسلَّطوا على عباد اللّه ﷻ، ورهقوهم، وأخذوهم بالبأساء والضَّرّاء، وأخرجوهم من ديارهم بغير حقٍّ"[2]، ويدُلُّ أيضًا "على أنّ الّذين لا يُقيمون الصّلاة، ولا يُؤتون الزّكاة، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عنِ المُنكَر، ليس لهم وعدٌ مِنَ اللّه تعالى بالنَّصر البتَّة"[3].

مَرجِعُ الضَّمير في ﴿أَقَامُواْ﴾ وسرُّ إسناد الفعل إليه:

الوحيان الشّريفان مُتناغِمان على تأصيل روح الجماعة في المجتمع المُسلم

واو الجماعة في الأفعال ﴿أَقَامُواْ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ﴾، ﴿وَأَمَرُواْ﴾، ﴿وَنَهَوۡاْ﴾ يعود إلى الاسم الموصول ﴿مَن﴾ في جملة ﴿مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾، وإيثاره ضمير جماعة يتّسقُ مع قيمِ الإسلام الّتي تُلحُّ على تأكيد روح الجماعة عمومًا في حياة المسلمين، والعمل على توحيد سلوك المجتمع وأفراده، ومعلوم أنّ الصّلاةَ واجبةٌ على كلّ مسلم، وأنّها لا تسقُطُ عن أحدٍ إلّا بالغيبوبة عن هذه الحياة، وأنَّ كلَّ مُستطيعٍ في ذلك الفرض بحسبه قائمًا أو قاعدًا أو مُضَّجعًا، أو حتّى بعينيه وعقله، وتواترَتِ السُّنَّةُ على ضرورة إقامة الجماعة في مُجتمعات المسلمين، وأغرَتهم بالأجر

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 518.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1047.
(3) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 252.

العميم، وحذَّرَتِ المُتكاسِلين من خسارة التَّخلُّف عنِ الجماعات؛ لذلك أُسند الفعل (أقام) إلى (واو الجماعة)، وما تلاه من أفعال.

لطيفة التّعبير بالصّلاة:

المُهِمَّةُ العُظمى للصّلاة تحقيق معاني الصِّلة بين العبد المسكين والرَّبِّ الرَّحيم

التّعبير بالصّلاة في قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَلفِتُ إلى غايةِ تلك العبادة، من إقامة العبد الصِّلةَ بينه وبين الخالق الرّازق سبحانه وتعالى، تلك الصّلة المبنيَّة على التّركيز في تحقيق أهداف تلك العبادة، وذلك بتوفير الخشوع والتَّدبُّر لِما يُقالُ ويُفعَلُ فيها، والتَّفكُّر في الحِكم الغزيرة وراء حركاتها وسكناتها، واستحضار معاني قول اللّه تعالى: "حمِدني عبدي"[1] حين يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]، وقوله ﷻ: "أثنى عليَّ عبدي" حين يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: 3] ... إلى آخره، وهكذا إلى آخر الصّلاة؛ فتتحقَّقُ الصِّلةُ كما أرادها الرَّحمن الرَّحيم سبحانه وتعالى.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

أحبُّ الصّلاة إلى الله تعالى المفروضة وكلُّها بعد ذلك حبيبٌ

نَصَّ بعضُ العلماء على أنّ المقصودَ بـ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ "المَكْتوبَة"[2]؛ ولعلَّهم أخذوا ذلك من ضرورة التّهيئة لصلاة الفريضة دون غيرها بإلقاء صيغة الإقامة بين يديها، وفعلُها مذكورٌ في جملة ﴿أَقَامُواْ﴾؛ وعلى ذلك تكون (أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للعهد، غير أنّه لا يوجدُ ما يمنَعُ حملَ (أل) فيها على الجنس؛ فتدخل النّافلةُ مع الفريضة، ويكون دعوةً إلى إتقان الصّلاة وإحسان طهورها، وخشوعها... الخ، وإذا افترضْنا دخولَ النّوافل ضمن الصّلاة المقصودة هنا فهي أيضًا ممّا يُحبُّه اللّهُ، كما في الحديث: "وما يَزالُ عَبدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ"[3].

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتابُ الصَّلاة: 1/ 296، الحديث رقم: (395).
(2) السّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 60.
(3) البخاريّ، الجامع الصحيح، كتاب الرِّقاقِ، الحديث رقم: (6502).

علّة العطف ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

إيتاءُ الزّكاة دليلُ صدقِ الإيمان وعُمقِ اليقين بما عند الله تعالى

عُطِفَتْ جُملة ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على جملة ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لبيان اشتراكهما في حُكم جواب ﴿إِن﴾، وأنَّهما قرينتان مُهمَّتان في تهذيب الأخلاق وهذا عمل الصّلاة، وتحقيق التّوازن الاقتصاديّ في المجتمع المُسلم وذلك عمل الزّكاة.

والعطف كذلك يُقرِّرُ أنَّ المؤمنين الصّادقين يَشْفعون إقامَة الصّلاة بإيتاء الزّكاة، إنْ حَصَلَ لهم التّمكينُ في الأرض؛ برهانًا على صدق الإيمان، وعُمق اليقين بما عند الله تعالى.

وقد جمعَت آياتُ الذِّكْر الحكيم بين الصّلاة والزّكاة في أكثر من ثمانين مَوضِعًا، ممّا يدُلُّ على أهمّيّة إيتاء الزّكاة في ترجمة الإيمان النَّظريِّ إلى واقعٍ عمليٍّ عظيم.

براعة التّعبير بالإيتاء ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

على الأغنياء أن يحملوا الزَّكاة ويوصِلوها بأنفسهم إلى مُستحقّيها

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عنِ الإعطاء بالإيتاء في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ إذِ المعنى: أعطوا أو أدّوا الزّكاة؛ لأنّ الإيتاءَ فيه معنى الإيصال لا مُجرَّدَ الإعطاء؛ فالمطلوب مِنَ الأغنياء أن يحمِلوا الزّكاةَ، ويوصِلوها بأنفسهم إلى مُستحقّيها، وألّا يُلجِئوهم إلى الحضور بأنفسهم لِتسلُّمِها من بيوتهم تكريمًا للفقراء.

أمّا التّعبيرُ بالإعطاء فيخلو من هذه اللّفتةِ الرّاقية الرّحيمة، الّتي تَصونُ ماءَ الوجوه مِنَ الإهدار، كما تحتاطُ لنفس الغَنيِّ مِنَ الاستكبار.

براعةُ إسنادِ الإيتاءِ إلى واو الجماعة:

لم يَحرِمِ اللهُ تعالى فقراءَ المسلمين من فضيلة إيتاء الزّكاة

سبق القول إنّ ضميرَ الجماعة في فعل: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قاطعٌ بوجوب إقامة الصّلاة على كلِّ مُسلم جماعةً أو مُنفرِدًا، وأنَّها لا تسقُطُ عنه إلّا بالدّخول في غيبوبة الموت، لكنَّ أمرَ الزّكاة مُختلِفٌ؛ لأنّها لا تُفرَضُ إلّا على المُستطيع وبشروطها، ومع ذلك يأتي الفعلُ

في ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مُسنَدًا إلى ضمير الجماعة؛ فلا بدَّ وراء ذلك من إشاراتٍ، ثمّ إنّ ضميرَ الجماعة في ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ يَستُرُ الفُقراءَ في الأغنياء، ويُشرِكُهم معهم في عُموم الفضل الرَّبّانيِّ العظيم.

معنى (أل) في ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

مصطلحُ الزّكاة خاصٌّ بالمفروضة والصّدقاتُ عامٌّ لها ولغيرها

تعريف ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بـ (أل) يوجِّهُ دلالتَها بها نحو المفروضة من زكاة المال، والزّروع، والثّمار، والأنعام... الخ؛ وهي الّتي يُثاب مُؤتيها، ويُعاقَبُ تاركُها، فتلك الّتي اختُصَّت باسم الزّكاة، والزَّكاة تُشارِكُ غيرَها من وجوه البِرّ في مصطلح الصَّدقات، كما في قوله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ [التّوبة: 60]، فاسمُ الزّكاةِ خاصٌّ بالمفروضة، واسمُ الصّدقات عامٌّ لها ولغيرها.

سرُّ التَّعبير بمفردة ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

إلماحٌ إلى ما يترتَّبُ على أدائها من تحقيق طُهر مال الغنيِّ وما يَحُلُّ به مِن بَرَكَةٍ

في اصطفاء اسم ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لذلك القَدْرِ المُحدَّدِ من حقوق الفقراء في أموال الأغنياء إلماحٌ إلى ما يترتَّبُ على أدائها من تحقيق طُهر مال الغنيِّ، وما يَحُلُّ به مِن بَرَكَةٍ، وما يحصُلُ في نفس المُزَكّي وأهله، وماله الّذي يُخرِجُ زكاتَهُ من خير، وأنَّ إخراجَ هذا القدر مِنَ المال - وإنْ كان ظاهرُهُ الإنقاصَ منه - فإنَّه يزيدُ وينمو ويُبارَكُ، وقد شبَّهوا ذلك بما يُؤخَذُ من شَعر الإنسان عند الحلاقة، وما يُؤخَذُ من جريد النَّخل عند التَّقليم؛ فكلاهما يُزينُ المأخوذَ منه ويُنمّيه ولا يضُرُّ به.

علّةُ عطف جملة ﴿وَأَمَرُواْ﴾:

الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكَر واجبان وكلُّ آمرٍ وناهٍ بِحَسبه

عُطِفَت جملةُ ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ على جملة ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لِمشاركتها في حُكم جواب الشَّرط ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾، وهذا العطفُ قائلٌ: "إنّ الأمرَ بالمَعروف والنَّهيَ عنِ المُنكَرِ واجبان كوجوب الصَّلاة والزَّكاة"[1]، ولكن في حدود الإمكانات، والأمر بالمعروف هو الدّليلُ

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 431.

الثّالثُ على صِدق الإيمان وقوّة اليقين بعد الفريضتَيْن السّابقتَيْن: ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنّ أُمَّةً تخلو مِن التّناصُح بالأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر لا قوّةَ لها ولا بركةَ فيها، وقد لُعِنَ الّذين كفروا من بني إسرائيلَ لأمورٍ عدّة، منها: أنّهم ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة: 79].

دلالةُ مُفردةِ الأمرِ:

قـــوّةُ الأُمَّـــة مرهونةٌ بتحقيق فريضتي الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر

التّعبيرُ بمُفردة (الأمر) في جملة ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ صريحٌ في عدم الصَّدْع بالحقّ وعدم الموارَبة فيه، لِما في مُفردة (الأمر) من تحقُّق الدّلالة على القوّةِ في مواجهة الباطل، وعدم مهابة المأمور والمَنهيّ، وعدم المُهادَنة في إحقاق الحقّ، وبمقدار ما يَغيبُ مِنَ الأمر بالمعروف يكون اختلالُ الأمّةِ وتخلُّفُها، وربَّما اندثارها تحت أقدام الأمم؛ لأنَّ مَنْ يأمرون بالمعروف ويَنهون عنِ المُنكَر، "يُصلِحون بهذا من سلوك النّاس، ويُقيمون لهم طرقَهم مُستقيمةً؛ فلا تَتصادَمُ منازعُهم، ولا تَفسُدُ مَشاربُهم"[1].

سِرُّ صياغة الأمر ﴿وَأَمَرُواْ﴾ ﴿وَنَهَوۡاْ﴾ ماضيًا:

المؤمنون يُبكِّرون بتنفيذ واجباتهم فورَ تمكُّنِهم من ذلك

في صياغة الأمر والنَّهي ﴿وَأَمَرُواْ﴾، ﴿وَنَهَوۡاْ﴾ ماضيَين إشارةٌ إلى وجوب تحقيقهما في الأمّة وعدم تعطيلهما، وذلك نفسه يُقالُ في صياغة الأفعال ﴿أَقَامُواْ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ﴾، وإلّا لكانَتِ الصّياغةُ مضارعةً هكذا: (الّذين إنْ مكّنّاهم ... يُقيمون الصّلاة...، ويُؤتون...، ويأمرون...، وينهون...)، كذلك في صيغة المُضي إيحاءٌ بسرعة استجابتهم وتنفيذهم لتلك الفرائض متى تمكّنوا من تنفيذها، وكذلك كأنَّ صيغةَ الماضي فيها جميعًا تَحضُّهم على فوريَّة تحقيقها لحظةَ التَّمكين، وأنَّها لِسرعةِ تحقيقها تكون كالماضي الّذي مضى سريعًا دون أن يستغرق وقتًا يُلحَظُ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1047.

لطيفة إسناد الأمر بالمعروف إلى واو الجماعة:

يَختَلُّ المجتمعُ بِقدر ما يَسكُتُ على مُخالَفات العصاة

في إسناد الأمر بالمعروف إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ دليلٌ على صلاح المجتمع كلِّه، وأنّ أفرادَهُ وجماعاته يَتناصحون، ولا يرى بعضُهُم بعضًا على معصية فيَصمتُ عنه، أو يُقِرُّهُ عليها، هذا هو منهج المجتمع المؤمن كما توجِّهُه إليه واو الجماعة هنا، وتوحي إلى ذلك بأنَّ هذا المجتمعَ جديرٌ بالنّصر والتّمكين، وإلّا اختلَّ المجتمعُ بِقدر ما يَسكُتُ أفرادُهُ وجماعاتُهُ على معاصي العُصاة، وبقدرِ ما يُقِرّون بعضَهم بعضًا عليه من مُخالفات الدّين والأخلاق والآداب.

معنى الباء في القيد ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

بالمعروف تتسبَّبُ أسبابُ الخير وتتحقَّقُ

معنى (الباء) في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ باء الاستعانة والسّببيَّة؛ أي: أَمَروا غيرهم بالحقِّ والهُدى والصَّواب مُستعينين بالمعروف، مُتسبِّبين به إلى تقويم مَن يُخطئ من أفراد المجتمع ومؤسَّساته.

علَّةُ التّعريف في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

المعروفُ والمُنكَرُ يَعُمّانِ الإيمانَ والكفرَ فما دونهما

تعريف كلمة ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ يدُلُّ على كونه (المعروف) المُتعارَف على خيريَّته وحُسنه في تعاليم الدّين الحقِّ، وقيم أهل العلم والصَّلاح؛ فتعريفه العهد، وإلّا فأنواع المعروف تختلفُ مِنه لدى أهل الكفر والضَّلال عنه لدى أهل الحقِّ والرَّشاد؛ لذلك كان تعريفُ لفظ ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ هنا متَّجِهًا به إلى ما تعارفَهُ الشّرعُ الحنيفُ، ورسّخَته نصوصُ القرآن الكريم والسُّنَّة الشّريفة، وما تعارفَهُ أهلُ الحقِّ مِنَ الآداب والأخلاق السّامية؛ فـ"المعروف اسمٌ لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ بالعقل والشَّرع حُسنُه"(1)، وقال ابن عطيَّة: "المعروفُ والمُنكَرُ يَعُمّانِ الإيمانَ والكفرَ فما دونهما"(2).

(1) حقّي، روح البيان: 6/ 41.

(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.

لطيفة صياغة ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ اسم مفعول:

المعروفُ يُلتمَسُ من قيم الدّين؛ فهو مَحلُّ اتّفاق ذوي النّفوس المُستقيمة

صيغة اسم المفعول في (المعروف) تدُلُّ على أنّه قد صار محلَّ اتّفاقٍ في الأمَّة، و"لَن تَجتَمِعَ أُمَّتي على الضَّلالَةِ أبَدًا"[1]، كما قال الرّسول ﷺ؛ فصيغة المفعول توحي باجتماعهم عليه، وإقرارهم إيّاه ورضاهم به، مُلتَمِسين إيّاه من قيم الشّرع الحنيف، واللّه تعالى لا يأمرُ إلّا بخيرٍ.

نكتة حذف المفعول في ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

المجتمع الجدير بنصر الله تعالى وتمكينه الّذي يَنصَحُ بعضُه بعضًا

المفعول في جملة ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ محذوفٌ، وتقديره: أمَروا أنفسَهم أو غيرهم، أو المُقصِّرين منهم بالمعروف؛ ونُكتة حذفه توفيرُ العناية على هذا القيد ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ لا على المفعول، وما داموا جميعًا ﴿وَأَمَرُواْ﴾ فلا بُدّ أنَّهم جميعًا مأمورون، فهم مُتناصحون، يَنصَحُ بعضُهم بعضًا، ويأخُذُ بعضُهم بأيدي بعضٍ، وهذا هو المُجتمَعُ المِثالُ، الجديرُ بنصر اللّه تعالى وتمكينه.

معنى الواو في جملة ﴿وَنَهَوۡاْ﴾:

يُشرَّفُ المسلمون ويُعزّون بمقدار تنفيذهم تلك الخلائقَ

عُطِفَت جملةُ ﴿وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ على ما قبلَها؛ لدخول الجميع في حَيّز جواب: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ﴾؛ فبمجموع تلك الخلائقِ ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾، يصيرُ بها المجتمعُ المُسلمُ في غاية الشَّرف والفضيلة، وفي أوج العِزَّة والمَنَعَة، ويصبحُ النَّموذجَ الجديرَ بالنَّصر والتَّمكين، وبقدر ما يُنتقَصُ من تلك الخلائق يكون انحدارُهُ وانحطاطُهُ بين الأمم، وذلك ما لا يليقُ بأُمَّة الإسلام الّتي هي خيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَت للنّاس.

دلالة تقييد النَّهي بـ ﴿عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾:

تنوَّعَت تأويلُ العلماء في بيان المقصود بـ﴿ٱلۡمُنكَرِۗ﴾؛ فمنهم مَن

---

(1) الطّبرانيّ، المعجم الكبير، بابُ مَنِ اسمُهُ عُمَرُ، عَمرو بنُ دينارٍ، عنِ ابنِ عُمَرَ: 12/ 447، الحديث رقم: (13623).

قال إنَّه الشِّرْك[1]، ومنهم مَن قال "هو ما يستقبحُهُ أهلُ العلم والعقل السّليم"[2]، ومنهم مَن رأى أنّ الأولى التّعميمُ[3]؛ وعلى كلٍّ فتقييد النَّهي بالجارِّ والمجرور ﴿عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾ دليلٌ على اتِّزان المجتمع المسلم، وأمارةُ رُقيِّ أفراده ومؤسَّساته؛ فلا يسكُتُ أحدٌ فيه عن معصية يرتكبُها أخوه، ولا يُقِرُّ أحدًا على انحراف في قولٍ أو فعلٍ؛ بل يتصدَّى الجميعُ لأخطاء الجميع، مُتَّخِذًا الحُسنى وسيلةً، كما قال اللّه تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: 96].

دليلٌ على اتِّزان المجتمع المسلم وأمارةُ رُقيِّ أفراده ومؤسَّساته

بلاغة المقابلة بين ﴿وَأَمَرُواْ﴾ و﴿وَنَهَوْاْ﴾:

الجمع بين الجملتَيْن المُتضادّتَي المعاني ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ و﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾ يَمنَحُ الأسلوبَ حيويّةً، ويَعكِسُ ما في هذا المجتمع الآمر بالمعروف النّاهي عنِ المُنكَرِ من يقظةٍ لِما يَقَعُ فيه مِن مُخالَفاتٍ؛ فيُصوِّبُها ويُقوِّمُ المُعوجّين، ولمّا كان التَّقابُلُ بين المعاني قائمًا على عُنصر التَّضادِّ كان مِن طبيعته إيقاظُ المُتلقّي إلى تلك المعاني المُتقابِلة؛ ممّا يدعوه إلى احتضان أنوارِها، والتزامِ تنفيذِها ما أمكنه ذلك.

الجمع بين المعاني المُتضادَّةِ يوقِظُ المتلقّي إلى تدبُّرها والتَّفاعل معها

براعة ترتيب الأفعال في الآية:

في ترتيب جُمَل جواب الشّرط ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، ﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ﴾ بيانٌ للأولويّات الواجِبِ تنفيذُها في المجتمع المؤمن الجديرِ بنصر اللّه تعالى وتمكينه، وتأخيرِ الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر عن إقام الصَّلاة يوحي بأنَّهما ثمرةٌ من ثمراتها، ويضبطُهما بضوابطها؛ فالصَّلاةُ عمادُ الدّين، ثمّ تأتي الزّكاةُ دليلًا على صدق الإيمان؛ لأنَّها إنفاقٌ للمال وبذلٌ بِحُبٍّ،

الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَرِ من ثمار الصّلاة والزّكاة

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 462.
(2) حقّي، روح البيان: 6/ 41.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.

وبها قوامُ المُجتمعِ بطبقتيْه: فقراء وأغنياء، ثمّ يأتي التّناصُحُ أمرًا بمعروف أو نهيًا عن مُنكَرٍ، وبهما استقامةُ الأُمَّة، وضمانُ سلامتها مِنَ الاختلال، وهذا التّرتيبُ إلى ذلك دليلٌ على "وجوب الأمر بالمعروف والنَّهي عنِ المُنكَر؛ إذ قُرِنا بالصَّلاة والزَّكاة"[1].

معنى الواو في جملة الفاصلة:

وعدُ اللهِ تعالى بإظهار أوليائِهِ وإعلاءِ كلمتِهم

في جملة الفاصلة ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ "تأكيدٌ لِما وعَدَه اللّهُ تعالى من إظهار أوليائه، وإعلاء كلمتهم"[2]، والواو في هذه الجملة استئنافيّةٌ أو عاطفةٌ[3]، أو واو الحال؛ أيْ: والحال أنَّ ثمرةَ النَّصر والتَّمكين - وهي تنفيذ الصَّلاة والزَّكاة والأمر والنَّهي - لن تَضيعَ سُدًى؛ فإنَّ اللّهَ تعالى وعَدَ عبادَهُ هؤلاء بمزيدٍ مِنَ النَّصر، وأنّه سيمدُّهُم بأسباب التَّمكين تَتْرَى، وقد أخذوا بما أتاح لهم منها بموجب ﴿إِن﴾ القائلة بِالشَّكِّ والاحتمال في جملة: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ﴾، وبذلك يتَّضِحُ الخيطُ الدّقيقُ الجامِعُ بين الآية وفاصلتها.

نكتة تقديم الخبر ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾:

عـاقـبـةُ إقـامـةِ المؤمـنين أركـانَ الدّين مزيدٌ مِنَ النَّصر والتَّمكين

تدُلُّ جملةُ الفاصلة ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ على أنَّ اللّه تعالى "يُبطِلُ كلَّ مُلكٍ سوى مُلكه؛ فتصيرَ الأمورُ إليه بلا مُنازِعٍ ومُدَّعٍ"[4]، وفيها "إشارةٌ إلى نفاذ قدرته تعالى، وأنَّها بالغةُ الغاية الّتي قدَّرَها سبحانه لها في هذا المَقام وهي نصرُ المؤمنين، وخذلانُ المشركين والضّالّين، فعاقبةُ تلك الأمور هي ثمراتُها الطّيّبةُ؛ إذ كانَتِ الأمورُ كلُّها تجري بأمر اللّه تعالى، فإذا بلغَتْ غايتَها كانت خيرًا، وكانت كمالًا وحُسْنًا"[5].

---

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 274.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 161.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 440.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 274.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1048.

وتقديم الخبر - الجارّ والمجرور - ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ يُفيدُ القَصرَ الحقيقيَّ التَّحقيقيَّ؛ إذْ لا عاقبةَ إلّا له، ولا مَصيرَ إلّا إليه سبحانه وتعالى.

التّنويهُ بحُسن مآل المؤمنين المتَّصفين بتلك الصِّفات

وفي ذلك تنويهٌ بِحسن مآل مَن ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾، وأنّ عاقبةَ ذلك منهم ستُحمَدُ، وثمرة جهاد النَّفس وجهاد الغير هذا ستكون مزيدًا مِنَ النَّصر والتَّمكين في الدُّنيا، والرِّضوان والجنان في الآخرة.

سِرُّ إضافة العاقبة إلى الله تعالى:

العاقبة لله تعالى في الآخرة ولنصر أوليائه وقَهرِ أعدائه في الدّنيا

إضافةُ العاقبة إلى اللّه تعالى "يحتمِلُ أن يكونَ المعنى: ترجِعُ إليه الأمورُ في الآخرة، كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [الحج: 76]، وجائزٌ أن تكونَ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ لأوليائه مِنَ النّصر والقَهر على أعدائه، فالمُراد بالإضافة إليه: أولياؤه؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: 7]؛ أيْ: إنْ تنصروا أولياءَه أو تنصروا دينَه ينصرْكُم"(1)، كذلك يُفهَمُ من تلك الإضافة "توعُّدُ المُخالِفِ عن هذه الأوامر الّتي تقتضيها الآيةُ لِمَن مُكِّنَ"(2)، وقال أبو السُّعود: "وفيه تأكيدٌ للوعد بإظهار أوليائه وإعلاء كلمته"(3).

دلالة التَّعبير بالعاقبة:

العِبرةُ في جهاد الدّنيا بِثمرة الثّمرة

في التّعبير بمُفردة العاقبة لَفتٌ إلى ثمرة الثّمرة ونهاية النّهاية، وأنَّ الغايةَ إنَّما تتعلَّقُ بها، والمآلَ والمُستقرَّ سيكون هنالك، وأنّ تلك الأفعال ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ...، مُقدِّماتٌ وأُسُس ليست غايةً في ذاتها، وأنّها وسائلُ لغايةٍ أبعدَ وأهمَّ بالنّسبة إلى العبد المُلتَزِم بها، و"ذِكرُهُ للعاقبة وطَيُّهُ للبادِئة مُنَبِّهٌ على أنّه تعالى

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 7/ 426.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 109.

يَجعَلُ للشّيطان - كما هو المُشاهَدُ في الأغلب - حظًّا في البادِئَة؛ ليتبيَّنَ الصّادقَ مِنَ الكاذبِ، والمُزَلزَلَ مِنَ الثّابت، وأمّا العاقبةُ فهي مُتمحِّضةٌ له إلى أن يكونَ آخرُ ذلك القيامةَ الّتي لا يكونُ لأحدٍ فيها أمرٌ حتّى إنَّه لا يَنطِقُ أحدٌ إلّا بإذنٍ خاصٍّ"[1].

نكتة تعريف العاقبة بالإضافة دون (أل):

العِبرةُ بعواقب الأمور سواءٌ في الدّنيا والآخرة

في تعريف العاقبة بالإضافة إلى الأمور ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ دون (أل) - كما لو قيل في غير القرآن الكريم: ولله العاقبة تأكيدُ أنّ أمورَ المؤمنين المُطيعين لمَنْ بيده ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ - سَتُسفِرُ قطعًا عنِ النّتيجة المُثلى، وستؤدّي بهم إلى الثَّمرة الحلوة، وأنّ غاية غاياتِهم في الدّنيا هي النَّصرُ والتَّمكينُ، وفي المقابل ستكون عاقبةُ الكافرين في الدّنيا الهزيمةَ والخذلانَ، وفي الآخرة الجحيمَ والخُسرانَ؛ ففي التّعريف بالإضافة إذن دعوةُ المؤمنين إلى إحسان الصّلاة والزّكاة والأمر والنّهي، وابتغاء ثمارها الأخرويّة الآجلة، فضلًا عنِ الدّنيويّة العاجلة، كما أنّ فيها تحذيرًا للكافرين مِنَ الخذلان والخسران.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّمكين والإقدار والتَّسليط:

التَّمكينُ: منحُ القُدرة مع الإمكانات، والإقدارُ: منحُ القُدرة مُطلَقًا، والتّسليطُ: القَهرُ

"التّمكين: إعطاءُ ما يصِحُّ به الفعلُ كائنًا ما كان مِنَ الآلات والعُدد والقوى، والإقدارُ: إعطاءُ القُدرة، وذلك أنّ الّذي له قُدرةٌ على الكتابة تتعذَّرُ عليه إذا لم يكُنْ له آلةٌ للكتابة، ويتمكَّنُ منها إذا حضرَتِ الآلةُ، والقدرةُ ضدُّ العَجز، والتَّمكُّنُ ضِدُّ التَّعذُّر"[2]، و"التّسليطُ: القهرُ، والأخذُ بالغَلَبَة"[3]، والإرسالُ على الشّيء، يُقالُ: "سلَّطَهُ اللّهُ تعالى عليه؛ أيْ: أرسلَه، قال اللّه تعالى: ﴿لَسَلَّطَهُمۡ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 60.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 142.
(3) ابن بطّال، النَّظم المُستعذَب: 2/ 207.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 90]"[1]؛ فآثرَ النّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردة التّمكين لدلالتها على معنى الإقدار وزيادة.

العاقبة والخاتمة والنَّهاية:

العــاقــبــةُ: الــنّــتــيــجــةُ، والــخــاتــمــةُ: آخــرُ الــشّيء، والــنّــهــايــةُ: المُنْقطَعُ

"العاقبة: ما يؤدّي إليها السَّببُ المُقدَّم، وليس كذلك الآخرة؛ لأنَّه كان يمكن أن تجعلَ هي الأولى في العدة"[2]، و"الخاتمة والخِتام من كلِّ شيءٍ: آخرُهُ"[3]، والنّهاية: "منقطَع الشّيءِ؛ فقيل: هو نهايته؛ أيّ: منتهاه، وخلافُ المُنتهَى: المُبتدأ، فكما أنّ قولَك: المُبتدَأ يقتضي ابتداءَ فعلٍ من جهة اللّفظ، وقد انتهى الشّيءُ إذا بَلَغَ مَبلغًا لا يُزادُ عليه"[4]، فعبَّرَ الذِّكْرُ الحكيمُ بالعاقبة لدلالتها على معاني الخاتمة والنّهاية وزيادة الثّمرة الأخيرة للأمور.

---

(1) الحميريّ، شمس العلوم: 5/ 3186.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 551.
(3) أحمد رضا، معجم متن اللّغة: (ختم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 5.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢
وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ
فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحَجّ: 42 - 44]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

لا يمنعُ ضمانُ النَّصر الدَّعمَ بالتَّسلية

قال فخر الدّين الرّازيُّ: "لمّا بيّنَ فيما تقدَّم إخراجُ الكفّارِ للمؤمنين من ديارهم بغير حقٍّ، وأذِنَ في مُقاتلَتِهم، وضمِنَ للرّسول ﷺ والمؤمنين النُّصرة، وبيَّنَ أنَّ للّه تعالى عاقبةَ الأمور؛ أردفَهُ بما يجري مَجرَى التَّسلية للرَّسول ﷺ في الصّبر على ما هُم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتَّكذيب وغيره"(1).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾: (ملو) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على امتِدادٍ في شيءٍ زَمانٍ أو غيرِهِ(2)، والمعنى المحوريُّ: اتّساعُ ما يجوز شيئًا أو امتدادُهُ؛ كالمُتَّسع مِنَ الأرض لِما فيه، وكذلك الفلاة(3)، والمَلي مِنَ النَّهارِ: السّاعَةُ الطَّويلَةُ، والمَلي: المُتَّسَعُ، يُقالُ: انتَظَرتُهُ مَليا مِنَ الدَّهرِ؛ أيْ: مُتَّسَعًا منهُ، وهو صِفَةٌ استُعمِلَت استِعمالَ الأسماءِ، ويُقالُ: أملَيتُ للبَعيرِ في قَيدِهِ: وسَّعتُ لَهُ(4)، ومِنهُما ورد في هذه الآية، ومعناها: أمهَلتُهُم.

2) ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾: (أخذ) أصلٌ واحدٌ تَتَفَرَّعُ منهُ فُروعٌ مُتَقارِبَةٌ في المعنى(5)، والمعنى المحوريُّ: حَوزُ الشّيءِ في الأثناء ضمًّا أو قبضًا على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 231.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (ملو).
(4) المُطَرِّزيّ، المُغرِب في ترتيب المُعرَب: (ملو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

غِلَظٍ مادّيٍّ أو معنويٍّ[1]، والأخذُ: خلافُ العَطاءِ، وهو أيضًا التَّناوُلُ، أخذتُ الشَّيءَ آخُذُه أخذًا: تَناوَلتهُ؛ وأخَذَه يأخُذه أخذًا، وقولُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الحج: 48]؛ أي: أخذتها بالعذاب[2].

3) ﴿نَكِيرِ﴾: (نكر) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خلاف المَعرفة الّتي يسكُنُ إليها القلبُ، ونَكِرَ الشّيءَ وأنكرَهُ: لم يَقبَلْهُ قلبُهُ، ولم يَعتَرِفْ به لسانُهُ[3]، فالإنكارُ: ضِدُّ العِرفانِ، يُقالُ: أنكرتُ كذا، ونَكَرتُ، والمُنكَرُ: كلُّ فِعلٍ تحكُمُ العقولُ الصّحيحةُ بقُبحِهِ، أو تتوقَّفُ في استقباحِهِ واستحسانه العقولُ، فتحكُمُ بقبحه الشّريعةُ، ونَكَرتُ على فُلانٍ وأنكرتُ: إذا فَعَلتَ به فِعلًا يَردَعُهُ، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أيْ: إنكاري[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طريقُ الدُّعاةِ إلى الله تعالى شاقَّة وسلاحُهم فيها الصَّبرُ والتَّأسّي

وإنْ يُكذِّبْكَ أهلُ مكَّةَ - يا محمّد ﷺ - فاصبِرْ ولا تحزَنْ؛ فذلك ديدنُ الكفّارِ مع رسلهم، ولستَ أنت أوّلَ مَن يُكذَّبُ من قِبَلِ قومه؛ فقد كَذَّبتْ أقوامُ الأنبياء أنبياءَهم قبل تكذيب قومِكَ لك؛ فكَذَّبَ قومُ نوحٍ نبيَّهم، وكذَّبَت عادٌ نبيَّهم هودًا، وكذَّبَت ثمودُ نبيَّهم صالحًا، وكذَّبَ قومُ إبراهيمَ أبا الأنبياء إبراهيمَ، وكذَّبَ قومُ لوط نبيَّهم لوطًا، وكذَّبَ أصحابُ مَدينَ نبيَّهم شعيبًا، وكذَّبَ فرعونُ والأقباطُ نبيَّهم موسى؛ فأقمتُ على الكافرين الحُجَّةَ بالإملاء والإمهال إلى نهاية آجالهم - مع علمي بانعقاد قلوبهم على الكفر، وأنَّهم لن يُؤمنوا - ؛ فيظهرَ لهم ويتحقَّقَ عليهم جُرمُ إصرارهم على الكفر، ويتأكَّدَ لهم استحقاقهم العذاب، فكان عذابي بهم عذابًا شديدًا مُنْكَرًا لا يَتصوَّرُ أحدٌ فظاعته.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (أخذ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(3) ابن فارس: مقاييس اللّغة: (نكر).
(4) الرّاغب، المُفردات: (نكر).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾:

الواو في جملة ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ واو الاستئناف؛ إذْ يشرَعُ النّظمُ الكريمُ في مواساة الرّسول ﷺ بما وقَعَ للمُرسَلين قبلَه من أقوامهم من تكذيبٍ مثل تكذيبِ قومه له، وصبرِ المُرسلين في سبيل نشر عقيدة التّوحيد؛ ففي المواساة بذلك شدٌّ لأزره ﷺ، وتلطيفٌ لمرارة التّكذيب، وبخاصّة أنّ مِن أهله الّذين يَعلمون عنه، ويُقرّون له بأنَّه لا يَكذِبُ ولا يَخونُ.

التَّأسّي بأهل الطَّريق يُهوِّن صعوبة المسير

علَّة تقييد تكذيبه ﷺ بـ (إن):

آثرَ النَّظمُ الكريمُ تقييدَ تكذيب الكفّار له ﷺ بـ (إنْ) - دون (إذا) المُتَّسِقة مع التّكذيب الحاصل - تكريمًا له ﷺ بإشعارِهِ من خلال (إنْ) بأنّه ليس بمثابة أن يَكذِبَ، وأنّ تكذيبَهُ يجبُ ألّا يكونَ إلّا على سبيل الافتراض الّذي يُعبَّرُ عنه بـ (إنْ)، وأنّ اللّه تعالى يعرِفُ له قدرَهُ، ويحفَظُ له جنابَهُ، وأنَّه ﷺ منه سبحانه وتعالى بمكانةٍ، وفي ذلك تطييبٌ لخاطره ﷺ وشحنٌ لِهمَّته، وتثبيتٌ لِخُطاه على طريق الحقّ، والدّعوة إلى اللّه تعالى.

مواساة الصّالحين بِنَفي التُّهَم عنهم منهجٌ قرآنيٌّ

دلالة التَّعبير بالمُضارَعة في ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

في إيثار التّعبير بالمضارعة في فعل الشَّرط ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ اتّساقٌ بارعٌ مع التّقييد بـ(إنْ)؛ إذ يُبعِدُ اللّهُ تعالى عنه ﷺ رائحةَ التّكذيب الواقع فعلًا في حقّه، ومع ذلك يُؤثِرُ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ المضارعة الّتي لا تُقطَعُ بالتّكذيب، ولا تُثبِتُهُ له، ولا تُحقِّقُهُ بصيغة الماضي لو عُبِّر بها في غير القرآن الكريم، وقد عبَّرَ القرآن الكريم بالماضي في ثلاثة مَواضِعَ: [آل عمران: 184، والأنعام: 147، ويونس: 41]، وبالمضارعة في ثلاثة: [الحجّ: 42، وفاطر: 4، وفاطر: 25]؛ وكلُّها مقيَّدةٌ بـ (أن) دليلًا قاطعًا على أنّ تكذيبَه ﷺ ممّا حقُّه ألّا يكون

لِصيغِ الكلمات دَورٌ فاعلٌ في تلطيف ثِقَل المِحَن على النُّفوس الموجوعة

إلّا سبيلَ الافتراض، وإلى ذلك؛ ففي المضارعة إشارةٌ إلى أنّ تكذيبهم سيتجدَّدُ.

دلالة التّعبير بالتّكذيب الصّريح ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

هدمُ كلِّ التُّهَم عنِ الصّالحين بِهدم أبشَعِها منهجٌ قرآنيٌّ

في التَّصريح بمُفردة التّكذيب في حقِّه ﷺ إزراءٌ على مَنْ تكبَّدَ تلك الجريمة، وتحقيقٌ لجُرْمه، كذلك فيه نفيٌّ وإبعادٌ لأقبح ما يمكن أن يوجَّهَ إليه ﷺ؛ ليكونَ نفيُ ما دونَهُ وإبعادُ ما تحته عنه آكَدُ.

ولا شكَّ أن مُقاتَلةَ أهل الحقِّ أهونُ من تكذيبهم التّكذيبَ الصّريحَ، وإنْ كانَت مُقاتلتهم من نتائجه وثماره، وقديمًا قالوا:

جِراحاتُ السِّنانِ لها التِئامٌ *** ولا يَلْتامُ ما جَرَحَ اللِّسانُ[1]

المُخاطَب بكاف الخطاب في جملة ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾:

مـن خـطـابـات القرآن ما يخصُّ الـرّسـولَ ﷺ ومنها ما يعمُّ أُمَّتَه

المُخاطَب بكاف الخطاب في قوله تعالى: ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ هو رسولُ الله محمّد ﷺ؛ لأنَّه المُخاطَبُ الأوَّلُ بالوحي الشّريف، وبنصوص القرآن الكريم، ثمَّ يكون الخطابُ في بعض المَواضِع القرآنيّة لأُمَّته؛ كقوله تعالى في السّورة نفسها: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الحجّ: 2]، و﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحجّ: 5]، وغيرهما مِنَ المَواضِع الّتي خوطِبَ بها الرّسولُ ﷺ أوّلًا، ثمّ خوطِبَ بها كلُّ مُسلمٍ من أمَّتِه من بعدِه إلى قيام السّاعة.

معنى الفاء في جواب الشَّرط ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ واقِعةٌ في جواب الشّرط ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾، رابطةٌ للجواب بالشّرط، اقتضاها اقترانُ الجواب بالحرف (قد)؛ إذْ لا يجوز: (وإنْ يُكذِّبوك قد كُذِّبَ الّذين من قبلهم) بدون الفاء؛ لأنَّ (قد) بدون الفاء تُؤذِنُ باستئناف خبرٍ جديدٍ قبلَ تمام الشّرط، وتقطَعُ الجوابَ عنِ الشّرط؛ فجاءَتِ الفاءُ للرّبط بينهما.

(1) الثّعالبيّ، اللّطائف والظّرائف، ص: 104، ولم أقف على قائل البيت.

نكتةُ حذف جواب الشَّرط:

من مُقتضيات الحذفِ المسارعةُ إلى ذِكرِ الأهمِّ في مَقامه

الفاءُ هنا تُؤذِنُ بجوابٍ محذوفٍ، تقديره: (وإنْ يُكذِّبوك فاصبِرْ؛ فقد كُذِّبَ الّذين مِن قبلهم)، أو: "فلا عجبَ في تكذيبهم، أو: فلا غَضاضةَ عليك"[1]، فـ "أُقيمَت تلك الجملةُ مقامَه؛ اكتفاءً بذِكْر السَّبب عن ذِكْر المُسبِّب"[2]، ومن لطائف حذف المفعول هنا المسارَعةُ إلى ذِكْر جملة التّسلية؛ لأنّ ذِكْرَ التّسليةِ هنا أهمُّ بالنّسبة إلى المخاطَب ﷺ، أمّا المفعول ففهمُهُ مِنَ السّياق ميسورٌ.

ومن بلاغة حذف الجواب هنا كذلك المُسارَعةُ إلى استحضار صبرِ الرُّسلِ السّابقين عليهم السلام جميعًا لتسليته ﷺ، والتّهوين مِنَ الأمر عليه، فضلًا عن عدم الإثقال عليه بلفظ الأمر (فاصبر)، والجمع بينه وبين ثِقَل التّكذيب مِنَ الكفّار.

دلالة (قد) في ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ﴾:

تعديد الأمثلة وكثرتها يُثَبِّتُ المعنى المقصودَ في نفس المُخاطَب

جاءت (قد) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾ للتَّحقيق والتّأكيد؛ لذلك ناسبَها التّعبيرُ بالماضي ﴿كَذَّبَتۡ﴾، وفي ذلك تطييبٌ لِخاطره ﷺ، وشحذٌ لِهِمَّته على مواصلة الدَّعوة وجهاد المناوئين؛ فقد "ذكر تعالى في هذه الآيات سبعَ أمم، كلُّ واحدة منهم كذَّبَت رسولَها"[3]، وتعديد الأمثلة وكثرتها يُثبِّتُ المعنى المقصودَ في نفس المُخاطَب كما هنا، وبذلك يُرشِدُ القرآنُ الكريمُ إلى معالجة النّفوس المَكلومَةِ بذكر النّماذج المُشابِهة في الصّبر على مواجهة الصِّعاب، وقوَّة التَّحمُّل في سبيل الخير.

وجه تأنيث ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مع المذكَّر ﴿قَوۡمُ نُوحٍ﴾:

قد يُؤنَّثُ الفِعلُ لِفاعلٍ مُذكَّرٍ لفظًا مُؤوَّلٍ بمؤنَّثٍ معنًى

أُنِّثَ الفعل ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مع الفاعل المُذكَّر ﴿قَوۡمُ نُوحٍ﴾؛ لأنَّ "القوم المُكذِّبين كانوا على طبيعةٍ واحدةٍ مِنَ الضَّلال والعَمى، فكأنّهم بهذا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 323.

(3) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 267.

كتلةٌ مُتضخِّمةٌ مِنَ الظَّلام، لا يَخرُجُ منها إلّا ما هو شرٌّ وضُرٌّ؛ فكأنَّ الفعلَ واقعٌ على هذا الكيان الفاسد، أو هذه القطعة مِنَ الظَّلام والضَّلال! ومِن جهةٍ أخرى، فإنَّ الفعلَ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مُسلَّطٌ على هؤلاء الأقوام الّذين ذكرَتهم الآية: ﴿قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ﴾، وهم بهذا أُمَّةٌ واحدةٌ في الضَّلال، وإنْ كانوا أممًا عديدةً في الأمكنة والأزمنة"[1]، ثمّ إنّ "الفاعلَ ﴿قَوۡمُ﴾ اسمُ جمعٍ، يجوز تذكيرُهُ وتأنيثُهُ، وفي اختيار التّأنيث حطٌّ لِقدرِ المُكذِّبين"[2].

لطيفة حذف مُتعلّقِ التّكذيب في ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾:

الرّسولُ لا يَنطِقُ بكذِبٍ أبدًا لا في الرّسالة ولا في غيرها

مُتعلِّقُ التَّكذيب محذوفٌ من قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ إذ لم يُذكَرْ في أيِّ شيءٍ كذَّبوه ﷺ، وجائزٌ أن يكونَ قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في الرّسالة، وفيما تُخبِرُ عنِ الله تعالى مِنَ الأخبار، يُصَبِّرُ رسولَه أنْ لستَ أنت بأوَّلِ رسولٍ مُكذَّبٍ في الخَلق، ولكن قد كذَّبَ الأقوامُ الّذين كانوا قبلك رسلَهم في الرّسالة[3]، وتكمُن لطيفةُ حذف هذا المُتعلِّق أوَّلًا في الإيجاز؛ لأنَّه مُحدَّدٌ؛ فالقومُ يتعارفونَه فيما بينَهم بالصّادق الأمين، فليس التَّكذيبُ إلّا في الرِّسالة وتفاصيلها.

التَّنويه بعُلوِّ شأنه ﷺ

ثمَّ في التَّنويه بعُلو شأنه ﷺ عند ربِّه سبحانه وتعالى؛ إذ أطلَقَ جهاتِ التّكذيب، ولم يُقيِّدها بالرّسالة؛ ليُفهَمَ من ذلك الإطلاقِ أنَّ الرّسولَ ﷺ لا ينطِقُ بكذِبٍ أبدًا، لا بخصوص الرّسالة، ولا في عموم غيرها، وذلك يتّسقُ معه صريحًا في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣﴾ [النجم: 3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1050.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 427.

دلالة إسناد التّكذيب إلى الأقوام صراحةً:

في إسناد تكذيب الرُّسُل - صلوات اللّه تعالى عليهم - صراحةً من أقوامهم: ﴿قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ﴾ تأكيدُ التّسلية للرّسول ﷺ بتشبيه قريشٍ بالأقوام في التّكذيب، وأنّه دَيدنُ الأمم الّتي استمرأتِ الضّلالَ واستلذَّتِ المعصيةَ.

الـرّسـولُ ﷺ بمَنزِلةٍ كريمةٍ من ربِّه

وذِكرُ الأقوام المُكذِّبين - قومًا قومًا - يُفسِحُ للحديث المُطوَّلِ، الّذي مِن شأنه دَعمُ مواساته، وتأكيدُ تطييب نفسه ﷺ بأنَّ شأنَ أُمَّته شأنُ هؤلاء الأقوام المُتتابِعة على منهج الكفر والضّلال.

نكتة ذِكر القَيد ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾:

﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ هنا يعني: "قبل قومك"(1)، "فتلك هي سبيل الأنبياء مع أقوامهم ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾ [المؤمنون: 44]، وأنت أيُّها النَّبيُّ لستَ بِمَعزلٍ عن هذا، ولا قومك بِبِدعٍ بين الأقوام، إنَّه حقٌّ وباطلٌ، وإنَّه لا بُدَّ مِنَ الصِّدام؛ ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]"(2).

لا بُدَّ للدُّعاة مِنَ التَّسلُّح بالصّبر؛ فـالـصِّـدام بين الحقّ والباطل حتمي

ومِنَ المُقرَّر لدى الرّسول ﷺ أنَّ أولئك الأقوام المُكذِّبين لرسلهم كانوا قبل قريش وجودًا في الدّنيا، وتكذيبًا للرُّسل عليهم السلام في الدّين، ومع ذلك آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكْرَ القبليَّة في: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾، لِتطييب خاطرِه ﷺ.

توجيه المُتشابَه اللَّفظيّ في الآية الكريمة:

وَقَعَ التَّشابهُ بين قول اللّه تعالى هنا: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وقوله تعالى في سورة ص: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣﴾ [ص: 12 - 13]، وقوله

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 463.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1049.

تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [ق: 12 - 14].

من وجوه التّشابهِ بين المَواضِع الثّلاثة أنّها عدَّدَتْ نفسَ الأقوام المُهلَكة؛ وهي: قومُ نوحٍ، وعادٌ، وثمودُ، وقومُ لوطٍ، وأصحابُ الأيكةِ، وقومُ فِرعونَ، ومن وجوه التَّشابُه تَكرارُ أسماء بعض الأنبياء في المَواضِع الثّلاثة مع أقوامهم؛ وهذان (نوح)، (لوط) عليهما السلام؛ وبعد ذلك لعدم اشتهار قوميهما باسمٍ ولا بوصفٍ، مثلما اشتهرَتْ عادٌ، وثمودُ، وفرعونُ؛ فلَزِمَ ذكرُهما مضافًا إليهما قومهما في المَواضِع الثّلاثة بخلاف هودٍ وصالحٍ عليهما السلام.

ومع ذلك اقتضَت سياقاتُ تلك الآيات التَّصرُّفَ في تراكيبها؛ لتحقيق الانسجام والدِّقَّة، "قالَ الخَطيب: (سورَة ص) بُنيت فواصلُها على رِدف أواخرها بالباء والواو؛ فقالَ في هذِه السّورَة: ﴿ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾ [ص: 12] ﴿ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣﴾ [ص: 13] ﴿عِقَابِ ١٤﴾ [ص: 14]، وجاء بإزاءِ ذلك في (سورة ق): ﴿وَثَمُودُ ١٢﴾ [ق: 12] ﴿وَعِيدِ ١٤﴾ [ق: 14]، فالقصدُ للتّوفيق بالألفاظ مع وضوح المعاني"[1].

ومِنَ اللّافت في المَواضِعِ الثّلاثة اتِّفاقُها جميعًا في ذِكْر (عاد)، و(ثمود) دون اسمَي نَبيّيهما.

ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أنَّهما قبيلتان عربيَّتان مشهورتان؛ وذلك أجدى في تخويف قريش من مثل مصيريهما، وهم يمرّون بديارها، ويستحضرون فظاعةَ هلاكهم.

لطيفةٌ تعريف بعض الأنبياء بالإضافة إلى ﴿قَوۡمُ﴾:

أشـدُّ التَّكذيب مـرارةً علـى النَّفس تكذيبُ الـدّاعـي إلى الخير من أهله

في إضافة ﴿قَوۡمُ﴾ إلى ﴿نُوحٖ﴾ وهكذا ... وتعريفُ أقوامهم بهم عليهم السلام أيضًا دعمٌ لِمواساة النّبيّ ﷺ ؛ وكأنَّ تلك الإضافةَ تقولُ له: يا

(1) الكِرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 217.

مُحمَّد لا تجزَعْ ولا تحزَنْ؛ فقد لاقى نوحٌ عليه السلام من قومه الّذين هُم قومُه - وأولَى النّاس بِتصديقه وإكرامه - التَّكذيبَ كما لقيتَ أنت مِن قومك إلى أن صمّوا آذانَهم، واستغشَوا ثيابَهم.

وهكذا لاقى إبراهيم ولوط وغيرهما؛ فصَبَروا على أقوامهم حتّى مضى فيهم أمرُ اللّه تعالى.

لطيفة اقتران بعض الأقوام بأنبيائهم دون بعض:

النَّظمُ القرآنيُّ يُحقِّقُ لقارئه إمتاعَ الجَنان وطلاقةَ اللّسان ونغَمَ الآذان

ذَكَرَ النَّظمُ الكريمُ أقوامَ نوح وإبراهيمَ ولوط مُضافين إلى أنبيائهم عليهم السلام؛ بينما جاء أقوامُ هودٍ وصالحٍ ومَدينَ مُجرَّدين مِن ذلك؛ واللّطيفةُ في ذلك أيضًا "تنويعُ النَّظم بِتوزيع الكلمات ذات النَّغَم الواحد، مثل: ﴿قَوۡمُ﴾، هذا التّوزيعُ غيرُ المُتتابِع؛ حتّى لا يثقُلَ على الأُذُن، ولا يُثيرَ المَلَل والسَّأم؛ فكان هذا التَّوزيعُ الّذي ترى وتسمع تساوُقَ لَحنِه وروعةَ نغمِه، ولو ذهبتَ تُقيمُ النَّظمَ على أسلوبٍ واحدٍ، فتذكُرَ الأقوامَ مُضافين إلى أنبيائهم، أو تذكُرَهم بأعيانهم مُجرَّدين من تلك الإضافة - لوجدتَ نظمًا قلِقًا مُضطرِبًا، يتعثَّرُ به اللّسانُ، وتَستثقلُهُ الآذانُ"[1].

وجهُ ترتيبِ ذِكْرِ الأقوامِ المُكذِّبين:

يراعي الذِّكر الحكيم في ذِكر الرُّسل وأقوامهم ترتيبهم الزَّمنيَّ غالبًا

دَرَجَ القرآنُ الكريمُ في أغلب مَواضِعِ ذِكْرِهِ الأقوامَ المُكذِّبةَ لِرُسُلِها عليهم السلام على ترتيبهم بحسب وجودهم في الدّنيا؛ فقال هنا مثلًا: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ﴾، وقلَّما خالَفَ ذلك التَّرتيبَ، وتكون المخالَفةُ لأغراضٍ تقتضيها مَقاماتُها وسياقاتُها، تأتي في مظانِّها بمشيئة اللّه.

معنى الواو في ﴿وَعَادٞ﴾ ﴿وَثَمُودُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَعَادٞ وَثَمُودُ﴾ ... إلى آخره، واو العطف

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 9/ 1049.

التي تجمعُهُم جميعًا لتُشرِكَهم في حُكم التَّكذيب للرُّسل عليهم السلام، وكأنَّهم تواصَوْا به، برغم أنَّهم كانوا مُتفرِّقين زمانًا ومكانًا، وفي ذلك تأكيدٌ لتسلية رسول الله محمّد ﷺ، وتثبيتٌ لِقلبه.

سِرُّ ذِكْر ﴿وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ دون وصفهما بـ(قوم):

تُذكَرُ عادٌ وثمودُ باسمهما لاشتهارهما به دون الوصف بالقوم

"استُغني في عادٍ وثمودَ عن ذِكْر القوم لاشتهارِهم بهذا الاسم الأخصَرِ، والأصلُ في التَّعبير العِلمُ؛ فلذا لم يَقُلْ قومُ صالح وقومُ هود، ولا عِلمَ لغير هؤلاء، ولم يَقُلْ: وقومُ شُعيبٍ، قيل: لأنَّ قومَه المُكذِّبين له عليه السلام هُم هؤلاء دونَ أهلِ الأيكَةِ؛ لأنَّهم - وإنْ أُرسِلَ عليه السلام إليهم فكذَّبوه - أجنَبيّون، وتكذيبُ هؤلاء أيضًا أسبَقُ وأشدُّ"[1].

نكتةُ المغايرة في إسناد التَّكذيب في الآية:

عادٌ وثمودُ مِنَ العرب؛ لذلك ذَكَرَهم باسمهم مباشرةً لقُريش

مِنَ اللّافت هنا أنَّ النَّظمَ الكريمَ غايَرَ في إسناد التَّكذيب إلى الأمم، فأسندَهُ إلى قوم نوحٍ أوَّلًا، ثمّ أسندَهُ إلى عادٍ وثمودَ دون وصفهما بالقوم مُضافَيْن إلى رسوليْهما، ولعلَّ في ذلك إشارةً إلى الفَرْق بين أقوام أولي العزم (نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام) وأقوام غيرهم، بخلاف عادٍ وثمودَ؛ فليسوا من أقوام أولي العزم؛ "أمّا ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ فقد تواترَ خَبَرُهُم بين الأمم بسبب خبر الطّوفان، وأمّا عادٌ وثمودُ فهُم مِنَ العرب، ومساكنُهم في بلادهم وهم يمرّون عليها، ويُخبِرُ بعضُهم بعضًا بها"[2]؛ فكان ذِكرُهما باسمِهما الصّريح أرجى في اعتبار قريش بهما، "وأصحابُ مَدْيَنَ هم قومُ شعيب، وإنَّما لم يُعبَّر عنهم بـ(قوم شعيب) لِئلّا يَتكرَّرَ لفظُ ﴿قَوۡمُ﴾ أكثر من ثلاث مرّاتٍ"[3]، "وقال: وكُذِّبَ موسى؛ لأنّ مُكذِّبيه هُمُ القبطُ قومُ فِرعونَ، ولم يُكذِّبْه قومُهُ بنو إسرائيلَ"[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 157.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/ 196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

سِرُّ تكرار كلمة ﴿قَوۡمُ﴾ في الآية الكريمة:

قوم إبراهيم أشبهُ الأقوام المُكذِّبة بقريشٍ في إلجاء نبيِّهم إلى الخروج

ماثلَ أقوامُ نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ ﷺ في قبائحهم كفّارَ قريش، الّذين كذَّبوا خاتمَ الرّسلِ ﷺ، فقد كادَ كلٌّ مِن هؤلاء لنبيِّه كيدًا سافرًا مُتبجِّحًا لا خَجلَ فيه، ولا مَسافةَ لأدبٍ وخُلُقٍ، ولا رِعايةَ لِذِمَّة رحم، "ومناسبةُ عدِّ قومِ إبراهيمَ ﵇ هنا في عداد الأقوام الّذين أخذَهُمُ اللّهُ دون الآيات الأخرى - الّتي ذُكِرَ فيها مَن أُخِذوا مِنَ الأقوام - أنَّ قومَ إبراهيمَ ﵇ أتمُّ شَبَهًا بِمُشركي قريشٍ في تكذيبهم لرسولهم وإيذائه، ودَفعِهِ للخروج من مَوطِنِه؛ فكان ذِكْرُ إلجاءِ قريشٍ المؤمنينَ إلى الخروج من مَوطِنهم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ مناسبةً لِذكْر قوم إبراهيمَ"[1].

براعة الجَمْع بين نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وموسى ﷺ:

ذِكْــرُ الأنبياء الأربعة أقوى تَسليةً للرّسول ﵇ وأشدُّ تهديدًا لقريشٍ

في التَّصريح بذِكْر نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ وموسى ﷺ مزيدُ تطييبٍ لِخاطره ﷺ؛ والعَلاقةُ بين هؤلاء الأربعة مِنَ الرُّسل الكرام بالنّسبة إلى مواساته ﷺ من جهة، وبالنِّسبة إلى تهديد قريشٍ من الجهة الأخرى واضحةٌ؛ فثلاثةٌ منهم اجتُثَّ مُكذِّبوهم، والرّابع أبو الأنبياء إبراهيم؛ فكان جمعُهُم ﷺ ذِكْرًا أقوى تَسليةً لنبيِّنا الكريم، وفي الوقت نفسه أشدَّ تهديدًا لِمُشركي قريش والتَّعريض لهم بأنَّ استئصالَهُم أمرٌ واردٌ، وأنَّ عاقبةَ تكذيبهم الرّسولَ خطيرةٌ؛ فليَحذروا.

دلالة حذف مفعول الفعل ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

قد يُحذَفُ المفعولُ تكريمًا له وتطبيقًا عمليًّا لمبدئه

من لُطْف القرآن الكريم ورُقيِّه ومراعاتِه لخاطر الرُّسل الكرام ﷺ؛ أنَّه طوى مفعولَ الفعل في ﴿كَذَّبَتۡ﴾؛ ففي طيِّ ذِكْره تكريمٌ للرُّسُل الكرام ﷺ، ومراعاةٌ لِمَنزِلَتِهم مِنَ اللّه تعالى وتطبيقٌ عمليٌّ لإقصاء رائحة التَّكذيب - الّذي أخذَهُ على الكُفّار وهدَّدَهُم بعواقبه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

- عن جناب الرُّسل - صلوات اللّه تعالى عليهم -، وعدم إيقاع التَّكذيب عليهم صراحةً -، وإلى ذلك حُذِف مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾ "لكمال ظهور المُراد"(1).

معنى الواو في ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾:

لا يَدخُلُ المبنيُّ للمفعول في حيِّز المَبنيِّ للمعلوم

الواو في جملة ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ واو العطف، غير أنَّها لا تعطِفُ على الجملة السّابقة عليها مباشرة؛ وهي: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ وإنَّما تعطِفُ على رأس جملة الجواب ﴿فَقَدْ﴾؛ والمعنى: (وإنْ يُكذِّبوك فقد كَذَّبَتْ ... وقد كُذِّبَ موسى)؛ وذلك حتّى لا يدخُلَ المبنيُّ للمفعول: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ في حيِّز المَبنيِّ للمعلوم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾.

دلالة بناء الفعل ﴿وَكُذِّبَ﴾ للمفعول:

لم يكُنْ موسى عليه السلام من قوم فرعونَ ولا كذَّبَ موسى قومُه

لَمّا كانَت قصّةُ موسى أشيعَ قَصص الأنبياء عليهم السلام ذِكرًا في القرآن الكريم، وكان فرعونُ وقومُه أفجرَ الأقوام؛ كان الأنسبُ طيَّ ذِكْرِهم وتَجاهُلِهم، وبناءَ فِعلِ تكذيبهم موسى عليه السلام للمفعول: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾؛ والفاعلُ معلومٌ ولا داعي لِذكرِه، والفاعلُ مذمومٌ ولا شرفَ له ليذكَرَ، ثمّ إنّ موسى عليه السلام "لَمْ يُكَذِّبْه قومُه؛ بل كَذَّبَه القِبطُ"(2)، وقيل: "مَن كذَّبَه منهم تابَ إلّا اليسيرَ، وتكذيبُ اليسيرِ مِنَ القوم كَلا تكذيبٍ؛ ولِهذا لم يَقُلْ: وقومُ موسى كما قيل: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾"(3).

لطيفة اختصاص موسى في الآية:

تكذيب قوم موسى كان شنيعًا؛ لكون آياتِهِ في كمال الوضوح

لموسى عليه السلام خصوصيّةٌ جعلَت تكذيبَه مِن الجُرْم بحيث يُفْرَدُ عن تكذيب الأنبياء عليهم السلام، وإنْ كان تكذيبُهم جميعًا جُرمًا لا يُستهانُ به؛ ذلك أنَّ موسى كليمُ اللّه تعالى الّذي اصطنعه لنفسه، وهو النَّبيّ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 157.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 157.

الّذي لم ينسَ قضيَّته رغم اغترابه؛ فعاد ودعا وقاوم، وانتشل قومَه مِنَ الظُّلم، كذلك خُصَّ موسى بِفعل تكذيبٍ مُستقلٍّ "للإيذان بأنَّ تكذيبَهم له كان في غاية الشَّناعة؛ لكون آياتِهِ في كمال الوضوح"[1]، فكأنَّ هذا الفعلَ المُستقِلَّ يقول: وإذا كان موسى عليه السلام قد كُذِّبَ أيضًا "مع وضوحِ آياتِه، وعِظَمِ مُعجزاته، فما ظنُّك بِغيره؟"[2]؛ فلذا أُفرِدَ تكذيبُه بفعلٍ مُستقلٍّ.

دلالة الفاء في ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾:

الفاء في جملة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ تفريعيَّةٌ تعقيبيَّةٌ، رغم أنَّها اقترنَت بفعل الإملاء؛ فبينما أمهل اللّهُ تعالى الأقوامَ المُكذِّبة وأملى لهم، وأرخى لهم، عسى أن يثوبوا إلى الصَّواب؛ تأتي الفاءُ لتُفْرِغَ التّهديدَ على كفّار قريش بأنّ أخذَ اللّهِ تعالى إيّاهم يوشِكُ أن يَحُلَّ بهم، وأنْ يستأصِلَهم؛ فعليهم ألّا يغترّوا والإملاء؛ فإنَّه إمهالٌ محفوفٌ بالمخاطر، وأنَّ تكذيبَهم من شأنه أنْ يُرتِّبَ عليه إهلاكَهم، وقد نُقِلَ عنِ الحسن رضي الله عنه قوله: "إنَّ اللّه تعالى لَم يُهلِكْ قومًا بأوَّلِ التَّكذيب، ولكن أمهلَهُم قَرْنًا فقرنًا، وقومًا بعد قوم، ورسولًا بعد رسولٍ"[3].

الله يعلَمُ المؤمنَ من غيره؛ لكن يُملي ليقيمَ الحُجَّةَ على الكافرين

وقد لح ابن عاشور مَلمَحًا دقيقًا؛ فقال: "والفاء في ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ للتَّعقيب دلالةً على أنّ تقديرَ هلاكِهم حاصِلٌ من وقت تكذيبهم، وإنَّما أُخِّرَ لهم، وهو تعقيبٌ موزَّعٌ، فلِكلِّ قوم من هؤلاء تَعقيبُ إملائِه، والأخذُ حاصِلٌ بعد الإملاء بِمُهلةٍ، فلذلك عُطِفَ فِعلُه بحرف المُهلَة"[4]، فـ "الفاء لترتيب إمهال كلِّ فريقٍ من فِرَقِ المُكذِّبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب إمهال الكلِّ على تكذيب الكلِّ"[5]؛

مهما طال الإملاءُ فأخذُ الله للكافرين آتٍ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 110.
(2) الخازن، لباب التَّأويل: 3/ 259.
(3) الماتريديُّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 427.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 284.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 110.

"فكذلك قريش أملى تعالى لهم، ثمَّ أخذَهُم في غزوة بدرٍ، وفي فتح مكّةَ وغيرهما، والأخذ كناية عنِ العقاب والإهلاك"[1].

سِرُّ التّعبير بلفظ الإملاء:

قد يُمهلُ اللهُ تعالى الظّالمَ وقد أوجبَ له الهلاكَ

"الإملاءُ: تركُ المُتلَبِّس بالعصيان دون تعجيلِ عقوبته، وتأخيرِها إلى وقتٍ مُتأخِّرٍ حتّى يَحسَبَ أنّه قد نَجا، ثمّ يُؤخَذَ بالعقوبة"[2].

وفي الإملاء تنبيهٌ لِمَن يُعادي الأنبياء ﷷ في عُهودهم وإبّان دعواتهم، ومَن يُعادي الصّالحين المُصلِحين مِن بعدِهم وتنبيهٌ إلى أنّ سُنَّةَ اللّه تعالى ماضيةٌ على إرخاء العَنان للمُكذِّبين المُجرِمين، وأنّ تأخيرَهم لا يَعني رِضوانَهُ سبحانه عنهم ورضاه بإجرامهم؛ وإنَّما هو الإملاءُ الّذي يَقطَعُ العُذرَ ويَحسِمُ الأمرَ حتّى إذا أخذَهم لم يُفلتْهم، فليثوبوا إلى طريق الحقِّ، وليكفّوا عن تكذيب رسوله ﷺ.

براعة الإفراد في الفعل ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾:

جهةُ الرّحمة بالعاصي واحدةٌ وجهاتُ الغضب عليه عديدةٌ

من دقيق معنى النّظم القرآنيِّ هنا إسنادُه الفعلَ إلى الضّمير المُفرَد في الفعل ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾ دون ضمير العظمة، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: (أملينا)؛ وذلك لأنَّ الّذي يَرحمُ ويُملي لهم واحدٌ فقط، هو اللّه ﷻ القاهر فوق عباده، في حين تُبغِضُ مَخلوقاتُهُ تعالى مُكَذِّبَ رسوله ﷺ، وودّوا لو فتَكوا به؛ فلَفَتَ النَّظمُ الكريمُ إلى هذا المعنى الدّقيق بإفراد الضّمير إلى تشديد النَّكير عليهم إلماحًا إلى تفرُّدِه تعالى بالرَّحمة الّتي تمنحُهُم الفرصةَ، وأنَّ ذلك لو تُرِكَ لِسواه مِن خَلْقِهِ ما رحمَهُم.

معنى اللّام في ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مكذّبو الرُّسل حقيقون مُستحِقّون لذلك الأخذ النّكير

اللّام في القيد بالجارِّ والمجرور ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ لامُ الاختصاص والاستحقاق؛ فاللّه تعالى يَختصُّ أولئك الكافرين المُكذِّبين بالإملاء،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 519.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 284.

ثمّ الأخذِ النّكيرِ، وأنَّهم بتكذيبهم الأنبياءَ ﵈ وكفرِهم بالله تعالى الخالقِ العظيم، حقيقون مُستحِقّون لذلك الأخذ النّكير؛ بما قدَّمت أيديهم مِنَ التّكذيب والجحود والكفر الصّريح.

دلالة التّعبير بصيغة اسم الفاعل الظّاهر ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾:

الـكُـفـر يُـعمي ويصمُّ عن رؤية الحقِّ وسماعه إلّا مَن رحم الله تعالى

في التّعبير بصيغة اسم الفاعل (الكافِر) في جملة ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ إشارةٌ إلى عنادهم الصّميم، وثباتهم المَقيت على التّكذيب والكفر والجحود، وفي التّعبير بالاسم الظّاهر ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ دون التّعبير بضميرهم (أمليت لهم) - وهو جائز؛ لأنّه قد سَبَقَ ذِكرُهُم - موهِمٌ لِعموم الإملاء والأخذ، وأنّه - وإنْ كان على بُعدٍ - يَعمُّ الدّاعين ﵈ مع المدعوّين؛ فكان في التّصريح بالاسم الظّاهر، وكذلك في التّصريح باسم الفاعل ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ تطهيرٌ للسّياق من ذلك اللَّبس، وتنبيهٌ إلى سببيَّة الإملاء والأخذ، وأنّه الكُفْرُ الصّريح والجحود، فضلًا عن التّكذيب المُتبجِّح؛ وفي ذلك "تصريحٌ بمُكذِّبي موسى ﵇؛ حيثُ لَم يُذكَروا فيما قبلُ صراحةً"[1].

نكتة التّعبير بِـ ﴿ثُمَّ﴾:

إرخـاء الـعَـنان بـالإملاء بـ (ثمّ) يـقـطَـعُ عـلى الكافرين العذرَ

من بديع النَّظم الكريم في جملة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ التَّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ إذ بإيثارها هنا يكون فعلُ الإملاء قد أُحيط من حَواليَه بأداتَي العطف الفوريّة والرَّخية؛ فجاءَتِ (الفاء) قبلَه ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ بعده ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، فتحقَّقَ المَعنيان معًا في المَوضِع الواحد: معنى الأخذ القطعيّ، الّذي يوشِكُ أن يَقعَ بكفّار قريش بموجب الفاء التَّفريعيَّة التَّعقيبيَّة، ومعنى الإملاءِ المُتراخي الّذي يَقطَعُ عليهم كلَّ عذر بموجب ﴿ثُمَّ﴾ القائلة بالتّراخي الدّاعمة لمعنى الإملاء.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 110.

براعةُ الاستعارة في التّعبير بالأخذ دون الإهلاك:

إهلاكُ الله تعالى الظّالمين في يُسرِ تناوُلِ شيءٍ فهو دليلُ الهوان والصّغار

"الأخذُ حقيقتُهُ التّناوُل لِما لَم يكُنْ في اليد، واستُعيرَ هنا للقُدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالِهم، ومناسبةُ هذه الاستعارة أنّ الإملاءَ لَهم يُشبهُ بُعدَ الشّيء عن مُتناوِله، فشُبِّه انتهاءُ ذلك الإملاء بالتّناوُل، شُبِّه ذلك بأخذِ اللّه ﷻ إيّاهم عنده، لظهور قدرته عليهم بَعد وعيدِهم"[1]؛ ففي التّعبير بالأخذ تصويرٌ مُجمَلٌ لِتناولهم باستهانةٍ، وأنَّهم شيءٌ ضعيفٌ حقيرٌ؛ ففيه كنايةٌ عن هَوانِهم وصَغارهم تحت قدرة اللّه تعالى، ويُسْر الفتك بهم بالنّسبة إلى قوّته، وعظمته سبحانه، على أنّ أخذَهم لم يكُنْ دفعةً واحدةً؛ وإنَّما أخذَ "كلَّ فريق من فِرَق المُكذِّبين بعد انقضاء مُدَّة إملائه وإمهاله، والأخذُ كنايةٌ عنِ الإهلاك"[2].

سِرُّ إسناد الأخذِ إلى تاء الفاعل في الآية:

كأنّ اللهَ تعالى يُباشِرُ إهلاكَ مُكذِّبي رسوله ﷺ

أُسند الأخذُ في قوله تعالى: ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ إلى تاء الفاعل (المُفرد) اتِّساقًا مع إفراده في ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾، كذلك فيه تصريحٌ بمُباشرته ﷻ أخذَهم دون إيهام التّجاوز بالتّعبير بضمير العظمة (نا) عن أخذ الملائكة إيّاهم؛ ففيه مزيدُ ترهيبٍ وشدَّةُ تحذيرٍ لقريش الّتي تُكذِّبُ الرّسولَ ﷺ.

دلالة إيقاع الأخذ على ضمير الجماعة ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾:

المكذِّبون جميعًا بالنّسبة إلى الله تعالى كالشّيء الواحدِ الضَّئيل

إيقاعُ الأخذ على ضمير المُكذِّبين في ﴿أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾ يدُلُّ على هَوانِهم عليه ﷻ، وأنَّهم جميعًا كالشّيء الواحد الصَّغير الضَّئيل الّذي يتناولُهُ المُتناوِلُ بيده، وهم فعلًا كذلك بالنّسبة إلى قُدرة اللّه العظيم ﷻ.

ويُلمِحُ سكونُ ضمير (هم) إلى سرعة الأخذ، والفراغ منه بسرعةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 283.

(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 158.

خاطفةٍ، تؤول بهم إلى حيث تُبَتُّ أخبارُهم وتَسكنُ سيرتُهم، وتختفي أصواتُهم، ويُطوَى تكذيبُهم.

معنى الفاء في ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾:

الفاء في جملة ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استئنافيَّةٌ، تستأنِفُ تهديدًا جديدًا لِمَنْ يتطاولُ على مَقام النَّبيِّ ﷺ، وتُقرِّرُ أخذَ اللّه تعالى وإهلاكه لِلمُكذِّبين السّابقين، وتُعرِّضُ بإمكان أخذه تعالى للمُكذِّبين في كلِّ عصرٍ ومصرٍ.

غرض الاستفهام ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾:

أخذُهُ تعالى مكذِّبي رُسله مِنَ الفظاعة بحيث لا يُخبَرُ عنه؛ بل يُستفهَمُ

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ "استفهامٌ تقريريٌّ؛ أيْ: فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب؟ أليس كان واقعًا قَطعًا؟ ألم أُبَدِلْهم بالنِّعمة نِقمةً، وبالكثرة قلَّةً، وبالحياة موتًا، وبالعِمارة خَرابًا؟ ألَستُ أعطَيتُ الأنبياءَ جميعَ ما وعدتُهم مِنَ النُّصرة على أعدائهم والتَّمكينِ لهم في الأرض؟"[1]؛ فالاستفهام يُضفي على أخذ اللّه تعالى الكفّارَ تهويلًا وتعظيمًا، بحيث لا يقومُ له أحدٌ؛ ففي الاستفهام تهديدٌ جلي لِكفّار قريش؛ وفيه "معنى التَّعجب، كأنَّه قيل: ما أشدَّ ما كان إنكاري عليهم، وفي الجملة إرهابٌ لقريش"[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿كَانَ﴾:

وقوعُ العذاب النَّكير قطعيٌّ لِمَنْ يُكذِّبُ رُسلَ الله عليهم السلام

التّعبير بالماضي ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يوحي بالقطع بوقوع العذاب الخطير النَّكير لِمَنْ يُكذِّبون رسول اللّه ﷺ، وأنَّه مقطوعٌ به مفروغٌ منه، وفي ذلك مزيدُ تحذيرٍ لِكُفّار قريش، وتعريضٌ لهم بِوَشاكة أخذهم إنْ لم يَكفّوا عن تكذيبه ﷺ، وعنِ الكفر باللّه تعالى وجحود وحدانيَّته ذاتًا وصفاتٍ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 231.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 519.

دلالةُ مُفرَدَة ﴿نَكِيرِ﴾:

تدُلُّ مُفردةُ ﴿نَكِيرِ﴾ على خروج أخذ اللّه تعالى مكذِّبي رُسله عنِ الوصف فظاعةً وهَوْلًا، وتوحي بأنّ أحدًا لا يمكنه تصوُّره؛ فهو أخْذٌ منكورٌ مجهولٌ هولُه.

تغييرُ الله تعالى مُنكَرَ مُكذِّبي رسله يكون بإبدال أحوالهم إلى أضدادها

والدّلالة على أنَّ إنكارَهُ سبحانه وتعالى عليهم سيكون أخذًا وإهلاكًا وتدميرًا؛ لأنَّ "النَّكيرَ والإنكارَ تغييرُ المُنكَر"[1]؛ فقد "أبدلَهُم بالنِّعمة محنةً، وبالحياة هلاكًا، وبالعِمارة خَرابًا"[2].

لطيفة التَّعبير بصيغة ﴿نَكِيرِ﴾:

شدَّة التَّحذير مظنَّة الاعتبار

وممّا يَدعَمُ ذلك التَّحذير مِنَ الأخذ المنكور المحظور صياغتُهُ في قالب المبالغة (فعيل): ﴿نَكِيرِ﴾ دلالةً على شدَّة نكارته وفظاعته، وأنَّه "في غاية ما يكون مِنَ الهول والفظاعةِ"[3].

إشارة حذف ياء الإضافة من ﴿نَكِيرِ﴾:

تسليطُ الله بعضَ عباده على مُكذِّبي رُسُله من نكيره تعالى عليهم

تُحذَفُ ياءُ الإضافة في الذِّكر الحكيم في مثل هذا المَوضِع ﴿نَكِيرِ﴾ - والأصل (نكيري) - لأغراض وإشاراتٍ أخرى غير حذفه "تخفيفًا"[4]، إشارات يختصُّ كلُّ مَوضِع منها ببعضها، والإشارة الخاصّة بهذا المَوضِعِ تهويلُ ذلك النّكير الّذي يُنزَّلُ بهؤلاء المُكذِّبين، سواء أكان منه تعالى مباشرةً أم كان بتسليطه ﷻ عبادَهُ عليهم، وسواء أكان في الدّنيا أم في الآخرة؛ فحُذِفَت ياءُ الإضافة لِترك الاسم ﴿نَكِيرِ﴾ للتَّنكير؛ الّذي يُضفي عليه تهويلًا، ويُفسِحُ لِعموم كلِّ ﴿نَكِيرِ﴾، إضافةً إلى مُراعاة "الفاصلة، وقد أثبتَها بعض القُرّاء"[5].

---

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 542.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 161.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 110.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 284.

(5) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 158.

نكتةُ إيثار الوعيد بالنَّكير هنا دون العذاب:

حثُّ المسلمين على أنْ يَبذلوا في تغيير المُنكَر منتهى استطاعتهم

النّكير "الإنكار والإعذار؛ وهو في هذه المصادر بِناءُ مبالغةٍ"[1]؛ "أيْ: كيف كان إنكاري عليهم مُنكَرَهم الّذي هو كفرُهم بي وتكذيبهم رُسُلي، وهو ذلك العذاب المُستأصِل الّذي بيَّنّا، وبعدَه عذاب الآخرة الّذي لا ينقطِعُ"[2]، وقد اختير النَّكير في الآية دون العذاب ونحوه؛ لكونه "وَقَعَ بعد التَّنويه بالنَّهي عنِ المُنكَر ليُنَبِّه المسلمين على أنْ يَبذلوا في تغيير المُنكَر منتهى استطاعتهم؛ فإنّ اللّهَ تعالى عاقَبَ على المُنكَر بأشدِّ العقاب، فعَلى المؤمنين الائتِساءُ بصُنع اللّه تعالى، وقد قال الحكماء: إنّ الحكمةَ هي التَّشبُّهُ بالخالِق سبحانه بقدر ما تَبلُغُه القوَّة الإنسانيَّة، وفي هذا المجال تَتسابقُ جيادُ الهمم"[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإملاء والإمهال:

الإمـلاء: الإنظار على نيَّة المعاقبة، والإمهال: الإنظار مُطلَقًا

الإملاء: التَّوسيع في الوقت والمكان وغيرهما، "يُقالُ: أملَيتُ للبَعيرِ في قَيدِه: وسَّعتُ لَهُ، ومنهُ: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: أمهَلتُهُم"[4]؛ لكنَّه إمهالٌ على نيَّة المعاقبة، كما نبَّه إليه ابن عطيَّة في قوله: "وكأنَّ الإمهالَ أن تُمهِل مَن تنوي فيه المعاقبة، وأنت في حين إمهالِك عالمٌ بفعله"[5]، والإمهال معناه: "الإنظار"[6] مُطلَقًا - على نية المعاقبة أو على غيرها؛ ففي إيثار النّظم الكريم الإملاء مزيدُ تهديدٍ لأهل القرية الظّالمين؛ لعلَّهم يثوبون إلى الحقِّ.

الأخذ والإهلاك:

الأخذ: هو التَّناول باليد، ويُستعمَلُ مجازًا في الانتقام، كنايةً

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(2) الشَّنقيطيُّ، أضواء البيان: 5/ 269.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 285.
(4) المطرزيّ، المُغَرّب، ص: 447.
(5) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 126.
(6) الحميريُّ، شمس العلوم: 9/ 6401.

الأخذُ: الانتقامُ، والإهلاكُ: الإزالةُ

عن هوان المأخوذ، المُنتقَم منه، ومادّة (هلك) تدُلُّ على الـ "كَسر؛ ومِنه الهَلاكُ: السُّقوطُ، ولذلكَ يُقالُ لِلمَيِّتِ: هَلَكَ"[1]، و"الإهلاك: إزالة"[2]، فعبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالأخذ دون الإهلاك لبيان يُسرِ الانتقام منهم؛ ففيه معنى الإهلاك وزيادة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هلك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (برد).

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجّ: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قال الإمام البقاعيّ: "لمّا كانَت هذه الأممُ السَّبعةُ أكثرَ أهل الأرض؛ بل كانَت أمَّةٌ منهم أهلَ الأرض - أيِّ: أمّة نوحٍ عليه السلام، فكيف بِمَن عَداهم مِمَّن كان في أزمانهم وبعدَهم، وأخبر سبحانه وتعالى أنَّ عادتَهُ فيهم الإملاءُ ثمّ الإهلاكُ، تسبَّبَ عن ذلك تهويلُ الإخبار عنهم وتكثيرُهُم؛ فقال تعالى شارحًا للأخذ والإمهال على طريق النّشر المُشَوَّش: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَاوِيَةٌ﴾: (خوى) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على الخُلو والسُّقوط[2]، وخَوَتِ الدّارُ: تَهَدَّمَتْ وسَقَطَتْ؛ ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: 52]؛ أي: خاليةً، كما قال تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أي: خاليةٌ، وقيلَ: ساقِطةٌ على سُقوفها، وخَوَّتِ الدّارُ وخَويتْ خَيًّا وخويًّا وخَواءً وخَوايَةً: أقوَتْ وخَلَتْ مِن أهلها"[3]؛ فمعنى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ أيِّ: خَرِبَةٌ خاليةٌ من أهلها.

2) ﴿عُرُوشِهَا﴾: (عرش) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شيءٍ مَبني، ثُمَّ يُستَعارُ في غيرِ ذلك، مِن ذَلِكَ العَرشُ، قالَ الخَليلُ: العَرشُ: سَريرُ المَلِك، وهذا صحيحٌ، قال اللّٰهُ تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100][4]، والعُروش: السُّقوف، قال تعالى: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]، وعَرَش الكَرمَ يَعرِشُه، وعرّشَهُ تعريشًا: إذا جعل له كهيئة السَّقف"[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 13/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خوا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرش).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (عرش).

3) ﴿وَبِئۡرٖ﴾: (بأر) البئر أصله الهمز، وهو حفرة في الأرض ينبعُ فيها الماء أو يُجمَعُ، والمعنى المحوريّ: حَفْرٌ في ظاهر الأرض مُمتدٌّ إلى جوفها: كالبئر والبُؤْرة[1]، يُقال: بَأَرْتُ بِئْرًا وبَأرتُ بُؤَرَة؛ أي: حَفيرَة؛ ومنه اشتُقَّ المِئبَر، وهو في الأصل حَفيرةٌ يُستَرُ رأسُها ليقعَ فيها مَنْ مرَّ عليها، ويُقال لها: المِغواةُ، وعبَّر بها عنِ النَّميمة الموقِعَة في البليَّة، والجمعُ: المآبرُ[2].

4) ﴿مُّعَطَّلَةٖ﴾: (عطل) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدُلُّ على خُلو وفَراغ، نقولُ: عُطِّلَتِ الدّارُ، ودارٌ مُعَطَّلَةٌ، ومتى تُركَتِ الإبلُ بلا راعٍ فقد عُطِّلَتْ، وكذلك البئرُ إذا لم تورَدْ، ولم يُسْتَقَ منها، قال اللّه ﷻ: ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾[3]، ويُقال لِمَن يَجعلُ العالَم بزعمه فارغًا عن صانعٍ أتقنَه وزيَّنَه: مُعَطِّلٌ، وعَطَّلَ الدّارَ عن ساكنها، والإبلَ عن راعيها[4]؛ فالمقصود بـ ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ هنا: فقَدت ماءها، وجفَّت، ولا يُستَقى منها.

5) ﴿مَّشِيدٍ﴾: (شيد) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على رَفعِ الشَّيء[5]، والشّيد بالكسر: كلُّ شيءٍ طَلَيْتَ به الحائطَ - من جِصٍّ أو مِلاطٍ -، وبالفتح المصدر، تقول: شاده يَشيده شيدًا: جَصَّصَه، والمَشيد: المَعمول بالشّيدِ، والمُشَيَّدُ بالتَّشديد: المُطَوَّلُ، وقال الكسائيُّ: المَشيدُ للواحد من قوله تعالى: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾، والمشيَّد للجمع من قوله: ﴿فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: 78][6]، والمقصود بقصرٍ مَشيدٍ؛ أيْ: قويٍّ متينٍ مَشيدٍ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

من أقوى العِبَر هـلاكُ الأقـوام وبقاءُ قصورهم وآبارهم قائمةً مُعطَّلةً

وكثيرٌ مِن القُرى دمَّرْناها، وأنزلنا بأهلها الهلاكَ بِسبب ظُلْمِهم وكفرهم وعصيانهم، وتلك "القريةُ مع تَكلُّف بنائِهم لها واغتباطِهم

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (بأر).
(2) الرّاغب، المُفردات: (بئر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطل).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عطل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيد).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 74.

بها، جُعِلَت لِأجل كُفرهم بهذا الوصف، وكذلك البئرُ - الّتي كَلَّفوها، وصارت شِربَهم - صارَت مُعطَّلةً بلا شاربٍ ولا واردٍ، والقصرُ الّذي أحكَموه بالجصّ، وطَوَّلوهُ - صار ظاهرًا خاليًا بلا ساكنٍ، وجَعَلَ اللّهُ تعالى ذلك عِبرةً لِمَن اعتَبَرَ وتَدَبَّرَ"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في ﴿فَكَأَيِّن﴾:

أخذُ الله تعالى المُكذِّبين بعد الإملاء لهم من نكيره عليهم

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن﴾ استئنافيّةٌ سيقت مع ما بعدها لتقرير ما سبق من أخذِ اللّهِ تعالى للظّالمين، وإهلاكِه للمُكذِّبين، وتأكيدِ حصول ذلك لِقُرًى كثيرة أهلكَها اللّهُ تعالى وهي ظالمةٌ.

كذلك الفاءُ هنا "تفريعٌ على جملة ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ فعُطِفت عليها بِفاء التَّفريع، والتَّعقيبُ في الذِّكر لا في الوجود؛ لأنّ الإملاءَ لِكثيرٍ مِنَ القُرى، ثمّ أَخْذَها بعد الإملاء لها - يُبيِّنُ كيفيّةَ نَكيرِ اللّه تعالى وغضبه على القُرى الظّالمة ويُفسِّرُهُ؛ فناسَب أن يذكُرَ التّفسيرَ عَقِبَ المُفسَّرِ بِحرف التّفريع، ثمّ هو يُفيدُ - بِما ذُكِرَ فيه مِن اسم كثرةِ العدد - شمولًا للأقوام الّذين ذُكِروا من قبلُ في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلى آخره؛ فيكونُ لِتلك الجُملة بِمَنزِلة التّذييل"[2].

توجيه القراءات في ﴿فَكَأَيِّن﴾:

قرأ ابن كثير وأبو جعفر: ﴿فَكَأَيِّن﴾ "﴿فَكَآيِن﴾ بألف بعد الكاف، وبعد الألف همزةٌ مكسورةٌ، فَنونٌ ساكنةٌ، وقرأ الباقون: ﴿فَكَأَيِّن﴾ بِهمزة مفتوحة بعد الكاف، بعدها ياءٌ مكسورةٌ مُشدَّدةٌ فَنونٌ ساكنةٌ[3]،، ومعنى القراءتين واحدٌ؛ فهما لغتان فصيحتان، وقراءتان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 233.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 285.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 242، وينفرد أبو جعفر بتسهيل الهمز مع المد والقصر.

عشريَّتان صحيحتان"[1]، نعم، معناهما واحد في أصل المادّة اللُّغويَّة، والفرق في القراءة ونطق الكلمة فحسب؛ لأنّ معناهما: (وكم من قرية...) كنايةٌ عنِ الكثرة.

دلالة التّعبير بمفردة ﴿فَكَأَيِّن﴾:

ليسَت قريش ولا غيرها أعزَّ على الله تعالى ممَّن أهلَك مِنَ المُكذّبين

﴿فَكَأَيِّن﴾ هنا بمعنى (كم) الّتي تُفيدُ الكثرةَ؛ أيْ: وكثيرًا ما حصل ذلك الإهلاكُ لِقُرًى ظالمةٍ؛ فلتحذرْ قريشٌ من تكذيبها الرّسولَ ﷺ ومناوءَتِه، والتَّصدّي لدعوته ظلمًا وبغيًا، "وقيل المعنى: (ورُبَّ قريةٍ)، والأوَّلُ أولى؛ لأنَّه أوكَدُ في الزَّجر؛ فكأنَّه تعالى لمّا بيَّنَ حالَ قوم مِنَ المكذِّبين، وأنّه عجَّلَ إهلاكَهم، أتْبعَهُ بما دلَّ على أنّ لذلك أمثالًا، وإنْ لم يُذكَر مُفصَّلًا"[2]، وممّا يُقوّي دلالةَ اقتضاء التَّكثير القيدُ بالجارِّ والمجرور ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ تمييزًا لـ ﴿فَكَأَيِّن﴾؛ "فدلَّ ذلك على أنَّه لا يُراد بقريةٍ وبئرٍ وقَصرٍ مُعيَّنٍ"[3]، ومن شأن التَّهديد بتلك الكثرة بعْثُ الخوف في نفوس قريش، والتَّعريض لهم بأنَّكم لستم بأعزَّ من هؤلاء على الله تعالى إنْ كَذَّبتُم رسولَه.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ:

قال الله تعالى هنا: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، في حين قال بعده: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ [الحج: 48] فخصَّ الأوَّلَ بذِكر الإهلاك لاتِّصاله بقوله تعالى: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ﴾؛ أي: أهلكْتُهم، ولاتِّصاله في الثّاني بالإملاء؛ لأنّ قبله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: 47] فَحسُن ذِكر الإملاء[4].

معنى ﴿مِّن﴾ في القيد ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾:

إهلاك الله تعالى قد يَعُمُّ قُرًى بأكملها

﴿مِّن﴾ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ بيانيَّةٌ، تبيِّنُ

(1) الشَّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 271.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 232.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 520.
(4) الكِرمانيّ، البرهان في توجيه مُتشابه القرآن، ص: 182.

نوعَ المهلَك، وأنَّها قرًى كاملةٌ، كانت عامرةً بأهلها، أنزل اللّهُ تعالى بها الهلاكَ، ولم تتمنَّع على إهلاكه ﷻ.

بلاغة المجاز المُرسَل في ﴿قَرۡيَةٍ﴾:

يَتَجلَّى أثَرُ النِّعَم عـلى أمـاكـن الصّالحين

القريةُ لا تُهلَكُ؛ لأنّها بُقعةٌ مِنَ الأرض، وهي باقيةٌ مهما أُهلِك ما فوقها ومن فوقها، وإنَّما المُراد: (أهلكنا أهلها)، فزُحزِحَ الإهلاكُ من أهلها إليها من باب المجاز المُرسَل لعلاقة المحلّية؛ إذ ذُكر المَحلُّ وأُريد الحالُّ فيه.

وسرُّ بلاغة المجاز هنا: بيانُ عموم الإهلاك، وأنّ تعدّي المَكين إلى المكان كنايةٌ عن تمام إهلاك المُكذِّبين؛ أيْ: أهل القرية، إهلاكًا تامًّا لم يدَعْ منهم أحدًا سالمًا، وأنَّ أحدًا من أهلها المكذِّبين لن تتداركَهُ أسبابُ النّجاة.

كـفـرُ الـنِّـعـم يَـسـتـلـزمُ أضْدادها

وإيقاعُ الإهلاك على القرية يوحي - أيضًا - بأنّ تكذيبَ الكفّارِ أنبياءَهُم قد فاض منهم على مَن حولهم، حتّى أهلكَ القريةَ بأبنيتها وشوارعها وحقولها، ممّا يعكِسُ شؤمَ صنيعهم كُفرًا وجحودًا، وتكذيبًا، ممّا تسبَّبَ في انقلاب أحوالهم إلى أضدادها هولًا ورُعبًا، ممّا يدُلُّ على عِظَم جُرمهم، واستحقاقِهم أن يكون عقابُهم عِبرةً لِغيرهم. "ويُحتمَلُ أن يكون المُرادُ إهلاكَ نفس القرية، فيدخُل تحت إهلاكها إهلاكُ مَنْ فيها؛ لأنّ العذابَ النّازلَ إذا بَلَغَ أن يُهلِكَ القريةَ فَتَصيرَ مُتهدِّمةً حَصَلَ بِهلاكها هلاكُ مَن فيها"[1].

نكتة الوصف بالجملة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾:

الوصف بالجملة يُـجَـلّي حـواشي الفكرة

جملة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ وصفٌ لـ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ مُكثَّفُ الدّلالات؛ ففيه التَّصريحُ بلفظ الإهلاك الصّريح في ضياع القرية بالكلّية، وفيه صيغةُ الماضي القائلة بِتحقُّق وقوع الإهلاك، وفيها الفاعلُ العظيمُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 232.

المُعبَّرُ عنه بنون العظمة الخاصّة باللّه ﷻ، وفيه المفعولُ به الضّمير المتَّصل، وتلك الكثافةُ الدّلاليّةُ تثيرُ الفزعَ مِن احتمال حلول ذلك المصير بكفّار قريش.

على أنّ تلك القُرى "منها: ما أهلك أهلَها وتَركَ القُرى والبنيان على حالها لأوليائها من ذلك فرعونُ وقومُه، وغيره مِنَ الأقوام، ومنها: ما أهلك القُرى بأهلها، لم يَترك منها شيئًا، من نحو قريتيَ لوطٍ وثمودَ وهؤلاء"(1).

سِرُّ التَّعبير بلفظ الإهلاك:

إذا نزل عذابُ الله تعالى بِقومٍ استأصلَهم بالكُلّية

من شأن التّعبير بالإهلاك الصّريح وإهدار ﴿قَرۡيَةٍ﴾ المُكذِّبين، إثارةُ الخوف في قلوب المكذّبين الجُدَد، وهم كفّار قريش، وإشعارُهم بهوانهم على اللّه تعالى مثل أولئك المُهلَكين السّابقين، وأنّهم ليسوا أعزَّ عليه تعالى منهم، وفيه تصريحٌ بأنَّ عذابَ اللّه تعالى إذا نزل بِقومٍ استأصلَهُم بالكُلّية.

توجيه القراءات في ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾:

إهلاكُ الله تعالى مُكذِّبي رُسُله بذاته دليلٌ على شناعة ذَنبهم

قَرَأَ البَصْريّانِ؛ أبو عمرو، ويعقوب: ﴿أَهۡلَكۡتُهَا﴾ بِالتّاءِ مَضْمومَةً مِنْ غَيْرِ أَلِفٍ، وَقَرَأَ الباقونَ بِالنّونِ مَفْتوحَةً وَأَلِفٍ بَعْدَها(2)، إسنادُ الإهلاكِ الصّريح إلى ضمير العظمة - يَحمِلُ مزيدَ تهديدٍ، وتقريرَ أنّه لا مَنَعَةَ لِلمكُذِّبين بِرُسُل اللّه تعالى ودينه أمامَ جبروت العظيم ﷻ، النّاطِقِ به ضميرُ العظمة (نا) في جملة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، ممّا شأنه جعْلُ المُكذِّبين يَرعَوون، ويتملَّكُهُمُ الفزعُ من ذلك المصير الأليم.

وقد قُرِئَت ﴿أَهۡلَكۡتُهَا﴾ بتاء المُتكلِّم؛ وفي ذلك مراعاةٌ للتّاء المُفردةِ في جملة ﴿فَأَمۡلَيۡتُ﴾، ولطيفةُ الإفراد هنا دَعمُ التَّخويف في

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 428.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 327.

نفوس المُكذِّبين؛ بأنَّه تعالى سيتولَّى بذاته إهلاكَهُم؛ ممّا يدُلُّ على قُبح صنيعِهم، وشناعةِ تكذيبِهم[1].

معنى الواو في ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾:

(الواو) في جملة ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ واو الحال، الكاشفة عن سبب ذلك الإهلاك الفاتك بأهل القرية، وأنّ الهلاكَ يُصَبُّ عليهم، وهم على حال المعصية الأثيمة والظّلم المُبين، ولا أظلم ممَّن كذَّبَ بآيات اللّه تعالى وعصى رُسُلَه، وتحدَّى ربَّه ﷻ.

نكتة إيثار الحال بجملة ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾:

الحالُ الجملة أغزَرُ دلالاتٍ مِنَ الحال المفردة وأوفرُ بيانًا

من شأن التَّقييد بالحال الجُملة عمومًا إتاحةُ خصوصيّاتٍ لا تُتيحُها الحالُ المُفرَدة، فالتَّقيُّد بالحال الجملة هنا: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ أتاح النَّصَّ على ضمير القرية (هي)؛ وذلك يُفيدُ تأكيدَ نسبة الظُّلم إليها؛ ويُقرِّرُ جَدارتَها بالإهلاك، وأنَّ إهلاكَها عدْلٌ لا ظُلْمَ عليهم فيه، وفيه تعريضٌ بها وبفساد أهلها بخاصَّةٍ بين القرى المؤمنة، وفي ذلك مصداقٌ لقولهم: زيادَةُ المَبنى تدُلُّ على زيادة المعنى؛ فالجملةُ أوفرُ بِناءً مِنَ المُفرد؛ وعليه فهي أوفرُ دلالةً، وأوضحُ بيانًا.

دلالة التَّعبير بالظُّلم:

إذا كان الشِّركُ بالله تعالى ظلمًا؛ فالكُفرُ أفحَشُه

التّعبيرُ بمفردة (الظّلم) الصّريح في جملة الحال ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾، يُسهِمُ في بيان وجه استحقاق الـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ الإهلاك، و(الظّلم) هنا الكفر[2]؛ فهو أشدُّ أنواع الظُّلم؛ لأنَّه يتعلَّقُ بتكذيب رُسُل اللّه صلوات اللّه تعالى عليهم أجمعين، وجحود حقِّ اللّه ﷻ في توحيده وإخلاص العبادة له، وقد جاء في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13] بيانُ ذلك؛ فإذا كان الشِّركُ مع اللّه تعالى غيرَهُ من آلهة مَزعومة ظُلمًا، فما الظَّنُّ بالكفر الكامل والجحود المُطلَق؟ لا شكَّ أنَّه أفحشُ الظُّلم وأظلمُه.

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 274.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 74.

بلاغة المَجاز في ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾:

قد تتضرَّرُ البقاعُ بذنوب ساكنيها

إذا كانَتِ القريةُ لا تُهلَكُ؛ لأنّها بُقعةٌ مِنَ الأرض، وتبقى مهما أُهلِك ما فوقها ومن فوقها، فكذلك القريةُ لا تَظلِمُ ولا تتحمَّلُ وِزْرَ الظُّلم، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ بإسناد الظُّلم إلى المَحلِّ وهو للحالِّ فيه؛ فالمعنى: (وأهلها ظالمون بالتَّكذيب)[1]، وتكمن بلاغةُ المجاز هنا في بيان اتِّصاف جميع أهل تلك القُرى المُهلَكة بالظُّلم، وأنَّهم أجمعوا - من أقصاها إلى أقصاها - على محاربة الرُّسُل عليهم السلام وإيذائهم، وإيذاء أتباعهم المؤمنين؛ ولذلك سُمّيَتْ هنا قريةً لا مدينةً؛ ممّا كان جديرًا بإهلاكهم، وقلب استقرارِهم وأمنِهم إلى أضدادها من فظاعةِ ما حلَّ بهم وهولِه.

دلالة صياغة اسم الفاعل في ﴿ظَالِمَةٌ﴾:

لا يَـردُّ إهـلاكَ الـلـه تـعـالى للمُكذِّبين رادٌّ؛ كما لم يَردُّهم عن ظلمهم رادٌّ

صيغة (فاعل) في ﴿ظَالِمَةٌ﴾ تُسهمُ في بيان تَغلغُل أهل هذه الـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ في الظُّلم، ورسوخه فيهم منهجَ حياةٍ، وأنَّهم مقيمون عليه ثابتون، لا يردُّهم عنه رادٌّ؛ ولذلك نالوا جزاءَهُ جزاءً وفاقًا، إهلاكًا وهلاكًا، لم يردّه كذلك عنهم رادٌّ، ولا شكَّ أنّ صَبَّ الكافرين ظُلمَهُم على عباد اللّه تعالى - وقد ظلموا رُسل اللّه تعالى وكذّبوا دعوتَهم - سيكون مُحقَّقًا من باب الأَوْلى.

معنى الفاء في ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾:

إذا نزل العذابُ بقومٍ فقد طويت عـنـهـم فـرصـةُ التّوبة

الفاءُ في جملة ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ فاءُ العطف التَّعقيبيَّة، الكاشفة عن سرعة إفناء حياةِ أهلِها بالعذاب المُروِّع، وسرعة تدمير الـ ﴿قَرْيَةٍ﴾ الـ ﴿ظَالِمَةٌ﴾ ودمارِها وضياع مَعالِمِها؛ بحيث لم يبقَ فيها إلّا آثارُ التّهديم؛ فالفاءُ هنا تُسهِمُ في نَقل المَشهد من حال ظُلم أهلِ القرية، وطغيانِهم وتكذيبهم إلى حال دمارِها بلا فاصلٍ زمنيٍّ؛ فلا يُمنحون فرصةَ التَّوبة، وقد بدأ نزولُ العذاب بهم.

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 274.

دلالة التَّصريح بالضَّمير ﴿فَهِىَ﴾:

خَواءُ القرى الظّالمة ودمارُها إذا أصرَّت على الظُّلم مُحقَّقٌ

ذِكْرُ الضّمير في جملة ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ يتواءم مع الضَّمير (هي) في جملة الحال ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾، ويوازِنُه من جهة، ويدُلُّ على تأكُّد فناءِ أهل القرية ودمارها دمارًا تامًّا مِنَ الجهة الأخرى، ويُقرِّرُ ذلك نسبةُ خواء القرية على العروش إليها، إلى درجة أنَّها تكاد تكون مُتفرِّدةً في بلوغ ذلك الحدِّ مِنَ الإهلاك والإفناء بإشارة الضَّمير (هي)، وأنَّها دون سواها من قُرى بلادها صارَت إلى ذلك الفناء.

بلاغة الكناية في ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾:

التَّصويرُ البيانيُّ بالكناية في الذِّكر الحكيم كاشفٌ وفاعلٌ في النّفس

معنى ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: "أيْ: خرَّت سُقوفُها على الأرض، ثمّ تهدَّمتْ حيطانُها، فسقطَت فوق السُّقوف، أو أنَّها ساقطة أو خالية مع بقاء عروشها وسلامتها"[1]، و"معلومٌ أنَّها إذا كانت كذلك كانَت أدخلَ في الاعتبار، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧﴾ [الصّافّات: 137]"[2]، وفي تصوير القرية بذلك كنايةٌ عن خرابها من أهلها خرابًا تامًّا، وضياع مَعالِمها بالكُلّية بما لا يسمَحُ بالحياة فيها، وأنَّها صارَت بحيث لا تُسكَنُ؛ بل إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يأمرُ الصَّحابةَ إذا مَرّوا بها أن يستحثّوا الرّكائبَ ويُسرِعوا؛ لأنَّها ديارُ عذابٍ.

دلالة اسم الفاعل ﴿خَاوِيَةٌ﴾:

صيغة (فاعل) تُسهِمُ في الإبانة عن استقرار الحال على وضعٍ مُعيَّن

في صياغة خواء القرية بأنَّها: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بصيغة اسم الفاعل ﴿خَاوِيَةٌ﴾ دلالةٌ على سرعة إهلاكها، وأنَّه كان خاطفًا، بحيث ترَكها سريعًا هامدةً، ثابتةً على وضع الخواء، لا حراكَ بها ولا لأهلها من إنسانٍ وحيوانٍ.

معنى ﴿عَلَىٰ﴾:

﴿عَلَىٰ﴾ في جملة: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ حرفُ استعلاء، يُسهِمُ

---

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 161.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 233.

في تصوير خراب القرية المُتساقِطة الأسقُف وفوقها الجُدُرُ، المُهدَّمةُ الأركان، وهذه الصّورةُ أفظعُ صورةٍ تُترجِمُ تمامَ الخراب، وصعوبةَ الحياة فيه مرَّةً أخرى.

نكتة إضافة العروش إلى ضمير القرية:

مهما كانت قُرى المُكذِّبين متينةً حصينةً فلم تكُنْ بمَعزلٍ من غضب الله

تُضافُ العروشُ إلى البيوت؛ فيُقال: بيتٌ خاوٍ على عروشه، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ أضافَ العروشَ إلى ضمير الـ﴿قَرۡيَةٍ﴾ فقال: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ وذلك لتفظيع ذلك الإهلاك، وتعظيم هولِه؛ إذ فيه كنايةٌ عن متانة أبنية القريةِ، وتكامُلِها، واتِّصالها، حتّى لكأنَّ القريةَ كلَّها بنايةٌ واحدةٌ، لها جُدُرٌ وأسقُفٌ، وبنايةٌ بهذا الحجم لا شكَّ ستكون متينةً حصينةً، وذلك لم يمنعْها مِنَ السُّقوط على عروشها.

معنى الواو في ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾:

في تعديد مظاهر العِظة مزيدُ تحذيرٍ وتأكيدُ إنذارٍ

الواو في جملة ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ واو العطف، تعطفُ ﴿وَبِئۡرٖ﴾ على ﴿قَرۡيَةٍ﴾؛ أيْ: كم من قريةٍ أهلكناها، وكم مِن بئرٍ عطَّلناها، وكم من قصرٍ مَشيدٍ هدَّمناه؛ أيْ: إنّ ذلك حَدَثَ كثيرًا مِن قبل؛ فاحذروا يا مُكذِّبي رسولنا ﷺ من قريش، والتّعبيرُ بتعطُّل البئر كنايةٌ أيضًا عمّا وقَعَ لأهلها من عذابٍ وإبادةٍ، سواء في ذلك أهلُ القريةِ وأهلُ البئرِ وأهلُ القصرِ المَشيدِ؛ ففي تعديد مظاهر العِظةِ مزيدُ تحذيرٍ، وتأكيدُ إنذارٍ لكفّار قريشٍ.

دلالة ذِكْر الخاصّ بعد العامّ:

فقدانُ الماء يتبعُهُ فَناءُ الأحياء

"البئر في الأصل: حفيرةٌ يُستَرُ رأسُها لِئلّا يَقعَ فيها مَنْ مَرَّ عليها"(1)، والنَّصُّ على ﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ﴾ و﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾؛ "أيْ: أهلكْنا الباديةَ والحاضرةَ جميعًا"(2) بعد ذِكْر الـ ﴿قَرۡيَةٍ﴾، نوعُ إطنابٍ بليغٍ بِذِكْر الخاصِّ بعد العامِّ، وفي ذلك تنبيهٌ على أهمّيَّة ذلك الخاصّ،

(1) حقّي، روح البيان: 6/ 43.
(2) النَّسفيُّ، مدارك التّنزيل: 2/ 445.

الّذي أُفرِدَ بالذِّكْر بعد شموله في العامِّ؛ إذِ الماءُ سببُ الحياة، فإذا عُطِّلَتِ البئرُ وغيضَ ماؤها، أو أُفسِدَ أو خلا منه أهلُهُ لزِم منه فَناءُ الأحياء الّذين يرتوون منه بطريق اللُّزوم الكنائيِّ.

دلالة تنكير ﴿وَبِئْرٍ﴾:

التَّنكير إلى إفادة معنى العموم أقرب

تنكير ﴿وَبِئْرٍ﴾ يوحي بعظمتها، وبعظيم أثرها البالغ في خدمة أهل القرية وبقائهم أحياء، ويُنْبِئُ عن وكادة اعتمادهم عليها في استبقاء حيواتهم؛ فكانَت محطَّ الآمال، ووجهةَ الرّواد، فإذا عُطِّلَت تأثَّرَ أهلُها بتعطُّلها أيَّما تأثير، ولو أنّ تعذيبَهم وتسبُّبَ هلاكهم وقف عند ذلك لكان كافيًا، فما الظَّنُّ، وقد أُهلكت قريتُهم عمومًا؟

وتنكير ﴿وَبِئْرٍ﴾، و﴿وَقَصْرٍ﴾ يُضفي عليهما دلالةَ الإطلاق والعموم[1]؛ أي: ليست مُعيَّنة، قال الكِرْمانيّ: "ومِنَ العجيب: قولُ مَن قال: ليس قوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ للعموم، وإنَّما هُما مَوضِعان بعينهما"[2].

نكتة الوصف ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾:

وَصفُ التَّعطيل شاملٌ لجميع معاني الحرمان مِنَ الشَّيء المُعطَّل

معنى ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾؛ أي: "مَتروكة، أو خالية من أهلها لِهلاكهم، أو غائرة الماء، أو معطَّلة من دِلائها وأرشيتِها، والمعنى مُتقارِب"[3]، وهي "الّتي عُطِّلَ الانتفاعُ بها مع صلاحِها للانتفاع؛ أيْ: هي نابِعةٌ بِالماء، وحولَها وسائلُ السَّقْي، ولكنّها لا يُستقى منها لأنَّ أهلَها هَلَكوا"[4]، يقول الزّمخشريّ: "عُطِّلَتْ؛ أي: تُرِكَتْ لا يُستَقى منها لِهلاك أهلها"[5]، ووَصفُ التَّعطيل هنا شاملٌ لمعاني الحرمان مِنَ الشَّيء المُعطَّلِ جميعها.

(1) النَّسَفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 445.
(2) الكرمانيُّ، غرائب التَّفسير: 2/ 762.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 74.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 285.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 162.

نكتة التّعبير بصيغة ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾:

صيغةُ ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ اسمُ مفعولٌ صفةٌ لـ ﴿وَبِئۡرٖ﴾، وتَعني إيقاعَ التّعطيل عليها، والآمرُ بتعطيلها كنَوعٍ مِنَ العذاب المَصبوب على أهلها هو اللّه تعالى، ودخولُها تحت حيِّز كلمة الكثْرة ﴿فَكَأَيِّن﴾ مُخيفٌ لكلِّ مَن يتجرَّأ على تكذيب الرُّسل عليهم السلام.

دلالة التّأنيث في ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ وصفًا لـ ﴿وَبِئۡرٖ﴾:

الـ ﴿وَبِئۡرٖ﴾ تُذكَّرُ وتُؤنَّثُ، وقد وُصِفَت هنا بمؤنَّث ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ دليلًا على تأنيثها، والتَّأنيث هنا يُفيدُ المبالغةَ، على حدِّ وصف العالم بـ (علّامة)، و(فهّامة)، وذلك يعكِسُ ما كانت تَجودُ به الـ ﴿وَبِئۡرٖ﴾ من خيراتٍ وبركاتٍ ممّا ترتَّبَ على تعطيلها بالغُ الأذى لأهلها غير الحامدين؛ بل الكافرين الجاحدين المُكذِّبين رسلَ اللّه تعالى.

قد يُفيدُ تأنيث المُذكَّر لفظًا المبالغةَ في الوصف

براعة تقديم البئر على القصر:

من براعة النّظم الكريم هنا تقديمُ التّهديد بالبئر المُعطَّلةِ على التّهديد بتعطيل القصر المَشيد؛ وذلك لأنّ القصرَ المَشيدَ دليلٌ لإقامة العمران وبناء الحضارة، والحضارة والعمران لا يقومان إلّا حيثُ توجَدُ المياه والآبار: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30].

الماءُ السَّببُ الرّئيسُ في إقامة الحضارة وتشييد البناء

وتاريخُ البشريّةِ شاهدٌ على ذلك؛ ففي مِصرَ وعلى ضفاف النّيل قامَتِ الحضارةُ الفرعونيّةُ القديمةُ، وفي العراق على ضفاف الفرات قامَت الحضارةُ البابليَّةُ، وهكذا؛ ومِن ثمَّ فبلادٌ عُطِّلَت آبارُها لا تَصلُحُ للحياة أصلًا، فضلًا عن قيام حضارةٍ فيها، وذلك مثل الرَّبع الخالي في بلاد نجد قديمًا؛ فكانَتِ العِظةُ بتعطيل الآبار قبل العِظة بتعطيل القصور أدقَّ وأبلغَ.

وفرةُ الماء ولوازمه من مظاهر الحضارة ودليلُ العزّ والسّعادة

معنى الواو في: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾ عاطفة، تعطِفُ الـ ﴿وَقَصۡرٖ﴾ على ﴿وَبِئۡرٖ﴾، وتدخلُهما في حيِّز الكثرة المدلول عليها بأداتها

﴿فَكَأَيِّن﴾، وبِضَمِّ القَصْر المَشيد إلى البئر المُعطَّلة يَجتمعُ لأهل القريةِ المُهْلَكةِ رمزا العِزَّة والسَّعادة والنَّعيم، فعُذِّبوا بالحرمان منهما، وأُهلِكوا بالكُلّية؛ إذ لم يعملوا على استبقائها بِشكرِ واهبها ﷻ.

دلالة التّعبير بـ ﴿وَقَصۡرٖ﴾:

أصحابُ القُصور مُلوكُ الحَضَر وأصحابُ الآبار ملوكُ البَوادي

التّعبيرُ بـ ﴿وَقَصۡرٖ﴾ يدُلُّ على كونه مِنَ النّمط العالي الفريد مِنَ البنايات، الّتي تَعارَف النّاسُ على تَسميتها (قصرًا)، و"أصحابُ القُصور مُلوكُ الحَضَر، وأصحابُ الآبار ملوكُ البَوادي؛ أيْ: فأهلكْنا هؤلاء وهؤلاء"(1).

سرُّ تنكير ﴿وَقَصۡرٖ﴾:

فخامة البناء ومتانته تدلُّ على الهلاك الّذي أصابهم

تنكيرُ ﴿وَقَصۡرٖ﴾ مثل تنكير ﴿وَبِئۡرٖ﴾ يُترجِمُ ما كان عليه ذلك الـ ﴿وَقَصۡرٖ﴾ من فخامةٍ وجمالٍ، وما كان يتمتَّعُ به أهلُهُ من إمكاناتٍ ونَعيمٍ وعِظَمٍ وفخامةٍ؛ ممّا يعكِسُ صعوبةَ ما لاقوه من عذابٍ حِسّيٍ ومعنويٍ بإهلاك قريتهم، وتعطيل آبارهم، وتهديم قصورهم المَشيدة.

بلاغة الوصف ﴿مَّشِيدٍ﴾:

فَناءُ ما بُذِلَ في بنائه جهدٌ أشدُّ وقعًا وإيلامًا وأذًى

المشيدُ هو "المُبَيَّضُ بالجِصِّ، المنيفُ المُرتفِعُ، الشّديدُ المَنيعُ الحصينُ؛ فلَم يَحْمِ أهلَه شِدّةُ بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه، ولا حَصانته - عن حلول بأس اللّه تعالى بِهم، كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النِّساء: 78]"(2).

ووَصفُ القصرِ بالـ ﴿مَّشِيدٍ﴾ يُلخِّصُ ما بَذلَهُ فيه أصحابُه من جُهْدٍ ومالٍ؛ فيكونُ من القوّة والجمال، بحيثُ يَصِحُّ وصفُهُ بالمَشيد.

وصيغةُ ﴿مَّشِيدٍ﴾ اسم مفعول؛ يدُلُّ على بَذْل أصحاب الـ ﴿وَقَصۡرٖ﴾ في سبيل تحسينه وتجميله وتقويَتِه أعزَّ ما يَملكون، وأنّ تشييدَهُ كان

---

(1) الماورديُّ، النُّكَت والعيون: 4/ 32.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 438.

غايتَهم العُظمى، ثمّ ها هو قد آلَ إلى التَّعطيل من سُكنى أهله، أو الدَّمار بالكُلّية.

نكتة حذف المُسنَد في جملة ﴿وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ﴾ نصف جملة، ونصفها الآخر "محذوف، تقديره: وقصرٌ مَشيدٌ مثلُها مُعَطَّلٌ"(1)؛ أي: فراغٌ من سُكّانه مع صلاحيَّته للسُّكنى، أو مُهدَّم خاوٍ على عروشه ضمن القرية الخاوية على عروشها.

إهلاكه تعالى قريشًا أهونُ من إهلاكه ما لا تَبلُغه أمنياتُهم مِنَ القصور

ولا شكَّ أنّ تحذيرَ أهل باديةٍ مثل كفّار قريش بإهلاك اللّه تعالى مثلَ هذه الآبار والقصور يُقرِّرُ لهم هوانَهم على اللّه تعالى؛ إذ إنَّه ﷻ أهلكَ مِنَ القُرى وعطَّلَ مِنَ الآبار والقصور ما لا تَبلُغه أمنياتُهم في بيئتهم تلك؛ فإهلاكُه تعالى قريتَهم عليه سبحانه أهونُ، وهوانُهم هم أنفسهم عليه أقربُ.

وفي ذلك مزيدُ تهديدٍ؛ يهزُّهم مِنَ الأعماق مهما كابروا في الظّاهر وعاندوا.

وجهُ التَّوفيق بين وصف الإهلاك وبقاء البئر والقصر المُعطَّلين:

البيانُ القرآنيُّ يُفسِّرُ بعضُهُ بعضًا

قوله تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ "يدُلُّ على تَهَدُّم أبنية أهلها، وسقوطها، وقوله تعالى: ﴿وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ﴾ يدُلُّ على بقاء أبنيتها قائمةً ... والظّاهر أنّ قُصور القُرى الّتي أهلكَها اللّهُ وقتَ نزول هذه الآية منها ما هو مُتهدِّمٌ، كما دلَّ عليه القرآن الكريم: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، ومنها ما هو قائمٌ باقٍ على بنائه، كما في قوله: ﴿وَقَصۡرٍ مَّشِيدٍ﴾، والقرآنُ دلَّ عليه، وخيْرُ ما يُفسَّرُ به القرآنُ القرآنُ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾ [هود: 100]، فصرَّح في هذه الآية

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 75.

بأنَّ منها القائم الَّذي لم يتهدَّمْ، ومنها الحصيد المُتهدِّم[1]، فما أدقَّ بيان القرآن الكريم!.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

القرية والبلد والمدينة:

اتِّفاقُ أهل القرية على الظُّلم سببُ شمولهم جميعًا بالعذاب

يُطلِقُ القرآنُ الكريمُ اسمَ (القرية) على كلِّ مُجتمعٍ يتَّفِقُ في أغلب عاداته، أو أخلاقه، أو عقيدته... الخ، كما أُطلِقَ على مُجتمَعِ البُخلاء اسمُ (القرية) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77].

أمّا إذا اختلفَت طبائعُ أهل المجتمع في شيءٍ من ذلك، أطلقَ عليها القرآنُ وصفَ (المدينة)، كما أطلقَ على (يَثْرِب)؛ وذلك لاختلاف طبائع أهلها بعد الهجرة وافتراقهم إلى مُنافقين وصحابةٍ مُخلِصين؛ فقال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التَّوبة: 101]؛ فناسبَ لفظُ القريةِ سياقَ شمول أهلها جميعًا بالعذاب؛ لاتِّفاقهم على الظُّلم.

القصور والبروج:

القصر: البناء الضّخم المُرْتفِع، والبُرج: الحصن

يُقالُ: "قَصَرتُ كذا؛ أيْ: ضمَمْتُ بعضَه إلى بعضٍ، ومنه سُمّي القَصرُ، وجمعه: قُصورٌ، قال تعالى: ﴿وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ﴾"[2]، و"القَصر: البناء المعروف، وهو بيت عظيم خاصّ؛ لأنَّه تُقْصَرُ فيه الحُرَم، وتُحْبَسُ داخلَه، وجمعه قصور"[3]، و"بُرْجُ الحِصن: رُكنه، والجمع: بروج وأبراج، وربَّما سُمّي الحصنُ به كما في القرآن الكريم: ﴿وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النّساء: 78]، والبُرْج: واحد بروج السّماء"[4].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 270.
(2) الرّاغب، المفردات: (قصر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (برج).

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن عاينَ وسمِعَ ولَم يتدبَّرْ لم يَنتفِعْ ولو تفكَّرَ فيما سمِعَ لانتفع

"لمّا تضمَّنَ الكلامُ السّابقُ إهلاكَ الأمم السّالفة، وبقيَت آثارُهم خرابًا، عقبَه بذمِّ هؤلاء في عدم اتِّعاظهم بذلك"[1]؛ ففي الآية الكريمة هنا "ذِكرُ ما يتكامَلُ به ذلك الاعتبارُ؛ لأنَّ الرّؤيةَ لها حظٌّ عظيمٌ في الاعتبار، وكذلك استماعُ الأخبار فيه مَدخَلٌ، ولكن لا يكمُلُ هذان الأمران إلّا بتدبُّر القلب؛ لأنَّ مَن عاين وسمِع ثمّ لَم يتدبَّر ولم يَعتَبِرْ لم يَنتَفِعْ ألبتَّة، ولو تفكَّرَ فيما سمِعَ لانتفَعَ؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسِيرُواْ﴾: (سير) أصلٌ يدُلُّ على مُضي وجَرَيانٍ[3]، والمعنى المحوريّ: امتدادٌ طوليٌّ مُطَّرِدٌ، مع دقّة ما: كالسّير والشِّراك[4]، سارَ يَسيرُ سَيْرًا ومَسيرًا وتَسْيارًا، والسَّير: الذَّهاب ليلًا أو نهارًا، والسُّرَى يكون باللَّيل فقط[5]، والانتقال على الأقدام.

2) ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: (عقل) أصلٌ واحدٌ مُنقاسٌ مُطَّرِدٌ، يدُلُّ عُظمُهُ على حُبسَةٍ في الشَّيءِ أو ما يُقارِبُ الحُبسَةَ[6]، والمعنى المحوريُّ: حَوزٌ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 541.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 233.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سير).
(5) أحمد رضا، معجم متن اللّغة: (سير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).

في جوفٍ حصينٍ حبسًا بحيثُ لا يذهبُ أو يضيعُ[1]، وأصلُ العَقلِ: الإمساكُ والاستِمساكُ، كعَقْلِ البعيرِ بالعِقال، وعَقْلِ الدّواءِ البطنَ، وعَقَلَتِ المرأةُ شعرَها، وعَقَلَ لسانَه: كفَّه[2].

3) ﴿قُلُوبٌ﴾: (قلب) أصلٌ يدُلُّ على رَدِّ شيءٍ من جِهةٍ إلى جِهة، أو على خالصِ الشّيءِ وشريفه (باطنُ الشَّيءِ ولُبُّه)[3]؛ ومنه قلبُ الإنسان؛ وهو الجارحةُ والمُضغةُ المعروفةُ الّتي في الصّدر؛ فهي أشرفُ ما في الإنسان وأخلصُهُ[4]، وسُمّي بذلك لكثرةِ تقلُّبه، ويُعبَّرُ بالقلبِ عنِ العقلِ، وعنِ المعاني الّتي تختصُّ به مِنَ الرّوح والعلم، والشّجاعة وغير ذلك[5].

4) ﴿ءَاذَانٌ﴾: (أذن) أصلان مُتقاربان في المعنى، مُتباعِدان في اللّفظ؛ أحدهما: أُذُنُ كلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ: العِلم[6]، يُقالُ: أذِنَ بالشَّيءِ إذْنًا وأذَنًا وأذانةً: عَلِم، وآذَنَه الأمرَ وآذَنه بِهِ: أعلَمَه[7]، والإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه[8]، والإذن في الشّيء أيضًا: رفعُ الحِجاب عنه، والأُذُن: عُضو السَّمع في الإنسان والحَيَوان، وجمعها: آذان[9]؛ وهذا هو المراد في الآية الكريمة.

5) ﴿تَعۡمَى﴾: (عمي) أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ، مِن ذلكَ العَمَى: ذَهابُ البَصَرِ مِنَ العَينَينِ كِلتَيهِما، والفِعلُ مِنهُ عَمِي يَعمَى عَمًى[10]، وعمي الرَّجل؛ كأنَّه سُتِرَت عنه المَرئياتُ، وعمي عنِ الصَّواب تشبيهٌ، كأنَّه سُتِرَ عنه، والعَمَى في القرآن على ثلاثة أوجه؛ الأوّلُ: عمى القلب؛ قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾؛ والمعنى: أنّها لا تَنتفعُ ببصائرها كما لا يَنتفعُ العُميُ بأبصارهم (وهو المعنى المُراد هنا في الآية)، والثّاني: عمى البصر؛ قال: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور: 61]، والثّالث: العمى عنِ الحُجَّة؛ قال تعالى: ﴿لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥﴾ [طه: 125][11].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (عقل).
(2) الرّاغب، المُفردات: (عقل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(4) الزَّبيديُّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قلب).
(5) الرّاغب، المُفردات: (قلب)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (قلب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (أذن).
(8) الرّاغب، المُفردات: (أذن).
(9) مجمع اللّغة العربيّة، المعجم الوسيط: (أذن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).
(11) العسكريّ، الوجوه والنّظائر: (العمى).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إنـذار لهم بتسبُّبهم لأنفسهم الهلاكَ

ترشِد الآيات كلَّ ناكص مستكبرٍ أن يحرّكَ آلات الاعتبار في ملكاته العقلية، بأن يسافروا، ويخرجوا من مُغلقات أوهامهم، ليرَوا كيف كانت مصارع المُهْلَكين، فيعتبروا، ويحصلَ لهم من الاستبصار والاستدلال بما نَزَل بالمكذِّبين قبلهم، ويُعْمِلوا أسماعهم وأبصارهم، فإنّ عمى البصيرة هو العمى الحقيقي لعمايتها عن إدراك الحقيقة، ورتوعها في عفونة الأوهام والانهماك في التقليد.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفهام في ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾:

الاعتبارُ بمصير المُكذِّبين بالدّين يُنجي ممّا حلَّ بهم مِنَ الهلاك

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ همزةُ الاستفهام الدّاعيةُ إلى النَّظر والتَّدبُّر في ملكوت الله تعالى، والاستدلالُ على وجوده ﷻ ووحدانيّته، والتَّصديقُ برسوله ﷺ ومحاذَرَة تكذيبه؛ فالنَّظر والتَّدبُّر يُقرِّرُ صِدقَ ما كذَّبوا به، ويُنجّي ممّا سقطوا فيه، ويقفُ النّاظِرُ على أخبار القُرى المُهلَكَة بتكذيبها، وهذا الاستفهام مُفعَمٌ بالدّلالات والإشارات؛ ففيه حَضٌّ لكُفّار قريش على السّياحة في الأرض؛ للتَّدبُّر في آثار الأمم البائدة، "ويُحتمَلُ أنْ يكونوا قد سافروا ورَأوا ذلك؛ ولكنْ لم يَعتبروا؛ فجُعِلوا كأنْ لم يُسافروا، ولم يَرَوا"[1].

ما أعجبَ حال قومٍ عرفوا أسباب هلاك الأقوام فاتّبعوها!

وبالاستفهام "وَبَّخَهُمُ اللّهُ تعالى على الغفلة وترك الاعتبار"[2]، وفيه "نَخْسٌ لهؤلاء المشركين من قريش، الّذين تصدّوا لرسول اللّه، وكذَّبوه وآذوه، دون أن ينظروا في عاقبة أمرهم، ودون أن يلتفتوا إلى ما وراء هذا المُنكَر الّذي هم فيه"[3]؛ فهو "استفهامٌ تعجيبيٌّ من حالهم في عدم الاعتبار بمصارع الأمم المُكذِّبة لأنبيائها، والتَّعجيبُ مُتعلِّقٌ بمَنْ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 233.

(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 128.

(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1052.

سافروا منهم، ورأوا شيئًا من تلك القُرى المُهلَكة، وبمَنْ لم يُسافروا، فإنَّ شأنَ المُسافرين أن يُخبِروا القاعدين بعجائب ما شاهدوه في أسفارهم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾"[1].

معنى الفاء في ﴿أَفَلَمۡ﴾:

الفاءُ في جملة ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ حرف "عطف على مُقدَّرٍ؛ أيْ: أغَفِلوا فَلم يسيروا فيَعتبروا؟!"[2]، أو "سببيَّةٌ جوابيَّةٌ، مُسَبّبُ ما بعدها على السَّيْر؛ أيْ: لم يسيروا سيرًا تكونُ لهم به قلوبٌ يَعقلون بها، وآذانٌ يَسمعون بها؛ أي: انتَفى أن تكونَ لهم قلوبٌ وآذانٌ بهذه المَثابة لانتفاء سَيرِهم في الأرض. وهذا شأنُ الجواب بالفاء بعد النَّفي: أنْ تدخُلَ الفاءُ على ما هو مُسبَّبٌ على المَنفي لو كان ثابتًا"[3].

عدمُ السّياحة في الأرض بِنية الاعتبار يَحولُ غالبًا دون الاتّعاظ

دلالة (لم) في قوله تعالى ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾:

(لم) في قوله تعالى ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ جازمةٌ نافيةٌ، تدُلُّ على أنَّهم قد علموا من أخبار الأمم المُهلَكَة، وأنَّ ذلك كان حقُّه تصديقَ الرّسولِ ﷺ، فقد ساروا في رحلاتهم شمالًا وجنوبًا، ورأوا مَصارِعَ المُكذِّبين، أو عَلِموا مَصيرَ الظّالمين؛ فالأخبارُ تطيرُ وتنتشرُ بين النّاس، فما لهم لا يؤمنون؟ ومعلومٌ أنّهم يَمرّون في أسفارهم بديار عادٍ وثمودَ؛ فمنهم مَنْ رأى، ومنهم مَنْ سَمِعَ، ومع ذلك لم يَعتبروا.

ليس للمُكذِّبين بالدّين عُذرٌ؛ فمنهم مَن رأى ومنهم مَنْ سمع بمصير المُكذِّبين

دلالة التَّعبير بالسَّير في ﴿يَسِيرُواْ﴾:

في التّعبير بمادّة السّير في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ دون مادّة المَشي أو السَّعي إشارةٌ إلى يُسر النَّظَر وإمكان التَّدبُّر، وضرورة التَّنبُّه إلى ما حلَّ بالأقوام المُكذِّبين، المذكورين في قوله تعالى قُبَيْلَه مباشرةً: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾، و"السّيرُ في الأرض إمّا حِسّي،

السّياحة تَزيدُ الهِمّة نفاذًا في الاعتبار بأسباب النَّجاح والخسارة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 287.

(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 541.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 287.

أو معنويٌّ بِاعتبار سماع أخبارها مِنَ الغير، أو قراءتها في الكتب؛ فقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ راجعٌ للسَّير الحِسّي، وقوله: ﴿أَوْ ءَاذَانٌ﴾ للسَّير المعنويّ"[1]؛ أي: يسيرون في الأرض "بأبدانهم، وبفكرهم أيضًا، وذلك كافٍ"[2].

و"شأنُ الأسفار أن تُفيدَ المسافرَ ما لا تُفيدُهُ الإقامةُ في الأوطان مِن اطِّلاع على أحوال الأقوام، وخصائص البلدان، واختلاف العادات؛ فهي تُفيدُ كلَّ ذي هِمَّة في شيءٍ فوائدَ تَزيدُ هِمَّتَه نفاذًا، فيما تتوجَّهُ إليه، وأعظمُ ذلك فوائدُ العِبرة بأسباب النَّجاح والخسارة"[3].

في السَّفر فوائدُ لكلِّ ذي هِمَّة

دلالة المضارعة في ﴿يَسِيرُواْ﴾:

المضارعة في ﴿يَسِيرُواْ﴾ تترجِمُ تجدُّدَ السَّير واستمرارَه وعدمَ انقطاعه حتّى يُثمِرَ في نفوسهم الإيمانَ واليقينَ بحتمية هلاك المُكذِّبين، وفي المضارعة كذلك ضرورةُ استحضار مَن سافر فرأى، أو سمع فاعتَبرَ تلك العِبر، وعدم الغَفلةِ عنها؛ فذلك أجدى عليه في دوام الإيمان، وعدم السّقوط في أسباب الهلاك.

على مَن سبق له الاعتبار - بالسّفر أو بالسَّماع - استحضارُ العِبَرِ وعدمُ نسيانها

مَرجِعُ ضمير الجماعة في جملة ﴿يَسِيرُواْ﴾:

المُتحدَّثُ عنه في جملة ﴿يَسِيرُواْ﴾ "كفّارُ مكَّة؛ أيْ: فيشاهدوا هذه القُرى فيتَّعظوا، ويَحذَروا عِقابَ اللهِ تعالى أن ينزِلَ بهم كما نزلَ بِمَن قبلَهم"[4]، ثمَّ فيه دعوةٌ لجميع النّاسِ بعدَهم أن يسيروا ويَنظروا ويَعتَبروا؛ فرسالةُ الإسلام خاتمةُ الرِّسالات؛ وهي عامَّةٌ للثَّقلَيْن جميعًا، وحتّى يوم الدّين.

الدّعوة إلى السَّير في الأرض للاعتبار للنّاس جميعًا؛ لعالميّة الدّعوة

سِرُّ التَّقييد بـ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ دون (على الأرض):

القيد ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: في البلاد[5]، وفي التّقييد بالظّرف فيه دونَ

القيدُ بالظَّرفيّة (في الأرض) يَلفت إلى رسوخ الوِجهة وعُمق أثرها

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 541.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 438.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 288.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 77.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 127.

الاستعلاءِ (على الأرض) دعوةٌ إلى تعميق النَّظر، وتحقيق التَّدبُّر: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لا التَّسطُّح في الفكر، والمرور بالتّفكير السَّريع: (على الأرض).

معنى الفاء في جملة ﴿فَتَكُونَ﴾:

السَّفَرُ الجادُّ يُسفِرُ عن نظرٍ واعتبارٍ

الفاءُ في جملة ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ﴾ تفريعيَّةٌ عاطفةٌ؛ تُرَتِّبُ التَّدبُّرَ على السَّير، وتوحي بأنَّه يجب أن يُسفِرَ السَّيرُ عن نظر واتِّعاظٍ ويقينٍ؛ بأنّ التّكذيبَ مُهلِكٌ، على غرار ما أُهلِكَ عادٌ وثمودُ وسواهم مِنَ الأمم المُكذِّبة للرُّسل.

دلالة التَّعبير بالكون في جملة ﴿فَتَكُونَ﴾:

يجبُ ألّا يمرَّ النَّظَرُ بلا أثرٍ نافعٍ

التّعبيرُ بالكون في جملة ﴿فَتَكُونَ﴾ يدعو إلى توفير التَّعقُّل والاعتبار مِنَ العقل والقلب، وضرورة أنْ ينعقِدا على ثمرة السَّير والنَّظر، وألّا يمُرَّ النّظرُ بلا أثرٍ إيجابيٍّ نافعٍ.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾:

التَّدبُّرُ في آيات الله من جليل النِّعم

تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ في جملة ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ﴾ يَلفِتُ إلى أهمّيّة أن تُسفِرَ السّياحةُ في الأرض بِغرض النّظر والاعتبار عنِ امتلاكهم قلوبًا صفتها ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾؛ فذلك من جليل النِّعم الّتي يجبُ الإفادةُ منها وعدمُ إهمالها.

مَرجِعُ الضّمير في ﴿لَهُمۡ﴾:

الضّميرُ (هم) في القيد ﴿لَهُمۡ﴾ يَرجِعُ إلى كفّار قريش، الّذين يُكذِّبون دعوةَ الرّسول ﷺ، فتوجِبُ هذه الآيةُ عليهم تدبُّرَ مصيرِ المكذِّبين السّابقين مِنَ الهلاك، وأن يحذَروا من مثل مآلهم.

سِرُّ التّعبير بالقلوب دون الأفئدة:

التّعبيرُ بالقلوب في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ يوحي بأنّ قلوبَ الكافرين المُكذِّبين مُتقلِّبةٌ لا رزانةَ فيها، ولا رسوخَ لها في ميدان الفكر والنَّظر، وأنَّه كان ينبغي لها أن تعقلَ ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾، وأن تنعقِدَ على ثمار التَّدبُّر الصَّحيحة،

ولا يُؤدّي هذا المعنى لفظُ (الفؤاد)؛ لأنَّ أصلَه من (فَأَدَ)؛ أيْ: شوى؛ فيكون معنى الفؤاد: المُحترِق؛ ومنه: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: 10]؛ أيْ: مُحترِقًا على ولدها.

لا ثمرةَ لقلبٍ وعقلٍ محرومَينِ مِنَ الرّزانة والاستقامة في التّفكير

دلالة جمع ﴿قُلُوبٌ﴾ وتنكيرها:

جُمِعَت ﴿قُلُوبٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٌ يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ باعتبار جموع الكافرين المعاصرين للنّبيّ ﷺ، وجموع الكافرين المعاصرين للأنبياء السّابقين عليهم السلام.

لو تقلَّبَتِ القلوبُ في خلق اللّه تفكُّرًا وتدبُّرًا؛ لاستدلَّت على صدق أنبيائه

وإلى ذلك تَفوحُ من جمع ﴿قُلُوبٌ﴾ - وتنكيرها - دلالةُ النَّعي عليهم؛ وذلك بِتجريدهم من كلِّ حكمةٍ، وتعطيلهم ممّا وهبَهم اللّهُ تعالى مِن أهمِّ جارحةٍ يمتلكُها الإنسانُ؛ بل لا بقاءَ له بدون وجودها وسلامتها، وهي القلوبُ الّتي ينبغي لها أن تتقلَّبَ في خلق اللّه تعالى تفكُّرًا وتدبُّرًا؛ فَتَخرُجَ باستدلالِ وحدانيَّته ﷻ، وتصديق أنبيائه عليهم السلام، وتَنعقِدَ على اليقين بذلك.

مَوقِعُ جملة ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾:

مُهِمّةُ الأذهان أن تُنتجَ الفِكرةَ ثمّ تورِدَها القلبَ فيعقلَها وينعَقِدَ عليها

جملة ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ صفة لـ ﴿قُلُوبٌ﴾، وفيها تنبيهٌ على سبب الإزراء على مُكذِّبي الرُّسل - وهم هنا كفّار مكّةَ - فمُهِمّةُ الأذهان أن تتفكَّرَ وتنتجَ الفِكرةَ، ثمّ تورِدَها القلبَ؛ فيعقِلَها وينعَقِدَ عليها.

وهؤلاء عطّلوها عن مُهِمَّتِها، وصرفوها إلى ضدِّها؛ فانعقدَت على الكفر والضّلال حتّى بَلَغَ بهم ذلك أن قاتَلوا الأنبياءَ، وحاربوا المؤمنين مِن بعدهم.

بلاغة حذف مفعول ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

مُكذِّبو الرُّسل مُجرَّدون من كلِّ عقلٍ مهما ظهر للنّاس غير ذلك

لم تَذكُرِ الآيةُ الكريمةُ مفعولًا للفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، وتقديره: فَيَعقلون "ما حلَّ بالأمم السّابقة حين كذَّبوا أنبياءَهم، ويَعقلون ما يجبُ عليهم مِنَ التّوحيد"[1].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 521.

ولطيفةُ حذفِ المفعول هذا - مع حتمية تقديره - زيادةُ الإزراء عليهم؛ وذلك بتجريدهم مِن نعمة العقل المُطلَق، ولو حَدَّدَتِ الآيةُ الكريمةُ معقولًا مُعيَّنًا لربّما توهِّمَ احتمالُ أنّهم يَعقلون غيرَه - إذ لم يَعقلوه، وذلك يُناقِضُ مَقامَ الإزراء.

دلالة التّعبير بمُفرَدَة (العقل):

مُهمَّة القلب هي عَقلُ المعاني وعقدُها، إنْ صوابًا وإنْ خطأً

في اصطفاء مُفردة (العقل) في جملة الصّفة ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾ إشارةٌ إلى أنّ مُهمّةَ القلبِ هي عقلُ المعاني وعقدُها، وأنّه يتلقَّى ما يُسفِرُ عنه الذّهنُ من فِكرٍ ومعانٍ، فيحتضنُها ويَنعقِدُ عليها، ويَنشرُ آثارَها في الجوارح سلوكًا مُتَرجَمًا، وأفعالًا مُحقَّقةً، فالذّهنُ يُفكِّرُ ويتدبَّرُ، ويقبلُ ويَرفُضُ، والقلبُ يَنعقِدُ على ذلك، ويصرِّفُ الجوارحَ عليه، وهكذا دائرة حياة العباد.

نكتة التّعبير بالمضارعة في ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

مع تطاوُل أعمار الكافرين لم يَنتفِعوا بتلك الفُرَص

في التّعبير بالمضارع ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ دَعمٌ للإزراء على هؤلاء المخذولين؛ حيثُ تطاوَلَت بهم الأعمارُ، ومُنحوا مِنَ الأزمان ما كان مُتجدِّدًا، مُتَّسِعًا لتجديد التَّفكُّر والتَّبصُّر، وتثبيت التَّعقُّل، ومع ذلك لم يَنتفِعوا؛ فدلالة المضارعة هنا تُقيمُ الحُجَّةَ عليهم في إهدارهم فُرَصَ الإيمان فرصةً بعد فرصة، وتحذِّرُ كفّارَ قريش من مثل مَصيرهم، وتُهيبُ بهم أن يُجدِّدوا التَّفكُّر والتَّبصُّر؛ لعلَّه يزيحُ عن بصائرهم الغشاوَةَ.

سِرُّ تقييد العقل بالجرِّ والمجرور ﴿بِهَآ﴾:

القلبُ مَركزُ الحياة تتأثَّرُ به كلُّ خليَّة في الجسم كما يتأثَّرُ هو بكلِّ خليَّة

في تقييد عَقل القلوب بالجارِّ والمجرور ﴿بِهَآ﴾ إلحاحٌ على تأكيد مُهمَّتها، وتوجيهٌ إلى عظيم ثمرتها، ودعوةٌ للمتلقّي من كفّار قريش ومَن وراءَهم إلى يوم القيامة إلى ضرورة الإفادة منها، وإلّا كانت حُجَّةً عليهم ووبالًا على مصيرهم الأخرويِّ الأسود، و"إذا أضافَ القرآنُ الكريمُ إلى القلب علمًا ومعرفةً وحكمةً وإيمانًا، فإنَّما ذلك

لأنَّه سلطانُ الجسد كلّه، وإلى صلاحه أو فساده يعود صلاحُ أعضاء الإنسان وفسادُها ... فلو كان القلبُ سليمًا مُعافًى مِنَ العلل لَسَلِمَ العقلُ، ثمّ لَكان إدراكُه للأمور سليمًا، وتقديرُه لها صحيحًا"(1).

معني ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ ءَاذَانٞ﴾:

إعمالُ القلوب وحدَها أو الآذان وحدها كافٍ في الوصول إلى الحقيقة

في التَّعبير بحرف العطف ﴿أَوۡ﴾ دون (الواو) في قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ إشارةٌ إلى كفايةِ واحدٍ من تلك المِنَح الموهوبة للكافر في الاستدلال على وحدانيّة اللّه تعالى وصِدق الرُّسل عليهم الصّلاة والسّلام، وكافية في الدّلالة على أنّ إعمالَ القلوب وحدَها كافٍ في الوصول، وأنَّ إعمالَ الآذان وحدَها كافٍ كذلك في الوصول إلى الحقيقة، بشرط إعمال هذه أو تلك إعمالًا قويمًا مستقيمًا، لا مُنحرِفًا ضالًّا.

دلالة جمع الآذان:

الآذان سبيل إيصال العِلم إلى القلب؛ فتعطيلها تعطيلٌ لمُهمَّته

في جمع الـ ﴿ءَاذَانٞ﴾ كما في جمع الـ ﴿قُلُوبٞ﴾ مطابَقةٌ لِجموع المخذولين، وإشارةٌ إلى قيام الحُجَّة عليهم - واحدًا واحدًا - بتعطيلهم ما وهبَهُمُ اللّهُ تعالى من نعمة السَّمع؛ الّتي هي سبيلُ إيصال العِلم إلى القلب؛ ففي تعطيلها تعطيلٌ لمُهمّة القلب غالبًا، وفي تعديد تلك الجوارح المُعطَّلَة تعديدٌ لِجرائمَ تَستوجِبُ العِقابَ، فضلًا عن إبطال حُجَج الكافرين يوم الدّين.

مَوقِعُ جملة ﴿يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾:

لا قيمةَ لآذانٍ لا تُسمِعُ القلوبَ والخطورة أن تُسمِعَها إسماعَ جهلٍ وضلالٍ

جملة ﴿يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾ صفة لـ ﴿ءَاذَانٞ﴾، وفي تعطيلهم آذانهم من مُهمّة السَّمع إزراء عليهم كذلك؛ إذ لا قيمةَ لـ ﴿ءَاذَانٞ﴾ لا تُسمِعُ القلوبَ؛ بل الخطورة في أنَّهم يسمعون بها سماعَ جهلٍ وضلالٍ، لا سماعَ علمٍ وهدًى؛ فهو سماعٌ مثل عدمه؛ بل عدمه أفضل منه؛ فكأنَّهم

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1054.

لا يسمعون بها أصلًا، و"ما حَلَّ بالأوَّلين إنَّما يُعرَفُ بأحد أمرَيْن: إمّا بالمعاينة بالنَّظر إليهم، وإمّا بالسَّماع مِنَ الأخبار عنهم"[1].

دلالة المضارعة في ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

صيغة المضارع تَبقى حيّةً تُتيحُ للأجيال المُتعاقِبة الإفادةَ من مادَّتها

في صيغة المضارعة للفعل ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ إزراءٌ على مَنْ لا يَنتفعُ بالـ ﴿ءَاذَانٞ﴾ على تطاول الزَّمانِ به مخذولًا عن سماع الحقِّ بها، وحرمانه مع تجدُّد فُرص السّماع أزمانًا بعد أزمان.

وفي المضارعة كذلك دعوةٌ لكلِّ مُتلقٍّ - في كلِّ زمان يتجدَّد - أنْ يَستعمِلَ أداةَ السّمع الموهوبة له مِنَ الحقّ - جل جلاله - فيما يُجدي عليه خيرًا، ويوصِّلُه إلى مَرضاته عز وجل مِنَ الإيمان واليقين.

بلاغة القَيد بالجارِّ والمجرور ﴿بِهَاۖ﴾:

مهمَّة الآذان سماع الحقِّ والتقاط إشارات الهُدى

في تقييد سماع الـ ﴿ءَاذَانٞ﴾ بالجارِّ والمجرور الصّريح ﴿بِهَاۖ﴾ لَفْتٌ إلى مُهمَّة الـ ﴿ءَاذَانٞ﴾ في سماع الحقِّ، والتقاط إشارات الهُدى، وإيصالها إلى القلب؛ لينعقِدَ عليها، ويعقِلَها، ويوقِنَ بها.

بلاغة حذف مفعول ﴿يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾:

مَن عطَّل أُذُنَيهِ عن سماع الحقِّ كَمَن فَقَد حاسَّة السَّمع بالكُلّيّة

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾؛ والتّقدير: (يَسمَعونَ بها التّخويفَ)[2] و(أخبارَ تلك الأمم، أو: ما يجبُ سماعُهُ مِنَ الوحي)[3]، ولطيفةُ حذفه تجريدُهم من سماع كلِّ مَسموعٍ، وكأنّهم عدموا حاسّةَ السّمعِ أصلًا؛ وفي ذلك مِنَ الإزراء عليهم ما فيه.

سرُّ حذف (الأبصار) في هذا المَوْضِع:

أعيُنٌ لا ترى الحقَّ ولا تَعتبِرُ بالعِبَر لا قيمة لها

لم يذكُرِ القرآنُ هنا أبصارَ الكفّار، "ولم يستدعِها كما استدعى قلوبَهم وآذانَهم؛ ولكن أشار إليها ضِمنًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، فكأنَّه قال: أمّا

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 428.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 463.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 521.

أبصارُهُم فلا وزنَ لها إذا لم تكُنْ هناك القلوبُ الّتي تتلقَّى عنها، وتعي ما يجيء إليها منها، فأبصارُهُم معهم، وهي سليمةٌ لا عيبَ فيها، ولكنَّهم مع هذا عُميٌ؛ لأنَّ العَمَى ليس عَمَى الأبصار، ولكنَّه عَمَى القلوب الّتي في الصّدور"[1].

القلوب الّتي تَعقِلُ طريقُ علمِها مشاهدةُ آثار العذاب والاستئصال

في ذِكْر الآذان اكتفاءٌ عن ذِكْر الأبصار؛ إذ يُعلَمُ أنّ القلوبَ الّتي تَعقِلُ إنّما طريقُ علمِها مُشاهَدةُ آثار العذاب والاستئصال، كما أشار إليه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾، فحصل من مجموع نَظم الآيةِ أنّهم بمَنزلة الأنعام؛ لهم آلاتُ الاستدلال، وقد انعدمَتْ منهم آثارُها؛ فلهم قلوبٌ لا يَعقِلون بها، ولهم آذانٌ لا يَسمَعون بها، ولهم أعينٌ لا يُبصِرون بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: 171]"[2].

معنى الفاء في ﴿فَإِنَّهَا﴾:

لا شأنَ لِعَمَى الأعين بالهُدى أو الضّلال

الفاء في جملة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فاء التَّعليل؛ أي: بسبب أنّهم عُمْيُ القلوب، لا عُمي الأبصار، ضلّوا السَّبيل، ويُمكن اعتبارها فاء الحال؛ أي: والحال أنَّ عَمَى الأبصار لا يُعتدُّ به، وإنَّما المدارُ على عَمَى القلوب أو بصيرتها، وهي إلى ذلك تفريعيَّةٌ مُؤذِنةٌ بمحذوفٍ قبلَها، والتَّقدير: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ، أو آذانٌ؛ إذ لا شأنَ لعَمَى الأعين بالهُدى أو الضّلال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾)، وبذلك يكون حذفُ (الأعين) والإشارةُ إليها بـ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ من بديع الحذف القرآنيِّ الوافي بمُقتَضى الحال.

نكتة التّوكيد في ﴿فَإِنَّهَا﴾:

غالب الجُمل المفتَتَحة بضمير الشّأن تؤكِّدُ للاهتمام بها

التّوكيد في جملة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ يُقرِّرُ كفايةَ السّمع

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1053.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 288.

في إيصال الحقِّ إلى القلب، وأنّ المَدارَ بعد ذلك على مُعتقَدِ القلوب ذات البصيرة، أو اختلالِ الأسماعِ في قبول الحقّ مما يترتَّبُ عليه عَمَى القلوب المحرومة مِنَ البصيرة؛ لذلك أجازوا أن يكونَ النَّبيُّ غيرَ مُبْصِرٍ[1]، وأنّ السّمعَ - دون البصر - شرطُ النّبوّة.

وكذلك من مُقتضيات التّوكيد في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ "غرابَةُ الحُكم؛ لا لأنّه ممّا يُشَكُّ فيه؛ بل لأنّ غالبَ الجُمَل المُفتَتَحة بضمير الشّأن اقترانُها بحرف التّوكيد"[2]؛ وذلك لأنّها قَطعًا "مِنَ الأخبار المُهتمِّ بها"[3].

لطيفة البناء على ضمير القصّة في ﴿فَإِنَّهَا﴾:

عمى البصائر أخطرُ من عمى الأبصار

في تصدير ضمير القصّة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ تأكيدٌ لدلالة الاكتفاء بعمى ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ والـ ﴿ءَاذَانٌ﴾ عن عمى الأعين - وهي أداة الإبصار - وأنّ الشّأنَ في بَصر البصيرةِ القلبيّةِ لا بصر الباصرةِ العينيّة.

ومن شأن ضمير القصّةِ والشّأنِ لَفْتُ المُتلقّي إلى مَرجعه المتأخِّرِ وتقريرِه، وهو هنا عدمُ التّعويل على الأبصار، وتأكيدُ التّعويل على البصائر، الّتي محلُّها القلوبُ الّتي في الصّدور.

توجيهُ القراءات في ضمير القصّة ﴿فَإِنَّهَا﴾:

وردَت قراءةُ ضمير الشّأن ﴿فَإِنَّهَا﴾ على التّأنيث هكذا، و"يجوزُ أن يُقالَ: (فإنه) على التّذكير، وهي قراءةُ عبد الله بن مَسعود، والمعنى واحدٌ، فالتّذكيرُ على الخبَر، والتّأنيثُ على الأبصار أو القصّة؛ أيْ: فإنَّ الأبصارَ لا تَعمَى، أو فإنّ القصّةَ أنّ الأبصارَ لا تَعمَى"[4]، "وحسُنَ التّأنيثُ هنا، ورجَّحَه كونُ الضّمير وليهُ فعلٌ بعلامةِ التّأنيث، وهي التّاء في ﴿لَا تَعۡمَى﴾"[5].

(1) النّوويّ، المجموع شرح المهذّب: 19/ 192، والعمرانيّ، البيان في مذهب الإمام الشّافعيّ: 12/ 9.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 163.
(4) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 77.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 521.

معنى ﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

ليس الخللُ في مشاعر الكفّار؛ وإنّما في عقولهم المريضة

﴿لَا﴾ في جملة ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ صريحة في نفي العَمَى عنِ الأبصار، حتّى وإنْ كان الكافرُ المدعوُّ على التّوحيد كفيفَ العينيْن، وتقرير عدم مَضرّة عَمى العينيْن في باب الاستدلال على وحدانيّة اللّه تعالى وصدق رُسُله عليهم الصّلاة والسّلام، وأنّ ذلك لا يقدحُ في إيمان المؤمنين، كما أنّه لا يعوقُ تحقُّقَ الإيمان، وأنّ الّذي يعوقُهُ هو عَمى البصيرة الّتي هي من نِتاج القلوب الّتي في الصّدور؛ والمعنى: "أنّ أبصارَهم صحيحةٌ سالمةٌ لا عَمَى بها، وإنّما العَمى بِقلوبهم، أو: لا يُعتدُّ بعَمَى الأبصار؛ فكأنَّه ليس بعَمًى بالإضافة إلى عَمَى القلوب"(1).

دلالة التّعبير بالعَمَى في جملة ﴿لَا تَعۡمَى﴾:

الكفّار ما عميتْ أبصارُهم عنِ الإبصار؛ بل عميَت قلوبُهم عنِ الاعتبار

في النَّصِّ على لفظ العَمى في جملة النّفي والإثبات ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ تصريحٌ لا مواربةَ فيه بِالجمع بين طَرَفَي المُقابلة المقرِّرة للحُكم بجدوى البصيرة لا البصر في إدراك الحقِّ واعتقاده، والمقصود أنّه "ما عميتْ أبصارُهم عنِ الإبصار؛ بل قلوبُهم عنِ الاعتبار"(2).

نكتة التّعبير بالمضارعة في ﴿تَعۡمَى﴾:

ثبوت انتفاء الأثر بالنّسبة إلى عمى الأبصار دون عمى القلب

في تسليط النّفي والإثبات على صيغة المضارعة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى﴾... ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى﴾، إشارةٌ إلى ثبوت انتفاء العَمى الأوّل، وتجدُّدِ حصول العَمَى الثّاني؛ أيْ: إنّ عَمى الأبصار ودوامه لا يَعوقُ تحصيلَ أسباب الإيمان، ولا يقدَحُ في تمام اليقين، وأنّ عمى البصائر وتجدّدَهُ وعدمَ الانتفاع بِفُرَص التّوبة هو الّذي يَعوقُ الإيمان، ويَقدحُ في اليقين؛ فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾

---
(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 162.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 446.

"لفظُ مبالغةٍ، كأنّه قال: ليس العَمى عَمى العين؛ وإنّما العَمى حقُّ العَمى عَمى القلب"(1).

المقصود بـ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ في ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

المقصود بالأبصار في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ الأعينُ الّتي مهمَّتُها النّظر والرّؤية، فعبَّر بالمُسبَّبِ وأُريدَ سببُهُ الحسّي؛ إتيانًا على الأثر بالنّفي بالكُلّية، بناءً على عدم مَضرَّته في قضية الإيمان، قال الإمام الماورديّ في تفسير ذلك: "يَحتملُ عندي وجهيْن؛ **أحدهما:** أنَّها لا تعمى الأبصارُ عنِ الهدى؛ ولكن تعمى القلوبُ عنِ الاهتداء، **والثّاني**: فإنَّها لا تعمى الأبصارُ عنِ الاعتبار؛ ولكن تعمى القلوبُ عنِ الادِّكار"(2).

إنْ عميت عينا الرّأس وأبصرَت عينا القلب لم يضرَّ العبدَ شيءٌ

دلالة جمع ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

في جمع ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ موافَقةٌ لِجمع القلوب والآذان في قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ﴾.

الحُكمُ بإثبات العَمَى المُعيبِ للقلوب دون الأبصار حكمٌ عامٌّ لكلِّ المُكذِّبين

وفي إطلاق ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ كنايةٌ عنها مُقيّدةٌ بالإضافة إلى الكفّار؛ أيْ: فإنّها لا تعمَى أبصارُهم، ولكن تعمى قلوبُهم الّتي في صدورهم.

غير أنّ النَّظمَ الكريمَ أطلقَ الحُكمَ، ولَم يقيِّده إبعادًا لِذِكْرهم من جهةٍ، والإيحاء بأنّهم كأنّهم حُرِموها أصلًا - فلم تُضَفْ إليهم - من جهة ثانية، وتعميمًا للحُكم من جهة ثالثة، ولتعميم الحكم، وتقرير شيوعه من جهة رابعة.

معنى الواو في ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾:

الواو في جملة ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ عاطفةٌ لِجملة الإثبات

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 127، والحديث رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزّكاة، الحديث رقم: (1099).

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 4/ 32.

هذه على جملة النّفي السّابقة عليها مباشرةً؛ جمعًا بين الحُكمين في قَرَن؛ لأنَّ الجمعَ بينهما يُحقِّقُ المقابَلة الكاشِفةَ عن جُرم الثّاني - وهو عمى القلوب - وتغلغله في باب الحرمان والخذلان بخلاف الأوَّل الّذي لا يَقدحُ في الإيمان؛ فإنَّه "إنْ كانت القوَّةُ الباصرةُ سليمةً؛ فإنَّها لا تنفُذُ إلى العِبَر، ولا تدري ما الخبر"(1).

العينُ الباصِرةُ لا تنفُذُ إلى العِبرِ وإنْ كانت سليمةً وإنَّما تنفُذُ إليها عينُ البصيرة

دلالة الحرف (لكن):

يدُلُّ حرفُ الاستدراك (لكن) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ على قَصر القلب قصرًا إضافيًّا؛ إذ به يكتمِلُ النَّصُّ على المُثبت والمَنفيِّ معًا في طرفي المقابلة؛ وذلك يدعَمُ الحُكمَ الجديدَ ويُقرِّرُهُ في النّفوس، وفي ذلك القصر قلبٌ لِموازين البشر، القاطعة بمَضَرّة عَمى عينَي الرّأس دون الالتفاف إلى مَضرَّة عمى عينَي القلب.

القَصرُ بالنّصِّ علـى المُثبَت والمَنفيِّ معًا يدعَمُ الحُكمَ ويُقرِّرُهُ في النُّفوس

ويمكن اعتبارُ القصر هنا "قصرًا ادّعائيًّا للمبالغة بجَعلِ فَقدِ حاسّة البصر المسمّى بالعَمى كأنّه غيرُ عَمًى، وجَعلِ عدم الاهتداءِ إلى دلالة المُبصَرات مع سلامة حاسَّة البصر هو العَمى، مبالغةً في استحقاقه لهذا الاسم الّذي استُعير إليه"(2).

ولأنَّ الأصلَ عند النّاس منذ القِدم أنّ العَمَى عمَى العينيْن؛ فإنَّه "لمّا نَزَلَ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ [الإسراء: 72] قال ابنُ أمِّ مَكتوم: يا رسولَ الله؛ فأنا في الدّنيا أعمى أفأكونُ في الآخرة أعمى؟ فنَزَلَت: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ أيْ: مَن كان في هذه أعمى بقلبه عنِ الإسلام؛ فهو في الآخرة في النّار"(3)؛ فحَمَلَ الأمرَ على الظّاهر المعهود عندهم مِن أنّ العَمَى عَمَى عينَي الرّأس.

الأصلُ عند النّاس منذ القِدم أنّ العَمَى عمَى العينيْن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 438.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 290.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 77.

نكتة إثبات العمى للقلوب:

عدم فِقه القلب هو العمى الّذي لا عَمى بعده

قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾: "أمّا هذه الأبصار التّي في الرّؤوس فقد جعلَها اللّهُ تعالى مَنفعةً وبُلغَةً، وأمّا البصرُ النّافِعُ فهو في القلب"[1]؛ فـ"كأنّ عمى الأبصار ليس بعمًى بالإضافة إلى عمى القلوب؛ فالكلامُ تذييلٌ لِتهويل ما بِهِم مِن عدم فِقه القلب، وأنّه العمى الّذي لا عَمى بعدَهُ؛ بل لا عَمَى إلّا هو... فإنّ الآفةَ ببصائر قلوبِهم لا بإبصار عيونِهم، وهي الآفةُ الّتي كلُّ آفةٍ دونَها، كأنَّه يَحثُّهم على إزالة المرض، ويَنعى عليهم تَقاعُدَهم عنها"[2].

جملة ﴿تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ بين الاستعارة والمَجاز المُرسَل:

دَورُ البصيرة هو الفاعل في توجيه أصحابها لا دَور الأبصار

في إضافة العَمَى إلى القلوب في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ﴾ إضفاءٌ لصفات بصر العين على بصيرة القلوب، على سبيل الاستعارة المَكنيَّة بإثبات العَمَى إلى القلوب، وهي في الأصل إلى الأعيُن.

وفي تلك الاستعارة تتحقَّقُ المبالغةُ في إثبات دَور القلوب في توجيه أصحابها، والحُكم عليهم من خلال ما تُبَصِرُهُ القلوبُ مِنَ الحقائق، وما تنعقِدُ عليه مِنَ العقائد، دون ما يتوقَّفُ بصرُهُ عند حدود عينَي الرّأس، ولا ينفُذُ منهما إلى القلب؛ "فاستُعيرَ العمى الثّاني لانتفاء إدراك المُبصَرات بالعقل مع سلامة حاسّة البصر؛ لِشَبَهِهِ به في الحالة الحاصِلةِ لِصاحبه"[3].

آلـةُ العقل هي الدّماغ والقلوب هي العقل

وإطلاقُ القلوبِ على تقاسيم العقل "مَجازٌ مُرسَلٌ؛ لأنّ القلبَ هو مُفيضُ الدّم - وهو مادّةُ الحياة - على الأعضاء الرّئيسةِ، وأهمُّها الدّماغُ، الّذي هو عضو العقل؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾، وإنّما آلةُ العقلِ هي الدّماغُ؛ ولكنّ الكلامَ جرى أوّلُه على مُتَعارَفِ أهلِ

(1) السُّيوطيُّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 61.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 9/ 159.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.

اللّغةِ، ثمّ أُجري عَقِبَ ذلك على الحقيقةِ العلميّة، فقال سبحانه: ﴿يَعۡقِلُونَ بِهَآ﴾؛ فأشار إلى أنّ القلوبَ هي العَقلُ"[1].

إنْ لم يكُنْ للمرء قلبٌ يقِظٌ؛ فليفتَحْ أُذُنَه لِدعوة الدّاعي

في الآية "إشارةٌ إلى أنّ السّيرَ في الأرض، لا يَفيدُ منه صاحبُه شيئًا إلّا إذا كان معه قلبٌ مُتفتّحٌ، يتلقّى المؤثِّراتِ الخارجيّةَ، ويتأثّرُ بها، ويتفاعَلُ معها، فإنْ لم يكُنْ له هذا القلبُ اليقظُ المُتفتِّحُ فليفتَحْ أُذُنَه لِدعوة الدّاعي ونذيرِ المُنذرِ؛ فإنَّ الأعمى يتّخذُ من أُذُنه أداةً عاملةً تقومُ مَقامَ عينيه، وتصلُ ما بينه وبين الوجود.

أمّا هؤلاء القوم الضّالّون، فلم تكُنْ لهم قلوبٌ يعقلون بها، ولم تكُنْ لهم آذانٌ يسمعون بها، لقد عطّلوا حواسَّهم؛ فهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ لا يعقلون"[2].

دلالة التّعبير في الموصول ﴿ٱلَّتِي﴾:

في إيثار صفة ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ بالموصول ﴿ٱلَّتِي﴾ في جملة ﴿تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ تهيئةٌ لِجملة الصِّلة المُقدَّرة، والمدلول عليها بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾، والتّقدير: (تعمى القلوبُ الّتي تستقرُّ في الصّدور)، وسرُّ حذف رأس الصّلةِ (تستقرّ) الإفساحُ للقيد الأهمّ؛ وهو ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾، والاكتفاءُ به عنِ المَحذوف.

إشارة الجمع في ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ وسِرُّ تعريفها بـ(أل):

قوله تعالى: ﴿ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يعني: "العقول الّتي في الصّدور"[3]، وفي جمع ﴿ٱلۡقُلُوبُ﴾ اتّساقٌ مع جمع ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بعد الـ ﴿ءَاذَانٞ﴾؛ لإرادة جموع الكفّارِ المَخذولين، الّذين لم ينتفعوا من ذلك كلِّه بشيءٍ.

"والتّعريفُ في الأبصار والقلوب والصّدور تعريفُ الجنس الشّاملِ لقلوب المُتَحَدَّثِ عنهم وغيرهم، والجمعُ فيها باعتبار أصحابِها"[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 288.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1052.
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 463.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.

براعةُ القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾:

العَمَى المعيبُ عَمَى القلب لا عَمَى العَين

في ذِكْر القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾ هنا براعةٌ فائقةٌ تليقُ ببلاغة الذِّكر الحكيم؛ لِما في ذِكْره مِن تحقيق الحُكم بالعَمى لهذه ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾؛ لأنّ القلوبَ، وإنْ كانت قطعًا في الصّدور، فإنَّ العمى فيها ليس مشهورًا مُتعارَفًا عليه، وإنّما يكون للأبصار الّتي في الرّؤوس؛ فكان في النَّصّ على القيد ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾ تثبيتٌ لهذا الحُكم الجديد بإثبات العمى للقلوب، ونفيه عمّا شاع لها وثبت - وهي العيون، قال الزَّجّاج: "القلبُ لا يكونُ إلّا في الصّدرِ، ولكن جَرَى على التَّوكيدِ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم﴾ [آل عمران: 167]، وكما قال: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38] ... فالتّوكيدُ جارٍ في الكلام مُبالِغٌ في الإفهامَ"(1).

دلالة الظّرفيّة في القيد: ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾:

قد يُستفاد التّعريضُ من قيدٍ في الجملةِ

يعطي القيدُ ﴿فِي ٱلصُّدُورِ﴾ - فضلًا عنِ التّوكيد - "تَعريضًا بِالقوم المُتَحَدَّثِ عنهم بِأنّهم لم ينتفعوا بأفئدتهم مع شدّة اتِّصالها بهم؛ إذ هي قارَّةٌ في صدورهم على نحو قول عُمَرَ بنِ الخطاب لرسول الله ﷺ: (فالآنَ أنتَ أحَبُّ إليَّ من نفسي الّتي بين جَنْبَيَّ)، فإنّ كونَها بين جَنْبَيْهِ يَقتضي أن تَكونَ أحبَّ الأشياء إليه"(2).

دلالة جمع ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ وتعريفها:

في جمع ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مناسَبةٌ وموافَقةٌ لجمع ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾؛ ففي كلِّ صدرٍ قلبُه، وفي الجمع مع تعريف ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ قوَّةٌ تَمنَحُ الحُكمَ قبولًا، وتُقرِّرُهُ في النّفوس، "والتّعريفُ في الأبصار والقلوب والصّدور تعريفُ الجنس الشّاملِ لِقلوب المُتَحَدَّثِ عنهم وغيرِهم"(3).

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 432.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 290.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 289.

بلاغة الكناية في ذِكْر ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

تحديد مكان القلب في الآية الكريمة ينفي التَّجوُّزَ به غيره

في ذِكر ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ كنايةٌ عن حصانة ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ وصيانتها مِنَ الآثار الدَّخيلة الّتي تتسلَّطُ عليها من خارجها؛ فلا حُجّةَ لأصحابها في اختلال عقائدها، وتَبنّيها الكفر والضّلال، وتخلّيها عنِ الإيمان والهدى، وأيضًا "لئلّا يُقالَ: إنّ القلبَ يُعنى به غيرَ هذا العضو، كما يُقالُ: القلبُ لبُّ كلِّ شيءٍ"[1]، وحيثُ "وُصِفتِ القلوبُ هنا بأنّها تَعقِلُ وتُدرِكُ ... كان تحديدُ مكانِها أمرًا لازمًا؛ حتّى يتقرَّرَ أنّها المقصودةُ بِذاتها، وليست العقول"[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القلوب والأفئدة:

يوصَفُ الفؤادُ بالرِّقَّة والقلبُ باللّين

"لم يُفرِّقْ أهلُ اللّغة بين القلب والفؤاد؛ بل عرَّفوا كلًّا منهما بالآخر، وقال بعض أهل الحديث: الأفئدة: توصَفُ بِالرِّقَّة، والقلوبُ باللّين؛ لأنّ الفؤادَ غِشاءُ القلب، إذا رقّ نفذَ القولُ فيه، وخلصَ إلى ما وراءه، وإذا غَلَظَ تعذَّرَ وصولُه إلى داخله، وإذا صادَفَ القلبُ شيئًا عَلَقَ به إذا كان ليِّنًا"[3]؛ وعلى ذلك فالقلبُ عُمقُ الفؤاد ولُبُّه؛ فإذا عمي اللُّبُّ لم يَنتفعِ الغشاءُ الخارجيُّ (أيِ: الفؤاد) بالهُدى؛ لذلك عَبَّرَ به الذِّكرُ الحكيمُ هنا.

الأبصار والأعين:

البصر الرُّؤية، والعين آلتُه

معلومٌ أنّ العينَ آلةُ البصر، وهي الحَدقةُ، والبصرُ اسمٌ للرُّؤية؛ ولهذا يُقال: إحدى عينيّه عمياء، ولا يُقال: أحد بصريّه أعمى، وربما يَجري استعمالُ البصرِ على العين الصّحيحة مجازًا، ولا يجري استعمالُهُ على العين العمياء، وقد يُسمَّى العِلمُ بالشّيء إذا كان جليًّا: بصرًا، يُقال: لك فيه بصرٌ؛ يُرادُ أنّك تعلمُهُ كما يراه غيرُكَ[4].

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 446.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1053.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 433.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 381.

لقد نفى الذِّكرُ الحكيمُ العمى عنِ الأبصار لا العيون؛ إذِ الأبصارُ ثمرةُ ما يُبصِرُ منها؛ ليثبتَهُ للقلوب الّتي أكّدَ قصدَهُ إيّاها؛ وذلك بذِكْر مَواضِعها ﴿ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٤٧﴾ [الحجّ: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ انطماسِ بصائِرِهم وشِدَّة تكذيبهم باستعجالهم العذابَ

لَمّا ذَكَرَ سُبحانَه أنَّ المُشرِكينَ كَذَّبوا رسولَه وبالَغوا في تكذيبِه، وسلّاه على ذلك فأخبره بأنَّه ليس ببِدْعٍ من الرُّسُلِ؛ فكثيرٌ مِمَّن قبلَه قد كُذِّبوا وأوذوا كثيرًا، فعليه ألّا ييئَسَ بما يفعلونَ، وأن يصبِرَ على ما يدعو إليه، وألّا يُضيرَه ما يأتونَ وما يَذَرونَ، لَمّا ذكر اللّه تعالى ذلك؛ أعقب ذلك ببيانِ أنَّهم لاستهزائِهم به وشديدِ تَكذيبِهم كانوا يَستَعجِلونَه العذابَ[1]؛ فأكدَّ ﷻ انطماسَ بصائرهم، حيث بَيَّن أنَّهم بدل أن يتوبوا إلى اللّه ويستغفروه؛ استعجلوا العذاب[2]؛ فهذه الآيةُ من تمام أحوال القوم الواردة في السِّباق القريب، وفيها دلالة على أنَّ استعجالهم العذاب من عمَى قلوبهم؛ فإنَّها لو أبصرتِ الحقيقة على وجهها ما استعجلته؛ وقد علموا أنباءَ كثيرٍ مِمَّن أُهلكوا قبلهم بعذاب اللّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾: (عجل) أصلُ التَّعْجيلِ: التسْريعُ، يُقال: تَعَجَّلَ الشَّخْصُ؛ أيْ: تسرَّعَ وفعَلَ الشَّيْءَ قَبْلَ أوانه، وهو الاندفاعُ وطَلَبُ العَجَلَةِ[3]، والعَجَلَةُ: خِلافُ البُطْءِ والتَّأخُّرِ والتَّأْجيلِ والإمْهالِ، ومعناها: السُّرْعَةُ، ويأْتي التَّعْجيلُ بمعنى التَّقْديمِ، يُقالُ: تَعَجَّلْتُ لَهُ الطَّعامَ؛ أيْ: قَدَّمْتَهُ له قَبْلَ نُضْجِه، وهو أيضًا: السِّباقُ إلى الشَّيْءِ، تقول: تَعَجَّلْتُ الشَّيءَ؛ أيْ: سَبَقْتُه[4]، والمُراد بالاستعجال في الآية طلب الشَّيء قبل أوانه.

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 124.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 323.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجل).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).

2) ﴿يُخْلِفَ﴾: (خلف) أصلُ الخُلْفُ والخُلُفُ: المُخالفة في الوَعد، وهو نقيضُ الوَفاء به، يُقالُ: وعدَني فأخلفَني؛ أيِّ: خالفَ في الميعاد[1]، وهو أن يَقولَ شيئًا ولا يفْعَلَه على الاستِقبالِ، والخُلْفُ: الاسمُ من الإخلاف، وهو في المُستقبَلِ كالكَذِبِ في الماضي[2]، ويُقالُ لِلَّذي لا يَكادُ يَفي إذا وعَدَ: إنَّهُ لمِخلافٌ، والمُخْلِفُ: الكثيرُ الإخْلافِ لوَعْدِهِ، والخالِفُ: الَّذي لا يكادُ يوفي[3]، والمعنى المُراد في الآية واضح.

3) ﴿وَعْدَهُۥ﴾: (وعد) كَلِمَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْدًا، ويَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعيدُ فلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ، يقولونَ: أوعَدتُهُ بكذا[4]، والوَعْدُ والعِدَةُ يكونانِ مصدرًا واسمًا، وجمع عِدَةٌ: عِدات، والمَوعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ وهو الميعادُ، ويكون الـمَوعِدُ وقتًا للعِدَة، والمَوعِدةُ أيْضًا: اسْم للعِدَةِ، والميعادُ لا يكون إلّا وقتًا أو موضِعًا[5]، والمُرادُ بالوَعْدِ في الآية: الإخبار بما سيكون من جهة المُخبر.

4) ﴿تَعُدُّونَ﴾: (عدّ) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ لا يَخْلو من العَدِّ الَّذي هو الإحْصاءُ، ومن الإعْدادِ الَّذي هو تَهْيِئَةُ الشَّيْءِ، وإلى هَذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ تَرْجِعُ فرُوعُ البابِ كُلُّها، فالعَدُّ: إحْصاءُ الشَّيءِ[6]، تَقولُ: عَدَدْتُ الشَّيءَ أعُدُّهُ عَدًّا فأنا عادٌّ، والشَّيْءُ مَعْدودٌ، والعَديدُ: الكَثْرَةُ، وفُلانٌ في عِدادِ الصّالِحينَ؛ أيِّ: يُعَدُّ معهم، والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ ومبلغُه[7]، والجمع: أعداد، ومن الوَجْهِ الآخَرِ: العُدَّةُ، وهي ما أُعِدَّ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ[8]، والمُرادُ بالعَدِّ في الآية: الحِسابُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يؤكِّدُ الحقُّ ﷻ في الآية انطماسَ بصائر القوم، إذ بيَّن أنَّهم بدلَ أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه؛ استعجلوا العذابَ؛ فقال تعالى: ويستعجلُك - يا مُحَمَّدُ ﷺ - كفّارُ قريش

(1) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (خلف)، والمَناويّ، التَّوقيف، ص: 158.
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خلف).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وعد).
(6) ابن سِيدَه، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عدد).
(7) ابن سِيدَه، المُحكم: (عدد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عدَّ).

ما عرَف اللهَ مَنْ يستعجلُ عذابَه

المكذِّبونَ باللّه وكتابه ورسوله واليوم الآخر بنُزولِ عَذابِ اللّهِ عليهم جَزاءَ شِرْكِهم به - على سبيل الاستهزاء بك والاستخفاف - واللّهُ لن يُخلِفَ ما وعَدَ به من ذلك، وهو واقعٌ بهم حَتْمًا في وقته المُحَدَّد، إذ هُم يَستَعجِلونكَ بالعذابِ، ولكنَّ اللّهَ تعالى حليمٌ لا يَعجَلُ به؛ فإنَّ مِقدارَ ألْفِ سَنةٍ عِندَ خَلْقِه كيَومٍ واحدٍ عِندَه، فالطَّويلُ عِندَهم مِنَ الزَّمنِ قَصيرٌ عِندَه، وليس عذابُهم عِندَه ببعيدٍ، فلا بدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو، وتوجيه معنى الآية عليه:

التَّعجيب من حالهم وتوضيح عماهم

قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ هو من باب عَطْفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فإنَّ مِن تَكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالوعيدِ، وقالوا: لو كان محمَّدٌ صادِقًا في وعيدِه لعُجِّلَ لنا وعيدُه؛ فكانوا يَسألونَه التَّعجيلَ بنُزولِ العذابِ استهزاءً كما حكى اللّه عنهم في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]؛ فذكر ذلك في هذه الآية بمناسبة قوله: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الحج: 44] الآية[1]، فالعطف هُنا لإبراز التَّعجيب منهم وتوضيح عماهم[2]؛ فالمعطوفُ عليه هنا مجموع ما بعد الواو في قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ [الحج: 42] إلى آخر الآية السّادسة والأربعين.

وجوَّز البقاعيُّ عطفَ الآية على فعل الجدال في آية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ﴾ [الحج: 8]؛ أيّ: (ومنهم مَن يستعجلونك)، وجوَّز أيضًا - وهو وجه قويٌّ وحسَنٌ جدًّا - أن تكون الواو في هذه الآية واوَ الحال؛ وتكونُ هذه الجملة: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ ...﴾ حالاً من فاعل: ﴿يَسِيرُواْ﴾ [الحج: 46]؛ فيكون مما أُنْكِر عليهم[3]، وبهذا يكون قد جُمِع لهم في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 290.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 66.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 161.

البيان بين حالَيْن؛ حالٌ هم قائمون فيه؛ وهو استعجالهم العذابَ، وحالٌ عليهم أن يقوموا فيه؛ من بعد أن يتخلّوا عن حالهم الآخَر؛ وهو أن يسيروا في الأرض.

دلالة التَّعبير بالفعل المُضارع:

في الآية الكريمة ذُكر الفعل ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ بصيغةِ المُضارع؛ للإشارة إلى تَكريرِهم ذلك ودأبهم عليه؛ تَجْديدًا منهم للاستهزاءِ، وتَهكُّمًا وإنكارًا لمعتقدات المُسلمينَ[1].

دلالة صيغة الاستفعال والطَّلب في هذا المقام:

عمى القلب سببُ طلبِ كلِّ قبيح

السّين والتّاء في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ للطَّلب؛ والمعنى: يطلبون العجلة والإسراع بنزول العذاب فيهم على سبيل الاستهزاء مُتحدّين وزاعمين أنَّ ذلك الإنذارَ لا يقع كما قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 70]، وإنَّ هذا التَّحدّي والزَّعْم منشؤُه غفلةٌ في نفوسهم وعقولهم، إذ حسِبوا واهمين أنَّه لن يجيءَ ويتحقَّق[2].

يحتمل الطَّلب في معنى الاستفهام

وقد يكون الطَّلب في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ في معنى الاستفهام؛ أيْ: يطلبون التَّعجيل بالعذاب مُستفهمين استفهامًا إنكاريًّا يُناسب التَّهكُّم والاستخفاف؛ والمعنى: أنَّ هؤلاء الطُّغاة بدلَ أن يسيروا في الأرض فيعتبروا ويتَّعظوا؛ أخذوا يطلبون منك يا مُحمَّد نزولَ العذاب عاجلًا، على سبيل الاستهزاء بك والاستخفاف بما هدَّدناهم به، ويقولون لك: متى هو؟ فجملة ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ خبريَّة في اللَّفظ استفهاميَّةٌ في المعنى[3].

معنى حرف الجَرِّ في: ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾:

التَّشخيص للعذاب كمال الغفلة عن يوم الحساب

الباء من قوله تعالى ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ صِلة لتأكيد معنى الاستعجال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 290.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5000.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 161، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 323.

بشدَّتِه؛ كأنَّه قيل: يحرصون على تعجيله[1]، وهذا الفعلُ يتعدَّى بنفسه؛ ففي ذِكْر (الباء) إنكارٌ لطيف عليهم ذلك الاستعجال؛ فمِثْلُه لا ينبغي أن يكون، ومِثْلُ عذاب الله لا يصحُّ أن يُستعجَل، كما أنَّه تحديدٌ وتشخيصٌ دقيقٌ للمُستعجل به إظهارًا لكمال جهلهم وإبرازًا لشدَّة غرورهم وغطرستهم.

إيثارُ ذِكْر لفظ العذاب، وسببُ تعريفه:

السُّخرية بما جاء به الرُّسل من سَمْت الكافرين

في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾؛ في الكلام حذف مُضافٍ تقديره: (مجيء أو نزول)؛ لأنَّهم لا يستعجلون ذات العذاب؛ بل نزوله وحلوله فيهم، وإنَّما حُذف المُضاف وذُكر (العذاب) لأنَّه محطّ التّكذيب والإنكار والتّهكُّم والاستخفاف[2].

كما ورد (العذاب) مُعرَّفًا باللّام إشارةً إلى أنَّه ﷺ كان يُخوِّفهم بالعذاب إنِ استمرّوا على كفرهم، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحِجْر: 7][3]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ١٣﴾ [فُصِّلَت: 13]؛ فـ(اللّام) للعَهد الذِّكريّ بين المُتخاطِبين، ويمكن تقدير الكلام على حذف مُضافَيْن؛ أيْ: (ويستعجلونك بمجيء مُسبِّب عذابهم؛ مما هو جزاء أعمالهم).

توجيه عطف النَّفي على طلبهم العذاب:

الرَّدُّ القاطع لتهكُّمات المُكذِّبين

لمّا كان استعجالهم العذاب متضمِّنًا أنَّهم موقنون بأنَّ العذابَ الموعود به غير واقع ونازلٍ بهم، وأنَّهم مُكذِّبون له بما يتوعَّدهم من حلول العذاب فيهم أعقب بالعطف عليه النَّفيُ لإخلاف الوعد القاطع بنزوله فيهم عند حلول أجله ووقته الموعود به بقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾؛ أيْ: فالعذاب الموعود الذي تتهكَّمون به نازل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 291.
(2) الهَرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 366.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 234.

لا محالة بكم؛ لأنَّه وعدٌ من اللّه واللّه لا يخلف وعده[1]؛ فالمعطوف كشف بالواو عن حقيقة ما تضمنه فحوى استعجالهم وإنكارهم.

نُكتة النَّفي بـ (لن):

تأنيس النَّبي ﷺ والمُؤمنين وتهديد المُشركين

ورد في قولُه: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ النَّفي بكلمة (لن) التي فيها مِن الحسم والجزم والفصل ما فيها؛ بدليل المواقع التي تُستعمل فيها، ففيها كمال التَّأنيس للنَّبيِّ ﷺ والمُؤمنينَ لئلّا يَستبْطِئوا الوعد وإنجازه[2]، وقد يُنجز الوعد حالًا، وقد يُؤخِّره بعد الوعيد إلى حينٍ قَلَّ أو كثر؛ لأنَّ قضاءه سبق أنَّه لا يكون إلّا بموعده لحِكَمٍ يُظهرها لِمَن يشاء من عباده[3].

دلالة جُملة ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾:

لو تأمّلوا حال السّابقين لعرَفوا حقّيَّة الوعد المبين

تحتمل جُملة ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ الحاليَّة، وجيء بها لتهديدهم على استعجالهم العذاب واستخفافهم الوعيد به؛ أيّ: والحال أنَّ اللّه تعالى لن يُخلِفَ ما وعدهم به من العذاب؛ بل هو منجزُه لا محالة في الوقت الذي يريده هو وليس الذي يريدونه هم[4]، وفائدة كونها حالاً هي لفتُ انتباههم المقصودُ إلى غفلتهم عن مضمونها، والتّعجيبُ من ذلك؛ تبَعًا لهذا اللّفت.

احتمالية أن تكون الجملة اعتراضيّة

كما تحتمل هذه الجملة أن تكونَ اعتراضيَّة مُبيِّنة لما ذُكِرَ[5]؛ وفيها إنكارٌ عليهم وتسفيه لهم؛ إذ يطلبون الهلاك ويستعجلون البلاء على حين يصرفون وجوههم عن هذا الخير الذي بين أيديهم، ويُلقون بأنفسهم إلى التّهلكة، وهذا لا يكون من إنسان له مِسّكَة من العقل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 291.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 66.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 161، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 323، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1055.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 111، وابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 421.

والإدراك[1]، وقد يرى بعضهم أنَّ حملَها على الاعتراض غير قويٍّ؛ لأنَّ معناها مُتّصل بمعنى الجملة التي قبلها كالجملة التي بعدها، وجملةُ: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: إنّما تُرهبهم غاية التّرهيب إذ تأسَّست على جملة: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾؛ كما هو الحال في التّنزيل الكريم.

سِرُّ التَّعبير عن نفي الإخلاف بالمضارع:

ومَـن أصـدقُ من الله قيلاً في وعده؟

كان نَظْم الخُلْف المنفيّ مضارعًا ناظرًا إلى المُخاطَبين به في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجنسٍ؛ فهم مُتجدِّدون مُتكرِّرون، وإلى كون مُتعلَّق الوعد بالعذاب الدّنيا والآخرة معًا؛ والمعنى: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾؛ أيِّ: ما وعد به فهو كائنٌ لا محالة، لامتناع الخُلْف في خبره، فيصيبهم ما أوعدهم به البتَّة ولو بعد حين لكونه صبورًا لا يُعجّل بالعقوبة، وهو يفعل بهم وبغيرهم في الأزمنة المستقبلة كما فعل فيمَنْ قبلهم في الأزمنة الماضية؛ لأنَّ ذلك هو نهجه الثّابت وعدله المبين، وسيحلّ بهم مثلُ ما حلَّ بغيرهم، وقد أنجز اللّه الوعد في الدُّنيا يوم بدر، ويُنجز هلاكهم بالسّاعة قبل عذاب الآخرة[2].

دلالة التَّعبير باسم الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾:

مَـن تـجـاهـل الألوهيّة الحقَّة في الرَّخاء تنبَّه لها في الشِّدَّة

عبَّر القرآن باسم الجلالة في قوله: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾؛ لفتًا إلى أنَّ إخلاف الوعد ضدُّ الألوهيَّة الحقَّة؛ فهو دليل نقص، جلَّ اللّهُ وتعالى وتقدَّس، فإذا وعد ذو الجلال والإكرام أو توعّد بشيء كان حاصلاً لا محالة، وكان وعدًا أو وعيدًا عظيمًا، وهذا الاسم هو الأنسبُ بسياق استعجال العذاب، وبإثارة الرَّهبةِ في صدورهم بعد استخفافهم بالوعيد وتهكُّمهم بالتَّحذيرِ والتَّخويف، والاسم الكريم يتضمّنُ كلَّ أوصاف المولى تعالى، فيكون إثباتًا لنفي إخلاف الوعد

(1) الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 9/ 1055.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 125، والمظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 6/ 334، والهواريّ، تفسير كتاب الله العزيز: 3/ 106.

ببيّنةٍ وبرهانٍ؛ فكأنّه قال: ولن يُخلف وعده؛ لأنّه اللّه ذو الصِّفات الكماليّة العظيمة.

دلالةُ حذف المتُعَلّق، وسِرُّ الإضافة:

الإيجاز أليق بسياق التَّهديد

إنّ ظاهرَ النَّظم الكريم أن يُقال: ولن يُخلِفَ اللّهُ وعْدَه في حُلولِ العذابِ الذي يَستَعجِلونك به لهم، وقد حذف المتعلّق؛ للعلم به؛ لاقتران جملة الوعد بجملة: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾، وأضاف الوَعْدَ إليه تعالى مع أنَّ الوعيد صادر من الرَّسول في الحقيقة؛ لأنَّ رسولَه ﷺ هو المُخبِرُ به عن اللّهِ تعالى[1]، كما تحتملُ الإضافةُ تعظيمَ ذلك الوعيد وتفخيمَه في مقابلة استخفافهم واستهزائهم به.

توجيهُ الواو بين العطف والاستئناف النَّحويِّ:

في العطف قوّةٌ للتَّهديد والغضب، وفي الاستئنافِ قوّةٌ للحِلْمِ والإمهالِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ عطفٌ على الجملة السّابقة ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾؛ فإنَّ اللّه توعّدهم بالعذاب، وهو شاملٌ لعذاب الدُّنيا والآخرة، وهم إنَّما استعجلوا عذاب الدُّنيا تهكُّمًا وكنايةً عن إيقانهم بعدم وقوعه بلازمٍ واحدٍ، وإيماءً إلى عدم وقوع عذاب الآخرة بلازمَيْن؛ فردَّ اللّه عليهم ردًّا عامًّا بقوله: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾، وكان ذلك تثبيتًا للمؤمنين، ثُمَّ أعقبه بإنذارهم بأنَّ عذاب الآخرة لا يُفلتون منه أيضًا، وهو أشدُّ العذاب؛ فقوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ خبرٌ مُستعملٌ في التَّعريض بالوعيد، وهذا اليوم هو يوم القيامة[2].

وَعْدُ اللهِ لا يتخلَّف وإن طال الأَمَدُ

جملة ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ يلزم منها أنَّ وعد اللّه لا يتخلَّف؛ لأنَّ معناها المُفصَّل مُؤسَّس على معنى الجملة التي قبلها: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾؛ لكنَّ هذه الجملة لا يلزم منها

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 291.

معنى جملة: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ الآية؛ فبينهما قدرٌ من التَّواصل المعنويّ والتَّوكيد، وترتيبهما على الأصل والظّاهر.

حساب الأزمان في تقدير الله تعالى يُخالفُ ما يُقدّره البشر

قد تكون جملة ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ مستأنفةً استئنافًا نحويًّا سيقت لبيان أنَّ حساب الأزمان في تقدير اللّه تعالى يُخالفُ ما يُقدّره البشر؛ أيَ: دعهم أيُّها الرَّسول الكريم يستعجلونَ العذاب؛ فذلك دأبُ الظّالمين في كُلِّ حين، وسبيلُ الجاهلين في كُلِّ زمان، وأعلِمْهم بأنَّ اللّه تعالى لن يُخلفَ وعده إيّاهم به في الوقت المُحدَّد لذلك، وإنَّ يومًا عنده تعالى كألف سنةٍ ممّا يعدُّه هؤلاء في دنياهم، وسيأتيهم هذا اليومُ الذي يطول عليهم طولًا شديدًا، لِما يَرونَ فيه من عَذابٍ مُهينٍ[1]، وهَذا بِناءً على أنَّ الجُملةَ الأولى ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ حاليَّةٌ[2]؛ فسيقَتْ هذه الجُمْلَةُ لتحقيق إنكار الاستعجال وبيان خطئهم فيه ببيان كمال سَعَةِ ساحة حِلْمِهِ تعالى وإظهار غاية ضيق عَطَنِهِمْ المُسْتَتبع لكون المُدَّة القصيرة عنده تعالى مُددًا طِوالًا عندهم حسب ما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾ [المعارج: 6 - 7][3].

التفات بديعٌ من الغيبة إلى الخطاب

لقد تأسَّسَ فهْمُ كون هذه الجملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا نحويًّا على الالتفات من الغيبة في: ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ إلى الخطاب في: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ الآية، ويتَّبع هذا الوجهَ معنى أنَّ اللّه سيحلم عنهم ويُمهلهم من أجل حبيبه ونبيه محمدٍ ﷺ؛ رجوعًا إلى وصف الإحسان الذي تسلَّط عليه الأمر بالتّقوى في مطلع السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الحج: 1].

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 324.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 161.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 161.

بلاغة التَّوكيد بـ (إنَّ) والجُملةِ الاسميَّةِ:

تأكيدُ وقوع وعْدِ الله بِحَسَبِ تقديره وحكمته

في التَّأكيد بـ(إنَّ) واسميَّة الجُملة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ﴾ تأكيدٌ لوقوع وعْدِ الله وإنجازه، وأنَّهم إذا كانوا قد استبطئوا وُقوعَه، فإنَّ لله ﷻ تقديرًا غير تقديرهم، وحِسابًا غير حِسابهم، فالنّاس يتعاملون مع أشياء محدودة، في زَمَنٍ مَحدودٍ، على حين أنَّ الله سُبحانه يُدَبِّر الوجود كلَّه في زمن مُطلق وبقدرة مُطلقة؛ وعلى هذا فإنَّه إذا لم يقع بهم العَذاب عاجلًا فهو واقع آجِلًا، وأنَّهم إذا لم يُؤخذوا به في الدُّنيا، أُخذوا به في الآخرة فهم أُبَدًا في قبضة الزَّمن[1].

في الآيـة معنى الـجـواب على ما تُثيره جملة: (ويستعجلونك بالعذاب)

إذا كان القرآن قد استعمل: (لن)؛ ليُؤكِّد وقوع الوعد بالعذاب؛ فإنَّ هذه الجملة: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ الآية؛ فيها معنى الجواب على ما تُثيره جملة: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ ممّا اقتضَى الجواب عنه بـ ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ﴾ وتأكيدَه؛ فلذلك أكَّد القرآنُ مضمونَها أيضًا؛ فالتّواصلُ بين هذه الجملة والجملة التي قبلها لطيفٌ؛ لأنَّهما جوابان عن المذكور، وكذلك التّواصل بينهما وبين الجملة الأولى في الآية.

سِرُّ تنكير الظَّرْفِ ﴿يَوۡمًا﴾:

فـي تـنـكـيره تعريفٌ بأوصافه وأحواله

لَيْسَ المُراد بقوله: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ إلى آخره استقصارَ أجل حلول العذاب بهم في الدُّنيا كما دَرَجَ عليه أكثر المُفسِّرين؛ لعدم رَشاقَة ذلك على أنَّ هذا الاستقصار يُغني عنه قولُه عقب هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا﴾[2]؛ ذلك أنَّ لليوم مراتب؛ فيومٌ كالآن وهو أدنى ما يُطلَق عليه الزَّمان؛ فمنه يمتدُّ الكُلّ وهو مُشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرَّحمن: 29]؛ فالشَّأنُ الإلهيُّ بمنزلة الرّوح يسرى في أدوار الزَّمان ومراتبه سريانَ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 9/ 1056.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292.

الرّوح في الأعضاء، ويوم كخمسين ألف سنة وهو يوم القيامة، ويوم كألفِ سنةٍ وهو يوم الآخرة[1]، وتنكيرُ (اليوم) في معنى أنَّه كألف سنة ممّا تعدّون فيه عظمةُ ذلك اليوم وفخامته والتَّهويل من شأنه، كما يُفيد التَّنكيرُ إبهامَ ذلك اليوم وإبهامَ زمن نزول العذاب بهم، إذ يأتيهم ما وعدهم بغتةً وهم لا يشعرون.

دلالة التَّعبير بالعِنديَّة ظرفًا:

لـلأشـيـاء في ميزانه سبحانه حقائق خاصة

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أيْ: عند اللّه؛ لإحاطته فيه وعلمه وإنفاذه قدرته[2]؛ فالبطيء عندهم قريبٌ عنده وأنَّه قادرٌ على أخذهم متى شاء، لا يفوته شيء بالتّأخير، فيستوي في قدرته التَّأخير والاستعجال[3]؛ ففي العِنْديّة مزيدُ تعريفٍ به ﷻ، ومزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ للعاصين، وإنّما أضاف الزّمانَ إلى قرب اللّه الذي لا يُحيط به مكانٌ ولا زمانٌ؛ لأنّه تنفذ قدرته فيه.

سرُّ ذِكْرِ الرُّبوبيّة مضافةً إلى النَّبي ﷺ بضمير الخطاب:

الإحسان الإلهيّ لنَبيِّه بتأخير العذاب عن قومه

الإضافة في قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ اللّه سبحانه سيُعامل هؤلاء العاصين الذين يستعجلون رسول اللّه بالعذاب - بالإحسان، والإضافة إلى كاف الخطاب النّبويِّ؛ لإفهام أنَّ معاملتهم بالإحسان من أجل إكرام نبيّنا ﷺ وإرضائه؛ والمعنى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: المُحْسِن إليك بتأخير العذاب عنهم إكرامًا لك[4]؛ وبهذا يلتقي طرَفا الآية؛ عن طريق ذِكْر سيدنا رسول اللّه ﷺ؛ ففي صدرها: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾، وفي عجُزها: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ والقرنُ بين هذيْن الحاليْن في آية واحدة من شأنه أن يُحرِّك هؤلاء المخالفين نحو الإيمان به ﷺ ومعرفة قدره ومقداره؛ ولذا لم يَقُلْ: (عند

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 46.

(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 127.

(3) محمّد دَرْوَزَة، التَّفسير الحديث: 6/ 62.

(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.

ربكم)، كما أفادت الإضافة تربيةَ اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ تربيةً خاصّةً حتى نوَّه بها من خلال هذه الإضافة.

بلاغة التَّشبيه في الآية وبيان وجهه:

في تشبيه الغائب بالحاضر إقامةٌ للحُجَّة وتقريبٌ للمعنى

في قوله تعالى: ﴿كَأَلۡفِ سَنَةٖ﴾ تشبيهٌ لغويٌّ، وقد اختلف أهل التَّفسير في وجهه؛ فقيل: في العدد؛ أيِ: اليوم عند اللّه يُساوي ألف سنة من عددكم؛ والمعنى: وإنْ طال الإمهال فإنَّه في بعض يوم من أيام اللّه، وهذا ما دَرَجَ عليه أكثر المُفسِّرين وانتقده ابن عاشور رحمه اللّه، وقيل: التَّشبيه وقع في الطّول للعذاب فيه والشِّدَّة؛ أيْ: وإنَّ يومًا من أيام عذاب اللّه لِشِدَّة العذاب فيه وطوله كألف سنةٍ من عددكم، إذ أيام التَّرَحَةِ مُستطالة، وأيام الفرحة مُستقصرة؛ فكان ذلك اليوم كألف سنةٍ من سِنيِّ العذاب، والمعنى: أنَّهم لو عرفوا حال الآخرة ما استعجلوه، وقيل: التَّشبيه بالنِّسبة إلى علمه تعالى وقدرته، وإنفاذ ما يريد كألف سنة، وقيل: يجمع لهم عذاب ألف سنة في يوم واحدٍ، ولأهل الجنَّة سرور ألف سنةٍ في يوم واحدٍ[1].

في هذا التَّشبيه تصوير لإمهال اللّه في تقديره

في هذا التَّشبيه تصوير لإمهال اللّه في تقديره، وهو العظيم الحكيم العليُّ القدير، وتقديره سُبحانه اليوم عند اللّه تعالى بألف سنة مما نعدُّه بالأيام واللَّيالى إشارةٌ إلى أنَّه لا يُعَدُّ، وهو فوق تقديركم[2].

تشبيهٌ لغويٌّ لا اصطلاحيٌّ

هذا التَّشبيه لغويٌّ، لا اصطلاحيٌّ؛ فالكاف معناها التَّسوية، والمعنى: وإنَّ يومًا عند ربك يُساوي ألفَ سنةٍ مما تعدّون؛ فقد جاءت الكاف "للدّلالة على المساواة في الصّفة بين المُتّفقيْن جنسًا في هذه الآية؛ فالمُشبّه والمُشبّه به من جنسٍ واحد؛ والتّشبيه للدلالة على مساواة يوم القيامة - في شدّته وقسوته وكثرة ما يُلاقي فيه الإنسانُ - بألف سنة؛ بما في أيّامها ولياليها من الشّدائد؛ لأنّ أيام الشّدائد مستطالةٌ،

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 368.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.

أو أنَّ المساواة في زمنه ووقته؛ أيّ: طولُه كطول ألف سنةٍ، فالكافُ جاءت للدلالة على المساواة في الوصف الجامع للطرفيْن، ولا يُعكّر على كون معنى المساواة المقصودَ الأهمَّ لمحُ معنى المماثلة في الجنس والصفة؛ لأنَّ القصد هنا إبراز المساواة بين الطرفيْن في الصِّفة"[1].

الإمعانُ في التَّهويل والتَّفخيم لشأن يوم القيامة

مِن دواعي حذف جهة التّسوية دلالة سياق الكلام عليها بقوة، ولأنَّ الحذف والإيجاز أدلُّ على سياق التَّهديد والتّرهيب، وقد عبَّر القرآنُ بالكاف دون صريح معنى التَّسوية؛ نظرًا إلى كون المُشبَّه غيبًا بالنِّسبة للمُتلقّين؛ إمعانًا في التَّهويل والتَّفخيم لشأن ذلك اليوم.

نكتةُ اقتصار التَّشبيه على الألف سنة:

اقتصر النَّظم الكريم في التَّسوية على ألف سَنَة وإنْ كان اليوم عنده كما لا نهاية له من العدد لكون الألف مُنتهى العدد دون تكرار[2]، ويحتمل التَّحديد لطول يوم القيامة بألف سنة حصرًا وضبطًا كما مرَّ.

إيثار لفظ ﴿سَنَةٍ﴾ على (عام):

لمّا كان المقصود هُنا التَّطويل عبَّر بـ﴿سَنَةٍ﴾ تنبيهًا عليه لدلالة السَّنة على الشَّدائد[3]، ومع الشَّدائد يثقلُ القليل من الوقت على النَّفس؛ فيُحِسُّ المعذّب بأنَّه كثيرٌ طويلٌ.

توجيهُ المتُشابه في اختلاف مُدد اليوم عند الله:

اختلافُ مُدَدَ اليوم بحسب مَراتبه ومُتعلّقاته

دلّ اليوم في قوله تعالَى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ على أنَّ مِقدارَ اليوم عند اللهِ ألْفُ سنَةٍ، ودلّ في قوله تعالَى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السَّجدة: 5] على أنَّ تدبير الأمر وعروجه إليه ألفُ سنة أيضًا، وقدْ جاءَتْ آيةٌ أخرَى تدُلُّ على خلافِ ذلك، وهي

(1) محمود حمدان، أدوات التَّشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم، ص: 163 - 164.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 234، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 368.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.

قولُه تعالَى في سورةِ المَعارج: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾ [المعارج: 4].

وللجمعِ بيْنَها وجهانِ: الوجهُ **الأوَّلُ:** أنَّ يومَ الألْفِ في سورةِ (السَّجدة) مِقدارُ سَيرِ الأمْرِ وعُروجِه إليه تعالى، ويومَ الألْفِ في سورةِ (الحجِّ) هو أحَدُ الأيّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللّٰهُ فيها السّماوات، ويومَ الخمسينَ ألْفًا في سورة المعارج هو يومُ القيامةِ[1].

والوجهُ الثاني: أنَّ المُرادَ بها جَميعِها يوم القيامةِ، وأنَّ الاختلافَ باعتبارِ حالِ المُؤمنِ والكافرِ، بدليلِ قولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾ [المُدَّثر: 9 - 10][2]، والذي نميل إليه أنَّ يوم الألف يوم القيامة؛ لأنَّه المناسب لاستعجال قيام السّاعة وعذاب الآخرة.

دلالة التَّعبير بالمُضارع المجموع ﴿تَعُدُّونَ﴾:

في العَدِّ والإحصاء لفت إلى حقيقة الخالق والخلْقِ

لَمّا كانت السُّنون قد تختلف قال: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ لأنَّ أيامكم تناسب أوهامكم، وأزمانكم تَناسب شأنكم، وهو حليمٌ لا يستطيل الزَّمان، وقادر لا يخاف الفوت[3]؛ فالسُّنون مُتجدِّدةٌ، والعَدُّ في ذاته مُتجدِّدٌ، ولذا عبّر بـ(المضارع) المُفيد للاستمرار المُتجدِّد ممّا يدلُّ على تعدُّد الأزمنة واختلافها ونسبيتها.

توجيه قراءتَي الخطاب والغيبة في ﴿تَعُدُّونَ﴾:

في القراءتَيْن إحسانٌ للمعنى ولأهل الكفر جميعًا

قرأ الجمهور ﴿تَعُدُّونَ﴾ بالتاء الفوقية، والخطاب في ﴿تَعُدُّونَ﴾ للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين وغيرهم؛ فيكون عامًّا للمُستَعجلين والمؤمنين[4]، وقرأه ابن كثير وحمزة، والكسائيّ ﴿يَعُدُّونَ﴾ بياء الغائبين[5]؛ أيّ:

(1) السُّيوطيّ، الإتقان: 3/ 93.

(2) السُّيوطيّ، الإتقان: 3/ 93، والشِّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 158، والبغويّ، معالم التنزيل: 3/ 345.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.

(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/ 345.

(5) ابن الجزري، النشر: 2/327.

مِمّا يَعُدُّه المشركون المستعجلون بالعذاب[1]، لقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾، فيكونُ فيه التِفاتٌ من الغَيبةِ إلى الخِطاب[2].

وينتجُ عن هاتَيْن القراءتَيْن أن المعنى يتلقّاه أهل الكفر مرَّتَيْن؛ وفي ذلك من التَّرهيب ما فيه، وفيه إحسانٌ إليهم بالمبالغة في تنبيههم على سوء حالهم، وسوء عاقبته يوم القيامة، وينتج عن قراءة الغيبة: ﴿يَعُدُّونَ﴾ قوّة التّماسك بين آخر الآية: ﴿يَعُدُّونَ﴾، وأولها: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾، ولا مانع من جهة السّياق من حمْل قراءة الخطاب: ﴿تَعُدُّونَ﴾ على أنَّه لأهل الكفر خاصة؛ تقريبًا لهم، وإقبالاً عليهم؛ ويُؤيِّد ذلك التّعبيرُ باسم (الرّبّ) مُضافًا إلى كاف الخطاب النَّبويِّ.

براعة ختم الآية بِذِكْرِ العَدَد:

في الختم بذلك ردٌّ للعَجُز على الصَّدر، وللآخِر على الأوَّل

جاءت خاتمة الآية الكريمة بذِكْر العَدِّ في قوله تعالى: ﴿تَعُدُّونَ﴾ لتتوافق وتتناسب مع ذِكْرِ (الألف سنة) المَذكورة في الآية، وكأنَّهم يَعدّون أيضًا الأيامَ ليروا متى سَيَحِلُّ عليهم العذاب المَوعود، ويهزءون بما يعدهم به رسولهم؛ فيرجع آخر الآية إلى أوّلها: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾، ثم إنَّه من المعلوم أنَّ الحِساب يُطلَق على استعمال العدد[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الوَعْد والوعيد:

الوعدُ يكون في الخير والشَّرِّ، والوعيدُ لا يكونُ إلّا في الشَّرِّ خاصَّة

(الوعد) و(الوعيد) أصلُهما (وعدَ)، ويدلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يُقال: وعَدْتُه أعِدُه وعْدًا، ويُستعمل في الخير والشَّرِّ، ويُعدّى بنفسه وبالباء فيُقال: وعَدَه الخيرَ وبالخيرِ، وغلبَ الوعدُ في الخير والإيعادُ في الشَّرِّ، والوعيدُ لا يكون إلّا بِشَرٍّ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 129، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 460.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير: (وعد).

ووعدهُ الأمرَ قالَ له: إنّه يُجريه له، أوْ يُنيله إيّاه، ووعده بالخير: منّاه به، وبالشَّرّ: هدّدَه به[1]، فيُقالُ: وعَدْتُهُ خَيْرًا، ووَعَدْتُهُ شَرًّا، فإذا أسْقَطوا الخَيْرَ والشَّرَّ يكون الوعدُ في الخَيْرِ[2]، فالوعدُ يكونُ في الخير والشَّرِّ، يُقال: وعدتُّه بنفع وضُرٍّ وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، والوعيدُ في الشَّرِّ خاصَّة.

العَدّ والإحصاء:

العَدُّ مُجرَّد ضَمِّ الأعداد، والإحصاءُ عَدٌّ بحفظٍ وإحاطةٍ

العدُّ ضمُّ الأعداد بعضها إلى بعض، يُقال: واحدٌ اثنان ثلاثةٌ أربعةٌ، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ١١٣﴾ [المؤمنون: 113]؛ أيْ: أصحابَ العدد والحساب[3].

والإحْصاءُ: العَدُّ والحفْظ وإحاطَةُ العِلْم باسْتِقْصاءِ العَدَدِ[4]؛ فالإحصاء يكون مع العدِّ الحفظُ والإحاطة، وذلك لأنَّ أصل الإحصاء أنَّ الحاسب إذا بلغ عَقْدًا مُعينًا من عقود الأعداد كالعشرة والمائة والألف وضع حصاةً ليحفظ بها كميَّة ذلك العقد[5]، والعَدُّ ليس بالضَّرورة حِفْظَها في مكانٍ واحدٍ؛ فالإحصاء لا بدَّ أن يكون فيه حفظٌ لما تَعدُّه؛ فهو عدٌّ مع حفظٍ.

أمّا العدّ فهو مجرّد ضمِّ الأعداد دون حفظ، وقد استعمل البيان القرآنيَّ (العدَّ) و(الإحصاءَ)؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ٢٨﴾ [الجنّ: 28]؛ أيْ: أحاط عِلْمُهُ سُبْحانَهُ باسْتيفاءِ عَدَدِ كلِّ شَيْءٍ[6]؛ فهو أخصُّ من العَدِّ، وفيه تدقيقٌ ومعرفةٌ بخصائص الشَّيء وصفاته تفصيلًا بعد عدِّه إجمالًا؛ قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٩٤﴾ [مريم: 94]، وقال: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾ [المجادلة: 6]؛ أيْ: أحاط

(1) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (وعد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّازيّ، مُختار الصّحاح: (وعد).
(3) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (عد).
(4) الصّاحب، المحيط: (حصى)، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث: 1/ 397.
(5) حقّي، روح البيان: 7/ 376.
(6) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 12/ 482.

اللّه به علمًا، وحفِظه كما عَلِمه لم يَفُتْ منه شيءٌ ولم يغب، فقد علم صفات كُلِّ واحدٍ منهم وحالاته وخصائصه إحصاءٍ تفصيليًّا، فضلًا عن عدِّه إجمالًا، وهذا من بديع علْم اللّه ﷻ بخلقه ومن روائع نظمه، وفي هذا المعنى يقول ربنا: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النَّحل: 18]؛ فإن استطعتم عدَّها على سبيل الافتراض لا الواقع - والعدُّ أسهل - فإنّكم لن تستطيعوا إحصاءها قطعًا وجزمًا؛ من حيث الوقوفُ على تفصيل خصائص هذه النِّعمة وفضائلها ودقائقها، فسبحانَ مَن أحكمَ بيانَهُ[1].

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 29/ 60، والمصطفويّ، التَّحقيق في كلمات القرآن: 2/ 238.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾ [الحجّ: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كان اللّه تعالى قد أمهل قريشًا حتَّى استعجلت بالعذاب؛ ذَكَرَ هذه الآيةَ تنبيهًا على أنَّ السّابقين أُمهلوا ثُمَّ أُهلكوا، وأنَّ قريشًا - وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم - فإنَّه لا بُدَّ من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم[1]؛ ففي الآية السّابقة استعجلوا العذاب وتَحَدّوا النَّبي ﷺ أن يأتيهم به قريبًا بعد أن ذَكَرَ لهم اللّه القُرى الّتي أُهلِكت وهي ظالمة، وفي هذه الآية ضَرَبَ لهم الأمثال بمَنْ أملى لهم وأمهلهم من القُرى، وأنَّ ذلك الإمهال قد غرَّهم أو اغتروا به ولم يُفلتوا؛ فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾[2]؛ ففي هذه الآية معنى الجواب عليهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَمۡلَيۡتُ﴾: (ملي) كلمةٌ واحدةٌ، هي الزَّمَنُ الطَّويلُ، وأقامَ مَليًّا؛ أيْ: دهرًا طويلًا، وتمليّتُ الشَّيءَ؛ إذا أقامَ معكَ زمانًا طويلًا[3]، ومنه قيل للمُدَّةِ الطَّويلة مَلاوَةٌ من الدَّهر، ومَليٌّ من الدَّهر[4]، والإملاءُ إفْعالٌ وهو الإمهالُ، وهمزةُ هذا المصدرِ مُنقلبةٌ عن واوٍ، مُشتقٌّ من المِلاوَةِ مُثَلَّثَةِ الميم، وهي مُدَّةُ الحياةِ، يُقالُ: أملاهُ وملّاهُ إذا أمهلَهُ وأخَّرهُ، كلاهُما بالألِفِ دون همزٍ؛ فهو قَريبٌ مِنْ معنى عَمَّرَهُ؛ ولذلكَ يُقالُ في الدُّعاءِ بالحياةِ ملّاكَ اللّهُ[5]؛ والمقصود بالإملاء في الآية: الإمداد في الزَّمن والتَّأخير في العقوبة.

2) ﴿أَخَذۡتُهَا﴾: (أخذ) أصْلٌ واحِدٌ تتفرَّعُ مِنهُ فروعٌ مُتقاربةٌ في المعنَى، فالأصل: حَوْزُ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ملي).
(4) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (ملا).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 191.

الشَّيْءِ وجَبْيُه وجَمْعُه، وهوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[1]، فالأخْذُ تَناوُلُ الشَّيءِ باليَدِ، واستُعمِلَ مجازًا مَشهورًا في الاستيلاءِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ [التَّوْبَة: 5]، وفي القَهْر نحو: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وفي التَّلقّي مثلُ: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81] وفي الاحتِواءِ والإحاطَة، يُقالُ: أخَذَتْه الحُمَّى وأخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، وفي الإهلاكِ، نحو: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة: 10][2]، والمُرادُ بالأخذِ في الآية: الإهلاكُ والقَهر والتَّدمير السَّريع.

3) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: (صير) أَصْلٌ صَحيحٌ، وهو المآلُ والمَرْجِعُ، من ذلكَ: صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصَيْرورَةً، والصِّيرُ كالحَظائِرِ يُتَّخَذُ للبَقَرِ، والواحِدَةُ صيرَةٌ، وسُمّيَتْ بذلِكَ لأنَّها تَصيرُ إلَيْهِ[3]، وصَيرُ الأمْرِ مُنْتهاهُ وما صيرَ إليه، وأنا على صيرٍ مِنْ أمْرِ كذا؛ أيْ: على ناحيةٍ منه، وصَيّورُ الشَّيءِ آخِرُه ومُنْتَهاهُ[4]، والمَصير: المَوْضِعُ الَّذي تَصير إليه المياهُ[5]، والمُراد بالمَصيرِ في الآية: الرُّجوعُ والانتهاءُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إمهالُ الله تعالى الظّالمين يعقبُه العذابُ الأليم

هذه الآية الكريمة مؤكِّدة لما جاءَ في الآية التي قبلها من أنَّه تعالى لا يُخلف وعيده لمَن أصرَّ على كُفره، وأنَّه إن أمهلهم ليتوبوا؛ فلن يُهملهم إن أصرّوا، إذ قال تعالى: وكَثيرٌ مِن القُرى أمهَلْتُ أهلَها، ولم أُعاجِلْهم بالعُقوبةِمع ظُلمِهم بالشِّرك والعِصيانِ، ثُمَّ عاقَبْتُهم في الدُّنيا، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إليَّ فأُعَذِّبُهم فيها أيضًا؛ فلْيَحذَرْ هؤلاء الظّالِمونَ من ذلك، ولا يَغتَرّوا بإمهالِ اللّهِ لهم[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صير).
(4) ابن سِيدَه، المُحكم، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صير).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (صير).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 599، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 78، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 541، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1233.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة وصل هذه الآية بما قبلها:

بيانٌ شاملٌ لتحقيقِ الرَّدِّ على المُستعجلين بالعذاب

عُطف قولُه تعالى ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ على جُملة ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ أو على جملة ﴿وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ باعتبار ما تضمَّنه استعجالُهم بالعذاب من التَّعريض بأنَّهم آيسونَ منه لتأخُّر وقوعه، فذُكِّروا بأنَّ أُمَمًا كثيرةً أُمهلت ثُمَّ حلَّ بها العذاب[1]، والجملة عطفٌ على ما تقدَّمها جيء بها لتحقيق الرَّدِّ[2].

إنَّ لله ﷻ حِسابًا قائمًا على حكمةٍ بالغةٍ

هذا العطف أيضًا بيانٌ شارح لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ والمعنى أنَّ هؤلاء المشركين إن كانوا يستعجلون العذاب، ويشكّون في وُقوعه حين أبطأ عليهم ولم يقع بهم؛ فما ذلك إلّا لأنَّ لهم حسابًا قائمًا على حكمةٍ، وأنَّهم إذا كانوا قد أُمْلِيَ لهم ولم يُؤخَذوا بظلمهم إلى يومهم هذا الذي هم فيه؛ فليس هذا لأنَّهم مُمتنِعون عن الله بقوَّة أو جاهٍ أو سلطانٍ، وإنَّما لأنَّ ذلك هو حُكم الله في عباده، وسُنّتُه في الظّالمين منهم لا يُعجِّل لهم العذاب ولا يُبادرهم به؛ بل يُمهلهم ويُملي لهم، حتَّى يراجعوا أنفسهم ويتدبَّروا أمرهم، وهذا من رحمة الله بهم وفضله عليهم كما يقول سبحانه: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ [النَّحل: 61][3]، وعلى هذا؛ فهذه الآيةُ من تمام ما قبلها؛ لأنها ردٌّ تابعٌ للرّدود السّابقة على ما تضمَّنه قولهم: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾.

دلالة العطف بالواو هنا دون الفاء:

السّياقُ بصيرةُ المُتدبِّر

عُطفت هذه الجملة الكريمة بالواو دون الفاء الواردة في قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 163.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1056.

﴿وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ٤٥﴾ [الحجّ: 45]، والسَّبب في ذلك من وجوهٍ؛
أوَّلُها: أنَّ قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن﴾ تَقَدَّمها جملة معطوفة بالفاء، وهي قوله تعالى: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحجّ: 44]، فوقعت بدلاً عن قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحج: 44]، وهذه تقدَّمتها جملة معطوفة بالواو، فحُكْمها حُكمُ ما تقدّمها من الجملتيْن المعطوفتيْن بالواو، فالعِلَّة هي المُشاكلة في كلٍّ منهما.

والثّاني: عُطِفت الأولى بالفاء المُقتضية للتَّرتيب؛ لأنَّ الجُمَلَ السّابقة عليها لا يمكن وقوعها بعدها بوجه إذ هي إخبار عن الأمم السّالفة، وعُطفت هذه بالواو؛ لأنَّ الجُمل التي قبلها يمكن تقديمُها عليها وتأخيرُها؛ لأنَّ استعجالهم العذاب يمكن الإخبارُ عنه قبل الإخبار عن الإملاء، يكون في القرى وبعده، فيُناسب الإتيان بالواو المُقتضية للجمع، ولا تقتضي التَّرتيب.

والثّالث أنَّ الآية الأولى عُطفت بالفاء المُقتضية للسَّبب؛ لأنَّ إهلاك أهل القرى بسبب إهلاك القُرى[1].

توجيه المُتشابه اللَّفظي بين الآيتيْن 45 و48:

مُناسبة ذِكْر الإهلاك بعد ذِكْر الهالكين وذِكْر الإملاء لمَنْ لم يهلك بعد

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ نظير قولِه آنِفًا: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾ [الحج: 45] الآية، إلّا أنَّ الأولى قُصِد منها كثرةُ الأُمَم التي أُهلِكَتْ؛ لئلّا يُتوهَّمَ من ذِكرِ قومِ نوحٍ ومَن عُطِف عليهم أنَّ الهلاكَ لمْ يَتجاوَزْهم؛ ولذلك اقتُصِر فيها على ذِكرِ الإهلاكِ دون الإمهالِ[2]، حيث ذكَرَ فيها القُرى الَّتي أهْلَكَها دونَ إملاءٍ وتأْخيرٍ، بل أُعقِبَ الإهلاكُ التَّذكيرَ، وهذه الآيةُ لمّا كان تعالى قد أمهَلَ قُريشًا حتَّى استعجَلَتْ بالعذابِ، جاءت بالإهلاكِ بعْدَ الإملاءِ؛ تَنبيهًا على أنَّ قُريشًا وإنْ أملى

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 192.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292، 293.

تعالى لهم وأمْهَلَهم فإنَّه لا بُدَّ مِن عَذابِهم، فلا يَفْرَحوا بتأْخيرِ العَذابِ عنهم[1].

دلالة لفظة (كأيِّن):

الكثرة هو المعنى الظّاهر، وقصد السّـياق هو المعنى الباطن

(كَأيِّنْ) هُنا في ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ كأختها السّابقة ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الحجّ: 45] بمعنى (كم) الخبريَّة الدّالَّة على الكثرة؛ أيْ: (كم من قرية أهلكناها[2]، وكم من قرية أخَّرْتُ إهلاكها مع استمرارها على ظُلمها فاغترَّتْ بذلك التَّأخير، ثم أنزلتُ بها بأسي وشديد انتقامي، وحسابها بعدُ مُدّخَرٌ ليوم الحساب حين لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا مَنْ أتى اللّه بقلبٍ سليم)، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التَّهديد مع تأكيد ما ذكره من عدم إخلاف الوعد وإنْ طال الأمد[3].

سِرُّ تكرار لفظة (كأين) هُنا بعد ذِكْرِها قريبًا:

التَّنويعُ في ذِكْرِ المُمهَلين بعد ذِكْرِ المُهْلَكين من غير إمهال

تكرَّر قوله: (كَأيِّنْ) في هذا الموضع بعد ذِكْرِه في موضعٍ قريبٍ؛ لأنَّه جَلَبَ معنًى آخر؛ حيث ذكر أوَّلًا القرى المُهلكة دون إملاء، ثُمَّ ثنّى ﷺ بالمُمْهَلَة؛ لِئَلّا يفرح هؤلاء بتأخير العذاب عنهم[4]، وفي التّكرار للكثرة رسالة عدم اطمئنان للقوم المُمْهَلين حتى يفيقوا من غفلتهم ويعودوا إلى رُشدِهم.

تنكير لفظ ﴿قَرْيَةٍ﴾:

التَّكثير المُستلزم للتَّهديد والتَّخويف

نُكِّرت ﴿قَرْيَةٍ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ للتَّكثير في عدد القرى الهالكة؛ أيْ: ما أكثر القرى الظّالمة التي أمهلها اللّه[5]؛ ومن المعلوم أنَّ (كأين) لا تُستعمل في القرآن الكريم إلّا مقترنة بـ (من)

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292، 293.
(2) الرُّمّانيّ، معاني الحروف، ص: 6، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 125.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 127، والثّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 129.
(5) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1056.

الدّاخلة على النَّكرة لإفادة العموم والكثرة كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: 146] وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف: 105] وغيرهما، فتلزم (من الاستغراقية) مع النَّكرة؛ لتتضافر هذه المكونات في رسم صورة للكثرة الكاثرة وصولًا إلى تحقيق التَّهديد الملائم للتّكذيب.

سِرُّ حذف المُضاف إلى القرية:

ملاحظة غير العاقلِ دليلُ كمال غفلةِ العاقلِ

حُذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه من قولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾؛ والتّقدير: (وكم من أَهْلِ قَريةٍ)، وأرجَعَ الضَّمائرَ للقرية في: ﴿لَهَا﴾ - ﴿وَهِيَ﴾ - ﴿ظَالِمَةٌ﴾ - ﴿أَخَذْتُهَا﴾ والأحكامَ إليها؛ مُبالَغةً في التَّعميمِ والتَّهويلِ[1]، لينظر الغافل في شمول الإهلاك والتَّدمير كل المكان فيرعوي عن ضلالاته ويفيق من جهالاته وأوهامه، فعَلَّقَ الأخذ بالقرية والمُراد أهلها، وهو مُجاز مُرسل علاقتُه المحليَّة؛ وهو من إطلاق المحلِّ، وإرادة الحالِّ، لأنَّ نِسبته إلى المحلِّ يقتضي شمول جميع ما فيه بحسب ظاهر الحال أو يقتضي شمول الهلاك للحالِّ والمحلِّ جميعًا[2].

دلالة ذِكْر الإملاء قبل الأخذ:

إمهالُ الظالمين قطعٌ لحُجَّة المهلَكين

تَقَدَّم ذِكْرُ الإملاء على الأخذ؛ لأنَّ القصد من هذه الآية التَّذكير بأنَّ تأخير الوعيد لا يقتضي إبطاله؛ فناسب تقدُّم ذِكْر الإمهال والإملاء ثُمَّ الأخذ بعده من حيث أنَّه دخولٌ في القبضة بعد بُعدِه عنها[3]، ولأنَّ الآية خطابٌ لِمَن قضى الله بأن يُمهلهم من أجل نبيِّهم ﷺ ثم إذا شاء أَخَذَهُم.

(1) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 74، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 86.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 292.

كما أفاد تقديمُ الإمهال على الإهلاك أنَّ اللّه حليمٌ صبورٌ على الظّالمين، لا يُعاجلُهم العقوبةَ حتى يَمنحَهم الوقتَ الكافي للتَّفكُّر والاعتبار والنَّظر مع ظلمهم وبَغْيِهم؛ وبذلك يقطعُ عليهم الحُجَّةَ والجدلَ بالإملاء قبل الإهلاك.

دلالةُ الجُملةِ الحاليَّة:

سبحان مَن يُرتِّب على ظلْم العباد إحسانَه إليهم

جُملةُ: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ حاليَّةٌ؛ أيْ: أمليتُ لها وهي في حال ظلم قد أحاط بأعمالها من شركٍ وعُتوٍّ، وكِبْرٍ وفسادٍ في الأرض، فأمهلها سبحانه مع بقاء هذه الحال، ثُمَّ جاءها العذابُ من حيث لا يتوقَّعون بَياتًا أو هُم قائلون، أوْ ضُحًى وهم يلعبون، وهي مُفيدةٌ لكَمالِ حِلْمِه تعالى، ومُشعِرةٌ بطَريقِ التَّعريضِ بظُلْمِ المُستعجِلينَ[1]، وفي تقييد الإملاء بجملة الحال: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: تعظيمٌ لذلك الإملاء، وفي إعادة الضَّمير ﴿وَهِىَ﴾ للقرية إشارةٌ إلى شدَّة الظُّلم المُمارَس من هؤلاء الظّالمين حتى كأنَّ القرية تحولت بما فيها إلى ظلمٍ مُستمرٍّ دائمٍ.

سِرُّ التَّعبير عن الظُّلم بصيغة اسم الفاعل:

استمرارُ الظُّلم وإدمانهم فِعله سببُ الإهلاك

وردت صيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ للدّلالة على استمرارها وإدمانها لفعل الظُّلم من الكُفر والمعاصي حتى اغترَّت بذلك التَّأخير، ثُمَّ أنزلتُ بها بأسي وشديدَ انتقامي[2]، وكانت الجملة الحالية اسميةً للدّلالة على ثبوت صفة الظّلم فيها حتى صارت صفة مُنغرسةً لا تفارق القرية وأهلها.

إيثار العطف بحرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

طولُ الإمهال قد يُغْري الغافلَ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ بالعذاب والنَّكال بعد طول الإملاء والإمهال[3]، فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي ليتناسب التَّراخي مع الإمهال الذي

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 125، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 369.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112.

أملى اللّهُ تعالى به لهم[1]، وفي ذلك التّراخي رسالةُ تهديدٍ لكلِّ الظّالمين الذين يمدُّهم اللّه بطغيانهم يعمهون أنَّ العقوباتِ وإنْ تأخّرتْ فهي كائنةٌ لا محالةَ بهم، وأنَّ طول المُدَّة لا يعني أنّهم يُفلِتون من الجزاء العادل والعذاب المقيم.

دلالة إسناد الأخذ إلى ضمير المتُكلّم:

كمال التَّهديد وشدّة المَحْقِ سُنّة اللهِ تعالى مع الظّالمين

في قوله تعالى: ﴿أَخَذۡتُهَا﴾ أُسند الأخذ إليه سُبحانه، وفيه تهديدٌ شديد لأنَّ الآخذ لهم هو القويُّ الجبّار الذي لا يُفلِت عن قُدرته شيءٌ[2]، فتأتي هذه الجملة الكريمة مؤكِّدةً لما جاء في الآية التي قبلها؛ فاللّه ﷻ يُمهل الظّالمين ويُملي لهم ولا يهملهم، وكثيرٌ من القرى أمهلهم اللّه أمدًا طويلًا بالنّسبة لهم عَلَّهم يثوبون إلى رشدهم أو تتفتح بصائرهم، حتى إذا أَمِنوا مكرَ اللّه واستخفّوا بعذابه؛ أخذهم اللّه أخذَ عزيزٍ مُقتدر[3]، وليتناسبَ مع ﴿أَمۡلَيۡتُ﴾؛ فيكون المُملي نفسَ الآخذ، وأنّه تعالى يفعلُ في مملكته ما يشاء، كما تعلّقَ فعلُ الأخذِ بضمير (القرية) للدّلالة على شدَّة الأخذ للظّالمين الذين لم يُستثنَ منهم أحدٌ حتى المكان الذي حلّوا فيه.

سِرُّ اختيار لفظ الأخذ دون الإهلاك وغيره:

القوّة والشّدّة في الانتقام والتّعذيب

عبَّر النَّظم الكريم بالأخذ دون الإهلاك، وأَخْذُ الشَّيء يتناسب مع قوَّة الآخذ وقُدرته وشدَّة الانتقام بحسب المُنتقِم، فإذا كان الآخذ هو اللّه ﷻ فكيف سيكون أَخْذه؟ فهذا اللَّفظ صريحٌ في أنَّ المُراد هو الأخذ العاجل الشَّديد بعد الإملاء المديد[4]، وفي النَّظْم مجازٌ بعلاقة السَّببيَّة إذ يلزم من أخذ الشَّيء محوه من المكان الدّالّ على عظيم الإهلاك حتى لم يبق منهم أثرٌ في المكان، وإنّما ذكر الأخذ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5001.
(3) عبد الله شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 17/ 3397.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 16/ 9867.

لتلاؤمه وانسجامه مع الإملاء إذْ بينهما ضِدّيَّة؛ فالإملاء والإمهال منحُ المقابل حريّةَ الحركة والبقاء، والأخذُ والتّناول له تقييد حركته بالإهلاك والمحو والإزالة من المكان.

دلالةُ العطف بالواو بعد ذِكْر الإمهال والأخذ:

بقدر الإحسان يكون الغضب

في مجيء قوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ بعد ذِكْر الإمهال والأخذ - معطوفًا على قوله ﴿أَخَذْتُهَا﴾ - إشارةٌ إلى أنّهم إذا لم يُؤخَذوا بظلمهم في هذه الدُّنيا فإنَّهم صائرون إلى اللّه، وسيلقون جزاء الظّالمين يوم القيامة؛ فلا مفرّ لهم ولا مناص من الرّجوع إليه للحساب والعقاب، فإنْ هم أُمهلوا اليوم فليس معنى ذلك أنَّهم نجَوا من العذاب الموعود؛ بل إنَّ في غدٍ عذابًا فوق العذاب وبلاء فوق البلاء، قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٣٣﴾ [القلم: 33][1]؛ فالإمهال فضلٌ من اللّه تعالى، والإهمال لا يكون منه؛ فإنّه يُمهل ولا يُهمل ويدع الظّالم في ظلمه ويمدّ له الحبل ويُطيل به المَهَلة، فيتوهَّم أنَّه يُفلت من قبضة التّقدير حتَّى يأخذَه القويُّ القدير[2].

مـدّةُ الإمـهالِ تـطـول حتـى تستغرقَ حياةَ المُمْهَل

وفي مجيء جملة ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ من بعد الإملاء والأخذ عظيمُ ترغيبٍ وشديدُ ترهيبٍ؛ فأمّا التّرغيبُ فلأنّ مدّة الإمهال تطول حتى تستغرقَ حياةَ الواحد منهم؛ وأمّا التّرهيبُ فلأنّ مَن لم يرجِعْ في تلك المدّة الطّويلة كان عقابُه أعظمَ وجزاؤه أشدّ وأفخمَ.

نكتة تقديم ﴿وَإِلَيَّ﴾ على ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾:

مَن عرَف مآلات الأمور أحسن في بواديها

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ﴾؛ أيْ: إلى حُكمي ومُجازاتي مرجعُ الكُلِّ، لا إلى أحدٍ غيري، لا استقلالاً ولا شركةً، فأفْعَلُ بهم ما أفعل مِمّا يليق بأعمالهم[3]، وتَقديمُ المَجرورِ ﴿وَإِلَيَّ﴾ للحَصرِ الحقيقيِّ؛ أيْ: لا يَصيرُ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1056.
(2) حقّي، روح البيان: 6/ 47.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 18/ 369.

النّاسُ إلّا إلى اللّهِ، وهو يَقْتضي أنَّ المصيرَ إليه كائنٌ لا مَحالةَ؛ فهو كِنايةٌ عن عدَمِ الإفلاتِ[1]، ووراءَ ذلك من المعنى تفخيمُ ما سيلقون من عقاب؛ لتمكُّنه ﷻ منهم تمام التَّمكُّن؛ إذ هم راجعونَ إليه هو وحدَه لا محالة؛ فله كمالُ اقتدارٍ عليهم.

بلاغةُ المجاز في التَّعبير بالمصدر الميميّ ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

الـدَّلالـةُ على حصول الرُّجوع ومُكْنَتِهِ

﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ مصدرٌ ميميٌّ لـ(صار) بمعنى: رجع؛ وهو رُجوع مجازيٌّ بطريق المجاز المُرسل بمعنى الحصول في المُكْنَة[2]، فالرجوعُ إلى اللّه تعالى لا يكونُ بالذَّهاب إلى مكانٍ لتنزُّهه عن الحصول المكانيِّ؛ وإنّما بالحصول في المكان والاجتماع في مكان الحساب، وإنَّما عبّر عن الحصول في مكان الحساب بالرّجوع إلى اللّه تعالى؛ لأنّ ذلك المكان هو الذي أعدّه اللّه تعالى ليُحاسِبَهم على أعمالهم فيه؛ فكأنّه رجوعٌ إليه ﷻ.

دلالةُ التَّعريف في لفظة ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

بيان شمول المآل للخلق أجمعين

يدلُّ التَّعْريفُ في المصدر ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ على الاسْتِغْراقِ أيضًا لنيابته عن (الناس)؛ أيْ: مَصيرُ النّاسِ كُلِّهِمْ، فهي لفظةٌ عامَّةٌ شاملةٌ لمآلِ العبادِ جميعًا وإن كان الوعيد في الآية لأهل الكفر.

سِرُّ الاعتراض التَّذييليّ:

من كمال الإحسان التّذكيرُ بأنّ إليه مصيرهم ولإثارة مخاوفهم

قولُه تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لما قبْلَه، ومُصرِّحٌ بما أفادهُ ذلك بطَريقِ التَّعريضِ من أنَّ مآلَ أمرِ المُستعجِلينَ أيضًا ما ذُكِرَ من الأخْذِ الوَبيلِ[3]؛ فهي جملةٌ تذييليَّة ذُكرت لتقرير ما قبلها؛ والمعنى: (وكم من قريةٍ أخّرتُ إهلاكها مع استمرارها على ظُلمها، فاغترَّت بذلك التَّأخير، ثم أنزلتُ بها بأسي وشديد انتقامي وحسابها بَعْدُ مدَّخرٌ ليوم الحساب، يوم لا ينفع مالٌ ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 293.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 293.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 293.

بنون إلّا مَن أتى اللّه بقلب سليم)، ولا يخفى ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التَّهديد[1]، ورسالة إحسان للأحياء منهم أن ينتهزوا الفرصة بالرجوع والإنابة والاستغفار والتوبة؛ لأنّ مَن علم أنَّ مصيره إلى اللّه ورجوعَه إليه لا محالة فكَّر بالجزاء على الظُّلم فارتدع وبالحساب للظالمين فانزجر.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المصير والمآب والمرجِع:

المصيــر المــآل، والمــآب الرُّجـوع إلــى المستـقَرّ، والرُّجوع تحوّلٌ إلى العكس

المصير: يدلُّ على التَّحول إلى غاية أو مَجْمَع؛ ليكون المآل والمُنتهى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة: 285]، وقد ورد في القرآن الكريم ثمانيَ وعشرين مرَّةً، وورد مرّةً واحدةً بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشّورى: 53]، والمآب: رجوع الشّيء إلى مُستَقَرِّه كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النَّبأ: 21 - 22]، والمرجع: مصدرٌ ميميٌّ أو اسم زمانٍ، والرُّجوع هو العود إلى ما كان منه البدء، والرَّجْع: تحوّلٌ عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه - كما يتردَّد الماء في الغدير؛ لأنَّه مُحتبس فيه لا يَسترسل بعيدًا، وكلُّ ما في القرآن من (تُرْجع، تُرْجَعون، يُرْجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم)؛ فهي إلى اللّه ﷻ[2].

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرُّوح والرَّيحان: 18/ 369.
(2) مُحمَّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (صير)، (أوب)، (رجع).

﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾ [الحجّ: 49]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

لَمّا كان الاستِعجالُ بالأفعال لا يُطلَبُ مِنَ الرَّسولِ وإنَّما يُطلَبُ مِنَ المُرسِلِ، وكان الإخبار باستهزائهم وشِدَّة عَماهُم ربُّما أفْهَمَ الإذن في الإعراض عنهم أصلًا ورأسًا؛ أمَرَه اللّهُ تعالى بأن يُديمَ لهم التَّخويفَ والإنذارَ بقولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذِيرٞ﴾: (نذر) أصْلٌ يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ؛ ومنه الإنْذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنّ التّبشير إخبارٌ فيه سرورٌ، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ من شَرٍّ يُتَوَقَّعُ، ويقع على كلِّ شيءٍ فيه إنذارٌ إنسانًا كان أو غيرَهُ[2]، والجَمْعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[3]، والمُرادُ بالنَّذيرِ في الآية: المُحَذِّرُ من شَيءٍ يَضُرُّ[4].

2) ﴿مُّبِينٞ﴾: (بين) أصْلٌ واحِدٌ، وأصلُ الكلمةِ من (البَيْن)، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ؛ فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيونُ البِئْرُ البعيدَةُ القَعْرِ، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ[5]، وسُمّيَ الكلامُ بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، وسُمّيَ ما يُشرح به المُجمَل والمُبهَم من الكلام بيانًا، ويُقال: بَيَّنْتُهُ وأبَنْتُهُ: إذا جعلتَ له بيانًا يكشفُه[6]، والمقصودُ بالمُبِينِ في الآية: المُفْصِحُ المُوَضِّحُ؛ أيْ: مُبِينٌ للإنْذارِ بما لا إيهامَ فيهِ ولا مُصانَعَةَ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قُلْ يا مُحَمَّدُ: يا أيُّها المُشركون المُستعجِلونَ مجيءَ العذاب استهزاءً بي وبرسالتي

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67، والخطيب الشِّربينيّ، تفسير السِّراج المنير: 2/ 558.
(2) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (نذر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (نذر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(6) الرّاغب، المُفردات: (بان).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 10.

وظيفةُ الرسول ﷺ الإنذار والتوضيح

إنَّما أنا لكم نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللّهِ ﷻ، ولا أملِكُ تَعجيلَ العَذابِ عن وقتِه ولا تأخيرَه؛ إذ له وقتٌ معلومٌ، وليس عليَّ حِسابُكم؛ فحسابكم على اللّه الذي بيده مقاليد الأمور[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ بفعلِ الأمر ﴿قُلۡ﴾:

بيانُ عظيمِ خطئهم في طلب استعجال العذابِ من الرَّسول ﷺ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ جاء بعد المواعظ السّالفة والإنذارات؛ فأبان لهم عظيمَ خطئهم في طلب استعجال العذابِ من الرَّسول، والمعنى: قُل يا أيُّها المُشركون المستعجلونَ مجيءَ العذاب ليس ذلك إليَّ، وإنَّما أرسلني ربِّي نذيرًا لكم بَيۡنَ يَدَي عذابٍ شديد، وليس إليَّ من حسابكم مِن شيء؛ بل أمْرُ ذلك إلى اللّه إنْ شاء عجَّل لكم العذابَ، وإن شاء أخَّرَهُ عنكم، وإن شاء تابَ على مَنۡ يتوبُ ويُنيبُ إليه[2].

وظيفةُ الرَّسول هي الإيضاح والإنذار والتَّخويفُ من غضب الله

وهذه الآية ناظرةٌ إلى قوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾؛ وكأنَّ في هذه الجملة سَمْتَ الجمل الأمّهات؛ لأنَّ ما بعدها إلى هذه الآية مُتعلِّقٌ بها وتفصيلٌ لتوابعها، ولمّا كان الاستعجالُ في الآية للرَّسول ﷺ كما يُفصِح عنه ضميرُ المخاطَب في ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ﴾؛ فقد بيّن لهم وظيفتَه الأصليّةَ وهي الإنذار والإيضاح والتّخويفُ من غضب اللّه فحسبُ.

بديعُ الالتفاتِ من التَّكلُّم إلى الخِطابِ:

توكيدُ الإنذارِ الواردِ في الآيةِ السّابقةِ

بعد ذِكرِ مصارعِ الغابرين وبيان سُنَّة اللّه في المُكذِّبين في الآية السّابقة التي وردت بصيغ المُتكلِّم: ﴿أَمۡلَيۡتُ لَهَا﴾ ﴿أَخَذۡتُهَا﴾ ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يلتفت السّياق بالخِطاب إلى رسول اللّه ﷺ - تطرية

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 600، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 441، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 126.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 126.

للسّامع وتنشيطًا للمُخاطَب وفاعليةً في النّصّ - لينذر النّاس، ويُبيّن لهم ما ينتظرهم من مصيرٍ مُخيفٍ، ويُمَحِّض السّياق وظيفةَ الرّسول ﷺ في هذا المقام للإنذار؛ أيْ: أخبِرْ أيُّها الرّسول قومك أنَّ مهمتك هي تبليغ الرِّسالة إليهم، وتحذيرهم من عقاب ربِّهم، وليس من مُهمَّة الرَّسول تحديدُ العذاب الذي يُصيب المُكَذِّبين؛ فذلك إلى اللّه وحدَه[1]؛ ففي هذا الالتفات توكيدٌ للإنذار السّابق الذي أُنذِر به المشركون من وقوع العذاب بهم، إذا هم لم يستجيبوا للّه وللرَّسول[2].

سِرُّ الافتتاحِ بفعلِ القولِ:

الاهتمامُ بالخطاب وتعظيم شأنه

اُفتِتح هذا الخطاب الكريم من الرَّبِّ العظيم بـ ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتمام به وتعظيم شأن هذا الخطاب الشَّريف[3]، ولبيان أنَّ وظيفة النَّبيّ هي حمل الرّسالة وتأديتها كما هي من دون تغييرٍ ولا تبديل، فهو يأمر وينهى بما يُقال له بلفظ (القول) الذي يوحَى إليه من ربه.

غرض توجيه النِّداء بـ(يا) في هذا المقولِ:

لفتُ انتباه المُخاطَبين إلى الكلام

في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ افتتاحٌ للمقول بنداء النّاس؛ وذلك لِلَفْت ألبابهم إلى الكلام[4]، وكان بحرف النداء (يا) التي تُستعمل في الأصل للبعيد؛ لأنَّ هذا النّداء لا يختصُّ بالمخاطَبين في زمنه ﷺ؛ بل هو عامٌّ لجميع الخلق إلى يوم القيامة، فكان النّداء به للحاضرين القريبين والبعيدين عنه زمانًا ومكانًا.

سِرُّ نداء النَّكرة المقصودة (أيّ):

أيُّ غفلةٍ يكون فيها المُسيء إلى جناب النَّبيِّ ﷺ؟!

(أيّ) منادى؛ وهي نكرةٌ مقصودةٌ مبنيّةٌ على الضَّمِّ في محلِّ نصب على النِّداء[5]، والغرض من خطابهم إعلامُهم بأنَّ تكذيبهم

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 17/ 3397.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1058.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 293، 294.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 293.
(5) الدَّعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/ 315.

واستهزاءهم لا يغيظ النَّبيَّ ﷺ ولا يَصُدُّه عن أداء رسالته؛ ففي ذلك قمعٌ لهم إذ كانوا يحسبون أنَّهم بتكذيبهم واستهزائهم يَمَلّونه فيترك دعوتهم[1]، ونلمح في النِّداء بأسلوب (أيّ) دلالة الاحترام للمُخاطَبين، فلم يَقُلْ (يا ناسُ) ويجعلهم المُنادَى مباشرةً؛ وإنَّما أتى بوصلةٍ يُتوصّل بها إلى ندائهم، فهم لا يُخاطَبون مباشرةً، كذلك فيه الإشارة إلى إيقاظ الغافلين ودعوتهم للاهتمام بالمقول.

دلالةُ تعريفِ لفظةِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

في تعريفها تعريفٌ بعالميةِ رسالتِه ﷺ

الخطاب في ﴿ٱلنَّاسُ﴾ للنّاس كافّةً، وللمشركين من أهل مكَّة خاصَّة[2]؛ فمعنى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميعًا من قومي وغيرهم[3]؛ وهو بيانٌ عامٌّ للنّاس جميعًا؛ لكنَّه في حقيقته بيانٌ خاصٌّ لِكُلِّ ضالٍّ غويٍّ، ثُمَّ هو إنذارٌ في مواجهة هؤلاء المُشركين يصرخ في وجوههم ويَصُكُّ أسماعَهم[4]، وأفادت (أل) الاستغراقية عالميّةَ هذه الدّعوة وشمولَها لكلِّ البشريّة؛ لأنّها تحملُ رسالة السَّماء للناس جميعًا، وما ينبغي أن يَستعدّوا له من لقاء الله ومحاسبتهم على ما يبدرُ منهم من قولٍ أوْ فعلٍ.

بلاغةُ القصرِ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾:

الاقـتـصـار على الـنّـذارة مقابل طلب العذاب

في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٌ﴾ قَصْرُ النَّبيِّ ﷺ على صِفَةِ النِّذارةِ؛ أيْ: (لسْتُ طالِبًا نِكايَتَكم، ولا تَزلُّفًا إليكم؛ فمَن آمَن فلِنفْسِه، ومَن عَمِيَ فعليها)[5].

وجيء بالقصر هُنا لأنَّهم طلبوا استعجال العذاب من الرسول، ولضلالهم البعيد، ولاستمكان الغفلة عن الحقِّ في قلوبهم، يقولون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 293.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5002.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1058.
(5) أبو حيّان: 7/ 524، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.

للنَّبيّ ﷺ: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾ [الأعراف: 70]، فيقول لهم النَّبيُّ ﷺ بأمر ربِّه: (إنَّ عملي فيكم، ورسالتي إليكم، تكمنُ في أنّي نذيرٌ موضِّح مُبيِّن لكم الحقَّ والشَّريعة، وأمّا العذابُ فأمره إلى الله تعالى وحده، وكذلك الثَّواب والعقاب إليه وحده، وكلُّ امرئٍ بما كسب)[1]؛ فهو قصر إضافيٌّ بالنِّسبة إلى تعجيل العقوبة؛ أيْ: أنا مقصور على الإنذار لا أقدر على تعجيل العذاب وإن كُنْتُ مُبَشِّرًا أيضًا[2].

الرَّسولُ بَشَرٌ لا يملِكُ إنزالَ العذابِ ولا كشفَه

ويُحمَلُ القصرُ بـ﴿إِنَّمَآ﴾ على تنبيه السّامع إلى أمرٍ فاته وتوعيته بقضيةٍ غابت عنه، وهي بشريّةُ الرّسول ﷺ التي لا تتحكّم في حكمةِ الله بنزول العذاب عاجلاً أو آجلاً، حتى يعودوا لرشدهم فلا يطلبوا منه أمورًا لا تخضعُ لوظيفته من الإنذار والبيان وتبليغ الرسالة.

بلاغةُ تقديم شِبْهِ الجُملة ﴿لَكُمۡ﴾ واختيار (اللّام):

الرَّحمة في طَبْعِه ﷺ

في تقديم المجرور ﴿لَكُمۡ﴾ إيذانٌ بالاهتمام بنذارتهم، وإيماءٌ إلى أنَّهم مُشرِفون على شَرٍّ عظيم؛ فهم أحرياء بالنَّذارة[3]، وفيه أنَّه ﷺ يخاف عليهم؛ فهو حريصٌ كلَّ الحرص على نجاتهم؛ ويُؤنس بهذا قولُه في السّباق: ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ﴾، وفي التَّعدية باللّام دون (إلى) لبيان أنّهم الغرض الأصيل له وموطن العلّة في الإنذار والبيان، وما الإنذار والبيان إلّا من أجلكم ولمصلحتكم.

نكتة الاقتصارِ على الإنذار دون التَّبشير في الآية:

كيف يُذكر أنه بشيرٌ؛ وقد قيل من قبل: (عند ربك)؟!

الإنذار هو التَّخويف مع الإعلام بالمُخوف، وذلك لأنَّه أقام البراهين السّاطعة على صدق ما أنذرهم به[4]، وعبَّرَ بقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ ولم يقُلْ: (إنّما أنا لكم بَشيرٌ ونَذيرٌ) مع أنَّه ذكَرَ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5002.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 89.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.
(4) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمان، ص: 638.

الفريقيْن بعْدَهُ؛ لأنَّ الحديثَ مَسوقٌ إلى المُشركينَ؛ فصدرُ الكلام ومساقُه للمشركين، وهم الَّذين قيلَ فيهم: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحج: 46]، ووُصِفوا بالاستعجالِ، وإنَّما ذُكِرَ المُؤمنون بعد ذلك وما أعَدَّ اللهُ لهم من الثَّوابِ؛ ليُغاظَ المُشرِكون بذلك تبعًا، وليُحرِّضَهم على نَيلِ هذه الرُّتبةِ الجليلةِ، **ومنها**: أنَّ فيه اكتفاءً، والتَّقديرُ: (بَشيرٌ ونَذيرٌ)[1]؛ وإنَّما طوى ذِكْرَ التَّبشير لأنَّ المقام للتَّخويف، ويلزم منه الأمن للمُنتهي فتأتي البشارة[2].

صيغةُ المبالغةِ قـد تُـقـارب الحـقـيـقـةَ ولا تُطابقها

نُكتةُ العدول عن (مُفعِل) إلى فعيل في: ﴿نَذِيرٌ﴾ دون ﴿مُّبِينٌ﴾:

﴿نَذِيرٌ﴾ مِمّا جاءَ فيه (فَعيلٌ) في مَوْضِعِ (مُفْعِلٍ) لإفادة المُبالغة، مِثْلُ الحَكيم، بِمَعْنَى: المُحْكِم، لبذل الوسع في الإنذار، فذلك الإنذار لا بدَّ أن يكون مُحقَّقًا، كيف والإنذار إنَّما يَتِمُّ بالإيفاء بما يترتَّب عليه[3]، وأمّا لفظ ﴿مُّبِينٌ﴾ فهو اسْمُ فاعِلٍ من أبانَ المتعدّيَة إذا أوضح[4]، وليس على صيغة مبالغة؛ والمعنى: (موضِّحٌ لكم ما تحذرون أو موضّح النِّذارةَ لا تلجلُجَ فيها)[5]؛ فالتَّعبير بهذه الكلمة بهذه الصّيغة دون كلمة (مبين) للإشارة إلى شِدَّة البيان والمُبالغة في الانكشاف، فهو إنذارٌ مُبينٌ واضحٌ بما معه من الأدلَّة القاطعة والآيات النّاطقة[6] بحيث إنَّها كالنّور ظاهرةٌ ومُنكشفةٌ في نفسها ومُظهِرة لأنفسها ولغيرها[7].

لا يـهـلِـكُ بعد كـمـال نـبـيّـنـا في دعوته إلّا هالكٌ

التَّقييد بالوصف ﴿مُّبِينٌ﴾، ووقوعه عقب الإخبار بالإنذار:

﴿مُّبِينٌ﴾ هو المُفصِح الموضِّح؛ أي مبينٌ للإنذار بما لا إيهام فيه ولا

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 164، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 75، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 112، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 529.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.
(3) المهائميّ، تبصير الرَّحمن: 2/ 49.
(4) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 281.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523.
(6) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1058.
(7) المُصطفويّ، التَّحقيق: 1/ 368.

مصانعة[1]، وهذا بناءً على أنا ﴿مُّبِينٌ﴾ وصف لـ﴿نَذِيرٌ﴾، ووقوع هذا الوصف عقب الإخبار بـ﴿نَذِيرٌ﴾ يقتضي أنَّه وصفٌ للخبر؛ فالمعنى أنَّه النَّذير المُبين لنذارته، بحيث لا يُغادر شَكًّا في صدقه، ولا في تصوير الحال المُحذّر منها؛ فالغرض من إتباع (النَّذير) بوصف (المُبين) التَّعريضُ بالذين لم ينصاعوا لنذارته، ولم يأخذوا حذرهم من شرِّ ما حذَّرهم منه، وذلك يقطع عُذرهم، كما تَسَبَّب عن كونه مُبينًا العلمُ بأنَّ وصف البشارة مُرادٌ وإن طوي[2]، كما أفاد الوصفُ بيانَ إتمام الحُجَّة عليهم، إذ لم يخالطِ الإنذارَ شيءٌ من الغموض والإبهام.

سِرُّ حذف المفعول بعد اسم الفاعل:

أيُّ حرص كان من نبيِّنا على نجاة أمته؟!

المفعولُ محذوفٌ للتَّعميم بناءً على أنَّه خبرٌ ثان للمبتدأ ﴿أَنَا۠﴾؛ والمعنى: مُبين لكم في إنذاري كُلَّ ما ينفعكم وما يضرُّكم لتَجتلبوا النَّفع، وتجتنبوا الضُّر[3]، فحذفُ المفعول تقريرٌ لكمال الإبانة وعمومها بحيث لا تترك صغيرةً ولا كبيرةً إلّا وأوضحَتْها وأزالَتِ الخفاءَ عنها.

سِرُّ خَتْمِ الآيةِ بلفظ ﴿مُّبِينٌ﴾ بدل غيره:

في عَجُز كلِّ آيةٍ تهيئةٌ لما بعدها

نلاحظ هُنا دِقَّة النَّظم في اختيار لفظة ﴿مُّبِينٌ﴾ حيث إنَّ (البَيْن) يَدُلُّ على الخلالة بَيْنَ الشَّيئَيْن وإظهار طرفهما ووسطهما بلا لبسٍ، بل يُزال الاستتار وينكشف ويظهر كُلٌّ على حِدة، وينكشف ما استتر بهما، وهذا يتلاءم مع إظهار الحَقِّ والباطل، والكفر والإيمان، والخير والشَّرّ؛ فكلاهما مُظهرٌ لهم مُبيّن، وهم يختارون الطَّريق القويم فلا حُجَّة لهم بعد ذلك[4]، وهذا البَيْنُ أيضًا تمهيدٌ لذِكْر الفريقَيْن بعده من أهل الإيمان وأهل الكفّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 67.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 281.
(4) الرّاغب، المُفردات: (بين).

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾

[الحج: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أمر الله تعالى الرَّسول ﷺ بأن يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ أردَفَ ذلك بأنْ أمَرَه بوَعْدِهم ووَعيدِهم؛ لأنَّ الرَّسولَ إنَّما يكونُ مُنذِرًا بذِكْرِ الوَعدِ للمُطيعينَ، والوَعيدِ للعاصينَ[1]، وينقسمُ المدعوون إزاءَه إلى فريقَيْن؛ فريقٌ يُذعِنُ للإنذار وفريقٌ يَضِلُّ عن سواء الطَّريق.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: (صلح) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلَحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[2]، ورجُلٌ صالِحٌ في نَفْسِهِ ومُصلِحٌ في أعمالِهِ وأمورِهِ[3]، والصَّلاحُ: اسْتِقامَةُ الأعمالِ وطَهارَةُ النَّفْسِ[4]، والصّالحاتُ جَمْعُ صالحةٍ، وهي الفِعْلَةُ الحَسَنَةُ؛ فأصْلُها صِفَةٌ جَرَتْ مَجْرى الأسماءِ في إيلائها العوامل[5]، والمُراد بها في الآية: الأعمال التي تُرضي الله ﷻ لمتابعتها الشَّريعة المُحمَّديَّة.

2) ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على التَّغْطِيَةِ والسَّتْرِ، ومنه الغَفر والمَغفرة، يُقالُ: غَفَرَ اللهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا؛ أيْ: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنها[6]، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ من الله هو أنْ يصونَ العبدَ من أن يمسَّه العذابُ[7]؛ وعليه؛ فالمُراد بالـ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ في الآية: سترُ الذُّنوب بعدم الحساب عليها؛ أيْ: غُفْرانُ ما قدَّموه من الشِّرْك وما يَتْبَعُهُ من شرائع الشِّرْكِ وضلالاته ومفاسده[8].

3) ﴿وَرِزۡقٞ﴾: (رزق) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه غَيرُ المَوْقوتِ،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 235، والخازن، لباب التَّأويل: 3/ 260.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 247.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 1/ 80.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(7) الرّاغب، المُفردات: (غفر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.

فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّهِ جَلَّ ثَناؤُهُ[1]، وهو كُلُّ ما يُنْتَفَعُ به من مالٍ ونَحْوِه، والجَمْعُ: أرْزاقٌ[2]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[3]، والرَّزْق بِفَتْحِ الرّاءِ: العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا؛ أيْ: أعْطَى ووَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطي وهوَ اللّهُ[4]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ ويُتَغَذَّى به فهوَ رِزْقٌ، ومِنْ مَعاني الرِّزْقِ أيْضًا: الكَسْبُ، والهِبَةُ، والصَّدَقَةُ[5]، والمقصودُ بالرِّزق في الآية: العطاء.

4) ﴿كَرِيمٌ﴾: (كرم) أَصْلُ الكَرَم: شَرَفُ الشَّيءِ، يُقالُ: كَرُمَ الشَّيءُ يَكْرُمُ كَرَمًا؛ أيْ: شَرُفَ، ورَجُلٌ كَريمٌ؛ أيْ: شَريفٌ ذو فضائِلَ[6]، والإكْرامُ والتَّكْريمُ: أن يوصَلَ إلى الإنسان إكرامٌ؛ أيْ: نَفْعٌ لا يلحُقه فيه غَضاضَة، أوْ أن يُجعَلَ ما يوصَلُ إليه شيئًا كَريمًا؛ أيْ: شريفًا[7]، والكَريمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: النَّفيسُ الفائِقُ في صِنْفِه[8]، ووَصْفُ الرِّزْق بالكريم في الآية يَجْمَعُ وفْرَتَهُ وصفاءَهُ مِنَ المُكدِّراتِ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المغفرةُ تُنبئ عن رضا الله تعالى عليهم، وهي بذاتها جزاءٌ

يخبر اللّه تعالى بأنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالِحةَ؛ لهم منه سبحانه سَترٌ لذُنوبِهم، وتَجاوُزٌ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزْقٌ حَسَنٌ في الجنَّة يفوقُ وصفَ الواصفين ومقالَ المادحين، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف: 71][10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(2) ابن دُريد، جمهرة اللّغة، والجوهريُّ، الصّحاح: (رزق).
(3) ابن عبّاد، المُحيط في اللّغة: (رزق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رزق).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رزق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرم).
(7) الرّاغب، المُفردات، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 344.
(8) الأزهريُّ، تهذيب اللّغة: (كرم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 600، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 128، والشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 281، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 126.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالفاءِ التَّفريعيَّة أو الفصيحة:

الإحسان الظّاهر واللّطيف

تحتمل الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ العطفَ الدّالَّ على التَّفريع المُسَبَّب عن هذا القول الذي جاء به النَّذير المُبين إذِ النّاس مع هذا الإنذار، بين مُلتفتٍ إليه مُستفيدٍ منه آخذٍ طريقَ النَّجاة، وبَيْنَ ذاهلٍ عنه، أو مُستخفٍّ به، أو مُكذِّب له[1]؛ ففرَّعَ على الأَمْرِ بالقولِ تَقْسيمَ النّاسِ في تَلقّي هذا الإنذارِ إلى مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ؛ لِبَيانِ حالِ كِلا الفريقَيْنِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ تَرغيبًا في الحالةِ الحُسْنى، وتَحذيرًا مِن الحالةِ السّوأى[2]، ففَصَّل ذلك الإنذار بذِكْر الوعد للمُتَّقين والوعيد للكافرين[3]، وتحتمل الفاء أيضًا الإفصاحَ عن شرطٍ مُقدَّرٍ يَتبيَّن من الآية السّابقة؛ ومعناه: إنْ علمتم أنّي لكم نذيرٌ مُبينٌ فقط، فإمّا أن تُطيعوا فتكونوا مؤمنين؛ وإمّا أن تعصوا فتكفروا بآيات اللّٰه تعالى ونعمه[4].

وحملُ الفاءِ على أنّها الفاء الفصيحة أَوْلى سياقًا؛ نظرًا لما يترتَّبُ عليها من إطنابٍ وتفصيلٍ؛ يدلُّ على التَّقريب والتَّرغيب، وينطوي على أمل في الاهتداء؛ نظرًا إلى سياق الإحسان في قوله في السِّباق: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ﴾، ويُؤنس بذلك نظمُ حال كلِّ فريقٍ مِن الذين آمنوا والذين سعَوا في آيات اللّٰه مُعاجزين في آية مستقلة؛ وذلك لكمال الاهتمام بالمخاطبين إحسانًا إليهم.

سِرُّ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل (المؤمنين):

الجمع بين الإيمان والعمل الصّالح يُفضيان إلى كلِّ خير ويُنجيان من كلِّ شَرٍّ

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الّذين جمعوا بَيْنَ الإيمان والعمل الصّالح المُفضِيَيْن إلى كلِّ خير المُنْجِيَيْنِ عن كلِّ

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1058.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 126.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5002.

شَرٍّ، وعبَّر النَّظمُ الكريم بالاسم الموصول ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون المعرف بـ(أل) (المؤمنين) لعدة أمور؛ أوّلها التَّركيزُ على الصِّلة وأهمّيَّتها والتَّرغيبِ فيها؛ وهي الإيمانُ وعملُ الصّالحات التي هي أعظمُ صفاتِ المُؤمنين؛ ليكونَ أدعى للسّامعين على أنْ يتحلَّوا بها؛ لينالوا البشارةَ التي أخبرهم بها اللّه سُبحانه؛ لأنَّها محلٌّ أن يُعرفوا ويُشهروا بها، وثانيها التَّنويهِ بأهميَّة الاسمِ الموصولِ وتفخيمِه وتعظيمِه وعمومه، بما يدلُّ على كثرةِ الدّاخلين تحتَ هذه البشارة، وثالثها بيانُ العِلّيَّة والسَّببيَّة، والإيماء إلى وجه بناء الخبر؛ وهو أنَّ استحقاقهم الرِّزقَ الكريمَ بسبب إيمانهم وعملهم الصّالحات.

نكتةُ الإتيان بالصِّلة فعلًا ماضيًا:

الـثّـبـاتُ على الإيــمـــان والصّالحات أوّلُ درجات الكمال

جيء في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالصِّلة فعلًا ماضيًا معطوفًا عليها فعلًا ماضيًا أيضًا؛ وهما: ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَعَمِلُواْ﴾ لإفادة الثُّبوت والتَّحقُّق حثًّا للمُخاطَبين على تحقيق إيمانهم والثَّبات عليه، وعلى أداء العمل الصّالح.

نكتةُ الإيجازِ بحذفِ مُتعلِّقِ الإيمانِ:

مـن شـأن نبيِّنا أن يَـطـلُـبَ لنا الـكـمـالَ في الإيمان

حُذِفَ مُتعلِّقُ الإيمان في قوله سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيجازًا، فلم يذكر بماذا آمنوا؛ للعِلْم به؛ فإنَّ مُتعلِّق الإيمان كان معروفًا عند المُخاطَبين، ولقصد إفادة العموم؛ أيْ: آمنوا بجميع ما يجبُ الإيمانُ به؛ لأنَّ حذفَ المُتعلَّق مُؤذِنٌ بالعموم، والحملُ على العموم أبَرُّ بسياق حرص نبيِّنا على كمال أفراد أمَّته في باب الإيمان؛ وفي السِّباق قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، وهو مؤيِّدٌ لهذا الفهم، ولبيان أنَّ الإيمانَ الحقيقيَّ هو المذكور، وما عداه من التّصديقات المُنحرفة لا يُسمَّى إيمانًا أصلًا.

سِرُّ الإطناب بعطف العمل الصّالح على الإيمان:

مـن الـضـروري أن يـكـون بعد التّخلية تحليةٌ

العطفُ بذِكر العمل الصّالح على الإيمان يقتضي التَّأكيد، وهو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ العمل من الإيمان على رأي

جماعة من العلماء، فذُكِرَ العملُ اهتمامًا بفضيلته وعنايةً به، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: 238]، فقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ تدخلُ فيه الصَّلاة الوسطى، لكنْ لأهميَّة الصَّلاة الوسطى خصَّها بالذِّكر فعطفَها؛ فهذا النَّوعُ من العطف ليس للمغايرة كما هو رأي جماعة آخرين من أهل العلم، وإنَّما هو من زيادة الاهتمام بالمعطوف عليه؛ فالعمل له دور كبير في زيادة الإيمان؛ لأنَّ الإيمان بدون عمل لا يُعَدُّ إيمانًا كاملاً، إذِ العمل داخلٌ في مسمَّى الإيمان الكامل وحقيقته الشَّرعية، والنُّكتة في عطف الخاصّ على العامّ التّنبيه على شرف العمل الصّالح بذكره مرتيْن؛ الأولى: مُندرجًا تحت لفظ الإيمان، والأخرى: مُنفردًا[1]، وإنَّما أرشدهم الله تعالى إلى عمل الصّالحات؛ ليُمكِّن الإيمانَ في قلوبهم بها؛ لأنهم لمّا جاءتهم الدَّعوة الإسلاميّة عملوا السّيئات من التَّكذيب والجحود، ومن الإيذاء باليد واللِّسان؛ فأراد لهم الله التَّحليةَ بعد التَّخلية.

التَّجرُّد إحسانٌ، والإرشادُ إليه إحسانٌ فوقه

دلالةُ حذف الموصوف في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

في قول الله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحذف؛ إذ إنَّ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف، والتقدير: (وعملوا الأعمالَ الصّالحات)، والقرينةُ على تعيين المحذوف هو الفعلُ ﴿وَعَمِلُواْ﴾، فاكتُفي بالقرينة عن التصريح بالموصوف؛ اقتصادًا في اللّفظ وإيجازًا[2].

العمل الصّالح هو الجامع للإخلاص والمتّابعة

دلالة التَّعريف باللّام في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُراد بها تعريف الجنس؛ وذلك أنَّ العمل الصّالح معروفةٌ حقيقته

(1) ابن باز، أصول الإيمان، ص: 58، وسعود الخلف، أصول مسائل العقيدة عند السّلف وعند المُبتدعة: 1/ 59.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 325.

في الشَّرع، وأنّه الجامعُ لأمرَين؛ أحدهما: الإخلاص لله تعالى بالنِّيَّة الصّادقة عند العمل، والآخر: المتابعة لرسول اللّه ﷺ، ويجوز أن تكون (اللّام) للاستغراق العُرفيِّ، وفي هذا ضربٌ من المُبالغة في وصف أهل الإيمان، حتَّى كأنَّهم ما تركوا عمَلًا صالحًا إلّا ولهم فيه نصيبٌ.

ويجوز أيضًا أن تكون (اللّام) للعهد العِلْميّ؛ أيْ: (عملوا الأعمالَ الصّالحةَ المعروفةَ في دين الإسلام)، والأليقُ بنبيِّنا ﷺ إرشادُهم إليه؛ ليُنفقوا ما في وُسعِهم لتحقيق أكبرِ قدرٍ من تلك الأعمال.

دلالة جمع ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

أعمالُ الخير في الإسـلام كثيرةٌ أفرادُها ومُتنوِّعة مجالاتُها

جُمعت لفظة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للإيماء إلى الإتيان بها بأنواعها كاملةً دون الاكتفاء ببعضها، وهذا التّعليلُ يتناسبُ مع كون (اللّام) للاستغراق؛ إذ إنّ أركان الإسلام وأعمال الخير مترابطةٌ آخِذٌ بعضها بحُجَز بعض، وفي كونه جمعَ قلّة إغراءٌ لطيف بالإكثار من تلك الأعمال؛ لأنَّها مميَّزة، ومَن أتاها وعملها تميَّز بها؛ فكان مُميَّزًا.

سِرُّ تقديم شبه الجُملة ﴿لَهُم﴾ وتنكير ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾:

في التَّقديم لفتٌ إلى أنَّ الإحسان إليهم من مقاصد الآية

جيء بشبه الجُملة ﴿لَهُم﴾ مُقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ للاعتناء بالمُقدَّم وهم المؤمنون، والتَّشويقِ إلى المُؤَخَّر وهو المغفرة والرِّزق الكريم، وتحريضِ المؤمنين على التَّنافس لنيل هذه الرُّتبة الجليلة التي فيها فوزهم[1]، كما أنَّ التَّقديم مفيدٌ لاختصاص المغفرة والرِّزق الكريم بهم دون من سواهم؛ إذ بالإيمان غُفر لهم، وبالعمل الصّالح نالوا الرِّزقَ الكريم، وأفاد التّنكير في ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ التّنويع إذ هي مغفرةٌ من نوعٍ خاصٍّ يستر اللّه بها عليهم ويمحو ذنوبهم ويعفو عن كفرهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 523.

توجيه عطف ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ مُنكَّرة:

سبحان مَن امتدّ إحسانُه مِن الإمهال إلى دخول الجنان

المُرادُ بالرِّزق الكريم هُنا الجنَّة كما يُشعر به وقوعُه بعد المَغفرة[1]، فالجنَّة ذاتها رزقٌ كريمٌ، وفيها كلُّ ما تشتهيه الأنفس، وأنهارٌ جاريةٌ من تحت أشجارها، وعسلٌ مُصفًّى، وأنهارٌ من خمر لذَّةٍ للشّاربين وحورٌ عين، وغير ذلك[2]، فدخولُ الجنَّة هو ثمرةُ المغفرة ونتيجتُه، فبَيَّن النَّظم الكريم أنَّ مَن جمع الإيمانَ والعملَ الصّالح فاللّه تعالى يجمع له بَيْنَ المغفرة والرِّزق الكريم[3]، مع ما في ذِكْرِ المغفرة والرِّزق الكريم للمؤمنين من دعوة لزيادة الاجتهاد في العبادة والتَّخلُّص من الذُّنوب، كما أفاد تنكير (الرّزق الكريم) التّنويع للدّلالة على أنَّ هذا الرّزق نوعٌ خاصٌّ لا يُدانيه في الكرامة شيءٌ من النِّعَم.

سِرُّ وصفِ الرِّزق بـ ﴿كَرِيمٌ﴾:

سبحان الخبير بنفوس عباده

وُصِف الرِّزق في قوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ بأنَّه كريم، والكريم من كل نوعٍ ما يجمع فضائله[4]، فهو صِفةٌ لكلّ ما يُرضي في بابه، يُقال: وجهٌ كريمٌ؛ أيْ: مُرْضٍ بِحُسنِه وجماله، وكتابٌ كريم: مُرْضٍ في معانيه وفوائده، ونباتٌ كريم: مُرْضٍ فيما يتعلَّق به من المنافع، قال تعالى: ﴿كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾ [الشعراء: 7] وقِسْ على ذلك الإنسان، والحيوان ... إلخ[5]؛ وكلُّ رزق من اللّه رزقه المتقين فهو كريمٌ، وسَخيٌّ طَيِّبٌ، جزاء ما فعلوا من خير، وكفّوا أنفسهم عن الأهواء والشَّهوات[6]، ووصفُ الرِّزق بالكريم دلالة على اجتماع وفرته وصفائه من المُكدِّرات بلا مِنَّةٍ ولا ذِلَّةٍ؛ كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 164.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 164.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 235.
(4) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 123.
(5) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 5/ 616.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 164.

[فُصّلت: 8][1]، وسمّاه رزقًا كريمًا أيضًا؛ لأنَّ مَن رُزِقَ ذلك وأُعطي يُكْرَم ويعظُمُ قدرُه[2]، ففي هذا الوصف ملاحظة لنفسيّات المُخاطَبينَ من العرب خصوصًا؛ أولئك الذين كانت الجلافةُ والخشونة والغلظة طبعًا عامًّا فيهم؛ لما يعيشون فيه من بيئةٍ صحراويّةٍ مُرعِبة يُهدَّدون فيها ليلَ نهارَ بالرَّحيل والتّنقُّل والاضطراب؛ مما يُقلقهم ويُؤرِّقُهم.

توجيه المُتَشابه بين هذه الآية والآية السّادسة والخمسين من هذه السّورة:

في الآية الثّانية بيانٌ وتفصيلٌ لمضمون البشارة الأولى

في الآيتَيْن مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هُنا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وقال بعده بآياتٍ: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ [الحجّ: 56]؛ فاختلف الجزاء مع اتّفاق وصفهم بالإيمان وعمل الصّالحات؛ فوقع الجزاء في الأوَّل بـ: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، وفي الثّاني: بـ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ [الحجّ: 56]؛ ووجه ذلك: أنَّ الآية الأولى إخبارٌ لهم عند دعائهم قبل أن يُؤمنوا، ولمّا ذَكَرَ في الآية الأولى حالهم في الدّار الأخرى بعد انصرام الدُّنيا، وحصول اتّصافهم بالإيمان وأعمال الطّاعات، أخبروا فيها بالحاصل من المغفرة والرِّزق الكريم، وأنَّه نعيم الجنَّة والخلودُ الأبديُّ فيها؛ فالآية الأولى تضمَّنت وعدَهم بذلك، عند دعائهم إلى الإيمان، ثُمَّ أُخبروا ثانيًا بالحاصل لهم بعد استقرار الإيمان في نفوسهم وقيامهم بالعمل الصالح؛ بيانًا لمضمون البشارة الأولى، وإخبارًا لهم بغاية الجزاء؛ فالآية الثّانية بيانٌ وتفصيلٌ لما أُجمل في الأولى مُرَتَّبٌ عليه، وآتٍ بعده بما يجب فيما يأتي فيه الإجمال والتَّفصيل، فكأنَّهم قالوا: ما الرِّزق الكريم؟ فقيل لهم: جنّاتُ النَّعيم؛ فورد كُلٌّ من الآيتَيْن على ما يُناسبُ ويلائمُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 294.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 7/ 430.
(3) الغرناطيّ، مِلاك التأويل: 2/ 361، 362.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المغفرة والرَّحمة والعفو:

في المغفرة سَتْرٌ، وفي الرَّحمة عَطْفٌ، وفي العفو مَحْوٌ

أصلُ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[1]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[2]، ومال ابنُ عرفة إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ توجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[3]، والمغفرة والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ لِلْعِصْمة مِنْها فيما يُستقبَلُ[4]، وفي المغفرة زَوالُ المكروه من آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[5]؛ فالمغفرة تخليةٌ والرَّحمةَ تحليةٌ.

وأصلَ العَفْوِ: المَحْوُ وتركُ الشَّيْءِ[6]، والغالب استعمالُ العفوِ في تركِ الواجباتِ، واستعمالُ المغفرةِ في فعل المحرَّماتِ[7]، وقد وقع خلافٌ في تعيينِ الأبلَغِ من (المغفرة) و(العفو) علَى قولَيْنِ؛ أحدُهما أنَّ العفوَ أبلغُ من المغفرة؛ لأنَّ المغفرة تُنْبِئُ عن السَّتْرِ بخلاف العفو فإنَّه مُشعِرٌ بالمَحْوِ، والمحوُ أبلغُ من السَّتْرِ[8]، والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ من العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ مُتضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِه وإقبالَ الغافِرِ عليهِ ورضاهُ عنه، بخلاف العفوِ فإنَّهُ مُتضمِّنٌ لإسقاطِ صاحبِ الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِه، فقد يَعْفو ولا يُقْبِلُ على مَن عفا عَنْهُ ولا يرضَى عَنْهُ، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[9]، والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَويُّ يدلُّ عليهِ.

والذي نميلُ إليه أنَّ المغفرة أبلغ من العفو؛ لأنَّ مَن غفر انتهاكًا بحقِّه عفا عن ترك حقٍّ وواجبٍ له على غيرِه من باب الأولى.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 435، 2/ 258.
(4) ابن عُثيْمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.
(5) ابن عُثيْمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/ 66.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(7) ابن عُثيْمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/ 341.
(8) الصَّفُّوري، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/ 88.
(9) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/ 140.

المحتويات